احتساب

شيخ الإسلام ابن تيمية

على الكهانة والكهان
ومن يتعاملون مع الجن والشيطان

بحث جامع لاحتساب

شيخ الإسلام ابن تيمية

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي رحمه الله

على الكهانة والكهان وكل متعامل مع الشيطان والرد عليهم،
وكشف أباطيلهم، وذكر عبادات وأسباب شرعية تغني عن الكهانة
مع عرض مفصل لتاريخ الكهانة وصورها القديمة والحديثة
وفي البحث خبرات عملية احتسابية وصور موثقة

إعداد

أبي فاطمة عادل بن طاهر المقبل   الدكتور محمد نور الدين

احتساب شيخ الإسلام ابن تيمية

على الكهانة والكهّان ومن يتعاملون مع الجن والشيطان

بحث جامع لاحتساب شيخ الإسلام على الكهانة والكهّان وكل متعامل مع الشيطان،

والرد عليهم وكشف أباطيلهم، وذكر عبادات وأسباب شرعية تغني عن الكهانة

مع عرض مفصل لتاريخ الكهانة وصورها القديمة والحديثة

وفي البحث خبرات عملية احتسابية وصور موثقة

إعداد

أبو فاطمة عادل بن طاهر المقبل **الدكتور محمد نور الدين أحمد**

مقدمة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه، ونستعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ به مِن شُرُورِ أنفُسِنَا، وَمِنْ سيئاتِ أعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ فَلا هَادِي لَهُ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُه ورَسُولُه.

اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى ذريته وآل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد

فلقد خلق الله الإنسان وأمره تعالى بعبادته، وبيّن له هذه العبادة بيانا شافيا، والمطلوب أن يقبل العبد على عبادة ربه ومولاه، وقد ضمن له سعادته في الدارين، فضمن له في الدنيا سعة الرزق والبركة فيه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] وأعلمه تعالى أنه عند ظنه به سبحانه فليوقن بأن غده آمن في يد مولاه تعالى، بل لقد أعلمه النبي ﷺ بأنّ كل ما يصيبه من مكاره فهو خير له، فعلام يغتم وعلام يعيش مهموما من غد، وهو بيد ربه الكريم الملك الرؤف الرحيم، يعبده كما أمر وينتظر الخير منه كما وعد، وقد أعلمه ربه أنّ علم الغيب عنده وحده، فكفّ نفسه عن منازعة مولاه في ذلك، واستعد لكل نازلة بزاد من الإيمان والتقوى وكنوز من دعوات الرب الجليل سبحانه، ثم هو بعد لا يسعى إلى ما سعى إليه الناس من استكشاف غيوب قد حجبها الله عن عباده ، وعلم أنّ هؤلاء إما أن يكونوا أهل بهتان وكذب وتزوير قد استغلوا رغبة الناس في ذلك فكذبوا وخمنوا لهم، وإما أن يكون لهم رئي من الجن وقرناء وأعوان من الشياطين يخبرونهم بأخبار بعضها صدق وأكثرها أكاذيب شيطانية وأضاليل، وشكر المؤمن نعمة العقل: فلم يتعلق بودعة من هوانها ألقاها الكبير والصغير، ووُطئت بالأقدام لم تجد نفعاً إلا لعبث الأطفال المتنزهين على شواطئ البحار، كما أنه شكر نعمة العقل والإيمان وهو يرى تعلق الناس بنوى النخل وأوراق اللعب، أو ما ران في كوب القهوة وظنوا أنها تخبرهم عما هم لاقوه في غد، كما أنه يرد الأمر كله لله الكريم إذ يرى الناس تتعلق بالطيور فتتيامن بها أو تتشاءم، فإذا سمع غرابا ينعق أو بومة تصرخ أو كلبا يعوي ردد مع النبي ﷺ {اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك}[2] فاطمأن لذلك قلبه، وعلم أنه لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يصرف الشر إلا هو سبحانه، ولا حول ولا قوة إلا به.

---

(١) الأعراف: الآية ٩٦.
(٢) السلسلة الصحيحة: للألباني حديث١٠٦٥.

لقد عبث الشيطان منذ القدم بعقول وقلوب كثير من الناس، وألقى في روعهم أنّ أعوانه من الكهان قادرون على قراءة صحف غيبهم وما حجبه الله عنهم وعن العالمين، فغدو منذ أقدم عصور التاريخ مع كل نحلة إلى الكهان وولعوا بأمر الكهانة، وسلّموا زمام عقولهم وقلوبهم إلى أعوان الشياطين، يزرعون في قلوبهم الرغبة والرهبة فيما عندهم، ويتلقون أخبارهم تلقي الوحي المعصوم، فتعلق الناس بالكهانة وانتشر ضررها وعمّ شررها واستطار، حتى تعلق بها كثير من الناس إلا من رحم الله.

وفي زماننا هذا جهل كثير الناس توحيد ربهم الخالص ، وعزفوا عن تدبر كلامه وفيه الهدى والنور، وتسلل إليهم من يزين أمر الكهانة ويعرضها في صورة جديدة، قد لبس الشيطان لها لبوسها، وألبس أتباعه من حلله ما بهر عقول من لم يستضئ بنور التوحيد، ولا نعم بروح السنة واتباع المصطفى ﷺ وأعرض عن كتاب الله قراءة وتدبرا وعملا، فغدت قنوات تزين الكهانة وتلبسها لباسا برّاقا، وتضفي على الكهان أسماء وأوصافا خادعة وتعرضهم في صورة عصرية، فلم يغدو الكاهن ذلك القابع في زاوية وحوله البخور ولباسه المرقع والمزركش فقط، ولا هو من يقدم لقاصده فنجانا، ولا من ينظر في يد أو غيرها مما سيأتي من صنوف الكهانة، كلا كلا لقد عرضت القنوات الكاهن في حلة أنيقة في بزة (بدلة) عصرية، والمرأة في ثوبها وزينتها وفتنتها، ومن حول الكاهن ديكورات مبهرجة وخلفية حديثهم موسيقي تناسب المقام، وخنوع وخضوع من المذيع أو المذيعة، ورسم علامات الاندهاش والتعجب مع كل لفظة ينطق بها الكاهن.

الحمد لله على نعمة التوحيد والسنّة، لقد كشف للمسلم الموحد زيف هذا كله، ولم يدخل عليه ما دخل على الناس من ذلك، إذ أنه يستضيء بنور القرآن والسنّة، ويعرض عن كل بدعة وضلالة، يسير خلف القدوة والأسوة ﷺ فلا يقف أمام كاهن أبدا لا مصدقا ولا مكذبا مستكشفا.

إنّ الكهانة شر محض في الدنيا والآخرة، وآثارها ماحقة للدين وحالقة له ومفسدة للدنيا، وما أدق وصف الحبيب المصطفى لها بقوله: {العرافة أولها ملامة وأوسطها ندامة، وآخرها عذاب يوم القيامة}(١)

لقد حرّم الله تعالى الكهانة، وحذّر منها رسول الله ﷺ ولكن مجموعة من أهل البدع الذين يدعون محبة الله ومحبة النبي ﷺ مارسوا الكهانة وادعوا الاطلاع على المغيبات، فقل شيخ من شيوخ الصوفية وغيرهم من الفرق إلا وتعاطى الكهانة، وتوسعوا ما استطاعوا من أجل ذلك في مصطلح الكشف الذي أكثره كهانة شيطانية، كما ارتبطت الكهانة بالرافضة وفرق الشيعة الباطنية، وتعاطاها اليهود والنصارى والملل الباطلة والنحل الفاسدة، حتى الملاحدة تجد عندهم صنوفا من الكهانة، وكذلك العلمانيين والحداثيين والتنويرين لا يجدون في أنواع من الكهانة بأسا.

(١) أخرجه البيهقي، جـ١٠/ ص٩٧ من حديث أبى هريرة، وقال الألباني في صحيح الجامع: حسن.

ولقد خدم الشيطان كل هؤلاء في باب الكهانة، حين أشركوه بالله عز وجل وأقول: إنّ الخاط على الرمل، والضارب بالودع، وقارئ الفنجان الذين يتعاملون مع الشياطين، لا يتم لهم ما يفعلون، ولا تنشأ هذه العلاقة بينهم وبين الشياطين إلا بقرابين يقربها الكاهن من هؤلاء إلى الشياطين، وتلك القرابين عبادة لهؤلاء الشياطين.

ولقد وقفت على حال وحقيقة هؤلاء، وقفت على رجل كان يأخذ لوحاً ويخط على الرمل، وقبل الخط يقوم بالتقرب لأصنام وضعها أمامه، فهذه حقيقة أمر هؤلاء، ليسوا فلكيين أخذوا علمهم من قواعد الأفلاك وسيرها المقدر وقواعدها العلمية المعلومة، ولا هم أصحاب الهامات ملكية ربانية، كما أنهم ليسوا بأصحاب كرامات وبركات إلهية توهب للصالحين من عباد الله، بل هم أقوام لا خلاق لهم يستمتعون بالجن ويستمتع الجن بهم، وهم ممن ذكر أحوالهم ربنا وأنهم يقولون يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾(١)

ونقول لمن يخدعه هؤلاء، كما نقول للدنيا جميعاً، إنّ الأمر جد خطير، إنّ هؤلاء يدمّرون عقائد الموحدين، ويعاونون الشيطان على إخراج العباد من نور التوحيد الحق إلى التعلق بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، بل يتعلّقون بشرار خلق الله ويتولّون الشيطان الرجيم، ويتخذون أولياءه من الكهّان أولياء من دون الله.

وتتجلى خطورة ما يصنع هؤلاء وتبرز حين يأمر الكاهن الطالب أن يهمس للودع (يوشوش الودع كما يقولون) ويبوح له بسره وما يريد أن يعرفه من مستقبله أو مستقبل من يريد معرفة مستقبله. ما الذي يقوم بقلب هذا الطالب ساعتئذ وهو يهمس لهذه الأنصاب؟ إنه ليعتقد بقلبه وكله يقين أنّ هذه الإناث والجمادات تسمع نجواه، وتعلم ما يعتلج بصدره وتعرف ما أهمه وشغله، وأنها عالمة بالسر وأخفى، وأنّ عندها علم ما في غد، وعندها دلالة الطالب على الرشاد، وأنها تدله على الصواب.

هذا ما يعتقده الكاهن أنّ شيطانه الذي يضلّ الناس بهذه الودعات قادر على كل هذا، والطالب يعتقد أنّ الودعة والفنجان ونوى التمر... إلى آخر ما يعلق به الكهّان الخلق –قادر على كل هذا. وتكمن الخطورة في تعليق قلوب العباد بغير رب الناس ملك الناس إله الناس، وطلب الخيرة والرشاد من غير الذي يقدر ولا نقدر ويعلم ولا نعلم، وهو علام الغيوب.

وهل هذا إلا نسف لعقيدة المسلم، وغمس له في الشرك، وعود به إلى الجاهلية الأولى والوثنية الغابرة. إنّ الأمر جد لا هزل فيه، والله حسبنا ونعم الوكيل أن يثبت قلوبنا على دينه، ونسأله إلا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا.

---

(١) الأنعام: من الآية ١٢٨.

إنّ الإسلام هو دين التوحيد، والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

اختار الله لهذا الدين الخاتم الذى بعث به خاتم رسله اسم الإسلام، واختار لأتباعه اسم المسلمين. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(١) وقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(٢) ومع أنّ الإسلام هو دين الأنبياء العام، كما جاء في قول أول الرسل نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣) وكما جاء في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(٤) وكذا ورد اسم الإسلام في قول موسى وغيره عليهم جميعا الصلاة والسلام، فإن الإسلام هو الاسم الخاص لدين النبي محمد ﷺ وشرعته.

لقد كان الإسلام تجديداً لدعوة التوحيد الذي جاء به الأنبياء من قبل، ولقد فصّل الإسلام أمور التوحيد وسننه وواجباته، كما حذّر من مبطلاته ومنقصاته، فكان جديراً بهذا الاسم علما له.

جاء النبي ﷺ بهذا الدين العظيم دين التوحيد الخالص، والشرك يضرب بسهامه كلها في جوانب المعمورة، والجاهلية تجثم على صدر الأرض، بيّن ذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي وفيه: {وإنّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب}(٥)

جاء الإسلام ليعيد الناس إلى رياض التوحيد، بعدما صار الأحبار والرهبان أنفسهم وقد استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء -دعاة إلى الشرك والوثنية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٦) بل قد صار الأحبار والرهبان أنفسهم شركاء مع الله عز وجل قال تعالى: ﴿اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أرْبابًا من دُونِ اللَّهِ﴾(٧)

ولقد زيّن الشيطان الشرك للناس وزخرفه لهم وبهرجه حتى أظهره في صورة العبادة لله والتقرب إليه، وأظهر للناس سدنته في صورة أحباب الله وأوليائه.

جاء النبي ﷺ داعياً إلى توحيد الله خالصاً نقياً وجاء لينهى عن الشرك ويحطمه تحطيماً، عبّر عن ذلك واضحاً يوم دخل الكعبة والأصنام حولها وهو يطعن بها ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٨) لقد أرسى دعائم التوحيد ظاهراً وباطناً علماً وعملاً، وجاء محطماً للشرك ظاهراً وباطناً علماً وعملاً، ولم يقبضه الله إليه حتى أقام به الملة العوجاء، فقالوا: لا إله إلا الله، وعُرفت هذه

(١) آل عمران: من الآية ١٩.
(٢) الحج: من الآية ٧٨.
(٣) يونس: من الآية ٧٢.
(٤) آل عمران: من الآية ٦٧.
(٥) صحيح مسلم: حديث رقم ٢٨٦٥
(٦) التوبة: من الآية ٣٤.
(٧) التوبة: من الآية ٣١.
(٨) الإسراء: الآية ٨١.

الكلمة العظيمة وبيّنت للناس: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[١] ولا يهلك بعد هذا البيان على الله إلا هالك قد اشترى الضلالة بالهدى.

جاء الحبيب ﷺ بتوحيد الله في ربوبيته وأفعاله، فقرّر أنه وحده تعالى هو الخالق الرازق المدبر، وفصل الإسلام كتاباً وسنة ذلك، وكم من آية في كتاب الله ترسخ في القلوب هذا التوحيد وتؤكده، مع أنه- بحمد الله- فطرة في القلوب فتطمئن النفس بهذا التوحيد وتعلم أنّ الذي خلقها تكفل برزقها، وأنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، فيطمئن قلب الموحد لذلك ويعلم أنّ الذي يرزق الطير إذ تغدو من وكناتها سيرزقه فكيف يقصد سواه أو يطلب رزقه الذي على الله ممن هو دونه، وكم من آية في كتاب الله وحديث من أحاديث المصطفى مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ توضح للمسلم أّن الله يدبّر الأمر كله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[٢] إنه تعالى يدبر أمر السموات والأرض وما فيها، وما يبلغ أمر الإنسان وهمومه مهما عظمت في جنب ما في السماوات وما في الأرض.

جاء النبي ﷺ داعياً إلى توحيد الله في ألوهيته وعبادته، وجلّى هذا النوع ووضحه أيما توضيح، وبيّن ما ينقضه أو ينقصه، وبيّن وحذّر من الشرك في العبادة قل هذا الشرك أو كثر، كبر أم صغر، بل وحمى هذا التوحيد فنهى عن كل شيء يمكن أن يكون ذريعة إلي نقضه أو نقصه، وجاء مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٣] مبيّناً عموم النهي عن الشرك في العبادة، وشرح النبي ﷺ ذلك في أحاديثه شرحاً وافياً، فبيّن فرائض ذلك التوحيد ومعالمه ، وبيّن ما يهدمه أو يكون ذريعة إلى ذلك الهدم فنهى عن رفع العبادة لغير الله، فلا سجود إلا لله ولا دعاء إلا لله ولا سؤال إلا منه، ولا ذكر إلا له تعالى، كما حذّر من الشرك وبيّن أن من جاء ربه مشركاً لم يقبل منه صرفاً ولا عدلا ، كما حذّر من الشرك الأصغر، والشرك الأصغر أكبر من أي معصية غير الشرك، فلقد حذّر النبي ﷺ من الرياء أو العجب، أو التسميع، قال ﷺ: {من يسمع يسمع الله به}[٤] وبيّن ﷺ عاقبة أهل الرياء فقال: {إن أول من تسعر بهم النار ثلاثة}[٥] كما حرّم ﷺ الحلف بغير الله فقال: {من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك}[٦] حتى وإن كان بنفسه الشريفة ﷺ أو كان بالكعبة بيت الله، ودعا من يحبه ويحب ربه أن يقول: ورب مُحَمَّد، صلوات الله وسلامه عليه، وأمر من يحب الكعبة ويعظمها، ويحب ربها أن يقول: ورب الكعبة.[٧] وقد جمع أئمة الإسلام هذا النوع واشبعوه بحثاً، وأشهر المتأخرين الإمام المجدد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب وكتابه (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) وافٍ بالمقصود في ذلك.

---

(١) الأنفال: من الآية ٤٢.
(٢) يونس: من الآية ٣١.
(٣) النساء: من الآية ٣٦.
(٤) صحيح مسلم: حديث رقم ٢٩٨٧.
(٥) صحيح الترمذي: حديث رقم ٢٣٨٢.
(٦) رواه أبو داود: حديث رقم ٣٢٥١. وصححه الألباني في إرواء الغليل، رقم ٢٥٦١.
(٧) صحيح النسائي: حديث رقم ٣٧٨٢.

كما جاء الإسلام بالتوحيد في أسماء الله وصفاته، فبيّن الشرع كتاباً وسنّة ذلك، فلله جلّ جلاله الأسماء الحسنى، وبيّن أهل العلم ما يعنيه ذلك التوحيد، فإنه يشتمل على:

١. الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه، وما أخبر به النبي ﷺ في مقبول حديثه.
٢. الإيمان بأنّ الله ليس كمثله شيء، وأنّ المؤمن يؤمن إيماناً مبرأ من التشبيه والتمثيل والتكييف والتعطيل.
٣. الإيمان بأنّ أسماء الله وصفاته من باب واحد، فمخطئ من يقبل بعضها ويرفض بعضها.[١]

فيؤمن المؤمن باسمه تعالى (الله) وأنه المعبود الحق سبحانه، وأنه السميع الذي أحاط سمعه بكل شيء، البصير الذي يرى كل شيء، العليم الذي يعلم كل شيء، الذي قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٢] وهكذا في كل اسم من أسمائه وصفة من صفاته يؤمن المؤمن بها، يؤمن أنّ الله متفرد فيها تعالى لا يشركه أحد ولا يشبهه أحد، وقد بيّن الكتاب والسنّة ذلك فبينا أنّ الله له الأسماء الحسنى، وحذّر الله من الإلحاد في أسمائه وصفاته وأن تُخلع أسماؤه وصفاته على غيره سبحانه، وبيّن ربنا بأن من يُدعى من دون الله خلي عن هذه الأسماء الحسنى وهذه الصفات العلى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾[٣] وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾[٤] وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾[٥] وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[٦]

لقد جاء النبي ﷺ بهذا التوحيد النقي الخالص، فجد في نشره منذ أن قال له ربه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٧] وقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[٨] حتى وفاته عليه الصلاة والسلام. إذ سمع قبل وفاته بقليل يقول: {لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد (يحذر ما صنعوا)}[٩] بل قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خشي أن يتخذ عيداً.[١٠] فصلوات الله وسلامه عليه وطاب حياً وطاب ميتاً.[١١]

---

(١) راجع المزيد في الرسالة الأكملية التسعينية، الرسالة المدنية، الصواعق المرسلة. القواعد المثلى وشرحها.
(٢) الأنعام: الآية ٥٩.
(٣) فاطر: من الآية ١٤.
(٤) مريم: من الآية ٤٢.
(٥) مريم: من الآية ٤٢.
(٦) الأحقاف: الآية ٥.
(٧) العلق: الآية ١.
(٨) المدثر: الآية ١.
(٩) صحيح البخاري حديث ٤١٧.
(١٠) صحيح مسلم: حديث ٥٢٩.
(١١) ينظر: كتاب تحذير الساجد للألباني.

ومع هذا كله دبّ في أمته ﷺ داء الأمم من قبل، من ترك جماعات من أمته ما جاء به شيئاً فشيئاً: وصدق في هؤلاء قوله ﷺ {لتتبعن سنن من كان قبلكم}[1] حتى دخلوا أبواب المعاصي، والبدع والشرك -عياذا بالله- التي سنتها الأمم الكافرة في القرون الأولى.

وإنّ أخطر صور الشرك التي لا يتنبه لها الكثير، الولوج إلى أبوابه ودركاته عبر السحر والتنجيم والكهانة والتعامل مع الشياطين، وهو الباب الذي أكرمنا الله وشرفنا بالاحتساب فيه تنبيهاً للأمة وتحذيراً للمسلمين من هذه الأبواب الشركية.

ولقد وضحنا — بفضل الله ومنته — في كتاب (احتساب شيخ الإسلام على السحر) وفي كتاب (احتساب الأنبياء) مناقضة السحر للتوحيد في أقسامه الثلاثة: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات. ونبيّن في هذا الكتاب مناقضة الكهانة لتوحيد الله وتقويضها له.

إنّ الكهانة أظهر في مناقضة توحيد الله في بابي توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة، فالله ربنا هو العليم الخبير تعالى، وهو القدير سبحانه، وقد تفرّد ربنا تعالى بعلم الغيب فلم يطلع عليه أحداً، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3] فعلم الغيب حق خالص للعليم الخبير القدير سبحانه، والكهانة منازعة لله تعالى في هذا الحق، ولئن كان السحر خطراً كبيراً على عقائد الناس وعلى حياتهم الآمنة، وفيه كل موبقة وفاحشة وبلية، فإن خطر الكهانة يزيد عليه، وذلك من ناحية انتشار الكهانة في الناس إذ هي شر قد استطار، فقل من لم يصبه شيء من شررها، وما نجا من خطرها إلا الموفقون الموحدون المتبعون للنبي مُحَمَّد ﷺ فقل واحد إلا ونظر في صحيفة ليرى حظه ولو لمرة واحدة في حياته، أو سأل صاحبه عن برجه أو انشغل بذلك، أو حاول استكناه الغيب بصورة ما وبطريقة كهانية ما، إما بودع وإما بنوى نخيل أو بما هو منتشر في مجتمعه ومعتاد لديه، أو يكون قد غدا إلى شيخه يلتمس منه الكشف عن مستقبل أيامه.

ثم يبدو خطر الكهانة في أيامنا الحاضرة في تبني قنوات علمانية وليبرالية، وتبني إعلاميين مشاهير أمر الكهانة وتزيين ذلك للناس، وإضفاء الأوصاف البراقة والأسماء الخلابة على الكهّان، فهذه عالمة فلكية، وهذا سيد الأبراج، وهذا خبير التوقعات، وتظهر هذه القنوات هؤلاء الكهّان في صورة الناصح الأمين والمحذر من أخطار المستقبل حتى يستعد الناس؛ لكيلا يمسهم السوء ولكى يستكثروا من الخير، هذه القنوات وهؤلاء الإعلاميون الذين لا يكفّون عن مهاجمة أعلام نبوته ﷺ وما أخبر به مما اطلعه الله عليه ويمارون في ذلك، يبدون أمام الشاشات خاضعين للكهّان قد بهرتهم توقعاتهم، ويقبلون ما يقول الكاهن

(١) صحيح البخاري: حديث رقم ٣٤٥٦.
(٢) النمل: الآية ٥٦.
(٣) الجن: الآية ٢٦.

مطأطئ الرأس مسلماً للكهان زمام قلبه، ويلمعونهم في صدقهم وكذبهم، فتجده يعقد مقارنة بين العام الماضي والحاضر مفسداً عقائد الأمة في تلك القنوات التي أخذت على عاتقها إفساد أخلاق الناس وعقائدهم. ومع الأسف قلّ المتحدثون عن التوحيد والمنكرون لهذا الشرك والمحذرون من تلك البدع، بل تجد -مع الأسف- من ينتسب إلى العلم والدعوة إلى الخير في خطبه ومحاضراته انشغل بما يسمى مع الأسف سياسة الوقت والزمان وفقه الواقع، ونسي أعظم أمر خلق الناس من أجله وهو التوحيد الذي يصلح به حال الناس في دنياهم، أولم يقرءوا قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١) فبالتوحيد ينقشع العذاب والخزي والهوان الذي أصاب أمة الإسلام، وبه يحصل الأمن والاستقرار قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢)

من هنا يبدو خطر الكهانة؛ فتلك القنوات لا تجرؤ على الإتيان بساحر يتلو طلاسمه وعزائمه ويقدم للناس سحره، ويعطف أمام الشاشات أو يصرف، فقلوب الناس مفطورة على بغض الساحر واعتقاد أنه شرير ينشر الشر وإن لبس على الناس في بعض الحالات، لكن أمر الكهانة يختلف فهو إخبار بغيوب وأسرار، ولطالما ولع الناس بهذا، إنهم يأملون في كشف ستار الغيب وإيضاح غموض مستقبلهم، ومع أنّ هناك سبلاً شرعية شرعها الإسلام لاطمئنان المرء إلى مستقبله -أفاض في بيانها شيخ الإسلام كما سيأتي- إلا أنّ الناس -إلا ما رحم ربي- تسلك طريق الشياطين وأتباعهم.

إنّ خطر الكهانة يكمن في زعزعة الإيمان في القلوب وفي تقويض الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى في النفوس، فها هو الكاهن يعلم الغيب ويخبر به، وقد انقاد له حتى من يجادل في آيات الله، وأحاديث نبيه ﷺ.

وفي الكهانة تقويض وهدم لتوحيد العبادة، وذلك بتقديم قرابين يتقرّب بها الكاهن والطالب، فيبذل المال ليكشف له عن حاله، فكان كمن يقدم بين يديه صدقة من الموحدين في دعائه ربه الواحد الأحد.

وفيها تقويض لرجاء المسلم في ربه وحده وقصده دونما سواه سبحانه وتعالى، كما أن في الكهانة شرك السر خوفاً ورجاء؛ فهو يسر إلى الودعة أو غيرها بسره الدفين، ويطلب منها خاضعاً ذليلاً كشف ما يخيفه من المستقبل ليؤمن ذلك المستقبل، وانظر ما يقوم بقلب ذلك المسر للودعات بمخاوفه من الرغبة والرهبة، وانظر إلى تعلقه بما يلفظ الكاهن وتلقفه منه، وقبوله به وعدم مراجعته القول لكأنما كلامه وحي يُوحى.

(١) يونس: الآية ٩٨.
(٢) الأنعام: الآية ٨٢.

هذا أيها الموحد الموفق خطر الكهانة، ومن هنا فلا يصلح من الكهانة جد ولا هزل، وقد نهى النبي ﷺ عن الذهاب إلى الكهّان في كل حال فقال ﷺ: {من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فقد كفر}(١) وقال: {من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة}(٢)

فمن كان مصدقاً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إذ بطل إيمانه بتفرد الملك الجليل بعلم الغيب، ومن قصد الكاهن أو جلس أمام تلفاز أو هاتف غير مصدق، بل كان لاهياً أو هازلاً لم تقبل له صلاة أربعين يوماً؛ إذ جلس وهو غير مصدق إلى من يعبث بدين الله تعالى، ويكذب على الله وعلى نفسه وعلى الناس، ويقول الباطل والكفر، وأنّ ما يخبر به لا يمكن أن يتخلف أبداً، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾(٤) ثم إنّ الموحد لا يتتبع أهل الباطل متسمعاً لحديثهم واقفاً مع شبهاتهم، فإنّ الشبهة خطافة والقلوب ضعيفة، والشيطان مترصد لابن آدم قد قعد له بأطرقه كلها يريد إيقاعه في الشرك. فلا يليق به وهو غير عالم يريد الرد والتفنيد أن يبقى أمام هؤلاء، على أنّ العالم المفند إنما يبقى بقدر معلوم، ثم يولّي وجهه شطر الكتاب والسنّة ليهدم ما يشيده هؤلاء الكهان.

ولما كانت الكهانة بهذا الخطر وأكثر منه وأعظم، فقد احتسب شيخ الاسلام عليها وعلى أهلها والطالبين لها، وشيخ الإسلام رجل آتاه الله العلم والحكمة والبركة في الوقت والبركة في العلم، آتاه قوة حجة وطلاوة حديث استمدها من كلام الله وكلام نبيه ﷺ رجل أعمل قلبه وعقله وفكره في تدبر كلام الله وكلام رسوله ﷺ وسعى جاهداً إلى العمل بالكتاب والسنة، ففتح الله عليه معانٍ استغلقت على كثير من الناس، ونطق بكلام حكيم من مشكاة النبوة خرج.

وهذا البحث الجديد الفريد فيما يخص شيخ الإسلام يسد فراغاً في الساحة العلمية، ويلقى الضوء على جانب من جوانب جهاد واحتساب شيخ الإسلام في مقاومته للشرك المتمثل في الكهانة، والاستعانة بالشياطين، وهو جانب لم يحظ بالدراسة التفصيلية التي يستحقها على حد علمنا، فندعو الله ونرجوه أن يوفقنا في إبراز هذا الجانب، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وإننا إذ نكتب هذا الكتاب (احتساب شيخ الاسلام على الكهانة والكهّان وأعوان الشيطان) نشير إلى جهاد شيخ الإسلام في هذا الميدان، كما نشير إلى خسران أهل الكهانة وضلال سعيهم في الدنيا

---

(١) صحيح أبي داود: حديث رقم ٣٩٠٤.
(٢) صحيح مسلم: حديث رقم ٢٢٣٠.
(٣) النساء: الآية ١٤٠.
(٤) الأنعام: الآية ٦٨.

والآخرة، وخسران نصيبهم الحسن فيها كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُون﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[2] ومعلوم أنّ كل ساحر لابد أن يتكهن، فالساحر ساحر وكاهن ولابد، وقد ذكرنا في هذا الكتاب احتساب شيخ الاسلام على هؤلاء، ما جاء من كلامه وعمله صريحاً، وما كان يخدم موضوع الاحتساب على الكهّان وإن لم يكن بطريقة مباشرة، وهو مهم في باب الاحتساب، فقد رأينا مثلاً أنه مما يدخل في الاحتساب على الكهانة حديث شيخ الإسلام عن القدر، وعن الرزق ، وكذلك ستمر بك أيها القارئ أمور ذكرها شيخ الاسلام مختصرة، أو أشار إليها إشارة يسيرة رأينا من المهم في زماننا بسطها وإشباع القول فيها، فبسطنا ذلك وكان كلامنا هذا حاشية على كلام شيخ الاسلام وشرحاً له، وذلك مثل حديثه عن الفلاسفة وإشاراته وذكره بأن علومهم كانت الأساس الذى بنى عليه ابن عربي كلامه، وتسوية الفلاسفة الوحي الذي يتلقاه النبي بإلهامات غيره، والذي فتح الباب أمام الكهّان، بسطنا الكلام كما عدنا إلى تاريخ الفلاسفة لنكتشف استخدام أساطينهم للكهانة، ولنبين انتشار الكهانة لدى فلاسفة اليونان، وكذلك إشارة شيخ الإسلام إلى أنواع الكهانة، جعلنا نستقصى ما نقدر عليه من صور الكهانة وكتبها، كما ذكرنا تاريخ الكهانة ووجودها عبر القرون وفى الأمم، وقد نقلنا في هذا كما هو غير خافٍ عن أقوام لا خلاق لهم، وإننا نرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه تعالى، وأن يكون صواباً وأن يجنبنا فيه الخطأ والزلل، وإننا لنرجو الله أن يكون هذا الكتاب مرجعاً لكل محتسب على الكهانة، فيه ما يحتاجه وما يغنيه عن النظر في غيره بإذن الله، وفى هذا الكتاب عرض مع ذلك لعقيدة أهل السنة والجماعة عقيدة السلف الصالح، وإننا لنرحب بعد بملاحظة أي مسلم رأى خللاً أو عيباً ورام نصيحتنا، راجين الله له الأجر، وعازمين على إصلاح ما وجد.

سبب الدراسة:

إنّ الذي حدانا إلي إفراد احتساب شيخ الإسلام على الكهانة والكهان وعلى أعوان الشياطين، أننا رأينا في مجال بحثنا واحتسابنا شيخ الاسلام عالماً مدققاً، وقد جمع في هذه الأبواب بين العلم والعمل، وأنزل العلم علي أرض الاحتساب، فكان عالما بدقائق مسائل السحر والتنجيم والكهانة وعبادة الكواكب، كما كان مناظرا لهؤلاء، ولقد احتسب عملياً متترساً بولاة الأمور وسلطانهم، ومتسلحين هم بعلمه وشجاعته وعزمه وقوة بأسه، علي أولئك الأشرار الذين تعدّى سلطانهم وتأثيرهم العامة إلي الخاصة من ولاة أمور وقادة جند وأمراء، فكان مع ولاة الأمور وبين أيديهم يحتسب عملياً، فيقيمون الحدود معا،

(١) البقرة: الآية ١٠٣.
(٢) طه: الآية ٦٩.

ويعدمون الكتب بأمره ونصيحته، ويهدّد بسيف السلطان وسوطه الكهّان والسحرة، وعبدة الشياطين والكواكب.

لقد كان شيخ الإسلام عالماً عاملاً محتسباً على معرفة تامة بدينه، وعلى دراية كبيرة بطرق الضلال.

لقد كان شيخ الاسلام مدرسة فريدة في الاحتساب على السحر والكهانة والتنجيم، وتبعه على منهجه تلميذه ورفيقه ابن القيم، وغيره من تلامذته كالذهبي وابن مفلح وغيرهم حتى وصل الأمر إلى الشيخ مُحَّد بن عبد الوهاب الذي جدّد دعوة التوحيد، متسلحاً بكتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وكتب غيرهما من أهل العلم، وسارت الدولة السعودية من بعده على ذلك الصراط اللاحب والطريق القويم.

ولقد كان ابن تيمية على منهج مشرق واضح، هو منهج الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فنراه مقتديا بالنبي المصطفي الهادي مُحَّد ﷺ في احتسابه على السحرة والمنجمين والكهان والشياطين، مستنّاً به ﷺ في مقاومته لهم، متسلحاً بالأذكار النبوية، مستخرجاً من السنّة المشرفة والسيرة النبوية طرق مجاهدتهم ومعاملتهم.

كما نراه مقتدياً بإبراهيم –عليه السلام– مواجهاً الجموع الكثيرة واثقاً في الله سبحانه وتعالى، ولقد عزم ليلة مناظرة الرفاعية البطائحية السحرة الكهّان المشعوذين أن يدخل النار موقناً بالنجاة والسلامة، مستحضراً أنّ النار التي جعلها الله برداً وسلاماً علي إبراهيم سيجعلها برداً وسلاماً علي أحمد بن عبد الحليم، ولا ريب في ذلك فهو على ملة إبراهيم، وهو الداعي إليها والمناصر لها السائر على طريق الأنبياء والمرسلين. نحسبه كذلك والله حسيبه.

كما اقتدي بموسى –عليه السلام– في صدعه بالحق بين يدي الأمير الذي حاول البطائحية أن يحرضوه علي شيخ الإسلام، وقد كان الأمير لهم معظماً، فقلّب مقلب القلوب قلبه ليكون نصيراً للتوحيد الذي يدعو إليه شيخ الإسلام، وللسنّة التي يريد رفع منارها.

إنّ شيخ الإسلام رجل امتلأ قلبه بتوحيد الله تعالي، وكان التوحيد في قلبه علماً وكان في حياته عملاً، قال رحمه الله: "وبالجملة فكمال النفس ليس في مجرد العلم، بل لابد مع العلم بالله من محبته وعبادته والإنابة إليه، فهذا عمل النفس وإرادتها، وذاك علمها ومعرفتها"

رحم الله شيخ الاسلام، وجمعنا الله بنبينا وإخوانه المرسلين، وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وبابن تيمية في جنته ودار كرامته، ورزقنا الإخلاص والعون والقبول.

هذا وثمت أمور أخرى دعتنا إلى هذه الدراسة منها:

١) موسوعيّة شيخ الإسلام ودقّته فى الاحتساب على الكهّان والمنجمين وعبدة الكواكب والشياطين وأعوانهم .
٢) غزارة المادة العلمية لشيخ الإسلام فى هذه الأبواب. لكنها موزعة في أماكن شتى من مؤلفاته.

٣) عدم وجود دراسة خاصة موسعة تبرز احتساب شيخ الإسلام فى هذه الأبواب على حد علمنا، مع كثرة ما كُتب عن شيخ الإسلام.

٤) رغبتنا فى جمع كلام منضبط بالضوابط الشرعية فى هذا الباب وجمع أطرافه، وشيخ الإسلام من خير من يضبط كلامه بالكتاب والسنّة، والأدلّة العقلية الواضحة التي توافق صحيح المنقول.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

١) إبراز هذا الجانب المهم من احتساب شيخ الإسلام، وهو جانب لم ينل حظّه من العناية على كثرة ما كتب شيخ الإسلام فيه، وعلى خطورة هذه الأمور على دين المسلمين ودنياهم، ومع انتشارها في بلادهم.

٢) توفير مادة غزيرة مرتّبة لكل محتسب على السحرة والكهّان وأتباع الشياطين والمنجّمين وعبدة الكواكب والمشعوّذين.

٣) فتح الطريق أمام الباحثين وطلبة العلم لاقتحام ميدان الاحتساب على السحرة والكهّان وعبدة الشياطين والمنجّمين، ودراسة مسائل السحر والكهانة والتنجيم دراسة علمية مؤصّلة، والردّ على هؤلاء المبطلين ردوداً علمية؛ لانتشارهم في هذا الزمان في وسائل الإعلام والسوشيال ميديا، وعلى قوارع الطريق في بعض البلاد. وهذه مظاهر للشرك والفسق والضلال والإفساد، تتطلب الرصد والبيان والتحذير والمواجهة، وهو ميدان واسع وإننا لنرجو أن يتناول الباحثون في كل بلد هذه الطوام في بلادهم، كما نود أن يعمل المحتسبون والدارسون على إبراز دور علماء المسلمين وقضاتهم وولاة أمورهم وجنودهم في ذلك.

منهج الدراسة:

- التزمنا في هذه الدراسة منهجاً استقرائياً[١] تحليلياً.
- عمدنا إلى استقراء كلام شيخ الإسلام وتتبّعه في كتبه ومصنّفاته المتاحة لدينا وجمعه وترتيبه، ثم قمنا بعد ذلك بتحليله، واستخراج ما فيه من الفوائد والقواعد المتعلّقة بالاحتساب على السحرة والكهّان والمنجمين وأعوانهم من الشياطين.

---

(١) الاستقراء هو التتبع، والمنهج الاستقرائي هو المنهج الذي يتم فيه جمع كافة المعلومات والبيانات حول موضوع بحثي ما، وملاحظته بشكل دقيق، مع جمع كافة البيانات بهدف الوصول إلى العلاقات العامة من خلال تحليل التفاصيل، ثم التعميم في المراحل اللاحقة.

- ذكرنا في مواضع وقائع جرت لنا على نحو ما جاء في احتساب شيخ الإسلام، وقد أرفقنا صوراً تتصل باحتسابنا، وروابط فيديو لتقريب قضايا البحث، ولبيان أفعال السحرة التي نزلت إلى أخبث دركة.

منهج شيخ الإسلام في الاحتساب على الكهانة والكهّان وأعوان الشياطين:

تميّز منهج شيخ الإسلام في احتسابه على السحرة والكهّان والمنجّمين بميزات عدّة منها:

١) دقّة المعلومات التي يعرضها شيخ الإسلام وكثرتها، واستخراجه لها من المصادر الموثوقة.

٢) ربط السحر والكهانة وعبادة الكواكب بالمفاسد العقائدية والأخلاقية والتعبّدية.

٣) تناول شيخ الإسلام لهذه المسائل أصالة وعرضاً، فالشيخ تحدّث أصالة عن السحر والسيمياء والعزائم وغيرها، وعن عبادة الكواكب وعن الشياطين حديثاً مباشراً، كما أنّه تناولها أثناء حديثه عن مسائل أخرى.

٤) عرض الشيخ لتجاربه واحتسابه العملي فى هذه الأبواب، وهذا جانب عزيز قليل في احتساب كثير من المحتسبين والعلماء.

٥) تجلّى في احتساب شيخ الإسلام -رحمه الله- على السحرة والكهّان والمنجّمين منهج أهل السنّة والجماعة في معاملة ولاة أمور المسلمين، ومعرفة مكانتهم ومنزلتهم ورعاية حقوقهم، وقد كان هذا سبباً كبيراً من أسباب نجاح شيخ الإسلام في احتسابه في هذه الأبواب وغيرها، فقد كان حريصاً على جمع الكلمة على ولاة أمور المسلمين، آخذاً بأيديهم إلى الله، مجاهداً معهم ومناصراً، ولم يكن مفتئتاً عليهم، فقد كان احتساب شيخ الإسلام مؤيداً بسيف السلطان القاهر، وسياط ولاة الأمور الشرعية، حتى أضحوا مؤازرين له ومدافعين عنه، وقد نجح شيخ الإسلام في استمالة ولاة الأمور للقيام بالاحتساب على السحرة والكهّان والمنجّمين.

٦) استخدم شيخ الإسلام علوم الفقه والسيرة والتاريخ في الرد على عبث الشياطين بهؤلاء الكهان وأتباعهم، وما زينته لهم من قلب أحكام الشريعة.

خطة الدراسة:

يشتمل هذا الكتاب على: مقدمة، وتمهيد، واثني عشر فصلا، وخاتمة، وفهرس.

- المقدمة: بيان لأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وهدف الدراسة، ومنهجها.
- التمهيد: فيه أربعة مطالب:
  - المطلب الأول: تعريف موجز بشيخ الإسلام.
  - المطلب الثاني: التعريف بالكهانة.

- ▫ المطلب الثالث: ولع الناس بالأسرار ورغبتهم في كشف الغيب.
- ▫ المطلب الرابع: تاريخ موجز للكهانة.

- الفصل الأول: الكهانة وما يتعلق بها في القرآن وتفسيره والسنة وشروحها وكتب الاعتقاد.
- الفصل الثاني: الكهانة في الجاهلية.
- الفصل الثالث: بيان شيخ الإسلام لخطر الكهانة على الدين والدنيا.
- الفصل الرابع: الكشوف والآيات النبوية والفروق بينها وبين الأحوال الشيطانية. .
- الفصل الخامس: الفرق بين الكرامات الرحمانية، والأعمال الكهانية الشيطانية..
- الفصل السادس: فقه مسائل النجوم والتأثير وإبطال الكهانة.
- الفصل السابع: الفرق والكهانة.
- الفصل الثامن: كهان ذكرهم شيخ الإسلام.
- الفصل التاسع: صور الكهانة وأنواعها.
- الفصل العاشر: فقه ابن تيمية للكشوف والخوارق وفهم حقيقة الكهانة.
- الفصل الحادي عشر: قواعد النجاة من الكهانة عند شيخ الإسلام.
- الفصل الثاني عشر: قواعد احتسابية على الكهّان من علم وعمل شيخ الإسلام ابن تيمية.
- خاتمة.
- فهرس للمراجع، وآخر للموضوعات.

هذا ونسأل الله التوفيق والإعانة على إتمام هذا العمل، وإبراز احتساب شيخ الإسلام؛ أداءً لحقّ الله علينا بتوحيده، ونبذ الشرك والكفر، ودفع الناس إلى التعلّق به وحده والاستعانة به سبحانه لا سواه، كما نسأله أن يوفّقنا إلى إبراز إنتاج شيخ الإسلام الغزير في هذا الباب، وأن ينتفع به كل محتسب وقارئ، وأن ينتفع به الكاتبان وآباؤهما وذرياتهما وزوجاتهما، وأن يكتب لنا جميعاً الإخلاص والقبول.

وكتب الراجيان فضل ربهما وبره وإحسانه وعفوه وغفرانه

أبو فاطمة عادل المقبل　　　الدكتور مُحَمَّد نور الدين

التمهيد

يشتمل على أربعة مطالب:

- المطلب الأول: تعريف موجز بشيخ الإسلام.
- المطلب الثاني: التعريف بالكهانة.
- المطلب الثالث: ولع الناس بالأسرار ورغبتهم في كشف الغيب.
- المطلب الرابع: تاريخ موجز للكهانة.

المطلب الأول

تعريف موجز بشيخ الإسلام

إنّ تاريخ الإسلام زاخر برجال عظام قاموا بدين الله تعالى خير قيام، أول أولئك من صحبوا الرسول ﷺ ونالوا ثناء الله في كتابه في مثل قوله تعالي: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾(١) وقد أنالهم الله رضاه فقال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٢) ولقد خلَّد أئمة الإسلام سير هؤلاء النبلاء الأعلام في كتب كثيرة معلومة، ثم حمل الراية من بعد الأصحاب رجال على نهجهم ساروا وبجهادهم اقتدوا، فزخرت بهم كتب الطبقات والرجال، كما سطرت أمجادهم كتب التاريخ، فذكرت لنا من رجال الأمّة أعلاماً وسادة كراماً خدموا هذه الأمة، وارتفع بهم شأنها في العلم والعمل.

ومن هؤلاء الأعلام الأفذاذ شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، علم من أعلام الأمة ورجل فذّ من أفذاذها، نشأ في بيت العلم والإيمان، وبسق بين أهل الأدب والفضل والأخلاق، ورافق طلبة العلم وحملته، وقد ورث ذلك كابراً عن كابر، وأضاف مجداً إلى مجد آبائه الأماجد، ولقد كان جده (مجد الدين) علماً من الأعلام وإماماً من أئمة الأمة في التفسير والحديث والفقه واللغة، وكانت جدته أيضاً من عالمات الأمة، وكذلك كان أبوه عالماً من علماء الأمة يجلس مفسّراً كتاب الله أيام الجمع، وكانت أمّه عالمة عابدة، وكان بين شيخ الإسلام وبين أمّه الصالحة مكاتبات ورسائل تفيض بالبرّ والرقّة، وكان له ثلاثة من الأخوة هم أنجم هدى، تعلّموا وعلّموا وناظروا وكانوا معه في دعوته وجهاده، فرحم الله ذلك الأصل الوارف وتلك الفروع الباسقة بدوحة العلم والإيمان.

إنّ شيخ الإسلام شخصية فريدة في أمة الإسلام، اشتغل بالعلم منذ نعومة أظفاره، كان نهماً للعلم والمعرفة، طرق أبواب العلم وبزَّ في كل علم أساطينه، وما من علم طرقه إلا وكان عنده في عرض مسائله ما هو جديد فريد، ولقد كان ابن تيمية عالماً موسوعياً ضرب في كل فن من الفنون بسهم، ونال منه حظاً وافراً، كان يقرأ كتب المخالفين ويخالطهم، ويعرض مسائلهم حين يناقشهم عرضاً أميناً، ويقرر قضاياهم تقريراً كاملاً، حتى أنّهم لو عرضوا قضاياهم بأنفسهم ما استطاعوا أن يعرضوها كما عرضها، ولا يقرّروها كتقريره.

"لقد كان لهذا الجهبذ شخصيته المتميزة واجتهاداته العلمية ونشاطه المتعدد الألوان، وكأنّ التاريخ قد توقف عنده؛ ليسمعنا صوت الإسلام متجدداً في عصر ظن البعض أنّ عقول المسلمين قد توقفت

---

(١) الأحزاب: الآية ٢٣.

(٢) في أربعة مواضع من القرآن: الآية ١١٩سورة المائدة -الآية ١٠٠ سورة التوبة -الآية ٢٢ سورة المجادلة - الآية ٨ سورة البينة.

مكتفية بالتقليد والنقل عن أرباب المذاهب"[١] وقد شهد له أهل العلم بالاطّلاع الواسع على فنون العلم. قال الحافظ البزار: "وقلّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه"[٢]

أمّا علو همّته نحو المعالي فكانت عجباً، قال عماد الدين الواسطي: "إن الله تعالى قد رحم هذه الأمة بإقامة رجل قوي الهمّة ضعيف التركيب، قد فرّق نفسه وهمّه في مصالح العالم، وإصلاح فسادهم، والقيام بمهمّاتهم وحوائجهم ضمن ما هو قائم بصدّ البدع والضلالات"[٣] وقد كان مع هذا معرضاً عن طلب الدنيا بهذا العلم، بل كان طالباً به ربه والدار الآخرة. قال الحافظ البزار عنه: "ولا زاحم في طلب الرئاسات، ولا رُؤي ساعياً في تحصيل المباحات، مع أنّ الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره، خاضعين لقوله وفعله، وادّين أن يتقرّبوا إلى قلبه مهما أمكنهم، مظهرين لإجلاله"[٤]

وقد كان -رحمه الله- على اطّلاع واسع يقضى منه العجب على مقالات الملل والنحل والفرق والأشخاص التي عرض لها في ثنايا مؤلفاته، أو في معرض مناظراته لأصحاب تلك المقالات، وقد اعترف له بذلك العدو قبل الصديق، بل كان في كثير من الأحيان أعلم بمذاهب أهل الباطل من أهل الباطل أنفسهم، وقد تمكّن من الدخول إلى صميم ادّعاءاتهم حتى أبطلها بالعقل والنقل. وكان شيخ الإسلام في معرفته تلك واثقاً تمام الوثوق بما عرف، مستيقناً بما عنده من الحق، مطمئناً إلى ما لديه من علوم ومعارف؛ لأنّه كان يستند في كل ذلك إلى الأدلّة الصحيحة الصريحة: نقلية كانت أم عقلية، والاطّلاع المباشر على كتب الخصوم ومقولاتهم، وآراء أئمتهم ومشايخهم، فكان لا يذكر رأياً عن شخص أو طائفة إلا بمشافهة، أو بنقلٍ عن كتاب عرفه.[٥]

ولقد طرق شيخ الإسلام أبواب مجادلة ومناظرة ومخاصمة السحرة والمنجمين والكهّان وعبدة الكواكب، وخبر ما عند المتعاملين مع الشياطين، وكان لشيخ الإسلام معرفة بأحوال المجوس والصابئة ومذاهبهم وفرقهم وكتبهم، ويذكر أنّه اطّلع على مصحف للصابئة يذكرون فيه كثيراً من الأخبار المستقبلية، كما عرف الكثير من كتب التنجيم والسحر، وذكر منها: كتب (السر المكتوم) و(درجات الفلك) و(مصحف القمر) و(الزيج) بالبلاد التي يكثر فيها تعاطى هذه الشركيّات والمنكرات.[٦]

---

(١) من تقديم كتاب نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع: تأليف المستشرق الفرنسي/هنري لا ووست، الكتاب الأول نشأة النظريات، ترجمة: محمد عبد العظيم على، تقديم وتعليق: الدكتور مصطفى حلمي، دار الأنصار، الطبعة الأولى، رمضان سنة ١٣٩٦ ه -سبتمبر سنة ١٩٩٧م.

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية: الحافظ عمر بن علي البزار، ص ١٩، تحقيق: العلامة زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: لابن عبد الهادي، تحقيق: طلعت بن فؤاد، الفروق الحديثة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

(٤) الأعلام العلية: البزار، ص٣٣.

(٥) موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه: صالح بن غرم الله الغامدي، ص٣٩ وما بعدها، بتصرف يسير.

(٦) السابق: ص٣٩ وما بعدها.

لقد احتسب شيخ الإسلام على السحر والسحرة، فبيّن فساد السحر وخطره وضرره وشّره المستطير، وبيّن اقتران السحر بالشرك وعبادة الشياطين، وبيّن خسران السحرة للدنيا والآخرة، وهذا ما تناولناه بفضل الله في كتاب (احتساب شيخ الإسلام على السحر والسحرة)

أما في باب الكهانة، فقد تحدث عنها حديثاً مفصلاً مبيناً أفرادها، وما يدخل تحتها من الخط على الرمل، وما يتعلق بالودع وغير ذلك، كما تحدّث في مواضع كثيرة من كتبه، وفي مناسبات عدة عن المتكهنين: المختار بن أبي عبيد، وابن صياد، ومسيلمة، وتناول بالبحث موضوع المكاشفات، حتى لا ينخدع أحد بكاهن ضال يخبره بأمر غاب عن السائل، فيخلط بين علم الغيب الذي تفرد الله به وبين مكاشفات الكهان، فلا يجوز للمسلم أن يثق بكل كشف، وأن يظن أنّ ذلك من أسباب الوثوق بالفاعل وتسليم القلب والعقل له، ومن دلائل التفريق التي ذكرها شيخ الإسلام حصول مكاشفات مع غير المسلمين الذين هم كفار بالله ورسوله ﷺ فهل يعقل أن يكرم الله أهل الكفر بهذه الكرامات الدالّة على حبّه تعالى، وقد تحدّث شيخ الإسلام عن مكاشفات حدثت لكهّان ينتسبون إلى الإسلام لا خلاق لهم ولا أخلاق، بل هم مبتدعة فسقة، فهل تكون مكاشفاتهم الشيطانية سببا للوثوق بهم؟ كلا ثم كلا.

وعليه فلا ينبغي أن يوثق بالكاهن لأن أخباره إنما هي وحي شياطين، كما بيّن أنه لا ينبغي أن يوثق بكل من كانت معه عجيبة غريبة؛ فإن الدجال الأكبر معه غرائب وعجائب ليست مع أحد.

ولقد احتسب ابن تيمية على الشياطين والمتعاملين معها، فبيّن أنّ الوساوس أصل الشر، وكان له كلام دقيق في فقه الخوف ينبغي أن يعض عليه الموحد بالنواجذ، وبيّن أنه لا ينبغي للموحد أن يخاف من الشيطان، وأنّ ذلك الشيطان ضعيف، وأن على المؤمن الموحد أن يستعين بالله، وأن يقرأ الرقى الشرعية، وخير ما تطرد به الشياطين وتهزم آية الكرسي والمعوذات، وهي يسيرات على اللسان لكنها رجوماً للشياطين وقمعاً لأوليائها.

قال رحمه الله: "وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إنِّي أَخَافُك وَأَخَافُ مَنْ لَا يَخَافُك[1] فَهَذَا كَلَامٌ سَاقِطٌ لَا يَجُوزُ، بَلْ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَخَافَ أَحَدًا، فَإِنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ أَذَلُّ مِنْ أَنْ يُخَافَ، فَإِنَّهُ ظَالِمٌ وَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ فَالْخَوْفُ مِنْهُ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَإِذَا قِيلَ: قَدْ يُؤْذِينِي. قِيل: إنَّمَا يُؤْذِيك بِتَسْلِيطِ اللَّهِ لَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ دَفْعَ شَرِّهِ عَنْك دَفَعَهُ فَالْأَمْرُ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَى الْعَبْدِ بِذُنُوبِهِ، وَأَنْتَ إذَا خِفْتَ اللَّهَ فَاتَّقَيْتَهُ وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْهِ كَفَاكَ شَرَّ كُلِّ شَرٍّ، وَلَمْ يُسَلِّطْهُ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

(١) ينتشر بين العامة قول: خف ممن لا يخاف من الله، أو قول: اللي ما يخاف من ربنا خاف منه، وهو معنى ما ذكر شيخ الإسلام.

فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] وَتَسْلِيطُهُ يَكُونُ بِسَبَبِ ذُنُوبِك وَخَوْفِك مِنْهُ، فَإِذَا خِفْتَ اللَّهَ وَتُبْتَ مِنْ ذُنُوبِك وَاسْتَغْفَرْتَهُ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْكَ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]"[3]

ولقد ذكر ابن تيمية كثيراً من قصص تشكل الجن وإضلالهم الناس بهذا التشكل، كما ذكر علاقة الفرق الضالة بالشياطين، وبين في كلام نفيس العلاقة بين الشياطين وبين الإباحية وغيرهم، فبيّن أنّ الشيطان يتشكل لهؤلاء بصورة من يعظمون من شيوخهم، فيقول للواحد منهم أحللت لك كذا وكذا مما حرم الله، ورفعت عنك التكاليف.

إنّ شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله ورفع درجاته في عليين– أحد العلماء الذين نَفُوا عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وهو رجل بارك الله في أوقاته، ونفع بعلومه في حياته وبعد مماته، فترك من بعده آثاراً عظيمة وعلوماً جمّة استفاد منها من جاء بعده وتلقّاها الناس بالقبول، وصارت منهلاً عذباً ومعيناً صافياً ومرجعاً معتمداً للعلماء والباحثين، أثنى عليه العلماء وذكروا عن قوة حفظه وذكائه شيئاً عجباً. وُلِد –رحمه الله– سنة (٦٦١هـ) وتُوفي سنة (٧٢٨هـ) هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن أبي القاسم بن الخضر بن تيمية النمري الحرّاني، العالم الرباني، سيّد الحفّاظ، بحر العلوم، مفتي الأمة، فريدة الدهر، أعجوبة الزمان، الجامع بين العلوم النقلية والعقلية بأنواعها، ومذاهب أهل الملل والنحل، وآراء المذاهب ومقالات الفرق، ما لا يُعلم مثله عن أحد من علماء الأرض لا قبله ولا بعده، مع بيان حقيقة الشريعة المطهّرة على الوجه الصحيح، وقوة الحكم في إحقاق الحقّ بالحجج والبراهين، ونصر مذهب السلف على من خالفه من سائر المضلّين، وقوة الحكم في إبطال الباطل؛ فبحثه و استدلاله يزلزل زخرف المبطلين. لم يظهر من علم أحد ما ظهر من علمه، ولم يؤت أحد مثل ما أوتي من الحفظ والفهم والذكاء وعلو الكعب.

أسرة شيخ الإسلام رحمة الله عليهم أجمعين:

كان شيخ الإسلام سليل بيت من بيوت العلم، وكانوا على مذهب الإمام أحمد في الفقه، وكانت لهم مشاركات في العلوم من الحديث والتفسير والفقه وغيرها، فجدّه (المجد) جمع بين الحديث والفقه في (المنتقى) كما كان مفسّراً، وقد كان أبوه كذلك وكان له درس التفسير في مسجد دمشق يلقيه بعد صلاة الجمعة، وقد خلفه فيه شيخ الإسلام، وأمّا جدته (أم البدر) فكانت واعظة محدّثة، وأمّه وإن لم تذكر في كتب التراجم التي بأيدي الناس بالعلم غير أنها كانت بلا شك على علم، كما سنذكر قرينة ذلك.

(١) الطلاق: الآية ٣.
(٢) الأنفال: الآية ٣٣.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج١/ ص٨، خرج أحاديثه: أحمد محمد شعبان، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى،١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

تعريف موجز بأسرة شيخ الإسلام:

- جد شيخ الإسلام (المجد بن تيمية): هو أبو البركات مجد الدِّين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمَّد ابن تيمية الحراني، جدُّ شيخ الإسلام ابن تيمية، فقيه حنبلي محدِّث أصولي نحوي مفسِّر، حدّث بالشام والحجاز والعراق، إضافة إلى بلده حران في الشام، كان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي. قال الذهبي: "كان إماماً في التفسير، إماماً في الفقه، إماماً في اللغة" من كتبه «المنتقى في أحاديث الأحكام» شرحه الشوكاني بكتابه المشهور «نيل الأوطار» ومن كتبه أيضًا «المحرر في الفقه» و«الأحكام الكبرى» و«المسودة» في أصول الفقه، التي تتابع على تأليفها آل تيمية فزاد فيها ابنه عبد الحليم زيادات، ومن بعدهما حفيده تقي الدين أحمد. توفي سنة (٦٥٢هـ)(١)
- والد شيخ الإسلام: هو شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحليم بن مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله الحراني، من كبار أئمة الحنابلة. قال عنه الحافظ الذهبي: "كان من أنجم الهدى، وإنما اختفى بين نور القمر وضوء الشمس (يشير إلى أبيه وابنه) وُلِد في حران سنة (٦٢٧هـ) وخرج مع عائلته من حران إلى دمشق عام (٦٦٧هـ) بسبب استيلاء التتار عليها، وكان عمر ابنه تقي الدين بن تيمية ست سنوات. كان يدرس بجامع دمشق، وتولى مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها كان مسكنه، ثم درس ولده الشيخ تقي الدين بها بعده. تُوفي ليلة الأحد سلخ ذي الحجة عام (٦٨٢هـ) ودُفِن في مقابر الصوفية بدمشق.(٢)
- جدة شيخ الإسلام: هي بدرة بنت الإمام فخر الدّين مُحَّد بن أبي القاسم بن تيْميّة (أمّ البدْر) زوجة العلاّمة المفتي مجد الدّين أبي البركات بن تَيْميّة. تُوُفّيت قبل زوجها بليلة، وقد روت بالإجازة عن بعض أصحاب أبي علي الحدّاد. سمع منها الدّمياطي بإجازتها من أبي المكارم اللّبّان. رحمها الله تعالى.(٣)
- أم شيخ الإسلام: هي ست النعم بنت عبد الرحمن الحرّانية، لم تذكر المصادر التاريخية عنها شيئاً كثيراً، ولكن حفظ الله رسالة كتبها لها ولدها البار شيخ الإسلام، يدل ما جاء فيها على أنّه يخاطب امرأة عالمة محبّة لدينها، إذ كتب شيخ الإسلام إليها:

---

(١) انظر «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (ج٢/ ص٢٤٩)، «فوات الوفيات» للكتبي (٢/ ٣٢٣)، «طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٣٠٣)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ١٨٥)، «شذرات الذهب» لابن العماد (٥/ ٢٥٧)

(٢) راجع البداية والنهاية: ابن كثير (١٣/ ٣٢٠) دار الريان، مصر، (١٤٠٨هـ)، ذيل مرآة الزمان (٤/ ١٨٥-١٨٦)

(٣) تاريخ الإسلام: للذهبي، ج١١/ ص٢٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ أَحْمَد بْنِ تيمية إلَى الْوَالِدَةِ السَّعِيدَةِ أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَيْهَا بِنِعَمِهِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا جَزِيلَ كَرَمِهِ، وَجَعَلَهَا مِنْ خِيَارِ إمَائِهِ وَخَدَمِهِ. سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَإِنَّا نَحْمَدُ إلَيْكُمْ اللَّهَ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا. كِتَابِي إلَيْكُمْ عَنْ نِعَمٍ مِنْ اللَّهِ عَظِيمَةٍ وَمِنَنٍ كَرِيمَةٍ وَآلَاءٍ جَسِيمَةٍ، نَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا وَنَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ، وَنِعَمُ اللَّهِ كُلَّمَا جَاءَتْ فِي نُمُوٍّ وَازْدِيَادٍ، وَأَيَادِيهِ جَلَّتْ عَنْ التَّعْدَادِ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ مقَامَنَا السَّاعَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ إنَّمَا هُوَ لِأُمُورٍ ضَرُورِيَّة مَتَى أَهْمَلْنَاهَا فَسَدَ عَلَيْنَا أَمْرُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَسْنَا وَاَللَّهِ مُخْتَارِينَ لِلْبُعْدِ عَنْكُمْ، وَلَوْ حَمَلَتْنَا الطُّيُورُ لَسِرْنَا إلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْغَائِبَ عُذْرُهُ مَعَهُ، وَأَنْتُمْ لَوْ اطَّلَعْتُمْ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ فَإِنَّكُمْ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- مَا تَخْتَارُونَ السَّاعَةَ إلَّا ذَلِكَ، وَلَمْ نَعْزِمْ عَلَى الْمقَامِ وَالِاسْتِيطَانِ شَهْرًا وَاحِدًا، بَلْ كُلَّ يَوْمٍ نَسْتَخِيرُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ، وَادْعُوا لَنَا بِالْخِيَرَةِ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَخِيرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا فِيهِ الْخِيَرَةُ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ. وَمَعَ هَذَا فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهِدَايَةِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِالْبَالِ، وَلَا يَدُورُ فِي الْخَيَالِ، وَنَحْنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَهْمُومُونَ بِالسَّفَرِ، مُسْتَخِيرُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَلَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَا نُؤْثِرُ عَلَى قُرْبِكُمْ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا قَطُّ، بَلْ وَلَا نُؤْثِرُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَكُونُ قُرْبُكُمْ أَرْجَحَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ثَمَّ أُمُورٌ كِبَارٌ نَخَافُ الضَّرَرَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ مِنْ إهْمَالِهَا، وَالشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ، وَالْمَطْلُوبُ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ بِالْخِيَرَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَلَا نَعْلَمُ، وَيَقْدِرُ وَلَا نَقْدِرُ، وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ، وَرِضَاهُ بِمَا يَقْسِمُ اللَّهُ لَهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُ اسْتِخَارَتِهِ اللَّهَ، وَسُخْطُهُ بِمَا يَقْسِمُ اللَّهُ لَهُ}(١) وَالتَّاجِرُ يَكُونُ مُسَافِرًا فَيَخَافُ ضَيَاعَ بَعْضِ مَالِهِ فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقِيمَ حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ، وَمَا نَحْنُ فِيهِ أَمْرٌ يُجَلُّ عَنْ الْوَصْفِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ كَثِيرًا، وَعَلَى سَائِرِ مَنْ فِي الْبَيْتِ مِنْ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ وَسَائِرِ الْجِيرَانِ وَالْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ وَاحِدًا وَاحِدًا. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً.(٢)

فالرسالة جزلة الألفاظ، فخمة التراكيب، شريفة المعاني، وهي حديث عالم لعالم يعرف مصطلحات العلوم مثل: فيعرف مرجّحات الأمور، ويعرف الضرر العام والضرر الخاص، كما أنّه حديث لعالم عامل يحب أن ينشر دين الله وأن يدافع عنه، وأنّه يستحقّ تحمّل غربة الأبناء خدمة لهذا الدين.

(١) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقدر، حديث رقم ٢٠٧٧، وضعفه الألباني في الضعيفة برقم ١٩٠٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج٦/ ص٣١٩)

- **إخوة شيخ الإسلام:**

كان لشيخ الإسلام إخوة أعلام أيضاً، وقد ذكرهم تلاميذهم الأبرار، فكما كان شيخ الإسلام شيخاً للذهبي كان أخوه عبد الله كذلك شيخاً للذهبي ووصفه الذهبي -رحمه الله- بالإمام قال الذهبي: "حدثني الإمام عبد الله بن تيمية أنّ جده ربّي يتيماً"[١]

وكان له أخ آخر هو: بدر الدين، وصفه ذلك الإمام عبدالله شرف الدين بالشيخ الإمام العالم الجليل، قال ابن عبد الهادي رحمه الله: "وقد رأيتُ كتاباً بخط الشيخ شرف الدين كتبه إلى أخيه بدر الدين بعد توجه الشيخ إلى الإسكندرية يقول فيه: سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام العالم الجليل الكبير بدر الدين، والى الله عليه آلاءه وأتبعها، وأسبغ عليه نعمه ونوّعها، ومنحه مننه وأينعها، وأيّده بالقوة والتأييد لإقامة الحق على القريب والبعيد، غير مقصّر ولا وانٍ ولا مفترٍ ولا متوانٍ بالرأي السديد والعزم الوكيد، وجمعنا وإياه في هذه الدار على طاعته، وفي دار القرار في دار كرامته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أهل ولايته، إنه ذو الفضل العظيم والمن الجسيم والطول العميم. أما بعد، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير، وأصلّي على سيد ولد آدم، وخير خلق الله أجمعين، وسيد رسل رب العالمين إلى الأسود والأحمر والجن والإنس، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين -أتمّ الصلاة وأفضلها وأشرفها وأكملها دائمة إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وبعد، فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة، ومننه الشاملة التي تفوت العدّ والإحصاء، وتعجز العقول عن تصورها ودركها، وتحصر الألسن عن نعتها ووصفها فضلاً عن كتابتها، فنسأل الله العظيم أن يوزعنا شكرها، وأن يديمها علينا وعلى جميع الإخوان والمؤمنين إنه الجواد الكريم. فمنها نزول الأخ الكريم (يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية عندما توجهوا به لسجنه في الإسكندرية) بالثغر المحروس، فإنّ أعداء الله قصدوا بذلك أموراً يكيدون بها الإسلام وأهله، وظنوا أنَّ ذلك يحصل عن قريب، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة، وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وما زالوا عند الله وعند العارفين من المؤمنين سود الوجوه، يتقطعون حسرات وندماً على ما فعلوه، وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ متقبلين لما يذكره، وينشره من كتاب الله وسنّة رسوله، والحط والوقيعة في أعدائهما من أهل البدع والضلالات والكفر والجهالات، خصوصاً أخبث الملاحدة والاتحادية ثم الجهمية، واتفق أنه وجد بها إبليس إلحادهم قد باض وفرخ ونصب بها عرشه، ودوّخ وأضلّ بها فريقي (السبعينية)[٢] و(العربية)[٣] فمزّق اللهُ بقدومه الثغرَ جموعَهم شذر مذر، وهتك أستارهم، وكشف

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج٢٣/ ص٢٩٢)
(٢) هم أتباع ابن سبعين.
(٣) هم أتباع ابن عربي الطائي.

أسرارهم، وفضحهم، واستتاب جماعات منهم، وتوّب رئيساً من رؤسائهم، وإن كان عند عباد الله المؤمنين حقيراً، وصنّف هذا التائب كتاباً في كشف كفرهم وإلحادهم، وكان من خواصّ اللعين عدو الله ورسوله، نصير الملحدين، واشتهر ذلك واستقرّ عند عموم المؤمنين وخواصهم: من أمير وقاضٍ وفقيه ومفتٍ وشيخ وعموم المجاهدين، إلا من شذّ من الأغمار الجهّال مع الذلّة والصغار؛ حذراً على نفسه من أيدي المؤمنين وألسنتهم، وعلت كلمة الله به على أعداء الله ورسوله، ولُعِنوا لعناً ظاهراً في مجامع الناس بالاسم الخاص، وصار بذلك عند نصير الملحدين المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذلّ ما لا يُعبّر عنه، وهمَّ أن يكيد كيداً آخر، فوقع ما وقع عندكم بالشأم من الأمر المزعج والكرب المقلق والبلاء العظيم والذل، واستعطاف من كانوا لا يلتفتون إليه بالأموال والأنفس والتذلّل، حتى رقّ بعض الأصحاب لهم، فزجر عن ذلك وقيل له: ولا تأخذكم بهم رأفة في دين الله، إلى أمور كثيرة من المحن والبلاء مما لا يمكن وصفه، فنسأل الله العظيم أن يعجّل تمام النقمة عليهم، وأن يقطع دابرهم، وأن يريح عباده وبلاده منهم، وأن ينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده عليهم، وأن يوزعنا شكر هذه النعمة، وأن يتمّها علينا وعلى سائر المؤمنين. وغير خاف عنك سيرتنا:

إذا أعْجَبَتْك خِصَالَ امْرِئٍ ... فَكُنه يَكُنْ ما يُعْجِبُك

فليس لدى المجدِ والمكرما ... تِ إذا جئتها حاجبٌ يحْجِبُك

فأسأل الله العظيم أن يعينك ويمدك ويؤيدك بروح منه، وأن يقرّ بك أعين المؤمنين، وأن يخزي بك الكفار والمنافقين، وأن يوفّقك لما يحبه ويرضاه، وأن يتولاك في جميع الأمور، ويعينك على القيام فيها بما يرضي الله ورسوله. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى السعيدة الكريمة الطيبة التي ﷺ وأرضاها، وجعل بعد اجتماعنا بها الجنة دارها ومأواها، وأراها وجهه الكريم في دار النعيم –الوالدة التي منحها الله تعالى في آخر عمرها هذه الكرامة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة العليّة، وأكمل السلام وأنماه، وعلى جميع الأهل والإخوان والأصحاب والمعارف والجيران: كبيرهم وصغيرهم، قريبهم وبعيدهم، كل فرد له السلام. وغير خافٍ عنهم العجز عن حصرهم، فالله تعالى يرضى عن جميعهم، ويجمعنا وإياهم بعد نصر دين الله ورسوله على ما يحبه ويرضاه. وكُتب والخاطر مشغول بأمر المسلمين لحدوث أمر يذكره لكم الشيخ عبد الله. والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا مُحَّد وآله وصحبه وسلم تسليما"(١)

وهذه الرسالة مع رسالة شيخ الإسلام لأمه تُبيّن ما عند هذه الأسرة من كريم الأخلاق، والتراحم فيما بينهم مع النصيحة والشفقة البالغة، وحرصهم على الدفاع عن الدين والدعوة إلى الله تعالى، وتأمّل كيف كان حرصهم على السلام على الأهل والجيران، وهذا ينُمُ عن مودة للأهل والجيران الصغير منهم والكبير، وهم لا ينسون تلك الأمور التي تبدو يسيرة، لكن لها أعظم الأثر في الدعوة، كما تنم عن عناية بكل

(١) العقود الدرّية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: ابن عبد الهادي (ص١٧٩)

المحيطين، وخفض الجناح لهم ولين الجانب، مع انشغالهم بمعالي الأمور وعظائمها. فرحمة الله وبركاته عليهم أجمعين.

أخلاق شيخ الإسلام الكريمة:

تحلّى شيخ الإسلام بمكارم الأخلاق، إذ كان عابداً زاهداً كريماً جواداً صابراً براً بأمّه وأهله، ومن الخلال الحسنة التي تحلّى بها خلق العفو عمّن أساء إليه، بل والسعي في نفعه، قال رحمه الله: "أنا في سعة صدر لمن يُخالفني، فإنه وإن تعدَّى حدودَ الله بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدَّى حُدُودَ الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمّاً بالكتاب الذي أنزله الله وجعلَه هُدًى للناس حاكماً فيما اختلفوا فيه، قال الله تعالى:﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾(١) وقال تعالى:﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٣) وقال رحمه الله: "لا أُحِبُّ أن يُنتصَر من أحدٍ بسبب كذبه عليَّ أو ظُلْمه وعُدوانه؛ فإني قد أحللْتُ كلَّ مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحِبُّه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حِلٍّ من جهتي"(٤)

لم يكن هذا من شيخ الإسلام قولاً مجرداً بل كان واقعاً عملياً، لقد كان قاضي المالكية ابن مخلوف من أعداء ابن تيمية، ومع ذلك يقول ابن تيمية: "وابن مخلوف لو عمل مهما عمل، والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعينُ عليه عدوَّه قطُّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيَّتي وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أنّ الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين"(٥)

قال قاضي المالكية ابن مخلوف: "ما رأينا مثل ابن تيمية حرَّضْنا عليه فلم نقدِرْ عليه، وقدر علينا فصفَحَ عنَّا، وحاجَجَ عنَّا"(٦)

قال الشيخ علم الدين البرزالي: "في العشر الأوسط من رجب من سنة إحدى عشرة وسبعمائة وقع أذًى في حقِّ الشيخ تقي الدين ابن تيمية بمصر، ظفر به بعض المبغضين له في مكان خالٍ وأساء إليه الأدب، وحضر جماعة كثيرة من الجند وغيرهم إلى الشيخ بعد ذلك لأجل الانتصار له فلم يُجب إلى ذلك، وكتب إلى المقاتلي يذكر أنّ ذلك وقع من فقيه بمصر يعرف بالمبدي، حصل منه إساءةُ أدَبٍ، ثم بعد ذلك

---

(١) البقرة: الآية ٢١٣.
(٢) النساء: الآية ٥٩.
(٣) الحديد: الآية ٢٥.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية: ج٦/ ص٣٢٠.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية: جـ١/ ص٢٦٣.
(٦) البداية والنهاية: لابن كثير، جـ١٤/ ص٥٤.

طلب وتودَّد وشفع فيه جماعةٌ، الشيخ ابن تيمية ما تكلَّم ولا اشتكى، ولو حصل شكوى من ابن تيمية لأُهِينَ ذلك الرجل غايةَ الإهانة، لكن ابن تيمية قال: أنا ما أنتصِرُ لنفسي"[١]

قال الذهبي: "في شعبان سنة إحدى عشرة وسبعمائة وصل النبأ أن الفقيه البكري (أحد المبغضين للشيخ) استفرد بالشيخ بمصر، ووثب عليه، ونتش بأطواقه، وقال: احضر معي إلى الشرع فلي عليك دعوى، فلما تكاثَرَ الناسُ انملص، فطُلِبَ من جهة الدولة، فهرب واختفى، وذكر غير الذهبي: أنّه ثار بسبب ذلك فتنة، وأراد جماعة الانتصار من البكري، فلم يمكّنهم الشيخ من ذلك، وعلم بعد مدة أنّ البكري هم السلطان بقتله، ورسم بقطع لسانه لكثرة فضوله وجرأته، ثم شفع فيه فنفي إلى الصعيد، ومنع من الفتوى بالكلام في العلم. وكان الشيخ في هذه المدة يقرئ العلم ويجلس للناس في مجالس عامة"[٢]

ونقول: العجيب أنّ ورثة البكري الآن يتّهمون شيخ الإسلام بالشدّة والعنف على مخالفيه وهم الذين كانوا كذلك، هزمهم في كل مناظرة بالكتاب والسنّة، وأقوال الأئمة والسلف، وبالمعقول أيضاً، وهم عاقبوه بسلطانهم فقد كانوا قضاة، وسجنوه وألّبوا ولاة الأمور عليه، ثم ها هم يضربونه ويعتدون عليه ويمزّقون ثيابه، وورثتهم الآن لا يتوانون عن ذلك. وحسبك أن تكون باحثاً تحت أحدهم فيذلّونك أعظم الذلّ ويظلمونك أكبر الظلم، ويعملون في منع الخير عنك بكل سبيل، ومنهم من يعتدي بالسبّ ومنهم من يعتدي باليد، وأما الافتراء فحدّث ولا حرج. وهذه الصورة من العفو فضيلة لا تصدر إلا عن نفس كبيرة وقلب مخلص لربه لا ينتصر لنفسه، رغم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[٣] لكن هذا هو النهج الذي كان عليه الشيخ من العفو عن رجال اتهموه بالكفر والمروق من الملة؛ يريدون دمه، وهم ما قدروا على مقارعة حجته بحجة من عندهم. وقد كان لعفو شيخ الإسلام أثره في حياته وبعد مماته، ففي حياته أراد الكثير أن ينتصر له، بل أراد السلطان نفسه أن ينتصر له لكنه عفا، وعفوه لم يكن عن ضعف بل عفو رجل يقدر أن ينتصر، فكان عفوه دعوة وتعليماً للدعاة. وإنّنا وبعد هذه الأزمان المتطاولة من موت الإمام نقرأ هذا فتتصاغر أنفسنا؛ إذ نحزن من أجل كلمة تقال لنا، وتضيق صدورنا من أجل شتم سفيه من السفهاء، فلله درّه من عالم اقتفى آثار نبيه ﷺ وسار سيرة الصحب والسلف الصالحين.

ثناء العلماء على شيخ الإسلام:

لقد نال شيخ الإسلام ثناءً عاطراً من علماء الأمة، وجعل الله له لسان صدق، وعوّضه الله خيراً في الدنيا عن سفه السفهاء وتطاول الأدعياء، فإذا وازن القارئ بين مادحيه وقادحيه رأى أنّ المادحين المثنين عليه

(١) العقود الدرية: لابن عبد الهادي، صـ٣٠٥.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي، ج١/ ص٣٤٣.
(٣) النحل: الآية ١٣٦.

جبال علم، وأهل عدل وإنصاف، يعدل الواحد منهم أمماً من هؤلاء الذامّين بالباطل، فلا يجرمنّكم قول الشيخ للحق ونهيه عن البدع التي نشأتم عليها وتعصبتم لها على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى.

ونعرض طرفاً من أقوال الثقات من أهل العلم في شيخ الإسلام على النحو التالي:

١- قال الحافظ أبو الفتح بن سيّد الناس عن ابن تيمية: "فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلّم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يُر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تَرَ عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه"

٢- قال عنه الذهبي: "قرأ القرآن والفقه وناظر واستدلّ وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرّس وهو دون العشرين، وصنّف التصانيف وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه. وتصانيفه نحو أربعة آلاف كراسة" وقال: "لعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر" وأضاف: "كان يقضي منه العجب إذا سُئل كأن السنّة بين عينيه وعلى طرف لسانه"

٣- قال الشوكاني: "وقد وقع له مع أهل عصره قلاقل وزلازل، وامتُحِن مرة بعد أخرى، وحبس حبساً بعد حبس... وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحّر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنّة، فإنه لابدَّ أن يستنكره المقصّرون، ويقع له معهم محنة، ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين، ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره، وهكذا حال هذا الإمام، فإنّه بعد موته عرف الناس مقداره، واتفقت الألسن بالثناء عليه، وطارت مصنفاته واشتهرت مقالاته"

٤- وقال تلميذه البزار متحدثاً عن زهده وعزوفه عن دنيا الناس وإقباله على الآخرة: "لم يُسمع أنه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا داراً قوراء ولا جوار ولا بساتين ولا عقار، ولا شدّ على دينار ولا درهم، ولا رغب في دوابّ ولا نعم ولا ثياب فاخرة ولا حشم، ولا زاحم في طلب الرياسات، ولا رُئِي ساعياً في تحصيل المباحات" وقال أيضاً: "ما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها، بل جلّ همّته وحديثه في طلب الآخرة وما يقرّب إلى الله تعالى"

٥- وقال تلميذه ابن القيّم: "قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنّتي في قلبي، وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني. أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان في حبسه يقول: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسبّبوا لي من الخير"

٦- قال عنه الطوفي: "سمعته يقول: من سألني مستفيداً حقّقت له، ومن سألني متعنتاً نقضته، فلا يلبث أن ينقطع فأكفى مؤنته" وأضاف: "كأنّ العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء ويذر ما يشاء، وعرضت عليه أبيات فيها استفتاء، فثنى رجليه وأجاب عنها بمائة وتسعة أبيات، ويجيب في القعدة الواحدة بعدة كراريس"

٧- وحكى البرزالي: "...أنّ شيوخه أكثر من مائة شيخ"

٨- وقال عنه الحافظ المزي: "ما رأيت مثله وما رأي هو مثل نفسه، ولا رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنّة رسوله ولا أتبع لهما منه"

٩- وقال القاضي أبو الفتح بن دقيق العيد: "لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يريد ويدع ما يريد"

١٠- وقال الشيخ إبراهيم المقي: "إنّ تقي الدين يؤخذ عنه ويُقلّد في العلم، فإن طال عمره ملأ الأرض علماً وهو على الحق، ولا بدَّ أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة"

١١- وقال رئيس القضاة ابن الحريري: "إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن هو؟"

١٢- وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به: "ما رأت عيناي مثله"

١٣- وقال الحافظ الزملكاني: "لقد أُعطِي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم، والتبيين، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سُئِل عن فن من العلوم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن"

١٤- قال عمر بن علي البزار: "اختصَّ الله ابن تيمية بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيءٍ أو يستمع لشيءٍ غالباً إلا ويبقى على خاطره؛ إما بلفظه أو معناه" وقال أيضا: "من أعجب الأشياء التي تدلُّ على قوة حفظ ابن تيمية –رحمه الله– أنّه في محنته الأولى بمصر صنَّف عدة كتب صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء، وأسماء المحدثين والمؤلِّفين ومؤلَّفاتهم، وعزا كلَّ شيءٍ من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذُكِر فيها وأي موضع هو منها، كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذٍ كتابٌ يُطالِعُه، واختبرت هذه الكتب فلم يوجد فيها بحمد الله خللٌ ولا تغيُّر، ومن جملتها كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) وهذا من الفضل الذي خصَّه الله تعالى به"

١٥- قال الشيخ محمّد رشيد رضا –رحمه الله– في أعقاب رسالة من الرسائل الكثيرة التي طبعها لشيخ الإسلام على نفقة جلالة الملك عبد العزيز –طيّب الله ثراه– ما نصّه: "إنّ هذه التحقيقات الواسعة قلّما يعيها أحد إلّا إذا تكررت على ذهنه مراراً كثيرة. ومن الغريب أنّ هذه المسائل كان يكتبها شيخ الإسلام –قدّس الله روحه– أو يمليها من غير مراجعة كتاب من الكتب، وهي من الآيات البيّنات والبراهين الواضحات على أن هذا الرجل من أكبر آيات الله في خلقه، أيّدها

كتابه الذي قال فيه: ﴿إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ وسنّة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح من فهمها، والاعتصام بها ولقد كان –رحمه الله– يغرف من بحر من العلم في تلك اللجّة العويصة من دقيق المعاني، حيث ذكر أقوال أهل المنطق من اليونان بنقل أمين، ونقده نقد الخبير، وعقّب على ذلك ما زاده في ذلك الصدد أرباب الفكر من أمثال (الرازي) و(أبو حامد الغزالي) و(ابن سينا) وغيرهم، فأقرّهم على ما أصابوا ونقدهم فيما أخطأوا بياناً يقر له العقل، ويتفق مع النقل. ولم يكن شيخ الإسلام مقتصراً على فن من الفنون العلميّة، بل كان بحراً في سائر ما كان معروفاً في عصره، فبعد علمه بما جاء في الكتاب والسنّة، كان عالماً بالفلك، والرياضيات، والجغرافيا، والطب، وغيرها من العلوم المنتشرة في عصره، وكان يناقش كل أهل فن من تلك الفنون بعلم غزير، وكان أعلم بمذاهب أهل الباطل من أهل الباطل أنفسهم، وبهذا تمكن من الدخول إلى صميم دعواهم حتى أبطلها بالعقل والنقل" انتهى.(١)

ما أحوجنا لمثل شيخ الإسلام ابن تيمية في عصرنا هذا؛ ليقارع تلك الأباطيل ويبيّن للناس حقيقة ما جاءهم من ربهم، وليوضّح لهم النعمة الكاملة التي وصفها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(٢)

هذا ما جعله الله لشيخ الإسلام من لسان صدق بعده، وما كتبه له من قبول، وما ادّخره له عنده من حسن الثناء وجزيل الثواب خير وأبقى، والله حسبه.

بعض كتب شيخ الإسلام:

كتب شيخ الإسلام كتباً كثيرة نشر بها العلم النافع، ودعا فيها إلى العمل الصالح، والاعتقاد القويم المستمد من الكتاب والسُنّة وهدي السلف، منها الواسطية والحموية والتدمرية، ومن آثاره الحميدة كتاب (مجموع الفتاوى) وهذا المجموع قد حوى أنواع العلوم الشرعية على مختلف فنونها: في الأصول، والفروع، والتفسير، والحديث، واللغة، والتاريخ، وغيرها، ومع هذا فإن الناظر يجد فيه من الإيضاح والبسط وعزو الأقوال وذكر الخلاف، مع التحقيق والتحرير وقوة الترجيح، ما لا يكاد يجده في الكتب المصنفة في هذه الفنون، ومنها أيضاً كتاب (درء تعارض العقل والنقل) الذي قطع ابن القيم بعدم وجود نظير له وهو كذلك، وكتاب (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) ردّ فيه ردوداً وافية مفحمة على الشيعة والمعتزلة، نقض فيه أصولهم وشيّد أصول أهل السنّة، وكتاب (الرد على المنطقيين) و(نقض المنطق) وهما كتابان يبرزان عقلية الشيخ العلمية الفذّة، ونظرته النقديّة في هذا الفن العصيّ على الفهم، تراه في الكتابين ينقد المنطق الأرسطي عن فهم عميق، واطّلاع تام، وإحاطة عجيبة بمسائل هذا الفن،

---

(١) انظر مقدمة مجموع الفتاوى: ابن قاسم وابنه، ج١/ ص٣٩ وما بعدها، بتصرف.
(٢) المائدة: الآية ٣.

ومن جليل ما كتب كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) وغيرها من الكتب الجليلة.

ولقد كان للشيخ ابن قاسم وولده مُحَمَّد جهد مشكور في جمع مصنفات شيخ الإسلام بدعم سخي من ولاة أمورنا، كان للملك المؤسس عبد العزيز -رحمه الله- يدٌّ غرّاء على طلبة العلم في إخراج كنوز الشيخ، وكذا كنوز غيره من علماء الأمة، ثمّ تبعه أبناؤه من بعده وكان للملك سعود سعي في ذلك مشكور، وليس هذا بمستغرب على جلالته فلقد دأب على نشر كتب أهل السنّة، وعمل على نشر عقيدة أهل السنّة النقيّة عقيدة السلف الصالح، ومن دلائل ذلك نشره (العقيدة الطحاوية) وغيرها من الكتب، ولقد ذكر الشيخ أحمد شاكر الذى أخرج كتاب (الطحاوية) منسوباً إلى صاحبه (ابن أبي العز) أيادي جلالة الملك -رحمه الله- فرحمة الله تغشى الوالد وما ولد، قال العلّامة المحدّث أحمد شاكر: "ومخطوطة الشرح التي وجدت كانت غفلاً من اسم المؤلف فلم يعرف إذ ذاك من هو؟... ولكن الشرح نفيس وأبحاثه عميقة وتحقيقاته بديعة متقنة، فأصدر الملك العظيم سيد العرب، ورافع لواء التوحيد والقائم على إحياء مذهب السلف، إمام الموحدين، الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود -رحمه الله ورضي عنه- أمره الكريم بطبعه على نفقته، وجعله وقفاً لله تعالى. وقد قرأت الكتاب عند ظهوره قراءة عابرة، ثم كان من فضل الله علي حين قدمت الرياض في شهر جمادى الأولى من هذا العام سنة (١٣٧٣هـ) أن كلّفني الأستاذ المفتي الأكبر العالم العلّامة الجليل الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم آل الشيخ، وشقيقه الأخ الفاضل الأستاذ الكبير الشيخ عبد اللطيف -أن أعيد طبع هذا الشرح النفيس في مصر"(١)

فانظر إلى تتابع تلك الدولة المتبّعة لهدي نبيها والسلف الصالح على نشر الكتب السنّية النافعة.

فقه انشغال شيخ الإسلام بالردود على أهل الباطل:

إنّ المطالع لمؤلفات شيخ الإسلام يجد أكثرها ردوداً على أهل الأهواء والبدع والإلحاد: الدهرية، والقدرية، والجهمية، والمعتزلة، والقائلين بوحدة الوجود، والفلاسفة، وغيرهم من الملل والنحل المتباينة، ولقد شغل شيخ الإسلام أكثر حياته بجهاد أهل البدع والأهواء، وكتب أعظم مصنفاته وأقواها وأجودها في الرد عليهم.

وكان له في ذلك حجّة قوية وفقه دقيق بيّنه تلميذه الحافظ أبو حفص عمر البزار حين قال: قد سألته والتمست منه تأليف نصّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته؛ ليكون عمدة في الإفتاء، فقال لي ما معناه: الفروع أمرها قريب، فإذا قلّد المسلم فيها أحد العلماء المقلّدين جاز له العمل بقوله مالم يتيقن خطأه، وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء: كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين

---

(١) مقدمة شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: ابن أبي العز، تحقيق: أحمد شاكر، ص٥، مطبعة دار التراث.

بوحدة الوجود والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسلمية وغيرهم من أهل البدع.. قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أنّ كثيرا منهم إنّما قصد إبطال الشريعة المقدّسة المحمديّة الظاهرة على كل دين، وأنّ جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلّ أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنّة، مقبلاً على مقولاتهم إلّا وقد تزندق، أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده، فلمّا رأيت الأمر على ذلك بان لي أنّه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم –أن يبذل جهده؛ ليكشف رذائلهم وزيف دلائلهم؛ ذبّاً عن الملّة الحنفية والسنّة الصحيحة الجلية، ولا والله ما رأيت أحداً ممن صنّف في هذا الشأن، وادّعى علو المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام؛ وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سمّوها بزعمهم حكميّات وعقليّات، وإنما هي جهالات وضلالات، فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنّي صرفت جلّ همّي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية.

ويقول في موضع آخر من فتاويه: ولولا أنّ أصحاب هذا القول (يعني القائلين بوحدة الوجود) كثروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام ومشايخ الإسلام، وأهل التوحيد والتحقيق وأفضل أهل الطريق، حتى فضلّوهم على الأنبياء والمرسلين وأكابر مشايخ الدين –لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال وإيضاح هذا الضلال، ولكن ليُعلَم أن الضلال لا حدّ له، وأنّ العقول إذا فسدت لم يبق لضلالها حدّ معقول، فسبحان من فرّق بين نوع الإنسان، فجعل منه من هو أفضل العالمين، وجعل منه من هو شرّ من الشياطين. فهذا هو الذي أوجب جهاد هؤلاء الذين يسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء الله وأوليائه، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله، وهم في الباطن محاربون الله ورسوله، ويظهرون كلام الكفّار والمنافقين في قوالب ألفاظ أولياء الله المحقّقين، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمناً ولياً لله فيصير منافقاً عدواً الله.(١)

السمات العامة لمنهج شيخ الإسلام:

١- إنّ من أبرز سمات هذا الإمام تعظيمه للكتاب والسنّة، فلا يُقدّم على قول الله ولا قول رسوله قول أحد كائناً من كان، فالحقّ غايته الأولى ومطلوبه الأعظم، لا يتركه لقول إمام، ولا يرجع لإنكار أهل الزمان؛ ولأجل ذلك جاهد ونافح لإظهار الحق وإعلاء السنّة والذبّ عنها، فكتب في ذلك الكتب الطوال نصرة للسنّة وإيضاحاً للحق ورداً للشبه والأهواء، يبسط الأدلّة، ويؤصّل

---

(١) موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه: صالح بن غرم الله الغامدي، ص٣٢ وما بعدها، بتصرف.

للمذهب الحق، وينقض أصول المخالفين، ويتجلّى تعظيمه للكتاب والسنّة في رده على الملاحدة والمناطقة والفلاسفة والمتكلّمين، وكذلك نقض أصول الرافضة وأهل التصوّف، كما ردّ على السحرة والمنجمين والكهّان وعبدة الكواكب والمستعينين بالشياطين العابدين لهم، وجرى على هذا المنهج في تقرير مسائل الفروع، وإن خالف مشهور المذهب أو نص الإمام، فرفع راية الإنصاف ودفع التعصب، فلم يتعصّب لقول ولا مذهب ولا إمام، فضعّف الأقوال الضعيفة، وبيّن الراجح بالدليل والبرهان. وهو مع هذا معظّم لأهل العلم من السلف والخلف، عارف بقدرهم وفضلهم؛ ولذا قرّر في مواضع كثيرة وجوب محبّتهم وموالاتهم، ومعرفة حقّهم وفضلهم، ونهي عن الوقيعة في أعراضهم، أو انتقاص أحد منهم. وهو صاحب كتاب (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) الذي انتصر فيه لهؤلاء الأئمة، وبيّن عذرهم في مخالفة السنّة، ووضع لذلك قواعد في الاعتذار عنهم لم يسبق إليها، وقد نسج من جاء بعده على منواله.

٢- كان شيخ الإسلام عالماً بنشأة العلوم وتطورها وتتابع أزمانها، خبيراً بمؤلفاتها في العلوم الشرعية وفي غير العلوم الشرعية: كعلم الفلسفة وعلم الفلك وبعض العلوم الأخرى، مما جعل له نظرة أكثر دقة وأبلغ تصوراً ونقداً لمقارنته بين أقوال متأخريهم مع متقدميهم؛ وإبراز فروقها عند مناقشتهم.

٣- إنّ ممّا تميّز به تأليف شيخ الإسلام في كتبه وفتاواه كثرة الاستدلال، ووفرة اعتماده على أدلة القرآن باستدلالات مستفيضة، كما يستدلّ بالسنن فيورد ما في الصحاح والسنن والمسانيد، باستدلالات ظاهرة وخفية يبين عنها ويجليها، وربما لم يسبقه أحد إلى هذا الاستدلال بهذه الأدلّة على المسألة. وهو مع ذلك إذا عرض للأدلّة من السنّة يعقبها بالكلام على صحة الأحاديث ونقد أسانيدها، والكلام على رجالها، وبيان العلل في متونها بنظر مجتهد متمكن.

٤- يزيد شيخ الإسلام استدلالاته بنظره في مقاصد الشريعة، واستدلاله بها في تقرير المسائل وإظهار محاسنها، وجعلها محوراً للترجيح؛ وهو في ذلك على أصول السلف، وهذا مرتقى صعب لا يُستطاع إلا بجمع وتمحيص وبحث دقيق في أدلّة الشريعة وفروع المسائل، تتجلّى معه المقاصد، وينتفي التضادّ والتناقض، وهذه سمة بارزة وعلامة ظاهرة في مؤلفات هذا الإمام.

٥- كما استعمل شيخ الإسلام مصطلحات أهل الفنون مناظراً أو مبتدئاً، مؤيداً أو معارضاً، وهي التي يسمّيها العلماء اللغة العرفية. فإذا تكلّم في مسألة فقهية استعمل لغة الفقهاء، وإذا تكلم في مسألة عقدية استخدم لغة أهل ذلك العلم، وإذا ناقش أهل السلوك والتصوّف استخدم لغتهم. وهذا يحفظ العالم من الخلط؛ لأن كل أهل فن لهم اصطلاحات.

٦- ومما تميّز به أيضاً أنه يُكثر النقول، ويسهب في النقل عن أهل العلم. وهذا الإسهاب في النقل للتدليل على أنّ ما ذهب إليه ليس متفرداً به، أو ليس غريباً.[١]

(١) انظر: موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه: صالح بن غرم الله الغامدي، ص٥٠ وما بعدها، بتصرف.

المطلب الثاني

تعريف الكهانة

نذكر في هذا المطلب بحول الله تعريف الكهانة لغة واصطلاحا، كما نذكر أقسامها الرئيسة، وأصولها التي ترجع صورها إليها.

أولاً: تعريف الكهانة:

الكهانة لغة: كهَن له يكهن: قضى له بالغيب من باب قتل، فهو: كاهن ويكهن وكهن كَهَانة وتكهّن تكهّناً وكهّن تكهيناً والأخير نادر. فإذا صارت الكهانة له طبيعة وغريزة قيل: كهُن بالضم والكِهانة بالكسر الصناعة. والعرب تسمّي كل من يتعاطى علماً دقيقاً كاهناً. ومنهم من كان يسمى المنجّم والطبيب كاهناً. والكاهن في كلام العرب: الذي يقوم بأمر الرجل، ويسعى في حاجته، والقيام بأسبابه وأمر خزائنه. وكاهن الرجل: من يخلفه في أهله للقيام بأمرهم.

الكهانة اصطلاحاً: تعاطى الأخبار عن الحوادث الخفية الغائبة بادّعاء معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب عن طريق مساعدة الشياطين للكاهن. وعلى هذا التعريف، فالتنجيم، وضرب الرمل، وقراءة الكف، والعرافة وغير ذلك.. تدخل في الكهانة.(١)

تعريف شيخ الإسلام للعرّاف:

قال شيخ الإسلام: والْعَرَّافُ " قَدْ قِيلَ إنَّهُ اسْمٌ عَامٌّ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرِّمَالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَقَدُّمِ الْمَعْرِفَةِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ. وَلَوْ قِيلَ: إنَّهُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ فَسَائِرُهَا يَدْخُلُ فِيهِ بِطَرِيقِ الْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ، كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَنَحْوِهِمَا.

واختصرت الدكتورة بأخضر ما قاله شيخ الإسلام بقولها: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية العراف قد قيل إنه اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور الغيبية.(٢)

فالكهانة هي الكلام في الغيب ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، وهذا ما عبّر عنه شيخ الاسلام في تعريفه الموجز للكاهن: وهو أنه من يدعى علم الغيب. ثم ساق أمثلة للكهان.

يقول ابن حجر(٣): "وَالْكَهَانَة (بِفَتْحِ الْكَاف وَيَجُوز كَسْرهَا) اِدِّعَاء عِلْم الْغَيْب كَالْإِخْبَارِ بِمَا سَيَقَعُ فِي الْأَرْض مَعَ الِاسْتِنَاد إِلَى سَبَب، وَالْأَصْل فِيهَا اِسْتِرَاق السَّمْع مِنْ كَلَام الْمَلَائِكَة، فَيُلْقِيه فِي أُذُن الْكَاهِن، وَالْكَاهِن لَفْظ يُطْلَق عَلَى الْعَرَّاف، وَالَّذِي يَضْرِب بِالْحَصَى، وَالْمُنَجِّم، وَيُطْلَق عَلَى مَنْ يَقُوم بِأَمْرٍ آخَر

(١) موقف الإسلام من السحر: ج ١/ ص١٦٦، الدكتورة حياة بأخضر بتصرف يسير.
(٢) السابق نفسه.
(٣) فتح الباري (ج ١٦/ ص٢٩١)

وَيَسْعَى فِي قَضَاء حَوَائِجه. وَقَالَ فِي (الْمُحْكَم): الْكَاهِن الْقَاضِي بِالْغَيْبِ. وَقَالَ فِي (الْجَامِع): الْعَرَب تُسَمِّي كُلّ مَنْ أَذِنَ (أعلم أو أخبر) بِشَيْءٍ قَبْل وُقُوعه كَاهِنًا.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْكَهَنَة قَوْم لَهُمْ أَذْهَان حَادَّة وَنُفُوس شِرِّيرَة وَطِبَاع نَارِيَّة، فَأَلِفَتْهُمْ الشَّيَاطِين لِمَا بَيْنهمْ مِنْ التَّنَاسُب فِي هَذِهِ الْأُمُور، وَسَاعَدَتْهُمْ بِكُلِّ مَا تَصِل قُدْرَتهمْ إِلَيْهِ. وَكَانَتْ الْكَهَانَة فِي الْجَاهِلِيَّة فَاشِيَة خُصُوصًا فِي الْعَرَب لِانْقِطَاعِ النُّبُوَّة فِيهِمْ... وَالْعَرَّاف بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَتَشْدِيد الرَّاء مَنْ يَسْتَخْرِج الْوُقُوف عَلَى الْمَغِيبَات بِضَرْبٍ مِنْ فِعْل أَوْ قَوْل.

ونقول: هذا قول جامع مختصر. فالكهّان أقوام سوء بينهم تتناسب أرواحهم وصفاتهم مع صفات الشياطين، لذا ألفتهم الشياطين وألفوها، ومن هذا أنهم كذبة يتمنون السوء للناس، وهم أهل حسد وحقد لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، فما ألفتهم الشياطين وساعدتهم إلا لهذا الخبث الذي في نفوسهم.

قال بعض الباحثين في الأدب: يدّعي الكهّان أنّ الأرواح المنفردة (وهي الجن) تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأنّ أرواحهم صفت حتى صارت لتلك الأرواح متفقة.

وقد وصف الأستاذ جواد علي بعض ظروف التكهن -خصوصاً حالة المس- فقال: "ويكون الكاهن في أثناء تكهنه في غيبوبة أو شبه غيبوبة في الغالب، ذلك لأنه متصل في هذه الأثناء بعالم مجهد صعب لا يتحمله كل إنسان... واتصال الروح بجسم الكاهن شيء جد عسير، يتصبب العرق منه، خاصة إذا كان المتكلم الكاهنَ نفسه"

ونقول: وهذه الحالة التي ذكرها الأستاذ جواد إنما هي صورة من صور التكهن، وإلا فإنه لا يلزم أن يكون كل كاهن يدخل في غيبوبة، نعم هناك كهّان تنطق الشياطين على ألسنتهم، وقد تجد كاهناً يخبرك ببعض الأمور الغائبة عنك وهو في حالة مستقرة، توحي له الشياطين فتحدثه في أذنه، وهذا ما وقفنا عليه ورأيناه.

وقال الأستاذ جواد: ويكون التكهن في الغالب في مكان هادئ تكتنفه ظلمة أو عتمة.

ونقول: ليس هذا على الدوام ولا الإطلاق، فلقد تمّ الاحتساب والقبض على رجال كانوا في أماكن قذرة تحيط بهم النجاسات، والأمر على حسب ما تأمر به الشياطين.

وقد احتسبنا على كاهنة وهي تتكهن في الحدائق العامة أي لا يلزم أيضاً المكان الهادئ، كانت تستقبل الناس في حديقة عامة، معها ودعات تخبرهم بمستقبلهم، كما تخبرهم بأشياء حدثت لهم فيما مضى. أرسلنا إليها من تمتحنها، ثم ألقي القبض عليها، وأحيلت إلى سجن النساء وتم تعزيرها. وبعض الكهان رأيناهم يتكهنون وهم في مكان عتمة. انتهى.[١]

---

(١) من بحث سحر الكهانة والإلهام والموسيقى في الشعر القديم ص ٥. بتصرف.

علم الكهانة: هو مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة: من الجن والشياطين، واستعلامها الأحوال الجزئية الجارية في عالم الكون والفساد، لكنها مخصوصة بالأمور المستقبلة، وكان ذلك في العرب كثيراً. وآخر من وجد وروى عنه الأخبار العجيبة (شق وسطيح) وهما كانا كاهنين مشهورين في العرب في زمان الجاهلية. وجاء نحوه في أبجد العلوم.[1]

ونقول: هما ليسا آخر من حُكي عنهم أخبار عجيبة، بل هناك حكايات غريبة وعجيبة حصلت لمن بعدهم إلى زمان النبي ﷺ والأزمنة بعده، لكن لعله يريد القصة العجيبة التي فسروا بها الرؤيا التي تتعلق بالنبي ﷺ المشهورة في كتب السير والتاريخ.

ونريد أن ننبه على أمر يخص صاحب كشف الظنون هذا فيما يتعلق بالكهانة، وهو أنّ هذا الكاتب عنده خلط عجيب وتناقض ظاهر في أمر الكهانة إذ ينقل تحريمها أحياناً، ويثني على الكهّان وعلى كتبهم كثيراً، وينقل كثيراً عن الرافضة والصوفية والمعتزلة وغيرهم من أهل الفرق المنحرفة.

الأصول التي ترجع إليها الكهانة:

للكهانة صور كثيرة سنأتي على ذكرها بعد حين إن شاء الله، لكن هذه الصور الكثيرة تعود إلى أصول بيّنها أهل العلم، وترجع حقيقتها إلى أصناف وأنواع.

قال الحافظ ابن حجر عن الكهانة: "وَهِيَ عَلَى أَصْنَاف: مِنْهَا مَا يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْ الْجِنّ، فَإِنَّ الْجِنّ كَانُوا يَصْعَدُونَ إِلَى جِهَة السَّمَاء، فَيَرْكَب بَعْضهمْ بَعْضًا إِلَى أَنْ يَدْنُو الْأَعْلَى بِحَيْثُ يَسْمَع الْكَلَام، فَيُلْقِيه إِلَى الَّذِي يَلِيه، إِلَى أَنْ يَتَلَقَّاهُ مَنْ يُلْقِيه فِي أُذُن الْكَاهِن فَيَزِيد فِيهِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَام وَنَزَلَ الْقُرْآن حُرِسَتْ السَّمَاء مِنْ الشَّيَاطِين، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُب، فَبَقِيَ مِنْ اِسْتِرَاقهمْ مَا يَتَخَطَّفهُ الْأَعْلَى فَيُلْقِيه إِلَى الْأَسْفَل قَبْل أَنْ يُصِيبهُ الشِّهَاب، إِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَة فَأَتْبَعَهُ شِهَاب ثَاقِب﴾[2] وَكَانَتْ إِصَابَة الْكُهَّان قَبْل الْإِسْلَام كَثِيرَة جِدًّا كَمَا جَاءَ فِي أَخْبَار شِقّ وَسُطَيْح وَنَحْوهمَا، وَأَمَّا فِي الْإِسْلَام فَقَدْ نَدَرَ ذَلِكَ جِدًّا حَتَّى كَادَ يَضْمَحِلّ وَلِلَّهِ الْحَمْد. ونقول: إنّ سبب ذلك معرفة الناس أنّ ذلك حرام، وأنّ الكهانة شرك.

ثَانِيهَا: مَا يُخْبِر الْجِنِّيّ بِهِ مَنْ يُوَالِيه بِمَا غَابَ عَنْ غَيْره مِمَّا لَا يَطَّلِع عَلَيْهِ الْإِنْسَان غَالِبًا، أَوْ يَطَّلِع عَلَيْهِ مَنْ قَرُبَ مِنْهُ لَا مَنْ بَعُدَ.

ثَالِثهَا: مَا يَسْتَنِد إِلَى ظَنّ وَتَخْمِين وَحَدْس، وَهَذَا قَدْ يَجْعَل اللَّه فِيهِ لِبَعْضِ النَّاس قُوَّة مَعَ كَثْرَة الْكَذِب فِيهِ.

---

(١) كشف الظنون (ج ٢/ ص٤٥٣)

(٢) الصافات: الآية ١٠.

رَابِعهَا: مَا يَسْتَنِد إِلَى التَّجْرِبَة وَالْعَادَة، فَيُسْتَدَلّ عَلَى الْحَادِث بِمَا وَقَعَ قَبْل ذَلِكَ، وَمِنْ هَذَا الْقِسْم الْأَخِير مَا يُضَاهِي السِّحْر، وَقَدْ يَعْتَضِد بَعْضهمْ فِي ذَلِكَ بِالزَّجْرِ وَالطَّرْق وَالنُّجُوم، وَكُلّ ذَلِكَ مَذْمُوم شَرْعًا. (١)

وقالت الدكتورة حياة بأخضر عن تلك الأنواع:

النوع الأول: أن يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يسترقه من السماء، فإنّ الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى، بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد عليه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن، حرست السماء من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآَنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾(٢)

قلنا: وهذا النوع هو أصل الكهانة.

النوع الثاني: أن يكون للإنسان ولي من الجن، يخبره بما يطرأ في أقطار الأرض، وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يستبعد حدوثه فالشياطين تسري في الإنسان سريان دمه، وهي تدخل البيوت التي لا يذكر فيها اسم الله، وتشارك في الطعام والشراب والثياب والأولاد إذا لم يذكر اسم الله.

وهذان النوعان هما من استمتاع الإنس بالجن والشياطين، باستخدامهم في الإخبار بالمغيبات.(٣)

والفرق بينهما في المعلومات التي يعطيها الشيطان وليه الكاهن، فالأول استراق السمع ومحاولة تحسس ما يجري في السماء بالتسمع إلى الملائكة، وأما النوع الآخر فهو الإخبار بالأحوال الأرضية التي تجري بعيدا عن الكاهن وعن طالب الكهانة، والجن بما له من قدرة يستطيع أن يجوب الأقطار البعيدة ليأتيه بالأخبار. أي أنه من الغيب النسبي الذي يخفى عن بعض الخلق بشراً أو غيرهم.

النوع الثالث: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، بأن يزعم الشخص أنه يعرف الأمور بمقدمات وأسباب، يستدل بها على مواقعه كالشيء المسروق فيعرف من سرقه، وتتهم المرأة بالزني فيعرف صاحبها، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثـرة الكذب فيه.(٤)

ونقول: للكهّان حالات:

١) منهم من تنزل عليه الشياطين فتوحي إليه.

٢) ومنهم من تتلبس به وتتحدث على لسانه وهذا واقع معروف مشاهد، احتسب على بعض هؤلاء.

(١) فتح الباري: لابن حجر ج٧ص١٧١.
(٢) الجن: الآية ٩.
(٣) موقف الإسلام من السحر: ج ١/ ص١٦٦، الدكتور حياة بأخضر، بتصرف يسير.
(٤) السابق: بتصرف يسير. يرى البعض أنّ هذا النوع الأخير لا يدخل في الكهانة إنما هو كالخريت الذي يعرف الطريق في الصحراء أو قصاص الآثار أو أصحاب الفراسة التي كانت منتشرة عند العرب، وسيأتي الكلام عن ذلك كله مفصلا.

٣) ومنهم نوع كهانتهم ضعيفة تأتيهم الشياطين في منامهم، فتخبرهم ببعض الأحوال، والنبي ﷺ قال: {الحلم من الشيطان}[(١)]

وقد ذكر حاجي خليفة للكهانة في كتابة (كشف الظنون) أنواع الكهانة، ويعد كلامه هو الأكثر تفصيلاً وهو يشتمل على أصناف ثلاثة كبرى مقسمة بدورها إلى فروع عدة:

الفراسة وتفرعاتها:

١. الشامات والوحمات (علم الشامات والخيلات)
٢. قراءة الكف (علم الاسارير)
٣. النظر في لوح الكتف (علم الاكتاف)
٤. التعرف على آثار الأقدام على الأرض (علم عيافة الأثر)
٥. التكهن عن طريق خطوط الشكل والسلالة (علم قيافة البشر)
٦. حس الاستهداء داخل الصحراء (علم الاهتداء في البراري والقفار)
٧. الكشف عن الينابيع (علم الريافة)
٨. الكشف عن المعادن (علم استنباط المعادن)
٩. معرفة الإشارات المنبئة بسقوط المطر (علم نزول الغيث)
١٠. الكهانة بمعناها الدقيق أي: معرفة المستقبل انطلاقا من أحدث ماضية (علم العرافه)
١١. التكهن عن طريق الاختلاج (علم الاختلاج)

السحر وتفرعاته:

١) الكهانة (علم الكهانة)
٢) السحر الأبيض (علم النيرينجية)
٣) معرفة فضائل الأسماء الإلهية والأدعية والأعداد وأشياء أخرى خاصة (علم الخواص)
٤) تأثير الجاذبية أو التعاويذ (علم الرقي)
٥) العزائم الشيطانية أو التعزيمات (علم العزائم)
٦) استحضار الأرواح فى حالاتهم البدنية (علم الاستحضار)
٧) استحضار أرواح الكواكب (علم دعوة الكواكب)
٨) الفيلقطيرة (علم الفيلقطيرات)
٩) فن الاستخفاء أو الاختفاء المؤقت عن الانظار (علم الخفاء)

---

(١) صحيح البخاري: حديث رقم ٣٢٩٢.

١٠) علم الحيل والخدع (علم الحيل الساسانية)

١١) فن كشف الغش (علم الدك)

١٢) الشعوذه (علم الشعبذه)

١٣) افتتان القلب (علم تعلق القلب)

١٤) اللجوء إلى خواص الأدوية (علم الاستعانه بالأدوية)

التنجيم وتفرعاته:

١- أوقات السعد والنحس (علم الاختيارات)

٢- قراءة خطوط الرمل (علم الرمل)

٣- قراءة البشائر والنذر(علم الفال)

٤- الاقتراع (علم القرعه)

٥- زجر الطير (علم الطيرة)

وردت الكهانة ضمن هذا التصنيف منقسمة إلى قسمين الكهانة التي هي نتاج علم فطري خاص ببعض الأرواح وهي تشكّل فرعاً من علم معرفة الأمزجة من خلال الطبيعة ويسمى فراسة، والكهانة التي تتم بوسائل التعزيم واستحضار أرواح الكواكب والتي هي بالتالي فرع من السحر وتسمى كهانة، وقد استشهد حاجي خليفة في الواقع بكتاب (السر المكتوم) لفجر الدين الرازي الذي اعتمد على (كتاب سر الأسرار) المنسوب إلى أرسطو. (انتهى من كتاب الكهانة لتوفيق فهد ملخصا، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله)

نقد كتاب الكهانة لتوفيق فهد والتنبيه عليه:

كتاب الكهانة العربية قبل الإسلام، كتبه: توفيق فهد وهو أستاذ للدراسات الإسلامية بإحدى الجامعات الفرنسية، وهو كتاب جامع لا شك بما يتصل بأمر الكهانة وفيه تفصيلات كثيرة، وأحببنا التنبيه هنا على هذا الكتاب لأنه من أوائل ما يبدو للباحث عبر محركات البحث عبر الشبكة العنكبوتية، ويجري تنزيله بكثرة، كما أنّ هذا الكتاب قدم لترجمته العربية: رضوان السيد وهو فيلسوف عربي معروف ومشهور، والكتاب مع جمعه ما يتصل بالكهانة، وإن أكثره وجله مأخوذ من الكتب التي تناولت المؤلفات العربية وإحصاء العلوم، ككتاب (مفتاح دار السعادة) وكتاب (كشف الظنون) و(الفهرست) وغيرها، إلا أنّ الرجل ذكر فيه دراسات المستشرقين، وقام بدراسة ما استطاع من كتب مذكورة في هذه الكتب، وقد أطنب رضوان السيد في الثناء على الكتاب وذكر دقة المعلومات، وروعة اللغة الفرنسية التي كتب بها الكتاب وبلاغتها، وأثنى على الترجمة العربية بنحو ذلك، والأمر الذي نأسف له أنه ما أبدى أية ملاحظة على الكتاب، والحقيقة أنّ الكتاب يمثل النموذج الاستشراقي الحاقد على الإسلام إذ أنّ ذلك

الرجل الذي وصف بالدقة وجودة الكتابة، للأسف لا توجد الدقة ولا الموضوعية في كتابه، بل ولا أدنى قدر منها، فأولاً لا تكاد تخلو صفحة من الطعن في الإسلام وعقائده ونبيه وكتابه، ولا يمر بأمر يستطيع إلصاق الأخلاق المرذولة بالإسلام إلا فعل، كما أنه لم يكن دقيقاً أبداً ولا باحثاً بالمعنى العلمي لتلك الكلمة، ففي كثير جداً من الصفحات يفسر ما يذكر بما يهوى وما يريد لا ما يعتقده أهل الإسلام، وهو من بدء الكتاب يرى أنه لا فرق عنده بين الوحي والكهانة، وهو الكلام الذي رده شيخ الإسلام وهو مردود بالكتاب والسنة، وذكر وقائع وأحاديث ثم ذكر أنّ هذا من الكهانة، فحينما تحدث مثلاً عن الديك وأورد بعض الأحاديث الصحيحة في ذلك، ذكر أنّ هذه الأحاديث تدعم أمر الكهانة، وغيرها مما ورد في القرآن والسنة، فمثلاً حينما ذكر التكهن والتطير بالنملة ذكر ما جاء في سورة النمل، وأنّ هذا إشارة للتكهن بالنمل، وكثير جدا مما ذكر يفسر النصوص والوقائع والأحداث على هواه ليوهم القارئ أنّ الدين الإسلامي يدعم الكهانة، ويدعو إليها، ثم بعد ذلك لترجع إلى التقديم والإطراء العجيب من رضوان لترى كذب الدقة والموضوعية، لكن نقلنا منه ما يتصل بالكهانة وما ذكره من دراسات حولها، مع التحذير من الأباطيل التي مُلئ بها الكتاب حتى أنه كتاب يمثل الإفك الاستشراقي في زماننا، وهو نموذج لهؤلاء الذين يدعون العلمية، ويشجعون العلم التجريبي، كيف ينشرون الكهانة، ويصورونها بأنها علم لا يختلف عن الوحي الإلهي؟ كما أنهم يرونها لا تخالف العلمية في شيء، لكن ككثير من إنتاج المستشرقين نرجع إليه لما جمع فيه من مادة كثيرة ووفيرة، ولكن لا نقول دقيقة كرضوان السيد، بل ذكرنا ما ذكره من تاريخ وصور، ثم كررنا على ذلك بسيف الحق من كلام الله وكلام رسوله وكلام شيخ الإسلام؛ لنقطع رأس الكفر والضلال وندمغ بالحق باطل هذا الرجل وأمثاله، ولنحذّر الناس من مثل هذا الكتاب المنتشر والمتصدر، كي لا يغتر به أحد.

وختاماً فإنّ هذا الكتاب جمع فيه كاتبه ما تفرق قبله من كتب الكهانة الضالة، كذب فيه وافترى وألبس الكهانة الباطلة ثوب الحق والشرع والدين والعلم، وكذب ما شاء على دين مُحَمَّد ﷺ أحصى فيه من كتب الكهانة الكثير والكثير، وعرض لكثير من صورها، وعلى صفحات كتابه يظهر حقد الصليبية، وإفك الكافرين على دين مُحَمَّد ﷺ بأبي هو وأمي.

المطلب الثالث

ولع الناس بالأسرار وعلم الغيب:

منذ بدء الخليقة وقضية التطلع إلى استكناه ما سيكون موجودة حاضرة، فحين خلق الله آدم -عليه السلام- أرادت الملائكة أن تستجلي ما سيفعله ذلك الإنسان، قال تعالى عنهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(١) لكن الملائكة كانوا منقادين لربهم رادّين العلم إليه سبحانه مسلمين له ومستسلمين، يخافون الإفساد في الأرض، ويخشون تجرؤ هذه المخلوقات على المعاصي والمخالفات، ويخشون من قلة تعظيمهم لربهم وتقديسهم له تعالى، ولقد قنعوا كل القناعة بما قاله الرب سبحانه ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(٢) ثم بعد معرفة شيء من حكمة الله أُمروا بالسجود لآدم فسجدوا، ثم رأوا بعد ما سرّهم حتى صاروا يدعون لأهل الصلاح من ذرية ذلك المخلوق المكرم عليه السلام، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣) وكانوا لهم نصراء بإذن الله ومبشرين بكل خير.

وفي زمن النبي ﷺ جاء من يسأل متى الساعة، لكن السائلين قنعوا بجواب النبي ﷺ وكان سؤالهم يتعلق بصلاح دينهم والعمل لمرضاة ربهم، لكن من يتعاملون مع الكهّان ليست طريقتهم: لا طريقة الملائكة الذين خافوا أن يكون ذلك المخلوق سفاكاً للدماء مفسداً في الأرض وهم يقدسون ربهم وينزهونه تعالى، ولا هي طريقة الصحابة الذين كانوا حريصين على سلامة دينهم.

إنّ الناس لديهم ولع بأمر الغيبيات ومحاولة استكناهها، وعندهم غرام بالأمور السرية وقصد لها، فهم يرون الكاهن رجل أسرار يخبر بما غاب عن الناس، وعنده ما ليس عند الناس، والكاهن الذي يستعين بالجن والشيطان له أسراره وغموضه الذي يجعل الناس تتعلق به، وترهب جانبه وتستجلب الخير منه، وكم تعلّق الناس بالأمور السرية والأشياء الغامضة، وقد طالعنا كتابا مهما هو كتاب الجمعيات السرية لعلي أدهم ،وهو كتاب يتحدث عن الجمعيات السرية وجدنا فيه كلاماً يناسب هذا المقام، وإن كان ميدان الكتاب غير ميدان كتابنا، لكن هناك قاسماً مشتركاً وهو ولع الناس بالأسرار، على أنه بدء حديثه عن الإسماعيلية النزارية، وهي طائفة ملحدة مقيتة عملت بالسحر والكهانة بأنواعها. وسننتقي من مقدمة الكتاب ما يناسب المقام:

---

(١) البقرة: الآية ٣٠.
(٢) البقرة: الآيات ٣٠,٣١,٣٢.
(٣) غافر: الآية ٧.

قال علي أدهم: "لقد لعبت الجمعيات السرية دوراً هاماً في تاريخ البشرية، وأثّرت تأثيراً عظيم الخطر بعيد المدى، وكانت في بعض الأحيان أداة هائلة من أدوات التغيير والإصلاح والبناء، وفي أحيان أخرى كانت وسيلة من أقوى وسائل الهدم والتدمير، أو هز أركان المجتمع وزعزعة رواسيه وتفكيك روابطه، وجلبت المصائب الكبيرة، وكانت سبباً في وقوع الأحداث الجليلة والجرائم المنكرة والحماقات والسخافات، وفي بعض أحيانها مسرح للدجل والغش والخداع.

وللجمعيات السرية سحر خاص وجاذبية قوية تهفو بنفوس فريق من الناس، وتستميلهم وتستأثر بأهوائهم، وتبلغ منهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة والإتيان بغرائب الأعمال، وقبول الطاعة العمياء والاستسلام المطلق، والواقع أنّ في الكتمان والسرية والخفاء والغموض ما يستهوى الخيال بوجه عام، ويطلق الأوهام والأحلام، وكلما كان السر أدقّ وأخفى وكان اللغز أعوص وأغمض كان سحر الخفاء أشد جاذبية وأقوى إطلاقاً للخيال، وما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعاً بالغرائب والعجائب، محباً لاستطلاع الأسرار وكشف المخبآت واستجلاء الغوامض، ويعرف أصحاب الصحف والمجلات هذه النزعة الإنسانية الغلابة القاهرة، فيطالعون القراء الفينة بعد الفينة بغرائب الحوادث ومدهشات الأخبار، حتى إذا ما نضب معينهم ولم يواتهم القدر بالقدر اللازم من الحوادث المثيرة والخفايا المحجبة والأسرار المغيبة، عمدوا إلى الاختلاق والتلفيق في بعض الأحيان، واستعانوا بأخبار الجن والشياطين والعفاريت على إثارة حب الاستطلاع، وميل الناس إلى ما يتجاوز حدود المألوف والمعهود، وقد يبالغون في الحادثة البسيطة والأخبار العادية ويضخمونها ويهولون بها ويخلقون من حبتها قبة، ويضفون عليها الأوصاف البراقة المثيرة والنعوت المحيرة للألباب، حتى تغدو الحادثة المبتذلة الخلقة كأنها شيء فذّ نادر قادم من عالم الظلام ودنيا الغيب والخفاء والأسرار، ويعتقد الصحفيون البارعون أنّ القرّاء يريدون بباعث حتى صادر من أعماق نفوسهم ما يوحي بالمجهول، ويشعر بالغرابة، وينقل الإنسان إلى ما وراء الحياة اليومية الدارجة المملولة، وينحو نحوهم وينسج على منوالهم كتاب القصص والروايات التي تدور حول الجرائم الخفية، وإماطة اللثام عن الأسرار، وإعمال الفكر في استنباط الحيل وإحكام الشباك، ويجد كتّاب هذه القصص المجال متسعاً أمامهم، فيبتكرون الألغاز، ويثيرون المشكلات، ويحتفظون بالسر الدفين فلا يكشفونه إلا في آخر القصة، وكلما كان حل اللغز أكثر اعتياصاً وأشد استعصاء كانت القصة أمعن في التسلية، وأبلغ في التشويق، وأكثر ابتعاثاً للنشاط والارتياح، وهذا النوع من القصص يجد على الدوام إقبالاً ورواجاً، حتى بين طبقة المثقفين ثقافة عالية، والذين أوتوا العلم الواسع والمعرفة الغزيرة، وقد حدثنا برتراند رسل أشهر فلاسفة البريطانيين في العصر الحاضر عن ولعه بأمثال تلك القصص في أحد فصول كتابه عن السلطة والفرد"

ونقول: إنّ برتراند رسل من كبار الملحدين ومن أشهر دعاة الإلحاد.

والجمعيات السرية تضيف إلى هذا الولع البدائي بالمجهول جاذبية أخرى، فهي تمثل لنا قوة غير معروفة، ومصدر هذه القوة هو جماعة من الأفراد قد اجتمعوا ليقوموا بعمل يعجز عن القيام به الفرد بنفسه، وقد يكون هذا العمل خيراً وقد يكون شراً، ولكنه في الحالين يتسم بميسم السر، ويلحق بعالم الخفاء.

والسرية والخفاء والتستر والإبهام سرعان ما تجتذب إليهم الأنصار والمؤيدين والأتباع والأشياع، وتختلف البواعث التي تهيب بهؤلاء الأنصار إلى الاندماج في الجمعية والانخراط في سلكها، فمن الناس من يستميله حب السيطرة والطمع في السلطة والنفوذ والتمجيد والاستعلاء، ومن الناس من يؤثرون العمل في الخفاء والإدلاج في السواد، ويجدون في ذلك مجالاً لإظهار قدرتهم وكفايتهم، والكشف عن مواهبهم وملكاتهم، وبعض الجمعيات السرية ترمي منذ إنشائها إلى أغراض شريرة فاسدة.

أما السبب الحقيقي والعلة الخفية فهو سعي هؤلاء الهدامين المستورين، أفراد الجمعية السرية التي تعمل منذ عهد عهيد على تقويض الحضارة، ومحو الأديان، وهدم القوميات، وإسقاط الدول والإمبراطوريات.

ولا نزاع في أنّ الجمعيات السرية التي ظهرت في التاريخ كثيرة متعددة، وأكثر الحركات السياسية التي يقوم بها المظلومون والمضطهدون أو الذين يشعرون بأنهم مظلومون ومضطهدون، يغلب عليها مجانبة الجهر والصراحة والطرق القانونية المشروعة، والالتجاء إلى التستر والاستخفاء، كما أنّ معظم الأحزاب السياسية العلنية لها أسرارها الخفية ودخائلها الدفينة وأهدافها المستورة المحجبة، التي لا يعلم دقائقها سوى قادة الحزب وزعمائه. والجمعيات السرية تكاد تكون في الواقع مؤامرة مطبوعة بالطابع الأرستقراطي، وقد أخذت على أعضائها العهود المبرمة والمواثيق المؤكدة، وفرض عليهم التزام الصمت وإطاعة الأمر، وهم ينزلون على أمرها ويرتضون حكمها، إما بدافع من الفكرة التي ملكت عليهم نفوسهم، وإما بدافع الرهبة والخوف من الانتقام والتنكيل، ويحرص الأعضاء البارزون في تلك الجمعيات على بسط سلطان الجماعة والتكثر من الأنصار والأعوان، والمساعدين الصادقين النافعين المجربين، ولكنهم يحرصون في الوقت نفسه على أن يظل لهم الصدر والكلمة المسموعة والرأي المطاع والتقدم والأسبقية، ولذلك يستمسكون بنظام خاص من نظم الطبقات، لا يعرف سره إلا الزعماء والرءوس. وتتبع هذه الجمعيات نظاماً دكتاتورياً، وتجعل من أهدافها مبدأ يدق فهمه على الأعضاء العاديين، ولا يفقه سره إلا الفئة القليلة التي تدبر الخطط وتضع المناهج.

وتمتاز الجمعيات السرية التي لها هدف معين بالتحمس الشديد لتحقيق هذا الهدف والإخلاص له والتفاني في سبيله، ولو أنّ الرغبة في إثارة الدهشة والتعجب وإحداث الضجة المدوية قد تلعب دوراً هاماً في أعمال أعضائها، وتستأثر بنصيب وافر من جهادهم.

وليس أدخل في الخطأ من الاعتقاد بأنّ الجمعيات السرية –مهما كانت أغراضها– مكونة من رجال متشابهي الأخلاق والنزعات والعقول والأفهام، وربما كان هناك عقلية خاصة يمكن أن نسميها (عقلية الجمعيات السرية) يشترك في بعض سماتها من يميلون بطبيعتهم إلى الدخول في أمثال تلك الجمعيات،

ولكن إذا تجاوزنا هذه الصفة المشتركة، وجدنا الجمعيات السرية تضم أقواماً مختلفي الألوان والاتجاهات، ففيها المثاليون المخلصون، والأبطال المقاديم، والفدائيون الخلص، والمتعصبون المسرفون في تعصبهم، والبله المغفلون، والأغرار المندفعون، والمغامرون القساة الأفظاظ، والنفعيون الأنانيون، والمتشككون الذين لا يؤمنون بشيء، والدساسون الأفاكون، والخونة المارقون، وأكثر هؤلاء يستشعرون السرور لأنهم يعملون في الظلام ويستهدفون الأخطار، ويجدون في ذلك متعة لا تعدلها متعة، والذى يلفت النظر في أعمال أمثال هذه الجمعيات السرية، أنها قد تنم على ضروب من الشجاعة والإقدام لا تكاد تصدق، وتأتى بأمثلة من إنكار الذات ليس لها نظير، ولكن الغريب أنها قد تفعل ذلك كله من أجل مذهب فاسد وفكرة منحرفة وغاية مسفة، ليس لها سند من حسن الإدراك وصحة التقدير، ولا من فهم سنن الكون وطبائع الأشياء، وفى بعض الأحايين تصبح أمثال هذه الجمعيات السرية وباء يجب إبراء المجتمع من عقابيله، واستنقاذه من آفاته وعلله، وتخليصه من أوزاره وجرائمه ومنكراته، والكثيرون من أعضاء هذه الجمعيات يقبلون عن طيب خاطر أن يضعوا عقولهم وإرادتهم وحياتهم تحت تصرف زعيم مجهول، قد لا يعرفون صورته، ويجهلون أخلاقه وسيرته، وقد يكون هذا الزعيم المستتر المحجوب رجلاً دعياً دجالاً خبيثاً لئيماً وغداً، يستغل تحمسهم من أجل أغراضه الوضيعة ومطامعه ولباناته، وقد كان الباعث على تأليف بعض الجمعيات السرية المعروفة في التاريخ على جانب من السمو ونبل الغاية، ولكن هذه الجمعيات مهما سمت غايتها فإنّ طبيعة التآمر والتزام التخفي والتستر والعمل في الظلام تطبع عقول أفرادها بطابع الضيق والتعصب، وتميل بهم إلى الإجرام والقسوة والإرهاب، والتآمر بطبيعته إعداد للثورة وتهيئة للانقلاب، فهو بطبيعته هدّام، ومتى تكونت العقلية السرية المتآمرة عظمت الغاية في نظر أفراد الجمعية وجلت، وهانت الوسيلة وتضاءلت، واستهوت الجمعية إلى الانضمام لصفوفها ذوي الأذهان الملتوية، والعقول المنحرفة والخياليين المفتونين والميالين بطبيعتهم إلى الدس والتآمر والإجرام، ومن ثم فإنّ أمثال هذه الجمعيات إذا صادفها التوفيق وحققت أهدافها قل أن يظهر بين رجالها قوم من أصحاب النظرة المستقيمة الواسعة، والآراء النيرة السليمة المتسامحة، ولذلك تعجز عن استثمار نجاحها، ويمقت الناس سياستها، ويضيقون بها لأنها لا تقوم على الصراحة والمكاشفة والوضوح، وإنما تعمد إلى المراوغة والمواربة واللف والدوران والتكتم والحذر وسوء الظن.

والجمعيات السرية قد نشأت في مختلف العصور وشتى الأمم، وهي قديمة قدم الحضارة نفسها، وقد كان للكثير من الأديان القديمة أسرارها الخفية وطقوسها وشعائرها وحفلاتها وتعاليمها التي يتلقاها الداخلون فيها.

وأساليب الجمعيات السرية في شعائرها ومراسيمها ورموزها وخفاياها تكاد تكون متشابهة، ولا نزاع في أنّ بعض الجمعيات السرية قد استعارت شاراتها ورموزها ونظام محافلها واجتماعاتها من جمعيات أخرى

تقدمتها، ولكن الاستعارة والاقتباس والتشبه والمحاكاة ليست وحدها سبب هذا التشابه والتقارب، وإنما سبب ذلك تشابه العقلية النزاعة إلى الجمعيات السرية.(١)

انتهى ما أردنا نقله من هذا الكتاب الذي بيّن فقه السرّيّة وولع الناس بها، وانقيادهم لأهل الأسرار ودعاتها وأدعيائها، وفي ميدان بحثنا في أمر الكهانة، ما الذي يدفع الناس إلى الخضوع للودعة الصماء أو لورقة اللعب الكوتشينة؟ إنها هذه العقلية المولعة بالأسرار والغموض، والعقلية المتطلعة إلى كشف ما غاب عنه وستر، فترى هذه العقلية أنّ في هذه الوسائل من الودع والرمل سر مكنون، وكذلك في هذا الكاهن أو تلك الكاهنة سر مخبوء مع أنّ كثيراً من الناس يعرفون هؤلاء الكهان وفسقهم وفجورهم، ويعرفون تاريخهم؛ إذ ربما كانوا يوما أصدقاء لهم، وكانوا مطلعين على أحوالهم، ولكن الناس تقنع بذلك وتعتقد أن في الكاهن والكاهنة من شفوف الروح وصفائها ما يجعلهما مستودع أسرار، أما دين النبي مُحَمَّد ﷺ فالحق فيه واضح ولا أسرار في دين المصطفى الهادي خاتم النبيين الذي بلغ البلاغ المبين، فلا مجال للسرية في دينه ﷺ وإنّ الذين يتناجون بدينهم سراً لعلى خطر عظيم وبدعة ظاهرة.

خاتمة تتعلق بعلم الغيب:

إنّ من أصول الاعتقاد الصحيح أنه لا يعلم الغيب إلا الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿عالم الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾(٣)

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: ﴿عالم الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ﴾(٤) من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيب ﴿إلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾(٥) أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به؛ وذلك لأنّ الرسل ليسوا كغيرهم، فإنّ الله أيدهم بتأييد ما أيده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته، من غير أن تتخبطهم الشياطين، ولا يزيدوا فيه أو ينقصوا.

وقد بيَّن النبي ﷺ كيف يدَّعي العرَّافون والكهنة علمَ بعض الأمور الغيبية عن بعض الناس، ومن ذلك: استراق السمع من السماء، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا

(١) الجمعيات السرية: علي أدهم، دار المعارف، الطبعة الثالثة، سلسلة اقرأ، ١٣٨ ص٥، وما بعدها.
(٢) لقمان: الآية ٣٤.
(٣) الجن: الآية ٢٦، ٢٧.
(٤) الجن: من الآية ٢٦.
(٥) الجن: من الآية ٢٧.

بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ- فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ الْمُسْتَمِعَ، قَبْلَ أَنْ يَرْمِىَ بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّى يَرْمِىَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ حَتَّى يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ -وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ- فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيَصْدُقُ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ}(١)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وإياي إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أعانني عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ}(٢)

وهذا القرين يطلع على كثير من أفعال الشخص مما يخفى على غيره. هذا وسيأتي حديث شيخ الإسلام عن الإيمان بالغيب وما في فقهه من العصمة من الكهانة.

من فقه ابن الوزير لمسألة الغيب:

قال ابن الوزير رحمه الله: أما بعد: فإني نظرت إلى شدة اختلاف العقلاء والأذكياء وأهل الرياضات العظيمة من الرهبان وسائر أجناس أهل الأديان، ثم إلى ما وقع من ذلك بين أهل الإسلام من أهل القوانين العلمية البرهانية، وأهل القوانين الرياضية الرهبانية وأهل التفاسير والتأويل للآيات القرآنية، وأهل الآثار والأنظار في الفروع الظنية، فرأيت اختلافاً كبيراً وتعاديا نكيراً وتباعدا كثيراً، يسبق إلى ظن الناظر فيه أنه لا طريق له مع سعة ذلك إلى تمييز الحق من المبطل والمصيب من المخطئ بالدليل الصحيح، لأنّ التمييز لذلك لا يحصل إلا بعد بلوغ الغاية القصوى في طرق هذه الطوائف، حتى يعترف له بالإمامة في كل فن من تلك الفنون كل إمام فيها وعارف، ويتقن علم كل فرقة مثل إتقان كل من أئمتهم لدعاواهم وحقائقهم مميزاً لمعارفهم ومزالقهم، والعمر أقصر من أن يتسع لذلك مع تفريغه عن الشواغل المزاحمة لذلك، ثم الطلب الشديد له، فكيف يتيسر علم في أول أوقات التكليف مع الشواغل الجمة والتقصير الكثير من الأكابر المتصدرين للتعليم؟ كيف بالمتعلمين المقصرين المقتصرين على تلقن مذاهب أسلافهم من غير التفات إلى الاهتمام بتحقيق أدلتهم التي تخصهم؟ دع عنك الاهتمام بأدلة خصومهم، وتحقيقها مع شدة الإشكالات ودقتها، ومعارضة الأذكياء والرهبان بعضهم لبعض في كل ملة وكل فرقة، ومع استمرار من ظاهره الفهم والإنصاف من أهل الإسلام على ذلك الاختلاف، فعظمت هذه الفكرة عندي واهتم لها قلبي لولا ما عارضها من العلم اليقين، بل الضروري بما للأكثرين من العقائد الباطلة، ومعارضة الحق الواضح بالشبه الساقطة، ويعرف ذلك بمطالعة كتب الملل والنحل والأهواء والتجاهل، فنظرت في كيفية النجاة مع ذلك، مستمداً من الله تعالى داعياً طالباً راغباً راهباً، وإنّ الله تعالى -وله الحمد والشكر والثناء- وفقني حينئذ إلى أوضح الطرق في علمي، وأبعدها من الشبه والشكوك إلى معرفة

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٤)
(٢) رواه مسلم (٢٨١٤)

الضرورة إلى معرفته من الحق الذي تخاف المضرة بجهله، وهو الذي جاء الإسلام بوجوب معرفته، أو أمر بها، أو ندب إليها من الكتاب والسنّة دون معرفة ما لم يدل عقل ولا سمع علي وجوب معرفته، ولا ثبت في الشريعة استحبابها، وبترك هذا القسم يسهل الأمر ويهون الخطب.

فإنّ الذي وسّع دائرة المرأة والضلال هو البحث عما لا يعلم، والسعي فيما لا يدرك، وطول السير والسعي في الطرق التي لا توصل إلى المطلوب، والاقتداء بمن يظن فيه الإصابة وهو مخطئ، والاشتغال بالبحث عن الدقائق التي لا طريق إلى معرفتها، ولا يوصل البحث عنها إلى اليقين ولا إلى الوفاق، ولا ظهرت للخوض فيها مع طوله ثمرة نافعة لا باليقين صادعة ولا للافتراق جامعة، ولا رُوى عن أحد من الأنبياء -عليهم السلام- ولا صح عن أحد من السلف الكرام، وربما انقطع هذا العمر القصير في تلك الطريق البعيدة، قبل البلوغ إلى المقصود بها، وهو معرفة الحق الواجب من الباطل المهلك ومعرفة المحق من المبطل، وليس الطلب لكل علم بمحمود ولا كل مطلوب موجود، أما الثانية فوفاقية (أي متفق عليها بين الناس) وأما الأولى فعقلاً وسمعاً، أما العقل فإنه لا يحسن قطع الأوقات في وزن الحجارة، وكيل التراب، ونحو ذلك مما لا يفيد، والعلة أنه عبث ولعب لا يضر ولا ينفع، فكيف بما يضر، أو لا يؤمن أنه يضر؟!

وأما السمع فقد قال الله تعالى في متعلمي السحر أنهم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[1] والآية تقتضي ذم علمهم وذمهم به.

وفي الحديث {إنّ من العلم جهلا}[2] قال ابن الاثير في النهاية: قيل تفسيره وهو أن يتعلم ما لا يحتاج إليه كالنجوم وعلوم الأوائل، ويدع ما هو محتاج إليه في دينه من علم القرآن والسنة. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3] وعلّم آدم الأسماء دون الملائكة، وآتانا من العلم قليلاً مع قدرته على أن يؤتينا منه كثيراً، فقال في ذلك: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4] يوضحه قول الخضر لموسى عليهما السلام : "ما علمي وعلمك وعلم جميع الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من هذا البحر، وقال لموسى: أنا على علم من علم الله لا ينبغي لك أن تعلمه وأنت على علم من علم الله لا ينبغي لي أن أعلمه"[5] فدلّ ذلك كله على أنه لا ينبغي للعاقل أن يتعرض لعلم ما لم يعلّمنا الله تعالى ورسوله، ويتضح معقوله ومنقوله لقول الملائكة عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[6] وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ

---

(١) غافر: من الآية ٨٣.
(٢) رواه أبو داود، والحديث ضعيف، فيض القدير، ٢٤٥٨.
(٣) الأنعام: الآية ٩.
(٤) الإسراء: من الآية ٨٥.
(٥) حديث موسى والخضر، رواه البخاري: حديث رقم ١٢٢.
(٦) البقرة: من الآية ٣٢.

مَن قَبْلِي﴾(١) وفي هذه الآية دلالة على أن كتب الله تعالى لا تخلو من البراهين المحتاج إليها في أمر الدين، كما سيأتي في هذا المختصر مستوعباً إن شاء الله تعالى. وفي قول الملائكة ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إشارة إلى ذلك، بل دلالة واضحة؛ لأنهم حين قطعوا على فساد آدم –عليه السلام– مع إخبار الله تعالى له أنه مستخلفه في الأرض، إنما أتوا من خوضهم فيما لم يعلمهم الله تعالى، إذ لو كان من تعليم الله ما أخطأوا فيه، فلما تبيّن لهم خطؤهم نظروا من أين جاءهم الخطأ على علو منزلتهم، فعرفوا أنهم أخطأوا لما تعرضوا لعلم ما لم يعلمهم ربهم سبحانه، فقالوا حينئذ: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فهذا وهم أحق الخلق بالعلم والكشف للغائبات فإنهم أنوار وعقول بلا شهوات حاجبة ولا أهواء غالبة، وكذلك ذمّ الله الذين في قلوبهم زيغ بابتغاء تأويل المتشابه، ومدح الراسخين بالاعتراف بالعجز... وذمّ اليهود على تعاطي علم ما لا يعلمون فقال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾(٢) ومن ذلك أنّ الله تعالى أرى رسوله ﷺ والمسلمين يوم بدر الكثير من المشركين قليلاً في المنام ثم في اليقظة للمصلحة، واختلف لمن الضمير في قوله تعالى ويرونهم مثليهم رأي العين، وقال سبحانه في الساعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(٣) أي أخفي علمها الجملي، وأما تعيين وقتها فقد أخفاه من الخلق، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾(٤) وكفى بذلك حجة ساطعة على أن المصلحة للخلق قد تعلق بجهل بعض العلوم، ومما يوضح ذلك قول عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾(٥) ولأن حكمة الله وحكمه الذي لا يغالب قد يقتضي ذلك عموماً كما اقتضت كتم الآجال عن الأكثرين، وجاء في الحديث الصحيح أنّ أبا بكر رضي –الله عنه– أوّل رؤيا عند رسول الله ﷺ فقال له: {أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً، فسأله بيان ما أصاب فيه وما أخطأ فأبى عليه فقال أقسمت عليك إلا ما أخبرتني فقال لا تقسم}(٦) فهذا مع إكرامه له وأنه على خلق عظيم كما قال الله تعالى، فلولا أنّ الجهل ببعض الأمور قد يكون راجحاً أو واجباً لما تخلف عن إخباره بعد هذا الإلحاح الكثير من هذا الصاحب الكبير، فدلّ على أنه ليس في كل علم صلاح العباد، وإن قدرنا أنه يحصل من غير خطأ ولا تعب ولا خطر، فكيف مع خوف الفوت والخطر العظيم والتعب الشديد بل مع تحقق ذلك في حق الأكثرين بالتجارب الضرورية. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ حين رفع علم ليلة القدر وبيانها {وعسى أن يكون خيراً

---

(١) الأنبياء: من الآية ٢٤.
(٢) آل عمران: من الآية ٦٦.
(٣) طه: من الآية ١٥.
(٤) الأعراف: من الآية ١٨٧.
(٥) آل عمران: من الآية ٥٠.
(٦) البخاري: حديث رقم ٧٠٠٠.

لكم}[1] وقوله في حديث معاذ: (دعهم يعملوا) متفق على صحته، وشواهده كثيرة صحيحة، ومن ذلك وهو أعظمه وأشهره قصة الخضر وموسى عليهما السلام، وهي شافية كافية، وهي صريحة في اختلاف المصالح في العلوم. ومنه قوله تعالى بعد حكاية الاختلاف بين داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2].[3]

---

(١) رواه البخاري: حديث ١٩١. وقوله في حديث معاذ (دعهم يعملوا) صحيح البخاري: حديث رقم ٥٩٦٧، ومسلم: حديث رقم ٣٠، متفق على صحته، ذلك وشواهده جمة كثيرة صحيحة، الأحاديث في هذا المعنى منها: صحيح مسلم: حديث رقم ٣١، ومسند أحمد: حديث رقم ١٠٦٧.
(٢) الأنبياء: من الآية ٩٧.
(٣) إيثار الحق على الخلق: ابن الوزير ج١ ص٣٧ وما بعدها.

المطلب الرابع
تاريخ موجز للكهانة

إنّ العلم أشرف ما يعنى المرء بتحصيله، لذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾(١) فأمره أن يتعلم عن ربه، وقال البخاري -رحمه الله- باب العلم قبل القول والعمل، وبالعلم يرفع المرء، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢) هذا ومن تكريم الله لأهل العلم قوله: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾(٣) والأحاديث في فضل العلم به وبدينه كثيرة معلومة، أفرد أهل العلم لها كتباً مخصوصة مثل مثل (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر، وكتاب (شرف أصحاب الحديث) وغيرهما.

هذا العلم هو العلم المحمود الموصل إلى مرضاة الله وجنته، والموصل لسعادة الدنيا والآخرة، وقد تكفل الله بيان هذا العلم وتفصيله قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(٤) قال ابن عثيمين في مقدمة تقريب التدمرية: "فإن رسول الله يبيّن للناس ما نزل إليهم من ربهم بياناً كاملاً شاملاً في دقيق أمورهم وجليلها" أ.هـ. هذا وقد بيّن الوحي كتاباً وسنة أسس وأصول كل علم يحتاجه المسلم لسعادة الآخرة والأولى. هذه هي العلوم المحمودة التي ينبغي أن يعنى بها المسلم الموحد، ويعتني بعلوم أدواتها بحسب ما يخدم تلك العلوم، ولكن ثمت علوم أخرى يفرح بها من يفرح من الناس هي سبب شقائهم وهلاكهم دنيا وآخرة مهما فرح الناس بها زمناً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾(٥) هذه العلوم ما نفعه قليل وعناؤه كثير، ومنها مالا نفع فيه ولا ضرر، ومنها علوم تضر ولا تنفع فهي ضرر صرف، على رأسها علوم السحر والكنانة والتنجيم، قال تعالى عن أهل السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾(٦) فهذه علوم ضرر محض، والكهانة ضرر على العباد في دينهم وفى دنياهم؛ إذ هي محاولة استكشاف غيوب قد حجبها الله عنا، ولم يكلفنا عناء تطلابها، كما أنه لم يطلعنا عليها هو ﷻ، والكهّان يلتمسون ويطلبون ذلك العلم عند ألد أعدائهم وأبينهم عداوة، وأشدهم سعياً في إهلاكهم وهم الشياطين، وهم (أي الشياطين) لا يوحون بشيء من هذا العلم الذي هو الغيب النسبي إلا إذا سلبوا من الكاهن أعز ما يملك، ألا وهو توحيده وإيمانه وعقيدته، ومن يقصد الكهان يلتمسون نفعاً دنيوياً، في غالب الأحوال يكون ما يطلبون قد كتبه الله لهم مع الآجال، ويقطع المرء عمره في طلب ما يرديه، ذلك العمر الذي ينبغي أن يعمره بما يرضى الله، وبما يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة، وقد مر كلام ابن الوزير النفيس.

---

(١) محمد: من الآية ١٩.
(٢) المجادلة: الآية ١١.
(٣) آل عمران: من الآية ١٨.
(٤) النحل: من الآية ٨٩.
(٥) غافر: الآية ٨٣.
(٦) البقرة: من الآية ١٠٢.

هذا وقد شغل الناس بأمر الكهانة ذلك العلم المهلك، فلها تاريخها القديم، وقد مارسها الناس منذ ماضٍ سحيق، وفي هذا الفصل نلقي ضوءا على هذا التاريخ، وسيتبين لنا سُنَّة ماضية في العباد، وهي نزوعهم إلى الضلال؛ فيأخذهم الشيطان إلى طرق الردى عبر مفاوز خبرها وعرفها، ويشعر المرء بصدق كتابه وعظمته في قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1] وينظر بإجلال إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[2] وهذه الأصنام اتخذها العرب، فسبحان ربي العظيم الجليل، كيف أخذت آخر الأمم من أول الأمم ضلالها، وكذلك أمر الكهانة، تعاطتها الأمم فما تخلو أمة من تكهن، وقد سجل القرآن وقوع الأمم في التطير، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾[3] ومن قبله قالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[4] وفي هذا المطلب سنتناول بإيجاز تاريخ الكهانة عبر العصور، وثمت مراجع أثبتناها لمن أراد الاستزادة.

الكهانة الآشوروبابلية:

انتشرت الكهانة في بابل كما انتشر فيها السحر، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وكان بها عبدة الكواكب والنجوم، وقد ذكرنا في كتاب احتساب شيخ الإسلام على السحر ما يتعلق بالسحر في بابل، ونذكر هنا ما يتعلق بالكهانة البابلية:

لقد ذكرت الآثار الآشورية نصوصا ًكهانية عديدة لتلك التي كانت في بلاد ما بين النهرين، وكان علم الآشوريات مطبوعاً منذ بداياته بالطابع الكهاني الخاص بالأدب المسماري، كما في مجموعه (ود) الأثرية التي أثبتت هذا الأدب الكهاني، وأثبتت أنّ الكهانة كانت تمارس منذ فجر تاريخ ما بين النهرين، كما كانت فروعها العديدة كقراءة الأحلام وفحص أكباد الحيوانات وقلوبها والنبوءات من كل نوع، وطالع الولادة، وكهانة الأوقات، والاختيارات، والتشخيصات الطبية، تمثل فروعاً لذلك الأصل.

وقد تنوعت الكهانة الأشورية، فما من شيء يفلت من عين العرّاف الذي كانت ملاحظاته تسير وفق نظام تم إرساؤه مسبقاً.

موقف حضارات الشرق القديم من التكهن بالغيب:

استخدم المنجمون علم التنجيم؛ للكشف عن الطوالع حتى القرن الرابع ق.م في بلد بابل، وقد أدى ذلك إلى ظهور علم الفلك في وقت مبكر، ذلك العلم الذي برع فيه البابليون.[5]

(١) الذاريات: من الآية ٥٣.
(٢) نوح: الآية ٢٣.
(٣) الأعراف: من الآية ١٣١.
(٤) النمل: من الآية ٤٧.
(٥) موقف شيشرون من الكهانة ص ١٢وما بعدها.

قال توفيق فهد: ولقد سعى عدد كبير من هؤلاء الكهان، بطرق كهانية كثيرة لبست في بعضها لباس الدين لخدمة أمرائهم وشعبهم، وسعوا بزعمهم للكشف عن المشيئة الإلهية عبر كل الكائنات المخلوقة. انتهى.

هذا وقد أثنى توفيق فهد على هؤلاء الكهان، وذكر أنّ ذلك يعد دليلاً على تقربهم للآلهة، ووصف بعض طرقهم بالعلمية، هذا الذي أثنى هذا الثناء تتحشرج نفسه بدين النبي مُحَمَّد ﷺ ولا يدع فرصة للطعن فيه إلا اغتنمها. وهذا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾[1]

وقد تم تدوين الكهانة الآشورية وصياغتها، ووضع أصولها ولغتها، واتسم أسلوب الكهانة بما يلي:

١- تتكون هذه الكهانة من جمله شرطية مسبوقه بأداه شرط (شاما) متبوعه بجملة جواب رئيسه.

٢- كانت الأصول الكهانية منقولة شفويا مع هذا التدوين.

٣- اتسم هذا الأسلوب الكهاني بالقصر والإيجاز الذين تفرضهما طبيعة مادة الكتابه.

٤- أشار (بوسييه) إلى التشابه بين الأسلوب القانوني والأسلوب الكهاني فى الأدب الآشورو بابلي في النظم والمصدر، حيث يقول: القانون موحى به للمشرعين مثلما لعرافي الأحشاء الذين يقننون النظم الإلهيه ويعلنون عن العقوبات.

٥- ثمت تشابه ظاهر بين الشعر الآشوري وبين الأسلوب الكهاني لديهم، ويتمثل ذلك في تحري القافية واستعمال الصور والرموز المشتركة واللجوء المتواتر إلى اللغة الرمزية.

ويمكن أن نلخص ما سبق فنقول: لقد كانت الكهانة موجودة في بلاد ما بين النهرين منذ هذا الماضي البعيد، وقد أكّد ذلك تلك الحفريات والآثار التي عثر عليها، وتعرف بمجموعة (ود) ومن العجيب أن تذكر هذه الآثار ارتباط الكهانة الآشوروبابلية بالأدب والشعر وبالقانون، فارتبطت بالأدب والشعر من خلال لغتها، فاتسمت بالإيجاز والقصر والسجع، ونصلي هنا ونسلم على نبينا مُحَمَّد رسول الله حقا الذي لا ينطق عن الهوى الذي قال في بعض روايات حديث {أسجعا كسجع الكهان، أسجعا كسجع الجاهلية}[2] ويمكننا عد هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ ومعجزاته، فالجاهلية ليست هي الجاهلية العربية وحدها، بل ها هي الجاهلية الآشوروبابلية تسجع أيضاً، فصلوات الله على الصادق المصدوق، كما استعملت الكهانة الآشوروبابلية الرمزية في تكهنها، وأكثرت من ذلك، ونظن والله أعلم أنّ الإكثار من الرمزية حتى يلبس الكاهن على العباد، ويكذب ما شاء له هواه، فالصورة الرمزية تحتمل كثيراً من التفسيرات، فيفسرها بما شاء عند الوقوع.

أما التشابه مع القانون الآشوروبابلي فمن حيث المصدر كان هؤلاء يعتقدون أنّ هذا القانون وحي، كما يعتقدون أنّ الكهانة وحي، ونحن نقول معهم: إنّ الكهانة وحي لكنها وحي شياطين.

---

(١) الزمر: من الآية ٤٥.

(٢) صحيح النسائي: حديث رقم ٤٨٢٣.

ويلاحظ أيضاً تنوع صور الكهانة عند القوم، فكان كاهنهم يتكهن بكل ما في البيئة من حوله، لا يدع شيئاً تقع عليه عينه إلا تكهن به.

ومما مر يظهر التشابه بين الكهانة العربية قبل الإسلام وبعده وبين كهانة أولئك القوم، ونعجب من ذلك التشابه ونحن نتلو قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[١]

الكلدانيون والكهانة:

جاء في بحث موقف شيشرون من الكهانة ما يلي: نظر الآشوريون إلى السماوات ولاحظوا الكواكب، وقاموا بدراستها ووصفها، وجعلوا لها تأثيرا على حياة الناس وأثرا لها في حظوظهم وأقدارهم، وزعموا أنّ دراساتهم تمكنهم من التنبؤ بمستقبل العباد.

ومن أبناء هذا الشعب نفسه عرف الكلدانيون، الذين واصلوا ملاحظة المجموعة النجمية لزمن طويل، وقد استغلوا هذه المشاهدات في إقامة علم زعموا أنه يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس، ومعرفة المصير الذي قدر لهم.

الكهانة الآرامية:

في تلك الرسائل التي اكتشفت في تل العمارنة حديث عن الكهانة الآرامية، وكذلك حفظ الأدب السرياني شيئاً من تكهن الآراميين، كما وجد ذلك في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية، ويرى الباحثون أنّ هؤلاء الآراميين اقتبسوا معتقداتهم وثقافتهم من شعوب شتى كانت لهم بهم صلات؛ لذا فإنهم أخذوا من الحيانيين والثموديين والأنباط والتدمريين ما أضافوه إلى كهانتهم.

الكهانة الفارسية:

قال توفيق فهد: تؤكد الرواية العربية على نحو مسهب شهادة شيشرون حول الفرس "في بلاد الفرس يمارس المجوس التنبؤ والعرافة، فيجتمعون في أحد المعابد ويتداولون الرأي فيما بينهم، وما من ملك فارسي إلا ومارس علم المجوس وتخصصهم" وقدم الجاحظ تفصيلات وافية حول ذلك حين قال: "كان الفرس يقضون في كل ما يرونه أو يسمعونه، ويزجرون ويتفرسون في الأمور والحوادث جميعاً، حين يسمعون كلام متكلم أو صوت طائر أو سقوط حجر أو نفخ الريح في الأشجار أو حين يلتقون بحيوان، وكان يستخرجون تكهناتهم من علامات تظهر على أعضاء البشر والحيوانات، ومن اختلاج العروق وأجزاء البدن الأخرى، ومن النظر إلى لوح الأكتاف، ومن رمي النرد والكعاب، ومن قيافتهم الأثر، ومن حساب الهسميرج الذي

(١) الذاريات: الآية ٥٣.

سيشمل القرعة والفال والمساهمة، ومن تشخيصهم المرض وجسهم العروق، ومن معاينات مياههم، ولديهم تمييز للأمور واستدلال على ما حصل وما سيحصل"

ومن صور الكهانة الفارسية التي ذكرها الجاحظ أنهم في الحروب يستخرجون علامات من الاتجاهات الأربعة التي تهب الرياح منها، فإذا هبّت الريح من الشرق كان النصر لصاحب الشرق، وإذا هبت من الغرب كان لصاحب الغرب، وإذا هبت من الجنوب كان لصاحب الجنوب، وإذا هبت من الشمال كان لصاحب الشمال، وكل هذا قد تعلموه من الهنود ومن حكمائهم.

كان للكلدانيين ومن قبلهم الآشوريون، ومن عاصرهم من القبط -كما هو معلوم- عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان، فاختص بها القبط وطمي بحرها فيهم، ولما فتح المسلمون أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها ونقلها إلى المسلمين، فكتب إليه عمر: أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله. فطرحوهم في الماء أو في النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا.[1] فرضي الله عن عمر، ورحم الله علماء الأمة الذين ساروا على ذلك المنهج، فحموا جناب التوحيد، هذا مع غزارة علم الصحابة وقوة إيمانهم وثبات قلوبهم، لكنهم حرصوا على حماية الأمة من شر هذه الكتب المفسدة، وحذّروا الأمة من الاستماع إلى أهل الباطل، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[2] فعلى المحتسب أن يحذر من هؤلاء، وإن قدر ومُكّن له تمكيناً شرعياً بأن كان محتسباً من قبل ولاة الأمور أن يزيل هذا الباطل، أو كان مسئولاً أن يمحو أثره ويذهب كيد الكهنة، كما فعل عمر والصحابة بهذه الفتن، وإذا كان يملك مصادرة وإعدام كتبهم فعل، وإذا قدر على منع بث قنواتهم وإغلاق مواقعهم الإليكترونية فعل، فكم خدعوا من أناس لم ترسخ عقيدتهم، ولم يأخذوها من الكتاب والسنة، بل أكثر هؤلاء يلبس لكل حالة لبوسها، وبعضهم يتخصص في إضلال فريق من الناس، فبعضهم عن طريق الولايات والكرامات، وبعضهم يظهر بمظهر المثقف العصري، ويستخدم أساليب عصرية حتى يستخدم بعضهم الحاسب الآلي (الكمبيوتر) وغير ذلك من المستحدثات العصرية والتطبيقات، وبعضهم يأخذ بعقول الناس عن طريق الظهور بمظهر السنّة وذلك عند من يحبها، فيظهر بلحيته الكثة وثوبه الأبيض القصير وترتيله بعض آيات القرآن، ولقد رأيت بعض الكاهنات على بعض القنوات وقد لبست الحجاب كاملاً ما يبين منها شيئاً، وهذا يأخذ بقلوب فئة ليست بالقليلة، حينما يرى تلك تلبس لباس أمهات المؤمنين والصحابيات، كما يبدأن بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وربما بدأن بخطبة الحاجة وبقراءة آيات من كتاب الله، ثم تلج

---

(١) الكهانة: توفيق فهد ص٦٦، التوزيع في العالم: شركة قدمس للنشر والتوزيع (ش م م)

(٢) الأنعام: من الآية ٦٨.

الواحدة بعد ذلك إلى الكفر والشرك بالله تعالى، بل إنها لتتكهن في جرأة عجيبة، وتقول كلاماً خطيراً لو نزل على جبال لدكها دكاً.

هذا الباطل كله يزول بإذن الله ويضمحل أمام محتسب موحد يصدع بالتوحيد الذى أمر به نبيه ﷺ ويدفع هذا الباطل المشوب بالحق الصراح، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[(١)] وينصر ذلك المحتسب الذى وعده ربه بالنصر في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُه﴾[(٢)] وتلك سنة الله مع أوليائه، من قام بالتوحيد وقارع الشرك وأهله وجاهد أولياء الشيطان، أعزه الله في الدنيا والآخرة، فأبشر أيها المحتسب الموحد، واثبت على أمر الله وأمر رسوله، فإن دعوتك هي دعوة الأنبياء والمرسلين والصحابة وكل المصلحين، لا تزل ولا تتنازل كما زل وتنازل دعاة الباطل ولا تضعف لقلة السالكين في هذا الطريق، فاثبت ولو كنت وحدك، وتذكر أنّ إمام الحنفاء كان رجلاً واحداً لكن ربه وصفه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[(٣)]

المصريون القدماء والكهانة:

وفيما يتعلق بالحضارة المصرية القديمة، نجد معرفة المصريين القدماء بفن التكهن، كما كان الكهنة في مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة، ويتمتعون بالسيادة، في حين أنّ الدولة في بلاد اليونان كانت تسيطر على الكهنة، وقد أشار هيرودوت Heroditus إلى أنّ علم العرافة في طيبة يشبه ذلك الذي نجده في «دودونا» عند الإغريق، فضلاً عن أنّ العرافة عن طريق فحص الأحشاء جاءت من مصر أيضاً، مما يدل على أنّ هناك تواصلاً بين الحضارات المختلفة، وأخذهم عن بعض ما يتعلق بهذا الكفر.[(٤)]

الكهانة عند الإغريق والرومان:

اعتقد الإغريق وآمنوا بالكهانة، ومما يدلل على شغف الإغريق بالتكهن أنهم قبل قيامهم بأي هجرة سواء تلك التي كانت إلى إيونيا أم آسيا أم صقلية أم إيطاليا، كانوا يستشيرون الكاهنة «بيثيا» أو يتلقون الوحي من «دودونا» أو «جوبت آمون» وكذلك الأمر فيما يتعلق بخوضهم أي حرب كانوا يلتمسون نصيحة الآلهة، وهكذا فقد لجأ الإغريق إلى العرافين؛ ليستشيروهم في أمرهم، وكان هؤلاء العرافون ينبئون بالمستقبل عن طريق النظر في النجوم، وتأويل الأحلام، وفحص أحشاء الحيوان، وزجر الطيور.

ولم يقتصر التكهن على الإغريق فقط، بل شمل أيضاً الرومان، فنجد أساليب مختلفة في التنبؤ بالغيب لديهم، فعلى سبيل المثال: نجد أنّ روميلوس Romulus وهو مؤسس مدينة روما لم ينشئها استجابة لفأل عرفه عن طريق مراقبة طير سائح فقط، بل كان هو من الماهرين بين أهل العيافة؛ ولذلك أرجع

---

(١) الأنبياء: من الآية ١٨.

(٢) الحج: من الآية ٤٠.

(٣) النحل: من الآية ١٢٠.

(٤) موقف شيشرون من الكهانة: ص ٣٣، ملخصا.

شيشرون السبب في الاعتقاد بالتكهن عند القدماء، إلى أنّ فن العرافة، وكذلك في معرفة الدلالة التي تحملها الخوارق، وتفادي ما تنذر به من شر. وزعم الكهّان اليونان والرومان أنهم قادرون على التفريق بين إرادة الإله، وبين ما توحي به الشياطين، وأنهم سيوفقون بين الإرادتين. وعلى سبيل المثال: يحاول الحاكم معرفة سبب إلحاق المجاعة بمدينته، كما يطلب الحاكم نصيحة من الإله فيما يتعلق بشأن تأسيس نظام سياسي جديد في أثينا، وفي هذه الحالة، يقدم الحاكم عادة خطة مفصلة إلى الإله ثم يطلب موافقته عليها.(١)

الكهانة الهندية:

كانت الكهانة الهندية معروفة، وقد نقل منها الناس ومنهم الفرس كما مر.

قال الجاحظ في كتاب (العرافة): ولدى الهندوس كتاب (الأوهام) محفوظ في خزائن ملوكهم، وهم يرجعون فيه إلى مبادئ وآراء قديمة وأكثر ما يحويه ليس إلا افتراضاً وتخيلاً وما يعرض داخل نفوسهم؛ لأنه ما من دليل قط على أكثر مزاعمهم، ولديهم أيضاً كتاب (الجفر) وهم يتوصلون به إلى ما سيحدث من حوادث خلال العام، وذلك بمعرفة منازل القمر التي هي عندهم ثمانية وعشرون منزلاً، وبمقدار زيادة القمر أو نقصه، صعوده أو نزوله، يفسرون على نحو مختلف كل موضع من مواضعه، وهم يستدلون بالرياح بحسب هبوبها من الشمال أو من الجنوب، من الشرق أو من الغرب، وبالغمام بحسب مختلف ألوانه... ولديهم عدد من العلامات الأرضية وضعوها في لوح يضم خمساً وعشرين حالة، وحينما تحصل حالة منها ينظرون في أي برج وفى أي منزل يكون القمر، فيقضون بذلك بما تحمله هذه الحالة من شؤم أو سعد، من خير أو شر، مثل نعيق الغراب ونهيق الحمار ونباح الكلب، واذا وقعت هذه الحالات حين يكون القمر في موضع غير مؤات فإنهم يتكهنون بسوء الطالع، ومن يرغب منهم بمعرفه تلك الحالات يبحث عنها في ذلك اللوح.

ومما ذكروه في ذلك: نعيق الغراب ونهيق الحمار ونباح وصرير السقف وهبوط الطيور وحفيف الاشجار ونفخ الريح وصوت الفئران ومواء الهررة وقرض الجرذان وتمزق الثياب وشرر النار وانطفاء السراج وبقع الدهن الساقطة على الثوب ودخول حيوان إلى البيت وسقوط ضرس نجزة وصرير السرير وأمور أخرى مشابهة، وهم ينظرون إلى كل حالة من هذه الحالات علامة أو دلالة.

الكهانة التركية:

توجد مصنفات كثيرة للأتراك في الكهانة، وقد استخدموا التنجيم كثيراً، وكان له دور كبير في حياتهم، ويبدو تأثير الكهانة اليونانية البيزنطية غالباً على هذا النحو، فإنّ إحدى خصوصيات الكهانة التركية الغريبة

(١) ملخصا من الكهانة توفيق فهد ص ٧٧، موقف شيشيرون من الكهانة: ص٤٠

كلياً عن العالم السامي هي التكهن عن طريق الجروح (sekin-Nameh) والكدمات (Qiafet-Nameh) وهي ممارسة كانت الدولة تروجها بين الجنود لتثير شجاعتهم.

الكهانة لدى البربر:

كان لدى البربر إبان الفتح الإسلامي عناية بالسحر والكهانة وانشغال بهما، وكان للكهانة والكهّان حظوة كبيرة، وكان أكثر ما ينشغلون به الخط على الرمل، والذي كان مشهوراً ومنتشراً هناك.[١]

(١) الكهانة: توفيق فهد ص ٨٠، ملخصا.

الفصل الأول
الكهانة وما يتعلق بها في القرآن وتفسيره، وفي السُنّة وشروحها، وفي كتب الاعتقاد

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الكهانة وما يتعلق بها في القرآن وتفسيره.

المبحث الثاني: الكهانة وما يتعلق بها في السُنّة وشروحها.

المبحث الثالث: الكهانة وما يتعلق بها في كتب الاعتقاد.

لقد ذكر الله أمر الكهانة في كتابه حين نزّه نبيه ﷺ عنها، كما نزّه ربنا كتابه الكريم عن أن يكون كهانة، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾(١) والله في القرآن وصف نبيه ﷺ بأكرم الخلال، ونفى عنه مساوئ الأخلاق، فكانت الكهانة أمراً قبيحاً نفاه الله عن نبيه ﷺ وقد جاء في القرآن إخبار بالغيب مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾(٢) ومثل قوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾(٣) وقوله عن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾(٤) وغير ذلك مما هو معلوم، وكان الناس يرون ويعتقدون أنّ الكهانة علم الغيب والإخبار به، فنزّه القرآن عن أن يكون مثل هذه الكهانة، وجاءت سنة الهادي ﷺ تحذّر من الكهانة، وتحذّر من إتيان الكهان، بل لقد كره النبي ﷺ سجع الكهان الذي يبطل الحق وينصر الباطل، وسطر أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح في كتبهم خطر الكهانة، وحذروا المسلمين منها، وبيّنوا حكمها وحكم المتعاطين لها، وحكم قاصدي الكهان، وفي هذا المبحث نعرض ما جاء في القرآن من حديث عن الكهانة، ثم ما ذكره المفسرون مما يتعلق بأمر الكهانة، كما سنورد ما جاء في أمر الكهانة في سنة المصطفى الهادي ﷺ وفي شروحها، كما سنعرض لك أيها القارئ الكريم ما جاء في كتب الاعتقاد من تحذير من الكهانة، وبيان إفسادها لعقيدة المسلم. والله نسأل التوفيق والهداية والرشاد والعصمة من الخطأ والزلل.

---

(١) الطور: الآية ٢٩.
(٢) الفتح: من الآية ٢٧.
(٣) الروم: من الآية ٢.
(٤) المسد: الآية ٣.

المبحث الأول
الكهانة وما يتعلق بها في القرآن وتفسيره

نستعرض في هذا المبحث ما يتعلق بالكهانة في الكتاب العزيز، وما ذكره أهل التفسير في هذه الآيات، لقد نزّه الله نبيه ﷺ أن يكون كاهناً، بل هو نبي مبلغ عن ربه تبارك وتعالى، يطلعه من أمر الغيب على ما يريد سبحانه لحكم جليلة وفوائد عظيمة، قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول﴾(١) وإخبار النبي ﷺ بهذا الغيب جار على سنن النبيين الذين هم أعداء الشياطين، فالنبي ﷺ يأتيه ملك كريم، وهو يتقرّب إلى مولاه ويوحده، أما الكهّان فيتقرّبون إلى الشياطين. وسنعرض الآن لهذه الآيات الكريمات وأقوال المفسرين في ذلك:

١- قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾

قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾(٢) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فذكر يا محمد من أرسلت إليه من قومك وغيرهم، وعظهم بنعم الله عندهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ يقول فلست بنعمة الله عليك بكاهن تتكهن، ولا مجنون له رئيّ يخبر عنه قومه ما أخبره به، ولكنك رسول الله، والله لا يخذلك.(٣)

بيّن الطبري هنا أنّ النعمة المذكورة في الآية هي براءة النبي ﷺ من الكهانة، وأنها نقص وشين يتنزه عنه رسول الله ﷺ الذي اصطنعه الله على عينه، ومنحه أجمل الصفات وأحسن الخلال، وصرف عنه مساوئ الأخلاق، ومن أعظم ما صرف عنه الكهانة.

وقال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش، والكاهن: الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿وَلا مَجْنُونٍ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.(٤)

ويذكر ابن كثير ما ذكره الطبري من نعمة الله، ولكن يذكر أمر البلاغ فهو مبلغ عن ربه منبئ من قبله ﷻ، أخبره بأخبار الغيب وهو مبرأ من الكهانة، كما يذكر أيضاً أنّ الجنون الذي نزّه الله عنه نبيه منه ما

(١) الجن: من الآية ٢٦.
(٢) الطور: ٢٩,٣٠,٣١
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر وأخيه محمود: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠ م. (ج ٢٢ / ص ٤٧٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة: ج ٧/ ص ٤٣٦، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

يكون من مس الشيطان، كما أنّ الشيطان قد يلقي على لسان المجانين ما يفتن به العباد كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام إن شاء الله.

وقال الآلوسي: ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل. ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ هو الذي يخبر بالغيب بضرب من الظن، وخص الراغب الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية كذلك، والعرّاف بمن يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك، والمشهور في الكهانة الاستمداد من الجن في الإخبار عن الغيب، والباء في ﴿بِكَاهِنٍ﴾ مزيدة للتأكيد أي ما أنت كاهن ﴿وَلاَ مَجْنُونٍ﴾ واختلف في باء ﴿بِنِعْمَتِ﴾ فقال أبو البقاء: للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال والعامل فيه كاهن أو مجنون، والتقدير ما أنت كاهن ولا مجنون ملتبساً بنعمة ربك وهي حال لازمة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه عز وجل، وقيل: للقسم فنعمة ربك مقسم به، وجواب القسم ما علم من الكلام، وهو ما أنت بكاهن ولا مجنون وهذا كما تقول: ما زيد والله بقائم وهو بعيد، والأقرب عندي أن الباء للسببية وهو متعلق بمضمون الكلام، والمعنى انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله تعالى عليك، وهذا كما تقول ما أنا معسر بحمد الله تعالى وإغنائه، والمراد الرد على قائل ذلك، وإبطال مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام وإلا فلا امتنان عليه ﷺ بانتفاء ما ذكر مع انتفائه عن أكثر الناس، وقيل: الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ما أوتيه ﷺ من صدق النبوة ورجاحة العقل التي لم يؤتها أحد قبله، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون، وممن قال كاهن شيبة بن ربيعة [١] وممن قال مجنون عقبة[٢] بن أبي معيط.[٣]

يبسط الآلوسي تفسير الآية ويذكر سبب ذكر الله لهذه النعمة، وهي دفاع الرب ودفعه عن نبيه ﷺ فحين وصفوه بذلك نفى الله عنه ذلك لثبوت الضد، وهو إنعام الله على عبده ونبيه مُحَّد ﷺ فلكماله

---

(١) شيبة يكنى بأبي هاشم. كان مكذبا لرسول الله ﷺ ومع قريش في أذاها له ﷺ، غير أنه كان لا يتولى ذلك بيده. قتل يوم بدر، قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وذفف عليه حمزة وعلي رضي الله عنه. وكان شيبة أسن من عتبة بثلاث سنين. وقد كان عتبة وشيبة متثاقلين عن الخروج حتى أنبهما أبو جهل، فخرجا. بتصرف من أنساب الأشراف للبلاذري ص ١٥٢.

(٢) هو عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كان من وجهاء قريش وكان خليلا لأمية بن خلف الجمحي، وكان عقبة يجالس النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشا، ودعا رسول الله ﷺ فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم، وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين، فأتاه رسول الله ﷺ وأكل من طعامه وكان خليل أبي معيط أمية بن خلف غائبا عنه بالشام فقالت قريش: صبأ أبو معيط، ولما قدم خليله من الشام ليلاً، قال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالوا: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط، فحياه، فلم يرد عليه التحية، فقال: مالك لا تردّ عليّ تحيتي؟، فقال: كيف أرد عليك تحيتك، وقد صبوت؟ قال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: نعم، فقال عقبة: رأيت عظيما ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش، فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت مجدا. وكان الخبيث بعد من أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ أسر في بدر وقتل صبرا أخزاه الله. راجع سيرة ابن هشام البداية والنهاية.

(٣) تفسير الألوسي (ج ١٩/ ص ٤٥٠)

نفى عنه ذلك، وهو كما يقول العلماء إنّ النفي المحض ليس كمالاً، ولكن هو نفي مع ثبوت ضده كما يذكر أهل العلم ذلك في باب صفات الله فينفون عنه السِّنة والنوم تعالى لكمال حياته، وأيضاً في قول موسى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ لكمال علمه وإحاطته سبحانه وهكذا، فالكهانة منتفية عنه ﷺ لكمال نعمة الله عليه بالوحي، وإلا فإن كثيراً من الناس الكهانة منتفية عنهم، ولكن لأسباب أخرى منها العجز مثلاً أو الجهل، أما من تركها لأنها حرام وشرك فهذا تابع لرسول الله ﷺ وهو في نعمة لا شك ولكن هي بنعمة الله على نبيه، وهو كذلك غير معصوم منها ولا موصوف بالكمال الذي وصف به الرسول ﷺ ولا يوحى إليه حتى توجه له التهمة كما وجهت للنبي ﷺ.

وفي زاد المسير(١) قوله تعالى: ﴿فذكِّر﴾ أي: فَعِظ بالقرآن ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوّة ﴿بكاهنٍ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويُخْبِر عمّا في غد من غير وحي. والمعنى: إنما تَنْطِق بالوحي لا كما يقول فيك كفار مكة.

ونقول: الذي يوهم ويدعي متشبه بالكاهن، وهو آتٍ منكراً عظيماً وزوراً وهم كثر، وقد ذكرنا فيما مضى وسنذكر فيما يأتي المتشبه وليس منهم والفرق بينهما، ولكن قد يحمل كلام ابن الجوزي على الكهانة إذا كان ذلك المدعي يتعامل مع الشياطين، ثم يكذب ويزعم أنّ عنده سر يطلع به على الغيب، ولكن ليس هو الشيطان، وهذا كاهن لا شك. أما الذي يدعي مجرد ادعاء ويوهم الناس ولا تعامل له مع الشياطين، وغير متقرب لها بقرابين وغير متعبد لها، فهذا آكل لأموال الناس بالباطل مجرم يتشبه بالمجرمين.

نقول هذا هنا لأن كثيراً من الناس ومن الباحثين يرى أنّ هؤلاء جميعاً كذابين، وأنّ إخبارهم بالغيب ادعاء وغير حقيقي، وأنّ جميعهم من المشعوذين، وهذا تهوين لما يأتي الكهّان من جرائم وشرك، كما أنه إنكار لما هو موجود وواقع ومحسوس. ولا شك أنّ الكفار كانوا يعنون الكاهن الحقيقي الذي له رئي من الجن، ومعه من يتسمع ويأتيه بالأخبار منهم، كما بين ذلك النبي ﷺ في الأحاديث. تلك قضية سيأتي التنبيه عليها مراراً.

وفي تفسير البحر المحيط(٢): لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمره بالتذكير إنذاراً للكافر وتبشيراً للمؤمن، ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون، إذ كانا طريقين إلى الإخبار ببعض المغيبات، وكان للجن بهما ملابسة للإنس. وممن كان ينسبه إلى الكهانة شيبة بن ربيعة، وممن كان ينسبه إلى الجنون عقبة بن أبي معيط. وقال الزمخشري: ﴿فذكِّر﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبطنك قولهم كاهن أو

(١) ج ٥/ ص٤٣٣.
(٢) ج ١٠/ ص١٥١.

مجنون ولا تبال به، فإنه قول باطل متناقض. فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله وما أنت بحمد الله تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورصافة العقل أحد هذين. انتهى. وقال الحوفي: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ متعلق بما دل عليه الكلام، وهو اعتراض بين اسم ما وخبرها، والتقدير: ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن. قال أبو البقاء: الباء في موضع الحال، والعامل في بكاهن أو مجنون، والتقدير: ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك. انتهى.

روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة، وكثرت آراؤهم فيه ﷺ حتى قال قائل منهم، وهم بنو عبد الدار، قاله الضحاك: تربصوا به ريب المنون، فإنه شاعر سيهلك، كما هلك زهير والنابغة والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت الآية في ذلك. وقول من قال ذلك هو من نقص الفطرة بحيث لا يدرك الشعر، وهو الكلام الموزون على طريقة معروفة من النثر الذي ليس هو على ذلك المضمار، ولا شك أن بعضهم كان يدرك ذلك، إذ كان فيهم شعراء، ولكنهم تمالئوا مع أولئك الناقصين الفطرة على قولهم: هو شاعر؛ جحداً لآيات الله بعد استيقانها.

وقال الطاهر ابن عاشور(١): فربط الله جَأش رسوله ﷺ وأعلمه بأن براءته من ذلك نعمة أنعم بها عليه ربه تعالى، ففرع هذا الخبر على الأمر بالتذكير بقوله: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ والباء في ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ للملابسة وهي في موضع الحال من ضمير ﴿أَنتَ﴾ ونفي هذين الوصفين عنه في خطاب أمثاله ممن يستحق الوصف بصفات الكمال، يدل على أنّ المراد من النفي غرض آخر، وهو هنا إبطال نسبة من نسبه إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٢) ولذلك حسن تعقيبه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾(٣) مصرحاً فيه ببعض أقوالهم، فعلم أنّ المنفي عنه فيما قبله مقالة من مقالهم، وقد اشتملت هاته الكلمة الطيبة على خصائص تناسب تعظيم من وجهت إليه، وهي أنها صيغت في نظم الجملة الاسمية فقيل فيها ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ دون: فلست بكاهن، لتدل على ثبات مضمون هذا الخبر.

وقدّم فيها المسند إليه مع أن مقتضى الظاهر أنّ يقدم المسند وهو ﴿بِكَاهِنٍ﴾ أو ﴿مَجْنُونٍ﴾ لأنّ المقام يقتضي الاهتمام بالمسند ولكن الاهتمام بالضمير المسند إليه كان أرجح هنا لما فيه من استحضار معاده المشعر بأنه شيء عظيم، وأفاد مع ذلك أنّ المقصود أنه متصف بالخبر لا نفس الإخبار عنه بالخبر كقولنا: الرسول يأكل الطعام ويتزوج النساء. وأفاد أيضاً قصراً إضافياً بقرينة المقام لقلب ما يقولونه أو يعتقدونه من قولهم: هو كاهن أو مجنون، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(٤) وقرن الخبر

---

(١) التحرير والتنوير (ج١٤/ ص١٤٢)
(٢) التكوير: من الآية ٢٢.
(٣) الطور: الآية ٣٠
(٤) هود: من الآية ٩١

المنفي بالباء الزائدة لتحقيق النفي فحصل في الكلام تقويتان، وجيء بالحال قبل الخبر، أو بالجملة المعترضة بين المبتدأ والخبر؛ لتعجيل المسرة وإظهار أنّ الله أنعم عليه بالبراءة من هذين الوصفين، وعدل عن استحضار الجلالة بالاسم العلم إلى تعريفه بالإضافة وبوصفه الرب لإفادة لطفه تعالى برسوله ﷺ لأنه ربه فهو يربُّه ويدبر نفعه، ولتفيد الإضافة تشريف المضاف إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ردّ على مقالة شَيبة بن ربيعة قال في رسول الله ﷺ هو كاهن، وعلى عقبة بن أبي معيط إذ قال: هو مجنون، ويدل لكونه رداً على مقالة سبقت أنه أتبعه بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ ما سيكون وما خفي مما هو كائن.

والكاهن: الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي مما هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسْجاع قصيرة. وكان أصل الكلمة موضوعة لهذا المعنى غير مشتقة، ونظيرها في العبرية (الكوهين) وهو حافظ الشريعة والمفتي بها، وهو من بني (لاوي) وتقدم ذكر الكهانة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾[(١)]

وقد اكتُفي في إبطال كونه كاهناً أو مجنوناً بمجرد النفي دون استدلال عليه؛ لأن مجرد التأمل في حال النبي ﷺ كافٍ في تحقق انتفاء ذينك الوصفين عنه فلا يحتاج في إبطال اتصافه بهما إلى أكثر من الإخبار بنفيهما لأن دليله المشاهدة.[(٢)]

وقال الشنقيطي رحمه الله[(٣)]: نفى الله جل وعلا عن نبيه ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه ﷺ رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون فقد نفاها صريحاً بحرف النفي الذي هو ما في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ وأكد النفي بالباء في قوله: ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وأما كونه شاعراً فقد نفاه ضمناً بأم المنقطعة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه ﷺ كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ وقوله في التكوير: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين أعني الكهانة والشعر: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)]

في هذا نفي كل باطل من شعر أو كهانة أو غيرها، ولكل نقص أو زيادة.[(٥)]

---

(١) الشعراء: ٢١٠.
(٢) التحرير والتنوير (ج ١٤ / ص ١٤٢)
(٣) في أضواء البيان (ج٨/ ص٣١)
(٤) الحاقة: من الآية ٤٢,٤١.
(٥) أضواء البيان (ج ٨/ ص ٣٩٢)

وقال في المحرر الوجيز[1]: هذا أمر لرسول الله ﷺ بالدعاء إلى الله ومتابعة نشر الرسالة، ثم قال مؤنساً له: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ بإنعام الله عليك أو لطفه بك ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجن والإنس بهذين الوجهين، فنسبت محمداً ﷺ إلى ذلك فنفى الله تعالى عنه ذلك. (وهذا كلام دقيق جدا)

وجاء في تفسير السعدي[2]: يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس: مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به فقال: ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: منه ولطفه ﴿بِكَاهِنٍ﴾ أي: له رئي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مائة كذبة ﴿وَلا مَجْنُونٍ﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم.

وفي شعب الإيمان للبيهقي[3]: وفي القرآن وجهان آخران للإعجاز: أحدهما ما فيه من الخبر عن الغيب، وذلك في قوله عز وجل: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[4] وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[5] وقوله في الروم: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وغير ذلك من وعده إياه بالفتوح في زمانه وبعده، ثم كان كما أخبر، ومعلوم أنه ﷺ كان لا يعلم النجوم ولا الكهانة، ولا يجالس أهلها.

والآخر: ما فيه من الخبر عن قصص الأولين من غير خلاف ادعي عليه فيما وقع الخبر عنه ممن كان من أهل تلك الكتب ومعلوم أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ كتابا ولا يخطه، ولا يجالس أهل الكتاب للأخذ عنهم، وحين زعم بعضهم أنه يعلمه بشر رد الله تعالى ذلك عليه فقال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[6]

٢- نفي الكهانة عن القرآن: قال تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾

قال الطبري رحمه الله: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: ولا هو بقول كاهن، لأن محمدًا ليس بكاهن، فتقولوا: هو من سجع الكهان ﴿قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تتعظون به أنتم، قليلاً ما تعتبرون به. وعن قتادة ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ طهَّره الله من ذلك وعصمه ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ طهَّره الله من الكهانة، وعصمه منها.[7]

(١) (ج ٦/ ص٢١٧)
(٢) (ج ١/ ص ٨١٥)
(٣) (ج١/ ص١٤٦)
(٤) الصف: من الآية ٩.
(٥) النور: من الآية ٥٥.
(٦) النحل: من الآية ١٠٣.
(٧) تفسير الطبري (ج ٢٣ / ص ٥٩٢)

أيها القارئ الكريم إنه لا شك أنّ هناك علاقة بذكر عظمته سبحانه وإحاطته بما نبصر وما لا نبصر، وما نعلم وما يغيب عنا، وبين نفي الكهانة عن القرآن وعن النبي ﷺ وهذا يدل على عظمة هذا الكتاب، وعلى تضمنه الرد على سائر أهل الضلال بعبارات موجزة واضحة بينة.

ولقد أبدع الحافظ ابن كثير حين قدم لهذه الآية بقوله: يقول تعالى مُقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إنّ القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: محمدًا، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا جبريل، عليه السلام. ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعني: أن مُحَّمداً رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[التكوير: ١٩-٢٥] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ فأضافه تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه؛ ولهذا قال: ﴿تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ونقول: الأمين ﷺ لا يزيد على الوحي كما يزيد الكاهن على ما يلقيه الشيطان له، بل هو أمين على وحي الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾

وذكر ابن كثير أنّ هذه الآيات الكريمات كانت سبباً في إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، وفي هذا الحديث أنّ عمر عندما قال في نفسه: شاعر. وتلا النبي ﷺ الآية عقب ما وقع في نفسه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ ثم عندما قال: كاهن. تلا النبي ﷺ ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما يدل على صدق الرسول ﷺ وفي هذا الزمان بل وحتى في زماننا يتباهى كثير بأنه كاهن، وكان للكهان عند العرب مكانة مرموقة.(١)

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا شُرَيح بن عبيد الله، قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش. قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ قال: فقلت: كاهن. قال فقرأ: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ

(١) تفسير ابن كثير (ج ٨/ ص٢١٧)

* لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[١] إلى آخر السورة. قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع.[٢]

وجاء في تفسير الألوسي[٣]: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ المشاهدات والمغيبات وإليه يرجع قول قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته عز وجل، وقال عطاء: ما تبصرون من آثار القدرة وما لا تبصرون من أسرار القدرة، وقيل الأجسام والأرواح وقيل الدنيا والآخرة وقيل الإنس والجن والملائكة وقيل الخلق والخالق وقيل النعم الظاهرة والباطنة، والأول شامل لجميع ما ذكر وسبب النزول على ما قال مقاتل: إنّ الوليد قال: إنّ مُحَّداً ﷺ ساحر وقال أبو جهل: شاعر، وقال عتبة: كاهن، فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ الخ

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ الخ قيل دليل لما قاله الأكثرون لأنّ المعنى على إثبات أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا شاعر ولا كاهن كما يشعر بذلك سبب النزول، وتوضيح ذلك أنهم ما كانوا يقولون في جبريل عليه السلام أنه كذا وكذا وإنما كانوا يقولونه في النبي ﷺ فلو أريد برسول كريم جبريل –عليه السلام– لفات التقابل ولم يحسن العطف كما تقول: إنه لقول عالم وما هو بقول جاهل، ولو قلت: وما هو بقول شجاع نسبت إلى ما تكره وتعقبه بعض الأئمة بأنّ هذا صحيح إن سلم أنّ المعنى على إثبات رسول لا شاعر، ويكون قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ * لا * قَوْلَ * شَاعِرٌ} إثباتاً للرسالة على طريق الكناية، أما إذا جعل المقصود من السياق إثبات حقّية المنزل، وأنه من الله عزّ وجلّ فإنه تذكرة لهؤلاء وحسرة لمقابليهم، وهو في نفسه صدق ويقين لا يحوم حوله شك، كما يدل عليه ما بعد، فللقول الثاني أيضاً موقع حسن، وكأنه قيل: إنّ هذا القرآن لقول جبريل الرسول الكريم وما هو من تلقاء مُحَّد ﷺ كما تزعمون وتدعون أنه شاعر وكاهن، ويكون قد نفى عنه ﷺ الشعر والكهانة على سبيل الإدماج. انتهى. وهو تحقيق حسن.

﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي تصدقون تصديقاً قليلاً على أنّ قليلاً صفة للمفعول المطلق ل(تؤمنون) وما مزيدة للتأكيد والقلة بمعناها الظاهر لأنهم لظهور صدقه ﷺ لزم تصديقهم له عليه الصلاة والسلام في الجملة، وإن أظهروا خلافه عناداً وأبوه تمرداً بألسنتهم.

قال الآلوسي: ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدعون مرة أخرى ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرون تذكراً قليلاً فلذلك يلتبس الأمر عليكم... وذكر الإيمان مع نفي الشاعرية، والتذكر مع نفي الكاهنية، قيل لما أن عدم مشابهة القرآن الشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند، فلا عذر لمدعيها في ترك الإيمان وهو أكفر من حمار، بخلاف مباينته للكهانة فإنها تتوقف على تذكر أحواله ﷺ ومعاني القرآن المنافية لطريق الكهانة

(١) الحاقة: الآيات ٤٧:٤٢.
(٢) الحديث في مسند أحمد: حديث ٢٦٢.
(٣) تفسير الألوسي (ج ٢١/ ص٢٤١)

ومعاني أقوالهم... ﴿إِنَّهُ﴾ أي إنّ القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو مُحَمَّد ﷺ في قول الأكثرين، ويؤيده: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ وما بعده، ونسب القول إليه لأنه هو مبلغه والعامل به. وقال ابن السائب ومقاتل وابن قتيبة: هو جبريل عليه السلام، إذ هو الرسول عن الله. ونفى تعالى أن يكون قول شاعر لمباينته لضروب الشعر، ولا قول كاهن لأنه ورد بسبب الشياطين.(١)

وفي تفسير أبي السعود(٢): قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ أيْ فأُقسِمُ على أنَّ لاَ مزيدةٌ للتأكيدِ وأمَّا حملُهُ على مَعْنَى نفيِ الإقسامِ لظهورِ الأمرِ واستغنائِهِ عن التحقيقِ فيردُّه تعيينُ المقسمِ بهِ بقولِهِ تعالَى : ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ كما مرَّ في سورةِ الواقعةِ أي أقسمُ بالمشاهداتِ والمغيباتِ وقيلَ بالدُّنيا والآخرةِ وقيلَ بالأجسامِ والأرواحِ والإنسِ والجِنِّ والخلقِ والخالقِ والنعمِ الظاهرةِ والباطنةِ، والأولُ منتظمٌ للكلِّ ﴿إِنَّهُ﴾ أيِ القرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلغُهُ عن الله تعالَى... ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمونَ تارةً ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً قليلاً تؤمنونَ ﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدَّعُونَ ذلكَ تارةً أُخرى ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرونَ على أنَّ القلةَ بمَعْنَى النَّفيِ أيْ لا تُؤمنونَ ولا تتذكرونَ أصْلاً، قيلَ ذُكِرَ الإيمانُ معَ نَفيِ الشاعريةِ والتذكرُ مع نَفيِ الكاهنيةِ، لما أنَّ عدمَ مشابهةِ القُرآنِ الشعرَ أمرٌ بينٌ لا يُنكرهُ إلا معاندٌ، بخلافِ مباينتِهِ للكهانةِ فإنَّها تتوقفُ على تذكرِ أحوالِهِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- ومعانِي القُرآنِ المنافيةِ لطريقةِ الكَهَنَةِ ومعانِي أقوالِهِم، وأنتُ خبيرٌ بأنَّ ذلكَ أيضاً مما لا يتوقفُ على تأملٍ قطعاً ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين﴾ نزلَّهُ على لسانِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الاقاويل﴾ سُمِّي الافتراءُ تقوُّلاً لأنَّه قولٌ متكلفٌ والأقوالُ المفتراةُ أقاويلُ تحقيراً لها كأنَّها جمعُ أُفْعُولةٍ من القولِ كالأضاحيكِ، جمعُ أُضْحوكَةٍ.(٣)

رحم الله أبا السعود فهو ينقل ما ذكره العلماء من الحكمة من ختم الآية التي فيها نفي الشعر بقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ والآية التي فيها نفي الكهانة بقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بأنّ القرآن مباين ومغاير للشعر بنظمه وقوافيه وبحوره وغير ذلك، فمخالفته للشعر معلومة ومخالفة النبي للشعراء معلومة، أما الكهانة فتحتاج إلى تذكر وتفكر في أحوال النبي ﷺ وإلى صفاته وإلى ملازمته للصدق وعدم تقوله على الله وعدم تخرصه بالغيب، هذا ما قاله العلماء في أمر الكهانة، لكن أبا السعود -لله دره- يقول وإن هذا أيضا ظاهر واضح لا يحتاج إلى مزيد البحث والتقصي، فأحوال النبي ﷺ ظاهرة لا تخفى على أحد، وصدقه أظهر من الشمس في ضحاها ﷺ وهذا كلام جليل حسن ونحن نوافقه عليه تمام الموافقة.

(١) تفسير البحر المحيط (ج ١٠/ ص ٣٣٥) بتصرف.
(٢) ج ٦/ ص ٣٧٤.
(٣) تفسير أبي السعود (ج ٦ / ص ٣٧٤) وقريب منه في الدر المنثور (ج ١٠ / ص ٩٧)

وذكر الطبري[١] كلاما مهما جدا. هذا نصه: وفي هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبرَ، والذكرى لمن ادّكر، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقَى السمعَ وهو شهيد، عمّا أودع الله -جل ثناؤه- آيَ هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن. وذلك أنّ الله -جل ثناؤه- احتجّ فيها لنبيه ﷺ على من كان بين ظَهْرَانَيْه من يَهود بني إسرائيل، باطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن -جل ثناؤه- أطلعَ عليها من خلقه إلا خاصًّا، ولم يكن مُدرَكًا علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أنّ ما أتاهم به فمن عنده، ودلّ فيها على أنّ كل مخبر خبرًا عما قد كان، أو عما هو كائن مما لم يكنْ، ولم يأته به خبر، ولم يُوضَع له على صحّته برهان، فمتقوّلٌ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة. ألا ترى أنّ الله -جل ذكره- ردّ على ملائكته قِيلَهم: ﴿أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ونَحنُ نُسبح بحمدك ونقدسُ لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمونَ﴾[٢] وعرفهم أن قِيلَ ذلك لم يكن جائزًا لهم، بما عرّفهم من قصور علمهم عند عرضه ما عرض عليهم من أهل الأسماء، فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلم يكن لهم مَفزَعٌ إلا الإقرارُ بالعجز، والتبرِّي إليه أن يعلموا إلا ما علّمهم، بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة على كذب مقالة كلّ من ادعى شيئًا من علوم الغيب من الحُزاة والكهنة والعافَةِ والمنجّمة.[٣]

وفي هامش تفسير الطبري[٤] أنهم قالوا في (الطرق) وهو الضرب بالحصا، وهو نوع من الكهانة: (استطرق) طلب من الكاهن أن يطرق له الحصى، وأن ينظر له فيه. وأشباه ذلك كثير لا معنى لاستقصائه ههنا.

والمقصود أنّ التكهن لا يكون بالحصى وحده بل تتعدد طرق الكهّان في ذلك فمنهم من يضرب بالحصى ومنهم من يلقى الودع، أو نوى التمر، أو حبوب الهيل، ولكهان كل بلد عرف والغالب أنهم يأخذون أداة الكهانة من طبيعة البلد.

ونقول: والودع — والنوى مواتا وجمادات، والعجيب كيف يستوحى منها ذو عقل، قال ربنا ﷻ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾[٥] أي مواتا.

---

(١) (ج١/ ص٤٩٤)
(٢) البقرة: الآية ٣٠.
(٣) علق الشيخ/ محمود شاكر (محقق الطبري) على هذا الموضع بما يلي: الحزاة جمع حاز: وهو كالكاهن يحزر الأشياء ويقدرها بظنه. ويقال للذي ينظر في النجوم ويتكهن حاز وحزاء، وفي حديث هرقل أنه "كان حزاء" وفي الحديث: "كان لفرعون حاز" أي كاهن. والكهنة جمع كاهن: وهو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار. وفي المطبوعة "والقافة" مكان "والعافة" وهو خطأ بين، فالقيافة ليست مما أراد الطبري في شيء، وهي حق لا باطل كباطل التحزي والكهانة والتنجيم. والعافة جمع عائف: وهو الذي يعيف الطير فيزجرها ويتفاءل أو يتشاءم بأسمائها وأصواتها وممرها. واسم حرفته: العيافة، وفي الحديث: "العيافة والطرق من الجبت" وهو ضرب من الكهانة. والمنجم والمتنجم: الذي ينظر في النجوم يحسب مواقيتها وسيرها، ثم يربط بين ذلك وبين أحوال الدنيا والناس، فيقول بالظن في غيب أمورهم.
(٤) ج ٨/ ص٢٣٩.
(٥) النساء: من الآية ١١٧.

وفي تفسير الطبري أيضا[1]: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا﴾[2] إلى قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ قال: هذا الوليد بن المغيرة قال: سأبتار لكم هذا الرجل الليلة، فأتى النبيّ ﷺ فوجده قائماً يصلي ويقترئ، وأتاهم فقالوا: مه، قال: سمعت قولاً حلواً أخضر مثمراً يأخذ بالقلوب، فقالوا: هو شعر، فقال: لا والله ما هو بالشعر، ليس أحد أعلم بالشعر مني، أليس قد عَرضت عليّ الشعراء شعرهم نابغة وفلان وفلان؟ قالوا: فهو كاهن، فقال: لا والله ما هو بكاهن، قد عرضت عليّ الكهانة، قالوا: فهذا سحر الأوّلين اكتتبه، قال: لا أدري إن كان شيئاً فعسى هو إذا سحر يؤثر، فقرأ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[3] قال: قتل كيف قدّر حين قال: ليس بشعر، ثم قتل كيف قدّر حين قال: ليس بكهانة.

وفي تفسير القرطبي عن علي –رضي الله عنه– أنه قال: السحت: الرشوة وحلوان الكاهن والاستجعال في القضية.[4]

وفيه أيضا[5] قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده. فمن قال: إنه ينزل الغيث غداً وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا. وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إنّ النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهاً بكلمة أهل الكفر، وجهلاً بلطيف حكمته، لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء[6] كذا، ومرة دون النوء، قال الله تعالى: {أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب}[7] على ما يأتي بيانه في (الواقعة) إن شاء الله.

قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجباً في الخلقة لم يكفر ولم يفسق.

وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضاً.

ونقول هذا كلام نفيس ومهم جدا وتفصيل يحتاج إليه.

---

(١) ج ٢٤/ ص ٢٥.
(٢) المدثر: الآية ١١,١٢
(٣) المدثر: الآية ١٩,٢٠.
(٤) (ج٦/ ص١٨٣)
(٥) (ج٧/ ص٢)
(٦) النوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.
(٧) البخاري حديث ٨٠١، ومسلم حديث١٠٤.

قال رحمه الله: فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن. أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[(١)] وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين، فأدبوا حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به.

قلت: ومن هذا الباب أيضاً ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: {من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة} والعرّاف هو الحازر والمنجّم الذي يدعي علم الغيب، وهي من العرافة وصاحبها عرّاف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها، وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وأسباب معتادة في ذلك. وهذا الفن هو العيافة (بالياء) والكهانة: ادعاء علم الغيب.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب (الكافي): من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسحت والرشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وادعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزمر واللعب والباطل كله.

قال علماؤنا: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين، والكهان لا سيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر، لقول عليه السلام: {لم تقبل الصلاة أربعين ليلة} فكيف بمن أتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم.

روى مسلم -رحمه الله- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهان فقال: {إنهم ليسوا بشيء} فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حق! فقال رسول الله ﷺ: {تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة}[(٢)]

وأخرجه البخاري أيضاً من حديث أبي الأسود مُحَّد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: {إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم}[(٣)]

وفي تفسير القرطبي أيضاً[(١)] قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾[(٢)] أي لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة، أي حفظنا السماء[(٣)] من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحى

---

(١) يس: من الآية ٣٩.
(٢) صحيح مسلم: حديث رقم ٢٢٢٨.
(٣) صحيح البخاري: حديث ٦٢١٣.

وغيره، إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئا، لقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[٤] فهم يستمعون إلى شيء ليس بوحي فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم، ذكره الحسن وابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أتبعه: أدركه ولحقه. وشهاب: كوكب مضيء. وكذلك شهاب ثاقب. وقوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بشعلة نار في رأس عود... وسُمي الكوكب شهاباً لبريقه، بشبه النار. وقيل: شهاب شعلة من نار، قبس لأهل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه.

قال ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجاً تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو، فيُرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب، فيأتي أصحابه وهو يلتهب فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعاً، فيحدثون بها أهل الارض، الكلمة حق والتسع باطل، فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان، صدقوهم بكل ما جاءوا به من كذبهم.

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل. وقال الحسن وطائفة: يقتل، فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان:

أحدهما: أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم، فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.

والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن، ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الاحراق، ذكره الماوردي.

واختلف هل كان هذا القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث، على قولين، وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة (الجن) عن ابن عباس.

وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إنّ الذين قالوا لم تكن الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ثم رميت، أي لم تكن ترمى رميا يقطعها عن السمع، ولكنها كانت ترمى وقتاً ولا ترمى وقتاً، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾[٥] إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب فصاروا يرمون واصباً.

---

(١) (ج ١٠/ ص١٠)
(٢) الحجر: من الآية ١٨.
(٣) قال محقق القرطبي: الأبراج على حسب ترتيبها التصاعدي هي: القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل.
(٤) الشعراء: من الآية ٢١٢.
(٥) الصافات: من الآية ٨,٩.

وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكل. فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل، ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يقروا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها، فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه، فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوة.

فإن قيل: إنّ هذا القذف إن كان لأجل النبوة فلم دام بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دام بدوام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: {ليس منا من تكهّن} فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجن إلى تسمعها، وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنّ قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يؤمن أن يظنوا أنّ الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة، فصح أنّ الحكمة تقضي دوام الحراسة في حياة النبي عليه السلام، وبعد أن توفاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله.

وكلام القرطبي -رحمه الله- عن دوام حراسة السماء وانقطاع الكهانة التي كانت تحصل عن طريق مقاعد السمع التي كان يقعدها الشياطين، وبقيت الكهانة التي طريقها خطف الأخبار، كما يعمل الجاسوس.

ونقول: ليس معنى هذا أنّ الكهانة منعت منعا نهائياً، وأنّ الجن لا يأتون بأي أخبار لأنّ هذا دلت عليه أخبار النبي ﷺ الآتية بعد -إن شاء الله- وهي كثيرة وواضحة الدلالة على استراق الشياطين السمع، وقذفها الأخبار إلى أوليائها زمن النبي ﷺ ومن بعده من باب أولى، نعم نعتقد أنهم لا يتسمعون شيئاً من الوحي وهم معزولون عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(١) وهذا ظاهر الدلالة على عدم استطاعتهم أخذ شيء من الوحي والنزول به.

قال القرطبي: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ وقيل: الاستثناء يرجع إلى غير الوحي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٢) فيسترق الواحد منهم شيئاً مما يتفاوض فيه الملائكة، مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض، وهذا لخفة أجسام الشياطين فيرجمون بالشهب حينئذ.

وروي في هذا الباب أحاديث صحاح، مضمونها أنّ الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذي يليه ثم الذي يليه، فيقضي الله تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه

---

(١) الشعراء: من الآية ٢١٠,٢١١.
(٢) الشعراء: من الآية ٢١٢.

شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيّناه. فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة، وتصدق تلك الكلمة فيصدق الجاهلون الجميع كما بيناه في [الأنعام] فلما جاء الله بالإسلام حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتة. والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقض.

قال النقاش ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء، لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها، لأنها قريبة منا. وقد مضى في هذا الباب في سورة (الحجر) من البيان ما فيه كفاية، وذكرنا في (سبأ) حديث أبي هريرة وفيه: {والشياطين بعضهم فوق بعض} وقال فيه الترمذي حديث حسن صحيح.[1] وفيه عن ابن عباس: {ويختطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يحرفونه ويزيدون}[2] قال هذا حديث حسن صحيح. والخطف: أخذ الشيء بسرعة.

وقال القرطبي[3]: قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر والاوقات. فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به، وتعدى وظلم. وقال مُحَمَّد بن كعب: والله ما لاحد من أهل الارض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ويتخذون النجوم علة.[4]

تعليق:

إنّ المحتسب المتتبع لهؤلاء الكهان والمخالط لهم يرى أنّ أكثر الكهان: من قارئ الكف وضارب الودع وخاط على الرمل وصاب للرصاص، غالب تكهناتهم فيما خفي على البشر وعلمت به الجن من خلال قدراتها التي منحها الله إياها من طيران في الهواء، وتشكلهم كما يريدون، وغوصهم في البحار.

يتحدث الكهان عن الضائع والمسروق، ويتعاملون مع الشياطين الذين يصدقون مرة ويكذبون مائة؛ لأنّ أصل أخبارهم الكذب، فتخبر الشياطين الكهّان والمتعاملين بها بما ضاع وسرق من أموال الناس، ولا يتم لهم ذلك كما ذكرنا مراراً وأكدنا إلا بالتقرب إلى الشياطين.

فإذا تقرّب الكاهن وقاصده للجن أعانته وأوحت إليه، وبقدر ما يقرب الكاهن من قرابين ويضل من الخلق، ويصبح معروفاً مشهوراً مقصوداً تخدمه الشياطين، فالشياطين حين يرون لجوء الناس إلى ذلك الكاهن يخدموه أكثر؛ ليكثر حزب النار والعياذ بالله.

---

(١) سنن الترمذي حديث ٣١٤٧، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة برقم ١٩٤.
(٢) سنن الترمذي: حديث رقم ٣٢٢٤، صححه: الألباني.
(٣) ج ١٨/ ص ٢١١.
(٤) راجع كتابنا احتساب الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم على السحرة والكهان والمنجمين ففيه حديث مفصل واستقصاء لكلام التابعين في ذلك.

والذي يؤكد هذا الأمر الواقع الموجود في حديث بعض الكهان الذين يتحدثون عن أشياء من الغيب يتحقق بعد وقت من الزمن.

هذا وقد ابتليت الأمة الإسلامية في هذا الزمان بأولئك الكهنة الذين لبسوا لباس العلم والنظر في الأفلاك، وحين يقولون: نحن علماء فلك وناظرين في النجوم، يلتبس أمرهم على الناس الذين يظنون أنهم علماء متخصصون في دراسة الأفلاك دراسة علمية، ينظرون للقمر وحركات النجوم التي هي علامات يهتدي بها الخلق، وينظرون في ظهور الهلال، أي يظن الناس أنهم علماء الأرصاد والمراصد العلمية، وأنهم الدارسون بأقسام الفلك بكليات العلوم وغيرها، وقلّ من الناس من يتفطن إلى حقيقة تعلقهم بالنجوم والأفلاك وأنه تعلق شيطاني كفري، كما يروجون للناس بأنهم أهل إلهام تلقى في قلوبهم هذه الأخبار لصفاء نفوسهم وجلائها ونقائها وشفافيتها، وأنهم يتنبئون وينبئون.

فلقد فتنوا الناس بخروجهم في وسائل الإعلام ومواقع التواصل في نهاية كل عام، ثم يضلون الناس بقولهم ذكرنا في العام الماضي أنه سيحدث كذا وحدث وأنه سيحدث كذا وحدث مع نشر كلامهم السابق، وهؤلاء يتعاملون مع الشياطين، بل بعض الكهنة المشهورين الذين يخرجون في نهاية كل عام قد ورث الكهانة عن أبيه، وحقيقة هؤلاء تعامل مع الشياطين في أكثر أحوالهم، وإلا فلهم طرق أخرى منها بناء أخبارهم على مقدمات وأسباب، وكذلك اتصالات بهيئات ومنظمات تعمل أعمالاً معينة تخريبية وتربص بخلق الله، لا سيما المسلمون وبلادهم.

ومنهم من يخرج للناس يدعي علمه بما يسمى علم الطاقة وشفوف الروح الذي يدركون به الغيب، يدعون استمداد طاقة من الكون، ومن الكهان من يخرج على أنه معبر للرؤى والمنامات يخادع الناس، ولقد وقفت على عشرات من هؤلاء.. وقد رأيت رجلاً عنده من أصنام يذبح لها، ويقدم لها ثمارا وفواكه وبيضا وغير ذلك، ثم بعدها يأخذ التراب أو الرمل ويضعه على شيء ويقوم بالخط، وكان لا يتكهن إلا إذا فعل هذا.

وقد رأيت أيضاً كثيراً من النساء تدعي الخط على الرمل وتلقي الودع وهي دجالة كذابة ليست لها علم بالكهانة، ولكنها تأكل أموال الناس بالباطل.

وفي تفسير البغوي[١] قال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إنّ أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف، وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أهدى العرب، فقالوا له: ألم ترَ ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي –والله –طي الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها، وإن كانت نجوماً غيرها،

(١) ج٤/ ص٣٧٣.

وهي والله ثابتة على حالها فهذا لأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق. قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾[(١)] قال: غلِّظت وشُدِّد أمرها حين بعث النبي ﷺ وقال ابن قتيبة: إنّ الرجم كان قبل مبعثه ﷺ ولكن لم يكن في شدة الحراسة بعد مبعثه. نحوه في تفسير الألوسي.[(٢)]

وقد علق محقق القرطبي بقوله:

قال ابن عطية[(٣)]: وفي الأحاديث ما يدل على أنّ الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظاً تاماً.

وقال الزجاج: لم يكن إلا بعد النبي ﷺ بدليل أنّ الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام.

وذكر الزهري عن أبي رجاء العطاردي: كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام.

وقد ذكرنا ما يتصل بهذا فيما مضى وما نعتقد في ذلك جمعاً بين الآيات والأحاديث والآثار.

الآلوسي وعلم الغيب:[(٤)]

ومن ينظر في ترتيب المقدمات أو يرتاض فهو لا يطلب إلا علم الغيب منه سبحانه، فلو كان طلب علم الغيب حراماً لانسد طريق الفكر والرياضة، ولا قائل به. وقال الإمام رحمه الله تعالى: لو لم يجز طلب علم الغيب لزم أن يكون علم التعبير كفراً لأنه طلب للغيب، وأن يكون أصحاب الكرامات المدعون للإلهامات كفاراً، ومعلوم أنّ كل ذلك باطل، وتعقب القول بجواز الاستخارة بالقرآن بأنه لم ينقل فعلها عن السلف، وقد قيل: إنّ الإمام مالكاً كرهها. وأما ما في فتاوي الصوفية نقلاً عن الزندوستي من أنه لا بأس بها وأنه قد فعلها علي رضي الله عنه، ومعاذ رضي الله تعالى عنه. وروي عن علي –رضي الله عنه– أنه قال: من أراد أن يتفاءل بكتاب الله تعالى فليقرأ ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ﴾ سبع مرات، وليقل ثلاث مرات: اللهم بكتابك تفاءلت، وعليك توكلت، اللهم أرني في كتابك ما هو المكتوم من سرك المكنون في غيبك، ثم يتفاءل بأول الصحيفة.[(٥)]

ونقول تعليقاً على كلامه عفا الله عنه :كما هو معهود من الآلوسي إذا كان الأمر متعلقاً بالصوفية حاول أن يجد لهم المعاذير، ويسوق لهم من الحجج الداحضة ما يريد أن يمشي به قولهم، وهنا يذكر أنّ طلب علم الغيب لا شيء فيه، ثم يلبس فيسوق كلاماً وأدلة واهية ويرد على نفسه في السياق نفسه، ولا يرتاب عاقل فضلاً عن مؤمن متبع لكلام نبيه ﷺ الفرق بين الأمور التي يستنبطها المؤمن بأسبابها التي

(١) الجن: من الآية ٦.
(٢) ج ٩/ ص ٤٦٢.
(٣) المحرر الوجيز (٨ / ٢٩٢)
(٤) تفسير الألوسي (ج ٤/ ص ٣٧٣)
(٥) هذا الكلام موجود وبسياق أتم في كتب الشيعة، ولا أصل له في كتب السنة.

ربطها الله بها، وظنه في النتائج، وبين ادعاء علم الغيب، وهذا لا يطلق عليه أبداً علم الغيب، كما أنه لا يقطع بذلك؛ إذ العلم بهذه الأمور على وجهها وتقديرها الدقيق ليس إلا للعليم الخبير

أما تعبير الرؤى فمن قال إنه استكشاف لعلم الغيب؟ إن هذا كلام مردود يرده أمران:

الأول: أنّ الرؤيا الصالحة من الله تعالى كما قال النبي ﷺ: {لم يبق من النبوة إلا المبشرات}[1] وذكر أنها جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة.

الأمر الثاني: أنّ هذا ليس اطلاعاً على الغيب، وإنما هو تعبير لأمر وقع وهو الرؤيا، فيحاول المعبر أنّ يقرب ما تدل عليه هذه الرؤيا الواقعة، فهي من الأسباب التي نصبها الله على ما قضى، على أنّ المعبر لا يقطع، كما أنه قد لا يصيب، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر: {أصبت بعضا، وأخطأت بعضا}[2] سبق وهو في الصحيحين وغيرهما.

الفرق بين القرعة الشرعية والقرعة الكهانية الشيطانية:

وفي كتاب الأحكام للجصاص أنّ الآية تدل على بطلان القرعة في عتق العبيد؛ لأنها في معنى ذلك بعينه إذا كان فيها إثبات ما أخرجته القرعة من غير استحقاق، كما إذا أعتق أحد عبيده عند موته على ما بيّن في الفقه، ولا يرد أنّ القرعة جازت في قسمة الغنائم مثلاً، وفي إخراج النساء لأننا نقول: إنها فيما ذكر لتطييب النفوس والبراءة من التهمة في إيثار البعض، ولو اصطلحوا على ذلك جاز من غير قرعة، وأما الحرية الواقعة على واحد من العبيد فيما نحن فيه فغير جائز نقلها عنه إلى غيره، وفي استعمال القرعة النقل، وخالف الشافعي في ذلك فجوز القرعة في العتق كما جوزها في غيره، وظواهر الأدلة معه وتحقيق ذلك في موضعه.

والحق عندي أنّ الاستقسام الذي كان يفعله أهل الجاهلية حرام بلا شبهة كما هو نص الكتاب، وأنّ حرمته ناشئة من سوء الاعتقاد، وأنه لا يخلو عن تشاؤم وليس بتفاؤل محض، وإنّ مثل ذلك ليس من الدخول في علم الغيب أصلاً، بل هو من باب الدخول في الظن، وأن الاستخارة بالقرآن مما لم يرد فيها شيء يعول عليه عن الصدر الأول، وتركها أحب إلي لا سيما وقد أغنى الله تعالى ورسوله ﷺ عنها بما سنّ من الاستخارة الثابتة في غير ما خبر صحيح، وأنّ تصديق المنجّمين فيما ليس من جنس الخسوف والكسوف مما يخبرون به من الحوادث المستقبلة محظور، وليس من علم الغيب ولا دخولاً فيه، وإنّ زعمه الزجاج لبنائه على الأسباب.

ونقل الشيخ محيي الدين النووي في (شرح مسلم) عن القاضي كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب:

(١) صحيح البخاري: حديث رقم ٦٩٩٠.

(٢) أخرجه البخاري حديث ٦٥٢٤، ومسلم حديث ٤٢١٤.

أحدها: أن يكون للإنسان رئي من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وهذا القسم بطل من حين بعث الله تعالى نبينا ﷺ.

الثاني: أن يخبره بما يطرأ ويكون في أقطار الأرض وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده، ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين، وأحالوهما، ولا استحالة في ذلك، ولا بعد في وجوده لكنهم يصدقون ويكذبون، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: المنجمون، وهذا الضرب بخلق الله تعالى في بعض الناس قوة ما، لكن الكذب فيه أغلب، ومن هذا الفن العرافة فصاحبها عرّاف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفتها بها كالزجر والطرق بالحصى، وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة، وقد أكذبهم الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم. انتهى.

ولعل النهي عن ذلك لغلبة الكذب في كلامهم، ولأنّ في تصديقهم فتح باب يوصل إلى لظى؛ إذ قد يجر إلى تعطيل الشريعة والطعن فيها لا سيما من العوام، واستثناء ما هو من جنس الكسوف والخسوف لندرة خطئهم فيه، بل لعدمه إذا أمكنوا الحساب، ولا كذلك ما يخبرون به من الحوادث؛ إذ قد بنوا ذلك على أوضاع السيارات بعضها مع بعض أو مع بعض الثوابت، ولا شك أنّ ذلك لا يكفي في الغرض والوقوف على جميع الأوضاع، وما تقتضيه مما يتعذر الوقوف عليه لغير علام الغيوب فليفهم، وقيل: المراد بالاستقسام استقسام الجزور بالأقداح على الأنصباء المعلومة، أي طلب قسم من الجزور أو ما قسمه الله تعالى له منه، وهذا هو الميسر وقد تقدم بيانه، وروى ذلك علي بن إبراهيم عن الأئمة الصادقين رضي الله تعالى عنهم، ورجح بأنه يناسب ذكره مع محرمات الطعام، وروي عن مجاهد أنه فسر الأزلام بسهام العرب وكعاب فارس التي يتقامرون بها.

وأقول: قد كثرت الأخبار في النهي عن علم النجوم والنظر فيها، فقد أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: {من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد}(١)

وأخرج الخطيب عن ميمون بن مهران، قال: قلت لابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– أوصني. قال: أوصيك بتقوى الله تعالى، وإياك وعلم النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة.

وأخرج عن علي –كرم الله تعالى وجهه– أنه قال: نهاني رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم.

وعن أبي هريرة وعائشة –رضي الله تعالى عنهما– نحوه.(٢)

---

(١) صحيح أبي داود: ٣٩٠٥.

(٢) الحديث بهذا اللفظ أورده العقيلي في الضعفاء: حديث ٢٣٦٥.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: {إن متعلم حروف أبي جاد وراء في النجوم ليس له عند الله تعالى خلاق يوم القيامة}، وأخرج هو والخطيب عن ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– قال : قال رسول الله ﷺ: {تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا}(١). إلى غير ذلك من الأخبار، ولعل ما تفيده من النهي عن التعلم من باب سد الذرائع؛ لأنّ ذلك العلم ربما يجر إلى محظور شرعاً كما يشير إليه خبر ابن مهران.

وكذا النهي عن النظر فيها محمول على النظر الذي كان تفعله الكهنة الزاعمون تأثير الكواكب بأنفسها، والحاكمون بقطعية ما تدل عليه بتثليثها وتربيعها واقترانها ومقابلتها، مثلاً من الأحكام بحيث لا تتخلف قطعاً على أنّ الوقوف على جميع ما أودع الله تعالى في كل كوكب مما يمتنع لغير علام الغيوب، والوقوف على البعض أو الكل في البعض لا يجدي نفعاً، ولا يفيد إلا ظناً، المتمسك به كالمتمسك بحبال القمر، والقابض عليه كالقابض على شعاع الشمس.

نعم إنّ بعض الحوادث في عالم الكون والفساد قد جرت عادة الله تعالى بإحداثه في الغالب عند طلوع كوكب أو غروبه أو مقارنته لكوكب آخر، وفيما يشاهد عند غيبوبة الثريا وطلوعها وطلوع سهيل شاهد لما ذكرنا.

ولا يبعد أن يكون ذلك من الأسباب العادية وهي قد تتخلف مسبباتها عنها سواء قلنا: إنّ التأثير عندها كما هو المشهور عن الأشاعرة، أم قلنا: إنها المؤثرة بإذن الله تعالى كما هو المنصور عند السلف، ويشير إليه كلام حجة الإسلام الغزالي في العلة. فمتى أخبر المجرب عن شيء من ذلك على هذا الوجه لم يكن عليه بأس.

وما أخرجه الخطيب عن عكرمة أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم وجعل الرجل يتحرج أن يخبره فقال عكرمة: سمعت ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– يقول: علم عجز الناس عنه وددت أني علمته.

وما أخرجه الزبير بن بكار عن عبد الله بن حفص، قال: خصت العرب بخصال بالكهانة والقيافة والعيافة والنجوم والحساب، فهدم الإسلام الكهانة، وثبت الباقي بعد ذلك.

وقول الحسن بن صالح: سمعت عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– أنه قال في النجوم: ذلك علم ضيعه الناس فلعل ذلك إن صح محمول على نحو ما قلنا.

وبعد هذا كله أقول: هو علم لا ينفع، والجهل به لا يضر، فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن.

ونقول: كلامه هنا منضبط إلى حد كبير.

ونختم هذا المبحث بقول شيخ الإسلام: بَقِيَ الشِّعْرُ وَالسَّفْسَطَةُ الَّتِي هِيَ الْكَذِبُ الْمُمَوَّهُ، فَنَفَى اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ

(١) الحديث منكر مرفوعا، لكنه حسن من كلام عمر رضي الله عنه، الدولابي في الكنى: ج٣/ ص ١٠١١.

كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[1] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَذَكَرَ الْأَفَّاكِينَ، وَهُمْ الْمُسَفْسِطُونَ وَذَكَرَ الشُّعَرَاءَ.

وَلِهَذَا اشْتَمَلَ الْقُرْآنُ عَلَى خُلَاصَةِ الطُّرُقِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تُوجَدُ فِي كَلَامِ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ والمتفلسفة وَغَيْرِهِمْ، وَنَزَّهَ اللَّهُ عَمَّا يُوجَدُ فِي كَلَامِهِمْ مِنْ الطُّرُقِ الْفَاسِدَةِ، وَيُوجَدُ فِيهِ مِنْ الطُّرُقِ الصَّحِيحَةِ مَا لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْبَشَرِ بِحَالِ.[2]

---

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٤:٢٢١.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١٢٥)

المبحث الثاني
الكهانة وما يتعلق بها في السُّنّة وشروحها

كما حذر القرآن الكريم وذلك بتنزيه النبي ﷺ عنه الكهانة، كذلك بيان القرآن لما يلحق الشياطين المسترقين للسمع من النكال بالشهب التي حرس الله بها السماء، وكذا بتنزيه القرآن عن أن يكون كهانة وبيان رفعة هذا القرآن أن تصل إليه الشياطين، جاء حديث النبي ﷺ عن الكهانة مفصلا ذلك فقد حذّر النبي ﷺ من الكهانة ومن كل شيء يقرب منها، وبيّن أنواعاً منها، وحذّر من كل شيء يتصل بها حتى وإن كان في الحديث والكلام، فحذّر من الكلام المسجوع الذي يحق به الباطل ويبطل به الحق. وسنعرض في هذا المطلب للأحاديث النبوية التي تناولت الكهانة، كما سنعرض لكلام العلماء الكرام الشارحين لحديثه ﷺ، والله هو المسؤول أن يوفقنا وأن يسددنا وأن يجنبنا الزلل، إنه سميع قريب.

سنورد إن شاء الله ما جاء في كتب السنّة وشروحها في أمر الكهانة والكهّان من خلال المسائل التالية:

١- بيان النبي ﷺ لهوان الكهّان وحقارة ما عندهم:

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ- عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَاسٌ عَنْ الْكُهَّانِ، فَقَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَا أَحْيَانًا بِشَيْءٍ فَيَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا مِنْ الْجِنِّيِّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ. (١)

٢- تحذير النبي ﷺ من كسب الكهّان:

في البخاري من حديث أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ(٢).

جاء في فتح الباري(٣): الْحُكْم الرَّابِع: حُلْوَان الْكَاهِن، وَهُوَ حَرَام بِالْإِجْمَاعِ لِمَا فِيهِ مِنْ أَخْذ الْعِوَض عَلَى أَمْر بَاطِل، وَفِي مَعْنَاهُ التَّنْجِيم وَالضَّرْب بِالْحَصَى وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَانَاهُ الْعَرَّافُونَ مِنْ اِسْتِطْلَاع الْغَيْب، وَالْحُلْوَان مَصْدَر حَلَوْته حُلْوَانًا إِذَا أَعْطَيْته، وَأَصْله مِنْ الْحَلَاوَة شُبِّهَ بِالشَّيْءِ الْحُلْو مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَأْخُذهُ سَهْلًا بِلَا كُلْفَة وَلَا مَشَقَّة. يُقَال حَلَوْته إِذَا أَطْعَمْته الْحُلْو، وَالْحُلْوَان أَيْضًا الرِّشْوَة، وَالْحُلْوَان أَيْضًا أَخْذ الرَّجُل مَهْر اِبْنَته لِنَفْسِهِ.

وفي المنتقى(٤): وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ وَهُوَ مَا يُعْطَاهُ الْكَاهِنُ لِتَكَهُّنِهِ؛ لِأَنَّهُ أَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَلِأَنَّ التَّكَهُّنَ مُحَرَّمٌ، وَمَا حَرُمَ فِي نَفْسِهِ حَرُمَ عِوَضُهُ كَالْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ.

---

(١) أخرجه البخاري، حديث ٥٣٢٠، ومسلم ٤١٣٥.
(٢) أخرجه البخاري، حديث ٢٠٨٣، ومسلم ٢٩٣٠.
(٣) فتح الباري: ابن حجر (ج ٧/ ص ٧٥)
(٤) شرح الموطأ (ج ٣/ ص ٤٣٤)

قال ابن بطال[1]: وأما نهيه عن حلوان الكاهن فالأمة مجمعة على تحريمه؛ لأنهم يأخذون أجره ما لا يصلح فيه أخذ عوض، وهو الكذب الذي يخلطونه مع ما يسترقه الجن، فيفسدون تلك الكلمة من الصدق بمائة كذبة أو أكثر، كما جاء في بعض الروايات فلم يسغ أن يلتفت إليهم، ولذلك قال عليه السلام: {ليسوا بشيء}

ونذكر هنا توضيحا يحتاج إليه لا سيما في زماننا هذا الذي انتشرت فيه الكهانة بصورة كبيرة، حتى وصلت الكهانة إلى الرياضة التي ينشغل بها كثير من الناس، فتدخل الكهانة في كثير من الرياضات وتجري مراهنات بناء على هذا التكهن.

ونقول أيضا إنّ حرمة الكهانة ليست للكذب وحده، بل لأمور أخرى مع الكذب، ومنها:

١. أكبرها وأعظمها الشرك بالله عز وجل، فلا يوجد كاهن إلا وهو يشرك بربه تعالى، ويتعبد للشياطين.
٢. إفساد عقائد الناس، وجرّهم لعبادة غير الله.
٣. أكل أموال الناس بالباطل، وقد مر بسط هذا والحمد لله.

وقد جاء فيمن أتى الكهان آثار شديدة، روى الطبري بسنده عن عمر بن الخطاب، أن النبي ﷺ قال: {من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل صلاته أربعين ليلة}[2]

وعن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: {من أتى كاهنًا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد}[3]

وفي فتح الباري[4]: ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: {أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ}[5]

قَوْله: (وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَام سُنَّة الْجَاهِلِيَّة) أَيْ يَكُون لَهُ الْحَقّ عِنْد شَخْص فَيَطْلُبهُ مِنْ غَيْره مِمَّنْ لَا يَكُون لَهُ فِيهِ مُشَارَكَة كَوَالِدِهِ أَوْ وَلَده أَوْ قَرِيبه، وَقِيلَ الْمُرَاد مَنْ يُرِيد بَقَاء سِيرَة الْجَاهِلِيَّة أَوْ إِشَاعَتهَا أَوْ تَنْفِيذهَا. وَسُنَّة الْجَاهِلِيَّة اِسْم جِنْس يَعُمّ جَمِيع مَا كَانَ أَهْل الْجَاهِلِيَّة يَعْتَمِدُونَهُ مِنْ أَخْذ الْجَار بِجَارِهِ وَالْحَلِيف بِحَلِيفِهِ وَنَحْو ذَلِكَ، وَيَلْتَحِق بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ، وَالْمُرَاد مِنْهُ مَا جَاءَ الْإِسْلَام بِتَرْكِهِ كَالطِّيَرَةِ وَالْكَهَانَة وَغَيْر ذَلِكَ.

---

(١) شرح ابن بطال (ج ١٨ ص ٤٩)
(٢) رواه مسلم، حديث ٤١٣٧.
(٣) مسند أحمد حديث ٩١٧١، وصحح نحوه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٣٨٧.
(٤) فتح الباري: ابن حجر (ج ١٩/ ص ٣٢٣) ٦٣٧٤
(٥) رواه البخاري، حديث ٦٣٧٤.

٣-سؤال الكهّان من غير تصديق يرد صلاة أربعين يوما:

وفي مجموع فتاوى ابن تيمية:(١) رَوَى أَحْمَد وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عُبَيْدٍ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا}(٢)

٤-خوف الصحابة من الأكل بالكهانة:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أُحْسِنُ الْكِهَانَةَ إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ.(٣)

فيه أمور:

١- أنّ هذا رجل لا يريد الكهانة.

٢- هل الذي يلجأ لمثل هذا وهو يعتقد أنه كاهن يقع في الوعيد والمحذور الذي يقع فيه الذاهب للكاهن الحقيقي.

فقد أدرج البخاري هذا الحديث في باب الكهانة مع أنّ الرجل لا يحسن الكهانة، وهذا ما ابتليت كهنة الإعلام الذي يقع الوعيد بمشاهدتهم، فبعص الناس يقولون نحن نعلم أنهم كذّابون ولا نصدقهم، والجواب على هذا هو قول النبي ﷺ: إن صدّقه كفر وإن لم يصدقه لم تقبل له صلاة.

٥-بيان النبي ﷺ طريقة الشياطين في استراق السمع:

عن عَبْد اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ. قَالَ: فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ}(٤)

---

(١) ج ٩/ ص ٢٢٦.
(٢) رواه مسلم، حديث ٤١٣٧.
(٣) صحيح البخاري، بَاب الْكِهَانَةِ (ج ١٢/ ص ٢١٣) ٣٥٥٤
(٤) صحيح مسلم (ج ١١/ ص ٢٧٢) ٤١٣٦

وَفِي حَدِيثِ يُونُسَ: وَلَكِنَّهُمْ يَرْقَوْنَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ. وَزَادَ فِي حَدِيثِ يُونُسَ.. وَقَالَ اللَّهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾[1]

٦- نهي الصحابة عن الكهانة:

عن ميمون بن مهران قال: صحبت ابن عباس -رضي الله عنهما- عشرين سنة، فلما حضرته الوفاة قلت له: أوصني. قال: أوصيك بثلاث خصال فاحفظهم عني: لا تخاصم أهل القدر فيؤثموك، ولا تعلم النجوم فيدعوك إلى الكهانة، ولا تسب السلف فيكبك الله تعالى على وجهك في النار.[2]

عن أبي الدرداء قال: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يعطه، ومن يتوقى الشر يوقه، وثلاثة لا ينالون الدرجات العلى: من تكهن، أو استقسم، أو رجع من سفره طيرة»[3]

في صحيح البخاري[4]: أَنَّ سَالِمًا حَدَّثَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنُّ. بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ فَقَالَ لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ، فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، قَالَ: فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي. قَالَ: كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ. قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الْفَزَعَ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلَاسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا وَلُحُوقَهَا بِالْقِلَاصِ وَأَحْلَاسِهَا. قَالَ عُمَرُ: صَدَقَ. بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ، فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ يَقُولُ: يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَوَثَبَ الْقَوْمُ. قُلْتُ: لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا، ثُمَّ نَادَى: يَا جَلِيحْ أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ.

قال ابن حجر: قَوْله: (مَا سَمِعْت عُمَر يَقُول لِشَيْءٍ) أَيْ عَنْ شَيْء (إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذَا إِلَّا كَانَ) قَوْله: (إِلَّا كَانَ كَمَا يَظُنّ) هُوَ مُوَافِق لِمَا تَقَدَّمَ فِي مَنَاقِبه أَنَّهُ كَانَ مُحَدَّثًا بِفَتْحِ الدَّال. قَوْله: (إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُل جَمِيل) هُوَ سَوَاد[5] بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَتَخْفِيف الْوَاو وَآخِره مُهْمَلَة، اِبْن قَارِب بِالْقَافِ وَالْمُوَحَّدَة، وَهُوَ سَدُوسِيّ أَوْ

(١) سبأ: الآية ٢٣.
(٢) أخبار مكة: للفاكهي (ج ٤/ ص ٢٩٣)
(٣) شعب الإيمان: للبيهقي (ج ٢٢/ ص ١٥٣)
(٤) فتح الباري: لابن حجر (ج ١١/ ص ١٨٩)
(٥) قال ابن حجر بعد ذا: وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ وَالْحَاكِم وَغَيْرهمَا مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ قَالَ: "بَيْنَمَا عُمَر قَاعِد فِي الْمَسْجِد" فَذَكَرَ مِثْل سِيَاق أَبِي جَعْفَر وَأَتَمَّ مِنْهُ، وَهُمَا طَرِيقَانِ مُرْسَلَانِ يُعَضِّد أَحَدهمَا الْآخَر. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيّ فِي تَارِيخه، وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيق عَبَّاد بْن عَبْد الصَّمَد عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَالَ: " أَخْبَرَنِي سَوَاد بْن قَارِب قَالَ: كُنْت نَائِمًا " فَذَكَرَ قِصَّته الْأُولَى دُون قِصَّته مَعَ عُمَر. وَهَذَا إِنْ ثَبَتَ دل عَلَى تَأَخُّر وَفَاته، لَكِنَّ عَبَّادًا ضَعِيف. وَلِابْنِ شَاهِينَ مِنْ طَرِيق أُخْرَى ضَعِيفَة عَنْ أَنَس قَالَ: " دَخَلَ رَجُل مِنْ دَوْس يُقَال لَهُ سَوَاد بْن قَارِب عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " فَذَكَرَ قِصَّته أَيْضًا، وَهَذِهِ الطُّرُق يَقْوَى بَعْضهَا بِبَعْضٍ، وَلَهُ طُرُق أُخْرَى.

دُوسِيّ. وَقَدْ أَخْرَجَ اِبْن أَبِي خَيْثَمَةَ وَغَيْره مِنْ طَرِيق أَبِي جَعْفَر الْبَاقِر قَالَ: "دَخَلَ رَجُل يُقَال لَهُ سَوَاد بْن قَارِب السَّدُوسِيّ عَلَى عُمَر، فَقَالَ: يَا سَوَاد أَنْشُدك اللَّه، هَلْ تُحْسِن مِنْ كِهَانَتك شَيْئًا" فَذَكَرَ الْقِصَّة.

قَوْله: (لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي) فِي رِوَايَة اِبْن عُمَر عِنْد الْبَيْهَقِيّ "لَقَدْ كُنْت ذَا فَرَاسَة، وَلَيْسَ لِي الْآن رَأْي إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُل يَنْظُر فِي الْكِهَانَة" قَوْله: (أَوْ عَلَى دِين قَوْمه فِي الْجَاهِلِيَّة) أَيْ مُسْتَمِرّ عَلَى عِبَادَة مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَوْله: (أَوْ لَقَدْ كَانَ كَاهِنهمْ) أَيْ كَانَ كَاهِن قَوْمه. وَحَاصِله أَنَّ عُمَر ظَنَّ شَيْئًا مُتَرَدِّدًا بَيْن شَيْئَيْنِ أَحَدهمَا يَتَرَدَّد بَيْن شَيْئَيْنِ، كَأَنَّهُ قَالَ: هَذَا الظَّنّ إِمَّا خَطَأ أَوْ صَوَاب، فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَهَذَا الْآن إِمَّا بَاقٍ عَلَى كُفْره وَإِمَّا كَانَ كَاهِنًا، وَقَدْ أَظْهَرَ الْحَال الْقِسْم الْأَخِير، وَكَأَنَّهُ ظَهَرَتْ لَهُ مِنْ صِفَة مَشْيه أَوْ غَيْر ذَلِكَ قَرِينَة أَثَّرَتْ لَهُ ذَلِكَ الظَّنّ، فَاَللَّه أَعْلَم.

قَوْله: عن قول سواد: (مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ) أَيْ رَأَيْت شَيْئًا مِثْل مَا رَأَيْت الْيَوْم. قَوْله: (اُسْتُقْبِلَ رَجُل مُسْلِم) وَبَيَّنَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي رِوَايَة مُرْسَلَة "قَدْ جَاءَ اللَّه بِالْإِسْلَامِ، فَمَا لَنَا وَلِذِكْرِ الْجَاهِلِيَّة" قَوْله: (فَإِنِّي أَعْزِم عَلَيْك) أَيْ أُلْزِمُك، وَفِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن كَعْب قال عمر: "مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ الشِّرْك أَعْظَم مِمَّا كُنْت عَلَيْهِ مِنْ كِهَانَتك" قَوْله: (إِلَّا أَخْبَرْتنِي) أَيْ مَا أَطْلُب مِنْك إِلَّا الْإِخْبَار. قَوْله: (كُنْت كَاهِنهمْ فِي الْجَاهِلِيَّة) الْكَاهِن الَّذِي يَتَعَاطَى الْخَبَر مِنْ الْأُمُور الْمُغَيَّبَة، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّة كَثِيرًا، فَمُعْظَمهمْ كَانَ يَعْتَمِد عَلَى تَابِعه مِنْ الْجِنّ، وَبَعْضهمْ كَانَ يَدَّعِي مَعْرِفَة ذَلِكَ بِمُقَدِّمَاتِ أَسْبَاب يَسْتَدِلّ بِهَا عَلَى مَوَاقِعهَا مِنْ كَلَام مَنْ يَسْأَلهُ، وَهَذَا الْأَخِير يُسَمَّى الْعَرَّاف بِالْمُهْمَلَتَيْنِ، وَسَيَأْتِي حُكْم ذَلِكَ وَاضِحًا فِي كِتَاب الطِّبّ، وَتَقَدَّمَ طَرَف مِنْهُ فِي آخِر الْبُيُوع. وَلَقَدْ تَلَطَّفَ سَوَاد فِي الْجَوَاب إِذْ كَانَ سُؤَال عُمَر عَنْ حَاله فِي كِهَانَته إِذْ كَانَ مِنْ أَمْر الشِّرْك، فَلَمَّا أَلْزَمهُ أَخْبَرَهُ بِآخِرِ شَيْء وَقَعَ لَهُ لِمَا تَضَمَّنَ مِنْ الْإِعْلَام بِنُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ وَكَانَ سَبَبًا لِإِسْلَامِهِ. قَوْله: (جِنِّيَّتك) بِكَسْرِ الْجِيم وَالنُّون الثَّقِيلَة أَيْ الْوَاحِدَة مِنْ الْجِنّ كَأَنَّهُ أَنَّث تَحْقِيرًا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون عَرَفَ أَنَّ تَابِع سَوَاد مِنْهُمْ كَانَ أُنْثَى، أَوْ هُوَ كَمَا يُقَال تَابِع الذَّكَر يَكُون أُنْثَى وَبِالْعَكْسِ. قَوْله: (أَعْرِف فِيهَا الْفَزَع) وَفِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن كَعْب "إِنَّ ذَلِكَ كَانَ وَهُوَ بَيْن النَّائِم وَالْيَقْظَان" قد بيّنا أنّ هذا نوع من الكهانة، ولكن فيما أورد الحافظ ما يؤكد أن ذلك كان يقظة، ولعل الكاهن يأتيه هذا وهذا، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن الرؤى والمنامات وعلاقتها بالكهانة.

قَوْله: (أَلَمْ تَرَ الْجِنّ وَإِبْلَاسهَا) بِالْمُوَحَّدَةِ وَالْمُهْمَلَة وَالْمُرَاد بِهِ الْيَأْس ضِدّ الرَّجَاء، وَلِمُحَمَّدِ بْن كَعْب: "وَتَحْسَاسهَا" بِفَتْحِ الْمُثَنَّاة، أَيْ أَنَّهَا فَقَدَتْ أَمْرًا فَشَرَعَتْ تُفَتِّش عَلَيْهِ. قَوْله: (وَيَأْسهَا مِنْ بَعْد إِنْكَاسِهَا) الْيَأْس بِالتَّحْتَانِيَّةِ ضِدّ الرَّجَاء وَالْإِنْكَاس الِانْقِلَاب، قَالَ اِبْن فَارِس: مَعْنَاهُ أَنَّهَا يَئِسَتْ مِنْ اِسْتِرَاق السَّمْع بَعْد أَنْ كَانَتْ قَدْ أَلِفَتْهُ، فَانْقَلَبَتْ عَنْ الِاسْتِرَاق قَدْ يَئِسَتْ مِنْ السَّمْع، وَوَقَعَ فِي شَرْح الدَّاوُدِيّ بِتَقْدِيمِ السِّين عَلَى الْكَاف، وَفَسَّرَهُ بِأَنَّهُ الْمَكَان الَّذِي أَلِفَتْهُ، قَالَ: وَوَقَعَ فِي رِوَايَة (مِنْ بَعْد إِينَاسِهَا) أَيْ أَنَّهَا كَانَتْ أَنِسَتْ بِالِاسْتِرَاقِ، وَلَمْ أَرَ مَا قَالَهُ فِي شَيْء مِنْ الرِّوَايَات، وَقَدْ شَرَحَ الْكَرْمَانِيُّ عَلَى اللَّفْظ الْأَوَّل

الَّذِي ذَكَرَهُ الدَّاوُدِيّ، وَقَالَ: الْإِنْسَاك جَمْع نُسُك، وَالْمُرَاد بِهِ الْعِبَادَة، وَلَمْ أَرَ هَذَا الْقَسِيم فِي غَيْر الطَّرِيق الَّتِي أَخْرَجَهَا الْبُخَارِيّ. وَزَادَ فِي رِوَايَة الْبَاقِر وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَكَذَا عِنْد الْبَيْهَقِيّ مَوْصُولًا مِنْ حَدِيث الْبَرَاء بْن عَازِب بَعْد قَوْله: (وَأَحْلَاسه)

تَهْوِي إِلَى مَكَّة تَبْغِي الْهُدَى مَا مُؤْمِنُوهَا مِثْل أَرْجَاسهَا

فَاسْم إِلَى الصَّفْوَة مِنْ هَاشِم وَاسْم بِعَيْنَيْك إِلَى رَأْسهَا

وَفِي رِوَايَتهمْ أَنَّ الْجِنِّيّ عَاوَدَهُ ثَلَاث لَيَالٍ يَنْشُدهُ هَذِهِ الْأَبْيَات مَعَ تُغَيِّر قَوَافِيهَا... وَعِنْدهمْ مِنْ الزِّيَادَة أَيْضًا أَنَّهُ فِي كُلّ مَرَّة يَقُول لَهُ: "قَدْ بُعِثَ مُحَمَّد، فَانْهَضْ إِلَيْهِ تَرْشُد" وَفِي الرِّوَايَة الْمُرْسَلَة قَالَ: "فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي حَتَّى وَقَعْت" وَعِنْدهمْ جَمِيعًا أَنَّهُ لَمَّا أَصْبَحَ تَوَجَّهَ إِلَى مَكَّة فَوَجَدَ النَّبِيّ ﷺ قَدْ هَاجَرَ، فَأَتَاهُ فَأَنْشَدَهُ أَبْيَاتًا يَقُول فِيهَا:

أَتَانِي رئي بَعْد لَيْل وَهَجْعَة **** وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوْت بِكَاذِبِ

ثَلَاث لَيَالٍ قَوْله كُلّ لَيْلَة ***** أَتَاك نَبِيّ مِنْ لُؤَيّ بْن غَالِب

يَقُول فِي آخِرهَا:

فَكُنَّ لِي شَفِيعًا يَوْم لَا ذُو شَفَاعَة ****سِوَاك بِمُغْنٍ عَنْ سَوَاد بْن قَارِب

وَفِي آخِر الرِّوَايَة الْمُرْسَلَة: (فَالْتَزَمَهُ عُمَر وَقَالَ: لَقَدْ كُنْت أُحِبّ أَنْ أَسْمَع هَذَا مِنْك) قَوْله: (قَالَ عُمَر: صَدَقَ، بَيْنَمَا أَنَا عِنْد آلِهَتهمْ) ظَاهِر هَذَا أَنَّ الَّذِي قَصَّ الْقِصَّة الثَّانِيَة هُوَ عُمَر، وَفِي رِوَايَة اِبْن عُمَر وَغَيْره أَنَّ الَّذِي قَصَّهَا هُوَ سَوَاد بْن قَارِب، وَلَفْظ اِبْن عُمَر عِنْد الْبَيْهَقِيّ، قَالَ: "لَقَدْ رَأَى عُمَر رَجُلًا، فَذَكَرَ الْقِصَّة، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ بَعْض مَا رَأَيْت، قَالَ: إِنِّي ذَات لَيْلَة بِوَادٍ إِذْ سَمِعْت صَائِحًا يَقُول: يَا جَلِيحْ، خَبَرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يَقُول لَا إِلَه إِلَّا اللَّه. عَجِبْت لِلْجِنِّ وَإِبْلَاسهَا" فَذَكَرَ الْقِصَّة، ثُمَّ سَاقَ مِنْ طَرِيق أُخْرَى مُرْسَلَة قَالَ: "مَرَّ عُمَر بِرَجُلٍ فَقَالَ: لَقَدْ كَانَ هَذَا كَاهِنًا" الْحَدِيث وَفِيهِ: "فَقَالَ عُمَر أَخْبِرْنِي، فَقَالَ: نَعَمْ، بَيْنَا أَنَا جَالِس إِذْ قَالَتْ لِي: أَلَمْ تَرَ إِلَى الشَّيَاطِين وَإِبْلَاسهَا" الْحَدِيث. قَالَ عُمَر: اللَّه أَكْبَر، فَقَالَ: أَتَيْت مَكَّة فَإِذَا بِرَجُلٍ عِنْد تِلْكَ الْأَنْصَاب، فَذَكَرَ قِصَّة الْعِجْل، وَهَذَا يَحْتَمِل فِيهِ مَا أُحْتُمِلَ فِي حَدِيث الصَّحِيح أَنْ يَكُون الْقَائِل "أَتَيْت مَكَّة" هُوَ عُمَر أَوْ صَاحِب الْقِصَّة.

قَوْله: (إِذْ جَاءَ رَجُل) لَمْ أَقِف عَلَى اِسْمه "لَكِنْ عِنْد أَحْمَد مِنْ وَجْه آخَر أَنَّهُ اِبْن عَبْس، فَأَخْرَجَ مِنْ طَرِيق مُجَاهِد عَنْ شَيْخ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّة يُقَال لَهُ اِبْن عَبْس قَالَ: " كُنْت أَسُوق بَقَرَة لَنَا، فَسَمِعْت مِنْ جَوْفهَا" فَذَكَرَ الرَّجَز قَالَ: "فَقَدِمْنَا فَوَجَدْنَا النَّبِيّ ﷺ قَدْ بُعِثَ" وَرِجَاله ثِقَات، وَهُوَ شَاهِد قَوِيّ لِمَا فِي رِوَايَة اِبْن عُمَر، وَأَنَّ الَّذِي حَدَّثَ بِذَلِكَ هُوَ سَوَاد بْن قَارِب، وَسَأَذْكُرُ بَعْد هَذَا مَا يُقَوِّي أَنَّ الَّذِي سَمِعَ ذَلِكَ هُوَ عُمَر فَيُمْكِن أَنْ يُجْمَع بَيْنهمَا بِتَعَدُّدِ ذَلِكَ لَهُمَا.

قَوْله: (فَمَا نَشِبْنَا) بِكَسْرِ الْمُعْجَمَة وَسُكُون الْمُوَحَّدَة أَيْ لَمْ نَتَعَلَّق بِشَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاء حَتَّى سَمِعْنَا أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَدْ خَرَجَ، يُرِيد أَنْ ذَلِكَ كَانَ بِقُرْبِ مَبْعَث النَّبِيّ ﷺ.

قال ابن حجر: (تَنْبِيهَانِ)

أَحَدهمَا: ذَكَرَ اِبْن التِّين أَنَّ الَّذِي سَمِعَهُ سَوَاد بْن قَارِب مِنْ الْجِنِّيّ كَانَ مِنْ أَثَر اِسْتِرَاق السَّمْع، وَفِي جَزْمه بِذَلِكَ نَظَر، وَالَّذِي يَظْهَر أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَثَر مَنْع الْجِنّ مِنْ اِسْتِرَاق السَّمْع، وَيُبَيِّن ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّف فِي الصَّلَاة وَيَأْتِي فِي تَفْسِير سُورَة الْجِنّ عَنْ اِبْن عَبَّاس: "أَنَّ النَّبِيّ ﷺ لَمَّا بُعِثَ مَنَعَ الْجِنّ مِنْ اِسْتِرَاق السَّمْع، فَضَرَبُوا الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب يَبْحَثُونَ عَنْ سَبَب ذَلِكَ، حَتَّى رَأَوْا النَّبِيّ ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاة الْفَجْر" الْحَدِيث.

التَّنْبِيه الثَّانِي: لَمَّحَ الْمُصَنِّف بِإِيرَادِ هَذِهِ الْقِصَّة فِي "بَاب إِسْلَام عُمَر" بِمَا جَاءَ عَنْ عَائِشَة وَطَلْحَة عَنْ عُمَر مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّة كَانَتْ سَبَب إِسْلَامه، فَرَوَى أَبُو نُعَيْم فِي (الدَّلَائِل) أَنَّ أَبَا جَهْل جَعَلَ لِمَنْ يَقْتُل مُحَمَّدًا مِائَة نَاقَة، قَالَ عُمَر: فَقُلْت لَهُ: يَا أَبَا الْحَكَم آلضَّمَان صَحِيح؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَتَقَلَّدَتْ سَيْفِي أُرِيدهُ، فَمَرَرْت عَلَى عِجْل وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَذْبَحُوهُ، فَقُمْت أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا صَائِح يَصِيح مِنْ جَوْف الْعِجْل: يَا آلَ ذَرِيح، أَمْر نَجِيح، رَجُل يَصِيح بِلِسَانٍ فَصِيح. قَالَ عُمَر: فَقُلْت فِي نَفْسِي إِنَّ هَذَا الْأَمْر مَا يُرَاد بِهِ إِلَّا أَنَا، قَالَ: فَدَخَلْت عَلَى أُخْتِي فَإِذَا عِنْدهَا سَعِيد بْن زَيْد" فَذَكَرَ الْقِصَّة فِي سَبَب إِسْلَامه بِطُولِهَا، وَتَأَمَّلْ مَا فِي إِيرَاده حَدِيث سَعِيد بْن زَيْد الَّذِي بَعْد هَذَا.

٧- تحذير النبي ﷺ من مشابهة الكهّان في السجع المبطل للحق:

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي امْرَأَتَيْنِ مِنْ هُذَيْلٍ اقْتَتَلَتَا فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَأَصَابَ بَطْنَهَا وَهِيَ حَامِلٌ، فَقَتَلَتْ وَلَدَهَا الَّذِي فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ مَا فِي بَطْنِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ، فَقَالَ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ الَّتِي غَرِمَتْ: كَيْفَ أَغْرَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ.(١)

قال ابن بطال(٢): قال المؤلف: في هذه الآثار ذم الكهان وذم من تشبه بهم في ألفاظهم؛ لأنه عليه السلام كره قول ولي المرأة لما أشبه سجع الكهان الذين يستعملونه في الباطل ودفع الحق، ألا ترى أنه أتى بسجعه محتجًا على رسول الله في دفع شيء قد أوجبه عليه، فاستحق بذلك غاية الذم وشديد العقوبة في الدنيا والآخرة، غير أنّ النبي عليه السلام جبله الله على الصفح عن الجاهلين، وترك الانتقام لنفسه فلم يعاقبه في اعتراضه عليه، كما لم يعاقب الذي قال له: إنك لم تعدل منذ اليوم. ولم يعاقب موالي بريرة في اشتراطهم ما يخالف كتاب الله، وأنفذ حكم الله في كل ذلك.

---

(١) صحيح البخاري (ج ١٨/ ص٤٨) ٥٣١٧
(٢) ج ١٨/ ص٤٨.

فإن قال قائل: فالسجع كله مكروه، قيل له: لا قد أتى به كلام رسول رب العالمين، ومنه قوله عليه السلام: {يقول العبد: ما لي ما لي، وما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت} قاله ابن النحاس.

وفي فتح الباري[١] قَوْله: (فَقَالَ وَلِيّ الْمَرْأَة) هُوَ حَمَل بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَالْمِيم الْخَفِيفَة اِبْن مَالِك اِبْن النَّابِغَة الْهُذَلِيّ، بَيَّنَهُ مُسْلِم مِنْ طَرِيق يُونُس عَنْ اِبْن شِهَاب عَنْ اِبْن الْمُسَيِّب وَأَبِي سَلَمَة مَعًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَكُنْيَة حَمَل الْمَذْكُور أَبُو نَضْلَة، وَهُوَ صَحَابِيّ نَزَلَ الْبَصْرَة. وَفِي رِوَايَة مَالِك (فَقَالَ الَّذِي قُضِيَ عَلَيْهِ) أَيْ قُضِيَ عَلَى مَنْ هِيَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ، وَفِي رِوَايَة اللَّيْث عَنْ اِبْن شِهَاب الْمَذْكُورَة أَنَّ الْمَرْأَة مِنْ بَنِي لِحْيَان، وَبَنُو لِحْيَان حَيّ مِنْ هُذَيْل، وَجَاءَ تَسْمِيَة الضَّرَّتَيْنِ فِيمَا أَخْرَجَ أَحْمَد مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن تَمِيم بْن عُوَيْم عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّه قَالَ: "كَانَتْ أُخْتِي مُلَيْكَة وَامْرَأَة مِنَّا يُقَال لَهَا أُمّ عَفِيف بِنْت مَسْرُوح تَحْت حَمَل بْن مَالِك اِبْن النَّابِغَة، فَضَرَبَتْ أُمّ عَفِيف مُلَيْكَة بِمِسْطَحٍ" الْحَدِيث، لَكِنْ قَالَ فِيهِ: "فَقَالَ الْعَلَاء بْن مَسْرُوح: يَا رَسُول اللَّه، أَنَغْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ" الْحَدِيث، وَفِي آخِره: (أَسْجَع كَسَجْعِ الْجَاهِلِيَّة)[٢] وَيُجْمَع بَيْنهمَا بِأَنَّ كُلًّا مِنْ زَوْج الْمَرْأَة وَهُوَ حَمَل، وَأَخِيهَا وَهُوَ الْعَلَاء، قَالَ ذَلِكَ تَوَارُدًا مَعًا عَلَيْهِ، لِمَا تَقَرَّرَ عِنْدهمَا أَنَّ الَّذِي يُودَى هُوَ الَّذِي يَخْرُج حَيًّا، وَأَمَّا السِّقْط فَلَا يُودَى، فَأَبْطَلَ الشَّرْع ذَلِكَ وَجَعَلَ فِيهِ غُرَّة. وَوَقَعَ فِي رِوَايَة لِلطَّبَرَانِيّ أَيْضًا أَنَّ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ عِمْرَان بْن عُوَيْم، فَلَعَلَّهَا قِصَّة أُخْرَى.

قَوْله: (فَمِثْل ذَلِكَ يُطَلّ) لِلْأَكْثَرِ بِضَمِّ الْمُثَنَّاة التَّحْتَانِيَّة وَفَتْح الطَّاء الْمُهْمَلَة وَتَشْدِيد اللَّام أَيْ يُهْدَر، يُقَال دَم فُلَان هَدَر إِذَا تَرَكَ الطَّلَب بِثَأْرِهِ، وَطُلَّ الدَّم بِضَمِّ الطَّاء وَبِفَتْحِهَا أَيْضًا، وَحُكِيَ "أَطَلَّ" وَلَمْ يَعْرِفهُ الْأَصْمَعِيّ: وَوَقَعَ لِلْكُشْمِيهَنِيّ فِي رِوَايَة اِبْن مُسَافِر "بَطَل" بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَة وَالتَّخْفِيف مِنْ الْبُطْلَان... وَقَدْ رَجَّحَ الْخَطَّابِيُّ أَنَّهُ مِنْ الْبُطْلَان.

قَوْله: (إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَان الْكُهَّان) أَيْ لِمُشَابَهَةِ كَلَامه كَلَامهمْ، زَادَ مُسْلِم وَالْإِسْمَاعِيلِيّ مِنْ رِوَايَة يُونُس "مِنْ أَجْل سَجْعه الَّذِي سَجَعَ" قَالَ الْقُرْطُبِيّ: هُوَ مِنْ تَفْسِير الرَّاوِي، وَقَدْ وَرَدَ مُسْتَنَد ذَلِكَ فِيمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِم فِي حَدِيث الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة: "فَقَالَ رَجُل مِنْ عُصْبَة الْقَاتِلَة يَغْرَم" فَذَكَرَ نَحْوه وَفِيهِ" فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: أَسْجَع كَسَجْعِ الْأَعْرَاب؟ وَالسَّجْع هُوَ تَنَاسُب آخِر الْكَلِمَات لَفْظًا، وَأَصْله الِاسْتِوَاء، وَفِي الِاصْطِلَاح: الْكَلَام الْمُقَفَّى وَالْجَمْع أَسْجَاع وَأَسَاجِيع، قَالَ اِبْن بَطَّال: فِيهِ ذَمّ الْكُفَّار وَذَمّ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي أَلْفَاظهمْ، وَإِنَّمَا لَمْ يُعَاقِبهُ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ مَأْمُورًا بِالصَّفْحِ عَنْ الْجَاهِلِينَ، وَقَدْ تَمَسَّكَ بِهِ مَنْ كَرِهَ السَّجْع فِي الْكَلَام، وَلَيْسَ عَلَى إِطْلَاقه، بَلْ الْمَكْرُوه مِنْهُ مَا يَقَع مَعَ التَّكَلُّف فِي مَعْرِض مُدَافَعَة الْحَقّ، وَأَمَّا مَا

---

(١) فتح الباري: لابن حجر (ج ١٦/ ص ٢٩٢)

(٢) أخرجه النسائي، حديث ٤٧٤١، وصححه الألباني.

يَقَع عَفْوًا بِلَا تَكَلُّف فِي الْأُمُور الْمُبَاحَة فَجَائِز، وَعَلَى ذَلِكَ يُحْمَل مَا وَرَدَ عَنْهُ ﷺ وَسَيَأْتِي مَزِيد لِذَلِكَ فِي كِتَاب الدَّعَوَات.

وَالْحَاصِل أَنَّهُ إِنْ جَمَعَ الْأَمْرَيْنِ مِنْ التَّكَلُّف وَإِبْطَال الْحَقّ كَانَ مَذْمُومًا، وَإِنْ اِقْتَصَرَ عَلَى أَحدهمَا كَانَ أَخَفّ فِي الذَّمّ، وَيَخْرُج مِنْ ذَلِكَ تَقْسِيمه إِلَى أَرْبَعَة أَنْوَاع: فَالْمَحْمُود مَا جَاءَ عَفْوًا فِي حَقّ، وَدُونه مَا يَقَع مُتَكَلَّفًا فِي حَقّ أَيْضًا، وَالْمَذْمُوم عَكْسهمَا.

٨-الفرق بين سجع الكهان والسجع الذي جاء في القرآن والسُّنّة:

في صحيح مسلم منْ حديث أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ امْرَأَتَيْنِ رَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ، فَطَرَحَتْ جَنِينَهَا فَقَضَى فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ بِغُرَّةٍ عَبْدٍ أَوْ وَلِيدَةٍ، وَعَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي الْجَنِينِ يُقْتَلُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ بِغُرَّةٍ عَبْدٍ أَوْ وَلِيدَةٍ، فَقَالَ الَّذِي قُضِيَ عَلَيْهِ كَيْفَ أَغْرَمُ مَا لَا أَكَلَ وَلَا شَرِبَ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ وَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلُّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ[1].

وفي المعجم الكبير للطبراني[2]: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن عُثْمَانَ بن أَبِي شَيْبَةَ، وثنا عَلِيُّ بن سَعِيدٍ الرَّازِيُّ، قَالا: ثنا أَبُو كُرَيْبٍ، ثنا عَبْدُ اللَّهِ بن إِسْمَاعِيلَ، عَنِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بن عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ وَرَّادٍ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِامْرَأَةٍ ضَرَبَتْ ضَرَّتَهَا بِعَمُودٍ، فَقَتَلَتْهَا، وَقَتَلَتْ مَا فِي بَطْنِهَا، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقْلَهَا عَلَى عَصَبَةِ الْمَرْأَةِ، وَفِي الْجَنِينِ غُرَّةَ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَدِي مَنْ لا أَكَلَ وَلا شَرِبَ وَلا صَاحَ وَلا اسْتَهَلَّ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَيَقُولُ بِقَوْلِ كَاهِنٍ، فِيهِ غُرَّةُ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ.

٩-نفي النبي ﷺ لتأثير الكهانة وأنّ الأمر كله بيد الله:

من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا عَدْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا بَالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَيُخَالِطُهَا الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ فَيُجْرِبُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ.[3] وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ فِي الْفَرَسِ وَالْمَرْأَةِ وَالدَّارِ.[4]

وعن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ. قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ.[5]

---

(١) صحيح مسلم، حديث ٥٣١٨.
(٢) (ج ١٥/ ص ٣٣٠) ١٧٣١٩
(٣) صحيح البخاري، في باب لَا هَامَةَ، ٥٣٢٨
(٤) صحيح البخاري، حديث ٥٣١٢.
(٥) صحيح البخاري، حديث ٥٣٣١

١٠- تَحْذِير النبي ﷺ من الْكَهَانَةِ وَإِتْيَانِ الْكُهَّانِ:

عن مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ. قَالَ: قُلْتُ: كُنَّا نَتَطَيَّرُ. قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ. وفيه قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قَالَ: كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ.(١)

وعن عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ الْكُهَّانَ كَانُوا يُحَدِّثُونَنَا بِالشَّيْءِ فَنَجِدُهُ حَقًّا. قَالَ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْحَقُّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ وَيَزِيدُ فِيهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ.(٢)

قَالَتْ عَائِشَةُ: سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسُوا بِشَيْءٍ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا الشَّيْءَ يَكُونُ حَقًّا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ.(٣)

قال النووي في شرحه على مسلم: فَقَوْله: (إِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّان. قَالَ: فَلَا تَأْتِهِمْ) قَالَ الْعُلَمَاء: إِنَّمَا نُهِيَ عَنْ إِتْيَان الْكَاهِن؛ لِأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي مُغَيَّبَات قَدْ يُصَادِف بَعْضهَا الْإِصَابَة؛ فَيُخَاف الْفِتْنَة عَلَى الْإِنْسَان بِسَبَبِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يُلَبِّسُونَ عَلَى النَّاس كَثِيرًا مِنْ أَمْر الشَّرَائِع، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة بِالنَّهْيِ عَنْ إِتْيَان الْكُهَّان وَتَصْدِيقهمْ فِيمَا يَقُولُونَ، وَتَحْرِيم مَا يُعْطُونَ مِنْ الْحُلْوَانِ، وَهُوَ حَرَام بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ نَقَلَ الْإِجْمَاع فِي تَحْرِيمه جَمَاعَة مِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّد الْبَغَوِيُّ -رَحِمَهُمْ اللَّه تَعَالَى- قَالَ الْبَغَوِيُّ: اِتَّفَقَ أَهْل الْعِلْم عَلَى تَحْرِيم حُلْوَانِ الْكَاهِن، وَهُوَ مَا أَخَذَهُ الْمُتَكَهِّن عَلَى كِهَانَته، لِأَنَّ فِعْل الْكِهَانَة بَاطِل لَا يَجُوز أَخْذ الْأُجْرَة عَلَيْهِ. وَقَالَ الْمَاوَرْدِيّ -رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى- فِي الْأَحْكَام السُّلْطَانِيَّة: وَيَمْنَع الْمُحْتَسِب النَّاس مِنْ التَّكَسُّب بِالْكِهَانَةِ وَاللَّهْو، وَيُؤَدِّب عَلَيْهِ الْآخِذ وَالْمُعْطِي، وَقَالَ الْخَطَّابِيّ رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى: حُلْوَان الْكَاهِن مَا يَأْخُذهُ الْمُتَكَهِّن عَلَى كِهَانَته وَهُوَ مُحَرَّم، وَفِعْله بَاطِل، قَالَ: وَحُلْوَان الْعَرَّاف حَرَام أَيْضًا، قَالَ: وَالْفَرْق بَيْن الْعَرَّاف وَالْكَاهِن أَنَّ الْكَاهِن إِنَّمَا يَتَعَاطَى الْأَخْبَار عَنْ الْكَوَائِن فِي الْمُسْتَقْبَل، وَيَدَّعِي مَعْرِفَة الْأَسْرَار، وَالْعَرَّاف يَتَعَاطَى مَعْرِفَة الشَّيْء الْمَسْرُوق وَمَكَان الضَّالَّة وَنَحْوهمَا، وَقَالَ الْخَطَّابِيّ أَيْضًا فِي حَدِيث (مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُول فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّه عَلَى مُحَمَّد ﷺ قَالَ: كَانَ فِي الْعَرَب كَهَنَة يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ كَثِيرًا مِنْ الْأُمُور، مِنْهُمْ مَنْ يَزْعُم أَنَّ لَهُ رِئْيًا مِنْ الْجِنّ يُلْقِي إِلَيْهِ الْأَخْبَار، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي اِسْتِدْرَاك ذَلِكَ بِفَهْمٍ أُعْطِيه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمَّى عَرَّافًا، وَهُوَ الَّذِي يَزْعُم مَعْرِفَة الْأُمُور بِمُقَدِّمَاتِ أَسْبَاب اِسْتَدَلَّ بِهَا، كَمَعْرِفَةِ مَنْ سَرَقَ الشَّيْء الْفُلَانِيّ، وَمَعْرِفَة مَنْ يُتَّهَم بِهِ الْمَرْأَة، وَنَحْو ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الْمُنَجِّم كَاهِنًا، قَالَ: وَالْحَدِيث يَشْتَمِل عَلَى النَّهْي عَنْ إِتْيَان هَؤُلَاءِ كُلّهمْ، وَالرُّجُوع إِلَى قَوْلهمْ وَتَصْدِيقهمْ فِيمَا يَدَّعُونَهُ. هَذَا كَلَام الْخَطَّابِيّ وَهُوَ نَفِيس.

---

(١) صحيح مسلم، حديث ٤١٣٣
(٢) صحيح مسلم، حديث ٤١٣٤
(٣) صحيح مسلم، حديث ٤١٣٥

قال النووي: قَوْله: (وَمِنَّا رِجَال يَتَطَيَّرُونَ. قَالَ: ذَلِكَ شَيْء يَجِدُونَهُ فِي صُدُورهمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ) وَفِي رِوَايَة: (فَلَا يَصُدَّنكُمْ) قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ أَنَّ الطِّيَرَة شَيْء تَجِدُونَهُ فِي نُفُوسكُمْ ضَرُورَة وَلَا عَتَب عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ غَيْر مُكْتَسَب لَكُمْ فَلَا تَكْلِيف بِهِ، وَلَكِنْ لَا تَمْتَنِعُوا بِسَبَبِهِ مِنْ التَّصَرُّف فِي أُمُورِكُمْ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُكْتَسَب لَكُمْ فَيَقَع بِهِ التَّكْلِيف، فَنَهَاهُمْ ﷺ عَنْ الْعَمَل بِالطِّيَرَةِ وَالِامْتِنَاع مِنْ تَصَرُّفَاتهمْ بِسَبَبِهَا، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة فِي النَّهْي عَنْ التَّطَيُّر، وَالطِّيَرَة هِيَ مَحْمُولَة عَلَى الْعَمَل بِهَا لَا عَلَى مَا يُوجَد فِي النَّفْس مِنْ غَيْر عَمَل عَلَى مُقْتَضَاهُ عِنْدهمْ. وَسَيَأْتِي بَسْط الْكَلَام فِيهَا فِي مَوْضِعهَا –إِنْ شَاءَ اللَّه تَعَالَى– حَيْثُ ذَكَرَهَا مُسْلِم رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى.

قَوْله: {وَمِنَّا رِجَال يَخُطُّونَ. قَالَ: كَانَ نَبِيّ مِنْ الْأَنْبِيَاء –عَلَيْهِمْ السَّلَام– يَخُطّ فَمَنْ وَافَقَ خَطّه فَذَاكَ}

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَاهُ، فَالصَّحِيح أَنَّ مَعْنَاهُ: مَنْ وَافَقَهُ خَطُّه فَهُوَ مُبَاح لَهُ، وَلَكِنْ لَا طَرِيق لَنَا إِلَى الْعِلْم الْيَقِينِيّ بِالْمُوَافَقَةِ فَلَا يُبَاح، وَالْمَقْصُود: أَنَّهُ حَرَام، لِأَنَّهُ لَا يُبَاح إِلَّا بِيَقِينِ الْمُوَافَقَة، وَلَيْسَ لَنَا يَقِين بِهَا، وَإِنَّمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ: فَمَنْ وَافَقَ خَطُّه فَذَاكَ، وَلَمْ يَقُلْ : هُوَ حَرَام، بِغَيْرِ تَعْلِيق عَلَى الْمُوَافَقَة، لِئَلَّا يَتَوَهَّم مُتَوَهِّم أَنَّ هَذَا النَّهْي يَدْخُل فِيهِ ذَاكَ النَّبِيّ الَّذِي كَانَ يَخُطّ، فَحَافَظَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى حُرْمَة ذَاكَ النَّبِيّ مَعَ بَيَان الْحُكْم فِي حَقّنَا. فَالْمَعْنَى أَنَّ ذَاكَ النَّبِيّ لَا مَنْع فِي حَقّه، وَكَذَا لَوْ عَلِمْتُمْ مُوَافَقَته، وَلَكِنْ لَا عِلْم لَكُمْ بِهَا. وَقَالَ الْخَطَّابِيّ: هَذَا الْحَدِيث يَحْتَمِل النَّهْي عَنْ هَذَا الْخَطّ إِذَا كَانَ عَلَمًا لِنُبُوَّةِ ذَاكَ النَّبِيّ، وَقَدْ اِنْقَطَعَتْ فَنُهِينَا عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ. وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاض: الْمُخْتَار أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ مَنْ وَافَقَ خَطّه فَذَاكَ الَّذِي يَجِدُونَ إِصَابَته فِيمَا يَقُول، لَا أَنَّهُ أَبَاحَ ذَلِكَ لِفَاعِلِهِ، قَالَ: وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذَا نُسِخَ فِي شَرْعنَا فَحَصَلَ مِنْ مَجْمُوع كَلَام الْعُلَمَاء فِيهِ الِاتِّفَاق عَلَى النَّهْي عَنْهُ الْآن.

والحاصل أنّ أمر الخط الصحيح الذي كان يفعله هذا النبي لا يعلم إلا بوحي صحيح، إما من كتاب الله أو صحيح سُنّة النبي ﷺ وليس في القرآن ما يؤيد خط أهل الكهانة، وليس هناك وحي بعد رسول الله ﷺ ونقول: إنّ حقيقة هؤلاء الخاطين الاستمداد من الشياطين، وقد سبرنا بفضل الله أحوالهم وعرفنا حقيقة أمرهم.

وفي فتح الباري(١) قال ابن حجر: قَوْله: "سَأَلَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" فِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ "سَأَلَ نَاس رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" وَقَدْ سُمِّيَ مِمَّنْ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ مُعَاوِيَة بْن الْحَكَم السُّلَمِيّ، كَمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيثه "قَالَ: قُلْت: يَا رَسُول اللَّه، أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعهَا فِي الْجَاهِلِيَّة كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّان، فَقَالَ: لَا تَأْتُوا الْكُهَّان" الْحَدِيث. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ هَؤُلَاءِ الْكُهَّان فِيمَا عُلِمَ بِشَهَادَةِ الِامْتِحَان قَوْم لَهُمْ أَذْهَان حَادَّة وَنُفُوس شِرِّيرَة وَطَبَائِع نَارِيَّة، فَهُمْ يَفْزَعُونَ إِلَى الْجِنّ فِي أُمُورهمْ وَيَسْتَفْتُونَهُمْ فِي الْحَوَادِث، فَيُلْقُونَ إِلَيْهِمْ الْكَلِمَات. ونقول: كلام صحيح وواقع أليم.

(١) ج ١٦/ ص ٢٩٤.

أقول: لقد قبضت على بعض الكهّان فجمع كفيه ثم تمتم بكلام قابضاً على ودعات، ونفث بكلام ثم أغمض عينيه وتحدث ببعض الأخبار.

ومما وقفت عليه إحدى الكاهنات احتسبت عليها ورفعت أوراقها للقضاء الشرعي، كانت تقول: أنا من بيت النبوة وأقوم بتأويل المنامات، وأشعر بأن شيئاً يلقى في قلبي الأخبار وهذه بركات بيت النبوة، وعندما قال لها قائل: أنت كذابة، قالت له: ألم يكن بينك وبين زوجك منازعة وحصل فيها كيت وكيت، وكان ما أخبرت به حقاً، لكننا بفضل الله نعلم أنّ هذا من القاء الشياطين.

قال ابن حجر: قَوْله: (فَقَالَ لَيْسَ بِشَيْءٍ) فِي رِوَايَة مُسْلِم "لَيْسُوا بِشَيْءٍ" وَفِي نُسْخَة "فَقَالَ: لَهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ" أَيْ لَيْسَ قَوْلهمْ بِشَيْءٍ يُعْتَمَد عَلَيْهِ، وَالْعَرَب تَقُول لِمَنْ عَمِلَ شَيْئًا وَلَمْ يُحْكِمهُ: مَا عَمِلَ شَيْئًا، قَالَ الْقُرْطُبِيّ: كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّة يَتَرَافَعُونَ إِلَى الْكُهَّان فِي الْوَقَائِع وَالْأَحْكَام وَيَرْجِعُونَ إِلَى أَقْوَالهمْ، وَقَدْ اِنْقَطَعَتْ الْكِهَانَة بِالْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّة، لَكِنْ بَقِيَ فِي الْوُجُود مَنْ يَتَشَبَّه بِهِمْ، وَثَبَتَ النَّهْي عَنْ إِتْيَانهمْ فَلَا يَحِلّ إِتْيَانهمْ وَلَا تَصْدِيقهمْ.

قَوْله: (إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَنَا أَحْيَانَا بِشَيْءٍ فَيَكُون حَقًّا) فِي رِوَايَة يُونُس (فَإِنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ) هَذَا أَوْرَدَهُ السَّائِل إِشْكَالًا عَلَى عُمُوم قَوْله "لَيْسُوا بِشَيْءٍ" لِأَنَّهُ فُهِمَ أَنَّهُمْ لَا يُصَدَّقُونَ أَصْلًا، فَأَجَابَهُ ﷺ عَنْ سَبَب ذَلِكَ الصِّدْق، وَأَنَّهُ إِذَا اِتَّفَقَ أَنْ يُصَدَّق لَمْ يَتْرُكهُ خَالِصًا بَلْ يَشُوبهُ بِالْكَذِبِ.

قَوْله: (تِلْكَ الْكَلِمَة مِنْ الْحَقّ) كَذَا فِي الْبُخَارِيّ بِمُهْمَلَةٍ وَقَاف أَيْ الْكَلِمَة الْمَسْمُوعَة الَّتِي تَقَع حَقًّا، وَوَقَعَ فِي مُسْلِم "تِلْكَ الْكَلِمَة مِنْ الْجِنّ" قَالَ النَّوَوِيّ: كَذَا فِي نُسَخ بِلَادنَا بِالْجِيمِ وَالنُّون، أَيْ الْكَلِمَة الْمَسْمُوعَة مِنْ الْجِنّ أَوْ الَّتِي تَصِحّ مِمَّا نَقَلَتْهُ الْجِنّ. قُلْت: التَّقْدِير الثَّانِي يُوَافِق رِوَايَة الْبُخَارِيّ، قَالَ النَّوَوِيّ: وَقَدْ حَكَى عِيَاض أَنَّهُ وَقَعَ يَعْنِي فِي مُسْلِم بِالْحَاءِ وَالْقَاف.

قَوْله: (يَخْطَفهَا الْجِنِّيّ) كَذَا لِلْأَكْثَرِ، وَفِي رِوَايَة السَّرَخْسِيّ (يَخْطَفهَا مِنْ الْجِنِّيّ) أَيْ الْكَاهِن يَخْطَفهَا مِنْ الْجِنِّيّ أَوْ الْجِنِّيّ الَّذِي يَلْقَى الْكَاهِن يَخْطَفهَا مِنْ جِنِّيّ آخَر فَوْقه، وَيَخْطَفهَا بِخَاءٍ مُعْجَمَة وَطَاء مَفْتُوحَة وَقَدْ تُكْسَر بَعْدهَا فَاءَ وَمَعْنَاهُ الْأَخْذ بِسُرْعَةٍ. وَفِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ "يَحْفَظهَا" بِتَقْدِيمِ الْفَاء بَعْدهَا ظَاء مُعْجَمَة وَالْأَوَّل هُوَ الْمَعْرُوف، وَاَللَّه أَعْلَم.

قَوْله: (فَيَقَرّهَا) تَقُول: قَرَرْت عَلَى رَأْسه دَلْوًا إِذَا صَبَبْته، فَكَأَنَّهُ صُبَّ فِي أُذُنه ذَلِكَ الْكَلَام، قَالَ الْقُرْطُبِيّ: وَيَصِحّ أَنْ يُقَال الْمَعْنَى أَلْقَاهَا فِي أُذُنه بِصَوْتٍ، يُقَال قَرَّ الطَّائِر إِذَا صَوَّتَ، اِنْتَهَى. وَوَقَعَ فِي رِوَايَة يُونُس الْمَذْكُورَة "فَيُقَرْقِرُهَا" أَيْ يُرَدِّدهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْجِنِّيّ إِذَا أَلْقَى الْكَلِمَة لِوَلِيِّهِ تَسَامَعَ بِهَا الشَّيَاطِين فَتَنَاقَلُوهَا كَمَا إِذَا صَوَّتَتْ الدَّجَاجَة فَسَمِعَهَا الدَّجَاج فَجَاوَبَتْهَا. وَتَعَقَّبَهُ الْقُرْطُبِيّ بِأَنَّ الْأَشْبَه بِمَسَاقِ الْحَدِيث أَنَّ الْجِنِّيّ يُلْقِي الْكَلِمَة إِلَى وَلِيّه بِصَوْتٍ خَفِيّ مُتَرَاجِع لَهُ زَمْزَمَة وَيُرْجِعهُ لَهُ، فَلِذَلِكَ يَقَع كَلَام الْكُهَّان غَالِبًا عَلَى هَذَا النَّمَط، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْء مِنْ ذَلِكَ فِي أَوَاخِر الْجَنَائِز فِي قِصَّة (اِبْن صَيَّاد) وَبَيَان اِخْتِلَاف الرُّوَاة فِي قَوْله: "فِي قَطِيفَة لَهُ فِيهَا زَمْزَمَة" وَأُطْلِقَ عَلَى الْكَاهِن وَلِيّ الْجِنِّيّ لِكَوْنِهِ يُوَالِيه، أَوْ عَدَلَ عَنْ قَوْله

(الْكَاهِن) إِلَى قَوْله (وَلِيّه) لِلتَّعْمِيمِ فِي الْكَاهِن وَغَيْره مِمَّنْ يُوَالِي الْجِنّ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ بَيَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ إِصَابَة الْكَاهِن أَحْيَانًا إِنَّمَا هِيَ لِأَنَّ الْجِنِّيّ يُلْقِي إِلَيْهِ الْكَلِمَة الَّتِي يَسْمَعهَا اِسْتِرَاقًا مِنْ الْمَلَائِكَة، فَيَزِيد عَلَيْهَا أَكَاذِيب يَقِيسهَا عَلَى مَا سَمِعَ، فَرُبَّمَا أَصَابَ نَادِرًا وَخَطَؤُهُ الْغَالِب.

فَيُقِرّهَا فِي أُذُنه كَمَا تُقِرّ الْقَارُورَة "وَشَرَحُوهُ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ كَمَا يُسْمَع صَوْت الزُّجَاجَة إِذَا حَلَّتْ عَلَى شَيْء أَوْ أُلْقِيَ فِيهَا شَيْء. وَقَالَ الْقَابِسِيّ: الْمَعْنَى أَنَّهُ يَكُون لِمَا يُلْقِيه الْجِنِّيّ إِلَى الْكَاهِن حِسّ كَحِسِّ الْقَارُورَة إِذَا حُرِّكَتْ بِالْيَدِ أَوْ عَلَى الصَّفَا، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمَعْنَى أَنَّهُ يُطْبَق بِهِ كَمَا يُطْبَق رَأْس الْقَارُورَة بِرَأْسِ الْوِعَاء الَّذِي يُفْرَغ فِيهِ مِنْهَا مَا فِيهَا. وَأَغْرَبَ شَارِح (الْمَصَابِيح) التُّورْبَشْتِيُّ فَقَالَ: الرِّوَايَة بِالزَّاي أَحْوَط لِمَا ثَبَتَ فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (كَمَا تُقَرّ الْقَارُورَة) وَاسْتِعْمَال قَرَّ فِي ذَلِكَ شَائِع بِخِلَافِ مَا فَسَرُّوا عَلَيْهِ الْحَدِيث فَإِنَّهُ غَيْر مَشْهُور، وَلَمْ نَجِد لَهُ شَاهِدًا فِي كَلَامهمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرِّوَايَة بِالدَّالِ تَصْحِيف أَوْ غَلَط مِنْ السَّامِع. وَتَعَقَّبَهُ الطِّيبِيُّ فَقَالَ: لَا رَيْب أَنَّ قَوْله "قَرَّ الدَّجَاجَة" مَفْعُول مُطْلَق، وَفِيهِ مَعْنَى التَّشْبِيه، فَكَمَا يَصِحّ أَنْ يُشَبِّهَ إِيرَاد مَا اِخْتَطَفَهُ مِنْ الْكَلَام فِي أُذُن الْكَاهِن بِصَبِّ الْمَاء فِي الْقَارُورَة يَصِحّ أَنْ يُشَبِّهَ تَرْدِيد الْكَلَام فِي أُذُنه بِتَرْدِيدِ الدَّجَاجَة صَوْتَهَا فِي أُذُن صَوَاحِبَاتهَا، وَهَذَا مُشَاهَد، تَرَى الدِّيك إِذَا رَأَى شَيْئًا يُنْكِرهُ يُقَرْقِر فَتَسْمَعهُ الدَّجَاج فَتَجْتَمِع وَتُقَرْقِر مَعَهُ، وَبَاب التَّشْبِيه وَاسِع لَا يَفْتَقِر إِلَى الْعَلَاقَة، غَيْر أَنَّ الِاخْتِطَاف مُسْتَعَار لِلْكَلَامِ مِنْ فِعْل الطَّيْر، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَتَخْطَفهُ الطَّيْر﴾ فَيَكُون ذِكْر الدَّجَاجَة هُنَا أَنْسَب مِنْ ذِكْر الزُّجَاجَة لِحُصُولِ التَّرْشِيح فِي الِاسْتِعَارَة. قُلْت: وَيُؤَيِّدهُ دَعْوَى الدَّارَقُطْنِيّ وَهُوَ إِمَام الْفَنّ أَنَّ الَّذِي بِالزَّايِ تَصْحِيف، وَإِنْ كُنَّا مَا قَبِلْنَا ذَلِكَ فَلَا أَقَلّ أَنْ يَكُون أَرْجَح.

قَوْله: (فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَة كَذْبَة) فِي رِوَايَة اِبْن جُرَيْجٍ "أَكْثَر مِنْ مِائَة كَذْبَة" وَهُوَ دَالّ عَلَى أَنَّ ذِكْر الْمِائَة لِلْمُبَالَغَةِ لَا لِتَعْيِينِ الْعَدَد، وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِم فِي حَدِيث آخَر أَصْل تَوَصُّل الْجِنِّيّ إِلَى الِاخْتِطَاف فَأَخْرَجَ مِنْ حَدِيث اِبْن عَبَّاس "حَدَّثَنِي رِجَال مِنْ الْأَنْصَار أَنَّهُمْ بَيْنَا هُمْ جُلُوس لَيْلًا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ مِثْل هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّة؟ قَالُوا: كُنَّا نَقُول وُلِدَ اللَّيْلَة رَجُل عَظِيم أَوْ مَاتَ رَجُل عَظِيم، فَقَالَ: إِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَد وَلَا لِحَيَاتِهِ. وَلَكِنْ رَبّنَا إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَة الْعَرْش، ثُمَّ سَبَّحَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغ التَّسْبِيح إِلَى أَهْل هَذِهِ السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ: مَاذَا قَالَ رَبّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ حَتَّى يَصِل إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيَسْتَرِق مِنْهُ الْجِنِّيّ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهه فَهُوَ حَقّ، وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِيهِ وَيَنْقُصُونَ"

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير سَبَأ وَغَيْرهَا بَيَان كَيْفِيَّتهمْ عِنْد اِسْتِرَاقهمْ، وَأَمَّا مَا تَقَدَّمَ فِي بَدْء الْخَلْق مِنْ وَجْه آخَر عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة "أَنَّ الْمَلَائِكَة تَنْزِل فِي الْعَنَان (وَهُوَ السَّحَاب) فَتَذْكُر الْأَمْر قُضِيَ فِي السَّمَاء فَتَسْتَرِق الشَّيَاطِين السَّمْع" فَيُحْتَمَل أَنْ يُرِيد بِالسَّحَابِ السَّمَاء كَمَا أَطْلَقَ السَّمَاء عَلَى السَّحَاب، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون عَلَى حَقِيقَته، وَأَنَّ بَعْض الْمَلَائِكَة إِذَا نَزَلَ بِالْوَحْيِ إِلَى الْأَرْض تَسْمَع مِنْهُمْ الشَّيَاطِين، أَوْ الْمُرَاد الْمَلَائِكَة الْمُوَكَّلَة بِإِنْزَالِ الْمَطَر.

نقول: وهذا ثابت في كثير من الأحاديث من أمثال روح من هذه الروح الطيبة أو الخبيثة، روح فلان بن فلان[1] فقد يسمع الشيطان ذلك ويكون هذا المتوفي في غير بلد الكاهن.

وَفِي الْحَدِيث بَقَاء اِسْتِرَاق الشَّيَاطِين السَّمْع، لَكِنَّهُ قَلَّ وَنَدَرَ حَتَّى كَادَ يَضْمَحِلّ بِالنِّسْبَةِ لِمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الْجَاهِلِيَّة، وَفِيهِ النَّهْي عَنْ إِتْيَان الْكُهَّان. قَالَ الْقُرْطُبِيّ: يَجِب عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مُحْتَسِب وَغَيْره أَنْ يُقِيم مَنْ يَتَعَاطَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْوَاق، وَيُنْكِر عَلَيْهِمْ أَشَدّ النَّكِير وَعَلَى مَنْ يَجِيء إِلَيْهِمْ، وَلَا يَغْتَرّ بِصِدْقِهِمْ فِي بَعْض الْأُمُور، وَلَا بِكَثْرَةِ مَنْ يَجِيء إِلَيْهِمْ مِمَّنْ يُنْسَب إِلَى الْعِلْم، فَإِنَّهُمْ غَيْر رَاسِخِينَ فِي الْعِلْم بَلْ مِنْ الْجُهَّال بِمَا فِي إِتْيَانهمْ مِنْ الْمَحْذُور.

قال ابن حجر: (تَنْبِيه) إِيرَاد بَابِ الْكِهَانَة فِي كِتَاب الطِّبّ لِمُنَاسَبَتِهِ لِبَابِ السِّحْر لِمَا يُجْمَع بَيْنهمَا مِنْ مَرْجِع كُلّ مِنْهُمَا لِلشَّيَاطِينِ، وَإِيرَاد بَاب السِّحْر فِي كِتَاب الطِّبّ لِمُنَاسَبَتِهِ ذِكْر الرُّقَى وَغَيْرهَا مِنْ الْأَدْوِيَة الْمَعْنَوِيَّة، فَنَاسَبَ ذِكْر الْأَدْوَاء الَّتِي تَحْتَاج إِلَى ذَلِكَ، وَاشْتَمَلَ كِتَاب الطِّبّ عَلَى الْإِشَارَة لِلْأَدْوِيَةِ الْحِسِّيَّة كَالْحَبَّةِ السَّوْدَاء وَالْعَسَل، ثُمَّ عَلَى الْأَدْوِيَة الْمَعْنَوِيَّة كَالرُّقَى بِالدُّعَاءِ وَالْقُرْآن. ثُمَّ ذَكَرْت الْأَدْوَاء الَّتِي تَنْفَع الْأَدْوِيَة الْمَعْنَوِيَّة فِي دَفْعهَا كَالسِّحْرِ، كَمَا ذَكَرْت الْأَدْوَاء الَّتِي تَنْفَع الْأَدْوِيَة الْحِسِّيَّة فِي دَفْعهَا كَالْجُذَامِ وَاَللَّه أَعْلَم.

نقول: وهذا يبين خطورة الكهانة، ويكشف عن ضررها البالغ على دين الناس، وفيه محاولة زعزعة إيمان القلوب بتفرد الملك سبحانه بعلم الغيب؛ إذ قد يصدق هؤلاء موافقة وقدرا، أو تتحقق كلمة الشيطان التي صدق فيها، فيقع في النفوس الريب، ودفع هذه الشبه من أهم المهمات، قال النووي: وفروض الكفاية أقسام منها ما يتعلق بأصل الدين، وهو إقامة الحجة العلمية ومعناها: أنه كما تجب إقامة الحجة القهرية بالسيف يجب أن يكون في المسلمين من يقيم البراهين، ويظهر الحجج ويدفع الشبهات، ويحل المشكلات، ومنها ما يتعلق بالفروع كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمراد منه الأمر بواجبات الشرع والنهي عن محرماته، فهو فرض كفاية فإن نصب لذلك رجل تعين عليه بحكم الولاية وهو المحتسب.[2]

ونقول: إنّ كثيراً من الناس يهابون السحرة والكهان، وأنّ هؤلاء السحرة والكهان ما أن يقبض على أحد منهم حتى تخور قواه، ويذهب عزمه وبأسه وجبروته، وإنه لينهار ويسقط حتى لا تقوى رجلاه على حمله، وإنه حين يعلم أنه مرفوع للقضاء يبكى ويصيح، وإن بعضهم ليقضى حاجته على نفسه، وتراهم بعد ما كان يحيط بهم من العلو والعز بالناس صار ذليلاً، وكما يبين النبي ﷺ حال هؤلاء فينبغي على كل مسلم أن يعرف حال هؤلاء، بل وأن يكشف للناس ضعفهم وهوانهم، كل في موطنه وموضعه فعلى

---

(١) الحديث طويل وجليل وهو في مسند أحمد، حديث ١٧٨٠٣. وصححه الألباني.

(٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين: للنووي، ج ٤/ ص٣، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

الخطباء أن يتحدثوا على المنابر، وعلى المعلمين أن يعلموا تلاميذهم، وعلى الطبيب كذلك، فهذا نهج النبي ﷺ فوجب على الجميع أن يعلموا الناس التوحيد، وأن يحذروا من هذا الشرك كما فعل رسول الله ﷺ.

١١- بيان النبي ﷺ لخطر الكهانة:

عَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.[١]

من حديث عبد الله بن مسعود، قال: من مشى إلى ساحر أو كاهن أو عراف فصدقه فيما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، أو أتى امرأته حائضاً أو أتى امرأته من دبرها، فقد برئ مما أنزل على محمد"[٢]

١٢- اتهام الكفار للنبي ﷺ بالكهانة وتبرئة العارفين منهم بها له:

عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ -وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ- فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا، فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ، فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقُلْتُ: أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ، فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا، وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ، فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا، فَأَتَيَا الْكَاهِنَ فَخَيَّرَ أُنَيْسًا فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِثَلَاثِ سِنِينَ قُلْتُ لِمَنْ قَالَ لِلَّهِ قُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي، أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ، فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي، فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَرَاثَ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ. قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ شَاعِرٌ كَاهِنٌ سَاحِرٌ، وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.[٣]

عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ الْبَكْرِيِّ، أَنَّ سَلْمَانَ الْخَيْرِ حَدَّثَهُ بقصة إسلامه، وفيها قول آخر من صحبه من علماء وعباد أهل الكتاب ونصه: فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ: أَيْنَ تَأْمُرُنِي أَنْ أَذْهَبَ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ

---

(١) صحيح مسلم، ٤١٣٧
(٢) رواه أبو داود، حديث ٤٦٠٤
(٣) صحيح مسلم (ج ١٢/ ص٢٥٣) ٤٥٢٠

أَهْلِ الأَرْضِ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ، لَكِنْ إِنْ أَدْرَكْتَ زَمَانًا يُسْمَعُ بِرَجُلٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا أَرَاكَ تُدْرِكُهُ، وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُدْرِكَهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ فَافْعَلْ، فَإِنَّهُ عَلَى الدِّينِ، وأَمَارَةُ ذَلِكَ أَنَّ قَوْمَهُ يَقُولُونَ: سَاحِرٌ مَجْنُونٌ كَاهِنٌ، وَأَنَّهُ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ.(١)

خبر اجتماع الوليد بن المغيرة ونفر من قريش، وقد حضر الموسم ليجتمعوا على رأي واحد فيما يقولون: نقول كاهن. فقال: ما هو بكاهن. لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسحره إلى آخر الخبر.(٢)

عن جابر بن عبد الله قال: اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ما يرد عليه، قالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال: يا مُحَمَّد، أنت خير أم عبد الله، فسكت رسول الله، ثم قال: أنت خير أم عبد المطلب، فسكت رسول الله ﷺ قال: فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنّا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، ففضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أنّ في قريش ساحراً، وأنّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فنزوجك عشراً، قال له رسول الله: أفرغت؟ قال: نعم. قال : فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٣) حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٤) فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم، والذي نصبها بنية، ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ قالوا: ويلك، يكلمك رجل بالعربية لا تدري ما قال، قال: لا، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.(٥)

١٣- التحذير من صحبة الكهّان:

عَنْ أَبِي رَائِطَةَ بن كَرَامَةَ الْمَذْحِجِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الْقَوْمُ سَفْرَى، لا يَصْحَبَنَّكُمْ خِلالٌ مِنْ هَذِهِ النَّعَمِ، يَعْنِي الضَّوَالَّ، وَلا يَصْحَبَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ ضَالَّةً وَلا يَرُدَّنَّ سَائِلاً، إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الرِّبْحَ وَالسَّلامَةَ، وَلا يَصْحَبَنَّكُمْ مِنَ النَّاسِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ سَاحِرٌ وَلا سَاحِرَةٌ وَلا كَاهِنٌ وَلا

---

(١) المعجم الكبير: للطبراني (ج ٦/ ص٣٧) ٥٩٥٣
(٢) شعب الإيمان: للبيهقي (ج ١/ ص ١٤٦) ١٢٧
(٣) فصلت: الآية ٢.
(٤) فصلت: الآية ١٣.
(٥) مسند أبي يعلى الموصلي (ج ٤/ ص ٣٨٥)

كَاهِنَةٌ وَلا مُنَجِّمٌ وَلا مُنَجِّمَةٌ وَلا شَاعِرٌ وَلا شَاعِرَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ عَذَابٍ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ، فَإِنَّمَا يَبْعَثُ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَأَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عِشَاءً.(١)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَاعِدًا بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، إِذْ مَرَّتْ بِهِ رُفْقَةٌ يَسِيرُونَ، سَائِقُهُمْ يُقْرَأُ، وَقَائِدُهُمْ يَحْدُو، فَلَمَّا رَآهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ يُهَرْوِلُ بِغَيْرِ رِدَاءٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ نَكْفِيكَ. فَقَالَ: دَعُونِي أُبَلِّغُهُمْ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ فِي أَمْرِهِمْ فَلَحِقَهُمْ فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُونَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ؟ قَالُوا: نُرِيدُ الْيَمَنَ. قَالَ: فَمَا سَيْرُكُمْ بِهَذِهِ السَّاعَةِ؟ فَإِنَّ لِلَّهِ فِي السَّمَاءِ سُلْطَانًا عَظِيمًا يُوَجِّهُهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلا تَسِيرُوا، وَلا خَطْوَةً إِلا مَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِي بَطْنِهِ، وَمَثَانَتِهِ مِنَ الْبَوْلِ الَّذِي لا يَجِدُ مِنْهُ بَدًّا، ثُمَّ وَلا خَطْوَةً، وَأَمَّا أَنْتَ يَا سَائِقُ الْقَوْمِ، فَعَلَيْكَ بِبَعْضِ كَلامِ الْعَرَبِ مِنْ رَجَزِهَا، وَإِذَا كُنْتَ رَاكِبًا فَاقْرَأْهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلائِكَةٌ مُوَكَّلِينَ، يَطْوُونَ الأَرْضَ لِلْمُسَافِرِ كَمَا تُطْوَى الْقَرَاطِيسُ، وَبَعْدَ الصُّبْحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى، وَلا يَصْحَبَنَّكُمْ شَاعِرٌ، وَلا كَاهِنٌ، وَلا يَصْحَبَنَّكُمْ ضَالَّةٌ، وَلا تَرُدُّوا سَائِلاً إِنْ أَرَدْتُمُ الرِّبْحَ وَالسَّلامَةَ وَحُسْنَ الصَّحَابَةِ. فَعَجَبٌ لِي، كَيْفَ أَنَامُ حِينَ تَنَامُ الْعُيُونُ كُلُّهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَسُولُهُ يَنْهَاكُمْ مِنَ الْمَسِيرِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ"(٢)

١٤- بيان النبي ﷺ اتخاذ الكفار من قبلنا للكهان والسحرة:

من حديث صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى العصر همس، والهمس في قول بعضهم تحرك شفتيه كأنه يتكلم، فقيل له: إنك يا رسول الله إذا صليت العصر همست. قال: إن نبيا من الأنبياء كان أعجب بأمته فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم وبين أن أسلط عليهم عدوهم، فاختاروا النقمة، فسلط عليهم الموت، فمات منهم في يوم سبعون ألفاً. قال: وكان إذا حدث بهذا الحديث حدث بهذا الحديث الآخر، قال: كان ملك من الملوك وكان لذلك الملك كاهن يكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال فطناً لقناً، فأعلمه علمي هذا فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه. قال: فنظروا له على ما وصف فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه، فجعل يختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعة، قال معمر: أحسب أنّ أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين. قال: فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله. قال: فجعل الغلام يمكث عند الراهب، ويبطئ عن الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام: إنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك الكاهن: أين كنت؟ فقل: عند أهلي. وإذا قال لك أهلك: أين كنت؟ فأخبرهم أنك كنت عند الكاهن. قال: فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة، فقال

---

(١) المعجم الكبير: للطبراني (ج ١٦/ ص ٢٣٢) ١٨٣٧٦
(٢) المعجم الكبير: للطبراني (ج ١٩/ ص ٤٣٦) ١٠٤٧

بعضهم: إن تلك الدابة كانت أسدا. قال فأخذ الغلام حجراً، فقال: اللهم إن كان ما يقول الراهب حقاً فأسألك أن أقتلها، قال: ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ قالوا: الغلام، ففزع الناس، وقالوا: لقد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد. قال: فسمع به أعمى، فقال له: إن أنت رددت بصري فلك كذا وكذا، قال له: لا أريد منك هذا ولكن أرأيت إن رجع إليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك؟ قال: نعم. قال: فدعا الله فرد عليه بصره، فآمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم فأتي بهم، فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام، فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا، فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل، فلما انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل، ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام. قال: ثم رجع فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقونه فيه، فانطلق به إلى البحر فغرق الله الذين كانوا معه وأنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لا تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول إذا رميتني: بسم الله رب هذا الغلام. قال: فأمر به فصلب ثم رماه، فقال: بسم الله رب هذا الغلام. قال فوضع الغلام يده على صدغه حين رمي ثم مات، فقال أناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد فإنا نؤمن برب هذا الغلام. قال: فقيل للملك: أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كلهم قد خالفوك. قال: فخد أخدوداً ثم ألقى فيها الحطب والنار، ثم جمع الناس، فقال: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود. قال: يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[١] حتى بلغ ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ قال: فأما الغلام فإنه دفن، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.[٢]

ونقول: في هذا الحديث فائدتان:

الأولى: اتخاذ الملوك الكافرين من قبلنا للكهان، وسيأتي استغلال الملوك لذلك في الحديث عن اليونان، واتخاذ ملوكهم لمجلس يسمى مجلس العرافة، وانتشار الكهانة بين الملوك، كما مر ذكر القرطبي اتخاذ ملوك من ملوك المسلمين للكهّان والمنجمين وإجراء الأرزاق عليهم، وكذلك وجد في الخلفاء العباسيين وغيرهم من اتخذ كهّانا ومنجمين.

الفائدة الثانية: حرص الكهان على بقاء علمهم الفاسد، وحرصهم على أن يرثه النابهون، وهذا موجود في كثير من السحرة والكهان وغيرهم من أهل الضلال يحرص على ذلك حرصاً شديداً، يحرص أولاً أن يرث ابنه ذلك، فإن لم يمكنه بحث عن تلميذ نجيب يحمل هذا الخبث.

---

(١) البروج: الآية ٤,٥.

(٢) صحيح وضعيف سنن الترمذي (ج ٧/ ص ٣٤٠) في سنن الترمذي ٣٣٤٠

١٥- التابعون والتحذير من الكهانة:

سبق وأن تحدثنا بالتفصيل عن هذا في كتابنا (الاحتساب على السحر لدى الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم) ونذكر هنا ما يقتضيه المقام، ومن رام توسعاً رجع إلى كتابنا المذكور.

في تفسير ابن أبي حاتم[١] قال عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ قال: «ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة»

وعن أبي العالية في قول الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ قال: «إنّ اليهود سألوا النبي ﷺ عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ إلى آخر الآية، وإن الشياطين كتبوا السحر والكهانة فدفنوه في مجلس سليمان، وكان سليمان لا يعلم الغيب، فلما مات سليمان استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس به، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه الناس ويحسدهم عليه، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بهذه الآيات رجعوا وقد خزوا، ودحض الله حجتهم»

وعن السدي: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع، فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا، حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم، فأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أنّ الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق.

١٦- إرسال الشهب على الشياطين:

جاء في كتب السنة المشرفة وشروحها حديث عن إرسال الشهب على الشياطين الذين يتسمعون أخبار السماء، ويقعدون منها مقاعد للسمع، وحدث ابن عباس عن بحث الشياطين عن سبب ذلك الحفظ الشديد، فأخرج البخاري[٢] بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا أمر مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ، فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ: مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ، فَقَالُوا:

---

(١) ج ٤/ ص١١٨.
(٢) فتح الباري: لابن حجر (ج ١٤/ ص٥٦)

هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(١) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾(٢) وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ.

قال الحافظ ابن حجر: قَوْله: (انْطَلَقَ رَسُول اللَّه ﷺ فِي طَائِفَة مِنْ أَصْحَابه عَامِدِينَ) أَيْ قَاصِدِينَ. قَوْله: (إِلَى سُوق عُكَاظ) وَهُوَ مَوْسِم مَعْرُوف لِلْعَرَبِ. بَلْ كَانَ مِنْ أَعْظَم مَوَاسِمهمْ، وَهُوَ نَخْل فِي وَادٍ بَيْن مَكَّة وَالطَّائِف، وَهُوَ إِلَى الطَّائِف أَقْرَب بَيْنهمَا عَشَرَة أَمْيَال، وَهُوَ وَرَاء قَرْن الْمَنَازِل بِمَرْحَلَةٍ مِنْ طَرِيق صَنْعَاء الْيَمَن. وَقَالَ الْبَكْرِيّ: أَوَّل مَا أُحْدِثَتْ قَبْل الْفِيل بِخَمْسَ عَشْرَة سَنَة، وَلَمْ تَزَلْ سُوقًا إِلَى سَنَة تِسْع وَعِشْرِينَ وَمِائَة، فَخَرَجَ الْخَوَارِج الْحَرُورِيَّة فَنَهَبُوهَا فَتُرِكَتْ إِلَى الْآن، كَانُوا يُقِيمُونَ بِهِ جَمِيع شَوَّال يَتَبَايَعُونَ وَيَتَفَاخَرُونَ وَتُنْشِد الشُّعَرَاء مَا تَجَدَّدَ لَهُمْ، وَقَدْ كَثُرَ ذَلِكَ فِي أَشْعَارهمْ كَقَوْلِ حَسَّان:

سَأَنْشُرُ إِنْ حَيِيت لَكُمْ كَلَامًا　　　يُنْشَر فِي الْمَجَامِع مِنْ عُكَاظ

وَكَانَ الْمَكَان الَّذِي يَجْتَمِعُونَ بِهِ مِنْهُ يُقَال لَهُ الِابْتِدَاء، وَكَانَتْ هُنَاكَ صُخُور يَطُوفُونَ حَوْلهَا، ثُمَّ يَأْتُونَ مَجَنَّة فَيُقِيمُونَ بِهَا عِشْرِينَ لَيْلَة مِنْ ذِي الْقِعْدَة، ثُمَّ يَأْتُونَ ذَا الْمَجَاز، وَهُوَ خَلْف عَرَفَة فَيُقِيمُونَ بِهِ إِلَى وَقْت الْحَجّ.

قَوْله: (وَقَدْ حِيلَ) بِكَسْرِ الْحَاء الْمُهْمَلَة: أَيْ حُجِزَ وَمُنِعَ. قَوْله: (بَيْن الشَّيَاطِين وَبَيْن خَبَر السَّمَاء وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُب) وَظَاهِرُ هَذَا أَنَّ الْحَيْلُولَة وَإِرْسَال الشُّهُب وَقَعَ فِي هَذَا الزَّمَان الْمُقَدَّم ذِكْره، وَالَّذِي تَضَافَرَتْ بِهِ الْأَخْبَار أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْبَعْثَة النَّبَوِيَّة، وَهَذَا مِمَّا يُؤَيِّد تَغَايُر زَمَن الْقِصَّتَيْنِ، وَأَنَّ مَجِيء الْجِنّ لِاسْتِمَاعِ الْقُرْآن كَانَ قَبْل خُرُوجه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِف بِسَنَتَيْنِ، وَلَا يُعَكِّر عَلَى ذَلِكَ إِلَّا قَوْله فِي هَذَا الْخَبَر إِنَّهُمَا رَأَوْهُ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاة الْفَجْر؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمِل أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْل فَرْض الصَّلَوَات لَيْلَة الْإِسْرَاء، فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ قَبْل الْإِسْرَاء يُصَلِّي قَطْعًا، وَكَذَلِكَ أَصْحَابه لَكِنْ اُخْتُلِفَ هَلْ اُفْتُرِضَ قَبْل الْخَمْس شَيْء مِنْ الصَّلَاة أَمْ لَا؟ فَيَصِحّ عَلَى هَذَا قَوْل مَنْ قَالَ: إِنَّ الْفَرْض أَوَّلًا كَانَ صَلَاة قَبْل طُلُوع الشَّمْس وَصَلَاة قَبْل غُرُوبهَا، وَالْحُجَّة فِيهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(٣) وَنَحْوهَا مِنْ الْآيَات، فَيَكُونُ إِطْلَاق صَلَاة الْفَجْر فِي حَدِيث الْبَاب بِاعْتِبَارِ الزَّمَان، لَا لِكَوْنِهَا إِحْدَى الْخَمْس الْمُفْتَرَضَة لَيْلَة الْإِسْرَاء، فَتَكُونُ قِصَّة الْجِنّ مُتَقَدِّمَة مِنْ أَوَّلِ الْمَبْعَث. وَهَذَا الْمَوْضِع مِمَّا لَمْ يُنَبِّه عَلَيْهِ أَحَد مِمَّنْ وَقَفْت عَلَى كَلَامِهِمْ فِي شَرْح هَذَا الْحَدِيث.

وَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيّ وَالطَّبَرِيُّ حَدِيث الْبَاب بِسِيَاقِ سَالِم مِنْ الْإِشْكَال الَّذِي ذَكَرْته مِنْ طَرِيق أَبِي إِسْحَاق السُّبَيْعِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ اِبْنِ عَبَّاس قَالَ: " كَانَتْ الْجِنّ تَصْعَد إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا يَسْتَمِعُونَ

---

(١) الجن: من الآية ١,٢.
(٢) الجن: من الآية ١.
(٣) طه: من الآية ١٣٠.

الْوَحْي، فَإِذَا سَمِعُوا الْكَلِمَة زَادُوا فِيهَا أَضْعَافًا، فَالْكَلِمَة تَكُونُ حَقًّا وَأَمَّا مَا زَادُوا فَيَكُونُ بَاطِلًا، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ مُنِعُوا مَقَاعِدهمْ، وَلَمْ تَكُنْ النُّجُوم يُرْمَى بِهَا قَبْل ذَلِكَ" وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ أَيْضًا وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَغَيْرهَا، مِنْ طَرِيق عَطَاء بْن السَّائِب عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر مُطَوَّلًا وَأَوَّله: "كَانَ لِلْجِنِّ مَقَاعِد فِي السَّمَاء يَسْتَمِعُونَ الْوَحْي" الْحَدِيث. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ فَدُحِرَتْ الشَّيَاطِين مِنْ السَّمَاء، وَرُمُوا بِالْكَوَاكِبِ، فَجَعَلَ لَا يَصْعَد أَحَد مِنْهُمْ إِلَّا اِحْتَرَقَ، وَفَزِعَ أَهْل الْأَرْض لِمَا رَأَوْا مِنْ الْكَوَاكِب وَلَمْ تَكُنْ قَبْل ذَلِكَ، فَقَالُوا: هَلَكَ أَهْل السَّمَاء، وَكَانَ أَهْل الطَّائِف أَوَّل مَنْ تَفَطَّنَ لِذَلِكَ، فَعَمَدُوا إِلَى أَمْوَالهمْ فَسَيَّبُوهَا وَإِلَى عَبِيدهمْ فَعَتَقُوهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَجُل: وَيْلكُمْ لَا تُهْلِكُوا أَمْوَالكُمْ، فَإِنَّ مَعَالِمكُمْ مِنْ الْكَوَاكِب الَّتِي تَهْتَدُونَ بِهَا لَمْ يَسْقُط مِنْهَا شَيْء، فَأَقْلَعُوا. وَقَالَ إِبْلِيس: حَدَثَ فِي الْأَرْض حَدَث، فَأَتَى مِنْ كُلّ أَرْضٍ بِتُرْبَةٍ فَشَمَّهَا، فَقَالَ لِتُرْبَةِ تِهَامَة: هَاهُنَا حَدَثَ الْحَدَث، فَصَرَفَ إِلَيْهِ نَفَرًا مِنْ الْجِنّ، فَهُمْ الَّذِينَ اِسْتَمَعُوا الْقُرْآن"

وَعِنْد أَبِي دَاوُدَ فِي (كِتَاب الْمَبْعَث) مِنْ طَرِيق الشَّعْبِيّ أَنَّ الَّذِي قَالَ لِأَهْلِ الطَّائِف مَا قَالَ، هُوَ عَبْد يَا لَيْل اِبْن عَمْرو، وَكَانَ قَدْ عَمِيَ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَعْجَلُوا وَانْظُرُوا، فَإِنْ كَانَتْ النُّجُوم الَّتِي يُرْمَى بِهَا هِيَ الَّتِي تُعْرَف فَهُوَ عِنْد فَنَاء النَّاس، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُعْرَف فَهُوَ مِنْ حَدَث، فَنَظَرُوا فَإِذَا هِيَ نُجُوم لَا تُعْرَف، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ سَمِعُوا بِمَبْعَثِ النَّبِيّ ﷺ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق السُّدِّيّ مُطَوَّلًا، وَذَكَرَ اِبْنُ إِسْحَاق نَحْوَهُ مُطَوَّلًا بِغَيْرِ إِسْنَاد فِي (مُخْتَصَر اِبْنِ هِشَام) زَادَ فِي رِوَايَة يُونُس بْن بُكَيْر، فَسَاقَ سَنَده بِذَلِكَ عَنْ يَعْقُوب بْن عُتْبَة بْن الْمُغِيرَة بْنِ الْأَخْنَس، أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عَبْد اللَّه بْن عَبْد اللَّه أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ ثَقِيف يُقَال لَهُ عَمْرو بْن أُمَيَّة كَانَ مِنْ أَدْهَى الْعَرَب، وَكَانَ أَوَّل مَنْ فَزِعَ لَمَّا رُمِيَ بِالنُّجُومِ مِنْ النَّاس، فَذَكَرَ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَهُ اِبْنُ سَعْد مِنْ وَجْه آخَر عَنْ يَعْقُوب بْنِ عُتْبَة قَالَ: أَوَّل الْعَرَب فَزِعَ مِنْ رَمْي النُّجُوم ثَقِيف، فَأَتَوْا عَمْرو بْن أُمَيَّة. وَذَكَرَ الزُّبَيْر بْن بَكَّار فِي النَّسَب نَحْوَهُ بِغَيْرِ سِيَاقه، وَنُسِبَ الْقَوْل الْمَنْسُوب لِعَبْدِ يَا لَيْل لِعُتْبَةَ بْن رَبِيعه، فَلَعَلَّهُمَا تَوَارَدَا عَلَى ذَلِكَ.

فَهَذِهِ الْأَخْبَار تَدُلّ عَلَى أَنَّ الْقِصَّة وَقَعَتْ أَوَّلَ الْبَعْثَة وَهُوَ الْمُعْتَمَد، وَقَدْ اِسْتَشْكَلَ عِيَاض وَتَبِعَهُ الْقُرْطُبِيّ وَالنَّوَوِيّ وَغَيْرهمَا مِنْ حَدِيث الْبَاب مَوْضِعًا آخَر وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَا ذَكَرْته، فَقَالَ عِيَاض: ظَاهِرُ الْحَدِيث أَنَّ الرَّمْي بِالشُّهُبِ لَمْ يَكُنْ قَبْل مَبْعَث النَّبِيّ ﷺ لِإِنْكَارِ الشَّيَاطِين لَهُ وَطَلَبِهِمْ سَبَبه، وَلِهَذَا كَانَتْ الْكَهَانَة فَاشِيَة فِي الْعَرَب وَمَرْجُوعًا إِلَيْهَا فِي حُكْمهمْ، حَتَّى قُطِعَ سَبَبهَا بِأَنْ حِيلَ بَيْن الشَّيَاطِين وَبَيْن اِسْتِرَاق السَّمْع، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَة: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُد مِنْهَا مَقَاعِد لِلسَّمْعِ * فَمَنْ يَسْتَمِع الْآن يَجِد لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾(١) وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ

(١) الجن: من الآية ٨,٩,١٠.

عَنْ السَّمْع لَمَعْزُولُونَ﴾(١) وَقَدْ جَاءَتْ أَشْعَار الْعَرَب بِاسْتِغْرَابِ رَمْيهَا وَإِنْكَاره إِذْ لَمْ يَعْهَدُوهُ قَبْل الْمَبْعَث، وَكَانَ ذَلِكَ أَحَد دَلَائِل نُبُوَّته ﷺ. يُؤَيِّدهُ مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيث مِنْ إِنْكَار الشَّيَاطِين. قَالَ وَقَالَ بَعْضهمْ: لَمْ تَزَلْ الشُّهُب يُرْمَى بِهَا مُنْذُ كَانَتْ الدُّنْيَا، وَاحْتَجُّوا بِمَا جَاءَ فِي أَشْعَار الْعَرَب مِنْ ذَلِكَ قَالَ: وَهَذَا مَرْوِيّ عَنْ اِبْنِ عَبَّاس وَالزُّهْرِيّ، وَرَفَعَ فِيهِ اِبْنُ عَبَّاس حَدِيثًا عَنْ النَّبِيّ ﷺ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ لِمَنْ اِعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِع الْآن يَجِد لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾(٢) قَالَ: غُلِّظَ أَمْرهَا وَشُدِّدَ. اِنْتَهَى.

قلنا وهذا جمع حسن وهو ما نميل إليه للجمع بين الأحاديث. وَهَذَا الْحَدِيث الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ أَخْرَجَهُ مُسْلِم مِنْ طَرِيق الزُّهْرِيّ عَنْ عُبَيْد الله عَنْ اِبْنِ عَبَّاس، عَنْ رِجَال مِنْ الْأَنْصَار قَالُوا: "كُنَّا عِنْد النَّبِيّ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهَذَا إِذَا رُمِيَ بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّة؟ الْحَدِيث. وَأَخْرَجَهُ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر قَالَ: سُئِلَ الزُّهْرِيُّ عَنْ النُّجُوم أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّة؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنَّهُ إِذْ جَاءَ الْإِسْلَام غُلِّظَ وَشُدِّدَ. وَهَذَا جَمْع حَسَن. وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُونَ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ ﷺ: "إِذَا رُمِيَ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّة" أَيْ جَاهِلِيَّة الْمُخَاطَبِينَ، وَلَا يَلْزَم أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْل الْمَبْعَث فَإِنَّ الْمُخَاطَب بِذَلِكَ الْأَنْصَار، وَكَانُوا قَبْل إِسْلَامهمْ فِي جَاهِلِيَّة، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْلِمُوا إِلَّا بَعْد الْمَبْعَث ثَلَاث عَشْرَة سَنَة. وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: لَمْ يَزَلْ الْقَذْف بِالنُّجُومِ قَدِيمًا، وَهُوَ مَوْجُود فِي أَشْعَار قُدَمَاء الْجَاهِلِيَّة، كَأَوْسِ بْن حَجَرٍ وَبِشْر بْن أَبِي حَازِمٍ وَغَيْرهمَا.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ: يُجْمَع بِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ يُرْمَى بِهَا قَبْل الْمَبْعَث رَمْيًا يَقْطَع الشَّيَاطِين عَنْ اِسْتِرَاق السَّمْع، وَلَكِنْ كَانَتْ تُرْمَى تَارَة وَلَا تُرْمَى أُخْرَى، وَتُرْمَى مِنْ جَانِبٍ وَلَا تُرْمَى مِنْ جَمِيع الْجَوَانِب، وَلَعَلَّ الْإِشَارَة إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلّ جَانِبٍ دُحُورًا﴾(٣) اِنْتَهَى.

ثُمَّ وَجَدْت عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه مَا يَرْفَع الْإِشْكَال وَيَجْمَع بَيْن مُخْتَلَف الْأَخْبَار، قَالَ: كَانَ إِبْلِيس يَصْعَد إِلَى السَّمَاوَات كُلّهنَّ يَتَقَلَّب فِيهِنَّ كَيْف شَاءَ لَا يُمْنَع مُنْذُ أُخْرِجَ آدَمُ إِلَى أَنْ رُفِعَ عِيسَى، فَحُجِبَ حِينَئِذٍ مِنْ أَرْبَعِ سَمَاوَات، فَلَمَّا بُعِثَ نَبِيّنَا حُجِبَ مِنْ الثَّلَاث، فَصَارَ يَسْتَرِق السَّمْع هُوَ وَجُنُوده وَيُقْذَفُونَ بِالْكَوَاكِبِ. وَيُؤَيِّدهُ مَا رَوَى الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق الْعَوْفِيّ عَنْ، اِبْنِ عَبَّاس قَالَ: لَمْ تَكُنْ السَّمَاء تُحْرَس فِي الْفَتْرَة بَيْن عِيسَى وَمُحَمَّد، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّد حُرِسَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَرُجِمَتْ الشَّيَاطِين، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ.

وَمِنْ طَرِيق السُّدِّيّ قَالَ: إِنَّ السَّمَاء لَمْ تَكُنْ تُحْرَس إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْض نَبِيّ أَوْ دِين ظَاهِرٌ، وَكَانَتْ الشَّيَاطِين قَدْ اِتَّخَذَتْ مَقَاعِد يَسْمَعُونَ فِيهَا مَا يَحْدُث، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّد رُجِمُوا.

وَقَالَ الزَّيْن ابْن الْمُنِير: ظَاهِرُ الْخَبَر أَنَّ الشُّهُب لَمْ تَكُنْ يُرْمَى بِهَا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيث مُسْلِم. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِع الْآن يَجِد لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ فَمَعْنَاهُ أَنَّ الشُّهُب كَانَتْ تُرْمَى فَتُصِيب تَارَة وَلَا تُصِيب أُخْرَى، وَبَعْد الْبَعْثَة أَصَابَتْهُمْ إِصَابَة مُسْتَمِرَّة فَوَصَفُوهَا لِذَلِكَ بِالرَّصَدِ؛ لِأَنَّ الَّذِي

---

(١) الشعراء: الآية ٢١٢.
(٢) الجن: من الآية ٩.
(٣) الصافات: من الآية ٨.

يَرْصُد الشَّيْء لَا يُخْطِئهُ، فَيَكُونُ الْمُتَجَدِّد دَوَام الْإِصَابَة لَا أَصْلهَا. وَأَمَّا قَوْل السُّهَيْلِيّ: لَوْلَا أَنَّ الشِّهَاب قَدْ يُخْطِئ الشَّيْطَان لَمْ يَتَعَرَّض لَهُ مَرَّة أُخْرَى، فَجَوَابه أَنَّهُ يَجُوز أَنْ يَقَع التَّعَرُّض مَعَ تَحَقُّق الْإِصَابَة لِرَجَاءِ اِخْتِطَاف الْكَلِمَة وَإِلْقَائِهَا قَبْل إِصَابَة الشِّهَاب، ثُمَّ لَا يُبَالِي الْمُخْتَطِف بِالْإِصَابَةِ لِمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنْ الشَّرّ كَمَا تَقَدَّمَ.

وساق ابن حجر أثراً إسناده ضعيف جداً أضربنا عنه، ثم قال: فَإِنْ قِيلَ إِذَا كَانَ الرَّمْي بِهَا غُلِّظَ وَشُدِّدَ بِسَبَبِ نُزُول الْوَحْي، فَهَلَّا اِنْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ الْوَحْي بِمَوْتِ النَّبِيّ ﷺ وَنَحْنُ نُشَاهِدهَا الْآن يُرْمَى بِهَا؟ فَالْجَوَاب يُؤْخَذ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ الْمُتَقَدِّم، فَفِيهِ عِنْد مُسْلِم قَالُوا: كُنَّا نَقُول وُلِدَ اللَّيْلَة رَجُل عَظِيم وَمَاتَ رَجُل عَظِيم، فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: فَإِنَّهَا لَا تُرْمَى لِمَوْتِ أَحَد وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبّنَا إِذَا قَضَى أَمْرًا أَخْبَرَ أَهْل السَّمَاوَات بَعْضهمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغ الْخَبَر السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيَخْطَف الْجِنّ السَّمْع فَيَقْذِفُونَ بِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ. فَيُؤْخَذ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ سَبَب التَّغْلِيظ وَالْحِفْظ لَمْ يَنْقَطِع لِمَا يَتَجَدَّد مِنْ الْحَوَادِث الَّتِي تُلْقَى بِأَمْرِهِ إِلَى الْمَلَائِكَة، فَإِنَّ الشَّيَاطِين مَعَ شِدَّة التَّغْلِيظ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ بَعْد الْمَبْعَث لَمْ يَنْقَطِع طَمَعهمْ فِي اِسْتِرَاق السَّمْع فِي زَمَن النَّبِيّ ﷺ فَكَيْف بِمَا بَعْده، وَقَدْ قَالَ عُمَر لِغَيْلَان بْن سَلَمَة لَمَّا طَلَّقَ نِسَاءَهُ: إِنِّي أَحْسِب أَنَّ الشَّيَاطِين فِيمَا تَسْتَرِق السَّمْع سَمِعَتْ بِأَنَّك سَتَمُوتُ فَأَلْقَتْ إِلَيْك ذَلِكَ الْحَدِيث، أَخْرَجَهُ عَبْد الرَّزَّاق وَغَيْره.

ونقول: تأمل دأب الشياطين في إضلال العباد، ومحاولاتهم إفساد اعتقاد الناس باعتقاد أنّ أحداً يعلم الغيب غير الله علام الغيوب.

إنّ الخطر محدق بهذا الشيطان من كل جانب، وهو يعلم أنه قد يقتل لكنه يصعد يخطف الخطفة، وحتى حين يقذفه الشهاب يلقى الكلمة إلى من هو أسفل منه، لا يصرفه عن إغواء الناس صارف.

وهذا مما يبين قوله لرب العالمين: ﴿لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[(٢)] وكذلك أتباع الشيطان وأولياؤه عندهم جلد عجيب، ويتحملون إذلال الشيطان لهم وإهانته لهم، وأمره لهم ونهيه، ثم هم يعرضون أنفسهم لخطر القبض عليهم، ومعلوم أنهم لو قبض عليهم في بلاد التوحيد المباركة قضي عليهم بشرع الله، وأما إذا قبض عليهم في غيرها فيعاقبون لأكلهم أموال الناس وغشهم، ومع ذلك هو عامل ناصب.

ويالله العجب، هذا التعب والنصب والذي لا يحصل العبد بعده إلا ما كتبه الله له، مع سخط الله والخزي في الدنيا والآخرة، ويدع المرء طريق الله المستقي، الذي لا يحتاج فيه إلى السير في تلك المهالك، والجنة يسيرة والحمد لله، لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

---

(١) ص: من الآية ٨٢.
(٢) الأعراف: الآية ١٧.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت إن صليت المكتوبات الحديث، فالساحر والكاهن والمنجم يستمتع كل واحد منهم بعرض من الدنيا، بعدها نار تلظى.

قال الحافظ: فَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اِسْتِرَاقهمْ السَّمْع اِسْتَمَرَّ بَعْد النَّبِيّ ﷺ فَكَانُوا يَقْصِدُونَ اِسْتِمَاع الشَّيْء مِمَّا يَحْدُث فَلَا يَصِلُونَ إِلَى ذَلِكَ، إِلَّا إِنْ اِخْتَطَفَ أَحَدُهُمْ بِخِفَّةِ حَرَكَته خَطْفَة فَيَتْبَعهُ الشِّهَاب، فَإِنْ أَصَابَهُ قَبْل أَنْ يُلْقِيهَا لِأَصْحَابِهِ فَاتَتْ وَإِلَّا سَمِعُوهَا وَتَدَاوَلُوهَا.

قَوْله: (قَالَ مَا حَال بَيْنكُمْ وَبَيْن خَبَر السَّمَاء إِلَّا مَا حَدَثَ) الَّذِي قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ هُوَ إِبْلِيس.

قَوْله: (فَاضْرِبُوا مَشَارِق الْأَرْض وَمَغَارِبهَا) أَيْ سِيرُوا فِيهَا كُلّهَا، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[1] وَفِي رِوَايَة نَافِع بْن جُبَيْر عَنْ اِبْن عَبَّاس عِنْد أَحْمَد: "فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيس، فَبَثَّ جُنُوده، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي بِرَحْبَةٍ فِي نَخْلَة"

قَوْله : (فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا) قِيلَ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ مِنْ الْجِنّ عَلَى دِين الْيَهُود، وَلِهَذَا قَالُوا ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾[2] وَأَخْرَجَ اِبْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيق عُمَر بْن قَيْس عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ اِبْن عَبَّاس، أَنَّهُمْ كَانُوا تِسْعَة، وَمِنْ طَرِيق النَّضْر بْن عَرَبِيّ عَنْ عِكْرِمَة عَنْ اِبْن عَبَّاس، كَانُوا سَبْعَة مِنْ أَهْل نَصِيبِين، وَعِنْد اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق مُجَاهِد نَحْوه، لَكِنْ قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَة مِنْ نَصِيبِين وَثَلَاثَة مِنْ حَرَّان، وَهُمْ: حسا ونسا وشاصر وماضر والأدرس ووردان وَالأحقب.

وَنَقَلَ السُّهَيْلِيُّ فِي (التَّعْرِيف) أَنَّ اِبْن دُرَيْد ذَكَرَ مِنْهُمْ خَمْسَة: شاصر وماضر ومنشي وناشي وَالْأَحْقَب. قَالَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْن سَلَّام وَغَيْره قِصَّة عَمْرو بْن جَابِر، وَقِصَّة سرق، وَقِصَّة زوبعة، قَالَ: فَإِنْ كَانُوا سَبْعَة فالأحقب لَقَب أَحَدهمْ لَا اِسْمه. وَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ اِبْن عَسْكَر مَا تَقَدَّمَ عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: فَإِذَا ضُمَّ إِلَيْهِمْ عَمْرو وزوبعة وَسرق وَكَانَ الأحقب لَقَبًا كَانُوا تِسْعَة.

نقول: واسم الأحقب وبعض هذه الأسماء مما يذكر في كتب الكهانة والسحر.

فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ لِابْنِ مَسْعُود: أُنْظُرْنِي حَتَّى آتِيك، وَخَطَّ عَلَيْهِ خَطًّا. الْحَدِيث. (ونقول: هذا حديث ضعيف)

وفي الصحيح أنّ النبي ﷺ أراهم في الصباح آثار نيران الجن.[3]

وَالْجَمْع بَيْن الرِّوَايَتَيْنِ تَعَدُّد الْقِصَّة، فَإِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا أَوَّلًا كَانَ سَبَب مَجِيئِهِمْ مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيث مِنْ إِرْسَال الشُّهُب، وَسَبَب مَجِيء الَّذِينَ فِي قِصَّة اِبْن مَسْعُود أَنَّهُمْ جَاءُوا لِقَصْدِ الْإِسْلَام وَسَمَاع الْقُرْآن وَالسُّؤَال عَنْ أَحْكَام الدِّين، وَقَدْ بَيَّنْت ذَلِكَ فِي أَوَائِل الْمَبْعَث فِي الْكَلَام عَلَى حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة، وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّة عَلَى تَعَدُّد الْقِصَّة، فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَة إِنَّمَا أَسْلَمَ بَعْد الْهِجْرَة، وَالْقِصَّة الْأُولَى كَانَتْ عَقِب

(١) المزمل: من الآية ٢٠.
(٢) الأحقاف: من الآية ٣٠.
(٣) الحديث في صحيح مسلم برقم ٦٨٢.

الْمَبْعَث، وَلَعَلَّ مَنْ ذُكِرَ فِي الْقِصَص الْمُفَرَّقَة كَانُوا مِمَّنْ وَفَدَ بَعْد، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلّ قِصَّة مِنْهَا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ وَفَدَ، وَقَدْ ثَبَتَ تَعَدُّد وُفُودهمْ. وَتَقَدَّمَ فِي بَدْء الْخَلْق كَثِير مِمَّا يَتَعَلَّق بِأَحْكَامِ الْجِنّ وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَان.

قَوْله: (إِلَى رَسُول اللَّه ﷺ) فِي رِوَايَة أَبِي إِسْحَاق: (فَانْطَلَقُوا فَإِذَا رَسُول اللَّه ﷺ)

قَوْله: (وَهُوَ عَامِد بِنَخْلَة) بِفَتْحِ النُّون وَسُكُون الْمُعْجَمَة مَوْضِع بَيْن مَكَّة وَالطَّائِف، قَالَ الْبَكْرِيّ: عَلَى لَيْلَة مِنْ مَكَّة. وَهِيَ الَّتِي يُنْسَب إِلَيْهَا بَطْن نَخْل.

قَوْله: (يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاة الْفَجْر) قَوْله: (تَسَمَّعُوا لَهُ) أَيْ قَصَدُوا لِسَمَاعِ الْقُرْآن وَأَصْغَوْا إِلَيْهِ.

قَوْله: (فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمهمْ فَقَالُوا: يَا قَوْمنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) قَوْله: وَأَنْزَلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيّه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اِسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنّ﴾ زَادَ التِّرْمِذِيّ. قَالَ اِبْن عَبَّاس: وَقَوْل الْجِنّ لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[1] قَالَ: لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي وَأَصْحَابه يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ يَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: فَتَعَجَّبُوا مِنْ طَوَاعِيَة أَصْحَابه لَهُ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ذَلِكَ.

قال الحافظ ابن حجر: وَفِي الْحَدِيث:

١- إِثْبَات وُجُود الشَّيَاطِين وَالْجِنّ وَأَنَّهُمَا لِمُسَمًّى وَاحِد، وَإِنَّمَا صَارَا صِنْفَيْنِ بِاعْتِبَارِ الْكُفْر وَالْإِيمَان، فَلَا يُقَال لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ إِنَّهُ شَيْطَان.

٢- وَفِيهِ أَنَّ الصَّلَاة فِي الْجَمَاعَة شُرِعَتْ قَبْل الْهِجْرَة.

٣- وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّتهَا فِي السَّفَر.

٤- وَالْجَهْر بِالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاة الصُّبْح.

٥- وَأَنَّ الِاعْتِبَار بِمَا قَضَى اللَّه لِلْعَبْدِ مِنْ حُسْن الْخَاتِمَة لَا بِمَا ظَهَرَ مِنْهُ مِنْ الشَّرّ وَلَوْ بَلَغَ مَا بَلَغَ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَادَرُوا إِلَى الْإِيمَان بِمُجَرَّدِ اِسْتِمَاع الْقُرْآن لَوْ لَمْ يَكُونُوا عِنْد إِبْلِيس فِي أَعْلَى مَقَامَات الشَّرّ مَا اِخْتَارَهُمْ لِلتَّوَجُّهِ إِلَى الْجِهَة الَّتِي ظَهَرَ لَهُ أَنَّ الْحَدَث الْحَادِث مِنْ جِهَتهَا. وَمَعَ ذَلِكَ فَغَلَبَ عَلَيْهِمْ مَا قَضَى لَهُمْ مِنْ السَّعَادَة بِحُسْنِ الْخَاتِمَة، وَنَحْو ذَلِكَ قِصَّة سَحَرَة فِرْعَوْن، وَسَيَأْتِي مَزِيد لِذَلِكَ فِي كِتَاب الْقَدَر إِنْ شَاءَ اللَّه تَعَالَى.

١٧- امتحان النبي ﷺ للكهّان:

لقد احتسب النبي ﷺ على الكهّان، وناظرهم، واختبرهم، واستطلع أحوالهم، وكشف حقيقتهم، وضعفهم، وذلك في ذهابه ﷺ لابن صياد.

---

(١) الجن: من الآية ١٩.

عن عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أَنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ: تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الْأُمِّيِّينَ، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَرَفَضَهُ وَقَالَ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا تَرَى؟ قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: خُلِّطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ، فَقَالَ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ، فَقَالَ عُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ. وَقَالَ سَالِمٌ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– يَقُولُ: انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ، وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ يَعْنِي فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا رَمْزَةٌ أَوْ زَمْرَةٌ، فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيّادٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ، فَقَالَتْ لِابْنِ صَيَّادٍ: يَا صَافِ (وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ) هَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ. وَقَالَ شُعَيْبٌ فِي حَدِيثِهِ: فَرَفَصَهُ رَمْرَمَةٌ أَوْ زَمْزَمَةٌ. وَقَالَ إِسْحَاقُ الْكَلْبِيُّ، وَعُقَيْلٌ: رَمْرَمَةٌ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: رَمْزَةٌ.(١)

قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ خَسَأْتُ الْكَلْبَ بَعَّدْتُهُ (خَاسِئِينَ) مُبْعَدِينَ، وقد أورده البخاري الحديث مختصرا في بَاب (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) كِتَاب الْقَدَرِ.(٢)

لقد بيّن النبي ﷺ ضعف هؤلاء وخيبتهم، وبعدهم من الخير والحق، وتأمل كيف أنّ ابن صياد لم يستطع أن يتبين ما خبّأه رسول الله له، وهي كلمة دخان فلم يقدر أن يقوم بشيء أمام سيد المحتسبين ﷺ بل إنه من ضعفه وأنه هو والعدم سواء لم يستطع أن يتبين الكلمة، مع أنّ الشيطان أوحى لها نصفها، فقال: دخ، وعجز أن يتبين حتى بعقله الحرفين الآخرين، ولكن الله أخزاه، وكذلك الشأن مع كل موحد، ومع كل محتسب على هؤلاء الكذبة على الله، المعتدين على العقيدة، الذين يعتدون على عقيدة تفرده سبحانه بعلم الغيب.

ولله درّ البخاري فقد أخرج الحديث في باب قوله: أنّ الله يحول بين المرء وقلبه، فقد حال بين هذا الكاهن الكذاب وبين علم هذه الكلمة التي من أربعة أحرف، فكيف يدّعي علمه بما فوق ذلك.

إنّ الشياطين لا يعلمون الغيب، ويعرفون بعض الأمور دون بعض فابن صياد عرف جزء مما خبأه النبي ﷺ؛ ولذلك فإننا حين كنا نرسل متعاوناً للإيقاع بالسحرة والكهان، نجعله يذكر بعض الحق فإنه لو طلب اسم الأم مثلاً وكان اسمها صباح وقلنا سعاد، فإنه يعرف أنه كذب، أما إذا ذكرنا بعض الاسم

---

(١) رواه البخاري، حديث ١٢٦٧.
(٢) البخاري، حديث رقم ٦١٢٨

وغيرنا بعضه فقلنا صبحية مثلاً، فإنه لا يعرف، فهم لا يعلمون الغيب، ولا يعطون المعلومات كاملة؛ وذلك لأنّ الله هو علام الغيوب، المحيط بأوله وآخره.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– أيضا أَنَّهُ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ، فَحُدِّثَ بِهِ فِي نَخْلٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّخْلَ طَفِقَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ، وَابْنُ صَيَّادٍ فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا رَمْرَمَةٌ، فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا صَافِ، هَذَا مُحَمَّدٌ. فَوَثَبَ ابْنُ صَيَّادٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ.(١)

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: لَقِيَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ هُوَ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ. مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تَرَى عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ. وَمَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى صَادِقَيْنِ وَكَاذِبًا أَوْ كَاذِبَيْنِ وَصَادِقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لُبِسَ عَلَيْهِ، دَعُوهُ.(٢)

فقد اختبره هنا النبي ﷺ وبيّن تلبيس الشيطان عليه، وعجز الشيطان أن يمدّه بالإجابة الصحيحة.

وقد بيّن النبيّ ﷺ أنّ الكاهن قد يصدق حين اختبر ابن صياد عملياً، فعن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِابْنِ صَائِدٍ: {مَا تُرْبَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. قَالَ: صَدَقْتَ}(٣)

وفي شرح ابن بطال(٤) قال المهلب: وفى حديث ابن صياد من الفقه جواز التجسس على من يخشى منه فساد الدين والدنيا، وهذا الحديث يبيّن أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾(٥) ليس على العموم، وإنما المراد به عن التجسس على من لم يخش منه القدح في الدين، ولم يضمر الغل للمسلمين، واستتر بقبائحه، فهذا الذي حاله التوبة والإنابة، وأما من خُشى منه مثل ما خُشى من ابن صياد، أو من كعب بن الأشرف وأشباههما ممن كان يضمر الفتك بأهل الإسلام، فجائز التجسس عليه، وإعمال الحيلة في أمره إذا خُشى منه.

وقد ترجم لحديث ابن صياد في كتاب الجهاد باب (ما يجوز من الاحتيال والحذر على من تخشى معرته) وفيه من الفقه: أنّ للإمام أو الرئيس أن يعمل نفسه في أمور الدين ومصالح المسلمين، وإن كان له من يقوم في ذلك مقامه. وفيه: أنّ للإمام أن يهتم بصغار الأمور، ويبحث عنها خشية ما يئول منها من الفساد.

---

(١) رواه البخاري حديث ١٢٦٧.
(٢) رواه مسلم، حديث رقم ٥٢٠٨.
(٣) رواه مسلم، حديث رقم.٥٢١٢.
(٤) ج ٥/ ص ٣٨٠.
(٥) الحجرات: من الآية ١٢.

قال عبد الواحد: قوله: «إن يكن هو فلن تسلط عليه» يعنى إن يكن الدجال فلن تسلط عليه، لأنه لابد أن ينفذ فيه قدر الله. وفيه: أنه يجب التثبت في أصل التهم، وألا تستباح الدماء إلا بيقين، لقوله: «فإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله» وقيل: إنّ للإمام أن يصبر ويعفو إذا جُنى عليه، أو قوبل بما لا ينبغي، لقول ابن صياد للنبي: «أشهد أنك رسول الأميين» ولم يعاقبه.

وفيه: أنّ للإمام والرئيس أن يكلم الكاهن، والمنجّم على سبيل الاختبار لما عندهم، والعيب لما يَدَّعُونهُ، والإبطال لما ينتحلونه.

وقال صاحب (العين): الدخ، الدخان، وقوله ﷺ لابن صياد: «اخسأ فلن تعدو قدرك» أي لن تعدو الكهانة، وإنما أنت كاهن ودجّال، وقال صاحب (العين): الزمزمة، أصوات العلوج عند الأكل، والزمزمة من الرعد ما لم يفصح.

ونقول: إنّ من فقه الإمام البخاري ذكره حديث ابن صياد في كتاب الجهاد، وهذا أمر ينبغي أن يكون من كل محتسب على هؤلاء على ذكر، أن يعلم أنّ احتسابه على هؤلاء المتعاملين مع الشياطين هو جهاد، بل هو جهاد لشر الخلق والخليقة (الشيطان الرجيم) الذي يريد أن يخرج الناس من الملة الحنفية إلى الشرك بالله، وكذلك أعوانه المشركين بالله، الذين يريدون أن يكثروا جند إبليس إلى النار، ولا يخفى أنّ الله إنما شرّع الجهاد ليكون الدين كله لله، ليعبد الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٢]

إنّ فساد الكهّان والسحرة والمنجمين عريض، وهم مفسدون للبيوت كاشفين أسرار العباد. وفي ذهاب النبي ﷺ بنفسه لاستطلاع خبر ابن صياد بيان لعظيم خطر الكهّان وكذلك في اختبار النبي له بالدخ، وهو صبي ناهز الحلم -بيان لخطر هؤلاء الصغير منهم والكبير.

ولذلك فإن الحكم الشرعي في سؤال الكهان معلوم:

فمن سأل الكاهن وهو مصدق له، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر كوسائل التواصل والتلفاز أو الهاتف، أو بإرسال شخص يسأل الكاهن، فهذا كفر بالله تعالى.

الثاني: ألا يكون مصدقاً له ولكنه يتابع من باب حب الاستطلاع كما يقال ولإضاعة وقته وغير ذلك، فهذا لا تقبل له صلاة أربعين يوماً.

---

(١) الأنفال: الآية ٣٩.
(٢) النساء: الآية ٧٦.

ونقول: وفي هذا حفظ لعقائد المسلمين إذ أنّ الشبه خطافه، وللشيطان مداخل إلى قلب العبد، ولقد كان السلف يتحاشون الحديث مع المبتدعة ويحذرون منهم، فكيف بهذا الكفر البواح. وكم من إنسان وقف مع هذه القنوات وغيرها من قنوات الضلال فانجرف إلى هذه الضلالات.

الثالث: من يسأل هؤلاء لمعرفة أحوالهم وذلك يكون للسلطان وولاة الأمور، ومن يقيمهم السلطان للحسبة على هؤلاء. وكذلك العلماء الذين يردون على هؤلاء ويفندون باطلهم، ويبيّنون للأمة حالهم وسوء فعالهم، ولم تأمر الشريعة بهذا الاطلاع إلا حماية لجناب التوحيد، فهذه من ضروريات حماية الدين والتوحيد، وإلا فما يكون لمسلم أن يؤذي سمعه وقلبه بهذه الضلالات وهذا الكفر.

فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رِجَالٍ مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ: {مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ. فَقَالَ: إنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إذَا قَضَى بِالْأَمْرِ سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ...} وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي مُسْتَرِقِ السَّمْعِ. فَنَفَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكُونَ الرَّمْيُ بِهَا لِأَجْلِ أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ، بَلْ لِأَجْلِ الشَّيَاطِينِ الْمُسْتَرِقِينَ السَّمْعَ.[1]

ما جاء عن الصحابة في الكهانة في قوله: مات عظيم، ولد عظيم، فيه:

- استفهام النبي ﷺ عن أمر له علاقة بالكهانة وهو النجوم.
- بيّن لهم النبي ﷺ السبب الصحيح لرمي الكواكب.
- بيّن لهم النبي ﷺ ربط الكهان بين النجوم والكهانة .

وبيّن النبي ﷺ أنه لا علاقة بين الكواكب وبين سعود الناس ولا نحوسهم، ولا إخبارها بأبناء الناس، فهي ليست علامة على ميلاد أحد أو وفاته، وذلك أمر لا يعلم من حركات النجوم هذه.

الثالث: التحذير من سب السلف الذين نقلوا لنا دين الله سبحانه وتعالى، وجوب توقيرهم.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٩/ ص ٢٢٤)

المبحث الثالث

الكهانة في كتب الاعتقاد

لقد جاء رسولنا ﷺ والناس في جاهلية جهلاء وفي ظلمات الكفر والضلال، قد انحرفت عقائدهم وفسدت أخلاقهم، وجارت معاملاتهم، فقام يصلح ذلك كله بما آتاه الله من الوحي كتابا وسنة، فصلحت الأخلاق، وعدلت المعاملات، وصفت العقيدة، واستقامت القلوب، وإن مما أكرم الله به أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح، إنهم يأخذون عقائدهم من كتاب الله وسنة رسوله بفهم أصحاب المصطفى ﷺ ومن تبعهم بإحسان، قال شيخ الإسلام: "إنّ ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي يدل عليه المعقول، وإنّ أولى الناس بالحق أتبعهم له وأعظمهم له موافقة، وهم سلف الأمة وأئمتها الذين أثبتوا الكمال لله تعالى بما دل عليه الكتاب والسنة من الصفات، ونزّهوه عن مماثلة الحوادث"[(١)]

هذا هو منهج أتباع السلف في باب الاعتقاد، ولقد قيّض الله لهذه الأمة المرحومة المكرمة المعصومة علماء جمعوا ما يتعلق بأمر الاعتقاد ما بين مستوعب ومقتصر مختصر، ناهلين من معين الكتاب والسنة وهدي السلف الصالحين، معرضين عن الفلسفات المستوردة الباطلة، والمنطق الأرسطي المنحرف المضل وعلم الكلام العقيم السقيم، فعصم الله أهل السنة بهذا المنهج القويم من كل ضلالة، وسيأتي – إن شاء الله– بيان انحراف هذه الفرق الكلامية عن المنقول والمعقول في أمر الكهانة، وتنكبها صراط الله المستقيم اللاحب، وذلك حين تركوا الكتاب والسنة، وحكموا عقولهم التي أعمتها الشبهات التي استمدتها من الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين، وفي كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة –أتباع السلف أهل الحديث– حديث وافٍ وشافٍ عن الكهانة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، هذا الكلام منضبط بضوابط الكتاب والسنة، وسنعرض –إن شاء الله– شيئاً مما جاء في كتب الاعتقاد مما يتعلق بأمر الكهانة.

قال الإمام المجدد في كتاب التوحيد: باب ما جاء في الكهان ونحوهم:

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: {من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً} وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: {من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمّد ﷺ} رواه أبو داود. وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة ﷺ: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمّد ﷺ» ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

---

(١) راجع تقديم حمدي إمام للرسالة الأكملية.

وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد. ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: "ومن أتى" إلى آخره.[١]

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير. وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تكهن له.

الرابعة: ذكر من تطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.[٢]

القول السديد شرح كتاب التوحيد[٣] قال الشيخ السعدي في الكلام عما يتعلق بهذا الباب: ما جاء في الكهّان ونحوهم، أي من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق.

وذلك أنّ الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرهما أو صدّق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك، والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله. وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

(١) الحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٠٤١.
(٢) كتاب التوحيد ص٨٨.
(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد: (ج ١/ ص ١٠٣)

وفي التمهيد لشرح كتاب التوحيد[1] قال الشيخ صالح آل الشيخ: قوله في الحديث الأول: قال النبي ﷺ: {إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت}[2] العيافة: مأخوذة من عياف الشيء، وهو تركه، عاف الشيء يعافه إذا تركه، فلم تبغه نفسه، وهي كما فسرها عوف: زجر الطير-وهذا أحد تفسيرات العيافة- وزجر الطير: أن يحرك طيرا حتى ينظر إلى أين تتحرك، ثم يفهم من ذلك الزجر أنّ هذا الأمر الذي سيقدم عليه أمر محمود أو أمر مذموم، أو يطلع بحقيقة زجر الطير على مستقبل الحال، فهذا نوع من الجبت وهو السحر؛ لأن من معاني (الجبت) -كما تقدم- الشيء المرذول المطرح الذي يصرف الواحد عن الحق. والسحر: شيء خفي يؤثر في النفوس، والعيافة من التأثر بالطير وبزجرها وبانتقالها من هنا إلى هنا أو بحركتها شيء خفي دخل في النفس فأثر فيها من جهة الإقدام أو الكفّ، فكانت نوعاً من السحر لأجل ذلك، وهي أيضاً جبت؛ لأنها شيء مرذول أدى إلى الإقبال أو الامتناع. والطيرة أعم من العيافة؛ لأن العيافة -على تفسير عوف وهو أحد تفسيراتها- متعلقة بالطير وحده، وأما الطيرة فهي: اسم عام لما فيه تشاؤم أو تفاؤل بشيء من الأشياء، وسيأتي باب مستقل لذكر أحكام الطيرة، وصورها، وما يقي منها، إن شاء الله تعالى.

وأمّا الطرق: فهو مأخوذ من وضع طرق في الأرض وهي الخطوط، فيأتي بخطوط متنوعة يخطها في الأرض ليس لها عدد، ثم يبدأ الكاهن الذي يستخدم الخطوط فيمسح خطاً خطاً، أو يمسح خطين خطين بسرعة، ثم ينظر ما بقي، فيقول: هذا الذي بقي يدل على كذا وكذا، وأنك ستغتني، أو يدل على أنه سيصيبك كذا وكذا، ونحو ذلك، وهو نوع من أنوع الكهانة، والكهانة ضرب من السحر.

قال هنا: "والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان" وهو من أنواع السحر؛ لأن الشيطان يدعو إلى ذلك بصوته وبعويله.[3]

العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، والطرق: الخط يخط بالأرض، ويسمونه خط الرمل وعلمه، ويزعم من يفعله أنهم يطلعون على المغيبات، ومثله قراءة الفنجان والكفّ.

قوله: وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: {من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد} رواه أبو داود بإسناد صحيح. في هذا الحديث بيان أنّ تعلم النجوم تعلم للسحر، ويأتي في باب خاص "باب ما جاء في التنجيم" أنواع تعلم النجوم وما جعل الله -جل وعلا- النجوم له.

وفيه "باب ما جاء في الكهان ونحوهم" هذا الباب أتى بعد أبواب السحر لأنّ حقيقة عمل الكاهن أنه يستخدم الجن لإخباره بالأمور المغيبة في الماضي، أو الأمور المغيبة في المستقبل التي لا يعلمها إلا الله -

---

(١) ج ١/ ص ٤٣٣.
(٢) سنن ابي داود حديث ٣٤٠٨، وحسن النووي إسناده في الرياض، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب.
(٣) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، (ج ١/ ص ٤٣٦)

جل جلاله– فالكاهن يجتمع مع الساحر في أنّ كلاًّ منهما يستخدم الجن لغرضه ويستمتع بالجن لغرضه. ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أنّ الكهانة استخدام للجن، واستخدام الجن كفر وشرك أكبر بالله –جل وعلا– لأنّ استخدام الجن في مثل هذه الأشياء لا يكون إلا بأن يتقرب إلى الجن بشيء من العبادات، فالكهّان لا بد لكي يُخدَموا بذكر الأمور المغيبة لهم أن يتقربوا إلى الجني ببعض العبادات: إما بالذبح، أو الاستغاثة، أو بالكفر بالله –جلّ وعلا– بإهانة المصحف، أو بسب الله، أو نحو ذلك من الأعمال الشركية الكفرية.

فالكهانة صنعة مضادة لأصل التوحيد، والكاهن مشرك بالله –جل وعلا– لأنه يستخدم الجن ولا يمكن أن تخبره الجن بالمغيبات إلا إذا تقرّب إليها بأنواع العبادات.

وكانت الكهانة منتشرة في بلاد العرب في الجزيرة وفي غيرها، والكهّان أناس يدعى فيهم الولاية والصلاح، وأنّ عندهم علم ما مضى، أو عندهم علم المغيبات التي ستحدث للناس، أو تحدث في الأرض؛ ولهذا كانت العرب تعظم الكهان وتخاف منهم، وكانت العرب تعطي الكاهن أجراً عظيماً لأجل ما يخبر عنه.(1)

ونقول: عجبا لهؤلاء العرب الأشاوس الذين كانوا يصطادون الذئاب والأسود، ويسيرون في الصحراء الموحشة المقفرة ما يخافون من شيء ولا يهابونه، وأكثر أشعارهم في الشجاعة، كانوا يخافون الكهّان ويعطونهم مالاً جزيلاً على ما يخبرونهم به، فانظر يا رعاك الله، عندما كانت العقائد فاسدة كيف رُعب الأشاوس من هؤلاء، وقد يكون هؤلاء الكهّان ضعاف الجسم جبناء يخاف أحدهم الفأر، وكيف قوى قلب الموحد بقول النبي ﷺ عن الكهّان {إنهم ليسوا بشيء} فلا يخاف كاهناً ولا ساحراً، وكيف يخاف هؤلاء وهو لا يخاف من وليهم إبليس وجنوده؟(2)

والكاهن –كما ذكرنا– لا يصل إلى حقيقة عمله بأن يخبر عن الأمور المغيبة إلا باستخدام الجن، والتقرّب إليهم التقربات الشركية، فتستمتع الجن به من جهة ما صرف لها من العبادة، ويستمتع هو بالجني من جهة ما يخبره به من الأمور المغيبة.

والجن تصل إلى الأمور المغيبة التي تصدق فيها عن طريق استراق السمع، فإن بعضهم يركب بعضا حتى يسمعوا الوحي الذي يوحيه الله –جلّ وعلا– في السماء، فربما أدرك الشهابُ الجنيَّ قبل أن يلقي الكلمة لمن تحته، وربما أدركه بعد أن يلقي الكلمة، فتأتي هذه الكلمة للجن فيعطونها الكهان، فيكذب معها الكاهن، أو تكذب معها الجن مائة كذبة، حتى يعظم شأن الكهّان، وحتى تعظم عبادة الإنس للجن.

---

(1) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ج ١/ ص ٤٤٥)
(2) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ج ١/ ص٤٤٧)

وقبل بعثة النبي ﷺ كان استراق السمع كثيراً جداً، وبعد بعثته ﷺ حرست السماء من أن تسترق الجن السمع؛ لأجل تنزل القرآن والوحي، حتى لا يقع الاشتباه في أصل الوحي والنبوة، وبعد وفاة النبي ﷺ رجع الاستراق ولكنه قليل بالنسبة لما كان عليه قبل البعثة، فصارت عندنا أحوال استراق السمع ثلاثة:

١. قبل البعثة: كثير جدا.
٢. وبعد بعثة النبي ﷺ: لم يحصل استراق من الجن، وإن حصل فهو نادر في غير وحي الله -جلّ وعلا- بكتابه لنبيه ﷺ.
٣. بعد وفاته ﷺ: رجع استراق السمع أيضاً، ولكنه ليس بالكثرة التي كانت قبل ذلك؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، والله-جل وعلا- بيّن ذلك في القرآن في آيات كثيرة من أنّ النجوم والشهب ترمي الجن كما قال جل وعلا: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾(١) ونحو ذلك من الآيات التي فيها أنّ الشهب مرصدة للجن.

إذا ظهر ذلك فالكاهن قد يطلق عليه العراف، والكاهن والعراف اسمان متداخلان، فقد يطلق أحدهما على الآخر، وعند بعض الناس يطلق الكاهن على من يخبر بما يحصل في المستقبل، ويطلق العراف على من يخبر عن الغائب عن الأعين مما حصل في الماضي من مثل مكان المسروق، أو السارق من هو؟ ونحو ذلك مما هو غائب عن الأنظار وإنما يعلمه العراف بواسطة الجن.

والصحيح في ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية: أنّ العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلمون في معرفة الأمور بتلك الطرق. فكل من تكلم في معرفة الأمور المغيبة الماضية أو المستقبلة بتلك الطرق طريق التنجيم، أو الخط في الرمل، بطريق الطرق، أو بالودع، ونحو ذلك من الأساليب، أو بالخشبة المكتوب عليها أبا جاد، ونحو ذلك من قراءة الفنجان، أو قراءة الكف، كل من يخبر عن الأمور المغيبة بشيء يجعله وسيلة لمعرفة الأمور المغيبة يسمى كاهنا، ويسمى عرافا، لأنه لا يحصل له أمره إلا بنوع من أنواع الكهانة، وسيأتي ذلك إن شاء الله.

قوله: "باب ما جاء في الكهان ونحوهم" و(نحوهم) يعني من العرافين والمنجمين، والذين يخطون في الرمل، والذين يكتبون على الخشب، ونحو ذلك.

قوله: "روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: {من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً} هكذا ذكر المؤلف -رحمه الله- حديث الباب بهذا اللفظ وعزاه لمسلم، وقد نبه الشراح على أن لفظه في مسلم: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما» بدون لفظة (فصدقه) أما لفظة (فصدقه) فقد رواها الإمام أحمد في مسنده. وعلى

(١) الحجر: الآية ١١٨.

هذا فالمؤلف -رحمه الله تعالى- ذكر هذا اللفظ، وعزاه لمسلم على طريقة أهل العلم في عزو الحديث لأحد صاحبي الصحيح إذا كان أصله فيهما لاتحاد الطريق أو نحو ذلك.(١)

في مسيرة بحثنا وتبحرنا وجرد كلام شيخ الإسلام وبعض من كتب في السحر والكهانة من المتأخرين لم نر رجلا حقق في هذا الأمر شابه كلام شيخ الإسلام وعلق ودقق على هذه المسائل الدقيقة الغيبية كمعالي الشيخ صالح وكأن الذي يقرأ يوقن بأن الشيخ شارك في الاحتساب.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد» يعني القرآن؛ لأنه قد جاء في القرآن وما بينه النبي ﷺ من السنة أنّ الكاهن والساحر والعراف لا يفلحون، وأنهم يكذبون ولا يصدقون.

قوله: وعن عمران بن حصين مرفوعا: «ليس منا من تطير أو تطير له» يأتي في باب ما جاء في التطير.

قوله: "ليس منا" يدل على أن الفعل محرم، ويقول بعض أهل العلم. إن قوله ﷺ "ليس منا" يدل على أنه من الكبائر، قوله: "أو تكهن" يعني ادعى علم الغيب وادعى أنه كاهن، أو أخبر بأمور من المغيبة يخدع من رآه بأنه كاهن. قوله: "أو تكهن له" يعني: من رضي أن يتكهن له فأتى فسأل عن شيء.

قوله: "أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم" وهذا كله لأجل أنّ تصديق الكاهن فيه إعانة له على الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- هذا حكم الذي يأتي الكاهن.

أما الكاهن فذكرنا حكمه، وهو أنه مشرك بالله الشرك الأكبر؛ لأنه لا يمكن له أن يخبر بالأمور المغيبة إلا بأن يشرك.

قوله: قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك.

هذا الذي ذكرنا من أنّ العراف عند بعض أهل العلم من يخبر بأمور سبقت، لكنها خفية غيبية عن الناس، لكنها من حيث الوجود وقعت في ملكوت الله.

المنجم: هو الذي يستخدم علم التنجيم والتأثير. يقول: إذا ظهر نجم كذا والتقى بنجم كذا فمعناه أنه سيحدث كذا وكذا، أو إذا ولد لفلان ولد في برج كذا فإنه سيحصل كذا وكذا له من الغنى والفقر،

---

(١) ونقول لكل موحد متبع: هذه صفة علماء السنة يستدرك الشيخ صالح حفظه الله على جده، ولا يمشي له الأمر في نقل لفظة، فرحم الله أئمة الدعوة علماء أهل السنة الناطقين بالحق، الذين اتخذوا القرآن إمامهم والسنة قائدهم، ومتى صح الحديث لم يحيدوا عنه. فلم تأخذ الشيخ صالح العاطفة والحمية ليمشي لجده ما يقول بل يستدرك ويبين رحمة الله ما فاته، أين هذا ممن يرى ضلالات ابن عربي وانحرافاته ثم يرد بأنكم غلاظ القلوب لا تفهمون ما يقول وأن لكلامه مرامي لا يعرفها إلا الخاصة، حتى حين قال بإيمان فرعون، ودافعوا عنه حين قال إن أهل النار يأتي عليهم زمان يتلذذون بالعذاب، وكذلك يثنون على البوني الساحر بل له طريقة واتباع ومريدون إلى يوم الناس هذا.

.

أو السعادة أو الشقاوة ونحو ذلك، فيستدلّون بحركة النجوم على حال الأرض وحال الناس فيها وسيأتي تفصيله إن شاء الله.

"والرمال" هو صاحب الطرق، أو الذي يخط في الرمل، أو يستخدم الحصى على الرمل.

"ونحوهم" يعني من مثل الذين يقرؤون الكف، ويقرؤون الفنجان، أو في هذا العصر الذي يكتبون في الصحف والجرائد والمجلات البروج، وما يحصل في ذلك البرج، وأنت إذا ولدت في هذا البرج فمعناه أنه سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا، هذه كلها من أنواع الكهانة كما سيأتي.

"وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق"

وذلك لأن كتابة (أبا جاد) والنظر في النجوم (يعني للتأثير) نوع من أنواع الكهانة، والكهانة محرمة وكفر بالله.

واعلم أنّ أصناف الكهانة كثيرة جدا، وجامعها الذي يجمعها أنّ الكاهن يستخدم وسيلة ظاهرة عنده ليقنع السائل بأنه وصل إليه العلم عن طريق أمور ظاهرة كالنجوم، أو عن طريق الخط، أو عن طريق الطرق، أو عن طريق الفنجان، أو عن طريق الكف، أو عن طريق النظر في الحصى، أو عن طريق الخشب ونحو ذلك، هذه كلها وسائل يغر بها الكاهن من يأتيه، وهي في الحقيقة وسائل لا تحصل ذاك العلم، ولكن العلم جاءه عن طريق الجن وهذه الوسيلة إنما هي وسيلة لخداع الناس، ولكي يظن الظان أنها تؤدي إلى العلم وأن هؤلاء أصحاب علم وفن بهذه الأمو ، وفي الواقع هو لا يتحصل على العلم الغيبي عن طريق خط، أو عن طريق فنجان، أو عن طريق النظر في البروج أو نحو ذلك، وإنما يأتيه العلم عن طريق الجن، وهو يظهر هذه الأشياء حتى يحصل على المقصود؛ كي يصدق الناس أنه لا يستخدم الجن، وأنه ولي من الأولياء، وإلا فكيف يستنتج المغيبات من هذه الأمور الظاهرة؟! ويوجد في بعض البلاد كغرب أفريقيا وبعض شمالها وفي الشرق من يتعاطى هذه الأشياء، ويزعم أنه من الأولياء، ويقول: إنّ الملائكة تخبره بكذا، فهو لا يفعل الفعل إلا بإرشاد من الملائكة، فالذي يفعل هذه الأفعال من الأمور السحرية أو الكهانة يعتبر في تلك البلاد من الأولياء؛ ولهذا ترى بعض الشراح يذكر في مقدمة هذه الأبواب أنّ أولياء الله تعالى لا يتعاطون الشرك، ولا يتعاطون مثل هذه الأمور، فأولياء الله مقيدون بالشرع، وليسوا من أولياء الجن.

وعن وسائل الكهان نقول: إنّ الكاهن قد يصرح لبعض الناس فيقول عن الوسيلة التي يستخدمها إنّ الجن أمرتني أن أستخدم ذلك.

ونقول: لعل الشيطان يأمره بوسيلة معينة نظرا لتعلق الناس في المكان بها، فمثلاً هناك أماكن تعتقد في الودع وأماكن أخرى يعتقد أهلها في نوى التمر، فلو استخدم في تلك البقاع حبوب الهيل أو حبوب القهوة لا يؤثر فيهم، ولا يأخذ بقلوبهم، كما أنّ الشيطان قد يأمره بوسيلة تناسب طائفة معينة فمن رآه

عنده شيء من العلم والثقافة قد يأمر الكاهن باستخدام أوراق اللعب (الكوتشينة) أو الشامات أو أشياء في جسمه وهكذا، والله أعلم.

وحين تحدث المرأة الودعات وتتحدث إليها سراً هذا لا شك من القرابين والعبادات التي تعملها للشيطان، وعند إلقاء الودعات يخبرها جنيها بما استرق أو عرف. ويضع الكاهن الودعات إما على جلد سبع أو قطعة منقوشة من جلد، أو قطعة قماش مزركشة.

وقد قبضت على كاهنة تقرأ الكف وتؤول المنامات وقد لجأ الناس إليها، وسألتها بعد أن قبضت عليها فقالت: إني أؤول المنامات وأعرف تأويلها، فأخبرتها أنّ المصطفى ﷺ قال: الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فليس كل ما يرى في المنام من الله عز وجل.

ومما وقفت عليه في صفة الخط على الرمل أنّ الكاهن يأمر الطالب أن يضع كفه على الرمل، ثم يقوم الكاهن برسم خطوط ثم مسحها، ثم يقوم بضرب أصابعه على الرمل ولكل نقرة أصبع حرف يكتبه.

ولقد رأيت كاهناً وثنياً عنده أصنام صغيرة وكبيرة يتقرب إليها يغسلها ثم يلقى عليها شيئاً من الفواكه، ثم يقوم بغلسها ثم يجلس في مكان معين ويحضر قطعة خشب يضع عليها تراباً أو رملاً ثم يقوم بالخط عليها وأخر يكتب على الخشبة أبا جاد.

ومن أعجب ما رأيت من قرابين هؤلاء خنق طائر الهدهد، وقد تفكرت في ذلك، لماذا خنقوا الهدهد وبدا لي والله أعلم أن هذا لأمرين:

الأول: أنهم يرضون شياطينهم بمخالفة أمر النبي ﷺ في نهيه عن قتل الهدهد.

والثاني: أنّ هذا الطائر معلوم عنه ومشهور دعوته للتوحيد، لقد جاء من سبأ يعرف نبي الله سليمان نبأ هؤلاء القوم الذين يسجدون للشمس من دون الله، وكان سبباً في إسلام ملكة سبأ وتركها للشرك.

ولقد رأيت مجموعة من الهداهد قد خنقت خنقاً وعقد على كل طائر منها بعقدة. وفى المقابل يعظم المتعاملون مع الشياطين الوزغ، وكذا كل ما أمر الشارع بقتله.

إنّ دخول الناس على الكاهن والساحر والمنجم شؤم، ومجلبة سوء وفقر وضرر في الدنيا وفى الآخرة، في الدين والدنيا فدينه إما ذاهب باطل قد خرج منه، أو ضاعت عليه صلوات أربعين يوماً، وخير الأعمال وأعظمها الصلاة وبها ترتفع درجة المسلم، وبها يحفظ في نفسه وأهله وما له وولده، ثم يغدو طالب الكهانة وكذلك طالب السحر إلى الكاهن خاضعاً ذليلاً قد سلم له قلبه وعقله فمهما يأمره يفعل، ويهتك عنده ستره، ويكشف أسراره.

ثم هناك بلاء آخر يدخله على نفسه حين يعطيه الكاهن أو الساحر ورقة أو غيرها، مما كتب فيه أو قال طلسماً واستغاثة بالشيطان أو ماء أو غير ذلك، فيغدو بهذا البلاء إلى بيته، فلا تسل على ما يجرى عليه في نفسه وأهله وبيته، من شتات الشمل وسوء الحال ومن الشقاق ونزع البركة، وإذا كان

النبي ﷺ يقول: {إنّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة}[١] وإذا خلت البيوت من ملائكة الله سكنتها الشياطين، هذا في إدخال كلب أو صورة، فكيف بمن يدخل السحر والكهانة، والسحرة والكهان بيته، فينطقون بالطلاسم ويستغيثون بالشياطين في بيته، وتعظم في داره الشياطين، ويكفر فيها برب العالمين.

قال الشيخ صالح آل الشيخ[٢]: ومما يدخل في التنجيم في هذا العصر بوضوح -مع غفلة الناس عنه- ما يكثر في المجلات مما يسمونه البروج، فيخصصون صفحة أو أقل منها في الجرائد، ويجعلون عليها رسم بروج السنة برج الأسد والعقرب والثور... إلى آخره، ويجعلون أمام كل برج ما سيحصل فيه، فإذا كان الرجل أو المرأة مولودا في ذلك البرج يقول: سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا وكذا، وهذا هو التنجيم الذي هو التأثير، والاستدلال بالنجوم والبروج على التأثير في الأرض وعلى ما سيحصل في الأرض، هو نوع من الكهانة، ووجوده في المجلات والجرائد على ذلك النحو وجود للكهانة فيها، فهذا يجب إنكاره إنكاراً للشركيات ولِادعَاء معرفة الغيب وللسحر وللتنجيم؛ لأن التنجيم من السحر كما ذكرنا، ويجب إنكاره على كل صعيد، ويجب أيضا على كل مسلم أن لا يدخله بيته، وأن لا يقرأه، ولا يطلع عليه؛ لأن الاطلاع على تلك البروج وما فيها -ولو لمجرد المعرفة- يدخل في النهي من جهة أنه أتى الكاهن غير منكر عليه.

وإذا قرأ هذه الصفحة وهو يعلم برجه الذي ولد فيه، أو يعلم البرج الذي يناسبه وقرأ ما فيه، فكأنه سأل كاهناً، فلا تقبل له صلاة أربعين يوماً، فإن صدق بما في تلك البروج فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد، وهذا يدلك على غربة التوحيد بين أهله، وغربة فهم حقيقة هذا الكتاب -كتاب التوحيد- حتى عند أهل الفطرة وأهل هذه الدعوة، فإنه يجب إنكار ذلك على كل صعيد وأن لا يؤثم المرء نفسه، ولا من في بيته بإدخال شيء من الجرائد التي فيها ذلك في البيوت؛ لأن هذا معناه إدخال للكهنة إلى البيوت، وهذا -والعياذ بالله- من الكبائر، فواجب إنكار ذلك وتمزيقه والسعي فيه بكل سبيل حتى يدحر أولئك؛ لأنّ أهل التنجيم وأهل البروج هم من الكهنة، والتنجيم له معاهد معمورة في لبنان وفي غيرها، يتعلم فيها الناس حركة النجوم، وما سيحصل بحسابات معروفة وجداول معينة، ويخبرون بأنه من كان من أهل البرج الفلاني فإنه سيحصل له كذا وكذا، عن طريق تعلم وهمي يغرهم به رؤوسهم وكهانهم، فالواجب على طلبة العلم أن يسعوا في تبصير الناس بحقيقة ذلك في كلماتهم، وبعد الصلوات، وفي خطب الجمعة؛ لأن هذا مما كثر البلاء به، والإنكار فيه قليل والتنبيه عليه ضعيف، والله المستعان.

---

(١) رواه البخاري حديث ٣٠٧٥، ومسلم حديث ٣٩٢٧.

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ج ١/ ص٤٨٩)

قال الشيخ صالح الفوزان: أقوال وأفعال تنافي التوحيد أو تنقصه[1] وفيه الفصول التالية:

الفصل الأول: ادعاء علم الغيب في قراءة الكف والفنجان والتنجيم... إلخ.

الفصل الثاني: السحر والكهانة والعرافة.

ادعاء علم الغيب في قراءة الكف والفنجان وغيرهما.

المراد بالغيب: ما غاب عن الناس من الأمور المستقبلة والماضية وما لا يرونه، وقد اختص الله تعالى بعلمه، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2] فلا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وحده، وقد يطلع رسله على ما شاء من غيبه لحكمة ومصلحة، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[3] أي لا يطلع على شيء من الغيب إلا من اصطفاه لرسالته، فيظهره على ما يشاء من الغيب؛ لأنه يستدل على نبوته بالمعجزات التي منها الإخبار عن الغيب الذي يطلعه الله عليه، وهذا يعم الرسول الملكي والبشري، ولا يطلع غيرهما لدليل الحصر. فمن ادعى علم الغيب بأي وسيلة من الوسائل –غير من استثناه الله من رسله– فهو كاذب كافر سواء ادعى ذلك بواسطة قراءة الكف أو الفنجان أو الكهانة أو السحر آو التنجيم أو غير ذلك، وهذا الذي يحصل من بعض المشعوذين والدجالين من الإخبار عن مكان الأشياء المفقودة والأشياء الغائبة. ومن أسباب بعض الأمراض فيقولون: فلان عمل لك كذا وكذا فمرضت بسببه، إنما هو لاستخدام الجن والشياطين، ويظهرون للناس أنّ هذا يحصل لهم عن طريق عمل هذه الأشياء من باب الخداع والتدليس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والكهّان كأن يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثرة عن المغيبات بما يسترقه من السمع. وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، إلى أن قال: ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة: فواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع. ومنهم من يطير به الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما. انتهى.

وقد يكون إخبارهم عن ذلك عن طريق التنجيم، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكيّة على الحوادث الأرضية: كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر وتغير الأسعار وغير ذلك من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها، بسمة الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها. ويقولون: من تزوّج بنجم كذا وكذا حصل له كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا حصل له كذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا حصل له كذا من

---

(١) كتاب التوحيد: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الطبعة الرابعة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية (ص ٣٦) تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ.

(٢) النمل: من الآية ٦٥.

(٣) الجن: من الآية ٢٦,٢٧.

السعود أو النحوس. كما يعلن في بعض المجلات الساقطة عن الخزعبلات حول البروج وما يجري فيها من الحظوظ.

ونقول: الكاهن الذي يتكهن عبر الأبراج إذا سأله سائل عن أمر ما وليكن الزواج من امرأة ما -يقوم بجمع الاسمين، وإعادتها إلى أرقام ثم يجمعها ويقوم بقسمتها على أثنى عشر برجاً، وإذا كانت الأرقام لا تصلح للقسمة على الاثني عشر برجاً انتقل إلى القسمة على أربعة، وهي طبائع البشر الأربعة، الهوائية والمائية والنارية والترابية وبعد التقسيم يصدر حكمه وتكهنه.

ولا شك أنّ هؤلاء الكهّان الذين يستخدمون الأبراج يفسدون البيوت ويفرقون بين الأحبة، فحين تتصل على الكاهن، أو تذهب إليه امرأة أو يذهب إليه رجل، يقول كل منهما: أريد أن أتزوج. فيقول: ما برجك؟ فيقول: كذا. وما برجها؟ يقول: كذا. يقول له: لا يصلح زواجكما إنّ برجك ناري وبرجها ناري، ولا يصلح ناري مع ناري، وستكون حياتكما كلها مشاكل ومحن، ولكن تزوج من ذات برج مائي تطيب الحياة، وإذا كلّمه رجل وأخبره أنه قد وجد امرأة صالحة طيبة الأخلاق كريمة الأصل، يقول: ما برجها؟ يقول: كذا. يقول: لا، وقد يزين له التزوج بامرأة مدعياً أنّ البرجين صالحين معاً فتنكد عليه حياته والعكس. وقد جعل هؤلاء الكهّان أبراجهم الشيطانية بديلاً عن الاستخارة الربانية.

فهذا الذي يسأل ذلك الكاهن عن مستقبله مع تلك المرأة إن كان مصدقاً فقد ولج باب الكفر والعياذ بالله، وإلا لم تقبل له صلاة أربعين يوما.

أما المستخير ربه فلابد أن يوفق إلى كل خير، فقد لجأ المسلم إلى الصلاة وهي عون بإذن الله نعم المعين على كل إنجاح كل أمر، وقد قال لنا ربنا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾(١) ثم في الاستخارة تدعو فتقول: استخيرك.. تطلب منه تعالى الخيرة والاختيار، وتطلب التوفيق والرشاد ممن يقدر ويعلم عجزنا سبحانه، وممن يعلم ما نجهله: (تعلم ولا نعلم)

ففي الاستخارة نسبة العبد العجز إلى نفسه في جلب مصالحها، وغيره أعجز منه فلا حول ولا قوة لنا إلا بالله العلى العظيم، فهل ترى دعاء أعظم بركة من هذا، وهل ترى وسيلة أنجح لحاجتك من هذه الصلاة. فمن وفق لهذه الاستخارة وفق للخير كله وأتته البركات؛ لذا قال جابر: كان رسول ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها.

قال الشيخ الفوزان: الكهانة والعرافة: وهما ادعاء الغيب ومعرفة الأمور الغائبة كالإخبار بما سيقع في الأرض وما سيحصل، وأين مكان الشي المفقود، وذلك عن طريق استخدام الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *

(١) البقرة: من الآية ٤٥.

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾(١) وذلك أنّ الشيطان يسترق الكلمة من كلام الملائكة فيلقيها في أذن الكاهن، ويكذب الكاهن مع هذه الكلمة مائة كذبة، فيصدقه الناس بسبب تلك الكلمة التي سمعت من السماء، والله المنفرد بعلم الغيب. فمن ادعى مشاركته في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدق من يدعي ذلك، فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه. والكهانة لا تخلو من الشرك؛ لأنها تقرب إلى الشياطين بما يحبون، فهي شرك في الربوبية من حيث ادعاء مشاركة الله في علمه، وشرك في الألوهية من حيث التقرب إلى غير الله بشيء من العبادة. وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ: {من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَّد صلى الله عليه وسلم} رواه أبو داود.

ومما يجب التنبيه عليه والتنبه له أنّ السحرة والكهان والعرافين يعبثون بعقائد الناس، بحيث يظهرون بمظهر الأطباء، فيأمرون المرضى بالذبح لغير الله بأن يذبحوا خروفاً صفته كذا وكذا أو دجاجة، أو يكتبون الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية، بصفة حروز يعلقونها في رقابهم أو يضعونها في صناديقهم أو في بيوتهم. والبعض الآخر يظهر بمظهر المخبر عن المغيبات، وأماكن الأشياء المفقودة بحيث يأتيه الجهال، فيسألونه عن الأشياء الضائعة، فيخبرهم بها أو يحضرها لهم بواسطة عملائه من الشياطين، وبعضهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات كدخول النار ولا تؤثر فيه، وضرب نفسه بالسلاح، أو وضع نفسه تحت عجلات السيارة ولا تؤثر فيه، أو غير ذلك من الشعوذات التي هي في حقيقتها سحر من عمل الشيطان يجري على أيدي هؤلاء للفتنة.

ولقد رأيت بعيني في بعض بلدان العالم الإسلامي والأوروبي، يجلسون على قوارع الطرق يتكهنون للناس، منهم من يعرض أن يقرأ لك كفك وطالعك، ومنهم من يضرب بالودع ليبين لك ما تطلبه وأمنياتك، ورأيت من يحمل أوراق اللعب الكوتشينة، ورأيت في أماكن عامة رجلاً عنده قطعة قماش وضع عليه ودعات، والآخر بجواره قد وضع إناء فيه رمل يخط عليه، وفي هذا المكان الفسيح أماكن لبيع القهوة، وبعد أن يحتسى الناس القهوة تأتي امرأة تعرض على شارب القهوة أن تقرأ له حظه من الران الذي بقي منه، ومن أعجب ما رأيت قوم يجلسون ووضعوا أمامهم كتب السحر ووريقات يكتبون فيها بعض الطلاسم والرموز، ورأيت أحد الأشخاص جالساً، فقرأت آية الكرسي فلما أقبلت أدبر، ولما رجعت رجع إلى مكانه فرجعت مرة أخرى. وتذكرت وصية النبي ﷺ بآية الكرسي وأنها سبب للحفظ وما كان فيها، وهي آية عظيمة فيها توحيد الله، وتذكرت قولي تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾(٢)

(١) الشعراء: الآية ٢٢٣:٢٢١

(٢) الأنبياء: من الآية ١٨.

كتاب رسالة التوحيد للدهلوي وكلام مهم عن الكهانة:

وفي رسالة قيمة اسمها (رسالة التوحيد) طبعتها وزارة الدعوة والإرشاد، كلام نفيس للشيخ إسماعيل الدهلوي يتعلق بأمر الكهانة.[(١)]

الفصل الثاني: في رد الإشراك في العلم:

١. الحواس الخمس الظاهرة والعقل منحة إلهية عامة للبشر:

قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[(٢)] اعلم أنّ الله تعالى قد وهب عباده قوى ووسائل للاطلاع على أمور ظاهرة، فرزقهم العين ليبصروا، والأذن ليسمعوا، والأنف ليشموا، واللسان ليذوقوا، واليد ليجسوا، والعقل ليفهموا ويتبصروا، وقد مكنهم من هذه الطرق والوسائل وملكهم إياها ليستخدموها في مآربهم وحاجاتهم، فكلما أراد الإنسان أن يبصر فتح عينه وإلا أطبقها، وإذا أراد أن يتذوق شيئا وضعه في فمه، إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، فكأنما أعطاهم مفاتيح لاكتشاف هذه الأشياء والاطلاع عليها، ومن كان عنده مفتاح كان القفل خاضعا له تابعا لإرادته، إن شاء فتح وإن لم يشأ لم يفتح، فكان الاطلاع على الأمور الظاهرة في تصرف الناس، وكانوا أحرارا فيه يتصرفون فيه كما يشاءون.

٢. علم الغيب خاص بالله تعالى، ووراء طور البشر:

وهذا شأن الاطلاع على الغيب فيما يختص بالله تعالى، فهو يملكه ويتصرف فيه كما يشاء، وهي صفته الدائمة، لم يجعل لولي أو نبي أو جني أو ملك أو شيخ أو شهيد أو إمام أو سليل إمام، ولا لعفريت ولا لجنية أن يطلعوا على الغيب متى شاءوا، إنّ الله قد يطلع من يشاء على ما يشاء متى يشاء، لا يجاوز علمه ما أراد الله اطلاعه عليه مثقال ذرة، وكان ذلك خاضعاً لإرادة الله تعالى لا لهواهم، وقد رغب النبي ﷺ مراراً في الاطلاع على شيء فلم يتيسر له ذلك، فلما أراد الله ذلك أطلعه عليه في طرفة عين.

وقصة الإفك مشهورة معلومة للجميع، وقد أشاع المنافقون عن سيدتنا عائشة ما هي منه بريئة، وقد كبر ذلك على النبي ﷺ وبلغ منه كل مبلغ، وقضى أياماً يفحص فيها الأمر فلم تنكشف له الحقيقة، وبقي أياماً مشغول الخاطر، فلما أراد الله أن تنجلي عنه هذه الغمة، وتنكشف له الحقيقة، أخبره أنّ المنافقين هم الكاذبون، وأن عائشة –رضي الله عنها– بريئة من هذه التهمة، فعلم من ذلك يقيناً أن

---

(١) رسالة التوحيد: الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، ص٤٦ بتصرف يسير، الطبعة الأولى، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤١٧هـ.
(٢) الأنعام: من الآية ٥٩.

مفتاح الغيب بيد الله تعالى لم يمكن منه أحداً، ولم يملكه إياه، وليس له خازن بل هو الذي يفتح هذا القفل بيده، فيهب من يشاء ما يشاء، لا يمسك يده أحد، ولا يمنعه عن ذلك أحد.

٣. من ادعى لنفسه، أو اعتقد في أحد علم الغيب بالاستقلال والدوام كان كاذباً آثماً:

وقد تبيّن من هذه الآية أنّ من ادعى علماً يعرف به الغيب متى شاء، وأنّ الاطلاع على الأمور المستقبلة ميسور له وتحت تصرفه، كان كذّاباً مدعياً للألوهية، ومن اعتقد ذلك في نبي أو ولي، أو جني أو ملك، أو إمام أو ابن إمام، أو شيخ أو شهيد، أو مُنجِّم أو رمَّال أو جفار، أو من يبحث عن الفأل في كتاب(١) وغير ذلك، أو كاهن أو سادن، أو عفريت أو جنية كان مشركاً، منكرا لهذه الآية.

ومن وسوست له نفسه، وسوّل له الشيطان أنه قد يتحقق ما يخبر به منجم أو رمال أو كاهن أو محترف بالأخبار بالسعد والنحس، فيدل ذلك على علمه للغيب، فكل ذلك باطل، فإنّ كثيراً ما تخطئ أخبارهم ويقع عكسها، فثبت من ذلك أنه لا صلة له بعلم الغيب، وأنه ليس في تصرفهم، وإنما يتكلمون رجماً بالغيب، وقد يصيبون وقد يخطئون، وهذا هو الشأن في الاستخارة (يقصد الاستخارة الكهانية كما سيأتي) والكشف، ومن يبحث عن الفأل في المصحف.

وبالعكس من ذلك فإنه لا خطأ في الوحي، والوحي لا يملكون من أمره شيئاً، وإنما ذلك إلى الله، إذا شاء أوحى إليهم بما شاء، وإذا لم يشأ لم يوح إليهم، لا أثر لرغبتهم في ذلك، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٢) فعلم أنه لا سلطان لأحد على الغيب، ودليله أنّ جميع المؤمنين يؤمنون بأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، ولكنهم لا يعلمون موعدها بالتحديد، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣)

٤. الأمور المستقبلة التي لا تعلم بالقطع:

فإذا كان هذا شأن الساعة التي هي من الأمور القطعية ومن ضروريات الدين، لا يعلمها أحد، فما ظنك بغيرها من الأخبار والحوادث: كالفتح والهزيمة، والمرض والصحة، فإنها لم تشتهر اشتهار القيامة،

---

(١) في هامش الكتاب: اعتاد الناس في الهند وغيرها أنهم إذا غم عليهم أمر وكانوا في حيرة وتردد، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى، فتحوا كتابا يعتقدون في مؤلفة الخير وشفوف الروح، فيفتحونه من غير تخير، فما واجههم في الصفحة التي فتحوها تفاءلوا به، وبتوا الأمر، وقد كثر الاعتماد على ذلك في إيران، وشبه القارة الهندية، على «ديوان حافظ» الشاعر الإيراني الغزلي الصوفي، المتوفى سنة ٧٩٣هـ ويسمون هذا الاستفتاء «برؤية الفال»

(٢) النمل: الآية ٦٥.

(٣) لقمان: الآية ٣٤.

ولم تكن منزلتها من القطع واليقين كمنزلة القيامة، كذلك لا يعرف أحد متى ينزل المطر، مع أنّ الفصول معينة، وللأمطار فصل وإبان تجيء فيه الأمطار في غالب الأحيان، أما الأشياء التي ليس لها فصل معين، ولا يتفق الناس على الحاجة إليه أو الرغبة فيه، كأن يموت رجل أو يعيش، أو أن يرزق أحد ولداً، أو يغنى الإنسان أو يفتقر، أو أن ينتصر أحد في حرب أو ينهزم أحد، فلا سبيل إلى علمها لأحد، وكذلك ما كان في الأرحام من نطفة، فلا يُعلم.

وفي كتاب (الضعيف والموضوع من أخبار الفتن) (1): من دلائل الوضع أن يكون في الحديث تاريخ كذا وكذا، مثل قوله: إذا كانت سنة كذا وقع كذا وكذا، وإذا كان شهر كذا وقع كيت وكيت، وأحاديث هذا الباب كلها كذب مفترى.

قلنا: والأحاديث الصحيحة في ذلك أبى أبو هريرة أن يحدث بتفاصيلها، وإن أشار إلى شيء منها في مثل قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تعوذوا بالله من رأس السبعين وإمارة الصبيان.(2)

٥. العلم بمكنونات الضمائر وهواجس الخواطر، ليس بميسور دائماً:

وإذا كان هذا شأن أمور تظهر أماراتها وتعرف مقدماتها، فكيف بما يضمره الإنسان من أفكار وخواطر، وإرادات ونيات، وإيمان ونفاق، وهي في بطون الضمائر وطيات الصدور؟ وإذا لم يعلم أحد ما مصيره غدا، وما هو فاعله ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾(3) فكيف يعلم حال غيره؟ وإذا لم يعلم مكان موته ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(4) فكيف يعلم أين يموت فلان؟ ومتى يموت؟

٦. المدّعون المحترفون بالإخبار عن الأمور الغيبية :

وجملة القول: إنّ الذين يدعون الغيب، أو يدعون الكشف، منهم من يستخرج الأخبار من تقويم النجوم أو الرمل، ومنهم من يطوف في الناس، فإنهم كلهم كاذبون مزوّرون، ويجب على المسلم الصادق أن يبتعد عنهم، ولا يقع في شباكهم.

وضح أن سبب اهتمام الرجل وتفصيله كونه في بيئة يكثر فيها هذا الباطل فتوسع في الرد عليه، وكم من بلد إسلامي يشابه هذا الواقع. وهذا كتاب اعتقاد مختصر لكن الشيخ أطنب في هذا الأمر.

٧. نفي القدرة المطلقة والاستقلال بعلم الغيب عن النبي ﷺ:

---

(١) لمبارك البراك، ص ٨، ط دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
(٢) مسند أحمد حديث ٧٩٦٨، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٣١٩١.
(٣) لقمان: من الآية ٣٤.
(٤) لقمان: من الآية ٣٤.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١)

وقد خاطب الله في هذه الآية سيد الأنبياء، ومنه تعلم الناس الدين، وباتباعه واقتفاء آثاره نال من نال الشرف عند الناس والمنزلة عند الله، فأمره بأن يخبر الناس بخبره، حتى يقيس به الناس غيره، فإذا كان هو لا يقدر على شيء ولا يعلم الغيب، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولو كان يعلم الغيب لعرف عواقب الأمور، فإذا عرف عن أمر أنه يؤول إلى نجاح أقدم إليه وأقبل عليه، وإذا عرف أنه لا خير فيه أمسك عنه وزهد فيه.

وقد نفى النبي ﷺ عن نفسه الشريفة القدرة المطلقة والعلم بالغيب، إنما أكرمه الله بالرسالة، وشرّفه بالنبوة، والنبي مكلف بالإنذار والتبشير لا غير، ينذر السيئات بسخط الله وعذابه ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾(٢) ولا ينفع الإنذار والتبشير إلا أهل الإيمان، وليس من شأن النبي أن يخلق الإيمان في قلوب الناس، إنما هو خلق الله.

٨. سر شرف الأنبياء، وكرامة الأولياء ليس في التصرف المطلق والعلم المستقل بالغيب:

وقد دلّت هذه الآية على أنّ الأنبياء والأولياء إنما شرفهم الله على الخلق، وعلت منزلتهم عند الله؛ لأنهم يدعون الناس إلى الله، ويرشدون إلى طرائق الحق، ولأنهم يعرفون ما هو صالح الأعمال، وما هو فاسدها، فيعلمون الناس ذلك، وينفع الله بكلامهم، فينفذ في القلب، ويهتدي الناس إلى الصراط المستقيم، وليس شرفهم لأن الله سبحانه وتعالى منحهم قدرة التصرف في العالم، فيميتون من يشاءون، أو يرزقون من يشاءون الأولاد، أو يفرجون الكرب ويكشفون الغم، ويحققون أماني الناس ويقضون حاجاتهم، ويجعلون من يشاءون منتصرا أو منهزما، أو غنيا أو فقيرا، أو ملكا أو أميرا أو وزيرا، وينتزعون ممن يشاءون ملكا أو إمارة، أو يخلقون في قلب من يشاءون الإيمان، أو ينزعونه منه، أو يشفون المريض، أو يسلبون منه الصحة، قد تساوى في ذلك جميع العباد، فكلهم عاجزون ضعفاء لا يقدرون على شيء.

وكذلك لا يمتازون عن الناس بأن الله سبحانه وتعالى مكّنهم من علم الغيب، وبسط لهم فيه، فيطلعون على خواطر النفوس متى شاءوا، ويطلعون على شؤون من غاب إذا شاءوا، فيعرفون هل هو حي أم مات وفي أي مدينة هو، وما تكتنفه من أحوال، وما يتقلب فيه من نعيم أو بؤس، ويعرفون ما هو كائن غدا، فيعرفون أنّ فلاناً سيرزق ولداً، وفلانا لا يولد له، وفلانا يربح في التجارة أو يخسر، وهل يقدر لفلان الانتصار في الحرب أو سيلقى الهزيمة، فقد تساوى في ذلك جميع العباد كبارهم وصغارهم،

(١) الأعراف: الآية ١٨٨.
(٢) الكهف: من الآية ٢.

هم عن ذلك في عمى، إلا ما ينقل عن بعض العقلاء شيء من الحدس، أو لتقدير مصدره القرائن أو العقل السليم، فيتفق ذلك مع الواقع، كذلك هؤلاء السادة والعظماء قد يحكمون على شيء بعقل أو قرينة، فيتحقق في بعض الأحيان ويتخلف في بعض الأحيان، أما ما كان عن طريق الوحي والإلهام، فهو لا يقاس على ذلك، ولا يتطرق إليه خطأ، ولا ترتقي إليه شبهة.

٩. استنكار النبي ﷺ نسبة علم الغيب إليه:

أخرج البخاري عن الربيع بنت معوذ بن عفراء، قالت: «جاء النبي ﷺ فدخل حين بُنِيَ عَلَيَّ، فجلس على فراشي كمجلسك مني، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين»[١]وقد دلّ هذا الحديث على أنه لا يصح أن يعتقد الإنسان في نبي أو ولي، أو إمام أو شهيد، أنه يعلم الغيب، حتى أنه لا يصح هذا الاعتقاد في حضرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولا يصح أن يمدح بذلك أحد في شعر أو كلام أو خطبة، أما ما اعتاده الشعراء من المبالغة والإسراف في مدح الرسول ﷺ أو غيره من الأنبياء والأولياء والصلحاء والمشايخ أو الأساتذة، فتخطوا في ذلك حدود الشرع، ونعتوهم في بعض الأحيان بما يليق بالله تعالى، فإذا عورضوا قالوا: إنّ الشعر جماله المبالغة، وكل شعر تجرد عن المبالغة فهو بالنثر أشبه منه بالشعر، ولكن لا يصح هذا الاعتذار، فإنّ النبي ﷺ نهى جواري الأنصار عن أن ينشدن شعراً نسب إليه في علم الغيب، فما ظنك بعاقل يقول مثل هذا الشعر أو يستحسنه؟

وأخرج البخاري عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: «من أخبرك أنّ محمّدا ﷺ يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فقد أعظم الفرية»[٢] وهذه الخمس هي التي ذكرها الله في آخر سورة لقمان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٣]

وأخرج البخاري عن أم العلاء، قالت: قال رسول ﷺ: {والله لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم}[٤]

وجاء في التقديم لهذا الكتاب (رسالة التوحيد للدهلوي): ويعرف القارئ العربي من خلال هذا الكتاب، وما ورد فيه من ذكر أنواع الانحراف والضلال وتقليد الأكثرية من سكان الهند، مدى تغلغل الحضارة الهندية والعادات الجاهلية والتقاليد الوطنية في أحشاء المجتمع الإسلامي الهندي، وخضوع المسلمين في هذه البلاد للفلسفة الهندية البرهمية، والهند –كما يعرف المطلع على التاريخ

---

(١) رواه البخاري، حديث ٣٧٠٠.
(٢) رواه مسلم حديث٢٥٩.
(٣) لقمان: من الآية ٣٤.
(٤) رواه البخاري حديث ٦٥٠٠.

القديم- من أعرق بلاد الله في الوثنية، فهي فيها قديمة وأصيلة، إذ كانت في كثير من البلاد جديدة ودخيلة، وقد عجنت فلسفتها وحضارتها وآدابها وعلم الفلك والعلوم الرياضية والتقويم، فضلًا عن الديانات بهذه الوثنية، فهي أرض المؤلهين والمؤلهات، وأرض الأساطير والروايات، وأرض الأعياد والمواسم والمهرجانات والمآتم، تذكارًا لحوادث تاريخية دينية وأبطال قومية خرافية، أثّر كل ذلك في حياة المسلمين وعاداتهم تأثيرا عميقًا، وغم عليهم الأمر على مدى الأيام، والتبس الحق بالباطل بتهاون الحكام والسلاطين وقلة انتشار علم الحديث وكتب السنة الصحيحة ورواجها، وشدة اختلاط المسلمين بجيرانهم في كل مدينة وقرية وحي وزقاق، حتى قيّض الله للصدع بالدعوة، وتمييز الحق من الباطل والقشور من اللباب -رجالًا من علماء الدين والدعاة المرشدين.

وكان ذلك من أقوى الأسباب التي حملت مؤلف هذا الكتاب (وقد نشأ في بيئة هندية خالصة وفي مركز هذه الحضارة) على أن يكون صريح العبارة قوي العارضة مرهف الحس في هذا الموضوع، لا يحتفل بالنقد واللائمة، ولا يبالي بسخط الخاصة والعامة، ولو طالت به الحياة، ووجد فرصة للدعوة والبقاء في الهند، فربما أخذ الأمر بالتدريج ومشى الهوينى، ولكنه كان مضطرًا إلى مغادرة الهند، وكأن حادي الشوق يحدو به إلى الجهاد والشهادة في سبيل الله، فألّف هذا الكتاب إتمامًا للحجة وبراءة للذمة، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، وليس الأمر مقصوراً على الهند التي بعدت عن مهد الإسلام ومهبط الوحي، ودخلها الإسلام عن طريق بلاد العجم، وقد فقد الشيء الكثير من قوته وجدته، بل تبلبلت العقيدة الإسلامية، واختلطت بشيء كثير من البدع والضلالات في العواصم الإسلامية وبلاد العرب، في القرن السابع والثامن الهجريين بتأثير الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام جديدة، وحملت معها رواسب كثيرة من دياناتها وعاداتها، واختلاط المسلمين مع غير المسلمين والعجم، ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية في مصر والشام وتأثيرهما، وانتشار تعليمات بعض المتصوفين الجهلة، ومن قرأ كتابي شيخ الإسلام ابن تيمية (الرد على البكري) و (الرد على الأخنائي) عرف الشيء الكثير من غلو الجهّال في الأئمة والمشايخ والأولياء والصالحين، واعتقاداتهم الفاسدة وعاداتهم الجاهلية، ولا يزال لهذا الغلو والتعظيم بغير ما أمر الله به وشرع ما لم يأذن به الله، آثار باقية في بلاد المسلمين والعرب، تستوجب دعوة قوية صريحة وحكمة بليغة؛ لذلك ليست فائدة هذا الكتاب محدودة في الهند، بل تعم جميع الأوساط التي استطاع الشيطان أن يتسرب إليها، وانتشر فيها من العقائد والعادات ما لا يرضاها الإسلام، ولا يقرها الشرع، ولا يقبلها ضمير المسلم الواعي.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد -عرف أنه لا يأخذ الرشوة- وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة ليتحاكما إليه، فنزلت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[1] [2].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

وجاء في كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة[3] عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: {من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم} رواه أبو داود وأحمد والحاكم.

ومن الكهانة كتابة حروف أبا جاد: وذلك بأن يجعل لكل حرف منها قدرا معلوما من العدد، ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة، ثم يحكم عليها بالسعود أو النحوس ونحو ذلك.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق. رواه عبد الرزاق في المصنف.

ومنها أيضا القراءة في الكف والفنجان ونحو ذلك، مما يدعي به بعض هؤلاء معرفة الحوادث المستقبلة من موت وحياة وفقر وغنى وصحة ومرض ونحو ذلك.

ومنها تحضير الأرواح: ويزعم أربابه أنهم يستحضرون أرواح الموتى ويسألونها عن أخبار الموتى من نعيم وعذاب وغير ذلك، وهو نوع من الدجل والشعوذة الشيطانية، ويراد منها إفساد العقائد والأخلاق والتلبيس على الجهال وأكل أموالهم بالباطل والتوصل إلى دعوى علم الغيب.

ونقول: إنه لا يصل إلى قضية تحضير الأرواح إلا رجل قد عتى في الكفر، ولهم أعمال خاصة غريبة، فمن ذلك الجلوس في غرفة مظلمة بطريقة معينة، ولقد فتن بهذا الأمر كثير من خاصة الناس، منهم فنانون ومفكرون يتبنّون ما عرف بالروحية الحديثة، بل رجلاً كطنطاوي جوهري، وهو عالم أزهري فسّر القرآن تفسيراً يتفق مع هذا الكفر وسماه (تفسير الجواهر) أراد أن يظهر ذلك الأمر بالمظهر العلمي فحشد فيه كثيرا من الأمور التي لها اتصال بالعلم التجريبي وعلم الفلك الصحيح، وخلط الحق بالباطل ليروج ذلك على الناس، وينخدعوا بما يرون من مخترعات ومبتكرات وكلام علمي ساقه، ولقد فتن هذا خلقاً كثيراً، وقد كانت مغنية تقول للناس: إنّ ألبومها (مجموعة أغانيها) هذا قد استحضرت من أجله روح الموسيقار فلان، وأنه استمع إليه وعدّل في اللحن وأضاف، ولا ننسى أنّ مغنياً عربياً شهيراً غنّى

---

(١) النساء: الآية ٦٠.
(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ج ١/ ص ١٣٧)
(٣) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: نخبة من العلماء، الطبعة: الأولى، (ص: ٩٤) الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢١هـ

قارئة الفنجان، وأصبح الناس يستمعون إلى هذا من غير نكير، وهو كفر وادعاء للغيب، وأنّ الكاتب له شاعر مشهور جداً في عالمنا الإسلامي. والفن هنا ليس هادماً للأخلاق فقط، بل هادماً لعقيدة التوحيد في القلوب.

قصة المهندس الذي تعلم في أمريكا ويتعامل بالبندول:

يرى هذا المهندس تأثير الأرواح، ويرى أنّ من مات بالسحر يقدر هو أن يعيده للحياة مرة أخرى، أما من مات بغير السحر فلا يستطيع، وتمت مناقشته في خطأ ذلك، وذهب للنيابة وأثبت اعترافه وأحيل إلى المحكمة العامة، ولم ينكر شيئاً مما نسب إليه.. ونحن نظن أنّ هذا الرجل خاصه الذي ضبط به لوثه، ولكن هناك من روّج لذلك على أنه علم عظيم، وأنشأ له معهداً، ولقد كان من أولئك الدكتور (خليل مسيحة) وهو نصراني مصري، أنشأ ذلك المعهد بمعاونة قس مصري، وكتبه في ذلك تباع عبر شبكة المعلومات، بل وأجهزة البندول كذلك تباع مع هذه الكتب، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتابنا (احتساب شيخ الإسلام على السحر)

وأقول من واقع مخالطتي عمن يتكهن عن طريق ما يسمونه تحضير الأرواح –أقول: إنهم كهّان ولكن خرجوا على الناس بلباس جديد، ولكن هم يتعاملون مع الشياطين وما يسمونها بالنفس الحاضرة ما هي إلا شيطان، ومنهم من يقول لا تسأل الروح حال حضورها شيئاً، أي هي التي تخبر ليسمع الناس صوت قريب لهم، أو صوت من يعرفون، وذكر نحو هذا شيخ الاسلام.

وقد تأتي الروح –على زعمهم– مصورة ومجسمة وهذا أيضاً مما يقدر عليه الشيطان، كما تشكّل الشيطان في صورة رجل وجاء إلى أبي هريرة –رضى الله عنه– وفي هذه الحالة يخبر الناس بأخباره دون واسطة الكاهن، وهذا أمر قد يفتن به الناس.

وإنه لينبغي الحذر من الوسائل الجديدة التي تنتشر بها الكهانة في هذا الزمان، فمثلاً من طرق نشر الكهانة تلك المسلسلات التاريخية الشائقة التي يستخدمون فيها الحيل السينمائية والمؤثرات الصوتية والخدع البصرية، ثم يدسون فيها ما يدسون من أغلاط، ومن أشنع ما فيها نشر الكهانة والسحر، وعلى سبيل المثال: فإن مسلسل (أرطغرل) الذي فتن به الناس أيما فتنة لأسباب كثيرة، يروج للتصوف والكهانة؛ وذلك بإبراز شخصية ابن عربي على أنه المخلص، وأنه يستدعى ليوجه أهل الحكم ويتكهن لهم. فالحذر الحذر أيها الكرام، وعلينا أن ننصح الأمة ونحذّرها من تلك الحبائل الشيطانية.

ومن الكهانة التطير: وهو التشاؤم بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها، وهذا باب من الشرك وهو من إلقاء الشيطان وتخويفه.

وجاء في أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، والمشهور ب (مائتان سؤال وجواب في العقيدة)(١)

س: ما حكم من صدّق كاهناً؟

ج: قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾(٣) الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾(٥) وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٦) وقال النبي ﷺ: {من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم} وقال صلى الله عليه وسلم: {من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً}.

س: ما حكم الكهّان؟

ج: الكهّان من الطواغيت وهم أولياء الشياطين الذين يوحون إليهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾(٧) الآية، ويتنزلون عليهم ويلقون إليهم الكلمة من السمع فيكذبون معها مائة كذبة كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الوحي: {فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة}(٨) ومن ذلك الخط بالأرض الذي يسمونه ضرب الرمل، وكذا الطرق بالحصى ونحوه.

س: ما حكم من صدق كاهناً؟

ج: قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال النبي ﷺ: {من أتى

---

(١) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة: حافظ بن أحمد الحكيمي، تحقيق: حازم القاضي، ص٢٤٧ الطبعة: الثانية، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢٢هـ.

(٢) النمل: من الآية ٦٥.

(٣) الأنعام: من الآية ٥٩.

(٤) القلم: الآية ٤٧.

(٥) النجم: من الآية ٣٥.

(٦) البقرة: من الآية ٢١٦.

(٧) الأنعام: من الآية ١٢١.

(٨) رواه البخاري، حديث ٤٨٠٠.

عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ} وقال ﷺ: {من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً}.

وفي شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: "وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطَاهُ الْمُنَجِّمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يُسْتَقْسَمُ بِهَا، مِثْلُ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا (ا ب ج د) وَالضَّارِبُ بِالْحَصَى، وَالَّذِي يَخُطُّ فِي الرَّمْلِ. وَمَا تَعَاطَاهُ هَؤُلَاءِ حَرَامٌ. وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَالْبَغَوِيِّ وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمَا. وَالْوَاجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ وَكُلِّ قَادِرٍ أَنْ يَسْعَى فِي إِزَالَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنَجِّمِينَ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ وَأَصْحَابِ الضَّرْبِ بِالرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالْقَرْعِ وَالْفَالَاتِ، وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ وَالطُّرُقَاتِ، أَوْ يَدْخُلُوا عَلَى النَّاسِ فِي مَنَازِلِهِمْ لِذَلِكَ. وَيَكْفِي مَنْ يَعْلَمُ تَحْرِيمَ ذَلِكَ وَلَا يَسْعَى فِي إِزَالَتِهِ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ –قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ يَقُولُونَ الْإِثْمَ وَيَأْكُلُونَ السُّحْتَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. وَثَبَتَ فِي السُّنَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِرِوَايَةِ الصِّدِّيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قَالَ: {إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ}"[2]

وفي كتاب (التوسل) للشيخ الألباني كلام مهم[3] حيث قال رحمه الله: وأهم ما يخلط فيه كثير من الناس في هذا الباب الاتصال بعالم الغيب بطريقة من الطرق، كإتيان الكهان والعرافين والمنجمين والسحرة والمشعوذين، فتراهم يعتقدون في هؤلاء معرفة الغيب لأنهم يحدثونهم عن بعض الأمور المغيبة عنهم، ويكون الأمر وفق ما يحدثون أحياناً، ويظنون ذلك جائزاً ومباحاً بدليل وقوعه كما يخبرون.

وهذا خطأ جسيم وضلال مبين فإن مجرد حصول منفعة ما بواسطة ما لا يكفي لإثبات مشروعية هذه الواسطة، فبيع الخمر مثلاً قد يؤدي إلى منفعة صاحبه وغناه وثروته، وكذلك الميسر واليانصيب أحياناً، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى فيهما: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[4] ومع ذلك فهما محرمان وملعون في الخمر عشرة كما ثبت في الحديث. فإتيان الكهان كذلك حرام؛ لأنه قد ثبت في الدين النهي عنه والتحذير منه، قال النبي ﷺ: {من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد} صحيح الإسناد. وقال صلى الله عليه وسلم: {من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة} (صحيح)

---

(١) المائدة: الآية ٧٩.

(٢) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (ج ٣/ ص ٢٣٥) والحديث في سنن أبي داود برقم ٣٧٧٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٥٦٤.

(٣) التوسل أنواعه وأحكامه: محمد ناصر الدين الألباني (ج١/ ص ٢٢) الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، آلف بينها ونسقها: محمد عيد العباسي.

(٤) البقرة: من الآية ٢١٩.

وقال معاوية بن الحكم السلمي للنبي ﷺ: إنّ منا رجالاً يأتون الكهان، فقال صلى الله عليه وسلم: {فلا تأتهم} وقد بيّن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه طريقة حصول الكهّان والسحرة على بعض المغيبات بقوله ﷺ: {إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كالسلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا واحد فوق الآخر} ووصف سفيان (أحد رواة الحديث، وهو ابن عيينة كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره) بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مئة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا؟ (للكلمة التي سمعت من السماء)

وورد مثل هذا في حديث آخر عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: كان رسول الله ﷺ جالسا في نفر من أصحابه فاستنار نجم، فقال صلى الله عليه وسلم: {ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم، فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع، فيرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون} فمن هذين الحديثين وغيرهما نعلم أنّ الاتصال بين الإنس والجن واقع، وأنّ الجني يخبر الكاهن ببعض الأخبار الصادقة فيضيف إليها الكاهن أخباراً أخرى ملفقة من عنده، فيحدث الناس فيطلعون على صدق بعضهم، ومع ذلك فقد نهى الشارع الحكيم عن إتيان هؤلاء الكهّان، وحذّر من تصديقهم فيما يقولون كما مرّ آنفاً.

وبهذه المناسبة لا يفوتنا أن نذكر أنّ الكهانة والعرافة والتنجيم ما يزال لها تأثير كبير على كثير من الناس، حتى في عصرنا هذا الذي يدعي أهله أنه عصر العلم والتفكير والتمدن والثقافة، ويظنون أنّ الكهانة والشعوذة والسحر قد ولّت أيامها وانقضى سلطانها، ولكن الذي يمعن النظر ويطلع على خفايا ما يحدث هنا وهناك، يعلم علم اليقين أنها ما تزال تسيطر على كثيرين، ولكنها لبست لبوساً جديداً وتبدت بأشكال عصرية لا يفطن إلى حقيقتها إلا القليل، وما استحضار الأرواح ومخاطبتها والاتصال بها بأنواعه المختلفة إلا شكل من أشكال هذه الكهانة الحديثة التي تضلل الناس، وتفتنهم عن دينهم، وتربطهم بالأوهام والأباطيل ويظنونها حقيقة وعلماً وديناً، والحقيقة والعلم والدين منها براء.

والخلاصة: إنّ الأسباب الكونية وما يظن أنه من الأسباب الشرعية لا يجوز إثباتها وتعاطيها إلا بعد ثبوت جوازها في الشرع، كما يجب في الأسباب الكونية إثبات صحتها وفائدتها بالنظر والتجربة،

ومما يجب التنبه له أنّ ما ثبت كونه وسيلة كونية فإنه يكفي في إباحته والأخذ به ألا يكون في الشرع النهي عنه وفي مثله.

يقول الفقهاء: الأصل في الأشياء الإباحة، وأما الوسائل الشرعية فلا يكفي في جواز الأخذ بها أن الشارع الحكيم لم ينه عنها كما يتوهمه الكثيرون، بل لا بد فيها من ثبوت النص الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها؛ لأنّ الاستحباب شيء زائد على الإباحة، فإنه مما يتقرّب إلى الله تعالى والقربات لا تثبت بمجرد عدم ورود النهي عنها، ومن هنا قال بعض السلف: كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبدوها. وهذا مستفاد من أحاديث النهي عن الابتداع في الدين وهي معروفة، ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "الأصل في العبادات المنع إلا لنص، وفي العادات الإباحة إلا لنص" فاحفظ هذا فإنه هام جدا يساعدك على استبصار الحق فيما اختلف فيه الناس.

الفصل الثاني
الكهانة في الجاهلية

مرّ كثيراً بيان أنّ الكهانة كانت فاشية في الجاهلية، وكان لكثير منهم اعتقاد فيها ويقين بأخبار أهلها، وكانوا يتحاكمون إلى الكهان في الأمور التي تخفى عليهم، ويعجزهم إقامة الدليل فيها، وكانوا يهرعون إلى الكاهن في الملمات أو فيما يرونه من جديد في كون الله، كما كان الكاهن يخبرهم أحيانا بشر قريب من عدو أو غيره أو خير، فجاء الإسلام قاطعاً دابر الكهانة مبيناً لحقيقتها، والحديث عن الكهانة في الجاهلية حديث طويل ذي شعب، لكن سنقتصر بحول الله وقوته هنا على ما يناسب المقام.

قال الذهبي رحمه الله(١): وقد كان في الجاهليّة خلْقٌ من الكُهّان يخبرون بالمغيِّبات، والرُّهبان لهم كشْفٌ وإخبار بالمغيّبات، والسّاحر يخبر بالمغيّبات. وفي زماننا نساءٌ ورجالٌ بهم مسٌّ من الجِنّ يخبرون بالمغيّبات على عدد الأنفاس.

وقد صنّف شيخُنا ابن تيْميّة غير مسألةٍ في أنّ أحوال هؤلاء وأشباههم شيطانيّة، ومن هذه الأحوال الشّيطانيّة الّتي تضلّ العامّة: أكْلُ الحيّات، ودخول النّار، والمشْي في الهواء، ممّن يتعانى المعاصي ويخلّ بالواجبات. فنسأل الله العون على اتّباع صراط المستقيم، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا، وأن يؤيّدنا بروحٍ منه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) تاريخ الإسلام: للذهبي (ج١١/ ص٢٥٥)

المبحث الأول

الكهانة والشعر في الجاهلية(١)

من المعلوم أنّ الكهانة مرتبطة بالجن، ومعلوم أنها هيمنت على عقلية الجاهليين واتصلت بمجرى حياتهم. لقد كانوا يرون في الشعر ضرباً منها، وأنها والشعر يسيلان من ثقب واحد تسقيه قوة خفية، وذلك لما فيه من التقوّل والرجم بالغيب.

وألحقت الكهانة بالسحر لما بينهما من التشابه والاشتراك في الاتصال بعالم الجن، وادعاء علم الغيب والإخبار بما يخفى على الآخرين، والكاهن والساحر يسلكان الطرق نفسها للوصول إلى أغراضهما.

ارتبط الشعر بالكهانة منذ بداياته الأولى حين كان الشعر ظاهرة تنتمي إلى عمق الحياة الروحية والفكرية الجاهلية، وكانت للنص الشعري أبعاداً دينية مقدسة، كما يقول عمرو بن العلاء عن شعراء الجاهلية أنهم بمنزلة الأنبياء في الأمم.

وقد مزج أهل الجاهلية بين الشعر والنبوة، والأنبياء والشعراء، وقد أكد ابن سينا ذلك بقوله: كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي، فيعتقد قوله، ويصدق حكمه، ويؤمن بكهانته. وعلى ذلك كان الشاعر نبياً، والشعر نبّوة، والشعراء أنبياء (كهنة ورجال دين) لذلك كان نبوغ شاعر في قبيلة ما حدثاً كبيراً، ومناسبة سعيدة، وأمراً جديراً بالاحتفاء داعياً للفرح.

كما أنّ الشعر في الجاهلية ارتبط بالكهانة لكون الشعراء عندهم علماء وأئمة في دينهم، وكانوا يرون أنّ الكهّان علماء أيضاً، وارتبط الشعر في جذره اللغوي بالعلم، فهو العلم والفطنة والعقل والحكمة، منه قولهُمُ: (ليَتَ شِعرِي) أَي لَيت عِلْمِي، قال الأَزْهرِّي: و(شاعِر) لأنه يشعر ما لا يشعر غيره أي يعلم، أو لفطنته، وشَعَر به: عقلَهَ. والشعر هو علم العرب، بل "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" حسب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁.

وتلتقي الكهانة بالشعر في الدلالة اللغوية لكلٍ منهما، فكلمة (شعر) تعني أيضا القافية. وهذا المصطلح المشتق من الجذر (قفا) يُطلق على الكلمة أو البيت أو القصيدة، كما يطلق على تتبع الأثر (القيافة). وسميت قوافي الشعر لأن بعضها يتبع أثر بعض. ودلالة تتبع الأثر تشير إلى قرابة بين الشعر والكهانة والعرافة والقيافة، فالكهانة والعرافة معاً تدلان على المعرفة عن طريق التنبؤ، فإنه من التنبؤ لمعرفة الغيب، يتمكن صاحبه من التعرف على الشيء انطلاقا من مشاهدة أثره. الأثر باقي الشي، والقيافة أيضا ضربُ.

والقيافة نوعان:

---

(١) ملخص من سحر الكهانة والإلهام والموسيقى في الشعر القديم الكهانة والسحر في الشعر القديم -المبحث الأول، ص١٠٤.

قيافة الأثر، ويقصد به أثر الأقدام والحوافر والأخفاف في الأرض ليستدل بها على صاحبها، ويستطيعون معرفة أدق التفاصيل عنه، حتى صفاته الجسمية وإلى أي القبائل ينتسب.

أما قيافة البشر فهي الاستدلال من بشرة الإنسان وجلده وصورة وجهه وأعضائه إلى نسبه وسائر أحواله، بأثر الطبائع المتوارثة فيه. وكانوا يستغلونها في حوادث الثأر والانتقام.

فكل هذه المعارف من كهانة وعرافة وقيافة ارتبطت بالتنبؤ وهو ضرب من السحر.

كما أنّ الشعر والكهانة يلتقيان في طبيعة اللغة التي يستخدمها الشعراء والكهّان وهي لغة موزونة، فلغة الشعر مألوفة عند الكهّان كما هي عند الشعراء، كذلك لغة الكهان مألوفة عند الشعراء.

وقد مرّ بنا في تاريخ الكهانة أنّ كثيرا من الأمم كانت لغة كهانتها لغة شعرية، وكانت موزونة ومقفاة وموجزة كما هو الحال عند العرب، فشعر الكهان عند اليونان من البحر العشاري، وعند العرب من الرجز، والرجز أقدم البحور التي نظم عليها العرب، وانحدرت منه البحور الطويلة، والشعراء يتقنون لغة السجع، ونرى في أقوالهم أسجاعاً متتالية بينها شيء من الموازنة، هي لغة الكهان، فانتقلوا منها إلى أبسط البحور وهو الرجز، فلزموا التقفية كلزومهم الأسجاع في المنثور، وراعوا فيه عدد الأجزاء والوزن، ومنه قول دويد بن زيد بن نهد حين حضره الموت:

اليوم يبنى لدويدٍ بيته

لو كان للدهر بلًى أبليته

أو كان قرني واحداً كفيته

يا ربَّ نهبٍ صالحٍ حويته

وربَّ غيلٍ حسنٍ لويته

وقول امرئ القيس إذ بلغه خبر قتل أبيه بدمون في نواحي اليمن:

تطاولَ الليل علينا دمُّون

دمُّونُ أنَّا معشرٌ يمانون

وأنّنا لقومنا محبُّون

كذلك الكهّان يتقنون لغة الشعر يخاطبون الناس به، كما جاء في خبر الزرقاء بنت زهير الكاهنة، أجابت قومها عندما سألوها عن أمرهم، فقالت: سعف واهان.. وتمر وألبان.. خير من الهوان..

ويلتقي الشعر بالكهانة في الجاهلية في أنهما يشتركان في مصدر الوحي والإلهام، فجميعهم يستلهمون الجن، وكان عبدة الأصنام من الجاهليين يعتقدون أنّ الجن تدخل الأصنام وتخاطب الكهّان من خلالها. وكانوا يسمعون من داخل الأصنام همهمة، ومن ذلك ما يروى عن صنم اسمه ضمار للعباس بن مرداس، كان أبوه قد أوصاه بعبادته، وبقي كذلك إلى أن ظهر أمر الرسول ﷺ فسمع العباس صوتا من جوف الصنم يخاطبه قائلا:

قل للقبائل من سليم كلها *** هلك الأنيس وعاش أهل المسجد
إنّ الذي ورث النبوة والهدى *** بعد ابن مريم من قريش مهتدي
أودى الضمار وكان يعبد مرة *** قبل الكتاب إلى النبي مُحَمَّد

هذه القصة تبيّن أنّ الحديث بين الجن والكهنة كان يتم عبر الشعر، وكذلك الحديث بين الجن والشعراء يتم بالشعر، ومن ذلك ما جاء في قصة الشاعر عبيد الأبرص والشجاع، وهي من القصص المشهورة: يروي أنه خرج في ركبٍ ، فبينما هم يسيرون إذا بشجاع قد احترق جنباه من الرمضاء، فقال له بعض أصحابه: دونك الشجاع يا عبيد فاقتله! قال عبيد: هو إلى غير القتل أحوج، فأخذ إداوة من ماءٍ، فصبها عليه، فانساب الشجاع ودخل في جحره، وسار القوم فقضوا حوائجهم، ثم أقبلوا حتى صاروا إلى ذلك الموضع الذي فيه الشجاع، قال: فتأخر عبيد لقضاء حوائجه، فانفلت بكره وقيل بل حسر عليه، فسار القوم، وبقي عبيد متحيراً، فإذا بهاتفٍ من عدوة الوادي، وهو يقول:

يا صاحبَ البكرِ الُمضِلِّ مْرَكَبهْ
دوَنكَ هذا البكرَ مِنَّا فاركَبه
ما دوَنه من ذي الّرشادِت صَحَبه
وبكْرُكَ الآخرُ أَيضا تجُنبه
حتى إذا ليلُ تجَلى غَيهبه
فَحط عَنه رحله وسَّيبه
إذا بَدا الصّبحُ ولاحَ كَوكَبه
وقد حمدتَ عنه ذاكَ مصحَبه

قال: فالتفت عبيد، فإذا هو ببكره، وبكرٍ إلى جنبه فركبه، حتى إذا صار إلى دار قومه أرسل البكر.
وقد وضح مما تقدّم أنّ الشاعر في ذلك الزمان يتنزل عليه الوحي بنظام خاص بواسطة الشيطان أو الرئي. وعندما جاء الإسلام، التبس أمر الرسول ﷺ على المشركين، فنعتوه بالسحر ورموه بالجنون، وقالوا له رئي أو تابع من الجن، فخلطوا بين الملك والرئي، وذلك ربما لما في الأساطير العربية أنّ الكاهن هو الصورة المشوهة للنبي، والفرق بينهما أنّ النبي معه الملائكة والكاهن يستلهم الشياطين.
وكان أمّية بن أبي الصلت شاعرا وكاهنا يطمع في النبوة، وقال له شيخ حين رآه: إّنك لمتبوع، فمن أين يأتك رئيك؟ قال: من شقيّ الأيسر. قال: فأيّ الثياب أحبّ إليك أن يلقاك فيها؟ قال: السواد. قال: كدت تكون نبيّ العرب ولست به، هذا خاطٌر من الجنّ وليس بملكٍ، وإنّ نبيّ العرب صاحب هذا الأمر يأتيه من شقةّ الأيمن، وأحب الثياب إليه أن يلقاه فيها البياض. ومسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة كان كاهناً وادعى أنّ معه رئياً في أول زمانه.

كما اتهم المشركون النبي بأنه شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، ولعلمهم أنّ الشعر هو كلام الكهّان (الكهّان بلغة الكلدان هم الأنبياء) وبما أنّ الرسول يدعو إلى دين وعبادة، ويأتيهم بآيات القرآن المعجزة، فلم يجدوا إلا أن يصفوه بالشاعر، لأنّ كهانهم كانوا يتحدثون بالسجع، والقرآن الكريم خير مصدر أشار إلى حقيقة وجود الكهان في المجتمع الجاهلي، وقرن الكهانة بالجنون، ورد على مزاعم المشركين بقوله تعالى: ﴿فذَكِّر فمَا أَنتَ بنِعمتِ ربّكَ بكِاهِنٍ وَلا مجْنونٍ﴾(١) وقوله تعالى نافيا عنه الشعر والكهانة: ﴿إنَّه لقَوَلُ رُسولٍ كَريِمٍ * وَما هُو بِقوْلِ شَاعِرٍ قلَيِلا مَا تؤُمِنون * وَلا بقِوَلِ كَاهِنٍ قلَيلا ما تذَكَّرون﴾(٢)

وربما نسبوا كل شيء معجِبٍ إلى الجن والسحر والكهانة، فهم أعجبوا بالقرآن وهزهم ببيانه فنسبوه إلى السحر والجن، حتى نفى أحدهم ذلك، وهو النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي في قوله: "يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما اشلتم له نبله بعد، لقد كان مُحَمّد فيكم غلاما حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا أريتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر، ولا والله ما هو بساحر، قد أرينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، ولا والله ما هو بكاهن، وقد أرينا الكهنة وحالهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، ولا والله ما هو بشاعر ولقد روينا الشعر وأصنافه كلها هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم: مجنون، ولا والله ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، انظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم"

والعرب يلجئون للكهنة لاستشارتهم في الأمور المعضلة، ويحكمونهم في الخصومات ويستعينون بهم في حل مشكلاتهم، كما كانوا يستعلمون منهم عن أمور الغيب والأحداث التي تقع في مقبل الزمان، فحرّم الإسلام هذا الأمر ونهى عنه، كما مر بيانه.

وبعد الإسلام بشر جمع من الكهان بالنبي ﷺ منهم سواد كما مرت قصته مبسوطة. ومن هؤلاء خنافر بن التوأم الحميري الذي كان رئيه لا يتغيب عنه في الجاهلية، وعندما شاع الإسلام جاءه يدعوه إليه ويثني على النبي ﷺ ويمتدح القرآن قائلاً:

إني آنست بأرض الشام .. نفرا من آل العذام
حكاما على الحكام .. يذبرون رونقا من الكلام
ليس بالشعر المؤلف .. ولا السجع المتكلف

(١) الطور: الآية ٢٩
(٢) الحاقة: من الآية ٤٣:٤٠

لقد كانت ثمت علاقة بين الشعر والكهانة من جانب وبين الكهانة والسحر من جانب آخر، فقد أظهرت كتب الأدب تشابها كبيراً بينهم، وقد لعب الشاعر دور الكاهن والساحر، ولعب الكاهن دور الشاعر، ولعب الساحر كلا الدورين. قال بعض الباحثين: ويمكننا أن نستنتج من خلال هذا، أنهم اشتركوا في منابع الموهبة ومصادر الإلهام التي استقى منها الشعراء شعرهم، والكهّان والسحرة معارفهم وأخبارهم، التي تسترقها الجن وتلقيها على سمعهم، فالساحر ملهمه الجني، والكاهن ملهمه الرئي، والشاعر ملهمه الشيطان، وقد مارسوا مهامهم في مجتمعاتهم بالطريقة نفسها.

ومن مظاهر ارتباط الكهانة بالسحر في العصر الجاهلي –وحتى في العصور اللاحقة– فيما عرف بالعرافة وغيرها من مظاهر السحر، ارتباطها بمظاهر شكلية، كان يتخذها الكاهن أو الساحر في أثناء أداء عمله، تمثلت بارتداء ألبسة معينة لأداء وظائفه، وبعد أن اتضحت ملامح العلاقة بين الشاعر من جهة، والكاهن والساحر من جهة أخرى؛ فليس من الغريب أن نجد الشاعر أيضاً يتخذ لنفسه بعض المظاهر الشكلية عند قيامه بوظيفته المتمثلة في نظم الشعر الساحر أو المؤثر، مما يعيد لنا صورة الشاعر الكاهن الساحر مرة أخرى.

ففي الأخبار أنّ الشاعر إذا أراد أن يهجو أحداً، لبس حلة خاصة كحلل الكهان وحلق رأسه، وترك له ذؤابتين، ودهن أحد شقي رأسه وانتعل نعلاً واحدة. وقد ورد هذا في خبر لبيد وخاله الربيع، وفيه مشهد لا يخلو من السمات الطقسية السحرية، التي تزيد من سمة التشابه بين الكاهن الشاعر والساحر، وتؤكد ارتباط الشعر بالكهانة والسحر في مرحلة من المراحل.

وينقل الجاحظ خبر من يريد أن يصبح مخدوماً من قبل الجن فيقول: "والحيلة في ذلك أن يتبخر باللبان الذكر، ويراعي سير المشترى، ويغتسل بالماء القراح، ويدع الجماع وأكل الزهومات ويتوحش في الفيافي، ويكثر من دخول الخرابات، حتى يرق ويلطف ويصير فيه مشابهة للجن".

قال صاحب كتاب (سحر الكهانة والموسيقى والشعر) عقب إيراده كلام الجاحظ: وهذه الصورة يمثلها حادي الإبل الذي يقطع الفيافي والصحاري التي يعتقدون بوجود كل أنواع الجن فيها، ويقوم الحادي بشكله المنفر النتن بقطعها في جو من الغناء، ويشمر أثوابه بصورة طريفة، ويصف عبيد الأبرص تلك الصورة قائلاً:

ومشّمر خلق سرباله مشق قاذورة فائل مغدمر قطط

خلق سرباله: بلي قميصه، والمشق هو الذي تحرق من احتكاك فخذيه مع بعضهما، أما المغدمر فهو الغضوب، وفائل: ضعيف، وهذه صورة فيها توحش، وربما قصد الحادي من التوحش والسير بهذه الطريقة المنتنة أن تقبل الجن مسيره في تلك الفيافي القافرة، فلا يتعرض للأذى، وهو يظن بذلك أنه يحمي الرحلة التي يقودها، وربما كان ينشدهم بعض التعاويذ لطلب الحماية. ويدل هذا كله على أنّ الشاعر باعتقادهم لا يصله وحي الشعر إلا إذا لبس هذه الأردية والمقطعات وغيرها؛ كي تتقبّله الجن وتميّزه عن بقية الناس

فتلهمه الشعر، وإن لم يكن لهذه المظاهر الطقسية دور مباشر في عملية الوحي في اعتقادهم، فليس هناك تعليل منطقي من خلاله يمكن أن نفسر هذا المظهر الذي اتخذه الشاعر الجاهلي أثناء نظم الشعر.

قال صاحب كتاب (سحر الكهانة والموسيقى والشعر) يقول المسعودي في (مروج الذهب): وطائفة ذهبت للتكهن بسبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس. وهذه الأوصاف تنطبق على الشاعر لا على الكاهن إلا إذا كان كلاهما واحد، فصفاء مزاج الطباع ورهافة الحس وقوة النفس من أهم مقومات الشاعر المبدع، وقد اتفق على ذلك النقاد القدماء والمحدثون وعند مختلف الأمم، فلا يمكن أن نسبغ هذه الصفات على الكاهن إلا إذا كانت العلاقة وثيقة بين الاثنين، مع صعوبة الجزم بأنّ الكهانة والشاعرية في الجاهلية أمر واحد، إلا أنّ التشابه بين الوظيفتين كبير جداً، إلى حد يمكن اعتبار الشعر فيه قدر تطور عن الكهانة، ومن أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم يستعينون بها على حياتهم، فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم، كما نشأ شعر الرثاء، وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره، وفي أثناء ذلك كانوا يمجّدون قوى الطبيعة المقدسة، التي تكمن في آلهتهم، والتي تبعث فيهم الخوف، ومعنى هذه كله أنّ موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة، ومن كان يقوم بهذه الابتهالات والتعويذات هم الكهّان الذين هم رجال الدين، وتطوروا فيما بعد ليصبحوا الشعراء الكهان، حتى بدأ الشعر ينفصل عن الدين والمعتقد ليصبح فناً مستقلاً بذاته.

ومن أخبار الكهان المشهورين في الجاهلية الذين يخبرون عن كهانتهم بالكلام المسجوع والشعر معا كاهنان يسميان شق وسطيح. فسطيح هو ابن ربيع بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غسّان، وكان سطيح هذا كالبضعة الملقاة على الأرض فكأنه سطح عليها.

ومن تحدث الشعراء بلغة الكهان ولبسهم لبس السحرة والكهان، ما جاء في خبر لبيد مع الربيع ابن الزياد الذي حطّ من قدر قومه عند النعمان، فقالوا له إنّ خالك قد غلبنا على الملك، وصدّ عنا وجهه، فقال لهم لبيد: هل تقدرون على أن تجمعوا بينه وبيني فأزجره عنكم بقول ممض، ثم لا يلتفت النعمان إليه بعده أبداً، فقالوا: وهل عندك من ذلك شيء؟ قال: نعم. قالوا: فإنا نبلوك بشتم هذه البقلة (لبقلة قدامهم دقيقة القضبان قليلة الورق لاصقة فروعها بالأرض، تدعى التربة) فشتمها بكلام من سجع الكهّان فقال: هذه البقلة التي لا تذكي ناراً، ولا تؤهل داراً، ولا تسر جاراً، عودها ضئيل، وفرعها كليل، وخيرها قليل، أقبح البقول مرعى، وأقصرها فرعا، وأشدها قلعا، بلدها شاسع، وآكلها جائع، والمقيم عليها قانع. فقالوا: نصبح فنرى فيك رأينا. فقال لهم عامر: انظروا غلامكم؛ فإن رأيتموه نائماً فليس أمره بشيء، وإنما يتكلم بما جاء على لسانه، ويهذي بما يهجس في خاطره، وإذا أريتموه ساهراً فهو صاحبكم، فرمقوه بأبصارهم، فوجدوه قد ركب رحلاً، فهو يكدم بأوسطه حتى أصبح. فلما أصبحوا

قالوا: أنت والله صاحبنا، فحلقوا أ رسه، وتركوا ذؤابتين، وألبسوه حلة، ثم غدوا به معهم على النعمان، فوجدوه يتغذى ومعه الربيع وهما يأكلان، ليس معه غيره، والدار والمجالس مملوءة من الوفود. فلما فرغ من الغداء أذن للجعفريين فدخلوا عليه... إلى آخر القصة.

فالشاعر لبيد بن ربيعة في هذه القصة لعب دور الشاعر والكاهن الساحر معاً، اختبروه بشتم البقلة فشتمها بالسجع، فلما وثقوا من قدرته على الهجاء الممضي صاحبوه وألبسوه زي الكهان، وقام بطقوس سحرية كهنوتية حتى يبلى بلاء حسنا في تشويه صورة خاله الربيع عند النعمان، وينال منه، وقد كان له ما أراد.

ومن صور كهانة الشعراء أنهم مارسوا وظائف الكهّان التي عرفت في المجتمع الجاهلي، ومنها أنهم يحذرون أقوامهم من مصائب ستحصل، أو حروب ستجري، وكانوا يقدمون لهم النصح عن كيفية التصرف ومجابهة الأخطار أو اجتنابها، كما فعل كاهن بني الحارث عندما حذّر قبيلته من غزو بني تميم، لأنّ في ذلك خطر عليهم بقوله: إنكم تسيرون أعقابا.. وتغزون أحبابا.. سعدا وربابا.. وتردون مياها جبابا.. فتلقون عليها ضرابا.. وتكون غنيمتكم ترابا.. فاسمعوا نصحي ولا تغزوا تميما.

كان الكاهن والشاعر والساحر يؤدّون للقبيلة خدمات واحدة، فجميعهم كان ينصح ويحذر ويبصّر ويداوي ويطبب. تلك وظائف اشتركوا جميعاً في القيام بها في المجتمع الجاهلي.

ولقد كان الشاعر في مرحلة ما هو الزعيم الروحي للقبيلة، يتنزل عليه الوحي بواسطة الشيطان أو الرئي، وارتبط الشعر بالكهانة.

العرب الجاهليين وارتباطهم بالجن:

لقد آمن العرب في الجاهلية بقدرات الجن، وخافوا قوتها وبطشها، وخطبوا ودّها. ومما آمن به أهل الجاهلية قدرة الجن على كشف الغيب؛ ولذلك اعتقدوا في الكهّان وتحاكموا إليهم، طالبين منهم كشف المعضلات، والإخبار عما حارت فيه عقولهم، وانتفت الدلائل الحسية فيه.

كما نسبوا نبوغ الشعراء فيهم باقتران الجن بهم، ولقد أطلق أهل الجاهلية على الجن أسماء بحسب ما تعمله. قال الجاحظ: "إنهم ينزلون الجن في مراتب، فإذا ذكروا الجني سالماً قالوا: جني، فإذا أرادوا أنه ممن سكن مع الناس قالوا: عامر والجمع عمّار، وإن كان ممن يعرض للصبيان فهم أرواح، فإن خبث أحدهم وتعرّم فهو شيطان. فإذا زاد على ذلك فهو مارد، فإذا زاد على ذلك في القوة فهو عفريت"[1]

وجاء عن العرب في الجاهلية ما يدل على أنّ منهم من كان يتحدث مع الجن ويأنس بهم، وقد حدّدوا أماكنهم، ووصفوا أصواتهم، بل ذكروا أنّ منهم من صارع الجن. كما ذكر صاحب الأغاني أنّ الشاعر المعروف (تأبط شراً) التقى السعلاة ونازلها وقتلها، وهو لا يعرفها، وقال في ذلك:

---

١ الحيوان: للجاحظ، ص٢٣٢.

فلم أنفك متكئاً عليها

لأنظر مصبحاً ماذا أتاني

إذا عينان في رأس قبيح

كرأس الهرّ مشقوق اللسانِ

وساقاً مخدج وشـواة كـلب

وثـوب من عبـاء أو شنان[1]

ووصف شمر بن الحارث الضبي كيف خاطب الجن فقال:

وَنارٍ قَد حَضَأتُ بُعَيدَ هَدءٍ

بِدارٍ ما أُريدُ بِها مُقاما

سِوى تَحليلِ راحِلَةٍ وَعَيرٍ

أُكالِئُها مَخافَةَ أَن يَناما

أَتوا ناري فَقُلتُ مَنونَ أَنتُم

فَقالوا الجِنَّ قُلتُ عِموا ظَلاما

فَقُلتُ إِلى الطَعامِ فَقالَ مِنهُم

زَعيمٌ نَحسُدُ الإِنسَ الطَعاما

ومن قصص التقاتل التي ذكروها: أنّ رجلاً من كلب يقال له مرير، كان له أخوان أكبر منه يقال لهما: مرارة ومرة، وكان مرير لصاً مغيراً، وكان يقال له الذئب. خرج مرارة يتصيد في حبل لهم فاختطفته الجن، وبلغ أهله خبره، فانطلق مرة في أثره، حتى إذا كان بذلك المكان اختطف، فلما قدم مرير وبلغه الخبر، أقسم ألا يشرب خمراً، ولا يمس رأسه غسل، حتى يطلب بأخويه. فتنكب قوسه وأخذ سهماً، ثم انطلق إلى ذلك الجبل الذي هلك فيه أخواه، فمكث فيه سبعة أيام لا يرى شيئاً، حتى إذا كان في اليوم الثامن إذا هو بظليم فرماه فأصابه، واستقل الظليم حتى وقع في أسفل الجبل، بصر بشخص قائم على صخرة ينادي:

يا أيُّها الرَّامي الظّليم الأسْود

تبتْ مَرامِيكَ التي لم ترشد

فأجابه مرير:

يا أيها الهاتفُ فوقَ الصخرةِ

كم عبرةٍ هيّجْتَها وعبرة

[1] الأغاني: الأصفهاني، ج٥ /ص٢٢٣.

بقتلِكم مرارة ومرة

فرقتَ جمعاً وترَكْتَ حسرة

فتوارى الجني عنه هويًا من الليل، وأصابت مريراً حمى فغلبته عيناه فأتاه الجني فاحتمله، وقال له: ما أنامك وقد كنت حذراً؟

فقال: الحمى أضرعتني للنوم، وقال مرير:

ألا من مبلغ فتيان قومي

بما لاقيت بعدهم جميعا

غزوت الجن أطلبهم بثأري

لأسقيهم به سما نقيعا

فيعرض لي ظليم بعد سبع

فأرميه فأتركه صريعا[1]

وقد ذكر أهل الجاهلية أماكن يتواجد بها الجن: وادي عبقر، والبقار، والبدي، وقدور ذلك في شعر الشعراء كالنابغة وزهير ولبيد.

وقد ذكر الباحثون أنّ معظم الكلام الذي دار بين الجن وبين عرب الجاهلية كان شعراً، أو نثراً مسجوعاً. وكان الشعراء يعتقدون أنّ شعرهم أحرف نارية تلقي بها الجن، ومن الجن يستمدون علم الغيب، وقد ذكر الجاهليون أسماء شياطين ارتبطت بشعراء بأعينهم، فذكروا أنّ شيطان امرئ القيس هو (لاقط بن لاحظ) وأنّ شيطان عبيد بن الأبرص هو (هبيد) وكذلك هو صاحب بشر بن أبي خازم، وأن (هاذر بن ماهر) صاحب زياد الذبياني، وقالوا: إنّ هذا هو أشعر الجن وأضنهم بشعره، وأنّ شيطان الأعشى هو (مسحل بن أثاثة).

وقد كان من شعراء الجاهلية من يحلق رأسه تقرباً للجن، إذا أرادوا هجاء أحد. وكانوا يسمون الشعر رقى الشياطين، وكان هذا معروفاً حتى في صدر الإسلام. قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز رحمه الله وضي عنه:

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تَستَفِزّه

وقد كان شيطاني من الجِنّ راقيا

وكانوا يسمون الشعراء كلاب الجن. قال عمرو بن كلثوم:

وَقَد هَرَّت كِلابُ الحَيِّ مِنّا

وَشذَّبنا قَتادَةَ مَن يَلينا

---

١ مجمع الأمثال: أبو الفضل الميداني، ج١/ ص٢٥٥، ضبط وتعليق: محمد اللحام، ط١، دار الفكر –بيروت.

وفي جمهرة أشعار العرب للقرشي كثير من قصص العرب مع الجن، قال أعرابي:

ماذا تظنّ سليمي إن ألمّ بنا

مرجّل الرّأس ذو بردين مزّاح

خرٌّ عمامته، حلوٌ فكاهته

في كفّه من رقى إبليس مفتاح

وقد كان الشعراء يرتدون زي السحرة ويقومون بطقوسهم لتوحي لهم الشياطين أشعارهم، فيرتدي حلة ويقلبها أو يحلق رأسه إلا ذؤابتين، أو يدهن بالزيت شقاً فيه ويترك شقاً، أو ينتعل فردتي حذاء متخالفتين، أو يمشي في نعل واحد، وزعموا أنّ الشاعر في الهجاء يستمد من الجن تمتمات الأذى، يجعلها في شعره للإضرار بالمهجو، وأنّ شعر الهجاء أشبه بالسحر.

قال صاحب بحث الشعر والسحر والكهانة: ولعل المقصد من هذه الطقوس استرضاء الشياطين بالتشبه بها.

من كهّان الجاهلية: المأمور الحارثي، وكان كاهن بني الحارث بن كعب، وعزى سلمة، ومن أشهر الكاهنات: طريفة وكانت باليمن، وفاطمة الخثعمية وكانت بمكة، والزرقاء بنت زهير، وزبراء كاهنة بني رئام.

ومن قصص الكهّان المعروفة ما ورد أنّ حجراً أبا امرئ القيس رقَّ لبني أسد؛ فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: "يا عبادي. قالوا: لبيك ربنا. قال: من الملك الأصهب، الغلّاب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الرَّبْرب، لا يعلق رأسه الصَّخَب، هذا دمه ينثعب، وهذا غدًا أولُ من يسلب؟ قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذَلول، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قبته وقتلوه"[1]

ولقد كان كهّان الجاهلية يستعملون السجع المتكلف الغامض، ويتحدثون بجمل قصيرة غير واضحة المعنى؛ تحيّر الأذهان في فهم المقصود منها، وتتعلق بها الظنون الكثيرة، وهذا لأنهم كانوا لا يدركون حقيقة ما يقولون فكانوا يأتون بالألفاظ على هذه الهيئة.

ونقول: إنهم لم يكونوا يدركون الحقيقة كاملة، فالشياطين كما نعلم يقيناً من أخبار نبينا ﷺ يلقون كلمة صدق ومعها مائة كذبة، وهذا يجعل الكاهن لا يقدر على التكهن بالأمر على وجهه، وأوضح الأمثلة على ذلك قول النبي ﷺ لابن صياد: {خَبَأْتُ لكَ خَبِيئًا قالَ: الدُّخُّ، قالَ: اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ}

١ الأغاني: الأصفهاني، ج٩/ ص٨٤.

إضافة إلى فقه علم الغيب لما كان التشوق إلى معرفة الغيب أمر فطري، جاءت الشرائع بما يكفي في هذا ويشفي، فحدثنا القرآن الكريم والسنّة المطهرة والكتب السابقة عن الله تعالى وصفاته، وعن ماضي الخليقة، وعن اليوم الآخر وما يجري بعد الموت، بل أخبر القرآن عن غيوب حصلت بعد مدة، كقوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] وحدثنا النبي ﷺ عن أمور كثيرة، وما صلاة الاستخارة إلا طلب المسلم أن يهديه ربه عزّ وجل، ويطمئن قلبه، ويسدد سعيه فيما هو مقبل عليه من أمور.

قال ابن خلدون: "اعلم أنّ من خواصّ النّفوس البشريّة التّشوّق إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشرّ، سيّما الحوادث العامّة كمعرفة ما بقي من الدّنيا، ومعرفة مدد الدّول أو تفاوتها، والتّطلع إلى هذا طبيعة مجبولون عليها، ولذلك تجد الكثير من النّاس يتشوّقون إلى الوقوف على ذلك في المنام، والأخبار من الكهّان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسّوقة معروفة... وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلّع إليه الأمراء والملوك في آماد دولتهم، وكلّ أمّة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجّم أو وليّ في مثل ذلك: من ملك يرتقبونه، أو دولة يحدّثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم... وكان في العرب الكهّان والعرّافون يرجعون إليهم في ذلك، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدّولة"[2]

قال القاضي عيّاض: "إنّ الله بعث محمّداً وجملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة والشعر والخبر والكهانة، فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة"[3]

قال د/ عبد الرازق حميدة: "وقد عدت الكهانة علماً، ويراد بذلك أنّ لها أصولاً وقواعد يتعلّمها الكاهن، ولكنها تصير حرفة يزاولها قوم من الناس للتنبؤ بالغيب والإخبار بالمستقبل، يمهر فيها صاحبها بطول الممارسة والمران"

قال المسعودي: "ويقال: إنّ الكهانة لليمن، والزجر لبني أسد، والقيافة لبني مدلج، وأهل المياه أكهن، وأهل البر الفاتح أقوف"

وقال الماوردي: "ورد عن همدان أنهم كانوا لا يزوجون إلا شاعراً أو عائفاً، وقد بالغت قبائل في تعظيم كهّانهم حتى خاطبوهم بلفظ الرب"[4]

وقال بعض الباحثين: "لا يبعد أن يكون حلوان الكاهن لون من ألوان التعظيم"[5]

---

١ الروم: الآيات ١-٤.
٢ كتاب تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون، ج١/ ص١١٢.
٣ كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، ج١/ ص٧٣٧.
٤ أعلام النبوة: الماوردي، ضبط الشيخ: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس –بيروت، ص٢٨٥.
٥ الكهان الجاهليون وبشائرهم بالنبي ﷺ: دراسة أدبية تاريخية: حسين أسود –ياسين جمول، بدون بيانات.

وكان من الكهّان الملك والشريف والفارس والحكيم والشاعر والسيد والعبد، فزبراء كانت أمة مولدة، وكانت الكهانة شرف وحسب من لا شرف له ولا حسب، وقد اشتهر أن لكل ملك كاهناً أو أكثر، وحكوا عن بعض فرسان العرب اصطحابهم من يزجر لهم ويتكهن، كنقيد الأسدي حازي بسطام فارس بني شيبان.[١]

هناك بحث مهم عنوانه: أسجاع الكهّان الجاهليين وأشعارهم للباحث ياسين جمول.

وكان في الكهّان يهود وعبّاد أصنام، فكان من اليهود كعب بن الأشرف، والمتهودة فاطمة بنت مر الخثعمية، وكان فيهم النصراني كالشمردل والمأمور، وكان عمرو بن لحي الذي غيّر الحنيفية في مكة وأدخل عبادة الأصنام فيها —كاهناً، وكانت زرقاء اليمامة كاهنة مشهورة، بل كانت الكاهنة تقود قومها في الغزو كرقاش الطائية. ومن الملوك والأمراء كهان كملك هرقل حذاء ينظر في النجم،

فعجباً للعقول والقلوب الخالية من الاعتقاد الصحيح، كيف ارتضوا أن تقودهم امرأة وهم أهل الأنفة والستر، وكيف طابت نفوسهم وهم أهل ربات الخدور، ونساؤهم أبعد ما يكون عن مخالطة الرجال، فضلاً أن يعرضوها للأخطار، فيجعلونها في مقدم الصفوف وقيادة الجيش، لقد كانوا يرون قتال النساء إما لنقص الرجال أو لنقص الرجولة، فهذه القلوب المتعلقة بغير الله تعالى، جعلوا المرأة ومعها شيطانها تقود الجيوش فتحميهم بدلاً من أن يحموها.

١ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، دار العلم للملايين -بيروت، ص٧٦٢.

المبحث الثاني

الكهانة والطب في الجاهلية

لقد آمن الجاهليون بالكهانة وخضعوا لها، وأيقنوا بأخبار الكهان، وأحلوهم المحل الأعلى، وأحاطوهم بالقداسة، وذلك ليقينهم بأنهم يعلمون الغيب، ومن هذا الاعتقاد اعتقادهم بأنهم يُبرؤن المرضى، ويعلمون أصل الداء، فأصبح يمارس الكهّان الطب مع الكهانة، وأثبت ذلك الشعراء في أشعارهم، وشارك الكهان في هذه المهنة الشعراء والسحرة، وطبهم طب مبني على التنجيم والسحر، وعرف الكاهن الذي يمارس الطب بالعراف، ومن ذلك قول الشاعر العذري عروة بن حازم صاحب عفراء:

وقلت لَعّرافِ اليمامة داوني *** فإنك إن أبرأتني لطبيب

فما بي من سقم ولا طيفِ جِنَّةٍ *** ولكن عمي الحميري كذوب

واحترف الكهّان مهنة الطب ومعالجة المرضى عن طريق طرد الشياطين من جسم المريض، بالتعاويذ والتراتيل والأناشيد المقدسة، حتى كانت هذه المهنة حكراً لهم. يقول الكاهن عاصم ابن القرية:

داويته مما به من مجنة

دم ابن كهال والنطاسي واقف

وقلدته دهرا تميمة جده

وليس لشيء كاده الله صارف

ومع إيمانهم بقدرة الكهان على علاج المرضى، يؤمنون بالقدر المحتوم، فالممزق العبدي يقول:

لو كنت في بيت تسد خصاصه *** حوالي من أبناء بكرة مجلس

ولو كان عندي حازيان وكاهن *** وعلق أنجاسا علّي المنجس

إذن لأتتني حيث كنت منيتي *** يخب بها هادٍ إليّ معفرس

فهو ينكر قدرة الحازي والكاهن والتنجيس والأهل والعشيرة على دفع الموت عنه.

وكما سيطر الكهّان والسحرة على الطب والعلاج عند العرب القدامى، كما هو الحال عند أمم كثيرة، فالسومريون أنفسهم أول من اعتبر الأرواح الشريرة والأشباح مسببة للأمراض؛ لذلك اعتمدوا على الكهان والسحرة لطرد الأرواح الشريرة بالتعاويذ والرقى، كما أنهم اعتبروا بعض الأمراض تقع بسبب غضب الآلهة، فخطبوا ودّها ورضاها بالنذور والقرابين مباشرة أو بواسطة الكهنة والعرافين، وانتقلت منهم تلك الأفكار إلى العرب وأمم أخرى، وكانت العراق وخاصة بابل في العصر الجاهلي، وبداية العصر الإسلامي، مركزًا شهيراً للخمور الجيدة والطب القديم بما فيه من سحر وتنجيم.

ويدعي الرواة أنّ قيسا أُخذ إلى بابلَ للعلاج، ولما مرضت ليلى العامرية أُخذت أيضا إلى العراق للعلاج فقال:

يَقولونَ لَيَلى بالعِراقِ مريضَة   فيَا لَيَتنَي كُنتُ الطَبَيبَ الُمداوِيا

التمائم والرُّقى والسلوة:

نقلنا قبل عن الرقى والتمائم ولكن سنذكر هنا الملخص وننقل هنا ما يخص الجانب الجاهلي.

التميمة: أصلها من تممت عنه العين أي دفعتها عنه بتعليق التميمة عليه. وكانت التميمة عبارة عن خرزة رقطاء تستعمل كعوذة توضع في سير وتعلق في العنق. فهي خَرزة كانوا يْعتقدون أَنها تمَاُم الدَّواء والشِّفاء. والتَّمِيمةُ: قلادة من سُيورٍ، وربما جُعِلتَ العوذة التي تعلقَّ في أَعناق الصبيان. قال أبو ذؤيب الهذلي:

وَإذا الَمنيّة أَنشَبت أَظفاَرها *** أَلفَيتَ كُلَّ تميَمةٍ لا تنَفع

وفي حديث ابن مسعود: التمَّائُم والرُّقى والتَّولة من الشِّرك. وفي الحديث: {من علق تميمة فلا أتم الله له}

أما الرُّقى: فهي مثل التمائم إما خرزة يقرأ عليها، وإما قراءة مع نفث على المريض بلا تعليق، وقال المجنون عن ليلى:

هِي السحُر إلا أَنَّ للسحرِ رقَية *** وَأَنيّ لا أُلفي لهَا الدَهَر راقيَا

أما السلوة: فهي خرز معينة استخدمها العرب لعلاج العشق تسمى السّلوة، تسحق ويشرب ماؤها فيسلو شارب ذلك الماء عن حب من ابتلَي بحبه، وقد ذكر المجنون أنه عُولج بها، ولكن يبدو أنها لم تفلح في علاجه حيث قال:

أَلا يا طبَيبَ الجِنِّ ويحَكَ داوِني   فإِنَّ طبَيبَ الإِنسِ أَعياه دائيا

أَتيَتُ طبَيبَ الإِنسِ شَيخا مداوِيا بمَكَّة يعطي في الدواءِ الأَمانيا

فخَاضَ شَرابا بارِدا في زُجاجَةٍ   وَطَرَّحَ فيهِ سَلَوة وَسقانيا

واستعمال السلوة بما لها من اسم يدعو إلى التفاؤل، ويوحي للمريض بالعافية، ولا شك أنّ هذا الإيحاء له تأثير نفسي قوي يعالج به المرضى في عصرنا الحديث بصورة متطورة.

ولقد كان الطب عند العرب في العصر الجاهلي مقصوراً على السحرة والكهّان ومشايخ الأحياء وعجائزه.

وقد لعب الشاعر ربيعة الّرقيّ دور الطبيب والكاهن والساحر معاً، عندما جاءته امرأة فقالت: تقول لك فلانة إنّ بنت مولاتي محمومة، فقال: اكتبْ لها يا أبا بشر هذه الُعوذة أي التعويذة:

ثفِوا ثفِوا باسم إلاهي الذي

لا يعرضُ السّقُم لَمنْ قد شَفىَ

أعيذ مْولاتي ومولاتهَا

وأمَّها بعِوذَة المصطفىَ

مِنْ شرِّ ما يعرضُ من عِلةٍ

في الصّبح والليّلِ إذا أَسْدَفَا

واشتهرت بعض المناطق العربية في الجاهلية بكهنتها وعرافيها مثل اليمن واليمامة.

الكهانة في نساء العرب:

ولم تكن الكهانة وقفاً على الرجال فقط عند العرب، بل مارستها النساء أيضاً، وقد عرف منهن: ظريفة الخير (كاهنة حمير) وسلمى الهمدانية، وفاطمة بنت مِرّ الهمدانية، وعفراء حمير وسجاح التي ادعت النبوة، وهي التي أفتت لعبد المطلب بذبح مائة من الإبل؛ فداء لابنه عبد الله عندما عزم على تقديمه كأضحية لله تحقيقاً لنذر نذره ولرؤى جاءته في المنام عند الكعبة.

ومن أخبار الكاهنة ظريفة أنها أنذرت زوجها الملك عمراً بسيل العرم بقولها: ما أريت اليوم، قد ذهب عني النوم، أريت غيما أبرق، وأرعد طويلاً ثم أصعق، فما وقع على شيء إلا احترق، فما بعد هذا ألا الغرق.

وقالت الزرقاء بنت زهير الكاهنة، عندما سألها قومها وقالوا لها: فما ترين يا زرقاء؟ فقالت: مقام وتنوخ.. ما ولد مولود وأنقفت فروخ.. إلى أن يجيء غارب أبقع.. أصمع أنزع.. عليه خلخالا ذهب.. فطار فألهب.. ونعق فنعب.. يقع على النخلة السحوق.. بين الدور والطريق.. فسيروا على وتيرة.. ثم الحيرة! فسميت تلك القبائل تنوخ لقول الزرقاء: "مقام وتنوخ"

أما عفيراء الكاهنة الحميرية فقد لجأ إليها مرثد بن عبد كلال لتفسير رؤيا عجز الكهّان عن تفسيرها، وأشارت إليه أمه الكاهنة أن يلجأ إلى الكواهن، لأنّ أتباعهن من الجان ألطف وأظرف من اتباع الكهّان، وجميعهن عجزن عن ذلك إلا عفيراء التي فسرتها له، وأراد أن يتزوجها فرفضت، وقالت: إن تابعي غيور، ولأمري صبور، وناكحي مثبور، والكلف بي ثبور.

تعقيب:

يجب أن يفرق بين العرافة التي هي من الكهانة التي أصلها ومصدرها التعامل مع الشياطين، وبين المعرفة التي تكتسب بطول المراس، فتكون لأشخاص قدرات في ذلك دون الاستعانة بالشياطين.

وقد رأينا من هؤلاء الحذّاق ما يبهر العقول من معرفتهم بالأرض، وقدرتهم على التمييز بينها، ومعرفتهم بالطرق المتشابهة، وقدرتهم على تمييز آثار الأقدام، وهل هي أقدام حيوان أم بشر؟ بل عند بعضهم تمييز أقدام الإبل بعضها عن بعض، ومعرفة الاتجاهات في ليل أو نهار، وهل في آخر هذه الطريق جبل أم بحر أم أبنية أم خيام، بالنظر مثلاً إلى السماء أو غيرها، كما أنّ عندهم قدرة عجيبة على معرفة آثار السيارات وأنواعها وعدد الراكبين بمجرد النظر في آثارها، وهذا كله قد وقفت عليه.

وقد استطعنا بفضل الله التمييز بسبب ذلك بين من يستعينون بالشياطين في ذلك، وبين أولئك المهرة، واستطعنا أن نفصل بذلك في شكايات رفعت إلينا أثناء احتسابنا، فقد رفعت شكايات بأنّ هناك أشخاصاً يخبرون عن الماء في باطن الأرض، ويستأجرهم بعض الناس.

وقلنا إنّ هؤلاء على قسمين: قسم يعرف مجاري المياه برؤيته الجبال والأودية المحيطة بالمنطقة أو بتتبع عروق الماء، إما بأغصان الزينون والرمان، وإما بقطع معدنية أو نحاسية يمسكها بيده، فإذا تحركت بالاتجاه المعاكس عرف أن في باطن الأرض ماء، وهذا الكلام قديم وقد وقفت على حال بعضهم، وليس فيهم تعامل مع الشياطين، ورأيت في بعض دول العالم مثل معرض السحر في بريطانيا مثل هذه الأشياء وهؤلاء يسمون بالمسمعين.

وقسم آخر ليس كهؤلاء وإنما يتعاملون مع الشياطين تخبرهم عن أماكن وجود الماء، وقد يقدم بعضهم بعض القرابين للشياطي، يطلقون بعض الأسماء مثل كرامة وحق الأجاويد، وغيرها من أسماء.

هذا ما وقفت عليه، وتحققت منه بنفسي أيام احتسابي، وميزت بين هذا وهذا، وهذا الكلام إنما سبرناه بكثرة إبلاغ الناس عن بعض هؤلاء، أو استفسارهم خوفاً من وقوعهم في المحذور، وإن كان بعض الناس قديماً وحديثاً يدخله تحت باب الكهانة، وهذا غير صحيح، فهذه أمور أخذت بالتجربة، وهم معروفون في الجزيرة وفي الأماكن الصحراوية باسم قصاصي الأثر ويسميهم العامة بالمري.

الفصل الثالث

بيان شيخ الإسلام لخطر الكهانة على الدين والدنيا

قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١) فالله أمر بالعدل، وأعظم هذا العدل وأوله توحيد الله تعالى؛ إذ ليس هناك ظلم أكبر ولا أعظم من الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢) إذا علمنا هذا علم اليقين علمنا أنّ الكهانة خطر عظيم على الدين، وهي خطر على دنيا الناس أيضا، تقوض عامر حياتهم، وتنشر البؤس والقنوط، كما تنشر الشك والريب بين الناس بعضهم البعض، والكهانة شرك لأنها تهجم على علم الغيب الذي استأثر الله به، وزعزعة هذا الأمر في نفوس الناس، والتلبيس على ضعفاء الإيمان والعقول، والكهانة كذب على الله وعلى ما قدره للعباد، وكذب في ادعاء الكاهن أنّ الله أوحى إليه بذلك، وأنه أقدره على استكناه الغيب وقراءة ما سطره الله في أم الكتاب. والكهانة شرك لأنها استعانة بالشياطين التي تأتي الكاهن للأخبار، وهي لا تأتيه بها حتى ينخلع من إيمانه، ويعبد غير الله تعالى، ويتقرب إلى الشياطين بما تهواه من الكفر والفسوق والعصيان، ثم هي كفر وشرك من ناحية تعليق العباد بغير الله، علم القاصد ذلك حين يقول الكاهن: إنّ الأسياد يطلبون قرباناً هو كذا وعلى صفة كذا وكذا، أو يطلبون قصد ضريح كذا ووضع المال في صندوقه، أو تنظيف الضريح أو السجود عنده، فيجيب طالب الكهانة دون غضاضة، والكاهن يخبر كثير من القاصدين له بأنه يستفتي الجن في أحوالهم، ولكن الجن الذي معه جن مؤمن، ويستسيغ الناس هذا، بل تراهم يقولون إن فلانا عنده خدمة، هكذا بكل سهوله، أو مخاوي أيضاً، وهي كلمة دارجة في كثير من بلاد المسلمين، وتعني أنه والجني متآخيان، قد اتخذ ذلك الكاهن أخاً، ومن الناس القاصدين من يعتقد أنّ هذا شيخ له كرامات وأحوال عند الله، يطلعه على ما غاب عن الناس ويكثر هذا لدى الصوفية، وهو مسطر بكثرة كاثرة في كتبهم، وهذا شرك أيضا؛ إذ يعتقد الذاهب إلى الكاهن أنه يطلع الغيب.

كذلك في الكهانة زعزعة لعقيدة الإيمان بالقدر، والتعامل بشرع الله كتابا وسنة مع الأقدار والأسباب، وترك الاستعانة بالله القوي المتين، وترك هدي النبي في ذلك الذي يقول: {استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل}

وفي الكهانة تعليق قلوب الناس بالباطل من الأسباب، وفيه ترك التعبد للملك الوهاب بالاستخارة التي يوجه الله بها عبده إلى كل خير، وترك الأسباب الشرعية الأخرى التي تنجح بها أمور العبد، وتقضى حاجاته وتدرك بغيته.

---

(١) النحل: الآية ٩٠

(٢) لقمان: من الآية ١٣

وفي الكهانة من مفسدات دنيا الناس الكثير، ففيها إشاعة روح التخوين وفقدان الثقة بين الناس، خاصة الأرحام وذوي القربى، إذ يشيع أنّ الذي سرق قريب لك يدخل بيتك كثيرا، بينك وبينه قرابة شديدة، أرى أنّ السارق زوجة أو زوج، وحدث عن ذلك ولا حرج، كما أنّ فيها خراب للبيوت في موضوع الزواج والطلاق على الأبراج، فإذا رأى مشكلات في بيته قصد كاهناً فأخبره أنّ هذا الزواج لن يكون سعيداً لاختلاف الأبراج المناسبة، أو تقويض ونسف لبيت سيقوم حين يذهب الخاطب أو المخطوبة للكاهن يستخبر عن شريكه، فيقضي بينهما بالكهانة، لا بما قضى به النبي ﷺ من الدين والخلق؛ إذ قال بأبي هو وأمي: {تنكح المرأة لأربع}[١]، وقال: {انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا}[٢] ،وقال: {فإذا استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل}[٣]، وقال: {وأما فلان فصعلوك لا مال له، ولكن انكحي أسامة...} [٤] إلى غير ذلك من الدلائل النبوية على الزواج السعيد وقيام البيت الرشيد.

(١) رواه البخاري حديث رقم ٤٧٠٠، ومسلم حديث رقم ٢٦٦١.
(٢) رواه مسلم، حديث ٢٥٥٢.
(٣) رواه أبو داود، حديث ١٧٨٣
(٤) رواه مسلم، حديث ٢٧٠٩.

المبحث الأول

بيان شيخ الإسلام لخطر الكهانة وعظيم إثمها

لقد علم شيخ الإسلام ما في الكهانة من مفاسد، وبين خطرها وعظيم إثمها، قال رحمه الله: "وَرَوَى أَحْمَد وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عُبَيْدٍ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا} فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَ السَّائِلِ فَكَيْفَ بِالْمَسْئُولِ.[(١)]

ونقول: مراد شيخ الإسلام –رحمه الله– أن يبيّن عظم إثم الكهانة، وأنّ هذه الأحاديث التي جاءت بهذا الوعيد الكبير إنما جاءت في حق السائل والقاصد للكاهن، وهو بلا ريب ليس عنده ما عند ذلك الكاهن من الكفر والأباطيل، فليس هو بالذي تقرّب إلى الجن، وخطب ودها حتى آخته وخدمته، وإن كان الكاهن يجر قاصديه إلى ذلك، لكن هذا الذاهب إلى الكاهن قد يذهب إليه غير مصدّق له ولا معتقد فيه، أو يسأل الكاهن لعباً وتسلية، ولو أنه قصد مرة واحدة لناله ذلك الوعيد، إذن ما هو حال المسئول الذى قدم القرابين للشياطين، وعبدها من دون الله، وهو قائم على ذلك بل أقام دنياه عليه، فرزقه من هذا الباب وهذه العين الحمئة، وجاهه بطلبه ذلك الشرك، هذا الكاهن المسئول ما حاله؟ وما عقوبته؟ وما إثمه؟ لا شك أنّ هذا أمر لا يعلمه إلا الله، وقد أبان شيخ الإسلام في هذه العبارة الموجزة عن خطر الكهانة وعظيم إثمها.

بيان شيخ الإسلام لإجماع أهل العلم على تحريم ما يعطى للكاهن:

وَرَوَى أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ قَوْمًا مِنَّا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتُوهُمْ} فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إتْيَانِ الْكُهَّانِ، وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْكَاهِنِ عِنْدَ الخطابي وَغَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ الْعَرَبِ وَعِنْدَ آخَرِينَ، هُوَ مِنْ جِنْسِ الْكَاهِنِ وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْهُ فَلَحِقَ بِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ} وَحُلْوَانُهُ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ "حَلَاوَتُهُ" وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطِيهِ الْمُنَجِّمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يَسْتَقْسِمُ بِهَا مِثْلَ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا (أ ب ج د) وَالضَّارِبِ بِالْحَصَى وَنَحْوِهِمْ، فَمَا يُعْطَى هَؤُلَاءِ حَرَامٌ. وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ: كالبغوي وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمَا.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٩ / ص ٢٢٦)

المبحث الثاني
الكهانة وتسلط الأعداء

الكهانة وتقويض الدول:

لقد وعد الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات النصر والتمكين، فشرط النصر والعلو والرفعة أن يؤمن العباد بالله عزّ وجلّ، وأن يستقيموا إليه ويستغفروه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[3] فمن أتى بتلك الأمور نصره الله تعالى، ولقد تحققت وعود الله تعالى تلك حين قامت الأمة بما طلب منها، فكان النصر المبين زمان النبي ﷺ بل هذه سنّة الله مع أنبيائه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[4] وكذلك الأمر بعد النبي ﷺ وصحابته، إذا قامت الأمة بأسباب النصر نصرهم رب العالمين، فراية المسلمين تكون مرفوعة ما استقاموا على الطريقة الإلهية والشريعة الإسلامية، وما داموا على السنّة النبوية، وإذا أركسوا في البدع والضلالات والشركيّات والمعاصي والمنكرات، سلط عليهم عدوهم، وانتقصت أرضهم من أطرافها، ولما كانت الكهانة شركاً بالله تعالى، ومنازعة لله تعالى في تفرده بعلم الغيب، ويصحبها ما يصحبها من شركيات وضلالات ومعاصٍ أخرى، تسلّط الأعداء على أمة محمّد ﷺ وقد بيّن شيخ الإسلام -رحمه الله- أنّ المسلمين كانوا ظاهرين منصورين، فلما شاعت الضلالات والشرك، ومنها بل من أعظمها السحر والكهانة، جرى على المسلمين ما جرى.

قال رحمه الله(٥): وَكَذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَهْلُ الْمَشْرِقِ قَائِمِينَ بِالْإِسْلَامِ كَانُوا مَنْصُورِينَ عَلَى الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ التُّرْكِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَغَيْرِهِمْ فَلَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مَا ظَهَرَ مِنْ الْبِدَعِ وَالْإِلْحَادِ وَالْفُجُورِ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ الْكُفَّارُ قَالَ تَعَالَى:﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا* فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾(٦) وَكَانَ بَعْضُ

---

١ النور: من الآية ٥٥.
٢ الحج: من الآية ٤١.
٣ محمد: من الآية ٧.
٤ غافر: الآية ٥١.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص١٧٣)
(٦) الإسراء: من الآية ٤:٨

الْمَشَايِخِ يَقُولُ: هُولَاكُو، مَلِكُ التُّرْكِ التَّتَارِ الَّذِي قَهَرَ الْخَلِيفَةَ بِالْعِرَاقِ، وَقَتَلَ بِبَغْدَادَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا، يُقَالُ: قَتَلَ مِنْهُمْ أَلْفَ أَلْفٍ، وَكَذَلِكَ قَتَلَ بِحَلَبِ دَارِ الْمُلْكِ حِينَئِذٍ، كَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ يَقُولُ: هُوَ لِلْمُسْلِمِينَ بِمَنْزِلَةِ بُخْتَ نَصَّرَ لِبَنِي إسْرَائِيلَ. وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ هَؤُلَاءِ دِيَارَ الْمُسْلِمِينَ ظُهُورُ الْإِلْحَادِ وَالنِّفَاقِ وَالْبِدَعِ، حَتَّى أَنَّهُ صَنَّفَ الرازي كِتَابًا فِي عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَعَمَلِ السِّحْرِ سَمَّاهُ (السِّرُّ الْمَكْتُومُ فِي السِّحْرِ وَمُخَاطَبَةِ النُّجُومِ) وَيُقَالُ: إنَّهُ صَنَّفَهُ لِأُمِّ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ لَكْشِ بْنِ جَلَالِ الدِّينِ خَوَارِزْم شاه، كَانَ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَكَانَ للرازي بِهِ اتِّصَالٌ قَوِيٌّ حَتَّى أَنَّهُ وَصَّى إلَيْهِ عَلَى أَوْلَادِهِ وَصَنَّفَ لَهُ كِتَابًا سَمَّاهُ (الرِّسَالَة الْعَلَائِيَّة فِي الِاخْتِيَارَاتِ السَّمَاوِيَّةِ) وَهَذِهِ الِاخْتِيَارَاتُ لِأَهْلِ الضَّلَالِ بَدَلُ الِاسْتِخَارَةِ الَّتِي عَلَّمَهَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا قَالَ جَابِرٌ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: {إذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك وَأَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك الْعَظِيمِ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ (وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ) خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ}(١) وَأَهْلُ النُّجُومِ لَهُمْ اخْتِيَارَاتٌ إذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا أَخَذَ طَالِعًا سَعِيدًا فَعَمِلَ فِيهِ ذَلِكَ الْعَمَلَ لِيَنْجَحَ بِزَعْمِهِمْ، وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ كُتُبًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَذَكَرُوا كَثْرَةَ مَا يَقَعُ مِنْ خِلَافِ مَقْصُودِهِمْ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ، وَكَمْ يُخْبِرُونَ مِنْ خَبَرٍ فَيَكُونُ كَذِبًا، وَكَمْ يَأْمُرُونَ بِاخْتِيَارٍ فَيَكُونُ شَرًّا، والرازي صَنَّفَ الِاخْتِيَارَاتِ لِهَذَا الْمَلِكِ، وَذَكَرَ فِيهِ الِاخْتِيَارَ لِشُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا ذَكَرَ فِي (السِّرّ الْمَكْتُوم) فِي عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَدَعْوَتِهَا مَعَ السُّجُودِ لَهَا وَالشِّرْكِ بِهَا وَدُعَائِهَا، مِثْلَ مَا يَدْعُو الْمُوَحِّدُونَ رَبَّهُمْ.

ونقول: سبحان الله في زماننا هذا ثمت بلاد إسلامية سقطت في الخريف العربي، وكم كان فيها من شرك ظاهر وضلالات منتشرة، ومنها الكهانة والسحر والتنجيم، كان ذلك ظاهراً دون كبير نكير، سقطت تلك الدول وحل الخوف بعد الأمن، وذلك بسبب البعد عن الدين وعدم تحكيم شريعة الله في حياتهم، وعدم إقامة التوحيد الخالص، وعدم النهي عن الشركيات والبدع المنتشرة، والله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢) فالتوحيد الخالص سبب الأمن والاستقرار والرخاء والخير، وليس الكهانة واللياذ بحي أو ميت ليكشف لك ما في الغد، والتوحيد الخالص سبب الرزق الوفير والحياة الرغيدة والمستقبل الواعد، ألم يقل ربنا تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ

(١) رواه البخاري حديث ١٠٩٦.
(٢) الأنعام: الآية ٨٢

آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] ولما انتشرت الأضرحة والقباب وادعياء الولاية للكهان ومدعى الأسرار وكشفها، وشيوع البدع المضلة والأهواء المردية في بلاد المسلمين نزعت البركات وشاع الشقاق والنزاع بين أفراد المجتمعات المسلمة، وصار أبناؤها يسعون في تقويضها مع أعداء الله تعالى، فنعوذ بالله من ذلك، فمتى رأيت الكهانة قد انتشرت وتعلّق الناس بها وألبسوها ثوباً غير ثوبها، ولم يغيروا ذلك المنكر العظيم والزور، فإنّ هذا مؤذن بتبدل الأحوال. فالله نسأل السلامة من كل كفر وشرك وبدعة وضلالة ومعصية.

بَلْ أَعْظَمَ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهَا بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لَهَا مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ فَذَكَرَ أَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى الزُّهْرَةِ بِفِعْلِ الْفَوَاحِشِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَالْغِنَاءِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَهَذَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ يُقَرِّبُ إِلَى الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِذَلِكَ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: إنَّ الْكَوْكَبَ نَفْسَهُ يُحِبُّ ذَلِكَ وَإِلَّا فَالْكَوَاكِبُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُطِيعَةٌ لِلَّهِ، لَا تَأْمُرُ بِشِرْكِ وَلَا غَيْرِهِ مِنْ الْمَعَاصِي، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ بِذَلِكَ وَيُسَمُّونَهَا رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَقَدْ يَجْعَلُونَهَا مَلَائِكَةً وَإِنَّمَا هِيَ شَيَاطِينُ، فَلَمَّا ظَهَرَ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ بِسَبَبِ مِثْلِ هَذَا الْمَلِكِ وَنَحْوِهِ، وَمِثْلِ هَذَا الْعَالِمِ وَنَحْوِهِ –مَا ظَهَرَ مِنْ الْإِلْحَادِ وَالْبِدَعِ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ التُّرْكَ الْمُشْرِكِينَ الْكُفَّارَ، فَأَبَادُوا هَذَا الْمُلْكَ وَجَرَتْ لَهُ أُمُورٌ فِيهَا عِبْرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ، وَيَعْلَمُ تَحْقِيقَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2] أَيْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَقَالَ: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[3] وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ.

والْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ كَانَ انْقِرَاضُهَا بِسَبَبِ هَذَا الْجَعْدِ الْمُعَطِّلِ، وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْجَبَتْ إدْبَارَهَا، وَفِي آخِرِ دَوْلَتِهِمْ ظَهَرَ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ بِخُرَاسَانَ، وَقَدْ قِيلَ: إنَّ أَصْلَهُ مِنْ تِرْمِذَ وَأَظْهَرَ قَوْلَ الْمُعَطِّلَةِ النفاة الجهمية، وَقَدْ قُتِلَ فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ.

---

(١) الأعراف: الآية ٩٦

(٢) فصلت: من الآية ٥٣

(٣) الأنبياء: من الآية ٣٧

المبحث الثالث

لا يجوز للإمام أن يعطي على الكهانة مالاً

إنّ الإمام كما هو معلوم يعطي المال لمن ينفع المسلمين، ويجري عليهم أرزاقاً خاصة لأعمال نافعة يقومون بها، أما الكهّان فهم يهدمون الدين والعقيدة، ويقوضون الدول والملك، وهم سوس هذه الأمة، فيحرم إعطاؤهم المال على كهانتهم.

لكن الشيخ أباح إعطاءهم ذلك في حالة واحدة، وهي الحالة التي يتألّف بها الإمام قلوبهم لترك هذا الضلال، فيعطون المال ليس مقابلاً للكهانة، بل لترك الكهانة، وفي إعطاء هذا المال تألفاً إخراج هؤلاء الكهّان من الكفر والضلال الذي هم فيه، والأخذ بيد عبد إلى نور التوحيد، ثم هو إغلاق باب خطير من أبواب الشرك على عباد الله، وقد ذكر شيخ الإسلام أمثلة على تألف النبي ﷺ أقواماً على الدخول في الإسلام والثبات عليه، وهؤلاء يعطون من هذا الباب، فهؤلاء الكهّان شر ممّن يكون كافراً، إذ يجمعون بين الكفر وبين مفاسد لا يعلمها إلا الله تعالى.

وَلَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ أَنْ يُعْطِيَ أَحَدًا مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ لِهَوَى نَفْسِهِ: مِنْ قَرَابَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ مَوَدَّةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُعْطِيَهُ لِأَجْلِ مَنْفَعَةٍ مُحَرَّمَةٍ مِنْهُ، كَعَطِيَّةِ الْمُخَنَّثِينَ مِنْ الصِّبْيَانِ المردان الْأَحْرَارِ وَالْمَمَالِيكِ وَنَحْوِهِمْ، وَالْبَغَايَا وَالْمُغَنِّينَ وَالْمَسَاخِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ إعْطَاءِ الْعَرَّافِينَ مِنْ الْكُهَّانِ وَالْمُنَجِّمِينَ وَنَحْوِهِمْ. لَكِنْ يَجُوزُ بَلْ يَجِبُ الْإِعْطَاءُ لِتَأْلِيفِ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى تَأْلِيفِ قَلْبِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَخْذُ ذَلِكَ، كَمَا أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْعَطَاءَ لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ الصَّدَقَاتِ، وَكَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ مِنْ الْفَيْءِ وَنَحْوِهِ، وَهُمْ السَّادَةُ الْمُطَاعُونَ فِي عَشَائِرِهِمْ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ سَيِّدَ بَنِي تَمِيمٍ، وعيينة بْنَ حِصْنٍ سَيِّدَ بَنِي فَزَارَةَ، وَزَيْدَ الْخَيْرِ الطَّائِيَّ سَيِّدَ بَنِي نَبْهَانَ، وَعَلْقَمَةَ بْنَ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيَّ سَيِّدَ بَنِي كِلَابٍ، وَمِثْلَ سَادَاتِ قُرَيْشٍ مِنْ الطُّلَقَاءِ: كَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ وَعَدَدٍ كَثِيرٍ.(١)

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: {بَعَثَ عَلِيٌّ وَهُوَ بِالْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَرْبَعَةٍ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الحنظلي وعيينة بْنِ حِصْنٍ الفزاري وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيِّ سَيِّدِ بَنِي كِلَابٍ وَزَيْدِ الْخَيْرِ الطَّائِيِّ سَيِّدِ بَنِي نَبْهَانَ. قَالَ: فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالْأَنْصَارُ، فَقَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إنِّي إنَّمَا فَعَلْت ذَلِكَ لِتَأْلِيفِهِمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ إنْ عَصَيْته؟ أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي. قَالَ: ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٣٧٧)

فَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فِي قَتْلِهِ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ مِنْ ضئضئ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ}[1]

حرمة الكهانة في جميع الملل، ومنع الناس من تأجير الأماكن للكهّان:

في هذه الفتوى بيّن شيخ الإسلام –رحمه الله– أمرين مهمين: الأول: حكم المال المعطى للكهّان، وبيان ما على المعطي والآخذ. الثاني: حكم تأجير الدور والحوانيت للكهّان لاتخاذها موضعاً للتكهن. وفي الفتوى أمور جليلة أخرى جاءت في مجموع الفتاوى.

التعليق على فتوى حرمة الكهانة في جميع الملل، وفي هذه الفتوى على وجازتها فوائد جمة منها:

١. أنّ الكهانة ومنها التنجيم صناعة محرمة في جميع الملل، وعلى ألسنة جميع الرسل، لاسيّما إمامهم المصطفى محمّد ﷺ.
٢. التحذير من الكهانة أصولها وفروعها، وحرمة جميع صورها وأنواعها.
٣. لا يفلح أهل الكهانة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهم والسحرة سواء.
٤. أنّ المال الذي يأخذه الكاهن حرام، وهو سحت وأكل لأموال الناس بالباطل، وإنْ أخذه تحت أي مسمى.
٥. أنّ دفع الأجرة للكهان حرام، وأنّ الدافع أيضا آثم.
٦. يحرم على الملّاك والنظّار والوكلاء تأجير ما تحت أيديهم لهؤلاء الكهّان؛ لئلا يكونوا أعواناً لهم على نشر هذا الباطل.
٧. حثّ ولاة الأمور ومن له قدرة كهؤلاء الملاك على السعي في إزالة ذلك المنكر العظيم، ووجوب قيام المحتسبين بهذا الأمر.
٨. وجوب منع الكهّان من تعاطى الكهانة في الأماكن العامة أو الخاصة.
٩. بيّن شيخ الإسلام أنّ الكهانة طريق الوثنية، وأن الكهّان دعاة إلى عبادة الأصنام والأوثان، وأنّ هذه الصناعة تجر الناس في الغالب وعبر التاريخ إلى الوثنية.
١٠. عدم الاغترار بمن يتعاطى الكهانة ممّن تعاطى العلم الشرعي، وعدم الاغترار بمن قبل الكهانة وإن لم يعمل بها.
١١. أنّ خير الدنيا والآخرة في اتّباع المرسلين.

---
(١) رواه البخاري، حديث ٣٠٩٥.

ونقول: هذه الفتوى الموجزة جديرة بأن تفرد، وأن تشرح ويبيّن للناس ما بها، وأن يطالع ذلك عامة الناس، وأن يتأمل المحتسبون ما بها من قواعد وأصول في الاحتساب على هؤلاء الكهّان، وقد ذكرنا في هذه العجالة بعض فوائدها.

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى[١]: مَا يَقُولُ السَّادَةُ الْفُقَهَاءُ أَئِمَّةُ الدِّينِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ- فِي هَؤُلَاءِ الْمُنَجِّمِينَ الَّذِينَ يَجْلِسُونَ عَلَى الطُّرُقِ وَفِي الْحَوَانِيتِ وَغَيْرِهَا، وَيَجْلِسُ عِنْدَهُمْ النِّسَاءُ وَالْفُسَّاقُ أَيْضًا؛ بِسَبَبِ النِّسَاءِ، وَيَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْمُنَجِّمُونَ أَنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِالْأُمُورِ الْمَغِيبَةِ، مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى صِنَاعَةِ التَّنْجِيمِ، وَيَكْتُبُونَ لِلنَّاسِ الأوفاق، وَيُسْحِرُونَ وَيَكْتُبُونَ الطَّلَاسِمَ، وَيُعَلِّمُونَ النِّسَاءَ السِّحْرَ لِأَزْوَاجِهِمْ وَغَيْرِهِمْ، ويَجْتَمِعُ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ عَلَى أَبْوَابِ الْحَوَانِيتِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَرُبَّمَا آلَ الْأَمْرُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إفْسَادِ النِّسَاءِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَإِفْسَادِ عَقَائِدِ النَّاسِ وَتَعَلُّقِ هَمَجِهِمْ بِالسِّحْرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ: فَهَلْ يَحِلُّ ذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَهَلْ صِنَاعَةُ "التَّنْجِيمِ" مُحَرَّمَةٌ أَمْ لَا؟ وَهَلْ يَجُوزُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى ذَلِكَ وَبَذْلُهَا حَرَامٌ أَمْ لَا؟ وَهَلْ يَجُوزُ لِمَنْ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالْحَانُوتِ مِنْ نَاظِرٍ وَمَالِكٍ وَوَكِيلٍ أَنْ يُؤَجِّرَهُ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَهَلْ الْأُجْرَةُ حَرَامٌ أَمْ لَا؟ وَهَلْ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ وَكُلِّ مُسْلِمٍ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إزَالَةُ ذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَهَلْ إذَا لَمْ يَفْعَلْ وَلِيُّ الْأَمْرِ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ يَدْخُلُ فِي وَعِيدِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمَرْوِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَوْلُهُ:{مَا مِنْ وَالٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً ثُمَّ لَمْ يَجْهَدْ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ الْجَنَّةَ}[٢] وَإِذَا أَنْكَرَ وَلِيُّ الْأَمْرِ هَذَا الْمُنْكَرَ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}؟ وَهَلْ يُثَابُ عَلَى ذَلِكَ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ إذَا أَنْكَرَهُ أَمْ لَا؟ وَإِنْ رَأَوْا أَنْ يَذْكُرُوا مَا حَضَرَهُمْ مِنْ الْأَحَادِيثِ الوعيدية فِي ذَلِكَ مَأْجُورِينَ. إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا يَحِلُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَصِنَاعَةُ "التَّنْجِيمِ" الَّتِي مَضْمُونُهَا الْأَحْكَامُ وَالتَّأْثِيرُ، وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ، وَالتَّمْزِيجِ بَيْنَ الْقُوَى الْفَلَكِيِّ وَالْقَوَابِلِ الْأَرْضِيَّةِ: صِنَاعَةٌ مُحَرَّمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، بَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى لِسَان جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ فِي جَمِيعِ الْمِلَلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[٣] وَقَالَ : ﴿أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[٤] قَالَ عُمَرُ وَغَيْرُهُ: الْجِبْتُ السِّحْرُ. وَرَوَى أَبُو داود فِي سُنَنِهِ بِإِسْنَادِ حَسَنٍ، عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مخارق عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {الْعِيَافَةُ وَالطَّرْقُ وَالطِّيَرَةُ مِنْ الْجِبْتِ} قَالَ عَوْفٌ رَاوِي

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ج ٩/ ص ٢٢٦
(٢) أخرجه مسلم، حديث رقم ٢٠٥، بلفظ ما من أمير.
(٣) طه: من الآية ٦٩
(٤) النساء: من الآية ٥١

الْحَدِيثِ: الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ. فَإِذَا كَانَ الْخَطُّ وَنَحْوُهُ الَّذِي هُوَ مِنْ فُرُوعِ النَّجَّامَةِ مِنْ الْجِبْتِ، فَكَيْفَ بِالنَّجَّامَةِ؟ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُوَلِّدُونَ الْأَشْكَالَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَوَلِّدٌ مِنْ أَشْكَالِ الْفَلَكِ.

وَرَوَى أَحْمَد وَأَبُو داود وَابْنُ ماجه وَغَيْرُهُمْ بِإِسْنَادِ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ}[1] فَقَدْ صَرَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنْ السِّحْرِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وَهَكَذَا الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ الِاسْتِقْرَاءَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ النُّجُومِ لَا يُفْلِحُونَ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَرَوَى أَحْمَد وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ عُبَيْدٍ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا} وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْعَرَّافِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ. وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَ السَّائِلِ فَكَيْفَ بِالْمَسْئُولِ.

وَرَوَى أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ {عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي قَالَ: قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ قَوْمًا مِنَّا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتُوهُمْ} فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إتْيَانِ الْكُهَّانِ، وَالْمُنَجِّمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْكَاهِنِ عِنْدَ الخطابي وَغَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ الْعَرَبِ، وَعِنْدَ آخَرِينَ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْكَاهِنِ وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْهُ فَلَحِقَ بِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ} وَحُلْوَانُهُ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ "حَلَاوَتُهُ" وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطِيهِ الْمُنَجِّمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يَسْتَقْسِمُ بِهَا مِثْلَ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا (أ ب ج د) وَالضَّارِبِ بِالْحَصَى وَنَحْوِهِمْ، فَمَا يُعْطَى هَؤُلَاءِ حَرَامٌ.

وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ: كالبغوي وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ: {أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَمَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ}[2]

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ؛ يُنَزِّلُ اللَّهُ الْغَيْثَ وَيَقُولُونَ بِكَوْكَبِ كَذَا وَكَذَا}[3]

---

(١) رواه أبو داود، حديث ٣٤٠٦. وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٧٩٣.
(٢) رواه البخاري، حديث ٨٠١.
(٣) رواه مسلم، حديث ١٠٦.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ}(١) وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٢) قَالَ: هُوَ الِاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ(٣) أَوْ كَمَا قَالَ.

وَالنُّصُوص عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَتَّسِعَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهَا.

وَقَدْ تَبَيَّنَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ الْأُجْرَةَ الْمَأْخُوذَةَ عَلَى ذَلِكَ وَالْهِبَةَ وَالْكَرَامَةَ حَرَامٌ عَلَى الدَّافِعِ وَالْآخِذِ، وَأَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْمُلَّاكِ وَالنُّظَّارِ وَالْوُكَلَاءِ إكْرَاءُ الْحَوَانِيتِ الْمَمْلُوكَةِ أَوْ الْمَوْقُوفَةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَالْفُسَّاقِ بِهَذِهِ الْمَنْفَعَةِ؛ إذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ فِيهَا هَذَا الْجِبْتَ الْمَلْعُونَ. وَيَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ وَكُلِّ قَادِرٍ السَّعْيُ فِي إزَالَةِ ذَلِكَ، وَمَنَعَهُمْ مِنْ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ أَوْ الطُّرُقَاتِ، أَوْ دُخُولِهِمْ عَلَى النَّاسِ فِي مَنَازِلِهِمْ لِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَيَكْفِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾(٤) وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾(٥) فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينَ يَقُولُونَ الْإِثْمَ وَيَأْكُلُونَ السُّحْتَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بِرِوَايَةِ الصِّدِّيقِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: {إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ}(٦) وَأَيُّ مُنْكَرٍ أُنْكِرَ مِنْ عَمَلِ هَؤُلَاءِ الْأَخَابِثِ: سُوسِ الْمُلْكِ وَأَعْدَاءِ الرُّسُلِ، وَأَفْرَاخِ الصَّابِئَةِ عُبَّادِ الْكَوَاكِبِ، فَهَلْ كَانَتْ بَعْثَةُ الْخَلِيلِ -صَلَاةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إمَامِ الْحُنَفَاءِ- إلَّا إلَى سَلَفِ هَؤُلَاءِ؟ فَإِنَّ نمرود بْنَ كَنْعَانَ كَانَ مَلِكَ هَؤُلَاءِ، وَعُلَمَاءُ الصَّابِئَةِ هُمْ الْمُنَجِّمُونَ وَنَحْوُهُمْ، وَهَلْ عُبِدَتْ الْأَوْثَانُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ إلَّا عَنْ رَأْيِ هَذَا الصِّنْفِ الْخَبِيثِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ اسْتَقْوَوْهُ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى التَّدَيُّنِ بِكِتَابٍ؟ فَإِنَّهُ الْخَلِيقُ بِأَنْ يَأْخُذَ بِنَصِيبٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

(١) رواه مسلم، حديث١٥٥٠.
(٢) الواقعة: من الآية ٨٢
(٣) رواه مسلم، حديث ١٠٧.
(٤) المائدة: من الآية ٧٩
(٥) المائدة: من الآية ٦٣
(٦) رواه أبو داود، حديث ٣٧٧٥. وصححه الألباني في صحيح أبي داود، برقم ٤٣٣٨.

تعليق شهادة أكابر المنجمين على أنّ نفع عبادات الموحدين في الدين والدنيا أعظم من نفع علومهم الخبيثة:

وَهَكَذَا قَدْ اعْتَرَفَ رُؤَسَاءُ الْمُنَجِّمِينَ مِنْ الْأَوَّلِينَ والآخرين أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ أَهْلُ الْعِبَادَاتِ وَالدَّعَوَاتِ، يَرْفَعُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِبَرَكَةِ عِبَادَاتِهِمْ وَدُعَائِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَى اللهِ، مَا يَزْعُمُ الْمُنَجِّمُونَ أَنَّ الْأَفْلَاكَ تُوجِبُهُ، وَيَعْتَرِفُونَ أَيْضًا بِأَنَّ أَهْلَ الْعِبَادَاتِ وَالدَّعَوَاتِ ذَوِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ يُعْطَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَيْسَ فِي قُوَى الْأَفْلَاكِ أَنْ تَجْلِبَهُ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي اتِّبَاعِ الْمُرْسَلِينَ، وَجَعَلَ خَيْرَ أُمَّةٍ هُمْ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١) وَاَللَّهُ يُؤَيِّدُ وَيُعِينُ عَلَى الدِّينِ وَاتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ وَهُوَ الْمُحَرَّمُ لِكَسْبِهِ، كَالْمَأْخُوذِ ظُلْمًا بِأَنْوَاعِ الْغَصْبِ مِنْ السَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْقَهْرِ، وَكَالْمَأْخُوذِ بِالرِّبَا وَالْمَيْسِرِ، وَكَالْمَأْخُوذِ عِوَضًا عَنْ عَيْنٍ أَوْ نَفْعٍ مُحَرَّمٍ، كَثَمَنِ الْخَمْرِ وَالدَّمِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. فَمَذْهَبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي ذَلِكَ مِنْ أَعْدَلِ الْمَذَاهِبِ، فَإِنَّ تَحْرِيمَ الظُّلْمِ وَمَا يَسْتَلْزِمُ الظُّلْمَ أَشَدُّ مِنْ تَحْرِيمِ النَّوْعِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَبَائِثَ مِنْ الْمَطَاعِمِ؛ إذْ هِيَ تُغَذِّي تَغْذِيَةً خَبِيثَةً تُوجِبُ لِلْإِنْسَانِ الظُّلْمَ، كَمَا إذَا اغْتَذَى مِنْ الْخِنْزِيرِ وَالدَّمِ وَالسِّبَاعِ، فَإِنَّ الْمُغَذِّيَ شَبِيهٌ بِالْمُغْتَذَى بِهِ، فَيَصِيرُ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ بِحَسَبِ مَا اغْتَذَى مِنْه. وَإِبَاحَتُهَا لِلْمُضْطَرِّ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَةَ بَقَاءِ النَّفْسِ مُقَدَّمٌ عَلَى دَفْعِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ عَارِضٌ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ مَعَ الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ أَثَرًا يَضُرُّ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ فَمُحَرَّمٌ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ، وَحَرَّمَهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ وَجَعَلَهُ مُحَرَّمًا عَلَى عِبَادِهِ. وَحَرَّمَ الرِّبَا لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلظُّلْمِ، فَإِنَّهُ أَخْذُ فَضْلٍ بِلَا مُقَابِلٍ لَهُ، وَتَحْرِيمُ الرِّبَا أَشَدُّ مِنْ تَحْرِيمِ الْمَيْسِرِ الَّذِي هُوَ الْقِمَارُ؛ لِأَنَّ الْمُرَابِيَ قَدْ أَخَذَ فَضْلًا مُحَقَّقًا مِنْ مُحْتَاجٍ، وَأَمَّا الْمُقَامِرُ فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ فَضْلٌ وَقَدْ لَا يَحْصُلُ لَهُ، وَقَدْ يَقْمُرُ هَذَا هَذَا وَقَدْ يَكُونُ بِالْعَكْسِ.(٢)

تناول شيخ الإسلام ما حُرم من الأموال بسبب الحصول عليها: من عمل محرم، أو ببيع شيء محرم، فعدّ منها حلوان الكاهن. وكان من فقه شيخ الإسلام هنا أنّ تحريم حلوان الكاهن وغيره مما ذكر أشد تحريماً، وأدخل في الظلم من المحرم لذاته من الميتة ولحم الخنزير، إذ هذه المحرمات لذاتها قد تباح للضرورة أما الكهانة وغيرها فلا تباح بحال. وهذه فقه دقيق يبين خطورة المال المأخوذ من الكهانة، وأنه من أشد الظلم وأخبث المكاسب؛ لأن الظلم محرم قليله وكثيره، وما أخذ بالكهانة فهو ظلم.

---

(١) المائدة: من الآية ٥٤

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص ٣٠٨)

حرمة حلوان الكاهن والمنجم كحرمة الأموال المأخوذة على منع إقامة حدود الله:

قال رحمه الله: وَكَذَلِكَ ذَوُو الْجَاهِ إذَا حَمُوا أَحَدًا أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، مِثْلَ أَنْ يَرْتَكِبَ بَعْضُ الْفَلَّاحِينَ جَرِيمَةً ثُمَّ يَأْوِي إلَى قَرْيَةِ نَائِبِ السُّلْطَانِ أَوْ أَمِيرِهِ، فَيُحْمَى عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ الَّذِي حَمَاهُ مِمَّنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا}[1] فَكُلُّ مَنْ آوَى مُحْدِثًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُحْدِثِينَ فَقَدْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ: {إنَّ مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ} فَكَيْفَ بِمَنْ مَنَعَ الْحُدُودَ بِقُدْرَتِهِ وَيَدِهِ، وَاعْتَاضَ عَنْ الْمُجْرِمِينَ بِسُحْتٍ مِنْ الْمَالِ يَأْخُذُهُ، لَا سِيَّمَا الْحُدُودُ عَلَى سُكَّانِ الْبَرِّ، فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ فَسَادِهِمْ حِمَايَةَ الْمُعْتَدِينَ مِنْهُمْ بِجَاهٍ أَوْ مَالٍ سَوَاءٌ كَانَ الْمَالُ الْمَأْخُوذُ لِبَيْتِ الْمَالِ أَوْ لِلْوَالِي: سِرًّا أَوْ عَلَانِيَةً، فَذَلِكَ جَمِيعُهُ مُحَرَّمٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ مِثْلُ تَضْمِينِ الْحَانَاتِ وَالْخَمْرِ، فَإِنَّ مَنْ مُكِّنَ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَعَانَ أَحَدًا عَلَيْهِ بِمَالٍ يَأْخُذُهُ مِنْهُ، فَهُوَ مَنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ. وَالْمَالُ الْمَأْخُوذُ عَلَى هَذَا يُشْبِهُ مَا يُؤْخَذُ مِنْ مَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ وَثَمَنِ الْكَلْبِ، وَأُجْرَةِ الْمُتَوَسِّطِ فِي الْحَرَامِ الَّذِي يُسَمَّى الْقَوَّادَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ} رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. فَمَهْرُ الْبَغِيِّ الَّذِي يُسَمَّى حُدُورَ الْقِحَابِ، وَفِي مَعْنَاهُ مَا يُعْطَاهُ الْمُخَنَّثُونَ الصِّبْيَانُ مِنْ الْمَمَالِيكِ أَوْ الْأَحْرَارِ عَلَى الْفُجُورِ بِهِمْ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ: مِثْلُ حَلَاوَةِ الْمُنَجِّمِ وَنَحْوِهِ عَلَى مَا يُخْبِرُ بِهِ مِنْ الْأَخْبَارِ الْمُبَشِّرَةِ بِزَعْمِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.[2]

والناظر في كلام شيخ الإسلام يجده يشبه المال الذي يأخذه الناس على حماية المعتدين والفارين بالجنايات، أنه يشبه حلوان الكاهنة، وذكر شيخ الإسلام ذلك لاستقرار حرمة حلون الكاهن وخبث كسبه عند جميع المسلمين، بل كما ذكر سابقاً عند جميع أهل الملل، وهذا من الأمور التي احتسب بها شيخ الإسلام على الكهانة، وإنّ من منهجه أنه يتحدث عنها أصالة وعرضاً، فهنا الكلام على من يحامي عن الله ورسوله، ويمنع من إقامة الحدود، فيذكر -رحمه الله- الكهانة، فتستحضر النفوس قبح الكهانة مع هؤلاء الذين يمنعون إقامة حدود الله، ويأخذون المال من أجل ذلك.

ويذكر هنا أيضاً -رحمه الله- من يتعامل مع النجوم، ويخبر الناس عنها بأخبار الغيب، ويضعه كذلك مع هؤلاء المانعين إقامة حدود الله الآكلين أموال الناس بالباطل.

عقوبة الكاهن بأخذ أمواله التي تكهن بها وإنفاقها في مصالح المسلمين:

وَسُئِلَ عَنْ الْيَهُودِ بِمِصْرٍ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ كَثُرَ مِنْهُمْ بَيْعُ الْخَمْرِ لِآحَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ شَرَطَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يَبِيعُوهَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَمَتَى فَعَلُوا ذَلِكَ حَلَّ

(١) رواه مسلم بألفاظ متقاربة في مواضع أقربها لهذ الرواية حديث رقم ٢٤٢٩.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص ٣٨٠)

مِنْهُمْ مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ. فَمَاذَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ الْعُقُوبَةِ؟ وَهَلْ لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ الْأَمْوَالَ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مِنْ بَيْعِ الْخَمْرِ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. يَسْتَحِقُّونَ عَلَى ذَلِكَ الْعُقُوبَةَ الَّتِي تُرْدِعُهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَيَنْتَقِضُ بِذَلِكَ عَهْدُهُمْ فِي أَحَدِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ. وَإِذَا انْتَقَضَ عَهْدُهُمْ حَلَّتْ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، وَحَلَّ مِنْهُمْ مَا يَحِلُّ مِنْ الْمُحَارِبِينَ الْكُفَّارِ، وَلِلسُّلْطَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ الَّتِي قَبَضُوهَا مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا يَرُدُّهَا إلَى مَنْ اشْتَرَى مِنْهُمْ الْخَمْرَ، فَإِنَّهُمْ إذَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ مَمْنُوعِينَ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَشِرَائِهَا وَبَيْعِهَا فَاشْتَرَوْهَا، كَانُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَبِيعُ الْخَمْرَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ بَاعَ خَمْرًا لَمْ يَمْلِكْ ثَمَنَهُ. فَإِذَا كَانَ الْمُشْتَرِي قَدْ أَخَذَ الْخَمْرَ فَشَرِبَهَا، لَمْ يُجْمَعْ لَهُ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ، بَلْ يُؤْخَذُ هَذَا الْمَالُ فَيُصْرَفُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا قِيلَ فِي مَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ عِوَضٌ عَنْ عَيْنٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ مُحَرَّمَةٍ، إذَا كَانَ الْعَاصِي قَدْ اسْتَوْفَى الْعِوَضَ... (١)

والكاهن يُقام عليه حكم الله تبارك وتعالى، ومن التنكيل به أخذ تلك الأموال التي اكتسبها من الكهانة، وأن تُنفق في مصالح المسلمين، وهذا ردع لكل كاهن، حتى يعلم السائر في هذا الطريق المظلم، أنه إذا ضبط، وأحيل إلى المحاكم الشرعية وثبتت عليه الكهانة –أنّ روحه ستزهق، وأنّ ماله سيسلب، لأنه مال أخذ في مقابل منفعة محرمة، بل في مقابل شرك بالله عزّ وجل. وأنّ تعاطي الكهانة بالنسبة لأهل الكتاب المعاهدين ناقض للعهد، وأنهم بذلك يكونون محارَبين، وأنّ أموالهم أيضاً التي أخذت من الكهانة تصادر لمصلحة المسلمين.

ويتصل بهذه الفتوى ما ذكره -رحمه الله- فيما يتعلق بالاستئجار على المنافع المحرمة:

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ (فَصْلٌ الِاسْتِئْجَارُ عَلَى مَنْفَعَةٍ مُحَرَّمَةٍ: كَالزِّنَا وَاللِّوَاطِ وَالْغِنَاءِ وَحَمْلِ الْخَمْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ): بَاطِلٌ، لَكِنْ إذَا اسْتَوْفَى تِلْكَ الْمَنْفَعَةَ وَمَنَعَ الْعَامِلَ أُجْرَتَهُ كَانَ غَدْرًا وَظُلْمًا أَيْضًا. وَقَدْ اسْتَوْفَيْت مَسْأَلَةَ الِاسْتِئْجَارِ لِحَمْلِ الْخَمْرِ فِي كِتَابِ (الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ) بَيَّنْت أَنَّ الصَّوَابَ مَنْصُوصُ أَحْمَد: أَنَّهُ يُقْضَى لَهُ بِالْأُجْرَةِ وَأَنَّهَا لَا تَطِيبُ لَهُ: إمَّا كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ أَوْ تَحْرِيمٍ، لَكِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِيمَا كَانَ جِنْسُهُ مُبَاحًا كَالْحَمْلِ بِخِلَافِ الزِّنَا. وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَهْرَ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ، وَالْحَاكِمُ يَقْضِي بِعُقُوبَةِ الْمُسْتَأْجِرِ الْمُسْتَوْفِي لِلْمَنْفَعَةِ الْمُحَرَّمَةِ، فَتَكُونُ عُقُوبَتُهُ لَهُ عِوَضًا عَنْ الْأَجْرِ. فَأَمَّا فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَهَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ ذَلِكَ؟ وَإِنْ كَانَ لَا يَحِلُّ الْأَخْذُ لِحَقِّ اللَّهِ، فَهَذَا مُتَقَوِّمٌ. وَإِنْ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ ذَلِكَ كَانَ فِي ذَلِكَ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٤٥٠)

دَرْكُ لِحَاجَتِهِ، أَنَّهُ يَفْعَلُ الْمُحَرَّمَ وَيُعْذَرُ وَلَا يُعَاقِبُهُ فِي الْآخِرَةِ إلَّا عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ لَا عَلَى الْغَدْرِ وَالظُّلْمِ. وَهَذَا الْبَحْثُ يَتَّصِلُ بِالْبَحْثِ فِي أَحْكَامِ سَائِرِ الْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ وقبوضها.[١]

وتتصل هذه الفتوى بالفتوى السابقة إذ يذكر -رحمه الله- هنا قضية أخذ الأموال التي اتفق عليها الكاهن وطالب الكهانة، وأنه إذا تكهن له، فقد أعطاه منفعة وإن كانت محرمة، فبيّن أنه إذا منعه المال كان مرتكباً لمحرم هو إتيان هذا الكاهن، وطالما يأخذ هذا المال، وتلك مسألة دقيقة ترتبط كما قال شيخ الإسلام بالبحث في أحكام سائر العقود الفاسدة وقبوضها، فذكر شيخ الإسلام أنّ هذا الحال لا يحل للآخذ، وأنّ الحاكم لابد وأن يعاقب ذلك المتكهن، ولكن هذا ينبغي أن يفهم في ضوء الفتوى السابقة، وأنّ الحاكم يأخذ هذا المال وينفقه في مصالح المسلمين. ذكرنا هذه الفتوى وذكرنا وجوب ربطها بالكلام السابق لشيخ الإسلام، حتى لا يجتزئ أحد كلام شيخ الإسلام هنا، فيدّعي عليه أنه أمر بإعطاء الكاهن كهانته، وأنه إذا لم يعط كان ذلك ظلماً. فلا بد أن يكون هذا معلوماً:

١. حرمة المال المأخوذ على الكهانة وخبثه.
٢. إعطاء المتكهن هذا المال المتفق عليه.
٣. أخذ الحاكم لذلك المال وإنفاقه في مصالح المسلمين.
٤. معاقبة المتكهن.

وأنّ الأمر له شقّان: شقّ متعلق بالظاهر، وشقٌ متعلق فيما بينه وبين ربه تعالى، فيرى أنه يعطي الكاهن المال، وهو حرام على الكاهن، ولكن لئلا يجمع المتكهن بين معصيتين: التكهن والظلم. هذا فيما بينه وبين الله، وأنه يعاقب في الآخرة على جرم واحد.

أما في الظاهر فإن الحاكم يعاقب المتكهن على كهانته وعلى إعطائه المال الذي حوله للكاهن المشرك بالله تعالى، ثم يغدو الحاكم على الكاهن فيأخذ هذا المال منه الذي كسبه بالشرك ويحرم منه، ثم يقام حكم الله تعالى عليه.

لا ينتفع مطلقا بكسب الكاهن:

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أُجْرَةِ الْحَجَّامِ، هَلْ هِيَ حَرَامٌ؟ وَهَلْ يَنْجُسُ مَا يَصْنَعُهُ بِيَدِهِ لِلْمَأْكَلِ؟ وَهَلْ النَّبِيُّ ﷺ أَعْطَى الْحَجَّامَ أَجْرَهُ؟ وَمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ التَّحْرِيمِ؟ وَهَلْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {شِفَاءُ أُمَّتِي فِي ثَلَاثٍ: آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَوْ لَعْقَةٌ مِنْ عَسَلٍ أَوْ كَأْسٌ مِنْ حَجَّامٍ}[٢] فَكَيْفَ حَرَّمَ هَذَا وَوَصَفَ بِالتَّدَاوِي هُنَا وَجَعَلَهُ شِفَاءً.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٧/ ص ٣٤٩)
(٢) ورد نحوه في صحيح البخاري، حديث ٥٢٤٨.

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. أَمَّا يَدُهُ إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَجَاسَةٌ فَهِيَ كَسَائِرِ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَضُرُّهَا تَلْوِيثُهَا بِالدَّمِ إذَا غَسَلَهَا، كَمَا لَا يَضُرُّهَا تَلَوُّثُهَا بِالْخَبَثِ حَالَ الِاسْتِنْجَاءِ إذَا غَسَلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: {احْتَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَعْطَى الْحَجَّامَ أَجْرَهُ}(1) وَلَوْ كَانَ سُحْتًا لَمْ يُعْطِهِ إيَّاهُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ -وَسُئِلَ عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ- قَالَ: {احْتَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَجَمَهُ أَبُو طِيبَةَ، فَأَمَرَ لَهُ بِصَاعَيْنِ مِنْ طَعَامٍ، وَكَلَّمَ أَهْلَهُ فَخَفَّفُوا عَنْهُ}(2)

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْحَجَّامَ إذَا حَجَمَ يَسْتَحِقُّ أُجْرَةَ حَجْمِهِ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَوْلٌ ضَعِيفٌ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَقَدْ أَرْخَصَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ أَنْ يَعْلِفَهُ نَاضِحَهُ وَيُطْعِمَهُ رَقِيقَهُ، كَمَا فِي حَدِيثِ مُحَيِّصَةَ {أَنَّ أَبَاهُ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي خَرَاجِ الْحَجَّامِ فَأَبَى أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى قَالَ: أَطْعِمْهُ رَقِيقَك وَاعْلِفْهُ نَاضِحَك}(3)

رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَغَيْرُهُ. وَاحْتَجَّ بِهَذَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ، وَإِنَّمَا يُكْرَهُ لِلْحَرِّ تَنْزِيهًا. قَالُوا: لَوْ كَانَ حَرَامًا لَمَا أَمَرَهُ أَنْ يُطْعِمَهُ رَقِيقَهُ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَعَبِّدُونَ وَمِنْ الْمُحَالِ أَنْ يَأْذَنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُطْعِمَ رَقِيقَهُ حَرَامًا. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ يَحْرُمُ، لِمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: {كَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ وَثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ}(4)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ أَبِي جحيفة قَالَ: {رَأَيْت أَبِي اشْتَرَى حَجَّامًا فَأَمَرَ بِمَحَاجِمِهِ فَكُسِرَتْ فَسَأَلْته عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ ثَمَنِ الدَّمِ}(5) قَالَ هَؤُلَاءِ: فَتَسْمِيَتُهُ خَبِيثًا يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ كَتَحْرِيمِ مَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ.

قَالَ الْأَوَّلُونَ: قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ فَلَا يَقْرَبَن مَسْجِدَنَا}(6) فَسَمَّاهُمَا خَبِيثَتَيْنِ بِخُبْثِ رِيحِهِمَا وَلَيْسَتَا حَرَامًا، وَقَالَ: {لَا يُصَلِّيَن أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُدَافِعُ الْأَخْبَثِينَ}(7) أَيْ: الْبَوْلُ وَالْغَائِطُ. فَيَكُونُ تَسْمِيَتُهُ خَبِيثًا لِمُلَاقَاةِ صَاحِبِهِ النَّجَاسَةَ لَا لِتَحْرِيمِهِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ أَعْطَى الْحَجَّامَ أَجْرَهُ، وَأَذِنَ لَهُ أَنْ يُطْعِمَهُ الرَّقِيقَ وَالْبَهَائِمَ. وَمَهْرُ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ لَا يَسْتَحِقُّهُ وَلَا يُطْعَمُ مِنْهُ رَقِيقٌ وَلَا بَهِيمَةٌ.(8)

---

(١) رواه البخاري، حديث ٢١١٨، ومسلم٢٩٥٤.
(٢) رواه البخاري، حديث ٥٢٦٣، ومسلم٢٩٥٢.
(٣) رواه البيهقي، وهو في الصحيحة برقم ٤٠٠٠.
(٤) حديث رقم ٢٩٣٢.
(٥) أخرجه البخاري، حديث ٢٠٨٤.
(٦) سنن النسائي، ٦٦٨١.
(٧) رواه مسلم، حديث ٨٦٩ باختلاف يسير.
(٨) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٧/ ص٣٣٨)

الفصل الرابع
الكشوف والآيات النبوية
والفروق بينها وبين الأحوال الشيطانية

لقد خلق الله الخلق لعبادته تعالي، وعبادته طاعته بفعل ما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، ومن رحمته بعباده أن أرسل لعباده رسله يبينون للعباد الدين الذي يرضاه سبحانه وتعالى، فجاء الرسل بالبينات والهدى يبلغون رسالات الله، ويبينون ما يجب عليهم، وما يحرم وما يباح، وقد اقتضت حكمة الله أن يؤيد هؤلاء الرسل بالآيات البينات والدلائل الباهرات المعجزات، وقد ذكر لنا ربنا كثيراً من الآيات التي أيّد بها رسله كآيات موسى التسع، وما آتى عيسى من آيات، وما آتى خاتم الأنبياء والمرسلين من الآيات الكثيرة والتي أعظمها القرآن المجيد، وما برح الكهّان وإخوانهم من السحرة والمنجمين يوحون إلى أتباعهم وقاصديهم أنّ الله أعطاهم لكرامتهم عليه معجزات بها يطلعون على الغيب، ويكذبون على الله ويفترون، ويقولون: كما أنّ الله أطلع الأنبياء على الغيب فقد أطلعنا كذلك؛ لأنهم بزعمهم أهل الله وخاصته أعطاهم الله ما أعطى الأنبياء، وهناك فرق تنكبت صراط السنة اللاحب ولم تفقه الوحيين، ولم تقدر الأنبياء قدرهم، فاعتقدوا وكتبوا أنّ الكهّان والسحرة يمكن أن يأتوا بخوارق تكون من جنس آيات الأنبياء حتى إحياء الموتى، كما أنه يجوز عندهم أن يكون السحر والكهانة آية للنبي، فانبرى شيخ الإسلام لتفنيد هذه الأكاذيب بنور الكتاب والسنة، وفصل في هذا الأمر ووسع وأعاد فيه الكلام مراراً، وهو كلام يحتاج المؤمن إلى تكراره مع كثرة الأباطيل من حوله، ودبج كلاماً عظيماً يبين اعتصام هذا الإمام بالكتاب والسنة، ويبين توقيره وإجلاله لأنبياء الله ورسله ومعرفته بعظيم قدرهم، ويبين كذلك قدر آيات الله التي أعطاها للأنبياء، وأنّ الذي يسوي بين آيات الله وبين أفعال السحرة والكهان لا يقدر قدر الأنبياء ولا آياتهم، وأنّ من المحال أن يكون السحر والكهانة آيات لأنبياء الله، كيف والأنبياء مصدر آياتهم الرب الكريم، والسحرة والكهان مصدرهم الشيطان الرجيم، فهل يمكن أن يستويان؟

ونستعرض هنا جانباً من كلام شيخ الإسلام حول هذا الأمر، وقد اختصرنا منه كثيراً مع أنّ الحاجة داعية لإحصاء هذا الكلام كل، وعرضه للمحتسبين والمؤمنين حتى تزول عنهم إشكالات كثيرة، لكننا اقتصرنا هنا عما يناسب المقام، مع الوصية بمطالعة كلامه كاملاً، رحمة الله عليه في مظانه.

المبحث الأول
بيان شيخ الإسلام لأهمية فقه تلك الفروق

تحدّث شيخ الإسلام كثيراً عن آيات الأنبياء وفي مواضع كثيرة من كتبه، وتحدث كذلك عن كرامات الأولياء، لكنه –رحمه الله– أيضاً أفرد المعجزات والكرامات بالحديث، وذلك في مصنفه (قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات) وهي وإن كانت ضمن (مجموع الفتاوى) فقد أفردت وطبعت ونشرت على حدة؛ لأهمية هذه القضية، ولأن الخطأ في فهم هذا الأمر يدخل في أبواب من البدعة بل والشرك والشك في دين الله تعالى، وتحدث كثيرا عن الفروق بين الأنبياء وآياتهم، وبين السحرة والكهان وخوارقهم.

مراتب الخوارق:

فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثمّ كرامات الصالحين، ثمّ خوارق الكفار والفجار، كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين، وأهل الكتاب، والضلاّل من المسلمين.

ونقول صدق –رحمه الله– فإنّ هناك ملاحدة يؤصلون التخاطر عن بعد، فيزعمون لقاء أرواحهم، وحقيقة التخاطر ليس اتحاد أرواح وإنما اتحاد قرنائهم من الجن، فكل زمان من الأزمان تنوع الشياطين طرق التعامل معها وتلبسها لباساً جديداً: يوماً التخاطر، الروحية الحديثة، علوم الريكو، والإسقاط النجمي، وغيرها من تلك العلوم الوثنية التي ألبست ثوب العلم، أو أسلموها كما يقولون، وكلها تعامل مع الشياطين لا تخرج من دائرة التعامل مع الجن والكهانة.

أمّا الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها، فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء؛ فإنّهم يقولون: نحن إنّما حصل لنا هذا باتّباع الأنبياء، ولو لم نتّبعهم لم يحصل لنا هذا.

فهؤلاء إذا قُدّر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء، كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم، كما صارت على إبراهيم، وكما يكثّر الله الطعام والشراب لكثيرٍ من الصّالحين، كما جرى في بعض المواطن للنبيّ، أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبياء. فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدّمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحدٍ قطّ إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يُشاركونهم في بعضها، كما قد يُشاركونهم في بعض أعمالهم. وكرامات الصالحين تدلّ على صحة الدّين الذي جاء به الرسول، لا تدلّ على أنّ الولي معصومٌ، ولا على أنّه يجب طاعته في كلّ ما يقوله.

ومن هنا ضلّ كثيرٌ من النّاس من النّصارى وغيرهم؛ فإنّ الحواريّين وغيرهم كانت لهم كرامات، كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنّوا أنّ ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء،

فصاروا يُوجبون موافقتهم في كلّ ما يقولون، وهذا غلطٌ؛ فإنّ النبيّ وجب قبول كلّ ما يقول لكونه نبيّاً ادّعى النّبوّة، ودلّت المعجزة على صدقه، والنبيّ معصومٌ.

وهنا المعجزة ما دلّت على النبوة بل على متابعة النبيّ وصحّة دين النبيّ، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً، ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبياء وأتباعهم، وبين من خالفهم من الكفار والفجار، كالسحرة والكهان وغيرهم، حتى يظهر الفرق بين الحقّ والباطل، وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه كمدّعي النبوّة، وبين ما لا يكون دليلاً على صدق صاحبه؛ فإنّ الدليلَ لا يكون دليلاً حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وُجِدَ وُجِدَ المدلول، وإلاّ فإذا وُجِدَ تارةً مع وجود المدلول، وتارةً مع عدمه، فليس بدليل.

فآيات الأنبياء وبراهينهم لا توجد إلاّ مع النبوّة، ولا توجد مع ما يناقض النبوة. ومدّعي النبوّة إمّا صادق، وإمّا كاذب. والكذب يُناقض النبوة، فلا يجوز أن يُوجد مع المناقض لها، مثل ما يوجد معها. وليس هنا شيءٌ مخالفٌ لها، لا موافقٌ ولا مناقضٌ؛ فإنّ الكفر والسحر والكهانة، كلّ هذا يناقض النبوّة، لا يجتمع هو والنبوة.

والنّاس رجلان: رجلٌ موافقٌ لهم، ورجلٌ مخالفٌ لهم. فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك، فيُقال: جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان، وأمّا خوارق مخالفيهم كالسحرة والكُهّان، فإنّها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجنّ، مثل قتل الساحر، وتمريضه لغيره؛ فهذا أمرٌ مقدورٌ، معروفٌ للنّاس بالسّحر وغير السّحر، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية، أو غير ذلك، حتّى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد، هذا فعلٌ مقدورٌ للحيوان، فإنّ الطير يفعل ذلك، والجنّ تفعل ذلك... وكذلك إحضار ما يُحضر من طعامٍ أو نفقة أو ثياب، أو غير ذلك من الغيب.

وهذا إنّما هو نقل مالٍ من مكانٍ إلى مكانٍ، وهذا تفعله الإنس والجنّ، لكن الجنّ تفعله، والنّاس لا يُبصرون ذلك، وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً، بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يُزادها، فهذا لا يقدر عليه إنسيّ ولا جنّي.

وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة، مع الكذب في بعض الأخبار، فهذا تفعله الجن كثيراً مع الكُهّان، وهو معتادٌ لهم مقدورٌ، بخلاف إخبارهم بما يأكلون وما يدّخرون، مع تسمية الله على ذلك، فهذا لا تظهر عليه الشياطين. وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمّون الله. وأيضاً فخبر المسيح، وغيره من الأنبياء ليس فيه كذب قط، والكهّان لا بُدّ لهم من الكذب، والربُّ قد أخبر في القرآن أنّ الشياطين تنزل على بعض الناس، فتخبره ببعض الأمور الغائبة، لكن ذكر الفَرْقَ، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[1] وكذلك مسرى الرسول ﷺ

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٣:٢٢١

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ ليريه الربّ من آياته، فخاصّة الرسول ليست مجرّد قطع هذه المسافة، بل قطعها ليريه الربّ من الآيات الغائبة ما يُخبر به.

فهذا لا يقدر عليه الجنّ، وهو نفسه لم يحتجّ بالمسرى على نبوته، بل جعله مما يؤمن به؛ فأخبرهم به ليؤمنوا به.

والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلاّ فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى، ولهذا قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِيْ الْقُرْآنِ﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنه: هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به.[2] وهذا كما قال في الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[3]

وكذلك ما يُخبر به الرسول من أنباء الغيب، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدَاً﴾[4] فهذا غيب الربّ الذي اختص به، مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق، فإنّ هذا لا يقدر عليه إلا الله.

والجنّ غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة، كالذي يسترقه الجن من السماء، مع ما في الجنّ من الكذب، فلا بُدّ لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو ممّا يُعلم بالمنامات وغير المنامات، فهو من جنس المعتاد للناس، وأما ما يخبر الرسل من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً، مثل إخباره: {إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين ذُلْفُ الآنُفِ ينتعلون الشعر، كأنّ وجوههم المجَانُّ المطْرَقَة} وقوله: {لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تُضيء لها أعناق الإبل ببُصرى} ونحو ذلك. فهذا لا يقدر عليه جني ولا إنسيّ. والمقصود أنّ ما يُخبر به غير النبي من الغيب معتادٌ، معروفٌ نظيره من الجن والإنس، فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾

والآيات الخارقة جنسان: جنسٌ في نوع العلم، وجنسٌ في نوع القدرة. فما اختصّ به النبيّ من العلم خارجٌ عن قدرة الإنس والجنّ، وما اختصّ به من المقدورات خارجٌ عن قدرة الإنس والجنّ.

خوارق الجنّ وقدرة الجنّ في هذا الباب كقدرة الإنس؛ لأنّ الجن هم من جملة من دعاه الأنبياء إلى الإيمان، وأرسلت الرسل إليهم، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[5]

---

(١) الإسراء: الآية ٦٠
(٢) صحيح البخاري حديث ٣٥٩٩.
(٣) النجم: من الآية ١٣:١٨
(٤) الجن: من الآية ٢٦,٢٧
(٥) الأنعام: من الآية ١٣٠

ومعلومٌ أنّ النبيّ إذا دعا الجن إلى الإيمان به، فلا بُدّ أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجنّ، فلا بُدّ أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجنّ.

وما يأتي به الكاهن من خبر الجنّ غايته أنّه سمعه الجني لما استرق السمع، مثل الذي يستمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون. وما أعطاه اللهُ سليمانَ مجموعه يخرج عن قدرة الإنس والجنّ، كتسخير الرياح والطير.

خوارق الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم، وأما الملائكة: فالأنبياء لا تدعوا الملائكةَ إلى الإيمان بهم، بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم.

فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم، لا تكون للكفّار، والسحرة، والكُهّان.

ولهذا أخبر الله تعالى أنّ الذي جاءه بالقرآن مَلَكٌ لا شيطان، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِيْ العَرْشِ مَكِين * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المبِين * وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِين * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾(١) وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِين * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِين﴾(٢) وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدُسِ منْ رَبّكَ بِالحَقّ﴾(٣) وقال: ﴿قل مَنْ كَانَ عَدُوَّاً لجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾(٤) وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون﴾(٥)

من الفروق بين آيات الأنبياء وبين خوارق السحرة والكهان:

قال شيخ الإسلام: وبينهما فروق كثيرةٌ، أكثر من عشرة:

أحدها: أنّ ما تخبر به الأنبياء لا يكون إلا صدقاً. وأمّا ما يُخبر به من خالفهم من السحرة والكهان، وعُبّاد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل البدع والفجور من المسلمين، فإنه لابُدّ فيه من الكذب.

الثاني: أنّ الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل، ولا تفعل إلا العدل. وهؤلاء المخالفون لهم لا بُدّ لهم من الظلم؛ فإن ما خالف العدل لا يكون إلا ظلماً؛ فيدخلون في العدوان على الخلق، وفعل الفواحش، والشرك، والقول على الله بلا علم، وهي المحرمات التي حرّمها الله مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّم رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيرِ الحَقّ وَأَنْ تُشْرِكوا باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُون﴾(٦)

---

(١) التكوير: الآيات ١٩:٢٥
(٢) الشعراء: الآية ١٩٣
(٣) النحل: الآية ١٠٢
(٤) البقرة: من الآية ٩٧
(٥) الشعراء: الآية ٢٢١:٢٢٣
(٦) الأعراف: الآية ٣٣

الثالث: أنّ ما يأتي به من يخالفهم: معتادٌ لغير الأنبياء، كما هو معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور. وآيات الأنبياء معتادة لهم وتدلّ على خبر الله وأمره، على علمه وحكمه؛ فتدلّ على أنهم أنبياء وعلى صدق من أخبر بنبوتهم، سواء كانوا هم المخبرين أو غيرهم. وكرامات الأولياء هي من هذا؛ فإنهم يخبرون بنبوة الأنبياء، وكذلك أشراط الساعة هي أيضاً تدلّ على صدق الأنبياء؛ إذ كانوا قد أخبروا بها. فالذي جعله أولئك من كرامات الأولياء، وأشراط الساعة ناقضاً لآيات الأنبياء، إذ هو من جنسها، ولا يدلّ عليها. فأولئك كذّبوا بالموجود، وهؤلاء سوّوا بين الآيات وغيرها، فلم يكن في الحقيقة عندهم آية، وكانت الآيات عند أولئك منتقضة. وأولئك نصروا جهلهم بالتكذيب بالحق، وهؤلاء نصروا جهلهم أيضاً بقول الباطل، فقالوا: إنّ الآية هي المقرونة بالدعوى التي لا تعارض، وزعموا أنه لا يمكن معارضة السحر والكهانة إذا جعل آية، وأنه إذا لم يعارض كان آيةً، وهو تكذيب بالحق أيضاً؛ فإنّه قد ادّعاه غير نبيّ ولم يعارض.

فالطائفتان أدخلت في الآيات ما ليس منها، وأخرجت منها ما هو منها، فكرامات الأولياء، وأشراط الساعة من آيات الأنبياء وأخرجوها، والسحر والكهانة ليس من آياته، وأدخلوها، أو سوّوا بينها وبين الآيات.

الرابع: نقول سيتكلم شيخ الإسلام هنا من باب التنزّل، وما يسمى الفرض الجدلي، فمن المعلوم يقيناً أنّ النبوة لا تنال بالاكتساب بل هي محض تفضل، وهي اصطفاء من الله عز وجل يختص بها من يشاء من خلقه، ولكن الشيخ يقول حتى على قول من يقول بذلك من الفلاسفة ومن تبعهم، فلا يمكن أن يشتبه أمرها بأمر الكهانة وغيرها؛ إذ حتى من ضل وقال بهذا لم يقل أبداً أنّ النبوة تنال بأفعال الكهان من الكفر والفسوق والعصيان، قال رحمه الله: إنّ آيات الأنبياء والنبوة لو قُدّر أنها تُنال بالاكتساب، فهي إنما تُنال بعبادة الله وطاعته؛ فإنه لا يقول عاقل: إنّ أحداً يصير نبياً بالكذب والظلم، بل بالصدق والعدل، سواءٌ قال: إنّ النبوة جزاء على العمل، أو قال: إنه إذا زكى نفسه فاض عليه ما يفيض على الأنبياء. فعلى القولين: هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل، وحينئذ فيمتنع أنّ صاحبها يكذب على الله؛ فإنّ ذلك يفسدها بخلاف من خالف الأنبياء: من السحرة، والكهان، وعباد المشركين، وأهل البدع والفجور من أهل الملل، أهل الكتاب، والمسلمين، فإن هؤلاء تحصل لهم الخوارق مع الكذب والإثم، بل خوارقهم مع ذلك أشدّ؛ لأنهم يخالفون الأنبياء. (وهذا ما قررناه وذكرناه كثيراً أنه كلما كان العبد أشد كفراً وضلالاً كان الشيطان أعظم معاونة له، وآتاه من الخوارق والعجائب على قدر هذا الكفر الذي يأتي به).

وما ناقض الصدق والعدل، لم يكن إلا كذباً وظلماً. فكلّ من خالف طريق الأنبياء، لا بُدّ له من الكذب والظلم إما عمداً، وإما جهلاً. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أثيم﴾ ليس من شرطه أن يتعمد الكذب، بل من كان جاهلاً يتكلم بلا علم فيكذب، فإن الشياطين تنزل عليه أيضاً؛ إذ من أخبر

عن الشيء بخلاف ما هو عليه، من غير اجتهاد يُعذر به، فهو كذّاب. ولهذا يصف الله المشركين بالكذب، وكثيرٌ منهم لا يتعمّد ذلك. وكذلك قال النبي ﷺ لما أفتى أبو السنابل: بأنّ المتوفى عنها الحامل، لا تحلّ بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين. فقال: {كذب أبو السنابل}[1]

أي في قوله: بأنّ المتوفى عنها الحامل لا تحلّ بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين. ونظائره كثيرة.

فالأنبياء لا يقع في إخبارهم عن الله كذب لا عمداً ولا خطأ. وكلّ من خالفهم لابد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورةً؛ فإن خبره إذا لم يكن مطابقاً لخبرهم كان مخالفاً له، فيكون كذباً.

فالذي تَنَزَّل عليه الشياطين إذا ظن واعتقد أنهم جاؤوا من عند الله، وأخبر بذلك كان كاذباً. وكذلك إذا قال عما أوحوه إليه: إنّ الله أوحاه إليه، كان كاذباً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[2] ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد، وهو أول من ظهر في الإسلام بالكذب في هذا، وثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: {يكون في ثقيف كذّاب ومبير}[3] فكان الكذّاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان يتشيع لعلي؛ ولهذا يوجد الكذب في الشيعة أكثر ممّا يوجد في جميع الطوائف، والمبير هو الحجاج بن يوسف، وكان ظالماً معتدياً، وكان يتشيع لعثمان، والمختار يتشيع لعلي، فذُكر لابن عمر، وابن عباس أمر المختار، وقيل لأحدهما: إنه يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ وقيل للآخر: إنه يزعم أنه يُنزَّل عليه، فقال: صدق ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

الخامس: أنّ ما تأتي به السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل، لا يخرج عن كونه مقدوراً للإنس والجن، وآيات الأنبياء لا يقدر على مثلها لا الإنس ولا الجن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَت الإنسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يَأتوا بِمِثلِ هَذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[4]

قال شيخ الإسلام: الواجب معرفة الفروق بين آيات الأنبياء وبين من خالفهم فينبغي أن يُتدبّر هذا الموضع، وتُعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبياء، وبين ما يشتبه بها، كما يُعرف الفرق بين النبي وبين المتنبي، وبين ما يجيء به النبي وما يجيء به المتنبي.

فالفرق حاصلٌ في نفس صفات هذا وصفات هذا، وأفعال هذا وأفعال هذا، وأمر هذا وأمر هذا، وخبر هذا وخبر هذا، وآيات هذا وآيات هذا؛ إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يبيّنه ويُيسّره؛ ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البيّنات، وكيف يشبّه خير الناس بشر

(١) مسند أحمد حديث ٤٠٥٢، وأصله في الصحيحين.
(٢) الأنعام: من الآية ١٢١
(٣) سنن الترمذي، حديث ٢١٤٦.
(٤) الإسراء: الآية ٨٨

الناس؟ ولهذا لما مثّلوا الرسول بالساحر وغيره، قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾[1]

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ الْعَارِفُ الرَّبَّانِيُّ الْمَقْذُوفُ فِي قَلْبِهِ النُّورُ الْقُرْآنِيُّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ، تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ[2]: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا إلَهَ سِوَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ فِي الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، وَإِنْ كَانَ اسْمُ "الْمُعْجِزَةِ" يَعُمُّ كُلَّ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ فِي اللُّغَةِ، وَعُرْفِ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ كَالْإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ -وَيُسَمُّونَهَا الْآيَاتِ- لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ يُفَرِّقُ فِي اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا فَيَجْعَلُ "الْمُعْجِزَةَ" لِلنَّبِيِّ وَ"الْكَرَامَةَ" لِلْوَلِيِّ وَجِمَاعُهُمَا الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ.

فَنَقُولُ: صِفَاتُ الْكَمَالِ تَرْجِعُ إلَى ثَلَاثَةٍ: الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْغِنَى. وَإِنْ شِئْت أَنْ تَقُولَ: الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ. وَالْقُدْرَةُ إمَّا عَلَى الْفِعْلِ وَهُوَ التَّأْثِيرُ، وَإِمَّا عَلَى التَّرْكِ وَهُوَ الْغِنَى وَالْأَوَّلُ أَجْوَدُ. وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا تَصْلُحُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ إلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ. وَقَدْ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحَى إلَيَّ﴾[3] وَكَذَلِكَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَهَذَا أَوَّلُ أُولِي الْعَزْمِ وَأَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذَا خَاتَمُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ أُولِي الْعَزْمِ، كِلَاهُمَا يَتَبَرَّأُ مِنْ ذَلِكَ. وَهَذَا لِأَنَّهُمْ يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ ﷺ تَارَةً بِعِلْمِ الْغَيْبِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4] و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾[5] وَتَارَةً بِالتَّأْثِيرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[6] إلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ وَتَارَةً يَعِيبُونَ عَلَيْهِ الْحَاجَةَ الْبَشَرِيَّةَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[7] فَأَمَرَهُ أَنْ يُخْبِرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ، وَلَا هُوَ مَلَكٌ غَنِيٌّ عَنْ الْأَكْلِ وَالْمَالِ، إنْ هُوَ إلَّا مُتَّبِعٌ لِمَا أُوحِيَ إلَيْهِ، وَاتِّبَاعُ مَا أُوحِيَ إلَيْهِ هُوَ الدِّينُ، وَهُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ عِلْمًا وَعَمَلًا بِالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَإِنَّمَا يَنَالُ مِنْ تِلْكَ الثَّلَاثَةِ بِقَدْرِ مَا يُعْطِيه

(١) الإسراء: من الآية ٤٨
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢)
(٣) الأنعام: من الآية ٥٠
(٤) الملك: الآية ٢٥
(٥) الأعراف: من الآية ١٨٧
(٦) الإسراء: من الآية ٩٠:٩٣
(٧) الفرقان: من الآية ٧,٨

اللَّهُ تَعَالَى فَيَعْلَمُ مِنْهُ مَا عَلَّمَهُ إِيَّاهُ، وَيَقْدِرُ مِنْهُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغْنِي عَمَّا أَغْنَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلْعَادَةِ الْمُطَّرِدَةِ أَوْ لِعَادَةِ غَالِبِ النَّاسِ.

فَمَا كَانَ مِنَ الْخَوَارِقِ مِنْ "بَابِ الْعِلْمِ" فَتَارَةً بِأَنْ يُسْمِعَ الْعَبْدَ مَا لَا يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ، وَتَارَةً بِأَنْ يَرَى مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ يَقَظَةً وَمَنَامًا، وَتَارَةً بِأَنْ يَعْلَمَ مَا لَا يَعْلَمُ غَيْرُهُ وَحْيًا وَإِلْهَامًا أَوْ إنْزَالُ عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ أَوْ فِرَاسَةٍ صَادِقَةٍ، وَيُسَمَّى كَشْفًا وَمُشَاهَدَاتٍ وَمُكَاشَفَاتٍ وَمُخَاطَبَاتٍ، فَالسَّمَاعُ مُخَاطَبَاتٌ، وَالرُّؤْيَةُ مُشَاهَدَاتٌ، وَالْعِلْمُ مُكَاشَفَةٌ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ كُلُّهُ "كَشْفًا" وَ"مُكَاشَفَةً" أَيْ كَشَفَ لَهُ عَنْهُ.

وَمَا كَانَ مِنْ "بَابِ الْقُدْرَةِ" فَهُوَ التَّأْثِيرُ، وَقَدْ يَكُونُ هِمَّةً وَصِدْقًا وَدَعْوَةً مُجَابَةً، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ الَّذِي لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِيهِ بِحَالِ، مِثْلُ هَلَاكِ عَدُوِّهِ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْهُ كَقَوْلِهِ: {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَإِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الْحَرِبُ}(١) وَمِثْلُ تَذْلِيلِ النُّفُوسِ لَهُ وَمَحَبَّتِهَا إيَّاهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ "بَابِ الْعِلْمِ وَالْكَشْفِ" قَدْ يُكْشَفُ لِغَيْرِهِ مِنْ حَالِهِ بَعْضُ أُمُورٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمُبَشِّرَاتِ: {هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ}(٢) وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:{أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ}(٣) وَكُلُّ وَاحِدٍ "مِنْ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ" قَدْ يَكُونُ قَائِمًا بِهِ وَقَدْ لَا يَكُونُ قَائِمًا بِهِ، بَلْ يَكْشِفُ اللَّهُ حَالَهُ وَيَصْنَعُ لَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: "مَا صَدَقَ اللَّهَ عَبْدٌ إلَّا صَنَعَ لَهُ" وَقَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: "لَوْ وُضِعَ الصِّدْقُ عَلَى جُرْحٍ لَبَرَأَ" لَكِنْ مَنْ قَامَ بِغَيْرِهِ لَهُ مِنْ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ فَهُوَ سَبَبُهُ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ خَرْقَ عَادَةٍ فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَمُعْجِزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَعْلَامُهُمْ وَدَلَائِلُ نُبُوَّتِهِمْ تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ.

وَقَدْ جُمِعَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمُعْجِزَاتِ وَالْخَوَارِقِ: أَمَّا الْعِلْمُ وَالْأَخْبَارُ الْغَيْبِيَّةُ وَالسَّمَاعُ وَالرُّؤْيَةُ، فَمِثْلُ أَخْبَارِ نَبِيِّنَا ﷺ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأُمَمِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِ لَهُمْ وَأَحْوَالِهِ مَعَهُمْ، وَغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، بِمَا يُوَافِقُ مَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ وَرِثُوهُ بِالتَّوَاتُرِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ لَهُ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ إخْبَارُهُ عَنْ أُمُورِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِمَا يُوَافِقُ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ مِنْهُمْ، وَيَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مُوَافِقٌ لِنُقُولِ الْأَنْبِيَاءِ تَارَةً بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ الْكُتُبِ الظَّاهِرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ النَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ، وَتَارَةً بِمَا يَعْلَمُهُ الْخَاصَّةُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، وَفِي مِثْلِ هَذَا قَدْ يَسْتَشْهِدُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَهُوَ مِنْ حِكْمَةِ إبْقَائِهِمْ بِالْجِزْيَةِ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ، فَإِخْبَارُهُ عَنْ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ مَاضِيهَا وَحَاضِرِهَا هُوَ مِنْ "بَابِ الْعِلْمِ الْخَارِقِ" وَكَذَلِكَ إخْبَارُهُ عَنْ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ: مِثْلُ مَمْلَكَةِ أُمَّتِهِ وَزَوَالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَقِتَالِ التُّرْكِ، وَأُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ الْأَخْبَارِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا مَذْكُورٌ بَعْضُهَا فِي كُتُبِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَسِيرَةِ الرَّسُولِ وَفَضَائِلِهِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْمَغَازِي، مِثْلُ: دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ والبيهقي، وَسِيرَةِ ابْنِ إسْحَاقَ، وَكُتُبِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء حديث ١، وأصله في البخاري، حديث ٦٠٢١.
(٢) سنن الترمذي حديث ٢٢٠١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، حديث ٢٢٢٠.
(٣) رواه البخاري حديث ١٢٧٨، ومسلم حديث ١٥٧٨.

الْأَحَادِيثِ الْمُسْنَدَةِ كَمَسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد، وَالْمُدَوَّنَةِ كَصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ أَيْضًا فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْجَدَلِ: كَأَعْلَامِ النُّبُوَّةِ لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ وللماوردي، وَالرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى لِلْقُرْطُبِيِّ، وَمُصَنَّفَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا، وَكَذَلِكَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ غَيْرُهُ مِمَّا وُجِدَ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَهِيَ فِي وَقْتِنَا هَذَا اثْنَانِ وَعِشْرُونَ نُبُوَّةً بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَكِتَابِ شعيا وحبقوق وَدَانْيَال وَأَرْمِيَا، وَكَذَلِكَ إخْبَارُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، وَكَذَلِكَ إخْبَارُ الْجِنِّ وَالْهَوَاتِفِ الْمُطْلَقَةِ، وَإِخْبَارُ الْكَهَنَةِ كَسَطِيحٍ وَشِقٍّ وَغَيْرِهِمَا، وَكَذَلِكَ الْمَنَامَاتُ وَتَعْبِيرُهَا: كَمَنَامِ كِسْرَى وَتَعْبِيرِ الموبذان، كَذَا إخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا مَضَى وَمَا عَبَرَ هُوَ مِنْ أَعْلَامِهِمْ.

وَأَمَّا "الْقُدْرَةُ وَالتَّأْثِيرُ" فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ أَوْ مَا دُونَهُ، وَمَا دُونَهُ إمَّا بَسِيطٌ أَوْ مُرَكَّبٌ، وَالْبَسِيطُ إمَّا الْجَوُّ وَإِمَّا الْأَرْضُ، وَالْمُرَكَّبُ إمَّا حَيَوَانٌ وَإِمَّا نَبَاتٌ وَإِمَّا مَعْدِنٌ، وَالْحَيَوَانُ إمَّا نَاطِقٌ وَإِمَّا بَهِيمٌ.

فَالْعُلْوِيُّ كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَرَدِّ الشَّمْسِ لِيُوشَعَ بْنِ نُون، وَكَذَلِكَ رَدُّهَا لَمَّا فَاتَتْ عَلِيًّا الصَّلَاةُ وَالنَّبِيُّ ﷺ نَائِمٌ فِي حِجْرِهِ -إنْ صَحَّ الْحَدِيثُ- فَمِنْ النَّاسِ مَنْ صَحَّحَهُ كالطحاوي وَالْقَاضِي عِيَاضٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مَوْقُوفًا كَأَبِي الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ وَهَذَا أَصَحُّ(١) وَكَذَلِكَ مِعْرَاجُهُ إلَى السَّمَاوَاتِ.

وَأَمَّا "الْجَوُّ" فَاسْتِسْقَاؤُهُ واستصحاؤه غَيْرَ مَرَّةٍ: كَحَدِيثِ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الرَّمْيِ بِالنُّجُومِ عِنْدَ ظُهُورِهِ، وَكَذَلِكَ إسْرَاؤُهُ مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

وَأَمَّا "الْأَرْضُ وَالْمَاءُ" فَكَاهْتِزَازِ الْجَبَلِ تَحْتَهُ، وَتَكْثِيرِ الْمَاءِ فِي عَيْنِ تَبُوكَ وَعَيْنِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَمَزَادَةِ الْمَرْأَةِ.

وَأَمَّا "الْمُرَكَّبَاتُ" فَتَكْثِيرُهُ لِلطَّعَامِ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي قِصَّةِ الْخَنْدَقِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَحَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ، وَفِي أَسْفَارِهِ، وَجِرَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَنَخْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَحَدِيثِ جَابِرٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ فِي انْقِلَاعِ النَّخْلِ لَهُ وَعَوْدِهِ إلَى مَكَانِهِ، وَسُقْيَاهُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الْأَرْضِ كَعَيْنِ أَبِي قتادة. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَمْ يَكُنْ الْغَرَضُ هُنَا ذِكْرُ أَنْوَاعِ مُعْجِزَاتِهِ بِخُصُوصِهِ وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّمْثِيلُ.

وَكَذَلِكَ مِنْ بَابِ "الْقُدْرَةِ" عَصَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَلْقُ الْبَحْرِ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمُ، وَنَاقَةُ صَالِحٍ، وَإِبْرَاءُ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءُ الْمَوْتَى لِعِيسَى، كَمَا أَنَّ مِنْ بَابِ الْعِلْمِ إخْبَارَهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِهِمْ. وَفِي الْجُمْلَةِ لَمْ يَكُنْ الْمَقْصُودُ هُنَا ذِكْرُ الْمُعْجِزَاتِ النَّبَوِيَّةِ بِخُصُوصِهَا وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّمْثِيلُ بِهَا.

---

(١) حديث ضعيف جدا، وقال الألباني عقب إيراده حديث رد الشمس ليوشع وجملة القول: إنه لا يصح في حبس الشمس إلا هذا الحديث الصحيح. الصحيحة ٢٠٢.

بدأ –رحمه الله– في هذه القاعدة بتقرير أصل مهم، هو انفراد الله بالكمال المطلق في العلم والقدرة والغنى، لا يشابهه في ذلك أحد، ولا يعلم الخلق من ذلك إلا ما علّمهم الله، وأنّ ما يعلمه الله من ذلك مختصاً به تعالى، وعليه فإنّ الكاهن أو غيره ممن يدعي إحاطته بالأسرار الغيبية كاذب.

وكذلك ينفرد الله بالقدرة المطلقة سبحانه، وهو القدير على جلب النفع وكشف الضر، فيُطلب ذلك منه ولا يُلتمس عند الكاهن. والغنى الكامل لله وحده، فالرزق عنده ويطلب منه، فمن أهمّه شأن الرزق وشغله تطلابه، ينبغي أن يتوجه إلى من يأتي به وهو الغني الحميد سبحانه، وأن يكثر من التماس الرزق وابتغائه من مالكه سبحانه كما كان دعاء النبي ﷺ: {اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى}(١) {اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وعملاً متقبلاً}(٢)

بيّن شيخ الإسلام في هذه القاعدة أنّ الله لا يعطي من هذه الأمور الثلاثة أحداً إلا بقدر سبحانه، فلا يملك أحد هذه الأمور ملكاً مطلقاً ولا في كل حال، ولذلك ذكر شيخ الإسلام أنّ الله أمر أول الرسل نوحاً –عليه السلام– وآخرهم محمّداً ﷺ أن يتبرءا من دعوى هذه الثلاثة، وهذا استنباط عجيب وفهم دقيق من الآيتين، من هذا الرجل الذي هو الجدير بذلك الوصف الذي وصفه به كاتب الرسالة في ديباجتها: المقذوف في قلبه النور الرباني.

ذكر شيخ الإسلام أنّ النفوس تتشوق أبداً إلى العجائب، من هذه الأمور: العلم، القدرة، الغنى، ولذلك قصّ علينا ربنا ما طلبه الأقوام من أنبيائهم من ذلك، فقد طلبوا من أنبيائهم: إما كشف غيب، وإما خوارق في باب القدرة كطلب ثمود الناقة، وطلب المشركين انشقاق القمر، وغير ذلك مما أجيبوا إليه أو لم يجابوا، وفي باب الغنى طلبوا أن تصير الجبال ذهباً، وأن تلقى الكنوز على الأنبياء.. إلى آخره.

أكّد شيخ الإسلام هنا على أصل عظيم وكبير، وهو أنّ الرسول ﷺ وهو أعلم الخلق، ثم من بعده إخوانه من الأنبياء والمرسلين، والملائكة وغيرهم، لا يعلمون من الغيب إلا ما علّمهم الله عزَّ وجلّ، وأنّ هذا الذي اطّلعوا عليه لا بد وأن يكون عليه من الله حجة وبرهان، وهذا ما كان يذكره ﷺ إذ يبيّن حين يسأل عن أمر من أمور الغيب فيقول: أخبرني به جبريل آنفاً. وفى الكتاب العزيز: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٣) وقد جاءت آية في سورة الجن تبين ذلك بوضوح وجلاء، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾(٤)

---

(١) رواه مسلم حديث ٤٨٩٨.
(٢) رواه ابن ماجه حديث ٩١٥. وصححه الألباني.
(٣) التحريم: الآية ٣.
(٤) الجن: الآيتين ٢٦,٢٧.

وبناء على هذا التقرير من شيخ الإسلام، فليس كل من ادّعى علم الغيب يسلم له، كما يفعل ذلك الناس مع الكاهن، بل الرسول الذي يوحى إليه يبيّن أنّ هذا وحي من الله تعالى.

فمن أين أُوحي إلى هذا الكاهن؟ وما هي البراهين والأدلة من كتاب الله وسنّة رسوله أنّ هذا وحي أوحاه الله إليه؟ هذا ولم تخصّ الملة المحمدية أحداً بسر، حتى آل بيت النبي ﷺ وقد قيل لعلي -رضي الله عنه- هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء، فبيّن -ﷺ- أنهم لم يخصّوا بشيء غير أمرين:

الأول: صحيفة فيها شيء من العلم كان كتبها عن النبي ﷺ وهذا أولاً ليس خاصاً به -ﷺ- بل كان مِن الصحابة مَن عنده علم ليس عند غيره، لكنهم بثّوا ذلك للناس، ولم يقولوا هذا سر لا نعطيه لأحد، أو لا نعطيه إلا بجعل، ولو كان ذلك خاصاً وسراً لما بذلها للسائل؛ ليقرأ ما بها ويبلغه الناس، ولكن هذا كأحاديث أخرى رويت عنهم -رضى الله عنهم- كخبر معاذ -ﷺ- في حديث التوحيد العظيم: {عن أَنسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعَاذٌ رِدِيفُهُ عَلى الرَّحْلِ، قَالَ: يَا مُعاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قالَ: يَا مُعَاذُ، قالَ: لَبَّيكَ يا رَسُول اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قالَ: يَا مُعَاذُ، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثَلاثًا، قالَ: مَا مِن عَبدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِله إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، قالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فيَستبشِروا؟ قال: إِذًا يَتَّكِلُوا، فَأَخْبرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْد مَوْتِهِ تَأَثُّمًا} متفقٌ عَلَيهِ(١).

وفي حديث أبي هريرة: ولولا آيتان في كتاب الله ما حدَّثتُ حديثًا. (٢)

وفي حديث عبادة: وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسي.(٣) إلى أمثال هذه الأحاديث المباركة.

وقد بذل علي -رضى الله عنه- ما عنده كما بذله إخوانه.

الأمر الثاني: أنّ عليّاً -رضى الله عنه- يزيد بفهم يعطيه الله إياه، وكذلك يؤتيه الله غيره، وهذا الفهم ليس مستقلاً عن الوحي، بل هو فهم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ فيستنبط ما لا يستنبطه غيره، ويفهم ما لا يفهمه سواه، كما فهم عمر وابن عباس انقضاء عمر النبي ﷺ من سورة النصر، وكما فهم الصديق انتهاء أجل البني ﷺ المبارك من خطبة خطبها النبي ﷺ جاء فيها: {إنّ عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده}(٤)

فهذا فهم لنصوص الكتاب والسنّة على أنهم لم يجعلوه سراً من الأسرار بل بذلوه للناس، ولكن من أين يفهم الكاهن ما يأتي به إذا لم يكن من وحي الشياطين؟ أين الآية والحديث الذي يفهم منه الكاهن أنّ فلان ابن فلانة سيكون سعيداً أو يكون شقياً؟ أين فهم أنّ اجتماع فلان ابن فلانة بفلانة بنت فلانة

---

(١) رواه البخاري حديث ١٢٥، ومسلم حديث٤٧

(٢) رواه البخاري، حديث ٢١٧٩.

(٣) رواه مسلم، حديث ٤٢.

(٤) رواه البخاري، حديث ٣٦١٥.

شؤم عليها؟ أين وجد في الكتاب العزيز أو السنّة المشرفة ما يجرى في عام ٢٠٣٠ قبل قدومه؟ من أين استنبط ذلك؟ هذا أمر لا بد أن يعرفه الناس، ففي دين الله لا توجد أسرار، كما أنّ الاستنباطات من الوحي لا تعنى أبداً الكهانة وادعاء علم الغيب.

لقد بيّن -رحمه الله- هنا الخوارق المتعلقة بالعلم: وهي خوارق تتعلق بحاسة السمع، وأخرى بحاسة البصر، وثالثة تتعلق بالقلب وعلمه.

فالمتعلق بالسمع: أن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، مع كونهما في موضع واحد، وتساوي ما بينهما في صحة الأذن.

الثاني: المتعلق بالرؤية: إما يقظة فيرى ما لا يرى جليسه، وإما في المنام فيرى ما يكون صادقاً، فيأتي ما يراه مفسراً في اليقظة.

والمتعلق بالعلم: أن يحصل له من العلم ما لم يحصل لغيره، ومن هو مثله في الطلب، فيلهم بأمور معينة، أو يجد في قلبه علماً ضرورياً يقينياً في مسألة ما، أو يؤتى فراسة صادقة لا تكاد تخطئ، ثم ذكر -رحمه الله- أنّ هذا تجمعه الأسماء التالية: السماع والرؤية والمكاشفة، ويجمع هذا كله اسم المكاشفة، وهو اسم يتكرر كثيراً لدى من يلبس الحق بالباطل، وعندهم دعاوى بالسماع والرؤية والمكاشفات والمشاهدات كثيرة. وسيذكر -رحمه الله- أنّ من هذه الأمور ما يكون حقاً ومصدره طاعة الله وطاعة رسوله، ومنه ما يكون من وحي الشياطين، ومنه ما يكون كذباً وافتراء وادعاء.

وقد تكلم -رحمه الله- عن عجائب القدرة التي يؤيد الله بها من شاء من خلقه، وذكر -رحمه الله- أنّ الله قد يعطي العبد تأثيراً في غيره، فيسلمه الله من شرهم وأذاهم، فيعطيه تعالى قدرة على ذلك، وقد يعطيه ربنا همة نحو الأمور التي يريدها، فيبلغها بإذن الله بهذه الهمة العالية، وكذلك قد يعطيه دعوة مستجابة.

وذكر وجهاً آخر -رحمه الله- وهو أنّ الله الذي يفعل بعبده ذلك، ويكون العبد غافلاً عن ذلك، فيكون التأثير من الرب سبحانه، والتدبير منه دون علم العبد، وبيّن أنّ طريق ذلك ليس الغدو والرواح على الكهّان من أعوان الشياطين، بل سلوك طريق ولاية الله والقيام بحقه، وذكر -رحمه الله- هذا الحديث الشريف العظيم: {من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب}(١)

وذكر الآثار الدالة على عاقبة الصدق مع الله تعالى؛ هذا ليعرف الناس أنّ طريق الله أسرع دركاً لحاجتهم من طرق الشياطين وأوليائهم، وأنّ ما يكشفه الله له أو لغيره فسببه تقوى العبد وطاعته، فإذا اتقى الله وأطاعه كشف الله ما أهمّه وأشغله عن أمور يسأل عنها غيره الكهّان، حتى إنه ليلهمه ذلك ويعلمه له في الرؤيا، أو يُري غيره رؤيا يعرف منها ما يريد.

وذكر ذلك فيما يتعلق بالعلم رحمه الله، وأنّ طريق الكشوف عبادة الله تعالى.

---

(١) سبق، وهو في البخاري.

سيذكر شيخ الإسلام فيما يلي نماذج من إطلاع الله عبده ونبيه المصطفى ﷺ غيوب ماضيه ومستقبله، وأرشد إلى كتب أحصت كثيراً من هذا؛ وذلك حتى يدرك العبد الفرق بين هذه الكشوف الإلهية النبوية وبين إخبار الكهان والمنجمين، ويفقه ذلك بالدرجة التي تحفظ عليه دينه، وتعصمه من الشرك ومن الفتن المضلة والأهواء المردية.

وهذا الكلام الآتي من أنفس الكلام وأدقه وأجمعه، إذ يذكر –رحمه الله– ما أيّد الله به رسوله، ورسل الله من آيات ومعجزات في باب القدرة والتأثير، فذكر ما كان في ذلك في العالم العلوي أو ما دونه، وقسّم ما دونه إلى أقسام وذكر أمثلة.

قال شيخ الإسلام: وَأَمَّا الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ (بَابِ الْكَشْفِ وَالْعِلْمِ) فَمِثْلُ قَوْلِ عُمَرَ فِي قِصَّةِ سَارِيَةَ، وَإِخْبَارِ أَبِي بَكْرٍ بِأَنَّ بِبَطْنِ زَوْجَتِهِ أُنْثَى، وَإِخْبَارِ عُمَرَ بِمَنْ يَخْرُجُ مِنْ وَلَدِهِ فَيَكُونُ عَادِلًا، وَقِصَّةِ صَاحِبِ مُوسَى فِي عِلْمِهِ بِحَالِ الْغُلَامِ.

وَ"الْقُدْرَةُ" مِثْلُ قِصَّةِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ، وَقِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَقِصَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَسَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ ﷺ وَأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني، وَأَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا فَإِنَّ تَعْدَادَ هَذَا مِثْلُ الْمَطَرِ. وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّمْثِيلُ بِالشَّيْءِ الَّذِي سَمِعَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ.

وَأَمَّا الْقُدْرَةُ الَّتِي لَمْ تَتَعَلَّقْ بِفِعْلِهِ فَمِثْلُ نَصْرِ اللَّهِ لِمَنْ يَنْصُرُهُ وَإِهْلَاكِهِ لِمَنْ يَشْتُمُهُ ﷺ.

فصل كل ما يدل على النبوة آية وبرهان عليها:

قال شيخ الإسلام: فالكهانة مثلاً: وهو الإخبار ببعض الغائبات عن الجن أمرٌ معروفٌ عند الناس.

وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنّما ذهب ذلك بنبوّة مُحَمَّد ﷺ وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فهم كثيرون في أرض عبّاد الأصنام، ويوجدون كثيراً عند النصارى، ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين. حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول؛ لأنّ هؤلاء أعداء الأنبياء.

ونقول هنا: قول شيخ الإسلام عن الكهانة: هي الإخبار ببعض الغائبات عن الجن، أوجز تعريف للكهانة وأعمّه وأشمله، وأدقّ تعريف وأدلّه على حقيقة الكهانة.

وقول شيخ الإسلام: وأرض العرب كانت مملوءة بالكهّان، وإنما ذهب ذلك بنبوة مُحَمَّد ﷺ فمراده –رحمه الله– أنّ الكهانة كانت أمرًا معلوماً لدى الناس، وكان لها انتشار لدى العرب وغيرهم، ولكن الله أذهب ذلك ببعثته ﷺ إذا الناس قبله لم يكونوا على دين، وكانوا يظنون أنّ الكهانة حق لاسيما أنّ الكهّان كانوا يخبرون بالشيء فيكون حقا، وكان في الكهانة بعض المنافع، فجاء النبي ﷺ فبيّن حقيقتها، وكشف أصلها وأساسها، وبيّن أنها محرمه بل هي شرك بالله تعالى، فأصبح لا يتعاطى الكهانة أحد إلا وهو يعلم أنها يشرك بربه تعالى وكفر به، ولا يذهب الذاهب إلى الكهّان إلا وهو يعلم أنه يأتي أمراً عظيماً محرّماً، وهذا لا يعني أنّ وجود الكهانة قد ذهب، ولكن الاعتقاد بكونها حقاً هو الذي ذهب،

وعلم الناس أنّ لا نفع فيها، وهذا مثل ما جاء في صفته ﷺ في التوراة الذي ذكره عبد الله بن عمرو: ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، أي يكون ذلك معلوماً واضحاً، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فقد صارت كلمة التوحيد معلومة، وصار ضدها من الشرك والبدع وغيره معلوماً أيضاً، وليس معنى هذا ألا يوجد شرك وكفر، وكذلك ليس معنى كلامه ألا توجد كهانة، بل إذا وجدت فهذا مع العلم بأنها شرك، لا يشتبه ذلك على أحد.

ولذلك قد ذكر -رحمه الله- أنّ الكهّان يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فقال رحمه الله: "وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة، فهم كثيرون في أرض عبّاد الأصنام، ويوجدون كثيراً عند النصارى، ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين" وهذا يلقي على المحتسبين على الكهّان خاصة، وعلى الدعاة عامة، وعلى أمة مُحَّد تامة، أن ينيروا الدنيا بنور نبوته ﷺ وأن يبيّنوا حقيقة الكهانة لعباد الله، وأن يذكروا الفرق بينها وبين وحي الله الذي ألقي على مُحَّد ﷺ وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وأنّ على المحتسبين أن ينشروا ما يتعلق بالكهانة وخطرها، مما جاء في كتاب ربنا وسُنّة نبينا ﷺ ويبيّنوا لعامة الأمة ولعوام المسلمين الذين ينخدعون بهؤلاء -مناقضة الكهانة لتوحيد الله الذي هو نجاة العبد وأمانه في الدنيا والآخرة، ولابد أن يخوّف هؤلاء العوام من الوقوع في الشرك إذا ذهبوا مصدقين لهؤلاء الأفاكين، أو ذهاب أجر صلاة أربعين ليلة إذا ذهبوا غير مصدقين، وهذا أمر ليس بالهين: أن يضيع عليه ثواب صلاة أربعين يوماً، ومعلوم ما في الصلاة من خيرات وبركات الدنيا والآخرة وحفظ الدنيا والآخرة، وليلق نظرة على ما جاء في صحيح البخاري في كتاب الصلاة، وما ذكر من الثواب، وأن يبيّن للناس أنّ كل هذا الثواب يصير هباء منثوراً لمن ذهب غير مصدق، أو قرأ في صحيفةٍ برجك وحظك، أو وقف مع قنوات الكهانة، لا بد أن يظهر هذا الأمر لعامة المسلمين، فنور النبوة يبدد ظلمات الكهانة، رحم الله الإمام وجزاه خيراً.

بين وحي الأنبياء ووحي الكهان:

قال شيخ الإسلام: والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبياء، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فهؤلاء لا بُدّ أن يكون في أحدهم كذب وفجور، وذلك يُناقِض النبوّة.

فمن ادّعى النبوّة، وأخبر بغيوبٍ من جنس أخبار الكهّان، كان ما أخبر به خرقاً للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقاً لعادة جنسه من الكهّان. وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته، كان ذلك لجهلهم بوجود هذا الجنس لغير الأنبياء، كالذين صدّقوا مسيلمة الكذّاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذّابين. وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك

القوم، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبي. فمن صدقهم ظنّ أنّ هذا مختصٌ بالأنبياء، وكان من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء، كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة.

ذكر شيخ الإسلام العلامة الفاصلة بين أنبياء الله وبين الكهّان، وهي أنّ الكهان لابد أن يكون فيهم كذب وفجور، وهذا يناقض النبوة، فإنك لا تجد نبياً إلا وهو صادق بار راشد، أحسن عباد الله خلقاً، وأبعدهم عن كل نقيصة، وأطهرهم من كل خيانة، أما الكاهن فلابد في أخباره من الكذب، ولابد في أعماله وأقواله من الفجور والفسوق والعصيان.

وبيّن –رحمه الله –هنا أمرًا في غاية الأهمية، وهو أنّ الذي أوقع الناس في شراك الكهانة وشباك الكهّان، أنّ الناس رأوا كاهناً أو كاهنة واعتقدوا في الواحد منهما، ورأوا الأعاجيب من أحدهما، ولا معرفة للناس بأنّ هذه أمور معتادة لكثير من الناس، وأنّ الكاهن الذى اعتقدوا فيه، وأنه أخبرهم بغيوب، وجاء بأعاجيب –لا نظير له، وأنّ ما يأتي به وحي من الله، ولكن شيخ الإسلام يقول: إنّ أي كاهن أو كاهنة اعتقد الناس فيهما ففي الناس من هو مثلهما، بل في الناس من هو أحذق منهما بالكهانة، وذلك لكونه أكثر منهما تقرباً للجن وللشياطين.

وذكر أنّ سبب اغترار الناس بمسيلمة الكذّاب الكاهن، والأسود العنسي الكذّاب الكاهن، وغيرهما.. هو هذا، فإنّ أتباع مسيلمة ظنوا أن ليس أحد مثله، وأنّ ما يأتي به وحي، مع ما كان عليه من كذب وفجور وخيانة وغدر، حتى بالرسل التي لم تكن تُقتل لا في جاهليه ولا في إسلام. ولكن متى عرف الناس أنّ هذا الكاهن الكذاب الفاجر له أمثال ونظراء، وأنّ كهانته جاءت بعد خطوات كفرية وإجرامية معلومة –أبصر الناس الهدى وعرفوه، وأنه ليس كل من أتى بعجيبة، كانت تأييداً من الله سبحانه له مع فجوره وعداوته لله سبحانه.

آيات الأنبياء لا يعارضها من ليس بنبي:

يقرر شيخ الإسلام هنا أمراً عظيماً، قد تقرر شرعاً وكوناً: أنّ آيات الأنبياء ومعجزاتهم لا يمكن أن يعارضها أحد فيأتي بمثلها، وأنّ من أراد معارضتها فلا بد أن يعجز، فهذا مسيلمة الكذّاب الكاهن أراد بشياطينه أن يعارض القرآن المجيد فجاء من ذلك بما شهد الناس جميعاً أنه هراء، بل جاء بكلام يضحك الثكلى، ولما سمع أنّ النبي ﷺ توضأ وردّ الماء في البئر ففار ماؤها(١) جاء فبصق في بئر فغار ماؤها، ولما سمع أنّ النبي ﷺ تفل في عين علي –رضي الله عنه– الرمداء فبرئت(٢) تفل هو في عين أرمد فعميت، وهذه قضية لابد وأن تعلن في الناس: أنّ هؤلاء الكهّان الكاذبين لا يمكن أن يكون ما يأتون به وحياً كوحي النبي ﷺ وأنه محال أن يوحي إليهم ربهم وهم يكفرون به، ويدعون حقاً خاصاً به تبارك وتعالى.

---

(١) هو حديث عين تبوك رواه مسلم حديث ٤٢٢٩.
(٢) رواه البخاري حديث ٣٤٢٥، ومسلم٤٤٢٣.

وذكر شيخ الإسلام هنا أمرًا بيّناً واضحاً معلوماً، وهو ما جرى في قصه موسى عليه السلام، وهو أنّ فرعون أراد أن يأتي بمن يعارض موسى –عليه السلام– ويفعل مثل ما يفعل، فجاء بالسحرة المهرة العالمين، فلما أردوا معارضة موسى –عليه السلام– عجزوا عجزاً بيّناً، أرغمهم على الخضوع لرب العالمين، ثم لرسوليه الكريمين، وأيقن السحرة العالمين أنّ هذا ليس جارياً على قواعد السحرة وأصولهم، وأنّ هذا لا يمكن تعلمه ولا إتقانه أرضياً، لا من تعليم إنس ولا جن، وأنّ هذا من فعل العلي العظيم الحكيم العليم. ومن هنا وجب على المحتسب أن يبيّن أنّ أخبار الكهّان ليست منحاً إلهية، بل هي أمور عرفوها بخطوات شيطانية، وأنه ينبغي ألا يشتبه على المسلم حال هذا الكاهن الأشر، وأنه على خطى الشيطان وليس على خطى النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولهذا يجب في آيات الأنبياء ألا يُعارضها من ليس بنبي، فكل ما عارضها صادراً ممّن ليس من جنس الأنبياء، فليس من آياتهم. ولهذا طلب فرعون أن يُعارض ما جاء به موسى لما ادعى أنّه ساحر، فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة. وأمر موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم، فلمّا أتت، وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرة أنّ هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيماناً جازماً، ولما قال لهم فرعون: ﴿ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابَاً وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾(١) وقالوا: ﴿آمَنَاً بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُون﴾(٢) فكان من تمام علمهم بالسحر: أنّ السحر معتادٌ لأمثالهم، وأنّ هذا ليس من هذا الجنس، بل هذا مختص بمثل هذا، فدلّ على صدق دعواه. وفرعون وقومه بين معاندٍ وجاهلٍ استخفه فرعون، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَومَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾(٣)

(١) طه: الآية ٧١
(٢) الشعراء: الآية ٤٧,٤٨ – الأعراف: ١٢١,١٢٢
(٣) الزخرف: من الآية ٥٤

المبحث الثاني

نقد شيخ الإسلام لبعض من عرف المعجزة

إنّ مما يتصل بالاحتساب على الكهّان نقد شيخ الإسلام لتعريف المعجزة عند المتكلمين، إذ عني المتكلمون من الفِرق بآيات الأنبياء، لقد نقد شيخ الإسلام أن تكون آيات الأنبياء هي الأمور المعجزة هكذا فقط مجرداً بعيداً عن النظر في أمور أخرى، كحال الآتي بهذا المعجز الخارق؛ وهذا ليردّ على المعتقدين في الكهّان الكافرين أعوان الشياطين الفاعلين للعجائب من جهة، وليحفظ لآيات الأنبياء منزلتها ومكانتها من جهة أخرى، على أنه -كما سيأتي- لا يعني أنّ شيخ الإسلام لا يرى آيات الأنبياء معجزة، كلا، إنه يرى أنها معجزة ولكن يرى أنه ليس عجز الناس وحده هو فقط ما تتصف به آيات الأنبياء، وسيجلي ذلك ويوضحه رحمة الله عليه.

يناقش شيخ الإسلام هنا تعريفات المتكلمين للمعجزة، التي هي آيات الأنبياء عندهم، فيقول: دارت تعاريف المتكلمين حول ما يأتي:

١. المعجزة هي الفعل الخارق للعادة.
٢. المعجزة هي الفعل الخارق للعادة مع التحدي.
٣. المعجزة هي الفعل الخارق للعادة مع التحدي السالم من المعارضة.

ثم أخذ -رحمه الله- يرد على هذه التعاريف وينقدها؛ دفاعاً عن آيات الأنبياء وحماية لعقائد المسلمين، فيذكر -رحمه الله- عن كون المعجزة هي الأمر الخارق للعادة: أنّ الخارق للعادة هذا ليس شيئاً مضبوطاً، فهل المراد بذلك: كونه لا نظير له في العالم، وأنّ الدنيا لم تشهد له نظيراً، وردَّ بأنّ هذا باطل، ويتبيّن بطلانه مما يأتي:

- أنّ من آيات النبي ﷺ ما اشترك فيها إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وذلك كإحياء الموتى.
- أنّ الآيات التي تفرّد بها نبي: كالقرآن والعصا والناقة حق، ولكن ليست كل الآيات كذلك.
- أنّ خرق العادة نفسه حدث لهؤلاء الأنبياء وإن لم يكن في الآية الواحدة.
- أنّ خرق العادة جنسه معتاد للأنبياء، وهو من لوازم نبوتهم لاسيما مع كثرة الأنبياء من علمناهم، ومن لم نعلمهم.

فإذا أرادوا أنّ المعجزة الأمر الخارق للعادة الذي لم يحدث مثله قط فهذا غير صحيح.

ثم ردّ قولهم: إنّ المعجزة هي الخارق لعادات المخاطبين، فبيّن أن ليس كل أمر عجز عنه المخاطبون يكون آية لنبي، فإنّ أكثر الناس يعجزون عن السحر، ويعجزون عن الكهانة ولا يمكن أبداً أن يكون أحدهما آية لنبي، وذكر أنّ أتباع مسيلمة الكاهن الكذاب، كانوا يعجزون عن الإتيان بمثل ما يأتي به، وإن كان العنسي وبابا الدمشقي قادرين على ذلك. فهل صار مسيلمة بعجز أصحابه المخاطبين بأعماله الشيطانية نبياً؟ وهل كان الأسود العنسي نبياً حين عجز أتباعه عن مضاهاته في الأعمال الشيطانية التي جاء بها؟ ثم ذكر –رحمه الله– أمثلة كثيرة لأناس جاءوا بما عجز عنه غيرهم.

فإذا قيل لهم: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة، أو قيل: هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدي، أو قيل مع ذلك الخارق للعادة: السليم عن المعارضة. فكونه خارقا للعادة ليس أمرا مضبوطا.

نقد شيخ الإسلام لعبارة (خارق للعادة)

قال رحمه الله: فإنّه إن أريد به أنّه لم يوجد له نظير في العالم، فهذا باطلٌ؛ فإن آيات الأنبياء بعضها نظير بعض، بل النوع الواحد منه، كإحياء الموتى هو آية لغير واحد من الأنبياء.

وإن قيل: إنّ بعض الأنبياء كانت آيته لا نظير لها؛ كالقرآن، والعصا، والناقة، لم يلزم ذلك في سائر الآيات. ثمّ هب أنّه لا نظير لها في نوعها، لكن وجد خوارق العادات للأنبياء غير هذا، فنفس خوارق العادات معتادٌ جنسه للأنبياء، بل هو من لوازم نبوتهم، مع كون الأنبياء كثيرين، وقد روي أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيّ وما يأتي به كلّ واحد من هؤلاء، لا يكون معدوم النظير في العالم، بل ربما كثر نظيره.

نقد شيخ الإسلام لعبارة (المعجزة خرق لعادة المخاطبين)

قال رحمه الله: وإن عني بكون المعجزة هي الخارق للعادة أنّها خارقة لعادة أولئك المخاطبين بالنبوة؛ بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك، فهذا ليس بحجة، فإنّ أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر، ونحو ذلك. وقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء، كما كان أتباع مسيلمة، والعنسي، وأمثالهما؛ لا يقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء.

ثم ذكر رحمه الله أمثلة كثيرة لأناس جاءوا بما عجز عنه من حولهم في كل الفنون فهل يكونون بذلك أنبياء، فقال رحمه الله: والمبّرز في فنٍ من الفنون يقدر على ما لا يقدر عليه أحد في زمنه، وليس هذا دليلاً على النبوة؛ فكتاب سيبويه مثلاً ممّا لا يقدر على مثله عامّة الخلق، وليس بمعجز؛ إذ كان ليس

مختصاً بالأنبياء، بل هو موجود لغيرهم. وكذلك طب أبقراط، بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس، وليس هو دليلاً على نبوّته.

إيضاح شيخ الإسلام لمعنى كلمة (العادة) وأنّ الوصف بالخارق لم يأت في كلام الله ورسوله ﷺ وكلام السلف:

قال رحمه الله: وأيضاً فكون الشيء معتاداً هو مأخوذ من العود. وهذا يختلف بحسب الأمور؛ فالحائض المعتادة: من الفقهاء من يقول: تثبت عادتها بمرة، ومنهم من يقول: بمرتين، ومنهم من يقول: لا تثبت إلا بثلاث. وأهل كلّ بلدٍ لهم عادات في طعامهم، ولباسهم، وأبنيتهم، لم يعتدها غيرهم. فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم، لا لعادة من اعتاده غيرهم. فلهذا لم يكن في كلام الله ورسوله، وسلف الأمة وأئمتها وصف آيات الأنبياء بمجرد كونها خارقة للعادة، ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل؛ فإنّ هذا لا ضابط له، وهو مشتركٌ بين الأنبياء وغيرهم.

ولكن إذا قيل: من شرطها أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس فهذا ظاهر يعرفه كل أحد.

نقول: أشرنا إلى هذا سابقا، أنّ شيخ الإسلام يعتقد أنّ آيات الأنبياء لابد أن تكون معجزة، ولكن ليس هذا فحسب الذي يجعلها آية للنبي ﷺ.

قال رحمه الله: ويعرفون أنّ الأمر المعتاد؛ مثل الأكل والشرب والركوب والسفر وطلوع الشمس وغروبها، ونزول المطر في وقته، وظهور الثمرة في وقتها ليس دليلاً، ولا يدّعي أحدٌ أنّ مثل هذا دليلٌ له؛ فإن فساد هذا ظاهر لكلّ أحد، ولكن ليس مجرد كونه خارقاً للعادة كافياً لوجهين:

أحدهما: أنّ كون الشيء معتاداً وغير معتاد أمرٌ نسبيّ إضافيّ، ليس بوصف مضبوط تتميّز به الآية، بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء، مثل كونه مألوفاً ومجرّباً ومعروفاً، ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

الثاني: أنّ مجرّد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم. وإذا خصّ ذلك بعدم المعارضة، فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته، ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر، وقد يأتي بما لا يمكن معارضته، وليس بآية لشيء؛ لكونه لم يختص بالأنبياء، وقد يُقال في طبّ بقراط ونحو سيبويه أنّه لا نظير له، بل لا بد أن يقال: إنّه مختصّ بالأنبياء والطب والنحو والفقه.

وإن أتى الواحد بما لا يقدر غيره على نظيره، فليس مختصاً بالأنبياء، بل معروف أنّ هذا تعلّم بعضه من غيره، واستخرج سائره بنظره، وإذا خصّ الله طبيباً أو نحوياً أو فقيهاً بما ميّزه به على نظرائه، لم يكن ذلك دليلاً على نبوّته، وإن كان خارقاً للعادة، فإنّ ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماعٍ أو تجربةٍ أو قياسٍ، وهي طرقٌ معروفة لغير الأنبياء.

علم الغيب الإلهي إلى النبي ﷺ معصوم من الخطأ بخلاف الكهانة:

قال شيخ الإسلام: والنبيّ قد علّمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلَمْهُ إلا نبيّ مثلُهُ.

فإن قيل: فحينئذٍ لا يُعرف أنّ الآية مختصةٌ بالنبيّ، حتى تُعرف النبوة، قيل: أما بعد وجود الأنبياء في العالم، فهكذا هو؛ ولهذا يُبيّن الله عزّ وجلّ نبوّة محمّد في غير موضع باعتبارها بنبوّة من قبله.

وتارةً يُبيّن أنّه لم يُرسل ملائكةً، بل رجالاً من أهل القرى؛ ليُبيّن أنّ هذا معتادٌ معروفٌ، ليس هو أمراً لم تَجْرِ به عادة الربّ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحَى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١) كما ذكره في سورة النحل والأنبياء، وقال في يوسف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرَى أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ للذِينَ اتَّقَوا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٢)

فإنّ الكفّار كانوا يقولون: إنّما يُرسل الله مَلَكاً، أو يُرسل مع البشر مَلَكاً، كما قال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِين فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَة مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنين﴾(٣) وقال قوم نوح: ﴿ ﴾(٤) وقال مشركو العرب لمحمد: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾(٥) وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرَاً رَسُولاً قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾(٦)

الآيات الدالة على أن الرسول ﷺ تقدم له نظراء وقد بشروا به، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَك وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾(٧) بيّن أنّهم لا يُطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر، ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبَاً أَنْ أَوْحَينَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾(٨) وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل، فقال الله لهم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْر﴾(٩) يعني أهل الكتاب ﴿إِنْ كُنْتُم

---

(١) النحل: الآية ٤٣
(٢) يوسف: الآية ١٠٩
(٣) الزخرف: الآية ٥٣
(٤) المؤمنون: الآية ٢٤
(٥) الفرقان: الآية ٧
(٦) الإسراء: الآية ٩٤
(٧) الأنعام: الآية ٨
(٨) يونس: من الآية ٢
(٩) النحل: من الآية ٤٣

لا تَعْلَمُونَ﴾ هل أرسل إليهم رجالا أو ملائكة؟ ولهذا قال له: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل﴾(١) بيَّن أنّ هذا الجنس من الناس معروفٌ، قد تقدم له له نظراء وأمثال.

وهو سبحانه أمر أن يُسأل أهل الكتاب، وأهل الذكر عما عندهم من العلم بأمور الأنبياء، هل هو من جنس ما جاء به محمّد، أو هو مخالفٌ له؟ ليتبيّن بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الأنبياء، وحينئذٍ فيعرف قطعاً أنّ محمّداً نبيّ، بل هو أحقّ بالنبوّة من غيره.

والثاني: أن يسألوهم عن خصوص محمّد وذكره عندهم، وهذا يعرفه الخاصّة منهم، ليس هو معروفاً كالأوّل يعرفه كل كتابي، قال تعالى: ﴿قلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾(٢) وقوله: ﴿شَهِدَ شَاهِدٌ﴾(٣) ليس المقصود شاهداً واحداً معيّناً، بل ولا يُحتَمل كونه كونه واحداً، وقول من قال: إنه عبد الله بن سلام ليس بشيء؛ فإنّ هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام، ولكنّ المقصود جنس الشاهد كما تقول قام الدليل، وهو الشاهد الذي يجب تصديقه سواء كان واحداً قد يقترن بخبره ما يدلّ على صدقه، أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول، فإن خبرك بهذا صادقٌ.

وقوله: ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ فإنّ الشاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهو أنّ الله بعث بشراً، وأنزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهى فيه عن عبادة ما سواه، وأخبر فيه أنّه خلق هذا العالم وحده، وأمثال ذلك... والمقصود: أنّ الله قال لمحمّد: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَاً مِنَ الرُّسُل﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل﴾ فبيَّن أنّ هذا الجنس من الناس معروفٌ، قد تقدم له نظراء وأمثال، فهو معتادٌ في الآدميين، وإن كان قليلاً في الآدميّين.

آيات الأنبياء مختصة بهم وكرامات أتباعهم آيات لهم:

قال شيخ الإسلام: آيات الأنبياء مختصة بهم وكرامات أتباعهم آيات لهم، وأمّا من جاءهم رسولٌ لا يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح، فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذٍ فهو يأتي بما يختص به ممّا يعرفون أنّ الله صدّقه في إرساله.

(١) آل عمران: من الآية ١٤٤
(٢) الأحقاف: من الآية ١٠
(٣) يوسف: من الآية ٢٦

فهذا يدلّ على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدلّ على الشخص؛ إذ النوع قد عرف قبل هذا. والمقصود أن آيته وبرهانه لا بُدّ أن يكون مختصاً بهذا النوع، لا يجب أن يختصّ بواحدٍ من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع.

وقد قلنا أنّ ما يأتي به أتباع الأنبياء من ذلك هو مختص بالنوع، فإنا نقول هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبياء فصار مختصاً بهم.

وأما ما يوجد لغير الأنبياء وأتباعهم، فهذا هو الذي لا يدلّ على النبوة كخوارق السحرة والكهان، وقد عرف الناس أنّ السحرة لهم خوارق، ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوّة النبيّ واعتقدوا علمه، قالوا هو ساحر، كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(١) وقال للسحرة لما آمنوا: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ و﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ وكلّ هذا من كذب فرعون، وكانوا يقولون: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾(٢) وكذلك المسيح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقَاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرَاً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٣) وقال تعالى عن كُفّار العرب: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرّ﴾(٤)

وإن نسبوه إلى عدم العلم، قالوا: مجنونٌ، كما قالوا عن نوح: ﴿مَجْنُونٌ وَازْدُجِر﴾(٥) وقالوا عن موسى: ﴿قال إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون﴾(٦) وقال عن مشركي العرب: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُون﴾(٧) وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾(٨) فالسحر أمرٌ معتادٌ في بني آدم، كما أنّ النبوّة معتادةٌ فيهم، كما أنّ العقلاء معتادون في بني آدم، والمجانين معتادون فيهم، فإذا قالوا عن الشخص: إنّه مجنون، فإنّه يُعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله.

---

(١) الشعراء: من الآية ٣٤
(٢) الزخرف: من الآية ٤٩
(٣) الصف: الآية ٦
(٤) القمر: الآية ٢
(٥) القمر: من الآية ٩
(٦) الشعراء: من الآية ٢٧
(٧) القلم: الآية ٥١
(٨) الذاريات: الآية ٥٢,٥٣

وكذلك يُعرف هل هو من جنس الأنبياء، أو من جنس السحرة، وكذلك لما قالوا عن محمّد: إنّه شاعرٌ، فإنّ الشعراء جنسٌ معروفون في الناس، وقالوا: إنه كاهن.

شبهة من قال: القرآن شعر أنّ القرآن كلام موزون، والشعر موزون.

وشبهة الكهانة أنّ الكاهن يُخبر ببعض الأمور الغائبة، فَذَكَرَ الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبيّ، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون﴾ ثمّ قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾[1] و﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ لا بِقَولِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[3]

ولهذا لما عرض الكُفّار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس: هو شاعرٌ، ومجنونٌ، وساحرٌ، وكاهنٌ، صار يُبيّن لهم أنّ هذه أقوال فاسدة، وأنّ الفرق معروفٌ بينه وبين هذه الأجناس، فالمقصود أنّ هذه الأجناس كلّها موجودة في الناس، معتادة معروفة، وكلّ واحد منها يُعرف بخواصه المستلزمة له، وتلك الخواص آيات له، مستلزمة له.

فكذلك النبوّة لها خواصّ مستلزمة لها، تُعرف بها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء، وإن كانت معتادة للأنبياء، فهي لا توجد لغيرهم، فهذا هذا. والله أعلم.

وكلّ من الساحر، والكاهن يستعين بالشياطين؛ فإنّ الكهّان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم، والسحرة تعلّمهم الشياطين، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين كما تقدّم بيانه، والساحر كما قال تعالى: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاق﴾[4] فهم يعلمون أنّ السحر لا ينفع في الآخرة، ولا يُقرّب إلى الله، وأنّ من

---

(١) الشعراء: من الآية ٢٤:٢٧
(٢) يس: الآية ٦٩
(٣) الحاقة: الآية ٤١
(٤) البقرة: من الآية ١١٢

اشتراه ما له في الآخرة من خلاق؛ فإنّ مبناه على الشرك والكذب والظلم، مقصود صاحبه الظلم والفواحش.

الفرق بين النبي وبين الساحر والكاهن:

ذكر شيخ الإسلام فروقاً بين النبي وبين الساحر، وبيّن أمورًا يعلم كل أحد بها أنّ هذا نبي أو هو ساحر أو كاهن، وشيخ الإسلام ذكر هنا علامات الساحر والكاهن، وأكثر من الحديث عن الأمور التي يعرف بها النبي من الساحر، ويدخل في ذلك الكاهن كما أشار شيخ الإسلام سابقاً أنّ كلا منهما يؤيده شيطان.

قال شيخ الإسلام في بيان الفرق بين النبي وبين الساحر والكاهن: إنّ ما يُعلم بصريح العقل أنّه من السيئات، فالنبيّ لا يأمر به ولا يعمله، وقد عُلِم بصريح العقل، مع ما تواتر عن الأنبياء أنّهم حرّموا الشِّرك، فمتى كان الرجل يأمر بالشرك، وعبادة غير الله، أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب، والفواحش والظلم، عُلِم قطعاً أنّه من جنس السحرة، لا من جنس الأنبياء.

وخوارق هذا يمكن معارضتها وإبطالها من بني جنسه وغير بني جنسه، وخوارق الأنبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها، ولا يمكن أحداً إبطالها، لا من جنسهم ولا من غير جنسهم؛ فإنّ الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً، فلا يُتصوّر أنّ نبياً يُبطل معجزة آخر، وإن أتى بنظيرها، فهو يصدقه، ومعجزة كلّ منهما آية له وللآخر أيضا، كما أنّ معجزات أتباعهم آيات لهم، بخلاف خوارق السحرة، فإنّها إنّما تدلّ على أنّ صاحبَها ساحرٌ يؤثّر آثاراً غريبةً ممّا هو فسادٌ في العالم، ويُسَرّ بما يفعله من الشرك والكذب والظلم، ويستعين على ذلك بالشياطين، فمقصوده الظلم والفساد، والنبيّ مقصوده العدل والصلاح، وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة، وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك له، وهذا إنّما يستعين بالشرك وعبادة غير الله، وهذا يُعظِّم إبليسَ وجنودَه، وهذا يذمّ إبليسَ وجنودَه.

آيات الأنبياء لا يقدر عليها إلا الذي أرسلهم سبحانه:

قال رحمه الله: فلا بُدّ في آيات الأنبياء من أن تكون مع كونها خارقةً للعادة أمراً غيرَ معتاد لغير الأنبياء، بحيث لا يقدر عليه إلا الله الذي أرسل الأنبياء، ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء، لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين، ولا غير ذلك. ومن خصائص معجزات الأنبياء: أنّه لا يُمكن معارضتها، فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء عن معارضتها، كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء، بخلاف ما كان موجوداً لغيرها، فهذا لا يكون آيةً البتة. ولهذا من لم يكن عارفاً بالأنبياء من فلاسفة اليونان والهند،

وغيرهم، لم يكن له فيهم كلام يُعرف، كما لم يُعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يُعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابي وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة.

وسيأتي حديثه عن الفلاسفة فيما بعد إن شاء الله.

ولما أراد طائفة كأبي حامد وغيره، أن يقرّروا إمكان النبوة على أصلهم، احتجوا بأنّ مبدأ الطبّ ومبدأ النجوم، ونحو ذلك، كان من الأنبياء؛ لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك، وهذا إنّما يدلّ على اختصاص من أتى بذلك بنوعٍ من العلم، وهذا لا يُنكره عاقل.

وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة، أنها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتة. وكلّ هذا كلام من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبيّ عنها، وهو أنقص ممن أراد أن يُقرّر أنّ في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدلّ بوجود الشعراء، على وجود الفقهاء والأطباء، بل هذا المثال أقرب؛ فإنّ بُعد النبوّة عن غير الأنبياء أعظم من بُعد الفقيه، والطبيب عن الشاعر، ولكنّ هؤلاء من أجهل الناس بالنبوّة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع، فأرادوا تخريج ذلك على أصول قومٍ لم يعرفوا الأنبياء.

فإن قيل: موسى وغيره، كانوا موجودين قبل أرسطو؛ فإنّ أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة. وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت فَمِنْهُم مَنْ هَدَى الله وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَة فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِير﴾[2] فهذا يُبيّن أنّ كُلّ أمّة قد جاءها رسولٌ، فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟

قلت: عن هذا جوابان: أحدهما: أنّ كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل، كما قال: ﴿وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَة فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾ فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.

الثاني: أنّه قال تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾[3] فإذا كان الشيطان قد زيّن لهم أعمالهم، كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم، فلم يعرفوها.

---

(١) النحل: الآية ٣٦
(٢) فاطر: الآية ٢٤
(٣) النحل: الآية ٦٣

وأرسطو لم يأت إلى أرض الشام، ويُقال: إنّ الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الأنبياء، لكن المعرفة المجملة لا تنفع كمعرفة قريش؛ كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعاً من غير معرفة بأحوالهم، وأيضا: فهم وأمثالهم المشاؤون أدركوا الإسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل، إما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم، وما سمعوه حرّفوه، أو حملوه على أصولهم، وكثيرٌ من المتفلسفة هم من هؤلاء.

فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام، فما الظن بمن كان ببلادٍ لا يُعرف فيها شريعة نبي، بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوعٍ من الآدميين خصّهم الله بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم، واستقراء أحوالهم؛ كما يعرف الأطباء والفقهاء.

ولهذا إنّما يقرّر الربّ تعالى في القرآن أمر النبوّة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم، فيذكر وجود هؤلاء، وأنّ قوماً صدّقوهم وقوماً كذّبوهم، ويُبيّن حال من صدّقهم وحال من كذّبهم، فيُعلم بالاضطرار حينئذٍ ثبوت هؤلاء، ويتبيّن وجود آثارهم في الأرض.

فمن لم يكن رأى في بلده آثارهم، فليسر في الأرض، ولينظر آثارهم، وليسمع أخبارهم المتواترة. يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَومُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِير * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيد * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمَاً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المَصِير﴾[١] ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد إنذار قومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمَاً لِلْعِبَاد﴾[٢] ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشيّ وغيرهما –القرآنَ، قال ورقة بن نوفل: هذا هو النَّاموس الذي كان يأتي موسى. وقال النجاشي: إنّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، فكان عندهم علمٌ بما جاء به موسى، اعتبروا به، ولولا ذلك لم يعلموا هذا.

(١) الحج: من الآية ٤٢:٤٨
(٢) غافر: الآية ٣٠

وكذلك الجنّ لما سمعت القرآن، ولّوا إلى قومهم منذرين ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم﴾(١)

ولما أراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمّد، قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدَاً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذَاً وَبِيلاً﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدَى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٣)

فهو سبحانه يُثبت وجود جنس الأنبياء ابتداءً؛ كما في السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس، وسعادة من اتبعه، وشقاء من خالفه، فمن أقرّ بجنس الأنبياء، كان إقراره بنبوة محمّد في غاية الظهور، أبين مما أقرّ أنّ في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء، فإذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الأربعة ونحوهم، كان إقراره بذلك من أبين الأمور.

ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمّد ﷺ إما أن يكون لجهله بما جاء به، وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم.

والعرب عرفوا ما جاء به محمّد، فلمّا أقرّوا بجنس الأنبياء، لم يبق عندهم في محمّد شكّ، وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبياء يدلّ على نبوّة محمّد بطريق الأولى؛ إذ كانوا من جنس واحد، ونبوّته أكمل. فينبغي معرفة هذا، فإنّه أصل عظيم؛ ولهذا جميع مشركي العرب آمنوا به، فلم يحتج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية، فإنّهم لما عرفوا نبوته، وأنّه لا بُدّ من متابعته، أو متابعة اليهود والنصارى، عرفوا أنّ متابعته أولى.

ومن كان من أهل الكتاب: بعضهم آمن به، وبعضهم لم يؤمن جهلاً وعناداً، وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به، فلم يستقرئوا أخبار محمّد، وما جاء به خالين من الهوى، بخلاف من لم يكن له كتاب؛ فإنّه نظر في الأمرين نَظَرَ خالٍ من الهوى، فعرف فضل ما جاء به محمّد على ما جاء به غيره. ولهذا لا تكاد توجد أمة لا كتاب لها يُعرض عليها دين المسلمين واليهود والنصارى، إلاّ رجّحت دين الإسلام، كما يجري لأنواع الأمم التي لا كتاب لها. فأهل الكتاب مقرون بالجنس، منازعون في العين.

---

(١) الأحقاف: الآية ٣٠
(٢) المزمل: الآية ١٥,١٦
(٣) الأنعام: من الآية ٩١,٩٢

والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس، وإن أقرّوا ببعض صفات الأنبياء، فإنّما أقرّوا منها بما لا يختص بالأنبياء، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء البتة. هذا هو الذي يجب القطع به.

ولهذا يُذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم، فيقال: قالت الأنبياء والفلاسفة، واتفقت الأنبياء والفلاسفة، كما يُقال: المسلمون واليهود والنصارى.

خاتمة: رد شيخ الإسلام على من سوى بين آيات الأنبياء وغيرها. (من كتاب النبوات)

رد شيخ الإسلام على ذلك من تسعة وجوه، منها:

أنّ كون آيات الأنبياء مساوية في الحدّ والحقيقة لسحر السحرة، أمرٌ معلوم الفساد بالاضطرار من دين الرسل.

الثاني: أنّ هذا من أعظم القدح في الأنبياء، إذ كانت آياتهم من جنس سحر السحرة، وكهانة الكهان.

الثالث: أنّه على هذا التقدير لا يبقى دلالة؛ فإنّ الدليل ما يستلزم المدلول، ويختصّ به. فإذا كان مشتركاً بينه وبين غيره، لم يبق دليلاً. فهؤلاء قدحوا في آيات الأنبياء، ولم يذكروا دليلاً على صدقهم.

الرابع: أنه على هذا التقدير يمكن الساحر دعوى النبوة. قال شيخ الإسلام: وقوله: أنه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر، أو يأتي بمن يعارضه: دعوى مجردة؛ فإنّ المنازع يقول: لا نسلم أنه إذا ادعى النبوة فلا بدّ أن يفعل الله ذلك، لا سيما على أصله، وهو أنّ الله يجوز أن يفعل كل مقدور، وهذا مقدور للرب فيجوز أن يفعله. وادعى أن ما يخرق العادة من الأمور الطبيعية والطلسمات، هي كالسحر. فقال: ولأجل ذلك لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس، وما يوجد ويكون عند كتب الطلسمات. قال: وذلك أنّه لو ابتدأ نبيّ بإظهار حجر المغناطيس، لوجب أن يكون ذلك آية له. ولو أنّ أحداً أخذ هذا الحجر، وخرج إلى بعض البلاد، وادّعى أنّه آية له عند من لم يره ولم يسمع به، لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين:

- أحدهما: أن يؤثر دواعي خلق من البشر إلى حمل جنس تلك الحجارة إلى ذلك البلد. وكذلك سبيل الزناد الذي يقدح النار، وتعرفه العرب. وكذلك سبيل الطلسمات التي يقال أنها تنفي الذباب والبقّ والحيّات.
- والوجه الآخر: أن لا يفعل الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل، فيقال: هذه دعوى مجردة.

ومما يوضح ذلك:

الوجه **الخامس**: وهو أن جعل قدح الزناد، وجذب حجر المغناطيس، والطلسمات من جنس معجزات الأنبياء، وأنه لو بعث نبيّ ابتداء، وجعل ذلك آية له، جاز ذلك: غلطٌ عظيمٌ، وعدم علم بقدر معجزات الأنبياء وآياتهم.

وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية، كما فعلت المعتزلة، وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الأنبياء، وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك؛ لدلالة الشرع والأخبار المتواترة والعيان على وجود حوادث من هذا النوع، فجعلوا الفرق افتراق الدعوى، والاستدلال، والتحدي دون الخارق. ومعلومٌ أن ما ليس بدليل لا يصير دليلاً بدعوى المستدلّ أنّه دليل.

قال شيخ الإسلام: والذين ادّعوا النبوة ظهرت لهم خوارق ولم يعارضهم أحد وقد بسط الكلام في ذلك، وجوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب، إذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه؛ فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل، مع أنّ المثل عنده موجود، وآيات الأنبياء لها أمثال كثيرة لغير الأنبياء، لكن يقول إنّ من ادّعى الإتيان، فإما ألا يظهرها الله على يديه، وإما أن يُقيّض من يعارضه بمثلها.

هذا عمدة القوم، وليس فرقاً حقيقياً بين النبيّ والساحر، وإنّما هو مجرّد دعوى.

وهذا يظهر في الوجه **السادس**: وهو أنّ من الناس من ادّعى النبوة وكان كاذباً، وظهرت على يده بعض هذه الخوارق، فلم يُمنع منها ولم يعارضه أحدٌ، بل عُرف أنّ هذا الذي أتى به ليس من آيات الأنبياء، وعُرف كذبه بطرق متعددة، كما في قصة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، وغير هؤلاء ممّن ادعى النبوة. فقولهم: إنّ الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس، ليس كما ادعوه.

الوجه **السابع**: أنه إنما أوجب ألا يظهر الله الخوارق على يد الكذّاب؛ لأنّ ذلك يُفضي إلى عجز الربّ، وهذه عمدة الأشعري في أظهر قولَيْه، وهي المشهورة عند قدمائهم، وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى، ونحوه.

قال القاضي أبو بكر: فإن قال قائلٌ من القدرية: فلم لا يجوز أن يظهر المعجزات على يد مدّعي النبوّة ليُلبّس بذلك على العباد، ويضل به عن الدين، وأنتم تجوّزون خلقه الكفر في قلوب الكفار وإضلالهم.

فما الفصل بين إضلالهم بهذا، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على يد الكاذبين؟

قال: فيُقال لمن سأل عن هذا من القدرية: الفصل بين الأمرين ظاهرٌ معلومٌ، وقد نصّ القرآن والأخبار بأنه يضلّ ويهدي، ويختم على القلوب والأسماع والأبصار.

فأما مطالبتهم بالفرق بين إضلال العباد بهذه الضروب من الأفعال، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على أيدي الكذابين، فجوابه: أنّا لم نحل إضلالهم بهذا الضرب لأنه إضلال عن الدين، أو لقبحه من الله لو

وقع، أو لاستحقاقه الذمّ عليه تعالى عن ذلك، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل. كلّ ذلك باطلٌ محالٌ من تمويههم، وإنما أحلناه لأنه يُوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب.

وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبي من جهة الدليل؛ إذ لا دليل بقول كلّ أحدٍ أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم، إلا ظهوراً لأعلام المعجزة على أيديهم، أو خبرُ من ظهرت المعجزة على يده عن نبوّة آخرَ مُرسَلٍ.

فهذا إجماع لا خلاف فيه، فلو أظهر الله على يد المتنبي الكاذب ذلك، لبطلت دلائل النبوة، وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول، ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم.

ولما لم يجز عجزه، وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات، لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين، بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين، ومتأخرو الأشاعرة سلكوا طريق الضرورة في معرفة صدق النبي ﷺ

قلت: هذا عمدة القوم.

ومتأخرو الأشاعرة عرفوا ضعف هذا، فلم يسلكوه، كأبي المعالي، والرازي، وغيرهما، بل سلكوا الجواب الآخر: أنّ العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة، فهو علم ضروري، وبيّن ضعف هذا الجواب، مع أنه يحتجّ به، وقال: فهذا هذا من وجوه:

- أحدها: أن يقال: إن كان الأمر كما زعمتم، فإنما يلزم العجز إذا كان خلق الدليل الدالّ على صدقهم جنسه لا يدلّ، بل جنسه يقع مع عدم النبوّة، ولم يبق عندكم جنسٌ من الأدلة يختصّ النبوة. فلِمَ قلتم: إنّ تصديقهم والحال هذه ممكن؟ ولا ينفعكم هنا الاستدلال بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية؛ لأنّ كلامكم مع منكري النبوات.

  فيجب أن تقيموا عليهم كون المعجزات دليلاً على صدق النبي، وأما من أقر بنبوّتهم بطريقٍ غير طريقكم، فإنّه لا يحتاج إلى كلامكم، فإذا قال لكم منكروا النبوّة: لا نسلّم إمكان طريق يدل على صدقهم، لم يكن معكم ما يدلّ على ذلك. وقد أورد هذا السؤال، وأجاب عنه: بأنّه يمكنه تصديقهم بالقول، والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول، بل التصديق بالفعل أوكد.

  وضرب المثل بمدّعي الوكالة، إذا قال: قُمْ، أو اقعد، ففعل ذلك عند استشهاد وكيله؛ فإنّ العقلاء كلّهم يعلمون أنّه أقام تلك الأفعال مقام القول.

قلت: وهذا يعود إلى الاحتجاج بالطريقة الثانية، وهي العلم بالتصديق ضرورة، فلا حاجة إلى طريقة المعجزات.

- الثاني: أنّه يُمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم. وقد سلّم القاضي أبو بكر ذلك، لكن قال: إذا اضطررنا إلى العلم بصدق مدّعي النبوة، وأنّه أرسله إلينا، كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا إلى العلم بذاته، وإلى أنه قد أرسل مدعي النبوة، وإذا علمنا ذلك اضطراراً، لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجهاً، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين للعلم بالدين. وهذا كلامٌ يؤدي إلى خروجنا عن حدّ المحنة والتكليف.

فيُقال له: إذا حصل العلم الضروريّ بوجود الخالق وبصدق رسوله، كان التكليف بالإقرار بالصانع، وعبادته وحده لا شريك له، وبتصديق رسله وطاعة أمره.

وهذا هو الذي أمرت به الرسل؛ أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده، وأن يُطيعوا رسله، ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله.

لكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبيّنوا معاندته، وأنّه جاحدٌ للحقّ الذي يعرفه، وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنّه صادق ويكذبونه، فليُتدبّر هذا الموضع؛ فإنه موضعٌ عظيم.

- الوجه الثالث: أن يقال: نحن نُسلّم أنّ المعجزات تدلّ على الصدق، وأنّه لا يجوز إظهارها على يد الكاذب، لكن هو لأنّ الله منزه عن ذلك، وأنّ حكمته تمنع ذلك، ولا يجوز عليه كلّ فعل ممكن، وأنتم مع تجويزكم عليه كلّ ممكن، يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب، فما علم بالعقل والإجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم.
- الوجه الرابع: أن يقال: لِمَ قلتم أنّه لا دليل على صدقهم إلا المعجزات، وما ذكرتم من الإجماع على ذلك لا يصحّ الاستدلال به لوجهين:

أحدهما: أنه لا إجماع في ذلك، بل كثيرٌ من الطوائف يقولون: إنّ صدقهم بغير المعجزات.

الثاني: إنّه لا يصحّ الاحتجاج بالإجماع في ذلك؛ فإنّ الإجماع إنّما يثبت بعد ثبوت النبوة، والمقدمات التي يُعلم بها النبوة لا يُحتج عليها بالإجماع، وقولكم: لا دليل سوى المعجز مقدمة ممنوعة.

وذُكر عن الأشعري أنّه ذَكَرَ جواباً آخر، فقال: وأيضاً فإنّ قول القائل: ما أنكرتم من جواز إظهار المعجزات على أيدي الكذابين: قولٌ متناقضٌ، والله على كل شيء قدير، ولكن ما طالب السائل بإجازته محالٌ، لا تصحّ القدرة عليه، ولا العجز عنه؛ لأنّه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم؛ فإنّه أوجب أنهم صادقون؛ لأنّ المعجز دليلٌ على الصدق ومتضمنٌ له.

وقوله: مع ذلك أنهم كاذبون: نقضٌ لقوله: أنهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم.

فوجب إحالة هذه المطالبة، وصار هذا بمثابة قول من قال: ما أنكرتم من صحة ظهور الأفعال المحكمة الدالّة على علم فاعلها، والمتضمّنة لذلك من جهة الدليل، من الجاهل بها في أنّه قولٌ باطلٌ متناقضٌ،

فيجب إذا كان الأمر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين، واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه.

وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال: ما أنكرتم وزعمتم أنّه من فعل المحال الذي لا يصحّ حدوثه، وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحّة خلق الكفر، وضروب الضلال التي يصحّ حدوثها، وتناول القدرة لها.

قلت: هذا كلامٌ صحيحٌ إذا عُلم أنّها دليل الصدق، يستحيل وجوده بدون الصدق، والممتنع غير مقدور، فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين ما يدل على صدقهم.

لكن المطالب يقول: كيف يستقيم على أصلكم أن يكون ذلك دليل الصدق، وهو أمرٌ حادثٌ مقدور، وكلّ مقدور يصح عندكم أن يفعله الله، ولو كان فيه من الفساد ما كان؛ فإنّه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن، ولا يقبح منه فعل، فحينئذ إذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق، لم يكن ممتنعاً على أصلكم، وهي لا تدلّ على الصدق البتة على أصلكم، ويلزمكم إذا لم يكن دليل إلهي، ألاَّ يكون في المقدور دليلٌ على صدق مدعي النبوّة، فيلزم أنّ الربّ سبحانه لا يصدق أحداً ادّعى النبوّة.

وإذا قلتم: هذا ممكنٌ، بل واقعٌ، ونحن نعلم صدق الصادق إذا ظهرت هذه الأعلام على يده ضرورةً.

قيل: فهذا يُوجب أنّ الربّ لا يجوز عليه إظهارها على يد كاذب.

وهذا فعلٌ من الأفعال هو قادر عليه، وهو سبحانه لا يفعله، بل هو منزّه عنه.

فأنتم بين أمرين: إن قلتم: لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتنعاً، فقد قلتم: أنّه لا يقدر على إحداث حادثٍ قد فعل مثله، وهذا تصريحٌ بعجزه. وأنتم قلتم: فليست بدليل، فلا يلزم عجزه، فصارت دلالتها مستلزمةً لعجزه على أصلكم.

وإن قلتم: يقدر، لكنّه لا يفعل، فهذا حقٌّ، وهو ينقض أصلكم.

وحقيقة الأمر: أنّ نفس ما يدلّ على صدق الصادق بمجموعه، امتنع أن يحصل للكاذب، وحصوله له ممتنعٌ غير مقدور. وأمّا خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب، فهو ممكنٌ، والله سبحانه وتعالى قادر عليه، لكنه لا يفعله لحكمته؛ كما أنّه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم. وتصديق الكاذب هو منزهٌ عنه، والدالّ على الصدق قَصْدُ الربّ تصديق الصادق، وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب؛ فيمتنع جعل من ليس برسولٍ رسولاً، وجعل الكاذبِ صادقاً، ويمتنع من الرب قصد المحال، وهو غير مقدور، وهو إذا صدّق الصادق بفعله علم بالاضطرار والدليل أنّه صدّقه، وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب.

واستشهادكم بالعلم هو من هذا الباب؛ فأنتم تقولون: إنّ الربّ لا يخلق شيئاً لشيءٍ. وحينئذٍ فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الإحكام، فلا يكون الإحكام دالا على العلم على أصلكم؛ فإنّ الإحكام إنّما هو جعل الشيء محصّلاً للمطلوب، بحيث يجعل لأجل ذلك المطلوب.

وهذا عندهم لا يجوز، فإثبات علمه، وتصديق رسله مشروطٌ بأن يفعل شيئاً لشيءٍ. وهذا عندكم لا يجوز، فلهذا يُقال: إنّكم متناقضون، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الوجه **الثامن**: أنّ حقيقة الأمر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة الخارق مع التحدي أنّ المعجز في الحقيقة ليس إلا منع الناس من المعارضة بالمثل، سواءٌ كان المعجز في نفسه خارقاً، أو غير خارق. وكثيرٌ ممّا يأتي به الساحر والكاهن أمرٌ معتادٌ لهم، وهم يجوّزون أن يكون آيةً للنبيّ، وإذا كان آيةً، منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل، أو قيّض له من يعارضه. وقالوا: هذا أبلغ؛ فإنه منع المعتاد.

وكذلك عندهم أحد نَوْعَي المعجزات منعهم من الأفعال المعتادة، وهو مأخذ من يقول بالصرفة.

وإذا كان كذلك جاز أن يكون كلّ أمرٍ: كالأكل والشرب والقيام والقعود معجزةً إذا منعهم أن يفعلوا كفعله، وحينئذٍ فلا معنى لكونها خارقاً، ولا لاختصاص الربّ بالقدرة عليها، بل الاعتبار بمجرّد عدم المعارضة، وهم يُقرّون بخلاف ذلك، والله أعلم.

الوجه **التاسع**: أنّه إذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدي، فلا حاجة إلى كونه خارقاً كما تقدم، ويجب إذا تحدّى بالمثل أن يقول: فليأت بمثل القرآن من يدّعي النبوّة؛ فإنّ هذا هو المعجز عندهم، وإلاَّ القرآن مجرّداً ليس بمعجز، فلا يُطلب مثل القرآن إلاَّ ممّن يدّعي النبوّة، كما في الساحر والكاهن إذا ادّعى النبوة سلبه الله ذلك، أو قيّض له من يعارضه.

وإذا لم يدّع النبوّة جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبيّ. (من كلامهم كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي). فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن، وسائر المعجزات. والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وقالت طائفة: بل كل هذا حقٌ وخرق العادة جائزٌ مطلقاً، وكلّ ما خُرق لنبيّ من العادات يجوز أن يُخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان، لكن الفرق أنّ هذه تقترن بها دعوى النبوّة؛ وهو التحدّي. وقد يقولون: إنّه لا يمكن أحداً أن يعارضها، بخلاف تلك، وهذا قول من اتّبع جهماً على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم؛ حيث جوّزوا أن يفعل كلّ ممكن، فلزمهم جواز خرق العادات مطلقاً على يد كلّ أحد. واحتاجوا مع ذلك إلى الفرق بين النبي وغيره، فلم يأتوا

بفرق معقول، بل قالوا: هذا يقترن به التحدي، فمن ادّعى النبوة وهو كاذب، لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له، ولا تكون دليلاً على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك؛ فإن هذين قولان لهم.

فقيل لهم: لِمَ أوجبتم هذا في هذا الموضع دون غيره، وأنتم لا توجبون على الله شيئاً؟ فقالوا: لأنّ المعجزةَ علمُ الصدق، فيمتنع أن يكون لغير صادق. فقلنا: المجموع هو الممتنع، وهو خارق العادة، ودعوى النبوة أو هذان مع السلامة عن المعارض.

فقيل لهم: ولم قلتم إنه علم الصدق على قولكم؟ فقالوا: إمّا لأنّه يُفضي منع ذلك إلى عجزه، وإمّا لأنّه علم دلالته على الصدق بالضرورة.

فقيل لهم: إنّما يلزم العجز أن لو كان التصديق على قولكم ممكناً، وكون دلالتها معلومةٌ بالضرورة هو مُسَلّم، لكنّه يُناقض أصولكم، ويُوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة، دون نظيره، وهذا ممتنع، فإنّكم تقولون: يجوز أن يخلق على يد مدّعي النبوة والساحر والصالح، لكن إن ادّعى النبوّة، دلّت على صدقه، وإن لم يدّع النبوّة، لم يدل على شيء، مع أنّه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدّعي النبوّة، وغير مدّعي النبوة، بل كلاهما جائز فيه.

فإذا كان هذا مثل هذا: لِمَ كان أحدهما دليلاً دون الآخر؟ ولِمَ اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أنّ الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلاّ على يد صادق، وأنتم تجوّزون على أصلكم كلّ فعل مقدور، وخلقها على يد الكذاب مقدور؟!

ثمّ هؤلاء جوّزوا كرامات الصالحين، ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الأنبياء فرقٌ، بل صرّح أئمتهم أنّ كلّ ما خُرق لنبيّ يجوز أن يخرق للأولياء، حتى معراج مُحَمّد، وفرق البحر لموسى، وناقة صالح، وغير ذلك. ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقاً معقولاً، بل قد يجوّزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك، لكن بينهما فرق دعوى النبوة، وبين الصالح والساحر، والبر والفجور.

وحذّاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب، مثل ابن سينا، وهو أفضل طائفتهم، وهو أجهل من تكلم في هذا الباب، فإنهم جعلوا ذلك كلّه من قوى النفس، لكنّ الفرق أنّ النبيّ والصالح نفسُه طاهرةٌ يقصد الخير، والساحر نفسُه خبيثةٌ، وأما الفرق بين النبي والصالح فمتعذّرٌ على قول هؤلاء.

وممّا يُبيِّن ضعف طريقة هؤلاء أنّهم قالوا: المعجزات لا تدلّ بجنسها على النبوّة، بل يُوجِد مثل المعجز من كلّ وجه، ولا يدلّ على النبوّة كأشراط الساعة، وكما يوجد للسحرة والكهّان والصالحين من الخوارق التي تماثل آيات الأنبياء فيما زعمه هؤلاء.

وقال رحمه الله: ومما يلزم أولئك أنّ ما كان يظهر على يد النبيّ ﷺ في كل وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوّته؛ لأنّه لم يكن كلما ظهر شيءٌ من ذلك احتجّ به، وتحدّى الناس بالإتيان بمثله، بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصّة، ولا نُقل التحدي عن غيره من الأنبياء: مثل موسى، والمسيح، وصالح. ولكنّ السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم.

وهذا الذي قالوه يُوجب أن لا تكون كرامات الأولياء من جملة المعجزات، وما يكون للسحرة والكهّان لا يكون من آيات الأنبياء، بل آيات الأنبياء مختصة بهم، وأما كرامات الأولياء فهي أيضاً من آيات الأنبياء؛ فإنّها إنّما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة، فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوّة، وأيضاً فإنّ كرامات الأولياء معتادةٌ من الصالحين، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك، فانشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حيّة، وخروج الدابة من صخرة، لم يكن مثله للأولياء، وكذلك خلق الطير من الطين، ولكنّ آياتِهم صغارٌ وكبارٌ، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى﴾(1) فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة، وقال عن نبيّه محمّد: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾(2) فالآيات الكبرى مختصة بهم.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أنّ كرامات الأولياء معجزات لنبيّهم، وهي من آيات نبوته، وهذا هو الصواب، كقصة أبي مسلم الخولاني وغيره ممّا جرى لهذه الأمة من الآيات، ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين، وعلى يد موسى وأتباعه. النبوات.

والتحقيق: أنّ آيات الأنبياء مستلزمة للنبوّة ولصدق الخبر بالنبوّة، فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول بأنّه رسول، لا يوجد مع التكذيب بذلك ولا مع عدم ذلك البتة، وليست من جنس ما يقدر عليه لا الإنس ولا الجنّ، فإنّ ما يقدر عليه الإنس والجنّ يفعلونه فلا يكون مختصاً بالأنبياء، ومعنى كونها خارقةً للعادة أنّها لا توجد إلاّ للنبوّة لا مرّة ولا أقلّ ولا أكثر، فالعادة هنا تثبتُ بمرّة، والقاضي أبو بكر يقول: إنّ ما فعل مرّات يسيرة لا يكون معتاداً. وفي كلامه في هذا الباب من الاضطراب ما يطول وصفه، وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه كالقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي، والرازي، والآمدي، وغيرهم.

وما يأتي به السحرة والكهان يمتنع أن يكون آيةً لنبيّ، بل هو آية على الكفر، فكيف يكون آيةً للنبوّة وهو مقدور للشياطين؟

(1) النازعات: من الآية ٢٠
(2) النجم: من الآية ١٨

وآيات الأنبياء لا يقدر عليها جنّ ولا إنس، وآيات الأنبياء آيات لجنسها، فحيث كانت آيةً لله تدلّ على مثل ما أخبرت به الأنبياء، وإن شئتَ قلت: هي آيات لله يُدلّ بها على صدق الأنبياء تارة، وعلى غير ذلك تارة.

إذا قال الصادق: إنّ الله أرسلني، فهذا خبرٌ منه عن إرسال الله، فالآية الدالة على صدقه تدلّ على صدق كلّ من قال: إنّ الله أرسله. فالآيات الدالة على صدق محمّد إذا قال ما أمره الله به في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[1] هي دالة على صدق كلّ من قال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فجميع آياته وآيات الأنبياء الذين أخبروا بنبوّته، كموسى والمسيح –عليهما السلام– وأنبياء بني إسرائيل، وغيرهم كلّها آيات ومعجزات تُبيّن صدق كل واحد من المؤمنين به، الذين يقول أحدهم: أشهد أنّ مُحّدا رسول الله، سواء قالها مجرّدة أو قالها في صلاته أو عقب طهارته، أو متى ما قالها.

ليست آيات النبوّة دالّة على أنّه وحده هو الصادق في قوله: إنّي رسول الله إليكم جميعاً، بل الآيات تصدّقه، وتصدّق كلّ من شهد له بالرسالة. وهكذا سائر الأدلة الدالّة على مدلول؛ فإنّها تدلّ على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه من جميع الخلق.

وكذلك خوارق السحرة والكهان، هي معتادة مع صدق أحدهم ومع كذبه، فلا تدلّ على الصدق ولا على الكذب، والاستدلال بها على صدقه كالاستدلال بها على كذبه، وهي على الكذب أدلّ؛ إذ كان كذبهم أكثر من صدقهم، كالذين يُخبرون بكلمة صدق وعشرة كذب، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فكيف إذا كان مع الصدق مائة كذبة، كما قال النبي ﷺ لما سُئِل عن الكُهَّان، كما روى البخاري في صحيحه عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: {سأل ناسٌ رسولَ الله ﷺ عن الكُهَّان، فقال لهم رسول الله ﷺ: ليسوا بشيء. قالوا: يا رسول الله فإنّهم يحدّثون أحياناً بشيء يكون حقّاً. فقال رسول الله ﷺ: "تلك الكلمة من الحقّ يحفظها الجنيّ، فيقرها في أذن وليّه قرّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة}[2]

فيلزم من هذا: أنّ آيات الأنبياء لا يكون مثلها لمن يكذّبهم، وهو الذي يخبر بكذبهم. والناس فيهم رجلان: إمّا مصدّق، وإمّا مكذّب، فالمكذّب لهم يمتنع أن يأتي بمثل آياتهم، ومتى كذب مكذب لمدعي النبوة وأتى بمثل آيته سواء دلّ على أنّ تلك ليست من آيات الأنبياء، ولا تدلّ على صدق النبيّ، لكن

---

(١) الأعراف: من الآية ١٥٨

(٢) مر كثيرا وهو في مسلم.

لا يلزم أن يدلّ على كذبه؛ فإنَّ الدليل المعيَّن إذا بطل لا يستلزم انتفاء المدلول عليه؛ فقد تكون له آيات أخر تدل على نبوّته.

وصدق الصادق وكذب الكاذب يُعرف بوجوهٍ كثيرةٍ جداً، وكذلك النبوّة: لها آثار مستلزمة لها بدون إخبار النبيّ بأنّه نبيّ، وكذب المتنبي الذي يُزيّن له الشيطان أن يقول: إنّه نبيّ، له آثار تستلزم انتفاء النبوة، وأنّه كاذبٌ، إمّا عمداً وإمّا أنّ الشيطان قد لبّس عليه.

قال شيخ الإسلام: **السادس**: أنّ ما يأتي به السحرة، والكهان، وكلّ مخالف للرسل تُمكن معارضته بمثله، وأقوى منه، كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب. وآيات الأنبياء لا يُمكن أحداً أن يعارضها، لا بمثلها ولا بأقوى منها، وكذلك كرامات الصالحين، لا تعارض لا بمثلها ولا بأقوى منها، بل قد يكون بعضها آيات أكبر من بعض وكذلك آيات الصالحين، لكنها متصادقة متعاونة على مطلوب واحد، وهو عبادة الله وتصديق رسله.

فهي آيات ودلائل وبراهين متعاضدة على مطلوب واحد. والأدلة بعضها أدلّ وأقوى من بعض؛ ولهذا كان المشايخ الذين يتحاسدون ويتعادون، ويقهر بعضهم بعضاً بخوارقه إما بقتل وإمراض، وإما بسلب حاله وعزله عن مرتبته، وإما غير ذلك خوارقهم شيطانية، ليست من آيات الأنبياء والأولياء... وكثيرٌ من هؤلاء يكون في الباطن كافراً منافقاً، وكثيرٌ منهم يموت على غير الإسلام، وكثيرٌ منهم يكون مسلماً مع ظلم يعرف أنه ظلم، ومنهم من يكون جاهلاً يحسب أنّ ما هو عليه ممّا أمر الله به ورسوله. وهذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك من قهر بعضهم لبعض، فهذا خارج عن سنّة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين.

السابع: أنّ آيات الأنبياء هي الخارقة للعادات: عادات الإنس والجنّ، بخلاف خوارق مخالفيهم، فإنّ كلّ ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء. وآيات الأنبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله، ويصدّقون من صدق على الله، وهم الذين جاؤوا بالصدق وصدّقوا. وتلك معتادة لمن يفتري الكذب على الله، أو يكذّب بالحقّ لما جاءه.

فتلك آيات على كذب أصحابها، وآيات الأنبياء آيات على صدق أصحابها؛ فإن الله سبحانه لا يُخلي الصادق ممّا يدلّ على صدقه، ولا يُخلي الكاذب ممّا يدلّ على كذبه؛ إذ من نعته ما أخبر به في قوله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْترى على اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَأ اللهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[1] ثم قال خبراً مبتدياً: ﴿وَيَمْحُو اللهُ الباطلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[2] فهو سبحانه لا بُدّ أن يمحق الباطل، ويُحقّ الحق بكلماته. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَواتِ والأرْضَ وما بينهُما لاعِبِينَ * لو أَرَدْنا أَن نتخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِن لَدُنَّا إن كُنَّا فاعِلِينَ * بلْ نَقْذِفُ بالحقّ عَلى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زَاهِق ولَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[3] كما أخبر في موضع أنّه لم يخلق الخلق عبثاً ولا سُدى، وإنّما خلقهم بالحق وللحق، فلا بُدّ أن يجزي هؤلاء وهؤلاء بإظهار صدق هؤلاء، وإظهار كذب هؤلاء، كما قال: ﴿بلْ نَقْذِفُ بالحقّ عَلى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هوَ زَاهِق﴾

الثامن: أنّ هذه لا يقدر عليها مخلوق، فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجنّ ولا للإنس، وإن كانت الملائكة قد يكون لهم فيها سبب بخلاف تلك؛ فإنّها إما مقدورة للإنس أو للجنّ، أو ممّا يُمكنهم التوصّل إليها بسبب. وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبياء كما تقدّم، ولكن ليست من آياتهم الكبرى، ولا يتوقّف إثبات النبوة عليها، وليست خارقة لعادة الصالحين، بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل في أهل الكتاب والمسلمين. وآيات الأنبياء التي يختصّون بها خارقة لعادة الصالحين.

التاسع: أنّ خوارق غير الأنبياء: الصالحين، والسحرة، والكهان، وأهل الشرك والبدع، تُنال بأفعالهم كعبادتهم ودعائهم، وشركهم وفجورهم، ونحو ذلك. وأمّا آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك، بل الله يفعلها آيةً وعلامةً لهم، وقد يُكرمهم بمثل كرامات الصالحين وأعظم من ذلك مما يقصد به إكرامهم. لكن هذا النوع يُقصد به الإكرام والدلالة، بخلاف الآيات المجردة: كانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء، والإتيان بالقرآن، والإخبار بالغيب الذي يختصّ الله به. فأمرُ الآيات إلى الله، لا إلى اختيار المخلوق، واللهُ يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته، كما يُنزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات، بخلاف ما حصل باختيار العبد، إما لكونه يفعل ما يُوجبه، أو يدعو الله به فيجيبه.

---

(١) الشورى: من الآية ٢٤

(٢) الشورى: من الآية ٢٤

(٣) الأنبياء: من الآية ١٦:١٨

فالخوارق التي ليست آيات: تارةً تكون بدعاء العبد، والله تعالى يُجيب دعوة المضطر إذا دعاه، وإن كان كافراً، لكن للمؤمنين من إجابة الدعاء ما ليس لغيرهم. وتارةً تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعوانه، وبمن يُطيعه من الجنّ والإنس في حصولها. وأما آيات الأنبياء: فلا تحصل بشيء من ذلك.

العاشر: أنّ النبيّ قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم، فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء: من عبادة الله وحده، والعمل بطاعته، والتصديق باليوم الآخر، والإيمان بجميع الكتب والرسل. فلا يُمكن خروجه عمّا اتفقت عليه الأنبياء. وأما السحرة، والكهان، والمشركون، وأهل البدع من أهل الملل، فإنّهم يخرجون عمّا اتفقت عليه الأنبياء؛ فكلّهم يُشركون مع تنوّعهم، ويُكذّبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

والأنبياء كلّهم منزّهون عن الشرك، وعن التكذيب بشيء من الحقّ الذي بعث الله به نبيّاً. قال تعالى: ﴿واسْأَل من أرسَلْنا من قَبْلِك مِن رُسُلِنا أَجَعَلْنا من دونِ الرَّحْمَنِ آلهةً يُعْبَدُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وما أرسَلْنا من قبلِك من رَسُولٍ إلا يُوحَى إليه أنَّه لا إله إلا أنا فاعْبُدُون﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ولَقَدْ بَعَثْنا في كُلّ أُمّةٍ رسولاً أن اعبُدُوا اللهَ واجتنِبُوا الطاغوتَ فمنهم من هَدَى اللهُ ومنهم من حَقَّتْ عليهِ الضَّلالة﴾(٣) وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إليه من رَبِّهِ والمؤمنونَ كُلّ آمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفرّقُ بينَ أحدٍ من رُسُلِهِ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿قولوا آمنَّا باللهِ وما أنزلَ إلينا وما أنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيّون من ربّهم لا نُفرّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ له مسلمون فإن آمنوا بمِثْلِ ما آمنتُمْ بِهِ فقد اهتّدّوْا وإن تولّوا فإنّما هُمْ في شِقاق﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ولكنّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكَةِ والكتابِ والنَّبِيّينَ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِين يكفُرُونَ باللهِ ورُسُلِهِ ويُريدونَ أن يُفَرّقُوا بين اللهِ ورُسُلِهِ ويقولونَ نُؤمِنُ ببعضٍ ونكفُرُ ببعضٍ ويُريدون أن يتّخِذُوا بينَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً﴾(٧) وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لكم من الدِّين ما وصّى به نوحاً والَّذي أوحَيْنَا إِلَيْك وما وصَّيْنا به إبراهيم وموسى وعيسى أَن أقيموا الدين ولا تتفرَّقُوا فيه كَبُرَ على المشْرِكِينَ ما تدعوهم إليه اللهُ يَجْتَبِي إليهِ مَنْ يشَاءُ ويهدِي إليهِ مَنْ يُنِيب﴾(٨) وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُل كُلُوا من

(١) الزخرف: الآية ٤٥
(٢) الأنبياء: الآية ٢٥
(٣) النحل: الآية ٣٦
(٤) البقرة: الآية ٢٨٥
(٥) البقرة: الآية ١٣٦
(٦) البقرة: من الآية ١٧٧
(٧) النساء: من الآية ١٥٠,١٥١
(٨) الشورى: الآية ١٣

الطيّبات واعملوا صالحَاً إنِّي بما تَعْمَلُون عليمٌ وأنَّ هذه أُمَّتُكُم أُمَّة واحدة وأنا ربكم فاتَّقُونِ﴾[١] ثمّ قال: ﴿فتَقَطَّعُوا أمرَهُم بَيْنَهُم زُبُرَاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ﴾[٢] وقال تعالى لما ذكر الأنبياء: ﴿إنّ هذه أُمَّتُكُم أُمَّة واحدة وأنا ربكم فاعبُدُون * وتقطَّعُوا أمرهم بينهم كُلٌّ إلينا راجعون *
فَمَنْ يعمل من الصالحات وهو مُؤْمِنٌ فلا كُفران لِسَعْيِهِ وإنَّا لَهُ كاتِبُون﴾[٣] فالأنبياء يُصدِّقُ متأخِّرُهم مُتقدّمهم، ويُبشِّر متقدّمُهم بمتأخِّرِهم؛ كما بَشَّرَ المسيح ومن قَبْلَهُ بمحمّدٍ، وكما صدّق محمّدٌ جميع النّبيّين قبلَهُ. ولهذا يقول: ﴿يا أيُّها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نَزَّلْنا مُصدّقاً لما معكُم من قبلِ أن نطْمِسَ وجوهاً فنَرُدَّها على أدبارِها أو نلعنهم كما لعنَّا أصحاب السّبْتِ﴾ وقال: ﴿وَأنزَلْنا إليكَ الكتاب بالحقّ مُصدِّقاً لما بين يديه من الكتابِ ومُهَيْمِنَاً عليهِ﴾[٤] والأنبياء وأتباعهم كُلُّهم مؤمنون مسلمون، يعبدون الله وحده بما أمر، ويُصدّقون بجميع ما جاءت به الأنبياء، ومن خالفهم لا يكون إلا مُشركاً، ومكذّباً ببعض ما أنزل الله، وبين الطائفتين فروقٌ كثيرةٌ غير خوارق العادات.

الحادي عشر: أنّ النبيّ هو وسائر المؤمنين لا يُخبرون إلا بحقّ، ولا يأمرون إلا بعدل؛ فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، لا يأمرون بالفواح، ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم. فهُم بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلا بما يُوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول، فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يُناقض بعضهم بعضاً، بل دينهم وملّتهم واحد وإن تنوّعت الشرائع، فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلّة العقلية لا يُناقضونها قطّ، بل الأدلة العقليّة الصحيحة كلّها توافق الأنبياء لا تُخالفهم. وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلّها متوافقة متصادقة متعاضدة، لا يُناقض بعضها بعضاً، كما قد بُسط هذا في غير هذا الموضع.

والذين يُخالفون الأنبياء من أهل الكفر وأهل البدع كالسحرة والكهان وسائر أنواع الكفّار وكالمبتدعين من أهل الملل: أهل العلم، وأهل العبادة، فهؤلاء مخالفون للأدلة السمعية والعقلية، للسماعية والعيانية،

---

(١) المؤمنون: الآية ٥١
(٢) المؤمنون: الآية ٥٣
(٣) الأنبياء: من الآية ٩٢:٩٤
(٤) المائدة: من الآية ٤٨

مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سألهم خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[1] الآية.

فهؤلاء يُخالفون أقوال الأنبياء إما بالتكذيب، وإما بالتحريف من التأويل، وإما بالإعراض عنها وكتمانها، فإما لا يذكروها أو يذكروا ألفاظها، ويقولون: ليس لها معنى يعرفه مخلوق، كما أخبر الله عن أهل الكتاب أنّ منهم من يُكذّبُ في اللفظ، ومنهم من يُحرّف الكلم في المعنى، ومنهم جُهّال لا يفقهون ما يقرؤون. قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾[2] إلى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِم وويلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُون﴾

وكذلك هم مخالفون للأدلة العقلية، فالأنبياء كمّلوا الفطرة وبصّروا الخلق كما تقدّم في صفة محمّد ﷺ: أنّ الله يفتحُ به أعيناً عُمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلفاً، ومخالفوهم يُفسدون الحسّ والعقل، كما أفسدوا الأدلة السمعية. والحسّ والعقل بهما تُعرف الأدلة، والطرق ثلاثة: الحسّ، والعقل، والخبر. فمخالفو الأنبياء أفسدوا هذا، وهذا، وهذا.

أمّا إفسادهم لما جاء عن الأنبياء فظاهرٌ، وأما إفسادهم للحسّ والعقل فإنّهم قسمان: قسمٌ أصحاب خوارق حسيّة كالسحرة والكهّان وضلال العُبّاد، وقسمٌ أصحاب كلام واستدلال بالقياس والمعقول. وكلٌّ منهما يُفسد الحسّ والعقل.

أما أصحاب الحال الشيطانيّ: فقد عُرف أنّ السحر يُغيّر الحسّ والعقل، حتى يُخيَّل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو، وكذلك سائر الخوارق الشيطانيّة، لا تأتي إلا مع نوع فساد في الحسّ والعقل، كالمؤلهين الذين لا تأتيهم إلا مع زوال عقولهم، وآخرين لا تأتيهم إلا في الظلام، وآخرين يتمثّل لهم الجنّ في صورة الإنس، فيظنّون أنّهم إنس، أو يرونهم مثال الشي؛ فيظنّون أنّ الذي رأوه هو الشيء نفسه، أو يُسمعونهم صوتاً يُشبه صوت من يعرفونه، فيظنّون أنه صوت ذلك المعروف عندهم. وهذا كثيرٌ موجودٌ في أهل العبادات البدعية التي فيها نوعٌ من الشرك ومخالفة الشريعة.

وأما أصحاب الكلام والمقال البُهتاني: فإنهم بنوا أصولهم العقلية وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحسّ والعقل. فأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والأعراض مبني على مخالفة الحسّ والعقل؛ فإنّهم يقولون: إنا لا نشهد، بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الأعيان القائمة بنفسها، بل كُلّ ما يُشهَد

---

(١) الملك: الآية ٨

(٢) البقرة: من الآية ٧٥

حدوثه، بل كلّ ما حدث من قبل أن يخلق آدم إنّما يحدث أعراض في الجواهر التي هي باقية، لا تستحيل قطّ، بل تجتمع وتتفرّق.

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أنّ مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبيّ ﷺ لما بلغهم الرسالة ودعاهم إلى الإسلام: والله لا أقول لك كلمة واحدة، إن كنت صادقاً فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أرد عليك. فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم؟ وما أحسن قول حسان:

لو لم تكن فيه آيات مبينة *** كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز. وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أمور. والكذاب في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ويفعله ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة بل كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب، فلا بد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين، عن ابن مسعود –رضي الله عنه– عن النبيّ ﷺ قال: {عليكم بالصدق فإنّ الصدق يهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا} ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ * تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ * وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾[1] بيّن سبحانه أنه ليس بكاهن تنزل عليه الشياطي ولا شاعر، حيث كانوا يقولون ساحر وشاعر، فبين أنّ الشياطين تنزّل على الكاذب الفاجر يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون، فهؤلاء الكهّان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحياناً بشيء من المغيبات ويكون صدقاً، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أنّ الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء.

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٧:٢٢١.

ولهذا لما قال النبيّ ﷺ لابن صياد: {قد خبأت لك خبيئا} قال: هو الدخ، قال له النبيّ ﷺ: {اخسأ فلن تعدو قدرك}(١) يعني إنما أنت كاهن، كما قال للنبيّ ﷺ: يأتيني صادق وكاذب، وقال: أرى عرشاً على الماء، وذلك هو عرش الشيطان كما ثبت مثل ذلك في الصحيح عن النبيّ ﷺ وبيّن الله تعالى أنّ الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرّا له في العاقبة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ فهذه صفة الشعراء كما أنّ تلك صفة من تنزل عليه الشياطين، فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علما يقينيا أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب. والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك، فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، وكذلك من أظهر قصدا وعملا كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لا بد أن يتبين صدقه وكذبه من وجوه متعددة.

والمقصود هنا أنّ طرق العلم بالرسالة كثيرة جدّا متنوعة، ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر بأحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا علماً يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة. منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم أخباراً كثيرة في أمور كثيرة، هي كلها صادقة لم يقع في شيء منها تخلف ولا غلط، بخلاف من يخبر به من ليس متبعاً لهم ممن تنزل عليه الشياطين، أو يستدل على ذلك بالأحوال الفلكية وغيره. وهؤلاء لا بد أن يكونوا كثيراً بل الغالب من أخبارهم الكذب وإن صدقوا أحيانا. ومن ذلك أنّ ما أحدثه الله تعالى من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه كحصول الغرق لفرعون وقومه بعد أنّ دخل البحر خلف موسى وقومه، كان هذا ممّا يورث علماً ضروريّاً أنّ الله تعالى أحدث هذا نصراً لموسى –عليه السلام– وقومه ونجاة لهم، وعقوبة لفرعون وقومه ونكالاً لهم، وكذلك أمر نوح والخليل عليهما السلام، وكذلك قصة الفيل وغير ذلك.

ومن الطرق أيضاً أنّ من تأمل ما جاء به الرسل –عليهم السلام– فيما أخبرت به وما أمرت به علم بالضرورة أنّ مثل هذا لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم، وأنّ مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفترٍ على الله يخبر عنه بالكذب الصريح، أو مخطئ جاهل ضال يظن أنّ الله

---

(١) رواه البخاري حديث ١٢٦٧، ومسلم حديث ٥٢٠٧.

تعالى أرسله ولم يرسله، وذلك لأنّ فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان، وكشف الحقائق وهدى الخلائق، وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلاً، ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم، فيمتنع أن يصدر مثل ذلك عن جاهل ضال، وفيها من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أنّ ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق، وإذا كان ذلك يدل على كمال علمهم وكمال حسن قصدهم، فمن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذباً على الله، يدعي عليه هذه الدعوى العظيمة التي لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذباً متعمداً، ولا أجهل منه إن كان مخطئاً. وهذه الطريق تسلك جملة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتفصيلاً في حق واحد واحد بعينه، فيستدل المستدل بما يعلمه من الحق والخير جملة على علم صاحبه وصدقه، ثم يستدل بعلمه وصدقه على ما لم يعلمه تفصيلا، والعلم بجنس الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب معلوم بالفطرة والعقل الصريح، بل جملة ذلك ممّا اتفق عليه بنو آدم، ولذلك يسمى ذلك معروفاً ومنكراً، فإذا علم أنه فيما علم الناس أنه الحق وأنه خير هو أحق منهم به، وأنصح الخلق فيه وأصدقهم فيما يقول علم بذلك أنه صادق عالم ناصح لا كاذب ولا جاهل ولا غاش. وهذه الطريق يسلكها كل أحد بحسبه، ولا يحتاج في هذه الطريق إلى أن يعلم أولاً خواص النبوة وحقيقتها وكيفيتها، بل أن يعلم أنه صادق بار فيما يخبر به ويأمر به، ثم من خبره يعلم حقيقة النبوة والرسالة.

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوه كثيرة، لا سيما والعالم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم إلى زماننا، وقد علم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل، ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل.

المبحث الثالث

خوارق السحرة والكهان مناقضة للنبوة، ولا تخرج عن مقدور الجن والإنس

ذكر شيخ الإسلام فيما مضى اختصاص الأنبياء بالآيات الإلهية، وذكر أنّ أحداً من الخلق لا يقدر عليها؛ وبذلك لا تشتبه على المؤمن أفعال الكهّان وغيرهم مع آيات الأنبياء، وذكر من الكلام ما يستدل به المؤمن على النبي: من حاله وأوصافه ومما يأمر به. أراد هنا أن ينبّه على أمرين مهمين في شأن الكهّان والسحرة، الأول: أنّ خوارق السحرة والكهان مناقضة للنبوة، وأنّ حصولها يكون بضد ما جاء به الأنبياء. الثاني: أنها مقدورة لغير الأنبياء من الإنس والجن، يستطيع البعض تعلمها وفعلها، وإن رآها الناس أمرًا عجيباً لا طاقة لهم به.

قال شيخ الإسلام: فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة، فوجود ذلك يدلّ على أنّ صاحبه ليس بنبيّ. ويمتنع أن يكون شيءٌ من ذلك دليلاً على النبوة؛ فإنّ ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده.

ونقول: رحمة الله على شيخ الإسلام، ما أعظم يقينه، وما أقوى إيمانه، وما أعظم تعلقه بربه وكتابه وهدي نبيه، ذلك أنّ الأمر الذي يضلّ به الكهانُ وإخوانهم من السحرة والمنجمين العبادَ، يجعله شيخ الإسلام أظهر آيات ضلالهم، والدليل الكاشف على كفرهم، فيرى أنّ هذه العجائب والخوارق التي يأتي بها غير النبي، وغير الولي السائر على هدي النبي ﷺ إذا تأملها المتأمِّل رآها تحمل دليل نقض دعاوى هؤلاء من أنهم أهل الله، وأنّ ما عندهم منحة منه تعالى.

إنّ كثيراً من الناس يهتز إيمانه حين يرى صدق بعض الأمور التي ينبئ الكاهن بها، فيقول: لقد صدق أو صدقت، قد يكون على الحق؛ فتكون العجيبة الكهانية سبب الشبهة بأنّ هؤلاء يطّلعون الغيب. لكن شيخ الإسلام يراها دليل كذبهم، وآية كهانتهم، ودليل تعاملهم مع الشياطين وكفرهم بالله رب العالمين، وهذه قضية عظيمة ومسألة من أهم المسائل.

وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها، كلّ ذلك مناقضٌ للنبوة؛ فإنّ النبي لا يكون إلا مؤمناً، وهؤلاء كفار؛ فوجود ما يناقض الإيمان هو مناقض للنبوة بطريق الأولى، وهو آيةٌ ودليلٌ وبرهان على عدم النبوة، فيمتنع أن يكون دليلاً على وجودها. هذا هو الأمر الأول، وهو كلام جليل عظيم، في غاية الأهمية.

ولا بد لهذا الكلام أن يستقر في قلب المحتسب، بل وأن ينشر بين العامة، فيدمدم على الكهّان من الجهة التي ظنّوا أن يضلّوا منها الناس، لاسيّما من يظهر بظاهر الصلاح والولاية والكرامة، إذا فتش في حاله، ولا نقصد بحاله حاله الباطن بل حاله الظاهر، ليخبرك بأن هذا كذاب ودجال، وتصف لك أخلاقه ومعاملاته وكلامه ومراده من قاصديه، كيف جاء بهذه العجائب؟

إذن دراسة عجائب الكهان هؤلاء مربوط بدراسة أحوالهم وأخلاقهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأذكارهم وأورادهم وغير ذلك، وبتأمل يسير تدرك أنّ خوارقهم آيات كذبهم. والحمد لله رب العالمين. ولذا لما قالوا للنبي ﷺ: إنهم يخبرون بالشيء فيكون حقاً، بيّن النبي ﷺ من هذه الكلمة ضلالهم وكذبهم، وعلاقاتهم بالشياطين، وأخبر أنّ هذه الكلمة حتى وإن كانت صدقاً وهي أمثل وأحق ما عند الكاهن، فهذا الكلام من الحق حمله إليه شيطان رجيم مطرود من رحمة الله تعالى، فإذا كان هذا طريق كلمة الحق عند الكاهن فكيف بغيرها؟ وهذا يدعو المحتسب إلى التضلّع من علوم القرآن والسنّة وكلام السلف، ثم تأمّل كلام شيخ الإسلام الذي يغوص على الهنّات والدقائق، وكذا في الأمة كثير من علمائها مثل شيخ الإسلام.

أما الأمر الثاني، فقد بينه بقوله: وجميع ما يختص بالسحرة والكهّان وغيرهم ممّن ليس بنبيّ، لا يخرج عن مقدور الإنس والجن. وأعني بالمقدور: ما يمكنهم التوصل إليه بطريق من الطرق... والمقصود هنا: أنّ ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم، هو ممّا يصنعه الإنس والجنّ، لا يخرج ذلك عنهم.

والإنس والجنّ قد أُرسلت إليهم الرسل، فآيات الأنبياء خارجة عن قدرة الإنس والجن؛ لا يقدر عليها لا الإنس ولا الجن، ولله الحمد والمنة. ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الإنس، لكن يختلف في المواضع؛ فإنّ الإنسي يقدر على أن يضرب غيره حتّى يمرض أو يموت، بل يقدر أن يكلمه بكلام يمرض به أو يموت، فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت، هو من مقدور الجن، وهو من جنس مقدور الإنس.

ومنعه من الجماع هو من جنس المرض المانع له من ذلك، والحب والبغض لبعض الناس، كما يفعله الساحر، هو من استعانته بالشياطين، وهو من جنس مقدور الإنس، بل شياطين الإنس قد يؤثرون من البغض والحب أعظم مما تؤثره شياطين الجن. والجنّ تقدر على الطيران في الهواء والطيور تطير، فهو من جنس مقدور الإنس، لكن يختلف المحل بأنّ هؤلاء سيرهم في الهواء، والإنس سيرهم على الأرض.

وكذلك المشي على الماء، وطيّ الأرض: وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب، هو من هذا الجنس، هو مما تفعله الجن، وهو مما تفعله الجن ببعض الناس.

وقد أخبر الله عن العفريت أنه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن وسليمان بالشام: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾[1] ولهذا يوجد كثيرٌ من الكفار والفسّاق والجهال تطير بهم الجن في الهواء، وتمشي بهم على الماء، وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة.

وليس شيءٌ من ذلك من آيات الأنبياء، ولله الحمد والمنة؛ إذ كان مقدور الإنس والجنّ، والإخبار ببعض الأمور الغائبة التي يأتي بها الكهّان، هو أيضاً من مقدور الجنّ؛ فإنهم تارة يرون الغائب فيخبرون به، وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به، وتارة يسترقون وهم يكذبون في ذلك؛ كما أخبر النبيّ ﷺ عنهم، وما تخبر به الأنبياء من الغيب، لا يقدر عليه إنس، ولا جنّ، ولا كذب فيه.

تكلّم شيخ الاسلام هنا عما يقدر عليه الجن، وما يخبر به ثم قال: ليس ذلك من آيات الأنبياء... ولله الحمد والمنة. وبيّن أن ما يأتي به الأنبياء ما يقدر عليه إنس ولا جن، فرحم الله شيخ الإسلام الذى كان فقيهاً عميق الفهم لدين الله تعالى، فهو قبل الطائرات العابرات والهواتف الذكية يبيّن أنّ هذا الطيران من مقدورات بعض المخلوقات كالطيور، فإذا طار الجن بأحد فإن لهذا نظائره وأمثاله، فالرجل في هذا الزمان وكان عالماً فاهماً أما الآن فمع معرفة الناس بهذه الأمور ووجودها تجدهم يعتقدون في أخبار الكهّان وقد يكون المصدق حاصلاً على شهادة عالية أو دكتوراه، أو يكون من أهل التوجيه والفكر كالإعلاميين، وعلى مواقع التواصل أصحاب درجات علمية يروجون للكاهنة: ليلى عبد اللطيف، وميشيل وغيرهما.

أخبار الكهّان كاذبة لكذب الجن المخبرين لهم:

قال شيخ الإسلام: وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها، وكذلك كل من تعوّد الإخبار عن الغائب؛ فأخبار الجن لا بد أن تكذب، فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيّب كان من جنس الكهان، وكذبوه في بعض ما يخبرون به، وإن كانوا صادقين في البعض، وقد ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ سُئل عن الكهّان، فقيل له: إنّ منا قوماً يأتون الكهان. قال: {فلا يأتوهم} وثبت عنه في الصحيح أنه قال: {من أتى عرافاً، فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً} وفي السنن عنه أنه قال: {من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد} والنبي ﷺ لما أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لم يكن المقصود مجرّد وصوله إلى الأقصى، بل المقصود ما ذكره الله بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[2] كما قال في سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى * عِنْدَها جَنَّة المأوَى *

(١) النمل: من الآية ٣٩
(٢) الإسراء: من الآية ١

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾[1] وما رآه مختص بالأنبياء، لا يكون ذلك لمن خالفهم، ولا يريه الله تعالى ما أراه محمّداً حين أسرى به، وكذلك صلاته بالأنبياء في المسجد الأقصى، وركوبه على البراق، هذا كله من خصائص الأنبياء.

بعض خوارق الشياطين لأوليائهم:

ذكر شيخ الإسلام بعض خوارق الجن لأوليائها فقال: والذين تحملهم الجن، وتطير بهم من مكان إلى مكان، أكثرهم لا يدري كيف حُمِل، بل يُحمَل الرجل إلى عرفات ويرجع، وما يدري كيف حملته الشياطين، ولا يدعونه يفعل ما أمر الله به كما أمر الله به، بل قد يقف بعرفات من غير إحرام ولا إتمام مناسك الحج، وقد يذهبون به إلى مكة، ويطوف بالبيت من غير إحرام إذا حاذى الميقات. وذلك واجب في أحد قولي العلماء، ومستحب في الآخر، فيفوته المشروع، أو يوقعونه في الذنب، ويُغرونه بأنّ هذا من كرامات الصالحين، وليس هو مما يكرم الله به وليّه، بل هو ممّا أضلته به الشياطين، وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة، أو يكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة، وليس هو قربةٌ وطاعةٌ، وصاحبه لا يزداد بذلك منزلة عند الله؛ فإنّ التقرّب إلى الله إنّما يكون بواجبٍ أو مستحب، وهذا ليس بواجب ولا مستحب، بل يُضلّون صاحبه، ويصدّونه عن تكميل ما يحبه الله منه: من عبادته وطاعته وطاعة رسوله، ويوهمونه أنّ هذا من أفضل الكرامات، حتى يبقى طالباً له، عاملاً عليه.

وهم بسبب إعانتهم له على ذلك، قد استعملوه في بعض ما يريدون، ممّا ينقص قدره عند الله، أو وقوعه في ذنوب، وإن لم يعرف أنها ذنوب؛ فيكون ضالاً ناقصاً، وإن غُفِر له ذلك لعدم علمه؛ فإنّه نقصُ درجته، وخفض منزلته بذلك الذي أوهموه أنه رَفَعَ درجته، وأعلى منزلته.

وهذا من جنس ما يفعله السحرة؛ فإنّ الساحر قد يصعد في الهواء والناس ينظرونه، وقد يركب شيئاً من الجمادات: إما قصبة، وإما خابية، وإما مكنسة، وإما غير ذلك، فيصعد به في الهواء، وذلك أنّ الشياطين تحمله.

وتفعل الشياطين هذا ونحوه بكثيرٍ من العبّاد والضلال، من عبّاد المشركين وأهل الكتاب والضُلاّل من المسلمين؛ فتحملهم من مكان إلى مكان.

---

(١) النجم: من الآية ١٣:١٨

وقد يرى أحدهم بما يركبه إما فرس، وإما غيره، وقد ذكرنا صوراً لهذه المكانس في احتسابه على السحر، وإركاب الجن لأوليائها الفرس وغيره، (نقول وأوردنا في (فصل الكهانة في الجاهلية) خبر الشاعر تأبط شرا، الذي أركبته الجن ناقة، وفيه شعر ذكرناه هناك) وهو شيطانٌ تصوّر له في صورة مركوب، وقد يرى أنه يمشي في الهواء من غير مركوب، والشيطان قد حمله.

والحكايات في هذا كثيرة معروفة عند من يعرف هذا الباب، ونحن نعرف من هذا أموراً يطول وصفها.

وكذلك المشي على الماء، قد تجعل له الجن ما يمشي عليه، وهو يظن أنّه يمشي على الماء. وقد يُخيّلون إليه أنه التقى طرفا النهر ليعبر، والنهر لم يتغيّر في نفسه، ولكن خيّلوا إليه ذلك. وليس في هذا ولله الحمد شيءٌ من جنس معجزات الأنبياء.

المبحث الرابع

ضرورة فقه أحوال الجن والشياطين

نبينا مُحَمَّد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين، وقد آمن به مَنْ آمن مِنْ جنّ نصيبين، فسمعوا القرآن، وولّوا إلى قومهم منذرين، ثم أتوا فبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة بين الأبطح وبين جبل حراء، وسألوه الطعام لهم ولدوابهم، فقال: {لكم كلّ عظم ذُكِر اسم الله عليه أوفر ما يكون لحماً، وكلّ بعرة علف لدوابكم} قال النبي ﷺ: {فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن}[1] والأحاديث بذلك كثيرة مشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه، وغيرها. وقد روى الترمذي وغيره أنّه قرأ عليهم سورة الرحمن[2] وهي خطاب للثقلين... فنبيّنا أنه ﷺ هو مع الجن كما هو مع الإنس.

والإنس معه إمّا مؤمنٌ به، وإما مسلمٌ له، وإما مسالمٌ له، وإما خائفٌ منه. كذلك الجن منهم المؤمن به، ومنهم المسلم له مع نفاق، ومنهم المعاهد المسالم لمؤمني الجن، ومنهم الحربي الخائف من المؤمنين.

وكان هذا أفضل مما أوتيه سليمان؛ فإن الله سخّر الجن لسليمان تطيعه طاعة الملوك؛ فإن سليمان كان نبياً ملكاً، مثل داود ويوسف.

وأما محمّد فهو عبدٌ رسولٌ، مثل إبراهيم وموسى وعيسى -عليهم السلام- وهؤلاء أفضل من أولئك.

القسم الأول: المحمود: فأولياء الله المتبعون لمحمد إنّما يستخدمون الجن كما يستخدمون الإنس في عبادة الله وطاعته، كما كان مُحَمَّد ﷺ يستعمل الإنس والجن، لا في غرض له غير ذلك.

القسم الثاني: المباح: ومن الناس من يستخدم من يستخدمه من الإنس في أمور مباحة، لكن هؤلاء لا يخدمهم الإنس والجنّ إلا بعوض؛ مثل أن يخدموهم كما يخدمونهم، أو يعينونهم على بعض مقاصدهم، وإلا فليس أحدٌ من الإنس والجن يفعل شيئاً إلا لغرض.

تعليق: والمشاهد والواقع من تعاملنا واحتسابنا مع الذين يتعاملون مع الجن أو يستعينون بهم، سواء من القراء الرقاة الذين يعالجون الناس بالرقية الشرعية، أو السحرة والكهّان، لا تجد تعاوناً مع الجن إلا في مسالة واحدة هي المرض والعلاج، أو الدلالة على مفقود أو ضائع.

نقول: وطيلة فترة الاحتساب ومخالطة هؤلاء لم أر رجلاً زعم أنّ معه جناً صالحين، ولم نر هؤلاء يستخدمون هؤلاء الجن الصالحين في مساعدة الناس في النكبات، أو الانتصار لهم في حروب المسلمين مع الكفار، إنما المشهور هذا الذي ذكرناه علاج أو إخبار عن مفقود أو مسروق مع غلبة الكذب والإبهام في ذلك.

---

(١) رواه مسلم حديث ٣٦.

(٢) رواه الترمذي ٣٢١٣، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٢١٥٠.

وهذا أمر دقيق جداً لأنّ الغالب على من يأتي طالباً العلاج، يأتي وقلبه متعلق بالراقي، فمهما يأمره بأمر يأتمر ويشعر بالراحة والعافية.

وهؤلاء الجن الذين يخدمون بعوض لهم مطالب وأوامر، ومتى أراد وليهم من الإنس الخروج عن طاعتهم غدروا به، ولقد منّ الله علي بالاحتساب على ساحر ضليع متمكن في أعمال السحر، وبعد القبض عليه سألته عن طريقته في السحر والأعمال، فوجدته عالماً بالطلاسم والرموز والأرقام، متمكناً في تلك الأمور، فقلت له: لماذا لم تخبرك الجن بأننا قابضون عليك؟ لماذا لم تحذرك؟ قال قد تكون الجن قد خذلتني لقلة تقربي وانصرافي عنها للبحث عن الكنوز والآثار. وهذه ليست مصلحتها إنما مصلحتها إضلال الناس، وتقربي لها بالقرابين، فقلت: اشرح لي أكثر وبيّن لي الحال قال: في بعض الأحيان تقول اخرج للناس على إنك راقٍ معك جن تستعين به، وهذا ليتعلق الناس بالجن الذين معك لا بالقرآن، فإنّ أهل هذه البلاد لا يحبون الحجب أو التمائم ويرون أنها حرام، وكذلك أرادوا ألا أنشغل عن إضلال الناس بالبحث عن الكنوز، فلما لم أستمع لكلامهم غدروا بي، وتركوني أحوج ما أكون إليهم.

هذا والمتتبع لكلام شيخ الإسلام في موضوع التعامل وإجازة التعامل، فإنه يجيز تعامل الإنسي مع الجني فيما قدر عليه، كتعامل الإنسي مع الإنسي، وأنّ الجن لا تعمل ذلك إلا بعوض، وذكر شيخ الإسلام أنّ الجن يغلب عليها الكذب والخديعة، فقد يقول أحدهم أنه مؤمن وهو في ذلك كاذب.

قال شيخ الإسلام: والإنس والجن إذا خدموا الرجل الصالح في بعض أغراضه المباحة؛ فإما أن يكونوا مخلصين يطلبون الأجر من الله، وإلا طلبوه منه؛ إما دعاؤه لهم، وإما نفعه لهم بجاهه، أو غير ذلك.

القسم الثالث: المذموم: أن يستخدم الجن في أمور محظورة، أو بأسباب محظورة؛ مثل قتل نفس، وإمراضها بغير حق، ومثل منع شخص من الوطء، ومثل تبغيض شخص إلى شخص، ومثل جلب من يهواه الشخص إليه. فهذا من السحر.

الشياطين تخدم من ينفذ أغراضها وإن لم يعرف ذلك:

ذكر شيخ الإسلام أمراً مهماً في خدمة الجن للإنس قلّ أن يتفطن له الناس، وهو شبكة شيطانية يقع فيها كثيراً من الناس، هذا الأمر هو أنّ الجن إذا رأت أحداً يسعى في تنفيذ أغراضها، وجرّ الناس إلى الشرك تعاونه، وإن لم يعرف هو أنّ الجن هي التي تعينه، فقد لا يكون هو ممن تفنن في علوم السحر، لكنه يعمل أعمال السحر الكفرية من التعبّد بعبادات شيطانية وشركية، فيذبح لغير الله، ويتعبد الله بالأذكار والأوراد المشتملة على الشرك والطلاسم، وكذا قد لا يكون كاهناً درس علوم الكهانة، وعرف أصول الخط على الرمل، أو الضرب بالحصى، لكنه يفعل ما يفعله الكاهن، للوصول إلى هذا من تقديم قربات للشياطين والتعبّد لغير الله، فتعاونه الشياطين، وتلقي على لسانه من الأخبار ما تخدعه بها، وتخدع قاصديه.

وذلك أمر لابد أن يُعرف، أن يعرف المحتسب ذلك، وأن يبين ذلك للأمة، أنّ من يسعى في تنفيذ مراد الشيطان من الشرك فما دونه، فما جاء به من الخوارق هو من الشيطان لا غير، إذ كيف يؤيد ربنا الكريم من يأمر بالشرك ويأتيه، ومن يدعو إلى مخالفة النبي ﷺ ومن يأمر بالفواحش، ويزعم أنّ الكرامات والغيوب تُكشف بما حرّم الله تعالى، لكن شرط الخدمة ما ذكره شيخ الإسلام: "بل يكون موافقاً للشياطين على بعض أغراضهم..."

قال شيخ الإسلام: وقد يقع مثله لكثير من الناس ولا يعرف السحر، بل يكون موافقاً للشياطين على بعض أغراضهم، مثل شرك أو بدعة وضلالة أو ظلم أو فاحشة، فيخدمونه ليفعل ما يهوونه. وهذا كثيرٌ في عبّاد المشركين وأهل الكتاب وأهل الضلال من المسلمين. وكثيرٌ من هؤلاء لا يعرف أنّ ذلك من الشياطين، بل يظنه من كرامات الصالحين.

تعليق:

ولقد رأيت كثيراً من عوام الناس انخدع في هؤلاء الذين يتعاملون مع الشياطين، واعتقدوا أنّ ما يأتون به كرامات من الإخبار بالغيب، وأنّ هذا من باب قضاء حوائج الناس؛ إذ يخبرون بالسارق ويدلّون على المفقود والضائع.

ولقد قابلت كثيراً ممن دخل الكهانة من مدخل الكرامة، فبينت له ونصحته وأخبرته أنّ هذا ليس من الكرامة في شيء، وأنّ هذا من إضلال الشياطين، فمنهم من اهتدى ومنهم من قبض عليه، فعرف حينئذ أنّ الشياطين قد أضلته، وأوردته المهالك.

أكمل شيخ الإسلام فقال: ومنهم من يعرف أنه من الشياطين، ويرى أنه بذلك حصل له ملك وطاعة ونيل ما يشتهيه من الرياسة والشهوات وقتل عدوه؛ فيدخل في ذلك كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم. نقول: وهذا حال أكثر الكهّان والسحرة.

قال شيخ الإسلام: وليس أحدٌ من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه من غير معاوضة، كما أنّ الطير كانت تطيعه والريح؛ قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهرٌ وَرَوَاحُهَا شَهرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزُغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيات اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾[(١)] والجن كالإنس فيهم المؤمن المطيع، والمسلم الجاهل أو المنافق أو العاصي، وفيهم الكافر. وكلّ ضرب يميل إلى بني جنسه، والذي أعطاه الله تعالى لسليمان خارج عن قدرة الجن والإنس؛ فإنه لا يستطيع أحدٌ أن يُسخّر الجنّ مطلقاً لطاعته، ولا يستخدم أحداً منهم إلا بمعاوضة؛ إما عمل مذموم تحبه الجن، وإما قول تخضع له الشياطين: كالأقسام،

(١) سبأ: الآية ١٢.

والعزائم، فإنّ كلَّ جني فوقه من هو أعلى منه، فقد يخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم، كما يخدم بعض الإنس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته لكتاب معه منه، وهم كارهون طاعته. وقد يأخذون منه ذلك الكتاب ولا يطيعونه، وقد يقتلونه، أو يُمرضونه؛ فكثيرٌ من الناس قتلته الجنّ.

تعليق:

رحمك الله يا شيخ الإسلام، فوالله لا أقدر أن أحصى عدد من قبضت عليهم من السحرة والكهّان وشهدت عليهم في المحاكم الشرعية لتقام عليهم الحدود، رأيتهم جميعاً يتعاملون مع الشياطين وهم يعلمون، ويعملون جاهدين لأكل أموال الناس، وفرض سيطرتهم وسطوتهم على العباد، لابسين ثياب الكرامة، ولم أجد فيمن قبضت عليهم من تخدمه الجن بغير عوض ولا غرض، وأكبر هذه الأغراض الشرك بالله، والسعي الحثيث لإدخال الناس في الشرك. أقول: لم أجد في هؤلاء رجلاً صالحاً حقاً، بل كلهم يسعى مع هذا الشرك للحصول على لعاعة من الدنيا، وهذا الذي يبدو منهم ظاهر الصلاح تراه من أخبث عباد الله.

وقد ذكرنا في كتاب (احتساب شيخ الإسلام على السحر) قصة ذلك الرجل الذي يداوم على الصلوات الخمس في المسجد ويبقى بعد العشاء يتعبد ساعة أو ساعتين، لما قبضنا عليه قلنا له صف لنا طريقتك في التعامل مع الجن، فإذا هو يلبس ثياباً للجن بألوان وصفة معينة، ويضع ستوراً خاصة، ويجلد نفسه، ويذبح للجن، ولقد نشر جزء من ذلك بالفيديو تجده عبر الشبكة العنكبوتية.

سبب صرع الجن للإنس:

قال شيخ الإسلام: كما يصرعونهم، والصرع لأجل الزنا، وتارة يقولون إنه آذاهم؛ إما بصبّ نجاسة عليهم، وإما بغير ذلك، فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام، وتارة يفعلون ذلك عبثاً، كما يعبث شياطين الإنس بالناس، والجنُّ أعظم شيطنة وأقلّ عقلاً وأكثر جهلاً.

والجني قد يحب الإنسي، كما يحب الإنسي الإنسي، وكما يحب الرجل المرأة، والمرأة الرجل، ويغار عليه، ويخدمه بأشياء، وإذا صار مع غيره، فقد يعاقبه بالقتل وغيره.

كلُّ هذا واقعٌ، ثُمَّ الَّذي يخدمونه تارة يسرقون له شيئاً من أموال الناس، ممّا لم يُذكر اسم الله عليه، ويأتونه إما بطعام وإما شراب وإما لباس وإما نقود وإما غير ذلك، وتارة يأتونه في المفاوز بماء عذب وطعام وغير ذلك.

خوارق الشياطين سببها الشرك والظلم:

قال شيخ الإسلام: وليس شيءٌ من ذلك من معجزات الأنبياء ولا كرامات الصالحين، فإنّ ذلك إنما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة، وهو لو كان مباحاً لم يجز أن يفعل بهذا السبب، فكيف إذا كان في نفسه ظلماً محرماً، لكونه من الظلم والفواحش ونحو ذلك، وقد يُخبرون بأمور غائبة ممّا رأوه وسمعوه،

ويدخلون في جوف الإنسان؛ قال النبي ﷺ: {إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم}[1] لكن إنّما سلطانهم كما قال الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكونَ﴾[2] ولما قال الشيطان: ﴿قال رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُم فِي الأرضِ وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنهُم المخْلصِين﴾[3] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَان﴾ ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبوَاب لِكُلِّ بَابٍ منهم جُزءٌ مَقْسُوم﴾[4] ولهذا يهربون من البيت الذي تُقْرأ فيه سورة البقرة، ويهربون من قراءة آية الكرسي، وآخر سورة البقرة، وغير ذلك من قوارع القرآن.

ومن الجنّ من يُخبر بأمور مستقبلة للكهّان، وغير الكهان، ممّا يسترقونه من السمع. والكهانة كانت ظاهرة كثيرة بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين، وبطلت أو قلّت. ثمّ إنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد.

ونقول: الشيطان ضعيف، والمؤمن إذا حقّق التوحيد وتعدي الشياطين عليه.

قال شيخ الإسلام: وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ كُهّان يتحاكمون إليهم، وكان أبو بردة بن نيار كاهناً، ثمّ أسلم بعد ذلك، وهو من أسلم. والأصنام لها شياطين كانت تتراءى للسدنة أحياناً، وتكلمهم أحياناً.

قال أبي بن كعب: "مع كلّ صنم جنية" وقال ابن عباس: "في كل صنم شيطان، تتراءى للسدنة فتكلمهم" والشياطين كما قال الله تقترن بما يجانسها بأهل الكذب والفجور، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّل الشَّيَاطِين * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[5] فكيف يجوز أن يقال: إن مثل هذا يكون معجزة لنبيّ، أو كرامة لوليّ؟! وهذا يناقض الإيمان ويُضادّه، والأنبياء والأولياء أعداء هؤلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِير﴾[6] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين * وَأَن اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[7]

وهذا يُظهر الفرق بين أخبار الأنبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلا منه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً * إِلاَّ مَن ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

(١) رواه البخاري حديث ١٨٩٧، ومسلم حديث ٤٠٤٠.
(٢) النحل: الآية ٩٩,١٠٠.
(٣) الحجر: الآية ٣٩.
(٤) الحجر: من الآية ٤٢:٤٤.
(٥) الشعراء: الآية ٢٢١:٢٢٣.
(٦) فاطر: الآية ٦.
(٧) يس: الآية ٦٠:٦١.

رَصَدَاً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِم وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدَاً﴾[1] فقوله: ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ هو غيبه الذي اختص به. وأما ما يعلمه بعض المخلوقين: فهو غيب عمن لم يعلمه، وهو شهادة لمن علمه. فهذا أيضاً تُخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تُخبر به، كما في إخبار المسيح بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[2] فإنّ الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس، وبما يدّخرونه، لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله عَلَى غَيْبِهِ كالذي لا يذكر اسم الله إذا دخل فيدخلون معه، وإن لم يذكر اسم الله إذا أكل، فإنهم يأكلون معه.

وكذلك إذا ادّخر شيئاً، ولم يذكر اسم الله عليه عرفوا به، وقد يسرقون بعضه، كما جرى هذا لكثيرٍ من الناس. وأما من يذكر اسم الله على طعامه وعلى ما يختاره، فلا سلطان لهم عليه، لا يعرفون ذلك، ولا يستطيعون أخذه. والمسيح -عليه السلام- كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يّدخرون ممّا ذُكر اسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به، ولهذا من تكون أخباره عن شياطين تُخبره، لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد، وأهل القلوب المنورة بنور الله، بل يهرب منهم ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم. وتعترف الجن والإنس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن، ويقولون: أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسُنّة، وإنما تظهر عند الكفار والفجار؛ وهذا لأنّ أولئك أولياء الشياطين، ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين، ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانيّة، كدخول النّار مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاماً؛ فإنّ الخليل لما أُلقي في النّار صارت عليه برداً وسلاماً، وكذلك أبو مسلم الخولاني، لما قال له الأسود العنسي المتنبي: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أنّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم. فأمر بنار، فأُوقدت له، وألقي فيها، فجاءوا إليه، فوجدوه يصلي فيها، وقد صارت عليه برداً وسلاماً. فقدم المدينة بعد موت النبيّ ﷺ وأخذه عمر، فأجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة مُحَّد من فُعل به كما فُعل بإبراهيم.

وأما إخوان الشياطين: فإذا دخلت فيهم الشياطين، فقد يدخلون النار، ولا تحرقهم، كما يُضرب أحدهم ألف سوط ولا يحسّ بذلك؛ فإن الشياطين تلتقي ذلك.

وخوارق الجن كالإخبار ببعض الأمور الغائبة، وكالتصرّفات الموافقة لأغراض بعض الإنس كثيرةٌ معروفةٌ في جميع الأمم، فقد كانت في العرب كثيرة، وكذلك في الهند وفي الترك والفرس والبربر وسائر الأمم، فهي أمورٌ معتادة للجنّ والإنس.

---

(١) الجن: الآية ٢٨:٣٠.
(٢) آل عمران: من الآية ٤٩.

وآيات الأنبياء -كما تقدم- خارجةٌ عن مقدور الإنس والجن؛ فإنهم مبعوثون إلى الإنس والجن، فيمتنع أن تكون آياتهم أموراً معروفةً فيمن بُعثوا إليه؛ إذ يقال: هذه موجودة كثيراً للإنس، فلا يختصّ بها الأنبياء. بل هذه الخوارق هي آيةٌ وعلامةٌ على فجور صاحبها وكذبه، فهي ضدّ آيات الأنبياء التي تستلزم صدق صاحبها وعدله؛ ولهذا يكون كثيرٌ من الذين تخدمهم الشياطين من أهل الشياطين، وهذا معروفٌ لكثيرٍ ممَّن تخدمه الشياطين، بل من طوائف المخدومين من يكونون كلّهم من هذا الباب، كالبوي الذي للترك. وأكثر المؤلّهين من هذا الباب، وهم يصعدون بهم في الهواء، ويدخلون المدن والحصون بالليل والأبواب مغلقة، ويدخلون على كثيرٍ من رؤساء النَّاس، ويظنّون أنَّ هؤلاء صالحون قد طاروا في الهواء، ولا يعرف أنّ الجنّ طارت بهم. وهذه الأحوال الشيطانية تبطل أو تضعف، إذا ذُكر الله وتوحيده، وقرئت قوارع القرآن، لا سيما آية الكرسي؛ فإنها تُبطل عامّة هذه الخوارق الشيطانية. وأمّا آيات الأنبياء والأولياء فتقوى بذكر الله وتوحيده.

والجنّ المؤمنون قد يعينون المؤمنين بشيءٍ من الخوارق، كما يعين الإنس المؤمنون للمؤمنين بما يمكنهم من الإعانة.

وما لا يكون إلا مع الإقرار بنبوّة الأنبياء، فهو من آياتهم. فوجوده يؤيد آياتهم، لا يُناقضها، مع أنّ آيات الأنبياء التي يدّعون أعلى من هذا، وأعلى من كرامات الأولياء، فإن تلك هي الآيات الكبرى.

قال شيخ الإسلام: وقد قلنا: إنّ آيات الأنبياء التي اختصّوا بها خارجة عن قدرة الجن والإنس، قال تعالى: ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَت الإنسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١) وأما إذا كانت مما تقدر عليه الملائكة فهذا مما يؤيدها؛ فإن الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله، ولا يؤيّدونه بالخوارق.

فإذا أُيّد به؛ كما أيَّد الله به نبيه والمؤمنين يوم بدر ويوم حنين، كان هذا من أعلام صدقه، وأنّه صادق على الله في دعوى النبوة؛ فإنّها لا تؤيد الكذب، لكن الشياطين تؤيد الكذّاب، والملائكة تؤيّد الصدق. فمن كان أقوى من غيره، كان جنده من الملائكة أقوى، وإن كان إيمانه ضعيفاً كانت ملائكته بحسب ذلك؛ كمَلَك الإنسان وشيطانه؛ فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: {ما منكم من أحدٍ إلا وُكِّلَ به قرينه من الملائكة، وقرينه من الجن. قالوا: وبك يا رسول الله. قال: وبي، لكن الله أعانني عليه فأسلم} وفي حديث آخر: {فلا يأمرني إلا بخير}(٢)

...وهم -أعني الأشاعرة- لم يُميّزوا بين معجزات الأنبياء وكرامات أتباعهم، وبين خوارق السحرة والكهان.

---

(١) الإسراء: الآية ٨٨.
(٢) رواه مسلم حديث ٥٠٣٤.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله- عنهم: "وقالوا: وخوارق الأنبياء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح، ولا يدلّ على النبوة، لأنه لم يدّعيها. قالوا: ولو ادّعى النبوة أحدٌ من أهل الخوارق مع كذبه، لم يكن بُدّ من أنّ الله يعجزه عنها، فلا يخلقها على يده، أو يقيّض له من يُعارضه فتبطل حجّته"

وقال رحمه الله: "ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر، فلا يجدون فرقاً؛ إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر.

والتحقيق: أنّ آيات الأنبياء مستلزمة للنبوة، ولصدق الخبر بالنبوة، فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول بأنه رسول، لا يوجد مع التكذيب بذلك" مع أنّ التمييز بين ما للأنبياء وأتباعهم، وبين ما للسحرة والكهّان ومن على شاكلتهم، من أشرف العلوم.

الاحتساب على الشياطين وأعوانهم:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَا يُصَلِّي إلَّا لِلَّهِ وَلَا يَصُومُ إلَّا لِلَّهِ وَلَا يَحُجُّ إلَّا بَيْتَ اللَّهِ وَلَا يَتَوَكَّلُ إلَّا عَلَى اللَّهِ وَلَا يَخَافُ إلَّا اللَّهَ وَلَا يَنْذِرُ إلَّا لِلَّهِ وَلَا يَحْلِفُ إلَّا بِاَللَّهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاَللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ}[١] وَفِي السُّنَنِ: {مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ}[٢] وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: "لَأَنْ أَحْلِفَ بِاَللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا" لِأَنَّ الْحَلِفَ بِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ وَالْحَلِفَ بِاَللَّهِ تَوْحِيدٌ. وَتَوْحِيدٌ مَعَهُ كَذِبٌ خَيْرٌ مِنْ شِرْكٍ مَعَهُ صِدْقٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ غَايَةَ الْكَذِبِ أَنْ يَعْدِلَ بِالشِّرْكِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاَللَّهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا}[٣] وَقَرَأَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٤] وَإِذَا كَانَ الْحَالِفُ بِغَيْرِ اللَّهِ قَدْ أَشْرَكَ فَكَيْفَ النَّاذِرُ لِغَيْرِ اللَّهِ؟ وَالنَّذْرُ أَعْظَمُ مِنْ الْحَلِفِ وَلِهَذَا لَوْ نَذَرَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَلَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، مِثْلُ أَنْ يَنْذِرَ لِغَيْرِ اللَّهِ صَلَاةً أَوْ صَوْمًا أَوْ حَجًّا أَوْ عُمْرَةً أَوْ صَدَقَةً، وَلَوْ حَلَفَ لَيَفْعَلَنَّ شَيْئًا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ. قِيلَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ الْيَمِينِ وَلَا يَفْعَلَ الْمَحْلُوفَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ}[٥] وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ: {إنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرِ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ}[٦] فَإِذَا كَانَ النَّذْرُ لَا يَأْتِي بِخَيْرِ فَكَيْفَ بِالنَّذْرِ لِلْمَخْلُوقِ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ لِلَّهِ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ إذَا كَانَ فِي طَاعَةٍ، وَإِذَا كَانَ مَعْصِيَةً لَمْ يَجُزْ

---

(١) رواه البخاري حديث ٦١٥٥، ومسلم حديث ٣١٠٥.
(٢) رواه أبو داود حديث ٢٨٢٩، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢٥٦١.
(٣) رواه أبو داود حديث ٣١٢٤، وضعفه الألباني مرفوعا وحسنه موقوفا على ابن مسعود صحيح الترغيب ٢٣٠١.
(٤) الحج: الآية ٣١.
(٥) رواه مسلم حديث ٣١١٣.
(٦) رواه مسلم حديث ٣٠٩٥.

الْوَفَاءُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا هَلْ فِيهِ بَدَلٌ أَوْ كَفَّارَةُ يَمِينٍ أَمْ لَا؟ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ}[1] فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّذْرَ لِلْمَخْلُوقِينَ يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً فَهُوَ مِنْ الضَّالِّينَ، كَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ عِبَادَةَ الْمَخْلُوقِينَ تَجْلِبُ لَهُمْ مَنْفَعَةً أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً. وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَدْ تَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَقَدْ تُخَاطِبُهُمْ بِكَلَامٍ، وَقَدْ تَحْمِلُ أَحَدَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ تُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، وَقَدْ تَأْتِيهِ بِنَفَقَةِ أَوْ طَعَامٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا جَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِعُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَغَيْرِ هَذَا الزَّمَانِ لِلضَّالِّينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إمَّا بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَإِمَّا بِعِبَادَةٍ لَمْ يَشْرَعْهَا اللَّهُ.

نقول ولقد رأينا من يذهب لوضع بعض النذور والقرابين في بعض صناديق النذور الموضوعة عند القبور والمساجد التي بها أضرحة، وكان ذلك بأمر الكهّان والسحرة، وفى بعض المرات يطلب الكاهن ما يسمى بياضاً ومشهور قولهم (ارم بياضك) وقد قبض على بعض هؤلاء وحين سألته: لما تفعل ذلك؟ ولماذا تطلب هذه النذور؟ قال: إني أوزعها على الفقراء. وهو في ذلك كاذب، وحتى لو وزعها على الفقراء بعد ذلك فإنّ ذبحها كان لغير الله ليطلعه الكاهن على ما يريد.[2]

قال شيخ الإسلام: ...وَهَؤُلَاءِ إذَا أَظْهَرَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ أَنْ يَكُونَ حَالًا شَيْطَانِيًّا أَوْ حَالًا بهتانياً، فَخَوَاصُّهُمْ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ كَمَا يَقَعُ لِبَعْضِ الْعُقَلَاءِ مِنْهُمْ وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ، لَكِنْ لَا تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ إلَّا مَعَ نَوْعٍ مِنْ الْبِدْعَةِ: إمَّا كُفْرٍ وَإِمَّا فِسْقٍ وَإِمَّا جَهْلٍ بِالشَّرْعِ. فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَصْدُهُ إغْوَاءُ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فَإِنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ كُفَّارًا جَعَلَهُمْ كُفَّارًا، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ إلَّا عَلَى جَعْلِهِمْ فُسَّاقًا أَوْ عُصَاةً، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ إلَّا عَلَى نَقْصِ عَمَلِهِمْ وَدِينِهِمْ بِبِدْعَةٍ يَرْتَكِبُونَهَا يُخَالِفُونَ بِهَا الشَّرِيعَةَ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ ﷺ فَيَنْتَفِعُ مِنْهُمْ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْأَئِمَّةُ: لَوْ رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ أَوْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا وُقُوفَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ وَتَكُونُ الشَّيَاطِينُ هِيَ الَّتِي تَحْمِلُهُ، لَا يَكُونُ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ: مَنْ يَحْمِلُهُ الشَّيْطَانُ إلَى عَرَفَاتٍ فَيَقِفُ مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ فَيَرُدُّهُ إلَى مَدِينَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَيَظُنُّ هَذَا الْجَاهِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ هَذَا، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا طَاعَةٌ وَقُرْبَةٌ إلَيْهِ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ الْإِحْرَامِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَنْ يَطُوفَ بَعْدَ ذَلِكَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، فَإِنَّهُ رُكْنٌ لَا يَتِمُّ الْحَجُّ إلَّا بِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ بمزدلفة وَيَرْمِيَ الْجِمَارَ وَيَطُوفَ لِلْوَدَاعِ، وَعَلَيْهِ اجْتِنَابُ الْمَحْظُورَاتِ وَالْإِحْرَامُ مِنْ الْمِيقَاتِ،

---

(١) رواه البخاري حديث ٦٢٠٢.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٣)

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الْحَجِّ . وَهَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ الَّذِينَ يُضِلُّهُمْ الشَّيْطَانُ يَحْمِلُهُمْ فِي الْهَوَاءِ، يَحْمِلُ أَحَدَهُمْ بِثِيَابِهِ فَيَقِفُ بِعَرَفَةَ وَيَرْجِعُ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، حَتَّى يُرَى فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ بِبَلَدِهِ وَيُرَى بِعَرَفَةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَتِهِ وَيَقِفُ بِعَرَفَةَ، فَيَرَاهُ مَنْ يَعْرِفُهُ وَاقِفًا فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَقَفَ بِعَرَفَةَ، فَإِذَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الشَّيْخُ أَنَا لَمْ أَذْهَبْ الْعَامَ إِلَى عَرَفَةَ ظَنَّ أَنَّهُ مَلَكٌ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَمَثَّلَ عَلَى صُورَتِهِ، وَمِثْلُ هَذَا وَأَمْثَالِهِ يَقَعُ كَثِيرًا وَهِيَ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(١) وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾(٣) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(٤) وَنِسْيَانُهَا هُوَ تَرْكُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِهَا وَإِنْ حَفِظَ حُرُوفَهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ" وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ. فَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ هَدَاهُ اللَّهُ وَأَسْعَدَهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ ضَلَّ وَشَقِيَ وَأَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ وَأَشْقَاهُ. فَالْأَحْوَالُ الرَّحْمَانِيَّةُ وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ يَكُونُ سَبَبُهُ الْإِيمَانَ، فَإِنَّ هَذِهِ حَالُ أَوْلِيَائِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٥) وَتَكُونُ نِعْمَةً لِلَّهِ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَتَكُونُ الْحُجَّةَ فِي الدِّينِ وَالْحَاجَةَ فِي الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِينَ، مِثْلَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَتْ الْحُجَّةَ فِي الدِّينِ وَالْحَاجَةَ لِلْمُسْلِمِينَ، مِثْلُ الْبَرَكَةِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، كَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، وَمِثْلُ نُزُولِ الْمَطَرِ بِالِاسْتِسْقَاءِ، وَمِثْلُ قَهْرِ الْكُفَّارِ وَشِفَاءِ الْمَرِيضِ بِالدُّعَاءِ، وَمِثْلُ الْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ وَالنَّافِعَةِ بِمَا غَابَ عَنْ الْحَاضِرِينَ، وَأَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَكْذِبُ قَطُّ. وَأَمَّا أَصْحَابُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ يَكْذِبُونَ تَارَةً وَيَصْدُقُونَ أُخْرَى، وَلَا بُدَّ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ مُخَالَفَةٍ لِلْأَمْرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الْآيَتَيْنِ. وَلِهَذَا يُوجَدُ الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ مُلَابِسًا الْخَبَائِثَ مِنْ النَّجَاسَاتِ وَالْأَقْذَارِ الَّتِي تُحِبُّهَا الشَّيَاطِينُ، وَمُرْتَكِبًا لِلْفَوَاحِشِ أَوْ ظَالِمًا لِلنَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَرَّمَ: ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾(٦) الْآيَةَ. وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِضَاهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لَهَا بَسْطٌ طَوِيلٌ لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَكَانُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.(٧)

---

(١) الزخرف: الآية ٣٦.
(٢) فصلت: الآية ٤٢.
(٣) البقرة: من الآية ٣٨.
(٤) طه: الآية ١٢٦.
(٥) يونس: الآية ٦٢.
(٦) الأعراف: الآية ٣٣.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٤)

قال شيخ الإسلام: وأما إخوان الشياطين: فإذا دخلت فيهم الشياطين، فقد يدخلون النار ولا تحرقهم، كما يُضرب أحدهم ألف سوط ولا يحسّ بذلك؛ فإن الشياطين تلتقي ذلك. وهذا أمرٌ كثيرٌ معروفٌ، قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه، وقد ضربنا نحن من الشياطين في الإنس ما شاء الله، حتى خرجوا من الإنس ولم يعاودوه، وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن، وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف، وفيهم من لا يخرج إلا بالعقوبة كالإنس، الشياطين يخافون الرجل الصالح أعظم مما يخافه فجار الإنس، فهؤلاء الشياطين إذا كانوا مع جنسهم، الذين لا يهابونهم، فعلوا هذه الأمور، وأما إذا كانوا عند أهل إيمان وتوحيد، وفي بيوت الله التي يُذكر فيها اسمه، لم يجترئوا على ذلك، بل يخافون الرجل الصالح أعظم ممّا يخافه فُجّار الإنس؛ ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاء والتصدية في المساجد المعمورة بذكر الله، ولا بين أهل الإيمان والشريعة المتبعين للرسول، إنّما يمكنهم ذلك في الأماكن التي يأتيها الشياطين، كالمساجد المهجورة والمشاهد والمقابر والحمامات والمواخير.

فالمواضع التي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيها، كالمقبرة وأعطان الإبل والحمام وغيرها، فتكون حال هؤلاء فيها أقوى، لأنها مواضع الشياطين، كالمجزرة والمزبلة والحمام ونحو ذلك، بخلاف الأمكنة التي ظهر فيها الإيمان والقرآن والتوحيد التي أثنى الله على أهلها، وقال فيهم: ﴿اللهُ نُورُ السَّموَاتِ والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاح المِصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرّيّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُور يَهدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاء وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم * في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرفَعَ وَيُذكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوّ وَالآصالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَومَاً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَن مَا عَمِلُوا وَيَزِيدهُمْ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَاب﴾[1] فهذه أمكنة النور والصالحين والملائكة، لا تتسلّط عليها الشياطين بكل ما تريد، بل كيدهم فيها ضعيف، كما أنّ كيدهم في شهر رمضان ضعيف؛ إذ كانوا فيه يُسلسلون، لكن لم يبطل فعلهم بالكلية بل ضَعُف، فشرّهم فيه على أهل الصوم قليل، بخلاف أهل الشراب وأهل الظلمات، فإنّ الشياطين هنالك محالُّهم، وهم يحبون الظلمة ويكرهون النور، ولهذا ينتشرون بالليل؛ كما جاء في الحديث الصحيح، ولهذا أمر الله بالتعوّذ من شرّ غاسق إذا وقب.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وَصَرْعُ الجِنّ لِلْإِنْسِ هُوَ لِأَسْبَابِ ثَلَاثَةٍ: تَارَةً يَكُونُ الْجِنِّيُّ يُحِبُّ الْمَصْرُوعَ فَيَصْرَعُهُ لِيَتَمَتَّعَ بِهِ، وَهَذَا الصَّرْعُ يَكُونُ أَرْفَقَ مِنْ غَيْرِهِ وَأَسْهَلَ، وَتَارَةً يَكُونُ الْإِنْسِيُّ آذَاهُمْ إذَا بَالَ عَلَيْهِمْ، أَوْ صَبَّ عَلَيْهِمْ مَاءً حَارًّا، أَوْ يَكُونُ قَتَلَ بَعْضَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَهَذَا أَشَدُّ الصَّرْعِ وَكَثِيرًا مَا يَقْتُلُونَ الْمَصْرُوعَ، وَتَارَةً يَكُونُ بِطَرِيقِ الْعَبَثِ بِهِ كَمَا يَعْبَثُ سُفَهَاءُ الْإِنْسِ بِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ.

---

(١) النور: الآية ٣٥:٣٨.

وَمِنْ اسْتِمْتَاعِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِخْدَامُهُمْ فِي الْإِخْبَارِ بِالْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، كَمَا يُخْبِرُ الْكُهَّانُ فَإِنَّ فِي الْإِنْسِ مَنْ لَهُ غَرَضٌ فِي هَذَا؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ كُفَّارًا كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ لَمْ تُبَالِ بِأَنْ يُقَالَ: إنَّهُ كَاهِنٌ كَمَا كَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ كُهَّانًا، وَقَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَفِيهَا كُهَّانٌ، وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَطْلُبُونَ التَّحَاكُمَ إلَى الْكُهَّانِ، وَكَانَ أَبُو أَبْرَقَ الأسلمي أَحَدَ الْكُهَّانِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ مُسْلِمِينَ لَمْ يُظْهِرْ أَنَّهُ كَاهِنٌ، بَلْ يَجْعَلُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْكَرَامَاتِ وَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ، فَإِنَّهُ لَا يَخْدِمُ الْإِنْسِيَّ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ إلَّا لِمَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ مِنْ الْإِنْسِيِّ بِأَنْ يُطِيعَهُ الْإِنْسِيُّ فِي بَعْضِ مَا يُرِيدُهُ: إمَّا فِي شِرْكٍ وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ وَإِمَّا فِي أَكْلِ حَرَامٍ وَإِمَّا فِي قَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ . فَالشَّيَاطِينُ لَهُمْ غَرَضٌ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَهُمْ لَذَّةٌ فِي الشَّرِّ وَالْفِتَنِ يُحِبُّونَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُمْ، وَهُمْ يَأْمُرُونَ السَّارِقَ أَنْ يَسْرِقَ وَيَذْهَبُونَ إلَى أَهْلِ الْمَالِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ سَرَقَ مَتَاعَكُمْ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: الْقُوَّةُ الْمَلَكِيَّةُ وَالْبَهِيمِيَّةُ والسبعية والشيطانية، فَإِنَّ الْمَلَكِيَّةَ فِيهَا الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالْبَهِيمِيَّةَ فِيهَا الشَّهَوَاتُ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، والسبعية فِيهَا الْغَضَبُ وَهُوَ دَفْعُ الْمُؤْذِي، وَأَمَّا الشَّيْطَانِيَّةُ فَشَرٌّ مَحْضٌ لَيْسَ فِيهَا جَلْبُ مَنْفَعَةٍ وَلَا دَفْعُ مَضَرَّةٍ .

فرحم الله شيخ الإسلام، لقد وقفت على ما ذكره أيام احتسابي فمنهم من تؤذيه الجن لأذاه لهم، ومنهم من تتسلط عليه سفهاً، وأكثر هؤلاء نجدهم في أماكن اللهو ومواطن الفسق كالخمارات والمراقص.

وسبب تمكن الجني من فعل الفاحشة بإنسي -تقصير الإنسي في طاعة الله تعالى، وعدم عنايته بأمر صلاته لا سيما صلاة الفجر التي قال عنها النبي ﷺ: {من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله}(١) وكذلك يكون مقصراً في أذكاره، وهي حصن المسلم الحصين من الشياطين.

قال شيخ الإسلام: وَالْفَلَاسِفَةُ وَنَحْوُهُمْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ لَا يَعْرِفُونَ هَذِهِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَ الشَّهْوَةَ وَالْغَضَبَ وَالشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ خُلِقَا لِمَصْلَحَةٍ وَمَنْفَعَةٍ، لَكِنَّ الْمَذْمُومَ هُوَ الْعُدْوَانُ فِيهِمَا، وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَيَأْمُرُ بِالشَّرِّ الَّذِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ وَيُحِبُّ ذَلِكَ، كَمَا فَعَلَ إبْلِيسُ بِآدَمَ لَمَّا وَسْوَسَ لَهُ وَكَمَا امْتَنَعَ مِنْ السُّجُودِ لَهُ، فَالْحَسَدُ يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَالْحَاسِدُ لَا يَنْتَفِعُ بِزَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ الْمَحْسُودِ، لَكِنْ يُبْغِضُ ذَلِكَ وَقَدْ يَكُونُ بُغْضُهُ لِفَوَاتِ غَرَضِهِ وَقَدْ لَا يَكُونُ. وَمِنْ اسْتِمْتَاعِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِخْدَامُهُمْ فِي إحْضَارِ بَعْضِ مَا يَطْلُبُونَهُ مِنْ مَالٍ وَطَعَامٍ وَثِيَابٍ وَنَفَقَةٍ، فَقَدْ يَأْتُونَ بِبَعْضِ ذَلِكَ وَقَدْ يَدُلُّونَهُ عَلَى كَنْزٍ وَغَيْرِهِ. وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ اسْتِعْمَالُهُمْ فِيمَا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَمَعْصِيَةٍ، وَمِنْ اسْتِمْتَاعِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِخْدَامُهُمْ فِيمَا يَطْلُبُهُ الْإِنْسُ مِنْ شِرْكٍ وَقَتْلٍ وَفَوَاحِشَ، فَتَارَةً يَتَمَثَّلُ الْجِنِّيُّ فِي صُورَةِ الْإِنْسِيِّ فَإِذَا اسْتَغَاثَ بِهِ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ أَتَاهُ فَظَنَّ أَنَّهُ الشَّيْخُ نَفْسُهُ، وَتَارَةً يَكُونُ التَّابِعُ قَدْ نَادَى شَيْخَهُ وَهَتَفَ بِهِ يَا سَيِّدِي فُلَانٌ، فَيَنْقُلُ الْجِنِّيُّ ذَلِكَ الْكَلَامَ إلَى الشَّيْخِ بِمِثْلِ صَوْتِ الْإِنْسِيِّ حَتَّى يَظُنَّ الشَّيْخُ أَنَّهُ صَوْتُ

(١) رواه مسلم حديث ١٠٥٠.

الْإِنْسِيِّ بِعَيْنِهِ، ثُمَّ إنَّ الشَّيْخَ يَقُولُ: نَعَمْ وَيُشِيرُ إشَارَةً يَدْفَعُ بِهَا ذَلِكَ الْمَكْرُوهَ فَيَأْتِي الْجِنِّيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الصَّوْتِ وَالْفِعْلِ، فَيَظُنُّ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَنَّهُ شَيْخُهُ نَفْسُهُ وَهُوَ الَّذِي أَجَابَهُ وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ، حَتَّى أَنَّ تَابِعَ الشَّيْخِ قَدْ يَكُونُ يَدُهُ فِي إنَاءٍ يَأْكُلُ فَيَضَعُ الْجِنِّيُّ يَدَهُ فِي صُورَةِ يَدِ الشَّيْخِ وَيَأْخُذُ مِنْ الطَّعَامِ، فَيَظُنُّ ذَلِكَ التَّابِعُ أَنَّهُ شَيْخُهُ حَاضِرٌ مَعَهُ، وَالْجِنِّيُّ يُمَثِّلُ لِلشَّيْخِ نَفْسِهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْإِنَاءِ، فَيَضَعُ يَدَهُ فِيهِ حَتَّى يَظُنَّ الشَّيْخُ أَنَّ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ، فَإِذَا حَضَرَ الْمُرِيدُ ذَكَرَ لَهُ الشَّيْخُ أَنَّ يَدِي كَانَتْ فِي الْإِنَاءِ فَيُصَدِّقُهُ، وَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مَسَافَةُ شَهْرٍ وَالشَّيْخُ مَوْضِعَهُ وَيَدُهُ لَمْ تَطُلْ، وَلَكِنَّ الْجِنِّيَّ مَثَّلَ لِلشَّيْخِ وَمَثَّلَ لِلْمُرِيدِ حَتَّى ظَنَّ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنَّ أَحَدَهُمَا عِنْدَ الْآخَرِ، وَإِنَّمَا كَانَ عِنْدَهُ مَا مَثَّلَهُ الْجِنِّيُّ وَخَيَّلَهُ. وَإِذَا سُئِلَ الشَّيْخُ الْمَخْدُومُ عَنْ أَمْرٍ غَائِبٍ إمَّا سَرِقَةٍ وَإِمَّا شَخْصٍ مَاتَ، وَطُلِبَ مِنْهُ أَنْ يُخْبِرَ بِحَالِهِ أَوْ عِلَّةٍ فِي النِّسَاءِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْجِنِّيَّ قَدْ يُمَثِّلُ ذَلِكَ فَيُرِيهِ صُورَةَ الْمَسْرُوقِ، فَيَقُولُ الشَّيْخُ: ذَهَبَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ إنْ كَانَ صَاحِبُ الْمَالِ مُعَظَّمًا وَأَرَادَ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى سَرِقَتِهِ، مَثَّلَ لَهُ الشَّيْخُ الَّذِي أَخَذَهُ أَوْ الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ الْمَالُ، فَيَذْهَبُونَ إلَيْهِ فَيَجِدُونَهُ كَمَا قَالَ، وَالْأَكْثَرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ صُورَةَ الْمَالِ وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي سَرَقَ الْمَالَ مَعَهُ أَيْضًا جِنِّيٌّ يَخْدِمُهُ، وَالْجِنُّ يَخَافُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَإِذَا دَلَّ الْجِنِّيُّ عَلَيْهِ جَاءَ إلَيْهِ أَوْلِيَاءُ السَّارِقِ فَآذَوْهُ، وَأَحْيَانًا لَا يَدُلُّ لِكَوْنِ السَّارِقِ وَأَعْوَانِهِ يَخْدِمُونَهُ وَيَرْشُونَهُ، كَمَا يُصِيبُ مَنْ يَعْرِفُ اللُّصُوصَ مِنْ الْإِنْسِ تَارَةً يَعْرِفُ السَّارِقَ وَلَا يُعَرِّفُ بِهِ: إمَّا لِرَغْبَةٍ يَنَالُهَا مِنْهُ وَإِمَّا لِرَهْبَةٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ الْمَالُ الْمَسْرُوقُ لِكَبِيرٍ يَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ عَرَّفَ سَارِقَهُ، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ اسْتِمْتَاعِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

قال شيخ الإسلام: وَكُلُّ مَنْ عَبَدَ عِبَادَةً لَيْسَتْ وَاجِبَةً وَلَا مُسْتَحَبَّةً وَظَنَّهَا وَاجِبَةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً، فَإِنَّمَا زَيَّنَ ذَلِكَ لَهُ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ عَفَا عَنْهُ لِحُسْنِ قَصْدِهِ وَاجْتِهَادِهِ، لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِمَّا يُكْرِمُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ؛ إذْ لَيْسَ فِي فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ إكْرَامٌ، بَلْ الْإِكْرَامُ حِفْظُهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْعُهُ مِنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُنْقِصُهُ لَا يُزِيدُهُ، وَإِنْ لَمْ يُعَاقَبْ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُخْفِضَهُ عَمَّا كَانَ، وَيُخْفِضَ أَتْبَاعَهُ الَّذِينَ يَمْدَحُونَ هَذِهِ الْحَالَ وَيُعَظِّمُونَ صَاحِبَهَا، فَإِنَّ مَدْحَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَتَعْظِيمَ صَاحِبِهَا هُوَ مِنْ الضَّلَالِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ فِي الْبِدَعِ اجْتِهَادًا ازْدَادَ مِنْ اللَّهِ بُعْدًا؛ لِأَنَّهَا تُخْرِجُهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، سَبِيلِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ إلَى بَعْضِ سَبِيلِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

قال شيخ الإسلام:...وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَابِدًا لِغَيْرِهِ، يَعْبُدُ غَيْرَهُ فَيَكُونُ مُشْرِكًا، وَلَيْسَ فِي بَنِي آدَمَ قِسْمٌ ثَالِثٌ، بَلْ إمَّا مُوَحِّدٌ أَوْ مُشْرِكٌ أَوْ مَنْ خَلَطَ هَذَا بِهَذَا كَالْمُبَدِّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ: النَّصَارَى وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنْ الضُّلَّالِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِسْلَامِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[1] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[2] لَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[3] قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فَإِبْلِيسُ لَا يُغْوِي الْمُخْلَصِينَ وَلَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الْغَاوِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ بِهِ مُشْرِكُونَ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ صِفَتَانِ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ. فَكُلُّ مَنْ تَوَلَّاهُ فَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ، وَكُلُّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ فَقَدْ تَوَلَّاهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وَكُلُّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ فَإِنَّمَا يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ، وَإِنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[4] وَلِهَذَا تَتَمَثَّلُ الشَّيَاطِينُ لِمَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَيُخَاطِبُونَهُمْ، فَيَظُنُّونَ أَنَّ الَّذِي خَاطَبَهُمْ مَلَكٌ أَوْ نَبِيٌّ أَوْ وَلِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ جَعَلَ نَفْسَهُ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا يُصِيبُ عُبَّادُ الْكَوَاكِبِ وَأَصْحَابُ الْعَزَائِمِ وَالطَّلْسَمَاتِ، يُسَمُّونَ أَسْمَاءً، يَقُولُونَ: هِيَ أَسْمَاءُ الْمَلَائِكَةِ مِثْلَ منططرون وَغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ الْجِنِّ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ قَدْ يَتَمَثَّلُ لِأَحَدِهِمْ مَنْ يُخَاطِبُهُ، فَيَظُنُّهُ النَّبِيُّ أَوْ الصَّالِحُ الَّذِي دَعَاهُ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَصَوَّرَ فِي صُورَتِهِ، أَوْ قَالَ: أَنَا هُوَ. لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْ صُورَةَ ذَلِك الْمَدْعُوِّ. وَهَذَا كَثِيرٌ يَجْرِي لِمَنْ يَدْعُو الْمَخْلُوقِينَ مِنْ النَّصَارَى وَمِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَهُمْ عِنْدَ قُبُورِهِمْ أَوْ مَغِيبِهِمْ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، فَيَأْتِيهِمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ ذَلِك الْمُسْتَغَاثُ بِهِ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ إِمَّا رَاكِبًا وَإِمَّا غَيْرَ رَاكِبٍ، فَيَعْتَقِدُ الْمُسْتَغِيثُ أَنَّهُ ذَلِك النَّبِيَّ أَوْ الصَّالِحَ أَوْ أَنَّهُ سِرُّهُ أَوْ رُوحَانِيَّتُهُ أَوْ رَقِيقَتُهُ أَوْ الْمَعْنَى تَشَكَّلَ، أو يَقُولُ: إِنَّهُ مَلَكٌ جَاءَ عَلَى صُورَتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ يُغْوِيهِ، لِكَوْنِهِ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ وَدَعَا غَيْرَهُ الْمَيِّتَ فَمَنْ دُونَهُ. فَصَارَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ بِذَلِك الشِّرْكِ، فَظَنَّ أَنَّهُ يَدْعُو النَّبِيَّ أَوْ الصَّالِحَ أَوْ الْمَلَكَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي شَفَعَ لَهُ، أَوْ هُوَ الَّذِي أَجَابَ دَعْوَتَهُ. وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ لِيَزِيدَهُ غُلُوًّا فِي كُفْرِهِ وَضَلَالِهِ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُشْرِكًا عَابِدًا لِغَيْرِ اللَّهِ. وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَابِدٌ لِلشَّيْطَانِ. فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِمَّا عَابِدٌ لِلرَّحْمَنِ، وَإِمَّا عَابِدٌ لِلشَّيْطَانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[5] وَقَالَ

---

(١) النحل: الآية ٩٨,٩٩.
(٢) الحجر: الآية ٤٢.
(٣) الحجر: الآية ٣٩.
(٤) سبأ: الآية ٤٠,٤١.
(٥) الزخرف: الآية ٣٦:٣٩.

تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١) فَبَنُو آدَمَ مُنْحَصِرُونَ فِي الْأَصْنَافِ السِّتَّةِ. وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ.(٢)

فَصْلٌ إذَا عُرِفَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ فَنَقُولُ: يَجُوزُ بَلْ يُسْتَحَبُّ وَقَدْ يَجِبُ أَنْ يُذَبَّ عَنْ الْمَظْلُومِ وَأَنْ يُنْصَرَ؛ فَإِنَّ نَصْرَ الْمَظْلُومِ مَأْمُورٌ بِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: {أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ أَوْ الْمُقْسِمِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ وَإِجَابَةِ الدَّاعِي وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمَ أَوْ تَخَتُّمِ الذَّهَبِ وَعَنْ شُرْبٍ بِالْفِضَّةِ وَعَنْ الْمَيَاثِرِ وَعَنْ الْقِسِيِّ وَلُبْسِ الْحَرِيرِ وَالْإِسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ}(٣) وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {اُنْصُرْ أَخَاك ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُك إيَّاهُ}(٤) وَأَيْضًا فَفِيهِ تَفْرِيجُ كُرْبَةِ هَذَا الْمَظْلُومِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاَللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ}(٥) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ: {أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ الرُّقَى قَالَ: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ}(٦) لَكِنْ يَنْصُرُ بِالْعَدْلِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، مِثْلَ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمِثْلَ أَمْرِ الْجِنِّيِّ وَنَهْيِهِ كَمَا يُؤْمَرُ الْإِنْسِيُّ وَيُنْهَى، وَيَجُوزُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَجُوزُ مِثْلُهُ فِي حَقِّ الْإِنْسِيِّ، مِثْلَ أَنْ يَحْتَاجَ إلَى انْتِهَارِ الْجِنِّيِّ وَتَهْدِيدِهِ وَلَعْنِهِ وَسَبِّهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: {قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْك، ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُك بِلَعْنَةِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ الصَّلَاةِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ سَمِعْنَاك تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْك تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَرَأَيْنَاك بَسَطْت يَدَك. قَالَ: إنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْت: أَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْك ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْت: أَلْعَنُك بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْت أَخْذَهُ، ووالله لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ}(٧) فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْهُ وَلَعْنَتُهُ بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَأْخِرْ بِذَلِكَ فَمَدَّ يَدَهُ إلَيْهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {إنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ لِيَقْطَعَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ فذعته، وَلَقَدْ هَمَمْت أَنْ أُوثِقَهُ إلَى

(١) النساء: الآية ١٢٣.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢٧٤)
(٣) رواه البخاري حديث ٥٢٠٤.
(٤) رواه البخاري حديث ٢٢٦٣.
(٥) رواه مسلم حديث ٤٨٦٧.
(٦) رواه مسلم حديث ٤٠٧٦.
(٧) رواه مسلم حديث ٨٤٣.

سَارِيَةٍ حَتَّى تُصْبِحُوا فَتَنْظُرُوا إلَيْهِ، فَذَكَرْت قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[1] فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا}[2] فَهَذَا الْحَدِيثُ يُوَافِقُ الْأَوَّلَ وَيُفَسِّرُهُ وَقَوْلُهُ: "ذعته" أَيْ: خَنَقْته فَبَيَّنَ أَنَّ مَدَّ الْيَدِ كَانَ لِخَنْقِهِ، وَهَذَا دَفْعٌ لِعُدْوَانِهِ بِالْفِعْلِ وَهُوَ الْخَنْقُ وَبِهِ انْدَفَعَ عُدْوَانُهُ فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا. وَأَمَّا الزِّيَادَةُ وَهُوَ رَبْطُهُ إلَى السَّارِيَةِ فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّصَرُّفِ الْمَلَكِيِّ الَّذِي تَرَكَهُ لِسُلَيْمَانَ، فَإِنَّ نَبِيَّنَا ﷺ كَانَ يَتَصَرَّفُ فِي الْجِنِّ كَتَصَرُّفِهِ فِي الْإِنْسِ تَصَرُّفَ عَبْدٍ رَسُولٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، لَا يَتَصَرَّفُ لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إلَيْهِ وَهُوَ التَّصَرُّفُ الْمَلَكِيُّ؛ فَإِنَّهُ كَانَ عَبْدًا رَسُولًا وَسُلَيْمَانُ نَبِيٌّ مَلِكٌ.[3]

نقول: ينبغي التعامل مع الجن بتعامل النبي ﷺ تماما بتمام فإنه ﷺ ما تصرف فيهم تصرف الملك؛ إذ لا استخدام للجني لا الصالح المؤمن ولا غيره، وقد سبق بيان ذلك وتفصيله فيما مضى وقد جمعنا فيه أطراف كلام شيخ الإسلام: وَالْعَبْدُ الرَّسُولُ أَفْضَلُ مِنْ النَّبِيِّ الْمَلِكِ كَمَا أَنَّ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ أَفْضَلُ مِنْ عُمُومِ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَقَدْ رَوَى النسائي عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَخَنَقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {حَتَّى وَجَدْت بَرْدَ لِسَانِهِ عَلَى يَدِي وَلَوْلَا دَعْوَةُ سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ}[4] وَرَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو داود مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَفِيهِ: {فَأَهْوَيْت بِيَدِي فَمَا زِلْت أَخْنُقُهُ حَتَّى وَجَدْت بَرْدَ لُعَابِهِ بَيْنَ أُصْبُعَيْ هَاتَيْنِ: الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا}[5] وَهَذَا فِعْلُهُ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا مِمَّا احْتَجَّ بِهِ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ مِثْلِ هَذَا فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ كَدَفْعِ الْمَارِّ وَقَتْلِ الْأَسْوَدَيْنِ وَالصَّلَاةِ حَالَ الْمُسَايَفَةِ. وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي شَيْطَانِ الْجِنِّ إذَا مَرَّ بَيْنَ يَدَيْ الْمُصَلِّي هَلْ يَقْطَعُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: هُمَا قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد كَمَا ذَكَرَهُمَا ابْنُ حَامِدٍ وَغَيْرُهُ، أَحَدُهُمَا: يَقْطَعُ لِهَذَا الْحَدِيثِ؛ وَلِقَوْلِهِ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ مُرُورَ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ يَقْطَعُ لِلصَّلَاةِ: {الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ}[6] فَعَلَّلَ بِأَنَّهُ شَيْطَانٌ. وَهُوَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ الْكَلْبَ الْأَسْوَدَ شَيْطَانُ الْكِلَابِ وَالْجِنُّ تَتَصَوَّرُ بِصُورَتِهِ كَثِيرًا، وَكَذَلِكَ صُورَةُ الْقِطِّ الْأَسْوَدِ؛ لِأَنَّ السَّوَادَ أَجْمَعُ لِلْقُوَى الشَّيْطَانِيَّةِ مِنْ غَيْرِهِ وَفِيهِ قُوَّةُ الْحَرَارَةِ. وَمِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ إلَى الْجِنِّ الذَّبَائِحُ، فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَذْبَحُ لِلْجِنِّ وَهُوَ مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَرُوِيَ أَنَّهُ نَهَى عَنْ ذَبَائِحِ الْجِنِّ، وَإِذَا بَرِئَ الْمُصَابُ بِالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَأَمْرِ الْجِنِّ وَنَهْيِهِمْ وَانْتِهَارِهِمْ وَسَبِّهِمْ وَلَعْنِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْكَلَامِ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ مَرَضَ طَائِفَةٍ مِنْ الْجِنِّ أَوْ مَوْتَهُمْ فَهُمْ الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، إذَا كَانَ الرَّاقِي الدَّاعِي الْمُعَالِجُ لَمْ يَتَعَدَّ عَلَيْهِمْ، كَمَا يَتَعَدَّى عَلَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَزَائِمِ، فَيَأْمُرُونَ بِقَتْلِ مَنْ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ وَقَدْ يَحْبِسُونَ مَنْ لَا يَحْتَاجُ إلَى حَبْسِهِ؛ وَلِهَذَا قَدْ تُقَاتِلُهُمْ الْجِنُّ

---

(١) ص: الآية ٣٥.

(٢) رواه البخاري حديث ٤٤١.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص١٨٦)

(٤) رواه النسائي في الكبرى حديث ١١٤٣٩، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٣٢٥١.

(٥) السلسلة الصحيحة حديث٣٢٥١.

(٦) رواه مسلم حديث ٧٨٩.

عَلَى ذَلِكَ فَفِيهِمْ مَنْ تَقْتُلُهُ الْجِنُّ أَوْ تُمْرِضُهُ، وَفِيهِمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ أَوْ دَوَابِّهِ. وَأَمَّا مَنْ سَلَكَ فِي دَفْعِ عَدَاوَتِهِمْ مَسْلَكَ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ بَلْ هُوَ مُطِيعٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي نَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسِ عَنْ الْمَكْرُوبِ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شِرْكٌ بِالْخَلْقِ وَلَا ظُلْمٌ لِلْمَخْلُوقِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا تُؤْذِيهِ الْجِنُّ إمَّا لِمَعْرِفَتِهِمْ بِأَنَّهُ عَادِلٌ، وَإِمَّا لِعَجْزِهِمْ عَنْهُ. وَإِنْ كَانَ الْجِنُّ مِنْ الْعَفَارِيتِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فَقَدْ تُؤْذِيهِ، فَيَنْبَغِي لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَحْتَرِزَ بِقِرَاءَةِ الْعَوْذِ مِثْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَالْمُعَوِّذَاتِ وَالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُقَوِّي الْإِيمَانَ وَيُجَنِّبُ الذُّنُوبَ الَّتِي بِهَا يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يَنْصُرَ الْعَدُوَّ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فَوْقَ قُدْرَتِهِ فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا، فَلَا يَتَعَرَّضُ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْتَصِرُ بِهِ عَلَيْهِمْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: {وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْته وَقُلْت لَأَرْفَعَنك إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْت عَنْهُ فَأَصْبَحْت، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُك الْبَارِحَةَ؟ قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْته وَخَلَّيْت سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَا أَنَّهُ قَدْ كَذَبَك وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْت أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَصَدْته، فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْته، فَقُلْت: لَأَرْفَعَنك إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ فَرَحِمْته فَخَلَّيْت سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْت فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُك؟ قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْته فَخَلَّيْت سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَا إنَّهُ قَدْ كَذَبَك وَسَيَعُودُ فَرَصَدْته الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْته فَقُلْت: لَأَرْفَعَنك إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ تَزْعُمُ أَنَّك لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ يَنْفَعُك اللَّهُ بِهَا قُلْت: مَا هُنَّ؟ قَالَ: إذَا أَوَيْت إلَى فِرَاشِك فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(١) حَتَّى تَخْتِمَ، الْآيَةَ فَإِنَّك لَنْ يَزَالَ عَلَيْك مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُك شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْت سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْت، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا فَعَلَ أَسِيرُك الْبَارِحَةَ؟ قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْت سَبِيلَهُ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْت: قَالَ لِي: إذَا أَوَيْت إلَى فِرَاشِك فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْك مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُك شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَا إنَّهُ قَدْ صَدَقَك وَهُوَ كَذُوبٌ. تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قُلْت: لَا. قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ}(٢) وَمَعَ هَذَا فَقَدَ جَرَّبَ الْمُجَرِّبُونَ الَّذِينَ لَا يُحْصُونَ كَثْرَةً أَنَّ لَهَا مِنْ التَّأْثِيرِ فِي دَفْعِ الشَّيَاطِينِ وَإِبْطَالِ أَحْوَالِهِمْ مَا لَا يَنْضَبِطُ مِنْ كَثْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي دَفْعِ الشَّيْطَانِ عَنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ

(١) البقرة: من الآية ٢٥٥.
(٢) رواه البخاري حديث ٣٠٣٣.

وَعَنْ الْمَصْرُوعِ وَعَنْ مَنْ تُعِينُهُ الشَّيَاطِينُ، مِثْلَ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالْغَضَبِ وَأَهْلِ الشَّهْوَةِ وَالطَّرَبِ وَأَرْبَابِ السَّمَاعِ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ إذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ بِصِدْقٍ دَفَعَتْ الشَّيَاطِينَ، وَبَطَلَتْ الْأُمُورُ الَّتِي يُخَيِّلُهَا الشَّيْطَانُ، وَيَبْطُلُ مَا عِنْدَ إخْوَانِ الشَّيَاطِينِ مِنْ مُكَاشَفَةٍ شَيْطَانِيَّةٍ وَتَصَرُّفٍ شَيْطَانِيٍّ، إذْ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ بِأُمُورٍ يَظُنُّهَا الْجُهَّالُ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

وَالصَّائِلُ الْمُعْتَدِي يَسْتَحِقُّ دَفْعُهُ سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ}(١) فَإِذَا كَانَ الْمَظْلُومُ لَهُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ مَالِ الْمَظْلُومِ وَلَوْ بِقَتْلِ الصَّائِلِ الْعَادِي، فَكَيْفَ لَا يَدْفَعُ عَنْ عَقْلِهِ وَبَدَنِهِ وَحُرْمَتِهِ؟ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُفْسِدُ عَقْلَهُ وَيُعَاقِبُهُ فِي بَدَنِهِ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَعَهُ فَاحِشَةَ إنْسِيٍّ بِإِنْسِيٍّ وَإِنْ لَمْ يَنْدَفِعْ إلَّا بِالْقَتْلِ جَازَ قَتْلُهُ. وَأَمَّا إسْلَامُ صَاحِبِهِ وَالتَّخَلِّي عَنْهُ فَهُوَ مِثْلُ إسْلَامِ أَمْثَالِهِ مِنْ الْمَظْلُومِينَ، وَهَذَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يُسْلِمُهُ وَلَا يَظْلِمُهُ}(٢) فَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ أَوْ هُوَ مَشْغُولٌ بِمَا هُوَ أَوْجَبُ مِنْهُ أَوْ قَامَ بِهِ غَيْرُهُ لَمْ يَجِبْ، وَإِنْ كَانَ قَادِرًا وَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ وَلَا يَشْغَلُهُ عَمَّا هُوَ أَوْجَبُ مِنْهُ وَجَبَ عَلَيْهِ. وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ: هَلْ هَذَا مَشْرُوعٌ؟ فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ يَدْفَعُونَ الشَّيَاطِينَ عَنْ بَنِي آدَمَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، كَمَا كَانَ الْمَسِيحُ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَكَمَا كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَقَدْ رَوَى أَحْمَد فِي مُسْنَدِهِ وَأَبُو داود فِي سُنَنِهِ، مِنْ حَدِيثِ مَطَرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْنَقِ، قَالَ: {حَدَّثَتْنِي أُمُّ أَبَانَ بِنْتُ الْوَازِعِ بْنِ زَارِعٍ فِي عَامِرٍ العبدي، عَنْ أَبِيهَا أَنَّ جَدَّهَا الزَّارِعَ انْطَلَقَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْطَلَقَ مَعَهُ بِابْنٍ لَهُ مَجْنُونٍ -أَوْ ابْنِ أُخْتٍ لَهُ- قَالَ جَدِّي : فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْت: إنَّ مَعِي ابْنًا لِي -أَوْ ابْنَ أُخْتٍ لِي- مَجْنُونٌ أَتَيْتُك بِهِ تَدْعُو اللَّهَ لَهُ. قَالَ: ائْتِنِي بِهِ. قَالَ: فَانْطَلَقْت بِهِ إلَيْهِ وَهُوَ فِي الرِّكَابِ فَأَطْلَقْت عَنْهُ وَأَلْقَيْت عَنْهُ ثِيَابَ السَّفَرِ وَأَلْبَسْته ثَوْبَيْنِ حَسَنَيْنِ وَأَخَذْت بِيَدِهِ حَتَّى انْتَهَيْت بِهِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أُدْنُهُ مِنِّي اجْعَلْ ظَهْرَهُ مِمَّا يَلِينِي. قَالَ: بِمَجَامِعِ ثَوْبِهِ مِنْ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ ظَهْرَهُ حَتَّى رَأَيْت بَيَاضَ إبِطَيْهِ. وَيَقُولُ: أُخْرُجْ عَدُوَّ اللَّهِ، أُخْرُجْ عَدُوَّ اللَّهِ، فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ نَظَرَ الصَّحِيحِ لَيْسَ بِنَظَرِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ أَقْعَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ فَدَعَا لَهُ بِمَاءٍ فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَدَعَا لَهُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْوَفْدِ أَحَدٌ بَعْدَ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَفْضُلُ عَلَيْهِ}(٣) وَقَالَ أَحْمَد فِي الْمُسْنَدِ: ثنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ؛ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَكِيمٍ أَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: {لَقَدْ رَأَيْت مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا مَا رَآهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَرَاهَا أَحَدٌ بَعْدِي، لَقَدْ خَرَجْت مَعَهُ فِي سَفَرٍ حَتَّى

---

(١) رواه البخاري حديث ٢٣٠٠، ومسلم حديث ٢٠٢.
(٢) رواه البخاري حديث ٢٢٦٢، ومسلم ٤٦٥٠.
(٣) الحديث في السلسلة الصحيحة برقم ٤٨٥.

إذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ مَرَرْنَا بِامْرَأَةٍ جَالِسَةٍ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا صَبِيٌّ أَصَابَهُ بَلَاءٌ وَأَصَابَنَا مِنْهُ بَلَاءٌ يُؤْخَذُ فِي الْيَوْمِ مَا أَدْرِي كَمْ مَرَّةً. قَالَ: نَاوِلِينِيهِ فَرَفَعْته إلَيْهِ فَجَعَلَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاسِطَةِ الرَّحْلِ، ثُمَّ فَغَرَ فَاهُ فَنَفَثَ فِيهِ ثَلَاثًا وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ اخْسَأْ عَدُوَّ اللَّهِ ثُمَّ نَاوَلَهَا إيَّاهُ فَقَالَ: أَلْقِينَا فِي الرَّجْعَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ فَأَخْبِرِينَا مَا فَعَلَ؟ قَالَ: فَذَهَبْنَا وَرَجَعْنَا فَوَجَدْنَاهَا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مَعَهَا شِيَاهٌ ثَلَاثٌ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ صَبِيُّك؟ فَقَالَتْ: وَاَلَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ مَا حَسَسْنَا مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى السَّاعَةَ فَاجْتَرِرْ هَذِهِ الْغَنَمَ. قَالَ: انْزِلْ خُذْ مِنْهَا وَاحِدَةً وَرُدَّ الْبَقِيَّةَ} وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِتَمَامِهِ. ثِنَا وَكِيعٌ قَالَ: ثِنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ يَعْلَى بْن مُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ وَكِيعٌ: مُرَّةُ يَعْنِي الثَّقَفِيَّ، وَلَمْ يَقُلْ: مُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ: {أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إلَى النَّبِيِّ ﷺ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا بِهِ لَمَمٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اُخْرُجْ عَدُوَّ اللَّهِ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: فَبَرَأَ. قَالَ: فَأَهْدَتْ إلَيْهِ كَبْشَيْنِ وَشَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَشَيْئًا مِنْ سَمْنٍ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذْ الْأَقِطَ وَالسَّمْنَ وَخُذْ أَحَدَ الْكَبْشَيْنِ وَرُدَّ عَلَيْهَا الْآخَرَ} ثِنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفْصٍ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ رَأَيْتهنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا فَمَرَرْنَا بِمَاءٍ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا بِهِ جِنَّةٌ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَنْخَرِهِ فَقَالَ: اُخْرُجْ إنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: ثُمَّ سِرْنَا فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ سَفَرِنَا مَرَرْنَا بِذَلِكَ الْمَاءِ فَأَتَتْهُ الْمَرْأَةُ بِجَزَرٍ وَلَبَنٍ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرُدَّ الْجَزَرَ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَشَرِبُوا مِنْ اللَّبَنِ فَسَأَلَهَا عَنْ الصَّبِيِّ، فَقَالَتْ: وَاَلَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ مَا رَأَيْنَا مِنْهُ رَيْبًا بَعْدَك}(١) وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يَنْقُلْ ذَلِكَ لِكَوْنِ مِثْلِهِ لَمْ يَقَعْ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِكَوْنِ الشَّيَاطِينِ لَمْ تَكُنْ تَقْدِرُ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَفَعَلَتْ ذَلِكَ عِنْدَنَا، فَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِ وَالتَّنْفِيسِ عَنْ الْمَكْرُوبِ وَنَفْعِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ الَّذِينَ رَقُوا بِالْفَاتِحَةِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:{وَمَا أَدْرَاك أَنَّهَا رُقْيَةٌ} {وَأَذِنَ لَهُمْ فِي أَخْذِ الْجُعْلِ عَلَى شِفَاءِ اللَّدِيغِ بِالرُّقْيَةِ}(٢) وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلشَّيْطَانِ الَّذِي أَرَادَ قَطْعَ صَلَاتِهِ: {أَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْك أَلْعَنُك بِلَعْنَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ} وَهَذَا كَدَفْعِ ظَالِمِي الْإِنْسِ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَرَوْا التُّرْكَ وَلَمْ يَكُونُوا يَرْمُونَ بِالْقِسِيِّ الْفَارِسِيَّةِ وَنَحْوِهَا مِمَّا يُحْتَاجُ إلَيْهِ فِي قِتَالٍ، فَقَدَ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْبَرَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتُقَاتِلُهُمْ(٣) ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ قِتَالَهُمْ النَّافِعَ إنَّمَا هُوَ بِالْقِسِيِّ الْفَارِسِيَّةِ وَلَوْ قُوتِلُوا بِالْقِسِيِّ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تُشْبِهُ قَوْسَ الْقُطْنِ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا، بَلْ اسْتَطَالُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِقُوَّةِ رَمْيِهِمْ فَلَا بُدَّ مِنْ قِتَالِهِمْ بِمَا يَقْهَرُهُمْ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ لِعُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ: إنَّ الْعَدُوَّ إذَا رَأَيْنَاهُمْ قَدْ لَبِسُوا الْحَرِيرَ وَجَدْنَا فِي قُلُوبِنَا رَوْعَةً فَقَالَ: وَأَنْتُمْ فَالْبَسُوا كَمَا لَبِسُوا. وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ بِالرَّمَلِ وَالِاضْطِبَاعِ؛ لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَشْرُوعًا قَبْلَ هَذَا، فَفَعَلَ لِأَجْلِ الْجِهَادِ مَا لَمْ يَكُنْ

---

(١) صححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٥٩٢٢.
(٢) رواه البخاري حديث ٢١١٥، ومسلم ٤٠٨٠.
(٣) في صحيح البخاري باب قتال الترك، ومسلم حديث ٥١٨٧.

مَشْرُوعًا بِدُونِ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَحْتَاجُ فِي إبْرَاءِ الْمَصْرُوعِ وَدَفْعِ الْجِنِّ عَنْهُ إلَى الضَّرْبِ فَيُضْرَبُ ضَرْبًا كَثِيرًا جِدًّا، وَالضَّرْبُ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى الْجِنِّيِّ وَلَا يُحِسُّ بِهِ الْمَصْرُوعُ حَتَّى يُفِيقَ الْمَصْرُوعُ وَيُخْبِرَ أَنَّهُ لَمْ يُحِسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِي بَدَنِهِ وَيَكُونُ قَدْ ضُرِبَ بِعَصَا قَوِيَّةٍ عَلَى رِجْلَيْهِ نَحْوَ ثَلَاثِمِائَةٍ أَوْ أَرْبَعِمِائَةِ ضَرْبَةً وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ بِحَيْثُ لَوْ كَانَ عَلَى الْإِنْسِيِّ لَقَتَلَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى الْجِنِّيِّ وَالْجِنِّيُّ يَصِيحُ وَيَصْرُخُ وَيُحَدِّثُ الْحَاضِرِينَ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَمَا قَدْ فَعَلْنَا نَحْنُ هَذَا وَجَرَّبْنَاهُ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً يَطُولُ وَصْفُهَا بِحَضْرَةِ خَلْقٍ كَثِيرِينَ. وَأَمَّا الِاسْتِعَانَةُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُقَالُ وَيُكْتَبُ مِمَّا لَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ فَلَا يُشْرَعُ لَا سِيَّمَا إنْ كَانَ فِيهِ شِرْكٌ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ. وَعَامَّةُ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْعَزَائِمِ فِيهِ شِرْكٌ، وَقَدْ يَقْرَءُونَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ وَيُظْهِرُونَهُ وَيَكْتُمُونَ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ الشِّرْكِ، وَفِي الِاسْتِشْفَاءِ بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مَا يُغْنِي عَنْ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ. وَالْمُسْلِمُونَ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي جَوَازِ التَّدَاوِي بِالْمُحَرَّمَاتِ كَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ فَلَا يَتَنَازَعُونَ فِي أَنَّ الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ لَا يَجُوزُ التَّدَاوِي بِهِ بِحَالٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ حَالٍ وَلَيْسَ هَذَا كَالتَّكَلُّمِ بِهِ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ. فَإِنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يَجُوزُ إذَا كَانَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ وَالتَّكَلُّمُ بِهِ، إنَّمَا يُؤَثِّرُ إذَا كَانَ بِقَلْبِ صَاحِبِهِ وَلَوْ تَكَلَّمَ بِهِ مَعَ طُمَأْنِينَةِ قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ لَمْ يُؤَثِّرْ.

معاملة الجن ودفع صائلهم:

قال شيخ الإسلام(١): وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنْ مُبْتَدَعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَضُلَّالِهَا هَذَا غَايَةُ شِرْكِهِمْ، فَإِنَّ النَّصَارَى يُصَوِّرُونَ فِي الْكَنَائِسِ صُوَرَ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْإِنْسِ غَيْرِ عِيسَى وَأُمِّهِ مِثْلَ مَارّ جرجس وَغَيْرِهِ مِنْ الْقَدَادِيسِ، وَيَعْبُدُونَ تِلْكَ الصُّوَرَ وَيَسْأَلُونَهَا وَيَدْعُونَهَا وَيُقَرِّبُونَ لَهَا الْقَرَابِينَ وَيَنْذِرُونَ لَهَا النُّذُورَ وَيَقُولُونَ: هَذِهِ تُذَكِّرُنَا بِأُولَئِكَ الصَّالِحِينَ. وَالشَّيَاطِينُ تُضِلُّهُمْ كَمَا كَانَتْ تُضِلُّ الْمُشْرِكِينَ: تَارَةً بِأَنْ يَتَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي يُدْعَى وَيُعْبَدُ فَيَظُنُّ دَاعِيهِ أَنَّهُ قَدْ أَتَى، أَوْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ صَوَّرَ مَلَكًا عَلَى صُورَتِهِ، فَإِنَّ النَّصْرَانِيَّ مَثَلًا يَدْعُو فِي الْأَسْرِ وَغَيْرِهِ مَارّ جرجس أَوْ غَيْرَهُ، فَيَرَاهُ قَدْ أَتَاهُ فِي الْهَوَاءِ وَكَذَلِكَ أُخَرُ غَيْرُهُ. وَقَدْ سَأَلُوا بَعْضَ بَطَارِقَتِهِمْ عَنْ هَذَا كَيْفَ يُوجَدُ فِي هَذِهِ الْأَمَاكِنِ فَقَالَ: هَذِهِ مَلَائِكَةٌ يَخْلُقُهُمْ اللَّهُ عَلَى صُورَتِهِ تُغِيثُ مَنْ يَدْعُوهُ، وَإِنَّمَا تِلْكَ شَيَاطِينُ أَضَلَّتْ الْمُشْرِكِينَ. وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالشِّرْكِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَدْعُو وَيَسْتَغِيثُ بِشَيْخِهِ الَّذِي يُعَظِّمُهُ وَهُوَ مَيِّتٌ، أَوْ يَسْتَغِيثُ بِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ وَيَسْأَلُهُ وَقَدْ يَنْذِرُ لَهُ نَذْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَيَرَى ذَلِكَ الشَّخْصَ قَدْ أَتَاهُ فِي الْهَوَاءِ وَدَفَعَ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ، أَوْ كَلَّمَهُ بِبَعْضِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَيَظُنُّهُ الشَّيْخُ نَفْسَهُ أَتَى إنْ كَانَ حَيًّا حَتَّى أَنِّي أَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمَاعَاتٍ يَأْتُونَ إلَى الشَّيْخِ نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَغَاثُوا بِهِ وَقَدْ رَأَوْهُ أَتَاهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَيَذْكُرُونَ ذَلِكَ لَهُ. هَؤُلَاءِ يَأْتُونَ إلَى هَذَا الشَّيْخِ وَهَؤُلَاءِ يَأْتُونَ إلَى هَذَا الشَّيْخِ، فَتَارَةً يَكُونُ الشَّيْخُ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِتِلْكَ الْقَضِيَّةِ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الرِّيَاسَةَ سَكَتَ وَأَوْهَمَ أَنَّهُ نَفْسَهُ أَتَاهُمْ وَأَغَاثَهُمْ، وَإِنْ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص٢٢)

كَانَ فِيهِ صِدْقٌ مَعَ جَهْلٍ وَضَلَالٍ قَالَ: هَذَا مَلَكٌ صَوَّرَهُ اللَّهُ عَلَى صُورَتِي، وَجَعَلَ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ وَجَعَلَهُ عُمْدَةً لِمَنْ يَسْتَغِيثُ بِالصَّالِحِينَ وَيَتَّخِذُهُمْ أَرْبَابًا، وَأَنَّهُمْ إذَا اسْتَغَاثُوا بِهِمْ بَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً عَلَى صُوَرِهِمْ تُغِيثُ الْمُسْتَغِيثَ بِهِمْ.

وَلِهَذَا أَعْرِفُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ الشُّيُوخِ الْأَكَابِرِ الَّذِينَ فِيهِمْ صِدْقٌ وَزُهْدٌ وَعِبَادَةٌ، لَمَّا ظَنُّوا هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ صَارَ أَحَدُهُمْ يُوصِي مُرِيدِيهِ يَقُولُ: إذَا كَانَتْ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ فَلْيَسْتَغِثْ بِي وليستنجدني وَلْيَسْتَوْصِنِي، وَيَقُولَ: أَنَا أَفْعَلُ بَعْدَ مَوْتِي مَا كُنْت أَفْعَلُ فِي حَيَاتِي، وَهُوَ لَا يَعْرِف أَنَّ تِلْكَ شَيَاطِينُ تَصَوَّرَتْ عَلَى صُورَتِهِ؛ لِتُضِلَّهُ وَتُضِلَّ أَتْبَاعَهُ فَتُحَسِّنُ لَهُمْ الْإِشْرَاكَ بِاَللَّهِ وَدُعَاءَ غَيْرِ اللَّهِ وَالِاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا قَدْ تُلْقِي فِي قَلْبِهِ: أَنَّا نَفْعَلُ بَعْدَ مَوْتِك بِأَصْحَابِك مَا كُنَّا نَفْعَلُ بِهِمْ فِي حَيَاتِك، فَيَظُنُّ هَذَا مِنْ خِطَابٍ إلَهِيٍّ أُلْقِيَ فِي قَلْبِهِ، فَيَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ. وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ لَهُ شَيَاطِينُ تَخْدِمُهُ فِي حَيَاتِهِ بِأَنْوَاعِ الْخَدَمِ، مِثْلَ خِطَابِ أَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ وَإِعَانَتِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَمَّا مَاتَ صَارُوا يَأْتُونَ أَحَدَهُمْ فِي صُورَةِ الشَّيْخِ، وَيُشْعِرُونَهُ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَيُرْسِلُونَ إلَى أَصْحَابِهِ رَسَائِلَ بِخِطَابِ، وَقَدْ كَانَ يَجْتَمِعُ بِي بَعْضُ أَتْبَاعِ هَذَا الشَّيْخِ، وَكَانَ فِيهِ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ وَكَانَ يُحِبُّنِي وَيُحِبُّ هَذَا الشَّيْخَ وَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا مِنْ الْكَرَامَاتِ، وَأَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَمُتْ، وَذَكَرَ لِي الْكَلَامَ الَّذِي أَرْسَلَهُ إلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقَرَأْهُ فَإِذَا هُوَ كَلَامُ الشَّيَاطِينِ بِعَيْنِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ لِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ اسْتَغَاثُوا بِي فَرَأَوْنِي فِي الْهَوَاءِ وَقَدْ أَتَيْتهمْ وَخَلَّصْتهمْ مِنْ تِلْكَ الشَّدَائِدِ، مِثْلَ مَنْ أَحَاطَ بِهِ النَّصَارَى الْأَرْمَنُ لِيَأْخُذُوهُ، وَآخَرُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ الْعَدُوُّ وَمَعَهُ كُتُبٌ مُلَطِّفَاتٌ مِنْ مناصحين لَوْ اطَّلَعُوا عَلَى مَا مَعَهُ لَقَتَلُوهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَذَكَرْت لَهُمْ أَنِّي مَا دَرَيْت بِمَا جَرَى أَصْلًا، وَحَلَفْت لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَظُنُّوا أَنِّي كَتَمْت ذَلِكَ كَمَا تُكْتَمُ الْكَرَامَاتُ، وَأَنَا قَدْ عَلِمْت أَنَّ الَّذِي فَعَلُوهُ لَيْسَ بِمَشْرُوعِ بَلْ هُوَ شِرْكٌ وَبِدْعَةٌ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي فِيمَا بَعْدُ وَبَيَّنْت لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ شَيَاطِينُ تَتَصَوَّرُ عَلَى صُورَةِ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ. وَحَكَى لِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الشُّيُوخِ أَنَّهُ جَرَى لِمَنْ اسْتَغَاثَ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَحَكَى خَلْقٌ كَثِيرٌ أَنَّهُمْ اسْتَغَاثُوا بِأَحْيَاءِ وَأَمْوَاتٍ فَرَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ، وَاسْتَفَاضَ هَذَا حَتَّى عُرِفَ أَنَّ هَذَا مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَالشَّيَاطِينُ تُغْوِي الْإِنْسَانَ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ أَوْقَعَتْهُ فِي الشِّرْكِ الظَّاهِرِ وَالْكُفْرِ الْمَحْضِ، فَأَمَرَتْهُ أَنْ لَا يَذْكُرَ اللَّهَ وَأَنْ يَسْجُدَ لِلشَّيْطَانِ وَيَذْبَحَ لَهُ، وَأَمَرَتْهُ أَنْ يَأْكُلَ الْمَيْتَةَ وَالدَّم وَيَفْعَلَ الْفَوَاحِشَ، وَهَذَا يَجْرِي كَثِيرًا فِي بِلَادِ الْكُفْرِ الْمَحْضِ وَبِلَادٍ فِيهَا كُفْرٌ وَإِسْلَامٌ ضَعِيفٌ، وَيَجْرِي فِي بَعْضِ مَدَائِنِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَضْعُفُ إيمَانُ أَصْحَابِهَا حَتَّى قَدْ جَرَى ذَلِكَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ عَلَى أَنْوَاعٍ يَطُولُ وَصْفُهَا، وَهُوَ فِي أَرْضِ الشَّرْقِ قَبْلَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ فِي التَّتَارِ كَثِيرٌ جِدًّا، وَكُلَّمَا ظَهَرَ فِيهِمْ الْإِسْلَامُ وَعَرَفُوا حَقِيقَتَهُ قَلَّتْ آثَارُ الشَّيَاطِينِ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا يَخْتَارُ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ أَعَانَتْهُ عَلَى الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ، وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا أَكْثَرُ مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي فِي أَهْلِهَا إسْلَامٌ وَجَاهِلِيَّةٌ وَبِرٌّ وَفُجُورٌ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ فِيهِ إسْلَامٌ وَدِيَانَةٌ وَلَكِنْ عِنْدَهُ قِلَّةُ مَعْرِفَةٍ بِحَقِيقَةِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ وَقَدْ عَرَفَ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَرَامَاتٍ، وَهُوَ لَا

يَعْرِفُ كَمَالَ الْوِلَايَةِ وَأَنَّهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى وَاتِّبَاعُ الرُّسُلِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، أَوْ يَعْرِفُ ذَلِكَ مُجْمَلًا وَلَا يَعْرِفُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ النَّفْسَانِيَّةِ والشيطانية، كَمَا أَنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْيَقَظَةِ فَيَرَاهُ فِي الْمَنَامِ، وَرُؤْيَا مِنْ الشَّيْطَانِ، فَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ. فَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ قِلَّةُ مَعْرِفَةٍ بِحَقِيقَةِ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَمَرَتْهُ الشَّيَاطِينُ بِأَمْرٍ لَا يُنْكِرُهُ، فَتَارَةً يَحْمِلُونَ أَحَدَهُمْ فِي الْهَوَاءِ وَيَقِفُونَ بِهِ بِعَرَفَاتٍ، ثُمَّ يُعِيدُونَهُ إلَى بَلَدِهِ وَهُوَ لَابِسٌ ثِيَابَهُ لَمْ يُحْرِمْ حِينَ حَاذَى الْمَوَاقِيتِ، وَلَا كَشَفَ رَأْسَهُ، وَلَا تَجَرَّدَ عَمَّا يَتَجَرَّدُ عَنْهُ الْمُحْرِمُ، وَلَا يَدْعُونَهُ بَعْدَ الْوُقُوفِ يَطُوفُ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ وَيَرْمِي الْجِمَارَ وَيُكْمِلُ حَجَّهُ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ مُجَرَّدَ الْوُقُوفِ – كَمَا فَعَلَ– عِبَادَةٌ، وَهَذَا مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ عَلِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ لَعَلِمَ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ عِبَادَةً لِلَّهِ، وَأَنَّهُ مَنْ اسْتَحَلَّ هَذَا فَهُوَ مُرْتَدٌّ يَجِبُ قَتْلُهُ، بَلْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْإِحْرَامُ عِنْدَ الْمِيقَاتِ وَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ الْمُحْرِمِ اللُّبْسُ فِي الْإِحْرَامِ إلَّا مِنْ عُذْرٍ، وَأَنَّهُ لَا يَكْتَفِي بِالْوُقُوفِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ طَوَافِ الْإِفَاضَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ وَعَلَيْهِ أَنْ يَفِيضَ إلَى الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَيَرْمِيَ جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، وَهَذَا مِمَّا تُنُوزِعَ فِيهِ هَلْ هُوَ رُكْنٌ أَوْ وَاجِبٌ يَجْبُرُهُ دَمٌ؟ وَعَلَيْهِ أَيْضًا رَمْيُ الْجِمَارِ أَيَّامَ مِنًى بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ تَحْمِلُ أَحَدَهُمْ الْجِنُّ فَتُزَوِّرُهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَغَيْرَهُ، وَتَطِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ وَتَمْشِي بِهِ فِي الْمَاءِ، وَقَدْ تُرِيهِ أَنَّهُ قَدْ ذُهِبَ بِهِ إلَى مَدِينَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَرُبَّمَا أَرَتْهُ أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا. وَهَذَا كُلُّهُ وَأَمْثَالُهُ مِمَّا أَعْرِفُهُ قَدْ وَقَعَ لِمَنْ أَعْرِفُهُ، لَكِنَّ هَذَا بَابٌ طَوِيلٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ أَصْلَ الشِّرْكِ فِي الْعَالَمِ كَانَ مِنْ عِبَادَةِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ وَعِبَادَةِ تَمَاثِيلِهِمْ، وَهُمْ الْمَقْصُودُونَ. وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ: إمَّا الشَّمْسُ وَإِمَّا الْقَمَرُ وَإِمَّا غَيْرُهُمَا، وَصَوَّرَتْ الْأَصْنَامُ طَلَاسِمَ لِتِلْكَ الْكَوَاكِبِ وَشِرْكُ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ –وَاَللَّهُ أَعْلَمُ– كَانَ مِنْ هَذَا أَوْ كَانَ بَعْضُهُ مِنْ هَذَا، وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْجِنِّ وُضِعَتْ الْأَصْنَامُ لِأَجْلِهِمْ، وَإِلَّا فَنَفْسُ الْأَصْنَامِ الْجَمَادِيَّةِ لَمْ تُعْبَدْ لِذَاتِهَا بَلْ لِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، وَشِرْكُ الْعَرَبِ كَانَ أَعْظَمُهُ الْأَوَّلَ وَكَانَ فِيهِ مِنْ الْجَمِيعِ. فَإِنَّ عَمْرَو بْنَ لحي هُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَكَانَ قَدْ أَتَى الشَّامَ وَرَآهُمْ بِالْبَلْقَاءِ لَهُمْ أَصْنَامٌ يَسْتَجْلِبُونَ بِهَا الْمَنَافِعَ وَيَدْفَعُونَ بِهَا الْمَضَارَّ، فَصُنْعُ مِثْلِ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ لَمَّا كَانَتْ خُزَاعَةُ وُلَاةَ الْبَيْتِ قَبْلَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ هُوَ سَيِّدَ خُزَاعَةَ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْت عَمْرَو بْنَ لحي بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خندف يَجُرُّ قَصَبَهُ فِي النَّارِ –أَيْ أَمْعَاءَهُ– وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ وبحر الْبَحِيرَةَ}[1] وَكَذَلِكَ –وَاَللَّهُ أَعْلَمُ– شِرْكُ قَوْمِ نُوحٍ وَإِنْ كَانَ مَبْدَؤُهُ مِنْ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ، فَالشَّيْطَانُ يَجُرُّ النَّاسَ مِنْ هَذَا إلَى غَيْرِهِ لَكِنَّ هَذَا أَقْرَبُ إلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ وَبَرَكَتَهُ وَدُعَاءَهُ، فَيَعْكُفُونَ عَلَى قَبْرِهِ وَيَقْصِدُونَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَتَارَةً يَسْأَلُونَهُ وَتَارَةً يَسْأَلُونَ اللَّهَ بِهِ وَتَارَةً يُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ عِنْدَ قَبْرِهِ ظَانِّينَ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالدُّعَاءَ عِنْدَ

(١) رواه البخاري حديث ٣٢٥٩، ومسلم ٥٠٩٦.

قَبْرِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ. وَلَمَّا كَانَ هَذَا مَبْدَأَ الشِّرْكِ سَدَّ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْبَابَ كَمَا سَدَّ بَابَ الشِّرْكِ بِالْكَوَاكِبِ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: {إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ}(١) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ ذُكِرَ لَهُ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَذُكِرَ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرُ فِيهَا فَقَالَ: {إنَّ أُولَئِكَ إذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ هُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}(٢) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: {لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا}(٣) وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَد وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: {إنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ}(٤) وَفِي سُنَنِ أَبِي داود وَغَيْرِهِ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: {لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي}(٥) وَفِي موطئ مَالِكٍ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: {اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ} وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي الهياج الأسدي قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {أَلَا أَبْعَثُك عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إلَّا سَوَّيْته وَلَا تِمْثَالًا إلَّا طَمَسْته}(٦) فَأَمَرَهُ بِمَحْوِ التِّمْثَالَيْنِ: الصُّورَةِ الْمُمَثِّلَةِ عَلَى صُورَةِ الْمَيِّتِ وَالتِّمْثَالِ الشَّاخِصِ الْمُشْرِفِ فَوْقَ قَبْرِهِ؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ يَحْصُلُ بِهَذَا وَبِهَذَا.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ فَرَأَى قَوْمًا يَنْتَابُونَ مَكَانًا لِلصَّلَاةِ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا مَكَانٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، مَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَإِلَّا فَلْيَمْضِ. وَبَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ تَحْتَهَا فَأَمَرَ بِقَطْعِهَا، وَأَرْسَلَ إلَيْهِ أَبُو مُوسَى يَذْكُرُ لَهُ أَنَّهُ ظَهَرَ بتستر قَبْرُ دَانْيَالَ وَعِنْدَهُ مُصْحَفٌ فِيهِ أَخْبَارُ مَا سَيَكُونُ، قَدْ ذُكِرَ فِيهِ أَخْبَارُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ إذَا أَجْدَبُوا كَشَفُوا عَنْ الْقَبْرِ فَمُطِرُوا، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ عُمَرُ يَأْمُرُهُ أَنْ يَحْفِرَ بِالنَّهَارِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبْرًا وَيَدْفِنُهُ بِاللَّيْلِ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا لِئَلَّا يَعْرِفَهُ النَّاسُ؛ لِئَلَّا يُفْتَنُوا بِهِ. فَاتِّخَاذُ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِنْ لَمْ يَبْنِ عَلَيْهَا مَسْجِدًا كَانَ بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا أَعْظَمَ.

---

(١) رواه مسلم حديث ٨٢٧.
(٢) رواه البخاري حديث ٤٠٩، ومسلم ٨٢٢.
(٣) رواه البخاري حديث ٤٠٨٧.
(٤) رواه أبو داود حديث ٤١٦٠ وحسنه الألباني في أحكام الجنائز.
(٥) صححه الألباني في أحكام الجنائز برقم ١٠.
(٦) رواه مسلم حديث ١٦٠٩.

كَذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَحْرُمُ بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَيَجِبُ هَدْمُ كُلِّ مَسْجِدٍ بُنِيَ عَلَى قَبْرٍ، وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ قَدْ قُبِرَ فِي مَسْجِدٍ وَقَدْ طَالَ مُكْثُهُ سَوَّى الْقَبْرَ حَتَّى لَا تَظْهَرَ صُورَتُهُ، فَإِنَّ الشِّرْكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ إِذَا ظَهَرَتْ صُورَتُهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلًا مَقْبَرَةً لِلْمُشْرِكِينَ وَفِيهَا نَخْلٌ وَخَرِبٌ، فَأَمَرَ بِالْقُبُورِ فَنُبِشَتْ وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ وَبِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، فَخَرَجَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَقْبَرَةً فَصَارَ مَسْجِدًا. وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ وَبِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا مُحَرَّمًا، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ قَطُّ مَسْجِدٌ عَلَى قَبْرٍ، وَكَانَ الْخَلِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي دُفِنَ فِيهَا وَهِيَ مَسْدُودَةٌ لَا أَحَدَ يَدْخُلُ إِلَيْهَا وَلَا تَشُدُّ الصَّحَابَةُ الرِّحَالَ لَا إِلَيْهِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ الْمَقَابِرِ؛ لِأَنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذَا}(١) فَكَانَ يَأْتِي مَنْ يَأْتِي مِنْهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى يُصَلُّونَ فِيهِ ثُمَّ يَرْجِعُونَ لَا يَأْتُونَ مَغَارَةَ الْخَلِيلِ وَلَا غَيْرَهَا، وَكَانَتْ مَغَارَةُ الْخَلِيلِ مَسْدُودَةً حَتَّى اسْتَوْلَى النَّصَارَى عَلَى الشَّامِ فِي أَوَاخِرَ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَفَتَحُوا الْبَابَ وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْمَكَانَ كَنِيسَةً، ثُمَّ لَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ الْبِلَادَ اتَّخَذَهُ بَعْضُ النَّاسِ مَسْجِدًا وَأَهْلُ الْعِلْمِ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ... وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ مِنْ الصَّحَابَةِ مَنْ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ، وَقَدِمَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا فَتَحَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَبَعْدَ فَتْحِ الشَّامِ لَمَّا صَالَحَ النَّصَارَى عَلَى الْجِزْيَةِ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ الشُّرُوطَ الْمَعْرُوفَةَ، وَقَدِمَهَا مَرَّةً ثَالِثَةً حَتَّى وَصَلَ إِلَى سرغ وَمَعَهُ أَكَابِرُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَلَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَغَارَةِ الْخَلِيلِ وَلَا غَيْرِهَا مِنْ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي بِالشَّامِ لَا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَا بِدِمَشْقَ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، مِثْلَ الْآثَارِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي بِجَبَلِ قاسيون فِي غَرْبِيِّهِ الرَّبْوَةُ الْمُضَافَةُ إِلَى عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَفِي شَرْقِيِّهِ الْمَقَامُ الْمُضَافُ إِلَى الْخَلِيلِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَفِي وَسَطِهِ وَأَعْلَاهُ مَغَارَةُ الدَّمِ الْمُضَافَةُ إِلَى هَابِيلَ لَمَّا قَتَلَهُ قَابِيلُ، فَهَذِهِ الْبِقَاعُ وَأَمْثَالُهَا لَمْ يَكُنْ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ يَقْصِدُونَهَا وَلَا يَزُورُونَهَا وَلَا يَرْجُونَ مِنْهَا بَرَكَةً فَإِنَّهَا مَحَلُّ الشِّرْكِ.

وَلِهَذَا تُوجَدُ فِيهَا الشَّيَاطِينُ كَثِيرًا وَقَدْ رَآهُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ رِجَالُ الْغَيْبِ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ رِجَالٌ مِنْ الْإِنْسِ غَائِبِينَ عَنْ الْأَبْصَارِ، وَإِنَّمَا هُمْ جِنٌّ وَالْجِنُّ يُسَمَّوْنَ رِجَالًا. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(٢)

الرد على من يجيز التداوي بالعزائم الشيطانية:

قال شيخ الإسلام: وَالشَّيْطَانُ إذَا عَرَفَ أَنَّ صَاحِبَهُ مُسْتَخِفٌّ بِالْعَزَائِمِ لَمْ يُسَاعِدْهُ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمُكْرَهَ مُضْطَرٌّ إِلَى التَّكَلُّمِ بِهِ وَلَا ضَرُورَةَ إِلَى إِبْرَاءِ الْمُصَابِ بِهِ لِوَجْهَيْنِ:

---

(١) رواه البخاري حديث ١١١٥، ومسلم ٢٤٧٥.

(٢) الجن: الآية ٦.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ قَدْ لَا يُؤَثِّرُ أَكْثَرَ مِمَّا يُؤَثِّرُ مَنْ يُعَالِجُ بِالْعَزَائِمِ فَلَا يُؤَثِّرُ بَلْ يَزِيدُهُ شَرًّا. وَالثَّانِي: أَنَّ فِي الْحَقِّ مَا يُغْنِي عَنْ الْبَاطِلِ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: قَوْمٌ يُكَذِّبُونَ بِدُخُولِ الْجِنِّيِّ فِي الْإِنْسِ. وَقَوْمٌ يَدْفَعُونَ ذَلِكَ بِالْعَزَائِمِ الْمَذْمُومَةِ، فَهَؤُلَاءِ يُكَذِّبُونَ بِالْمَوْجُودِ وَهَؤُلَاءِ يَعْصُونَ بَلْ يَكْفُرُونَ بِالْمَعْبُودِ. وَالْأُمَّةُ الْوَسَطُ تُصَدِّقُ بِالْحَقِّ الْمَوْجُودِ وَتُؤْمِنُ بِالْإِلَهِ الْوَاحِدِ الْمَعْبُودِ وَبِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَذِكْرِهِ وَأَسْمَائِهِ وَكَلَامِهِ، فَتَدْفَعُ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

نقول: ولذلك فإذا حقق العبد توحيد ربه دفع شياطين الإنس والجن، وأما من انحرف عن التوحيد فإنه يتعلق بأضعف الناس وأقلهم عقلاً، حتى إنك لتجد أحداً ممن يدعى الولاية يتعلق بمغفل أو من لا عقل له وقد ألبسه الثياب المخرقة الممزقة القذرة وهو يعتقد أنه يخبر بالغيب وأنّ الله يوحي إليه، بل يقول عن هذه الثياب الممزقة: إنّ هذا إنما هو من آثار الشرف، وقد ذكر شيخ الإسلام أنّ هؤلاء قد يلقي الشيطان على ألسنتهم أشياء يضل بها العباد.

وَأَمَّا سُؤَالُ الْجِنِّ وَسُؤَالُ مَنْ يَسْأَلُهُمْ فَهَذَا إنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّصْدِيقِ لَهُمْ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ وَالتَّعْظِيمِ لِلْمَسْئُولِ فَهُوَ حَرَامٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي قَالَ: {قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ كُنَّا نَأْتِي الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ} وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنْ صَفِيَّةَ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا} وَأَمَّا إنْ كَانَ يَسْأَلُ الْمَسْئُولَ لِيَمْتَحِنَ حَالَهُ وَيَخْتَبِرَ بَاطِنَ أَمْرِهِ وَعِنْدَهُ مَا يُمَيِّزُ بِهِ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ فَهَذَا جَائِزٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ ابْنَ صَيَّادٍ فَقَالَ: مَا يَأْتِيك؟ فَقَالَ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. قَالَ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ خَبَّأْت لَك خَبِيئًا. قَالَ: الدُّخّ الدُّخّ.. قَالَ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَك فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّان}[(١)] وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَهُ وَيُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ الْجِنِّ، كَمَا يَسْمَعُ الْمُسْلِمُونَ مَا يَقُولُ الْكُفَّارُ وَالْفُجَّارُ لِيَعْرِفُوا مَا عِنْدَهُمْ فَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَكَمَا يُسْمَعُ خَبَرُ الْفَاسِقِ وَيُتَبَيَّنُ وَيُتَثَبَّتُ، فَلَا يُجْزَمُ بِصِدْقِهِ وَلَا كَذِبِهِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[(٢)] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: {أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكَذِّبُوهُ وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنَا وَأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[(٣)]}[(١)] فَقَدْ جَازَ لِلْمُسْلِمِينَ سَمَاعُ مَا يَقُولُونَهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ وَلَمْ يُكَذِّبُوهُ.

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.
(٢) الحجران: كم الآية ٦.
(٣) العنكبوت: الآية ٤٦.

وسُئِلَ[٢] -رَحِمَهُ اللَّهُ- هَلْ الشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ يُنْكِرُ مَا تَفْعَلُهُ الشَّيَاطِينُ الجانة مِنْ مَسِّهَا وتخبيطها وَجَوَلَانِ بَوَارِقِهَا عَلَى بَنِي آدَمَ وَاعْتِرَاضِهَا؟ فَهَلْ لِذَلِكَ مُعَالَجَةٌ بِالْمُخَرَّقَاتِ وَالْأَحْرَازِ وَالْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ وَالرُّقَى وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالتَّمَائِمِ؟ وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَالَ: لَا يُحْكِمُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْجِنَّ يَرْجِعُونَ إلَى الْحَقَائِقِ عِنْدَ عَامِرَةِ الْأَجْسَادِ بِالْبَوَارِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْخَوَاتِمَ الْمُتَّخَذَةَ مَعَ كُلِّ إنْسَانٍ مِنْ سُرْيَانِيٍّ وَعِبْرَانِيٍّ وَعَجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ لَيْسَ لَهَا بُرْهَانٌ، وَأَنَّهَا مِنْ مُخْتَلَقِ الْأَقَاوِيلِ وَخُرَافَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ الْقُوَّةِ وَلَا مِنْ الْقَبْضِ بِحَيْثُ يَفْعَلُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ مُتَوَلِّي هَذَا الشَّأْنِ عَلَى مَمَرِّ الدُّهُورِ وَالْأَوْقَاتِ؟

رحم الله شيخ الإسلام، فإن المتأمل في سؤال السائل يجد أنّ شيخ الإسلام يعرف مصطلحات وأسرار الكهّان والسحرة، لذا سألوه عن العزائم وعن الخواتيم، والخواتيم المرادة في سؤال السائل ليست بالخواتيم التي تلبس، ولكن تلك المربعات والمثلثات التي يكتب السحرة في داخلها، ويكتبون حولها ومعها بعض الطلاسم والحروف والأرقام.

وقد ذكر رحمه الله السحرة السيمياويين، وكل هذا معروف بين السحرة والكهان وموجود في كتب الكهانة والسحر.

الْجَوَابُ

وَأَمَّا مُعَالَجَةُ الْمَصْرُوعِ بِالرُّقَى وَالتَّعَوُّذَاتِ فَهَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

١- فَإِنْ كَانَتْ الرُّقَى وَالتَّعَاوِيذُ مِمَّا يُعْرَفُ مَعْنَاهَا وَمِمَّا يَجُوزُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَا الرَّجُلُ دَاعِيًا اللَّهَ ذَاكِرًا لَهُ وَمُخَاطِبًا لِخَلْقِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُرْقَى بِهَا الْمَصْرُوعُ وَيُعَوَّذَ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَذِنَ فِي الرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا. وَقَالَ: {مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ}.

٢- وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ كَلِمَاتٌ مُحَرَّمَةٌ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا شِرْكٌ أَوْ كَانَتْ مَجْهُولَةَ الْمَعْنَى يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا كُفْرٌ، فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَرْقِيَ بِهَا وَلَا يُعَزِّمَ وَلَا يُقْسِمَ، وَإِنْ كَانَ الْجِنِّيُّ قَدْ يَنْصَرِفُ عَنْ الْمَصْرُوعِ بِهَا فَإِنَّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ضَرَرُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ كَالسِّيمَا وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، فَإِنَّ السَّاحِرَ السيماوي وَإِنْ كَانَ يَنَالُ بِذَلِكَ بَعْضَ أَغْرَاضِهِ كَمَا يَنَالُ السَّارِقُ بِالسَّرِقَةِ بَعْضَ أَغْرَاضِهِ، وَكَمَا يَنَالُ الْكَاذِبُ بِكَذِبِهِ وَبِالْخِيَانَةِ بَعْضَ أَغْرَاضِهِ، وَكَمَا يَنَالُ الْمُشْرِكُ بِشِرْكِهِ وَكُفْرِهِ بَعْضَ أَغْرَاضِهِ. وَهَؤُلَاءِ وَإِنْ نَالُوا بَعْضَ أَغْرَاضِهِمْ بِهَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ فَإِنَّهَا تَعْقُبُهُمْ مِنْ الضَّرَرِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَعْظَمَ مِمَّا حَصَّلُوهُ مِنْ أَغْرَاضِهِمْ. فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ الرُّسُلَ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ

---

(١) رواه البخاري حديث ٦٨١٤.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٥/ ص٤٤٥)

فَمَصْلَحَتُهُ رَاجِحَةٌ عَلَى مَفْسَدَتِهِ وَمَنْفَعَتُهُ رَاجِحَةٌ عَلَى الْمَضَرَّةِ وَإِنْ كَرِهَتْهُ النُّفُوسُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1] الْآيَةَ. فَأَمَرَ بِالْجِهَادِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ لِلنُّفُوسِ لَكِنَّ مَصْلَحَتَهُ وَمَنْفَعَتَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنْ أَلَمِهِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَشْرَبُ الدَّوَاءَ الْكَرِيهَ لِتَحْصُلَ لَهُ الْعَافِيَةُ، فَإِنَّ مَصْلَحَةَ حُصُولِ الْعَافِيَةِ لَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى أَلَمِ شُرْبِ الدَّوَاءِ، وَكَذَلِكَ التَّاجِرُ الَّذِي يَتَغَرَّبُ عَنْ وَطَنِهِ وَيَسْهَرُ وَيَخَافُ وَيَتَحَمَّلُ هَذِهِ الْمَكْرُوهَاتِ مَصْلَحَةُ الرِّبْحِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ رَاجِحَةٌ عَلَى هَذِهِ الْمَكَارِهِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ}

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ السَّاحِرِ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[2] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[3] إلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاحِرَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ بَعْضَ أَغْرَاضِهِمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[4] آمَنُوا وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، لَكَانَ مَا يَأْتِيهِمْ بِهِ عَلَى ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَحْصُلُ لَهُمْ بِالسِّحْرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[5] وَقَالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[6] وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[7] الْآيَتَيْنِ. وَقَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾[8]

وَالْأَحَادِيثُ فِيمَا يُثِيبُ اللَّهُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَدْفَعَ كُلَّ ضَرَرٍ بِمَا شَاءَ، وَلَا يَجْلِبُ كُلَّ نَفْعٍ بِمَا شَاءَ، بَلْ لَا يَجْلِبُ النَّفْعَ إلَّا بِمَا فِيهِ تَقْوَى اللَّهِ، وَلَا يَدْفَعُ الضَّرَرَ إلَّا بِمَا فِيهِ تَقْوَى اللَّهِ، فَإِنْ كَانَ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ الْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ وَالدُّعَاءِ وَالْخَلْوَةِ وَالسَّهَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ لَمْ يَفْعَلْهُ.

فَمَنْ كَذَّبَ بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ مِنْ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَالسِّحْرِ وَمَا يَأْتُونَ بِهِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، كَدُعَاءِ الْكَوَاكِبِ، وَتَخْرِيجِ الْقُوَى الْفَعَّالَةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالْقُوَى الْمُنْفَعِلَةِ الْأَرْضِيَّةِ، وَمَا يَنْزِلُ مِنْ الشَّيَاطِينِ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، فَالشَّيَاطِينُ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ وَيُسَمُّونَهَا رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَأَنْكَرُوا دُخُولَ الْجِنِّ فِي أَبْدَانِ

---

(١) البقرة: الآية ٢١٦.
(٢) طه: الآية ٦٩.
(٣) البقرة: من الآية ١٠٢.
(٤) البقرة: الآية ١٠٣.
(٥) غافر: الآية ٥١.
(٦) النحل: الآية ٩٧.
(٧) النحل: الآية ٤١.
(٨) البقرة: الآية ٢٠٢.

الْإِنْسِ، وَحُضُورَهَا بِمَا يَسْتَحْضِرُونَ بِهِ مِنْ الْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ، فَقَدْ كَذَّبَ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا.

وَمَنْ جَوَّزَ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ بِمَا رَآهُ مُؤَثِّرًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزِنَ ذَلِكَ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، فَيَفْعَلُ مَا أَبَاحَهُ اللَّهُ وَيَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إمَّا مِنْ الْكُفْرِ وَإِمَّا مِنْ الْفُسُوقِ وَإِمَّا الْعِصْيَانِ، بَلْ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَيَتْرُكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ.

وَمِمَّا شَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ التَّعَوُّذِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ إذَا أَوَى إلَى فِرَاشِهِ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَمْ يَقْرَبْهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ} وَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: {أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ}(١) وَلَمَّا جَاءَتْهُ الشَّيَاطِينُ بِلَهَبٍ مِنْ نَارٍ أَمَرَ بِهَذَا التَّعَوُّذِ: {أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِنْ، شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمِنْ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ}(٢) فَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنْ الْأَذْكَارِ وَالدَّعَوَاتِ الَّتِي يَقُولُهَا الْعَبْدُ إذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى وَإِذَا نَامَ وَإِذَا خَافَ شَيْئًا وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ، فَمَنْ سَلَكَ مِثْلَ هَذِهِ السَّبِيلِ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ أَوْلِيَاءِ اللهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَمَنْ دَخَلَ فِي سَبِيلِ أَهْلِ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الدَّاخِلَةِ فِي الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَبِذَلِكَ ذَمَّ اللهُ مَنْ ذَمَّهُ مِنْ مُبَدِّلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ. حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى﴾(٣) إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

مخاطبة شيخ الإسلام للجن:

وَقَالَ أَيْضًا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَصْلٌ: وَأَمَّا كَوْنُهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ كَيْفِيَّةُ الْجِنِّ وَمَقَالَتُهُمْ بِعَدَمِ عِلْمِهِ لَمْ يُنْكَرْ وُجُودُهُمْ؛ إذْ وُجُودُهُمْ ثَابِتٌ بِطُرُقٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ دَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ رَآهُمْ وَفِيهِمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَآهُمْ، وَثَبَتَ ذَلِكَ عِنْدَهُ بِالْخَبَرِ وَالْيَقِينِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ كَلَّمَهُمْ وَكَلَّمُوهُ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَيَتَصَرَّفُ فِيهِمْ. وَهَذَا يَكُونُ لِصَالِحِينَ وَغَيْرِ صَالِحِينَ، وَلَوْ ذَكَرْت مَا جَرَى لِي وَلِأَصْحَابِي مَعَهُمْ لَطَالَ الْخِطَابُ وَكَذَلِكَ مَا جَرَى لِغَيْرِنَا، لَكِنَّ الِاعْتِمَادَ فِي الْأَجْوِبَةِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى مَا يَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي عِلْمِهِ لَا يَكُونُ بِمَا يَخْتَصُّ بِعِلْمِهِ الْمُجِيبُ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ لِمَنْ يُصَدِّقُهُ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ.(٤)

---

(١) رواه الترمذي حديث ٣٤٥١، وهو في السلسلة الصحيحة رقم ٢٦٤.
(٢) رواه أحمد في المسند ١٤٩١٤، وهو في السلسلة الصحيحة رقم ٨٤٠.
(٣) البقرة: الآية ١٠١.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٥ ص٤٤٦)

سؤال حول اسماء الجن:

وَسُئِلَ عَمَّنْ يَقُولُ: يَا أَزِرَّانِ، يَا كِيَان، هَلْ صَحَّ أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءٌ وَرَدَتْ بِهَا السُّنَّةُ لَمْ يَحْرُمْ قَوْلُهَا؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. لَمْ يَنْقُلْ هَذِهِ عَنْ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ، لَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَلَا بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ وَلَا سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا أَئِمَّتِهَا. وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَا مَعْنَى لَهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فَكُلُّ اسْمٍ مَجْهُولٍ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَرْقِيَ بِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ، وَلَوْ عَرَفَ مَعْنَاهَا وَأَنَّهُ صَحِيحٌ لَكُرِهَ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ بِغَيْرِ الْأَسْمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ.[١]

وَالْجِنُّ مُكَلَّفُونَ كَتَكْلِيفِ الْإِنْسِ وَمُحَمَّدٌ ﷺ مُرْسَلٌ إلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَكُفَّارِ الْجِنِّ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِالنُّصُوصِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَّا مُؤْمِنُوهُمْ فَفِيهِمْ قَوْلَانِ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ يُثَابُونَ أَيْضًا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي رَبْضِهَا يَرَاهُمْ الْإِنْسُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَ الْإِنْسَ، عَكْسُ الْحَالِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ حَدِيثٌ رَوَاهُ الطبراني فِي مُعْجَمِهِ الصَّغِيرِ يَحْتَاجُ إلَى النَّظَرِ فِي إسْنَادِهِ. وَقَدْ احْتَجَّ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَأَبُو يُوسُفَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[٢] وَقَدْ ذُكِرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ: الْأَبْرَارُ وَالْفُجَّارُ فِي الْأَحْقَافِ وَالْأَنْعَامِ، وَاحْتَجَّ الأوزاعي وَغَيْرُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[٣] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[٤] وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ هَذَا ذِكْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾[٥] ثُمَّ قَالَ : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٦] قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: دَرَجَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَذْهَبُ عُلُوًّا، وَدَرَجَاتُ أَهْلِ النَّارِ تَذْهَبُ سُفْلًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ: ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[٧] وَقَالُوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[٨] فَفِيهِمْ الْكُفَّارُ وَالْفُسَّاقُ وَالْعُصَاةُ، وَفِيهِمْ مَنْ فِيهِ عِبَادَةٌ وَدِينٌ بِنَوْعٍ مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ كَمَا فِي الْإِنْسِ، وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْ الْجِنِّ يَمِيلُ إلَى نَظِيرِهِ مِنْ الْإِنْسِ، فَالْيَهُودُ مَعَ الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى مَعَ النَّصَارَى، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْفُسَّاقُ مَعَ الْفُسَّاقِ، وَأَهْلُ الْجَهْلِ وَالْبِدَعِ مَعَ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالْبِدَعِ.[٩]

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٥/ ص٤٤٧)
(٢) الأنعام: من الآية ١٣٢.
(٣) الرحمن: الآية ٥٦.
(٤) الأحقاف: الآية ١٨.
(٥) الأحقاف: الآية ٣٨.
(٦) الأحقاف: الآية ١٩.
(٧) الجن: الآية ١١.
(٨) الجن: الآية ١٤.
(٩) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص١٥٦)

وَاسْتِخْدَامُ الْإِنْسِ لَهُمْ مِثْلُ اسْتِخْدَامِ الْإِنْسِ لِلْإِنْسِ بِشَيْءٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَخْدِمُهُمْ فِي الْمُحَرَّمَاتِ مِنْ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالشِّرْكِ، وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَقَدْ يَظُنُّونَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَفْعَالِ الشَّيَاطِينِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَخْدِمُهُمْ فِي أُمُورٍ مُبَاحَةٍ إمَّا إحْضَارِ مَالِهِ، أَوْ دَلَالَةٍ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ مَالٌ لَيْسَ لَهُ مَالِكٌ مَعْصُومٌ، أَوْ دَفْعِ مَنْ يُؤْذِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا كَاسْتِعَانَةِ الْإِنْسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ. والنَّوْعُ الثَّالِثُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا يُسْتَعْمَلُ الْإِنْسُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، فَيَأْمُرَهُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَمَا يَأْمُرُ الْإِنْسَ وَيَنْهَاهُمْ، وَهَذِهِ حَالُ نَبِيِّنَا ﷺ وَحَالُ مَنْ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ فَإِنَّهُمْ يَأْمُرُونَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ بِمَا أَمَرَهُمْ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَيَنْهَوْنَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَمَّا نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ؛ إذْ كَانَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مَبْعُوثًا بِذَلِكَ إلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١) وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢) وَعُمَرُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– لَمَّا نَادَى يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ قَالَ: إنَّ لِلَّهِ جُنُودًا يُبَلِّغُونَ صَوْتِي. وَجُنُودُ اللَّهِ هُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمِنْ صَالِحِي الْجِنِّ، فَجُنُودُ اللَّهِ بَلَّغُوا صَوْتَ عُمَرَ إلَى سَارِيَةَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ نَادَوْهُ بِمِثْلِ صَوْتِ عُمَرَ، وَإِلَّا نَفْسُ صَوْتِ عُمَرَ لَا يَصِلُ نَفْسُهُ فِي هَذِهِ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ، وَهَذَا كَالرَّجُلِ يَدْعُو آخَرَ وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْهُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، فَيُعَانُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَهُمَا: يَا فُلَانُ، وَقَدْ يَقُولُ لِمَنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْهُ: يَا فُلَانُ احْبِسْ الْمَاءَ تَعَالَ إلَيْنَا، وَهُوَ لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيُنَادِيهِ الْوَاسِطَةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ: يَا فُلَانُ، احْبِسْ الْمَاءَ أَرْسِلْ الْمَاءَ؛ إمَّا بِمِثْلِ صَوْتِ الْأَوَّلِ إنْ كَانَ لَا يَقْبَلُ إلَّا صَوْتَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَضُرُّ بِأَيِّ صَوْتٍ كَانَ إذَا عَرَفَ أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ نَادَاهُ.

وَهَذِهِ حِكَايَةٌ: كَانَ عُمَرُ مَرَّةً قَدْ أَرْسَلَ جَيْشًا فَجَاءَ شَخْصٌ وَأَخْبَرَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِانْتِصَارِ الْجَيْشِ وَشَاعَ الْخَبَرُ، فَقَالَ عُمَرُ: مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا؟ قَالُوا شَخْصٌ صِفَتُهُ كَيْتَ وَكَيْتَ فَأَخْبَرَنَا، فَقَالَ عُمَرُ: ذَاكَ أَبُو الْهَيْثَمِ بَرِيدُ الْجِنِّ، وَسَيَجِيءُ بَرِيدُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ. وَقَدْ يَأْمُرُ الْمَلِكُ بَعْضَ النَّاسِ بِأَمْرٍ وَيَسْتَكْتِمُهُ إيَّاهُ، فَيَخْرُجُ فَيَرَى النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ بِهِ، فَإِنَّ الْجِنَّ تَسْمَعُهُ وَتُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ، وَالَّذِينَ يَسْتَخْدِمُونَ الْجِنَّ فِي الْمُبَاحَاتِ يُشْبِهُ اسْتِخْدَامَ سُلَيْمَانَ لَكِنْ أُعْطِيَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَهُ، وَسُخِّرَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَهَذَا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا تَفَلَّتَ عَلَيْهِ الْعِفْرِيتُ لِيَقْطَعَ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ قَالَ: {فَأَخَذْته فذعته حَتَّى سَالَ لُعَابُهُ عَلَى يَدِي، وَأَرَدْت أَنْ أَرْبِطَهُ إلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ ذَكَرْت دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ فَأَرْسَلْته}(٣) فَلَمْ يَسْتَخْدِمْ الْجِنَّ أَصْلًا، لَكِنْ دَعَاهُمْ إلَى الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ وَبَلَّغَهُمْ الرِّسَالَةَ وَبَايَعَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِالْإِنْسِ. وَالَّذِي أُوتِيَهُ ﷺ أَعْظَمُ مِمَّا أُوتِيَهُ سُلَيْمَانُ؛ فَإِنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ فِي

---

(١) يوسف: الآية ١٠٨.
(٢) آل عمران: الآية ٣١.
(٣) سبق تخريجه وهو صحيح.

عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا لِغَرَضٍ يَرْجِعُ إلَيْهِ إلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا عَلَى أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا، فداود وَسُلَيْمَانُ وَيُوسُفُ أَنْبِيَاءُ مُلُوكٌ، وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ رُسُلٌ عَبِيدٌ، فَهُوَ أَفْضَلُ كَفَضْلِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ عَلَى الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَرَى هَذِهِ الْعَجَائِبَ الْخَارِقَةَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْعِلْمِ لَمْ يَعْرِفُوا الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْآيَاتِ الْخَارِقَةِ، وَمَا لِأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ، وَالْكُفَّارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ مِنْ الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ، فَجَعَلُوا الْخَوَارِقَ جِنْسًا وَاحِدًا وَقَالُوا: كُلُّهَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مُعْجِزَةً إذَا اقْتَرَنَتْ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا وَالتَّحَدِّي بِمِثْلِهَا.(١)

فَصْلٌ: وَإِذَا كَانَ الْجِنُّ أَحْيَاءً عُقَلَاءَ مَأْمُورِينَ مَنْهِيِّينَ لَهُمْ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ، وَقَدْ أُرْسِلَ إلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِيهِمْ مَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي الْإِنْسِ: مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ، كَمَا شَرَعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَكَمَا دَعَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَيُعَامِلُهُمْ إذَا اعْتَدَوْا بِمَا يُعَامِلُ بِهِ الْمُعْتَدُونَ، فَيَدْفَعُ صَوْلَهُمْ بِمَا يَدْفَعُ صَوْلَ الْإِنْسِ.(٢)

أسباب صرع الجني للإنسي:

وَصَرْعُهُمْ لِلْإِنْسِ قَدْ يَكُونُ:

١- عَنْ شَهْوَةٍ وَهَوًى وَعِشْقٍ كَمَا يَتَّفِقُ لِلْإِنْسِ مَعَ الْإِنْسِ، وَقَدْ يَتَنَاكَحُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَيُولَدُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، وَهَذَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَكَرِهَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ مُنَاكَحَةَ الْجِنِّ.

٢- وَقَدْ يَكُونُ -وَهُوَ كَثِيرٌ أَوْ الْأَكْثَرُ- عَنْ بُغْضٍ وَمُجَازَاةٍ مِثْلَ أَنْ يُؤْذِيَهُمْ بَعْضُ الْإِنْسِ، أَوْ يَظُنُّوا أَنَّهُمْ يَتَعَمَّدُوا أَذَاهُمْ: إمَّا بِبَوْلٍ عَلَى بَعْضِهِمْ، وَإِمَّا بِصَبِّ مَاءٍ حَارٍّ، وَإِمَّا بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ، وَفِي الْجِنِّ جَهْلٌ وَظُلْمٌ فَيُعَاقِبُونَهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّهُ.

٣- وَقَدْ يَكُونُ عَنْ عَبَثٍ مِنْهُمْ وَشَرٍّ بِمِثْلِ سُفَهَاءِ الْإِنْسِ.

وَحِينَئِذٍ فَمَا كَانَ مِنْ الْبَابِ الْأَوَّلِ فَهُوَ مِنْ الْفَوَاحِشِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى كَمَا حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْإِنْسِ وَإِنْ كَانَ بِرِضَا الْآخَرِ، فَكَيْفَ إذَا كَانَ مَعَ كَرَاهَتِهِ فَإِنَّهُ فَاحِشَةٌ وَظُلْمٌ؟ فَيُخَاطِبُ الْجِنَّ بِذَلِكَ وَيَعْرِفُونَ أَنَّ هَذَا فَاحِشَةٌ مُحَرَّمَةٌ أَوْ فَاحِشَةٌ وَعُدْوَانٌ؛ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. وَمَا كَانَ مِنْ الْقِسْمِ الثَّانِي فَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ لَمْ يَعْلَمْ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ١٥٧)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص١٨٤)

فَيُخَاطَبُونَ بِأَنَّ هَذَا لَمْ يُعْلَمْ وَمَنْ لَمْ يَتَعَمَّدْ الْأَذَى لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي دَارِهِ وَمِلْكِهِ عَرَفُوا بِأَنَّ الدَّارَ مِلْكُهُ فَلَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا بِمَا يَجُوزُ، وَأَنْتُمْ لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَمْكُثُوا فِي مِلْكِ الْإِنْسِ بِغَيْرِ إذْنِهِمْ، بَلْ لَكُمْ مَا لَيْسَ مِنْ مَسَاكِنِ الْإِنْسِ كَالْخَرَابِ وَالْفَلَوَاتِ.

وهذا كثير يأتي أحد شاكياً من وجود الجن ومن أذاهم في البيوت، فننصحهم بنصيحة شيخ الإسلام أن ينذروهم ويخوفوهم ويذكروهم بالله، ثم قراءة سورة البقرة، وفى الغالب يسلمون من الأذى بفضل الله تعالى.

وَلِهَذَا يُوجَدُونَ كَثِيرًا فِي الْخَرَابِ وَالْفَلَوَاتِ، وَيُوجَدُونَ فِي مَوَاضِعِ النَّجَاسَاتِ كَالْحَمَّامَاتِ وَالْحُشُوشِ وَالْمَزَابِلِ والقمامين وَالْمَقَابِرِ، وَالشُّيُوخُ الَّذِينَ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ وَتَكُونُ أَحْوَالُهُمْ شَيْطَانِيَّةً لَا رَحْمَانِيَّةً يَأْوُونَ كَثِيرًا إلَى هَذِهِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي هِيَ مَأْوَى الشَّيَاطِينِ، وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ بِالنَّهْيِ عَنْ الصَّلَاةِ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا مَأْوَى الشَّيَاطِينِ، وَالْفُقَهَاءُ مِنْهُمْ مَنْ عَلَّلَ النَّهْيَ بِكَوْنِهَا مَظِنَّةَ النَّجَاسَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّهُ تَعَبُّدٌ لَا يُعْقَلُ مَعْنَاهُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي الْحَمَّامِ وَأَعْطَانِ الْإِبِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَنَّهَا مَأْوَى الشَّيَاطِينِ، وَفِي الْمَقْبَرَةِ أَنَّ ذَلِكَ ذَرِيعَةٌ إلَى الشِّرْكِ مَعَ أَنَّ الْمَقَابِرَ تَكُونُ أَيْضًا مَأْوًى لِلشَّيَاطِينِ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ الَّذِينَ فِيهِمْ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، وَلَهُمْ أَحْيَانًا مُكَاشَفَاتٌ وَلَهُمْ تَأْثِيرَاتٌ يَأْوُونَ كَثِيرًا إلَى مَوَاضِعِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِيهَا؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ بِهَا، وَتُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ كَمَا تُخَاطِبُ الْكُهَّانَ، وَكَمَا كَانَتْ تَدْخُلُ فِي الْأَصْنَامِ وَتُكَلِّمُ عَابِدِي الْأَصْنَامِ وَتُعِينُهُمْ فِي بَعْضِ الْمَطَالِبِ، كَمَا تُعِينُ السَّحَرَةَ وَكَمَا تُعِينُ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ وَعُبَّادَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، إذَا عَبَدُوهَا بِالْعِبَادَاتِ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُنَاسِبُهَا مِنْ تَسْبِيحٍ لَهَا وَلِبَاسٍ وَبَخُورٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وبفضل الله احتسبت على أقوام يتقرّبون بمثل هذا، فقد قبضنا على من يتقرب للشياطين بلبس ثياب معينة وبألوان معينة، ويتبخرون ببخور مخصوص في وقت مخصوص، مع أذكار يستغيثون فيها بالشياطين، ويقولون إنما نصنع ذلك من أجل الروحانيين، ونحن نتقرب إلى روحانيين يتنزلّون علينا، ليقضوا بعض الحوائج، ويعالجون بعض المرضى.

فَإِنَّهُ قَدْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ شَيَاطِينُ يُسَمُّونَهَا رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَقَدْ تَقْضِي بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ: إمَّا قَتْلَ بَعْضِ أَعْدَائِهِمْ أَوْ إمْرَاضَهُ وَإِمَّا جَلْبَ بَعْضِ مَنْ يَهْوُونَهُ وَإِمَّا إحْضَارَ بَعْضِ الْمَالِ، وَلَكِنَّ الضَّرَرَ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ النَّفْعِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَضْعَافَ أَضْعَافِ النَّفْعِ. وَالَّذِينَ يَسْتَخْدِمُونَ الْجِنَّ بِهَذِهِ الْأُمُورِ يَزْعُمُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ يَسْتَخْدِمُ الْجِنَّ بِهَا؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا مَاتَ كَتَبَتْ الشَّيَاطِينُ كُتُبَ سِحْرٍ وَكُفْرٍ، وَجَعَلَتْهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ وَقَالُوا: كَانَ سُلَيْمَانُ يَسْتَخْدِمُ الْجِنَّ بِهَذِهِ، فَطَعَنَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي سُلَيْمَانَ بِهَذَا. وَآخَرُونَ قَالُوا: لَوْلَا أَنَّ هَذَا حَقٌّ جَائِزٌ لَمَا فَعَلَهُ سُلَيْمَانُ؛ فَضَلَّ الْفَرِيقَانِ هَؤُلَاءِ بِقَدْحِهِمْ فِي سُلَيْمَانَ، وَهَؤُلَاءِ بِاتِّبَاعِهِمْ السِّحْرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾(١) إلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٢) بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ؛ إذْ كَانَ النَّفْعُ هُوَ الْخَيْرَ الْخَالِصَ أَوْ الرَّاجِحَ، وَالضَّرَرُ هُوَ الشَّرُّ الْخَالِصُ أَوْ الرَّاجِحُ، وَشَرُّ هَذَا إمَّا خَالِصٌ وَإِمَّا رَاجِحٌ. وَالْمَقْصُودُ أَنْ الْجِنَّ إذَا اعْتَدَوْا عَلَى الْإِنْسِ أُخْبِرُوا بِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأُقِيمَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ، وَأُمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنُهُوا عَنْ الْمُنْكَرِ كَمَا يُفْعَلُ بِالْإِنْسِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(٤) وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِ حَيَّاتِ الْبُيُوتِ حَتَّى تُؤْذَنَ ثَلَاثًا، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {إنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ قَدْ أَسْلَمُوا فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ}(٥) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا: {عَنْ أَبِي السَّائِبِ مَوْلَى هِشَامِ بْنِ زُهْرَةَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخدري فِي بَيْتِهِ قَالَ: فَوَجَدْته يُصَلِّي فَجَلَسْت أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِيَ صَلَاتَهُ، فَسَمِعْت تَحْرِيكًا فِي عَرَاجِينَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَالْتَفَتّ فَإِذَا حَيَّةٌ فَوَثَبْت لِأَقْتُلَهَا، فَأَشَارَ إلَيَّ أَنْ اجْلِسْ فَجَلَسْت، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إلَى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا الْبَيْت؟ فَقُلْت: نَعَمْ. فَقَالَ: كَانَ فِيهِ فَتًى مِنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ. قَالَ: فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلَى الْخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ وَيَرْجِعُ إلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذْ عَلَيْك سِلَاحَك فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْك قُرَيْظَةَ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ ثُمَّ رَجَعَ، فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةٌ فَأَهْوَى إلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعَنَهَا بِهِ وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ فَقَالَتْ: اكْفُفْ عَلَيْك رُمْحَك وَادْخُلْ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي، فَدَخَلَ فَإِذَا بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ، فَأَهْوَى إلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِهِ، ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ، فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْحَيَّةُ أَمْ الْفَتَى؟ قَالَ: فَجِئْنَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَقُلْنَا: اُدْعُ اللَّهَ يُحْيِيهِ لَنَا. قَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ، ثُمَّ قَالَ: إنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ} وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لِمُسْلِمٍ أَيْضًا: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {إنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْهَا فَحَرِّجُوا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ} وَقَالَ لَهُمْ: {اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ}(٦).

وَذَلِكَ أَنَّ قَتْلَ الْجِنِّ بِغَيْرِ حَقٍّ لَا يَجُوزُ كَمَا لَا يَجُوزُ قَتْلُ الْإِنْسِ بِلَا حَقٍّ وَالظُّلْمُ مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ حَالٍ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، بَلْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا

---

(١) البقرة: الآية ١٠١.
(٢) القصص: الآية ٨٠.
(٣) الإسراء: الآية ١٥.
(٤) الأنعام: الآية ١٣٠.
(٥) رواه مسلم حديث ٤١٥١.
(٦) رواه مسلم حديث ٤١٥٠.

اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[١] وَالْجِنُّ يَتَصَوَّرُونَ فِي صُوَرِ الْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، فَيَتَصَوَّرُونَ فِي صُوَرِ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ وَغَيْرِهَا وَفِي صُوَرِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ وَفِي صُوَرِ الطَّيْرِ وَفِي صُوَرِ بَنِي آدَمَ، كَمَا أَتَى الشَّيْطَانُ قُرَيْشًا فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ لَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى بَدْرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾[٢] إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَكَمَا رُوِيَ أَنَّهُ تَصَوَّرَ فِي صُورَةِ شَيْخٍ نَجْدِيٍّ لَمَّا اجْتَمَعُوا بِدَارِ النَّدْوَةِ هَلْ يَقْتُلُوا الرَّسُولَ أَوْ يَحْبِسُونَهُ أَوْ يُخْرِجُونَهُ؟ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٣] فَإِذَا كَانَ حَيَّاتُ الْبُيُوتِ قَدْ تَكُونُ جِنًّا فَتُؤْذَنُ ثَلَاثًا، فَإِنْ ذَهَبَتْ وَإِلَّا قُتِلَتْ، فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ حَيَّةً قُتِلَتْ، وَإِنْ كَانَتْ جِنِّيَّةً فَقَدْ أَصَرَّتْ عَلَى الْعُدْوَانِ بِظُهُورِهَا لِلْإِنْسِ فِي صُورَةِ حَيَّةٍ تُفْزِعُهُمْ بِذَلِكَ، وَالْعَادِي هُوَ الصَّائِلُ الَّذِي يَجُوزُ دَفْعُهُ بِمَا يَدْفَعُ ضَرَرَهُ وَلَوْ كَانَ قَتْلًا، وَأَمَّا قَتْلُهُمْ بِدُونِ سَبَبٍ يُبِيحُ ذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ. وَأَهْلُ الْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ يُقْسِمُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ لِيُعِينَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، تَارَةً يَبَرُّونَ قَسَمَهُ وَكَثِيرًا لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؛ بِأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْجِنِّيُّ مُعَظَّمًا عِنْدَهُمْ وَلَيْسَ لِلْمُعَزِّمِ وَعَزِيمَتِهِ مِنْ الْحُرْمَةِ مَا يَقْتَضِي إِعَانَتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ إِذْ كَانَ الْمُعَزِّمُ قَدْ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الَّذِي يُحَلِّفُ غَيْرَهُ وَيُقْسِمُ عَلَيْهِ بِمَنْ يُعَظِّمُهُ، وَهَذَا تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ، فَمَنْ أَقْسَمَ عَلَى النَّاسِ لِيُؤْذُوا مَنْ هُوَ عَظِيمٌ عِنْدَهُمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَاكَ مَنِيعًا، فَأَحْوَالُهُمْ شَبِيهَةٌ بِأَحْوَالِ الْإِنْسِ لَكِنَّ الْإِنْسَ أَعْقَلُ وَأَصْدَقُ وَأَعْدَلُ وَأَوْفَى بِالْعَهْدِ، وَالْجِنُّ أَجْهَلُ وَأَكْذَبُ وَأَظْلَمُ وَأَغْدَرُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَرْبَابَ الْعَزَائِمِ مَعَ كَوْنِ عَزَائِمِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى شِرْكٍ وَكُفْرٍ لَا تَجُوزُ الْعَزِيمَةُ وَالْقَسَمُ بِهِ، فَهُمْ كَثِيرًا مَا يَعْجِزُونَ عَنْ دَفْعِ الْجِنِّيِّ، وَكَثِيرًا مَا تَسْخَرُ مِنْهُمْ الْجِنُّ إِذَا طَلَبُوا مِنْهُمْ قَتْلَ الْجِنِّيِّ الصَّارِعِ لِلْإِنْسِ أَوْ حَبْسَهُ، فَيُخَيِّلُوا إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ أَوْ حَبَسُوهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ تَخْيِيلًا وَكَذِبًا، هَذَا إِذَا كَانَ الَّذِي يَرَى مَا يُخَيِّلُونَهُ صَادِقًا فِي الرُّؤْيَةِ، فَإِنَّ عَامَّةَ مَا يَعْرِفُونَهُ لِمَنْ يُرِيدُونَ تَعْرِيفَهُ إِمَّا بِالْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ، إِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ عِبَادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَمُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تُضِلُّهُمْ الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ، وَأَمَّا مَا يُظْهِرُونَهُ لِأَهْلِ الْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ أَنَّهُمْ يُمَثِّلُونَ مَا يُرِيدُونَ تَعْرِيفَهُ، فَإِذَا رَأَى الْمِثَالَ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ وَقَدْ يَعْرِفُ أَنَّهُ مِثَالٌ وَقَدْ يُوهِمُونَهُ أَنَّهُ نَفْسُ الْمَرْئِيِّ، وَإِذَا أَرَادُوا سَمَاعَ كَلَامِ مَنْ يُنَادِيهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ مِثْلَ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِبَعْضِ الْعِبَادِ الضَّالِّينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَأَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ عِبَادِ الْمُسْلِمِينَ، إِذَا اسْتَغَاثَ بِهِ بَعْضُ مُحِبِّيهِ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي فُلَانُ، فَإِنَّ الْجِنِّيَّ يُخَاطِبُهُ بِمِثْلِ صَوْتِ ذَلِكَ الْإِنْسِيِّ، فَإِذَا رَدَّ الشَّيْخُ عَلَيْهِ الْخِطَابَ أَجَابَ ذَلِكَ الْإِنْسِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الصَّوْتِ، وَهَذَا وَقَعَ لِعَدَدٍ كَثِيرٍ أَعْرِفُ مِنْهُمْ طَائِفَةً.

---

(١) المائدة: الآية ٨.
(٢) الأنفال: الآية ٤٨.
(٣) الأنفال: الآية ٣٠.

فَإِنَّ الْجِنَّ مَأْمُورُونَ وَمَنْهِيُّونَ كَالْإِنْسِ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ مِنْ الْإِنْسِ إلَيْهِمْ وَإِلَى الْإِنْسِ وَأَمَرَ الْجَمِيعَ بِطَاعَةِ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[1] وَهَذَا بَعْدَ قَوْلِهِ:﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[2] قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ: أَيْ كَثِيرٌ مَنْ أَغْوَيْتُمْ مِنْ الْإِنْسِ وأضللتموهم. قَالَ البغوي: قَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ مَا كَانُوا يُلْقُونَ لَهُمْ مِنْ الْأَرَاجِيفِ وَالسِّحْرِ وَالْكَهَانَةِ، وَتَزْيِينُهُمْ لَهُمْ الْأُمُورَ الَّتِي يُهَيِّئُونَهَا وَيَسْهُلُ سَبِيلُهَا عَلَيْهِمْ، وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ طَاعَةُ الْإِنْسِ لَهُمْ فِيمَا يُزَيِّنُونَ لَهُمْ مِنْ الضَّلَالَةِ وَالْمَعَاصِي، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هُوَ طَاعَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضِ وَمُوَافَقَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، قَالَ: مَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إلَّا أَنَّ الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتْ الْإِنْسُ. وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: هُوَ الصَّحَابَةُ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ ابْنُ السَّائِبِ: اسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِعَاذَتُهُمْ بِهِمْ وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ أَنْ قَالُوا قَدْ أَسَرْنَا الْإِنْسَ مَعَ الْجِنِّ حَتَّى عَاذُوا بِنَا؛ فَيَزْدَادُونَ شَرَفًا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعِظَمًا فِي نُفُوسِهِمْ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قُلْت: الِاسْتِمْتَاعُ بِالشَّيْءِ هُوَ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهِ فَيَنَالَ بِهِ مَا يَطْلُبُهُ وَيُرِيدُهُ وَيَهْوَاهُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ اسْتِمْتَاعُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[3] وَمِنْ ذَلِكَ الْفَوَاحِشُ كَاسْتِمْتَاعِ الذُّكُورِ بِالذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِالْإِنَاثِ. وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الِاسْتِمْتَاعُ بِالِاسْتِخْدَامِ وَأَئِمَّةِ الرِّيَاسَةِ كَمَا يَتَمَتَّعُ الْمُلُوكُ وَالسَّادَةُ بِجُنُودِهِمْ وَمَمَالِيكِهِمْ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الِاسْتِمْتَاعُ بِالْأَمْوَالِ كَاللِّبَاسِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[4]... وَفِي الْجُمْلَةِ، اسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ وَالْجِنِّ بِالْإِنْسِ يُشْبِهُ اسْتِمْتَاعَ الْإِنْسِ بِالْإِنْسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[5] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الْمَوَدَّاتُ الَّتِي كَانَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ. وَقَالَ الْخَلِيلُ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[6] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[7] فَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ مَا يَهْوَاهُ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى هُوَ اسْتِمْتَاعٌ مِنْ صَاحِبِهِ بِمَا يَهْوَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ هَذَا كُلُّهُ. وَتَارَةً يَخْدِمُ هَؤُلَاءِ لِهَؤُلَاءِ فِي أَغْرَاضِهِمْ وَهَؤُلَاءِ لِهَؤُلَاءِ فِي أَغْرَاضِهِمْ، فَالْجِنُّ تَأْتِيهِ بِمَا يُرِيدُ مِنْ صُورَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ قَتْلِ

(١) الأنعام: الآية ١٣٠.
(٢) الأنعام: الآية ١٢٨.
(٣) النساء: من الآية ٢٤.
(٤) البقرة: من الآية ٢٣٦.
(٥) الزخرف: الآية ٦٧.
(٦) العنكبوت: الآية ٢٥.
(٧) الجاثية: الآية ٢٣.

عَدُوِّهِ، وَالْإِنْسُ تُطِيعُ الْجِنَّ فَتَارَةً تَسْجُدُ لَهُ وَتَارَةً تَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُهُ بِالسُّجُودِ لَهُ وَتَارَةً تُمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَيَفْعَلُ بِهِ الْفَاحِشَةَ، وَكَذَلِكَ الْجِنِّيَّاتُ مِنْهُنَّ مَنْ يُرِيدُ مِنْ الْإِنْسِ الَّذِي يَخْدِمْنَهُ مَا يُرِيدُ نِسَاءُ الْإِنْسِ مِنْ الرِّجَالِ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي رِجَالِ الْجِنِّ وَنِسَائِهِمْ، فَكَثِيرٌ مِنْ رِجَالِهِمْ يَنَالُ مِنْ نِسَاءِ الْإِنْسِ مَا يَنَالُهُ الْإِنْسِيُّ وَقَدْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالذُّكْرَانِ.(١)

وقد وقفت على أقوام تمارس معهم الشياطين الفاحشة ذكراناً وإناثاً عياذ بالله.

قال شيخ الإسلام: وَجِمَاعُ شُبَهِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ قَاسُوا الرَّسُولَ عَلَى مَنْ فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَكَفَرُوا بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ رُسُلَهُ، فَأُتُوا مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ. وَلَا بُدَّ فِي الْقِيَاسِ مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرِكٍ بَيْنَ الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ، مِثْلُ جِنْسِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ يَنْزِلُونَ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُوحُونَ إلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾(٢) وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ & يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: فِي الْر "طس" وَقَدْ افْتَتَحَ كُلًّا مِنْهُنَّ بِقِصَّةِ مُوسَى وَتَكْلِيمِ اللَّهِ إيَّاهُ وَإِرْسَالِهِ إلَى فِرْعَوْنَ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْقِصَصِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ الْمُحْتَوِيَةِ عَلَى قِصَصِ الْمُرْسَلِينَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَهِيَ سَبْعٌ: قِصَّةُ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، ثُمَّ قَالَ عَنْ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾(٣) فَذَكَرَ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْكُهَّانِ والمتنبئين وَنَحْوِهِمْ وَبَيْنَ الشُّعَرَاءِ؛ لِأَنَّ الْكَاهِنَ قَدْ يُخْبِرُ بِغَيْبِ بِكَلَامٍ مَسْجُوعٍ، وَالشَّاعِرُ أَيْضًا يَأْتِي بِكَلَامٍ مَنْظُومٍ يُحَرِّكُ بِهِ النُّفُوسَ، فَإِنَّ قَرِينَ الشَّيْطَانِ مَادَّتُهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَيُعِينُ الشَّيْطَانُ بِكَذِبِهِ وَفُجُورِهِ، وَالشَّاعِرُ مَادَّتُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَرُبَّمَا أَعَانَهُ الشَّيْطَانُ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ إنَّمَا تَنَزَّلُ عَلَى مَنْ يُنَاسِبُهَا وَهُوَ: الْكَاذِبُ فِي قَوْلِهِ الْفَاجِرُ فِي عَمَلِهِ، بِخِلَافِ الصَّادِقِ الْبَرِّ، وَأَنَّ الشُّعَرَاءَ إنَّمَا يُحَرِّكُونَ النُّفُوسَ إلَى أَهْوَائِهَا فَيَتْبَعُهُمْ الْغَاوُونَ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْأَهْوَاءَ وَشَهَوَاتِ الْغَيِّ، فَنَفَى كُلًّا مِنْهُمَا بِانْتِفَاءِ لَازِمِهِ وَبَيَّنَ مَا يَجْتَمِعُ فِيهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.(٤)

فقه الوحي والمكاشفات والرؤى:

قال شيخ الإسلام(٥): والْوَحْيُ وَحْيَانِ: وَحْيٌ مِنْ الرَّحْمَنِ وَوَحْيٌ مِنْ الشَّيْطَانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(٦) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ١٥٥)
(٢) الأنعام: من الآية ١٢١.
(٣) الشعراء: الآية ٢٦٦.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ٧٤)
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص١٥٤)
(٦) الأنعام: من الآية ١١٢.

الشَّيَاطِينُ﴾ وَقَدْ كَانَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، حَتَّى قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ قِيلَ لِأَحَدِهِمَا إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وَقِيلَ لِلْآخَرِ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ فَهَؤُلَاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْفُرْقَانِ الْإِيمَانِيِّ الْقُرْآنِيِّ النَّبَوِيِّ الشَّرْعِيِّ أَعْظَمَ مِنْ حَاجَةِ غَيْرِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حِسِّيَّاتٌ يَرَوْنَهَا وَيَسْمَعُونَهَا، وَالْحِسِّيَّاتُ يُضْطَرُّ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، كَمَا قَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ أَشْيَاءَ وَيَسْمَعُ أَشْيَاءَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، كَمَا أَنَّ النُّظَّارَ لَهُمْ قِيَاسٌ وَمَعْقُولٌ، وَأَهْلُ السَّمْعِ لَهُمْ أَخْبَارٌ مَنْقُولَاتٌ، وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ هِيَ طُرُقُ الْعِلْمِ: الْحِسُّ وَالْخَبَرُ وَالنَّظَرُ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَدِلُّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، لَكِنْ يَكُونُ بَعْضُ الْأَنْوَاعِ أَغْلَبَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فِي الدِّينِ وَغَيْرِ الدِّينِ، كَالطِّبِّ فَإِنَّهُ تَجْرِبَاتٌ وَقِيَاسَاتٌ وَأَهْلُهُ مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ التَّجْرِبَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْقِيَاسُ، وَالْقِيَاسُ أَصْلُهُ التَّجْرِبَةُ وَالتَّجْرِبَةُ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ قِيَاسٍ، لَكِنْ مِثْلَ قِيَاسِ الْعَادِيَّاتِ لَا تُعْرَفُ فِيهِ الْعِلَّةُ وَالْمُنَاسَبَةُ، وَصَاحِبُ الْقِيَاسِ مَنْ يَسْتَخْرِجُ الْعِلَّةَ الْمُنَاسِبَةَ وَيُعَلِّقُ الْحُكْمَ بِهَا، وَالْعَقْلُ خَاصَّةُ الْقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ وَالْقَضَايَا الْكُلِّيَّةِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْحِسِّيَّاتِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، وَالْحِسُّ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ صَاحِبِهِ عَقْلٌ وَإِلَّا فَقَدْ يَغْلَطُ. وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: غَلِطَ الْحِسُّ وَالْغَلَطُ تَارَةً مِنَ الْحِسِّ وَتَارَةً مِنْ صَاحِبِهِ؛ فَإِنَّ الْحِسَّ يَرَى أَمْرًا مُعَيَّنًا فَيَظُنُّ صَاحِبُهُ فِيهِ شَيْئًا آخَرَ فَيُؤْتَى مِنْ ظَنِّهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَقْلِ. وَلِهَذَا النَّائِمُ يَرَى شَيْئًا وَتِلْكَ الْأُمُورُ لَهَا وُجُودٌ وَتَحْقِيقٌ، وَلَكِنْ هِيَ خَيَالَاتٌ وَأَمْثِلَةٌ، فَلَمَّا عَزَبَ ظَنَّهَا الرَّائِي نَفْسَ الْحَقَائِقِ كَالَّذِي يَرَى نَفْسَهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ يُكَلِّمُ أَمْوَاتًا وَيُكَلِّمُونَهُ، وَيَفْعَلُ أُمُورًا كَثِيرَةً وَهُوَ فِي النَّوْمِ يَجْزِمُ بِأَنَّهُ نَفْسَهُ الَّذِي يَقُولُ وَيَفْعَلُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَزَبَ عَنْهُ وَتِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي رَآهَا مِثَالُ صُورَتِهِ وَخَيَالُهَا؛ لَكِنْ غَابَ عَقْلُهُ عَنْ نَفْسِهِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ الْمِثَالَ هُوَ نَفْسُهُ، فَلَمَّا ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ خَيَالَاتٌ ومثالات، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَغِيبُ عَقْلُهُ بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ، وَهَذَا كَالَّذِي يَرَى صُورَتَهُ فِي الْمِرْآةِ أَوْ صُورَةَ غَيْرِهِ، فَإِذَا كَانَ ضَعِيفَ الْعَقْلِ ظَنَّ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ الشَّخْصُ حَتَّى أَنَّهُ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَفْعَلُ بِالشَّخْصِ. وَهَذَا يَقَعُ لِلصِّبْيَانِ وَالْبُلْهِ كَمَا يُخَيَّلُ لِأَحَدِهِمْ فِي الضَّوْءِ شَخْصٌ يَتَحَرَّكُ وَيَصْعَدُ وَيَنْزِلُ فَيَظُنُّونَهُ شَخْصًا حَقِيقَةً وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَيَالٌ، فَالْحِسُّ إذَا أَحَسَّ حِسًّا صَحِيحًا لَمْ يَغْلَطْ، لَكِنْ مَعَهُ عَقْلٌ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ هَذَا الْعَيْنِ وَالْمِثَالِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ قَدْ عَقَلَ قَبْلَ هَذَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ مِثَالًا، وَقَدْ عَقَلَ لَوَازِمَ الشَّخْصِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْهَوَاءِ وَلَا فِي الْمِرْآةِ وَلَا يَكُونُ بَدَنُهُ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ، وَأَنَّ الْجِسْمَ الْوَاحِدَ لَا يَكُونُ فِي مَكَانَيْنِ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مُكَاشَفَاتٌ وَمُخَاطَبَاتٌ يَرَوْنَ وَيَسْمَعُونَ مَا لَهُ وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَمَا لَا يَكُونُ مَوْجُودًا إِلَّا فِي أَنْفُسِهِمْ كَحَالِ النَّائِمِ، وَهَذَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَكِنْ قَدْ يَرَوْنَ فِي الْخَارِجِ أَشْخَاصًا يَرَوْنَهَا عِيَانًا، وَمَا فِي خَيَالِ الْإِنْسَانِ لَا يَرَاهُ غَيْرُهُ، وَيُخَاطِبُهُمْ أُولَئِكَ الْأَشْخَاصُ وَيَحْمِلُونَهُمْ، وَيَذْهَبُونَ بِهِمْ إِلَى عَرَفَاتٍ فَيَقِفُونَ بِهَا، وَإِمَّا إِلَى غَيْرِ عَرَفَاتٍ، وَيَأْتُوهُمْ بِذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَطَعَامٍ وَلِبَاسٍ وَسِلَاحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَخْرُجُونَ إِلَى النَّاسِ، وَيَأْتُونَهُمْ أَيْضًا بِمَنْ يَطْلُبُونَهُ مِثْلَ مَنْ يَكُونُ لَهُ إِرَادَةٌ فِي امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ فَيَأْتُونَهُ بِذَلِكَ: إِمَّا مَحْمُولًا فِي الْهَوَاءِ وَإِمَّا بِسَعْيٍ شَدِيدٍ، وَيُخْبِرُ أَنَّهُ

وَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْبَاعِثِ الْقَوِيِّ مَا لَمْ يُمْكِنْهُ الْمُقَامُ مَعَهُ، أَوْ يُخْبِرُ أَنَّهُ سَمِعَ خِطَابًا، وَقَدْ يَقْتُلُونَ لَهُ مَنْ يُرِيدُ قَتْلَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ أَوْ يُمَرِّضُونَهُ. فَهَذَا كُلُّهُ مَوْجُودٌ كَثِيرًا، لَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِنْ الشَّيْطَانِ وَأَنَّهُ مِنْ السِّحْرِ، وَأَنَّ ذَلِكَ حَصَلَ بِمَا قَالَهُ وَعَمِلَهُ مِنْ السِّحْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْجِنِّ وَيَقُولُ: هَذَا كَرَامَةٌ أَكْرَمَنَا بِتَسْخِيرِ الْجِنِّ لَنَا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَظُنُّ أُولَئِكَ الْأَشْخَاصَ إلَّا آدَمِيِّينَ أَوْ مَلَائِكَةً، فَإِنْ كَانُوا غَيْرَ مَعْرُوفِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ رِجَالُ الْغَيْبِ، وَإِنْ تَسَمَّوْا، فَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْخَضِرُ، وَهَذَا هُوَ إلْيَاسُ، وَهَذَا هُوَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَهَذَا هُوَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ أَوْ الشَّيْخُ عَدِيٌّ أَوْ الشَّيْخُ أَحْمَد الرِّفَاعِيُّ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ، ظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ. فَهُنَا لَمْ يَغْلَطْ لَكِنْ غَلِطَ عَقْلُهُ حَيْثُ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّ هَذِهِ شَيَاطِينُ تَمَثَّلَتْ عَلَى صُوَرِ هَؤُلَاءِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَظُنُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ الصَّالِحِينَ يَأْتِيهِ فِي الْيَقَظَةِ، وَمَنْ يَرَى ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ الشَّيْخِ وَهُوَ صَادِقٌ فِي أَنَّهُ إيَّاهُ مَنْ قَالَ: إنَّهُ النَّبِيُّ أَوْ الشَّيْخُ أَوْ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ فِيهِ لَكِنْ غَلِطَ حَيْثُ ظَنَّ صِدْقَ أُولَئِكَ. وَالَّذِي لَهُ عَقْلٌ وَعِلْمٌ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ النَّبِيَّ ﷺ تَارَةً لِمَا يَرَاهُ مِنْهُمْ مِنْ مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ مِثْلَ أَنْ يَأْمُرُوهُ بِمَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَارَةً يَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا كَانَ يَأْتِي أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا كَانَ يُخَاطِبُهُمْ مِنْ قَبْرِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا لِي؟ وَتَارَةً يَعْلَمُ أَنَّ الْمَيِّتَ لَمْ يَقُمْ مِنْ قَبْرِهِ وَأَنَّ رُوحَهُ فِي الْجَنَّةِ لَا تَصِيرُ فِي الدُّنْيَا هَكَذَا، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا لِكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَيُسَمُّونَ تِلْكَ الصُّورَةَ رَقِيقَةَ فُلَانٍ، وَقَدْ يَقُولُونَ: هُوَ مَعْنَاهُ تَشَكَّلَ، وَقَدْ يَقُولُونَ: رُوحَانِيَّتُهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ: إذَا مُتّ فَلَا تَدَعُوا أَحَدًا يُغَسِّلُنِي وَلَا فُلَانًا يَحْضُرُنِي فَإِنِّي أَنَا أَغْسِلُ نَفْسِي، فَإِذَا مَاتَ رَأَوْهُ قَدْ جَاءَ وَغَسَلَ ذَلِكَ الْبَدَنَ وَيَكُونُ ذَلِكَ جِنِّيًّا قَدْ قَالَ لِهَذَا الْمَيِّتِ: إنَّك تَجِيءُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ حَقًّا؛ فَإِنَّهُ كَانَ فِي حَيَاتِهِ يَقُولُ لَهُ أُمُورًا، وَغَرَضُ الشَّيْطَانِ أَنْ يُضِلَّ أَصْحَابَهُ، وَأَمَّا بِلَادُ الْمُشْرِكِينَ كَالْهِنْدِ فَهَذَا كَثِيرًا مَا يَرَوْنَ الْمَيِّتَ بَعْدَ مَوْتِهِ جَاءَ، وَفَتَحَ حَانُوتَهُ وَرَدَّ وَدَائِعَ وَقَضَى دُيُونًا وَدَخَلَ إلَى مَنْزِلِهِ ثُمَّ ذَهَبَ، وَهُمْ لَا يَشُكُّونَ أَنَّهُ الشَّخْصُ نَفْسُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَصَوَّرَ فِي صُورَتِهِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ فِي جِنَازَةِ أَبِيهِ أَوْ غَيْرِهِ وَالْمَيِّتُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَهُوَ يَرَاهُ آخِذًا يَمْشِي مَعَ النَّاسِ بِيَدِ ابْنِهِ وَأَبِيهِ قَدْ جُعِلَ شَيْخًا بَعْدَ أَبِيهِ، فَلَا يَشُكُّ ابْنُهُ أَنَّ أَبَاهُ نَفْسَهُ هُوَ كَانَ الْمَاشِيَ مَعَهُ الَّذِي رَآهُ هُوَ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ شَيْطَانًا وَيَكُونُ مِثْلُ هَذَا الشَّيْطَانِ قَدْ سَمَّى نَفْسَهُ خَالِدًا وَغَيْرَ خَالِدٍ، وَقَالَ لَهُمْ: إنَّهُ مِنْ رِجَالِ الْغَيْبِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ الْإِنْسِ الصَّالِحِينَ، وَيُسَمُّونَهُ خَالِدًا الْغَيْبِيَّ وَيَنْسُبُونَ الشَّيْخَ إلَيْهِ فَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ الْخَالِدِيُّ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

تمت قراءة هذا الجزء من هذا الفصل في يوم عرفة، اليوم الذي أصل النبي ﷺ التوحيد بل إنّ الجهاد والحج إنما شرعت ليكون التوحيد خالصاً لله، في حديث جابر قال ﷺ: {خير الدعاء دعاء يوم عرفة،

وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير}[١].

فنسأل الله أن يحيينا على التوحيد، رحم الله شيخ الاسلام على حرصه على التوحيد، وهذا اليوم لله فيه عتقاء من أهل التوحيد، وما رؤي الشيطان أخذل ولا أحقر من هذا اليوم الذي يوم التوحيد، وهو عدو التوحيد.

نسأل الله أن يحيينا على التوحيد والسنة، وأن يثبتنا على التوحيد والسنة حتى نلقاه. تبارك وتعالى وهو راضٍ عنا.

قال شيخ الإسلام: وَإِذَا كَانَتْ الرُّؤْيَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ، وَرُؤْيَا مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَرُؤْيَا مِنْ الشَّيْطَانِ، فَكَذَلِكَ مَا يُلْقَى فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ فِي حَالِ يَقَظَتِهِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَحْوَالُ ثَلَاثَةً: رَحْمَانِيٌّ وَنَفْسَانِيٌّ وَشَيْطَانِيٌّ. وَمَا يَحْصُلُ مِنْ نَوْعِ الْمُكَاشَفَةِ وَالتَّصَرُّفِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: مَلَكِيٌّ وَنَفْسِيٌّ وَشَيْطَانِيٌّ. فَإِنَّ الْمَلَكَ لَهُ قُوَّةٌ، وَالنَّفْسَ لَهَا قُوَّةٌ، وَالشَّيْطَانَ لَهُ قُوَّةٌ، وَقَلْبَ الْمُؤْمِنِ لَهُ قُوَّةٌ. فَمَا كَانَ مِنْ الْمَلَكِ وَمِنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا كَانَ مِنْ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَسَةِ النَّفْسِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَقَدْ اشْتَبَهَ هَذَا بِهَذَا عَلَى طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ، بَلْ صَارُوا يَظُنُّونَ فِي مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ -أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ- أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ. وَالْكَلَامُ فِي هَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.[٢]

ولقد ذكر شيخ الإسلام أنّ الفلاسفة في الجاهلية اليونانية والإسلام سووا بين وحي الأنبياء وبين منامات الناس كهان وغيرهم، قال رحمه الله: ولهذا من لم يكن عارفاً بالأنبياء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم، لم يكن له فيهم كلام يُعرف، كما لم يُعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يُعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابي وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة.

وقد مر بنا ذكر اتصال الكهانة بالرؤى عند الحديث عن الكهانة في الجاهلية، فقد ذكر كثير من الكهان رؤى كهانية، وكذلك ذكرنا ثمت خبر الكاهنة (ظريفة) التي أنذرت زوجها الملك (عمراً) بسيل العرم لرؤيا رأتها.

وقد ذكر شيخ الإسلام أنّ العلم ببعض الأمور المستقبلة قد يكون عن طريق المنامات، قال شيخ الإسلام: والجنّ غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة، كالذي يسترقه الجن من السماء، مع ما في الجنّ من الكذب، فلا بُدّ لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو ممّا يُعلم بالمنامات وغير المنامات. وهذه

(١) رواه الترمذي حديث ٣٥٠٩، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث ٢٩٥٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٤٢١)

المنامات قد تكون من الله، وقد تكون من الشيطان، وقد تكون من النفس، كما جاء في حديث النبي ﷺ وكما مر في كلام شيخ الإسلام.

وذكر رحمه الله إضلال الشياطين عن طريق المنامات، فقال: وَالشَّيَاطِينُ كَثِيرًا مَا يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ الْإِنْسِ فِي الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ وَقَدْ تَأْتِي لِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَتَقُولُ: أَنَا الشَّيْخُ فُلَانٌ أَوْ الْعَالِمُ فُلَانٌ وَرُبَّمَا قَالَتْ: أَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

ونقول هذا مما يضل به الكهان، وغيرهم مما لا يعلم حقائق الأمو، ولم يحط بهدي النبي ﷺ ولم يكن صحيح الاعتقاد.

وذكر توفيق فهد أن التكهن عن طريق المنامات كان معروفاً في الأمم المعروفة بالسامية، وأنها كانت تسمى الحالومة، قال توفيق: تميزت الكهانة السامية على نحو جوهري عبر تفسير المنامات وعبر الحالومة وهي طريقة كهانية تشبه الاستخارة.

وتكلم شيخ الإسلام عن الفلاسفة فقال: وأبعد هؤلاء عن النبوة: المتفلسفة، والباطنية، والملاحدة؛ فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم؛ وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقطّ، ولهذا يُفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبيّ.

وقال أيضا رحمه الله: وأما التخييل في نفسه: فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون، لكن هو يقول: إنّ خاصة النبي أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام. وهذا موجودٌ لكثيرٍ من الناس، قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام.

وقد ذكر شيخ الإسلام أنّ من يكذب في الرؤيا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾[1] فَجَمَعَ فِي هَذَا بَيْنَ مَنْ أَضَافَ مَا يَفْتَرِيهِ إلَى اللَّهِ وَبَيْنَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إلَيْهِ وَلَا يُعَيِّنُ مَنْ أَوْحَاهُ، فَإِنَّ الَّذِي يَدَّعِي الْوَحْيَ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ. وَيَدْخُلُ فِي (الْقِسْمِ الثَّانِي) مَنْ يُرِي عَيْنَيْهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَا تَرَيَا، وَمَنْ يَقُولُ: أُلْقِيَ فِي قَلْبِي وَأُلْهِمْت وَنَحْوَ ذَلِكَ إذَا كَانَ كَاذِبًا. وهذا من دقة فهمه واستنباطه من كتاب الله.

وقال ابن خلدون: ونحن نجد كثيراً من الناس الذين يتشوقون إلى الوقوف على ذلك في المنام، والأخبار عن الكهان معروفة، ولقد نجد في المدن صنفاً من البشر ينتحلون المعاش من ذلك، فيأتي إليهم الناس يستكشفون عواقب أمورهم في الكسب والجاه والمعاشرة، ما بين خط في الرمل وطرق بالحصي والحبوب ونظر في المرايا ونظر في المياه، وأكثر من يعتنى بذلك ويتطلع اليه الأمراء والملوك الذين هم في نهم إلى مثل هذه المعارف.

---

(١) الأنعام: الآية ٩٣

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فَصْلٌ قَدْ كَتَبْت فِيمَا تَقَدَّمَ: الْكَلَامَ فِي "الْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُشَاهَدَاتِ" وَأَنَّهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَكَذَلِكَ السَّمَاعُ وَالْمُخَاطَبَاتُ وَالْمُحَادَثَاتُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، فَإِنَّ السَّامِعَ: إمَّا أَنْ يَسْمَعَ نَفْسَ الصَّوْتِ الَّذِي هُوَ كَلَامُ الْمُتَكَلِّمِ الصَّوْتِيُّ أَوْ غَيْرُ كَلَامِهِ كَمَا تَرَى عَيْنُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَسْمَعَ صَدَى الصَّوْتِ وَرَجْعَهُ كَمَا يَرَى تِمْثَالَهُ فِي مَاءٍ أَوْ مِرْآةٍ فَهَذِهِ رُؤْيَةٌ مُقَيَّدَةٌ وَسَمَاعٌ مُقَيَّدٌ، كَمَا يُقَالُ: رَأَيْته فِي الْمِرْآةِ لَكِنَّ السَّمْعَ يَجْمَعُ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ، وَإِمَّا أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ يَعْنِي كَلَامَهُ فِي أَصْوَاتٍ مَسْمُوعَةٍ كَمَا يَتَمَثَّلُ لَهُ فِي صُورَةٍ فَيَرَاهَا، مِثْلُ أَنْ يَنْقُرَ بِيَدِهِ نَقَرَاتٍ أَوْ يَضْرِبَ بِيَدِهِ أَوْتَارًا أَوْ يُظْهِرَ أَصْوَاتًا مُنْفَصِلَةً عَنْهُ يُبَيِّنُ فِيهَا مَقْصُودَهُ. وَكَذَلِكَ فِي الْبَاطِنِ: إمَّا أَنْ يَسْمَعَ فِي الْمَنَامِ أَوْ فِي الْيَقَظَةِ نَفْسَ كَلَامِ الْمُتَكَلِّمِ مِثْلُ الْمَلَائِكَةِ مَثَلًا، كَمَا يَرَى بِقَلْبِهِ عَيْنَ مَا يُكْشَفُ لَهُ فِي الْمَنَامِ وَالْيَقَظَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَسْمَعَ مِثَالَ كَلَامِهِ فِي نَفْسِهِ، كَمَا يَرَى مِثَالَهُ فِي نَفْسِهِ بِمَنْزِلَةِ الرُّؤْيَا الَّتِي يَكُونُ تَعْبِيرُهَا عَيْنَ مَا رُئِيَ، وَإِمَّا أَنْ تَتَمَثَّلَ لَهُ الْمَعَانِي فِي صُورَةِ كَلَامٍ مَسْمُوعٍ يَحْتَاجُ إلَى تَعْبِيرٍ، كَمَا تَتَمَثَّلُ لَهُ الْأَعْيَانُ فِي صُورَةِ أَشْخَاصٍ مَرْئِيَّةٍ تَحْتَاجُ إلَى تَعْبِيرٍ. وَهَذَا غَالِبُ مَا يُرَى وَيُسْمَعُ فِي الْمَنَامِ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيلٍ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الِاسْتِعَارَةِ وَالْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ. فَهَذَا هَذَا، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

الفصل الخامس

الفرق بين الكرامات الرحمانية والأعمال الكهانية الشيطانية

يؤمن المسلم بكرامات الأولياء، وقد جاء في القرآن ذكر لكرامات الأولياء، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١) وكذلك قال عن أم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢) وقال عن المؤمن الذي حاور صاحب الجنتين: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾(٣) [الكهف: ٤] فحدث ما قاله، وأما السُّنَّة فقد زخرت بقصص الأولياء وذكر كراماتهم، مثل خبر الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار(٤) ومثل من زار أخا له في الله فأرسل الله له ملكاً(٥) ومثل صاحب الحديقة، وحديث صوت في السحابة: اسق أرض فلان(٦) وكرامة ذلك العبد التائب من قتل مائة نفس، وقول النبي ﷺ فأوحى الله إلى أرض الخير أن تقربي وإلى أرض الشر أن تباعدي(٧) وقد حصل للصحابة كرامات وللتابعين فمن بعدهم، ودوَّن ذلك أهل السنة في كتب الاعتقاد وفي كتب التراجم والطبقات وكتب التاريخ أيضا.

لكن كرامات الأولياء عند أهل السنة لها ضوابطها وأسبابها الشرعية وعلاماتها التي تفرق بينها وبين أفعال الشياطين، وبين إفك الأفاكين، وقد جلّى شيخ الإسلام ووضح وبسط هذا الموضوع، أي موضوع الفرق بين كرامات الأولياء وبين خوارق غيرهم، حتى لا يلتبس الحق والباطل، فكم من مبطل صاحب حال شيطاني استهوته الشياطين واستجرته، فأتى بعجائب أو كاشف بغيب نسبي وادعى أنه ولي لله، وكم من أصحاب حال بهتاني عندهم كذب ومخاريق وأفعال احتيالية يوهمون الناس أنهم يأتون بالعجائب، ففرّق شيخ الإسلام بين هؤلاء الصالحين وبين غيرهم، وهو أمر يحتاج إليه في احتسابه -رحمه الله- على الكهانة؛ إذ تعج كتب الطبقات التي تترجم للمنحرفين بأنواع من الكهانة، وأنواع أخرى من الإفك يزعمون أنها كرامات، فلقد كشف -رحمه الله- الأمر، وهذا من أعظم ما حرص عليه ونبّه الناس إلى أهميته، ونقول إنّ كشف هذا الأمر في غاية الأهمية ليس في الاحتساب على الكهانة فحسب، بل ليرد على كل الأديان الباطلة والملل المنحرفة والفرق الضالة، التي تستقطب البسطاء والسذج من الناس ممن ليس عندهم اعتقاد صحيح وتوحيد سليم مستقيم، بأنّ هذه الخوارق دليل صحة دينهم الذي تمجه

---

(١) الأنعام: الآية ٩٣
(٢) الأنعام: الآية ٩٣
(٣) الأنعام: الآية ٩٣
(٤) رواه البخاري حديث ٢٠٦٣، ومسلم حديث ٤٩٢٦.
(٥) رواه مسلم حديث ٤٦٥٦.
(٦) رواه مسلم حديث ٥٢٩٩.
(٧) رواه البخاري حديث ٣٢١١، ومسلم حديث ٤٩٦٧.

العقول السليمة والفطر المستقيمة، وكذلك يرى أصحاب الفرق الضالّة المنتسبة للإسلام أنّ خوارق معظميهم دليل على صحة فرقتهم، مع أنهم مخالفون للكتاب والسنة منحرفون عن جادة طريق أصحابه، فوضع شيخ الإسلام هنا الموازين الشرعية التي يعرف بها أولياء الله، وكشف سبل أصحاب الأحوال الشيطانية، وذكر صنوفاً من إفك الأفّاكين، فحمى الله به عقيدة المسلمين، وجلّى به للناس طريق الزائغين. فرضي الله عنه ورحمه.

وفي هذا المبحث بيان احتسابه ببيان ذلك، لخصناه مع حاجة العباد إلى كلامه المطول، وأزلنا المكرر مع حاجة المسلمين إلى سماع هذا التكرار وإمراره على القلوب مرات ومرات.

المبحث الأول

بيان شيخ الإسلام لأهمية معرفة الفروق بين الكرامات والكهانة وأنه بفهمه يتبيّن الفرق بين الحق والباطل

قال شيخ الإسلام: ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان الفرق بين الأنبياء وأتباعهم، وبين من خالفهم من الكفّار والفجّار كالسحرة والكهّان وغيرهم، حتى يظهر الفرق بين الحقّ والباطل وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه، كمدّعي النبوّة وبين ما لا يكون دليلاً على صدق صاحبه.

وقال رحمه الله: فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مِنْ هَؤُلَاءِ فُرِّقَ بَيْنَ حَالِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، كَمَا يُفَرِّقُ الصَّيْرَفِيُّ بَيْنَ الدِّرْهَمِ الْجَيِّدِ وَالدِّرْهَمِ الزَّيْفِ، وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْخَيْلَ بَيْنَ الْفَرَسِ الْجَيِّدِ وَالْفَرَسِ الرَّدِيءِ، وَكَمَا يُفَرِّقُ مَنْ يَعْرِفُ الْفُرُوسِيَّةَ بَيْنَ الشُّجَاعِ وَالْجَبَانِ، وَكَمَا أَنَّهُ يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ الصَّادِقِ وَبَيْنَ الْمُتَنَبِّئِ الْكَذَّابِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمُوسَى وَالْمَسِيحِ وَغَيْرِهِمْ، وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَالْأَسْوَدِ العنسي وطليحة الأسدي وَالْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ وَبَابَاهُ الرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكَذَّابِينَ، وَكَذَلِكَ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الضَّالِّينَ.

وقد اهتم شيخ الاسلام بهذه القضية اهتماماً عظيماً حتى أنه ألّف فيها كتاباً حافلاً ذا عنوان معبر وصادق هو كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشطيان) كما أشبع هذا الأمر بحثاً في كثير من المواضع في (مجموع الفتاوى) وبيّنها في كتبه الأخرى.

وجاء في مجموع فتاوى ابن تيمية[(١)]: وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي "أَوْلِيَاءِ اللَّهِ" وَالْفَرْقُ بَيْنَ "أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ" وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ ادِّعَاءً لِوِلَايَةِ اللَّهِ وَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وِلَايَةً لِلشَّيْطَانِ نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ. وَلِهَذَا عَامَّةُ كَلَامِهِمْ إنَّمَا هُوَ فِي الْحَالَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْفُتُوحَاتِ (بَابُ أَرْضِ الْحَقِيقَةِ) وَيَقُولُونَ هِيَ أَرْضُ الْخَيَالِ. فَتُعْرَفُ بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا هِيَ خَيَالٌ وَمَحَلُّ تَصَرُّفِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُخَيِّلُ لِلْإِنْسَانِ الْأُمُورَ بِخِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[(٢)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[(٣)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي

(١) (ج ٢/ ص٤٩١)
(٢) الزخرف: الآية ٣٩:٣٦
(٣) النساء: الآية ١٢٠.

عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٢) وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: {إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ} وَالشَّيَاطِينُ إِذَا رَأَتْ مَلَائِكَةَ اللَّهِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا عِبَادَهُ هَرَبَتْ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَتِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾(٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾(٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(٦) وَهَؤُلَاءِ تَأْتِيهِمْ أَرْوَاحٌ تُخَاطِبُهُمْ وَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ، وَهِيَ جِنٌّ وَشَيَاطِينُ فَيَظُنُّونَهَا مَلَائِكَةً كَالْأَرْوَاحِ الَّتِي تُخَاطِبُ مَنْ يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ مَا ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي الْإِسْلَامِ: الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {سَيَكُونُ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ}(٧) وَكَانَ الْكَذَّابُ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ، وَالْمُبِيرُ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ. فَقِيلَ لِابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ: إنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْزِلُ إلَيْهِ فَقَالَا: صَدَقَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وَقَالَ الْآخَرُ: وَقِيلَ لَهُ إنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إلَيْهِ فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ الشَّيْطَانِيَّةُ هِيَ الرُّوحُ الَّذِي يَزْعُمُ صَاحِبُ (الْفُتُوحَاتِ) أَنَّهُ أُلْقِيَ إلَيْهِ ذَلِكَ الْكِتَابُ؛ وَلِهَذَا يَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنْ الْخَلَوَاتِ بِطَعَامٍ مُعَيَّنٍ وَشَيْءٍ مُعَيَّنٍ، وَهَذِهِ مِمَّا تَفْتَحُ لِصَاحِبِهَا اتِّصَالًا بِالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، فَيَظُنُّونَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَحْمِلُ فِي الْهَوَاءِ إلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ وَيَعُودُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُؤْتَى بِمَالٍ مَسْرُوقٍ تَسْرِقُهُ الشَّيَاطِينُ وَتَأْتِيهِ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَتْ تَدُلُّهُ عَلَى السَّرِقَاتِ بِجُعْلٍ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ النَّاسِ أَوْ بِعَطَاءٍ يعطونه إذَا دَلَّهُمْ عَلَى سَرِقَاتِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَلَمَّا كَانَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ شَيْطَانِيَّةً كَانُوا مُنَاقِضِينَ لِلرُّسُلِ – صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ- كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ صَاحِبِ (الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ) وَ(الْفُصُوصِ)

---

(١) إبراهيم: الآية ٢٢.
(٢) الأنفال: الآية ٤٨.
(٣) الأنفال: الآية ١٢.
(٤) الأحزاب: الآية ٩.
(٥) التوبة: الآية ٤٠.
(٦) آل عمران: الآية ١٢٤,١٢٥
(٧) سبق تخريجه.

وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ يَمْدَحُ الْكُفَّارُ مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ، وَيَتَنَقَّصُ الْأَنْبِيَاءُ كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، وَيَذُمُّ شُيُوخَ الْمُسْلِمِينَ الْمَحْمُودِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ كالجنيد بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التستري، وَيَمْدَحُ الْمَذْمُومِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ كَالْحَلَّاجِ وَنَحْوِهِ، كَمَا ذَكَرَهُ فِي تَجَلِّيَاتِهِ الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

قال رحمه الله: ...وأيضاً فإنّ كثيراً من الناس لا يكون من أهل الصلاح، ويكون له خوارق شيطانية، كما لعبّاد المشركين وأهل الكتاب، فتتجلّى لهم على أنها كرامات. فمن الناس من يُكذّب بها، ومنهم من يجعل أهلها من أولياء الله، وذلك لأنّ الطائفتين ظنت أنّ مثل هذه الخوارق لا يكون إلا لأولياء الله، ولم يُميّزوا بين الخوارق الشيطانية التي هي جنس ما للسحرة والكهان ولعباد المشركين وأهل الكتاب وللمتنبئين الكذّابين، وبين الكرامات الرحمانية التي يكرم الله بها عباده الصالحين. فلما لم يُميّزوا بين هذا وهذا، وكان كثيرٌ من الكفار والفجار وأهل الضلال والبدع لهم خوارق شيطانيّة، صار هؤلاء منهم حزبين: حزباً قد شاهدوا ذلك، وأخبرهم به من يعرفون صدقه، فقالوا: هؤلاء أولياء الله، وحزباً رأوا أنّ أولئك خارجون عن الشريعة، وعن طاعة الله ورسوله، فقالوا: ليس هؤلاء من الأولياء الذين لهم كرامات، فكذّبوا بوجود ما رآه أولئك، وأولئك قد عاينوا ذلك أو تواتر عندهم، فصار تكذيب هؤلاء مثل تكذيب من ينكر السحر والكهانة والجن وصرعهم للإنس، إذا كذّب ذلك عند من رأى ذلك أو ثبت عنده. ومن كذّب بما تيقن غيره وجوده، نقصت حرمته عند هذا المتيقن، وكان عنده إما جاهلاً وإما معانداً، فربّما ردّ عليه كثيراً من الحق بسبب ذلك.

وبيّن –رحمه الله– خطورة الأمر وأن من ضل في هذا الباب قلب دين الله فعادى أولياءه، ووالى أعداءه على أمر الخوارق والعجائب. قال رحمه الله: ...والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن عدل كثير منهم ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلى الإسلام إلى أن نبذ كتاب الله وراء ظهره، واتبع ما تتلوه الشياطين، فلا يعظم أمر القرآن ولا نهيه، ولا يوالى من أمر القرآن بموالاته، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته، بل يعظم من رآه يأتي ببعض خوارقهم، التي يأتي بمثلها السحرة والكهان بإعانة الشياطين، وهي تحصل بما تتلوه الشياطين، ثم منهم من يعرف أنّ هذا من الشيطان، ولكن يعظم ذلك لهواه، ويفضله على طريق القرآن ليصل به إلى تقديس العامة، وهؤلاء كفار كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾(١) وهؤلاء ضاهوا الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ

---

(١) النساء: الآية ٥١،٥٢

سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ﴾[1] ومنهم من لا يعرف أنّ هذا من الشياطين. وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام والعلم، وأهل العبادة والتصوف، حتى جَوَّزوا عبادة الكواكب والأصنام، لما رأوه فيها من الأحوال العجيبة التي تعينهم عليها الشياطين، لما يحصل لهم بها من بعض أغراضهم من الظلم والفواحش، فلا يبالون بشركهم بالله ولا كفرهم به وبكتابه إذا نالوا ذلك، ولم يبالوا بتعليم ذلك للناس وتعظيمهم لهم لرياسة ينالونها أو مال ينالونه، وإن كانوا قد علموا أنه الكفر والشرك عملوه ودعوا إليه، بل حصل عندهم ريب وشك فيما جاء به الرسول ﷺ أو اعتقاد أنّ الرسول خاطب الجمهور بما لا حقيقة له في الباطن؛ لأجل مصلحة الجمهور، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والملاحدة والباطنية.

وهذه قضية مهمة جداً، يضلّ بها كثير من الناس حين يذهبون للكهّان الذين يظهرون للناس أنهم رقاة بكتاب الله تعالى وبالأدعية النبوية، وأنهم يعالجون بذلك، وأنهم لا يريدون أجراً من الناس ولا شكوراً، وأنهم محتسبون فيما يفعلون، بل قد يعطون الآتي مالاً وغيره، وهذا يفتن الفقير والغني على حد سواء، فأما الفقير فالإحسان يأسره ويستذله، لاسيما وقد جاء ملهوفاً إلى هذا الصالح التالي كتابَ الله تعالى، الذي يطلب وجه الله والدار والآخرة. وكذا الغنى حينما يفد إليه فلا يأخذ منه شيئاً، ولا يطمع في ماله -يخضع له أيضاً، والحق أنّ هذا يطلب دنيا، ويطلب أمراً أشد من المال وغيره، إنه يطلب تقديس الناس له كما قال شيخ الإسلام هنا: يريد تعظيم الناس له وإظهار ضعفهم وذلتهم بين يديه، وإطلاعهم ذلك الكاهن على أسرارهم، ثم دلالة الناس عليه وإرشادهم إليه.

فطلب التقديس والتعظيم والمنزلة في قلوب الناس من أعظم مطالب النفس، لذا أمر العبد بمراعاة قلبه، والحرص على إخلاص العمل لله عزّ وجلّ وحده، وعدم طلب شيء من الناس، فهو لا يطلب أموالهم، وكذا لا يطلب الجاه والمنزلة والتقديس والتعظيم، وهذا ما دخل منه شيوخ الطرق وقادة الفرق على الناس، يكاشفه بالمكاشفات الشيطانية ليعظمه ويقدسه ويخضع له، ثم ينقاد قلبه له فيخافه خوف السر ويرجوه، وتلك من العبادات القلبية، لذا حذّر النبي ﷺ من طلب ذلك الأمر فقال: {مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ}[2] ولابن رجب شرح بديع عليه.

ومن أخصّ صفات الذي رقى اللديغ فقام بإذن الله، أنه ما كان يُعرف برقية، نعم كان في غبراء الناس ﷺ، ثم غدا يرقي ذلك اللديغ، ولما سألوه أبان لهم بأنه لم يرقه إلا بالفاتحة كما هو معلوم، أي أنه رقى بكتاب الله تعالى، ثم طُوي ذكر الرجل المبارك فلا يعرف اسمه على وجه اليقين، فكان عمله لله خالصاً حقاً، ولا يخلي الله أمة مُحَّد ﷺ من مقتدٍ بهذا الصحابي الكريم، وقد يكون أشعث أغبر ذا طمرين، مدفوع بالأبواب.، وإذا كانت النفوس تهفو إلى الشرف والرفعة والعلو والمكانة، فإن هذا من أعظم ما

---

(١) البقرة: الآية ١٠١، ١٠٢

(٢) رواه الترمذي حديث ٢٢٩٨، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح حديث ٥١٨١

يسعى إليه الكهّان والسحرة، فها هم سحرة فرعون عندما جاءوا محشورين من جميع المدائن، وهم أهل علم بالسحر بارعون فيه ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾(١) وفرعون كان داهية يسوس الناس، وهو خبير بنفوس العباد الذين يتعاملون معه، وأنهم طلاب دنيا لا غير، فهم يساومون على دين باطل، وملك جبار لا يرحمهم ولا يرحم غيرهم ، لما رآهم يريدون المال أضاف هو الجاه والمنزلة والعلو والرفعة عند الخلق، فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(٢) ومجموع الأمرين فتنة يهفو إليها كثير من الخلق، فإنّ المال والجاه إذا اجتمعا طغى الإنسان وتاه فخراً، لكن مال بلا جاه ينقص تلك المنزلة، كما إنّ الجاه بلا مال ينقصها أيضاً.

أما عن رؤية النبي ﷺ فقد ذكر شيخ الإسلام في فقهها أموراً مهمة:

الأمر **الأول**: أن يكون الرائي صادقاً براً راشداً، ولا بد أن يكون من رآه في المنام واعتقد أنه النبي ﷺ أن يكون على صورته الحقيقية التي كان عليها، والتي جاء تفصيلها في كتب الشمائل والسنن، فإذا رأى النبي ﷺ على غير الصورة التي نقلها لنا أئمة الحديث بالأسانيد الصحيحة، فمثلاً إذا رأى رجلاً أسود اللون واعتقد أنه الرسول -لم يكن هذا حقاً؛ لأن النبي ﷺ كان أبيض مشرباً بحمرة، كما جاء في شمائل الترمذي وغيره، وإذا رأى رجلاً أمرد وظن أنه النبي ﷺ فقد أخطأ لأنه كان كث اللحية، وهكذا كل أوصافه المنقولة إلينا نقلاً صحيحاً.

الأمر **الثاني**: أنّ رؤية النبي ﷺ على صورته وهيئته تلك لا تكون إلا مناماً، ومن زعم أنه رأى النبي ﷺ يقظة فقد كذب، لأنّ نصوص الشرع وكلام صاحب الرسالة -بأبي هو وأمي- لم يذكر إتيانه يقظة لأحد. وتلك أمور الغيب لا ينبغي فيها الاجتهاد، وقد أخبر النبي ﷺ أنّ الشيطان لا يتمثل به في المنام(٣) أما أن يعبث بالناس في اليقظة، فالنبي ﷺ لم يضمن عصمة ذلك كما ضمنه في المنام، لاسيما أنّ من ذكر الاجتماع به يقظة هم من الذين يخالفون سنته وشريعته يقظة، ويبدعون في دين الله، ويجادلون أتباعه الذين يلزمونهم هديه، وهذا الباب (نعني الاجتماع بالنبي يقظة) زعمه كثير من أهل البدع لاسيما الصوفية

فتح بابين خطيرين، الأول: باب الكهانة وادعاء علم الغيب. والثاني: باب الابتداع في الدين والزيادة فيه.

الأمر **الثالث** الذي ذكره شيخ الإسلام في فقه الرؤى النبوية: أنّ النبي ﷺ في المنام لا يأمر إلا بما أمر به في اليقظة، وأنه في الرؤيا نبي مهدي مبلغ عن رب العزة تعالى، وأنه لا يأمر بعكس ما أمر به في اليقظة، ولا يأتي بأمر جديد ولا بشرع جديد ولا بذكر محدث في المنام. بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الأعراف: الآية ١١٣.
(٢) الأعراف: الآية ١١٤.
(٣) رواه البخاري حديث ١٠٧، ومسلم حديث ٤٢٠٦

الأمر **الرابع**: ذكر شيخ الإسلام أنّ سبب ضلال النصارى وكفرهم، أنهم اعتقدوا أنّ المسيح –عليه السلام– جاءهم يقظة بعد رفعه إلى السماء وهذا لا يكون، فقبلوا ممن جاء وهو ليس عيسى عليه السلام، ولا هو بملك، قبلوا منه شركيات معلومة، بل دعاوى كثيرة لدى النصارى ثبتوها واعتقدوها؛ بناء على تبني كلام من زعموا أنه جاءهم بعد رفع عيسى عليه السلام، فخالفوا ما كان يدعوهم إليه من أنه عبد رسول. وذكر شيخ الإسلام أنّ عيسى كغيره من الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– لم يخرج من هذه الدنيا حتى بلّغ البلاغ المبين، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام. وفقه هذا يعصم من الكهانة، كما يعصم من البدع المضلّة والأهواء المردية التي يلقيها الشيطان على العباد من الكهّان وغيرهم.

المبحث الثاني

بين الكهانة والابتداع

البدع والضلالات وعلاقتها بالكهانة

لقد توعّد الشيطان بني آدم وأقسم للرب الجليل سبحانه أن يضلهم أجمعين، وهو ساعٍ نعوذ بالله منه في تحقيق وعيده سعيا حثيثاً، وأول الشباك التي ينصبها لبني آدم شبكة الشرك التي من وقع فيها خسر الدنيا والآخرة، فإذا عجز عن ذلك نصب شراك البدعة، فإن عجز جاء من طريق الكبائر، كما ذكر ابن القيم -رحمه الله- ذلك.

وفي الكهانة كل هذه الشباك، ففيها الشرك بالله وفيها البدع وفيها المعاصي كلها، ومما يصطاد به العباد في ذلك أنه يحقق لهم بعض الأغراض الدنيوية الزائلة التي يعقبها الوبال والخسران في الدنيا والآخرة، وقد ارتبطت الأحوال الشيطانية بالشرك وبالبدع المضلة، وكلما كان العبد أوغل في الشرك كانت معونة الشيطان له أكبر، وكلما اجتهد في البدعة حقق له الشيطان شيئاً من أغراضه، وفي أمر الكهانة إذا تقرّب الكاهن بما يحبه الشيطان من الشرك، وتعبد بالبدع، وتقرب إلى الشيطان بالفواحش، كاشفه ببعض الأمور التي يضله بها ويضل بها من وراءه، وقد بيّن شيخ الإسلام ذلك بيانًا شافياً، وساق الأمثلة والقصص التي تكشف علاقة الكهانة بالشرك والبدع.

في الاحتساب على الكهانة والكهّان يذكر -رحمه الله- علاقة أهل البدع بذلك، ودورهم في نشر الكهانة بين الناس، ويتكلم هنا -رحمه الله- عمّن يطلقون على أنفسهم أنهم الخاصة وخاصة الخاصة، أولئك المبتدعة الذين ضلّوا فنفوا صفة المحبة الثابتة لله، نفوا أن يحب الله عباداً مخصوصين يعملون أعمالا يحبها ويرضاها، ونفوا محبته لأعمال ذكرها في كتابه وذكرها نبيه في سنته، ويحب ديناً هو دين الإسلام، دين التوحيد الخالص دين الحنيفية، وأنّ هؤلاء الضلال صححوا كل ملة ودين دون فرق، ورضوا جميع الأعمال وجمعوا كل المتناقضات، فالإسلام صحيح مقبول مرضي عند الله، والملل الأخرى الكافرة الجاحدة مرضية عندهم، والعفاف كالزنا سواء بسواء، وهؤلاء الضلال عولوا على أمر الخوارق والعجائب، فمن أتى بها كان على الحق موحداً كان أم مشركاً، براً كان أم فاجراً، صادقاً أم كاذباً، وهذا باب مسخ الشرائع وإبطال الملة الحنيفية، كيف والله قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾[1] قال رحمه الله: فالذين جعلوا الأقوال والأفعال كلها بالنسبة إلى الله سواء، لا يحب شيئاً دون شيء، فلا فرق عنده بين من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً، وبين من يعبد معه آلهة أخرى، وجعلوا الأمر معلقاً بمشيئة ليس معها

(١) القلم: الآية ٣٥.

حكمة ولا رحمة ولا عدل، ولا فرق فيها بين الحسنات والسيئات، طمعت النفس في نيل ما تريده بدون طاعة الله ورسوله.

ثم إذا جوزوا الكرامات لكل من زعم الصلاح، ولم يقيدوا الصلاح بالعلم الصحيح والإيمان الصادق والتقوى، بل جعلوا علامة الصلاح هذه الخوارق، وجوزوا الخوارق مطلقاً، وحكوا في ذلك مكاشفات، وقالوا أقوالا منكرة.

قال شيخ الإسلام: وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ الَّذِينَ فِيهِمْ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، وَلَهُمْ أَحْيَانًا مُكَاشَفَاتٌ وَلَهُمْ تَأْثِيرَاتٌ، أْوُونَ كَثِيرًا إلَى مَوَاضِعِ الشَّيَاطِينِ الَّتِي نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِيهَا؛ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ بِهَا، وَتُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ كَمَا تُخَاطِبُ الْكُهَّانَ، وَكَمَا كَانَتْ تَدْخُلُ فِي الْأَصْنَامِ وَتُكَلِّمُ عَابِدِي الْأَصْنَامِ وَتُعِينُهُمْ فِي بَعْضِ الْمَطَالِبِ، كَمَا تُعِينُ السَّحَرَةَ وَكَمَا تُعِينُ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ وَعُبَّادَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، إذَا عَبَدُوهَا بِالْعِبَادَاتِ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُنَاسِبُهَا مِنْ تَسْبِيحٍ لَهَا وَلِبَاسٍ وَبُخُورٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ شَيَاطِينُ يُسَمُّونَهَا رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ، وَقَدْ تَقْضِي بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ: إمَّا قَتْلَ بَعْضِ أَعْدَائِهِمْ أَوْ إمْرَاضَهُ وَإِمَّا جَلْبَ بَعْضِ مَنْ يَهْوُونَهُ وَإِمَّا إحْضَارَ بَعْضِ الْمَالِ، وَلَكِنَّ الضَّرَرَ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ النَّفْعِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ أَضْعَافَ أَضْعَافِ النَّفْعِ.

وقال رحمه الله: وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَرْبَابَ الْعَزَائِمِ مَعَ كَوْنِ عَزَائِمِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى شِرْكٍ وَكُفْرٍ لَا تَجُوزُ الْعَزِيمَةُ وَالْقَسَمُ بِهِ، فَهُمْ كَثِيرًا مَا يَعْجِزُونَ عَنْ دَفْعِ الْجِنِّيِّ، وَكَثِيرًا مَا تَسْخَرُ مِنْهُمْ الْجِنُّ إذَا طَلَبُوا مِنْهُمْ قَتْلَ الْجِنِّيِّ الصَّارِعِ لِلْإِنْسِ أَوْ حَبْسَهُ، فَيُخَيِّلُوا إلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ أَوْ حَبَسُوهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ تَخْيِيلًا وَكَذِبًا، هَذَا إذَا كَانَ الَّذِي يَرَى مَا يُخَيِّلُونَهُ صَادِقًا فِي الرُّؤْيَةِ، فَإِنَّ عَامَّةَ مَا يَعْرِفُونَهُ لِمَنْ يُرِيدُونَ تَعْرِيفَهُ: إمَّا بِالْمُكَاشَفَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ إنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ عِبَادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَمُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تُضِلُّهُمْ الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ، وَأَمَّا مَا يُظْهِرُونَهُ لِأَهْلِ الْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ أَنَّهُمْ يُمَثِّلُونَ مَا يُرِيدُونَ تَعْرِيفَهُ، فَإِذَا رَأَى الْمِثَالَ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ يَعْرِفُ أَنَّهُ مِثَالٌ، وَقَدْ يُوهِمُونَهُ أَنَّهُ نَفْسُ الْمَرْئِيِّ، وَإِذَا أَرَادُوا سَمَاعَ كَلَامِ مَنْ يُنَادِيهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، مِثْلَ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِبَعْضِ الْعِبَادِ الضَّالِّينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَأَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ عِبَادِ الْمُسْلِمِينَ، إذَا اسْتَغَاثَ بِهِ بَعْضُ مُحِبِّيهِ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي فُلَانُ، فَإِنَّ الْجِنِّيَّ يُخَاطِبُهُ بِمِثْلِ صَوْتِ ذَلِكَ الْإِنْسِيِّ، فَإِذَا رَدَّ الشَّيْخُ عَلَيْهِ الْخِطَابَ، أَجَابَ ذَلِكَ الْإِنْسِيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الصَّوْتِ، وَهَذَا وَقَعَ لِعَدَدٍ كَثِيرٍ أَعْرِفُ مِنْهُمْ طَائِفَةً.(١)

المكاشفات الشيطانية ومخالفة السنة:

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص ١٨٤)

وَأَمَّا "الْوِصَالُ فِي الصِّيَامِ" فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ نَهَى عَنْهُ أَصْحَابَهُ[1]، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ إِلَّا فِي الْوِصَالِ إِلَى السَّحَرِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ كَأَحَدِهِمْ، وَقَدْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ يُوَاصِلُونَ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى شَهْرًا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى شَهْرَيْنِ وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ، وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ نَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَ وَظَهَرَ ذَلِكَ فِي بَعْضِهِمْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِطَرِيقِ اللَّهِ وَأَنْصَحُ الْخَلْقِ لِعِبَادِ اللَّهِ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَطْوَعُهُمْ لَهُ وَأَتْبَعُهُمْ لِسُنَّتِهِ.

وَالْأَحْوَالُ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْ أَعْمَالٍ فِيهَا مُخَالَفَةُ السُّنَّةِ أَحْوَالٌ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا مُكَاشَفَاتٌ وَفِيهَا تَأْثِيرَاتٌ، فَمَنْ كَانَ خَبِيرًا بِهَذَا الْبَابِ عَلِمَ أَنَّ الْأَحْوَالَ الْحَاصِلَةَ عَنْ عِبَادَاتٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ، كَالْأَمْوَالِ الْمَكْسُوبَةِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ، وَالْمُلْكِ الْحَاصِلِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ، فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْ اللَّهُ عَبْدَهُ بِتَوْبَةٍ يَتَّبِعُ بِهَا الطَّرِيقَ الشَّرْعِيَّةَ، وَإِلَّا كَانَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ سَبَبًا لِضَرَرٍ يَحْصُلُ لَهُ، ثُمَّ قَدْ يَكُونُ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ، وَقَدْ يَكُونُ مُذْنِبًا ذَنْبًا مَغْفُورًا لِحَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ، وَقَدْ يَكُونُ مُبْتَلًى بِمَصَائِبَ تُكَفِّرُ عَنْهُ، وَقَدْ يُعَاقَبُ بِسَلْبِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، وَإِذَا أَصَرَّ عَلَى تَرْكِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ السُّنَّةِ وَفِعْلِ مَا نُهِيَ عَنْهُ، فَقَدْ يُعَاقَبُ بِسَلْبِ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ حَتَّى قَدْ يَصِيرُ فَاسِقًا أَوْ دَاعِيًا إِلَى بِدْعَةٍ، وَإِنْ أَصَرَّ عَلَى الْكَبَائِرِ فَقَدْ يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يُسْلَبَ الْإِيمَانَ، فَإِنَّ الْبِدَعَ لَا تَزَالُ تُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَغِيرٍ إِلَى كَبِيرٍ حَتَّى تُخْرِجَهُ إِلَى الْإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ كَمَا وَقَعَ هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِمَّنْ كَانَ لَهُمْ أَحْوَالٌ مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، وَقَدْ عَرَفْنَا مِنْ هَذَا مَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهِ. فَالسُّنَّةُ مِثَالُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، وَعَامَّةُ مَنْ تَجِدُ لَهُ حَالًا مِنْ مُكَاشَفَةٍ أَوْ تَأْثِيرٍ أَعَانَ بِهِ الْكُفَّارَ أَوْ الْفُجَّارَ أَوْ اسْتَعْمَلَهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعْصِيَةٍ، فَإِنَّمَا ذَاكَ نَتِيجَةُ عِبَادَاتٍ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ، كَمَنْ اكْتَسَبَ أَمْوَالًا مُحَرَّمَةً فَلَا يَكَادُ يُنْفِقُهَا إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وقال شيخ الإسلام: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَغِيثُونَ بِالْأَمْوَاتِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّيُوخِ وَأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ غَايَةُ أَحَدِهِمْ أَنَّ يُجْرَى لَهُ بَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ، أَوْ يُحْكَى لَهُمْ بَعْضُ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَيَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ كَرَامَةٌ وَخَرْقُ عَادَةٍ بِسَبَبِ هَذَا الْعَمَلِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِي إِلَى قَبْرِ الشَّيْخِ الَّذِي يُشْرِكُ بِهِ وَيَسْتَغِيثُ بِهِ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ الْهَوَاءِ طَعَامٌ أَوْ نَفَقَةٌ أَوْ سِلَاحٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَطْلُبُهُ، فَيَظُنُّ ذَلِكَ كَرَامَةً لِشَيْخِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي عُبِدَتْ بِهَا الْأَوْثَانُ. وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[2] كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَجَرَ لَا يُضِلُّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ إِلَّا بِسَبَبٍ اقْتَضَى ضَلَالَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا خَلَقَتْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَلْ إِنَّمَا كَانُوا يَتَّخِذُونَهَا شُفَعَاءَ وَوَسَائِطَ لِأَسْبَابٍ: مِنْهُمْ مَنْ

---

(١) رواه البخاري ١٨٢٦، ومسلم ١٨٤٤.

(٢) إبراهيم: الآية ٣٥.

صَوَّرَهَا عَلَى صُوَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا تَمَاثِيلَ وَطَلَاسِمَ لِلْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا لِأَجْلِ الْجِنِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا لِأَجْلِ الْمَلَائِكَةِ. فَالْمَعْبُودُ لَهُمْ فِي قَصْدِهِمْ إِنَّمَا هُوَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ أَوْ الشَّمْسُ أَوْ الْقَمَرُ، وَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ فَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُ مِنْ الْإِنْسِ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَتُظْهِرُ لَهُمْ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾(١) وَإِذَا كَانَ الْعَابِدُ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِلُّ عِبَادَةَ الشَّيَاطِينِ، أَوْهَمُوهُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَدْعُو الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةَ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ يُحْسِنُ الْعَابِدُ ظَنَّهُ بِهِ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُحَرِّمُ عِبَادَةَ الْجِنِّ عَرَّفُوهُ أَنَّهُمْ الْجِنُّ، وَقَدْ يَطْلُبُ الشَّيْطَانُ الْمُتَمَثِّلُ لَهُ فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ، أَوْ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ الْفَاحِشَةَ، أَوْ أَنْ يَأْكُلَ الْمَيْتَةَ وَيَشْرَبَ الْخَمْرَ، أَوْ أَنْ يُقَرِّبَ لَهُمْ الْمَيْتَةَ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ إِمَّا مَلَائِكَةٌ وَإِمَّا رِجَالٌ مِنْ الْجِنِّ يُسَمُّونَهُمْ رِجَالَ الْغَيْبِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ رِجَالَ الْغَيْبِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ غَائِبُونَ عَنْ أَبْصَارِ النَّاسِ، وَأُولَئِكَ جِنٌّ تَمَثَّلَتْ بِصُوَرِ الْإِنْسِ أَوْ رُئِيَتْ فِي غَيْرِ صُوَرِ الْإِنْسِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ كَانَ الْإِنْسُ إِذَا نَزَلَ أَحَدُهُمْ بِوَادٍ يَخَافُ أَهْلَهُ قَالَ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سُفَهَائِهِ، وَكَانَتْ الْإِنْسُ تَسْتَعِيذُ بِالْجِنِّ فَصَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِطُغْيَانِ الْجِنِّ، وَقَالَتْ: الْإِنْسُ تَسْتَعِيذُ بِنَا، وَكَذَلِكَ الرُّقَى وَالْعَزَائِمُ الْأَعْجَمِيَّةُ هِيَ تَتَضَمَّنُ أَسْمَاءَ رِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ يُدْعَوْنَ وَيُسْتَغَاثُ بِهِمْ وَيُقْسَمُ عَلَيْهِمْ بِمَنْ يُعَظِّمُونَهُ، فَتُطِيعُهُمْ الشَّيَاطِينُ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، وَهَذَا مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ وَالشِّرْكِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ وَتَكُونُ الشَّيَاطِينُ قَدْ حَمَلَتْهُ وَتَذْهَبُ بِهِ إِلَى مَكَّةَ وَغَيْرِهَا، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ زِنْدِيقًا يَجْحَدُ الصَّلَاةَ وَغَيْرَهَا مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنَّمَا يَقْتَرِنُ بِهِ أُولَئِكَ الشَّيَاطِينُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، حَتَّى إِذَا آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَابَ وَالْتَزَمَ طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَارَقَتْهُ تِلْكَ الشَّيَاطِينُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ مِنْ الإخبارات وَالتَّأْثِيرَاتِ، وَأَنَا أَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا كَثِيرًا بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ، وَأَمَّا الْجَزِيرَةُ وَالْعِرَاقُ وَخُرَاسَانُ وَالرُّومُ فَفِيهَا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ أَكْثَرُ مِمَّا بِالشَّامِ وَغَيْرِهَا، وَبِلَادُ الْكُفَّارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ أَعْظَمُ، وَإِنَّمَا ظَهَرَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي أَسْبَابُهَا الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ بِحَسَبِ ظُهُورِ أَسْبَابِهَا، فَحَيْثُ قَوِيَ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ وَنُورُ الْفُرْقَانِ

---

(١) سبأ: الآية ٤٠.

وَالْإِيمَانِ، وَظَهَرَتْ آثَارُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، ضَعُفَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ، وَحَيْثُ ظَهَرَ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ، قَوِيَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ، وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ هَذَا وَهَذَا الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَادَّةٌ تَمُدُّهُ لِلْإِيمَانِ وَمَادَّةٌ تَمُدُّهُ لِلنِّفَاقِ، يَكُونُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْحَالِ وَهَذَا الْحَالِ. وَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ مِثْلُ البخشية والطونية وَالْبُدَّى، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَشُيُوخِهِمْ الَّذِينَ يَكُونُونَ لِلْكُفَّارِ مِنْ التُّرْكِ وَالْهِنْدِ الْجَوَارِ وَغَيْرِهِمْ، تَكُونُ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ، وَيَصْعَدُ أَحَدُهُمْ فِي الْهَوَاءِ وَيُحَدِّثُهُمْ بِأُمُورٍ غَائِبَةٍ، وَيَبْقَى الدُّفُّ الَّذِي يُغَنَّى لَهُمْ بِهِ يَمْشِي فِي الْهَوَاءِ وَيَضْرِبُ رَأْسَ أَحَدِهِمْ إذَا خَرَجَ عَنْ طَرِيقِهِمْ وَلَا يَرَوْنَ أَحَدًا يَضْرِبُ لَهُ، وَيَطُوفُ الْإِنَاءُ الَّذِي يَشْرَبُونَ مِنْهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَرَوْنَ مَنْ يَحْمِلُهُ، وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانٍ فَمَنْ نَزَلَ مِنْهُمْ عِنْدَهُ ضَيَّفَهُ طَعَامًا يَكْفِيهِمْ وَيَأْتِيهِمْ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ الشَّيَاطِينِ تَأْتِيهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهَا تَسْرِقُهُ وَتَأْتِي بِهِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ كَثِيرَةٌ عِنْدَ مَنْ يَكُونُ مُشْرِكًا أَوْ نَاقِصَ الْإِيمَانِ مِنْ التُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ التَّتَارِ مِنْ هَذَا أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الدَّاخِلُونَ فِي الْإِسْلَامِ إذَا لَمْ يُحَقِّقُوا التَّوْحِيدَ وَاتِّبَاعَ الرَّسُولِ، بَلْ دَعَوْا الشُّيُوخَ الْغَائِبِينَ وَاسْتَغَاثُوا بِهِمْ، فَلَهُمْ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ نَصِيبٌ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِمَّا يُرْضِي الشَّيْطَانَ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ فِيهِمْ عِبَادَةٌ وَدِينٌ مَعَ نَوْعِ جَهْلٍ، يُحْمَلُ أَحَدُهُمْ فَيُوقَفُ بِعَرَفَاتِ مَعَ الْحُجَّاجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْرِمَ إذَا حَاذَى الْمَوَاقِيتَ، وَلَا يَبِيتُ بمزدلفة وَلَا يَطُوفُ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ بِذَلِكَ عَمَلٌ صَالِحٌ وَكَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِنْ تَلَاعُبِ الشَّيْطَانِ بِهِ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْحَجِّ لَيْسَ مَشْرُوعًا وَلَا يَجُوزُ بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ هَذَا عِبَادَةٌ وَكَرَامَةٌ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهُوَ ضَالٌّ جَاهِلٌ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّحَابَةِ يَفْعَلُ بِهِمْ مِثْلَ هَذَا، فَإِنَّهُمْ أَجَلُّ قَدْرًا مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِبَعْضِ مَنْ حُمِلَ هُوَ وَطَائِفَةٍ مَعَهُ مِنْ الإسكندرية إلَى عَرَفَةَ، فَرَأَى مَلَائِكَةً تَنْزِلُ وَتَكْتُبُ أَسْمَاءَ الْحُجَّاجِ فَقَالَ: هَلْ كَتَبْتُمُونِي؟ قَالُوا أَنْتَ: لَمْ تَحُجّ كَمَا حَجَّ النَّاسُ، أَنْتَ لَمْ تَتْعَبْ وَلَمْ تُحْرِمْ وَلَمْ يَحْصُلْ لَك مِنْ الْحَجِّ الَّذِي يُثَابُ النَّاسُ عَلَيْهِ مَا حَصَلَ لِلْحُجَّاجِ. وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ قَدْ طَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ أَنْ يَحُجَّ مَعَهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا الْحَجُّ لَا يَسْقُطُ بِهِ الْفَرْضُ عَنْكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ لَمْ تَحُجُّوا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

الشياطين لا سلطان لهم على أهل الإخلاص:

قال شيخ الإسلام(١): فأهل الإخلاص والإيمان لا سلطان له عليهم؛ ولهذا يهربون من البيت الذي تُقْرأ فيه سورة البقرة، ويهربون من قراءة آية الكرسي وآخر سورة البقرة، وغير ذلك من قوارع القرآن.

ومن الجنّ من يُخبر بأمور مستقبلة للكهّان وغير الكهّان، ممّا يسترقونه من السمع. والكهانة كانت ظاهرة كثيرةً بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلّت، ثمّ إنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد، وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ كُهّان يتحاكمون إليهم، وكان أبو

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٥/ ص ١٧٣)

بردة بن نيار كاهناً، ثمّ أسلم بعد ذلك، وهو من أسلم. والأصنام لها شياطين كانت تتراءى للسدنة أحياناً، وتكلمهم أحياناً. قال أبي بن كعب: "مع كلّ صنم جنية" وقال ابن عباس: "في كل صنم شيطان تتراءى للسدنة فتكلمهم"

والشياطين كما قال الله تقترن بما يجانسها؛ بأهل الكذب والفجور، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فكيف يجوز أن يقال: إن مثل هذا يكون معجزة لنبيّ أو كرامة لوليّ؟! وهذا يناقض الإيمان ويُضادّه! والأنبياء والأولياء أعداء هؤلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين وَأَن اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[1] وهذا يُظهر الفرق بين أخبار الأنبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلا منه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً * إِلاَّ مَن ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدَاً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِم وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدَاً﴾ فقوله: {على غيبه} هو غيبه الذي اختص به، وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمّن لم يعلمه، وهو شهادة لمن علمه.

فهذا أيضاً تُخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تُخبر به، كما في إخبار المسيح بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[2] فإنّ الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدّخرونه، لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله، كالذي لا يذكر اسم الله إذا دخل فيدخلون معه، وإن لم يذكر اسم الله إذا أكل فإنهم يأكلون معه، وكذلك إذا ادّخر شيئاً، ولم يذكر اسم الله عليه عرفوا به، وقد يسرقون بعضه، كما جرى هذا لكثيرٍ من الناس، وأما من يذكر اسم الله على طعامه، وعلى ما يختاره، فلا سلطان لهم عليه، لا يعرفون ذلك ولا يستطيعون أخذه، والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون ممّا ذُكر اسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به؛ ولهذا من تكون أخباره عن شياطين تُخبره، لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد وأهل القلوب المنورة بنور الله، بل يهرب منهم ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم.

وتعترف الجن والإنس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم -أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن، ويقولون: أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة، وإنما تظهر عند الكفار والفجار؛ وهذا لأنّ أولئك أولياء الشياطين، ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين، ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانيّة، كدخول النّار مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاماً؛ فإنّ الخليل لما أُلقي

(١) يس: الآية ٦٠.
(٢) آل عمران: الآية ٤٩.

في النّار صارت عليه برداً وسلاماً، وكذلك أبو مسلم الخولاني... والذين يدعون الكواكب، تتنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب، وهو شيطانٌ نزل عليه لما أشرك ليغويه، كما تدخل الشياطين في الأصنام، وتكلم أحياناً لبعض الناس، وتتراءى للسدنة أحياناً ولغيرهم أيضاً. وقد يستغيث المشرك بشيخ له غائب، فيحكي الجني صوته لذلك الشيخ، حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد مع بعد المسافة بينهما، ثم إنّ الشيخ يُجيبه، فيحكي الجني صوت الشيخ للمريد، حتى يظنّ أن شيخه سمع صوته وأجابه، وإلا فصوت الإنسان يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم ويومين وأكثر، وقد يحصل للمريد من يؤذيه فيدفعه الجنّي، ويُخيّل للمريد أنّ الشيخ هو دفعه. وقد يُضرب الرجل بحجر فيدفعه عنه الجني، ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك، حتى يقول: إني اتقيت عنك الضرب، وهذا أثره فيَّ. وقد يكونون يأكلون طعاماً، فيُصَوَّرُ نظيره للشيخ ويجعل يده فيه، ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك، حتى يتوهّم الشيخ وهم أنّ يد الشيخ امتدت من الشام إلى مصر، وصارت في ذلك الإناء.

وعمر بن الخطاب لما نادى: يا سارية الجبل، قال: إن لله جنداً يبلِّغونهم صوتي. فعلم أنّ صوته إنما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض الملائكة أو صالحي الجن، فيهتفون بمثل صوته، كالذي ينادي ابنه أو غير ابنه وهو بعيدٌ لا يسمع: يا فلان، فيسمعه من يريد إبلاغه، فينادي: يا فلان، فيسمع ذلك الصوت، وهو المقصود بصوت أبيه. وإلا فصوت البشر ليس في قوته أن يبلغ مسافة أيام.

وفي صحيح مسلم من وجهين: من حديث ابن مسعود، ومن حديث عائشة. وقال ابن مسعود: "إن للقلب لَمَّة من الملك، ولمة من الشيطان، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالحق" فإذا كانت حسنات الإنسان أقوى، أُيِّدَ بالملائكة تأييداً يقهر به الشيطان، وإن كانت سيئاته أقوى، كان جند الشيطان معه أقوى، وقد يلتقي شيطان المؤمن بشيطان الكافر، فشيطان المؤمن مهزول ضعيف، وشيطان الكافر سمين قوي.

فكما أنّ الإنسان بفجوره يؤيد شيطانه على مَلَكه، وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر؛ لأنّ الآخر لم يؤيد مَلَكَه فلم يؤيده أو ضعف عنه؛ لأنّه ليس معه إيمان يعينه، كالرجل الصالح إذا كان ابنه فاجراً، لم يمكنه الدفع عنه لفجوره، وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

سُئِلَ الشَّيْخُ[١] -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَنْ رَجُلٍ مُدْمِنٍ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ مُوَاظِبٌ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَيُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، فَهَلْ يَكْفُرُ ذَلِكَ بِالصَّلَاةِ وَالِاسْتِغْفَارِ؟

الْجَوَابُ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ٦١)

وَقَالَ أَيْضًا شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فَصْلٌ: وَكُلُّ مَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(١) فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ أَيْ لِمَنْ تَابَ، وَقَدْ قَالَ فِي الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢) وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَتُبْ، فَالشِّرْكُ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَمَا دُونَ الشِّرْكِ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَ عَلَيْهِ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَمِنْ الشِّرْكِ أَنْ يَدْعُوَ الْعَبْدُ غَيْرَ اللَّهِ كَمَنْ يَسْتَغِيثُ فِي الْمَخَاوِفِ وَالْأَمْرَاضِ والفاقات بِالْأَمْوَاتِ وَالْغَائِبِينَ، فَيَقُولُ: يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ فُلَانٌ لِشَيْخٍ مَيِّتٍ أَوْ غَائِبٍ، فَيَسْتَغِيثُ بِهِ وَيَسْتَوْصِيه وَيَطْلُبُ مِنْهُ مَا يَطْلُبُ مِنْ اللَّهِ مِنْ النَّصْرِ وَالْعَافِيَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَدْ يَتَمَثَّلُ لِأَحَدِهِمْ صُورَةُ الشَّيْخِ الَّذِي اسْتَغَاثَ بِهِ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ الشَّيْخُ أَوْ مَلَكٌ جَاءَ عَلَى صُورَتِهِ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَمَثَّلَ لَهُ لِيُضِلَّهُ وَيُغْوِيَهُ لَمَّا دَعَا غَيْرَ اللَّهِ، كَمَا كَانَ نَصِيبُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، تُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ وَتَتَرَاءَى لَهُمْ وَتُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، وَإِنْ كَانَ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ مِنْ الْكَذِبِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ شَيَاطِينُ

تعليق: الحق واضح والباطل ظاهر، لكن هناك طلاب دنيا يشترونها بعقائد الناس وإلا فكما قال شيخ الإسلام: كل هؤلاء المبطلون ظاهر عليهم البطلان والكذب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ *تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ فِي الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْحَبَشَةِ، وَفِي الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ الضُّلَّالِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِسْلَامِ، كَأَهْلِ الْإِشَارَاتِ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ إشَارَاتِ الدَّمِ وَالزَّعْفَرَانِ وَاللَّاذَنِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يُغَيِّرُونَ التُّرَابَ أَوْ غَيْرَهُ، فَيَجْعَلُونَهُ كَذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ وَيَأْكُلُ الْحَيَّاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرُخُ فِي بَعْضِ النَّاسِ فَيَمْرَضُ أَوْ يَمُوتُ. وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ تَعْرِضُ لَهُمْ عِنْدَ فِعْلِ مَا يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ، مِثْلُ السَّمَاعُ الْبِدْعِيّ: سَمَاعِ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ قُرْبَةً وَدِينًا تَتَحَرَّكُ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ الْوَجِلِ وَالصِّيَاحِ مَا تَنْزِلُ مَعَهُ الشَّيَاطِينُ، كَمَا يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ فِي بَدَنِ الْمَصْرُوعِ؛ وَلِهَذَا يَزِيدُ أَحَدُهُمْ كَأَزْبَادِ الْمَصْرُوعِ وَيَصِيحُ كَصِيَاحِهِ، وَذَلِكَ صِيَاحُ الشَّيَاطِينِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ؛ وَلِهَذَا لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَا جَرَى مِنْهُ حَتَّى يُفِيقَ، وَيَتَكَلَّمَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِ أَحَدِهِمْ بِكَلَامِ لَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسَانُ، وَيَدْخُلُ أَحَدُهُمْ النَّارَ وَقَدْ لَبِسَهُ الشَّيْطَانُ، وَيَحْصُلُ ذَلِكَ لِقَوْمِ مِنْ النَّصَارَى بِالْمَغْرِبِ وَغَيْرِهِمْ، تَلْبِسُهُمْ الشَّيَاطِينُ فَيَحْصُلُ لَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ، فَهَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعُونَ الْمُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَحْوَالُهُمْ لَيْسَتْ مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّ

---

(١) الزمر: الآية ٥٥:٥٣.
(٢) النساء: الآية ٤٨.

كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ إنَّمَا تَكُونُ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١) وَهُمْ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بِالنَّوَافِلِ الَّتِي نَدَبَهُمْ إلَيْهَا. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا؛ فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ} وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ كَأَبِي يَزِيدَ البسطامي وَغَيْرِهِ: لَوْ رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ أَوْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا وُقُوفَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: لَوْ رَأَيْتُمْ صَاحِبَ بِدْعَةٍ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٢) وَطَرِيقُهُمْ طَرِيقُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِ اللَّهِ الْمُفْلِحِينَ، وَأَمَّا أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالْفُجُورِ فَأَحْوَالُهُمْ مِنْ جِنْسِ أَحْوَالِ "مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ" وَ "الْأَسْوَدِ العنسي" الَّذِينَ ادَّعَيَا النُّبُوَّةَ فِي آخِرِ أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا شَيَاطِينُ تُخْبِرُهُ وَتُعِينُهُ. وَكَانَ العنسي قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى أَرْضِ الْيَمَنِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ قَدْ طَلَبَ مِنْ أَبِي مُسْلِمٍ الخولاني أَنْ يُتَابِعَهُ فَامْتَنَعَ فَأَلْقَاهُ فِي النَّارِ فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا جَرَى لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذَلِكَ مَعَ صَلَاتِهِ وَذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ لِلَّهِ مَعَ سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ. وَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَا تَصِيرُ النَّارُ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا، بَلْ قَدْ يَطْفُونَهَا كَمَا يطفيها النَّاسُ، وَذَلِكَ فِي حَالِ اخْتِلَاطِ عُقُولِهِمْ وَهَيْجِ شَيَاطِينِهِمْ وَارْتِفَاعِ أَصْوَاتِهِمْ، هَذَا إنْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ شَيْطَانِيٌّ، وَإِلَّا فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ، بَلْ يَدْخُلُ فِي نَوْعٍ مِنْ الْمَكْرِ وَالْمُحَالِ، فَيَتَّخِذُ حَجَرَ الطَّلْقِ أَوْ دُهْنَ الضَّفَادِعِ وَأَنْوَاعًا مِنْ الْأَدْوِيَةِ، كَمَا يَصْنَعُونَ مِنْ جِنْسِ مَا تَصْنَعُهُ الْمُشَعْبِذُونَ إخْفَاءَ اللَّاذَنِ وَالسُّكَّرِ فِي يَدِ أَحَدِهِمْ، فَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ: خَاصَّتُهُمْ أَهْلُ حَالٍ شَيْطَانِيٍّ، وَعَامَّتُهُمْ أَهْلُ مُحَالٍ بهتاني. وَهَؤُلَاءِ لَا يُعْطَى أَحَدُهُمْ مِنْ الزَّكَاةِ حَتَّى يَتُوبَ وَيَلْتَزِمَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَحِقِّي الزَّكَاةِ الْمَذْكُورِينَ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(٣) فَأَمَّا مَنْ كَانَ غَنِيًّا لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ فَلَا يُعْطَى مِنْ الزَّكَاةِ، لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ مَعَ غِنَاهُ مِنْ شُيُوخِ الضَّلَالِ مِثْلِ شُيُوخِ الْمُضِلِّينَ الْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَجُوزُ

(١) يونس: الآية ٦٢,٦٣.
(٢) آل عمران: الآية ٣١.
(٣) التوبة: الآية ٦٠.

أَنْ يُعْطَوْا مِنْ الزَّكَاةِ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَهَؤُلَاءِ إذَا قَالُوا لِلْإِنْسَانِ: تُعْطِينَا وَإِلَّا فَإِنِّي أَنَالُك فِي نَفْسِك، فَإِنَّهُ قَدْ تُعِينُهُمْ شَيَاطِينُ عَلَى إضْرَارِ بَعْضِ النَّاسِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، لَكِنْ هَذَا يَكُونُ لِمَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِثْلِ أَهْلِ الْفُجُورِ وَالْبِدَعِ الَّذِينَ لَا يُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهَؤُلَاءِ قَدْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ هَؤُلَاءِ بِذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَغَيْرِهَا، وَيُخْلِصُونَ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَلَا يَدْعُونَ إلَّا اللَّهَ وَلَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَلَا يُنْذِرُونَ إلَّا لِلَّهِ، وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهَؤُلَاءِ جُنْدُ اللَّهِ الْغَالِبُونَ وَحِزْبُ اللَّهِ الْمُفْلِحُونَ، فَإِنَّهُ يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ. وَهَؤُلَاءِ يَهْزِمُونَ شَيَاطِينَ أُولَئِكَ الضَّالِّينَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَ شُهُودِ هَؤُلَاءِ وَاسْتِغَاثَتِهِمْ بِاَللَّهِ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُمْ تِلْكَ الشَّيَاطِين، وَهَؤُلَاءِ مُعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ، يَقُولُونَ: أَحْوَالُنَا مَا تَنْفُذُ قُدَّامَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا تَنْفُذُ قُدَّامَ مَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ مِنْ الْأَعْرَابِ وَالتُّرْكِ وَالْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ. فَهَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ الَّذِينَ يَجِبُ نَهْيُهُمْ وَاسْتِتَابَتُهُمْ، وَمَنْعُهُمْ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَالشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالْفُجُورِ، وَأَمْرِهِمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَاتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخَافَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٢]

العبادات البدعية سبب لتنزلات الشياطين:[٣]

إذْ الْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ فِي أَجْنَاسِ عِبَادَاتٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ حَدَثَتْ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ كَالْخَلَوَاتِ، فَإِنَّهَا تَشْتَبِهُ بِالِاعْتِكَافِ الشَّرْعِيِّ. وَالِاعْتِكَافُ الشَّرْعِيُّ فِي الْمَسَاجِدِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَمَّا الْخَلَوَاتُ فَبَعْضُهُمْ يَحْتَجُّ فِيهَا بِتَحَنُّثِهِ بِغَارِ حِرَاءٍ قَبْلَ الْوَحْيِ وَهَذَا خَطَأٌ؛ فَإِنَّ مَا فَعَلَهُ ﷺ قَبْلَ النُّبُوَّةِ إنْ كَانَ قَدْ شَرَعَهُ بَعْدَ النُّبُوَّةِ، فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِهِ فِيهِ وَإِلَّا فَلَا. وَهُوَ مِنْ حِينِ نَبَّأَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَصْعَدْ بَعْدَ ذَلِكَ إلَى غَارِ حِرَاءٍ وَلَا خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ.

---

(١) آل عمران: الآية ١٧٥:١٧٣.
(٢) البقرة: الآية ١٥٣:١٥٠.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٨٢)

وَقَدْ أَقَامَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَدَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ وَعَامَ الْفَتْحِ، أَقَامَ بِهَا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَأَتَاهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَأَقَامَ بِهَا أَرْبَعَ لَيَالٍ، وَغَارُ حِرَاءٍ قَرِيبٌ مِنْهُ وَلَمْ يَقْصِدْهُ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا كَانُوا يَأْتُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيُقَالُ: إنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ هُوَ سَنَّ لَهُمْ إتْيَانَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ هَذِهِ الْعِبَادَاتُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا بَعْدَ النُّبُوَّةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَالصَّلَاةِ وَالِاعْتِكَافِ فِي الْمَسَاجِدِ فَهَذِهِ تُغْنِي عَنْ إتْيَانِ حِرَاءٍ، بِخِلَافِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ {فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ بَلْ قَالَ لَهُ الْمَلَكُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اقْرَأْ. قَالَ: صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ فَقُلْت: لَسْت بِقَارِئٍ}[1] وَلَا كَانُوا يَعْرِفُونَ هَذِهِ الصَّلَاةَ؛ وَلِهَذَا لَمَّا صَلَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ نَهَاهُ عَنْهَا مَنْ نَهَاهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ كَأَبِي جَهْلٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْت إنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2] و"طَائِفَةٌ" يَجْعَلُونَ الْخَلْوَةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَيُعَظِّمُونَ أَمْرَ الأربعينية، وَيَحْتَجُّونَ فِيهَا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاعَدَ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّهَا بِعَشْرِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– صَامَهَا وَصَامَ الْمَسِيحُ أَيْضًا أَرْبَعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَخُوطِبَ بَعْدَهَا، فَيَقُولُونَ يَحْصُلُ بَعْدَهَا الْخِطَابُ وَالتَّنَزُّلُ، كَمَا يَقُولُونَ فِي غَارِ حِرَاءٍ حَصَلَ بَعْدَهُ نُزُولُ الْوَحْيِ، وَهَذَا أَيْضًا غَلَطٌ فَإِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ مِنْ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَلْ شُرِعَتْ لِمُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– كَمَا شُرِعَ لَهُ السَّبْتُ وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَسْبِتُونَ، وَكَمَا حُرِّمَ فِي شَرْعِهِ أَشْيَاءُ لَمْ تُحَرَّمْ فِي شَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ

فَهَذَا تَمَسُّكٌ بِشَرْعٍ مَنْسُوخٍ، وَذَاكَ تَمَسُّكٌ بِمَا كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ.

وَقَدْ جُرِّبَ أَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ الْبِدْعِيَّةَ أَتَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَحَصَلَ لَهُ تَنَزُّلٌ شَيْطَانِيٌّ وَخِطَابٌ شَيْطَانِيٌّ، وَبَعْضُهُمْ يَطِيرُ بِهِ شَيْطَانُهُ، وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ عَدَدًا طَلَبُوا أَنْ يَحْصُلَ لَهُمْ مِنْ جِنْسِ مَا حَصَلَ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ التَّنَزُّلِ، فَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ؛ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3]

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَحُدُّ لِلْخَلْوَةِ مَكَانًا وَلَا زَمَانًا بَلْ يَأْمُرُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَخْلُوَ فِي الْجُمْلَةِ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ مَقْصُودُنَا إلَّا جَمْعَ النَّفْسِ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ، حَتَّى يَقُولَ: لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِك: يَا حَيُّ وَقَوْلِك يَا جَحْشُ. وَهَذَا مِمَّا قَالَهُ لِي شَخْصٌ مِنْهُمْ وَأَنْكَرْت ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ أَنْ تَجْتَمِعَ النَّفْسُ حَتَّى يَتَنَزَّلَ عَلَيْهَا الشَّيْطَانُ.[4]

---

(١) رواه البخاري ٣، ومسلم ٢٣١.
(٢) العلق: الآية ١٩:١٠.
(٣) الجاثية: الآية ١٨.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٨٣)

فَصْلٌ[1]: وَأَهْلُ الْعِبَادَاتِ الْبِدْعِيَّةِ يُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ، وَيُبَغِّضُ إِلَيْهِمْ السُّبُلَ الشَّرْعِيَّةَ حَتَّى يُبَغِّضَهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، فَلَا يُحِبُّونَ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَلَا ذِكْرَهُ، وَقَدْ يُبَغِّضُ إِلَيْهِمْ حَتَّى الْكِتَابَ فَلَا يُحِبُّونَ كِتَابًا وَلَا مَنْ مَعَهُ كِتَابٌ وَلَوْ كَانَ مُصْحَفًا أَوْ حَدِيثًا، كَمَا حَكَى النصرباذي أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: يَدَعُ عِلْمَ الْخِرَقِ وَيَأْخُذُ عِلْمَ الْوَرَقِ، قَالَ: وَكُنْت أَسْتُرُ أَلْوَاحِي مِنْهُمْ، فَلَمَّا كَبِرْت احْتَاجُوا إلَى عِلْمِي. وَكَذَلِكَ حَكَى السَّرِيُّ السقطي: أَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ دَخَلَ عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأَى عِنْدَهُ مِحْبَرَةً وَقَلَمًا خَرَجَ وَلَمْ يَقْعُدْ عِنْدَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التستري: يَا مَعْشَرَ الصُّوفِيَّةِ لَا تُفَارِقُوا السَّوَادَ عَلَى الْبَيَاضِ، فَمَا فَارَقَ أَحَدٌ السَّوَادَ عَلَى الْبَيَاضِ إلَّا تَزَنْدَقَ. وَقَالَ الجنيد: عِلْمُنَا هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبْ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَنْفِرُ مِمَّنْ يَذْكُرُ الشَّرْعَ أَوْ الْقُرْآنَ، أَوْ يَكُونُ مَعَهُ كِتَابٌ أَوْ يَكْتُبُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَشْعَرُوا أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ فِيهِ مَا يُخَالِفُ طَرِيقَهُمْ، فَصَارَتْ شَيَاطِينُهُمْ تُهَرِّبُهُمْ مِنْ هَذَا كَمَا يُهَرِّبُ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ابْنَهُ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى لَا يَتَغَيَّرَ اعْتِقَادُهُ فِي دِينِهِ، وَكَمَا كَانَ قَوْمُ نُوحٍ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَيَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَلَا يَرَوْهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[3] وَهُمْ مِنْ أَرْغَبْ النَّاسِ فِي السَّمَاعِ الْبِدْعِيِّ سَمَاعِ الْمَعَازِفِ، وَمِنْ أَزْهَدِهِمْ فِي السَّمَاعِ الشَّرْعِيِّ سَمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ مِمَّا زَيَّنَ لَهُمْ طَرِيقَهُمْ أَنْ وَجَدُوا كَثِيرًا مِنْ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ وَالْكُتُبِ مُعْرِضِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ، إمَّا اشْتِغَالًا بِالدُّنْيَا وَإِمَّا بِالْمَعَاصِي، وَإِمَّا جَهْلًا وَتَكْذِيبًا بِمَا يَحْصُلُ لِأَهْلِ التَّأَلُّهِ وَالْعِبَادَةِ، فَصَارَ وُجُودُ هَؤُلَاءِ مِمَّا يُنَفِّرُهُمْ، وَصَارَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ نَوْعُ تَبَاغُضٍ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ: هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَيْسَ هَؤُلَاءِ عَلَى شَيْءٍ، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَيْسَ هَؤُلَاءِ عَلَى شَيْءٍ، وَقَدْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَحْصُلُ لَهُمْ بِطَرِيقِهِمْ أَعْظَمُ مِمَّا يَحْصُلُ فِي الْكُتُبِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يُلَقَّنُ الْقُرْآنَ بِلَا تَلْقِينٍ، وَيَحْكُونَ أَنَّ شَخْصًا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ وَهَذَا كَذِبٌ، نَعَمْ قَدْ يَكُونُ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ فَلَمَّا صَفَّى نَفْسَهُ تَذَكَّرَهَا فَتَلَاهَا، فَإِنَّ الرِّيَاضَةَ تَصْقُلُ النَّفْسَ فَيَذْكُرُ أَشْيَاءَ كَانَ قَدْ نَسِيَهَا، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ أَوْ يُحْكَى أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ: أَخَذُوا عِلْمَهُمْ مَيِّتًا عَنْ مَيِّتٍ، وَأَخَذْنَا عِلْمَنَا عَنْ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ. وَهَذَا يَقَعُ لَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّمَا يُلْقَى إلَيْهِ مِنْ خِطَابٍ أَوْ خَاطِرٍ هُوَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِلَا وَاسِطَةٍ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ فُرْقَانٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّحْمَانِيِّ وَالشَّيْطَانِيِّ، فَإِنَّ الْفَرْقَ الَّذِي لَا يُخْطِئُ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ خَطَأٌ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٨٦)

(٢) فصلت: الآية ٢٦.

(٣) المدثر: الآية ٤٩:٥١.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾[(١)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(٢)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[(٣)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[(٤)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(٥)] ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا ظَنُّوا أَنَّ هَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ صَارُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ مِنَ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ. يَقُولُ أَحَدُهُمْ: فُلَانٌ عَطِيَّتُهُ عَلَى يَدِ مُحَمَّدٍ وَأَنَا عَطِيَّتِي مِنَ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ. وَيَقُولُ أَيْضًا: فُلَانٌ يَأْخُذُ عَنِ الْكِتَابِ، وَهَذَا الشَّيْخُ يَأْخُذُ عَنِ اللَّهِ وَمِثْلُ هَذَا. وَقَوْلُ الْقَائِلِ: "يَأْخُذُ عَنِ اللَّهِ، وَأَعْطَانِي اللَّهُ" لَفْظٌ مُجْمَلٌ فَإِنْ أَرَادَ بِهِ الْإِعْطَاءَ وَالْأَخْذَ الْعَامَّ وَهُوَ الْكَوْنِيُّ الخلقي، أَيْ: بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ حَصَلَ لِي هَذَا فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يُشَارِكُونَهُ فِي هَذَا، وَذَلِكَ الَّذِي أَخَذَ عَنِ الْكِتَابِ هُوَ أَيْضًا عَنِ اللَّهِ أَخَذَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ.

فَصْلٌ[(٦)]: وَمِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ وَأَعْظَمِ الْفَرَائِضِ عِنْدَهُ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي مَوَاقِيتِهَا، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ مِنْ عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ لَمْ يَجْعَلْ فِيهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَاسِطَةً، وَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ، وَهِيَ أَهَمُّ أَمْرِ الدِّينِ كَمَا كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَكْتُبُ إِلَى عُمَّالِهِ: إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا كَانَ لِمَا سِوَاهَا مِنْ عَمَلِهِ أَشَدَّ إِضَاعَةً. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ}[(٧)] وَقَالَ: {الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ

---

(١) الأنبياء: الآية ٥٠.
(٢) الإسراء: الآية ٩,١٠.
(٣) الشورى: الآية ٥٢,٥٣.
(٤) إبراهيم: الآية ١.
(٥) الأعراف: الآية ١٥٧.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٩٢)
(٧) رواه مسلم حديث ٨٢.

كَفَرَ}[1] فَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ وُجُوبَهَا عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ بَالِغٍ غَيْرِ حَائِضٍ وَنُفَسَاءَ فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهَا وَيُثِيبُ عَلَيْهَا، وَصَلَّى مَعَ ذَلِكَ وَقَامَ اللَّيْلَ وَصَامَ النَّهَارَ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَهَا عَلَى كُلِّ بَالِغٍ، فَهُوَ أَيْضًا كَافِرٌ مُرْتَدٌّ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ بَالِغٍ عَاقِلٍ. وَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهَا تَسْقُطُ عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ الْعَارِفِينَ وَالْمُكَاشِفِينَ وَالْوَاصِلِينَ، أَوْ أَنَّ لِلَّهِ خَوَاصَّ لَا تَجِبُ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ، بَلْ قَدْ سَقَطَتْ عَنْهُمْ لِوُصُولِهِمْ إلَى حَضْرَةِ الْقُدْسِ أَوْ لِاسْتِغْنَائِهِمْ عَنْهَا بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا أَوْ أَوْلَى، أَوْ أَنَّ الْمَقْصُودَ حُضُورُ الْقَلْبِ مَعَ الرَّبِّ، أَوْ أَنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا تَفْرِقَةٌ فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي جَمْعِيَّتِهِ مَعَ اللَّهِ فَلَا يَحْتَاجُ إلَى الصَّلَاةِ، بَلْ الْمَقْصُودُ مِنْ الصَّلَاةِ هِيَ الْمَعْرِفَةُ فَإِذَا حَصَلَتْ لَمْ يَحْتَجْ إلَى الصَّلَاةِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَحْصُلَ لَك خَرْقُ عَادَةٍ: كَالطَّيَرَانِ فِي الْهَوَاءِ وَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ أَوْ مَلْءِ الْأَوْعِيَةِ مَاءً مِنْ الْهَوَاءِ أَوْ تَغْوِيرِ الْمِيَاهِ وَاسْتِخْرَاجِ مَا تَحْتَهَا مِنْ الْكُنُوزِ وَقَتْلِ مَنْ يُبْغِضُهُ بِالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَمَتَى حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ اسْتَغْنَى عَنْ الصَّلَاةِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّ لِلَّهِ رِجَالًا خَوَاصَّ لَا يَحْتَاجُونَ إلَى مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَلْ اسْتَغْنَوْا عَنْهُ كَمَا اسْتَغْنَى الْخَضِرُ عَنْ مُوسَى، أَوْ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَاشَفَ وَطَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ فَهُوَ وَلِيٌّ سَوَاءٌ صَلَّى أَوْ لَمْ يُصَلِّ، أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّ الصَّلَاةَ تُقْبَلُ مِنْ غَيْرِ طَهَارَةٍ، أَوْ أَنَّ المولهين والمتولهين وَالْمَجَانِينَ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي الْمَقَابِرِ وَالْمَزَابِلِ وَالطِّهَارَاتِ وَالْخَانَاتِ والقمامين وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْبِقَاعِ، وَهُمْ لَا يَتَوَضَّئُونَ وَلَا يُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عَنْ الْإِسْلَامِ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ وَلَوْ كَانَ فِي نَفْسِهِ زَاهِدًا عَابِدًا.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَسْتَجْلِبُ الْحَالَ الشَّيْطَانِيَّ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا يُحِبُّهُ فَيَرْقُصَ رَقْصًا عَظِيمًا حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ، أَوْ يَغُطَّ وَيَخُورَ حَتَّى يَجِيئَهُ الْحَالُ الشَّيْطَانِيُّ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَقْصِدُ التَّوَلُّهَ حَتَّى يَصِيرَ مُولَهًا.[2]

تعليق: وهذا الكلام العظيم المفيد الذي لا يتحدث عنه إلا من خبر أولئك المشركين المبتدعين، واحتسب عليهم ودخل دهاليزهم وقذفهم بالتوحيد، فاتضح له من الخلوات والزهادات والرباطات، فإن كل ما ذكره رأيته بأم عيني مع مجموعة كبيرة من السحرة، وقد فصلنا طريقة تلك الخلوات في كتب السحر وغيره.

فروق بين النبي والمجنون والكاهن:[3]

من المعلوم أنّ الشياطين قد تلقي على ألسنة بعض المجانيين ما تضلّ به عباد الله، وهذا مشاهد في واقع المسلمين، وقد بيّن شيخ الإسلام حال المجنون وخوارقه وكشوفه، وتحدث عن تنزيه الله لأنبيائه من ذلك، قال شيخ الإسلام: وَأَمَّا "الْجُنُونُ" فَقَدْ نَزَّهَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ نَقَائِصِ الْإِنْسَانِ؛ إذْ كَمَالُ الْإِنْسَانِ بِالْعَقْلِ؛ وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ إزَالَةَ الْعَقْلِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَحَرَّمَ مَا يَكُونُ ذَرِيعَةً إلَى إزَالَةِ الْعَقْلِ كَشُرْبِ

---

(١) رواه الترمذي حديث ٢٦٢١، وهو في صحيح الجامع برقم ٤١٤٣.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٩٤)
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٩٥)

الْخَمْرِ، فَحَرَّمَ الْقَطْرَةَ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ تُزِلِ الْعَقْلَ؛ لِأَنَّهَا ذَرِيعَةٌ إِلَى شُرْبِ الْكَثِيرِ الَّذِي يُزِيلُ الْعَقْلَ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَعَ هَذَا زَوَالُ الْعَقْلِ سَبَبًا أَوْ شَرْطًا أَوْ مُقَرِّبًا إِلَى وِلَايَةِ اللَّهِ كَمَا يَظُنُّهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ؟ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ فِي هَؤُلَاءِ:

هُمْ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وَخَرَقُوا … السِّيَاجَ فَلَا فَرْضٌ لَدَيْهِمْ وَلَا نَفْلُ

مَجَانِينُ إِلَّا أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ … عَزِيزٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ

فَهَذَا كَلَامُ ضَالٍّ، بَلْ كَافِرٍ يَظُنُّ أَنَّ لِلْمَجْنُونِ سِرًّا يَسْجُدُ الْعَقْلُ عَلَى بَابِهِ؛ وَذَلِكَ لِمَا رَآهُ مِنْ بَعْضِ الْمَجَانِينِ مِنْ نَوْعِ مُكَاشَفَةٍ أَوْ تَصَرُّفٍ عَجِيبٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، كَمَا يَكُونُ لِلسَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ، فَيَظُنُّ هَذَا الضَّالُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَاشَفَ أَوْ خَرَقَ عَادَةً كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ. وَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ فَضْلًا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَكُونُ لَهُمْ مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَخَرْقِ الْعَادَاتِ بِسَبَبِ شَيَاطِينِهِمْ أَضْعَافُ مَا لِهَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَضَلَّ وَأَكْفَرَ كَانَ الشَّيْطَانُ إِلَيْهِ أَقْرَبَ، لَكِنْ لَا بُدَّ فِي جَمِيعِ مُكَاشَفَةِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ، وَلَا بُدَّ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ فُجُورٍ وَطُغْيَانٍ، كَمَا يَكُونُ لِإِخْوَانِهِمْ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ فَكُلُّ مَنْ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ كَذِبٌ وَفُجُورٌ مِنْ أَيِّ قِسْمٍ كَانَ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ، فَمَنِ اعْتَقَدَ فِيمَنْ لَا يَفْعَلُ الْفَرَائِضَ وَلَا النَّوَافِلَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ إِمَّا لِعَدَمِ عَقْلِهِ أَوْ جَهْلِهِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَنِ اعْتَقَدَ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عَنْ دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِذَا قَالَ: أَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(1) وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ}(2) فَإِذَا كَانَ طَبَعَ عَلَى قَلْبِ مَنْ تَرَكَ الْجُمَعَ وَإِنْ صَلَّى الظُّهْرَ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يُصَلِّي ظُهْرًا وَلَا جُمُعَةً وَلَا فَرِيضَةً وَلَا نَافِلَةً وَلَا يَتَطَهَّرُ لِلصَّلَاةِ لَا الطَّهَارَةَ الْكُبْرَى وَلَا الصُّغْرَى؟ فَهَذَا لَوْ كَانَ قَبْلُ مُؤْمِنًا وَكَانَ قَدْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا بِمَا تَرَكَهُ وَلَمْ يَعْتَقِدْ وُجُوبَهُ مِنْ هَذِهِ الْفَرَائِضِ، وَإِنِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا، فَكَيْفَ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أَيْ: اسْتَوْلَى. يُقَالُ: حَاذَ الْإِبِلَ

(١) المنافقون: الآية ١:٣.
(٢) رواه الترمذي ٨٨٨، وصححه الألباني في المشكاة ١٣٧١.

حَوْذًا إِذَا اسْتَاقَهَا، فَالَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَسَاقَهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾(١) أَيْ تُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا فَهَؤُلَاءِ ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢) وَفِي السُّنَنِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ لَا يُؤَذَّنُ وَلَا تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلَاةُ إِلَّا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ}(٣) فَأَيُّ ثَلَاثَةٍ كَانُوا مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُؤَذَّنُ وَلَا تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلَاةُ كَانُوا مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ أَكْرَمَهُمْ؛ فَإِنْ كَانُوا عُبَّادًا زُهَّادًا وَلَهُمْ جُوعٌ وَسَهَرٌ وَصَمْتٌ وَخَلْوَةٌ كَرُهْبَانِ الدِّيَارَاتِ وَالْمُقِيمِينَ فِي الْكُهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ، كَأَهْلِ جَبَلِ لُبْنَانَ وَأَهْلِ جَبَلِ الْفَتْحِ الَّذِي باسون وَجَبَلِ ليسون وَمَغَارَةِ الدَّمِ بِجَبَلِ قاسيون، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْجِبَالِ وَالْبِقَاعِ الَّتِي يَقْصِدُهَا كَثِيرٌ مِنْ الْعُبَّادِ الْجُهَّالِ الضُّلَّالِ، وَيَفْعَلُونَ فِيهَا خَلَوَاتٍ وَرِيَاضَاتٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤَذَّنَ، وَتُقَامَ فِيهِمْ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، بَلْ يَتَعَبَّدُونَ بِعِبَادَاتٍ لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، بَلْ يَعْبُدُونَهُ بِأَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِيدِهِمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِأَحْوَالِهِمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا قَصْدِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٤) الْآيَةُ. فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ شَهِدَ لَهُمْ بِوِلَايَةِ اللَّهِ فَهُوَ شَاهِدُ زُورٍ كَاذِبٌ وَعَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ نَاكِبٌ، ثُمَّ إِنْ كَانَ قَدْ عَرَفَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُخَالِفُونَ لِلرَّسُولِ، وَشَهِدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا مُكَذِّبٌ لِلرَّسُولِ، وَإِمَّا شَاكٌّ فِيمَا جَاءَ بِهِ مُرْتَابٌ، وَإِمَّا غَيْرُ مُنْقَادٍ لَهُ بَلْ مُخَالِفٌ لَهُ إِمَّا جُحُودًا أَوْ عِنَادًا أَوْ اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ، وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ كَافِرٌ.

إنكار المعتزلة للكرامات والسحر والكهانة:

قال شيخ الإسلام: ...كما أدخلت المعتزلة ونحوهم إنكار كرامات الأولياء، وإنكار السحر والكهانة في الشرع، بناءً على أنّ ذلك يقدح في آيات الأنبياء؛ فجمعوا بين التكذيب بهذه الأمور الموجودة، وبين عدم العلم بآيات الأنبياء والفرق بينها وبين غيرها، حيث ظنوا أنّ هذه الخوارق الشيطانية من جنس آيات الأنبياء، وأنها نظير لها، فلو وقعت لم يكن للأنبياء ما يتميّزون به... إلى أن يقول: وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قيل له: {إن منا قوماً يأتون الكهان. قال: فلا يأتوهم} وسُئِل عن الكهّان وما يخبرون به؟ فأخبر أنّ الجن تسترق السمع، وتخبرهم به.(٥) فالكتاب والسنة أثبتا وجود الكاهن، وأحمد قد نصّ على أنه يُقتل كالساحر، لكن الكاهن إنما عنده أخبار، والساحر عنده تصرف: بقتل وإمراض وغير

(١) مريم: الآية ٨٣.
(٢) المجادلة: الآية ١٩.
(٣) رواه أبو داود ٤٦٠، وصححه الألباني في المشكاة ١٠٦٧.
(٤) آل عمران: الآية ٣١.
(٥) سبق وهو في مسلم.

ذلك. وهذا (أي الكهانة) تطلبه النفوس أكثر. وابن صياد كان كاهناً، ولهذا قال له النبيّ ﷺ: {قد خبّأتُ لك خبيًّاً. فقال: الدُّخّ. فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك إنّما أنت من إخوان الكهان} ولما قضى في الجنين بغرة، قال حمل بن مالك: أيودى من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل. فقال: {إنّما أنت من أخوان الكهّان} من أجل سجعه الذي سجع، فكانوا يسجعون أساجيع، وقد رأيت من هؤلاء شيوخاً يسجعون أساجيع كأساجيع الكهّان، ويكون كثيرٌ منها صدقاً، ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر في قوله: ﴿وَمَا هُو بِقَولِ شَاعِرٍ قَليلاً مَا تُؤمِنُون * وَلا بِقَولِ كَاهِنٍ قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وكذلك في الشعراء: ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيل رَبِّ العَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين﴾ إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُم كَاذِبُونَ﴾ وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرشِ مَكِينٍ مُطاع ثَمَّ أمين * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُون * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المبِين * وَمَا هُوَ عَلَى الغَيبِ بِظَنِين * وَمَا هُوَ بِقَولِ شَيْطَانٍ رَجِيم * فَأَينَ تَذْهَبُون * إِنْ هُوَ إِلا ذِكرٌ للعَالَمِينَ﴾(١)

فلما أخبر به أنه قول رسول؛ هو ملك من الملائكة، نفى أن يكون قول شيطان. ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر، نفى أن يكون قول شاعر أو كاهن، فهذا تنزيه للقرآن نفسه، ونزَّه الرسولَ أن يكون على الغيب بظنين: أي متّهم، وأن يكون بمجنون، فالجنون: فسادٌ في العلم، والتهمة: فسادٌ في القصد. كما قالوا: ساحرٌ أو مجنون. وقال في الطور: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُون * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيبَ المنُون * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِني مَعَكُمْ مِنَ المتَرَبِّصِين﴾(٢) وقد أخبر عن الأنبياء قبله: أنه ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون﴾(٣) ولم يقولوا: كاهن؛ لأنّ الكاهن عند العرب: هو الذي يتكلم بكلام مسجوع، وله قرين من الجن. وهذا الاسم ليس بذمّ عند أهل الكتاب، بل يسمون أكثر العلماء بهذا الاسم، ويسمُّون هارون –عليه السلام– وأولاده الذين عندهم التوراة بهذا الاسم. والقدر المشترك: العلم بالأمور الغائبة والحكم بها. فعلماء أهل الكتاب يُخبرون بالغيب، ويحكمون به عن الوحي الذي أوحاه الله. وكهان العرب كانت تفعل ذلك عن وحي الشياطين، وتمتاز بأنها تسجع الكلام، بخلاف اسم الساحر؛ فإنه اسم معروف في جميع الأمم، وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم الذي تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة، ولكون الساحر يأتي بالخوارق شبَّهوا النبي به، وقالوا: ساحر. فدلّ ذلك على قدرٍ مشترك.

(١) التكوير: الآية ١٩:٢٧.
(٢) الطور: الآية ٢٩:٣١.
(٣) الذاريات: الآية ٥٢.

الكرامات من أنواع الخوارق: (من كتاب النبوات)

١- قال شيخ الإسلام: مراتب الخوارق، فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثمّ كرامات الصالحين، ثمّ خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين، وأهل الكتاب، والضلاّل من المسلمين.

٢- كرامات الأولياء من دلائل الأنبياء، وتكون باتباعهم.

قال شيخ الإسلام: الكرامات سببها اتباع الأنبياء أمّا الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها، فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء، فإنّهم يقولون: نحن إنّما حصل لنا هذا باتّباع الأنبياء، ولو لم نتّبعهم لم يحصل لنا هذا. فهؤلاء إذا قُدّر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للأنبياء، كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم كما صارت على إبراهيم، وكما يكثّر الله الطعام والشراب لكثيرٍ من الصّالحين كما جرى في بعض المواطن للنبيّ، أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للأنبياء.

كرامات الأولياء معجزات للأنبياء فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدّمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحدٍ قطّ إلى مثل معجزات المرسلين، كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يُشاركونهم في بعضها، كما قد يُشاركونهم في بعض أعمالهم.

اعتقادات خاطئة فيما يخص الأولياء:

١- قال شيخ الإسلام....وقالت طائفة: بل كل هذا حقٌ، وخرق العادة جائزٌ مطلقاً، وكلّ ما خُرق لنبيّ من العادات يجوز أن يُخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان.

٢- الأشاعرة لم يجعلوا بين المعجزات والكرامات فرقاً، ثمّ هؤلاء جوّزوا كرامات الصالحين، ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الأنبياء فرقٌ، بل صرّح أئمتهم أنّ كلّ ما خُرق لنبيّ، يجوز أن يخرق للأولياء، حتى معراج محمّد، وفرق البحر لموسى، وناقة صالح، وغير ذلك.

٣- ومن الناس من فرّق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء بفروق ضعيفة، مثل قولهم: الكرامة يُخفيها صاحبها، أو الكرامة لا يُتحدّى بها. ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها، كإظهار العلاء بن الحضرمي المشي على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر، وإظهار أبي مسلم لما أُلقي في النار أنّها صارت عليه برداً وسلاماً، وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين، فإنّه قد يُطفئها، إلاّ أنّها لا تصير عليه برداً وسلاماً، وإطفاء النار مقدورٌ للإنس والجنّ، ومنها ما يتحدّى بها صاحبها أنّ دين الإسلام حقّ، كما فعل خالد ابن الوليد لما شرب السُّمَّ، وكالغلام

الذي أتى الراهب وترك الساحر، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربّه، وكان قبل ذلك قد خُرِقت له العادة فلم يتمكّنوا من قتله. ومثل هذا كثير.

٤- كرامات الأولياء معجزات لنبيهم: قال شيخ الإسلام: وقد ذكر غير واحد من العلماء أنّ كرامات الأولياء معجزات لنبيّهم، وهي من آيات نبوته، وهذا هو الصواب، كقصة أبي مسلم الخولاني وغيره، ممّا جرى لهذه الأمة من الآيات، ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين، وعلى يد موسى وأتباعه... وأما كرامات الأولياء: فهي أيضاً من آيات الأنبياء؛ فإنّها إنّما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة، فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوّة.

٥- وأيضاً فإنّ كرامات الأولياء معتادةٌ من الصالحين، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك؛ فانشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حيّة، وخروج الدابة من صخرة، لم يكن مثله للأولياء؛ وكذلك خلق الطير من الطين، ولكنّ آياتِهم صغارٌ وكبارٌ؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى﴾[١] فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة، وقال عن نبيّه محمّد: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾[٢] فالآيات الكبرى مختصة بهم.

٦- وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبياء كما تقدّم، ولكن ليست من آياتهم الكبرى، ولا يتوقّف إثبات النبوة عليها، وليست خارقة لعادة الصالحين، بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل في أهل الكتاب والمسلمين.

أنّ خوارق غير الأنبياء: الصالحين، والسحرة، والكهان، وأهل الشرك والبدع، تُنال بأفعالهم كعبادتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك، وأمّا آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك، بل الله يفعلها آيةً وعلامةً لهم، وقد يُكرمهم بمثل كرامات الصالحين وأعظم من ذلك، مما يقصد به إكرامهم. لكن هذا النوع يُقصد به الإكرام والدلالة، بخلاف الآيات المجردة، كانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء، والإتيان بالقرآن، والإخبار بالغيب الذي يختصّ الله به. فأمرُ الآيات إلى الله، لا إلى اختيار المخلوق، واللهُ يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته، كما يُنزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات، بخلاف ما حصل باختيار العبد؛ إما لكونه يفعل ما يُوجبه، أو يدعو الله به فيجيبه. فالخوارق التي ليست آيات: تارةً تكون بدعاء العبد، والله تعالى يُجيب دعوة المضطر إذا دعاه، وإن كان كافراً ولكن للمؤمنين من إجابة الدعاء ما ليس لغيرهم، وتارةً تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعوانه، وبمن يُطيعه من الجنّ والإنس في حصولها. وأما آيات الأنبياء: فلا تحصل بشيء من ذلك

---

(١) النازعات: الآية ٧٩.
(٢) النجم: الآية ٦٢.

المبحث الثالث

بيان شيخ الإسلام للفروق بين كرامات الأولياء وبين غيرها من كهانة وغيرها

قال شيخ الإسلام: وقد يمشي على الماء قوم بتأييد الله لهم وإعانته إياهم بالملائكة، كما يحكى عن المسيح، وكما جرى للعلاء بن الحضرمي، ولأبي مسلم الخولاني في عبور الجيش، وذلك إعانة على الجهاد في سبيل الله، كما يؤيّد الله المؤمنين بالملائكة، ليس هو من فعل الشياطين. والفرق بينهما من جهة السبب، ومن جهة الغاية.

أما **السبب**: فإنّ الصالحين يُسمّون الله ويذكرونه ويفعلون ما يحبه الله: من توحيده وطاعته، فييسر لهم بذلك ما ييسره، ومقصودهم به نصر الدين، والإحسان إلى المحتاجين. وما تفعله الشياطين يحصل بسبب الشرك والكذب والفجور، والمقصود به الإعانة على مثل ذلك.

والجن الذين يطيعون الإنس، وتستخدمهم الإنس ثلاثة أصناف: أعلاها: أن يأمروهم بما أمر الله به، ورسله، فيأمرونهم بعبادة الله وحده وطاعة رسله؛ فإنّ الله أوجب على الجنّ طاعة الرسل، كما أوجب ذلك على الإنس، وقال تعالى:﴿ وَيَومَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَد اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضَاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يومِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُم كَانُوا كَافِرين * ذَلكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١)

وذكر رحمه الفروق بين الكرامات الرحمانية الربانية وبين الأحوال والأفعال والأخبار الشيطانية، فقال(٢):

وَبَيْنَ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَا يُشْبِهُهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فُرُوقٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْهَا:

أَنَّ "كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ" سَبَبُهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى وَ"الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ" سَبَبُهَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) فَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالْفَوَاحِشُ قَدْ حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ سَبَبًا لِكَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَرَامَاتِ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ تَحْصُلُ بِمَا يُحِبُّهُ الشَّيْطَانُ وَبِالْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا شِرْكٌ كَالِاسْتِغَاثَةِ

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٨:١٣١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤٩٧)

(٣) الأنعام: الآية ٣٣.

بِالْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ كَانَتْ مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى ظُلْمِ الْخَلْقِ وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ، فَهِيَ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ لَا مِنْ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إذَا حَضَرَ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي الْهَوَاءِ وَيُخْرِجَهُ مِنْ تِلْكَ الدَّار، فَإِذَا حَصَلَ رَجُلٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى طَرَدَ شَيْطَانه، فَيَسْقُطُ كَمَا جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِمَخْلُوقِ إمَّا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْحَيُّ مُسْلِمًا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مُشْرِكًا، فَيَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ وَيَقْضِي بَعْضَ حَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغِيثِ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَوْ هُوَ مَلَكٌ عَلَى صُورَتِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَضَلَّهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاَللَّهِ، كَمَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَدْخُلُ الْأَصْنَامَ وَتُكَلِّمُ الْمُشْرِكِينَ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَصَوَّرُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الْخَضِرُ، وَرُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ وَأَعَانَهُ عَلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ، كَمَا قَدْ جَرَى ذَلِكَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ بِأَرْضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، يَمُوتُ لَهُمْ الْمَيِّتُ فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَى صُورَتِهِ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَيِّتُ، وَيَقْضِي الدُّيُونَ، وَيَرُدُّ الْوَدَائِعَ، وَيَفْعَلُ أَشْيَاءَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَيِّتِ، وَيَدْخُلُ عَلَى زَوْجَتِهِ، وَيَذْهَبُ، وَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ أَحْرَقُوا مَيِّتَهُمْ بِالنَّارِ كَمَا تَصْنَعُ كُفَّارُ الْهِنْدِ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ عَاشَ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخٌ كَانَ بِمِصْرِ أَوْصَى خَادِمَهُ فَقَالَ: إذَا أَنَا مُتّ فَلَا تَدَعْ أَحَدًا يُغَسِّلُنِي فَأَنَا أَجِيءُ وَأُغَسِّلُ نَفْسِي، فَلَمَّا مَاتَ رأى خَادِمُهُ شَخْصًا فِي صُورَتِهِ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ هُوَ دَخَلَ وَغَسَّلَ نَفْسَهُ، فَلَمَّا قَضَى ذَلِكَ الدَّاخِلُ غُسْلَهُ -أَيْ غُسْلَ الْمَيِّتِ- غَابَ وَكَانَ ذَلِكَ شَيْطَانًا وَكَانَ قَدْ أَضَلَّ الْمَيِّتَ، وَقَالَ: إنَّك بَعْدَ الْمَوْتِ تَجِيءُ فَتُغَسِّلُ نَفْسَك، فَلَمَّا مَاتَ جَاءَ أَيْضًا فِي صُورَتِهِ لِيُغْوِيَ الْأَحْيَاءَ كَمَا أَغْوَى الْمَيِّتَ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى عَرْشًا فِي الْهَوَاءِ وَفَوْقَهُ نُورٌ، وَيَسْمَعُ مَنْ يُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا رَبُّك، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عَلِمَ أَنَّهُ شَيْطَانٌ فَزَجَرَهُ وَاسْتَعَاذَ بِاَللَّهِ مِنْهُ فَيَزُولُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَشْخَاصًا فِي الْيَقَظَةِ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَيْخٌ مِنْ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ جَرَى هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَعْضَ الْأَكَابِرِ: إمَّا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ غَيْرُهُ قَدْ قَصَّ شَعْرَهُ أَوْ حَلَقَهُ أَوْ أَلْبَسَهُ طَاقِيَّتَهُ أَوْ ثَوْبَهُ، فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ طَاقِيَّةٌ وَشَعَرُهُ مَحْلُوقٌ أَوْ مُقَصَّرٌ، وَإِنَّمَا الْجِنُّ قَدْ حَلَقُوا شَعْرَهُ أَوْ قَصَّرُوهُ.

وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ تَحْصُلُ لِمَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ دَرَجَاتٌ، وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَهُمْ عَلَى مَذْهَبِهِمْ، وَالْجِنُّ فِيهِمْ الْكَافِرُ وَالْفَاسِقُ وَالْمُخْطِئُ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسِيُّ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ جَاهِلًا دَخَلُوا مَعَهُ فِي الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ، وَقَدْ يُعَاوِنُونَهُ إذَا وَافَقَهُمْ عَلَى مَا يَخْتَارُونَهُ مِنْ الْكُفْرِ، مِثْلُ الْإِقْسَامِ عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءِ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ، وَمِثْلُ أَنْ يَكْتُبَ أَسْمَاءَ اللَّهِ أَوْ بَعْضَ كَلَامِهِ بِالنَّجَاسَةِ، أَوْ يَقْلِبَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَوْ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ أَوْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَوْ غَيْرَهُنَّ وَيَكْتُبَهُنَّ

بِنَجَاسَةٍ، فَيُغَوِّرُونَ لَهُ الْمَاءَ وَيَنْقُلُونَهُ بِسَبَبِ مَا يُرْضِيهِمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ. وَقَدْ يَأْتُونَهُ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ صَبِيٍّ إمَّا فِي الْهَوَاءِ وَإِمَّا مَدْفُوعًا مَلْجَأً إلَيْهِ. إلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي يَطُولُ وَصْفُهَا وَالْإِيمَانُ بِهَا إيمَانٌ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ. وَالْجِبْتُ السِّحْرُ وَالطَّاغُوتُ الشَّيَاطِينُ وَالْأَصْنَامُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ مُطِيعًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَمْ يُمْكِنْهُمْ الدُّخُولُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ أَوْ مُسَالَمَتُهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ عِبَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْرُوعَةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ كَانَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ أَبْعَدَ عَنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَكَانَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ يُعَظِّمُونَ الْقُبُورَ وَمَشَاهِدَ الْمَوْتَى، فَيَدْعُونَ الْمَيِّتَ أَوْ يَدْعُونَ بِهِ أَوْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَهُ مُسْتَجَابٌ أَقْرَبُ إلَى الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَإِنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ}[١] وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ لَيَالٍ: {إنَّ مَنْ آمِنِ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْت مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ. لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إلَّا سُدَّتْ إلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ. إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ}[٢] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ فِي مَرَضِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَذَكَرُوا مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا فَقَالَ: {إنَّ أُولَئِكَ إذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهَا تِلْكَ التَّصَاوِيرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[٣] وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ ﷺ قَالَ: {إنَّ مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ}[٤] وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إلَيْهَا} وَفِي الْمُوَطَّأِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: {اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ}[٥] وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: {لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي}[٦] وَقَالَ ﷺ: {مَا مِنْ رَجُلٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ}[٧] وَقَالَ ﷺ: {إنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَائِكَةً يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ}[٨] وَقَالَ ﷺ: {أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمْعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْك وَقَدْ أَرَمْت أَيْ بَلِيتَ؟ فَقَالَ إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الْأَنْبِيَاءِ}[٩] وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالُوا لَا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم ٤٣٩٠.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) سبق تخريجه.
(٨) صحيح الترغيب والترهيب ١٦٦٧.
(٩) رواه أبو داود ٨٨٣، وهو في السلسلة الصحيحة ١٥٢٧.

تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[١] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَانُوا صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ فَكَانَ هَذَا مَبْدَأَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ لِيَسُدَّ بَابَ الشِّرْكِ، كَمَا نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ وَقْتَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَوَقْتَ غُرُوبِهَا؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِينَئِذٍ وَالشَّيْطَانُ يُقَارِنُهَا وَقْتَ الطُّلُوعِ وَوَقْتَ الْغُرُوبِ، فَتَكُونُ فِي الصَّلَاةِ حِينَئِذٍ مُشَابَهَةٌ لِصَلَاةِ الْمُشْرِكِينَ فَسَدَّ هَذَا الْبَابَ.

تعليق: رحمة الله على شيخ الإسلام وهو يحتسب على هؤلاء يقرر التوحيد، ويحمي حياضه، ويبيّن ما جاء به الرسول ﷺ من تحريم الشرك وتحريم الطرق إليه، والاحتساب على السحرة باب عظيم من أبواب الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، وقطع علائق الناس بالشياطين وأوليائهم، ونهيهم عن البدع والمحدثات، وعن التعلق بالقبور والمشاهد والأضرحة.

يكمل شيخ الإسلام فيقول: وَالشَّيْطَانُ يُضِلُّ بَنِي آدَمَ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ فَمَنْ عَبَدَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَدَعَاهَا -كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ- فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يُخَاطِبُهُ وَيُحَدِّثُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحَانِيَّةَ الْكَوَاكِبِ وَهُوَ شَيْطَانٌ، وَالشَّيْطَانُ وَإِنْ أَعَانَ الْإِنْسَانَ عَلَى بَعْضِ مَقَاصِدِهِ فَإِنَّهُ يَضُرُّهُ أَضْعَافَ مَا يَنْفَعُهُ، وَعَاقِبَةُ مَنْ أَطَاعَهُ إلَى شَرٍّ إلَّا أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ قَدْ تُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَكَذَلِكَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِمَيِّتِ أَوْ غَائِبٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ دَعَا الْمَيِّتَ أَوْ دَعَا بِهِ أَوْ ظَنَّ أَنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَسَاجِدِ، وَيَرْوُونَ حَدِيثًا هُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَهُوَ: "إذَا أَعْيَتْكُمْ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ"[٢] وَإِنَّمَا هَذَا وَضْعُ مَنْ فَتَحَ بَابَ الشِّرْكِ. وَيُوجَدُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ: مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَالنَّصَارَى وَالضُّلَّالِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ -أَحْوَالٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدِ يَظُنُّونَهَا كَرَامَاتٍ وَهِيَ مِنْ الشَّيَاطِينِ، مِثْلُ أَنْ يَضَعُوا سَرَاوِيلَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَيَجِدُونَهُ قَدْ انْعَقَدَ، أَوْ يُوضَعُ عِنْدَهُ مَصْرُوعٌ فَيَرَوْنَ شَيْطَانَهُ قَدْ فَارَقَهُ، يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ هَذَا لِيُضِلَّهُمْ، وَإِذْ قَرَأْت آيَةَ الْكُرْسِيِّ هُنَاكَ بِصِدْقِ بَطَلَ هَذَا، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ؛ وَلِهَذَا حَمَلَ بَعْضَهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَقَالَ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَسَقَطَ. وَمِثْلُ أَنْ يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّ الْقَبْرَ قَدْ انْشَقَّ وَخَرَجَ مِنْهُ إنْسَانٌ فَيَظُنُّهُ الْمَيِّتُ وَهُوَ شَيْطَانٌ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَوْضِعُ.

---

(١) نوح: الآية ٢٣.

(٢) لم نعثر عليه فيما هو معروف من كتب الحديث وأورده ابن تيمية في مواضع من كتبه وحكم عليه بالوضع وكذا تلميذه ابن القيم في إغاثة اللهفان.

الولاية تحصل بالاقتداء بالرسول ﷺ والكهانة وأشباهها بمخالفته ﷺ:

قال شيخ الإسلام[1]: فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُقْتَدُونَ بِمُحَمَّدِ ﷺ فَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ وَيَنْتَهُونَ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ، وَيَقْتَدُونَ بِهِ فِيمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ فِيهِ، فَيُؤَيِّدُهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ وَرُوحٍ مِنْهُ وَيَقْذِفُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارِهِ وَلَهُمْ الْكَرَامَاتُ الَّتِي يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ الْمُتَّقِينَ.

وَخِيَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَرَامَاتُهُمْ لِحُجَّةٍ فِي الدِّينِ أَوْ لِحَاجَةٍ بِالْمُسْلِمِينَ، كَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّهِمْ ﷺ كَذَلِكَ. وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إنَّمَا حَصَلَتْ بِبَرَكَةِ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَدْخُلُ فِي مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ مِثْلُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَتَسْبِيحِ الْحَصَا فِي كَفِّهِ[2] وَإِتْيَانِ الشَّجَرِ إلَيْهِ[3] وَحَنِينِ الْجِذْعِ إلَيْهِ[4] وَإِخْبَارِهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِصِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَإِخْبَارِهِ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَإِتْيَانِهِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، كَمَا أَشْبَعَ فِي الْخَنْدَقِ الْعَسْكَرَ مِنْ قِدْرِ طَعَامٍ.[5]

وَهُوَ لَمْ يَنْقُصْ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ الْمَشْهُورِ، وَأَرْوَى الْعَسْكَرَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ مِنْ مَزَادَةِ مَاءٍ وَلَمْ تَنْقُصْ[6] وَمَلَأَ أَوْعِيَةَ الْعَسْكَرِ عَامَ تَبُوكَ مِنْ طَعَامٍ قَلِيلٍ وَلَمْ يَنْقُصْ وَهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا[7] وَنَبَعَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[8] مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى كَفَى النَّاسَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ كَمَا كَانُوا فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أَوْ خَمْسِمِائَةٍ[9] وَرَدِّهِ لِعَيْنِ أَبِي قتادة حِينَ سَالَتْ عَلَى خَدِّهِ فَرَجَعَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ[10] وَلَمَّا مُحَمَّدَ بْنَ مسلمة لِقَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ فَوَقَعَ وَانْكَسَرَتْ رِجْلُهُ فَمَسَحَهَا فَبَرِئَتْ[11] وَأَطْعَمَ مِنْ شِوَاءٍ وَثَلَاثِينَ رَجُلًا كُلًّا مِنْهُمْ حَزَّ لَهُ قِطْعَةً وَجَعَلَ مِنْهَا قِطْعَتَيْنِ فَأَكَلُوا مِنْهَا جَمِيعُهُمْ ثُمَّ فَضَلَ فَضْلَةٌ[12] وَدَيْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَابِرٍ لِلْيَهُودِيِّ وَهُوَ ثَلَاثُونَ وَسْقًا. قَالَ جَابِرٌ: فَأَمَرَ صَاحِبَ الدَّيْنِ أَنْ يَأْخُذَ التَّمْرَ جَمِيعَهُ بِالَّذِي كَانَ لَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ فَمَشَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ لِجَابِرِ: جُدْ لَهُ فَوَفَّاهُ الثَّلَاثِينَ وَسْقًا وَفَضَلَ سَبْعَةَ عَشَرَ وَسْقًا[13] وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ قَدْ جَمَعْت نَحْوَ أَلْفِ مُعْجِزَةٍ.

وَكَرَامَاتُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ كَثِيرَةٌ جِدًّا:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢ / ص ٤٩٦)
(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني برقم ٣٦٣٣.
(٣) في صحيح مسلم حديث ٣٠١٢.
(٤) رواه البخاري حديث ٣٥٨٥.
(٥) رواه البخاري حديث ٤١٠٢، ومسلم حديث ٢٠٣٩.
() رواه البخاري حديث ٣٥٧١، ومسلم حديث ٦٨٢.
(٧) سبق وهو صحيح.
(٨) رواه مسلم ٣٠٣١.
(٩) رواه البخاري ٣٥٧٦، ومسلم ١٨٥٦.
(١٠) قصة رد عين أبي قتادة إسنادها مرسل، وضعف الذهبي اسنادها في تاريخ الإسلام، وراجع كتاب شاع يثبت في السيرة محمد عبد الله العوشن ص ١٢٠.
(١١) الصحابي الذي وقع له ذلك هو عبد الله بن عتيك وقصته في البخاري ٤٠٣٩، أما قصة قتل ابن الأشرف فليس فيها ذلك.
(١٢) رواه البخاري ٢٦١٨، ومسلم ٢٠٥٦.
(١٣) رواه البخاري ٥٤٤٣.

مِثْلُ مَا كَانَ أسيد بْنُ حضير يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، فَنَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَاءَتِهِ.(١) وَكَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ.(٢) وَكَانَ سَلْمَانُ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ يَأْكُلَانِ فِي صَحْفَةٍ فَسَبَّحَتْ الصَّحْفَةُ أَوْ سَبَّحَ مَا فِيهَا.

وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ وأسيد بْنُ حضير خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا نُورٌ مِثْلُ طَرَفِ السَّوْطِ فَلَمَّا افْتَرَقَا افْتَرَقَ الضَّوْءُ مَعَهُمَا.(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَقِصَّةُ الصِّدِّيقِ فِي الصَّحِيحَيْنِ لَمَّا ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَضْيَافٍ مَعَهُ إلَى بَيْتِهِ وَجَعَلَ لَا يَأْكُلُ لُقْمَةً إلَّا رَبَى مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا فَشَبِعُوا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَبْلَ ذَلِكَ فَنَظَرَ إلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ وَامْرَأَتُهُ فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ فَرَفَعَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَاءَ إلَيْهِ أَقْوَامٌ كَثِيرُونَ فَأَكَلُوا مِنْهَا وَشَبِعُوا.(٤) وَخبيب بْنُ عَدِيٍّ كَانَ أَسِيرًا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ -شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى- وَكَانَ يُؤْتَى بِعِنَبِ يَأْكُلُهُ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ عِنَبَةٌ.(٥) وَعَامِرُ بْنُ فهيرة قُتِلَ شَهِيدًا فَالْتَمَسُوا جَسَدَهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ وَكَانَ لَمَّا قُتِلَ رُفِعَ فَرَآهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَقَدْ رُفِعَ(٦) وَقَالَ عُرْوَةُ: فَيَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ رَفَعَتْهُ. وَخَرَجَتْ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً وَلَيْسَ مَعَهَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ فَكَادَتْ تَمُوتُ مِنْ الْعَطَشِ فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الْفِطْرِ وَكَانَتْ صَائِمَةً سَمِعَتْ حِسًّا عَلَى رَأْسِهَا فَرَفَعَتْهُ فَإِذَا دَلْوٌ مُعَلَّقٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ حَتَّى رُوِيَتْ وَمَا عَطِشَتْ بَقِيَّةَ عُمْرِهَا. وَسَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ الْأَسَدَ بِأَنَّهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَشَى مَعَهُ الْأَسَدُ حَتَّى أَوْصَلَهُ مَقْصِدَهُ.

وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ كَانَ إذَا أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبَرَّ قَسَمَهُ، وَكَانَ الْحَرْبُ إذَا اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ يَقُولُونَ: يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّك. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْسَمْت عَلَيْك لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ فَيُهْزَمُ الْعَدُوُّ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ (الْقَادِسِيَّةِ) قَالَ: أَقْسَمْت عَلَيْك يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتنَا أَكْتَافَهُمْ وَجَعَلْتنِي أَوَّلَ شَهِيدٍ فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا.

وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حَاصَرَ حِصْنًا مَنِيعًا فَقَالُوا: لَا نُسْلِمُ حَتَّى تَشْرَبَ السُّمَّ فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ مَا دَعَا قَطُّ إلَّا أُسْتُجِيبَ لَهُ وَهُوَ الَّذِي هَزَمَ جُنُودَ كِسْرَى وَفَتَحَ الْعِرَاقَ.

وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا أَرْسَلَ جَيْشًا أَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا يُسَمَّى سَارِيَةَ، فَبَيْنَمَا عُمَرُ يَخْطُبُ فَجَعَلَ يَصِيحُ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلَ، فَقَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقِينَا عَدُوًّا فَهَزَمُونَا فَإِذَا بِصَائِحِ: يَا سَارِيَةَ الْجَبَلَ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلَ، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ فَهَزَمَهُمْ اللَّهُ.

---

(١) رواه مسلم حديث ١٣٢٧.
(٢) رواه مسلم حديث ١٢٢٦.
(٣) صحيح البخاري ٤٤٥.
(٤) رواه البخاري حديث ٦١٤١، ومسلم ٢٠٥٧.
(٥) مسند أحمد حديث ٧٧٤٩
(٦) صحيح البخاري حديث٣٧٨٤.

وَلَمَّا عُذِّبَتْ الزِّبِيرَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي اللهِ فَأَبَتْ إِلَّا الْإِسْلَامَ وَذَهَبَ بَصَرُهَا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَصَابَ بَصَرَهَا اللَّاتَ وَالْعُزَّى. قَالَتْ: كَلَّا وَاللهِ فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا.

وَدَعَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ عَلَى أَرْوَى بِنْتِ الْحَكَمِ فَأُعْمِيَ بَصَرُهَا لَمَّا كَذَبْت عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا فَعَمِيَتْ وَوَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ مِنْ أَرْضِهَا فَمَاتَتْ.

وَالعَلَاءُ بْنُ الْحَضْرَمِيّ كَانَ عَامِلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْبَحْرَيْنِ وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا عَلِيمُ يَا حَلِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ فَيُسْتَجَابُ لَهُ، وَدَعَا اللهَ بِأَنْ يُسْقُوا وَيَتَوَضَّئُوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالْإِسْقَاءَ لِمَا بَعْدَهُمْ فَأُجِيبَ، وَدَعَا اللهَ لَمَّا اعْتَرَضَهُمْ الْبَحْرُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخُيُولِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُ خُيُولِهِمْ، وَدَعَا اللهَ أَنْ لَا يَرَوْا جَسَدَهُ إِذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ.

وَجَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني الَّذِي أُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَإِنَّهُ مَشَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْعَسْكَرِ عَلَى دِجْلَةَ وَهِيَ تُرْمَى بِالْخَشَبِ مِنْ مَدِّهَا، ثُمَّ الْتَفَتَ إلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: تَفْقِدُونَ مِنْ مَتَاعِكُمْ شَيْئًا حَتَّى أَدْعُوَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَقَدْت مِخْلَاةً. فَقَالَ: اتْبَعْنِي فَتَبِعَهُ فَوَجَدَهَا قَدْ تَعَلَّقَتْ بِشَيْءٍ فَأَخَذَهَا، وَطَلَبَهُ الْأَسْوَدُ العنسي لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَقَالَ لَهُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَسْمَعُ. قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُلْقِيَ فِيهَا، فَوَجَدُوهُ قَائِمًا يُصَلِّي فِيهَا وَقَدْ صَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَجْلَسَهُ عُمَرُ بَيْنَهُ وَبَيْن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، وَوَضَعَتْ لَهُ جَارِيَةٌ السُّمَّ فِي طَعَامِهِ فَلَمْ يَضُرَّهُ، وَخَبَّبَتْ امْرَأَةٌ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ فَدَعَا عَلَيْهَا فَعَمِيَتْ، وَجَاءَتْ وَتَابَتْ فَدَعَا لَهَا فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهَا بَصَرَهَا.

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ يَأْخُذُ عَطَاءَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ فِي كُمِّهِ وَمَا يَلْقَاهُ سَائِلٌ فِي طَرِيقِهِ إلَّا أَعْطَاهُ بِغَيْرِ عَدَدٍ، ثُمَّ يَجِيءُ إلَى بَيْتِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَدَدُهَا وَلَا وَزْنُهَا، وَمَرَّ بِقَافِلَةٍ قَدْ حَبَسَهُمْ الْأَسَدُ فَجَاءَ حَتَّى مَسَّ بِثِيَابِهِ الْأَسَدَ ثُمَّ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَقَالَ: إنَّمَا أَنْتَ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الرَّحْمَنِ وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أَخَافَ شَيْئًا غَيْرَهُ، وَمَرَّتْ الْقَافِلَةُ، وَدَعَا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْهِ الطُّهُورَ فِي الشِّتَاءِ فَكَانَ يُؤْتَى بِالْمَاءِ لَهُ بُخَارٌ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَمْنَعَ قَلْبَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ.

وَتَغَيَّبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ الْحَجَّاجِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ سِتَّ مَرَّاتٍ فَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَرَوْهُ، وَدَعَا عَلَى بَعْضِ الْخَوَارِجِ كَانَ يُؤْذِيه فَخَرَّ مَيِّتًا.

وَصِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ مَاتَ فَرَسُهُ وَهُوَ فِي الْغَزْوِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِمَخْلُوقٍ عَلَيَّ مِنَّةً وَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَحْيَا لَهُ فَرَسَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إلَى بَيْتِهِ قَالَ: يَا بُنَيَّ خُذْ سَرْجَ الْفَرَسِ فَإِنَّهُ عَارِيَةٌ، فَأَخَذَ سَرْجَهُ فَمَاتَ الْفَرَسُ، وَجَاعَ مَرَّةً بِالْأَهْوَازِ فَدَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَطْعَمَهُ، فَوَقَعَتْ خَلْفَهُ دَوْخَلَة رُطَبٍ فِي ثَوْبِ حَرِيرٍ فَأَكَلَ التَّمْرَ وَبَقِيَ الثَّوْبُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ زَمَانًا، وَجَاءَ الْأَسَدُ وَهُوَ يُصَلِّي فِي غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ أُطْلُبْ الرِّزْقَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَوَلَّى الْأَسَدُ وَلَهُ زَئِيرٌ.

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ فِي أَيَّامِ الْحَرَّةِ يَسْمَعُ الْأَذَانَ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ وَكَانَ الْمَسْجِدُ قَدْ خَلَا فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُهُ. وَرَجُلٌ مِنْ (النَّخْعِ) كَانَ لَهُ حِمَارٌ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: هَلُمَّ نَتَوَزَّعُ مَتَاعَك عَلَى رِحَالِنَا فَقَالَ لَهُمْ: أَمْهِلُونِي هُنَيْهَةً ثُمَّ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى، فَأَحْيَا لَهُ حِمَارَهُ فَحَمَلَ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ.

وَلَمَّا مَاتَ أُوَيْسٌ الْقَرْنِيُّ وَجَدُوا فِي ثِيَابِهِ أَكْفَانًا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ قَبْلُ، وَوَجَدُوا لَهُ قَبْرًا مَحْفُورًا فِيهِ لَحْدٌ فِي صَخْرَةٍ، فَدَفَنُوهُ فِيهِ وَكَفَّنُوهُ فِي تِلْكَ الْأَثْوَابِ.

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُقْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ يُصَلِّي يَوْمًا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ فَأَظَلَّتْهُ غَمَامَةٌ، وَكَانَ السَّبْعُ يَحْمِيه وَهُوَ يَرْعَى رِكَابَ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِطُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الْغَزْوِ أَنَّهُ يَخْدِمُهُمْ.

وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشخير إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ سَبَّحَتْ مَعَهُ آنِيَتُهُ، وَكَانَ هُوَ وَصَاحِبٌ لَهُ يَسِيرَانِ فِي ظُلْمَةٍ فَأَضَاءَ لَهُمَا طَرَفُ السَّوْطِ.

وَلَمَّا مَاتَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَقَعَتْ قَلَنْسُوَةُ رَجُلٍ فِي قَبْرِهِ فَأَهْوَى لِيَأْخُذَهَا فَوَجَدَ الْقَبْرَ قَدْ فُسِحَ فِيهِ مَدَّ الْبَصَرِ. وَكَانَ إبْرَاهِيمُ التيمي يُقِيمُ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ لَا يَأْكُلُ شَيْئًا وَخَرَجَ يَمْتَارُ لِأَهْلِهِ طَعَامًا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَمَرَّ بِسَهْلَةٍ حَمْرَاءَ فَأَخَذَ مِنْهَا ثُمَّ رَجَعَ إلَى أَهْلِهِ فَفَتَحَهَا، فَإِذَا هِيَ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ فَكَانَ إذَا زَرَعَ مِنْهَا تَخْرُجُ السُّنْبُلَةُ مِنْ أَصْلِهَا إلَى فَرْعِهَا حَبًّا مُتَرَاكِبًا.

وَكَانَ عتبة الْغُلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ صَوْتًا حَسَنًا وَدَمْعًا غَزِيرًا وَطَعَامًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ، فَكَانَ إذَا قَرَأَ بَكَى وَأَبْكَى وَدُمُوعُهُ جَارِيَةٌ دَهْرَهُ، وَكَانَ يَأْوِي إلَى مَنْزِلِهِ فَيُصِيبُ فِيهِ قُوتَهُ وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيه.

وَكَانَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ أَصَابَهُ الْفَالِجُ فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُطْلِقَ لَهُ أَعْضَاءَهُ وَقْتَ الْوُضُوءِ، فَكَانَ وَقْتَ الْوُضُوءِ تُطْلَقُ لَهُ أَعْضَاؤُهُ ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهُ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَأَمَّا مَا نَعْرِفُهُ عَنْ أَعْيَانٍ وَنَعْرِفُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَكَثِيرٌ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لَا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ، بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً.

وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ مِثْلُ حَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ الدَّجَّالُ، وَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَمْرِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدَّجَّالُ، لَكِنَّهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ خَبَّأْت لَك خَبْئًا. قَالَ: الدُّخُّ الدُّخُّ. وَقَدْ كَانَ خَبَّأَ لَهُ سُورَةَ الدُّخَانِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك}[1] يَعْنِي إنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ، وَالْكُهَّانُ

(١) سبق وهو في الصحيحين.

كَانَ يَكُونُ لِأَحَدِهِمْ الْقَرِينُ مِنْ الشَّيَاطِينِ، يُخْبِرُهُ بِكَثِيرِ مِنْ الْمُغَيَّبَاتِ بِمَا يَسْتَرِقُهُ مِنْ السَّمْعِ، وَكَانُوا يَخْلِطُونَ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: {إنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ، فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتُوحِيه إلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: {بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ إذْ رُمِيَ بِنَجْمِ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إذَا رَأَيْتُمُوهُ؟ قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ يَمُوتُ عَظِيمٌ أَوْ يُولَدُ عَظِيمٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْأَلُ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتَخْطَفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَيَرْمُونَ فَيَقْذِفُونَهُ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ} وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مُعَمَّرٌ قُلْت لِلزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَلَكِنَّهَا غَلُظَتْ حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ. (١)

وَالْأَسْوَدُ العنسي الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ كَانَ لَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ، فَلَمَّا قَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ الشَّيَاطِينِ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِمَا يَقُولُونَ فِيهِ حَتَّى أَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا كُفْرُهُ فَقَتَلُوهُ. وَكَذَلِكَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ كَانَ مَعَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ وَيُعِينُهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ.

وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ مِثْلُ الْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُخْرِجُونَ رِجْلَيْهِ مِنْ الْقَيْدِ، وَتَمْنَعُ السِّلَاحَ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِ، وَتُسَبِّحُ الرُّخَامَةُ إذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا عَلَى خَيْلٍ فِي الْهَوَاءِ وَيَقُولُ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ وَإِنَّمَا كَانُوا جِنًّا، وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْتُلُوهُ طَعَنَهُ الطَّاعِنُ بِالرُّمْحِ فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: إنَّك لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ.

وَهَكَذَا أَهْلُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ مَا يَطْرُدُهَا مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لَمَّا وَكَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ الْفِطْرِ، فَسَرَقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يُمْسِكُهُ فَيَتُوبُ فَيُطْلِقُهُ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: مَا فَعَلَ أَسِيرُك الْبَارِحَةَ؟ فَيَقُولُ: زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَعُودُ. فَيَقُولُ: كَذَبَك وَإِنَّهُ سَيَعُودُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أُعَلِّمَك مَا يَنْفَعُك: إذَا أَوَيْت إلَى فِرَاشِك فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

---

(١) سبق وهو في الصحيحين.

إِلَى آخِرِهَا فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْك مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُك شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: صَدَقَك وَهُوَ كَذُوبٌ}[١] وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ شَيْطَانٌ.

وَلِهَذَا إذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِصِدْقٍ أَبْطَلَتْهَا، مِثْلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالٍ شَيْطَانِيٍّ أَوْ يَحْضُرُ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ، فَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ وَتَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَلَامًا لَا يُعْلَمُ، وَرُبَّمَا لَا يُفْقَهُ وَرُبَّمَا كَاشَفَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ بِمَا فِي قَلْبِهِ، وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِأَلْسِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا يَتَكَلَّمُ الْجِنِّيُّ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، وَالْإِنْسَانُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ الْحَالُ لَا يَدْرِي بِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمَصْرُوعِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ وَلَبِسَهُ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهِ، فَإِذَا أَفَاقَ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالَ؛ وَلِهَذَا قَدْ يُضْرَبُ الْمَصْرُوعُ وَذَلِكَ الضَّرْبُ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْإِنْسِيِّ، وَيُخْبِرُ إذَا أَفَاقَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ كَانَ عَلَى الْجِنِّيِّ الَّذِي لَبِسَهُ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَأْتِيه الشَّيْطَانُ بِأَطْعِمَةٍ وَفَوَاكِهَ وَحَلْوَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَطِيرُ بِهِمْ الْجِنِّيُّ إلَى مَكَّةَ أَوْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ثُمَّ يُعِيدُهُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَلَا يَحُجُّ حَجًّا شَرْعِيًّا، بَلْ يَذْهَبُ بِثِيَابِهِ وَلَا يُحْرِمُ إذَا حَاذَى الْمِيقَاتَ، وَلَا يُلَبِّي وَلَا يَقِفُ بمزدلفة وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَلَا يَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَا يَرْمِي الْجِمَارَ بَلْ يَقِفُ بِعَرَفَةَ بِثِيَابِهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ لَيْلَتِهِ وَهَذَا لَيْسَ بِحَجٍّ؛ وَلِهَذَا رَأَى بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ الْحُجَّاجَ فَقَالَ: أَلَا تَكْتُبُونِي؟ فَقَالُوا لَسْت مِنْ الْحُجَّاجِ. يَعْنِي حَجًّا شَرْعِيًّا.

الخوارق وحدها ليست هي معيار الصلاح:

قال شيخ الإسلام: وقد تنازع النّاس في الخوارق هل تدلّ على صلاح صاحبها، وعلى ولايته لله؟ هل الخوارق تدل على صلاح صاحبها أم لا؟ والتحقيق أنّ من كان مؤمناً بالأنبياء لم يستدلّ على الصلاح بمجرّد الخوارق التي قد تكون للكفار والفسّاق، وإنّما يُستدلّ بمتابعة الرجل للنبيّ؛ فيُميّز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التي بيّنها اللهُ ورسوله؛ كقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٢] وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدّة مواضع، كقوله لما ذكر السّحرة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله عن يوسف: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِينَ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٣] وقوله في قصة صالح: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِيْنَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٤] وهذه طريقة الصحابة والسلف.

ولاية المعيّن:

(١) سبق مرارا وهو في الصحيحين.
(٢) يونس: الآية ٦٢.
(٣) يوسف: الآية ٥٦.
(٤) فصلت: الآية ١٨.

قال شيخ الإسلام: وأمّا دلالتها على ولاية المعيّن فالناس متنازعون: هل الوليّ والمؤمن من مات على ذلك بحيث إذا كان مؤمناً تقيّاً، وقد عُلم أنّه يموت كافراً، يكون في تلك الحال عدوّاً لله؟ أو ينتقل من إيمان وولاية إلى كفر وعداوة؟

وهما قولان معروفان: فمن قال بالأول، فالوليّ عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال، والخوارق لا تدلّ على ذلك. ولهذا قال هؤلاء، كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما: أنّها لا تدلّ. وأمّا من قال: الولاية تتبدّل؛ فالولاية هنا كالإيمان. وقد يُعلم أنّ الرجل مؤمنٌ في الباطن، تقيّ بدلائل كثيرة، وقد يُطلع الله بعضَ الناس على خاتمة غيره. فهذا لا يمتنع، لكن هذا مثل الشهادة لمعيّن بالجنة، وفيها ثلاثة أقوال:

قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي. وهو قول أبي حنيفة، والأوزاعي، وعلي ابن المديني، وغيرهم.

وقيل: يشهد به لمن جاء به نص، إن كان خبراً صحيحاً، كمن شهد له النبيّ بالجنة فقط. وهذا قول كثيرٍ من أصحابنا، وغيرهم.

وقيل: يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح، كعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وغيرهما. وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنّة. وقد جاء في الحديث الذي في المسند: {يُوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار} قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال: {بالثناء الحسن والثناء السيئ}(١) وفي الصحيحين: أنّ النبيّ ﷺ مُرّ عليه بجنازة، فأثنوا عليها خيراً، فقال: {وَجَبَت وَجَبَت} ومُرّ عليه بجنازة، فأثنوا عليها شراً، فقال: {وَجَبَت وَجَبَت} فقيل: يا رسول الله، ما قولك: وجبت وجبت؟ قال: {هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير، فقلت: وجبت لها الجنة. وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً، فقلت: وجبت لها النار. أنتم شهداء الله في الأرض}(٢) وفي حديث آخر: {إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنتَ، فقد أحسنت. وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأتَ، فقد أسأت}(٣) وسئل عن الرجل: يعمل العمل لنفسه، فيحمده الناس عليه، فقال: {تلك عاجل بشرى المؤمن}(٤) والتحقيق: أنّ هذا قد يُعلم بأسباب، وقد يغلب على الظن.

ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم؛ ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية: لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم، فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى، فمرض فمرضناه ثم توفي، فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي أن قد أكرمك الله. قال النبي ﷺ: {وما يدريك أنّ الله قد أكرمه؟ قالت: لا والله، لا أدري. فقال النبي ﷺ: أما هو فقد أتاه اليقين من ربه

(١) أخرجه ابن ماجه حديث ٤٢١١.
(٢) رواه البخاري حديث ١٢٧٨، ومسلم ١٥٧٨.
(٣) رواه ابن ماجه حديث ٤٢١٣
(٤) رواه مسلم حديث ٤٧٨٠.

وإني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي ولا بكم، قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً. قالت: ثم رأيت لعثمان -رضي الله عنه- بعد في النوم عيناً تجري، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: ذاك عمله}[١] وأما من لم يكن مقراً بالأنبياء، فهذا لا يعرف الولي من غيره؛ إذ الولي لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل.

لكن قد تدل الخوارق على أنّ هؤلاء على الحقّ دون هؤلاء؛ لكونهم من أتباع الأنبياء، كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين، فيؤيّد الله المؤمنين بخوارق تدل على صحة دينهم، كما صارت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً، وكما شرب خالد السمّ، وأمثال ذلك. فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبياء.

كل ما كان الإنسان أقرب إلى الإسلام فهو أقوى خوارق، وقد يجتمع كفار ومسلمون، ومبتدعة وفجّار، فيؤيّد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجنّ والشياطين، ولكن جنهم وشياطينهم أقرب إلى الإسلام، فيترجّحون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوّات، كما يجري لكثيرٍ من المبتدعة والفجّار مع الكفّار، مثل ما يجري للأحمدية وغيرهم مع عبّاد المشركين البخشيّة قدّام التتار، كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام.

وعند من هو أحق بالإسلام منهم لا تظهر خوارقهم، بل تظهر خوارق من هو أتمّ إيماناً منهم. وهذا يُشبه ردّ أهل البدع على الكفّار بما فيه بدعة؛ فإنّهم وإن ضلّوا من هذا الوجه، فهم خير من أولئك الكفار، لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول يضرّه هؤلاء، ومن كان حائراً نفعه هؤلاء.

أنواع الخوارق:

قال شيخ الإسلام: والخوارق ثلاثة أنواع: إمّا أن تُعين صاحبها على البر والتقوى؛ فهذه أحوال نبيّنا ومن اتبعه؛ خوارقهم لحجّة في الدين، أو حاجةً للمسلمين.

والثاني: أن تعينهم على مباحات؛ كمن يُعينه الجنّ على قضاء حوائجه المباحة؛ فهذا متوسط، وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه. وهذا يُشبه تسخير الجنّ لسليمان عليه السلام.

والأول مثل إرسال نبيّنا إلى الجنّ يدعوهم إلى الإيمان، فهذا أكمل من استخدام الجنّ في بعض الأمور المباحة، كاستخدام سليمان -عليه السلام- لهم في محاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسيات ﴿اعملوا آل داود شُكراً﴾[٢] قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْملُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[٣] ونبيّنا أُرسل إليهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته، كما أُرسل إلى

---

(١) رواه البخاري حديث ١١٦٦.
(٢) سبأ: الآية ١٣.
(٣) سبأ: الآية ١٢.

الإنس. فإذا اتّبعوه، صاروا سعداء. فهذا أكمل له ولهم من ذاك، كما أنّ العبدَ الرّسول أكمل من النبيّ الملِك. ويوسف، وداود، وسليمان -عليهم السلام- أنبياء ملوك. وأمّا محمّد ﷺ فهو عبدٌ رسولٌ، كإبراهيم وموسى والمسيح عليهم السلام. وهذا الصنف أفضل، وأتباعهم أفضل.

والثالث: أن تعينه على محرمات، مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل، فهذا من جنس خوارق السحرة والكهّان والكفّار والفجّار، مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم؛ فإنهم يستعينون بها على الشرك، وقتل النفوس بغير حق، والفواحش.

وهذه الثلاثة هي التي حرّمها الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهَاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامَاً﴾(١) ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهّان والشعراء والمجانين، وقد نزّه الله نبيّه عن أن يكون مجنوناً وشاعراً وكاهناً، فإنّ إخبارهم بالمغيّبات عن شياطين تنزل عليهم كالكهّان، وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم، وهم من جنس المجانين، وقد قال شيخهم: إن أصحاب الأحوال منهم يموتون على غير الإسلام.

وأما سماعهم ووجدهم فهو شعر الشعراء، ولهذا شبّههم من رآهم بعبّاد المشركين من الهند الذين يعبدون الأنداد. النبوات.

الاستسقاء بأهل الخير الأحياء إنما يكون بدعائهم:

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده، فلابد أن يكون عابداً لغيره، يعبد غيره فيكون مشركاً. وليس في بني آدم قسم ثالث، بل إما موحد أو مشرك، أو من خلط هذا بهذا كالمبدّلين من أهل الملل، النصارى ومن أشبههم من الضلال، المنتسبين إلى الإسلام، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(٢) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾] لما قال إبليس: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾

فإبليس لا يغوى المخلصين، ولا سلطان له عليهم، إنما سلطانه على الغاوين، وهم الذين يتولونه، وهم الذين به مشركون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ صفتان لموصوف واحد. فكل من تولاه فهو به مشرك، وكل من أشرك به فقد تولاه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٣) وكل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان، وإن كان يظن

(١) الفرقان: الآية ٦٨.
(٢) النحل: الآية ٩٨:١٠٠
(٣) يس: الآية ٦٠،٦١

أنه يعبد الملائكة والأنبياء، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[١]

ولهذا تتمثل الشياطين لمن يعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ويخاطبونهم، فيظنون أنّ الذي خاطبهم مَلَك أو نبي، أو وَلِيّ وإنما هو شيطان، جعل نفسه ملكاً من الملائكة، كما يصيب عُبَّاد الكواكب وأصحاب العزائم والطلسمات، يسمون أسماء، يقولون: هي أسماء الملائكة، مثل منططرون وغيره، وإنما هي أسماء الجن.

وكذلك الذين يدعون المخلوقين من الأنبياء والأولياء والملائكة، قد يتمثل لأحدهم من يخاطبه، فيظنه النبي أو الصالح الذي دعاه، وإنما هو شيطان تصور في صورته، أو قال: أنا هو لمن لم يعرف صورة ذلك المدعو.

وهذا كثير يجري لمن يدعو المخلوقين، من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام، يدعونهم عند قبورهم أو مغيبهم، ويستغيثون بهم، فيأتيهم من يقول: إنه ذلك المستغاث به، في صورة آدمي إما راكباً وإما غير راكب.

فيعتقد المستغيث أنه ذلك النبي والصالح، أو أنه سِرّه أو روحانيته أو رقيقته أو المعنى تَشَكَّل، أو يقول: إنه ملك جاء على صورته، وإنما هو شيطان يغويه؛ لكونه أشرك بالله ودعا غيره، الميت فمن دونه.

فصار للشيطان عليه سلطان بذلك الشرك، فظن أنه يدعو النبي أو الصالح أو الملك، وأنه هو الذي شفع له، أو هو الذي أجاب دعوته، وإنما هو الشيطان؛ ليزيده غلواً في كفره وضلاله. فكل من لم يعبد الله مخلصاً له الدين، فلابد أن يكون مشركاً عابداً لغير الله، وهو في الحقيقة عابد للشيطان.

فكل واحد من بني آدم: إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[٢] فبنو آدم منحصرون في الأصناف الستة، وبسط هذا له موضع آخر. كتاب الحسنة والسيئة.

فقه الولاية والكهانة عند شيخ الإسلام:

قال رحمه الله[٣]: فَصْلٌ: وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ إلَّا إذَا كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ -وَقَدْ تَقَدَّمَ- يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ: {وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ}

(١) سبأ: الآية ٤٠،٤١
(٢) الزخرف: الآية ٣٦,٣٩
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٤٨٦)

وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا تَقِيًّا حَتَّى يَتَقَرَّبَ إلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ، فَيَكُونُ مِنْ الْأَبْرَارِ أَهْلِ الْيَمِينِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يَكُونَ مِنْ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلَّهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِحُّ إيمَانُهُ وَعِبَادَاتُهُ وَإِنْ قَدَرَ أَنَّهُ لَا إثْمَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَمَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ – وَإِنْ قِيلَ إنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ حَتَّى يُرْسَلَ إلَيْهِمْ رَسُولٌ– فَلَا يَكُونُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إلَّا إذَا كَانُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؛ فَمَنْ لَمْ يَتَقَرَّبْ إلَى اللَّهِ لَا بِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَلَا بِتَرْكِ السَّيِّئَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ وَالْأَطْفَالُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: {رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ}[1] وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ عَلَى تَلَقِّيهِ بِالْقَبُولِ، لَكِنَّ الصَّبِيَّ الْمُمَيِّزَ تَصِحُّ عِبَادَاتُهُ وَيُثَابُ عَلَيْهَا عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَأَمَّا الْمَجْنُونُ الَّذِي رُفِعَ عَنْهُ الْقَلَمُ فَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يَصِحُّ مِنْهُ إيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ، بَلْ لَا يَصْلُحُ هُوَ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُقَلَاءِ لِأُمُورِ الدُّنْيَا كَالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ، فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ بَزَّازًا وَلَا عَطَّارًا وَلَا حَدَّادًا وَلَا نَجَّارًا وَلَا تَصِحُّ عُقُودُهُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، فَلَا يَصِحُّ بَيْعُهُ وَلَا شِرَاؤُهُ وَلَا نِكَاحُهُ وَلَا طَلَاقُهُ وَلَا إقْرَارُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِهِ بَلْ أَقْوَالُهُ كُلُّهَا لَغْوٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمٌ شَرْعِيٌّ وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، بِخِلَافِ الصَّبِيِّ الْمُمَيِّزِ فَإِنَّ لَهُ أَقْوَالًا مُعْتَبَرَةً فِي مَوَاضِعَ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَفِي مَوَاضِعَ فِيهَا نِزَاعٌ، وَإِذَا كَانَ الْمَجْنُونُ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَلَا التَّقْوَى وَلَا التَّقَرُّبُ إلَى اللَّهِ بِالْفَرَائِضِ، وَالنَّوَافِلِ وَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، لَا سِيَّمَا أَنْ تَكُونَ حُجَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ إمَّا مُكَاشَفَةٌ سَمِعَهَا مِنْهُ أَوْ نَوْعٌ مِنْ تَصَرُّفٍ مِثْلِ أَنْ يَرَاهُ قَدْ أَشَارَ إلَى وَاحِدٍ فَمَاتَ أَوْ صُرِعَ، فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لَهُمْ مُكَاشَفَاتٌ وَتَصَرُّفَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ، كَالْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَعُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِ الشَّخْصِ وَلِيًّا لِلَّهِ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ، فَكَيْفَ إذَا عُلِمَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ وِلَايَةَ اللَّهِ؟ مِثْلُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَّبِعُ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ دُونَ الْحَقِيقَةِ الْبَاطِنَةِ، أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ طَرِيقًا إلَى اللَّهِ غَيْرَ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ، أَوْ يَقُولُ: إنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا الطَّرِيقَ أَوْ هُمْ عَلَى قُدْوَةِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُهُ بَعْضُ مَنْ يَدَّعِي الْوِلَايَةَ، فَهَؤُلَاءِ فِيهِمْ مِنْ الْكُفْرِ مَا يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ، فَضْلًا عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَمَنْ احْتَجَّ بِمَا يَصْدُرُ عَنْ أَحَدِهِمْ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ عَلَى وِلَايَتِهِمْ كَانَ أَضَلَّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وَكَذَلِكَ الْمَجْنُونُ، فَإِنَّ كَوْنَهُ مَجْنُونًا يُنَاقِضُ أَنْ يَصِحَّ مِنْهُ الْإِيمَانُ وَالْعِبَادَاتُ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي وِلَايَةِ اللَّهِ، وَمَنْ كَانَ يُجَنُّ أَحْيَانًا وَيُفِيقُ أَحْيَانًا، إذَا كَانَ فِي حَالِ إفَاقَتِهِ مُؤْمِنًا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيُؤَدِّي

---

(١) رواه أبو داود حديث ٣٨٢٢، وصححه الألباني في إرواء الغليل حديث ٢٩٧.

الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ، فَهَذَا إِذَا جُنَّ لَمْ يَكُنْ جُنُونُهُ مَانِعًا مِنْ أَنْ يُثِيبَهُ اللَّهُ عَلَى إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ الَّذِي أَتَى بِهِ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ، وَيَكُونُ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ بَعْدَ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُهُ وَيَأْجُرُهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، وَلَا يُحْبِطُهُ بِالْجُنُونِ الَّذِي ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فَعَلَهُ، وَالْقَلَمُ مَرْفُوعٌ عَنْهُ فِي حَالِ جُنُونِهِ.

فَعَلَى هَذَا فَمَنْ أَظْهَرَ الْوِلَايَةَ وَهُوَ لَا يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ وَلَا يَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ بَلْ قَدْ يَأْتِي بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ هَذَا وَلِيٌّ لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَجْنُونًا بَلْ كَانَ مُتَوَلِّهًا مِنْ غَيْرِ جُنُونٍ، أَوْ كَانَ يَغِيبُ عَقْلُهُ بِالْجُنُونِ تَارَةً، وَيُفِيقُ أُخْرَى، وَهُوَ لَا يَقُومُ بِالْفَرَائِضِ، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ فَهُوَ كَافِرٌ وَإِنْ كَانَ مَجْنُونًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا قَدْ ارْتَفَعَ عَنْهُ الْقَلَمُ، فَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعَاقَبًا عُقُوبَةَ الْكَافِرِينَ فَلَيْسَ هُوَ مُسْتَحِقًّا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَجُوزُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ أَحَدٌ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَهُ حَالَةٌ فِي إِفَاقَتِهِ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ مُتَّقِيًا، كَانَ لَهُ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ فِيهِ كُفْرٌ أَوْ نِفَاقٌ أَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا، ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ، فَهَذَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ مَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، وَجُنُونُهُ لَا يُحْبِطُ عَنْهُ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ حَالَ إِفَاقَتِهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ.

فَصْلٌ[١]: وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ وَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لَا يَغْلَطُ وَلَا يُخْطِئُ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ بَعْضُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ الدِّينِ، حَتَّى يَحْسَبَ بَعْضُ الْأُمُورِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَمِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ فِي بَعْضِ الْخَوَارِقِ أَنَّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ لَبَّسَهَا عَلَيْهِ لِنَقْصِ دَرَجَتِهِ، وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَال، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٢] وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اسْتَجَابَ هَذَا الدُّعَاءَ وَقَالَ: قَدْ فَعَلْت. فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣] قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْهَا قَبْلَ ذَلِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤٨٨)
(٢) البقرة: الآية ٢٨٦,٢٨٥.
(٣) البقرة: الآية ١٨٤.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْت ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْت.(١) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾(٢) وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ العاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- مَرْفُوعًا أَنَّهُ قَالَ: {إذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ}(٣)

فَلَمْ يُؤَثِّمْ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ، بَلْ جَعَلَ لَهُ أَجْرًا عَلَى اجْتِهَادِهِ وَجَعَلَ خَطَأَهُ مَغْفُورًا لَهُ، وَلَكِنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُصِيبَ لَهُ أَجْرَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَغْلَطَ لَمْ يَجِبْ عَلَى النَّاسِ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يَقُولُهُ مَنْ هُوَ وَلِيٌّ لِلَّهِ لِئَلَّا يَكُونَ نَبِيًّا، بَلْ وَلَا يَجُوزُ لِوَلِيِّ اللَّهِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَا يُلْقَى إلَيْهِ فِي قَلْبِهِ إلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، وَعَلَى مَا يَقَعُ لَهُ مِمَّا يَرَاهُ إلْهَامًا وَمُحَادَثَةً وَخِطَابًا مِنْ الْحَقِّ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِضَ ذَلِكَ جَمِيعَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَإِنْ وَافَقَهُ قَبِلَهُ وَإِنْ خَالَفَهُ لَمْ يَقْبَلْهُ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَمُوَافِقٌ هُوَ أَمْ مُخَالِفٌ؟ تَوَقَّفَ فِيهِ. وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ إذَا اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَافَقَهُ فِي كُلِّ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ حَدَّثَ بِهِ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ إذَا رَآهُ قَدْ قَالَ أَوْ فَعَلَ مَا لَيْسَ بِمُوَافِقِ لِلشَّرْعِ أَخْرَجَهُ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا، وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا وَهُوَ أَنْ لَا يُجْعَلَ مَعْصُومًا وَلَا مَأْثُومًا، إذَا كَانَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا فَلَا يُتَّبَعُ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكُفْرِ وَالْفِسْقِ مَعَ اجْتِهَادِهِ. وَالْوَاجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَمَّا إذَا خَالَفَ قَوْلَ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ وَوَافَقَ قَوْلَ آخَرِينَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِ أَنْ يُلْزِمَهُ بِقَوْلِ الْمُخَالِفِ، وَيَقُولَ هَذَا خَالَفَ الشَّرْعَ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ مِنْهُمْ} وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {لَوْ لَمْ أُبْعَثْ فِيكُمْ لَبُعِثَ فِيكُمْ عُمَرُ} وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: إنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ. وَفِيهِ لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرُ} وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ مَا كُنَّا نُبْعِدُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ. ثَبَتَ هَذَا عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ. وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا كَانَ عُمَرُ يَقُولُ فِي شَيْءٍ: إنِّي لَأَرَاهُ كَذَا إلَّا كَانَ كَمَا يَقُولُ. وَعَنْ قَيْسِ بْنِ طَارِقٍ قَالَ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ عُمَرَ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ مَلَكٌ. وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ اقْتَرِبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ فَإِنَّهُ تَتَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ الصَّادِقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهَا تَتَجَلَّى لِلْمُطِيعِينَ هِيَ الْأُمُورُ الَّتِي يَكْشِفُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُخَاطَبَاتٍ وَمُكَاشَفَاتٍ، فَأَفْضَلُ هَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ عُمَرُ بْنُ

(١) رواه مسلم حديث ١٨٠.
(٢) الأحزاب: الآية ٥.
(٣) رواه البخاري حديث ٦٨٠٥، ومسلم ٣٢٤٠.

الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ تَعْيِينُ عُمَرَ بِأَنَّهُ مُحَدَّثٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأَيُّ مُحَدَّثٍ وَمُخَاطَبٍ فُرِضَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا فَكَانَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَفْعَلُ مَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فَيَعْرِضُ مَا يَقَعُ لَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَتَارَةً يُوَافِقُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ كَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمُوَافَقَتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَتَارَةً يُخَالِفُهُ فَيَرْجِعُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ كَمَا رَجَعَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا كَانَ قَدْ رَأَى مُحَارَبَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَالْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ {فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ الْهِجْرَةِ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَكَانَ قَدْ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ مُرَاجَعَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وَيَعْتَمِرَ مِنْ الْعَامِ الْقَابِلِ، وَشَرَطَ لَهُمْ شُرُوطًا فِيهَا نَوْعُ غَضَاضَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الظَّاهِرِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم وَأَحْكَمَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ، وَكَانَ عُمَرُ فِيمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَفَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: إنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ نَاصِرِي وَلَسْت أَعْصِيه، ثُمَّ قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُحَدِّثُنَا أَنَّا نَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَقُلْت لَك أَنَّك تَأْتِيه الْعَامَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: إنَّك آتِيه وَمَطُوفٌ بِهِ، فَذَهَبَ عُمَرُ إلَى أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَ جَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ أَبُو بَكْرٍ يَسْمَعُ جَوَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْمَلَ مُوَافَقَةً لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ ﷺ مِنْ عُمَرَ وَعُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: فَعَمِلْت لِذَلِكَ أَعْمَالًا.(١) وَكَذَلِكَ لَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْكَرَ عُمَرُ مَوْتَهُ أَوَّلًا فَلَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إنَّهُ مَاتَ. رَجَعَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ(٢) وَكَذَلِكَ فِي قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ نُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا} فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَلَمْ يَقُلْ: "إلَّا بِحَقِّهَا" فَإِنَّ الزَّكَاةَ مِنْ حَقِّهَا، وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهَا. قَالَ عُمَرُ: فَوَاَللَّهِ مَا هُوَ إلَّا أَنْ رَأَيْت اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَلِمْت أَنَّهُ الْحَقُّ.(٣) وَلِهَذَا نَظَائِرُ تُبَيِّنُ تَقَدُّمَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى عُمَرَ مَعَ أَنَّ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مُحَدَّثٌ، فَإِنَّ مَرْتَبَةَ الصِّدِّيقِ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُحَدَّثِ؛ لِأَنَّ الصِّدِّيقَ يَتَلَقَّى عَنْ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ، وَالْمُحَدَّثُ يَأْخُذُ عَنْ قَلْبِهِ أَشْيَاءَ، وَقَلْبُهُ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ فَيَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِضَهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يُشَاوِرُ الصَّحَابَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- وَيُنَاظِرُهُمْ وَيَرْجِعُ إلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ وَيُنَازِعُونَهُ فِي أَشْيَاءَ، فَيَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُقَرِّرُهُمْ عَلَى مُنَازَعَتِهِ

---

(١) القصة في البخاري برقم ٢٥٢٩، ومسلم ٣٣٣٨.
(٢) القصة في البخاري برقم ٣٣٩٤.
(٣) صحيح البخاري حديث ١٣١٢.

وَلَا يَقُولُ لَهُمْ: أَنَا مُحَدَّثٌ مُلْهَمٌ مُخَاطَبٌ فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْبَلُوا مِنِّي وَلَا تُعَارِضُونِي، فَأَيُّ أَحَدٍ ادَّعَى أَوْ ادَّعَى لَهُ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ وَأَنَّهُ مُخَاطَبٌ، يَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِهِ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ وَلَا يُعَارِضُوهُ، وَيُسَلِّمُوا لَهُ حَالَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ وَهُمْ مُخْطِئُونَ وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ، فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَفْضَلُ مِنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُنَازِعُونَهُ فِيمَا يَقُولُهُ، وَهُوَ وَهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهَذَا مِنْ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ- يَجِبُ لَهُمْ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ، بِخِلَافِ الْأَوْلِيَاءِ، فَإِنَّهُمْ لَا تَجِب طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ وَلَا الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بِهِ، بَلْ يُعْرَضُ أَمْرُهُمْ وَخَبَرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَاب وَالسُّنَّةَ وَجَب قَبُولُهُ، وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مَرْدُودًا، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَكَانَ مُجْتَهِدًا مَعْذُورًا فِيمَا قَالَهُ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ، لَكِنَّهُ إذَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَانَ مُخْطِئًا، وَكَانَ مِنْ الْخَطَأِ الْمَغْفُورِ إذَا كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ اتَّقَى اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(١) وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ: حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ أَيْ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا﴾(٣) وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

---

(١) التغابن: الآية ١٦.
(٢) الأعراف: الآية ٤٢.
(٣) الأنعام: الآية ١٥٢.
(٤) البقرة: الآية ١٣٦.
(٥) البقرة: الآية ١:٥.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١) وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْته مِنْ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ الِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يَسُوغُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ اتِّبَاعُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّة، هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِمْ، بَلْ إمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرِطًا فِي الْجَهْلِ. وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي سُلَيْمَانَ الداراني: إنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إلَّا بِشاهِدَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الجنيد رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ: عِلْمُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبْ الْحَدِيثَ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي عِلْمِنَا، أَوْ قَالَ: لَا يُقْتَدَى بِهِ. وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسابُورِيُّ: مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ نجيد: كُلُّ وَجْدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ. وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَغْلَطُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَظُنُّ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، وَيَظُنُّ أَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ يَقْبَلُ مِنْهُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَيُسَلِّمُ إلَيْهِ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، وَيُسَلِّمُ إلَيْهِ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ وَإِنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، فَيُوَافِقُ ذَلِكَ الشَّخْصُ لَهُ، وَيُخَالِفُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ تَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَجَعَلَهُ الْفَارِقَ بَيْن أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَبَيْنَ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَجُنْدِهِ الْمُفْلِحِينَ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَمَنْ لَمْ يَتْبَعْهُ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْخَاسِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، فَتَجُرُّهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ وَمُوَافَقَةُ ذَلِكَ الشَّخْصِ: أَوَّلًا إلَى الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ، وَآخِرًا إلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَيَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾(٢) وقَوْله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾(٣) وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾(٤) وَهَؤُلَاءِ مُشَابِهُونَ لِلنَّصَارَى الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إلَهًا وَاحِدًا لَا إلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

(١) البقرة: الآية ١٧٧.
(٢) الفرقان: الآية ٢٧:٢٩.
(٣) الأحزاب: الآية ٦٦,٦٧.
(٤) البقرة: الآية ١٦٥:١٦٧.

يُشْرِكُونَ﴾(١) وَفِي الْمَسْنَدِ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ: {مَا عَبَدُوهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَحَلُّوا لَهُمْ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الْحَلَالَ، فَأَطَاعُوهُمْ وَكَانَتْ هَذِهِ عِبَادَتَهُمْ إيَّاهُمْ}(٢) وَلِهَذَا قِيلَ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ إنَّمَا حَرَّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأُصُولِ، فَإِنَّ أَصْلَ الْأُصُولِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَلَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ فَلَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ: إنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ وَعَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ عُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ مُلُوكِهِمْ وَسُوقَتِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَحَدِ مِنْ الْخَلْقِ إلَّا بِمُتَابَعَتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَوَجَبَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُم أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٤)

وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى:

١- أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ.

٢- وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ.

وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَأَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، فَكَيْفَ إذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؟ وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ عُمْدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مُكَاشَفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، مِثْلِ أَنْ يُشِيرَ إلَى شَخْصٍ

(١) التوبة: الآية ٣١.
(٢) أخرجه الترمذي حديث ٣٠٢٠، وحسنه الألباني برقم ٣٠٩٥.
(٣) آل عمران: الآية ٨١,٨٢.
(٤) النساء: الآية ٦٥:٦٠.

فَيَمُوتَ، أَوْ يَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا، أَوْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ أَحْيَانًا، أَوْ يَمْلَأَ إِبْرِيقًا مِنْ الْهَوَاءِ، أَوْ يُنْفِقَ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ مِنْ الْغَيْبِ، أَوْ أَنْ يَخْتَفِيَ أَحْيَانًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، أَوْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَهُوَ غَائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فَرَآهُ قَدْ جَاءَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ، أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِمَا سُرِقَ لَهُمْ أَوْ بِحَالِ غَائِبٍ لَهُمْ أَوْ مَرِيضٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيٌّ لِلَّهِ، بَلْ قَدْ اتَّفَقَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُغْتَرَّ بِهِ حَتَّى يَنْظُرَ مُتَابَعَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمُوَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ يَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ تَكُونُ لِكَثِيرِ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ وَتَكُونُ مِنْ الشَّيَاطِينِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ، بَلْ يُعْتَبَرُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ وَأَمْثَالَهَا قَدْ تُوجَدُ فِي أَشْخَاصٍ وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ لَا يَتَوَضَّأُ، وَلَا يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ، بَلْ يَكُونُ مُلَابِسًا لِلنَّجَاسَاتِ مُعَاشِرًا لِلْكِلَابِ، يَأْوِي إلَى الْحَمَّامَاتِ والقمامين وَالْمَقَابِرِ وَالْمَزَابِلِ، رَائِحَتُهُ خَبِيثَةٌ لَا يَتَطَهَّرُ الطَّهَارَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَلَا يَتَنَظَّفُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ جُنُبٌ وَلَا كَلْبٌ} وَقَالَ عَنْ هَذِهِ الأخلية: {إنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ} أَيْ يَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ وَقَالَ: {مَنْ أَكَلَ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ فَلَا يَقْرَبَن مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ} وَقَالَ: {إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا} وَقَالَ: {إنَّ اللَّهَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ} وَقَالَ: {خَمْسٌ مِنْ الْفَوَاسِقِ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ وَالْفَأْرَةُ وَالْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ} وَفِي رِوَايَةٍ {الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ} وَأَمَرَ –صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ– بِقَتْلِ الْكِلَابِ وَقَالَ: {مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَا يُغْنِي عَنْهُ زَرْعًا وَلَا ضَرْعًا نَقَصَ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ} وَقَالَ: {لَا تَصْحَبُ الْمَلَائِكَةُ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ} وَقَالَ: {إذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْسِلْهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ إحْدَاهُنَّ بِالتُّرَابِ} وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١) فَإِذَا كَانَ الشَّخْصُ مُبَاشِرًا لِلنَّجَاسَاتِ وَالْخَبَائِثِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَأْوِي إلَى الْحَمَّامَاتِ وَالْحُشُوشِ الَّتِي تَحْضُرُهَا الشَّيَاطِينُ، أَوْ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالزَّنَابِيرَ وَآذَانَ الْكِلَابِ الَّتِي هِيَ خَبَائِثُ وَفَوَاسِقُ، أَوْ يَشْرَبُ الْبَوْلَ وَنَحْوَهُ مِنْ النَّجَاسَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا الشَّيْطَانُ، أَوْ

(١) الأعراف: الآية ١٥٦,١٥٧.

يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ فَيَسْتَغِيثَ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَيَتَوَجَّهَ إلَيْهَا، أَوْ يَسْجُدُ إلَى نَاحِيَةِ شَيْخِهِ وَلَا يُخْلِصُ الدِّينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْ يُلَابِسُ الْكِلَابَ أَوْ النِّيرَانَ أَوْ يَأْوِي إلَى الْمَزَابِلِ وَالْمَوَاضِعِ النَّجِسَةِ أَوْ يَأْوِي إلَى الْمَقَابِرِ، وَلَا سِيَّمَا إلَى مَقَابِرِ الْكُفَّارِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ يَكْرَهُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ سَمَاعَ الْأَغَانِي وَالْأَشْعَارِ، وَيُؤْثِرُ سَمَاعَ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ عَلَى سَمَاعِ كَلَامِ الرَّحْمَنِ فَهَذِهِ عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لَا عَلَامَاتُ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لَا يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ عَنْ نَفْسِهِ إلَّا الْقُرْآنُ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يُبْغِضُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عفان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُنَا لَمَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الذِّكْرُ يُنْبِتُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ، وَالْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ فَارِقًا بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَيَكُونُ قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(٢) فَهَذَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ}(٣)

قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ قَالَ فِيهِ: {لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ}(٤)

الخلوات البدعية والتنزلات الكهانية الشيطانية:

قال رحمة الله عليه: وَلَمَّا كَانَ الِانْقِطَاعُ إلَى الْمَغَارَاتِ وَالْبَوَادِي مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُه، صَارَتْ الشَّيَاطِينُ كَثِيرًا مَا تَأْوِي إلَى الْمَغَارَاتِ وَالْجِبَالِ، مِثْلِ مَغَارَةِ الدَّمِ الَّتِي بِجَبَلِ قاسيون، وَجَبَلِ لُبْنَانَ الَّذِي بِسَاحِلِ الشَّامِ، وَجَبَلِ الْفَتْحِ بِأَسْوَانَ بِمِصْرِ، وَجِبَالٍ بِالرُّومِ وَخُرَاسَانَ وَجِبَالٍ بِالْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَجَبَلِ اللِّكَام وَجَبَلِ الأحيش وَجَبَلِ سولان قُرْبَ أردبيل، وَجَبَلِ شُهْنَك عِنْدَ تَبْرِيزَ، وَجَبَلِ ماشكو عِنْدَ

---

(١) الحديد: الآية ٢٨.
(٢) الشورى: الآية ٥٢.
(٣) سنن الترمذي حديث ٣٠٥٢، وضعفه الألباني في الضعيفة برقم ١٨٢١.
(٤) سبق وهو صحيح

أَقْشَوَان، وَجَبَلِ نَهَاوَنْدَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْجِبَالِ الَّتِي يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بِهَا رِجَالًا مِنْ الصَّالِحِينَ مِنْ الْإِنْسِ، وَيُسَمُّونَهُمْ رِجَالَ الْغَيْبِ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ الْجِنِ، فَالْجِنُّ رِجَالٌ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ رِجَالٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظْهَرُ بِصُورَةِ رَجُلٍ شعراني، جِلْدُهُ يُشْبِهُ جِلْدَ الْمَاعِزِ، فَيَظُنُّ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ إنْسِيٌّ وَإِنَّمَا هُوَ جِنِّيٌّ، وَيُقَالُ بِكُلِّ جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ الْأَرْبَعُونَ الْأَبْدَالُ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ الْأَبْدَالُ هُمْ جِنٌّ بِهَذِهِ الْجِبَالِ كَمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ بِطُرُقِ مُتَعَدِّدَةٍ. وَهَذَا بَابٌ لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِبَسْطِهِ وَذِكْرِ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ الَّذِي كُتِبَ لِمَنْ سَأَلَ أَنْ نَذْكُرَ لَهُ مِنْ الْكَلَامِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُعْرَفُ بِهِ جُمَلُ ذَلِكَ.

وقال رحمه الله(١): ثُمَّ صَارَ أَصْحَابُ الْخَلَوَاتِ فِيهِمْ مَنْ يَتَمَسَّكُ بِجِنْسِ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ: الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ. وَأَكْثَرُهُمْ يَخْرُجُونَ إلَى أَجْنَاسٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ، فَمِنْ ذَلِكَ طَرِيقَةُ أَبِي حَامِدٍ وَمَنْ تَبِعَهُ، وَهَؤُلَاءِ يَأْمُرُونَ صَاحِبَ الْخَلْوَةِ أَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى الْفَرْضِ لَا قِرَاءَةً وَلَا نَظَرًا فِي حَدِيثٍ نَبَوِيٍّ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ يَأْمُرُونَهُ بِالذِّكْرِ ثُمَّ قَدْ يَقُولُونَ مَا يَقُولُهُ أَبُو حَامِدٍ: ذِكْرُ الْعَامَّةِ "لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ " وَذِكْرُ الْخَاصَّةِ "اللَّه اللَّه" وَذِكْرُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ "هُوَ" "هُوَ" وَالذِّكْرُ بِالِاسْمِ الْمُفْرَدِ مُظْهَرًا وَمُضْمَرًا بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ، وَخَطَأٌ فِي الْقَوْلِ وَاللُّغَةِ، فَإِنَّ الِاسْمَ الْمُجَرَّدَ لَيْسَ هُوَ كَلَامًا لَا إيمَانًا وَلَا كُفْرًا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ وَهُنَّ مِنْ الْقُرْآنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ}(٢) وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: {أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ}(٣) وَقَالَ: {أَفْضَلُ مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٤) وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ. وَأَمَّا ذِكْرُ الِاسْمِ الْمُفْرَدِ فَبِدْعَةٌ لَمْ يُشْرَعْ وَلَيْسَ هُوَ بِكَلَامِ يُعْقَلُ وَلَا فِيهِ إيمَانٌ؛ وَلِهَذَا صَارَ بَعْضُ مَنْ يَأْمُرُ بِهِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ قَصْدُنَا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنْ جَمْعَ الْقَلْبِ عَلَى شَيْءٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى تَسْتَعِدَّ النَّفْسُ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهَا، فَكَانَ يَأْمُرُ مُرِيدَهُ بِأَنْ يَقُولَ هَذَا الِاسْمَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا اجْتَمَعَ قَلْبُهُ أَلْقَى عَلَيْهِ حَالًا شَيْطَانِيًّا فَيَلْبِسُهُ الشَّيْطَانُ، وَيُخَيِّلُ إلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَأَنَّهُ أُعْطِيَ مَا لَمْ يُعْطَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَلَا مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يَوْمَ الطُّورِ، وَهَذَا وَأَشْبَاهُهُ وَقَعَ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِنَا. وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ لَيْسَ مَقْصُودُنَا إلَّا جَمْعَ النَّفْسِ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ حَتَّى يَقُولَ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِك: يَا حَيُّ وَقَوْلِك يَا جَحْشُ. وَهَذَا مِمَّا قَالَهُ لِي شَخْصٌ مِنْهُمْ وَأَنْكَرْت ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ أَنْ تَجْتَمِعَ النَّفْسُ حَتَّى يَتَنَزَّلَ عَلَيْهَا الشَّيْطَانُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٨٣)
(٢) مسند أحمد حديث ١٩٣٥٧.
(٣) رواه الترمذي ٣٣٨٣، وصححه الألباني.
(٤) سنن البيهقي، والترمذي حديث ٣٥٠٩، وحسنه الألباني.

إِذَا كَانَ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ وَمَقْصُودٌ فَاجْعَلْ الْجَمِيعَ وَاحِدًا فَيُدْخِلُهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فِي وَحْدَةِ الْوُجُودِ. وَأَمَّا أَبُو حَامِدٍ وَأَمْثَالُهُ مِمَّنْ أَمَرُوا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَلَمْ يَكُونُوا يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُفْضِي إِلَى الْكُفْرِ، لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْبِدَعَ بَرِيدُ الْكُفْرِ، وَلَكِنْ أَمَرُوا الْمُرِيدَ أَنْ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى قَدْ يَأْمُرُوهُ أَنْ يَقْعُدَ فِي مَكَانٍ مُظْلِمٍ وَيُغَطِّيَ رَأْسَهُ وَيَقُولَ: اللَّهُ اللَّهُ. وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ إِذَا فَرَّغَ قَلْبَهُ اسْتَعَدَّ بِذَلِكَ، فَيَنْزِلُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ الْمَعْرِفَةِ مَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، بَلْ قَدْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ لِلْأَنْبِيَاءِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ أَكْثَرُ مِمَّا حَصَلَ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَأَبُو حَامِدٍ يُكْثِرُ مِنْ مَدْحِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي (الْإِحْيَاءِ) وَغَيْرِهِ، كَمَا أَنَّهُ يُبَالِغُ فِي مَدْحِ الزُّهْدِ وَهَذَا مِنْ بَقَايَا الْفَلْسَفَةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمُتَفَلْسِفَةَ كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ يَزْعُمُونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ الْعِلْمِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ.

ونقول: إن ابن سينا اجتهد في فلسفته، وحاول تطهير قلبه وسبقه من سبقه من فلاسفة فعلوا ذلك، فلماذا لم يصر هو ولا غيره نبياً؟

ونقول: إنّ مسألة الفيض لها أثرها في باب الكهانة، وإنّ بعض من يقبض عليهم من الكهّان حين يحقق معهم يقولون: إنّ هذه فيوضات، وهذا علم لدنى، وهذه الأخبار من آثار معرفتنا باسم الله الأعظم، وكذلك من هذه العلوم علوم ورثناها عن الآباء والأجداد، فهم كانوا أهل فيوضات وأسرار.

قال رحمه الله: وَلِهَذَا يَقُولُونَ: النُّبُوَّةُ مُكْتَسَبَةٌ فَإِذَا تَفَرَّغَ صَفَا قَلْبُهُ -عِنْدَهُمْ- وَفَاضَ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ جِنْسِ مَا فَاضَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ. وَعِنْدَهُمْ أَنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كُلِّمَ مِنْ سَمَاءِ عَقْلِهِ، لَمْ يَسْمَعْ الْكَلَامَ مِنْ خَارِجٍ؛ فَلِهَذَا يَقُولُونَ إنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِثْلُ مَا حَصَلَ لِمُوسَى وَأَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لِمُوسَى. وأَبُو حَامِدٍ يَقُولُ: إنَّهُ سَمِعَ الْخِطَابَ كَمَا سَمِعَهُ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَإِنْ لَمْ يُقْصَدْ هُوَ بِالْخِطَابِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ لِنَقْصِ إيمَانِهِمْ بِالرُّسُلِ، وَأَنَّهُمْ آمَنُوا بِبَعْضِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمُّونَهُ "الْعَقْلَ الْفَعَّالَ" بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

الثَّانِي: أَنَّ مَا يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ يَكُونُ تَارَةً بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ إنْ كَانَ حَقًّا، وَتَارَةً بِوَاسِطَةِ الشَّيَاطِينِ إذَا كَانَ بَاطِلًا، وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ أَحْيَاءٌ نَاطِقُونَ كَمَا قَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ مِنْ جِهَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَمَا يَدَّعِي ذَلِكَ مَنْ بَاشَرَهُ مِنْ أَهْلِ الْحَقَائِقِ. وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالشَّيَاطِينَ صِفَاتٌ لِنَفْسِ الْإِنْسَانِ فَقَطْ. وَهَذَا ضَلَالٌ عَظِيمٌ.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَاءَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ رَبِّهِمْ بِالْوَحْيِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَرَّبَهُ وَنَادَاهُ، كَمَا كَلَّمَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَمْ يَكُنْ مَا حَصَلَ لَهُمْ مُجَرَّدُ فَيْضٍ كَمَا يَزْعُمُهُ هَؤُلَاءِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا فَرَّغَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ خَاطِرٍ فَمِنْ أَيْنَ يَعْلَمُ أَنَّ مَا يَحْصُلُ فِيهِ حَقٌّ؟ هَذَا إمَّا أَنْ يُعْلَمَ بِعَقْلٍ أَوْ سَمْعٍ وَكِلَاهُمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى ذَلِكَ.

الْخَامِسُ: أَنَّ الَّذِي قَدْ عُلِمَ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ أَنَّهُ إِذَا فَرَّغَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَّتْ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، ثُمَّ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ كَمَا كَانَتْ تَتَنَزَّلُ عَلَى الْكُهَّانِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَمْنَعُهُ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ مَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، فَإِذَا خَلَا مِنْ ذَلِكَ تَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَالْمُخْلَصُونَ هُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُعْبَدُ اللَّهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ تَوَلَّتْهُ الشَّيَاطِينُ. وَهَذَا بَابٌ دَخَلَ فِيهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ السَّالِكِينَ، وَاشْتَبَهَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ الرَّحْمَانِيَّةُ بِالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ لِلْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

السَّادِسُ: أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَوْ كَانَتْ حَقًّا فَإِنَّمَا تَكُونُ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَأْتِهِ رَسُولٌ، فَأَمَّا مَنْ أَتَاهُ رَسُولٌ وَأُمِرَ بِسُلُوكِ طَرِيقٍ فَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ. وَخَاتَمُ الرُّسُلِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أُمَّتَهُ بِعِبَادَاتٍ شَرْعِيَّةٍ مِنْ صَلَاةٍ وَذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وَقِرَاءَةٍ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ قَطُّ بِتَفْرِيغِ الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ خَاطِرٍ وَانْتِظَارِ مَا يَنْزِلُ. فَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهَا طَرِيقٌ لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ لَكَانَتْ مَنْسُوخَةً بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَيْفَ وَهِيَ طَرِيقَةٌ جَاهِلِيَّةٌ لَا تُوجِبُ الْوُصُولَ إِلَى الْمَطْلُوبِ إِلَّا بِطَرِيقِ الِاتِّفَاقِ بِأَنْ يَقْذِفَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ إِلْهَامًا يَنْفَعُهُ؟ وَهَذَا قَدْ يَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ لَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَلَكِنَّ التَّفْرِيغَ وَالتَّخْلِيَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ أَنْ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ مِمَّا لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَمْلَأَهُ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، فَيُفَرِّغُهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ وَيَمْلَؤُهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ يُفَرِّغُهُ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِ اللَّهِ وَيَمْلَؤُهُ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ يُخْرِجُ عَنْهُ خَوْفَ غَيْرِ اللَّهِ وَيُدْخِلُ فِيهِ خَوْفَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَنْفِي عَنْهُ التَّوَكُّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ وَيُثْبِتُ فِيهِ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ. وَهَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ الَّذِي يَمُدُّهُ الْقُرْآنُ وَيُقَوِّيهِ لَا يُنَاقِضُهُ وَيُنَافِيهِ، كَمَا قَالَ جُنْدُبٌ وَابْنُ عُمَرَ: "تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا" وَأَمَّا الِاقْتِصَارُ عَلَى الذِّكْرِ الْمُجَرَّدِ الشَّرْعِيِّ مِثْلِ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَهَذَا قَدْ يَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ أَحْيَانًا لَكِنْ لَيْسَ هَذَا الذِّكْرُ وَحْدَهُ هُوَ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مَا عَدَاهُ، بَلْ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ ثُمَّ الْقِرَاءَةُ ثُمَّ الذِّكْرُ ثُمَّ الدُّعَاءُ، وَالْمَفْضُولُ فِي وَقْتِهِ الَّذِي شُرِعَ فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الْفَاضِلِ، كَالتَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ، وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ فِي آخِرِ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ، ثُمَّ قَدْ يُفْتَحُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْعَمَلِ الْمَفْضُولِ مَا لَا يُفْتَحُ عَلَيْهِ فِي الْعَمَلِ الْفَاضِلِ، وَقَدْ يُيَسَّرُ عَلَيْهِ هَذَا دُونَ هَذَا فَيَكُونُ هَذَا أَفْضَلَ فِي حَقِّهِ؛ لِعَجْزِهِ عَنِ الْأَفْضَلِ كَالْجَائِعِ إِذَا وَجَدَ الْخُبْزَ الْمَفْضُولَ مُتَيَسِّرًا عَلَيْهِ وَالْفَاضِلَ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَذَا الْخُبْزِ الْمَفْضُولِ، وَشِبَعُهُ وَاغْتِذَاؤُهُ بِهِ حِينَئِذٍ أَوْلَى بِهِ.

السَّابِعُ: أَنَّ أَبَا حَامِدٍ يُشَبِّهُ ذَلِكَ بِنَقْشِ أَهْلِ الصِّينِ وَالرُّومِ عَلَى تَزْوِيقِ الْحَائِطِ، وَأُولَئِكَ صَقَلُوا حَائِطَهُمْ حَتَّى تَمَثَّلَ فِيهِ مَا صَقَلَهُ هَؤُلَاءِ وَهَذَا قِيَاسٌ فَاسِدٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي فَرَّغَ قَلْبَهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قَلْبٌ آخَرُ يَحْصُلُ

لَهُ بِهِ التَّحْلِيَةُ كَمَا يَحْصُلُ لِهَذَا الْحَائِطِ مِنْ هَذَا الْحَائِطِ، بَلْ هُوَ يَقُولُ إنَّ الْعِلْمَ مَنْقُوشٌ فِي النَّفْسِ الْفَلَكِيَّةِ، وَيُسَمِّي ذَلِكَ "اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ" تَبَعًا لِابْنِ سِينَا. وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَيْسَ هُوَ النَّفْسَ الْفَلَكِيَّةَ، وَابْنُ سِينَا وَمَنْ تَبِعَهُ أَخَذُوا أَسْمَاءً جَاءَ بِهَا الشَّرْعُ فَوَضَعُوا لَهَا مُسَمَّيَاتٍ مُخَالِفَةً لِمُسَمَّيَاتِ صَاحِبِ الشَّرْعِ، ثُمَّ صَارُوا يَتَكَلَّمُونَ بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ بِهَا مَا قَصَدَهُ صَاحِبُ الشَّرْعِ، فَأَخَذُوا مُخَّ الْفَلْسَفَةِ وَكَسَوْهُ لِحَاءَ الشَّرِيعَةِ. وَهَذَا كَلَفْظِ "الْمُلْكِ" و"الْمَلَكُوتِ" و"الْجَبَرُوتِ" و"اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ" و"الْمَلَكِ" و"الشَّيْطَانِ" و"الْحُدُوثِ" و"الْقِدَمِ" وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ ذَلِكَ طَرَفًا فِي الرَّدِّ عَلَى الِاتِّحَادِيَّةِ، لَمَّا ذَكَرْنَا قَوْلَ ابْنِ سَبْعِينَ وَابْنِ عَرَبِيٍّ، وَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ أَبِي حَامِدٍ وَنَحْوِهِ، مِنْ أُصُولِ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةِ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، كَمَا فَعَلَتْ طَائِفَةُ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ.

والْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْعُلُومُ تَنْزِلُ عَلَى الْقُلُوبِ مِنْ النَّفْسِ الْفَلَكِيَّةِ كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ، فَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ النَّاظِرِ وَالْمُسْتَدِلِّ وَالْمُفَرِّغِ قَلْبَهُ، فَتَمْثِيلُ ذَلِكَ بِنَقْشِ أَهْلِ الصِّينِ وَالرُّومِ تَمْثِيلٌ بَاطِلٌ. وَمِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْخَلَوَاتِ مَنْ لَهُمْ أَذْكَارٌ مُعَيَّنَةٌ وَقُوتٌ مُعَيَّنٌ وَلَهُمْ تنزلات مَعْرُوفَةٌ. وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامَ عَلَيْهَا ابْنُ عَرَبِيٍّ الطَّائِيُّ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُ كالتلمساني.

ونقول: رحم الله شيخ الإسلام إنه ليتحدث عن الخلوات بكلام دقيق، وكذلك ما ذكره عن علاقة ذلك بالتنزلات الشيطانية، وقد وقفت على كل ما ذكره حين قبضت على بعض الكهان والسحرة، وقد أقروا أنهم لا يصلون إلى تلك الحالة إلا بعد خلوات مخصوصة ومعلومة، ومقدرة عندهم لها أيامها وأماكنها وطعامها وشرابها وطقوسها ومراسمها. ويرون أنّ هذه حالة تنزل عليهم الروحانيات، وما هذه إلا شياطين قد تنزلت عليهم عند الأذكار البدعية وعند السهر الطويل والاعتزال في القفار والمواضع المهجورة.

ولا أحصى عدد من قبض عليهم من هؤلاء الذين دخلوا إلى الكهانة والسحر عبر هذه الطريق البدعية، فتنزلت عليهم الشياطين، وأفسدت دينهم ودنياهم.

قال رحمه الله: وَهِيَ تنزلات شَيْطَانِيَّةٌ قَدْ عَرَفْتهَا وَخَبَرْتُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَى هَذَا الْجِنْسِ. وَمِمَّا يَأْمُرُونَ بِهِ الْجُوعُ وَالسَّهَرُ وَالصَّمْتُ مَعَ الْخَلْوَةِ بِلَا حُدُودٍ شَرْعِيَّةٍ بَلْ سَهَرٌ مُطْلَقٌ وَجُوعٌ مُطْلَقٌ وَصَمْتٌ مُطْلَقٌ مَعَ الْخَلْوَةِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيٍّ وَغَيْرُهُ، وَهِيَ تُوَلِّدُ لَهُمْ أَحْوَالًا شَيْطَانِيَّةً. وَأَبُو طَالِبٍ قَدْ ذَكَرَ بَعْضَ ذَلِكَ، لَكِنْ أَبُو طَالِبٍ أَكْثَرُ اعْتِصَامًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَلَكِنْ يَذْكُرُ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً ضَعِيفَةً بَلْ مَوْضُوعَةً مِنْ جِنْسِ أَحَادِيثِ الْمُسَبَّعَاتِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْ الْخَضِرِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ كَذِبٌ مَحْضٌ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ فِيهِ إلَّا قِرَاءَةُ قُرْآنٍ، وَيَذْكُرُ أَحْيَانًا عِبَادَاتٍ بِدْعِيَّةً مِنْ جِنْسِ مَا بَالَغَ فِي مَدْحِ الْجُوعِ هُوَ وَأَبُو حَامِدٍ وَغَيْرُهُمَا، وَذَكَرُوا أَنَّهُ يَزِنُ الْخُبْزَ بِخَشَبٍ رَطْبٍ كُلَّمَا جَفَّ نَقَصَ الْأَكْلَ، وَذَكَرُوا صَلَوَاتِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَكُلُّهَا كَذِبٌ مَوْضُوعَةٌ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَذْكُرُونَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ الْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّنْبِيهُ

بِهَذَا عَلَى جِنْسٍ مِنْ الْعِبَادَاتِ الْبِدْعِيَّةِ وَهِيَ "الْخَلَوَاتُ الْبِدْعِيَّةُ" سَوَاءٌ قُدِّرَتْ بِزَمَانِ أَوْ لَمْ تُقَدَّرْ لِمَا فِيهَا مِنْ الْعِبَادَاتِ الْبِدْعِيَّةِ، إمَّا الَّتِي جِنْسُهَا مَشْرُوعٌ وَلَكِنْ غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ، وَإِمَّا مَا كَانَ جِنْسُهُ غَيْرَ مَشْرُوعٍ، فَأَمَّا الْخَلْوَةُ وَالْعُزْلَةُ وَالِانْفِرَادُ الْمَشْرُوعُ فَهُوَ مَا كَانَ مَأْمُورًا بِهِ أَمْرَ إيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ.

فَالْأَوَّلُ كَاعْتِزَالِ الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ وَمُجَانَبَتِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾(١) وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى عَنْ الْخَلِيلِ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنَ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وَقَوْلُهُ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾(٢) فَإِنَّ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا فِي مَكَانٍ فِيهِ جُمُعَةٌ وَلَا جَمَاعَةٌ وَلَا مَنْ يَأْمُرُ بِشَرْعِ نَبِيٍّ، فَلِهَذَا أَوَوْا إلَى الْكَهْفِ، وَقَدْ قَالَ مُوسَى: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾(٣) وَأَمَّا اعْتِزَالُ النَّاسِ فِي فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ وَمَا لَا يَنْفَعُ، وَذَلِكَ بِالزُّهْدِ فِيهِ فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَقَدْ قَالَ طاوس: نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ يَكُفُّ فِيهِ بَصَرَهُ وَسَمْعَهُ. وَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ تَحْقِيقَ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ فَتَخَلَّى فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ مَعَ مُحَافَظَتِهِ عَلَى الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ فَهَذَا حَقٌّ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ {سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إلَيْهَا يَتَتَبَّعُ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ، وَرَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَدَعُ النَّاسَ إلَّا مِنْ خَيْرٍ}(٤) وَقَوْلُهُ: {يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ} دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَهُ مَالًا يُزَكِّيهِ وَهُوَ سَاكِنٌ مَعَ نَاسٍ يُؤَذِّنُ بَيْنَهُمْ وَتُقَامُ الصَّلَاةُ فِيهِمْ فَقَدْ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: {مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلَاةُ جَمَاعَةً إلَّا وَقَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ}وَقَالَ: {عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْخُذُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ مِنْ الْغَنَمِ}(٥)

فَصْلٌ: وَهَذِهِ "الْخَلَوَاتُ" قَدْ يَقْصِدُ أَصْحَابُهَا الْأَمَاكِنَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَذَانٌ وَلَا إقَامَةٌ وَلَا مَسْجِدٌ يُصَلَّى فِيهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، إمَّا مَسَاجِدُ مَهْجُورَةٌ وَإِمَّا غَيْرُ مَسَاجِدَ: مِثْلُ الْكُهُوفِ وَالْغِيرَانِ الَّتِي فِي الْجِبَالِ، وَمِثْلُ الْمَقَابِرِ لَا سِيَّمَا قَبْرُ مَنْ يَحْسُنُ بِهِ الظَّنُّ، وَمِثْلُ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُقَالُ إنَّ بِهَا أَثَرَ نَبِيٍّ أَوْ رَجُلٍ صَالِحٍ؛ وَلِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ يَظُنُّونَ أَنَّهَا كَرَامَاتٌ رَحْمَانِيَّةٌ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ صَاحِبَ الْقَبْرِ قَدْ جَاءَ إلَيْهِ وَقَدْ مَاتَ مِنْ سِنِينَ كَثِيرَةٍ وَيَقُولُ: أَنَا فُلَانٌ، وَرُبَّمَا قَالَ لَهُ: نَحْنُ إذَا وُضِعْنَا فِي الْقَبْرِ خَرَجْنَا، كَمَا جَرَى لِلتُّونِسِيِّ مَعَ نُعْمَانَ السَّلَامِيِّ. وَالشَّيَاطِينُ كَثِيرًا مَا يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ الْإِنْسِ فِي الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ، وَقَدْ تَأْتِي لِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَتَقُولُ: أَنَا الشَّيْخُ فُلَانٌ أَوْ الْعَالِمُ فُلَانٌ، وَرُبَّمَا قَالَتْ: أَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَرُبَّمَا أَتَى فِي الْيَقَظَةِ دُونَ الْمَنَامِ وَقَالَ: أَنَا الْمَسِيحُ أَنَا مُوسَى أَنَا مُحَمَّدٌ، وَقَدْ جَرَى مِثْلُ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ أَعْرِفُهَا وَثَمَّ مَنْ يُصَدِّقُ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَأْتُونَ فِي الْيَقَظَةِ فِي صُوَرِهِمْ، وَثَمَّ شُيُوخٌ لَهُمْ زُهْدٌ وَعِلْمٌ وَوَرَعٌ وَدِينٌ يُصَدِّقُونَ

---

(١) الأنعام: الآية ٦٨.
(٢) الكهف: الآية ١٦.
(٣) الدخان: الآية ٢١.
(٤) رواه ابن ماجه حديث ٣٩٧٦، وأصله في مسلم٣٥٠٣.
(٥) سنن أبي داود حديث ٤٦٠

بِمِثْلِ هَذَا. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حِينَ يَأْتِي إلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ يَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ فِي صُورَتِهِ فَيُكَلِّمُهُ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ رَأَى فِي دَائِرَةِ ذُرَى الْكَعْبَةِ صُورَةَ شَيْخٍ قَالَ: إنَّهُ إبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ الْحُجْرَةِ وَكَلَّمَهُ، وَجَعَلُوا هَذَا مِنْ كَرَامَاتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إذَا سَأَلَ الْمَقْبُورَ أَجَابَهُ. وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَحْكِي: أَنَّ ابْنَ منده كَانَ إذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ حَدِيثٌ جَاءَ إلَى الْحُجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَدَخَلَ فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَهُ، وَآخَرُ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ حَصَلَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ كَرَامَاتِهِ، حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ لِمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ: وَيْحك أَتَرَى هَذَا أَفْضَلَ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ فَهَلْ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَجَابَهُ؟ وَقَدْ تَنَازَعَ الصَّحَابَةُ فِي أَشْيَاءَ فَهَلَّا سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَجَابَهُمْ، وَهَذِهِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ تُنَازِعُ فِي مِيرَاثِهِ فَهَلَّا سَأَلَتْهُ فَأَجَابَهَا.

وَقَوْلُ الْقَائِلِ(١): "يَأْخُذُ عَنْ اللَّهِ، وَأَعْطَانِي اللَّهُ" لَفْظٌ مُجْمَلٌ فَإِنْ أَرَادَ بِهِ الْإِعْطَاءَ وَالْأَخْذَ الْعَامَّ وَهُوَ "الْكَوْنِيُّ الخلقي" أَيْ: بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ حَصَلَ لِي هَذَا فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يُشَارِكُونَهُ فِي هَذَا، وَذَلِكَ الَّذِي أَخَذَ عَنْ الْكِتَابِ هُوَ أَيْضًا عَنْ اللَّهِ أَخَذَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ. وَالْكُفَّارُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ أَيْضًا هُمْ كَذَلِكَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ هَذَا الَّذِي حَصَلَ لَهُ هُوَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيُقَرِّبُ إلَيْهِ، وَهَذَا الْخِطَابُ الَّذِي يُلْقَى إلَيْهِ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى. فَهُنَا طَرِيقَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ لَهُ مِنْ أَيْنَ لَك أَنَّ هَذَا إنَّمَا هُوَ مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِلْقَائِهِ وَوَسْوَسَتِهِ؟ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيَنْزِلُونَ عَلَيْهِمْ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا وَهَذَا مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي عُبَّادِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَفِي الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ وَنَحْوِهِمْ وَفِي أَهْلِ الْبِدَعِ بِحَسَبِ بِدْعَتِهِمْ. فَإِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ قَدْ تَكُونُ شَيْطَانِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ رَحْمَانِيَّةً، فَلَا بُدَّ مِنْ الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَالْفُرْقَانُ إنَّمَا هُوَ الْفُرْقَانُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(٢) وَهُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَبَيْنَ الرَّشَادِ وَالْغَيِّ، وَبَيْنَ طَرِيقِ الْجَنَّةِ وَطَرِيقِ النَّارِ، وَبَيْنَ سَبِيلِ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَسَبِيلِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ. كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ: إذَا كَانَ جِنْسُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ فَلَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ يُبَيِّنُ أَنَّ مَا حَصَلَ لَكُمْ هُوَ الْحَقُّ.

الطَّرِيقُ الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: بَلْ هَذَا مِنْ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ وَذَلِكَ أَنَّهُ يُنْظَرُ فِيمَا حَصَلَ لَهُ وَإِلَى سَبَبِهِ وَإِلَى غَايَتِهِ فَإِنْ كَانَ السَّبَبُ عِبَادَةً غَيْرَ شَرْعِيَّةٍ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: اُسْجُدْ لِهَذَا الصَّنَمِ حَتَّى يَحْصُلَ لَك الْمُرَادُ، أَوْ اسْتَشْفِعْ بِصَاحِبِ هَذِهِ الصُّورَةِ حَتَّى يَحْصُلَ لَك الْمَطْلُوبُ، أَوْ اُدْعُ هَذَا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٨٦)
(٢) الفرقان: الآية ١.

الْمَخْلُوقَ وَاسْتَغِثْ بِهِ مِثْلَ أَنْ يَدْعُوَ الْكَوَاكِبَ كَمَا يَذْكُرُونَهُ فِي كُتُبِ دَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ، أَوْ أَنْ يَدْعُوَ مَخْلُوقًا كَمَا يَدْعُو الْخَالِقَ سَوَاءٌ كَانَ الْمَخْلُوقُ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ شَيْخًا، فَإِذَا دَعَاهُ كَمَا يَدْعُو الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ: إِمَّا دُعَاءَ عِبَادَةٍ وَإِمَّا دُعَاءَ مَسْأَلَةٍ صَارَ مُشْرِكًا بِهِ، فَحِينَئِذٍ مَا حَصَلَ لَهُ بِهَذَا السَّبَبِ حَصَلَ بِالشِّرْكِ كَمَا كَانَ يَحْصُلُ لِلْمُشْرِكِينَ. وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَتَرَاءَى لَهُمْ أَحْيَانًا، وَقَدْ يُخَاطِبُونَهُمْ مِنْ الصَّنَمِ وَيُخْبِرُونَهُمْ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، أَوْ يَقْضُونَ لَهُمْ بَعْضَ الْحَوَائِجِ، فَكَانُوا يَبْذُلُونَ لَهُمْ هَذَا النَّفْعَ الْقَلِيلَ بِمَا اشْتَرَوْهُ مِنْهُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ الَّذِي هَلَكُوا بِزَوَالِهِ كَالسِّحْرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١) وَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ سَمَاعَ الْمَعَازِفِ، وَهَذَا كَمَا يُذْكَرُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عفان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّهُ قَالَ: "اتَّقُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ؛ وَإِنَّ رَجُلًا سَأَلَ امْرَأَةً فَقَالَتْ: لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَسْجُدَ لِهَذَا الْوَثَنِ فَقَالَ لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ، فَقَالَتْ: أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الصَّبِيَّ؟ فَقَالَ: لَا أَقْتُلُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، فَقَالَتْ: أَوْ تَشْرَبَ هَذَا الْقَدَحَ؟ فَقَالَ هَذَا أَهْوَنُ، فَلَمَّا شَرِبَ الْخَمْرَ قَتَلَ الصَّبِيَّ وَسَجَدَ لِلْوَثَنِ وَزَنَى بِالْمَرْأَةِ" و"الْمَعَازِفُ" هِيَ خَمْرُ النُّفُوسِ تَفْعَلُ بِالنُّفُوسِ أَعْظَمَ مِمَّا تَفْعَلُ حُمَيَّا الْكُؤُوسِ، فَإِذَا سَكِرُوا بِالْأَصْوَاتِ حَلَّ فِيهِمْ الشِّرْكُ وَمَالُوا إِلَى الْفَوَاحِشِ وَإِلَى الظُّلْمِ، فَيُشْرِكُونَ وَيَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ وَيَزْنُونَ.

وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ مَوْجُودَةٌ كَثِيرًا فِي أَهْلِ سَمَاعِ الْمَعَازِفِ: سَمَاعِ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ.

أَمَّا "الشِّرْكُ" فَغَالِبٌ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُحِبُّوا شَيْخَهُمْ أَوْ غَيْرَهُ مِثْلَ مَا يُحِبُّونَ اللَّهَ وَيَتَوَاجَدُونَ عَلَى حُبِّهِ.

وَأَمَّا "الْفَوَاحِشُ" فَالْغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّنَا وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ لِوُقُوعِ الْفَوَاحِشِ، وَيَكُونُ الرَّجُلُ وَالصَّبِيُّ وَالْمَرْأَةُ فِي غَايَةِ الْعِفَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ فَتَنْحَلُّ نَفْسُهُ وَتَسْهُلُ عَلَيْهِ الْفَاحِشَةُ، وَيَمِيلُ لَهَا فَاعِلًا أَوْ مَفْعُولًا بِهِ أَوْ كِلَاهُمَا، كَمَا يَحْصُلُ بَيْنَ شَارِبِي الْخَمْرِ وَأَكْثَرُ.

وَأَمَّا "الْقَتْلُ" فَإِنَّ قَتْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِي السَّمَاعِ كَثِيرٌ، يَقُولُونَ: قَتَلَهُ بِحَالِهِ وَيَعُدُّونَ ذَلِكَ مِنْ قُوَّتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَعَهُمْ شَيَاطِينَ تَحْضُرُهُمْ فَأَيُّهُمْ كَانَتْ شَيَاطِينُهُ أَقْوَى قَتَلَ الْآخَرَ، كَالَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَمَعَهُمْ أَعْوَانٌ لَهُمْ فَإِذَا شَرِبُوا عَرْبَدُوا، فَأَيُّهُمْ كَانَتْ أَعْوَانُهُ أَقْوَى قَتَلَ الْآخَرَ، وَقَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُ إِمَّا شَخْصًا وَإِمَّا فَرَسًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ بِحَالِهِ، ثُمَّ يَقُومُ صَاحِبُ الثَّأْرِ وَيَسْتَغِيثُ بِشَيْخِهِ فَيَقْتُلُ ذَلِكَ الشَّخْصَ وَجَمَاعَةً مَعَهُ: إِمَّا عَشَرَةً وَإِمَّا أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ. كَمَا جَرَى مِثْلُ هَذَا لِغَيْرِ وَاحِدٍ وَكَانَ الْجُهَّالُ يَحْسَبُونَ هَذَا مِنْ (بَابِ الْكَرَامَاتِ) فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ مَعَهُمْ شَيَاطِينُ تُعِينُهُمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، عَرَفَ ذَلِكَ مَنْ بَصَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَانْكَشَفَ التَّلْبِيسُ وَالْغِشُّ الَّذِي كَانَ لِهَؤُلَاءِ. وَكُنْت فِي

(١) البقرة: الآية ١٠٢.

أَوَائِلِ عُمْرِي حَضَرْت مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ "الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِرَادَةِ" فَكَانُوا مِنْ خِيَارِ أَهْلِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ. فَبِتْنَا بِمَكَانٍ وَأَرَادُوا أَنْ يُقِيمُوا سَمَاعًا وَأَنْ أَحْضُرَ مَعَهُمْ فَامْتَنَعْت مِنْ ذَلِكَ، فَجَعَلُوا لِي مَكَانًا مُنْفَرِدًا قَعَدْت فِيهِ، فَلَمَّا سَمِعُوا وَحَصَلَ الْوَجْدُ وَالْحَالُ، صَارَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ يَهْتِفُ بِي فِي حَالِ وَجْدِهِ وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ قَدْ جَاءَك نَصِيبٌ عَظِيمٌ تَعَالَ خُذْ نَصِيبَك، فَقُلْت فِي نَفْسِي ثُمَّ أَظْهَرْته لَهُمْ لَمَّا اجْتَمَعْنَا: أَنْتُمْ فِي حِلٍّ مِنْ هَذَا النَّصِيبِ، فَكُلُّ نَصِيبٍ لَا يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي لَا آكُلُ مِنْهُ شَيْئًا. وَتَبَيَّنَ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ فِيهِمْ مِمَّنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ وَعِلْمٌ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ سَكْرَانُ بِالْخَمْرِ. وَالَّذِي قُلْته مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا النَّصِيبَ وَهَذِهِ الْعَطِيَّةَ وَالْمَوْهِبَةَ وَالْحَالَ سَبَبُهَا غَيْرُ شَرْعِيٍّ، لَيْسَ هُوَ طَاعَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا شَرَعَهَا الرَّسُولُ، فَهُوَ مِثْلُ مَنْ يَقُولُ: تَعَالَ اشْرَبْ مَعَنَا الْخَمْرَ وَنَحْنُ نُعْطِيك هَذَا الْمَالَ، أَوْ عَظِّمْ هَذَا الصَّنَمَ وَنَحْنُ نُوَلِّيك هَذِهِ الْوِلَايَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ نَذْرًا لِغَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: مِثْلَ أَنْ يَنْذِرَ لِصَنَمٍ أَوْ كَنِيسَةٍ أَوْ قَبْرٍ أَوْ نَجْمٍ أَوْ شَيْخٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ النُّذُورِ الَّتِي فِيهَا شِرْكٌ، فَإِذَا أَشْرَكَ بِالنَّذْرِ فَقَدْ يُعْطِيهِ الشَّيْطَانُ بَعْضَ حَوَائِجِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي السِّحْرِ. وَهَذَا بِخِلَافِ النَّذْرِ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنَّه ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنْ النَّذْرِ وَقَالَ: {إنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ} وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوُهُ[(١)] وَفِي رِوَايَةٍ: {فَإِنَّ النَّذْرَ يُلْقِي ابْنَ آدَمَ إلَى الْقَدَرِ}[(٢)] فَهَذَا الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ النَّذْرُ الَّذِي يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ مَنْهِيٌّ عَنْ عَقْدِهِ، وَلَكِنْ إذَا كَانَ قَدْ عَقَدَهُ فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ}[(٣)] وَإِنَّمَا نَهَى عَنْهُ ﷺ لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهِ إلَّا الْتِزَامُ مَا الْتَزَمَهُ وَقَدْ لَا يَرْضَى بِهِ فَيَبْقَى آثِمًا. وَإِذَا فَعَلَ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ بِلَا نَذْرٍ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَالنَّاسُ يَقْصِدُونَ بِالنَّذْرِ تَحْصِيلَ مُطَالِبِهِمْ، فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النَّذْرَ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ فَلَيْسَ النَّذْرُ سَبَبًا فِي حُصُولِ مَطْلُوبِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاذِرَ إذَا قَالَ: لِلَّهِ عَلَيَّ إنْ حَفَّظَنِي اللَّهُ الْقُرْآنَ أَنْ أَصُومَ مَثَلًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ إنْ عَافَانِي اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ أَوْ إنْ دَفَعَ اللَّهُ هَذَا الْعَدُوَّ أَوْ إنْ قَضَى عَنِّي هَذَا الدَّيْنَ فَعَلْت كَذَا، فَقَدْ جَعَلَ الْعِبَادَةَ الَّتِي الْتَزَمَهَا عِوَضًا مِنْ ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَقْضِي تِلْكَ الْحَاجَةَ بِمُجَرَّدِ تِلْكَ الْعِبَادَةِ الْمَنْذُورَةِ، بَلْ يُنْعِمُ عَلَى عَبْدِهِ بِذَلِكَ الْمَطْلُوبِ لِيَبْتَلِيَهُ: أَيَشْكُرُ أَمْ يَكْفُرُ؟ وَشُكْرُهُ يَكُونُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَهُ بِهِ وَتَرْكِ مَا نَهَاهُ عَنْهُ. وَأَمَّا تِلْكَ الْعِبَادَةُ الْمَنْذُورَةُ فَلَا تَقُومُ بِشُكْرِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، وَلَا يُنْعِمُ اللَّهُ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِيَعْبُدَهُ الْعَبْدُ تِلْكَ الْعِبَادَةَ الْمَنْذُورَةَ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً فَصَارَتْ وَاجِبَةً؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُوجِبْ تِلْكَ الْعِبَادَةَ ابْتِدَاءً بَلْ هُوَ يَرْضَى مِنْ الْعَبْدِ بِأَنْ يُؤَدِّيَ الْفَرَائِضَ وَيَجْتَنِبَ الْمَحَارِمَ، لَكِنَّ هَذَا النَّاذِرَ يَكُونُ قَدْ ضَيَّعَ كَثِيرًا مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ، ثُمَّ بَذَلَ ذَلِكَ النَّذْرَ لِأَجْلِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، وَتِلْكَ النِّعْمَةُ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُنْعِمَ اللَّهُ بِهَا لِمُجَرَّدِ ذَلِكَ الْمَبْذُولِ

(١) رواه البخاري حديث ٦١١٨، ومسلم ٣٠٩٤.
(٢) رواه مسلم حديث ١٦٤٠.
(٣) رواه البخاري حديث ٦٢٠٢.

الْمُحْتَقَرِ، وَإِنْ كَانَ الْمَبْذُولُ كَثِيرًا وَالْعَبْدُ مُطِيعٌ لِلَّهِ فَهُوَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ أَنْ يحوجه إِلَى ذَلِكَ الْمَبْذُولِ الْكَثِيرِ، فَلَيْسَ النَّذْرُ سَبَبًا لِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ كَالدُّعَاءِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ وَكَذَلِكَ الصَّدَقَةُ وَغَيْرُهَا مِنْ الْعِبَادَاتِ، جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَسْبَابًا لِحُصُولِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ إذَا فَعَلَهَا الْعَبْدُ ابْتِدَاءً، وَأَمَّا مَا يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ النَّذْرِ فَإِنَّهُ لَا يَجْلِبُ مَنْفَعَةً وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً، لَكِنَّهُ كَانَ بَخِيلًا فَلَمَّا نَذَرَ لَزِمَهُ ذَلِكَ، فَاَللَّهُ تَعَالَى يَسْتَخْرِجُ بِالنَّذْرِ مِنْ الْبَخِيلِ، فَيُعْطِي عَلَى النَّذْرِ مَا لَمْ يَكُنْ يُعْطِيهِ بِدُونِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَم.

وَالنَّاسُ فِي خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:(١)

قِسْمٌ يُكَذِّبُ بِوُجُودِ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرُبَّمَا صَدَّقَ بِهِ مُجْمَلًا وَكَذَّبَ مَا يُذْكَرُ لَهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ لِكَوْنِهِ عِنْدَهُ لَيْسَ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَوْعٌ مِنْ خَرْقِ الْعَادَةِ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ.

وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ خَطَأٌ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُونَ أَنَّ لِلْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ نُصَرَاءَ يُعِينُونَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ يُكَذِّبُونَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ مَنْ لَهُ خَرْقُ عَادَةٍ وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنَّ مَعَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(٢) وَهَؤُلَاءِ الْعُبَّادُ وَالزُّهَّادُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ فَيَكُونُ لِأَحَدِهِمْ مِنْ الْخَوَارِقِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ، لَكِنَّ خَوَارِقَ هَؤُلَاءِ يُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِذَا حَصَلَ مَنْ لَهُ تَمَكُّنٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْطَلَهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَحَدِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ جَهْلًا أَوْ عَمْدًا، وَمِنْ الْإِثْمِ مَا يُنَاسِبُ حَالَ الشَّيَاطِينِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهِمْ؛ لِيُفَرِّقَ اللَّهُ بِذَلِكَ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وَالْأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ. وَالْأَثِيمُ: الْفَاجِرُ. وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُقَوِّي الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ سَمَاعُ الْغِنَاءِ وَالْمَلَاهِي وَهُوَ سَمَاعُ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ– وَغَيْرُهُمَا مِنْ السَّلَفِ: التَّصْدِيَةُ التَّصْفِيقُ بِالْيَدِ، وَالْمُكَاءُ مِثْلُ الصَّفِيرِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَّخِذُونَ هَذَا عِبَادَةً، وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَعِبَادَتُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالِاجْتِمَاعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَى اسْتِمَاعِ غِنَاءٍ قَطُّ لَا بِكَفٍّ وَلَا بِدُفٍّ وَلَا تَوَاجُدٍ وَلَا سَقَطَتْ بُرْدَتُهُ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِهِ. وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقُونَ يَسْتَمِعُونَ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يَقُولُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: ذَكِّرْنَا رَبَّنَا فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ، وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي مُوسَى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤٩٩)
(٢) المائدة: الآية ٥١.
(٣) الأنفال: الآية ٣٥.

الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَقْرَأُ فَقَالَ لَهُ: {مَرَرْت بِك الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَجَعَلْت أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِك، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْت أَنَّك تَسْتَمِعُ لَحَبَّرْته لَك تَحْبِيرًا}[١] أَيْ لَحَسَّنْته لَك تَحْسِينًا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ}[٢] وَقَالَ ﷺ: {لَلَّهُ أَشَدُّ أُذُنًا أَيْ اسْتِمَاعًا إلَى الرَّجُلِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إلَى قَيْنَتِهِ}[٣]

وَقَالَ ﷺ لِابْنِ مَسْعُودٍ: اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ. فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ؟ فَقَالَ: إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْت عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى انْتَهَيْت إلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ: حَسْبُك. فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ مِنْ الْبُكَاءِ}[٤] وَمِثْلُ هَذَا السَّمَاعِ هُوَ سَمَاعُ النَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٥] وَقَالَ فِي أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٦] وَمَدَحَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ هَذَا السَّمَاعِ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَاقْشِعْرَارِ الْجِلْدِ وَدَمْعِ الْعَيْنِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٨] وَأَمَّا السَّمَاعُ الْمُحْدَثُ: سَمَاعُ الْكَفِّ وَالدُّفِّ وَالْقَصَبِ، فَلَمْ تَكُنْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ الْأَكَابِرِ مِنْ أَئِمَّةِ الدِّينِ يَجْعَلُونَ هَذَا طَرِيقًا إلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَعُدُّونَهُ مِنْ الْقُرَبِ وَالطَّاعَاتِ، بَلْ يَعُدُّونَهُ مِنْ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ، حَتَّى قَالَ الشَّافِعِيُّ: خَلَّفْت بِبَغْدَادَ شَيْئًا أَحْدَثَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّونَهُ التَّغْبِيرَ، يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنْ الْقُرْآنِ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْعَارِفُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبًا وَافِرًا؛ وَلِهَذَا تَابَ مِنْهُ خِيَارُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ. وَمَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنْ الْمَعْرِفَةِ وَعَنْ كَمَالِ وِلَايَةِ اللَّهِ كَانَ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْهُ أَكْثَرَ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْخَمْرِ يُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِ الْخَمْرِ؛ وَلِهَذَا إذَا قَوِيَتْ سَكْرَةُ أَهْلِهِ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ، وَتَكَلَّمَتْ عَلَى أَلْسِنَةِ بَعْضِهِمْ، وَحَمَلَتْ بَعْضَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ تَحْصُلُ عَدَاوَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا تَحْصُلُ بَيْنَ شُرَّابِ الْخَمْرِ، فَتَكُونُ شَيَاطِينُ أَحَدِهِمْ أَقْوَى مِنْ شَيَاطِينِ الْآخَرِ فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَظُنُّ الْجُهَّالُ أَنَّ هَذَا مِنْ

(١) رواه البيهقي ج٣ص١٢، وأصله في صحيح مسلم حديث٤٦٦٠.
(٢) رواه أبو داود حديث ١٢٥٦، وصححه الألباني.
(٣) رواه ابن ماجه حديث ١٣٣٠.وهو في الضعيفة برقم ٢٩٥١.
(٤) رواه البخاري حديث ٤٢١٦.
(٥) مريم: الآية ٥٨.
(٦) المائدة: الآية ٨٣.
(٧) الزمر: الآية ٢٣.
(٨) الأنفال: الآية ٢:٥.

كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا هَذَا مُبْعِدٌ لِصَاحِبِهِ عَنْ اللَّهِ وَهُوَ مِنْ أَحْوَالِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّ قَتْلَ الْمُسْلِمِ لَا يَحِلُّ إلَّا بِمَا أَحَلَّهُ اللَّهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَتْلُ الْمَعْصُومِ مِمَّا يُكْرِمُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ؟ وَإِنَّمَا غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ، فَلَمْ يُكْرِمْ اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَزِيدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إلَيْهِ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْخَوَارِقَ مِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ كَالْمُكَاشَفَاتِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ وَالْمُلْكِ كَالتَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْغِنَى عَنْ جِنْسِ مَا يُعْطَاهُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْعِلْمِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالْغِنَى. وَجَمِيعُ مَا يُؤْتِيه اللَّهُ لِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيُقَرِّبُهُ إلَيْهِ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، ازْدَادَ بِذَلِكَ رِفْعَةً وَقُرْبًا إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ كَالشِّرْكِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ، اسْتَحَقَّ بِذَلِكَ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ، فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْبَةِ أَوْ حَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ وَإِلَّا كَانَ كَأَمْثَالِهِ مِنْ الْمُذْنِبِينَ؛ وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يُعَاقَبُ أَصْحَابُ الْخَوَارِقِ تَارَةً بِسَلْبِهَا كَمَا يُعْزَلُ الْمَلِكُ عَنْ مُلْكِهِ وَيُسْلَبُ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، وَتَارَةً بِسَلْبِ التَّطَوُّعَاتِ فَيُنْقَلُ مِنْ الْوِلَايَةِ الْخَاصَّةِ إلَى الْعَامَّةِ، وَتَارَةً يَنْزِلُ إلَى دَرَجَةِ الْفُسَّاقِ، وَتَارَةً يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ.

وَهَذَا يَكُونُ فِيمَنْ لَهُ خَوَارِقُ شَيْطَانِيَّةٌ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ شَيْطَانِيَّةٌ، بَلْ يَظُنُّهَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَيَظُنُّ مَنْ يَظُنُّ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إذَا أَعْطَى عَبْدًا خَرْقَ عَادَةٍ لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ إذَا أَعْطَى عَبْدًا مُلْكًا وَمَالًا وَتَصَرُّفًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ بِالْخَوَارِقِ عَلَى أُمُورٍ مُبَاحَةٍ لَا مَأْمُورًا بِهَا وَلَا مَنْهِيًّا عَنْهَا، فَهَذَا يَكُونُ مِنْ عُمُومِ الْأَوْلِيَاءِ وَهُمْ الْأَبْرَارُ الْمُقْتَصِدُونَ، وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَأَعْلَى مِنْ هَؤُلَاءِ، كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ أَعْلَى مِنْ النَّبِيِّ الْمَلِكِ. وَلَمَّا كَانَتْ الْخَوَارِقُ كَثِيرًا مَا تَنْقُصُ بِهَا دَرَجَةُ الرَّجُلِ، كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّالِحِينَ يَتُوبُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا يَتُوبُ مِنْ الذُّنُوبِ: كَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ، وَتَعْرِضُ عَلَى بَعْضِهِمْ فَيَسْأَلُ اللَّهَ زَوَالَهَا، وكثير ممن منّ الله عليه ببعض الكرامات يخفيها، ويستغفر منها كتوبته من الذنوب، فانظر إلى حال هؤلاء فكيف إذا كانت بالحقيقة شياطين تغويهم بها.

وَكُلُّهُمْ يَأْمُرُ الْمُرِيدَ السَّالِكَ أَنْ لَا يَقِفَ عِنْدَهَا وَلَا يَجْعَلَهَا هِمَّتَهُ وَلَا يَتَبَجَّحَ بِهَا، مَعَ ظَنِّهِمْ أَنَّهَا كَرَامَاتٌ، فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ بِالْحَقِيقَةِ مِنْ الشَّيَاطِينِ تُغْوِيهِمْ بِهَا؟ فَإِنِّي أَعْرِفُ مَنْ تُخَاطِبُهُ النَّبَاتَاتُ بِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ، وَإِنَّمَا يُخَاطِبُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي دَخَلَ فِيهَا، وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ وَتَقُولُ: هَنِيئًا لَك يَا وَلِيَّ اللَّهِ، فَيَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فَيَذْهَبُ ذَلِكَ. وَأَعْرِفُ مَنْ يَقْصِدُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَتُخَاطِبُهُ الْعَصَافِيرُ وَغَيْرُهَا وَتَقُولُ: خُذْنِي حَتَّى يَأْكُلَنِي الْفُقَرَاءُ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ قَدْ دَخَلَ فِيهَا كَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْسِ وَيُخَاطِبُهُ بِذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَهُوَ مُغْلَقٌ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجَهُ وَهُوَ لَمْ يَفْتَحْ وَبِالْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ فِي أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ، وَتَكُونُ الْجِنُّ قَدْ أَدْخَلَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ بِسُرْعَةِ، أَوْ تَمُرُّ بِهِ أَنْوَارٌ أَوْ تَحْضُرُ عِنْدَهُ مَنْ يَطْلُبُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ الشَّيَاطِينِ يَتَصَوَّرُونَ بِصُورَةِ صَاحِبِهِ، فَإِذَا قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ذَهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ. وَأَعْرِفُ مَنْ يُخَاطِبُهُ مُخَاطِبٌ وَيَقُولُ لَهُ: أَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَيَعِدُهُ بِأَنَّهُ الْمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَيَظْهَرُ

لَهُ الْخَوَارِقُ، مِثْلُ أَنْ يَخْطُرَ بِقَلْبِهِ تَصَرُّفٌ فِي الطَّيْرِ وَالْجَرَادِ فِي الْهَوَاءِ؛ فَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ ذَهَابُ الطَّيْرِ أَوْ الْجَرَادِ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ذَهَبَ حَيْثُ أَرَادَ، وَإِذَا خَطَرَ بِقَلْبِهِ قِيَامُ بَعْضِ الْمَوَاشِي أَوْ نَوْمُهُ أَوْ ذَهَابُهُ، حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ مِنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَتَحْمِلُهُ إلَى مَكَّةَ وَتَأْتِي بِهِ، وَتَأْتِيه بِأَشْخَاصٍ فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ وَتَقُولُ لَهُ: هَذِهِ الْمَلَائِكَةُ الكروبيون أَرَادُوا زِيَارَتَك، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ تَصَوَّرُوا بِصُورَةِ المردان، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَجِدُهُمْ بِلِحَى، وَيَقُولُ لَهُ: عَلَامَةُ إنَّك أَنْتَ الْمَهْدِيُّ إنَّك تَنْبُتُ فِي جَسَدِك شَامَةٌ، فَتَنْبُتُ وَيَرَاهَا وَغَيْرُ ذَلِكَ وَكُلُّهُ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لَوْ ذَكَرْت مَا أَعْرِفُهُ مِنْهُ لَاحْتَاجَ إلَى مُجَلَّدٍ كَبِيرٍ.

فرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية العالم العامل المجاهد المحتسب الذي جمع العلم مع العمل، وأنزل العلم على أرض الاحتساب، انظر إلى كلامه ومعرفته بدقائق هذه الأمور، واحتسابه على السحرة والكهان والمنجمين وأهل البدع والمنجمين، ودقة كلامه في هذا ولقد تتبعت بحكم خبرتي في هذا الزمان دقة من يكتب متحرياً الدقة في هذه الأمور، ومنهم معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وإني لأوصي كل محتسب في هذا الباب بقراءة شرح كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن) تحقيق وعناية: عادل الرفاعي، ومجموعة سلسلة وشروح معالي الشيخ، وللشيخ حفظه الله استنباطات وشروح جميلة ودقيقة ونكت عظيمة على شرحه لكتاب التوحيد وشرح الطحاوية، لا يستغني عنها كل طالب علم محتسب على هؤلاء الأشرار، فنحسب أن الله وفقه وأنار بصيرة هذا العالم ابن العالم ابن مفتي الديار حفيد المجدد، فإنه قد شرح ما استحدث من وسائل الشرك في هذا الزمان لدى السحرة والكهان.

قال شيخ الإسلام: وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾(١) قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُلَّا﴾ كَلَّا فِيهَا زَجْرٌ وَتَنْبِيهٌ: زَجْرٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى مَا يُخْبَرُ بِهِ وَيُؤْمَرُ بِهِ بَعْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَصَلَ لَهُ نِعَمٌ دُنْيَوِيَّةٌ تُعَدُّ كَرَامَةً يَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُكْرِمًا لَهُ بِهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ يَكُونُ مُهِينًا لَهُ بِذَلِكَ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَقَدْ يُعْطِي النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِمَنْ لَا يُحِبُّهُ وَلَا هُوَ كَرِيمٌ عِنْدَهُ لِيَسْتَدْرِجَهُ بِذَلِكَ. وَقَدْ يَحْمِي مِنْهَا مَنْ يُحِبُّهُ وَيُوَالِيه لِئَلَّا تَنْقُصَ بِذَلِكَ مَرْتَبَتُهُ عِنْدَهُ أَوْ يَقَعَ بِسَبَبِهَا فِيمَا يَكْرَهُهُ مِنْهُ.

وَأَيْضًا "كَرَامَاتُ الْأَوْلِيَاءِ" لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهَا الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، فَمَا كَانَ سَبَبُهُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ فَهُوَ مِنْ خَوَارِقِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، لَا مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، فَمَنْ كَانَتْ خَوَارِقُهُ لَا تَحْصُلُ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ الشِّرْكِ: مِثْلُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ أَوْ بِالْفِسْقِ وَالْعِصْيَانِ وَأَكْلِ الْمُحَرَّمَاتِ: كَالْحَيَّاتِ وَالزَّنَابِيرِ وَالْخَنَافِسِ وَالدَّمِ وَغَيْرِهِ مِنْ النَّجَاسَاتِ، وَمِثْلِ الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ، لَا سِيَّمَا مَعَ النِّسْوَةِ الْأَجَانِبِ والمردان، وَحَالَةُ خَوَارِقِهِ تَنْقُصُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَتَقْوَى عِنْدَ سَمَاعِ

---

(١) الفجر: الآية ١٥,١٦.

مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، فَيَرْقُصُ لَيْلًا طَوِيلًا، فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ صَلَّى قَاعِدًا، أَوْ يَنْقُرُ الصَّلَاةَ نَقْرَ الدِّيكِ، وَهُوَ يَبْغُضُ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَيَتَكَلَّفُهُ، لَيْسَ لَهُ فِيهِ مَحَبَّةٌ وَلَا ذَوْقٌ وَلَا لَذَّةٌ عِنْدَ وَجْدِهِ، وَيُحِبُّ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ وَيَجِدُ عِنْدَهُ مَوَاجِيدَ. فَهَذِهِ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ؛ وَهُوَ مِمَّنْ يَتَنَاوَلُهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ فَالْقُرْآنُ هُوَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ يَعْنِي تَرَكْت الْعَمَلَ بِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ؛ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

قال شيخ الإسلام(١): يَأْمُرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَعْمِلُهُمْ فِي مُبَاحَاتٍ لَهُ فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَهَذَا إذَا قُدِّرَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ فِي عُمُومِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِثْلِ النَّبِيِّ الْمَلِكِ مَعَ الْعَبْدِ الرَّسُولِ، كَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ مَعَ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَمَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ الْجِنَّ فِيمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ: إمَّا فِي الشِّرْكِ وَإِمَّا فِي قَتْلِ مَعْصُومِ الدَّمِ أَوْ فِي الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ الْقَتْلِ كَتَمْرِيضِهِ وَإِنْسَائِهِ الْعِلْمَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الظُّلْمِ، وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ كَجَلْبِ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُ الْفَاحِشَةُ، فَهَذَا قَدْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، ثُمَّ إنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ اسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي فَهُوَ عَاصٍ: إمَّا فَاسِقٌ وَإِمَّا مُذْنِبٌ غَيْرُ فَاسِقٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَامَّ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ فَاسْتَعَانَ بِهِمْ فِيمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْ الْكَرَامَاتِ مِثْلُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهِمْ عَلَى الْحَجِّ، أَوْ أَنْ يَطِيرُوا بِهِ عِنْدَ السَّمَاعِ الْبِدْعِيِّ، أَوْ أَنْ يَحْمِلُوهُ إلَى عَرَفَاتٍ وَلَا يَحُجُّ الْحَجَّ الشَّرْعِيَّ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ يَحْمِلُوهُ مِنْ مَدِينَةٍ إلَى مَدِينَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مَغْرُورٌ قَدْ مَكَرُوا بِهِ. وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْجِنِّ، بَلْ قَدْ سَمِعَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَهُمْ كَرَامَاتٌ وَخَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْكَرَامَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ التَّلْبِيسَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَيَمْكُرُونَ بِهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ، فَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَوْثَانَ أَوْهَمُوهُ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ، وَيَكُونُ قَصْدُهُ الِاسْتِشْفَاعَ وَالتَّوَسُّلَ مِمَّنْ صَوَّرَ ذَلِكَ الصَّنَمَ عَلَى صُورَتِهِ مِنْ مَلِكٍ أَوْ نَبِيٍّ أَوْ شَيْخٍ صَالِحٍ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ صَالِحٌ وَتَكُونُ عِبَادَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِلشَّيْطَانِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾(٢) وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ يَقْصِدُونَ السُّجُودَ لَهَا، فَيُقَارِنُهَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ سُجُودِهِمْ لِيَكُونَ سُجُودُهُمْ لَهُ؛ وَلِهَذَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص١)
(٢) سبأ: الآية ٤١, ٤٠.

الْمُشْرِكُونَ. فَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَاسْتَغَاثَ بجرجس أَوْ غَيْرِهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ جرجس أَوْ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُنْتَسِبًا إلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَغَاثَ بِشَيْخِ يَحْسُنُ الظَّنُّ بِهِ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْهِنْدِ جَاءَ فِي صُورَةِ مَنْ يُعَظِّمُهُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ، ثُمَّ إنَّ الشَّيْخَ الْمُسْتَغَاثَ بِهِ إنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ لَمْ يُعَرِّفْهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ تَمَثَّلَ لِأَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ نَقَلَ أَقْوَالَهُمْ لَهُ، فَيَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ مِنْ الْبُعْدِ وَأَجَابَهُمْ وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوَسُّطِ الشَّيْطَانِ. وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ كَانَ قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا بِصُورَةِ مُكَاشَفَةٍ وَمُخَاطَبَةٍ فَقَالَ: يَرَوْنَنِي الْجِنُّ شَيْئًا بَرَّاقًا مِثْلَ الْمَاءِ وَالزُّجَاجِ وَيُمَثِّلُونَ لَهُ فِيهِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ بِهِ. قَالَ: فَأُخْبِرُ النَّاسَ بِهِ وَيُوصِلُونَ إلَيَّ كَلَامَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِي مِنْ أَصْحَابِي فَأُجِيبُهُ فَيُوصِلُونَ جَوَابِي إلَيْهِ. وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَارِقِ إذَا كَذَّبَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا وَقَالَ: إنَّكُمْ تَفْعَلُونَ هَذَا بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ، كَمَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَجَرِ الطَّلْقِ وَقُشُورِ النَّارِنْجِ وَدَهْنِ الضَّفَادِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْحِيَلِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَيَعْجَبُ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخُ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ وَاَللَّهِ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحِيَلِ. فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ الْخَبِيرُ إنَّكُمْ لَصَادِقُونَ فِي ذَلِكَ وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ شَيْطَانِيَّةٌ، أَقَرُّوا بِذَلِكَ وَتَابَ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ وُجُوهٍ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ، وَرَأَوْا أَنَّهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثْلِ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ فِي الشَّرْعِ وَعِنْدَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ، فَلَا تَحْصُلُ عِنْدَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا حِينَئِذٍ مِنْ مخارق الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَائِهِ، لَا مِنْ كَرَامَاتِ الرَّحْمَنِ لِأَوْلِيَائِهِ.

وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَخُلَفَائِهِ صَلَاةً وَسَلَامًا نَسْتَوْجِبُ بِهِمَا شَفَاعَتَهُ. آمِينَ.

وَقَالَ[(١)] الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ الْعَارِفُ الرَّبَّانِيُّ الْمَقْذُوفُ فِي قَلْبِهِ النُّورُ الْقُرْآنِيُّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا إلَهَ سِوَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ فِي الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ: بدأ رحمه الله كلامه بالحديث عن آيات الأنبياء ثم قال:

وَأَمَّا الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ "بَابِ الْكَشْفِ وَالْعِلْمِ" فَمِثْلُ قَوْلِ عُمَرَ فِي قِصَّةِ سَارِيَةَ، وَإِخْبَارِ أَبِي بَكْرٍ بِأَنَّ بِبَطْنِ زَوْجَتِهِ أُنْثَى، وَإِخْبَارِ عُمَرَ بِمَنْ يَخْرُجُ مِنْ وَلَدِهِ فَيَكُونُ عَادِلًا، وَقِصَّةِ صَاحِبِ مُوسَى فِي عِلْمِهِ بِحَالِ الْغُلَامِ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢)

وَ"الْقُدْرَةُ" مِثْلُ قِصَّةِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ، وَقِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَقِصَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَسَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي مُسْلِمٍ الخولاني، وَأَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا فَإِنَّ تَعْدَادَ هَذَا مِثْلُ الْمَطَرِ. وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التَّمْثِيلُ بِالشَّيْءِ الَّذِي سَمِعَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ.

الْمُعْتَزِلَةِ(١) الَّذِينَ قَالُوا: الْمُعْجِزَاتُ هِيَ خَرْقُ الْعَادَةِ، لَكِنْ أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ السِّحْرُ وَالْكَهَانَةُ إلَّا مِنْ جِنْسِ الشَّعْبَذَةِ وَالْحِيَلِ، لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُعِينُ عَلَى ذَلِكَ، وَأُولَئِكَ أَثْبَتُوا الْكَرَامَاتِ ثُمَّ زَعَمُوا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ هَذِهِ لَا تَكُونُ إلَّا لِرَجُلِ صَالِحٍ أَوْ نَبِيٍّ، قَالُوا: فَإِذَا ظَهَرَتْ عَلَى يَدِ رَجُلٍ كَانَ صَالِحًا بِهَذَا الْإِجْمَاعِ. وَهَؤُلَاءِ أَنْفُسُهُمْ قَدْ ذَكَرُوا أَنَّهَا يَكُونُ لِلسَّحَرَةِ مَا هُوَ مِثْلُهَا، وَتَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَصَارَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مَا لِلسَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَمَا يَفْعَلُهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْعَجَائِبِ، وَظَنُّوا أَنَّهَا لَا تَكُونُ إلَّا لِرَجُلِ صَالِحٍ، فَصَارَ مَنْ ظَهَرَتْ هَذِهِ لَهُ يَظُنُّ أَنَّهَا كَرَامَةٌ، فَيَقْوَى قَلْبُهُ بِأَنَّ طَرِيقَتَهُ هِيَ طَرِيقَةُ الْأَوْلِيَاءِ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمْ يُظَنُّ فِيهِ ذَلِكَ ثُمَّ يَقُولُونَ: الْوَلِيُّ إذَا تَوَلَّى لَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهُ مُخَالِفًا لِمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الرَّسُولِ، مِثْلِ تَرْكِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَأَكْلِ الْخَبَائِثِ كَالْخَمْرِ وَالْحَشِيشَةِ وَالْمَيْتَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِعْلِ الْفَوَاحِشِ وَالْفُحْشِ وَالتَّفَحُّشِ فِي الْمَنْطِقِ، وَظُلْمِ النَّاسِ وَقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالشِّرْكِ بِاَللَّهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَظُنُّ فِيهِ أَنَّهُ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ قَدْ وَهَبَهُ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ بِلَا عَمَلٍ، فَضْلًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ مِنْ أَعْمَالِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنَّ هَذِهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ تُضِلُّ بِهَا النَّاسَ وَتُغْوِيهِمْ.

وَدَخَلَتْ الشَّيَاطِينُ فِي أَنْوَاعٍ مِنْ ذَلِكَ فَتَارَةً يَأْتُونَ الشَّخْصَ فِي النَّوْمِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَأَنَا أتوبك لِي وَأَصِيرُ شَيْخَك وَأَنْتَ تتوب النَّاسَ لِي، وَيُلْبِسُهُ فَيُصْبِحُ وَعَلَى رَأْسِهِ مَا أَلْبَسَهُ، فَلَا يَشُكُّ أَنَّ الصِّدِّيقَ هُوَ الَّذِي جَاءَهُ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ، وَقَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا لِعِدَّةِ مِنْ الْمَشَايِخِ بِالْعِرَاقِ وَالْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ، وَتَارَةً يَقُصُّ شَعْرَهُ فِي النَّوْمِ فَيُصْبِحُ فَيَجِدُ شَعْرَهُ مَقْصُوصًا، وَتَارَةً يَقُولُ: أَنَا الشَّيْخُ فُلَانٌ فَلَا يَشُكُّ أَنَّ الشَّيْخَ نَفْسَهُ جَاءَهُ وَقَصَّ شَعْرَهُ. وَكَثِيرًا مَا يَسْتَغِيثُ الرَّجُلُ بِشَيْخِهِ الْحَيِّ أَوْ الْمَيِّتِ فَيَأْتُونَهُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ وَقَدْ يُخَلِّصُونَهُ مِمَّا يَكْرَهُ، فَلَا يَشُكُّ أَنَّ الشَّيْخَ نَفْسَهُ جَاءَهُ أَوْ أَنَّ مَلَكًا تَصَوَّرَ بِصُورَتِهِ وَجَاءَهُ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي تَمَثَّلَ إنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاَللَّهِ أَضَلَّتْهُ الشَّيَاطِينُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا تُجِيبُ مُشْرِكًا، وَتَارَةً يَأْتُونَ إلَى مَنْ هُوَ خَالٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَقَدْ يَكُونُ مَلِكًا أَوْ أَمِيرًا كَبِيرًا وَيَكُونُ كَافِرًا وَقَدْ انْقَطَعَ عَنْ أَصْحَابِهِ وَعَطِشَ وَخَافَ الْمَوْتَ، فَيَأْتِيهِ فِي صُورَةِ إنْسِيٍّ وَيَسْقِيهِ وَيَدْعُوهُ إلَى الْإِسْلَامِ ويتوبه، فَيُسْلِمُ عَلَى يَدَيْهِ ويتوبه وَيُطْعِمُهُ وَيَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ وَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا فُلَانٌ وَيَكُونُ مِنْ مُؤْمِنِي الْجِنِّ، كَمَا جَرَى مِثْلُ هَذَا لِي. كُنْت فِي مِصْرَ فِي قَلْعَتِهَا وَجَرَى مِثْلُ هَذَا إلَى كَثِيرٍ مِنْ التُّرْكِ مِنْ نَاحِيَةِ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص١٥٨)

الْمَشْرِقِ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الشَّخْصُ: أَنَا ابْنُ تيمية، فَلَمْ يَشُكَّ ذَلِكَ الْأَمِيرُ أَنِّي أَنَا هُوَ وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ مَلِكَ مَارِدِينَ، وَأَرْسَلَ بِذَلِكَ مَلِكُ مَارِدِينَ إلَى مَلِكِ مِصْرَ رَسُولًا وَكُنْت فِي الْحَبْسِ، فَاسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ وَأَنَا لَمْ أَخْرُجْ مِنْ الْحَبْسِ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا جِنِّيًّا يُحِبُّنَا فَيَصْنَعُ بِالتُّرْكِ التتر مِثْلَ مَا كُنْت أَصْنَعُ بِهِمْ، لَمَّا جَاءُوا إلَى دِمَشْقَ، كُنْت أَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَإِذَا نَطَقَ أَحَدُهُمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ أَطْعَمْتهمْ مَا تَيَسَّرَ، فَعَمِلَ مَعَهُمْ مِثْلَ مَا كُنْت أَعْمَلُ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ إكْرَامِي لِيَظُنَّ ذَاكَ أَنِّي أَنَا الَّذِي فَعَلْت ذَلِكَ. قَالَ لِي طَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ: فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا؟ قُلْت: لَا. إنَّ الْمَلَكَ لَا يَكْذِبُ، وَهَذَا قَدْ قَالَ: أَنَا ابْنُ تيمية وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي ذَلِكَ. وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ رَأَى مَنْ قَالَ: إنِّي أَنَا الْخَضِرُ وَإِنَّمَا كَانَ جِنِّيًّا، ثُمَّ صَارَ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُكَذِّبُ بِهَذِهِ الْحِكَايَاتِ إنْكَارًا لِمَوْتِ الْخَضِرِ، وَالَّذِينَ قَدْ عَرَفُوا صِدْقَهَا يَقْطَعُونَ بِحَيَاةِ الْخَضِرِ، وَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ مُخْطِئٌ، فَإِنَّ الَّذِينَ رَأَوْا مَنْ قَالَ: إنِّي أَنَا الْخَضِرُ هُمْ كَثِيرُونَ صَادِقُونَ وَالْحِكَايَاتُ مُتَوَاتِرَاتٌ، لَكِنْ أَخْطَئُوا فِي ظَنِّهِمْ أَنَّهُ الْخَضِرُ وَإِنَّمَا كَانَ جِنِّيًّا، وَلِهَذَا يَجْرِي مِثْلُ هَذَا لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَكَثِيرًا مَا يَأْتِيهِمْ فِي كَنَائِسِهِمْ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ الْخَضِرُ، وَكَذَلِكَ الْيَهُودُ يَأْتِيهِمْ فِي كَنَائِسِهِمْ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ الْخَضِرُ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكَايَاتِ الصَّادِقَةِ مَا يَضِيقُ عَنْهُ هَذَا الْمَوْضِعُ يُبَيِّنُ صِدْقَ مَنْ رَأَى شَخْصًا وَظَنَّ أَنَّهُ الْخَضِرُ، وَأَنَّهُ غَلِطَ فِي ظَنِّهِ أَنَّهُ الْخَضِرُ وَإِنَّمَا كَانَ جِنِّيًّا، وَقَدْ يَقُولُ: أَنَا الْمَسِيحُ أَوْ مُوسَى أَوْ مُحَمَّدٌ أَوْ أَبُو بَكْرٍ أَوْ عُمَرُ أَوْ الشَّيْخُ فُلَانٌ، فَكُلُّ هَذَا قَدْ وَقَعَ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: {مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي}[1] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي صُورَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهِ. وَهَذِهِ رُؤْيَةٌ فِي الْمَنَامِ، وَأَمَّا فِي الْيَقَظَةِ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْمَوْتَى يَجِيءُ بِنَفْسِهِ لِلنَّاسِ عِيَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمِنْ جَهْلِهِ أُتِيَ، وَمِنْ هُنَا ضَلَّتْ النَّصَارَى حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَ أَنْ صُلِبَ -كَمَا يَظُنُّونَ- أَنَّهُ أَتَى إلَى الْحَوَارِيِّينَ وَكَلَّمَهُمْ وَوَصَّاهُمْ، وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي أَنَاجِيلِهِمْ وَكُلُّهَا تَشْهَدُ بِذَلِكَ، وَذَاكَ الَّذِي جَاءَ كَانَ شَيْطَانًا قَالَ: أَنَا الْمَسِيحُ وَلَمْ يَكُنْ هُوَ الْمَسِيحَ نَفْسَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَشْتَبِهَ مِثْلُ هَذَا عَلَى الْحَوَارِيِّينَ كَمَا اشْتَبَهَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ مَا أَخْبَرَهُمْ الْمَسِيحُ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ بِتَبْلِيغِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَبْلِيغُهُ، وَلَمْ يُرْفَعْ حَتَّى بَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ فَلَا حَاجَةَ إلَى مَجِيئِهِ بَعْدَ أَنْ رُفِعَ إلَى السَّمَاءِ. وَأَصْحَابُ الْحَلَّاجِ لَمَّا قُتِلَ كَانَ يَأْتِيهِمْ مَنْ يَقُولُ: أَنَا الْحَلَّاجُ فَيَرَوْنَهُ فِي صُورَتِهِ عِيَانًا، وَكَذَلِكَ شَيْخٌ بِمِصْرِ يُقَالُ لَهُ الدسوقي بَعْدَ أَنْ مَاتَ كَانَ يَأْتِي أَصْحَابَهُ مِنْ جِهَتِهِ رَسَائِلُ وَكُتُبٌ مَكْتُوبَةٌ، وَأَرَانِي صَادِقٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَرَأَيْته بِخَطِّ الْجِنِّ، وَقَدْ رَأَيْت خَطَّ الْجِنِّ غَيْرَ مَرَّةٍ -وقد علقنا على ذلك في كتاب السحر- وَفِيهِ كَلَامٌ مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، وَذَاكَ الْمُعْتَقِدُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الشَّيْخَ حَيٌّ وَكَانَ يَقُولُ: انْتَقَلَ ثُمَّ مَاتَ. وَكَذَلِكَ شَيْخٌ آخَرُ كَانَ بِالْمَشْرِقِ وَكَانَ لَهُ خَوَارِقُ مِنْ الْجِنِّ، وَقِيلَ كَانَ بَعْدَ هَذَا يَأْتِي خَوَاصَّ أَصْحَابِهِ فِي صُورَتِهِ فَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ، وَهَكَذَا الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ بَقَاءَ عَلِيٍّ أَوْ بَقَاءَ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَدْ كَانَ يَأْتِي إلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِمْ

(١) أقرب الأحاديث إلى لفظه رواه البخاري ١٠٧.

جِنِّيٌّ فِي صُورَتِهِ، وَكَذَا مُنْتَظَرُ الرَّافِضَةِ قَدْ يَرَاهُ أَحَدُهُمْ أَحْيَانًا وَيَكُونُ الْمَرْئِيُّ جِنِّيًّا. فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ وَاقِعٌ كَثِيرًا وَكُلَّمَا كَانَ الْقَوْمُ أَجْهَلَ كَانَ عِنْدَهُمْ أَكْثَرُ: فَفِي الْمُشْرِكِينَ أَكْثَرُ مِمَّا فِي النَّصَارَى، وَهُوَ فِي النَّصَارَى كَمَا هُوَ فِي الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ يُسْلِمُ بِسَبَبِهَا نَاسٌ وَيَتُوبُ بِسَبَبِهَا نَاسٌ يَكُونُونَ أَضَلَّ مِنْ أَصْحَابِهَا، فَيَنْتَقِلُونَ بِسَبَبِهَا إلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، كَالشَّيْخِ الَّذِي فِيهِ كَذِبٌ وَفُجُورٌ مِنْ الْإِنْسِ قَدْ يَأْتِيهِ قَوْمٌ كُفَّارٌ فَيَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَيُسْلِمُونَ وَيَصِيرُونَ خَيْرًا مِمَّا كَانُوا، وَإِنْ كَانَ قَصْدُ ذَلِكَ الرَّجُلِ فَاسِدًا وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {إنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ وَبِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ}(١) وَهَذَا كَالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ، فَإِنَّهُ يَنْقَطِعُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَيَقْوَى بِهَا قُلُوبُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، وَإِنْ كَانَتْ فِي نَفْسِهَا بَاطِلَةً فَغَيْرُهَا أَبْطَلُ مِنْهَا، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ دَرَجَاتٌ فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَقْوَامٌ يَنْتَقِلُونَ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ إلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ مُبْتَدِعَةِ الْمُسْلِمِين: مِنْ الرَّافِضَةِ والجهمية وَغَيْرِهِمْ إلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَانْتَفَعُوا بِذَلِكَ، وَصَارُوا مُسْلِمِينَ مُبْتَدِعِينَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونُوا كُفَّارًا، وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْمُلُوكِ قَدْ يَغْزُو غَزْوًا يَظْلِمُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارَ وَيَكُونُ آثِمًا بِذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا فَيَحْصُلُ بِهِ نَفْعُ خَلْقٍ كَثِيرٍ كَانُوا كُفَّارًا فَصَارُوا مُسْلِمِينَ، وَذَاكَ كَانَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إلَى الْقَائِمِ بِالْوَاجِبِ وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إلَى الْكُفَّارِ فَهُوَ خَيْرٌ. وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالْفَضَائِلِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ، قَدْ يَسْمَعُهَا أَقْوَامٌ فَيَنْتَقِلُونَ بِهَا إلَى خَيْرٍ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ كَذِبًا، وَهَذَا كَالرَّجُلِ يُسْلِمُ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا وَرَهْبَةً مِنْ السَّيْفِ، ثُمَّ إذَا أَسْلَمَ وَطَالَ مُكْثُهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ دَخَلَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ، فَنَفْسُ ذُلِّ الْكَفْرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ وَانْقِهَارُهُ وَدُخُولُهُ فِي حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَبْقَى كَافِرًا، فَانْتَقَلَ إلَى خَيْرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَخَفَّ الشَّرُّ الَّذِي كَانَ فِيهِ. ثُمَّ إذَا أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ أَدْخَلَ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ.

وَفِي أَصْنَافِ الْمُشْرِكِينَ(٢) مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمُشْرِكِي الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْيُونَانِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ لَهُ اجْتِهَادٌ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِمُتَّبِعٍ لِلرُّسُلِ وَلَا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَا يُصَدِّقُهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ وَلَا يُطِيعُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا، فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ وَلَا أَوْلِيَاءٍ لِلَّهِ، وَهَؤُلَاءِ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَيُكَاشِفُونَ النَّاسَ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَهُمْ تَصَرُّفَاتٌ خَارِقَةٌ مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ وَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إلَى الْمُكَاشَفَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ إذَا لَمْ يَكُونُوا مُتَّبِعِينَ لِلرُّسُلِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْذِبُوا وَتُكَذِّبَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا هُوَ إثْمٌ وَفُجُورٌ مِثْلُ نَوْعٍ مِنْ الشِّرْكِ أَوْ الظُّلْمِ أَوْ الْفَوَاحِشِ أَوْ الْغُلُوِّ أَوْ الْبِدَعِ فِي الْعِبَادَةِ؛ وَلِهَذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ

(١) رواه مسلم حديث ١٦٢.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤٨٠)

الشَّيَاطِينُ وَاقْتَرَنَتْ بِهِمْ، فَصَارُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ لا مِنْ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ مِثْلُ الْقُرْآنِ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقُرْآنِ وَيُصَدِّقْ خَبَرَهُ وَيَعْتَقِدْ وُجُوبَ أَمْرِهِ فَقَدْ أَعْرَضَ عَنْهُ، فَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَيَقْتَرِنُ بِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذِكْرَهُ هُوَ آيَاتُهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا؛ وَلِهَذَا لَوْ ذَكَرَ الرَّجُلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا مَعَ غَايَةِ الزُّهْدِ، وَعَبَدَهُ مُجْتَهِدًا فِي عِبَادَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا لِذِكْرِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ- كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْمِلُهُ فِي الْهَوَاءِ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَيْ السَّفِيهُ مِنَّا فِي أَظْهَرْ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ. وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْ الْإِنْسِ إذَا نَزَلَ بِالْوَادِي قَالَ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَلَمَّا اسْتَغَاثَتْ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ ازْدَادَتْ الْجِنُّ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَرْمِي بِالشُّهُبِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ، لَكِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الشِّهَابُ إلَى أَحَدِهِمْ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ مُلِئَتْ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَصَارَتْ الشُّهُبُ مُرْصَدَةً لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا كَمَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ قَالُوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.(١)

وَأَمَّا(٢) لَفْظُ "الْكَلِمَاتِ" فَقَالَ فِي الْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: {أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ كُلِّهَا مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ}(٣) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ}(٤) وَكَانَ يَقُولُ: {أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٥٠٠)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤٩٥)
(٣) رواه الترمذي حديث ٣٤٥١.وهو في الصحيحة برقم ٢٦٤.
(٤) رواه مسلم حديث ٤٨٨١.

يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ}[١] و"كَلِمَاتُ اللَّهِ التَّامَّاتُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ" هِيَ الَّتِي كَوَّنَ بِهَا الْكَائِنَاتِ فَلَا يَخْرُجُ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ عَنْ تَكْوِينِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَأَمَّا "كَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ" وَهِيَ كُتُبُهُ الْمُنَزَّلَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَأَطَاعَهَا الْأَبْرَارُ وَعَصَاهَا الْفُجَّارُ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُطِيعُونَ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَجَعْلِهِ الدِّينِيِّ وَإِذْنِهِ الدِّينِيِّ وَإِرَادَتِهِ الدِّينِيَّةِ.

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ حَتَّى إبْلِيسَ وَجُنُودَهُ وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ وَسَائِرَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، فَالْخَلْقُ وَإِنْ اجْتَمَعُوا فِي شُمُولِ الْخَلْقِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْقَدَرِ لَهُمْ، فَقَدْ افْتَرَقُوا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ. وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ وَتَرَكُوا الْمَحْظُورَ وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْدُورِ، فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. وَأَعْدَاؤُهُ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قُدْرَتِهِ فَهُوَ يُبْغِضُهُمْ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ. وَبَسْطُ هَذِهِ الْجُمَلِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ وَإِنَّمَا كَتَبْت هُنَا تَنْبِيهًا عَلَى مَجَامِعِ "الْفَرْقِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ" وَجِمَاعُ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا اعْتِبَارُهُمْ بِمُوَافَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ السُّعَدَاءِ وَأَعْدَائِهِ الْأَشْقِيَاءِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْدَائِهِ أَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِ أَهْلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ أَهْلِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ، وَأَعْدَائِهِ حِزْبِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٢] الْآيَةَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وَقَالَ فِي أَعْدَائِهِ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا

---

(١) مسند أحمد حديث ١٤٩١٣وهو في صحيح الجامع برقم ٧٤.

(٢) النجم: الآية ٦٢.

(٣) الحاقة: الآية ٣٨:٥٢.

مَجْنُونٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فَنَزَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَمَّنْ تَقْتَرِنُ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْكُهَّانِ وَالشُّعَرَاءِ وَالْمَجَانِينِ، وَبَيْنَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ بِالْقُرْآنِ مَلَكٌ كَرِيمٌ اصْطَفَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الْآيَةَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فَسَمَّاهُ الرُّوحَ الْأَمِينَ وَسَمَّاهُ رُوحَ الْقُدُسِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾(٢) يَعْنِي: الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَكُونُ فِي السَّمَاءِ خَانِسَةً أَيْ: مُخْتَفِيَةً قَبْلَ طُلُوعِهَا، فَإِذَا ظَهَرَتْ رَآهَا النَّاسُ جَارِيَةً فِي السَّمَاءِ، فَإِذَا غَرَبَتْ ذَهَبَتْ إِلَى كناسها الَّذِي يَحْجُبُهَا ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أَيْ إِذَا أَدْبَرَ وَأَقْبَلَ الصُّبْحُ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أَيْ أَقْبَلَ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أَيْ مُطَاعٍ فِي السَّمَاءِ أَمِينٍ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أَيْ صَاحِبُكُمْ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ جِنْسِكُمْ يَصْحَبُكُمْ؛ إِذْ كُنْتُمْ لَا تُطِيقُونَ أَنْ تَرَوْا الْمَلَائِكَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾(٣) الْآيَةَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أَيْ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أَيْ بِمُتَّهَمٍ وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى: ﴿بِضَنِينٍ﴾ أَيْ بِبَخِيلٍ يَكْتُمُ الْعِلْمَ وَلَا يَبْذُلُهُ إِلَّا بِجُعْلٍ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَكْتُمُ الْعِلْمَ إِلَّا بِالْعِوَضِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ فَنَزَّهَ جِبْرِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَنْ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا كَمَا نَزَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ كَاهِنًا.

فَصْلٌ(٤): وَكَثِيرًا مَا يَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ الْمَدْعُوِّ الْمُنَادَى الْمُسْتَغَاثِ بِهِ إِذَا كَانَ مَيِّتًا، وَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ حَيًّا وَلَا يَشْعُرُ بِالَّذِي نَادَاهُ، بَلْ يَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَتِهِ فَيَظُنُّ الْمُشْرِكُ الضَّالُّ الْمُسْتَغِيثُ بِذَلِكَ الشَّخْصِ أَنَّ الشَّخْصَ نَفْسَهُ أَجَابَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ وَهَذَا يَقَعُ لِلْكُفَّارِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِمَنْ يُحْسِنُونَ بِهِ الظَّنَّ مِنْ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ كَالنَّصَارَى الْمُسْتَغِيثِينَ بجرجس وَغَيْرِهِ مِنْ قَدَادِيسِهِمْ، وَيَقَعُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِينَ يَسْتَغِيثُونَ بِالْمَوْتَى وَالْغَائِبِينَ، يَتَصَوَّرُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. وَأَعْرِفُ عَدَدًا كَثِيرًا وَقَعَ لَهُمْ فِي عِدَّةِ أَشْخَاصٍ يَقُولُ لِي كُلٌّ مِنْ الْأَشْخَاصِ: إنِّي لَمْ أَعْرِفْ أَنَّ هَذَا اسْتَغَاثَ بِي، وَالْمُسْتَغِيثُ قَدْ رَأَى ذَلِكَ الَّذِي هُوَ عَلَى صُورَةِ هَذَا وَمَا اعْتَقَدَ أَنَّهُ إلَّا هَذَا، وَذَكَرَ لِي غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُمْ اسْتَغَاثُوا بِي كُلٌّ يَذْكُرُ قِصَّةً غَيْرَ قِصَّةِ صَاحِبِهِ، فَأَخْبَرْت

(١) الحج: الآية ٧٥.
(٢) التكوير: الآية ١٥,١٦.
(٣) الأنعام: الآية ٨,٩.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص١٨٥)

كُلًّا مِنْهُمْ أَنِّي لَمْ أُجِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ وَلَا عَلِمْت بِاسْتِغَاثَتِهِ، فَقِيلَ: هَذَا يَكُونُ مَلَكًا. فَقُلْت: الْمَلَكُ لَا يُغِيثُ الْمُشْرِكَ إنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ أَرَادَ أَنْ يُضِلَّهُ، وَكَذَلِكَ يَتَصَوَّرُ بِصُورَتِهِ وَيَقِفُ بِعَرَفَاتٍ فَيَظُنُّ مَنْ يُحْسِنُ بِهِ الظَّنَّ أَنَّهُ وَقَفَ بِعَرَفَاتِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ حَمَلَهُ الشَّيْطَانُ إلَى عَرَفَاتٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْحَرَمِ فَيَتَجَاوَزُ الْمِيقَاتَ بِلَا إحْرَامٍ وَلَا تَلْبِيَةٍ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَلَا بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يَعْبُرُ مَكَّةَ، وَفِيهِمْ مَنْ يَقِفُ بِعَرَفَاتِ وَيَرْجِعُ وَلَا يَرْمِي الْجِمَارَ، إلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يُضِلُّهُمْ بِهَا الشَّيْطَانُ حَيْثُ فَعَلُوا مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي الشَّرْعِ: إمَّا مُحَرَّمٌ وَإِمَّا مَكْرُوهٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُسْتَحَبٍّ، وَقَدْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مِنْ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعْبَدُ إلَّا بِمَا هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ.

وقد استخدم هنا شيخ الإسلام علم الفقه في الرد على عبث الشياطين بهؤلاء وتزيينها لهم قلب أحكام الشريعة.

الفصل السادس

فقه قضية مسائل النجوم والتأثير وإبطال الكهانة

يرتبط التنجيم بالكهانة، وللكهّان تعامل مع النجوم، فهم ينظرون فيها ولهم حسابات ومراقبات، ويربطون حياة الناس بهذه النجوم، ويتكهنون بالسعد والنحس والسعادة والشقاء والغنى والفقر بالبرج الذي ولد فيه الشخص، والطالع الذي وجد فيه، وقد أبطل الارتباط بهذا المعنى النبي ﷺ حين قال يوم أن كسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم: {إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته}[1] وقال ابن عباس: إنّ قوما ينظرون في النجوم ويكتبون (أبا جاد) ما أرى أنّ لهم عند الله من خلاق،[2] والنجوم والشمس والقمر خلقها الله لغاية بينها تعالى، ومن العلوم المتصلة بالنجوم ما فيه خير، لذلك بيّن شيخ الإسلام هذه المسألة، وبيّن التعامل المشروع والتعامل الممنوع في أمر النجوم، ولشيخ الإسلام كلام طويل وجليل في أمر النجوم سنفصله في كتاب (احتساب شيخ الإسلام على التجيم والمنجمين) لكن نذكر هنا ما يناسب الكهانة.

---

(١) رواه مسلم حديث ١٤٩٩.

(٢) رواه البيهقي ج ٨ص ١٣٩.

المبحث الأول
فقه أمر النجوم

هذا جواب مفصل لشيخ الإسلام بيّن فيه فقه أمر النجو، وساق من نصوص الشرع ما فيه بلاغ وبيان، وأتى فيه بفوائد جمة، وهو أمر يحتاجه المحتسب ويحتاجه كل مسلم؛ ليسلم له دينه وتسلم له عقيدته وينجو من شراك الكهانة، وبفقه أمر النجوم يتبين العلم الصحيح المتصل بالنجوم من العلم الباطل الذي هو شرك أو طريق إليه.

سُئِلَ(١) -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْوُجُودِ أَوْ يَقُولُ: إنَّ لَهُ نَجْمًا فِي السَّمَاءِ يَسْعَدُ بِسَعَادَتِهِ وَيَشْقَى بِعَكْسِهِ، وَيَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾(٢) وبِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾(٣) وَيَقُولُ: إنَّهَا صَنْعَةُ إدْرِيسَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَيَقُولُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ إنَّ نَجْمَهُ كَانَ بِالْعَقْرَبِ وَالْمِرِّيخِ. فَهَلْ هَذَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَمْ لَا؟ وَحَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الدِّينِ فَمَاذَا يَجِبُ عَلَى قَائِلِهِ؟ وَالْمُنْكِرُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ يَكُونُونَ مِنْ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنْ الْمُنْكَرِ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، النُّجُومُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ الْمُسَبِّحَةِ لَهُ السَّاجِدَةِ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾(٤) وَهَذَا التَّفْرِيقُ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ السُّجُودَ لِمُجَرَّدِ مَا فِيهَا مِنْ الدِّلَالَةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ؛ إذْ هَذِهِ الدِّلَالَةُ يَشْتَرِكُ فِيهَا جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَجَمِيعُ النَّاسِ فِيهِمْ هَذِهِ الدِّلَالَةُ، وَهُوَ قَدْ فَرَّقَ فَعُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ قَوْلٌ زَائِدٌ مِنْ جِنْسِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ الْكَافِرِ الَّذِي حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ جَعَلَ فِيهَا مَنَافِعَ لِعِبَادِهِ وَسَخَّرَهَا لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٥) وَقَالَ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(٦) وَقَالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(٧) وَمِنْ مَنَافِعِهَا الظَّاهِرَةِ مَا يَجْعَلُهُ سُبْحَانَهُ بِالشَّمْسِ مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَنِضَاجِ الثِّمَارِ وَخَلْقِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ، وَكَذَلِكَ مَا يَجْعَلُهُ بِهَا لَهُمْ مِنْ التَّرْطِيبِ وَالتَّيْبِيسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الْمَشْهُودَةِ، كَمَا جَعَلَ فِي النَّارِ الْإِشْرَاقَ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٩/ ص٢٢٤)
(٢) النازعات: الآية ٥.
(٣) الواقعة: الآية ٧٥.
(٤) الحج: الآية ١٨.
(٥) إبراهيم: الآية ٣٣,٣٤.
(٦) النحل: الآية ١٢.
(٧) الجاثية: الآية ١٣.

وَالْإِحْرَاقَ، وَفِي الْمَاءِ التَّطْهِيرَ وَالسَّقْيَ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي يَذْكُرُهَا فِي كِتَابِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾(١) وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ يَجْعَلُ حَيَاةَ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ بِبَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾(٢) وَكَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾(٣) وَكَمَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾(٤)

فَمَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأُمُورَ عِنْدَهَا لَا بِهَا، فَعِبَارَتُهُ مُخَالِفَةٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَالْأُمُورِ الْمَشْهُودَةِ، كَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِالْفِعْلِ -هُوَ مُشْرِكٌ مُخَالِفٌ الْعَقْلَ وَالدِّينَ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ مَنَافِعِ النُّجُومِ: فَإِنَّهُ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَأَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُرْجَمُ بِالنُّجُومِ وَإِنْ كَانَتْ النُّجُومُ الَّتِي تُرْجَمُ بِهَا الشَّيَاطِينُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ غَيْرَ النُّجُومِ الثَّابِتَةِ فِي السَّمَاءِ الَّتِي يُهْتَدَى بِهَا، فَإِنَّ هَذِهِ لَا تَزُولُ عَنْ مَكَانِهَا بِخِلَافِ تِلْكَ؛ وَلِهَذِهِ حَقِيقَةٌ مُخَالِفَةٌ لِتِلْكَ وَإِنْ كَانَ اسْمُ النُّجُومِ يَجْمَعُهَا، كَمَا يَجْمَعُ اسْمَ الدَّابَّةِ وَالْحَيَوَانِ لِلْمَلَكِ وَالْآدَمِيِّ وَالْبَهَائِمِ وَالذُّبَابِ وَالْبَعُوضِ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْعُلَمَاءُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ عِنْدَ كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَأَمَرَ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعِتْقِ وَقَالَ: {إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ} وَفِي رِوَايَةٍ: {آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ}(٥) هَذَا قَالَهُ رَدًّا لِمَا قَالَهُ بَعْضُ جُهَّالِ النَّاسِ: إِنَّ الشَّمْسَ كَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهَا كَسَفَتْ يَوْمَ مَوْتِهِ، وَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ لَمَّا كَسَفَتْ أَنَّ كُسُوفَهَا كَانَ لِأَجْلِ مَوْتِهِ وَأَنَّ مَوْتَهُ هُوَ السَّبَبُ لِكُسُوفِهَا، كَمَا يَحْدُثُ عَنْ مَوْتِ بَعْضِ الْأَكَابِرِ مَصَائِبُ فِي النَّاسِ، فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَكُونُ كُسُوفُهُمَا عَنْ مَوْتِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا عَنْ حَيَاتِهِ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِلْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ أَثَرًا فِي كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَأَنَّهُ يُخَوِّفُ عِبَادَهُ، فَذَكَرَ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ تَخْوِيفُ الْعِبَادِ، كَمَا يَكُونُ تَخْوِيفُهُمْ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ: كَالرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ وَالزَّلَازِلِ وَالْجَدْبِ وَالْأَمْطَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ عَذَابًا، كَمَا عَذَّبَ اللَّهُ أُمَمًا بِالرِّيحِ وَالصَّيْحَةِ وَالطُّوفَانِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾(٦) وَقَدْ قَالَ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا

---

(١) الفرقان: الآية ٤٨.
(٢) الفرقان: الآية ٤٨.
(٣) الأعراف: الآية ٥٧.
(٤) البقرة: الآية ١٦٤.
(٥) سبق وهو صحيح.
(٦) العنكبوت: الآية ٤٠.

نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(١) وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ يُخَوِّفُ عِبَادَهُ بِذَلِكَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِعَذَابٍ يَنْزِلُ كَالرِّيَاحِ الْعَاصِفَةِ الشَّدِيدَةِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ إذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا لِمَا يَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: إنَّ لَهَا تَأْثِيرًا مَا قَدْ عُلِمَ بِالْحِسِّ وَغَيْرِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ بِالْعِبَادَاتِ الَّتِي تَدْفَعُ عَنَّا مَا يُرْسَلُ بِهِ مِنْ الشَّرِّ، كَمَا أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الْخُسُوفِ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْعِتْقِ، وَكَمَا كَانَ ﷺ إذَا هَبَّتْ الرِّيحُ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ وَتَغَيَّرَ وَأَمَرَ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ هُبُوبِهَا: {اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُك خَيْرَ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَنَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ}(٢) وَقَالَ: {إنَّ الرِّيحَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَإِنَّهَا تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَلَا تَسُبُّوهَا، وَلَكِنْ سَلُوا اللَّهَ مِنْ خَيْرِهَا وَتَعَوَّذُوا بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّهَا}(٣) فَأَخْبَرَ أَنَّهَا تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، وَأَمَرَ أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ مِنْ خَيْرِهَا وَنَعُوذَ بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّهَا.

الأبراج والنجوم وتوقع المستقبل: بين التنجيم والكهانة:

قال شيخ الإسلام(٤) -رحمه الله- في ذلك: والسِّحْرُ مُحَرَّمٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، وَذَلِكَ أَنَّ النُّجُومَ الَّتِي مِنْ السِّحْرِ نَوْعَانِ، أَحَدُهُمَا: عِلْمِيٌّ وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ بِحَرَكَاتِ النُّجُومِ عَلَى الْحَوَادِثِ مِنْ جِنْسِ الِاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ.

الثَّانِي: عَمَلِيٌّ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُونَ إنَّهُ الْقُوَى السَّمَاوِيَّةُ بِالْقُوَى الْمُنْفَعِلَةِ الْأَرْضِيَّةِ كَطَلَاسِمَ وَنَحْوِهَا، وَهَذَا مِنْ أَرْفَعِ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، وَكُلُّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَضَرَرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَفْعِهِ "فَالثَّانِي" وَإِنَّ تَوَهَّمَ الْمُتَوَهِّمُ أَنَّ فِيهِ تَقَدُّمَةً لِلْمَعْرِفَةِ بِالْحَوَادِثِ وَأَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُ، فَالْجَهْلُ فِي ذَلِكَ أَضْعَفُ وَمَضَرَّةُ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ مَنْفَعَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَدْ عَلِمَ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ بِالتَّجْرِبَةِ وَالتَّوَاتُرِ أَنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي يَحْكُمُ بِهَا الْمُنَجِّمُونَ يَكُونُ الْكَذِبُ فِيهَا أَضْعَافُ الصِّدْقِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُهَّانِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: {إنْ مِنَّا قَوْمًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ، فَقَالَ: إنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّهُمْ يُحَدِّثُونَا أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ فَيَكُونُ حَقًّا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَسْمَعُهَا الْجِنِّيُّ يُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ} وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ إذَا قَضَى بِالْأَمْرِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ حَتَّى إذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقَّ. وَأَنَّ كُلَّ أَهْلِ السَّمَاءِ يُخْبِرُونَ أَهْلَ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهِمْ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُنَاكَ مُسْتَرِقَةُ السَّمْعِ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ، فَرُبَّمَا سَمِعَ الْكَلِمَةَ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ الشِّهَابُ، وَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ بَعْدَ أَنْ يُلْقِيَهَا، قَالَ ﷺ: {فَلَوْ أَتَوْا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَكِنْ يَزِيدُونَ فِي الْكَلِمَةِ مِائَةَ كِذْبَةٍ} وَهَكَذَا الْمُنَجِّمُونَ حَتَّى إنِّي خَاطَبْتهمْ بِدِمَشْقَ وَحَضَرَ عِنْدِي رُؤَسَاؤُهُمْ،

---

(١) الإسراء: الآية ٥٩.
(٢) رواه الترمذي حديث ٢١٧٨وهو في الصحيحة برقم ٢٧٥٦.
(٣) رواه أبو داود حديث ٤٤٣٣. وهو في صحيح الجامع ٥٨٧٧.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٩/ ص٢٢٤)

وَبَيَّنْت فَسَادَ صِنَاعَتِهِمْ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي يَعْتَرِفُونَ بِصِحَّتِهَا، قَالَ رَئِيسٌ مِنْهُمْ: وَاَللَّهِ إنَّا نَكْذِبُ مِائَةَ كِذْبَةٍ حَتَّى نَصْدُقَ فِي كَلِمَةٍ.(١) وَذَلِكَ أَنَّ مَبْنَى عِلْمِهِمْ عَلَى أَنَّ الْحَرَكَاتِ الْعُلْوِيَّةَ هِيَ السَّبَبُ فِي الْحَوَادِثِ، وَالْعِلْمُ بِالسَّبَبِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ إذَا عُلِمَ السَّبَبُ التَّامُّ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ حُكْمُهُ، وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مَا يَعْلَمُونَ -إنْ عَلِمُوا- جُزْءًا يَسِيرًا مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الْكَثِيرَةِ، وَلَا يَعْلَمُونَ بَقِيَّةَ الْأَسْبَابِ وَلَا الشُّرُوطَ وَلَا الْمَوَانِعَ، مِثْلُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الشَّمْسَ فِي الصَّيْفِ تَعْلُو الرَّأْسَ حَتَّى يَشْتَدَّ الْحَرُّ، فَيُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ هَذَا مَثَلًا أَنَّهُ حِينَئِذٍ أَنَّ الْعِنَبَ الَّذِي فِي الْأَرْضِ الْفُلَانِيَّةِ يَصِيرُ زَبِيبًا، عَلَى أَنَّ هُنَاكَ عِنَبًا وَأَنَّهُ يَنْضَجُ وَيَنْشُرُهُ صَاحِبُهُ فِي الشَّمْسِ وَقْتَ الْحَرِّ فَيَتَزَبَّبُ. فَهَذَا وَإِنْ كَانَ يَقَعُ كَثِيرًا، لَكِنَّ أَخْذَ هَذَا مِنْ مُجَرَّدِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ جَهْلٌ عَظِيمٌ؛ إذْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ عِنَبٌ وَقَدْ لَا يَكُونُ، وَقَدْ يُثْمِرُ ذَلِكَ الشَّجَرُ إنْ خُدِمَ وَقَدْ لَا يُثْمِرُ، وَقَدْ يُؤْكَلُ عِنَبًا وَقَدْ يُعْصَرُ وَقَدْ يُسْرَقُ وَقَدْ يُزَبَّبُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

تعليق: مثاله إذا عرفنا أنّ في بلدة كذا ذات الأجواء الحارة يزرع فيها الذرة، فإذا جاء ذلك الوقت قال الكاهن: إنّ أرض فلان التي في هذه البلدة سوف تخرج كذا من الحبوب، وسوف يذهب بها إلى مكان كذا وستباع بكذا، وهلم جرا، فهذا جهل عظيم فأرض فلان هذا نعم تصلح لذلك، لكن قد تزرع وقد لا تزرع وقد تصيبها جائحة فلا تنتج، وقد تزرع فيهملها صاحبها فتفسد، وقد يبيع الذرة خضراء لتؤكل قبل حصادها، وهكذا في نظائرها، إذا علم أنّ هناك رحلة من القاهرة إلى المدينة بالطائرة في كل خميس الساعة العاشرة مساء، فيستدل بذلك على سفر فلان الفلاني عليها يوم كذا، وقد أخذ معه كذا وكذا، وسيصل المدينة ويستوطنها، ويتزوج بها ويموت بها، فربط وجود هذه الرحلة وهي سبب في ذهاب شخص إلى المدينة بهذه الأمور في غاية الجهل كما ذكر شيخ الإسلام.

وَالدِّلَالَةُ الدَّالَّةُ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَتَحْرِيمِهَا كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا}(٢) وَالْعَرَّافُ قَدْ قِيلَ إنَّهُ اسْمٌ عَامٌّ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَقَدُّمِ الْمَعْرِفَةِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ وَلَوْ قِيلَ: إنَّهُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ فَسَائِرُهَا يَدْخُلُ فِيهِ بِطَرِيقِ الْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ، كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَنَحْوِهِمَا. وَأَمَّا إنْكَارُ بَعْضِ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَسْبَابِ، فَهُوَ أَيْضًا قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ؛ وَلَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ مِنْ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا غَيْرِهَا؛ فَإِنَّ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) إنّ مما لاحظته في احتسابنا على الكهّان والكاهنات أنهم أصحاب مراوغة، وعندهم قوة في التأثير على الشخص الذي لجأ إليهم، بل لديهم بعض الأساليب التي اكتسبوها بكثرة مراسهم؛ إذ يعرفون حالة من أمامهم، يكذبون عليهم، ويوهمونهم بأنهم يطلعون على غيبهم، فتجد الشخص يقول: حدثني بأمور حدثت معي، مع أنّ أغلب هذه الأمور عموميات مما يجري بين كل زوجين، فمثلاً كثيراً ما تنشب خلافات قبل الأعياد والمناسبات نظراً لطلب الزوجة نفقات زائدة واهتمام المرأة بذلك.

(٢) سبق تخريجه.

وَسَلَّمَ نَظَرَ إلَى الْقَمَرِ فَقَالَ: {يَا عَائِشَةُ تَعَوَّذِي بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَهَذَا الْغَاسِقُ إذَا وَقَبَ}[١] وَكَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْكُسُوفِ حَيْثُ أَخْبَرَ: {أَنَّ اللَّهَ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ} وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: {لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ}[٢] أَيْ لَا يَكُونُ الْكُسُوفُ مُعَلَّلًا بِالْمَوْتِ فَهُوَ نَفْيُ الْعِلَّةِ الْفَاعِلَةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ: {مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ فَقَالَ: إنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ إذَا قَضَى بِالْأَمْرِ سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ}[٣] وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي مُسْتَرِقِ السَّمْعِ. فَنَفَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكُونَ الرَّمْيُ بِهَا لِأَجْلِ أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ، بَلْ لِأَجْلِ الشَّيَاطِينِ الْمُسْتَرِقِينَ السَّمْعَ. فَفِي كِلَا الْحَدِيثَيْنِ مِنْ أَنَّ مَوْتَ النَّاسِ وَحَيَاتَهُمْ لَا يَكُونُ سَبَبًا لِكُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَلَا الرَّمْيَ بِالنَّجْمِ، وَإِنْ كَانَ مَوْتُ بَعْضِ النَّاسِ قَدْ يَقْتَضِي حُدُوثَ أَمْرٍ فِي السَّمَوَاتِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ: {إنَّ الْعَرْشَ عَرْشَ الرَّحْمَنِ اهْتَزَّ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ}[٤] وَأَمَّا كَوْنُ الْكُسُوفِ أَوْ غَيْرُهُ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِحَادِثٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَذَابٍ يَقْتَضِي مَوْتًا أَوْ غَيْرِهِ: فَهَذَا قَدْ أَثْبَتَهُ الْحَدِيثُ نَفْسُهُ. وَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُنَافِي لِكَوْنِ الْكُسُوفِ لَهُ وَقْتٌ مَحْدُودٌ يَكُونُ فِيهِ، حَيْثُ لَا يَكُونُ كُسُوفُ الشَّمْسِ إلَّا فِي آخِرِ الشَّهْرِ لَيْلَةَ السِّرَارِ، وَلَا يَكُونُ خُسُوفُ الْقَمَرِ إلَّا فِي وَسَطِ الشَّهْرِ وَلَيَالِي الْإِبْدَارِ. وَمَنْ ادَّعَى خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ أَوْ الْعَامَّةِ فَلِعَدَمِ عِلْمِهِ بِالْحِسَابِ وَلِهَذَا يُمْكِنُ الْمَعْرِفَةُ بِمَا مَضَى مِنْ الْكُسُوفِ وَمَا يَسْتَقْبِلُ، كَمَا يُمْكِنُ الْمَعْرِفَةُ بِمَا مَضَى مِنْ الْأَهِلَّةِ، وَمَا يَسْتَقْبِلُ إذْ كُلُّ ذَلِكَ بِحِسَابٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[٧] وَقَالَ : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[٨] وَمِنْ هُنَا صَارَ بَعْضُ الْعَامَّةِ إذَا رَأَى الْمُنَجِّمَ قَدْ أَصَابَ فِي خَبَرِهِ عَنْ الْكُسُوفِ الْمُسْتَقْبَلِ، يَظُنُّ أَنَّ خَبَرَهُ عَنْ الْحَوَادِثِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، فَإِنَّ هَذَا جَهْلٌ إذْ؛ الْخَبَرُ الْأَوَّلُ بِمَنْزِلَةِ إخْبَارِهِ بِأَنَّ الْهِلَالَ يَطْلُعُ، إمَّا لَيْلَةَ الثَّلَاثِينَ وَإِمَّا لَيْلَةَ إحْدَى وَثَلَاثِينَ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ لَا يُخْرَمُ أَبَدًا؛ وَبِمَنْزِلَةِ خَبَرِهِ أَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ آخِرَ النَّهَارِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَمَنْ عَرَفَ مَنْزِلَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَجَارِيَهُمَا عَلِمَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عِلْمًا قَلِيلَ الْمَنْفَعَةِ.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه البخاري حديث ٣٥١٩، ومسلم ٤٥١١.
(٥) الأنعام: الآية ٩٦.
(٦) الرحمن: الآية ٥.
(٧) يونس: الآية ٥.
(٨) البقرة: الآية ١٨٩.

تعليق: ونظير هذا من يقول عمن حملت في شهر رمضان من يقول: إنّ هذه المرأة سيكون معها ولدها في جماد الثاني، أو من يقول عن طائرة أقلعت إلى مكان الساعة الواحدة وهي تأخذ ساعة في طريقها في الساعة الثالثة حتى يكون الركاب بتلك البلد وهكذا.

فَإِذَا كَانَ الْكُسُوفُ لَهُ أَجَلٌ مُسَمًّى لَمْ يُنَافِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَجَلِهِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ سَبَبًا لِمَا يَقْضِيهِ مِنْ عَذَابٍ وَغَيْرِهِ، لِمَنْ يُعَذِّبُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَوْ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ يُنْزِلُ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ كَمَا أَنَّ تَعْذِيبَ اللَّهِ لِمَنْ عَذَّبَهُ بِالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْبَارِدَةِ كَقَوْمِ عَادٍ، كَانَتْ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ وَهُوَ آخِرُ الشِّتَاءِ، كَمَا قَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا رَأَى مُخِيلَةً (وَهُوَ السَّحَابُ الَّذِي يُخَالُ فِيهِ الْمَطَرُ) أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا مُخِيلَةً اسْتَبْشَرُوا؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ وَمَا يُؤَمِّنُنِي؟ قَدْ رَأَى قَوْمُ عَادٍ الْعَذَابَ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ فَقَالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١) وَكَذَلِكَ الْأَوْقَاتُ الَّذِي يُنْزِلُ اللَّهُ فِيهَا الرَّحْمَةَ كَالْعَشْرِ الْآخِرَةِ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْأُوَلِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَكَجَوْفِ اللَّيْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، هِيَ أَوْقَاتٌ مَحْدُودَةٌ لَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ وَيَنْزِلُ فِيهَا مِنْ الرَّحْمَةِ مَا لَا يَنْزِلُ فِي غَيْرِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ طُرُقِ أَحَادِيثِ الْكُسُوفِ مَا رَوَاهُ ابْنُ ماجه وَغَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: {إنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ}(٢) وَقَدْ طَعَنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَبُو حَامِدٍ وَنَحْوُهُ وَرَدُّوا ذَلِك لَا مِنْ جِهَةِ عِلْمِ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّهُمْ قَلِيلُو الْمَعْرِفَةِ بِهِ، كَمَا كَانَ أَبُو حَامِدٍ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: أَنَا مُزْجَى الْبِضَاعَةِ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنْ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ سَبَبَ الْكُسُوفِ إذَا كَانَ مَثَلًا كَوْنَ الْقَمَرِ إذَا حَاذَاهَا مَنَعَ نُورَهَا أَنْ يَصِلَ إلَى الْأَرْضِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعَلَّلَ ذَلِكَ بِالتَّجَلِّي. وَالتَّجَلِّي الْمَذْكُورُ لَا يُنَافِي السَّبَبَ الْمَذْكُورَ، فَإِنَّ خُشُوعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلَّهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إذَا حَصَلَ لِنُورِهِ مَا يَحْصُلُ مِنْ انْقِطَاعٍ يَرْفَعُ تَأْثِيرَهُ عَنْ الْأَرْضِ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَحَلِّ سُلْطَانِهِ وَمَوْضِعِ انْتِشَارِهِ وَتَأْثِيرِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ الْمُتَصَرِّفَ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ لَوْ مُنِعَ ذَلِكَ لَذَلَّ لِذَلِكَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فَالْمُدَبِّرَاتُ هِيَ الْمَلَائِكَةُ. وَأَمَّا إقْسَامُ اللَّهِ بِالنُّجُومِ كَمَا أَقْسَمَ بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾ فَهُوَ كَإِقْسَامِهِ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ -يَقْتَضِي تَعْظِيمَ قَدْرِ الْمُقْسَمِ بِهِ وَالتَّنْبِيهَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ الْآيَاتِ وَالْعِبْرَةِ وَالْمَنْفَعَةِ لِلنَّاسِ، وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ أَنْ تَتَعَلَّقَ الْقُلُوبُ بِهِ أَوْ يُظَنَّ أَنَّهُ هُوَ الْمُسْعِدُ الْمُنْحِسُ، كَمَا لَا يُظَنُّ ذَلِكَ فِي ﴿وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إذَا تَجَلَّى﴾ وَفِي ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾(٣) وَفِي ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَاعْتِقَادُ الْمُعْتَقِدِ أَنَّ نَجْمًا

---

(١) الأحقاف: الآية ٢٤.

(٢) رواه النسائي حديث ١٤٦٨، وضعف الألباني هذا اللفظ في ضعيف الجامع ٢٠١٩، لكن أصله صحيح وقد مر قريبا.

(٣) الذاريات: الآية ١,٢.

مِنْ النُّجومِ السَّبْعَةِ هُوَ الْمُتَوَلِّي لِسَعْدِهِ وَنَحْسِهِ اعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ، وَأَنَّ الْمُعْتَقِدَ أَنَّهُ هُوَ الْمُدَبِّرُ لَهُ فَهُوَ كَافِرٌ. وَكَذَلِكَ إنْ انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ دُعَاؤُهُ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ كَانَ كُفْرًا وَشِرْكًا مَحْضًا، وَغَايَةُ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ أَنْ يَبْنِيَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هُنَا الْوَلَدَ حِينَ وُلِدَ بِهَذَا الطَّالِعِ. وَهَذَا الْقَدْرِ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِي أَحْوَالِ هَذَا الْمَوْلُودِ، بَلْ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ، وَهَذَا الْقَدْرُ لَا يُوجِبُ مَا ذُكِرَ، بَلْ مَا عُلِمَ حَقِيقَةً تَأْثِيرُهُ فِيهِ مِثْلُ حَالِ الْوَالِدَيْنِ وَحَالِ الْبَلَدِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ مَحْسُوسٌ فِي أَحْوَالِ الْمَوْلُودِ، وَمَعَ هَذَا فَلَيْسَ هَذَا مُسْتَقِلًّا. ثُمَّ إنَّ الْأَوَائِلَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَجِّمِينَ الْمُشْرِكِينَ الصَّابِئِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ قَدْ قِيلَ إنَّهُمْ كَانُوا إذَا وَلَدَ لَهُمْ الْمَوْلُودَ أَخَذُوا طَالِعِ الْمَوْلُودِ، وَسَمَّوْا الْمَوْلُودَ بِاسْمِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا كَبُرَ سُئِلَ عَنْ اسْمِهِ أَخْذ السَّائِلِ حَالَ الطَّالِعِ، فَجَاءَ هَؤُلَاءِ الطَّرْقِيَّة يَسْأَلُونَ الرَّجُلَ عَنْ اسْمِهِ وَاسْم أُمِّهِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْ ذَلِكَ الدَّلَالَة عَلَى أَحْوَالِهِ، وَهَذِهِ ظُلُمَات بَعْضهَا فَوْقَ بَعْض مُنَافِيَة لِلْعَقْلِ وَالدِّينِ. وَأَمَّا اخْتِيَارَاتُهُمْ وَهُوَ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الطَّالِع لِمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ الْأَفْعَالِ مِثْلَ اخْتِيَارَاتِهِمْ لِلسَّفَرِ أَنْ يَكُونَ الْقَمَر فِي شَرَفِهِ وَهُوَ "السَّرَطَانُ" وَأَلَّا يَكُونَ فِي هُبُوطِهِ وَهُوَ "الْعَقْرَبُ" فَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ الْمَذْمُومِ.
وَلَمَّا أَرَادَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب أَنْ يُسَافِرَ لِقِتَالِ الْخَوَارِج عَرَض لَهُ مُنَجِّم فَقَالَ: يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ لَا تُسَافِرُ؛ فَإِنَّ الْقَمَرَ فِي الْعَقْرَبِ؛ فَإِنَّك إنْ سَافَرْت وَالْقَمَر فِي الْعَقْرَبِ هَزَمَ أَصْحَابك –أَوْ كَمَا قَالَ– فَقَالَ عَلِيٌّ: بَلْ أُسَافِرُ ثِقَةً بِاَللَّهِ وَتَوَكُّلًا عَلَى اللَّهِ وَتَكْذِيبًا لَك، فَسَافَرَ فَبُورِكَ لَهُ فِي ذَلِكَ السَّفَرِ حَتَّى قَتْل عَامَّة الْخَوَارِجِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَا سُرَّ بِهِ، حَيْثُ كَانَ قِتَاله لَهُمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمَّا مَا يُذَكِّرُهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: لَا تُسَافِرُ وَالْقَمَر فِي الْعَقْرَب. فَكَذِب مُخْتَلَق بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَدِيثِ.
وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: إنَّهَا (صنعة التنجيم) صَنْعَة إدْرِيس. فَيُقَالُ: "أَوَّلًا" هَذَا قَوْل بِلَا عِلْم؛ فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَعْلَمُ إلَّا بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ وَلَا سَبِيلَ لِهَذَا الْقَائِلِ إلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ فِي كُتُبٍ هَؤُلَاءِ "هَرْمَسَ الْهَرَامِسَة" وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ هُوَ إدْرِيس. "والهرمس" عِنْدَهُمْ اسْم جِنْس؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: "هَرْمَسَ الْهَرَامِسَة" وَهَذَا الْقَدْر الَّذِي يُذَكِّرُونَهُ عَنْ هرمسهم يُعْلَمُ الْمُؤْمِن قَطْعًا أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ مَأْخُوذًا عَنْ نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى وَجْهِه، لِمَا فِيهِ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبَاطِل.
وَيُقَالُ: "ثَانِيًا" هَذَا إنْ كَانَ أَصْله مَأْخُوذًا عَنْ إدْرِيس فَإِنَّهُ كَانَ مُعْجِزَة لَهُ وَعِلْمًا أَعْطَاهُ اللَّهُ إيَّاهُ فَيَكُونُ مِنْ الْعُلُومِ النَّبَوِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ إنَّمَا يَحْتَجُّونَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْقِيَاسِ لَا بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاء عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام.
وَيُقَالُ: "ثَالِثًا" إنَّ كَانَ بَعْض هَذَا مَأْخُوذًا عَنْ نَبِيٍّ فَمِنْ الْمَعْلُومِ قَطْعًا أَنْ فِيهِ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبَاطِل أَضْعَاف مَا هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ ذَلِكَ النَّبِيِّ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلِ الَّذِي فِي ذَلِكَ أَضْعَاف الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ الَّذِي عِنْد الْيَهُود وَالنَّصَارَى فِيمَا يَأْثُرُونَهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا كَانَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى قَدّ تَيَقَّنَّا قَطْعًا أَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ مَأْخُوذٌ عَنْ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور كَمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ، وَقَدْ أَوْجَبَ اللَّه عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ عَلَى مِنْ قَبْلِنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن

رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١] ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ قَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَكَذَّبُوا وَكَتَمُوا، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَ الْوَحْيِ الْمُحَقَّقِ وَالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ يَقِينًا، مَعَ أَنَّهَا إِلَيْنَا أَقْرَبُ عَهْدًا مِنْ إِدْرِيس، وَمَعَ أَنَّ نَقْلَتَهَا أَعْظَمُ مِنْ نَقْلَةِ النُّجُومِ، وَأَبْعَدُ عَنْ تَعَمُّدِ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ، وَأَبْعَدُ عَنْ الْكُفْرِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَا الظَّنُّ بِهَذَا الْقَدْرِ إنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ مَنْقُولٌ عَنْ إدْرِيس؟ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ فِيهِ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ وَالتَّحْرِيفِ أَعْظَمَ مِمَّا فِي عُلُومِ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاَللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[٢] فَإِذَا كُنَّا مَأْمُورِينَ فِيمَا يُحَدِّثُنَا بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا نُصَدِّقَ إلَّا بِمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ الْحَقُّ، كَمَا لَا نُكَذِّبَ إلَّا بِمَا نَعْلَمُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، فَكَيْفَ يَجُوزُ تَصْدِيقُ هَؤُلَاءِ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْقُولٌ عَنْ إدْرِيسَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَهُمْ فِي ذَلِكَ أَبْعَدُ عَنْ عِلْمِهِمْ الْمُصَدَّقِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؟

وَيُقَالُ: "رَابِعًا" لَا رَيْبَ أَنَّ النُّجُومَ نَوْعَانِ: حِسَابٌ وَأَحْكَامٌ. فَأَمَّا الْحِسَابُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ أَقْدَارِ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ، وَصِفَاتِهَا وَمَقَادِيرِ حَرَكَاتِهَا وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ، فَهَذَا فِي الْأَصْلِ عِلْمٌ صَحِيحٌ لَا رَيْبَ فِيهِ كَمَعْرِفَةِ الْأَرْضِ وَصِفَتِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَكِنَّ جُمْهُورَ التَّدْقِيقِ مِنْهُ كَثِيرُ التَّعَبِ قَلِيلُ الْفَائِدَةِ، كَالْعَالِمِ مَثَلًا بِمَقَادِيرِ الدَّقَائِقِ وَالثَّوَانِي وَالثَّوَالِثِ فِي حَرَكَاتِ السَّبْعَةِ الْمُتَحَيِّرَةِ ﴿بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾ فَإِنْ كَانَ أَصْلُ هَذَا مَأْخُوذًا عَنْ إدْرِيسَ فَهَذَا مُمْكِنٌ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ، كَمَا يَقُولُ نَاسٌ إنَّ أَصْلَ الطِّبِّ مَأْخُوذٌ عَنْ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَأَمَّا الْأَحْكَامُ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ فَمِنْ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَكُونَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ سَاحِرًا، وَهُمْ يَذْكُرُونَ أَنْوَاعًا مِنْ السِّحْرِ وَيَقُولُونَ: هَذَا يَصْلُحُ لِعَمَلِ النَّوَامِيسِ. أَيْ الشَّرَائِعِ وَالسُّنَنِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دِعَايَةُ الْكَوَاكِبِ وَعِبَادَةٌ لَهَا، وَأَنْوَاعٌ مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَأْمُرُ بِذَلِكَ وَلَا عَلَّمَهُ، وَإِضَافَةُ ذَلِكَ إلَى بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ كَإِضَافَةِ مَنْ أَضَافَ ذَلِكَ إلَى سُلَيْمَانَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَمَّا سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالطَّيْرَ، فَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِأَنْوَاعٍ مِنْ السِّحْرِ، حَتَّى إنَّ طَوَائِفَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَا يَجْعَلُونَهُ نَبِيًّا حَكِيمًا، فَنَزَّهَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[٣]

وَكَذَلِكَ أَيْضًا الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ بِمَا يَسْتَدِلُّونَ بِهِ مِنْ الْحَرَكَاتِ الْعُلْوِيَّةِ وَالِاخْتِيَارَاتِ لِلْأَعْمَالِ، هَذَا كُلُّهُ يُعْلِمُ قَطْعًا أَنَّ نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يُؤْمَرْ قَطُّ بِهَذا؛ إذْ فِيهِ مِنْ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ مَا يُنَزَّهُ عَنْهُ الْعُقَلَاءُ

(١) البقرة: الآية ١٣٦.
(٢) رواه البخاري حديث ٤٤٧٥.
(٣) البقرة: الآية ١٠٢.

الَّذِينَ هُمْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ بِكَثِيرٍ وَمَا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ، فَهُوَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَ إمَامُ هَؤُلَاءِ وَمُعَلِّمُهُمْ الثَّانِي (أَبُو نَصْرٍ الْفَارَابِيّ) قَالَ مَا مَضْمُونُهُ: إنَّك لَوْ قَلَبْت أَوْضَاعَ الْمُنَجِّمِينَ فَجَعَلْت مَكَانَ السَّعْدِ نَحْسًا وَمَكَانَ النَّحْسِ سَعْدًا، أَوْ مَكَانَ الْحَارِّ بَارِدًا أَوْ مَكَانَ الْبَارِدِ حَارًّا، أَوْ مَكَانَ الْمُذَكَّرِ مُؤَنَّثًا أَوْ مَكَانَ الْمُؤَنَّثِ مُذَكَّرًا، وَحَكَمْت لَكَانَ حُكْمُك مِنْ جِنْسِ أَحْكَامِهِمْ يُصِيبُ تَارَةً وَيُخْطِئُ أُخْرَى، وَمَا كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَهُمْ يُنَزِّهُونَ عَنْهُ بقراط وَأَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو وَأَصْحَابَهُ الْفَلَاسِفَةَ الْمَشَّائِينَ، الَّذِينَ يُوجَدُ فِي كَلَامِهِمْ مِنْ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ نَظِيرُ مَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَإِذَا كَانُوا يُنَزِّهُونَ عَنْهُ هَؤُلَاءِ الصَّابِئِينَ وَأَنْبِيَاءَهُمْ الَّذِينَ أَقَلُّ نِسْبَةً وَأَبْعَدُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَكَيْفَ يَجُوزُ نِسْبَتُهُ إلَى نَبِيٍّ كَرِيمٍ؟ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ أَحْوَالِ أَئِمَّتِنَا أَنَّهُ قَدْ أُضِيفَ إلَى جَعْفَرٍ الصَّادِقِ -وَلَيْسَ هُوَ بِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ- مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَعْلَمُ كُلُّ عَالِمٍ بِحَالِ جَعْفَرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ ذَلِكَ كَذِبٌ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَذِبَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْكَذِبِ حَتَّى نُسِبَ إلَيْهِ أَحْكَامُ "الْحَرَكَاتِ السُّفْلِيَّةِ" كَاخْتِلَاجِ الْأَعْضَاءِ وَحَوَادِثِ الْجَوِّ مِنْ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالْهَالَةِ وَقَوْسِ اللَّهِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ "قَوْسُ قُزَحٍ" وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، وَالْعُلَمَاءُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَكَذَلِكَ نُسِبَ إلَيْهِ "الْجَدْوَلُ" الَّذِي بَنَى عَلَيْهِ الضَّلَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الرَّافِضَةِ، وَهُوَ كَذِبٌ مُفْتَعَلٌ عَلَيْهِ افْتَعَلَهُ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ أَحَدُ الْمَشْهُورِينَ بِالْكَذِبِ، مَعَ رِيَاسَتِهِ وَعَظَمَتِهِ عِنْدَ أَتْبَاعِهِ، وَكَذَلِكَ أُضِيفَ إلَيْهِ كِتَابُ (الْجَفْرُ وَالْبِطَاقَةُ والهفت) وَكُلُّ ذَلِكَ كَذِبٌ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ، حَتَّى أُضِيفَ إلَيْهِ (رَسَائِلُ إخْوَانِ الصَّفَا) وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَهْلِ، فَإِنَّ هَذِهِ الرَّسَائِلَ إنَّمَا وُضِعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ، فَإِنَّهُ تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ، وَهَذِهِ الرَّسَائِلُ وُضِعَتْ فِي دَوْلَةِ بَنِي بويه فِي أَثْنَاءِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فِي أَوَائِلِ دَوْلَةِ بَنِي عُبَيْدٍ الَّذِينَ بَنَوْا الْقَاهِرَةَ، وَضَعَهَا جَمَاعَةٌ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ جَمَعُوا بِهَا بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْفَلْسَفَةِ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا. وَأَصْحَابُ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُ الْعِلْمَ، كَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عيينة وَأَمْثَالِهِمَا مِنْ الْأَئِمَّةِ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ -بَرَاءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَكَاذِيبِ.

وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا يَذْكُرُهُ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي فِي كِتَابِ (حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ) عَنْ جَعْفَرٍ مِنْ الْكَذِبِ الَّذِي لَا يَشُكُّ فِي كَذِبِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَحْكِيهَا عَنْهُ الرَّافِضَةُ، وَهِيَ مِنْ أَبْيَنِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُ كَذِبًا وَاخْتِلَافًا مِنْ الرَّافِضَةِ مِنْ حِينِ نَبَغُوا.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ قَدْ كُذِبَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ الَّذِي لَا يَجُوزُ نِسْبَتُهَا إلَى أَقَلِّ الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى أَضَافَتْ إلَيْهِ الْقَرَامِطَةُ وَالْبَاطِنِيَّةُ والخرمية والمزدكية والإسماعيلية والنصيرية مَذَاهِبَهَا الَّتِي هِيَ مِنْ أَفْسَدِ مَذَاهِبِ الْعَالَمِينَ، وَادَّعَوْا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ الْعُلُومِ الْمَوْرُوثَةِ عَنْهُ، وَهَذَا كُلُّهُ إنَّمَا أَحْدَثَهُ الْمُنَافِقُونَ الزَّنَادِقَةُ الَّذِينَ قَصَدُوا إظْهَارَ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَهُمْ يُبْطِنُونَ خِلَافَ ذَلِكَ، وَاسْتَتْبَعُوا الطَّوَائِفَ الْخَارِجَةَ عَنْ الشَّرَائِعِ، وَكَانَ لَهُمْ دُوَلٌ، وَجَرَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فِتَنٌ حَتَّى قَالَ ابْنُ سِينَا: إنَّمَا اشْتَغَلْت فِي عُلُومِ الْفَلَاسِفَةِ لِأَنَّ أَبِي كَانَ مِنْ أَهْلِ دَعْوَةِ الْمِصْرِيِّينَ. يَعْنِي مِنْ بَنِي عُبَيْدٍ الرَّافِضَةِ الْقَرَامِطَةِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا

يَنْتَحِلُونَ هَذِهِ الْعُلُومَ الْفَلْسَفِيَّةَ؛ وَلِهَذَا تَجِدُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ الرَّافِضَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْبُعْدِ عَنْ مَعْرِفَةِ النُّبُوَّاتِ اتِّصَالٌ وَانْضِمَامَاتٌ، يَجْمَعُهُمْ فِيهِ الْجَهْلُ الصَّمِيمُ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. فَإِذَا كَانَ فِي الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ أَقَلُّ مِنْ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ قَدْ كُذِبَ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَأُضِيفَ إلَيْهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُنَجِّمِينَ مَا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُمْ مِنْهُ، وَنَفَقَ ذَلِكَ عَلَى طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ مُنْتَسِبَةٍ إلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ مَعَ وُجُودِ مَنْ يُبَيِّنُ كَذِبَ هَؤُلَاءِ، وَيَنْهَى عَنْ ذَلِكَ، وَيَذُبُّ عَنْ الْمِلَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ، فَكَيْفَ الظَّنُّ بِمَا يُضَافُ إلَى إدْرِيسَ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ أُمُورِ النُّجُومِ وَالْفَلْسَفَةِ، مَعَ تَطَاوُلِ الزَّمَانِ وَتَنَوُّعِ الْحَدَثَانِ، وَاخْتِلَافِ الْمُلْكِ وَالْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ، وَعَدَمِ مَنْ يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ ذَلِكَ مِنْ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ، وَاشْتِمَالِ ذَلِكَ عَلَى مَا لَا يُحْصَى مِنْ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ؟

وَسُئِلَ[(١)] -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْوُجُودِ أَوْ يَقُولُ: إنَّ لَهُ نَجْمًا فِي السَّمَاءِ يَسْعَدُ بِسَعَادَتِهِ وَيَشْقَى بِعَكْسِهِ وَيَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ وَبِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وَيَقُولُ: إنَّهَا صَنْعَةُ إدْرِيسَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَيَقُولُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إنَّ نَجْمَهُ كَانَ بِالْعَقْرَبِ وَالْمِرِّيخِ. فَهَلْ هَذَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَمْ لَا؟ وَحَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الدِّينِ فَمَاذَا يَجِبُ عَلَى قَائِلِهِ؟ وَالْمُنْكِرُونَ عَلَى هَؤُلَاءِ يَكُونُونَ مِنْ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنْ الْمُنْكَرِ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ:

وَكَذَلِكَ دَعْوَى الْمُدَّعِي أَنَّ نَجْمَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ بِالْعَقْرَبِ وَالْمِرِّيخِ وَأُمَّتِهِ بالزهرة وَأَمْثَالَ ذَلِكَ، هُوَ مِنْ أَوْضَحِ الْهَذَيَانِ الْمُبَايِنَةِ لِأَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَا يَدَّعُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ، فَإِنَّ مِنْ أَوْضَحِ الْكَذِبِ قَوْلَهُمْ إنَّ نَجْمَ الْمُسْلِمِينَ بالزهرة وَنَجْمَ النَّصَارَى بِالْمُشْتَرَى، مَعَ قَوْلِهِمْ إنَّ الْمُشْتَرَى يَقْتَضِي الْعِلْمَ وَالدِّينَ، والزهرة تَقْتَضِي اللَّهْوَ وَاللَّعِبَ، وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ النَّصَارَى أَعْظَمُ الْمِلَلِ جَهْلًا وَضَلَالَةً، وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ، وَأَكْثَرُ اشْتِغَالًا بِالْمَلَاهِي وَتَعَبُّدًا بِهَا، وَالْفَلَاسِفَةُ مُتَّفِقُونَ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُ مَا قَرَعَ الْعَالَمَ نَامُوسٌ أَعْظَمُ مِنْ النَّامُوسِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ أَكْمَلُ عَقْلًا وَدِينًا وَعِلْمًا بِاتِّفَاقِ الْفَلَاسِفَةِ، حَتَّى فَلَاسِفَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتَابُونَ فِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ عَقْلًا وَدِينًا، وَإِنَّمَا يَمْكُثُ أَحَدُهُمْ عَلَى دِينِهِ، إمَّا اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ وَرِعَايَةً لِمَصْلَحَةِ دُنْيَاهُ فِي زَعْمِهِ، وَإِمَّا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَجُوزُ التَّمَسُّكُ بِأَيِّ مِلَّةٍ كَانَتْ، وَأَنَّ الْمِلَلَ شَبِيهَةٌ بِالْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَإِنَّ جُمْهُورَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُنَجِّمِينَ وَأَمْثَالَهُمْ يَقُولُونَ بِهَذَا، وَيَجْعَلُونَ الْمِلَلَ بِمَنْزِلَةِ الدُّوَلِ الصَّالِحَةِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ، وَأَمَّا الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ الْأَنْبِيَاء -عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فَنَاطِقَةٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَى الْحَنِيفِيَّةِ وَهِيَ الْإِسْلَامُ الْعَامُّ: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْإِيمَانُ بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٩/ ص٢٢٥)

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) وَبِذَلِكَ أَخْبَرَنَا عَنْ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأُمَمِهِمْ، قَالَ نُوحٌ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢) وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٣) وَقَالَ مُوسَى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾(٤) وَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾(٥) وَقَالَتْ بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦) وَقَالَ فِي الْحَوَارِيِّينَ: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٧) وَقَدْ قَالَ مُطْلَقًا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٨) وَقَالَ: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٩) فَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ بِاتِّفَاقِ كُلِّ ذِي عَقْلٍ أَوْلَى أَهْلِ الْمِلَلِ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْعَدْلِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُنَاسِبُ عِنْدَهُمْ آثَارَ الْمُشْتَرَى، وَالنَّصَارَى أَبْعَدُ عَنْ ذَلِكَ وَأَوْلَى بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَمَا يُنَاسِبُ عِنْدَهُمْ آثَارَ الزهرة كَانَ مَا ذَكَرُوهُ ظَاهِرَ الْفَسَادِ.

وَلِهَذَا لَا تَزَالُ أَحْكَامُهُمْ كَاذِبَةً مُتَهَافِتَةً حَتَّى إِنَّ كَبِيرَ الْفَلَاسِفَةِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ "فَيْلَسُوفَ الْإِسْلَامِ" يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ عَمِلَ تَسْيِيرًا لِهَذِهِ الْمِلَّةِ، زَعَمَ أَنَّهَا تَنْقَضِي عَامَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْهُ مَنْ أَخْرَجَ "مَخْرَجَ الِاسْتِخْرَاجِ" مِنْ حُرُوفِ كَلَامٍ ظَهَرَ فِي الْكَشْفِ لِبَعْضِ مَنْ أَعَادَهُ، وَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ بَقَاءَ هَذِهِ الْمِلَّةِ مِنْ حِسَابِ الْجُمَلِ الَّذِي لِلْحُرُوفِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَهِيَ مَعَ حَذْفِ التَّكْرِيرِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ حَرْفًا، وَحِسَابُهَا فِي الْجُمْلَةِ الْكَثِيرُ سِتُّمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ وَتِسْعُونَ.

وَمِنْ هَذَا أَيْضًا مَا ذُكِرَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَنْزَلَ {الم} قَالَ بَعْضُ الْيَهُودِ: بَقَاءُ هَذِهِ الْمِلَّةِ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ فَلَمَّا أَنْزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ {الر} و {الم} قَالُوا: خَلَطَ عَلَيْنَا. فَهَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي تُوجَدُ فِي ضَلَالِ

---

(١) البقرة: الآية ٦٢.
(٢) يونس: الآية ٧٢.
(٣) البقرة: الآية ١٣٢:١٣٠.
(٤) يونس: الآية ٨٤.
(٥) المائدة: الآية ٤٤.
(٦) النمل: الآية ٤٤.
(٧) المائدة: الآية ١١١.
(٨) آل عمران: الآية ١٨.
(٩) آل عمران: الآية ٨٤.

الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُنَجِّمِينَ مُشْتَمِلَةٌ مِنْ هَذَا الْبَاطِلِ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذِهِ الْأُمُورُ وَأَشْبَاهُهَا خَارِجَةٌ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ مُحَرَّمَةٌ فِيهِ، فَيَجِبُ إنْكَارُهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ: بِالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَهَؤُلَاءِ وَأَشْبَاهُهُمْ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ وَسُوسُ الْمِلَلِ، وَلَا يُنْفَقُ الْبَاطِلِ فِي الْوُجُودِ إلَّا بِشَوْبٍ مِنْ الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ بِسَبَبِ الْحَقِّ الْيَسِيرِ الَّذِي مَعَهُمْ، يُضِلُّونَ خَلْقًا كَثِيرًا عَنْ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَيَدَّعُونَهُ إلَى الْبَاطِلِ الْكَثِيرِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَكَثِيرًا مَا يُعَارِضُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يُحْسِنُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يُقِيمُ الْحُجَّةَ الَّتِي تُدَحِّضُ بَاطِلَهُمْ، وَلَا يُبَيِّنُ حُجَّةَ اللَّهِ الَّتِي أَقَامَهَا بِرُسُلِهِ فَيَحْصُلُ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِتْنَةٌ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذَا الْبَاطِلِ وَنَحْوَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

فَالْقَوْلُ(١) بِالْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةُ بَاطِلٌ عَقْلًا مُحَرَّمٌ شَرْعًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ حَرَكَةَ الْفَلَكِ وَإِنْ كَانَ لَهَا أَثَرٌ لَيْسَتْ مُسْتَقِلَّةً، بَلْ تَأْثِيرُ الْأَرْوَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ أَشَدُّ مِنْ تَأْثِيرِهِ، وَكَذَلِكَ تَأْثِيرُ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ تَأْثِيرُ قُلُوبِ الْآدَمِيِّينَ بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمُؤَثِّرَاتِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَالصَّابِئَةِ الْمُشْتَغِلِينَ بِأَحْكَامِ النُّجُومِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، فَهُوَ فِي الْأَمْرِ الْعَامِّ جُزْءُ السَّبَبِ وَإِنْ فَرَضْنَا أَنَّهُ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ أَوْ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِتَمَامِ السَّبَبِ، فَالْعِلْمُ بِهِ غَيْرُ مُمْكِنٍ لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِ، وَإِنْ فُرِضَ الْعِلْمُ بِهِ فَمَحَالُ تَأْثِيرِهِ لَا يَنْضَبِطُ؛ إذْ لَيْسَ تَأْثِيرُ خُسُوفِ الشَّمْسِ فِي الْإِقْلِيمِ الْفُلَانِيِّ بِأَوْلَى مِنْ الْإِقْلِيمِ الْآخَرِ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّهُ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ قَدْ حُصِّلَ بِشُرُوطِهِ وَعُلِمَ بِهِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا يَصْعُرُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ يُعَارِضُ مُقْتَضَى ذَلِكَ السَّبَبِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْعِتْقِ وَالصَّدَقَةِ عِنْدَ الْخُسُوفِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ يَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْمُنَجِّمُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ حَتَّى قَالَ كَبِيرُهُمْ "بَطْلَيْمُوسُ": ضَجِيجُ الْأَصْوَاتِ فِي هَيَاكِلِ الْعِبَادَاتِ بِفُنُونِ الدَّعَوَاتِ مِنْ جَمِيعِ اللُّغَاتِ يُحَلِّلُ مَا عَقَدْته الْأَفْلَاكُ الدَّائِرَاتُ، فَصَارَ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ إنْ حَدَثَ سَبَبُ خَيْرٍ، كَانَ ذَلِكَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ يُقَوِّيهِ وَيُؤَيِّدُهُ، وَإِنْ حَدَثَ سَبَب شَرٍّ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ يَدْفَعُهُ، وَكَذَلِكَ اسْتِخَارَةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ إذَا هَمَّ بِأَمْرٍ كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: {إذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ} الْحَدِيثَ(٢). فَهَذِهِ الِاسْتِخَارَةُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ خَالِقِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ الطَّالِعَ فِيمَا يُرِيدُ فِعْلَهُ، فَإِنَّ الِاخْتِيَارَ غَايَتُهُ تَحْصِيلُ سَبَبٍ وَاحِدٍ مِنْ أَسْبَابِ النُّجْحِ إنْ صَحَّ، وَالِاسْتِخَارَةُ أَخْذٌ لِلنُّجْحِ مِنْ جَمِيعِ طُرُقِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْخِيَرَةَ فَإِمَّا أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَ الْإِنْسَانِ وَيُيَسِّرَ الْأَسْبَابَ أَوْ يُعَسِّرَهَا وَيَصْرِفَهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٧٤)

(٢) سبق وهو في الصحيحين.

فَسَأَلَهُ} الْحَدِيثَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْعَرَّافُ يَعُمُّ الْمُنَجِّمَ وَغَيْرَهُ إمَّا لَفْظًا وَإِمَّا مَعْنًى. وَقَالَ ﷺ: {مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زاد مَا زَادَ}[1] رَوَاهُ أَبُو داود وَابْنُ ماجه، فَقَدْ تَبَيَّنَ تَحْرِيمُ الْأَخْذِ بِأَحْكَامِ النُّجُومِ عِلْمًا أَوْ عَمَلًا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ أَنَّ ذَلِكَ أَيْضًا مُتَعَذِّرٌ فِي الْغَالِبِ؛ لِأَنَّ أَسْبَابَ الْحَوَادِثِ وَشُرُوطَهَا وَمَوَانِعَهَا لَا تُضْبَطُ بِضَبْطِ حَرَكَةِ بَعْضِ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا يَتَّفِقُ الْإِصَابَةُ فِي ذَلِكَ إذَا كَانَ بَقِيَّةُ الْأَسْبَابِ مَوْجُودَةً وَالْمَوَانِعُ مُرْتَفِعَةً، لَا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ دَلِيلٍ مُطَّرِدٍ لَازِمًا أَوْ غَالِبًا، وَحُذَّاقُ الْمُنَجِّمِينَ يُوَافِقُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ طَالِعَ الْبِلَادِ لَا يَسْتَقِيمُ الْحُكْمُ بِهِ غَالِبًا لِمُعَارَضَةِ طَالِعِ لِوَقْتٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الْمَوَانِعِ وَيَقُولُونَ: إنَّ الْأَحْكَامَ مَبْنَاهَا عَلَى الْحَدْسِ وَالْوَهْمِ، فَنُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ قَوْلَهُمْ فِي رُؤْيَةِ الْهِلَالِ وَفِي الْأَحْكَامِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، يُعْلَمُ بِأَدِلَّةِ الْعُقُولِ امْتِنَاعُ ضَبْطِ ذَلِكَ، وَيُعْلَمُ بِأَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ تَحْرِيمُ ذَلِكَ وَالِاسْتِغْنَاءُ عَمَّا نَظُنُّ مِنْ مَنْفَعَتِهِ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ إنَّ كَلَامَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ عُلُومٍ صَادِقَةٍ لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا، وَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مَنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَبَيْنَ ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ لَا ثِقَةَ بِهَا وَأَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ. وَلَقَدْ صَدَقَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْحَاسِبَ إذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فِي حِسَابِ الدَّقَائِقِ وَالثَّوَانِي كَانَ غَايَتُهُ مَا لَا يُفِيدُ، وَإِنَّمَا تَعِبُوا عَلَيْهِ لِأَجْلِ الْأَحْكَامِ، وَهِيَ ظُنُونٌ كَاذِبَةٌ، أَمَّا الْكَلَامُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ فَإِنْ كَانَ عِلْمًا كَانَ فِيهِ مَنْفَعَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ ظَنًّا مِثْلَ الْحُكْمِ بِشَهَادَةِ الشَّاهِدَيْنِ أَوْ الْعَمَلِ بِالدَّلِيلِ الظَّنِّيِّ الرَّاجِحِ فَهُوَ عَمَلٌ بِعِلْمِ، وَهُوَ ظَنٌّ يُثَابُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. آخَرُ مَا وُجِدَ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَأَمَّا[2] الْعَقْلُ: فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِسَابِ كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُ الرُّؤْيَةِ بِحِسَابٍ، بِحَيْثُ يُحْكَمُ بِأَنَّهُ يُرَى لَا مَحَالَةَ أَوْ لَا يُرَى أَلْبَتَّةَ عَلَى وَجْهٍ مُطَّرِدٍ، وَإِنَّمَا قَدْ يَتَّفِقُ ذَلِكَ أَوْ لَا يُمْكِنُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُعْتَنُونَ بِهَذَا الْفَنِّ مِنْ الْأُمَمِ: الرُّومِ وَالْهِنْدِ وَالْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، مِثْلُ بَطْلَيْمُوسَ الَّذِي هُوَ مُقَدَّمُ هَؤُلَاءِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ، لَمْ يَنْسُبُوا إلَيْهِ فِي الرُّؤْيَةِ حَرْفًا وَاحِدًا وَلَا حَدُّوهُ كَمَا حَدُّوا اجْتِمَاعَ الْقُرْصَيْنِ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِهِ قَوْمٌ مِنْهُمْ فِي أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ مِثْلُ كوشيار الديلمي، وَعَلَيْهِ وَعَلَى مِثْلُهُ يَعْتَمِدُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الرُّؤْيَةِ مِنْهُمْ. وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حُذَّاقُهُمْ مِثْلُ أَبِي عَلِيٍّ المروذي الْقَطَّانِ وَغَيْرِهِ، وَقَالُوا إنَّهُ تَشَوَّقَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَإِلَّا فَهَذَا لَا يُمْكِنُ ضَبْطُهُ، وَلَعَلَّ مَنْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانَ مَرْمُوقًا بِنِفَاقٍ، فَمَا النِّفَاقُ مِنْ هَؤُلَاءِ بِبَعِيدٍ، أَوْ يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ الْجُهَّالِ مِمَّنْ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِالْحِسَابِ مَعَ انْتِسَابِهِ إلَى الْإِسْلَامِ.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٧٤)

وَبَيَانُ امْتِنَاعِ ضَبْطِ ذَلِكَ أَنَّ الْحِسَابَ إِنَّمَا يُقَدِّرُهُ عَلَى ضَبْطِ شَبَحِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَجَرْيِهِمَا أَنَّهُمَا يَتَحَاذَيَانِ فِي السَّاعَةِ الْفُلَانِيَّةِ فِي الْبُرْجِ الْفُلَانِيِّ فِي السَّمَاءِ الْمُحَاذِي لِلْمَكَانِ الْفُلَانِيِّ مِنْ الْأَرْضِ، سَوَاءٌ كَانَ الِاجْتِمَاعُ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَهَذَا الِاجْتِمَاعُ يَكُونُ بَعْدَ الِاسْتِسْرَارِ وَقَبْلَ الِاسْتِهْلَالِ، فَإِنَّ الْقَمَرَ يَجْرِي فِي مَنَازِلِهِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ، كَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ ثُمَّ يَقْرُبُ مِنْ الشَّمْسِ فَيَسْتَسِرُّ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ؛ لِمُحَاذَاتِهِ لَهَا، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ تَحْتِهَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ النُّورَ، ثُمَّ يَزْدَادُ النُّورُ كُلَّمَا بَعُدَ عَنْهَا إلَى أَنْ يُقَابِلَهَا لَيْلَةَ الْإِبْدَارِ، ثُمَّ يَنْقُصُ كُلَّمَا قَرُبَ مِنْهَا إلَى أَنْ يُجَامِعَهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ الِاجْتِمَاعُ وَالِاسْتِقْبَالُ وَلَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقُولُوا الْهِلَالُ وَقْتَ الْمُفَارَقَةِ عَلَى كَذَا. يَقُولُونَ: الِاجْتِمَاعُ وَقْتَ الِاسْتِسْرَارِ وَالِاسْتِقْبَالُ وَقْتَ الْإِبْدَارِ. وَمِنْ مَعْرِفَةِ الْحِسَابِ الِاسْتِسْرَارُ وَالْإِبْدَارُ الَّذِي هُوَ الِاجْتِمَاعُ وَالِاسْتِقْبَالُ، فَالنَّاسُ يُعَبِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ الظَّاهِرِ مِنْ الِاسْتِسْرَارِ الْهِلَالِيِّ فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَظُهُورِهِ فِي أَوَّلِهِ وَكَمَالِ نُورِهِ فِي وَسَطِهِ، والحساب يُعَبِّرُونَ بِالْأَمْرِ الْخَفِيِّ مِنْ اجْتِمَاعِ الْقُرْصَيْنِ الَّذِي هُوَ وَقْتُ الِاسْتِسْرَارِ، وَمِنْ اسْتِقْبَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الَّذِي هُوَ وَقْتُ الْإِبْدَارِ فَإِنَّ هَذَا يُضْبَطُ بِالْحِسَابِ، وَأَمَّا الْإِهْلَالُ فَلَا لَهُ عِنْدَهُمْ مِنْ جِهَةِ الْحِسَابِ ضَبْطٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُضْبَطُ بِحِسَابٍ يُعْرَفُ كَمَا يُعْرَفُ وَقْتُ الْكُسُوفِ وَالْخُسُوفِ، فَإِنَّ الشَّمْسَ لَا تَكْسِفُ فِي سُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي جَعَلَ لَهَا إلَّا عِنْدَ الِاسْتِسْرَارِ.

إنّ شيخ الاسلام كما هو معلوم ضرب في كل علم بسهم ونال من كل علم حظاً وافراً، وحين أقرأ هذا أوقن أنّ شيخ الاسلام كان أدرى بهذه العلوم الضالة من أصحابها، ومما أذكره ويناسب هذا المقام (مقام ذكر الأبراج والكهانة) أنى رأيت بعض الكتب فيها شرح للأبراج، وكيفية حساب طالع الشخص ومعرفة برجه، والوقت المناسب لعمل عمل له أو التكهن له، أو غير ذلك.

قال شيخ الإسلام: إذَا وَقَعَ الْقَمَرُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَبْصَارِ النَّاسِ عَلَى مُحَاذَاةٍ مَضْبُوطَةٍ، وَكَذَلِكَ الْقَمَرُ لَا يَخْسِفُ إلَّا فِي لَيَالِي الْإِبْدَارِ عَلَى مُحَاذَاةٍ مَضْبُوطَةٍ؛ لِتَحَوُّلِ الْأَرْضِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّمْسِ، فَمَعْرِفَةُ الْكُسُوفِ وَالْخُسُوفِ لِمَنْ صَحَّ حِسَابُهُ مِثْلُ مَعْرِفَةِ كُلِّ أَحَدٍ أَنَّ لَيْلَةَ الْحَادِيَ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ الشَّهْرِ لَا بُدَّ أَنْ يَطْلُعَ الْهِلَالُ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الشَّكُّ لَيْلَةَ الثَّلَاثِينَ، فَنَقُولُ الْحَاسِبُ غَايَةُ مَا يُمْكِنُهُ إذَا صَحَّ حِسَابُهُ أَنْ يَعْرِفَ مَثَلًا أَنَّ الْقُرْصَيْنِ اجْتَمَعَا فِي السَّاعَةِ الْفُلَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ يَكُونُ قَدْ فَارَقَهَا الْقَمَرُ إمَّا بِعَشْرِ دَرَجَاتٍ مَثَلًا أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ. وَالدَّرَجَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا مِنْ الْفَلَكِ، فَإِنَّهُمْ قَسَّمُوهُ اثْنَيْ عَشَرَ قِسْمًا سَمَّوْهَا "الدَّاخِلَ" كُلُّ بُرْجٍ اثْنَا عَشَرَ دَرَجَةً وَهَذَا غَايَةُ مَعْرِفَتِهِ، وَهِيَ بِتَحْدِيدِكُمْ بَيْنَهُمَا مِنْ الْبُعْدِ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ، هَذَا الَّذِي يَضْبُطُهُ بِالْحِسَابِ، أَمَّا كَوْنُهُ يُرَى أَوْ لَا يُرَى فَهَذَا أَمْرٌ حِسِّيٌّ طَبِيعِيٌّ لَيْسَ هُوَ أَمْرًا حِسَابِيًّا رِيَاضِيًّا، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ أَنْ يَقُولَ: اسْتَقْرَأْنَا أَنَّهُ إذَا كَانَ عَلَى كَذَا وَكَذَا دَرَجَةً يُرَى قَطْعًا أَوْ لَا يُرَى قَطْعًا، فَهَذَا جَهْلٌ وَغَلَطٌ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَجْرِي عَلَى قَانُونٍ وَاحِدٍ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، بَلْ إذَا كَانَ بُعْدُهُ مَثَلًا عِشْرِينَ دَرَجَةً فَهَذَا يُرَى مَا لَمْ يَحُلْ حَائِلٌ، وَإِذَا كَانَ عَلَى دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ فَهَذَا لَا يُرَى، وَأَمَّا مَا حَوْلَ الْعَشْرَةِ فَالْأَمْرُ فِيهِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَسْبَابِ الرُّؤْيَةِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا تَخْتَلِفُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ تَخْتَلِفُ لِحِدَّةِ الْبَصَرِ وكلاله، فَمَعَ دِقَّتِهِ يَرَاهُ الْبَصَرُ الْحَدِيدُ دُونَ الْكَلِيلِ، وَمَعَ تَوَسُّطِهِ يَرَاهُ غَالِبُ النَّاسِ وَلَيْسَتْ أَبْصَارُ النَّاسِ مَحْصُورَةً بَيْنَ حَاصِرَيْنِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ يَرَاهُ غَالِبُ النَّاسِ وَلَا يَرَاهُ غَالِبُهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ رَآهُ اثْنَانِ عَلَّقَ الشَّارِعُ الْحُكْمَ بِهِمَا بِالْإِجْمَاعِ، وَإِنْ كَانَ الْجُمْهُورُ لَمْ يَرَوْهُ، فَإِذَا قَالَ لَا يُرَى بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي حُكْمِ الشَّرْعِ، وَإِنْ قَالَ يُرَى بِمَعْنَى أَنَّهُ يَرَاهُ الْبَصَرُ الْحَدِيدُ، فَقَدْ لَا يَتَّفِقُ فِيمَنْ يَتَرَاءَى لَهُ مَنْ يَكُونُ بَصَرُهُ حَدِيدًا، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى إِمْكَانِ رُؤْيَةِ مَنْ لَيْسَ بِحَاضِرٍ.

السَّبَبُ الثَّانِي: أَنْ يَخْتَلِفَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرَائِينَ وَقِلَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَثُرُوا كَانَ أَقْرَبَ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ يَرَاهُ لِحِدَّةِ بَصَرِهِ وَخِبْرَتِهِ بِمَوْضِعِ طُلُوعِهِ وَالتَّحْدِيقِ نَحْوَ مَطْلَعِهِ، وَإِذَا قَلُّوا فَقَدْ لَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ، فَإِذَا ظَنَّ أَنَّهُ يُرَى قَدْ يَكُونُونَ قَلِيلًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَوْهُ، وَإِذَا قَالَ لَا يُرَى فَقَدْ يَكُونُ الْمُتَرَاءُونَ كَثِيرًا فِيهِمْ مَنْ فِيهِ قُوَّةٌ عَلَى إِدْرَاكِ مَا لَمْ يُدْرِكْهُ غَيْرُهُ.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَكَانِ التَّرَائِي، فَإِنَّ مَنْ كَانَ أَعْلَى مَكَانًا فِي مَنَارَةٍ أَوْ سَطْحٍ عَالٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَكُونُ عَلَى الْقَاعِ الصَّفْصَفِ أَوْ فِي بَطْنِ وَادٍ، كَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ أَمَامَ أَحَدِ الْمُتَرَائِينَ بِنَاءٌ أَوْ جَبَلٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ يُمْكِنُ مَعَهُ أَنْ يَرَاهُ غَالِبًا وَإِنْ مَنَعَهُ أَحْيَانًا وَقَدْ يَكُونُ لَا شَيْءَ أَمَامَهُ. فَإِذَا قِيلَ: يُرَى مُطْلَقًا لَمْ يَرَهُ الْمُنْخَفِضُ وَنَحْوُهُ، وَإِذَا قِيلَ: لَا يُرَى فَقَدْ يَرَاهُ الْمُرْتَفِعُ وَنَحْوُهُ وَالرُّؤْيَةُ تَخْتَلِفُ بِهَذَا اخْتِلَافًا ظَاهِرًا.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ وَقْتِ التَّرَائِي وَذَلِكَ أَنَّ عَادَةَ الحساب أَنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِبُعْدِهِ وَقْتَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ يَكُونُ قَرِيبًا مِنْ الشَّمْسِ فَيَكُونُ نُورُهُ قَلِيلًا وَتَكُونُ حُمْرَةُ شُعَاعِ الشَّمْسِ مَانِعًا لَهُ بَعْضَ الْمَنْعِ، فَكُلَّمَا انْخَفَضَ إِلَى الْأُفُقِ بَعُدَ عَنْ الشَّمْسِ، فَيَقْوَى شَرْطُ الرُّؤْيَةِ وَيَبْقَى مَانِعُهَا، فَيَكْثُرُ نُورُهُ وَيَبْعُدُ عَنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ، فَإِذَا ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُرَى وَقْتَ الْغُرُوبِ أَوْ عَقِبَهُ، فَإِنَّهُ يُرَى بَعْدَ ذَلِكَ وَلَوْ عِنْدَ هُوِيِّهِ فِي الْمَغْرِبِ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ يُضْبَطُ حَالُهُ مِنْ حِينِ وُجُوبِ الشَّمْسِ إِلَى حِينِ وُجُوبِهِ، فَإِنَّمَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَضْبُطَ عَدَدَ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ؛ لِأَنَّهُ يَبْقَى مُرْتَفِعًا بِقَدْرِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْبُعْدِ، أَمَّا مِقْدَارُ مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنْ الضَّوْءِ وَمَا يَزُولُ مِنْ الشُّعَاعِ الْمَانِعِ لَهُ فَإِنَّ بِذَلِكَ تَحْصُلُ الرُّؤْيَةُ بِضَبْطِهِ عَلَى وَجْهٍ وَاحِدٍ، يَصِحُّ مَعَ الرُّؤْيَةِ دَائِمًا أَوْ يَمْتَنِعُ دَائِمًا، فَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَبَدًا، وَلَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا مُنْضَبِطًا، خُصُوصًا إِذَا كَانَتْ الشَّمْسُ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: صَفَاءُ الْجَوِّ وَكَدَرُهُ. لَسْت أَعْنِي إِذَا كَانَ هُنَاكَ حَائِلٌ يَمْنَعُ الرُّؤْيَةَ كَالْغَيْمِ وَالْقَتَرِ الْهَائِجِ مِنْ الْأَدْخِنَةِ وَالْأَبْخِرَةِ، وَإِنَّمَا إِذَا كَانَ الْجَوُّ بِحَيْثُ يُمْكِنُ فِيهِ رُؤْيَتُهُ أَمْكَنَ مِنْ بَعْضٍ، إِذَا كَانَ الْجَوُّ صَافِيًا مِنْ كُلِّ كَدَرٍ فِي مِثْلِ مَا يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ عَقِبَ الْأَمْطَارِ فِي الْبَرِّيَّةِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ بُخَارٌ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ فِي الْجَوِّ بُخَارٌ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ فِيهِ رُؤْيَتُهُ، كَنَحْوِ مَا يَحْصُلُ فِي الصَّيْفِ بِسَبَبِ الْأَبْخِرَةِ وَالْأَدْخِنَةِ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا يُمْكِنُ فِي مِثْلِ صَفَاءِ الْجَوِّ، وَأَمَّا صِحَّةُ مُقَابَلَتِهِ وَمَعْرِفَةِ مَطْلَعِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ،

فَهَذَا مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يُمْكِنُ الْمُتَرَائِي أَنْ يَتَعَلَّمَهَا أَوْ يَتَحَرَّاهُ. فَقَدْ يُقَالُ: هُوَ شَرْطُ الرُّؤْيَةِ كَالتَّحْدِيقِ نَحْوَ الْمَغْرِبِ خَلْفَ الشَّمْسِ فَلَمْ نَذْكُرْهُ فِي أَسْبَابِ اخْتِلَافِ الرُّؤْيَةِ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا مَا لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْمُتَرَائِينَ الْإِحَاطَةُ مِنْ صِفَةِ الْأَبْصَارِ وَأَعْدَادِهَا وَمَكَانِ التَّرَائِي وَزَمَانِهِ وَصَفَاءِ الْجَوِّ وَكَدَرِهِ، فَإِذَا كَانَتْ الرُّؤْيَةُ حُكْمًا تَشْتَرِكُ فِيهِ هَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا دَاخِلًا فِي حِسَابِ الْحَاسِبِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ مَعَ ذَلِكَ يُخْبِرُ خَبَرًا عَامًّا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ حَيْثُ رَآهُ عَلَى سَبْعٍ أَوْ ثَمَانِ دَرَجَاتٍ أَوْ تِسْعٍ؟ أَمْ كَيْفَ يُمْكِنُهُ يُخْبِرُ خَبَرًا جَزْمًا أَنَّهُ يُرَى إذَا كَانَ عَلَى تِسْعَةٍ أَوْ عَشَرَةٍ مَثَلًا؟ وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي قَوْسِ الرُّؤْيَةِ: كَمْ ارْتِفَاعُهُ. مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ تِسْعَةٌ وَنِصْفٌ... وَيَحْتَاجُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، إذَا كَانَتْ الشَّمْسُ فِي الْبُرُوجِ الشَّمَالِيَّةِ مُرْتَفِعَةً أَوْ فِي الْبُرُوجِ الْجَنُوبِيَّةِ مُنْخَفِضَةً، فَتَبَيَّنَ بِهَذَا الْبَيَانِ أَنَّ خَبَرَهُمْ بِالرُّؤْيَةِ مِنْ جِنْسِ خَبَرِهِمْ بِالْأَحْكَامِ وَأَضْعَفَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ هَبْ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْحَرَكَاتِ الْعُلْوِيَّةَ سَبَبُ الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ، فَإِنَّ هَذَا الْقَدْرَ لَا يُمْكِنُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَجْزِمَ بِنَفْيِهِ إذْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ أَعْيَانَهَا وَصِفَاتِهَا وَحَرَكَاتِهَا سَبَبًا لِبَعْضٍ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يُحِيلُهُ شَرْعٌ وَلَا عَقْلٌ، لَكِنْ الْمُسْلِمُونَ قِسْمَانِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هَذَا لَا دَلِيلَ عَلَى ثُبُوتِهِ فَلَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِهِ فَإِنَّهُ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ. وَآخَرُ يَقُولُ: بَلْ هُوَ ثَابِتٌ فِي الْجُمْلَةِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُرِفَ بَعْضُهُ بِالتَّجْرِبَةِ؛ وَلِأَنَّ الشَّرِيعَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﷺ: {إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ لَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ} وَالتَّخْوِيفُ إنَّمَا يَكُونُ بِوُجُودِ سَبَبِ الْخَوْفِ، فَعُلِمَ أَنَّ كُسُوفَهُمَا قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِأَمْرٍ مَخُوفٍ وَقَوْلُهُ: {لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ}[1] رَدٌّ لِمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُ النَّاسِ، فَإِنَّ الشَّمْسَ خَسَفَتْ يَوْمَ مَوْتِ إبْرَاهِيمَ فَاعْتَقَدَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا خَسَفَتْ مِنْ أَجْلِ مَوْتِهِ تَعْظِيمًا لِمَوْتِهِ، وَأَنَّ مَوْتَهُ سَبَبُ خُسُوفِهَا فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَنْخَسِفُ لِأَجْلِ أَنَّهُ مَاتَ أَحَدٌ وَلَا لِأَجْلِ أَنَّهُ حَيِيَ أَحَدٌ، وَهَذَا كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي رِجَالٌ مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَرُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ: {مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ، فَقَالَ: إنَّهُ لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إذَا قَضَى بِالْقَضَاءِ سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ} الْحَدِيثَ[2] فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الشُّهُبَ الَّتِي يُرْجَمُ بِهَا لَا يَكُونُ عَنْ سَبَبِ حَدَثٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّمَا يَكُونُ عَنْ أَمْرٍ حَدَثَ فِي السَّمَاءِ وَأَنَّ الرَّمْيَ بِهَا لِطَرْدِ الشَّيَاطِينِ الْمُسْتَرِقَةِ. وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ هُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إلَّا تَخْوِيفًا﴾[3] فَعُلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةَ قَدْ تَكُونُ سَبَبَ عَذَابٍ؛ وَلِهَذَا شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ وُجُودِ سَبَبِ الْخَوْفِ مَا يَدْفَعُهُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَأَمَرَ بِصَلَاةِ الْكُسُوفِ -الصَّلَاةُ الطَّوِيلَةُ- وَأَمَرَ بِالْعِتْقِ وَالصَّدَقَةِ وَأَمَرَ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ، كَمَا قَالَ ﷺ: {إنَّ الْبَلَاءَ وَالدُّعَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) الإسراء: الآية ٥٩.

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[١] فَالدُّعَاءُ وَنَحْوُهُ يَدْفَعُ الْبَلَاءَ النَّازِلَ مِنْ السَّمَاءِ. فَإِنْ قُلْت: مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ –وَإِنْ كَانَ مُنْتَسِبًا إلَى عِلْمٍ– مَنْ يَجْزِمُ بِأَنَّ الْحَرَكَاتِ الْعُلْوِيَّةَ لَيْسَتْ سَبَبًا لِحُدُوثِ أَمْرٍ أَلْبَتَّةَ، وَرُبَّمَا اعْتَقَدَ أَنَّ تَجْوِيزَ ذَلِكَ وَإِثْبَاتَهُ مِنْ جُمْلَةِ التَّنْجِيمِ الْمُحَرَّمِ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: {مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ}[٢] رَوَاهُ أَبُو داود وَغَيْرُهُ وَرُبَّمَا احْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِمَا فَهِمَهُ مِنْ قَوْلِهِ: {لَا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ}[٣] وَاعْتَقَدَ أَنَّ الْعِلَّةَ هُنَا هِيَ الْعِلَّةُ الغائية، أَيْ لَا يَكْسِفَانِ لِيَحْدُثَ عَنْ ذَلِكَ مَوْتٌ أَوْ حَيَاةٌ؟ قُلْت: قَوْلُ هَذَا جَهْلٌ؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَنْفِيَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ. وَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْقَوْلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ هُوَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٤] وَقَال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥] وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٦] فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ذَلِكَ، وَلَا فِي الْعَقْلِ وَمَا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ مَا يُعْلَمُ بِهِ نَفْيُ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا نَفْيُ ذَلِكَ جَزْمًا بِغَيْرِ مِثْلُ نَفْيِ بَعْضِ الْجُهَّالِ أَنْ تَكُونَ الْأَفْلَاكُ مُسْتَدِيرَةً: فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي ذَلِكَ جَزْمًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي الْجَزْمَ بِهِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وَكِلَاهُمَا جَهْلٌ. فَمِنْ أَيْنَ لَهُ نَفْيُ ذَلِكَ أَوْ نَفْيُ الْعَامِّ بِهِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَلَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ إلَّا مَا قَدْ يَفْهَمُهُ بِفَهْمِهِ النَّاقِصِ؟

هَذَا وَقَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُسْتَدِيرَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[٧] وَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٩] قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي فَلْكَةٍ مِثْلِ فَلْكَةِ الْمِغْزَلِ، وَهَكَذَا هُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الْفَلَكُ الشَّيْءُ الْمُسْتَدِيرُ. وَمِنْهُ يُقَالُ: تَفَلَّكَ ثَدْيُ الْجَارِيَةِ إذَا اسْتَدَارَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[١] وَالتَّكْوِيرُ هُوَ التَّدْوِيرُ. وَمِنْهُ قِيلَ: كَارَ الْعِمَامَةَ وَكَوَّرَهَا إذَا أَدَارَهَا. وَمِنْهُ قِيلَ: لِلْكُرَةِ كُرَةٌ وَهِيَ الْجِسْمُ الْمُسْتَدِيرُ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْأَفْلَاكِ كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْكُرَةِ كورة تَحَرَّكَتْ الْوَاوُ

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٦٣٩.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الإسراء: الآية ٣٦.
(٥) البقرة: الآية ١٦٩.
(٦) الأعراف: الآية ٣٣.
(٧) فصلت: الآية ٣٧.
(٨) الأنبياء: الآية ٣٣.
(٩) يس: الآية ٤٠.
(١) الزمر: الآية ٥.

وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقُلِبَتْ أَلِفًا، وَكَوَّرْت الْكَارَةَ إذَا دَوَّرْتَهَا، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: {إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا ثَوْرَانِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ مِثْلِ حُسْبَانِ الرَّحَا، وَقَالَ: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[١] وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يَسْتَدِيرُ مِنْ أَشْكَالِ الْأَجْسَامِ دُونَ الْمُضَلَّعَاتِ مِنْ الْمُثَلَّثِ أَوْ الْمُرَبَّعِ أَوْ غَيْرِهِمَا، فَإِنَّهُ يَتَفَاوَتُ لِأَنَّ زَوَايَاهُ مُخَالِفَةٌ لِقَوَائِمِهِ وَالْجِسْمِ الْمُسْتَدِيرِ مُتَشَابِهُ الْجَوَانِبِ وَالنَّوَاحِي لَيْسَ بَعْضُهُ مُخَالِفًا لِبَعْضٍ، وقال النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ: إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِك عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْك. فَقَالَ: {وَيْحَك إنَّ اللَّهَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. إنَّ شَأْنَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا، وَقَالَ بِيَدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ: وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِرَاكِبِهِ} رَوَاهُ أَبُو داود وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ}[٢] فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ هِيَ الْأَعْلَى وَالْأَوْسَطُ وَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا فِي الصُّورَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ، فَأَمَّا الْمُرَبَّعُ وَنَحْوُهُ فَلَيْسَ أَوْسَطُهُ أَعْلَاهُ بَلْ هُوَ مُتَسَاوٍ.

وَأَمَّا إجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ، فَقَالَ إيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْإِمَامُ الْمَشْهُورُ قَاضِي الْبَصْرَةِ مِنْ التَّابِعِينَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَد بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْمُنَادِي مِنْ أَعْيَانِ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِمَعْرِفَةِ الْآثَارِ وَالتَّصَانِيفِ الْكِبَارِ فِي فُنُونِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ مِنْ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد: لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ السَّمَاءَ عَلَى مِثَالِ الْكُرَةِ، وَأَنَّهَا تَدُورُ بِجَمِيعِ مَا فِيهَا مِنْ الْكَوَاكِبِ كَدَوْرَةِ الْكُرَةِ عَلَى قُطْبَيْنِ ثَابِتَيْنِ غَيْرِ مُتَحَرِّكَيْنِ: أَحَدُهُمَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَالْآخَرُ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ جَمِيعَهَا تَدُورُ مِنْ الْمَشْرِقِ، تَقَعُ قَلِيلًا عَلَى تَرْتِيبٍ وَاحِدٍ فِي حَرَكَاتِهَا وَمَقَادِيرِ أَجْزَائِهَا إلَى أَنْ تَتَوَسَّطَ السَّمَاءَ، ثُمَّ تَنْحَدِرُ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ، كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي كُرَةٍ تُدِيرُهَا جَمِيعَهَا دَوْرًا وَاحِدًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِهَا مِنْ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِثْلُ الْكُرَةِ قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لَا يُوجَدُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلْ عَلَى الْمَشْرِقِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ. قَالَ: فَكُرَةُ الْأَرْضِ مُثَبَّتَةٌ فِي وَسَطِ كُرَةِ السَّمَاءِ كَالنُّقْطَةِ فِي الدَّائِرَةِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جُرْمَ كُلِّ كَوْكَبٍ يُرَى فِي جَمِيعِ نَوَاحِي السَّمَاءَ عَلَى قَدْرٍ وَاحِدٍ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِقَدْرٍ وَاحِدٍ، فَاضْطِرَارُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضَ وَسَطَ السَّمَاءِ، وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ أَنَّ الْعَرْشَ سَقْفُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ، مَعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُسْتَدِيرَةٌ مُتَنَاقِضٌ، أَوْ مُقْتَضٍ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَحْتَ بَعْضِ خَلْقِهِ، كَمَا احْتَجَّ بَعْضُ الجهمية عَلَى إنْكَارِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ بِاسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاكِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزَمٌ كَوْنَ الرَّبِّ أَسْفَلَ.

---

(١) الملك: الآية ٣.

(٢) رواه أبو داود حديث ٤٧٢٦، وضعفه الألباني.

وَهَذَا مِنْ غَلَطِهِمْ فِي تَصَوُّرِ الْأَمْرِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُسْتَدِيرَةٌ وَأَنَّ الْمُحِيطَ الَّذِي هُوَ السَّقْفُ هُوَ أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَأَنَّ الْمَرْكَزَ الَّذِي هُوَ بَاطِنُ ذَلِكَ وَجَوْفُهُ وَهُوَ قَعْرُ الْأَرْضِ هُوَ "سِجِّينٌ وَأَسْفَلُ سَافِلِينَ" عَلِمَ مِنْ مُقَابَلَةِ اللَّهِ بَيْنَ أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَبَيْنَ سِجِّينٍ، مَعَ أَنَّ الْمُقَابَلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ أَوْ بَيْنَ السِّعَةِ وَالضِّيقِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُلُوَّ مُسْتَلْزِمٌ لِلسِّعَةِ وَالضِّيقِ مُسْتَلْزِمٌ لِلسُّفُولِ، وَعَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ فَوْقَ الْأَرْضِ مُطْلَقًا لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ تَحْتَهَا قَطُّ وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَدِيرَةً مُحِيطَةً وَكَذَلِكَ كُلَّمَا عَلَا كَانَ أَرْفَعَ وَأَشْمَلَ، وَعَلِمَ أَنَّ الْجِهَةَ قِسْمَانِ: قِسْمٌ ذَاتِيٌّ وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالسُّفُولُ فَقَطْ. وَقِسْمٌ إضَافِيٌّ وَهُوَ مَا يُنْسَبُ إلَى الْحَيَوَانِ بِحَسَبِ حَرَكَتِهِ، فَمَا أَمَامَهُ يُقَالُ لَهُ: أَمَامٌ، وَمَا خَلْفَهُ يُقَالُ لَهُ: خَلْفٌ، وَمَا عَنْ يَمِينِهِ يُقَالُ لَهُ: الْيَمِينُ، وَمَا عَنْ يَسْرَتِهِ يُقَالُ لَهُ: الْيَسَارُ، وَمَا فَوْقَ رَأْسِهِ يُقَالُ لَهُ: فَوْقٌ، وَمَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ يُقَالُ: لَهُ تَحْتٌ، وَذَلِكَ أَمْرٌ إضَافِيٌّ. أَرَأَيْت لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَلَّقَ رِجْلَيْهِ إلَى السَّمَاءِ وَرَأْسُهُ إلَى الْأَرْضِ، أَلَيْسَتْ السَّمَاءُ فَوْقَهُ وَإِنْ قَابَلَهَا بِرِجْلَيْهِ؟ وَكَذَلِكَ النَّمْلَةُ أَوْ غَيْرُهَا لَوْ مَشَى تَحْتَ السَّقْفِ مُقَابِلًا لَهُ بِرِجْلَيْهِ وَظَهْرُهُ إلَى الْأَرْضِ، لَكَانَ الْعُلُوُّ مُحَاذِيًا لَرِجْلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَوْقَهُ وَأَسْفَلُ سَافِلِينَ يَنْتَهِي إلَى جَوْفِ الْأَرْضِ. وَالْكَوَاكِبُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا مُحَاذِيًا لِرُءُوسِنَا وَبَعْضُهَا فِي النِّصْفِ الْآخَرِ مِنْ الْفَلَكِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا تَحْتَ شَيْءٍ، بَلْ كُلُّهَا فَوْقَنَا فِي السَّمَاءِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ إذَا تَصَوَّرَ هَذَا يَسْبِقُ إلَى وَهْمِهِ السُّفْلُ الْإِضَافِيُّ، كَمَا احْتَجَّ بِهِ الجهمي الَّذِي أَنْكَرَ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَخَيَّلَ عَلَى مَنْ لَا يَدْرِي أَنَّ مَنْ قَالَ: إنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَقَدْ جَعَلَهُ تَحْتَ نِصْفِ الْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ جَعَلَهُ فَلَكًا آخَرَ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَاهِلُ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَازِمٌ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِاَللَّهِ وَلَا هِيَ لَازِمَةٌ، بَلْ هَذَا يُصَدِّقُهُ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَد فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي حَدِيثِ الْإِدْلَاءِ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَيَدُلُّ عَلَى إحَاطَةِ الْعَرْشِ كَوْنُهُ سَقْفَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى قَوْلِهِ هَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ التِّرْمِذِيُّ، لَمْ يَدْرِ كَيْفَ الْأَمْرُ؟ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يَعْرِفْ صُورَةَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَخَشِيَ أَنْ يَتَأَوَّلَهُ الجهمي أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ قَالَ هَكَذَا، وَإِلَّا فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَمَا عُلِمَ بِالْمَعْقُولِ مِنْ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ يُصَدِّقُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَيَشْهَدُ لَهُ. فَنَقُولُ: إذَا تَبَيَّنَ أَنَّا نَعْرِفُ مَا قَدْ عُرِفَ مِنْ اسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاكِ عُلِمَ أَنَّ الْمُنْكِرَ لَهُ مُخَالِفٌ لِجَمِيعِ الْأَدِلَّةِ، لَكِنْ الْمُتَوَقِّفُ فِي ذَلِكَ قَبْلَ الْبَيَانِ فَعَلَ الْوَاجِبَ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْتَفِيدُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ لَا يَثِقُ بِهَا، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: {إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ}[1] وَأَنَّ كَوْنَ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ الْعَالِيَةِ سَبَبٌ لِبَعْضِ الْحَوَادِثِ مِمَّا لَا يُنْكَرُ، بَلْ إمَّا أَنْ يُقْبَلَ أَوْ لَا يُرَدَّ.

---

(١) سبق وهو في البخاري.

المبحث الثاني
الكهانة والتنجيم والسحر

قال توفيق فهد: وفما يتعلق بالجفر وعلى نحو أكثر بالكهانة (الميكانيكية) المسماة (زائرجة) القائمتين كلتيهما على التنجيم. وقال: من المؤكد أنّ صلات القرابة القائمة بين التنجيم والكهانة وثيقة، بيد أن تطور التنجيم الذي صمد أمام الكهانة القديمة جعل له الغلبة بالقياس إلى الكهانة، وهكذا فإنّ الشمس احتلت مكان الصدارة في الكهانة بوجه عام، وكوكب المشترى في تفسير الأحلام، وكوكب عطارد في كل ضروب الفال، لم يكن هذا في الواقع سوى تكييف للامتيازات المرتبطة بآلهة العصور القديمة.

(٥٥٦/٢) وتحدّث توفيق فهد عن العلاقة بين السحر والكهانة والتنجيم ثم قال: لهذا فإنّ السحر يظهر كمهارة تطبيقية متخيلة مصنوعة من كومة من الطقوس ترمي إلي تحقيق رغبات، في حين أنّ الكهانة هي بحث قلق وتفسير للأحداث الموضوعية بواسطة عناصر ذاتيه، والقوى النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط، والجزء العنصري هو القابل، ثم إن القوى النجومية ليست هي الفاعلة بجملتها، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي، مثل: قوة التوليد للأب، والنوع التي في النطفة، وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك، فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن، ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين، وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن، والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك، هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداد ولم تعترضه آفة، وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها، ولما أنّ اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه، ومدرك بطلميوس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف؛ لأنّ قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها، فقلّ أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال، وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة.

قال صديق حسن خان[1]: ثم إنّ تأثير الكواكب فيما تحتها باطل؛ إذ قد تبيّن في باب التوحيد أنّ لا فاعل إلا الله بطريق استدلالي، كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان، من أنّ إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادي الرأي من

(١) أبجد العلوم: ج ٢/ ص٥٥٦.

التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينهما، كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً، سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك، والنبوات أيضاً منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها، واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ﷺ: {إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته}(١) وفي قوله : {أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب}(٢) الحديث الصحيح، فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني، بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك، فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها، ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه،(٣) ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة، وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعياً للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم، فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق بالتكليف بأسباب حصولهم، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار، هذا هو الواجب على من عرف مفاسد العلم ومضاره، وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحداً من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظنّ الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر، فإنّ الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها، وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس، وتحت ربقة الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياضها على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل؟ ونحن نجد الفقه الذي عُلم نفعه ديناً ودنياً، وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة، وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه، ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها، إنما يحذق فيه الواحد في الأعصار والأجيال، فكيف بعلم مهجور للشريعة، مضروب دونه سد الحظر والتحريم، مكتوم عن الجمهور، صعب المآخذ، محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر؟

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) الكهانة في خدمة المحتل. ٢/ ٥٥٨

فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه؟(١) ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته، فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه، والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبة أحداً، ومما وقع في هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر، عندما غلب العرب عساكر السلطان أبي الحسن وحاصروه بالقيروان، وكثر إرجاف الفريقين الأولياء والأعداء، وقال في ذلك أبو القاسم الروحي من شعراء أهل تونس:

استغفر الله كل حين ... قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسى ... والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا ... يحدثها الهرج والوباء
والناس في مرية وحرب ... وما عسى ينفع المراء
فاحمدي ترى عليا ... حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي ... به إليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا ... يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري ... ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم ... أنكم اليوم أملياء
من خميس على خميس ... وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشرتان ... وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول ... أذاك جهل أم ازدراء
إنا إلى الله قد علمنا ... أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلها ... حسبكم البدر أو ذكاء
ما هذه الأنجم السواري ... إلا عباديد أو إماء
يقضي عليها وليس تقضي ... وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً ... ما شأنه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعاً ... يحدثه الماء والهواء
لم ترحلوا إزاء مر ... تغذوهمو تربة وماء
الله ربي ولست أدري ... ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولي التي تنادي ... ما لي عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام ... ولا ثبوت ولا انتفاء

---

(١) أبجد العلوم: ج ٢/ ص ٥٥٨.

ولست أدري ما الكسب إلا ... ما جلب البيع والشراء

وإنما مذهبي وديني ... ما كان والناس أولياء

إذ لا فصول ولا أصول ... ولا جدال ولا ارتياء

ما تبع الصدر واقتفينا ... يا حبذا كان الاقتفاء

كانوا كما يعلمون منهم ... ولم يكن ذلك الهذاء

يا أشعري الزمان إني ... أشعرني الصيف والشتاء

أنا أجزي بالشر شرا ... والخير عن مثله جزاء

وإنني إن أكن مطيعا ... فرب أعصي ولي رجاء

وإنني تحت حكم بار ... أطاعه العرش والثراء

ليس باستطاركم ولكن ... أتاحه الحكم والقضاء

لو حدث الأشعري عمن ... له إلى رأيه انتماء

فقال أخبرهم بأني ... مما يقولونه براء

انتهى كلامه الشريف. ولله دره وعلى الله أجره.

المؤمن وأسباب الخير والشر:

النجوم بذاتها لا يرجى منها جلب نفع ولا دفع ضرر، وقد بيّن الله في كتابه ما يحصل به الخير ويدفع به الشر.

قال شيخ الإسلام: فَهَذِهِ السُّنَّةُ فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ عِنْدَ أَسْبَابِ الْخَيْرِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَجْلِبُ اللَّهُ بِهِ الْخَيْرَ، وَعِنْدَ أَسْبَابِ الشَّرِّ الظَّاهِرَةِ مِنْ الْعِبَادَاتِ مَا يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ الشَّرَّ، فَأَمَّا مَا يَخْفَى مِنْ الْأَسْبَابِ فَلَيْسَ الْعَبْدُ مَأْمُورًا بِأَنْ يَتَكَلَّفَ مَعْرِفَتَهُ، بَلْ إذَا فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا حَظَرَ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ الشَّرِّ وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَ الْخَيْرِ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِيمَنْ يَتَعَاطَى السِّحْرَ لِجَلْبِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ اعْتَاضَ بِذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا يَرْجُو بِزَعْمِهِ نَفْعَهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا يَرْجُونَ بِمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ السِّحْرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا مِثْلَ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى هُمَا خَيْرٌ لَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الْآيَةُ. وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا

نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِمَّا يُعْطَوْنَ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْمُلْكِ وَالْمَالِ كَمَا أُعْطِيَ يُوسُفُ. وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِسُوءِ عَاقِبَةِ مَنْ تَرَكَ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى فِي غَيْرِ آيَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وَالْمُفْلِحُ الَّذِي يَنَالُ الْمَطْلُوبَ وَيَنْجُو مِنْ الْمَرْهُوبِ. فَالسَّاحِرُ لَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ، وَفِي سُنَنِ أَبِي داود عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ}[1]

(١) سبق تخريجه.

الفصل السابع
الفرق والكهانة

إنّ لزوم المنهج الذي جاء به النبي ﷺ واجتمع عليه هو وأصحابه نجاة، فالنجاة في لزوم منهج أهل السنة والجماعة، والعصمة من الضلال فيه وحده؛ لذا فإن من أصول أهل السنة والجماعة الاجتماع في الدين وترك التفرق والتحزب، وقد أشبع أئمة أهل السنة هذا الباب ولقد بدأ به الآجري كتابه (الشريعة) وهو أصل مقرر في كل كتب العقائد السنية السلفية، وتنكب هذا السبيل يبعد المسلم عن الطريق المستقيم، ولقد كان للفرق فهم منحرف يتعلق بأمر الكهانة، حدث بسبب سيرهم على قواعدهم التي تخالف منهج أهل السنة والجماعة، وفي هذا الفصل نتناول اعتقاد الفرق في الكهانة.

المبحث الأول

الفلاسفة والكهانة

نتناول في هذا المبحث بإذن الله موقف الفلاسفة من الكهانة، فلقد ارتبط الفلاسفة في عقول الناس بالحكمة والعلم والعقل، واتخذ كثير من الناس مشاهير الفلاسفة أئمة لهم يدورون في فلكهم، وانتشر في أمة الإسلام رجال بذلك وما نبأ ابن سينا والفارابي والكندي وغيرهم بخافٍ على أحد، إذ وقفوا حياتهم على إنتاج الفلاسفة حتى أثر ذلك في عقائدهم فتبعوهم في ذلك، كما انتشرت أسماء الفلاسفة حتى في معاهد العلم الشرعي، ولقد تنبّه كثير من أهل العلم لخطر الفلسفة وبيّنوا فسادها وإفسادها، وممن تنبه لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ذكر عن أرسطو الملقب (بالمعلم الأول) بأنه كان وثنياً وأنه كان يتعاطى وقومه السحر، كما بيّن- رحمه الله- أنّ انشغال الفلاسفة اليونان وغيرهم بعلم الفلك والرياضيات إنما لكونهم عابدين للكواكب، وحين أردنا استكشاف ما عند الفلاسفة من الكهانة هالنا انشغال أكثر الفلاسفة بالكهانة واعتقادهم فيها، ولقد آمن بالكهانة واعتقد فيها ومارسها مشاهير الفلاسفة من سقراط إلى أفلاطون إلى فيثاغورث إلى غيرهم.

ونبدأ أولاً بما ذكره شيخ الإسلام عن الفلاسفة ويتصل بموضوع الكهانة:

ذكر شيخ الإسلام عدم معرفة الفلاسفة بالأنبياء، وعدم معرفتهم بآياتهم ومعجزاتهم، وأنّ الآيات اشتبهت عليهم بالكهانة والسحر، قال رحمه الله: ومن خصائص معجزات الأنبياء أنّه لا يُمكن معارضتها، فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء عن معارضتها، كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء، بخلاف ما كان موجوداً لغيرها. فهذا لا يكون آيةً البتة؛ ولهذا من لم يكن عارفاً بالأنبياء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم، لم يكن له فيهم كلام يُعرف، كما لم يُعرف لأرسطو وأتباعه فيهم كلام يُعرف، بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك؛ كالفارابي وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة. ولما أراد طائفة كأبي حامد وغيره، أن يقرّروا إمكان النبوة على أصلهم، احتجوا بأنّ مبدأ الطبّ ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الأنبياء؛ لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك. وهذا إنّما يدلّ على اختصاص من أتى بذلك بنوعٍ من العلم، وهذا لا يُنكره عاقل، وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة، أنها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتة، وكلّ هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبيّ عنها، وهو أنقص ممن أراد أن يُقرّر أنّ في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء؛ فاستدلّ بوجود الشعراء، على وجود الفقهاء والأطباء. بل هذا المثال أقرب، فإنّ بُعد النبوّة عن غير الأنبياء أعظم من بُعد الفقيه، والطبيب عن الشاعر، ولكنّ هؤلاء من أجهل الناس بالنبوّة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع، فأرادوا تخريج ذلك على أصول قومٍ لم يعرفوا الأنبياء.

فإن قيل: موسى وغيره كانوا موجودين قبل أرسطو؛ فإنّ أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة.

وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت فَمِنْهُم مَنْ هَدَى الله وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَة فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾(١) وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِير﴾ فهذا يُبيّن أنّ كُلّ أمّة قد جاءها رسولٌ، فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟

قلت عن هذا جوابان: أحدهما: أنّ كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل؛ كما قال: ﴿وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَة فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾ فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.

الثاني: أنّه قال تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَهُوَ وَلِيّهُمُ اليَوْمَ﴾(٢) فإذا كان الشيطان قد زيّن لهم أعمالهم، كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم فلم يعرفوها.

وأرسطو لم يأت إلى أرض الشام، ويُقال: إنّ الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الأنبياء، لكن المعرفة المجملة لا تنفع، كمعرفة قريش: كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وإبراهيم سماعاً من غير معرفة بأحوالهم.

وأيضا: فهم وأمثالهم المشّاءون أدركوا الإسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل، إما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم، وما سمعوه: حرّفوه أو حملوه على أصولهم. وكثيرٌ من المتفلسفة هم من هؤلاء.

فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام، فما الظن بمن كان ببلادٍ لا يُعرف فيها شريعة نبي، بل طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوعٍ من الآدميين خصّهم الله بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم، كما يعرف الأطباء والفقهاء.

قال شيخ الإسلام: يُوَضِّحُ هَذَا الْفَصْلُ أَنَّ الْقُرْآنَ -وَإِنْ كَانَ كَلَامَ اللَّهِ- فَإِنَّ اللَّهَ أَضَافَهُ إِلَى الرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لَهُ مِنَ الْمَلَكِ وَالْبَشَرِ فَأَضَافَهُ إِلَى الْمَلَكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾(٣) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ فَهَذَا جبرائيل، فَإِنَّ هَذِهِ صِفَاتُهُ لَا صِفَاتُ مُحَمَّدٍ ﷺ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْنَا امْتِنَانًا عَلَيْنَا بِأَنَّهُ صَاحِبُنَا. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ فَهُوَ مُحَمَّدٌ. أَيْ: بِمُتَّهَمٍ وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى: بِبَخِيلٍ. وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَنَّهُ جبرائيل أَيْضًا وَهُوَ الْعَقْلُ الْفَاعِلُ الْفَائِضُ، وَهُوَ مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَإِنَّ صِفَاتِ جبرائيل تَقَدَّمَتْ وَإِنَّمَا هَذَا وَصْفُ مُحَمَّدٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ لَمَّا أَثْبَتَ أَنَّهُ قَوْلُ الْمَلَكِ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَوْلَ الشَّيْطَانِ. كَمَا قَالَ فِي الشُّعَرَاءِ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلَى

---

(١) النحل: الآية ٣٦.
(٢) النحل: الآية ٦٣.
(٣) التكوير: الآية ١٥,١٦.

قَوْلِهِ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَأَضَافَهُ إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ *إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ *وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَنَفَى عَنْهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلَ شَاعِرٍ أَوْ كَاهِنٍ وَهُمَا مِنْ الْبَشَرِ. كَمَا ذَكَرَ فِي آخِرِ الشُّعَرَاءِ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، كَالْكَهَنَةِ الَّذِينَ يُلْقُونَ إلَيْهِمْ السَّمْعَ، وَأَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ. فَهَذَانِ الصِّنْفَانِ اللَّذَانِ قَدْ يَشْتَبِهَانِ بِالرَّسُولِ مِنْ الْبَشَرِ لَمَّا نَفَاهُمَا عُلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ الْبَشَرِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ كَمَا أَنَّهُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ لَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ يُشَبَّهُ بِالْمَلَكِ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ قَوْلَ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. عُلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ الْمَذْكُورَ هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ الْمَلَائِكَةِ، وَفِي إضَافَتِهِ إلَى هَذَا الرَّسُولِ تَارَةً وَإِلَى هَذَا تَارَةً دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ إضَافَةُ بَلَاغٍ وَأَدَاءٍ، لَا إضَافَةُ إحْدَاثٍ لِشَيْءٍ مِنْهُ أَوْ إنْشَاءٍ، كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ مِنْ أَنَّ حُرُوفَهُ ابْتِدَاءَ جبرائيل أَوْ مُحَمَّدٌ مُضَاهَاةً مِنْهُمْ فِي نِصْفِ قَوْلِهِمْ لِمَنْ قَالَ: إنَّهُ قَوْلُ الْبَشَرِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَنْشَأَهُ بِفَضْلِهِ وَقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَمِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَعَانِيَ وَالْحُرُوفَ تَأْلِيفُهُ، لَكِنَّهَا فَاضَتْ عَلَيْهِ كَمَا يَفِيضُ الْعِلْمُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ. فَالْكَاهِنُ مُسْتَمِدٌّ مِنْ الشَّيَاطِينِ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وَكِلَاهُمَا فِي لَفْظِهِ وَزْنٌ. هَذَا سَجْعٌ وَهَذَا نَظْمٌ وَكِلَاهُمَا لَهُ مَعَانٍ مِنْ وَحْيِ الشَّيَاطِينِ.

وقال رحمه الله: وقد غلط في النبوة طوائف غير الذين كذّبوا بها؛ إما ظاهراً وباطناً، وإما باطناً كالمنافق المحض، بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إلى الرسول وإلى من قبله، وهم خلقٌ كثيرٌ فيهم شُعبة نفاق، وإن لم يكونوا مكذّبين للرسول من كلّ وجه، بل قد يعظّمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور.

وأبعد هؤلاء عن النبوة: المتفلسفة والباطنية والملاحدة؛ فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم؛ وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقطّ، ولهذا يُفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبيّ.

وابن سينا عظّمها أكثر من ذلك؛ فجعل للنبي ثلاث خصائص: أحدها: أن ينال العلم بلا تعلّم، ويسميها القوة القدسية؛ وهي القوة الحدسية عنده.

والثاني: أن يتخيّل في نفسه ما يعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانية، ويسمع في نفسه أصواتاً، كما يرى النائم في نومه صوراً تكلّمه ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج. فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنّما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور عندهم.

والثالث: أن يكون له قوّة يتصرّف بها في هيولي العالم، بإحداث أمور غريبة، وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العالم حادثٌ إلا عن قوّة نفسانية أو ملكية أو طبعية، كالنفس الفلكية والإنسانية

والأشكال الفلكية، والطبائع التي للعناصر الأربعة والمولّدات، لا يُقرّون بأنّ فوق الفلك نفسِهِ شيءٌ يفعل، ولا يحدث شيئاً، فلا يتكلم ولا يتحرك بوجهٍ من الوجوه؛ لا ملَك ولا غير ملَك، فضلاً عن رب العالم.

والعقول التي يثبتونها عندهم ليس فيها تحوّل من حال إلى حال البتة، لا بإرادة ولا قول ولا عمل ولا غير ذلك، وكذلك المبدأ الأول. وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنّما هو من فيض العقل الفعّال.

ثمّ إنّهم لما سمعوا كلام الأنبياء، أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء، فيضعونها على معانيهم، ويسمّون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلّمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظنّ من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنّهم عنوا بها ما عنته الأنبياء، وضلّ بذلك طوائف. وهذا موجود في كلام ابن سينا، ومن أخذ عنه... وهذه الصفات الثلاث التي جعلوها خاصة الأنبياء توجد لعموم الناس، بل توجد لكثير من الكفار من المشركين وأهل الكتاب، فإنّه قد يكون لأحدهم من العلم والعبادة ما يتميز به على غيره من الكفار، ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون أفضل من غيره.

وأما التخييل في نفسه: فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم ما يرون، لكن هو يقول: إنّ خاصة النبي أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام، وهذا موجودٌ لكثيرٍ من الناس، قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام.

ويكفيك أنّهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور وللساحر، ولكن قالوا: الساحر قصده فاسد، والممرور ناقص العقل، فجعلوا ما يحصل للأنبياء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة.

وهذا قول الكفّار في الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾(١) وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة والخطاب هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون، لكن الفرق بينه وبين الساحر: أنّه يأمر بالخير، وذاك يأمر بالشرّ، والمجنون ما له عقل.

وهذا القدر الذي فرّقوا به موجودٌ في عامّة النّاس، فلم يكن عندهم للأنبياء مزية على السحرة والمجانين، إلاّ ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين، وكذلك ما أثبتوه من القوّة الفعّالة المتصرّفة: هي عندهم تحصل للساحر وغيره؛ وذلك أنّهم لا يعرفون الجن والشياطين، وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم، فأحالوا ذلك على قوة نفس الإنسان، فما يأتي به الأنبياء من الآيات والسحرة والكهان، وما يخبر به المصروع والممرور: هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان، فالخبر بالغيب: هو لاتصالها بالنفس الفلكية، ويسمونها

---

(١) الذاريات: الآية ٥٢,٥٣.

اللوح المحفوظ.

والتصرّف: هو بالقوة النفسانية. وهذا حذق ابن سينا وتصرفه، لما أخبر بأمور في العالم غريبة لم يمكنه التكذيب بها، فأراد إخراجها على أصولهم، وصرّح بذلك في إشاراته، وقال: هذه الأمور لم نثبتها ابتداءً، بل لما تحققنا أنّ في العالم أموراً من هذا الجنس، أردنا أن نبيّن أسبابها.

وأما أرسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة، ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الأنبياء، ولكن كان السحر موجوداً فيهم. وهؤلاء من أبعد الأمم عن العلوم الكلية والإلهية، فإنّ حدوث هذه الغرائب من الجن، واقترانها بالسحرة والكهان، مما قد عرفه عامة الأمم وذكروه في كتبهم، غير العرب مثل الهند والترك، وغيرهم من المشركين وعباد الأصنام، وأصحاب الطلاسم والعزائم، وعرفوا أنّ كثيراً من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين. وهؤلاء الجهّال لم يعرفوا ذلك، ولهذا كان من أصلهم أنّ النبوة مكتسبة، وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبياً، وكذلك ابن سبعين، وغيره. ونبي الله: مَنْ كان الله هو الذي ينبئه، ووحيه من الله، وهؤلاء وحيهم من الشياطين، فهم من جنس المتنبئين الكذابين كمسيلمة الكذاب وأمثاله، بل أولئك أحذق منهم؛ فإنّهم كانت تأتيهم أرواح فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة، وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم، وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا. ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عُشْره هنا، وكذلك صرعهم للإنس وتكلمهم على ألسنتهم.

والفرق بين النبيّ والساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار. والنبي يأتيه ملَك كريم من عند الله ينبئه الله، والساحر والكاهن إنّما معه شيطان يأمره ويخبره، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون﴾ فلا الخبر كالخبر، ولا الأمر كالأمر، ولا مُخْبِر هذا كمخبر هذا، ولا آمر هذا كآمر هذا، كما أنّه ليس هذا مثل هذا؛ ولهذا قال تعالى لما ذكر الذي جاء بالقرآن إلى محمّد وأنه ملَك منفصل، ليس خيالاً في نفسه، كما يقوله هؤلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المبِين وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِين وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيم وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ فالقرآن قول رسولٍ أرسله الله، لم يرسله الشيطان، وهو ملَك كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى. والشياطين لا يطاعون في السماوات، بل ولا يصعدون إليها.

والمقصود هنا: الكلام على النبوة؛ فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حقّ قدرها، وقد ضلّ بهم طوائف من المتصوفة المدّعين للتحقيق وغيرهم، وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم؛ فإنّهم اعتقدوا مذهبهم وتصوّفوا عليه، ولهذا يقول ابن عربي: إنّ الأولياء أفضل من الأنبياء، وإنّ الأنبياء وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد، وأنه هو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول، فإنّ الملَك عنده هو الخيال الذي في النفس، وهو جبريل عندهم، وذلك الخيال تابعٌ للعقل، فالنبيّ عندهم

يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه. ولهذا يقولون: إنّ موسى كُلّم من سماء عقله، والصوت الذي سمعه كان في نفسه لا في الخارج، ويدّعي أحدهم أنّه أفضل من موسى، وكما ادّعى ابن عربيّ أنّه أفضل من محمّد؛ فإنّه يأخذ عن العقل الذي يأخذ منه الخيال، والخيال عنده هو الملك الذي يأخذ منه النبي؛ فلهذا قال: فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملَك الذي يوحى به إلى النبيّ، قال: فإن عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع. وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أُخر.

وقد وضع شيخ الإسلام حداً لآيات الأنبياء فقال: وأنّ الاعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقا، بحيث تختص بالأنبياء، فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم.

خوارق الكهّان والسحرة ليست من خوارق العادات وإنما من العجائب الغريبة، وأما إخبار الكهّان ببعض الأمور الغائبة؛ لإخبار الشياطين لهم بذلك، وسحر السحرة بحيث يموت الإنسان من السحر، أو يمرض ويُمنع من النكاح، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين: فهذا أمرٌ موجودٌ في العالم كثيرٌ معتادٌ يعرفه الناس، ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس، كما يختصّ قوم بخفة اليد والشعبذة، وقومٌ بالسباحة الغريبة حتى يضطجع أحدهم على الماء، وكما يختص قومٌ بالقيافة حتى يُباينوا بها غيرهم، وكما يختص قومٌ بالعيافة، ونحو ذلك مما هو موجود.

ولهذا كان مكذبو الرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر، وهذا مستقرٌ في نفوسهم: أنّ الساحر ليس برسولٍ ولا نبيّ، كما في قصة موسى لما قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ وهذا لحيرتهم وضلالتهم، تارةً يُنسبون إلى الجنون وعدم العقل، وتارة إلى الحذق والخبرة التي يُنال بها السحر؛ فإنّ السحر لا يقدر عليه ولا يُحسنه كلّ أحد، لكن العجائب والخوارق المقدورة للناس: منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفنّ، كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات، وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه، وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل.

فهذه كلّها قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد، بل أهل الإقليم، لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة، قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم أو في مكان أخر، فليست هي خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً، بل توجد معتادة لطائفة من الناس، وهم لا يقولون إنّهم أنبياء، ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء. ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس؛ فإنّهم لما رأوا آيات الأنبياء خارقة للعادة، لم يعتد الناس مثلها، أخذوا مسمّى خرق العادة، ولم يميّزوا بين ما يختص به الأنبياء ومن أخبر بنبوتهم، وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم، واضطربوا في مسمّى هذا الاسم كما اضطربوا في مسمّى المعجزات؛ ولهذا لم يُسمّها الله في كتابه إلا آيات وبراهين؛ فإنّ ذلك اسمٌ يدلّ على مقصودها ويختصّ بها، لا يقع على غيرها، لم يُسمّها معجزة ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها، فهي لا تكون آيةً وبرهاناً

حتى تكون قد خرقت العادة، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها، وهو من لوازمها، لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعمّ منه. وهؤلاء جعلوا مسمّى المعجزة وخرق العادة هو الحدّ المطابق لها طرداً وعكساً، كما أنّ بعض النّاس يجعل اسمها أنّها عجائب.

وآيات الأنبياء إذا وصفت بذلك، فينبغي أن يُقيّد بما يختصّ بها؛ فيقال: العجائب التي أتت بها الأنبياء، وخوارق العادات والمعجزات التي ظهرت على أيديهم، أو التي لا يقدر عليها البشر، أو لا يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب، كما يقدرون على السحر والكهانة، فبذلك تتميّز آياتهم عما ليس من آياتهم، وإلّا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة ونحوها.

والتعجب في اللغة يكون من أمرٍ خرج عن نظائره، وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعيّنة في نظائره، فهو أيضاً خارق للعادة. وهذا شرطٌ في آيات الأنبياء؛ ألا يكون لها نظير لغير الأنبياء ومَنْ يُصدقهم، فإذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الأنبياء، ومن شهد لهم بالنبوة، لم تكن تلك من آياتهم، بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم ومن لا يخبر بنبوتهم، كما يشترك هؤلاء وهؤلاء في الطبّ والصناعات.

وأمّا السحر والكهانة: فهو من إعانة الشياطين لبني آدم، فإنّ الكاهن تُخْبِره الجن، وكذلك الساحر إنما يُقتل ويُمرِض ويَصْعَدُ في الهواء، ونحو ذلك، بإعانة الشياطين له، فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس بإعانة الشياطين لهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَد اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النارُ مَثْوَاكُمْ خالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾[1] فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض، فاستخدم هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة، كُلّ منهم فعل للآخر ما هو غرضه؛ ليعينه على غرضِهِ. والسحر والكهانة من هذا الباب. وكذلك ما يُوجد لعباد الكفار من المشركين وأهل الكتاب، ولعباد المنافقين والملحدين من المظهرين للإسلام والمبتدعين منهم -كلّها بإعانة الجنّ والشياطين، لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه: فإذا كان القوم كفاراً لا ينكرون السحر والكهانة، كما كانت العرب وكالهند والترك والمشركين، ظهروا بهذا الوصف؛ لأن هذا معظّمٌ عند تلك الأمة. وإن كان هذا مذموماً عند أولئك، كما قد ظهر ذم هؤلاء عند أهل الملل: من المسلمين واليهود والنصارى، أظهرته الشياطين فيمن يُظهر العبادة، ولا يكون مخلصاً لله في عبادته متبعاً للأنبياء، بل يكون فيه شركٌ ونفاقٌ وبدعةٌ، فتظهر له هذه الأمور التي ظهرت للكهّان والسحرة، حتى يظنّ أولئك أنّ هذه من كرامات الصالحين، وأنّ ما هو عليه هذا الشخص من العادة هو طريق أولياء الله، وإن كان مخالفاً لطريق الأنبياء، حتى يعتقد من يعتقد أنّ لله طريقاً يسلكها إليه أولياؤه غير الإيمان بالأنبياء وتصديقهم، وقد يعتقد بعض هؤلاء أنّ في هؤلاء من

(١) الأنعام: الآية ١٢٨.

هو أفضل من الأنبياء.

وحقيقة الأمر أنّ هؤلاء عارضوا الأنبياء، كما كانت تعارضهم السحرة والكهان، كما عارضت السحرة موسى، وكما كان كثيرٌ من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهان دون النبي ﷺ ويجعلونه نظير النبيّ. وكان في العرب عدّة من هؤلاء، وكان بالمدينة منهم أبو برزة الأسلمي قبل أن يُسلم كان كاهناً، وقد قيل أنّه الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيْدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدَاً﴾[(١)] وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين.

رحم الله شيخ الاسلام وجزاه سعيه وجهاده وأتم عليه نوره وبلغه أعلى منازل الجنان، إنه يخاطب الموحدين، وهو كلام نفيس لابد أن يعيه المحتسبون في هذا الباب، أن يحذروا أن يلتبس عليهم الأمر، فها هو يفرق لهم بين الكرامة والأحوال الشيطانية، ويذكر من الآيات والأحاديث ما فيه بلاغ، ويذكر من القصص الواقعية ما يوضح الأمر على جليته، كما يفرّق بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين ما يأتي به أولياء الشيطان من عجائب، فإنّ الملاحظ في هذا الزمان كثرة تلبيس الشيطان على الناس إلا من رحم ربي وعصم، واستدراجهم من هذا الباب، فلا بد أن يدرك المحتسب ذلك ولا بد أن يتقرر عنده هذا الأمر، وأن يعتنى بما ذكره شيخ الاسلام في ذلك، وأن يكون على دراية بالقصص التي تلاعب الشيطان فيها بالعباد، وصنع لهم أعاجيب تأخذ بلب من لم يدرك حقيقة التوحيد؛ وبهذا ينجو الناس من براثن الأفاكين الذين يلبسون لباس الزهد، ويخرجون للناس بلباس الولاية، وهم أبعد الناس عن ولاية الله، فيقربون للشياطين، فيوحى إليهم بعض الأنباء، ويدل ويخبر ببعض الحوادث؛ فيضل الناس بهذا في هؤلاء، وهذا طريق قد خبره الشيطان وعلم انجذاب الناس إليه أي الغلو في الصالحين، أو من يعتقدون فيهم الصلاح، وقبول كل ما يأتوا به، خالف مراد الله الشرعي أم وافقه، فيصنع بعض العجائب بمن يدعى أنه ولى فقيه، أو أنه من آل بيت النبوة رضى الله عنهم، وإنّ أقصر طريق لديه هو أن يأتي الضلال من باب: ظاهره رحمة وتقوى وإيمان، وباطنه فيه الضلال والشرك والكفران، وإنّ الشياطين لتأمر بعض هؤلاء أن يقبلوا برهة من زمانهم على القرآن، وذلك أمر خبرته بنفسي، فهذا ساحر –ومن المعلوم أنّ كل ساحر يتكهن ولابد– هذا الرجل كان يحفظ منظومات في السحر فيها الطلاسم الكفرية، وفيها طرق عمل الأعمال السحرية، وفى برهة كان يعلن عن نفسه أنه راقٍ وكان يرقي بالقرآن، ولما سألته حين ضبط عن هذا الأمر حدثني أنّ الجن أمرته أن يظهر ذلك وأن يشيعه: أنه راقٍ، ولكن يشيع مع ذلك أنّ معه جناً صالحين هم الذين يعاونونه على إبراء الناس، وذكر أنّ مراد الجن في ذلك أولاً: أن ينخدع الناس بهذا الرجل، فهذا راقٍ صالح يقرأ القرآن. وهل في ذلك من حرج؟!

---

(١) النساء: الآية ٦٠.

الأمر الثاني الخطير: أن يتعلق الناس بأولئك الجن الذين يدعى ذلك الساحر المتكهن أنهم صالحين، فتتعلق قلوب الناس بأولئك الجن الذين يشفون الأمراض لا بالله تعالى، ولا بكتابة الذى جعل الله فيه الشفاء للقلوب والأبدان، فانظر يا رعاك الله إلى مداخل الشيطان إلى قلوب العباد، وهو كما تعلم ساعٍ في إضلال العباد سعياً حثيثاً نعوذ بالله من شره، وهذا الأمر هو أعظم الأمور والمقاصد لديه وأكبرها، فهو يريد أن يأتي الناس الكفر والشرك لا ييأس من ذلك، ولا يدركه كسل ولا كلل ولا ملل، ولا بأس أن يطرق باب البدعة فهي بريد الكفر، أو باب المعصية وهي كذلك قد تقود إلى ذلك. وهكذا كما ذكر ابن القيم -رحمه الله- في أوائل المدارج.

ولما كان الذين يعارضون آيات الأنبياء من السحرة والكهّان لا يأتون بمثل آياتهم، بل يكون بينهما شَبَهٌ كشَبه الشعر بالقرآن؛ ولهذا قالوا في النبيّ: إنّه ساحرٌ، وكاهنٌ، وشاعرٌ مجنون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيْدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدَاً﴾ فجعلوا له مثلاً لا يُماثله بل بينهما شَبَهٌ، مع وجود الفارق المبين. وهذا هو القياس الفاسد.

فلمّا كان الشعر كلاماً له فواصل ومقاطع، والقرآن آيات له فواصل ومقاطع، قالوا: شاعر. ولكن شتّان.

وكذلك الكاهن يخبر ببعض المغيّبات، ولكن يكذب كثيراً، وهو يخبر بذلك عن الشياطين، وعليه من آثارهم ما يدلّ على أنّه أفّاكٌ أثيم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون﴾ ثم قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ فذكر سبحانه الفرق بين النبيّ، وبين الكاهن والشاعر.

وكذلك الساحر، لما كان يتصرّف في العقول والنفوس بما يُغيّرها، وكان من سمع القرآن وكلام الرسول خضع له عقله ولبه، وانقادت له نفسه وقلبه، صاروا يقولون: ساحرٌ، وشتّان.

وكذلك مجنون؛ لما كان المجنون يُخالف عادات الكفار وغيرهم، لكن بما فيه فسادٌ لا صلاح، والأنبياء جاؤوا بما يُخالف عادات الكفّار، لكن بما فيه صلاحٌ لا فساد، قالوا: مجنون، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾ فتارةً يصفونه بغاية الحذق والخبرة والمعرفة، فيقولون: ساحر. وتارةً بغاية الجهل والغباوة والحمق، فيقولون: مجنون.

وقد ضلّوا في هذا وهذا؛ كما قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فهم بمنزلة السائر في الطريق وقد ضلّ عنها، يأخذ يميناً وشمالاً ولا يهتدي إلى السبيل التي تُسلك، والسبيل التي يجب سلوكها: قولُ الصدق، والعملُ بالعدل.

والكهانة والسحر يناقض النبوة؛ فإن هؤلاء تُعينهم الشياطين: تُخبرهم، وتعاونهم بتصرفات خارقة.

ومقصودهم: الكفر والفسوق والعصيان، والأنبياءُ تُعينهم الملائكة، هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب

ويعاونونهم بتصرّفات خارقة، كما كانت الملائكة تُعين النبيّ ﷺ في مغازيه مثل يوم بدر أمدّه الله بألف من الملائكة، ويوم حنين قال: ﴿وَيَومَ حُنَينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) وقال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَانْزَلَ اللهُ سَكينَته عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾(٢) وقد بيَّن سبحانه أنّ الذي جاء بالقرآن مَلَكٌ كَرِيمٌ ليس بشيطان، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِين مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنون وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المبِين وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِين وَمَا هُو بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيم فَأَيْنَ تَذْهَبُون﴾

والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن: كابن سينا وأمثاله، ظنّوا أنّ هذه الخوارق من قوى النفس، قالوا: والفرق بين النبيّ والساحر أنّ النبيّ يأمر بالخير والساحر يأمر بالشر.

وجعلوا ما يحصل للممرور من هذا الجنس؛ إذ لم يعرفوا صرع الجنّ للإنسان، وأنّ الجني يتكلم على لسان الإنسان، كما قد عرف ذلك الخاصة والعامة، وعرفه علماء الأمة وأئمتها، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وبعد ذكر بعض ما ذكره شيخ الإسلام عن الفلاسفة فيما نرى أنه يتصل بأمر الكهانة، نذكر صدق كلامه، وقد اطلعنا على بحثين مهمين في ذلك لخّصنا منهما ما ستراه هنا، وقد ذكرنا في الملاحق المراجع التي رجع إليها الباحثون لمن أراد الاستزادة، ولمن أراد أن يتناول هذا الموضوع بتوسع ليحكم عليه بحكم الكتاب والسنة وهدي السلف، وليكشف زيوف علوم الفلاسفة، ويبيّن ضلالهم وانحرافهم عن الوحي المعصوم وعن العقل الصريح. وهذان البحثان هما:

١- موقف شيشرون من الكهانة.(٣)

٢- أنواع العرافة وطرقها عند شيشرون.(٤)

---

(١) التوبة: الآية ٢٥.

(٢) الأنفال: الآية ١٢.

(٣) موقف شيشرون من الكهانة «دراسة تحليلية نقدية» أ. مصطفى رمضان مصطفى محمود. معيد بقسم الفلسفة -فلسفة يونانية -كلية الآداب -جامعة الزقازيق. مجلة الجمعية الفلسفية المصرية السنة الحادية والثلاثون -العدد الحادي والثلاثين. ١٨٣بتصرف. رجع الباحث في بحثه هذا إلى مراجع كثيرة عربية وأجنبية أثبتناها في الملاحق لمن أراد الاطلاع عليها. وشيشرون Cicero (١٠٦ ق.م-٤٣ ق.م) فيلسوف وخطيب روماني، امتاز بأسلوبه النقدي، وله مؤلفات كثيرة منها: «عن طبيعة الآلهة» و«عن القدر» و«عن العرافة أو الكهانة»

(٤) أنواع العرافة وطرقها عند شيشرون، قراءة في الكتاب الأول من محاورة عن العرافة، د. عبد العزيز إمام محمود أحمد -كلية الآداب -جامعة المنصورة. في هذا البحث يتناول الباحث الحديث عن علم العرافة أو التكهن

نلخص منهما ما يلي:

لقد اهتم أكثر فلاسفة اليونان بالتكهن أمثال: سقراط، وأفلاطون، والرواقية.

نقول: ولعل هذا يفسر ما قاله الرسول ﷺ أسجعا كسجع الجاهلية وهؤلاء جاهليون لا شك، والكشف عن تعاطي هؤلاء للكهانة أمر في غاية الأهمية والخطورة، ذلك أنّ معاهد العلم الشرعي في كثير من بلاد المسلمين تتبنى أراء الفلاسفة وترفع شأنهم وتراهم صفوة العالم، بل دخلت أفكار الفلاسفة وخلطت بأخص علوم المسلمين: كعلم الاعتقاد وعلم أصول الفقه، ويعظم هؤلاء في أقسام الفلسفة بالجامعات التي بالبلاد الإسلامية.

اختلف فلاسفة اليونان عن القدماء الذين مر ذكرهم بشأن الكهانة؛ ذلك لأنهم أرادوا تقديم أدلة دقيقة بزعمهم على صدق التنبؤ بالغيب، في حين أنّ القدماء كانوا أكثر ارتباطًا بالنتائج العملية بدلًا من الاقناع المنطقي، وقد ذكر شيشرون أمثلة للفلاسفة الذين اعتقدوا بالتكهن بالغيب، مثل: فيثاغورس الذي كان يعرف بين الناس بأنه من أهل العيافة/Augury، قلنا: وهذا رجل رياضي هندسي له نظريات هندسية تدرس ومنها نظرية فيثاغورث تتعلق بالمثلث، وسقراط، وأفلاطون ، وزينون، وكذلك ديموقريطس، في التنبؤ بأمور تقع فيما بعد، ومن المشّائين أمثال: ديكابارخوس.

التكهن عند سقراط:

اعتقد سقراط في التكهن بالغيب، كما أشار في محاورة «الدفاع» إلى حديث الكاهنة عنه بقولها: «أنه ليس هناك من هو أحكم من سقراط» فيما يختص بالأسرار الإلهية، كما أوضح أنه يجب عليه أن يجعل كلمة الإله هي العليا، وهذا يتطلب منه الاستمرار في البحث، عما تقصده النبوءة، كما أشار إلى أنّ الحكيم الحقيقي هو الإله، وأنه أراد في النبوءة التي أوحى بها أن يقول إنّ الحكمة الإنسانية قليلة القيمة، أو بغير ذات قيمة على الإطلاق إذا قورنت بالحكمة الإلهية. وفي حديث سقراط عن الشعراء ركز اهتمامه على شكل واحد من أشكال الشعراء، وهم الذين لا يكتبون شعرهم بالاعتماد على علمهم أو معرفتهم، بل وفقاً للموهبة الطبيعية، وفي حالة من الإلهام على طريقة المتنبئين الموحى إليهم والمنجمين. فهؤلاء أيضاً يقولون أشياء كثيرة جميلة، ولكنهم لا يعلمون شيئاً عما هم قائلون. وقد كان سقراط معترفاً بإيحاء الجن، فقد اعتقد بوجود ما يعرف عندهم بالأمور الدايمونية؛ إذ أنه أشار إلى وجود صوت إلهي ودايموني (جني) يظهر له، وذلك منذ أن كان طفلاً، وحينما يظهر هذا الصوت، فإنه يصرفه دائماً عن فعل شيء كان يفكر في عمله، ولكنه لم يأمره قط بعمل شيء، فهو الذي عارضه في اشتغاله بالسياسة؛ ولذلك يختتم سقراط محاورة الدفاع بأنّ الصوت الإلهي الذي كان يظهر له دائماً وبصورة متكررة؛ حتى في

بالغيب أو قراءة الطالع من خلال تحليل نص الكتاب الأول من "عن العرافة" الذي كتبه شيشرون بعد مصرع يوليوس قيصر عام ٤٤ ق. م. مع التركيز على حقيقة أنه يقدم لنا صورة لأنواع التكهن بالغيب في عصره.

الحالات البسيطة، وذلك لكي يحذره من عمل شيء على نحو غير صحيح.

كما تكهّن سقراط وهو على وشك مغادرة الحياة بمصير هؤلاء الأشخاص الذين كانوا السبب في الحكم عليه بالإعدام، بأنه سوف ينزل عليهم عقاب أقسى من ذلك العقاب الذي وقع عليه، وذلك فور أن يأتيه الموت.

وكذلك ذكر سقراط حديثه مع صديقه أقريطون عن ذلك الحلم الذي شاهده في منامه، بأن هناك امرأة جميلة حسنة الهيئة مرتدية ملابس بيضاء تقترب منه وتناديه قائلة: «يا سقراط أيام ثلاثة وإلى فيثيا الخصبة تأتي...» كما حكى سقراط أيضاً عن الحلم الذي شاهده، والذي كان يحثه على الاشتغال بالموسيقى(١) وذلك باعتبار أنّ الفلسفة هي أعلى ألوان الموسيقى، عن طريق صوت إلهي يناديه قائلاً: «يا سقراط، اشتغل بالموسيقى وأنتج فيها» وقد تحقق له هذا الحلم. وهكذا يتضح لنا اهتمام سقراط بشكل واحد من أشكال التكهّن، ألا وهو التكهن الطبيعي، الذي يكون مصدره الوحي أو الإلهام، وذلك عن طريق الأحلام، وذلك لاعتقادهم أنّ النفس تستطيع في الحلم أن تتنبأ بالمستقبل، وذلك لأنها تكون على اتصال دائم بالإله، ولكن في هذه الحالة يشترط نقاء النفس.

وكان من بين الاتهامات التي وجهت إلى سقراط أنه يقول بآلهة جديدة، ولا يعتقد أنّ الذي أخبر عنه بأنه يظهر له من وقت ينفي الآلهة القديمة، والسبب في ذلك هو ذلك الجانب الآخر، فكان حينما يتحدث بشأن أي أمر من أمور الدين، فإنه يمكنه التنبؤ بما سوف يحدث، فليس هناك شيء مما ذكره من تنبؤات لم يصدق، كما أوضح أنّ الكاهن يجب أن يعرف علامات الأشياء، التي تكون على وشك أن تأتي أو تنتهي، سواء أكانت موتاً أم مرضاً، أم فقدان الملكية، أم النصر أم الهزيمة في الحرب أم أي نوع من أنواع المبارزة.

التكهن عند أفلاطون:

ارتحل أفلاطون إلى مصر؛ لكي يدرس على يد أولئك المتنبئين الذي يفسرون إرادة الآلهة، ولكن أصابه المرض، فقام الكهنة المصريون بعلاجه بواسطة ماء البحر، فاستشهد بالبيت التالي على ما حدث له: (إن البحر يغسل جميع الشرور التي تصيب البشر) كما عرض أفلاطون للتكهّن بالغيب في محاوراته، ومنها على سبيل المثال: المأدبة، والجمهورية، وطيماوس، والقوانين، وذلك عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هدوء النفس التام، وتعطّل الفكر بالنوم أو بحالة الجذب التي تعتري الإنسان.(٢) وقد أكّد أفلاطون أهمية معرفة الأسرار الدينية؛ إذ أنه وصف غير المطلعين عليها بالحمقى، والأشد شقاء في هاديس، وحدّد مهمة الكهنة والكاهنات في أن يبذلوا جهدهم من أجل أن يكونوا

---

(١) الشياطين والموسيقى: سبق نحوه عند الحديث عن الكهانة في الجاهلية، فراجعه لتعلم عظمة الكتاب العزيز في قوله: ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾

(٢) ومصطلح الجذب موجود عند الصوفية.

قادرين على تقديم التسويغ فيما يتناولونه من أمور، فقد كان رجال السياسة في حكم دولتهم، يعتمدون على عمل المنجمين وأصحاب النبوءات، فهؤلاء المُوْحَىَ إليهم يقولون في كثير من الأحيان الحقيقة، ولكنهم لا يعلمون شيئاً عما هم قائلون. وقد مر بنا كلام شيخ الإسلام الذي بيّن فيه أنّ من الناس من يوحي إليه الشيطان، فمنهم من يعرف أنّ ذلك من الشيطان ومنهم من لا يعرف. كما أوضح أنّ العرافة هي التي يتحقق عن طريقها الصلات الطيبة بين الآلهة والبشر، فالآلهة لا تتصل بالناس اتصالاً مباشراً بل يتم الاتصال عن طريق الأرواح.

وقد أشار أفلاطون في محاورة (فيدون) إلى ملازمة الدايمون Daimon للشخص بعد موته، ذلك الذي كان قد قسم له في أثناء الحياة؛ ليقوده إلى مكان معين، يجمع فيه من ستجب محاكمتهم، ليذهبوا بعد ذلك إلى هاديس، وكان الكهنة يذهبون إلى الأغنياء، ويقنعونهم بأنّ الآلهة قد منحتهم سلطة التكفير عن الذنوب التي يرتكبها أي شخص، وذلك عن طريق القرابين والسحر والاحتفالات والطقوس، وكذلك يصفون أنفسهم بالقدرة على إلحاق الأذى بأعدائهم، سواء أكانوا عادلين أم ظالمين، مقابل أجر زهيد، مؤكدين أنّ في وسعهم بفنونهم السحرية وتعاويذهم أن يدفعوا الآلهة إلى تنفيذ إرادتهم.

كما أشار أفلاطون في محاورة (فايدروس) على لسان سقراط إلى التكهن بالغيب بقوله: «...وأظنني قد سمعت صوتاً يصدر عنها يمنعني من التقدم... وإنها لبرهان على أني عرّاف، وإن لم أكن عرافاً ماهراً، ولكنها تكفي لتنبيهي على أي الحالات» ويستكمل حديثه قائلا: «ويوجد شيء ما له قدرة على التنبؤ، وأنّ هذا الشيء هو النفس»

وقد أوضح أفلاطون أنّ أعظم النعم تأتينا عن طريق الهوس Mania حينما يكون هبة إلهية، وقد استدلّ على ذلك بعرافة دلفي، وكاهنات معبد «دودونا» فهن قد أتين خيرات لا حصر لها بفضل ما أصبن به من هوس، وكذلك أيضاً «السيبولا» وهذه الأمثلة تشير إلى فن «النبوءة» الموحى من عند الآلهة؛ إذ نجدهم قد تنبئوا لكثير من الناس وفي مناسبات كثيرة فيما يتعلق بمستقبلهم، ولم يكن الهوس شيئاً مخجلاً أو معيباً، فقد اشتق من اسمه اسماً لأجمل الفنون، ألا وهو فن التنبؤ بالغيب أو النبوءة، كما يعد الهوس شيئاً جميلاً، ولاسيما إذا كان مصدره إلهياً.

ونقول: هؤلاء هم الفلاسفة يرون في الجنون جمالاً، ويرون الجنون يصدر عنه أجمل الفنون، ويزعمون أنّ ذلك لكون الجنون إلهياً.

وقد رد شيخ الإسلام على كون المجانين يتلقون وحياً إلهياً، وذكر أنه لا يمكن أن يكون المجنون ولياً يوحي إليه رب العالمين، وهو كلام قد سبق وهو نفيس للغاية، فرحمة الله وبركاته عليه.

وقد ذهب أفلاطون إلى سمو فن النبوءة على فن العيافة؛ ذلك لأنّ الهوس الصادر عن الإله يكون أسمى من حكمة البشر، سواء أفي الاسم أم الفعل، بل يقدم الهوس والجذب لمن يصيبانه وسيلة تحميه من جميع المصائب التي تحيط به.

ويوجد نوع آخر من الجذب والهوس مصدره «ربات الشعر» الذي يصادف النفس الطاهرة فيوقظها ويلهمها بقصائد وشعر تحيي به الكثير من بطولات الأقدمين، في حين أنّ من يتجه للشعر من دون أن يكون قد مسه الهوس الصادر عن ربات الشعر؛ توهماً منه أنّ مهارته الإنسانية كافية لأن تجعل منه في آخر الأمر شاعراً، يكون مصيره الفشل.

نقول: وقد مر بنا أنّ أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أنّ مع كل شاعر شيطاناً يعينه في أمر الشعر.

وعندما تكلم أفلاطون على وجود مراتب للنفس الخيرة، ذكر منها العراف فقال: أما الخامسة فتتمثل في حياة عراف Diviner /...... أو رجل قد عكف على طقوس العبادة.

أما فيما يتعلق بالهوس الإلهي فقد قسمه أفلاطون إلى أربعة أقسام تصدر عن أربعة آلهة، فإلهام النبوءة يرجع إلى أبوللون، والكشف الصوفي إلى ديونيسيوس، وإلهام الشعر إلى ربات الشعر، والنوع الرابع يرجع إلى أفروديت، كما ذكر أنّ أول النبوءات قد صدرت عن شجرة بلوط في محراب زيوس بدودونا.

ونقول: يذهب العقل حين يذهب التوحيد، قال ربنا وما أصدقه من قول: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[1] فهذا هو تفكير الفيلسوف المعظم، إنسان يطلب من شجرة، هؤلاء الفلاسفة فضلهم غلاة المتصوفة على أنبياء الله، يرى أنّ شجرة بلوط أخبرت بالغيب، وفي هذا دعوة الفيلسوف إلى عكوف الإنسان المكرم أمام شجرة البلوط يستوحيها مستقبله، ويسألها عن أموره الغائبة.

ولقد أكّد أفلاطون أهمية معرفة الأسرار، فقد حذّر من أولئك الذين لا يعتقدون بالأسرار، ويقصد بذلك أولئك الذين لا يسلمون بالوجود إلا لما يكون مدركاً لهم، أما ما لا يقع تحت بصرهم من أفعال وأحداث فإنهم لا يعترفون بحقيقته. كما أشار أفلاطون في محاورة (الطيماوس) إلى العرافة الإلهية الصحيحة، التي لا تلازم المرء في حالة الوعي، بل في حالة النوم؛ إذ تقيد قدرة إدراكه، وعلى العاقل الواعي أن يتذكر الحلم، وأن يستعيد الخيالات التي تراءت له، وأن يحلل كل ما تشي به إليه أحلامه، وعلى أي وجه تشير إليه، ولمن تشير سواء أكان خيراً أم كان شراً مقبلاً، وكذلك عرض أفلاطون للتكهن بالغيب الذي يكون مصدره الوحي أو الإلهام في محاورة القوانين بقوله: «نوع من الألوهية تتعهدك وتلهمك بما ينبغي للمستقبل» كما أشار إلى إلهام الشعراء الذين ينشدون تحت تأثير الوحي الإلهي، ومن ثم يعدون من بين الملهمين؛ وذلك بفضل مواهبهم وبفضل آلهة الشعر التي تلهمهم، وكذلك أكّد أفلاطون رسوخ الاعتقاد بأنّ الآلهة مصدر الإلهام.

ودعا إلى التنكيل بمن يمارس الكهانة من غير أن يكون من أهلها، أو بمن يريد إلحاق الضرر بالناس من أهلها، ووصف أفلاطون ذلك الشخص برجل المراوغة الكثيرة والخداع والاحتيال، كمعظم العرافين والمشتغلين بأنواع الدجل، ومن يسمون السوفسطائيين، وأنه في حالة العثور على شخص يقوم بإلحاق

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٢.

الضرر بغيره عن طريق التعاويذ والطلاسم والرقى، أو أي فن من فنون العرافة الأخرى مهما كان أمرها، فإنه سوف يقضي عليه بالموت إذا كان كاهناً، أو ممن يشتغلون بالعرافة من دون استعمال الإلهام أو الوحي، أو يفرض عليه عقوبة أو غرامة.

التكهن عند الرواقية:

كان موقف الرواقية بشأن التكهن بالغيب، يتمثل في أنّ منهم من تولّى الدفاع عن كل أشكاله، ومن بين هؤلاء نجد زينون Zeno الذي وضع في كتاباته أساس هذا الفن، ومن بعده نجد كليانتس Cleanthes الذي سار على مسيرته نفسها، ثم ظهر بعده كريسبوس Chrysippus الذي عرض للتكهن بشكل وافٍ في كتابين من كتبه، فوضع كتاباً تناول فيه النبوءات التي يتلقاها الكهنة عن الآلهة، وخصص كتاباً آخر لدراسة الأحلام، واقتدى به تلميذه ديوجانس البابلي، فنشر أيضاً كتاباً عن التكهن، ووضع صديقه بوسيدونيوس Posidonius خمسة كتب لدراسة هذا الموضوع.

في حين أننا نجد آخرين كان لهم موقف معارض للتكهن، فعلى سبيل المثال نجد بنايتيوس Panaetius وهو أحد أقطاب المدرسة الرواقية، ومع ذلك فقد انسلخ عن مدرسته، ولكن لم يجرؤ أحد على التصريح بإنكار التكهن إنكاراً قاطعاً، بل أعلن الشك فيه فقط.

وقد دلل بوسيدونيوس على قدرة المشرفين على الموت على التنبؤ بالغيب، وذلك في قصته المعروفة التي رواها عن رجل من أهل «رودس» ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال، متنبئ بموعد مماتهم على الترتيب، كما رأى بوسيدونيوس أنّ الرؤيا التي تكون من وحي أو إلهام إلهي تأتي عن طريق ثلاث طرق:

أولها: أن تكشف النفس الأشياء بذاتها؛ لاتصالها بالآلهة.

وثانيها: النفوس الخالدة التي انطبعت فيها بوضوح الحقيقة.

وثالثها: أنّ الآلهة تتحدث بنفسها مع الناس وهم نائمون، وحينما يوشكون على الموت فإنهم يستطيعون أن يميزوا شواهد المستقبل.

وكذلك أرجع بوسيدونيوس التكهن بالغيب إلى ثلاثة مصادر: أولها الإله، وثانيها القدر، وثالثها الطبيعة.

كما أقام الرواقيون وجود التكهّن بالغيب على عملية الاستدلال العقلي، كما أوضح الرواقيون أنّ طاعة الإله تقتضي معرفة إرادته عن طريق الكهانة، وأكثر صورها هو فن التنجيم، كما أنّ كل شيء عند الرواقية يحدث بفعل القدر، وهو رأي نادى به زينون وكريسبوس في كتابه «عن القدر» وكذلك بوسيدونيوس في الجزء الثاني من كتابه «عن القدر» إذ إنهم يعرّفون القدر بأنه سلسلة من الأسباب والعلل التي توجد بها الموجودات، أو أنه المنطق الذي يسير به العالم، كما يرون أنّ الكهانة أو التنبؤ بالغيب بكل أشكالها وأساليبها حقيقة جوهرية، وكذلك أوضحت الرواقية أنه ما دام هناك عناية إلهية فلابد من أن يكون هناك سبيل للكهانة.

ونقول: إنّ العناية الإلهية تكون عن طريق الرسل، فهم يبرهنون على صحة فن الكهانة بمجموعة من المواقف صدقت فيها نبوءات العرافين، كما أشار في ذلك زينون وكريسبوس.

موقف الفيلسوف شيشرون من الكهانة:

وضع شيشرون/Cicero تعريفاً للتكهن بالغيب في الجزء الأول من كتابه «علم الغيب في العالم القديم» على لسان أخيه كوينتوس Quintus، ويقصد به سبق النظر والتنبؤ بالحوادث التي يعد وقوعها محض مصادفة. ويتمثل حوار شيشرون حول الكهانة في كتابين:

الأول: على لسان كوينتوس، الذي سار على نفس طريق الرواقية المؤيدة للكهانة.

والثاني: على لسان شيشرون، وفيه هاجم تلك الحجج السابقة المؤيدة للتكهن، وسخر منها؛ وذلك عن طريق مهاراته الخطابية، كما أنه رفض المعجزات الشهيرة مثل: الأنهار المتدفقة بالدماء بوصفها مستحيلة من الناحية المادية، وأوضح أنّ ما يسمى بالأحلام النبوئية، ما هي إلا انعكاسات لانشغالات المرء اليومية في أثناء النهار، وليست بوصفها تحذيرات حقيقية من الآلهة.

ونجد في عمل شيشرون المتعلق بالكهانة، الذي كتبه في أثناء القرن الأول قبل الميلاد، أنه عرض لوجهات نظره في تكهن «دلفي»، الذي ورد ذكره في الملاحم الأسطورية لهوميروس، يوريبيديس Euripides، والقصص التاريخية لهيرودوت Heroditus، وبلوتارخوس، وغيرهم، كما حققت آراؤه رواجاً كبيراً.

وقد أشار إلى وجود نوعين من التكهن بقوله: إن التكهن بالغيب ضربان: يعتمد أولهما على الصناعة. ويستند ثانيهم إلى الطبيعة.[١]

وفيما يتعلق بالنوع الأول من أشكال التكهن ألا وهو التكهن الصنعي، فهو يعتمد على الحدَسْ أو على الاستنباط من الحوادث التي يقوم العرافون بملاحظتها وتسجيلها، وهي تشمل النظر في فحص الأحشاء، الذي يعرف بفن العيافة، والبرق والنذر الزاجرة والظواهر السماوية.

أما فيما يتعلق بالنوع الثاني من أشكال التكهن ألا وهو التكهن الطبيعي، فهو يتمثل في: الرؤيا والوحي أو الإلهام، وذلك عن طريق الأحلام؛ لأنّ النفس الإنسانية لا يمكن أن تتكهن بالغيب تكهناً طبيعياً إلا إذا كانت في حالة من الحرية، وعدم التقيد بحيث لا تتصل بالجسد مطلقاً.

ويتمثل موقف شيشرون من الكهانة، في رفضه التام التكهن بكل أشكاله، وذلك عن طريق مناقشته خمسة أمور:

١- الجهل بحقيقة التكهن عن طريق النظر في أحشاء الحيوان.[٢]

---

١ راجع أيضا في ذلك: التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام: د. توفيق الطويل ص ٤، دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م.

(٢) تساءل شيشرون قائلا: من أين تأتي تلك العرافة؟ وكيف تتم المعرفة أو التنبؤ عن طريق النظر في أحشاء الحيوان؟ وما الملاحظات التي يمكن أن نستخلصها من سماع صوت الغراب؟ فعلى الرغم من أنه لا يعطي أي

٢- استبعد شيشرون الوحي الإلهي من مجال الرؤيا، ورأى أنّ ما يكون في النوم إنما هو انعكاس لحالة النفس وحالها في اليقظة.(١) وقد مر الحديث عن ذلك عند الحديث عن فقه الرؤى.

٣- نقد فكرة المصادفة في الكهانة، وذكر تناقض الكهان في ذلك، وذكر كلاما طويلا في ذلك يرجع للبحث الأول المذكور لمن أراد التوسع.

٤- تعارض فكرة القضاء والقدر مع التكهن، وعدم جدوى الكهانة مع ثبوت الأقدار، وقد أطنب في حديثه عن ذلك، وذكر كلاماً فيه خلط.

سنذكر بعون الله كلام شيخ الإسلام عن الإيمان بالقدر ودوره في مقاومة الكهانة والكهان مأخوذاً من مشكاة الكتاب والسنة صافيا خالصا للمؤمنين.

٥- ذكر شيشيرون أنّ الكهانة لا تجدي نفعاً في العلم ولا في الطب ولا غيرها من المجالات التي ترتبط فيها الأسباب بالمسببات، وعليه فلا حاجة لها.

ووفقاً لوجهة النظر التي ترى أنّ شيشرون بقصد تأييد نقد العرافة الذي قدمه شيشرون باسم ماركوس في الكتاب الثاني من عمله "عن العرافة" فإن نية شيشرون كانت إظهار أنّ البشارة قراءة الطالع ليست لها قيمة إلهية، وإنما تم تأسيسها فقط لصالح الدولة.

وإن كان هناك من يشكك في وجهة النظر التقليدية التي وفقاً لها يجب أن ننسب إلى شيشرون شكوكاً دينية مباشرة، على سبيل المثال، يؤكد بيرد محاورة "عن العرافة" لم يتم كتابتها كأطروحة من جانب واحد موجهة بشكل كلي ضد العرافة، وإنما قام شيشرون عن عمد بإعطاء كوينتوس حججا مؤيدة للعرافة في الكتاب الأول، وبهذا فإنه اتبع تقاليد المدرسة الأكاديمية للفلسفة التي تترك للقارئ حسم رأيه بشأن الحالة الأكثر إقناعا له، ومن المعروف أنّ اليونان كان لديهم (مجمع الكهنة) مكوناً من خمسة عشر عضواً

اهتمام لهذه الاشياء، بل سخر منها، فإنه يتساءل قائلا: كيف يفهم الفلاسفة هذه الأمو، ولاسيما العرافين غالباً ما كانوا مخطئين في تخميناتهم. ولذلك ينقد التكهن بالغيب عن طريق النظر في أحشاء الحيوان؛ لأن هذه الأحشاء إذا كانت تحمل دلالة على التنبؤ، فإن هذه الدلالة بالضرورة إما أن تكون على وفاق مع قوانين الطبيعة، وإما أن تكون إرادة الآلهة قد صاغتها على نحو ما، ولكن أي علاقة يمكن أن تقوم بين ما نجده في نظام الطبيعة الإلهي من قوانين لها قدسيتها وعظمتها، والتي تسود العالم وتنظم كل حركة فيه، وبين أحشاء الحيوان الذي يقدم قرباناً للآلهة، فلا توجد علاقة بينهما.

(١) يقول ليس هناك قوة إلهية تخلق الرؤيا، فلا شيء من هذه الرؤيا التي تتراءى في الأحلام، يصدر عن إرادة إلهية؛ لأنها لو كانت كذلك لتدخلت الآلهة لصالحنا، بحيث تمكننا الأحلام من كشف المستقبل، ولهذا يجب التسليم بأن الإله لا ينقل عن طريق الرؤيا أنباء، فإذا كان الإله يهبنا هذه الرؤيا؛ من أجل معرفتنا بالأحداث، فلماذا لا يمنحها لنا ونحن في حالة يقظة بدلا من أن يهبها لنا ونحن نائمون؟

تعليق: وهذا كلام رجل وثني فيه هذا الخلط، والرؤى -حسب اعتقاد المسلم- من الله والحلم من الشيطان، كما أنّ المسلم لا يسأل مثل سؤاله لماذا لا يمنعنا الله ذلك خلال اليقظة ويمنحنا خلال النوم؟ فالله أولا: لا يسأل عما يفعل، ثانيا: الرؤيا الصالحة للمؤمن هي وحي من ربه ولا يمكن أن يحدث له ذلك في اليقظة لأنه ليس نبيا، وقد قال ﷺ: الرؤي الصالحة جزء من ست وأربعين جزء من النبوة.

ذو مهام كهنوتية. ومن أبرز هذه المهام القيام بحراسة كتب العرافة والكتب المقدسة الأخرى التي استشاروها وفسروها بناء على طلب مجلس الشيوخ. أشرف هذا المجمع أيضا على عبادة أي آلهة أجنبية تم جلبها إلى روما. وقد كانت هذه المهام المقدسة في الأصل تؤدى من خلال رجلين من النبلاء، ثم تم زيادة عددهم إلى عشرة بواسطة قانون عام ٣٦٧ قبل الميلاد، وهو القانون الذي يتطلب أيضاً أن يكون نصف الكهنة من العامة.

وقد لعبت العرافة دورا مهما في إطار دين الدولة فمن بين طبقات الكهنة الثلاث الرئيسة، تم تكليف اثنين منهم بالإشراف على مجالات العرافة بالإضافة إلى ذلك، ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد، بدأ انتخاب العديد من الكهنوتات، بما في ذلك على الأرجح من خلال القبائل المنتخبة الذين امتد عملهم إلى التعامل مع البرق والعلامات وفحص الأحشاء، وقد تمتعت هذه الهيئات الكهنوتية بسلطة واسعة، حيث كانت القوانين تمنع أي فرد من ممارسة السلطة السياسية خارج الحدود التي وضعتها النخبة في مجلس الشيوخ، كما كان الغموض الذي أحاط بممارسة العرافة يحكم جميع التجمعات التشريعية والانتخابية، وكان من الممكن من خلاله إثارة الرعب في نفوس الناس من خلال تأويل بعض الظواهر الطبيعية مثل البرق أو الزلازل.

كما كانت العرافة وسيلة لتوفير التوجيه العملي للأفراد والجماعات، وطمأنتهم في أوقات الأزمات أو القرارات من خلال تأكيد وجود آلهتهم وإحساهم واهتمامهم بها، وهي طريقة جيدة كان يمكن من خلالها تجنب الذعر العام من خلال التشاور الخاص بالعرافة من قبل الدولة، وبالتالي استعادة الثقة في مؤسسات الدولة وإدارتها.

شيشيرون وتخبطه ومداهنته في أمر الطيرة:

تقديم (من تعليقنا): على سبيل المثال، الأهمية المختلفة التي يعطيها شيشرون للطير في خطبه الموجهة إلى الشعب كمعارض لمجلس الشيوخ، وفي نفس الوقت تتبع موقفه المتشكك في أي عنصر خاص بالتكهن بالغيب في دين الدولة في روما، وكذلك قبول تشويهه للأنشطة الخاصة بالتكهن بالغيب التي حدثت خارج دين الدولة فهي في رأيه مجرد خرافات، وقد كان من بين أعضاء النخبة، من كان متحمساً وممارساً للعديد من أشكال العرافة، حيث كانت العرافة تساعد النخبة في الحفاظ على السيطرة على الناس، كما كانت تمارسها الهيئات الدينية الرسمية لتضمن تماسك الدولة.

ويضيف شيشرون على لسان كوينتوس أنّ هناك طريقتين لممارسة العرافة، وهما الهذيان والأحلام، ويتم من خلالهما تحريك أرواح أولئك الكهنة العرافين، وقد تضمنت الأشعار التي احتوتها الكتب السيبيلية[١]

(١) هي عبارة عن مجموعة من الأقوال الشفوية المنظومة في البحر كتب العارفة السداسي اليوناني، والتي وفقا للتقاليد تم شراؤها من خارقات في العصور القديمة، كن يتمركزن في أماكن مقدسة عريقة، مثل دلفي، من

هذا النوع من التكهن المصحوب بالهذيان، ومن أجل تفسير هذه الأشعار السيبيلية فقد تم اختيار عشرة مفسرين من الدولة، وكانت الدولة تمنحهم تصريحا بالتنبؤ.

ويشير شيشرون إلى عدم جدوى الإلحاح على الاستفسار عما إذا كان نعيق الغارب الأبيض إلى اليسار، ونعيق غارب أسود آخر إلى اليمين، هو أمر إلهي صدر عن جوبيتر كبير الآلهة.

ونقول: هذا اعتقاد الوثنيين كيف يفعله مسلم؟ وكيف يترك الاستخارة النبوية والدعاء والصلاة والوسائل الشرعية، ويذهب إلى أفعال أهل الشرك والوثنية؟

ويشير شيشرون إلى نوع آخر من العرافة، ألا وهو التنبؤ عن طريق الدجاج المقدس، وذلك من خلال ملاحظة ذلك الطير وهو يقتات على اللقيمات وعندما تقع منها قطع على الأرض، يرى العرافون أنّ وقوع شيء من طعامها على الأرض هو دلائل التكهن بالفأل الحسن.

يرى هؤلاء الفلاسفة الترابط بين كثرة الأكل وقلته وبين الأحلام والكهانة الحلمية، فيرون أنه إن كانت معدته قد امتلأت بالطعام والشراب حتى أذهبت عنه الجزء الواعي من عقله فسوف يرى ما لا يراه من هو في حالة وعي أكثر منه، إذ يرى الأول أحلاما مضطربة ومشوشة ويرى نفسه غارقا في ارتكاب المحرمات.

وهنا يشير كوينتوس إلى كلمات سقراط في جمهورية أفلاطون، عن أنّ الإنسان عند نومه تكون روحه في خمول والجزء المسؤول عن التفكير في الروح يكون ضعيفا، وأنّ الجزء الذي يحتوي على قدر من الوحشية في الروح يكون بسبب هذا الإنسان الذي يملأ معدته بالكثير من الأكل والشارب؛ ولذلك فإنّ هذا الشخص يكون بلا تفكير، ويحلم كثيراً بأشياء كثيرة غير لائقة وبشعة وبها تهور ووقاحة.

من الممكن للفرد أن يحلم بها في ظل سيطرة الدافع أو الحافز الإلهي وذلك حين يقول: يفترض أنّ هناك ثلاث طرق تمكن للبشر أن يحلموا عبر تأثير الآلهة، أولا: أنّ الروح نفسها تتنبأ بنفسها وهي بالتأكيد بسبب ارتباطها بالآلهة. ثانيا: الهواء مليء بالأرواح الخالدة التي تظهر فيها علامات واضحة ومميزة للحقيقة. وثالثا: أنّ الآلهة نفسها تتحدث مع النائمين.

يظهر أنّ كوينتوس يؤيد التنبؤ عن طريق الرؤيا، ويشير إلى الأحلام عند الرومان وحالات المس (الجنون) ويوضح تأييده للتنبؤ المصطنع والطبيعي، وأنّ الطبيعة هي التي تحدد نوع التكهن بالغيب، وقد أشار إلى استبعاد التدليل العقلي من مجال التكهن بالغيب، وأنه يوجد تفسير عقلي للتنبؤ بالمس بالجن وعن طريق الرؤيا، وقدم نظرية أنتيفون في تفسير الرؤيا ووجود عناية إلهية هي التي ترعى الأفراد.

قدم كوينتوس في الكتاب الأول من (عن العرافة) الأدلة والأمثلة التي تظهر العرافة فناً منطقياً مطلوباً من

قبل تاركوينيوس سوبربوس آخر ملوك روما، وتم استشارتها والبحث فيها من قبل الكهنة عما تشير إليه النذر وذلك في الأزمات الخطيرة عبر تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية. وبقيت شذرات منها فقط، وفقدت البقية أو دمرت عمدا.

جانب الدولة ومن جانب شعوب العالم القديم قاطبة، وليس من جانب الشعب الروماني فقط، وقد ربط الرومان نشأة روما بالعرافة.

وقد أشار سيرفيوس إلى مجيء الطائر بطريقة عفوية دون تدخل من العرافين، وهو ما يتضح مما ورد عند فرجيليوس في الإنيادة حين يتحدث عن مسابقة رمي السهام التي دعي إليها آينياس وتبارى فيها أبطال ماهرون في رمي السهام، وكان آينياس قد ربط طائر حمامة في أعلى صاري السفينة وأخفق اثنان وجاء الثالث بدوره وألقى سهمه، فإذا بالحمامة التي كانت تطير حرة بعد أن تسببت رمية الثاني في فك عقدة قيدها، تقع على الأرض ومعها السهم الذي رميت به، وهنا صوب أكيستيس سهمه عالياً في الهواء مستعرضا مهارته، وهنا يظهر فجأة أمام عيونهم فأل عظيم، قدر له أن يكون ذا أهمية بالغة، ويظهر من الأبيات التالية على البيتين السابقين أن آينياس رحب بالنبوءة، وقدم الهدايا لمن كان سببا فيها أكيستيس وأخبره أن جوبيتر ملك السماء العظيم، قد شاء من أن يحظى أكيستيس بتكريم ليس له مثيل خلال هذه الدلائل.

لقد كانت منظومة العرافين هيئة دينية منظمة مهمة معروفة بخبرتها في ذلك، وقد ذكر الرومان أنّ العراف الأرجوسي كالخاس، أنبأ بعدد سنوات حرب طروادة ومدة الحصار عن طريق ملاحظة عدد العصافير. وطالب بالتضحية بإيفيجينيا، ابنة أجاممنون ملك موكيناي، ونصح بصنع الحصان الخشبي الذي استولى به الإغريق في النهاية على طروادة، وكانت قدرته تلك –زعموا– هدية من الإله أبوللون.

أما الإسبرطيون العرافون فقد اتخذوا عرافاً موظفاً في بلاط ملوكهم، كما شرعوا وجود عراف في مجلس شيوخهم، وكانوا يسمونه المستشار العام.

قال توفيق فهد: وقد كان هؤلاء يعتقدون أنّ الإله يتجلى في شكل طائر أليف كي ينصح أو يحذر أو يبلغ الإنسان بمصيره المحتوم.

عرُف التكهن بالغيب منذ العصور القديمة[(١)] وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى، وقد تعاطى الكهانة من لم يستضئ بنور الوحي، وإلا ففي الأقدمين من كان مؤمناً بالله متوكلاً عليه غير عامل بالكهانة، وفي قصص أنبياء الله ما يؤكد ذلك من قصة نوح وقصص من بعده من النبيين عليهم السلام.

ونقول: إنّ الإيمان بالغيب أمر فطري، وإنكار ما لا تدركه الحواس مكابرة وسفسطة يلوكها الملحدون، فهذه الشعوب الغابرة الوثنية، كانت تعتقد بوجود الإله وأنه يدبر الأمر وإن لم يعرفوه حق المعرفة تعالى،

(١) لخصنا ما يأتي من بحث موقف شيشرون من الكهانة «دراسة تحليلية نقدية» أ. مصطفى رمضان مصطفى محمود. معيد بقسم الفلسفة -فلسفة يونانية -كلية الآداب -جامعة الزقازيق. مجلة الجمعية الفلسفية المصرية السنة الحادية والثلاثون-العدد الحادي والثلاثين. ١٨٣بتصرف. رجع الباحث في بحثه هذا إلى مراجع كثيرة عربية وأجنبية أثبتناها في الملاحق لمن أراد الاطلاع عليها. وشيشرون Cicero (١٠٦ ق.م-٤٣ ق.م) فيلسوف وخطيب روماني، امتاز بأسلوبه النقدي وله مؤلفات كثيرة منها: «عن طبيعة الآلهة» و«عن القدر» و«عن العرافة أو الكهانة».

لكنهم يعلمون أنّ لهذا الكون خالقاً مدبراً، وأنه يعتني بخلقه ويقوم بشؤنهم، أنه يكلمهم ويدلهم على مصالحهم عن طريق تلك الكهانة، وإننا لنحمد الله أن هدانا للإيمان به وأكرمنا بتوحيده، واتباع نبيه ﷺ وأكرمنا باتباع وحيه المطهر الذي فيه الهدى والنور، أغنانا به عن ضلالات المتقدمين والمتأخرين.

وقد أغنانا الله بتوحيده ودعاءه والصلاة له والاستغفار عن الكهانة، وكانت خير بديل لمواجهة ما نخشاه كما في أمر صلاة الكسوف، ودعاء الريح والمطر، ثم الاستغاثة بالله على دفع الأخطار التي بدت نذرها، ثم ما يعصمنا من الكهانة بعد هذا قوله ﷺ: {عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله له خير}[1] وقوله ﷺ: {واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك}[2] وسيأتيك بسط هذا بعد حين.

ويرى الفلاسفة ارتباط علوم أخرى كالفلك والرياضيات بالكهانة وأثر كل منهما في الآخر، قال الباحث مصطفى رمضان في بحث موقف شيشرون من الكهانة: ولقد تطور الكثير من المعرفة حول أشكال الكهانة، فعلم الفلك على سبيل المثال مدين بعمق للبحوث الفلكية في الشرق الأدنى والهللينستية، كما طُورَّت الرياضيات وعلم الطبيعة عن طريق التكهنات الكونية الإلهية والفيثاغورية والعربية.

وهذا ذكره شيخ الإسلام عن الكتب المترجمة، وأنّ اليونان اهتموا بالفلك والرياضيات لعبادة الكواكب، وقد فصلنا ذلك في أثناء حديثنا عن احتساب التابعين في كتابنا (احتساب الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم على السحر والكهانة والتنجيم)

قال الباحث مصطفى رمضان: وقد استوحى الكثير من علماء عصر النهضة البارزين من مخططات الكهانة والقبالة والسحرة في بحثهم عن التناغم الأخلاقي واتجاه الكون.

ونقول: ياالله العجب مع تشعب طرق الضلال اتفقت في هذا الشعب المظلم، فالكهانة سلكها الوثنيون الأقدمون، كما سلكها اليهود المغضوب عليهم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، إلى أهل النهضة الحديثة الذين خرجوا على سلطان الكنيسة التي كانت ترعى الخرافة والظلم وتعين الظالمين، فسلكوا في طريق النهضة بزعمهم مسلك الكهان السابقين ونقلوا عنهم، فالحمد لله الذي نجانا من عقائد المغضوب عليهم والضالين، ونقول مع يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[3] وقد ذكر الفيلسوف كونتوس أخو شيشرون شبهة الجاهليين التي رد عليها النبي ﷺ في صدق الكهانة، وقد صاغها كونتوس أخو شيشرون بقوله: إنّ العين وحدها هي أداة الإبصار، وقد تعجز عن أداء وظيفتها أحياناً فلا يكون هذا دليلاً قاطعاً على أنها كفت وفسدت ملكة النظر، فإن

---

(١) أخرجه مسلم حديث ٢٩٩٩، وأحمد ٢٣٩٣٠.
(٢) رواه الترمذي حديث ٢٥١٦، وهو حديث حسن.
(٣) يوسف: الآية ٣٨.

أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة ثبتت قدرتها على النظر، وكذلك الحال في ملكة التكهن بالغيب.
وإذا رأينا كلام هذا الفيلسوف ورأينا حجته في صدق الكهانة، علمنا قول النبي ﷺ ألم يقل لنا في يوم كذا كذا، وعلمنا أنه وحي من الله تعالى؛ إذ كيف يذكر حجة داحضة من حجج الكهان والمصدقين لهم، وهو صدقهم في بعض الأمور، وأنّ هذه الحجة الداحضة مما أدرك الجاهليون من كلام الكفر الأول، ولله در شيخ الاسلام مُحَّد بن عبد الوهاب إذ قال في كتاب التوحيد عقب إيراد هذا الحديث: والعجب كيف استدل بالأمر الواحد على صدق الكهّان وصوابهم، ولم يستدل بالمائة على خطئه. وبذلك نرى أنّ هذه العبارة اليسيرة من كلام النبي ﷺ نسفت حجة الكهان هذه.
فتأمل هذا المنهج الغريب وهذا المنطق العجيب في تأييد الكهّان وصدق الكهانة الذي ينقضه حديث النبي ﷺ على كثرة القرون بينه ﷺ وبين هؤلاء، بل ذهب كونتوس إلى أبعد من ذلك في تأييد الكهانة حيث يرى أنه ليس شرطاً أن تقتنع بأسباب الكهانة وعللها ولكن ابحث عن نتائجها، قال كونتوس: ولهذا فإنّ أهل التكهن قد أصابوا حين أقاموا نبوءاتهم على الخوارق التي لا تبدو على اتفاق مع ما ألفناه.أ.هـ. فهو يدعو الناس إلى غض الطرف عن أسباب الكهانة فلا يبحث إنسان عن سبب اطلاع الكاهن على الغيب، وما هي وسائله في الحصول على ذلك؟ وأنى له المعرفة بهذا الذي يخبر به؟ ولا يريد من أحد أن يقف على ما في الكهانة من علل وإشكالات ونقص وأباطيل وكذب وتناقض، إنه يأمر بغض الطرف عن ذلك كله وأن ينظر فقط إلى النتائج إلى العجائب إلى الخوارق، إلى صدق بعض أخبارهم.. وإذا نظرنا في هذا الكلام وهذا المنطق علمنا حرص شيخ الاسلام على كشف كذب الكهان واعتمادهم على الشياطين، كما أننا نعلم دقة فهم هذا الرجل وعميق علمه إذ بيّن للناس أمر الخوارق والعجائب بياناً شافياً، وشرح أنّ هذه العجائب الكهانية إنما هي من معاونة الشياطين لهم، وكشف أسبابها التي مرت بك مبسوطة، وأن أسبابها الشرك والكفر والفسوق والعصيان، هذا ما يدعو كونتوس إلى غض الطرف عنه، وهو كان وثنياً لا يعنيه أمر التوحيد والبر والطاعة، أما المسلم فهو لا يبيع دينه وتوحيده بعرض من الدنيا، ولئن كان كونتوس وثنياً لا تعنيه الأسباب ما دام حصل على مقصوده، فإن المسلم لا يسلك الأسباب إلا اذا كانت مرضية عند ربه، ومن هنا قال أهل العلم: الوسائل لها حكم المقاصد. وقد جلّى هذا شيخ الاسلام، فما كل ما يحصل به نفع مادي دنيوي يكون مقبولاً مرضياً، ولا ما يكون غاية محبوبة لله ولعباده يسلك إليها العبد كل وسيلة حلت أو حرمت، بل لابد من سلوك الطريق المرضي عند الله للحصول على الغاية المحمودة دينية كانت أم دنيوية، فما يجوز في شرع مُحَّد بن عبد الله ﷺ ودينه أن يسلك الرجل إلى الصدقة المحبوبة عند الله والمحبوبة عند عباده –طريق السرقة والنهب أو بيع الميتة والخنزير أو القتل، ولا يسلك إلى الحج طريق النهب والغصب، ولا أن يقصد إلى بناء بيته كذلك على الأخذ من أموال الناس بالباطل، لكن منطق ذلك الفيلسوف الوثنيّ الغريب، هو منطق كثير من المسلمين الذين جهلوا عقيدتهم ولم يفهموا التوحيد الذى جاء به الرسول المجتبى ﷺ فمن

الناس من لا يعنيه أي سبيل سلك لمعرفة من سرق متاعه، ولا في أي طريق سار ليعلم متى يأتيه الخير، ومن العجب أنّ إعلامياً عربياً كبيراً استضاف كاهنة مشهورة، قال كلاماً قريباً من كلام الفيلسوف الوثني إذ قال: هذه فلانة ستعرض تنبؤاتها وأنا لا أقول هنا أن ما تقول صواب أو خطأ لكن أقول لقد قالت كلاماً فيما مضى ووقع، وأخبرت بأخبار وصدقت. هذه تقريباً حجة الفيلسوف الوثني، وهي حجة المسلم الجهول بعقيدته.

ولقد نهى كونتوس الناس عن البحث عن صدق الكهان، ومن أين تأتيهم الأخبار، وذلك لأن هذا قد يكون سراً من أسرار الطبيعة الخفية، ولم يشأ الله أن يطلعني على أسبابه... إلخ

ونقول: هذا هو دأب أهل الكهانة والسحر والتنجيم لا يخبرون بأسباب كهانتهم، ولا مصادر أخبارهم، ولا يعطون أدلة على صدق أقوالهم. فهم يقولون وما على الناس إلا أن يقبلوا وأن يصدقوا صاغرين مسلمين، ويكفيهم أن يعلموا أنّ هذه الكهانة سر من الأسرار وأنه ليس على الكاهن أن يبدى سبباً معقولاً أو حتى غير معقول، بل هو يقول والذى يقصده يأخذه كلامه لكأنما هو وحي يوحى، والعجيب أنّ هؤلاء المسلمين للكهان، مع مماراتهم في آيات الله وأخبار رسوله ﷺ وبحثهم عن العلل والحكم من نصوص الوحي- زعموا- لا يراجعون الكاهن في قليل ولا كثير، بل يسمعون كأن على رءوسهم الطير، ويطرقون ثم ينصرفون وكلهم يقين بما أخبرهم به الكاهن، حتى إذا نبههم منبه على كذب هؤلاء وفسادهم وشركهم صموا آذانهم لكأنما عناهم العربي الأول في قوله:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهاناً

والبرهان هو مطلب المؤمن، والدليل هو موجهه ومحركه. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ولقد ردّ شيشرون على أخيه وهاجم الكهانة، ومن العجيب أنّ شيشرون نفسه كان في لجنة العرافة اليونانية التي كانت تشكلها الدولة، وكان أساتذته من العرافيين.

وقد ذكر الدكتور توفيق الطويل تأثر الصوفية بالفلاسفة في قضية الكشف، فكان مما قاله: وعلم الغيب لا يجئ اكتساباً... مثل الكشف عند أكابر الصحابة. وقال عن الكشوف الكهانية: وفيه خروج عن الحالة الطبيعية مثل التثاؤب... وهذا لا دليل عليه. وقال رحمه الله: تناقض بين موقف الإسلام من الكهانة وبين موقف جملة من المسلمين. وقال: التأييد للتكهن الطبعي مرجعه إلى التأثر بالاتجاهات الهلينية، وأما الإنكار فمرجعه إلى الروح الدينية الإسلامية.

فعلة الإدراك الغيبي عند مفكري الإسلام مرجعه إلى ذهاب الحس وزوال حجابه.

الوحي عند فلاسفة الإسلام اتصال النفوس الناطقة بعقول الأفلاك ونفوسها اتصالاً معنوياً يمكنها من الاطلاع على ما يتضمنه من صور الحوادث التي ترتسم في النفس البشرية.. كما يحدث إذا حاذت مرآة

---

(١) البقرة: الآية ١١١.

مرآة أخرى... إلخ ، كما يقول ابن سينا في إشاراته.[1]

لا يوجد سند علمي للكهانة:

زعم البعض أن الكهانة والعلم يقومان على أساس واحد، وهذا خطأ بين فالعلم له قواعده وقوانينه التي رتّب الله فيها الأسباب على المسببات، وفي العلم يكون الرصد والملاحظة واستخلاص النتائج من سنن الله في الكون، مع توحيد الله واعتقاد المسلم أنّ الأمور كلها تجري بمقادير الله، وأنه هو الرب الخالق الرازق المدبر، أما الكهانة فهي ارتباط بالشياطين، وأخذ العلم منهم علم المتكهن بذلك أم لم يعلم.

يؤكد الفلاسفة ودارسو الفلسفة كتوفيق فهد أنّ الكهانة لها أساس علمي بل هي أساس العلم قديماً وحديثاً، وأنّ التطور في العلم كان أساسه التكهن حتى في النهضة الحديثة، جاء في بحث الجمعية الفلسفية: ومع ذلك سيكون من الخطأ تصنيف الكهانة على أنها مجرد علم طفولي أو سحر علمي زائف؛ لأنّ العلم الحديث والكهانة التقليدية كليهما يهتمان بالأهداف المتميزة خاصة، وذلك يساعد على تفسير الانبهار المستمر بالكهانة من جانب الأشخاص المتعلمين اليوم، ولاسيما فيما يتعلق بعلم التنجيم Astrology، والروحانية، أو استحضار الأرواح Necromancy، وتتضمن الكهانة التواصل مع حقائق ملزمة شخصياً، وتسعى إلى اكتشاف ما يجب أن يكون موجهاً بشكل خاص إلى الذات الشخصية.

يوجد نوع من الكهانة يعرف باسم العرافة العشبية Herbal Divination، وهو فن ممارسة الكهانة عن طريق الأعشاب، الذي يعد من أقدم طرق التكهن التي عرفها الجنس البشري، والمصطلح الأساسي لها باللغة الإنجليزية هو Botanomancy، ويقصد به «علم النبات» وهو مشتق من الكلمة اليونانية Botane، والتي تعني «العشب» وعادة ما يفسر العرافون الذين يستخدمون هذه الطريقة التي تعني النظر في أنماط الأوردة على أوراق النبات؛ لاكتساب نظرة ثاقبة للأحداث المستقبلية أو الكشف عن أشياء غير معروفة.

وهناك نوع آخر من علم النبات، يستمد البشائر أو التكهن عن طريق الرماد الناتج من حرق النباتات والأشجار؛ وعليه فإن طريقة الكهانة هذه تستمد البشائر من معدل احتراق النبات في النار، فإذا احترق ببطء أو فشل في الاحتراق تماماً؛ فإن هذا يعد فألا سيئاً، ولكن إذا احترق بسرعة، فإنه يعُدَ فألا حسناً. لقد كانت الآلهة طبقاً لتلك المعتقدات الرومانية ترسل إشارات من خلال الطير، يمكن تفسيرها ببشارة أو نذر من خلال مراقبة اتجاه حركة الطائر عند طيرانه وطبقاً لأنواع الطير. وهناك من يرى أن لم تكن معنية بالمستقبل بشكل مباشر، وإنما كانت تركز على توفير إرشادات auspicial إلى الطريقة المناسبة التي تمكن الروماني للعيش عيشة صحيحة. وعلى أية حال كانت رؤية العراف يتم القبول بها، ولا يمكن

[1] التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام: د. توفيق الطويل ص ٤، دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م.

الشك في تفسيره للنبوءة، حيث إنها تمثل رؤية الآلهة.

قال فيستوس: إنّ الطير ينبئنا تغريده أو طيرانه بنبوءات إلهية، ويبدو أن لفظ "العارف، المتنبئ" لم يكن يستخدم في الشخص الذي يتفقد الطير بالنسبة إلى الطير الحي haruspex فقط، وإنما كان يستخدم أيضا ليعبر عمن يقوم بعملية التكهن عبر فحص أحشاء تقترب في معناها من فن haruspex الطير المذبوح وكذلك الميت.

وكان عندهم تكهن بالغيب عبر استنباء الطير بمراقبة تغريده وصياحه وتحليقه في الجو. وكذلك النظر للطير في غنائه وصياحه وجهة طيرانه وتساقط الحبوب من أفواهه وهو يتناول طعامه.

وكان لهم طريقة في التكهن عن طريق الدجاج يسمى بالدجاج المقدس؛ إذ يظل هذا الدجاج حبيساً في قفص بدون طعام، ثم يصبح جائعا، وعندما يقدمون له الطعام كان الطعام يتساقط من مناقيرها أثناء تناولها له، وتصبح هذه الإشارة فألا طيبا.

وكان عندهم تفقد للحيوان رباعي الأرجل، وكذلك مراقبة مسير الزواحف وملاحظة أصواتها في مكان بعينه، وعرافة تعتمد على النذر الزاجرة، من صرير الفأر أو ضجيج يحدثه سقوط عصا في معبد يسوده السكون.

ونقول في ختام هذا الفصل الذي عرضنا فيه لتعاطي الفلاسفة للكهانة: إنّ الواجب عليك أيها المحتسب إظهار الحق وتبينه للخلق، حتى يستطيع الناس أن يميزوا الحق من الباطل، ومن ذلك كشف حال الفلاسفة هم أهل العقل والحكمة والدليل والبرهان والفكر، لكن كثيراً من هؤلاء كانت عندهم كهانة وكان منهم من تعامل بالسحر أيضاً ، كما ذكر شيخ الإسلام عن أرسطو، وكهانتهم شيطانية عرفوا ذلك أم جهلوا، ولقد استخدم الكندي حساب الجمل الكهاني اليهودي لحساب عمر بقاء الأمة، وكان سقراط يعتقد في الكهانة ويتكهن له، وكذا أفلاطون وغيرهم مما لا يتسع المقام لذكرهم وذكر كهانتهم، ولكن ذكرنا هنا نماذج فقط، ومن أراد التوسع فقد ذكرنا مراجع كثيرة في هذا الفصل، وهو فصل جدير بالإفراد بدراسة خاصة؛ لبيان جناية الفلسفة على عقائد الناس من طرق شتى، ومنها طريق الكهانة الذى لا يكاد يذكره حتى من نقد الفلسفة، ولعل شيخ الاسلام هو أكثر من بيّن ذلك وأرشد إليه وحذر الناس منه، ولعله أول من ذكر تعاطي الفلاسفة للسحر والتنجيم والكهانة.

فكل قوم وأهل حرفة وأهل زمان وأهل مكان يجعل لهم ما يناسبهم في إفساد عقائدهم وتعلقهم به، فصلّى الله على من لا ينطق عن الهوى الذي علمه شديد القوة.

ومع الأسف صار الناس يستطلعون الغيب بأمور عجيبة، ويعتقدون فيها إخبارهم بالغيب الذي يعلمه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، من ذلك من يأتي إلى وردة يتكهن بها فيقطع منها ورقة ويقول: أذهب أو تحبني، ويقطع الأخرى لا أذهب أو لا تحبني، ويرى عند قطعه آخر ورقة ما الحكم فيكون هذا ما سيقع.

ونقول إنّ هذه الأمور التي ذكرها الفلاسفة والتي سيأتي ذكرها عند الحديث عن أنواع الكهانة وصورها لا يمكن أن يضبطها ضابط، وليس لها قانون مضطرد، ولا سنة من سنن الله أجراها في كونه.

ومما يساعد على انتشار مثل هذه الأمور ما يعرض في أعمال بعض الممثلين، تحمل وردة تقول يحبني أو لا يحبني، وهذا منتشر بين المتزوجين حديثاً، ومن ذلك أن يذهب العروسان فيربطان قفلان في مكان عام وهذه مما ابتليت به أمه الإسلام في هذا الزمان، وتظهر هذه التصرفات بشدة في الأعياد الوثنية كعيد الحب الذي توزع فيه الورود الحمراء.

ولقد تحدث الفلاسفة عن المنامات وعلاقتها بالكهانة والمستقبل أيضاً دون ضابط لذلك من شرع أو عقل، وموضوع المنامات والرؤى والأحلام ثابتة في شرع الله ولها ضوابطها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والمنامات على ثلاثة أقسام: الرؤية وهي من الله، الحلم من الشيطان، والثالثة من حديث النفس.

وللأسف هذا الكلام الفلسفي الذي مضى عليه ألوف السنين يريد قوم أن تدب فيه الحياة، فيحاولون إنعاشه عبر مواقع التواصل، فالله الله في التوحيد، والله الله في صحة الإيمان وسلامة المعتقد. ألزموا رحمكم الله جادة الكتاب والسنة، وتمسكوا بالتوحيد والعقيدة النقية، وعضوا عليها بالنواجز.

ونحن بفضل الله مجاهدون محاربون لأهل البدع، مبغضون لهم في الله، وقد آلينا كشف هؤلاء الدجاجلة المتكهنين الذين يطلّون من الشاشات، ويدخلون بيوت المسلمين يرومون إفساد عقائد الناس وإهلاك دنياهم.

ونحن قد أكرمنا الله بالاحتساب على هؤلاء باليد مكلفين من السلطان، ثم الآن نحن نجاهد هؤلاء بأقلامنا وألسنتنا بعد جهادنا بأيدينا.

ونقول لكل محتسب: إن منّ الله عليك بتكليف من السلطان في ذلك فقم لله تعالى، واسع إلى كف هؤلاء المفسدين للدين والدنيا، واستعن بالله ثم بولاة أمورك على محو ذلك الشرك وجهاد هؤلاء الناشرين له، وفى هذا الخير الكثير، وقد رأينا من بركة الالتفاف حول ولاة الأمور في الاحتساب على هؤلاء ما تقر به عيون الموحدين، من القبض على هؤلاء ومن إقامة أمر الله فيهم؛ ليكون التوحيد خالصاً لله جلّ وعلا، فلله الحمد ببركة التزام الهدي النبوي في طاعة ولاة الأمور في الاحتساب على هؤلاء منع الشرك وزال خطره، وأقيمت على الكهّان والسحرة الحدود والتعزيزات، وانزجر من رأى سيف الشرع مصلتاً، نسأل الله الثبات على التوحيد، والدوام على الدعوة إلى التوحيد، والذب عن العقيدة الصحيحة، وأن يعيننا على نشر منهج النبي ﷺ ومنهج سلفه الصالحين.

المبحث الثاني

الكهانة عند اليهود والنصارى

الكهانة عند اليهود:

مارس بنو إسرائيل الكهانة، وقد بيّنت كتبهم أنهم أخذوا ذلك من الأمم الوثنية الكنعانية وغيرها، فجاءت الأنبياء والكتب تنهاهم عن ذلك.

وقد ذكر توفيق فهد أنّ كثيراً من الأوامر والنواهي عند اليهود كانت سبباً في تعاطيهم الكهانة، قال عن اليهود: فنحن نلاحظ قيام كثير من الممارسات الكهانية من خلال الأوامر والنواهي. (بتصرف) فالوحي عندهم كجواب إلهي يأتي بعد تقديم القرابين وعلى الأخص بواسطة أشجار مقدسة أو خلال (اوريم وتوميم) وهو إرث كنعاني مثبت بما يكفي في التوراة.

ويذكر ارتباط الكهانة بالتنجيم لدى اليهود فيقول: أما الكهانة التنجيمية وهي النتيجة المنطقية لعبادة الكواكب، والشائعة أيما شيوع لدى كل الساميين بدرجات متفاوتة، فقد ازدهرت إلى حد كبير في بابل، والبيانات التي وضعها الكهنة الراصدون للأفلاك والمحتوية من جهة على وصف دقيق لحركة الكواكب وألوانها، ومن جهة أخرى على تأويل للإشارات المتلقاة التي تحدد سلوك الملك ومصير الأمة، تشكل مرجعاً وثائقياً مهماً يحتاج إلى بحوث مستفيضة.

النصرانية والكهانة:

- خلط النصارى الحيل بالكهانة:

قال شيخ الإسلام: وَأَمَّا الرُّهْبَانُ فَأَحْدَثُوا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَكْرِ وَالْحِيَلِ بِالْعَامَّةِ مَا يَظْهَرُ لِكُلِّ عَاقِلٍ، حَتَّى صَنَّفَ الْفُضَلَاءُ فِي حِيَلِ الرُّهْبَانِ كُتُبًا، مِثْلَ النَّارِ الَّتِي كَانَتْ تُصْنَعُ بِقُمَامَةِ يَدْهُنُونَ خَيْطًا دَقِيقًا بسندروس وَيُلْقُونَ النَّارَ عَلَيْهِ بِسُرْعَةٍ فَتَنْزِلُ، فَيَعْتَقِدُ الْجُهَّالُ أَنَّهَا نَزَلَتْ مِنْ السَّمَاءِ وَيَأْخُذُونَهَا إلَى الْبَحْرِ، وَهِيَ صَنْعَةُ ذَلِكَ الرَّاهِبِ يَرَاهُ النَّاسُ عِيَانًا، وَقَدْ اعْتَرَفَ هُوَ وَغَيْرُهُ أَنَّهُمْ يَصْنَعُونَهَا، وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِشَيْءٍ لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ يَظُنُّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ مَا يُنْقَلُ عَنْ الْمَسِيحِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْمُعْجِزَاتِ مِنْ جِنْسِ النَّارِ الْمَصْنُوعَةِ، وَكَذَلِكَ حِيَلُهُمْ فِي تَعْلِيقِ الصَّلِيبِ وَفِي بُكَاءِ التَّمَاثِيلِ الَّتِي يُصَوِّرُونَهَا عَلَى صُورَةِ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ وَغَيْرِهِمَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، كُلُّ ذَلِكَ يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ إفْكٌ مُفْتَرًى، وَأَنَّ جَمِيعَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَصَالِحِي عِبَادِهِ بُرَآءُ مِنْ كُلِّ زُورٍ وَبَاطِلٍ وَإِفْكٍ كَبَرَاءَتِهِمْ مِنْ سِحْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ.[١]

---

[١] مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٤٤٠)

وجاء في كتاب (المذاهب الحديثة المنحرفة) [1] ما يلي:
جاء في دائرة المعارف الكتابية: العرافة هي محاولة استطلاع المستقبل ومعرفة الغيب بوسائل متنوعة بعيدًا عن إعلان الله.
وارتبطت العرافة كثيرًا بعبادة الأصنام، جاء في (دائرة معارف إنجلترا) مجلد ٤ تحت مادة الشياطين Devils" كانت الشياطين هم الوسطاء بين البشر والأصنام التي يعبدها الوثنيون، فكانوا ينقلون عن طريق العرافين والكهان رغبات البشر إلى هذه الأصنام، كما كانوا ينقلون أوامر هذه الأخيرة إلى المتعبدين لها من البشر"
وقد شاعت العرافة منذ القديم في بلاد الشرق حتى أنّ الناس بل الملوك كانوا يتصرفون بناء على ما يقوله العرافون أو العرافات، وبذلك صار لهؤلاء العرافين المقدرة في التحكم في مصائر الشعوب، وقد حذّر الله شعبه منذ القديم من العرافة فقال: "متى دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم. لا يوجد منك... من يعرف عرافة... لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب... وبسبب هذه الأرجاس الرب إلهك طاردهم من أمامك" (تث ١٨: ٩ – ١٢) وقال الله على فم أشعياء النبي: "هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن: أنا الرب صانع كل شيء ناشر السماوات وحدي باسط الأرض. مَن معي. مبطِّل آيات المخادعين ومحمّق العرافين" (أش ٤٤: ٢٥، ٢٦) وكان كلام الرب لأرميا النبي: "فقال الرب لي بالكذب تنبأ الأنبياء باسمي. لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم. رؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبئون لكم" (أر ١٤: ١٠) كما قال الرب أيضًا على لسان أرميا: "فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرَّافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم" (أر ٢٧: ٩) وجاء في سفر زكريا: "لأن الترافيم قد تكلموا بالباطل والعرافون رأوا الكذب وأخبروا بأحلام كذب" (زك ١٠: ٢)
فالروح الشرير هو الذي يخبر العرَّاف بما لا يعلم، ولذلك عندما أخرج بولس الرسول روح العرافة من جارية فيلبي فقدت المعرفة فضجر بولس والتفت إلى الروح وقال: أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها. فخرج في تلك الساعة" (أع ١٦: ١٨، ١٩)
ويرى ذلك الكاتب النصراني أنّ الكهانة لا تشمل المستقبل، فهو يقول: فالعرافة هي محاولة معرفة الغيب، والحقيقة أنّ الشيطان يعرف الماضي والحاضر فقط، ولكن ما يُعتبَر حاضر في مكان يُعتبَر مستقبلًا في مكان آخر، فمثلًا لو أنّ لك صديق في أمريكا كتب لك خطابًا فإنّ الشيطان يعرف هذا ويعرف ما بداخل الخطاب بينما أنت لا تعلم شيئاً، فالعرَّاف يمكنه أن يخبرك بأنه في الطريق إليك خطاب من صديقك فلان وبه معلومات كذا وكذا، وإن كان الآن أمام ثورة الاتصالات أصبح العالم كله مثل قرية صغيرة، أما بالنسبة للمستقبل الذي لم يحدث بعد فهو في علم الله وحده، والشيطان لا يعلم

[1] المذاهب الحديثة المنحرفة: أ. حلمي القمص يعقوب. موقع الأنبا تكلا.

عنه شيئًا، وإن كان يحاول عن طريق الفراسة وخبرة آلاف السنين أن يتوقع سير الأمور، ويتكهّن بالمستقبل، وفي هذا قد يصيب وقد يخيب.

نقول: هذا نصراني لكن بين طرق الكهانة ماضياً ومستقبلاً وحاضراً وهذا الرجل ما عنده علم النبي ﷺ.

ومن طرق العِرَافة ما يلي:

هزّ السهام – استشارة الترافيم – نحر الذبائح – التنجيم – ضرب المندل – قراءة الطالع.

١. هزّ السهام: حيث يُكتب على كل سهم اسم، وتعاد السهام إلى الجعبة وتهز جيدًا، ثم يُسحَب أحدها، فالاسم المدوّن على السهم المسحوب يُعتبر هو الإختيار الأفضل، وقد يختارون ثلاثة أسهم يكتبون على الأول "أمرني الرب" وعلى الثاني "نهاني الرب" ويتركون الثالث بلا كتابة، ثم يضعونها في خريطة ويسحبون منها واحدًا، فإن خرج السهم المكتوب عليه "أمرني الرب" يتمّمون العمل، وإذا خرج السهم "نهاني الرب" يحجمون عن العمل، وإذا خرج السهم الثالث يعيدون الكَرة، وقد يطلقون السهام أو العصي في الهواء، ومن كيفية واتجاه ومكان سقوطها يحددون الأمور المختلطة عليهم. (راجع دائرة المعارف الكتابية جـ ٥ ص ٢٤٢)

وقال الكتاب عن نبوخذ نصر: "لأن ملك بابل قد وقف على أم الطريق على رأس الطريقين ليعرف عرافة. صقل السهام سأل بالترافيم نظر إلى الكبد. عن يمينه كانت العرافة على أورشليم لوضع المجانق لفتح الفم في القتل ولرفع الصوت بالهتاف لوضع المجانق على الأبواب لإقامة مترسة لبناء برج. وتكون مثل عرافة كاذبة " (حز ٢١: ٢١ – ٢٣) فعندما وصل نبوخذ نصر إلى مُفترق طريقين هزَّ السهام ليعرف إلى أي طريق يتجه؟ هل للجنوب نحو أورشليم أم للشمال نحو بني عمون؟ وأحيانًا كان القائد يكتب أسماء المدن على السهام، ويضع هذه السهام في الجعبة ويرجُّها فأول سهم يسقط يُحدّد المدينة التي سيهاجمها أولًا.

٢. استشارة الترافيم: والترافيم هي التماثيل الصغيرة للأوثان وأصنام الآلهة الصغيرة التي كانت تُوضع في المنازل لاستشارتها، مثل الترافيم التي سرقتها راحيل ابنة لابان وزوجة يعقوب من أبيها، وكانت راحيل قد أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها. (تك ٣٤:٣١)

تعليق: وأما هذا الكلام فلا نرد عليه بكلام إنما نرد عليه بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]

٣. نحر الذبائح: والنظر بنظرات فاحصة في خطوط الكبد وتفسير هذه الخطوط.

٤. التنجيم: وهي تتبع حركة النجوم والكواكب وتفسير حركاتها كمحاولة لمعرفة الأمور المستقبلية

(١) البقرة: الآية ١٣٣.

بالنسبة لبعض الأشخاص أو بعض الدول، وقد عُرف التنجيم منذ القديم لدى البابليين واليونانيين والرومان، (وقد نهى الله عن التنجيم) فقال عن بابل: "قد ضعفتِ من كثرة مشورتكِ. ليقف قاسمو السماء الراصدون النجوم المعرّفون عند رؤوس الشهور ويخلصوك مما يأتي عليكِ" (أش ٤٧:١٣) ونشط التنجيم في العصور الوسطى، وخلط الناس بين التنجيم وعلم الفلك حتى منتصف القرن الثامن عشر، ثم تم الفصل بينهما، ونشط التنجيم أيضًا في القرن العشرين خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكان هتلر يلجأ إلى التنجيم كمحاولة للتنبؤ عما ستسفر عنه المعارك الحربية التي يخوض غمارها، وفي سنة ١٩٧٢م كان يوجد نحو ١٧٠ جريدة ومجلة تقدم تنبؤات يومية للأشخاص عن طريق التنجيم.

ونقول: إذا فسدت العقيدة فسدت كل شيء، فهذا فرعون يحكم مصر ويبحث عن السحرة، وهذا هتلر يغزو العالم ويحارب الدول وله قوة في جيشه وعسكره ويستخدم الكهانة والتنجيم، ومن قبل هتلر التتر اجتاحوا العالم يقتلون ويسلبون، ولا يتحركون ولا ينطلقون إلا باستشارة كهانهم الذين يرافقونهم في حروبهم.

٥. ضرب المندل: وهو من ضمن محاولات العرافة لمعرفة بعض الأمور بالاستعانة بالشياطين، فيتمتم الذي يضرب المندل بالعزائم لمدة طويلة، وأحيانًا يكرر كلمة واحدة أو جملة واحدة قصيرة ألف مرة، وإذا لم يحضر الخادم (الشيطان) يشك الإنسان أنه قد أخطأ العد، فيعد ألف ثانية من جديد، وهلم جرا... وقد يقوم الشخص الذي يضرب المندل بالوضوء باللبن والجلوس القرفصاء وتحت قدميه رغيفي خبز، وهي محاولة شيطانية يقصد بها الشيطان إهانة نعمة الله الممنوحة لنا في صورة اللبن والخبز، وقد يضع الذي يضرب المندل زيتًا في طبق مسطح، ويجعل طفلًا ينظر في الطبق، وهو يتلو عزائمه، فإذا لاحظ الطفل خيالًا في الطبق يقرئه السلام فيجيبه الروح النجس، ويتم تبادل الحديث عن طريق هذا الطفل، ومن المعروف أنّ الشيطان كذّاب وأبو الكذاب يُدعى، فقد يسأله الطفل عن مكان الكنز المخفي (اللقيَّة) فيخبره مثلًا أنه ملاصق للجدار البحري، فيظل الناس يحفرون حتى يسقط الجدار ويتهدم المنزل، ومع ذلك فإنهم يشكون أنهم لم يصلوا للعمق المطلوب، لأنّ ثقتهم في الشيطان فاقت ثقتهم في أنفسهم.
وقد يملأ الذي يضرب المندل إناء (قلة فخارية) بالماء، ويحمله أحد الأشخاص على كفه وهو جالس القرفصاء، فإذا شعر أنّ الإناء يميل إلى اتجاه معين يظل يسير معه حتى يستقر الإنسان في مكان معين، فيظنون أنّ الكنز مخفي في هذا المكان، فيظلوا يحفرون ويحفرون وغالبًا لا يجدون كنزًا ولا غيره، لأنّ الشيطان كذاب وأبو الكذاب يُدعى. وإذا نجح الذي يضرب المندل في الاتصال بالروح النجس، فقد يسأله: هل فلان معمول له عمل؟ وأين هذا العمل؟ فربما يرشده الشيطان إلى مقبرة مغلقة فيذهبون إليها ويفتحونها، وربما يجدون ورقة عليها شخبطة وأشكال

هندسية من مثلثات ومربعات، ولا يدرك الإنسان المسكين أنّ الشيطان هو الذي قد خبّأ هذه الورقة في هذا المكان أثناء دفن أحد الموتى، فيثق في أقواله الكاذبة.

٦. قراءة الطالع: ويدعي معظم القائمون بهذا العمل أنهم أناس أتقياء يصومون ويصلون ويستخدمون كلمات الإنجيل ولاسيما سفر المزامير، ويشترطون التواجد في مكان طاهر، ويستخدمون مواد طاهرة مثل الزعفران والعنبر والمسك وماء الورد والبخور، في محاولة للتنبؤ عن مستقبل الشخص، وقد يلجأ الإنسان إلى هذه الوسيلة كنوع من التسلية والتسامر.

ويدخل في إطار قراءة الطالع قراءة الكف، وقراءة الفنجان، ووشوشة الودع، وفتح أوراق الكوتشينة، وهذه الأمور غالبًا ما تعتمد على ذكاء الإنسان القائم بها، فيتفرس في الشخص الذي يريد معرفة حظه ومستقبله، ويحاول قراءته من الخارج ويعرف أعماقه، ثم يخبره بأمور عامة يمكن أن تحدث لأي إنسان، وذلك من خلال أسلوب عام يحمل أكثر من معنى، ولا يخلو هذا الأسلوب من الإيحاء لإمكانية التأثير على المستمع حتى يُصدق ما يقال له.

وأيضًا وبالإضافة إلى العرافة، فإن هناك العيافة والتفاؤل وجاء تحذير الله لشعبه: "لا تتفاءلوا ولا تَعيفوا" (لا ١٩:٢٦) وقال بلعام: "أنه ليس عيافة على يعقوب ولا عرافة في إسرائيل" (عد 23: 23) وأمر الله شعبه: "لا يوجد فيك... لا عائف ولا متفائل ولا ساحر" (تث 18: 10) وقد أوضح أشعياء النبي سبب رفض الله لشعبه: "فإنك رفضت شعبك بيت يعقوب لأنهم امتلأوا من المشرق وهم عائفون كالفلسطينيين" (أش 6: 2) ووعد الله شعبه قائلًا: "ويكون في ذلك اليوم يقول الرب... اقطع السحر من يدك ولا يكون لك عائفون" (مي ٥: ١٠ – ١٢)

وقد يتفاءل الإنسان بشخص معين أو شيء معين أو عند سماع كلام مريح، فقد تفاءل لابان بيعقوب وقال له: "ليتني أجد نعمة في عينيك. قد تفاءلت فباركني الرب بسببك" (تك ١٧:٣٠) وقال المصري القائم على بيت يوسف لأخوة يوسف: "لماذا جازيتم شرًا عوضًا عن خير. أليس هذا هو (الطاس الفضي) الذي يشرب سيدي فيه. وهو يتفاءل به" (تك ٤٤: ٤، ٥) ومن أمثلة التفاؤل في مجتمعنا المصري من يعلق حدوة حصان أو بعض سنابل القمح أو خمسة وخميسة على باب منزله، أو من يسر عندما يتحرك حجاب العين اليمنى (يرف) في حركة عفوية لا إرادية، وقد يختار البعض أسماء شاذة لأولادهم لكيما يعيشوا فيسمونهم مثلًا "الشحات" و"الغلبان" و"الديب" و"الضبع" و"كليب".. إلخ وقد يتشاءم البعض من كسر المرآة أو سكب الملح على المائدة، وقد يتشاءم البعض من يوم الجمعة ويقولون أن به ساعة نحس.

تعليق: عَن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَقَالَ: فِيه سَاعَةٌ لا يُوَافِقها عَبْدٌ مُسلِمٌ، وَهُو

قَائِمٌ يُصَلِّي يسأَلُ اللَّه شَيْئًا، إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاه وَأَشَارَ بِيدِهِ يُقَلِّلُهَا، متفقٌ عليه.

والبعض يتشاءم من يوم الأربعاء. في يوم الأربعاء حديث موضوع وثبت في الصحيح أنّ يوم الأربعاء فيه ساعة مستجابة بين العصر والظهر.

وقد يمنع البعض دخول الزوج وهو حليق الذقن أو يحمل بعض الأشياء مثل اللحوم أو الذهب أو الباذنجان إلى حجرة زوجته التي وضعت طفلًا، وقد يتشاءم البعض من حركة العين اليسرى الغير إرادية، أو كسر كوب أو طبق أو لمبة كهربائية في حضور شخص غير مرغوب فيه إلى المنزل، ويعتبرون هذا نوع من الحسد، ويقولون "عين الحسود تفلق الحجر"

ومن أمثلة الخرافات المنتشرة في الريف المصري ما يلي:

- الشخص الخارج للسفر بعد خروجه من الباب يعود ويشرب ماء لضمان عودته سالماً.
- تقديم اللبن للعروس على باب شقة العريس.
- الذي يقرص العريس في ركبته ليلة زفافه يلحق به.
- الفتاة التي تلحس ضفدعة تستطيع أن تزغرد.
- رش الملح في زفة العروس، أو في أسبوع المولود يمنع الحسد، وكذلك تعليق الخرز الملون في ملابس الطفل.
- المقص المفتوح يجلب النكد، وكنس البيت ليلًا يكنس الرزق من البيت.
- أما وضع المقص تحت المخدة فإنه يمنع الكوابيس.
- المرأة العاقر إذا تدحرجت من تل، أو استحمت وكسرت الزير فإنها تنجب.
- تحديق الفتاة في المرآة ليلًا يعطل زواجها.
- من يأكل سمكًا ويشرب لبنًا يوم الأربعاء يتعرض للجنون.
- التوائم لهم أرواح قطط تتركهم في نومهم وتتجول ليلًا في شكل قطط.
- الذي يموت بعده طفل صغير لا يُحاسب، ورش المياه خلف الميت يمنع موت آخر.

ونحن إذ ننقل هذا الكلام من رجل لا ينسب للإسلام، إنما ننقله ليرى المحتسب أنّ هذا البلاء الذي ابتليت به الأمة في هذا الزمان، قد انتشر في كل العصور وفي كل الأديان وبالذات في هذا الزمان، والذي يتصدر وسائل الإعلام هذه الأيام كهنة من النصارى يصدقهم أبناء الإسلام، ويتناقلون مقاطعهم ويحذر بعضهم بعضاً من الكوارث التي تقع في غابر الزمان، فلا مخرج ولا نجاة للأمة إلا بالتوحيد، ولذلك الله جعل أعظم الجزاء وأكبره على التوحيد، فبه يدخل العبد الجنة وينجو من النار ويغفر الله لمن جاءه به، قال ﷺ: {قال اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَنِي ورَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لكَ على ما كان فيكَ ولا أُبالِي. يا ابنَ آدمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لكَ ولا أُبالِي. يا ابنَ آدمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرضِ خطَايا ثُمَّ لَقِيْتَنِي لا تشرك بِيْ شَيْئًا لأتيْتُكَ بِقِرَابِها مَغْفِرَةً} وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ

بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[1] فالله الله في دعوة التوحيد، فالله الله في ربط الناس بالحميد المجيد، الله الله تبذل روحك من أجل الله وتوحيده والقيام بحقه، فإنّ أعظم ما تقضي فيه الأعمار وتفنى فيه الأموال توحيد الجبار ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

(١) المائدة: الآية ٧٢.
(٢) الأنعام: الآية ١٦٢.

المبحث الثالث

الرافضة والكهانة

تعاطى الرافضة الكهانة، وكثير مما يعظ به مراجعهم يقوم على التكهن وادعاء علم الغيب، والرافضة توسعوا في أمر الكهانة لتوسعهم في اعتقاد اطلاع أئمتهم على الغيوب، وفي هذا المبحث إشارة إلى الكهانة عند الرافضة وحديث شيخ الإسلام عنهم.

قال شيخ الإسلام(١): وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: أَنَّك تَجِدُ عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَالْمُتَشَيِّعَةِ وَمَنْ أَخَذَ عَنْهُمْ مِنْ دَعْوَى عُلُومِ الْأَسْرَارِ وَالْحَقَائِقِ الَّتِي يَدَّعُونَ أَخْذَهَا عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ: إمَّا مِنْ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَإِمَّا مِنْ عِلْمِ الْحَوَادِثِ الْكَائِنَةِ، مَا هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَجَلِّ الْأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ التَّوَاصِي بِكِتْمَانِهَا، وَالْإِيمَانِ بِمَا لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ مِنْ ذَلِكَ. وَجَمِيعُهَا كَذِبٌ مُخْتَلَقٌ وَإِفْكٌ مُفْتَرَى، فَإِنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ "الرَّافِضَةَ" مِنْ أَكْثَرِ الطَّوَائِفِ كَذِبًا وَادِّعَاءً لِلْعِلْمِ الْمَكْتُومِ؛ وَلِهَذَا انْتَسَبَتْ إلَيْهِمْ الْبَاطِنِيَّةُ وَالْقَرَامِطَةُ، وَهَؤُلَاءِ خَرَجَ أَوَّلُهُمْ فِي زَمَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَصَارُوا يَدَّعُونَ أَنَّهُ خُصَّ بِأَسْرَارِ مِنْ الْعُلُومِ وَالْوَصِيَّةِ، حَتَّى كَانَ يَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ خَوَاصُّ أَصْحَابِهِ فَيُخْبِرُهُمْ بِانْتِفَاءِ ذَلِكَ، وَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ قِيلَ كَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ وَيَنْفِي ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ خَرَّجَ أَصْحَابُ الصَّحِيحِ كَلَامَ عَلِيٍّ هَذَا مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ مِثْلُ مَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي جحيفة، قَالَ: "سَأَلْت عَلِيًّا هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا عِنْدَنَا إلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ إلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ الرَّجُلَ فِي كِتَابِهِ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْت: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ وَفِكَاكُ الْأَسِيرِ وَأَنَّ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرِ" وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ: "هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنْ الْوَحْيِ غَيْرُ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ" وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ إبْرَاهِيمَ التيمي عَنْ أَبِيهِ -وَهَذَا مِنْ أَصَحِّ إسْنَادٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْض - عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: "مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إلَّا كِتَابُ اللَّهِ وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إلَى ثَوْرٍ" وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمِ: "خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ إلَّا كِتَابَ اللَّهِ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قَالَ: وَصَحِيفَتُهُ مُعَلَّقَةٌ فِي قِرَابِ سَيْفِهِ، فَقَدْ كَذَبَ فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ وَأَشْيَاءُ مِنْ الْجِرَاحَاتِ وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {الْمَدِينَةُ حَرَامٌ} الْحَدِيثَ(٢). وَأَمَّا الْكَذِبُ وَالْأَسْرَارُ الَّتِي يَدْعُونَهَا عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ.

وجعفر الصادق من علماء أهل السنة وأئمتهم، وأهل السنة أولى به من كل رافضي دعي كذّاب، إنه من خيار أهل البيت كيف يتصور عاقل أن يعمل بالكهانة، ويترك طريق جده اللاحب وصراط ربه المستقيم؛ ليسلك سبل الشياطين بالكهانة والتأليف فيها.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣٠٥)

(٢) البخاري حديث ٦٩١٥، ومسلم ١٣٧٠.

فَمِنْ أَكْبَرِ الْأَشْيَاءِ كَذِبًا حَتَّى يُقَالَ: مَا كُذِبَ عَلَى أَحَدٍ مَا كُذِبَ عَلَى جَعْفَرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَمِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُضَافَةِ كِتَابُ "الْجَفْر" الَّذِي يَدَّعُونَ أَنَّهُ كَتَبَ فِيهِ الْحَوَادِثَ، وَالْجَفْرُ: وَلَدُ الْمَاعِزِ. يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ فِي جِلْدِهِ، وَكَذَلِكَ كِتَابُ "الْبِطَاقَةِ" الَّذِي يَدَّعِيهِ ابْنُ الحلي وَنَحْوُهُ مِنْ الْمَغَارِبَةِ وَمِثْلُ كِتَابِ: "الْجَدْوَلِ" فِي الْهِلَالِ وَ "الْهَفْتِ" عَنْ جَعْفَرٍ وَكَثِيرٍ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ. وَمِثْلُ كِتَابِ "رَسَائِلِ إخْوَانِ الصَّفَا" الَّذِي صَنَّفَهُ جَمَاعَةٌ فِي دَوْلَةِ بَنِي بويه بِبَغْدَادَ، وَكَانُوا مِنْ الصَّابِئَةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ الْمُتَحَنِّفَةِ جَمَعُوا بِزَعْمِهِمْ بَيْنَ دِينِ الصَّابِئَةِ الْمُبَدِّلِينَ وَبَيْنَ الْحَنِيفِيَّةِ، وَأَتَوْا بِكَلَامِ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَبِأَشْيَاءَ مِنْ الشَّرِيعَةِ وَفِيهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ النَّاسِ مِنْ بَعْضِ أَكَابِرِ قُضَاةِ النَّوَاحِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ، وَهَذَا قَوْلُ زِنْدِيقٍ وَتَشْنِيعُ جَاهِلٍ، وَمِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ بَعْضُ الْعَامَّةِ مِنْ مَلَاحِمِ "ابْنِ غنضب" وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ مُعَلِّمًا لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْوُجُودِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَمَلَاحِمِ "ابْنِ غنضب" إنَّمَا صَنَّفَهَا بَعْضُ الْجُهَّالِ فِي دَوْلَةِ نُورِ الدِّينِ وَنَحْوِهَا، وَهُوَ شِعْرٌ فَاسِدٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَاظِمَهُ جَاهِلٌ، وَكَذَلِكَ عَامَّةُ هَذِهِ الْمَلَاحِمِ الْمَرْوِيَّةِ بِالنَّظْمِ وَنَحْوِهِ، عَامَّتُهَا مِنْ الْأَكَاذِيبِ وَقَدْ أُحْدِثَ فِي زَمَانِنَا مِنْ الْقُضَاةِ وَالْمَشَايِخِ غَيْرُ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَقَدْ قَرَّرْت بَعْضَ هَؤُلَاءِ عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ ادَّعَى قِدَمَهَا، وَقُلْت لَهُ: بَلْ أَنْتَ صَنَّفْتهَا وَلَبَّسْتهَا عَلَى بَعْضِ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُحَاصِرِي عَكَّةَ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنْ الْقُضَاةِ وَغَيْرِهِمْ لَبَّسُوا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْمَلِكِ.

وَبَابُ الْكَذِبِ فِي الْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لِأَنَّ تَشَوُّفَ الَّذِينَ يُغَلِّبُونَ الدُّنْيَا عَلَى الدِّينِ إلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ، وَإِنْ كَانَ لِأَهْلِ الدِّينِ إلَى ذَلِكَ تَشَوُّفٌ لَكِنَّ تَشَوُّفَهُمْ إلَى الدِّينِ أَقْوَى، وَأُولَئِكَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ الْفُرْقَانِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مِنْ النُّورِ مَا لِأَهْلِ الدِّينِ؛ فَلِهَذَا كَثُرَ الْكَذَّابُونَ فِي ذَلِكَ وَنَفَقَ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأُكِلَتْ بِهِ أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ بِالْبَاطِلِ، وَقُتِلَتْ بِهِ نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ مِنْ الْمُتَشَوِّفَةِ إلَى الْمُلْكِ وَنَحْوِهَا. وَلِهَذَا يُنَوِّعُونَ طُرُقَ الْكَذِبِ فِي ذَلِكَ وَيَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ فِيهِ: تَارَةً بِالْإِحَالَةِ عَلَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْكَالِ الْجُسْمَانِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالشُّهُبِ وَالرُّعُودِ وَالْبُرُوقِ وَالرِّيَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَتَارَةً بِمَا يُحْدِثُونَهُ هُمْ مِنْ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْكَالِ: كَالضَّرْبِ بِالرَّمْلِ وَالْحَصَا وَالشَّعِيرِ وَالْقُرْعَةِ بِالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ جِنْسِ الِاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ، فَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ عِلْمَ الْحَوَادِثِ بِمَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا الِاسْتِقْسَامِ بِهَا سَوَاءٌ كَانَتْ قِدَاحًا أَوْ حَصًى أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّفْسِيرِ. فَكُلُّ مَا يُحْدِثُهُ الْإِنْسَانُ بِحَرَكَةٍ مِنْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْ الْأَجْسَامِ لِيَسْتَخْرِجَ بِهِ عِلْمَ مَا يَسْتَقْبِلُهُ فَهُوَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، بِخِلَافِ الْفَأْلِ الشَّرْعِيِّ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُعْجِبُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ أَنْ يَخْرُجَ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللهِ فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ: {وَكَانَ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ}(١) لِأَنَّ الْفَأْلَ تَقْوِيَةٌ لِمَا فَعَلَهُ بِإِذْنِ اللهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالطِّيَرَةُ مُعَارِضَةٌ لِذَلِكَ، فَيُكْرَهُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَطَيَّرَ وَإِنَّمَا تَضُرُّ الطِّيَرَةُ مَنْ تَطَيَّرَ لِأَنَّهُ أَضَرَّ نَفْسَهُ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه حديث ٢٨٦٤.

قال شيخ الإسلام[1]: وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي "حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ" عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمَأْثُورَةِ مَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ أَنَّهُ كَذِبٌ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ جَعْفَرًا كَذَبَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكْذِبْ عَلَى أَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مَا مَيَّزَهُ اللَّهُ بِهِ، وَكَانَ هُوَ وَأَبُوهُ (أَبُو جَعْفَرٍ) وَجَدُّهُ (عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ) مِنْ أَعْيَانِ الْأَئِمَّةِ عِلْمًا وَدِينًا، وَلَمْ يَجِئْ بَعْدَ جَعْفَرٍ مِثْلُهُ وَفِي أَهْلِ الْبَيْتِ، فَصَارَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ وَالْبِدَعِ يَنْسُبُ مَقَالَتَهُ إلَيْهِ حَتَّى أَصْحَابِ "رَسَائِلِ إخْوَانِ الصَّفَا" يَنْسُبُونَهَا إلَيْهِ، وَهَذِهِ الرَّسَائِلُ صُنِّفَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ سَنَةٍ، صُنِّفَتْ عِنْدَ ظُهُورِ مَذْهَبِ الإسماعيلية العبيديين الَّذِينَ بَنَوْا الْقَاهِرَةَ، وَصُنِّفَتْ عَلَى مَذْهَبِهِمْ الَّذِي رَكَّبُوهُ مِنْ قَوْلِ الْفَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ، وَمَجُوسِ الْفُرْسِ، وَالشِّيعَةِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إنَّ ظَاهِرَ مَذْهَبِهِمْ الرَّفْضُ وَبَاطِنَهُ الْكُفْرُ الْمَحْضُ. وَنَسَبُوا إلَى جَعْفَرٍ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي تَقَدُّمِ الْمَعْرِفَةِ عَنْ حَوَادِثِ الْكَوْنِ، مِثْلَ اخْتِلَاجِ الْأَعْضَاءِ وَالرُّعُودِ وَالْبُرُوقِ وَالْهَفْتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَزَّهَ اللَّهُ جَعْفَرًا وَأَئِمَّةَ أَهْلِ بَيْتِهِ عَنْ الْكَلَامِ فِيهِ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

والْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْمَذْكُورَ عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا مِنْ الْمَنْقُولَاتِ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ صَحِيحِهِ وَضَعِيفِهِ، كَمَا يَنْبَغِي مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَعْقُولَاتِ وَالنَّظَرِيَّاتِ، وَكَذَلِكَ فِي الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُخَاطِبَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ صِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ فِيهَا حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ التَّمْيِيزِ فِي هَذَا وَهَذَا. وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّ مَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ الثَّابِتَةَ عَنْهُ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ. فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَقُولُ: {اللَّهُمَّ رَبَّ جبرائيل وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك، إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[4]

يتحدث شيخ الإسلام عن الرافضة في ذلك الزمان وعن عملهم بالكهانة وتعاملهم مع الشياطين، ونحن رأينا ذلك صوتا وصورة بعد انتشار وسائل التواصل، ورأينا أنّ الرافضة من أكثر الناس عملاً بالكهانة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ٤٤)
(٢) النساء: الآية ٥٩.
(٣) البقرة: الآية ٢١٣.
(٤) رواه مسلم ٣١٠.

وتعاملاً مع الشياطين، بل إنهم تصدروا أمر الكهانة في بعض القنوات التي تتعاطى الكهانة وتروج لها، وقد احتسب على رافضته تعاطوا الكهانة وقمت بمناظرة بعضهم وفضح أمرهم وتحذير الناس منهم، وعرضت لكثير من أقوالهم هذا مع ما يبثونه خلال الكهانة من شركيات أخرى، كالاستغاثة بالأئمة وسب أصحاب النبي ﷺ والتهكم بمن يكون متسمياً بأسمائهم من المتصلين والمتصلات، ولقد كان أحد هؤلاء معروفاً مشهوراً، ثم سمعنا أنه جاء إلى أرض الحرمين ومهبط الوحى ومأرز الإيمان، فأُعد له كميناً وأُلقي القبض عليه، وأحيل للشرع وحكم عليه بالقتل.

وقد أعد له في حينها فيديو مصور فيه ما كان يقول ويفعل وهو خارج أرض الحرمين أيام كان يخرج على القنوات، وقد أخرج من السجن لعمل تلك المقابلة، واعترف بكل شيء. والمقابلة منشورة وموجودة ولله الحمد والمنة، وأراح الله البلاد والعباد منه، وسلم دين الله من عدو له مبين.

فأعز الله دولة حمت التوحيد وزادت عن حياضه، ورحم الله من قبض على ذلك الرافض المشرك بالله الساب لآل النبي ﷺ وصحبه.

وإن شجعنا وقوى عزمنا وشد أزرنا في تتبع هؤلاء الكهان المفسدين صدور أمر ولي العهد ووزير الداخلية الأمير نايف –طيب الله ثراه– بالخروج على وسائل الاعلام وتحذير الناس من هؤلاء المفسدين، وبيان إفسادهم للعقيدة والدين والدنيا والأخلاق، والحمد لله خرجنا في حلقات عدة وطلبناهم للمناظرة، والحمد لله ما استجاب منهم واحد، ولا جرؤ أن يدافع عن باطله.

قال شيخ الإسلام: فَأَمَّا الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ فَلَا. وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ ذِكْرَ هَذِهِ الْأُمُورِ وَسَبَبَ إصَابَتِهَا تَارَةً وَخَطَئِهَا تَارَاتٍ. وَإِنَّمَا الْغَرَضُ أَنَّهُمْ يَتَعَمَّدُونَ فِيهَا كَذِبًا كَثِيرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةً، كَمَا يَتَعَمَّدُ خَلْقٌ كَثِيرٌ الْكَذِبَ فِي الرُّؤْيَا الَّتِي مِنْهَا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ، وَكَمَا كَانَتْ الْجِنُّ تَخْلِطُ بِالْكَلِمَةِ تَسْمَعُهَا مِنْ السَّمَاءِ مِائَةَ كِذْبَةٍ ثُمَّ تُلْقِيهَا إلَى الْكُهَّانِ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي قَالَ: {قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتِهِمْ. قَالَ: قُلْت: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدُّهُمْ. قَالَ: قُلْت: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قَالَ: كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ} فَإِذَا كَانَ مَا هُوَ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ أَخْبَارِ الْمَلَائِكَةِ مَا قَدْ يُتَعَمَّدُ فِيهِ الْكَذِبُ الْكَثِيرُ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ مُضْطَرِبٌ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى أَصْلٍ؟ فَلِهَذَا تَجِدُ عَامَّةَ مَنْ فِي دِينِهِ فَسَادٌ يَدْخُلُ فِي الْأَكَاذِيبِ الْكَوْنِيَّةِ مِثْلُ أَهْلِ الِاتِّحَادِ. فَإِنَّ ابْنَ عَرَبِيٍّ فِي كِتَابِ (عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ) وَغَيْرِهِ –أَخْبَرَ بِمُسْتَقْبَلَاتٍ كَثِيرَةٍ عَامَّتُهَا كَذِبٌ، وَكَذَلِكَ ابْنُ سَبْعِينَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ اسْتَخْرَجُوا مُدَّةَ بَقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ حِسَابِ الْجُمَلِ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ الَّذِي وَرِثُوهُ مِنْ الْيَهُودِ، وَمِنْ حَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ الَّذِي وَرِثُوهُ مِنْ الصَّابِئَةِ، كَمَا فَعَلَ أَبُو نَصْرٍ الْكِنْدِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ، وَكَمَا فَعَلَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ مِنْ أَصْحَابِ الرازي، وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي تَأْوِيلِ وَقَائِعِ النُّسَّاكِ مِنْ الْمَائِلِينَ إلَى التَّشَيُّعِ. وَقَدْ رَأَيْت مِنْ

أَتْبَاعِ هَؤُلَاءِ طَوَائِفَ يَدَّعُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنْ الْأَسْرَارِ الْمَخْزُونَةِ وَالْعُلُومِ الْمَصُونَةِ، وَخَاطَبْت فِي ذَلِكَ طَوَائِفَ مِنْهُمْ، وَكُنْت أَحْلِفُ لَهُمْ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ مُفْتَرًى، وَأَنَّهُ لَا يَجْرِي مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ شَيْءٌ، وَطَلَبْت مُبَاهَلَةَ بَعْضِهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِأُصُولِ الدِّينِ، وَكَانُوا مِنْ الِاتِّحَادِيَّةِ الَّذِينَ يَطُولُ وَصْفُ دَعَاوِيهِمْ، فَإِنَّ شَيْخَهُمْ الَّذِي هُوَ عَارِفُ وَقْتِهِ وَزَاهِدُهُ عِنْدَهُمْ -كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ الَّذِي يَنْزِلُ، وَأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ نُزُولُ رُوحَانِيَّةِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَأَنَّ أُمَّهُ اسْمُهَا مَرْيَمُ، وَأَنَّهُ يَقُومُ بِجَمْعِ الْمِلَلِ الثَّلَاثِ، وَأَنَّهُ يَظْهَرُ مَظْهَرًا أَكْمَلَ مِنْ مَظْهَرِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الْمُرْسَلِينَ. وَلَهُمْ مَقَالَاتٌ مِنْ أَعْظَمِ الْمُنْكَرَاتِ يَطُولُ ذِكْرُهَا وَوَصْفُهَا.

نقلنا هنا ما يدلّل على أنّ أصل الكهانة عند ابن عربي وغيره مأخوذ عن هؤلاء الفلاسفة، وأمر اليونان في الكهانة معروف، وإن كان بعض العرب والمسلمين فتن بهم وظن أنهم أهل الفكر والعقل، وممن فتن بذلك طه حسين الذى رأى أنّ الشرق كان ميداناً لسيطرة الكهان والتسليم لهم، وأنّ اليونان كانوا أهل العلم والفكر، وقد ردّ عليه الدكتور زكى مبارك وبيّن أّن اليونان أولى بالكهانة، وأنّ أرسطو وسقراط وغيرهم كانت لهم علاقات بمعابد الكهانة، وأنّ معابد الكهانة كانت منتشرة بأرض اليونان، فهاكم هؤلاء الذين ظن فيهم هذا الأديب هذا الظن، وكذا كثير غيره من أدعياء الثقافة، هاكم شأنهم أهل كهانة وضلال ووثنية مقيته متغلغلة ومتناقضة مع ادعائهم العقلانية. وقد نقلنا خلاصة مختصرة ومن رام المزيد في هذا الباب فقد ذكرنا له مراجع كثيرة وانتقينا من بحثين إضافيين الضروري، فإذا رام رؤية الأمر واضحاً فليعد إلى هذين البحثين، وهما بحثان محكمان منشوران بمجلتين علميتين وسيرى عجباً.

قال شيخ الإسلام: فصل: قال الرافضي: الوجه الثاني في الدلالة على وجوب اتباع مذهب الإمامية ما قاله شيخنا الإمام الأعظم خواجة نصير الملة والحق والدين محمد بن الحسن الطوسي، قدّس الله روحه، وقد سألته عن المذاهب...

الثاني: أنّ هذا الرجل قد اشْتَهَرَ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ أَنَّهُ كَانَ وَزِيرَ الْمَلَاحِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِالْأَلَمُوتِ، ثُمَّ لَمَّا قَدِمَ التُّرْكُ الْمُشْرِكُونَ إلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَاءُوا إِلَى بغداد دار الخلافة، كَانَ هَذَا مُنَجِّمًا مُشِيرًا لِمَلِكِ التُّرْكِ الْمُشْرِكِينَ هولاكو، أشار عليه بقتل الخليفة، وَقَتْلِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَاسْتِبْقَاءِ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ وَالتِّجَارَاتِ الَّذِينَ يَنْفَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى الْوَقْفِ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ يُعْطِي مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ لِعُلَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَشُيُوخِهِمْ مِنَ الْبَخَشِيَّةِ السَّحَرَةِ وَأَمْثَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَمَّا بَنَى الرَّصد الذي بمراغة على طريق الصَّابِئَةِ الْمُشْرِكِينَ، كَانَ أَبْخَسُ النَّاسِ نَصِيبًا مِنْهُ مَنْ كَانَ إِلَى أهلِ الْمِلَلِ أَقْرَبَ، وَأَوْفَرُهُمْ نَصِيبًا مَنْ كَانَ أَبْعَدَهُمْ عَنْ الْمِلَلِ، مِثْلَ الصابئة المشركين ومثل المعطّلة وسائر المشركون، وإن ارتزقوا بالنجوم والطب ونحو ذلك.

وَمِنَ الْمَشْهُورِ عَنْهُ وَعَنْ أَتْبَاعِهِ الِاسْتِهْتَارُ بِوَاجِبَاتِ الْإِسْلَامِ ومحرّماته، لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الْفَرَائِضِ كَالصَّلَوَاتِ، ولا ينزعون من مَحَارِمِ اللَّهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْخَمْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، حَتَّى أَنَّهُمْ فِي شَهْرِ

رَمَضَانَ يُذكر عَنْهُمْ مِنْ إضَاعَةِ الصَّلَوَاتِ وَارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وشرب الخمر –مَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْخِبْرَةِ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ وَظُهُورٌ إلَّا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ دِينُهُمْ شَرٌّ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ وَلِهَذَا كَانَ كُلَّمَا قَوِيَ الْإِسْلَامُ فِي الْمُغْلِ وَغَيْرِهِمْ من ترك، ضَعُفَ أَمْرُ هَؤُلَاءِ لِفَرْطِ مُعَادَاتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؛ وَلِهَذَا كَانُوا مِنْ أَنْقَصِ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الْأَمِيرِ نَوْرُوزَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الشَّهِيدِ، الَّذِي دَعَا مَلِكَ الْمُغْلِ غَازَانَ إلَى الْإِسْلَامِ، وَالْتَزَمَ لَهُ أَنْ يَنْصُرَهُ إذَا أَسْلَمَ، وَقَتَلَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَمْ يُسْلِمُوا مِنَ الْبَخَشِيَّةِ السَّحَرَةِ وغيرهم، وَهَدَمَ الْبَذْخَانَاتِ، وَكَسَّرَ الْأَصْنَامَ وَمَزَّقَ سَدَنَتَهَا كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَأَلْزَمَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالْجِزْيَةِ وَالصَّغَارِ، وَبِسَبَبِهِ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمُغْلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَأَمْرُ هَذَا الطُّوسِيِّ وَأَتْبَاعِهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَشْهَرُ وَأَعْرَفُ من أن يعرف وَيُوصَفَ.

والطوسي كان منجماً بدار الخلافة، ومن منهج الرافضة بغض أهل السنة، وقد أخذ هذا الرجل أموال الوقف السنّي وأنفقها على المنجمين وغيرهم من طلاب علوم الدنيا.(١)

(نصير الطوسي) الذي عرف بسوء معتقده وغشه للمسلمين أولاً، ثم موالاته للتتار ثانياً، ثم نصره لعلوم الكهانة وإلباسها اللبوس العلمي وصبغها بالصبغة العلمية، وترجمته كتب التنجيم وعبادة الكواكب، ثم هو رافضي خبيث وفيلسوف منحرف، فقد جمع أشكالاً من الشر والفساد، وجد في إفساد عقائد المسلمين، وسلك لذلك لكل طريق.

رأيت على بعض الشاشات من يتكلم عن هؤلاء الكهّان الذين يخرجون على القنوات، فيصفهم بأنهم عملاء لمخابرات أجنبية، وأنهم ساعون إلى تقويض بلاد المسلمين، وأنهم بالكهانة والتنبؤ بالغيب يهيئون النفوس لمخططات الأعداء، ونحن لا نستبعد هذا وقد رأيت كيف كان نصير الطوسي، ولكن العتب واللوم على من يجعل هذا هو الأصل، فيخرجهم من كونهم كهاناً يتعاملون مع الشياطين ويكفرون بالله، ويدعون مشاركة الله في أمر اختص به، ليلصقونهم بمولاة أعداء الله وخدمتهم ، ولكن الحق أن يوصف هؤلاء أولاً بالكهانة وادعاء علم الغيب، ثم ليكونوا بعد ذلك ما يكونوا، قد يستقي بعضهم أخباره من تدبير الأعداء نعم، ولكن ثمت أمور يتكهنون بها لا تدخل في هذا الباب، من زواج فلانة وطلاق فلانة

---

(١) الحمد لله على التمام والتوفيق والإحسان الذي وفقنا بفضل منه أن ننتهي من جمع هذا القدر ومراجعته في يوم عاشوراء، ذلك اليوم الذى فرّق الله بين الحق الذى جاء به موسى والباطل الذى كان عليه فرعون، وفى يوم عاشوراء نصر الله الحق وأهله ونجّى من أبطل السحر، ونحمد الله على أن شغلنا بالدفاع عن توحيده ضد هؤلاء الكهان، طامعين في عمارة هذا اليوم بما يرضيه، في اليوم الذى يخالف فيه الإسلام أولئك الروافض فيلطمون ويضربون ويجرحون ويعذبون ويشركون بالله رب العالمين، ويصنعون الموبقات باسم دين الله، نحمد الله ونسأله أن يجعلنا من أهل نصرة أهل نبيه ﷺ وزوجاته الطاهرات وذريته الموحدين، وفى هذا اليوم ننقل للمحتسبين طرفا من جهاد ذلك البطل المجاهد شيخ الإسلام، ذلك المجاهد الهمام الذى نصر السُّنّة وحارب الشرك والبدعة، وكشف زيوف السحرة والكهّان والمنجمين، وقد كان في بعض أيامه التي سجن فيها، أطلق في يوم عاشوراء، فأخرجه الله لينصر التوحيد وأهله والسنة والدعاة إليها في يوم يشرك فيه هؤلاء الروافض بالله رب العالمي، ونسأل الله أن يلحقنا بأهل التوحيد، وأن يجعل عملنا في هذا اليوم شاهداً لنا وأن يرزقنا الإخلاص والقبول، وأن يجمعنا بنبينا ﷺ إمام الموحدين وبإخوانه وأصحابه وأتباعه على النهج السوي، فإننا نشهده أننا نحبه ونحب نبيه ﷺ ونحب كل موحد من كان وأين كان.

وسعد فلان ونحس فلان، مما لا علاقة لهم بأمر مخابرات ولا غيره، ولكن كما وصف العلماء الطوسي بأنه كاهناً منجماً رافضياً خبيثاً فيلسوفاً منحرفاً، ثم ذكروا خدمته لأعداء الله ومعاونته التتار، وخيانته لوطنه المسلم وللخليفة الذى قربه وأدناه، فهذا بعد كهانته، وكذلك هؤلاء هم كهنة، ثم هم خونة أيضاً. أما وصفهم بالخيانة فقط فهذا تقليل من الجرم الذي يأتونه مع عظم خطر وضرر وإثم موالاة أعداء الله تعالى، لكن تلك الموالاة تختلف أحكامها كما هو معلوم فليس كل من أعان المشركين أو تعاون معهم على ضرر المسلمين كان كافراً كما هو معلوم من قصة حاطب -رضى الله عنه- مع عظم ما صنع، فالمتعاون مع أعداء الله قد يطلب دنيا فقط فيكون آثماً مستوجباً مثلاً، وقد يكون كافراً، أما الكاهن فأمره معلوم، وقد أتى باباً من أبواب الكف، تلك قضية يرتاح لها بعض الناس ويظهرها بهذا المظهر فيقع في هذا الخطأ الكبير.

قال شيخ الإسلام: وَمَعَ هَذَا فَقَدَ قِيلَ: إنَّهُ كَانَ آخِرِ عُمْرِهِ يُحَافِظُ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَيَشْتَغِلُ بتفسير البغوي والفقه وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَابَ مِنَ الْإِلْحَادِ فَاللَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، والله تعالى يقول: ﴿يا عبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفوا عَلَى أنفسِهِمْ لَا تَقْنَطوا مِن رَّحْمَة اللَّهِ إنَّ اللّهَ يَغْفِر الذُنوبَ جَمِيعًا﴾[1] لكن ما ذكره عن هَذَا، إنْ كَانَ قَبْلَ التَّوْبَةِ لَمْ يُقبل قَوْلُهُ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَ التَّوْبَةِ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَابَ مِنَ الرَّفْضِ، بَلْ مِنَ الْإِلْحَادِ وحده. وعلى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا يُقبل قَوْلُهُ.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ إنَّمَا كَانَ يَجْتَمِعُ بِهِ وَبِأَمْثَالِهِ لَمَّا كَانَ مَنَجِّمًا لِلْمُغْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَالْإِلْحَادُ مَعْرُوفٌ مِنْ حَالِهِ إذْ ذلك. فَمَنْ يَقْدَحُ فِي مِثْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّابِقِينَ الأَوَّلين مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأنصار، ويطعن على مثل مالك والشافعي وأبي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَيُعَيِّرُهُمْ بِغَلَطَاتِ بَعْضِهِمْ فِي مِثْلِ إبَاحَةِ الشِّطْرَنْجِ وَالْغِنَاءِ، كَيْفَ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَحْتَجَّ لِمَذْهَبِهِ بِقَوْلِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يحرّمون مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، ولا يدينون دين الحق، وَيَسْتَحِلُّونَ المحرّمات الْمُجْمَعَ عَلَى تَحْرِيمِهَا، كَالْفَوَاحِشِ وَالْخَمْرِ فِي مِثْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ، الَّذِينَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وَخَرَقُوا سِيَاجَ الشَّرَائِعِ، وَاسْتَخَفُّوا بِحُرُمَاتِ الدِّينِ، وَسَلَكُوا غَيْرَ طَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُمْ كَمَا قِيلَ فِيهِمْ:

الدِّينُ يَشْكُو بَلِيَّةْ ... مِنْ فِرْقَةٍ فَلْسَفِيَّةْ
لَا يَشْهَدُونَ صَلَاةً ... إلَّا لِأَجْلِ التَّقِيَّةْ
وَلَا تَرَى الشَّرْعَ ... إلَّا سِيَاسَةً مَدَنِيَّةْ
وَيُؤْثِرُونَ عليه ... مناهج فلسفية

(١) الزمر: الآية ٥٣.

وَلَكِنَّ هَذَا حَالُ الرَّافِضَةِ: دَائِمًا يُعَادُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتّبعوا بِإِحْسَانٍ، وَيُوَالُونَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ.

فَإِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ نِفَاقًا فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ هُمُ الْمَلَاحِدَةُ الْبَاطِنِيَّةُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ، فَمَنِ احْتَجَّ بِأَقْوَالِهِمْ فِي نُصْرَةِ قَوْلِهِ، مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ طَعْنِهِ عَلَى أَقْوَالِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ -كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُوَالَاةً لِأَهْلِ النِّفَاقِ وَمُعَادَاةً لِأَهْلِ الْإِيمَانِ.

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ هَذَا الْمُصَنِّفَ الرَّافِضِيَّ الْخَبِيثَ الْكَذَّابَ المفتري، يذكر أبا بكر وعمر وعثمان، وسائر السابقين والأوّلين وَالتَّابِعِينَ، وَسَائِرَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ بِالْعَظَائِمِ الَّتِي يَفْتَرِيهَا عَلَيْهِمْ هُوَ وَإِخْوَانُهُ، وَيَجِيءُ إِلَى مَنْ قَدِ اشتُهر عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بمحادته لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، فَيَقُولُ: "قَالَ شَيْخُنَا الْأَعْظَمُ" وَيَقُولُ: "قَدَّسَ اللَّهُ رَوْحَهُ" مَعَ شَهَادَتِهِ بِالْكُفْرِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ، وَمَعَ لَعْنَةِ طَائِفَتِهِ لِخِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ من الأولين والآخرين. وَهَؤُلَاءِ دَاخِلُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[١]

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْإِمَامِيَّةَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، إِذْ كَانُوا مقرّين بِبَعْضِ مَا فِي الْكِتَابِ المنزّل، وَفِيهِمْ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ: وَهُوَ السحر، والطاغوت: وهو كل ما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ يعظّمون الْفَلْسَفَةَ الْمُتَضَمِّنَةَ لِذَلِكَ، وَيَرَوْنَ الدُّعَاءَ وَالْعِبَادَةَ لِلْمَوْتَى وَاتِّخَاذَ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، وَيَجْعَلُونَ السَّفَرَ إِلَيْهَا حَجًّا لَهُ مَنَاسِكُ، وَيَقُولُونَ: "مَنَاسِكُ حَجِّ الْمَشَاهِدِ" وَحَدَّثَنِي الثِّقَاتُ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يَرَوْنَ الْحَجَّ إِلَيْهَا أَعْظَمَ مِنَ الْحَجِّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَيَرَوْنَ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْإِيمَانِ بِالطَّاغُوتِ.

وَهُمْ يَقُولُونَ لِمَنْ يقرُّون بِكُفْرِهِ مِنَ الْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْعَالَمِ وَدَعْوَةِ الْكَوَاكِبِ، والمسوّغين لِلشِّرْكِ: هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، فَإِنَّهُمْ فَضَّلُوا هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةَ الْمُشْرِكِينَ على السَّابِقِينَ الأوَّلين مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ.

وَلَيْسَ هَذَا بِبِدَعٍ مِنَ الرَّافِضَةِ، فَقَدْ عُرِف مِنْ مُوَالَاتِهِمْ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ، وَمُعَاوَنَتِهِمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، مَا يَعْرِفُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ مَا اقْتَتَلَ يَهُودِيٌّ وَمُسْلِمٌ، وَلَا مُشْرِكٌ وَمُسْلِمٌ إِلَّا كَانَ الرَّافِضِيُّ مَعَ اليهودي والنصراني والمشرك.[٢]

---

(١) النساء: الآية ٥١,٥٢.

(٢) أفاض شيخ الإسلام في بيان ضلال الشيعة، وبين ما عند طوائفهم من خروج عن الدين، تجد ذلك في منهاج السنة النبوية، ومن ذلك حديثه عن الإسماعيلية ومما قاله عنهم. الوجه الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ وَالنُّصَيْرِيَّةَ هُمْ مِنَ الطَّوَائِفِ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ التَّشَيُّعَ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ كُفَّارًا مُنْسَلِخِينَ عن كُلِّ مِلَّةٍ، وَالنُّصَيْرِيَّةُ هُمْ مِنْ غُلَاةِ الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ إِلَهِيَّةَ عَلِيٍّ وَهَؤُلَاءِ أَكْفَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ الْبَاطِنِيَّةُ أَكْفَرُ مِنْهُمْ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمُ التَّعْطِيلُ (الالموت) أَمَّا أَصْحَابُ الناموس الْأَكْبَرِ وَالْبَلَاغِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي هُوَ آخَرُ الْمَرَاتِبِ عِنْدَهُمْ، فَهُمْ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْعَالَمَ لا فاعل له: لا علة ولا خَالِقَ.

قال شيخ الإسلام عن المختار الكاهن المتنبئ: وَأَوَّلُ مَنْ ظَهَرَ عَنْهُ دَعْوَى النُّبُوَّةِ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ وَكَانَ مِنَ الشِّيعَةِ، فعُلم أَنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ رِدَّةً هُمْ فِي الشِّيعَةِ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي سَائِرِ الطَّوَائِفِ، وَلِهَذَا لَا يُعرف رِدَّةٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ رِدَّةِ الْغَالِيَةِ كَالنُّصَيْرِيَّةِ، وَمِنْ رِدَّةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ، وَأَشْهَرُ النَّاسِ بِقِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَلَا يَكُونُ الْمُرْتَدُّونَ فِي طَائِفَةٍ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي خُصُومِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، هُمْ بِالرَّافِضَةِ أَوْلى مِنْهُمْ بِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَيَقُولُونَ: لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَلَاسِفَةِ خِلَافٌ إِلَّا فِي وَاجِبِ الْوُجُودِ، فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَهُ وَهُوَ شَيْءٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا سِيَّمَا هَذَا الِاسْمُ الَّذِي هُوَ اللَّهُ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكْتُبُهُ عَلَى أَسْفَلِ قَدَمَيْهِ وَيَطَؤُهُ. وَأَمَّا مَنْ هُوَ دُونَ هؤلاء فيقول بالسابق وبالتالي، الَّذِينَ عَبَّرُوا بِهِمَا عَنِ الْعَقْلِ وَالنَّفْسِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ، وَعَنِ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ عِنْدَ الْمَجُوسِ، وركَّبوا لَهُمْ مَذْهَبًا مِنْ مَذَاهِبِ الصَّابِئَةِ وَالْمَجُوسِ ظَاهِرُهُ التشيع. ولا ريب أن المجوس والصابئة شَرٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَكِنْ تَظَاهَرُوا بِالتَّشَيُّعِ. قَالُوا: لِأَنَّ الشِّيعَةَ أَسْرَعُ الطَّوَائِفِ اسْتِجَابَةً لَنَا، لِمَا فِيهِمْ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَلِمَا فيهم من الجهل وتصديق المجهولات؛ وَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّتُهُمْ فِي الْبَاطِنِ فَلَاسِفَةً، كَالنَّصِيرِ الطُّوسِيِّ هَذَا، وَكَسِنَانٍ الْبَصْرِيِّ الَّذِي كَانَ بِحُصُونِهِمْ بِالشَّامِ، وَكَانَ يَقُولُ: قَدْ رَفعت عَنْهُمُ الصَّوْمَ وَالصَّلَاةَ وَالْحَجَّ وَالزَّكَاةَ.

فَإِذَا كَانَتِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ إِنَّمَا يَتَظَاهَرُونَ فِي الْإِسْلَامِ بِالتَّشَيُّعِ، وَمِنْهُ دَخَلُوا وَبِهِ ظهروا، وأهله هم المهاجرون إِلَيْهِمْ، لَا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُمْ أَنْصَارُهُمْ لَا أَنْصَارُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ -عُلم أَنَّ شَهَادَةَ الإسماعيلية للشيعة بأنهم على حق شَهَادَةٌ مَرْدُودَةٌ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ. فَإِنَّ هَذَا الشَّاهِدَ إِنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مُخَالِفٌ لِدِينِ الْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ، وَإِنَّمَا أَظْهَرَ التَّشَيُّعَ لِيُنْفِقَ بِهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى تَعْظِيمِ التَّشَيُّعِ، وَشَهَادَتُهُ لَهُ شَهَادَةُ الْمَرْءِ نفسه، فَهُوَ كَشَهَادَةِ الْآدَمِيِّ لِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْذِبُ، وَإِنَّمَا كَذَبَ فِيهَا كما كَذَبَ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ دِينَ الْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ، وَيَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، كَانَ أَيْضًا شَاهِدًا لِنَفْسِهِ، لَكِنْ مَعَ جَهْلِهِ وَضَلَالِهِ. وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَشَهَادَةُ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ لَا تُقبل، سَوَاءً عَلِمَ كَذِبَ نَفْسِهِ أَوِ اعْتَقَدَ صِدْقَ نَفْسِهِ..

ثم قال الْوَجْهُ الْخَامِسُ: أَنَّ الْحَدِيثَ رُوِيَ تَفْسِيرُهُ فِيهِ من وجهين: أحدهما: أنه ﷺ سأل عَنِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، فَقَالَ: {مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي} وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى قَالَ: {هُمُ الْجَمَاعَةُ} وَكُلٌّ مِنَ التفسيرين يناقض قول الإمامية، ويقتضي أنهم خَارِجُونَ عَنِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، فَإِنَّهُمْ خَارِجُونَ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ: يُكَفِّرُونَ أَوْ يفسّقون أَئِمَّةَ الْجَمَاعَةِ، كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ، دَعْ مُعَاوِيَةَ وَمُلُوكَ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ، وَكَذَلِكَ يكفّرون أَوْ يفسّقون عُلَمَاءَ الْجَمَاعَةِ وَعُبَّادَهُمْ، كَمَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وإسحاق وَأَبِي عُبَيْدٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَةِ سِيَرِ الصَّحَابَةِ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ، لَا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَالْمَنْقُولَاتِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِالرِّجَالِ الضُّعَفَاءِ وَالثِّقَاتِ، وَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ جَهْلًا بِالْحَدِيثِ وَبُغْضًا لَهُ وَمُعَادَاةً لِأَهْلِهِ، فَإِذَا كَانَ وَصْفُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: أَتْبَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ شِعَارُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ -كَانَتِ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَالسُّنَّةُ مَا كَانَ صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه عليه في عهده، مما أمرهم به وأقرَّهم عَلَيْهِ أَوْ فَعَلَهُ هُوَ، وَالْجَمَاعَةُ هُمُ الْمُجْتَمِعُونَ الَّذِينَ مَا فرَّقوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا، فَالَّذِينَ فرَّقوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا خَارِجُونَ عَنِ الْجَمَاعَةِ قَدْ برَّأ اللَّهُ نَبِيَّهُ مِنْهُمْ، فعُلم بِذَلِكَ أَنَّ هَذَا وَصْفُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، لَا وَصْفُ الرَّافِضَةِ، وَأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَصَفَ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَبِلُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ. فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: {مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي} فَمَنْ خَرَجَ عَنْ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ بَعْدَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ، وَقَدِ ارْتَدَّ نَاسٌ بَعْدَهُ فَلَيْسُوا مِنَ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ. قُلْنَا: نَعَمْ وَأَشْهَرُ النَّاسِ بِالرِّدَّةِ خُصُومُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَأَتْبَاعِهِ كَمُسَيْلِمَةَ الكذَّاب وَأَتْبَاعِهِ وَغَيْرِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ تَتَوَلَّاهُمُ الرَّافِضَةُ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ شُيُوخِهِمْ، مِثْلُ هَذَا الْإِمَامِيِّ وغَيْرُهُ، ويقولون: إنهم كانوا على حق، وَأَنَّ الصِّدِّيقَ قَاتَلَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، ثُمَّ مِن أظهر الناس ردة الغالية الذين حرَّقهم علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِالنَّارِ لَمَّا ادَّعَوْا فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ، وَهُمُ السَّبَائِيَّةُ أَتْبَاعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ الَّذِينَ أَظْهَرُوا سَبَّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ.

وَهَذَا بيِّن يَعْرِفُهُ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْرِفُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَلَا يَسْتَرِيبُ أَحَدٌ أَنَّ جِنْسَ الْمُرْتَدِّينَ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّشَيُّعِ أَعْظَمُ وأفحش كفراً من جنس المرتدين المنتسبين إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، إِنْ كَانَ فِيهِمْ مُرْتَدٌّ.

المبحث الرابع
الأشاعرة والكهانة

عرض شيخ الإسلام لمعتقد الأشاعرة في آيات الأنبياء وبين ضعف مسلك الأشاعرة، وقد ذكرنا ذلك في حديثه عن الفرق بين آيات النبوة والكهانة، ونسلط هنا الضوء على موقف الأشاعرة من الكهانة؛ إذ يرى الأشاعرة أنّ الكهّان قد يأتوا بمثل ما يأتي به الأنبياء تماما بتمام، والفرق عندهم في دعوى النبوة، الأمر الثاني أنهم يجوزون أن تكون الكهانة آية لنبي، وقد أتوا من اعتقادهم بأنّ آيات الأنبياء إنما هي فعل الخوارق والعجائب، ومن أجل ذلك سمّوها المعجزات، فأي واحد جاء بخارق يعجز به من أمامه، فهذا هو دليل النبوة وبيّن هناك -رحمه الله- خطأ ذلك الاعتقاد، وبيّن أّن الكهانة معروفة وحقيقتها إعانة الشياطين للكهان، فكيف تكون آية للأنبياء؟ كما بيّن وشرح أّن آيات الأنبياء مختصة بهم، وأنه لا يمكن لكاهن ولا غيره أن يأتي بمثل آية نبي، وهذا كلام رجل يعرف قدر الأنبياء وقدر ما آتاهم الله وخصهم به ويدرك حقائق الأمور.

ويمكن تلخيص ما ذكره في النقاط التالية:

أولاً: بيان أنّ حرمة الكهانة أصلية وليست عارضة، ذلك أنّ الأشاعرة جعلوا حرمتها عارضة، بل أجازوا أن تكون معجزة لنبي من الأنبياء. ولا بد أن تأخذ عقائد الضلال والانحراف بيد بعض، والبدع تجر إلى ما هو أعظم منها.

ثانياً: أطنب شيخ الاسلام في الرد على الأشاعرة في تلك القضية؛ حماية لجناب الأنبياء وصيانة لآياتهم أن يكون منها ما هو كفر وشرك كالكهانة.

ثالثاً: بيّن شيخ الإسلام قصور فهم الأشاعرة في أنّ الكهانة هي الإخبار بالغيب فقط، وأنها بذلك تشابه الوحي.

ولقد كان ابن تيمية عظيماً في دفاعه عن الأنبياء، وساق حججاً هي الشمس في ضحاها وكرر الأمر كثيراً. فجزاه الله عنا وعن دين الله خيراً، وسنهذب هنا كلامه ونقربه، ونقتصر على المراد.

قال رحمه الله: ومِمّا يُبيِّن ضعف طريقة هؤلاء الأشاعرة أنّهم قالوا: المعجزات لا تدلّ بجنسها على النبوّة، بل يُوجِد مثل المعجز من كلّ وجه، ولا يدلّ على النبوّة؛ كأشراط الساعة؛ وكما يوجد للسحرة والكهّان والصالحين من الخوارق التي تماثل آيات الأنبياء فيما زعمه هؤلاء. قالوا: لكنّ الفرق أنّ هذا يدّعي النبوّة ويحتجّ بها، ويتحدّاهم بالمثل فلا يقدر أحدٌ على معارضته. وأولئك لو ادّعوا النبوّة لمنعهم الله منها، وإن كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها، أو لقيّض لهم من يعارضهم. ولو عارضوا بها نبيّاً لمنعهم الله إياها، ليسلم دليل النبوة. قالوا: والمعجز إنّما يدلّ دلالةً وضعيّةً بالجعل والقصد، كدلالة الألفاظ والعقود والخط والعلامات التي يجعلها الناس بينهم.

وبعد عرض كلامهم مفصلاً ردّ عليه كله، وكان مما رد به عليهم: لم ينقل عن النبي ﷺ التحدي إلا في القرآن، ومما يلزم أولئك أنّ ما كان يظهر على يد النبيّ ﷺ في كل وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوّته؛ لأنّه لم يكن كلما ظهر شيءٌ من ذلك احتجّ به، وتحدّى الناس بالإتيان بمثله، بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصّة، ولا نُقل التحدي عن غيره من الأنبياء؛ مثل موسى والمسيح وصالح. ولكنّ السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم. وهذا الذي قالوه يُوجب ألا تكون كرامات الأولياء من جملة المعجزات.

ونقول: ليس مراد الشيخ أنّ هذه الآيات التي أعطاها الله نبيه ﷺ ولم ينقل التحدي بها يمكن للناس أن يأتوا بمثلها، ولكن مراده بيان خطأ اعتقاد الأشاعرة أنّ المعجزة شرطها التحدي فقط، وأن من أظهر عجائب وتحدى بها ولم يعارض كان نبياً، ولكن لا شك أنّ ما يصنعه الرب تعالى لنبيه ﷺ لم يكن لأحد أن يأتي بمثله، وقد بيّن شيخ الإسلام قبل ذلك أّن للنبي ﷺ أكثر من ألف آية، ولكن مراده أنه لم يكن كلما حدثت آية تحدى النبي ﷺ بها، إذ صدق النبي بأمور كثيرة غير قضية التحدي.

قال رحمه الله موضحاً ذلك: وقد ذكر غير واحد من العلماء أنّ كرامات الأولياء معجزات لنبيّهم، وهي من آيات نبوته. وهذا هو الصواب، كقصة أبي مسلم الخولاني، وغيره ممّا جرى لهذه الأمة من الآيات، ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين، وعلى يد موسى وأتباعه. لا أنه جعل التحدي بالمثل جزءاً من دليله وآيته، فلا يكون دليلاً حتى يتحداهم بالمثل! بل قد عُلم أنّ نفس استدلال المستدل بالدليل يوجب اختصاصه بالمدلول عليه، وكلّ من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة، فقد عُلم أنه يقول إنّها مستلزمة للمدلول عليه، لا يوجد مع عدمه، فلا يمكن أحداً أن يعارضها، فيأتي بمثلها مع عدم المدلول عليه. وهؤلاء جعلوا من جملة الدليل: دعوى النبوة، والاحتجاج به، والتحدّي بالمثل؛ ثلاثة أشياء. وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل.

ودعوى النبوة هو الذي تقام عليه البيّنة، والذي يقام عليه الحجة ليس هو جزءاً من الحجة. والدعوى تسمى مدلولا عليها، ونفس المدعى يُسمى مدلولاً عليه، وثبوت المدعى يسمى مدلولاً عليه، والعلم بثبوته يُسمّى مدلولاً عليه.

فهنا دعوى النبوة، وهنا النبوة، وهنا النبوة المدعاة قبل أن يُعلم ثبوتها، وهنا ثبوتها في نفس الأمر، وهنا علم الناس بثبوتها، وكذلك سائر الدعاوي. فمن ادّعى تحريم النبيذ المتنازع فيه، فهنا دعواه التحريم، ونفس التحريم هل هو ثابت أم منتف؟ وثبوت التحريم في نفس الأمر، والعلم بالتحريم. النبوات.

وقد أطال –رحمه الله– النفس وجاء بكل نفيسة في عرضه ورده على الأشاعرة في هذه النقطة، ويمكن أن يُلخص كلامه –رحمه الله– بأن ما كان يأتي به النبي ﷺ آية على نبوته من غير أن يجاهر في كل آية بالتحدي، فما دام قد علم أنه نبي ﷺ ويعرف ذلك بوجوه بينها في أثناء حديثه عن الفرق بين آيات الأنبياء وبين ما يأتي به غيرهم، وأنّ المنقول عن النبي ﷺ هو التحدي بالقرآن، وعلى اعتقاد الأشاعرة ما

أكرمه الله به من آيات أخر لا يدخل في معجزات وآيات الأنبياء، فلا يمكن على مذهبهم أن يكون انشقاق القمر آية، ولا تكثير الطعام معجزة له وعلما من أعلام نبوته، ولا نبع الماء من بين أصابعه؛ وذلك لأن النبي ﷺ لم يتحد بها، وكذلك نقول: إنه ليس صوابا أن يقال: إنّ الكاهن لو ادعى النبوة وسلم من المعارضة كان ما جاء به دليل نبوة.

وقال رحمه الله: الأشاعرة يجعلون الفرق بين جنس المعجزات والكرامات وخوارق السحرة ادعاء النبوة، وإلا فالجنس واحد وهم إنّما شرطوا ذلك؛ لأنّ كرامات الأولياء عندهم متى اقترن بها دعوى النبوّة كانت آية للنبوة، وجنس السحر والكهانة متى اقترن به دعوى النبوة كان دليلاً على النبوّة عندهم، لكن قالوا: الساحر والكاهن لو ادّعى النبوّة، لكان يُمنع من ذلك، أو يُعارض بمثله. وأمّا الصالح: فلا يدّعي. فكان أصلهم أنّ ما يأتي به النبيّ والساحر والكاهن والولي من جنسٍ واحد، لا يتميّز بعضه عن بعضٍ بوصف، لكن خاصّة النبيّ: اقتران الدعوى، والاستدلال، والتحدي بالمثل بما يأتي به.

فلم يجعلوا لآيات الأنبياء خاصّة تتميّز بها عن السحر والكهانة وعمّا يكون لآحاد المؤمنين، ولم يجعلوا للنبيّ مزيّة على عموم المؤمنين، ولا على السحرة والكهّان من جهة الآيات التي يدل الله بها العباد على صدقه. وهذا افتراءٌ عظيمٌ على الأنبياء وعلى آياتهم، وتسويةٌ بين أفضل الخلق وشرار الخلق، بل تسويةٌ بين ما يدلّ على النبوّة وما يدلّ على نقيضها، فإنّ ما يأتي به السحرة والكهّان لا يكون إلاّ لكذّابٍ فاجرٍ عدوٍّ لله، فهو مناقض للنبوة. فلم يفرقوا بين ما يدلّ على النبوّة وعلى نقيضها، وبين ما لا يدلّ عليها ولا على نقيضها، فإنّ آيات الأنبياء تدلّ على النبوة، وعجائب السحرة والكهّان تدلّ على نقيض النبوّة، وإنّ صاحبها ليس ببرّ ولا عدلٍ ولا وليٍّ لله، فضلاً عن أن يكون نبيّاً، بل يمتنع أن يكون الساحر والكاهن نبيّاً، بل هو من أعداء الله. والأنبياء أفضل خلق الله، وإيمان المؤمنين وصلاحهم لا يناقض النبوة ولا يستلزمها، فهؤلاء سوّوا بين الأجناس الثلاثة، فكانوا بمنزلة من سوّى بين عبادة الرحمن وعبادة الشيطان والأوثان، فإنّ الكهّان والسحرة يأمرون بالشرك وعبادة الأوثان، وما فيه طاعة للشيطان، والأنبياء لا يأمرون إلا بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة ما سوى الله وطاعة الشياطين، فسوّى هؤلاء بين هذا وهذا، ولم يبق الفرق إلا مجرّد تلفّظ المدّعي بأني نبيّ، فإن تلفّظ به كان نبيّاً، وإن لم يتلفّظ به لم يكن نبياً. فالكذّاب المتنبي إذا أتى بما يأتي الساحر والكاهن، وقال: أنا نبيّ، كان نبيّاً.

وناقش شيخ الإسلام الباقلاني فكان مما أورده قوله: إنّه ذكر أنّ الخارق للعادة لا بُدّ أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسَل إليهم، ثمّ جوَّز أن يكون ممّا اعتاده كثيرٌ منهم، بشرط أن يمنعهم عن المعارضة، فيكون ذلك خرق عادة.

ثم قال في الكرامات: لا يجوز أن تكثر حتى تصير عادة؛ لأنّ من حق المعجز على قولنا وقولهم: إن يكن خارقاً للعادة فلا تجوز إدامة ظهوره فيصير عادة، بل يقع نادراً. وقد جوَّزوا في السحر والكهانة أن يكون

عادة، لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة، فكانت الكرامات أولى بذلك هي عادة للصالحين، وإذا ادّعى النبوّة صادقٌ منع من المعارضة. فهذا اضطرابٌ آخر.

وادّعى إجماع الأمة على أنّها لا تظهر على فاسق، ولولا الإجماع لجوّز ذلك؛ لأنّه لا ينقض دليل النبوة، فصارت تدلّ على الولاية بالإجماع، على أنّها لا تظهر إلا على يد نبيّ أو وليّ، فبهذا الإجماع يعلم أنّ من ظهرت على يده وليّ.

وهذا تناقضٌ من وجهين: أحدهما: أنّهم قد قالوا: إنّها لا تدلّ على الولاية؛ لأن الولي من مات على الإيمان. وهذا غير معلوم.

الثاني: أنّه يقال: إذا جوَّزتَ أن يظهر على يد الساحر والكاهن ونحوهما من الكفار ما هو من جنس المعجزات والكرامات، وقلتَ: يجب أن لا يستثنى من السحر شيء لا يفعل عنده، إلا ما ورد الإجماع والتوقيف على أنه لا يكون بضرب من السحر، ولا يفعل عنده، كفلق البحر ونحوه؛ فيكون الفرق بين السحر وغيره إنّما يُعلم بهذا الإجماع إن ثبت، وإلا فعندك يجوز أن يظهر على يد الساحر كل ما يظهر على يد النبيّ إذا لم يدع النبوة، ويحتجّ بذلك إذا ادّعى النبوة، وعارضه معارضٌ بالمثل، فكيف تقول مع هذا إنّ الخوارق تدلّ على الولاية بالإجماع، وأنت تجوّز ظهورها على أيدي الكفار من السحرة والكهان؟

فإن قال: السحر والكهانة كانا قبل الرسول، فلما جاء بطلا.

قيل: أنت قد أثبتَّ أنّه ﷺ نفسه سُحِر بعد النبوة، وأنّ السحر كان على عهد الصحابة، وقتلوا الساحر، وذكرتَ إجماع الفقهاء على أنَّ السحر يكون من المسلمين وأهل الكتاب، والساحر ليس بوليٍّ لله، والسحر عندك هو من جنس الكرامات. فكيف تقول مع هذا: إنّ الخوارق لا تكون إلاَّ لنبيّ، أو وليّ، وأنت تُثبتها للكفار؟

وهذا كلّه من جهة أنّه أخذ جنس الخارق مشتركاً، فجوّز أن يكون للنبيّ وغير النبيّ، مع قوله: إنّ الخارق لا بُدّ أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسَل إليهم، ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة، وحينئذٍ فاشتراط كونه خارقاً ومختصاً بمقدور الربّ باطلٌ.

وهو قد حكى أنّ الاجماع على أنّ المعجز لا بُدّ أن يكون خارقاً للعادة، فقال: اعلموا –رحمكم الله– أنّ الكلّ من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجز أن يكون خارقاً للعادة. ثم ساق كلام الباقلاني.

النبوات.

وقد ردّ –رحمه الله– على الأشاعرة في تجويزهم أن تكون الكهانة آية للأنبياء، وكذلك ردّ على كون الكاهن يأتي بمثل ما يأتي به الأنبياء –عليهم السلام– فقال: وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم، وبينها وبين غيرها من الفروق ما لا يكاد يحصى.

الأول: أنّ النبيّ صادقٌ فيما يخبر به عن الكتب لا يكذب قط، ومن خالفهم من السحرة والكهّان لا بُدّ أن يكذب، كما قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

الثاني: من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله، فإنّ الأنبياء لا يأمرون إلاّ بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده وأعمالهم البر والتقوى، ومخالفوهم يأمرون بالشرك والظلم ويعظّمون الدنيا، وفي أعمالهم الإثم والعدوان.

الثالث: أنَّ السحر والكهانة ونحوهما أمور معتادة معروفة لأصحابها ليست خارقة لعادتهم، وآيات الأنبياء لا تكون إلا لهم ولمن اتّبعهم.

الرابع: أنَّ الكهانة والسحر يناله الإنسان بتعلّمه وسعيه واكتسابه، وهذا مجرّبٌ عند الناس، بخلاف النبوة فإنّه لا ينالها أحدٌ باكتسابه.

الخامس: أنَّ النبوّة لو قُدِّر أنها تنال بالكسب، فإنّما تُنال بالأعمال الصالحة والصدق والعدل والتوحيد، لا تحصل مع الكذب على من دون الله، فضلاً عن أن تحصل مع الكذب على الله، فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزمٌ للصدق على الله فيما يُخبر به.

السادس: أنَّ ما يأتي به الكهّان والسحرة، لا يخرج عن كونه مقدوراً للجنّ والإنس، وهم مأمورون بطاعة الرسل، وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جنّ ولا إنس، بل هي خارقة لعادة كلّ من أُرسل النبيّ إليه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(١)

السابع: أنَّ هذه يمكن أن تُعارض بمثلها، وآيات الأنبياء لا يمكن أحداً أن يعارضها بمثلها.

الثامن: أنَّ تلك ليست خارقة لعادات بني آدم، بل كلّ ضربٍ منها معتادٌ لطائفة غير الأنبياء، وأما آيات الأنبياء فليست معتادة لغير الصادقين على الله ولمن صدّقهم.

التاسع: أنَّ هذه قد لا يقدر عليها مخلوق لا الملائكة ولا غيرهم، كإنزال القرآن وتكليم موسى، وتلك تقدر عليها الجنّ والشياطين.

العاشر: أنَّه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة، فإنّ الملائكة لا تكذب على الله، ولا تقول لبشر إنَّ الله أرسلك ولم يرسله، وإنما يفعل ذلك الشياطين، والكرامات معتادة في الصالحين منّا ومَنْ قبلنا، ليست خارقة لعادة الصالحين، وآيات الأنبياء خارقة لعادة الصالحين، وهذه تُنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم، ومعجزات الأنبياء لا تُنال بذلك، ولو طلبها النّاس حتى يأذن الله فيها ﴿قُلْ إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ﴾(٢) ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾(٣)

الحادي عشر: أنَّ النبيّ قد تقدّمه أنبياء، فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله، فله نظراء يعتبر بهم، وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم.

---

(١) الإسراء: الآية ٨٨.
(٢) الأنعام: الآية ١٠٩.
(٣) الأنعام: الآية ٣٧.

الثاني عشر: أنَّ النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق، وينهى عن الشرك والكذب والظلم، فالعقول والفطر توافقه، كما توافقه الأنبياء قبله، فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عمّا جاء به. والله أعلم.

طرق الناس في دلالة المعجزة على صدق الرسول:

فمن هدى عباده إلى أن يرسلوا رسولاً بعلامة، ويعلم المرسل إليها أنّها علامة تدلّ على صدقه قطعاً، فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولاً، ويجعل معه علامات يعرّف بها عباده أنّه قد أرسله. وهذا كمن جعل غيره قديراً عليماً حكيماً، فهو أولى أن يكون قديراً عليماً حكيماً، فمن جعل الناس يعلمون صدق رسول يُرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله، فمن هدى العباد إلى هذا، فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه مواطأة.

وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول: طريق الحكمة، وطريق القدرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سنته وعادته التي بها يعرف أيضاً ما يفعله، وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وكلّها طرق صحيحة.

وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج، كان الربّ به أجود، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج، كان به أجود؛ فإنه سبحانه الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي خلق فسوّى، والذي قدَّر فهدى، وهو الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى، فكيف لا يقدر أن يهدي عباده إلى أن يعلموا أنّ هذا رسوله، وأنّ ما جاء به من الآيات أنّه من الله؟ وهي شهادة من الله له بصدقه، وكيف تقتضي حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب؟ فيؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يؤيّد به الصادق؛ حتى لا يعرف هذا من هذا، وأن يرسل رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقاً إلى معرفة صدقه، وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه، وما لا يقدرون على أن يعلموه، وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزّه عنه سبحانه؛ فإنه لا يكلّف نفساً إلا وسعها، وقد علم من سنته وعادته أنّه لا يؤيد الكذّاب بمثل ما أيّد به الصادق قط، بل لا بد أن يفضحه ولا ينصره، بل لا بد أن يهلكه.

وإذا نصر ملكاً ظالماً مسلطاً، فهو لم يدع النبوة ولا كذب عليه، بل هو ظالم سلّطه على ظالم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضَاً﴾(١) بخلاف من قال: إنّه أرسله، فهذا لا يؤيده تأييداً مستمراً إلا مع الصدق، لكن قد يمهله مدّة ثم يهلكه، كما فعل بمن كذّب الرسل: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدَاً وأَكِيدُ كَيْدَاً فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدَاً﴾(٢) ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الأصل، إنما قيل مضافاً

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٩.
(٢) الطارق: الآية ٣٦١٧:١٩

إلى الله؛ فيُقال: رسول الله، ثم عُرّف باللام؛ فكانت اللام تعاقب الإضافة، كقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُول﴾(١) وقوله: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضَاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذَاً﴾(٢) وكذلك اسم النبي، يقال نبي الله، كما قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣) وقيل لهم: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضَاً﴾ فتقولون: يا مُحَمَّد. بل قولوا: يا نبيّ الله، يا رسول الله. ورسول: فعول بمعنى مفعول أي مُرْسَل، فرسول الله: الذي أرسله الله؛ فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول أي منبّأ الله الذي نبأه الله، وهذا أجود من أن يقال: إنه بمعنى فاعل؛ أي منبِّئ؛ فإنّه إذا نبّأه الله، فهو نبيّ الله، سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه؛ فالذي صار به النبيّ نبيّاً أن ينبئه الله، وهذا مما يبيّن ما امتاز به عن غيره؛ فإنه إذا كان الذي ينبئه الله؛ كما أنّ الرسول هو الذي يُرسله الله؛ فما نبّأ الله حقّ وصدق، ليس فيه كذب لا خطأ ولا عمداً، وما يوحيه الشيطان هو من إيحائه، ليس من إنباء الله، فالذي اصطفاه الله لإنبائه وجعله نبيّاً له، كالذي اصطفاه لرسالته وجعله رسولاً له، فكما أنّ رسول الله لا يكون رسولاً لغيره، فلا يقبل أمر غير الله، فكذلك نبيّ الله لا يكون نبيّاً لغير الله، فلا يقبل أنباء أحد إلا أنباء الله، وإذا أخبر بما أنبأ الله، وجب الإيمان به؛ فإنّه صادق مصدوق، ليس في شيء مما أنبأه الله به شيء من وحي الشيطان.

وهذا بخلاف غير النبيّ، فإنّه وإن كان قد يُلهم ويحدث، ويوحى إليه أشياء من الله ويكون حقّاً، فقد يلقي إليه الشيطان أشياء، ويشتبه هذا بهذا؛ فإنه ليس نبيّاً لله، كما أنّ الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله، فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله، بخلاف الرسول المبلّغ عن الله، فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾(٥) فنبيّ الله هو الذي ينبّئه الله، لا غيره.

ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون، فقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ والملائكة وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٧) وليس كل من أوحي إليه الوحي العام يكون نبيّاً، فإنه قد يوحى

(١) المزمل: الآية ١٥.
(٢) النور: الآية ٦٣.
(٣) البقرة: الآية ٩١.
(٤) النساء: الآية ٨٠.
(٥) النساء: الآية ٦٤.
(٦) البقرة: الآية ١٣٦.
(٧) البقرة: الآية ١٧٧.

إلى غير الناس، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(٢) وقال تعالى عن يوسف وهو صغير: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُون﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾(٥) وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً﴾(٦) يتناول وحي الأنبياء وغيرهم كالمحدّثين الملهمين، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنّه قال: {قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فعمر منهم}(٧) وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلامٌ يكلّم به الربّ عبده في منامه. فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطابٌ وإلهام، وليسوا بأنبياء معصومين مصدّقين في كلّ ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب، بل من إيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء، فهم الذين يُفرّقون بين وحي الرحمن ووحي الشيطان، فإن الشياطين أعداؤهم، وهم يوحون بخلاف وحي الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(٨) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(٩)

---

(١) النحل: الآية ٦٨.
(٢) فصلت: الآية ١٢.
(٣) يوسف: الآية ١٥.
(٤) القصص: الآية ٧.
(٥) المائدة: الآية ١١١.
(٦) الشورى: الآية ٥١.
(٧) رواه البخاري حديث ٣٦٨٩، ومسلم٢٣٩٨.
(٨) الأنعام: الآية ١١٢.
(٩) الأنعام: الآية ١٢١.

المبحث الخامس
الصوفية والجبرية والكهانة

علم المكاشفة الصوفي والتأصيل للكهانة:

يكثر الصوفية الحديث عن علم المكاشفة، ويتحدثون عن تجاربهم فيه، ويسوقون الكثير من القصص حول الكشف، والكشف: حالة من الشفاف الروحي يصل إليها الإنسان الصالح المؤمن؛ فينكشف له بعض أمور الغيب، أما علم المكاشفة بالمفهوم الصوفي فهو وافد خطير في تاريخ التصوف.(١)

الكشف في عرف الصوفية:

يعرف الصوفية الكشف بأنه رفع الحجاب. والكشف عند الصوفية أنواع، وكل نوع يحتمل أنواعاً ودرجات، ويتناول الكشف عندهم: الكشف عن الأمور الشرعية والكونية، وكل ما يصح أن يكون موضوعا للمعرفة، مثل رؤية النبي ﷺ بعد موته، ورؤية الخضر، وكذلك الإلهام والفراسة، والهواتف والرؤى، ودعواهم الإسراءات والمعارج وغير ذلك.(٢) فهذه الضلالات كلها والتي فتحت على الإمة شرا مستطيرا مؤسسة على علم الكشف الصوفي ونتيجة له، وهذا كله من تلاعب الشياطين بهم ووحيه لهم.

والكشف الحسي في المفهوم الصوفي هو: كهانة في حقيقة الأمر، تكاشفهم الشياطين ببعض المسائل الحسية، فيكاشفون هم مريديهم ويزعمون أن هذا وحي من الله تعالى، وليس هذا في الحقيقة إلا كهانة سموها بغير اسمها، قال الدكتور السهلي: الكشف الحسي هو: الكشف عن حقائق الوجود من العرش إلى الفرش، بارتفاع الحجب الحسية عن عين القلب وعين البصر، وهو المراد بالكشف عند الإطلاق.(٣)

ويزعمون أنّ الكشف هو رفع الحجب عن قلب الصوفي وبصره بعد اتحاده مع الله؛ ليعلم صاحب الكشف بعد ذلك كل ما يجرى، وكذلك من أنواع الكشف الكشف عن معان جديدة في القرآن والسنة والآثار، فيما يعرف بعلم الحقيقة التي لا يعلمها علماء الشريعة أو علماء الظاهر.(٤)

الكهانة والكشف، علوم الطب البديلة والطبيعية:

تأتى قضية الكشف الآن ليس باسم الكشف، بل تحت شعار زيادة الطاقة، من ذلك قولهم إنك تتخذ نظارة لانكسار النظر في الأماكن المربعة، فإن الغالب على أبناء البادية والفلاحين عدم حدوث ذلك، والسبب أنه يقل عندهم موضوع انكسار النظر، ويدعون أنّ الطاقة ترفع قوة البدن وإذا رفعت قوة البدن بالطاقة بدأت ترى في محيطك مالا يراه غيرك، وتكون مثل جهاز الميكروسكوب فترى بالمجهر ما لا تراه

---

(١) علم المكاشفة في إحياء علوم الدين دراسة نقدية: أ.د عبد الله بن دجين السهلي، ص٥، دار كنوز إشبيليا. الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.
(٢) علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي ص١٣ بتصرف.
(٣) علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي ص١٣ بتصرف يسير.
(٤) علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي ص١٣ بتصرف يسير.

بالعين المجردة، ويضعون عدسات ترفع الطاقة بزعمهم، وتريك العوالم الخفية، ولا بد كذلك من الصيام، ولا بد من بعض الأطعمة المخصوصة.

يقول شيخ الإسلام [(١)]: ثُمَّ إنَّ مِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُدَّعِينَ لِحَقَائِقِ الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ الْمُخَالِفِينَ لِلسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، يَحْتَجُّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا يَقَعُ لَهُ مِنْ حَدِيثٍ مَوْضُوعٍ أَوْ مُجْمَلٍ لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ، وَكُلَّمَا وَجَدَ أَثَرًا فِيهِ إجْمَالٌ نَزَّلَهُ عَلَى رَأْيِهِ.

فَيَحْتَجُّ بَعْضُهُمْ بِالْمَكْذُوبِ مِثْلِ الْمَكْذُوبِ الْمَنْسُوبِ إلَى عُمَرَ: " كُنْت كَالزِّنْجِيِّ" (لقولهم بالأسرار الصوفية) وَمِثْلُ مَا يَرْوُونَهُ مِنْ "سِرِّ الْمِعْرَاجِ" وَمَا يَرْوُونَهُ مِنْ "أَنَّ أَهْلَ الصُّفَّةِ" سَمِعُوا الْمُنَاجَاةَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ الرَّسُولُ، فَلَمَّا نَزَلَ الرَّسُولُ أَخْبَرُوهُ فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ سَمِعْتُمْ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَسْمَعُ الْخِطَابَ. حَتَّى أَنِّي لَمَّا بَيَّنْت لِطَائِفَةٍ تمشيخوا وَصَارُوا قُدْوَةً لِلنَّاسِ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ قَطُّ.

وَيُبَيِّنُ لَك ذَلِكَ أَنَّ الْمِعْرَاجَ كَانَ بِمَكَّةَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَبِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَالصُّفَّةُ إنَّمَا كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ، فَمِنْ أَيْنَ كَانَ بِمَكَّةَ أَهْلُ صُفَّةٍ؟ وَكَذَلِكَ احْتِجَاجُهُمْ بِأَنَّ أَهْلَ الصُّفَّةِ قَاتَلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا انْتَصَرُوا، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ لِيَحْتَجُّوا بِذَلِكَ عَلَى مُتَابَعَةِ الْوَاقِعِ، سَوَاءٌ كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ أَوْ مَعْصِيَةً، وَلِيَجْعَلُوا حُكْمَ دِينِهِ هُوَ مَا كَانَ كَمَا قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾[(٢)] وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الْمُجْمَلَاتُ: فَمِثْلُ احْتِجَاجِهِمْ بِنَهْيِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ عَنْ ذِكْرِ بَعْضِ خَفِيِّ الْعِلْمِ، كَقَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ وَقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: "مَا مِنْ رَجُلٍ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ" وَقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ: "مَا يُؤَمِّنُك أَنِّي لَوْ أَخْبَرْتُك بِتَفْسِيرِهَا كَفَرْت وَكُفْرُك بِهَا تَكْذِيبُك بِهَا"

وَهَذِهِ الْآثَارُ حَقٌّ لَكِنْ يُنَزِّلُ كُلٌّ مِنْهُمْ ذَاكَ الَّذِي لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ، عَلَى مَا يَدَّعِيهِ هُوَ مِنْ الْأَسْرَارِ وَالْحَقَائِقِ الَّتِي إذَا كُشِفَتْ وُجِدَتْ مِنْ الْبَاطِلِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، حَتَّى إنَّ أَبَا حَامِدٍ الْغَزَالِيَّ فِي (مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ) وَغَيْرِهِ هُوَ وَأَمْثَالُهُ تَمَثَّلَ بِمَا يُرْوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ قَالَ، وحاشاه -رضي الله عنه- وعن آبائه وصلّى على جده- أن يريد ما أرادوا لو صحّ عنه:

يَا رُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ ... لَقِيلَ لِي: أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثَنَا
وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي ... يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنَا

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ طُرُقَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ مِنْ التَّحْقِيقِ وَعُلُومِ الْأَسْرَارِ مَا خَرَجُوا بِهِ عَنْ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّ تِلْكَ الْعُلُومَ الدِّينِيَّةَ أَوْ الْكَوْنِيَّةَ مُخْتَصَّةٌ بِهِمْ فَآمَنُوا بِمُجْمَلِهَا وَمُتَشَابِهِهَا، وَأَنَّهُمْ مُنِحُوا مِنْ حَقَائِقِ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣٠٧)
(٢) الأنعام: الآية ١٤٨.

الْعِبَادَاتِ وَخَالِصِ الدِّيَانَاتِ مَا لَمْ يُمْنَحْ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ حُفَّاظُ الْإِسْلَامِ وَبُدُورُ الْمِلَّةِ، وَلَمْ يَتَجَرَّءُوا عَلَيْهَا بِرَدٍّ وَتَكْذِيبٍ مَعَ ظُهُورِ الْبَاطِلِ فِيهَا تَارَةً وَخَفَائِهِ أُخْرَى. فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَقْلَ وَالدِّينَ يَقْتَضِيَانِ أَنَّ جَانِبَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ أَحَقُّ بِكُلِّ تَحْقِيقٍ وَعِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَإِحَاطَةٍ بِأَسْرَارِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا هَذَا لَا يُنَازِعُ فِيهِ مُؤْمِنٌ، وَنَحْنُ الْآنَ فِي مُخَاطَبَةِ مَنْ فِي قَلْبِهِ إيمَانٌ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَعْلَمُ النَّاسِ بِذَلِكَ أَخَصُّهُمْ بِالرَّسُولِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَبَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَصْحَابِهِ وَسِيرَتِهِ وَأَيَّامِهِ، وَأَعْظَمُهُمْ بَحْثًا عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ نَقَلَتِهِ، وَأَعْظَمُهُمْ تَدَيُّنًا بِهِ وَاتِّبَاعًا لَهُ وَاقْتِدَاءً بِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ حِفْظًا لَهُ، وَمَعْرِفَةً بِصَحِيحِهِ وَسَقِيمِهِ، وَفِقْهًا فِيهِ وَفَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ إيَّاهُ فِي مَعَانِيهِ، وَإِيمَانًا وَتَصْدِيقًا وَطَاعَةً وَانْقِيَادًا وَاقْتِدَاءً وَاتِّبَاعًا، مَعَ مَا يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ عَقْلِهِمْ وَقِيَاسِهِمْ وَتَمْيِيزِهِمْ وَعَظِيمِ مُكَاشَفَاتِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ أَسَدُّ النَّاسِ نَظَرًا وَقِيَاسًا وَرَأْيًا وَأَصْدَقُ النَّاسِ رُؤْيَا وَكَشْفًا. أَفَلَا يَعْلَمُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ وَدِينٍ أَنَّ هَؤُلَاءِ أَحَقُّ بِالصِّدْقِ وَالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالتَّحْقِيقِ مِمَّنْ يُخَالِفُهُمْ، وَأَنَّ عِنْدَهُمْ مِنْ الْعُلُومِ مَا يُنْكِرُهَا الْجَاهِلُ وَالْمُبْتَدِعُ، وَأَنَّ الَّذِي عِنْدَهُمْ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَأَنَّ الْجَاهِلَ بِأَمْرِهِمْ وَالْمُخَالِفَ لَهُمْ هُوَ الَّذِي مَعَهُ مِنْ الْحَشْوِ مَا مَعَهُ، وَمِنْ الضَّلَالِ كَذَلِكَ.

وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ شَرْحُهُ، فَإِنَّ النُّفُوسَ لَهَا مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ مَا لَا يَحْصُرُهُ إلَّا ذُو الْجَلَالِ، وَالْأَقْوَالُ إخبارات وَإِنْشَاءَاتٌ كَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَأَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَأَصْدَقُهُ كِتَابُ اللَّهِ، خَبَرُهُ أَصْدَقُ الْخَبَرِ وَبَيَانُهُ أَوْضَحُ الْبَيَانِ وَأَمْرُهُ أَحْكَمُ الْأَمْرِ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)]

الحلاج والكهانة والمخاريق:

كان الحلاج ساحرا كاهنا مشعوذا، قد بينا تعاطيه السحر وأدلة ذلك في كتاب (احتساب شيخ الإسلام على السحر) ونذكر هنا ما ذكره شيخ الإسلام من كهانته وأعماله الشيطانية، ومن شعوذته وأعماله البهتانية، فقد جمع هذا الرجل من الشر ما جمع، فقد كان ساحراً كما كان كاهنا متعاملا مع الشياطين، كما كان مشعوذاً كاذباً عنده مخاريق يضحك بها أيضا على عقول طائفة.

وهذه فتوى شيخ الإسلام فيه مع تناوله له في مواضع أخرى وفي مصنفات عدة.

سئل رحمه الله[(٢)]: مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- فِي الْحَلَّاجِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورٍ، هَلْ كَانَ صِدِّيقًا أَوْ زِنْدِيقًا؟ وَهَلْ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ مُتَّقِيًا لَهُ أَمْ كَانَ لَهُ حَالٌ رَحْمَانِيٌّ؟ أَوْ مِنْ أَهْلِ السِّحْرِ وَالْخُزَعْبَلَاتِ؟ وَهَلْ قُتِلَ عَلَى الزَّنْدَقَةِ بِمَحْضَرِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ قُتِلَ مَظْلُومًا؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ.

---

(١) الجاثية: الآية ٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٩/ ص ٢١٤)

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَد بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنِ تيمية قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الْحَلَّاجُ قُتِلَ عَلَى الزَّنْدَقَةِ الَّتِي ثَبَتَتْ عَلَيْهِ بِإِقْرَارِهِ وَبِغَيْرِ إقْرَارِهِ، وَالْأَمْرُ الَّذِي ثَبَتَ عَلَيْهِ بِمَا يُوجِبُ الْقَتْلَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ قَالَ إنَّهُ قُتِلَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ إمَّا مُنَافِقٌ مُلْحِدٌ وَإِمَّا جَاهِلٌ ضَالٌّ، وَالَّذِي قُتِلَ بِهِ مَا اسْتَفَاضَ عَنْهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَبَعْضُهُ يُوجِبُ قَتْلَهُ، فَضْلًا عَنْ جَمِيعِهِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، بَلْ كَانَ لَهُ عِبَادَاتٌ وَرِيَاضَاتٌ وَمُجَاهَدَاتٌ: بَعْضُهَا شَيْطَانِيٌّ وَبَعْضُهَا نَفْسَانِيٌّ وَبَعْضُهَا مُوَافِقٌ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، فَلَبَّسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَكَانَ قَدْ ذَهَبَ إلَى بِلَادِ الْهِنْدِ وَتَعَلَّمَ أَنْوَاعًا مِنْ السِّحْرِ، وَصَنَّفَ كِتَابًا فِي السِّحْرِ مَعْرُوفًا وَهُوَ مَوْجُودٌ إلَى الْيَوْمِ، وَكَانَتْ لَهُ أَقْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ ومخاريق بهتانية، وَقَدْ جَمَعَ الْعُلَمَاءُ أَخْبَارَهُ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ أَرَّخُوهَا الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِهِ وَالَّذِينَ نَقَلُوا عَنْهُمْ، مِثْلَ أَبِي عَلِيٍّ الْخَطِي ذَكَرَهُ فِي "تَارِيخِ بَغْدَادَ" وَالْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ ذَكَرَ لَهُ تَرْجَمَةً كَبِيرَةً فِي "تَارِيخِ بَغْدَادَ" وَأَبُو يُوسُفَ الْقَزْوِينِيُّ صَنَّفَ مُجَلَّدًا فِي أَخْبَارِهِ، وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ لَهُ فِيهِ مُصَنَّفٌ سَمَّاهُ "رَفْعُ اللَّجَاجِ فِي أَخْبَارِ الْحَلَّاجِ" وَبَسَطَ ذِكْرَهُ فِي تَارِيخِهِ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي فِي "طَبَقَاتِ الصُّوفِيَّةِ" أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمَشَايِخِ ذَمُّوهُ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَعُدُّوهُ مِنْ مَشَايِخِ الطَّرِيقِ، وَأَكْثَرُهُمْ حَطَّ عَلَيْهِ. وَمِمَّنْ ذَمَّهُ وَحَطَّ عَلَيْهِ أَبُو الْقَاسِمِ الجنيد، وَلَمْ يُقْتَلْ فِي حَيَاةِ الجنيد، بَلْ قُتِلَ بَعْدَ مَوْتِ الجنيد، فَإِنَّ الجنيد تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَالْحَلَّاجَ قُتِلَ سَنَةَ بِضْعٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَقَدِمُوا بِهِ إلَى بَغْدَادَ رَاكِبًا عَلَى جَمَلٍ يُنَادَى عَلَيْهِ: هَذَا دَاعِي الْقَرَامِطَةِ، وَأَقَامَ فِي الْحَبْسِ مُدَّةً حَتَّى وُجِدَ مِنْ كَلَامِهِ الْكُفْرُ وَالزَّنْدَقَةُ وَاعْتَرَفَ بِهِ مِثْلُ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي كِتَابٍ لَهُ: مَنْ فَاتَهُ الْحَجُّ فَإِنَّهُ يَبْنِي فِي دَارِهِ بَيْتًا وَيَطُوفُ بِهِ كَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَتَصَدَّقُ عَلَى ثَلَاثِينَ يَتِيمًا بِصَدَقَةٍ ذَكَرَهَا وَقَدْ أَجْزَأَهُ ذَلِكَ عَنْ الْحَجِّ. فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ قُلْت هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالُوا لَهُ: مِنْ أَيْنَ لَك هَذَا؟ قَالَ ذَكَرَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي "كِتَابِ الصَّلَاةِ" فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي أَبُو عُمَرَ: تَكْذِبُ يَا زِنْدِيقُ أَنَا قَرَأْت هَذَا الْكِتَابَ وَلَيْسَ هَذَا فِيهِ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ الْوَزِيرُ أَنْ يَشْهَدُوا بِمَا سَمِعُوهُ وَيُفْتُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ، فَاتَّفَقُوا عَلَى وُجُوبِ قَتْلِهِ، لَكِنَّ الْعُلَمَاءَ لَهُمْ قَوْلَانِ فِي الزِّنْدِيقِ إذَا أَظْهَرَ التَّوْبَةَ: هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ فَلَا يُقْتَلُ أَمْ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ صِدْقَهُ، فَإِنَّهُ مَا زَالَ يَظْهَرُ ذَلِكَ؟ فَأَفْتَى طَائِفَةٌ بِأَنَّهُ يُسْتَتَابُ فَلَا يُقْتَلُ، وَأَفْتَى الْأَكْثَرُونَ بِأَنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِي تَوْبَتِهِ نَفَعَهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ، وَقُتِلَ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ الْحَدُّ تَطْهِيرًا لَهُ، كَمَا لَوْ تَابَ الزَّانِي وَالسَّارِقُ وَنَحْوُهُمَا بَعْدَ أَنْ يُرْفَعُوا إلَى الْإِمَامِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ كَانَ قَتْلُهُمْ كَفَّارَةً لَهُمْ، وَمَنْ كَانَ كَاذِبًا فِي التَّوْبَةِ كَانَ قَتْلُهُ عُقُوبَةً لَهُ، فَإِنْ كَانَ الْحَلَّاجُ وَقْتَ قَتْلِهِ تَابَ فِي الْبَاطِنِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْفَعُهُ بِتِلْكَ التَّوْبَةِ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَإِنَّهُ قُتِلَ كَافِرًا. وَلَمَّا قُتِلَ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ وَقْتَ الْقَتْلِ شَيْءٌ مِنْ الْكَرَامَاتِ، وَكُلُّ مَنْ ذَكَرَ أَنَّ دَمَهُ كَتَبَ عَلَى الْأَرْضِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَنَّ رِجْلَهُ انْقَطَعَ مَاؤُهَا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا يَحْكِيهَا إلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُنَافِقٌ، وَإِنَّمَا وَضَعَهَا الزَّنَادِقَةُ وَأَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: إنَّ شَرْعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقْتُلُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، حَتَّى يَسْمَعُوا

أَمْثَالَ هَذِهِ الهذيانات، وَإِلَّا فَقَدْ قُتِلَ أَنْبِيَاءُ كَثِيرُونَ وَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ وَأَصْحَابِ نَبِيِّنَا ﷺ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الصَّالِحِينَ مَنْ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلَّا اللَّهُ، قُتِلُوا بِسُيُوفِ الْفُجَّارِ وَالْكُفَّارِ وَالظَّلَمَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَمْ يَكْتُبْ دَمُ أَحَدِهِمْ اسْمَ اللَّهِ. وَالدَّمُ أَيْضًا نَجِسٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُكْتَبَ بِهِ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَلْ الْحَلَّاجُ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَدَمُهُ أَطْهَرُ مِنْ دِمَائِهِمْ؟ وَقَدْ جَزِعَ وَقْتَ الْقَتْلِ وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالسُّنَّةَ فَلَمْ يُقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَوْ عَاشَ افْتَتَنَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ الْجُهَّالِ لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ خُزَعْبَلَاتٍ بهتانية وَأَحْوَالٍ شَيْطَانِيَّةٍ؛ وَلِهَذَا إنَّمَا يُعَظِّمُهُ مَنْ يُعَظِّمُ الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ والنفسانية والبهتانية، وَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْعَالِمُونَ بِحَالِ الْحَلَّاجِ فَلَيْسَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ يُعَظِّمُهُ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ القشيري فِي مَشَايِخِ رِسَالَتِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ ذَكَرَ مِنْ كَلَامِهِ كَلِمَاتٍ اسْتَحْسَنَهَا. وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُو يَعْقُوبَ النهرجوري قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَتِهِ فَلَمَّا اطَّلَعَ عَلَى زَنْدَقَتِهِ نَزَعَهَا مِنْهُ (ترجمته موجودة في كتاب احتساب السحر) وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ يَذْكُرُ أَنَّهُ كَافِرٌ وَيَقُولُ: كُنْت مَعَهُ فَسَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَقَالَ: أَقْدِرُ أَنْ أُصَنِّفَ مِثْلَ هَذَا الْقُرْآن، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنْ الْكَلَامِ. وَكَانَ يُظْهِرُ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ مَا يَسْتَجْلِبُهُمْ بِهِ إلَى تَعْظِيمِهِ، فَيُظْهِرُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ سُنِّيٌّ وَعِنْدَ أَهْلِ الشِّيعَةِ أَنَّهُ شِيعِيٌّ، وَيَلْبَسُ لِبَاسَ الزُّهَّادِ تَارَةً، وَلِبَاسَ الْأَجْنَادِ تَارَةً.

وَكَانَ مِنْ مخاريقه أَنَّهُ بَعَثَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ إلَى مَكَانٍ فِي الْبَرِّيَّةِ يُخَبِّئُ فِيهِ شَيْئًا مِنْ الْفَاكِهَةِ وَالْحَلْوَى، ثُمَّ يَجِيءُ بِجَمَاعَةِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا إلَى قَرِيبٍ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ فَيَقُولُ لَهُمْ: مَا تَشْتَهُونَ أَنْ آتِيَكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ؟ فَيَشْتَهِي أَحَدُهُمْ فَاكِهَةً أَوْ حَلَاوَةً فَيَقُولُ: اُمْكُثُوا؛ ثُمَّ يَذْهَبُ إلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ وَيَأْتِي بِمَا خَبَّأَ أَوْ بِبَعْضِهِ، فَيَظُنُّ الْحَاضِرُونَ أَنَّ هَذِهِ كَرَامَةٌ لَهُ، وَكَانَ صَاحِبُ سِيمَا وَشَيَاطِينَ تَخْدِمُهُ، أَحْيَانًا كَانُوا مَعَهُ عَلَى جَبَلِ أَبِي قبيس فَطَلَبُوا مِنْهُ حَلَاوَةً، فَذَهَبَ إلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْهُمْ وَجَاءَ بِصَحْنِ حَلْوَى، فَكَشَفُوا الْأَمْرَ، فَوَجَدُوا ذَلِكَ قَدْ سُرِقَ مِنْ دُكَّانِ حلاوي بِالْيَمَنِ حَمَلَهُ شَيْطَانٌ مِنْ تِلْكَ الْبُقْعَةِ. وَمِثْلُ هَذَا يَحْصُلُ كَثِيرًا لِغَيْرِ الْحَلَّاجِ مِمَّنْ لَهُ حَالٌ شَيْطَانِيٌّ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ فِي زَمَانِنَا وَغَيْرِ زَمَانِنَا، مِثْلَ شَخْصٍ هُوَ الْآنَ بِدِمَشْقَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَحْمِلُهُ مِنْ جَبَلِ الصالحية إلَى قَرْيَةٍ حَوْلَ دِمَشْقَ، فَيَجِيءُ مِنْ الْهَوَى إلَى طَاقَةِ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ النَّاسُ فَيَدْخُلُ وَهُمْ يَرَوْنَهُ، وَيَجِيءُ بِاللَّيْلِ إلَى "بَابِ الصَّغِيرِ" فَيَعْبُرُ مِنْهُ هُوَ وَرُفْقَتُهُ وَهُوَ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ، وَآخَرُ كَانَ بالشويك فِي قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا "الشَّاهِدَةُ" يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ إلَى رَأْسِ الْجَبَلِ وَالنَّاسُ يَرَوْنَهُ، وَكَانَ شَيْطَانٌ يَحْمِلُهُ وَكَانَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، وَأَكْثَرُهُمْ شُيُوخُ الشَّرِّ يُقَالُ لِأَحَدِهِمْ "الْبَوَّيْ" أَيْ الْمُخْبَثُ، يَنْصِبُونَ لَهُ حَرَكَاتٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَيَصْنَعُونَ خُبْزًا عَلَى سَبِيلِ الْقُرْبَاتِ، فَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ مَنْ يَذْكُرُ اللَّهَ وَلَا كِتَابٌ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ، ثُمَّ يَصْعَدُ ذَلِكَ الْبَوَاء فِي الْهَوَى وَهُمْ يَرَوْنَهُ، وَيَسْمَعُونَ خِطَابَهُ لِلشَّيْطَانِ وَخِطَابَ الشَّيْطَانِ لَهُ، وَمَنْ ضَحِكَ أَوْ شَرَقَ بِالْخُبْزِ ضَرَبَهُ الدُّفُّ، وَلَا يَرَوْنَ مَنْ يَضْرِبُ بِهِ، ثُمَّ إنَّ الشَّيْطَانَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ مَا يَسْأَلُونَهُ عَنْهُ، وَيَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يُقَرِّبُوا لَهُ بَقَرًا وَخَيْلًا وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأَنْ يَخْنُقُوهَا خَنْقًا وَلَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، فَإِذَا فَعَلُوا قَضَى حَاجَتَهُمْ.

وَشَيْخٌ آخَرُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَانَ يَزْنِي بِالنِّسَاءِ، ويتلوط بِالصِّبْيَانِ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ "الحِوَارَات" وَكَانَ يَقُولُ: يَأْتِينِي كَلْبٌ أَسْوَدُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُكْتَتَانِ بَيْضَاوَانِ فَيَقُولُ لِي: فُلَانٌ إنَّ فُلَانًا نَذَرَ لَك نَذْرًا وَغَدًا يَأْتِيك بِهِ وَأَنَا قَضَيْت حَاجَتَهُ لِأَجْلِك، فَيُصْبِحُ ذَلِكَ الشَّخْصُ يَأْتِيهِ بِذَلِكَ النَّذْرِ، وَيُكَاشِفُهُ هَذَا الشَّيْخُ الْكَافِرُ. قَالَ: وَكُنْت إذَا طَلَبَ مِنِّي تَغْيِيرَ مِثْلِ اللَّاذَنِ، أَقُولُ: حَتَّى أَغِيبَ عَنْ عَقْلِي، وَإِذْ بِاللَّاذَنِ فِي يَدِي أَوْ فِي فَمِي وَأَنَا لَا أَدْرِي مَنْ وَضَعَهُ، قَالَ: وَكُنْت أَمْشِي وَبَيْنَ يَدَيَّ عَمُودٌ أَسْوَدُ عَلَيْهِ نُورٌ، فَلَمَّا تَابَ هَذَا الشَّيْخُ وَصَارَ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَجْتَنِبُ الْمَحَارِمَ ذَهَبَ الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ وَذَهَبَ التَّغْيِير، فَلَا يُؤْتَى بِلَاذَنِ وَلَا غَيْرِهِ.

وَشَيْخٌ آخَرُ كَانَ لَهُ شَيَاطِينُ يُرْسِلُهُمْ يَصْرَعُونَ بَعْضَ النَّاسِ، فَيَأْتِي أَهْلُ ذَلِكَ الْمَصْرُوعِ إلَى الشَّيْخِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ إبْرَاءَهُ، فَيُرْسِلُ إلَى أَتْبَاعِهِ فَيُفَارِقُونَ ذَلِكَ الْمَصْرُوعَ، وَيُعْطُونَ ذَلِكَ الشَّيْخَ دَرَاهِمَ كَثِيرَةً، وَكَانَ أَحْيَانًا تَأْتِيهِ الجِنُّ بِدَرَاهِمَ وَطَعَامٍ تَسْرِقُهُ مِنْ النَّاسِ، حَتَّى إنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَانَ لَهُ تِينٌ فِي كوارة، فَيَطْلُبُ الشَّيْخُ مِنْ شَيَاطِينِهِ تِينًا فَيُحْضِرُونَهُ لَهُ، فَيَطْلُبُ أَصْحَابُ الْكُوَّارَةِ التِّينَ فَوَجَدُوهُ قَدْ ذَهَبَ.

وَآخَرُ كَانَ مُشْتَغِلًا بِالْعِلْمِ وَالْقِرَاءَةِ فَجَاءَتْهُ الشَّيَاطِينُ أَغْرَتْهُ، وَقَالُوا لَهُ: نَحْنُ نُسْقِطُ عَنْك الصَّلَاةَ وَنُحْضِرُ لَك مَا تُرِيدُ، فَكَانُوا يَأْتُونَهُ بِالحَلْوَى وَالْفَاكِهَةِ حَتَّى حَضَرَ عِنْدَ بَعْضِ الشُّيُوخِ الْعَارِفِينَ بِالسُّنَّةِ فَاسْتَتَابَهُ، وَأَعْطَى أَهْلَ الحَلَاوَةِ ثَمَنَ حَلَاوَتِهِمْ الَّتِي أَكَلَهَا ذَلِكَ الْمَفْتُونُ بِالشَّيْطَانِ.

فَكُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَانَ لَهُ حَالٌ: مِنْ مُكَاشَفَةٍ أَوْ تَأْثِيرٍ فَإِنَّهُ صَاحِبُ حَالٍ نَفْسَانِيٍّ أَوْ شَيْطَانِيٍّ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَالٌ بَلْ هُوَ يَتَشَبَّهُ بِأَصْحَابِ الْأَحْوَالِ فَهُوَ صَاحِبُ حَالٍ بهتاني. وَعَامَّةُ أَصْحَابِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الحَالِ الشَّيْطَانِيِّ وَالحَالِ البهتاني، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ و"الحَلَّاجُ" كَانَ مِنْ أَئِمَّةِ هَؤُلَاءِ: أَهْلُ الحَالِ الشَّيْطَانِيِّ وَالحَالِ البهتاني. وَهَؤُلَاءِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ، فَأَئِمَّةُ هَؤُلَاءِ هُمْ شُيُوخُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، مِثْلَ الْكُهَّانِ وَالسَّحَرَةِ الَّذِينَ كَانُوا لِلعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ، وَمِثْلَ الْكُهَّانِ الَّذِينَ هُمْ بِأَرْضِ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إذَا مَاتَ لَهُمْ مَيِّتٌ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَجِيءُ بَعْدَ الْمَوْتِ

فَيُكَلِّمُهُمْ وَيَقْضِي دُيُونَهُ وَيَرُدُّ وَدَائِعَهُ وَيُوصِيهِمْ بِوَصَايَا، فَإِنَّهُمْ تَأْتِيهِمْ تِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الحَيَاةِ، وَهُوَ شَيْطَانٌ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِهِ فَيَظُنُّونَهُ إيَّاهُ. وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَسْتَغِيثُ بِالْمَشَايِخِ فَيَقُولُ: يَا سَيِّدِي فُلَانٌ أَوْ يَا شَيْخُ فُلَانٍ اقْضِ حَاجَتِي، فَيَرَى صُورَةَ ذَلِكَ الشَّيْخِ تُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا أَقْضِي حَاجَتَك وَأُطَيِّبُ قَلْبَك، فَيَقْضِي حَاجَتَهُ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ عَدُوَّهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ شَيْطَانًا قَدْ تَمَثَّلَ فِي صُورَتِهِ لَمَّا أَشْرَكَ بِاَللَّهِ فَدَعَا غَيْرَهُ.

وَأَنَا أَعْرِفُ مِنْ هَذَا وَقَائِعُ مُتَعَدِّدَةٌ، حَتَّى إنَّ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِي ذَكَرُوا أَنَّهُمْ اسْتَغَاثُوا بِي فِي شَدَائِدَ أَصَابَتْهُمْ، أَحَدُهُمْ كَانَ خَائِفًا مِنْ الْأَرْمَنِ وَالْآخَرُ كَانَ خَائِفًا مِنْ التتر، فَذَكَرَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَغَاثَ بِي رَآنِي فِي الْهَوَاءِ وَقَدْ دَفَعْت عَنْهُ عَدُوَّهُ، فَأَخْبَرْتهمْ أَنِّي لَمْ أَشْعُرْ بِهَذَا وَلَا دَفَعْت عَنْكُمْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هَذَا الشَّيْطَانُ تَمَثَّلَ لِأَحَدِهِمْ فَأَغْوَاهُ لَمَّا أَشْرَكَ بِاَللَّهِ تَعَالَى.

وَهَكَذَا جَرَى لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِنَا الْمَشَايِخِ مَعَ أَصْحَابِهِمْ، يَسْتَغِيثُ أَحَدُهُمْ بِالشَّيْخِ فَيَرَى الشَّيْخَ قَدْ جَاءَ وَقَضَى حَاجَتَهُ، وَيَقُولُ ذَلِكَ الشَّيْخُ: إنِّي لَمْ أَعْلَمِ بِهَذَا، فَيَتَبَيَّنُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ شَيْطَانًا. وَقَدْ قُلْت لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا لَمَّا ذَكَرَ لِي أَنَّهُ اسْتَغَاثَ بِاثْنَيْنِ كَانَ يَعْتَقِدُهُمَا وَأَنَّهُمَا أَتَيَاهُ فِي الْهَوَاءِ، وَقَالَا لَهُ: طَيِّبِ قَلْبَك نَحْنُ نَدْفَعُ عَنْك هَؤُلَاءِ وَنَفْعَلُ وَنَصْنَعُ. قُلْت لَهُ: فَهَلْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: لَا. فَكَانَ هَذَا مِمَّا دَلَّهُ عَلَى أَنَّهُمَا شَيْطَانَان، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ وَإِنْ كَانُوا يُخْبِرُونَ الْإِنْسَانَ بِقَضِيَّةٍ أَوْ قِصَّةٍ فِيهَا صِدْقٌ فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ أَضْعَافَ ذَلِكَ كَمَا كَانَتْ الْجِنُّ يُخْبِرُونَ الْكُهَّانَ؛ وَلِهَذَا مَنْ اعْتَمَدَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَخْبَارِ الْجِنِّ كَانَ كَذِبُهُ أَكْثَرَ مِنْ صِدْقِهِ، كَشَيْخٍ كَانَ يُقَالُ لَهُ "الشياح" توّبناه وَجَدَّدْنَا إسْلَامَهُ كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنْ الْجِنِّ يُقَالُ لَهُ "عَنْتَرٌ" يُخْبِرُهُ بِأَشْيَاءَ فَيَصْدُقُ تَارَةً وَيَكْذِبُ تَارَةً، فَلَمَّا ذَكَرْت لَهُ أَنَّك تَعْبُدُ شَيْطَانًا مِنْ دُونِ اللَّهِ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: يَا عَنْتَرُ لَا سُبْحَانَك، إنَّك إلَهٌ قَذِرٌ وَتَابَ مِنْ ذَلِكَ فِي قِصَّةٍ مَشْهُورَةٍ. وَقَدْ قَتَلَ سَيْفُ الشَّرْعِ مَنْ قَتَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ مِثْلَ الشَّخْصِ الَّذِي قَتَلْنَاهُ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَكَانَ لَهُ قَرِينٌ يَأْتِيهِ وَيُكَاشِفُهُ فَيَصْدُقُ تَارَةً وَيَكْذِبُ تَارَةً، وَقَدْ انْقَادَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمَنْسُوبِينَ إلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالرِّئَاسَةِ فَيُكَاشِفُهُمْ حَتَّى كَشَفَهُ اللَّهُ لَهُمْ.

رحم الله شيخ الإسلام المحتسب الذي جمع الله من علوم الشريعة وفقهها الشيء الكثير، ولم يكتف –رحمه الله– بأن حوى هذه العلوم بل علّمها عباد الله ودعا إليها، وجاهد في سبيل الله مع ولاة أمره، ونأخذ من قوله مثل ذلك الشخص الذي قتلناه، أنه كان ملتفاً حول ولاة الأمور معاملاً لهم بما أمره به الشرع المطهر، وقد كان لذلك أثر ملموس وفوائد حسنة وآثار جليلة فقمع أهل البدع وأقيمت عليهم الحدود، ونحن نذكر هنا ما كان لدعم ولاة الأمور لنا من أثر طيب مبارك في مقاومة هذا الشرك ومحوه بفضل من الله تعالى. فكم من كاهن ضبط وكفى الله المؤمنين شره، وكم من ساحر أوقف ونال جزاءه، وإني لعازم بإذن الله أن أكتب لاحقاً في هذا الأمر أي الآثار المترتبة على الالتفاف حول ولاة الأمور، وبيان حقهم على الرعية وحق الرعية عليهم.

وإني لأذكر دائماً فضل الله علي وما حباني به ربي من دعم ولاة الأمور لي، الدعم الذى أثمر ثمرات يانعات من خروج للتحذير من هذا الشرك في وسائل الاعلام، ومن سفراتي إلى خارج البلاد محتسباً وناصحاً وموجهاً أو مطلعاً على أحوال الكهان والسحرة خارج أرض المملكة، أو واقفاً على كتب الكهانة والسحر وأدواتهم في مشارق الأرض ومغاربها، فإنّ فضل هذه الدولة السعودية بعد الله في ذلك يذكر ويشكر، وإني خاصة لأشكر لهذه الدولة الموحدة دعمها لي في مقارعة الشرك والمشركين من الكهانة والمنجمين والسحر وأهل كل باطل، بالقبض على هؤلاء وتنفيذ أمر الله فيهم كما قد علمت قبل ذلك.

قال شيخ الإسلام: وَذَلِكَ أَنَّ الْقَرِينَ كَانَ تَارَةً يَقُولُ لَهُ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَيَذْكُرُ أَشْيَاءَ تُنَافِي حَالَ الرَّسُولِ، فَشَهِدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: إنَّ الرَّسُولَ يَأْتِينِي وَيَقُولُ لِي كَذَا وَكَذَا مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يَكْفُرُ مَنْ أَضَافَهَا إلَى

الرَّسُولِ، فَذَكَرْت لِوُلَاةِ الْأُمُورِ أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ وَأَنَّ الَّذِي يَرَاهُ شَيْطَانًا؛ وَلِهَذَا لَا يَأْتِيهِ فِي الصُّورَةِ الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَلْ يَأْتِيهِ فِي صُورَةٍ مُنَكَّرَةٍ وَيَذْكُرُ عَنْهُ أَنَّهُ يَخْضَعُ لَهُ، وَيُبِيحُ لَهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْمُسْكِرَ وَأُمُورًا أُخْرَى. وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنْ الرُّؤْيَةِ، وَلَمْ يَكُنْ كَاذِبًا فِي أَنَّهُ رَأَى تِلْكَ الصُّورَةَ، لَكِنْ كَانَ كَافِرًا فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ؛ وَلِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تنزلات شَيْطَانِيَّةٌ بِحَسَبِ مَا فَعَلُوهُ مِنْ مُرَادِ الشَّيْطَانِ، فَكُلَّمَا بَعُدُوا عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَطَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ قَرُبُوا مِنْ الشَّيْطَانِ، فَيَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ وَالشَّيْطَانُ طَارَ بِهِمْ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَصْرَعُ الْحَاضِرِينَ وَشَيَاطِينُهُ صَرَعَتْهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْضِرُ طَعَامًا وَإِدَامًا وَمَلَأَ الْإِبْرِيقَ مَاءً مِنْ الْهَوَاءِ، وَالشَّيَاطِينُ فَعَلَتْ ذَلِكَ فَيَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَّ هَذِهِ كَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جِنْسِ أَحْوَالِ السَّحَرَةِ وَالْكَهَنَةِ وَأَمْثَالِهِمْ.

وَمَنْ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ والنفسانية اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَمَنْ لَمْ يُنَوِّرْ اللَّهُ قَلْبَهُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ لَمْ يَعْرِفْ طَرِيقَ الْمُحِقِّ مِنْ الْمُبْطِلِ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالْحَالُ كَمَا الْتَبَسَ عَلَى النَّاسِ، حَالُ مُسَيْلِمَةَ صَاحِبِ الْيَمَامَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْكَذَّابِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ، وَإِنَّمَا هُمْ كَذَّابُونَ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ فِيكُمْ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ} وَأَعْظَمُ الدَّجَاجِلَةِ فِتْنَةً "الدَّجَّالُ الْكَبِيرُ" الَّذِي يَقْتُلُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَإِنَّهُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَتِهِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعِيذُوا مِنْ فِتْنَتِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ: أَمْطِرِي فَتُمْطِرُ؛ وَلِلْأَرْضِ أَنْبِتِي فَتُنْبِتُ، وَأَنَّهُ يَقْتُلُ رَجُلًا مُؤْمِنًا ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ فَيَقُومُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّك. فَيَقُولُ: لَهُ كَذَبْت، بَلْ أَنْتَ الْأَعْوَرُ الْكَذَّابُ الَّذِي أَخْبَرَنَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاَللَّهِ مَا ازْدَدْت فِيك إلَّا بَصِيرَةً، فَيَقْتُلُهُ مَرَّتَيْنِ فَيُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَهُ فِي الثَّالِثَةِ فَلَا يُسَلِّطُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَدَّعِي الْإِلَهِيَّةَ. وَقَدْ بَيَّنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ تُنَافِي مَا يَدَّعِيهِ: {أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ. وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْ قَارِئٍ وَغَيْرِ قَارِئٍ. وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ: وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ}(١) فَهَذَا هُوَ الدَّجَّالُ الْكَبِيرُ وَدُونَهُ دَجَاجِلَةٌ مِنْهُمْ مِنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، وَمِنْهُمْ مِنْ يُكَذِّبُ بِغَيْرِ ادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: {يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ}(٢)

فَالْحَلَّاجُ كَانَ مِنْ الدَّجَاجِلَةِ بِلَا رَيْبٍ، وَلَكِنْ إذَا قِيلَ: هَلْ تَابَ قَبْلَ الْمَوْتِ أَمْ لَا؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ فَلَا يَقُولُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَلَكِنْ ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ مَا أَوْجَبَ كُفْرَهُ وَقَتْلَهُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ.

---

(١) رواه البخاري حديث ٣٠٥٧، ومسلم ١٦٩.
(٢) رواه مسلم في المقدمة حديث ٦.

تعاطي الصوفية الاتحادية الكهانة وطلبهم ذلك:

قال رحمه الله(١): ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ الْأَحَدُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا وَعَلَى سَائِرِ إخْوَانِهِ الْمُرْسَلِينَ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُك تَلْتَمِسُ فِيهِ بَيَانَ مَذْهَبِ هَؤُلَاءِ الِاتِّحَادِيَّةِ وَبَيَانَ بُطْلَانِهِ، وَأَنَّك كُنْت قَدْ سَمِعْت مِنِّي بَعْضَ الْبَيَانِ لِفَسَادِ قَوْلِهِمْ، وَضَاقَ الْوَقْتُ بِك عَنْ اسْتِتْمَامِ بَقِيَّةِ الْبَيَانِ وَأَعْجَلَك السَّفَرُ، حَتَّى رَأَيْت عِنْدَكُمْ بَعْضَ مَنْ يَنْصُرُ قَوْلَهُمْ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى الطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَصَادَفَ مِنِّي كِتَابُك مَوْقِعًا وَوَجَدْت مَحَلًّا قَابِلًا، وَقَدْ كَتَبْت بِمَا أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَدْفَعَ بِهِ بَأْسَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمُنَزَّلَاتِ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وَيُبَيِّنُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ التَّحْقِيقِ وَالْيَقِينِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْمُهْتَدِينَ وَبَيْنَ مَا عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الزَّنَادِقَةِ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالْعَارِفِينَ، كَمَا تَشَبَّهَ بِالْأَنْبِيَاءِ مَنْ تَشَبَّهَ مِنْ الْمُتَنَبِّئِينَ، كَمَا شَبَّهُوا بِكَلَامِ اللَّهِ مَا شَبَّهُوهُ بِهِ مِنْ الشِّعْرِ الْمُفْتَعَلِ وَأَحَادِيثِ الْمُفْتَرِينَ؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ جِنْسِ الْكُفَّارِ الْمُنَافِقِينَ الْمُرْتَدِّينَ أَتْبَاعِ فِرْعَوْنَ وَالْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيِّينَ وَأَصْحَابِ مُسَيْلِمَةَ والعنسي وَنَحْوِهِمَا مِنْ الْمُفْتَرِينَ، وَأَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مِنْ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ أَوْ مِنْ الْمُقْتَصِدِينَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، هُمْ مِنْ أَتْبَاعِ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَمُوسَى الْكَلِيمِ وَمُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ إلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ.

قَدْ فَرَّقَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ الَّذِي جَعَلَهُ حَاكِمًا بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ، بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢) وَقَالَ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٣) وَقَالَ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤) وَقَدْ بَيَّنَ حَالَ مَنْ تَشَبَّهَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَبِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مَنْ أَهْلِ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ الْمَلْبُوسِ عَلَيْهِمْ اللَّابِسِينَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ تَنَزُّلًا وَوَحْيًا وَلَكِنْ مِنْ الشَّيَاطِينِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بَدَلَهُ بِمَنْ يُقِيمُ دِينَهُ الْمُبِينَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٣٧)
(٢) الجاثية: الآية ٢١.
(٣) ص: الآية ٢٨.
(٤) القلم: الآية ٣٥.
(٥) الأنعام: الآية ١٢١.

لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1] وَذَلِكَ أَنَّ مَذْهَبَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ فِيمَا يَقُولُونَهُ مِنْ الْكَلَامِ وَيَنْظِمُونَهُ مِنْ الشِّعْرِ بَيْنَ حَدِيثٍ مُفْتَرًى وَشِعْرٍ مُفْتَعَلٍ، وَإِلَيْهِمَا أَشَارَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– لَمَّا قَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي بَعْضِ مَا يُخَاطِبُهُ بِهِ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ تَأَلَّفْ النَّاسَ. فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَجَبَّارًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَوَّارًا فِي الْإِسْلَامِ؟ عَلَامَ أَتَأَلَّفُهُمْ أَعَلَى حَدِيثٍ مُفْتَرًى أَمْ شِعْرٍ مُفْتَعَلٍ؟ يَقُولُ: إنِّي لَسْت أَدْعُوهُمْ إلَى حَدِيثٍ مُفْتَرًى كَقُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ وَلَا شِعْرٍ مُفْتَعَلٍ كَشِعْرِ طليحة الأسدي. وَهَذَانِ النَّوْعَانِ: هُمَا اللَّذَانِ يُعَارِضُ بِهِمَا الْقُرْآن أَهْل الْفُجُورِ وَالْإِفْكِ الْمُبِينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ. فَذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَامَةَ الْكُهَّانِ الْكَاذِبِينَ وَالشُّعَرَاءِ الْغَاوِينَ، وَنَزَّهَهُ عَنْ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ كَمَا فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ. فَالرَّسُولُ هنا جِبْرِيلُ وَفِي الْآيَةِ الْأُولَى مُحَمَّدٌ ﷺ وَلِهَذَا نَزَّهَ مُحَمَّدًا هُنَاكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا أَوْ كَاهِنًا، وَنَزَّهَ هُنَا الرَّسُولَ إلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ الشَّيَاطِينِ... إلى أن يقول: وَأَمَّا وَجْهُ تَسْمِيَتِهِمْ اتِّحَادِيَّةً فَفِيهِ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا لَا يَرْضَوْنَهُ لِأَنَّ الِاتِّحَادَ عَلَى وَزْنِ الِاقْتِرَانِ وَالِاقْتِرَانُ يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ اتَّحَدَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَهُمْ لَا يُقِرُّونَ بِوُجُودَيْنِ أَبَدًا.

وَالطَّرِيقُ الثَّانِي: صِحَّةُ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْكَثْرَةَ صَارَتْ وَحْدَةً كَمَا سَأُبَيِّنُهُ مِنْ اضْطِرَابِهِمْ. وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ إمَّا عَلَى مَذْهَبِ ابْنِ عَرَبِيٍّ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْوُجُودَ غَيْرَ الثُّبُوتِ وَيَقُولُ: إنَّ وُجُودَ الْحَقِّ قَاضٍ عَلَى ثُبُوتِ الْمُمْكِنَاتِ، فَيَصِحُّ الِاتِّحَادُ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ. وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ لَا يُفَرِّقُ فَيَقُولُ: إنَّ الْكَثْرَةَ الْخَيَالِيَّةَ صَارَتْ وَحْدَةً بَعْدَ الْكَشْفِ أَوْ الْكَثْرَةَ الْعَيْنِيَّةَ صَارَتْ وَحْدَةً إطْلَاقِيَّةً.

نقول: وبمثل هذه العبارات وهذا الفهم ينطق الكهان في زماننا، ويقولون هذا المعنى ولكن بعبارات عصرية، يفلسفون كهانتهم ويغمضونها لتروج على السذج من العباد.

وقال رحمه الله: فَصْلٌ: وَلَمَّا كَانَ أَصْلُهُمْ الَّذِي بَنَوْا عَلَيْهِ أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمَصْنُوعَاتِ، حَتَّى وُجُود الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ وَالْكَافِرِينَ وَالْفَاسِقِينَ، وَالْكِلَابِ وَالْخَنَازِيرِ وَالنَّجَاسَاتِ، وَالْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ – عَيْنُ وُجُودِ الرَّبِّ لَا أَنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنْهُ مُنْفَصِلٌ عَنْ ذَاتِهِ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا لَهُ مَرْبُوبًا مَصْنُوعًا لَهُ قَائِمًا بِهِ.

وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ فِي الْكَائِنَاتِ تَفَرُّقًا وَكَثْرَةً ظَاهِرَةً بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ، فَاحْتَاجُوا إلَى جَمْعٍ يُزِيلُ الْكَثْرَةَ وَوَحْدَةٍ تَرْفَعُ التَّفَرُّقَ مَعَ ثُبُوتِهَا، فَاضْطَرَبُوا عَلَى ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ. أَنَا أُبَيِّنُهَا لَك وَإِنْ كَانُوا هُمْ لَا يُبَيِّنُ بَعْضُهُمْ مَقَالَةَ نَفْسِهِ وَمَقَالَةَ غَيْرِهِ لِعَدَمِ كَمَالِ شُهُودِ الْحَقِّ وَتَصَوُّرِهِ...الخ.

---

(١) المائدة: الآية ٥٤.

تأثر الصوفية ونقلهم أفكار الفلاسفة، وشغفهم بقضية المكاشفات الكهانية الشيطانية:

فقال رحمه الله(١): وَقَدْ تَفَرَّقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ مَطَالِبِ الْعِبَادِ، فَطَائِفَةٌ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ كَمَالَ النَّفْسِ فِي مُجَرَّدِ الْعِلْمِ، وَيَجْعَلُونَ الْعِلْمَ الَّذِي بِهِ تَكْمُلُ مَا يَعْرِفُونَهُ هُمْ مِنْ عِلْمِ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ، وَيَجْعَلُونَ الْعِبَادَاتِ رِيَاضَةً لِأَخْلَاقِ النَّفْسِ حَتَّى تَسْتَعِدَّ لِلْعِلْمِ؛ فَتَصِير النَّفْسُ عَالَمًا مُعْتَزِلًا مُوَازِيًا لِلْعَالَمِ الْمَوْجُودِ.

وَهَؤُلَاءِ ضَالُّونَ بَلْ كَافِرُونَ مِنْ وُجُوهٍ، مِنْهَا: أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا الْكَمَالَ مِنْ مُجَرَّدِ الْعِلْمِ، كَمَا اعْتَقَدَ جَهْمٌ والصالحي وَالْأَشْعَرِيُّ فِي الْمَشْهُورِ مِنْ قَوْلَيْهِ وَأَكْثَرُ أَتْبَاعِهِ: أَنَّ الْإِيمَانَ مُجَرَّدُ الْعِلْمِ، لَكِنَّ الْمُتَفَلْسِفَةَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ الجهمية، فَإِنَّ الجهمية يَجْعَلُونَ الْإِيمَانَ هُوَ الْعِلْمُ بِاَللَّهِ، وَأُولَئِكَ يَجْعَلُونَ كَمَالَ النَّفْسِ فِي أَنْ تَعْلَمَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ مِنْ حَيْثُ هُوَ وُجُودٌ، وَالْمُطْلَقُ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ، وَالْمُطْلَقُ لَا بِشَرْطٍ لَا يُوجَدُ أَيْضًا فِي الْخَارِجِ إلَّا مُعَيَّنًا، وَإِنْ عَلِمُوا الْوُجُودَ الْكُلِّيَّ الْمُنْقَسِمَ إلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ، فَلَيْسَ لِمَعْلُومِ عِلْمِهِمْ وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَهَكَذَا مَنْ تَصَوَّفَ وَتَأَلَّهَ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَابْنِ سَبْعِينَ وَنَحْوِهِمَا، وَأَيْضًا فَإِنَّ الجهمية يُقِرُّونَ بِالرُّسُلِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ، فَهُمْ فِي الْجُمْلَةِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، خِلَافِ الْمُتَفَلْسِفَةِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَكَمَالُ النَّفْسِ لَيْسَ فِي مُجَرَّدِ الْعِلْمِ، بَلْ لَا بُدَّ مَعَ الْعِلْمِ بِاَللَّهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ، فَهَذَا عَمَلُ النَّفْسِ وَإِرَادَتُهَا وَذلك عِلْمهَا وَمَعْرِفَتِهَا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي تَكْمُلُ بِهِ النَّفْسُ هُوَ عِلْمُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُ جَهْلٌ لَا عِلْمٌ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَهُوَ الْعِلْمُ الْأَعْلَى الَّذِي تَكْمُلُ بِهِ النَّفْسُ مَعَ الْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ إذَا حَصَلَ لَهُمْ ذَاكَ الْعِلْمُ سَقَطَتْ عَنْهُمْ وَاجِبَاتُ الشَّرْعِ وَأُبِيحَتْ لَهُمْ مُحَرَّمَاتُهُ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْبَاطِنِيَّةِ مِنْ الإسماعيلية وَغَيْرِهِمْ، مِثْلُ أَبِي يَعْقُوبَ السجستاني صَاحِبِ الْأَقَالِيدِ الملكوتية وَأَتْبَاعِهِ، وَطَرِيقَةُ مَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ مَلَاحِدَةِ الصُّوفِيَّةِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ قَوْلَهُ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أَنَّك تَعْمَلُ حَتَّى يَحْصُلَ لَك الْعِلْمُ، فَإِذَا حَصَلَ الْعِلْمُ سَقَطَ عَنْك الْعَمَلُ، وَقَدْ قِيلَ للجنيد: إنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ: إنَّهُمْ يصلونَ مِنْ طَرِيقِ الْبِرِّ إلَى أَنْ تَسْقُطَ عَنْهُمْ الْفَرَائِضُ وَتُبَاحَ لَهُمْ الْمَحَارِمُ أَوْ نَحْوُ هَذَا الْكَلَامِ، فَقَالَ: الزِّنَا وَالسَّرِقَةُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ طَلَبُهُ لِلْمُكَاشَفَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ الْعِلْمِ أَعْظَمَ مِنْ طَلَبِهِ لِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ أَسْأَلُك الْعِصْمَةَ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَالْخُطُوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْكَلِمَاتِ، مِنْ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ وَالْإِرَادَةِ وَالْأَوْهَامِ السَّاتِرَةِ لِلْقُلُوبِ عَنْ مُطَالَعَةِ الْغُيُوبِ، وَأَصْلُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْمُكْنَةَ الَّتِي هِيَ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٣٠)

الْكَمَالُ عِنْدَهُمْ مِنْ الْمُكْنَةِ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى عِنْدَهُمْ أَنَّ الْكَمَالَ فِي الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْوُجُودِ نَفَاذُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، إِمَّا بِالْمُلْكِ وَالْوِلَايَةِ الظَّاهِرَةِ وَإِمَّا بِالْبَاطِنِ، وَتَكُونُ عِبَادَتُهُمْ وَمُجَاهَدَتُهُمْ؛ لِذَلِكَ وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَدْخُلُ فِي الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ فَيَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ؛ لِتُعِينَهُ الشَّيَاطِينُ عَلَى مَقَاصِدِهِ، وَهَؤُلَاءِ أَضَلُّ وَأَجْهَلُ مِنْ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ، وَغَايَةُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ يَطْلُبُ خَوَارِقَ الْعَادَاتِ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُرَى طَائِرًا وَمِنْهُمْ يُرَى مَاشِيًا، وَمِنْهُمْ وَفِيهِمْ جُهَّالٌ ضُلَّالٌ. وَطَائِفَةٌ تَجْعَلُ الْكَمَالَ فِي مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ فَيَدْخُلُونَ فِي أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ مِنْ الشِّرْكِ وَالسِّحْرِ؛ لِيَسْتَعِينُوا بِالشَّيَاطِينِ عَلَى مَا يَطْلُبُونَهُ مِنْ الْإِخْبَارِ بِالْأُمُورِ الْغَائِبَةِ وَعَلَى مَا يَنْفُذُ بِهِ تَصَرُّفُهُمْ فِي الْعَالَمِ. وَالْحَقُّ الْمُبِينُ أَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ عِلْمًا وَعَمَلًا كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُسْلِمُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ وَحِزْبُ اللَّهِ الْمُفْلِحُونَ وَجُنْدُ اللَّهِ الْغَالِبُونَ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُمْ الَّذِينَ زَكُّوا نُفُوسَهُمْ وَكَمَّلُوهَا، كَمَّلُوا الْقُوَّةَ النَّظَرِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْقُوَّةَ الْإِرَادِيَّةَ الْعَمَلِيَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾(٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٦)

الجبرية والكهانة:

قال شيخ الإسلام: الذين قالوا: إنّ الله قد يفعل كل ممكن مقدور، لا يُنزّهونه عن فعل شيء، ويقولون: إنه يفعل بلا سبب ولا حكمة، وهو الخالق لجميع الحوادث، لم يُفرّقوا بين ما تأتي به الملائكة، ولا ما تأتي به الشياطين، بل الجميع يُضيفونه إلى الله على حدٍّ واحد، ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم، حتى يأتي الرسول.

فقبل ثبوت الرسالة لا يميّزون بين شيء من الخير والشر، والحسن والقبيح؛ فلهذا لم يُفرّقوا بين آيات الأنبياء وخوارق السحرة والكهان، بل قالوا: ما تأتي به السحرة والكهان يجوز أن يكون من آيات الأنبياء، وما يأتي به الأنبياء يجوز أن يظهر على أيدي السحرة والكهان، لكن إن دلّ على انتفاء ذلك

---

(١) ص: الآية ٤٥.
(٢) النجم: الآية ١:٥.
(٣) طه: الآية ١٢٣.
(٤) البقرة: الآية ٥.
(٥) فاطر: الآية ١٠.
(٦) العصر: الآية ٣.

نصّ أو إجماع نفوه، مع أنّه جائز عندهم أن يفعله الله، لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله، فهؤلاء لما رأوا ما جاءت به الأنبياء، وعلموا أنّ آياتهم تدلّ على صدقهم، وعلموا ذلك: إمّا بضرورة وإمّا بنظر، واحتاجوا إلى بيان دلائل النبوة على أصلهم، كان غاية ما قالوه: إنّه كلّ شيء يُمكن أن يكون آية للنبي، بشرط أن يقترن بدعواه، وبشرط أن يتحدى بالإتيان بالمثل فلا يعارض.

ومعنى التحدي بالمثل أن يقول لمن دعاهم: ائتوا بمثله، وزعموا أنّه إذا كان هناك سحرة وكهان، وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم من السحر والكهانة، فإن الله لا بُد أن يمنعهم عن مثل ما كانوا يفعلونه، وأنّ من ادّعى منهم النبوة، فإنّه يمنعه من تلك الخوارق، أو يُقيض له من يعارضه بمثلها، فهذا غاية تحقيقهم، وفيه من الفساد ما يطول وصفه. وطاعة الجنّ والشياطين لسليمان -صلوات الله عليه- لم تكن من جنس معاونتهم للسحرة والكهّان والكفار وأهل الضلال والغي، ولم تكن الآية والمعجزة والكرامة التي أكرمه الله بها، هي ما كانوا يعتادونه مع الإنس، فإن ذلك إنّما كان يكون في أمور معتادة، مثل إخبارهم أحياناً ببعض الغائبات ومثل إمراضهم وقتلهم لبعض الإنس، كما أنّ الإنسيّ قد يمرض ويقتل غيره، ثم هم إنّما يعاونون الإنس على الإثم والعدوان، إذا كانت الإنس من أهل الإثم والعدوان، يفعلون ما يهواه الشياطين، فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَد اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَال أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ وأما التسخير الذي سُخّروه لسليمان، فلم يكن لغيره من الأنبياء، فضلاً عن من ليس بنبيّ، وقد سأل ربّه مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فقال: ﴿رَبِّ اغْفِر لي وَهَبْ لِي مُلْكَاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّاب﴾(١) قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيثُ أَصَاب وَالشَّيَاطِين كُلّ بَنَّاء وَغَوَّاص وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَاد هَذَا عَطَاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِك بِغَيرِ حِسَاب﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَان الرِّيح عَاصِفَة تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الأَرْض التي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِين وَمِنَ الشَّيَاطِين مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دونَ ذلك وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِين﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيح غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَين القِطْر وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْن يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزغ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِير يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَاب وَقُدُورٍ رَاسِيَات اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرَاً وَقَلِيل مِن عِبَادِيَ الشَّكُور فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّة الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَو كَانُوا يَعْلَمُون الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المهِين﴾ وكذلك ما ذكره من قول العفريت له: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ فهذه الطاعة من التسخير بغير اختيارهم في مثل هذه الأعمال الظاهرة العظيمة، ليس مما فعلته بأحد من الإنس، وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً مما يهوونه: من العزائم والأقسام والطلاسم الشركية، كما يزعم الكفار أنّ سليمان سخّرهم بهذا، فنزّهه الله من ذلك بقوله:

---

(١) ص: الآية ٣٥.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَان وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

فقه قضية الإخبار بالمغيبات وموضع الكهانة من ذلك:

لقد بيّن أهل العلم فقه قضية الإخبار بالمغيبات؛ حتى يكون المؤمن على بصير، فهذا واقع بدرجة ما للناس مؤمنهم وكافرهم، فيكون للمؤمن المتبع للسنة العابد لربه نوع كرامة وتوفيق وإلهام، ومن لم يكن مستقيماً فهذا من إلقاء الشياطين وهي كهانة، وقد تكون موافقة ورمية من غير رام، وقد تكون لأمور نفسانية.

قال شيخ الإسلام: فالإخبار بالمغيبات يكون من أسباب نفسانية، ويكون عن أسباب خبيثة شيطانية وغير شيطانية، ويكون أيضاً عن أسباب ملكية.

وقال ابن القيم: ولذلك يقع ذلك من الكفّار والنصارى وعابدي النيران... وهو من جنس كشف الكهّان، ومسيلمة مع فرط كفره كان يكاشف أصحابه. والتفريق بين هذا كله بنور الوحي.(١)

فعلم المكاشفة عند الصوفية يؤصل ويؤسس للكهانة، وهو دعوة لممارسة الصوفية للكهانة، ومكاشفات الصوفية أكثرها من وحي الشيطان وتلاعبه بهم، وعلم المكاشفة يعطى الصبغة الشرعية والعلمية للكهانة.

نعم هناك حالات من مكاشفة الصوفية تدور بين كونها دجلاً وكذباً ومخادعة لمريديهم الذين يستعذبون هذا الخداع، لكن أكثرها كهانة ووحي شياطين، لاسيما وأنّ المكاشفين من الصوفية كانوا فاسدي العقيدة، منحرفي السلوك، قبيحي الفعال.

وقد لبّس الصوفية على الناس وبهرجوا دعواهم اطلاع الغيب، فلم يسموه بهذا الاسم الذي يعرف الناس أنه من اختصاص الرب سبحانه، فاستوردوا اسم الكشف؛ لتكون هذه الدعوى عندهم كرامة من كرامات الله لهم وكذبوا. قال الدكتور عبد الله السهلي: إنّ موضوعات علم المكاشفة في نظر الغزالي تؤكد أنه وحي من وحي الشيطان، وأنه قول بالبدع المعروفة الباطلة كالقول بالحلول والجبر، لكنها تلبس بشيء من التعظيم والعبادة، حتى يروح على الجاهل ولا يعترض الأتباع، وهذا يوضح خطر علم المكاشفة مصدر التلقي الأهم عند الصوفية.(٢)

وقال الدكتور السهلي أيضا: والكشف الصوفي الشيطاني هو ما أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ولعل هذا النوع من التنزل وإلقاء السمع من الشياطين هو ما ظنه الغزالي وحياً...(٣) وقد حاول الصوفية ومنهم الغزالي

---

(١) راجع الصفدية ج١ص١٨٩، ومدارج السالكين ج٣ص٢٣٨ بواسطة علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي، ص٢٦ باختصار.
(٢) علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي، ص٤٤.
(٣) علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي، ص٢٧.

أن يسووا بين وحي الأنبياء وبين الكهانة التي يسمونها مكاشفة الأولياء لتسويغ هذه الكهانة؛ ولذلك لا يوجد صوفي لا يدّعي حصول هذه المكاشفة له، أو مكاشفة شيخه له بأشياء، والصوفية في ذلك بين مستقل ومستكثر، فهذا الشيخ اطلع على ما في قلب هذا وحدثه بما توسوس به نفسه، وهذا نبّأ بما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم وغير بيوتهم، وهذا علم عمر هذا ومتى يأتيه أجله... وهلم جرا. وقد يظهر الشيطان لهم ليضلهم ويذكر لهم كلمة صدق معها مائة كذبة. ومن نظر في طبقات الشعراني، أو جامع الكرامات للنبهاني، وكشف المحجوب للهجويري رأى من ذلك العجب العجاب.(١)

وتكلم(٢) -رحمه الله- عن فقه المغيبات وعلم الله فقال: بَلْ الْعِلْمُ بِالْمُسْتَقْبَلِ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ يَحْصُلُ لِآحَادِ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، فَكَيْفَ لَا يَكُونُ حَاصِلًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟ وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّا سَيَكُونُ مِنْ الْأَفْعَالِ الْمُسْتَقْبَلَةِ مِنْ أُمَّتِهِ وَغَيْرِ أُمَّتِهِ مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ، كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّ ابْنَهُ الْحَسَنَ يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ تَقْتُلُهُمْ أُولَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ قَوْمًا يَرْتَدُّونَ بَعْدَهُ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ خِلَافَةَ النُّبُوَّةِ تَكُونُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ثُمَّ تَصِيرُ مُلْكًا، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّ الْجَبَلَ لَيْسَ عَلَيْهِ إلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدٌ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ شُهَدَاءَ، وَإِخْبَارُهُ يَوْمَ بَدْرٍ بِقَتْلِ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلُوا، وَإِخْبَارُهُ بِخُرُوجِ الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَلَى الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شرقي دِمَشْقَ وَقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ عَلَى بَابِ لُدٍّ، وَإِخْبَارُهُ بِخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَإِخْبَارُهُ بِخُرُوجِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: {يَخْرُجُ مِنْ ضئضئ هَذَا قَوْمٌ يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، آيَتُهُمْ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا مُخْدَجَ الْيَدِ عَلَى يَدِهِ مِثْلُ الْبِضْعَةِ مِنْ اللَّحْمِ تدردر}(٣) وَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ لَمَّا قَاتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بالنهروان وَوُجِدَ هَذَا الشَّخْصُ كَمَا وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَإِخْبَارُهُ بِقِتَالِ التُّرْكِ وَصِفَتُهُمْ حَيْثُ قَالَ: {لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرْكَ صِغَارَ الْأَعْيُنِ حُمْرَ الْخُدُودِ دُلُفَ الْأَنْفِ يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمطْرَقَةُ}(٤)وَقَدْ قَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ هَؤُلَاءِ التُّرْكَ وَغَيْرَهُمْ لَمَّا ظَهَرُوا، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ أَخْبَارِ نَبِيِّهِ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ وَهُوَ إنَّمَا يَعْلَمُ مَا عَلِمَهُ اللَّهُ، وَإِذَا كَانَ هُوَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَكُونُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَكَيْفَ الَّذِي خَلَقَهُ وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ؟ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحِيطُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ لَا نَبِيٌّ وَلَا غَيْرُهُ إلَّا مَا عَلِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ

---

(١) راجع في ذلك علم المكاشفة في إحياء علوم الدين: أ.د عبد الله السهلي ص٤٥ وما بعدها، وراجع الطبقات الكبرى للشعراني، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني، وكشف المحجوب للهجويري، وكتب تراجم الصوفية الأخرى.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٥٣)

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

لَا أَعْلَمُهُ، وَلَمَّا نَقَرَ الْعُصْفُورُ فِي الْبَحْرِ قَالَ لَهُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إلَّا كَمَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَائِلُ فِي حَقِّ مُوسَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[١] وَالْمَقْصُودُ أَنَّ نَفْيَ عِلْمِ اللَّهِ بِالْحَوَادِثِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ ، غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ يَنْفُونَ ذَلِكَ. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[٢] وَقَوْلُهُ: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[٣] وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْلُومِ بَعْدَ وُجُودِهِ، وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْمَدْحُ وَالذَّمُّ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْعِلْمُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَمُجَرَّدُ ذَلِكَ الْعِلْمِ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَدْحٌ وَلَا ذَمٌّ وَلَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ وُجُودِ الْأَفْعَالِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذَا: لِنَرَى. وَكَذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ قَالُوا: لِنَعْلَمَهُ مَوْجُودًا بَعْدَ أَنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ، وَهَذَا الْمُتَجَدِّدُ فِيهِ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ لِلنُّظَّارِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْمُتَجَدِّدُ هُوَ نِسْبَةٌ وَإِضَافَةٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْلُومِ فَقَطْ وَتِلْكَ نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ الْمُتَجَدِّدُ عِلْمٌ بِكَوْنِ الشَّيْءِ وَوُجُودِهِ وَهَذَا الْعِلْمُ غَيْرُ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ، وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٤] فَقَدْ أَخْبَرَ بِتَجَدُّدِ الرُّؤْيَةِ فَقِيلَ نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ وَقِيلَ الْمُتَجَدِّدُ أَمْرٌ ثُبُوتِيٌّ.

وَالْكَلَامُ عَلَى الْقَوْلَيْنِ وَمَنْ قَالَ هَذَا وَهَذَا وَحُجَجُ الْفَرِيقَيْنِ قَدْ بُسِطَتْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَعَامَّةُ السَّلَفِ وَأَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْمُتَجَدِّدَ أَمْرٌ ثُبُوتِيٌّ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ، وَهَذَا مِمَّا هَجَرَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ الْحَارِثَ الْمُحَاسِبِيَّ عَلَى نَفْيِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ بِقَوْلِ ابْنِ كُلَّابٍ فَرَّ مِنْ تَجَدُّدِ أَمْرٍ ثُبُوتِيٍّ وَقَالَ بِلَوَازِمِ ذَلِكَ، فَخَالَفَ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ مَا أَوْجَبَ ظُهُورَ بِدْعَةٍ اقْتَضَتْ أَنْ يَهْجُرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَد وَيُحَذِّرَ مِنْهُ، وَقَدْ قِيلَ: إنَّ الْحَارِثَ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ. والمتأخرون مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَةَ ابْنِ كُلَّابٍ وَأَتْبَاعِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَةَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ تَقَدُّمَ عِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابَتِهِ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ حَقٌّ، وَالْقَوْلُ بِحُدُوثِ ذَلِكَ قَوْلٌ مَهْجُورٌ، كَمَا قَالَهُ النَّاظِمُ إنْ كَانَ قَدْ أَرَادَ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُنَافِي أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ، فَإِنَّ كَوْنَهُ خَالِقًا لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ لَا يُنَافِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ. فَكَيْفَ الْعِلْمُ الْمُتَقَدِّمُ؟ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَقْتَضِي كَوْنَ الْعَبْدِ مَجْبُورًا لَا قُدْرَةَ لَهُ وَلَا فِعْلَ كَمَا تَقُولُهُ الجهمية الْمُجْبِرَةُ.

وفي احتساب شيخ الإسلام بيّن ما يتعلّق بفقه الخوارق، فقال رحمه الله[٥]: وَالْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ جَاءَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ الْقُرْآنُ عَدَلَ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَيْهِمْ، إلَى أَنْ نَبَذَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ،

(١) الأعراف: الآية ١٤٥.
(٢) البقرة: الآية ١٤٣.
(٣) الكهف: الآية ١٢.
(٤) التوبة: الآية ١٠٥.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٠٨)

وَاتَّبَعَ مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ فَلَا يُعَظِّمُ مَنْ أَمَرَ الْقُرْآنُ بِمُوَالَاتِهِ، وَلَا يُعَادِي مَنْ أَمَرَ الْقُرْآنُ بِمُعَادَاتِهِ، بَلْ يُعَظِّمُ مَنْ رَآهُ يَأْتِي بِبَعْضِ الْخَوَارِقِ الَّتِي تَأْتِي بِمِثْلِهَا السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ بِإِعَانَةِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، وَهِيَ تَحْصُلُ بِمَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ. ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَلَكِنْ يُعَظِّمُهُ لِهَوَاهُ وَيُفَضِّلُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ، وَهَؤُلَاءِ كُفَّارٌ، كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ وَهَؤُلَاءِ ضَاهَوْا الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَقَدْ يَقَعُ فِي هَذَا طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَأَهْلِ الْعِبَادَةِ وَالتَّصَوُّفِ، حَتَّى جَوَّزُوا عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ لِمَا رَأَوْهُ فِيهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي تُعِينُهُمْ عَلَيْهَا الشَّيَاطِينُ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهَا بَعْضُ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ، فَلَمْ يُبَالُوا بِشِرْكِهِمْ بِاَللَّهِ وَبِكُفْرِهِمْ بِهِ وَبِكِتَابِهِ إذَا نَالُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْلِيمِ ذَلِكَ لِلنَّاسِ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُ لِرِئَاسَةِ أَوْ مَالٍ يَنَالُونَهُ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ عَلِمُوا الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ وَدَعَوْا إلَيْهِ، بَلْ حَصَلَ عِنْدَهُمْ رَيْبٌ وَشَكٌّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ واعْتِقَادُ أَنَّهُ خَاطَبَ الْجُمْهُورَ بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ لِلْمَصْلَحَةِ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَدَخَلَ فِي رَأْيِ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَهَذَا مِمَّا ضَاهَوْا بِهِ فَارِسَ وَالرُّومَ، فَإِنَّ فَارِسَ كَانَتْ تُعَظِّمُ الْأَنْوَارَ، وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ وَلِلنَّارِ، وَالرُّومَ كَانُوا قَبْلَ النَّصْرَانِيَّةِ مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، فَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ الَّذِينَ أَشْبَهُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ ضَاهَوْا أَهْلَ الْكِتَابِ فِيمَا بُدِّلَ أَوْ نُسِخَ وَهَؤُلَاءِ ضَاهَوْا مَنْ لَا كِتَابَ لَهُ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالنُّفُوسُ مَفْطُورَةٌ عَلَى عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ مَوْجُودٍ فِيهَا بِالْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا خَلَقَ النَّاسُ، كَمَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾(١) وَقَالَ: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(٢)

مناظرة ابن تيمية العلنية للدجاجلة البطائحية الرفاعية:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ(٣) قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا دَائِمًا إلَى يَوْمِ الدِّينِ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ كَتَبْت مَا حَضَرَنِي ذِكْرُهُ فِي الْمَشْهَدِ الْكَبِيرِ بِقَصْرِ الْإِمَارَةِ وَالْمَيْدَانِ بِحَضْرَةِ الْخَلْقِ مِنْ الْأُمَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفُقَرَاءِ الْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ فِي أَمْرِ (البطائحية) يَوْمَ السَّبْتِ تَاسِعَ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ خَمْسٍ؛ لِتَشَوُّفِ الْهِمَمِ إلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَحِرْصِ النَّاسِ عَلَى الِاطِّلَاعِ

(١) الشعراء: الآية ٢٤.
(٢) طه: الآية ٤٩,٥٠.
(٣) جامع الرسائل (ج١/ ص٦٠)

عَلَيْهِ. فَإِنَّ مَنْ كَانَ غَائِبًا عَنْ ذَلِكَ قَدْ يَسْمَعُ بَعْضَ أَطْرَافِ الْوَاقِعَةِ، وَمَنْ شَهِدَهَا فَقَدْ رَأَى وَسَمِعَ مَا رَأَى وَسَمِعَ، وَمِنْ الْحَاضِرِينَ مَنْ سَمِعَ وَرَأَى مَا لَمْ يَسْمَعْ غَيْرُهُ وَيَرَهُ، لِانْتِشَارِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِمَا حَصَلَ بِهَا مِنْ عِزِّ الدِّينِ، وَظُهُورِ كَلِمَتِهِ الْعُلْيَا، وَقَهْرِ النَّاسِ عَلَى مُتَابَعَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَظُهُورِ زَيْفِ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ وَالْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالتَّلْبِيسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. وَقَدْ كَتَبْت فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ صِفَةَ حَالِ هَؤُلَاءِ (البطائحية) وَطَرِيقَهُمْ وَطَرِيقَ الشَّيْخِ (أَحْمَد بْنِ الرِّفَاعِيِّ) وَحَالَهُ وَمَا وَافَقُوا فِيهِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا خَالَفُوهُمْ؛ لِيَتَبَيَّنَ مَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَمَا خَرَجُوا فِيهِ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَطُولُ وَصْفُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَإِنَّمَا كَتَبْت هُنَا مَا حَضَرَنِي ذِكْرُهُ مِنْ حِكَايَةِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي مُنَاظَرَتِهِمْ وَمُقَابَلَتِهِمْ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْت أَعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ بِمَا قَدْ ذَكَرْته فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ -وَهُوَ أَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا مُنْتَسِبِينَ إلَى الْإِسْلَامِ وَطَرِيقَةِ الْفَقْرِ وَالسُّلُوكِ، وَيُوجَدُ فِي بَعْضِهِمْ: التَّعَبُّدُ وَالتَّأَلُّهُ وَالْوَجْدُ وَالْمَحَبَّةُ وَالزُّهْدُ وَالْفَقْرُ وَالتَّوَاضُعُ وَلِينُ الْجَانِبِ وَالْمُلَاطَفَةُ فِي الْمُخَاطَبَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْكَشْفِ وَالتَّصَرُّفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَا يُوجَدُ -فَيُوجَدُ أَيْضًا فِي بَعْضِهِمْ مِنْ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، وَمِنْ الْغُلُوِّ وَالْبِدَعِ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَالِاسْتِخْفَافُ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، وَالْكَذِبِ وَالتَّلْبِيسِ وَإِظْهَارِ المخارق الْبَاطِلَةِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَا يُوجَدُ. وَقَدْ تَقَدَّمَتْ لِي مَعَهُمْ وَقَائِعُ مُتَعَدِّدَةٌ بَيَّنْت فِيهَا لِمَنْ خَاطَبْته مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ بَعْضَ مَا فِيهِمْ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْإِشَارَاتِ، وَتَابَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ، وَأُدِّبَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ، وَبَيَّنْت صُورَةَ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ المخاريق: مِثْلِ مُلَابَسَةِ النَّارِ وَالْحَيَّاتِ وَإِظْهَارِ الدَّمِ وَاللَّاذَنِ وَالزَّعْفَرَانِ وَمَاءِ الْوَرْدِ وَالْعَسَلِ وَالسُّكَّرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِنَّ عَامَّةَ ذَلِكَ عَنْ حِيَلٍ مَعْرُوفَةٍ وَأَسْبَابٍ مَصْنُوعَةٍ، وَأَرَادَ غَيْرَ مَرَّةٍ مِنْهُمْ قَوْمٌ إظْهَار ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَوْا مُعَارَضَتِي لَهُمْ رَجَعُوا وَدَخَلُوا عَلَى أَنْ أَسْتُرَهُمْ، فَأَجَبْتهمْ إلَى ذَلِكَ بِشَرْطِ التَّوْبَةِ، حَتَّى قَالَ لِي شَيْخٌ مِنْهُمْ فِي مَجْلِسٍ عَامٍّ فِيهِ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ بِبَعْضِ الْبَسَاتِينِ لَمَّا عَارَضْتهمْ، بِأَنِّي أَدْخُلُ مَعَكُمْ النَّارَ بَعْدَ أَنْ نَغْتَسِلَ بِمَا يُذْهِبُ الْحِيلَةَ وَمَنْ احْتَرَقَ كَانَ مَغْلُوبًا، فَلَمَّا رَأَوْا الصِّدْقَ أَمْسَكُوا عَنْ ذَلِكَ.

قَالَ الْمُخْبِرُ: فَغَدَا أُولَئِكَ الْأُمَرَاءُ الْأَكَابِرُ وَخَاطَبُوا فِيهِمْ نَائِبَ السُّلْطَانِ بِتَعْظِيمِ أَمْرِهِمْ الْبَاهِرِ، وَذَكَرَ لِي أَنْوَاعًا مِنْ الْخِطَابِ، وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الصَّوَابِ، وَالْأَمِيرُ مُسْتَشْعِرٌ ظُهُورَ الْحَقِّ عِنْدَ التَّحْقِيقِ، فَأَعَادَ الرَّسُولَ إلَيَّ مَرَّةً ثَانِيَةً فَبَلَغَهُ أَنَّا فِي الطَّرِيقِ، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الْأَضْدَادِ، كَطَوَائِفَ مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ وَأَتْبَاعِ أَهْلِ الِاتِّحَادِ -مُجِدِّينَ فِي نَصْرِهِمْ بِحَسَبِ مَقْدُورِهِمْ مُجَهِّزِينَ لِمَنْ يُعِينُهُمْ فِي حُضُورِهِمْ، فَلَمَّا حَضَرْت وَجَدْت النُّفُوسَ فِي غَايَةِ الشَّوْقِ إلَى هَذَا الِاجْتِمَاعِ مُتَطَلِّعِينَ إلَى مَا سَيَكُونُ طَالِبِينَ لِلِاطِّلَاعِ.

فَذَكَرَ لِي نَائِبُ السُّلْطَانِ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأُمَرَاءِ بَعْضَ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الِافْتِرَاءِ. وَقَالَ: إنَّهُمْ قَالُوا: إنَّك طَلَبْت مِنْهُمْ الِامْتِحَانَ، وَأَنْ يَحْمُوا الْأَطْوَاقَ نَارًا وَيَلْبَسُوهَا، فَقُلْت: هَذَا مِنْ الْبُهْتَانِ. وَهَا أَنَا ذَا أَصِفُ مَا كَانَ.

قُلْت لِلْأَمِيرِ: نَحْنُ لَا نَسْتَحِلُّ أَنْ نَأْمُرَ أَحَدًا بِأَنْ يَدْخُلَ نَارًا وَلَا تَجُوزُ طَاعَةُ مَنْ يَأْمُرُ بِدُخُولِ النَّارِ. وَفِي ذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ. وَهَؤُلَاءِ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ وَهُمْ كَذَّابُونَ مُبْتَدِعُونَ قَدْ أَفْسَدُوا مِنْ أَمْرِ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَدُنْيَاهُمْ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَذَكَرْت تَلْبِيسَهُمْ عَلَى طَوَائِفَ مِنْ الْأُمَرَاءِ، وَأَنَّهُمْ لَبَّسُوا عَلَى الْأَمِيرِ الْمَعْرُوفِ بالأيدمري، وَعَلَى قفجق نَائِبِ السَّلْطَنَةِ، وَعَلَى غَيْرِهِمَا. وَقَدْ لَبَّسُوا أَيْضًا عَلَى الْمَلِكِ الْعَادِلِ كتغا فِي مُلْكِهِ وَفِي حَالَةِ وِلَايَةِ حُمَّاهُ، وَعَلَى أَمِيرِ السِّلَاحِ أَجَلِّ أَمِيرٍ بِدِيَارِ مِصْرَ، وَضَاقَ الْمَجْلِسُ عَنْ حِكَايَةِ جَمِيعِ تَلْبِيسِهِمْ. فَذَكَرْت تَلْبِيسَهُمْ عَلَى الأيدمري وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُرْسِلُونَ مِنْ النِّسَاءِ مَنْ يَسْتَخْبِرُ عَنْ أَحْوَالِ بَيْتِهِ الْبَاطِنَةِ ثُمَّ يُخْبِرُونَهُ بِهَا عَلَى طَرِيقِ الْمُكَاشَفَةِ، وَوَعَدُوهُ بِالْمُلْكِ وَأَنَّهُمْ وَعَدُوهُ أَنْ يُرُوهُ رِجَالَ الْغَيْبِ، فَصَنَعُوا خَشَبًا طِوَالًا وَجَعَلُوا عَلَيْهَا مَنْ يَمْشِي كَهَيْئَةِ الَّذِي يَلْعَبُ بِأُكَرِ الزُّجَاجِ، فَجَعَلُوا يَمْشُونَ عَلَى جَبَلِ الْمَزَّةِ وَذَاكَ يَرَى مِنْ بَعِيدٍ قَوْمًا يَطُوفُونَ عَلَى الْجَبَلِ، وَهُمْ يَرْتَفِعُونَ عَنْ الْأَرْضِ، وَأَخَذُوا مِنْهُ مَالًا كَثِيرًا ثُمَّ انْكَشَفَ لَهُ أَمْرُهُمْ. قُلْت لِلْأَمِيرِ: وَوَلَدُهُ هُوَ الَّذِي فِي حَلْقَةِ الْجَيْشِ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَهُوَ مِمَّنْ حَدَّثَنِي بِهَذِهِ الْقِصَّةِ. وَأَمَّا قفجق فَإِنَّهُمْ أَدْخَلُوا رَجُلًا فِي الْقَبْرِ يَتَكَلَّمُ وَأَوْهَمُوهُ أَنَّ الْمَوْتَى تَتَكَلَّمُ، وَأَتَوْا بِهِ فِي مَقَابِرِ بَابِ الصَّغِيرِ إلَى رَجُلٍ زَعَمُوا أَنَّهُ الرَّجُلُ الشعراني الَّذِي بِجَبَلِ لُبْنَانَ، وَلَمْ يُقَرِّبُوهُ مِنْهُ بَلْ مِنْ بَعِيدٍ لِتَعُودَ عَلَيْهِ بَرَكَتُهُ، وَقَالُوا: إنَّهُ طَلَبَ مِنْهُ جُمْلَةً مِنْ الْمَالِ؛ فَقَالَ قفجق: الشَّيْخُ يُكَاشِفُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ خَزَائِنِي لَيْسَ فِيهَا هَذَا كُلُّهُ، وَتَقَرَّبَ قفجق مِنْهُ وَجَذَبَ الشَّعْرَ فَانْقَلَعَ الْجِلْدُ الَّذِي أَلْصَقُوهُ عَلَى جِلْدِهِ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، فَذَكَرْت لِلْأَمِيرِ هَذَا؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِي إنَّهُ لَمَّا انْقَضَى الْمَجْلِسُ وَانْكَشَفَ حَالُهُمْ لِلنَّاسِ كَتَبَ أَصْحَابُ قفجق إلَيْهِ كِتَابًا وَهُوَ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ بِحُمَّاهُ يُخْبِرُهُ بِصُورَةِ مَا جَرَى. وَذَكَرْت لِلْأَمِيرِ أَنَّهُمْ مُبْتَدِعُونَ بِأَنْوَاعٍ مِنْ الْبِدَعِ مِثْلِ الْأَغْلَالِ وَنَحْوِهَا، وَأَنَّا نَهَيْنَاهُمْ عَنْ الْبِدَعِ الْخَارِجَةِ عَنْ الشَّرِيعَةِ، فَذَكَرَ الْأَمِيرُ حَدِيثَ الْبِدْعَةِ وَسَأَلَنِي عَنْهُ، فَذَكَرْت حَدِيثَ العرباض بْنِ سَارِيَةَ وَحَدِيثَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَدْ ذَكَرْتهمَا بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَجْلِسِ الْعَامِّ كَمَا سَأَذْكُرُهُ. قُلْت لِلْأَمِيرِ: أَنَا مَا امْتَحَنْت هَؤُلَاءِ لَكِنْ هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَهُمْ أَحْوَالًا يَدْخُلُونَ بِهَا النَّارَ، وَأَنَّ أَهْلَ الشَّرِيعَةِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَقُولُونَ لَنَا هَذِهِ الْأَحْوَالُ الَّتِي يَعْجَزُ عَنْهَا أَهْلُ الشَّرْعِ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْتَرِضُوا عَلَيْنَا، بَلْ يُسَلَّمُ إلَيْنَا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ -سَوَاءٌ وَافَقَ الشَّرْعَ أَوْ خَالَفَهُ- وَأَنَا قَدْ اسْتَخَرْت اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ إنْ دَخَلُوا النَّارَ أَدْخُلُ أَنَا وَهُمْ، وَمَنْ احْتَرَقَ مِنَّا وَمِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَكَانَ مَغْلُوبًا، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ نَغْسِلَ جُسُومَنَا بِالْخَلِّ وَالْمَاءِ الْحَارِّ . فَقَالَ الْأَمِيرُ وَلِمَ ذَاكَ؟ قُلْت: لِأَنَّهُمْ يَطْلُونَ جُسُومَهُمْ بِأَدْوِيَةٍ يَصْنَعُونَهَا مِنْ دُهْنِ الضَّفَادِعِ وَبَاطِنِ قِشْرِ النَّارِنْجِ وَحَجَرِ الطَّلْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْحِيَلِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُمْ، وَأَنَا لَا أَطْلِي جِلْدِي بِشَيْءٍ فَإِذَا اغْتَسَلْت أَنَا وَهُمْ بِالْخَلِّ وَالْمَاءِ الْحَارِّ بَطَلَتْ الْحِيلَةُ وَظَهَرَ الْحَقُّ، فَاسْتَعْظَمَ الْأَمِيرُ هُجُومِي عَلَى النَّارِ وَقَالَ: أَتَفْعَلُ ذَلِكَ؟ فَقُلْت لَهُ: نَعَمْ قَدْ اسْتَخَرْت اللَّهَ فِي ذَلِكَ وَأَلْقَى فِي قَلْبِي أَنْ أَفْعَلَهُ، وَنَحْنُ لَا نَرَى هَذَا وَأَمْثَالَهُ ابْتِدَاءً؛ فَإِنَّ خَوَارِقَ الْعَادَاتِ إنَّمَا تَكُونُ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لِحُجَّةٍ أَوْ حَاجَةٍ، فَالْحُجَّةُ لِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، وَالْحَاجَةُ لِمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ النَّصْرِ وَالرِّزْقِ الَّذِي بِهِ يَقُومُ دِينُ اللَّهِ. وَهَؤُلَاءِ إذَا أَظْهَرُوا مَا يُسَمُّونَهُ إشَارَاتِهِمْ وَبَرَاهِينَهُمْ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُبْطِلُ

دِينَ اللَّهِ وَشَرْعَهُ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْصُرَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَقُومَ فِي نَصْرِ دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ بِمَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَرْوَاحِنَا وَجُسُومِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَلَنَا حِينَئِذٍ أَنْ نُعَارِضَ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ هَذِهِ المخاريق بِمَا يُؤَيِّدُنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ الْآيَاتِ. وَلِيُعْلَمَ أَنَّ هَذَا مِثْلُ مُعَارَضَةِ مُوسَى لِلسَّحَرَةِ لَمَّا أَظْهَرُوا سِحْرَهُمْ، أَيَّدَ اللَّهُ مُوسَى بِالْعَصَا الَّتِي ابْتَلَعَتْ سِحْرَهُمْ. فَجَعَلَ الْأَمِيرُ يُخَاطِبُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ الْأُمَرَاءِ عَلَى السِّمَاطِ بِذَلِكَ، وَفَرِحَ بِذَلِكَ وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أَوْهَمُوهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ حَالٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَدِّهِ، وَسَمِعْته يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ الْكَبِيرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ مِصْرَ الْحَاجَّ بِهَادِرِ، وَأَنَا جَالِسٌ بَيْنَهَا عَلَى رَأْسِ السِّمَاطِ بِالتُّرْكِيِّ مَا فَهِمْته مِنْهُ إلَّا أَنَّهُ قَالَ: الْيَوْمَ تَرَى حَرْبًا عَظِيمًا، وَلَعَلَّ ذَاكَ كَانَ جَوَابًا لِمَنْ كَانَ خَاطَبَهُ فِيهِمْ عَلَى مَا قِيلَ.

وقال الشيخ عن الغزالي: وأما التي يسميها علوم المكاشفة ويرمز إليها في الإحياء وغيره، ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم، كما في مشكاة الأنوار والمضنون به على غير أهله وغير ذلك.

وقال شيخ الإسلام [(١)]: وَهُمْ يُعَظِّمُونَ فِرْعَوْنَ، وَيَقُولُونَ مَا قَالَهُ صَاحِبُ "الْفُصُوصِ" قال: وَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحَكُّمِ صَاحِبِ الْوَقْتِ وَأَنَّهُ جَارٍ فِي الْعُرْفِ الناموسي؛ لِذَلِكَ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أَيْ وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةِ مَا فَأَنَا الْأَعْلَى مِنْهُمْ بِمَا أُعْطِيته فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْحُكْمِ فِيكُمْ. قَالَ: وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَهُ لَمْ يُنْكِرُوهُ وَأَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ، وَقَالُوا لَهُ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[(٢)] قَالَ: فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وَإِنْ كَانَ فِرْعَوْنُ عَيْنَ الْحَقِّ.

وَحَدَّثَنِي الثِّقَةُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُمْ أَنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَإِذَا نَهَقَ الْحِمَارُ وَنَبَحَ الْكَلْبُ سَجَدُوا لَهُ، وَقَالُوا هَذَا هُوَ اللَّهُ فَإِنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ الْمَظَاهِرِ. قَالَ: فَقُلْت لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَيْضًا مَظْهَرٌ مِنْ الْمَظَاهِرِ، فَاجْعَلُوهُ كَسَائِرِ الْمَظَاهِرِ وَأَنْتُمْ تُعَظِّمُونَ الْمَظَاهِرَ كُلَّهَا أَوْ اُسْكُتُوا عَنْهُ. قَالَ: فَقَالُوا لِي: مُحَمَّدٌ نُبْغِضُهُ فَإِنَّهُ أَظْهَرَ الْفَرْقَ وَدَعَا إلَيْهِ وَعَاقَبَ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهِ. قَالَ: فَتَنَاقَضُوا فِي مَذْهَبِهِمْ الْبَاطِلِ وَجَعَلُوا الْكَلْبَ وَالْحِمَارَ أَفْضَلَ مِنْ أَفْضَلِ الْخَلْقِ. قَالَ لِي: وَهُمْ يُصَرِّحُونَ بِاللَّعْنَةِ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عِبَادَةً لِلشَّيْطَانِ وَكُفْرًا بِالرَّحْمَنِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَسَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ وَنُبَاحَ الْكَلْبِ فَتَعَوَّذُوا بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا}[(٣)]فَهُمْ إذَا سَمِعُوا نَهِيقَ الْحِمَارِ وَنُبَاحَ الْكَلْبِ تَكُونُ الشَّيَاطِينُ قَدْ حَضَرَتْ فَيَكُونُ سُجُودُهُمْ لِلشَّيَاطِينِ. وَكَانَ فِيهِمْ شَيْخٌ جَلِيلٌ مِنْ أَعْظَمِهِمْ تَحْقِيقًا، لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسُبُّونَ الْأَنْبِيَاءَ، وَقَدْ صَنَّفَ كِتَابًا سَمَّاهُ (فَكُّ الْأَزْرَارِ عَنْ أَعْنَاقِ الْأَسْرَارِ) ذَكَرَ فِيهِ مُخَاطَبَةً جَرَتْ لَهُ مَعَ إبْلِيسَ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ مَا مَعْنَاهُ: إنَّكُمْ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ١٧٤)
(٢) طه: الآية ٧٢.
() رواه البخاري حديث ٣٣٠٣، ومسلم ٢٧٢٩.

قَدْ غَلَبْتُمُونِي وَقَهَرْتُمُونِي وَنَحْوَ هَذَا، لَكِنْ جَرَتْ لِي قِصَّةٌ تَعَجَّبْت مِنْهَا مَعَ شَيْخٍ مِنْكُمْ فَإِنِّي تَجَلَّيْت لَهُ فَقُلْت: أَنَا اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنَا، فَسَجَدَ لِي فَتَعَجَّبْت كَيْفَ سَجَدَ لِي. قَالَ هَذَا الشَّيْخُ: فَقُلْت لَهُ: ذَاكَ أَفْضَلُنَا وَأَعْلَمُنَا وَأَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ قَصْدَهُ، مَا رَأَى فِي الْوُجُودِ اثْنَيْنِ وَمَا رَأَى إلَّا وَاحِدًا فَسَجَدَ لِذَلِكَ الْوَاحِدِ، لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ إبْلِيسَ وَغَيْرِهِ، فَجَعَلَ هَذَا الشَّيْخُ ذَاكَ الَّذِي سَجَدَ لإبليس لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الرَّبِّ وَغَيْرِهِ، بَلْ جَعَلَ إبْلِيسَ هُوَ اللَّهَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ جَعَلَهُ أَفْضَلَهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ.

وقال رحمه الله: وما ذكره من المشاهدات والكشوفات التي تحصل للصوفية وأنهم يشهدون تحقيق ما أخبر به الرسول ﷺ ونفع ما أمر به فهذا أيضا حق في كثير ممّا أخبر به وأمر به، ثم إذا علم ذلك صار حجة على صدقه فيما لم يعلمه، كمن سلك طريقاً من العلم بفن من الفنون إذا رأى كلام متكلم في ذلك العلم، ورآه يحقق ما عنده ويأتي بزيادات لا يستطيعها، فإنه يعلم بما رآه من مزيد تحقيقه لما شاركه في أصل معرفته أنه أعلم منه بما وراء ذلك، كمن نظر في الطب إذا رأى كلام بقراط، ومن نظر في النحو إذا رأى كلام الخليل وسيبويه، ومن نظر في العلوم الدينية إذا رأى كلام أئمة السلف، وكذلك من سلك مسلك الزهد والعبادة إذا بلغه سير زهّاد السلف وعبادتهم، ومن والى الناس وساسهم إذا رأى سيرة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وعمر بن عبد العزيز ونحوهما، فهذا كله يبيّن له عظمة قدر هؤلاء، وأنهم كانوا أئمة في هذه الأمور وفيما يصلح ويجب من ذلك، ويعلم كل أحد الفرق بين سيرة العمرين وسيرة الحجاج والمختار بن أبي عبيد ونحوهما، بل يعلم الفرق بين سيرة بني أمية وبني العباس، وبين سيرة بني بويه وبني عبيد وأمثال ذلك، كذلك يعلم الفرق بين نبينا مُحَمَّد وموسى وعيسى -عليهم السلام- وبين مسيلمة والأسود العنسي وأمثالهما بأدنى تأمل، وهذه الطريق ينقسم الناس فيها إلى عام وخاص بسبب علمهم بالخير والشر والصدق والكذب ونحو ذلك، وهذه تفيد العلم القطعي بأنّ الأنبياء أكمل الخلق وأفضلهم، وأنه لا يصلح لأحد أن يعارضهم برأيه ولا يخالفهم بهواه، لكن لا يفيد العلم بحقيقة النبوة إلا أن يعترف أنّ النبي أعلم منه فلا يمكنه أن يقول هو أعلم منه، فكل من حصل له من المخاطبات ومن المشاهدات ما يحصل للأولياء، فإنه يعلم أنّ الذي للأنبياء فوق الذي له من ذلك كعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فإنه قد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر»[(١)] . وقال ﷺ: {إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه}[(٢)] وفي الترمذي عن النبيّ ﷺ أنه قال: {لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر}[(٣)] وكان عمر بهذا يعلم أنّ ما يأتي النبيّ ﷺ من الوحي والملائكة وما يخبر به من الغيب وما يأمر به وينهى عنه أمر زائد على قدره ومجاوز لطاقته، بل يجد بينه وبين ذلك من التفاوت ما يعجز القلب واللسان عن معرفته وتبيانه، بل كان عمر بما حصل له من المكاشفة والمخاطبة

(١) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.
(٢) رواه الترمذي حديث ٣٦٨٢، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه الترمذي بلفظ لو كان بعدي نبي...، حديث رقم ٣٦٨٦، وصححه الألباني.

يعلم أنّ أبا بكر الصديق -ﷺ- أكمل منه معرفة ويقيناً وأتم صدقاً وأخلاقاً وأعلم منه بقدر الرسول ﷺ فكان خضوع عمر هذا الذي هو أفضل الأولياء المحدثين الملهمين المخاطبين لأبي بكر الصديق كخضوع من رأى غيره من مشاركيه في فنه أكمل منه، كخضوع الأخفش لسيبويه، وزفر لأبي حنيفة، وابن وهب لمالك ونحو ذلك، أو خضوع فقهاء المدينة لسعيد بن المسيب، وعلماء البصرة للحسن البصري، وفقهاء مكة لعطاء بن أبي رباح.

وإذا كان هذا مثل عمر مع أبي بكر لأنّ أبا بكر صدّيق يأخذ ما يأخذه عن الرسول المعصوم ﷺ الذي قد عصم أن يستقر فيما جاء به خطأ، فهو لخبرته بحال صديق النبيّ بهذه المثابة، وكل من كان عالماً بالصحابة يعلم أنّ عمر -ﷺ- كان متأدباً معظماً بقلبه لأبي بكر -ﷺ- مشاهداً أنه أعلى منه إيماناً ويقيناً، فكيف يكون حال عمر وغيره مع النبيّ ﷺ؟

وإذا كان هذا حال أفضل المحدثين المخاطبين فكيف حال سائرهم؟ ولا ريب أنّ الرجل كلما عظمت ولايته وعظم نصيبه من انكشاف الحقائق له كان تعظيمه للنبوة أعظم، والناس في هذه الطريق متفاوتون بحسب درجاتهم، لكن طريق الصوفية لا ينهض بانكشاف جميع ما جاء به الرسول ﷺ بل ولا بأكثره، بل عامة ما يخبر به الرسول ﷺ لا يمكن أبو بكر وعمر فضلاً عن غيرهما أن يعلمه بدون خبره، وإن كان عند المخبرين علم بجمل ذلك أو أصله، لكن ما يخبر به من التفصيل لا يعلم بدون خبره أصلا، وما يوجد في كلام أبي حامد وغيره من أنّ الكشف يحصل ذلك، وقول القائل أنّ الأولياء شاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ليس بسديد، بل لا يزال الأولياء مع الأنبياء في إيمان بالغيب ولا يتصور أنّ الولي يعطى ما أعطيه النبيّ من المشاهدة والمخالطة.

وقال عن الفلاسفة: "وهم لا يُثبتون ملكاً مفضلاً يأتي بالوحي من الله -تعالى- ولا ملائكة، بل ولا جناً يخرق الله بهم العادات للأنبياء إلا قوى النفس. وقول هؤلاء وإن كان شراً من أقوال كفار اليهود والنصارى، وهو أبعد الأقوال عما جاءت به الرسل، فقد وقع فيه كثير من المتأخرين الذين لم يُشرق عليهم نور النبوة من المدّعين للنظر العقليّ، والكشف الخيالي الصوفي، وإن كان غاية هؤلاء الأقيسة الفاسدة والشكّ، وغاية هؤلاء الخيالات الفاسدة والشطح"

وقال رحمه الله: وَإِنَّمَا ظَهَرَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ الَّتِي أَسْبَابُهَا الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ بِحَسَبِ ظُهُورِ أَسْبَابِهَا، فَحَيْثُ قَوِيَ الْإِيمَانُ وَالتَّوْحِيدُ وَنُورُ الْفُرْقَانِ وَالْإِيمَانِ وَظَهَرَتْ آثَارُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ضَعُفَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ، وَحَيْثُ ظَهَرَ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ قَوِيَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ، وَالشَّخْصُ الْوَاحِدُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ هَذَا وَهَذَا، الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَادَّةٌ تَمُدُّهُ لِلْإِيمَانِ وَمَادَّةٌ تَمُدُّهُ لِلنِّفَاقِ يَكُونُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْحَالِ وَهَذَا الْحَالِ.

وَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، مِثْلُ البخشية والطونية وَالْبُدَّى وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَشُيُوخِهِمْ الَّذِينَ يَكُونُونَ لِلْكُفَّارِ مِنْ التُّرْكِ وَالْهِنْدِ الْجَوَارِ وَغَيْرِهِمْ، تَكُونُ الْأَحْوَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ،

وَيَصْعَدُ أَحَدُهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِأُمُورٍ غَائِبَةٍ، وَيَبْقَى الدُّفُّ الَّذِي يُغَنِّي لَهُمْ بِهِ يَمْشِي فِي الْهَوَاءِ، وَيَضْرِبُ رَأْسَ أَحَدِهِمْ إذَا خَرَجَ عَنْ طَرِيقِهِمْ وَلَا يَرَوْنَ أَحَدًا يَضْرِبُ لَهُ، وَيَطُوفُ الْإِنَاءُ الَّذِي يَشْرَبُونَ مِنْهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَرَوْنَ مَنْ يَحْمِلُهُ، وَيَكُونُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانٍ فَمَنْ نَزَلَ مِنْهُمْ عِنْدَهُ ضَيَّفَهُ طَعَامًا يَكْفِيهِمْ، وَيَأْتِيهِمْ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ.

من مسوغات الكهانة عند الاتحادية:

لقد ذكر شيخ الإسلام(١) معتقد هؤلاء الاتحادية كابن عربي وغيره، وذكر أنّ عقيدتهم عقيدة فاسدة، وأنّ الكشوف التي عندهم تابعة لهذا المعتقد الفاسد، ومن هنا نفقه لماذا لا يتحاشى هؤلاء من تعاطي الكهانة؟ ولماذا لا يرونها حراماً؟ ولماذا يسعون إلى الكشوف ويصدقونها ويطلبونها حتى ولو كانت من كافر؟ كما حكى الشيخ عن ثلاثة من الصوفية ذهبوا لراهب في ديره فكاشفهم بما في نفوسهم، فإذا عرفنا اعتقاد هؤلاء وضعنا أيدينا على مكمن الداء ومنشأ الخطر.

وَقَالَ أَيْضًا : فَصْلٌ: حَقِيقَة مَذْهَبِ الِاتِّحَادِيَّةِ كَصَاحِبِ الْفُصُوصِ وَنَحْوِهِ الَّذِي يَئُولُ إلَيْهِ كَلَامُهُمْ، وَيُصَرِّحُونَ بِهِ فِي مَوَاضِعَ –أَنَّ الْحَقَائِقَ تَتَّبِعُ الْعَقَائِدَ، وَهَذَا أَحَدُ أَقْوَالِ السوفسطائية، فَكُلُّ مَنْ قَالَ شَيْئًا أَوْ اعْتَقَدَهُ فَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ هَذَا الْقَائِلِ الْمُعْتَقِدِ؛ وَلِذَا يَجْعَلُونَ الْكَذِبَ حَقًّا، وَيَقُولُونَ الْعَارِفُ لَا يَكْذِبُ أَحَدًا، فَإِنَّ الْكَذِبَ هُوَ أَيْضًا أَمْرٌ مَوْجُودٌ وَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْكَاذِبِ، فَإِنْ اعْتَقَدَهُ كَانَ حَقًّا فِي اعْتِقَادِهِ وَكَلَامِهِ، وَلَوْ قَالَ مَا لَمْ يَعْتَقِدْهُ كَانَ حَقًّا فِي كَلَامِهِ فَقَطْ؛ وَلِهَذَا يَأْمُرُ الْمُحَقِّقُ أَنْ تُعْتَقَدَ كُلُّ مَا يَعْتَقِدُهُ الْخَلَائِقُ، كَمَا قَالَ: عَقَدَ الْخَلَائِقُ فِي الْإِلَهِ عقائد وَأَنَا اعْتَقَدْت جَمِيعَ مَا اعْتَقَدُوهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الِاعْتِقَادَاتِ الْمُتَنَاقِضَةَ لَا تَكُونُ مُعْتَقَدَاتُهَا فِي الْخَارِجِ، لَكِنْ فِي نَفْسِ الْمُعْتَقَدِ؛ وَلِهَذَا يَأْمُرُونَ بِالتَّصْدِيقِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَالضِّدَّيْنِ، وَيَجْعَلُونَ هَذَا مِنْ أُصُولِ طَرِيقِهِمْ وَتَحْقِيقِهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْخَارِجِ، لَكِنْ يُمْكِنُ اعْتِقَادُ اجْتِمَاعِهِمَا فَيَكُونُ ذَلِكَ حَقًّا فِي نَفْسِ الْمُعْتَقِدِ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ كَشْفًا، فَكَشْفُهُمْ مُتَنَاقِضٌ، فَخَاطَبْت بِذَلِكَ بَعْضَهُمْ فَقَالَ: كِلَاهُمَا حَقٌّ كَالَّذِي كُشِفَ لَهُ أَنَّ الزُّهْرَةَ فَوْقَ عُطَارِدَ، وَالَّذِي كُشِفَ لَهُ أَنَّهَا تَحْتَ عُطَارِدَ، فَقَال: هِيَ مِنْ كَشْفِ هَذَا فَوْقَ عُطَارِدَ وَفِي كَشْفِ هَذَا تَحْتَ عُطَارِدَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَجَعَلُوا الْحَقَائِقَ الثَّابِتَةَ تَتَّبِعُ الْكَشْفَ وَالِاعْتِقَادَ وَالْقَوْلَ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ سِرْ حَيْثُ شِئْت فَإِنَّ اللَّهَ ثَمَّ، وَقُلْ مَا شِئْت فِيهِ فَإِنَّ الْوَاسِعَ اللَّهُ. ثم ساق كلاماً طويلاً مهما في كشف فساد هؤلاء فراجعه.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٣١)

ابن عربي والكشف الصوفي:

قال شيخ الإسلام[1]: فَهَذَا الْفَصْلُ قَدْ ذَكَرَ فِيهِ حَقِيقَةَ مَذْهَبِهِ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا سَائِرَ كَلَامِهِ، فَتَدَبَّرْ مَا فِيهِ مِنْ الْكُفْرِ الَّذِي ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[2] وَمَا فِيهِ مَنْ جَحْدِ خَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَجُحُودِ رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَشَتْمِهِ وَسَبِّهِ، وَمَا فِيهِ مِنْ الْإِزْرَاءِ بِرُسُلِهِ وَصِدِّيقِيهِ، وَالتَّقَدُّمِ عَلَيْهِمْ بِالدَّعَاوَى الْكَاذِبَةِ الَّتِي لَيْسَ عَلَيْهَا حُجَّةٌ، بَلْ هِيَ مَعْلُومَةُ الْفَسَادِ بِأَدْنَى عَقْلٍ وَإِيمَانٍ، وَأَيْسَرِ مَا يُسْمَعُ مِنْ كِتَابٍ وَقُرْآنٍ، وَجَعَلَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْفَرَاعِنَةَ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ أَهْلُ الْكُشُوفِ.

وقال رحمه الله: (الثَّالِثُ) أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ مِنْ الصِّنْفِ الَّذِي جَعَلَهُ أَعْلَى أَهْلِ اللَّهِ مَنْ يَكُونُ فِي عِلْمِهِ بِمَنْزِلَةِ عِلْمِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْأَخْذَ مِنْ مَعْدِنٍ وَاحِدٍ إذَا كَشَفَ لَهُ عَنْ أَحْوَالِ الْأَعْيَانِ الثَّابِتَةِ فِي الْعَدَمِ فَيَعْلَمُهَا مِنْ حَيْثُ عَلِمَهَا اللَّهُ، إلَّا أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ عِنَايَةٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَتْ لَهُ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ أَحْوَالِ عَيْنِهِ، يَعْرِفُهَا صَاحِبُ هَذَا الْكَشْفِ إذَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَجَعَلَ عِلْمَهُ وَعِلْمَ اللَّهِ مِنْ مَعْدِنٍ وَاحِدٍ .

(السَّادِسُ) أَنَّهُ قَالَ: فَاخْتَلَطَ الْأَمْرُ وَانْبَهَمَ أَوْ هُوَ عَلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدِ مُخْتَلِطٌ مُنْبَهِمٌ وَعَلَى أَصْلِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ مُتَمَيِّزٌ مُتَبَيِّنٌ، قَدْ بَيَّنَ اللَّهُ بِكِتَابِهِ الْحَقَّ مِنْ الْبَاطِلِ وَالْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ. قَالَ: فَمِنَّا مَنْ جَهِلَ فِي عِلْمِهِ، فَقَالَ: الْعَجْزُ عَنْ دَرْكِ الْإِدْرَاكِ إدْرَاكٌ، وَهَذَا الْكَلَامُ مَشْهُورٌ عِنْدَهُمْ نِسْبَتُهُ إلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَجَعَلَهُ جَاهِلًا، وَإِنْ كَانَ هَذَا اللَّفْظُ لَمْ يُحْفَظْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَلَا هُوَ مَأْثُورٌ عَنْهُ فِي شَيْءٍ مِنْ النُّقُولِ الْمُعْتَمَدَةِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الشُّكْرِ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ غَيْرَ مُسَمًّى، وَإِنَّمَا يُرْسَلُ عَنْهُ إرْسَالًا مِنْ جِهَةِ مَنْ يَكْثُرُ الْخَطَأُ فِي مَرَاسِيلِهِمْ. كَمَا يَحْكُونَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ إذَا تَخَاطَبَا كُنْت كَالزِّنْجِيِّ بَيْنَهُمَا. وَهَذَا أَيْضًا كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: {إنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: بَلْ نَفْدِيك بِأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا} أَوْ كَمَا قَالَ. فَجَعَلَ النَّاسُ يَقُولُونَ: عَجَبًا لِهَذَا الشَّيْخِ يَبْكِي أَنْ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمُنَا بِهِ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمُهُمْ بِمُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَقَاصِدِهِ فِي كَلَامِهِ، وَإِنْ كَانُوا كُلُّهُمْ مُشْتَرِكِينَ فِي فَهْمِهِ. وَهَذَا كَمَا فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قِيلَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ تَرَكَ عِنْدَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا؟ وَفِي لَفْظٍ: هَلْ عَهِدَ إلَيْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا لِمَا يَعْهَدُهُ إلَى النَّاسِ؟ فَقَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَفِيهَا الْعَقْلُ وَفِكَاكُ الْأَسِيرِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرِ. وَبِهَذَا الْحَدِيثِ وَنَحْوِهِ مِنْ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا يُذْكَرُ عَنْ عَلِيٍّ وَأَهْلِ الْبَيْتِ مِنْ أَنَّهُمْ اُخْتُصُّوا بِعِلْمِ خَصَّهُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ دُونَ غَيْرِهِمْ كَذِبٌ عَلَيْهِمْ، مِثْلُ مَا يُذْكَرُ مِنْهُ الْجَفْرُ وَالْبِطَاقَةُ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٤٨)
(٢) مريم: الآية ٩٠.

وَالْجَدْوَلُ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَمَا يَأْثُرُهُ الْقَرَامِطَةُ الْبَاطِنِيَّةُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ قَدْ كُذِبَ عَلَى جَعْفَرٍ الصَّادِقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– مَا لَمْ يُكْذَبْ عَلَى غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ كُذِبَ عَلَى عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –وَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ– كَمَا قَدْ بُيِّنَ هَذَا وَبُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَهَكَذَا يَكْذِبُ قَوْمٌ مِنْ النُّسَّاكِ وَمُدَّعِي الْحَقَائِقِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُخَاطِبُهُ بِحَقَائِقَ يَفْهَمُهَا عُمَرُ مَعَ حُضُورِهِ، ثُمَّ قَدْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَرَفُوهَا وَتَكُونُ حَقِيقَتُهَا زَنْدَقَةً وَإِلْحَادًا.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الزَّنَادِقَةِ وَالْجُهَّالِ قَدْ يَحْتَجُّ عَلَى ذَلِكَ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: "حَفِظْت عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِرَابَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْته فِيكُمْ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْته لَقَطَعْتُمْ هَذَا الْحُلْقُومَ"[1] وَهَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الْجِرَابَ الْآخَرَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ الَّذِي يُخْتَصُّ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ يُخَصُّونَ بِمِثْلِ ذَلِكَ –لَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا يُخَصُّ بِهِ– بَلْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْجِرَابِ أَحَادِيثُ الْفِتَنِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَهُمْ بِمَا سَيَكُونُ مِنْ الْفِتَنِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ الْمَلَاحِمِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ مَقْتَلُ عُثْمَانَ وَفِتْنَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَوْ أَخْبَرَكُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّكُمْ تَقْتُلُونَ خَلِيفَتَكُمْ وَتَهْدِمُونَ الْبَيْتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ لَقُلْتُمْ: كَذَبَ أَبُو هُرَيْرَةَ، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَمْتَنِعُ مِنْ التَّحْدِيثِ بِأَحَادِيثِ الْفِتَنِ قَبْلَ وُقُوعِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُهُ رُءُوسُ النَّاسِ وَعَوَامُّهُمْ.

وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْتَجُّونَ بِحَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَأَنَّهُ صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ، وَحَدِيثُ حُذَيْفَةَ مَعْرُوفٌ، لَكِنَّ السِّرَّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ هُوَ مَعْرِفَتُهُ بِأَعْيَانِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. وَيُقَالُ: إنَّهُمْ كَانُوا هَمُّوا بِالْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَأَوْحَى اللَّهُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمْرَهُمْ فَأَخْبَرَ حُذَيْفَةَ بِأَعْيَانِهِمْ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ لَا يُصَلِّي إلَّا عَلَى مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مَنْهِيٌّ عَنْهَا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْفِتَنَ وَأَنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَا، بَيَّنَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَخُصَّهُ بِحَدِيثِهَا، وَلَكِنْ حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَالَ: "وَكَانَ أَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا"[2] وَمِمَّا يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّ فِي السُّنَنِ {أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عَامَ الْفَتْحِ قَدْ أَهْدَرَ دَمَ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَرْحٍ، فَجَاءَ بِهِ عُثْمَانُ إلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُبَايِعَهُ فَتَوَقَّفَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ سَاعَةً ثُمَّ بَايَعَهُ وَقَالَ: أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَنْظُرُ إلَيَّ وَقَدْ أَمْسَكْت عَنْ هَذَا فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَّا أَوْمَأْت إلَيَّ؟ فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ}[3] فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَوِي ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ لَا يُظْهِرُ لِلنَّاسِ خِلَافَ مَا يُبْطِنُهُ، كَمَا تَدَّعِيهِ الزَّنَادِقَةُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَضُلَّالِ الْمُتَنَسِّكَةِ وَنَحْوِهِمْ.

---

(١) رواه البخاري حديث ١٢٠.

(٢) رواه مسلم حديث ٢٨٩٢.

(٣) صحيح أبي داود حديث رقم ٤٣٥٩.

(السَّابِعُ) أَنَّهُ قَالَ: "وَمِنَّا مَنْ عَلِمَ فَلَمْ يَقُلْ مِثْلَ هَذَا وَهُوَ أَعْلَى الْقَوْلِ، بَلْ أَعْطَاهُ الْعِلْمَ وَالسُّكُوتَ مَا أَعْطَاهُ الْعَجْزَ، وَهَذَا هُوَ أَعْلَى عَالِمٍ بِاللَّهِ، وَلَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ إلَّا لِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ، وَمَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ وَالرُّسُلِ إلَّا مِنْ مِشْكَاةِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ، وَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ إلَّا مِنْ مِشْكَاةِ الْوَلِيِّ الْخَاتَمِ، حَتَّى إنَّ الرُّسُلَ لَا يَرَوْنَهُ مَتَى رَأَوْهُ إلَّا مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ. فَإِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ (أَعْنِي نُبُوَّةَ التَّشْرِيعِ وَرِسَالَتِهِ) يَنْقَطِعَانِ وَالْوِلَايَةُ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا؛ فَالْمُرْسَلُونَ مِنْ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ لَا يَرَوْنَ مَا ذَكَرْنَاهُ إلَّا مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ فَكَيْفَ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ؟ وَإِنْ كَانَ خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ تَابِعًا فِي الْحُكْمِ لِمَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ الرُّسُلِ مِنْ التَّشْرِيعِ، فَذَلِكَ لَا يَقْدَحُ فِي مَقَامِهِ وَلَا يُنَاقِضُ مَا ذَهَبْنَا إلَيْهِ، فَإِنَّهُ مِنْ وَجْهٍ يَكُونُ أَنْزَلَ كَمَا أَنَّهُ مِنْ وَجْهٍ يَكُونُ أَعْلَى... إلَى قَوْلِهِ: وَلَمَّا مَثَّلَ النَّبِيُّ ﷺ النُّبُوَّةَ بِالْحَائِطِ مِنْ اللَّبِنِ،[1] فَفِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ وَتَنْقِيصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَا لَا تَقُولُهُ لَا الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى، وَمَا أَشْبَهَهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ بِمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ: فَخَرَّ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ تَحْتِهِمْ أَنَّ هَذَا لَا عَقْلٌ وَلَا قُرْآنٌ، وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ هُنَا مِنْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ تَسْتَفِيدُ مِنْ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِي بَعْدَهُمْ -هُوَ مُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ، فَإِنَّ الْمُتَقَدِّمَ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ الْمُتَأَخِّرِ، وَمُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ وَلَا رُسُلًا. وَقَدْ يَزْعُمُ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ عِنْدَهُ أَعْلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ الْقَوْلُ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ وَأَنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ هُوَ وُجُودُ الْمَخْلُوقِ، وَحَقِيقَةُ تَعْطِيلِ الصَّانِعِ وَجَحْدِهِ، وَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي يُظْهِرُهُ فِرْعَوْنُ، فَلَمْ يَكْفِهِ زَعْمُهُ أَنَّ هَذَا حَقٌّ حَتَّى زَعَمَ أَنَّهُ أَعْلَى الْعِلْمِ، وَلَمْ يَكْفِهِ ذَلِكَ حَتَّى زَعَمَ أَنَّ الرُّسُلَ إنَّمَا يَرَوْنَهُ مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ، فَجَعَلَ خَاتَمَ الْأَوْلِيَاءِ أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَجَعَلَهُمْ يَرَوْنَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ مِنْ مِشْكَاتِهِ، ثُمَّ أَخَذَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ فَقَالَ: فَإِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ (أَعْنِي نُبُوَّةَ التَّشْرِيعِ وَرِسَالَتَهُ) يَنْقَطِعَانِ وَالْوِلَايَةُ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا. فَالْمُرْسَلُونَ مِنْ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ لَا يَرَوْنَ مَا ذَكَرْنَاهُ إلَّا مِنْ مِشْكَاةِ خَاتَمِ الْأَوْلِيَاءِ فَكَيْفَ بِالْأَوْلِيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ وَلَا رُسُلًا؟ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا فَإِنَّ هَذَا كُفْرٌ ظَاهِرٌ؛ فَزَعَمُوا أَنَّهُ إنَّمَا تَنْقَطِعُ نُبُوَّةُ التَّشْرِيعِ وَرِسَالَتُهُ ، وَأَمَّا نُبُوَّةُ التَّحْقِيقِ وَرِسَالَةُ التَّحْقِيقِ (وَهِيَ الْوِلَايَةُ عِنْدَهُمْ) فَلَمْ تَنْقَطِعْ، وَهَذِهِ الْوِلَايَةُ عِنْدَهُمْ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ.

وقال[2] بعد حديثه عن إثبات علو الله وخطأ المتكلمين في نفيه، قال: وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ لَبَّسُوا الْكَلَامَ بِالْفَلْسَفَةِ مَنْ أَكَابِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ، تَجِدُهُمْ يَعُدُّونَ مِنْ الْأَسْرَارِ الْمَصُونَةِ وَالْعُلُومِ الْمَخْزُونَةِ مَا إذَا تَدَبَّرَهُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ وَدِينٍ، وَجَدَ فِيهِ مِنْ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ مَا لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَقَعُ فِيهِ هَؤُلَاءِ، حَتَّى قَدْ يُكَذِّبُ بِصُدُورِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، مِثْلُ تَفْسِيرِ حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ الَّذِي أَلَّفَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرازي الَّذِي احْتَذَى فِيهِ

(١) رواه البخاري حديث ٣٥٣٥، ومسلم ٢٢٨٦.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣٠١)

حَذْوَ ابْنِ سِينَا وَعَيْنِ الْقُضَاةِ الهمداني، فَإِنَّهُ رَوَى حَدِيثَ الْمِعْرَاجِ بِسِيَاقٍ طَوِيلٍ وَأَسْمَاءٍ عَجِيبَةٍ وَتَرْتِيبٍ لَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْمُسْلِمِينَ، لَا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَلَا الْحَسَنَةِ وَلَا الضَّعِيفَةِ الْمَرْوِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَإِنَّمَا وَضَعَهُ بَعْضُ السؤال والطرقية (ذكرنا في كتاب السحر أنّه شوهد كثير من هؤلاء الطرقية في بعض بلدان العالم، يجلسون في الأسواق من الرجال والنساء فرشة في الأرض عليها بعض كتب السحر وقلماً ودواة وأوراق، يكتب الطلاسم، ونساء بجواره بيدها الكوتشينة، وقارئة الكف) أَوْ بَعْضُ شَيَاطِينِ الْوُعَّاظِ أَوْ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ مَعَ الْجَهْلِ بِحَدِيثِ الْمِعْرَاجِ الْمَوْجُودِ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالسِّيرَةِ، وَعُدُولِهِ عَمَّا يُوجَدُ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَى مَا لَمْ يُسْمَعْ مِنْ عَالِمٍ، وَلَا يُوجَدُ فِي أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ، فَسَّرَهُ بِتَفْسِيرِ الصَّابِئَةِ الضَّالَّةِ الْمُنَجِّمِينَ، وَجَعَلَ مِعْرَاجَ الرَّسُولِ تَرَقِّيهِ بِفِكْرِهِ إِلَى الْأَفْلَاكِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ رَآهُمْ هُمْ الْكَوَاكِبُ: فَآدَمُ هُوَ الْقَمَرُ، وَإِدْرِيسُ هُوَ الشَّمْسُ، وَالْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ هِيَ الْعَنَاصِرُ الْأَرْبَعَةُ، وَأَنَّهُ عَرَفَ الْوُجُودَ الْوَاجِبَ الْمُطْلَقَ، ثُمَّ إِنَّهُ يُعَظِّمُ ذَلِكَ وَيَجْعَلُهُ مِنْ الْأَسْرَارِ وَالْمَعَارِفِ الَّتِي يَجِبُ صَوْنُهَا عَنْ أَفْهَامِ الْمُؤْمِنِينَ وَعُلَمَائِهِمْ، حَتَّى إِنَّ طَائِفَةً مِمَّنْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ لَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ تَعَجَّبُوا مِنْهُ غَايَةَ التَّعَجُّبِ، وَجَعَلَ بَعْضُ الْمُتَعَصِّبِينَ لَهُ يَدْفَعُ ذَلِكَ، حَتَّى أَرَوْهُ النُّسْخَةَ بِخَطِّ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الْمَعْرُوفِينَ الْخَبِيرِينَ بِحَالِهِ، وَقَدْ كَتَبَهَا فِي ضِمْنِ كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ "الْمَطَالِبَ الْعَالِيَةَ" وَجَمَعَ فِيهِ عَامَّةَ آرَاءِ الْفَلَاسِفَةِ والمتكلمين.

وَتَجِدُ أَبَا حَامِدٍ الْغَزَالِيَّ مَعَ أَنَّ لَهُ مِنْ الْعِلْمِ بِالْفِقْهِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَالْأُصُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَعَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَحُسْنِ الْقَصْدِ وَتَبَحُّرِهِ فِي الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ أُولَئِكَ -يَذْكُرُ فِي كِتَابِ "الْأَرْبَعِينَ" وَنَحْوِهِ كِتَابَهُ "الْمَضْنُونُ بِهِ عَلَى غَيْرِ أَهْلِهِ" فَإِذَا طَلَبْت ذَلِكَ الْكِتَابَ، وَاعْتَقَدْت فِيهِ أَسْرَارَ الْحَقَائِقِ وَغَايَةَ الْمَطَالِبِ وَجَدْته قَوْلَ الصَّابِئَةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ بِعَيْنِهِ، قَدْ غُيِّرَتْ عِبَارَاتُهُمْ وَتَرْتِيبَاتُهُمْ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ حَقَائِقَ مَقَالَاتِ الْعِبَادِ وَمَقَالَاتِ أَهْلِ الْمِلَلِ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَاكَ هُوَ السِّرُّ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْمُكَاشِفُونَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْحَقَائِقَ بِنُورِ إلَهِيٍّ، فَإِنَّ أَبَا حَامِدٍ كَثِيرًا مَا يُحِيلُ فِي كُتُبِهِ عَلَى ذَلِكَ النُّورِ الْإِلَهِيِّ، وَعَلَى مَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُوجَدُ لِلصُّوفِيَّةِ وَالْعِبَادِ بِرِيَاضَتِهِمْ وَدِيَانَتِهِمْ مِنْ إدْرَاكِ الْحَقَائِقِ وَكَشْفِهَا لَهُمْ، حَتَّى يَزِنُوا بِذَلِكَ مَا وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ عَلِمَ بِذَكَائِهِ وَصِدْقِ طَلَبِهِ مَا فِي طَرِيقِ الْمُتَكَلِّمِينَ والمتفلسفة مِنْ الِاضْطِرَابِ، وَآتَاهُ اللَّهُ إيمَانًا مُجْمَلًا كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَصَارَ يَتَشَوَّفُ إلَى تَفْصِيلِ الْجُمْلَةِ فَيَجِدُ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ وَالصُّوفِيَّةِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إلَى الْحَقِّ، وَأَوْلَى بِالتَّحْقِيقِ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ والمتكلمين وَالْأَمْرُ كَمَا وَجَدَهُ، لَكِنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْ الْمِيرَاثِ النَّبَوِيِّ الَّذِي عِنْدَ خَاصَّةِ الْأُمَّةِ مِنْ الْعُلُومِ وَالْأَحْوَالِ، وَمَا وَصَلَ إلَيْهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، حَتَّى نَالُوا مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْعِبَادِيَّةِ مَا لَمْ يَنَلْهُ أُولَئِكَ، فَصَارَ يَعْتَقِدُ أَنَّ تَفْصِيلَ تِلْكَ الْجُمْلَةِ يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تِلْكَ الطَّرِيقِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ طَرِيقٌ غَيْرُهَا لِانْسِدَادِ الطَّرِيقَةِ الْخَاصَّةِ السُّنِّيَّةِ النَّبَوِيَّةِ عَنْهُ، بِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ قِلَّةِ الْعِلْمِ بِهَا وَمِنْ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تَقَلَّدَهَا عَنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ والمتكلمين، حَتَّى حَالُوا بِهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ.

وأضاف شيخ الإسلام[1]: وَكَمَا تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ عَلَى بَعْضِ مَنْ يَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ وَيَرْصُدُهَا حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْهِ صُورَةٌ فَتُخَاطِبُهُ، وَهُوَ شَيْطَانٌ مِنْ الشَّيَاطِينِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ وَقَال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ فَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدُوا عِبَادَةَ الشَّيْطَانِ وَمُوَالَاتَهُ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَعْبُدُونَهُ وَيُوَالُونَهُ، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةَ الصَّابِئَةَ الْمُبْتَدِعَةَ مُؤْمِنُونَ بِقَلِيلٍ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فِي أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ فِي صِفَتِهِمْ وَأَقْدَارِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ إِنَّمَا سَلَكُوا سَبِيلَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْحَرَكَاتِ الْفَلَكِيَّةِ وَالْقِيَاسِ عَلَى نُفُوسِهِمْ، مَعَ مَا جَحَدُوهُ وَجَهِلُوهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَإِبْدَاعِهِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ طَائِفَةٌ مِمَّنْ جَمَعَ أَخْبَارَهُمْ أَنَّ أَسَاطِينَهُمْ الْأَوَائِلَ كفيثاغورس وَسُقْرَاطَ وَأَفْلَاطُونَ، كَانُوا يُهَاجِرُونَ إلَى أَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ بِالشَّامِ، وَيَتَلَقَّوْنَ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَصْحَابِ داود وَسُلَيْمَانَ، وَأَنَّ أَرِسْطُو لَمْ يُسَافِرْ إلَى أَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْ الْعِلْمِ بِأَثَارَةِ الْأَنْبِيَاءِ مَا عِنْدَ سَلَفِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ قَدْرٌ يَسِيرٌ مِنْ الصابئية الصَّحِيحَةِ، فَابْتَدَعَ لَهُمْ هَذِهِ التَّعَالِيمَ الْقِيَاسِيَّةَ وَصَارَتْ قَانُونًا مَشَى عَلَيْهِ أَتْبَاعُهُ، وَاتَّفَقَ أَنَّهُ قَدْ يَتَكَلَّمُ فِي طَبَائِعِ الْأَجْسَامِ أَوْ فِي صُورَةِ الْمَنْطِقِ أَحْيَانًا بِكَلَامِ صَحِيحٍ.

القطب الغوث والخضر وعلاقته بالكهانة الصوفية:

قال شيخ الإسلام[2] رحمه الله: وَأَمَّا سُؤَالُ السَّائِلِ عَنْ (الْقُطْبِ الْغَوْثِ الْفَرْدِ الْجَامِعِ) فَهَذَا قَدْ يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ، وَيُفَسِّرُونَهُ بِأُمُورِ بَاطِلَةٍ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، مِثْلُ تَفْسِيرِ بَعْضِهِمْ أَنَّ "الْغَوْثَ" هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَدَدُ الْخَلَائِقِ بِوَاسِطَتِهِ فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ حَتَّى يَقُولَ: إنَّ مَدَدَ الْمَلَائِكَةِ وَحِيتَانِ الْبَحْرِ بِوَاسِطَتِهِ، فَهَذَا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَالْغَالِيَةِ فِي عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَهَذَا كُفْرٌ صَرِيحٌ يُسْتَتَابُ مِنْهُ صَاحِبُهُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ لَا مَلَكٌ وَلَا بَشَرٌ يَكُونُ إمْدَادُ الْخَلَائِقِ بِوَاسِطَتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ فِي (الْعُقُولِ الْعَشْرَةِ) الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ، وَمَا يَقُولُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَنَحْوَ ذَلِكَ كُفْرٌ صَرِيحٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَذَلِكَ عَنَى بِالْغَوْثِ مَا يَقُولُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا يُسَمُّونَهُمْ "النُّجَبَاءَ" فَيُنْتَقَى مِنْهُمْ سَبْعُونَ هُمْ "النُّقَبَاءُ" وَمِنْهُمْ أَرْبَعُونَ هُمْ "الْأَبْدَالُ" وَمِنْهُمْ سَبْعَةٌ هُمْ "الْأَقْطَابُ" وَمِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ هُمْ "الْأَوْتَادُ" وَمِنْهُمْ وَاحِدٌ هُوَ "الْغَوْثُ" وَأَنَّهُ مُقِيمٌ بِمَكَّةَ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ إذَا نَابَهُمْ نَائِبَةٌ فِي رِزْقِهِمْ وَنَصْرِهِمْ فَزِعُوا إلَى الثَّلَاثِمِائَةِ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَأُولَئِكَ يَفْزَعُونَ إلَى السَّبْعِينَ، وَالسَّبْعُونَ إلَى الْأَرْبَعِينَ، وَالْأَرْبَعُونَ إلَى السَّبْعَةِ، وَالسَّبْعَةُ إلَى الْأَرْبَعَةِ، وَالْأَرْبَعَةُ إلَى الْوَاحِدِ. وَبَعْضُهُمْ قَدْ يَزِيدُ فِي هَذَا وَيُنْقِصُ فِي

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣١٩)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٢١٤)

الْأَعْدَادِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْمَرَاتِبِ، فَإِنَّ لَهُمْ فِيهَا مَقَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةً حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ: إنَّهُ يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ عَلَى الْكَعْبَةِ وَرَقَةٌ خَضْرَاءُ بِاسْمِ غَوْثِ الْوَقْتِ وَاسْمِ خَضِرِهِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ : إنَّ الْخَضِرَ هُوَ مَرْتَبَةٌ وَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ خَضِرًا فَإِنَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ، وَهَذَا كُلُّهُ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا قَالَهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا أَئِمَّتِهَا وَلَا مِنْ الْمَشَايِخِ الْكِبَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- كَانُوا خَيْرَ الْخَلْقِ فِي زَمَنِهِمْ وَكَانُوا بِالْمَدِينَةِ وَلَمْ يَكُونُوا بِمَكَّةَ. وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ حَدِيثًا فِي "هِلَالٍ" غُلَامِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَأَنَّهُ أَحَدُ السَّبْعَةِ، وَالْحَدِيثُ بَاطِلٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ رَوَى بَعْضَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَبُو نُعَيْمٍ فِي (حِلْيَة الْأَوْلِيَاءِ) وَالشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ فَلَا تَغْتَرَّ بِذَلِكَ، فَإِنَّ فِيهِ الصَّحِيحَ وَالْحَسَنَ وَالضَّعِيفَ وَالْمَوْضُوعَ وَالْمَكْذُوبَ الَّذِي لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّهُ كَذِبٌ مَوْضُوعٌ، وَتَارَةً يَرْوِيهِ عَلَى عَادَةِ بَعْضِ أَهْلِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ يَرْوُونَ مَا سَمِعُوا وَلَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ صَحِيحِهِ وَبَاطِلِهِ، وَكَانَ أَهْلُ الْحَدِيثِ لَا يَرْوُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ}[١] وَبِالْجُمْلَةِ فَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ أَنَّ مَا يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ النَّوَازِلِ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، مِثْلُ دُعَائِهِمْ عِنْدَ الِاسْتِسْقَاءِ لِنُزُولِ الرِّزْقِ، وَدُعَائِهِمْ عِنْدَ الْكُسُوفِ وَالِاعْتِدَادِ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، إنَّمَا يَدْعُونَ فِي ذَلِكَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ قَطُّ أَنْ يَرْجِعُوا بِحَوَائِجِهِمْ إلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَدْعُونَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ فَيُجِيبُهُمْ اللَّهُ، أَفَتَرَاهُمْ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ لَا يُجِيبُ دُعَاءَهُمْ إلَّا بِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾[٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ﴾[٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْهِ إنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[٤] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥] وَالنَّبِيُّ ﷺ اسْتَسْقَى لِأَصْحَابِهِ بِصَلَاةِ وَبِغَيْرِ صَلَاةٍ،[٦] وَصَلَّى بِهِمْ لِلِاسْتِسْقَاءِ[٧]وَصَلَاةَ الْكُسُوفِ،[٨] وَكَانَ يَقْنُتُ فِي

(١) أخرجه مسلم في المقدمة حديث ٩.
(٢) يونس: الآية ١٢.
(٣) الإسراء: الآية ٦٧.
(٤) الأنعام: الآية ٤٠.
(٥) الأنعام: الآية ٤٣.
(٦) البخاري حديث ١٠١٩، ومسلم ٨٩٧.
(٧) صحيح البخاري ١٠٢٥، ومسلم ٨٩٤.
(٨) البخاري ١٠٥٩، ومسلم ٩١٢.

صَلَاتِهِ فَيَسْتَنْصِرُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ،[1] وَكَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ بَعْدَهُ، وَكَذَلِكَ أَئِمَّةُ الدِّينِ وَمَشَايِخُ الْمُسْلِمِينَ وَمَا زَالُوا عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ. وَلِهَذَا يُقَالُ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ مَا لَهَا مِنْ أَصْلٍ (بَابُ النصيرية ومُنْتَظَرُ الرَّافِضَةِ وغَوْثُ الْجُهَّالِ) فَإِنَّ النصيرية تَدَّعِي فِي الْبَابِ الَّذِي لَهُمْ مَا هُوَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ أَنَّهُ الَّذِي يُقِيمُ الْعَالَمَ فَذَاكَ شَخْصُهُ مَوْجُودٌ، وَلَكِنَّ دَعْوَى النصيرية فِيهِ بَاطِلَةٌ، وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمُنْتَظَرُ وَالْغَوْثُ الْمُقِيمُ بِمَكَّةَ وَنَحْوُ هَذَا فَإِنَّهُ بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُ وُجُودٌ، وَكَذَلِكَ مَا يَزْعُمُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ الْقُطْبَ الْغَوْثَ الْجَامِعَ يَمُدُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَيَعْرِفُهُمْ كُلَّهُمْ وَنَحْوَ هَذَا، فَهَذَا بَاطِلٌ. فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- لَمْ يَكُونَا يَعْرِفَانِ جَمِيعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَا يَمُدَّانِهِمْ، فَكَيْفَ بِهَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ الْمُغْتَرِّينَ الْكَذَّابِينَ؟ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ إِنَّمَا عَرَفَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ رَآهُمْ مَنْ أُمَّتِهِ بِسِيمَاءِ الْوُضُوءِ، وَهُوَ الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مَنْ لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ هُوَ إِمَامُهُمْ وَخَطِيبُهُمْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَكْثَرَهُمْ، بَلْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2] وَمُوسَى لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْخَضِرَ وَالْخَضِرُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مُوسَى، بَلْ لَمَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟[3] قَالَ: نَعَمْ. وَقَدْ كَانَ بَلَغَهُ اسْمُهُ وَخَبَرُهُ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ عَيْنَهُ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ نَقِيبُ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ أَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ كُلَّهُمْ فَقَدْ قَالَ الْبَاطِلَ، وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّهُ مَيِّتٌ وَأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكِ الْإِسْلَامَ، وَلَوْ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيُجَاهِدَ مَعَهُ، كَمَا أَوْجَبَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، وَلَكَانَ يَكُونُ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَلَكَانَ يَكُونُ حُضُورُهُ مَعَ الصَّحَابَةِ لِلْجِهَادِ مَعَهُمْ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَى الدِّينِ أَوْلَى بِهِ مِنْ حُضُورِهِ عِنْدَ قَوْمٍ كُفَّارٍ؛ لِيُرَقِّعَ لَهُمْ سَفِينَتَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مُخْتَفِيًا عَنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَهُوَ قَدْ كَانَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ يَحْتَجِبْ عَنْهُمْ، ثُمَّ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ وَأَمْثَالِهِ حَاجَةٌ لَا فِي دِينِهِمْ وَلَا فِي دُنْيَاهُمْ؛ فَإِنَّ دِينَهُمْ أَخَذُوهُ عَنْ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ الَّذِي عَلَّمَهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: {لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ}[4] وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِذَا نَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ إِنَّمَا يَحْكُمُ فِيهِمْ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ. فَأَيُّ حَاجَةٍ لَهُمْ مَعَ هَذَا إِلَى الْخَضِرِ وَغَيْرِهِ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَهُمْ بِنُزُولِ عِيسَى مِنْ السَّمَاءِ وَحُضُورِهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؟ وَقَالَ: {كَيْفَ تَهْلِكُ أُمَّةٌ أَنَا فِي أَوَّلِهَا وَعِيسَى فِي آخِرِهَا}[5] فَإِذَا كَانَ النَّبِيَّانِ الْكَرِيمَانِ اللَّذَانِ هُمَا مَعَ إبْرَاهِيمَ مُوسَى وَنُوحٌ أَفْضَلَ الرُّسُلِ وَمُحَمَّدٌ ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَمْ يَحْتَجِبُوا عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا عَوَامِّهُمْ وَلَا خَوَاصِّهُمْ، فَكَيْفَ يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَهُمْ؟ وَإِذَا كَانَ الْخَضِرُ حَيًّا دَائِمًا فَكَيْفَ لَمْ يَذْكُرْ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ قَطُّ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ أُمَّتَهُ وَلَا خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ؟

() البخاري ٤٠٩٤، ومسلم٦٧٧.

(٢) غافر: الآية ٧٨.

(٣) البخاري حديث ٤٧٢٥.

(٤) رواه أحمد حديث ١٧٨٦١، والحديث مختلف في تحسينه وتضعيفه بهذا اللفظ.

(٥) رواه النسائي والحاكم، وهو في الضعيفة برقم ٢٣٤٩

وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إنَّهُ نَقِيبُ الْأَوْلِيَاءِ. فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ وَلَّاهُ النِّقَابَةَ وَأَفْضَلُ الْأَوْلِيَاءِ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ وَلَيْسَ فِيهِمْ الْخَضِرُ. وَعَامَّةُ مَا يُحْكَى فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ الْحِكَايَاتِ بَعْضُهَا كَذِبٌ وَبَعْضُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى ظَنِّ رَجُلٍ: مِثْلُ شَخْصٍ رَأَى رَجُلًا ظَنَّ أَنَّهُ الْخَضِرُ وَقَالَ: إنَّهُ الْخَضِرُ، كَمَا أَنَّ الرَّافِضَةَ تَرَى شَخْصًا تَظُنُّ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمُنْتَظَرُ الْمَعْصُومُ، أَوْ تَدَّعِي ذَلِكَ، وَرُوِيَ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ قَالَ -وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ الْخَضِرُ- مَنْ أَحَالَك عَلَى غَائِبٍ فَمَا أَنْصَفَك، وَمَا أَلْقَى هَذَا عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ إلَّا الشَّيْطَانُ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَأَمَّا إنْ قَصَدَ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ "الْقُطْبُ الْغَوْثُ الْفَرْدُ الْجَامِع" أَنَّهُ رَجُلٌ يَكُونُ أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَذَا مُمْكِنٌ، لَكِنْ مِنْ الْمُمْكِنِ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ فِي الزَّمَانِ اثْنَانِ مُتَسَاوِيَانِ فِي الْفَضْلِ وَثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعَةٌ، وَلَا يُجْزَمُ بِأَلَا يَكُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ أَفْضَلُ النَّاسِ إلَّا وَاحِدًا، وَقَدْ تَكُونُ جَمَاعَةٌ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، وَتِلْكَ الْوُجُوهُ إمَّا مُتَقَارِبَةٌ وَإِمَّا مُتَسَاوِيَةٌ. ثُمَّ إذَا كَانَ فِي الزَّمَانِ رَجُلٌ هُوَ أَفْضَلُ أَهْلِ الزَّمَانِ فَتَسْمِيَتُهُ "بِالْقُطْبِ الْغَوْثِ الْجَامِعِ" بِدْعَةٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا تَكَلَّمَ بِهَذَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَمَا زَالَ السَّلَفُ يَظُنُّونَ فِي بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ أَفْضَلُ، أَوْ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَلَا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، لَا سِيَّمَا أَنَّ مِنْ الْمُنْتَحِلِينَ لِهَذَا الِاسْمِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ أَوَّلَ الْأَقْطَابِ هُوَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ثُمَّ يَتَسَلَّلُ الْأَمْرُ إلَى مَا دُونَهُ إلَى بَعْضِ مَشَايِخِ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ لَا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلَا عَلَى مَذْهَبِ الرَّافِضَةِ. فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ وَالْحَسَنُ عِنْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ قَدْ قَارَبَ سِنَّ التَّمْيِيزِ وَالِاحْتِلَامِ.

وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْأَكَابِرِ مِنْ الشُّيُوخِ الْمُنْتَحِلِينَ لِهَذَا: أَنَّ "الْقُطْبَ الْفَرْدَ الْغَوْثَ الْجَامِعَ" يَنْطَبِقُ عِلْمُهُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتُهُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَعْلَمُ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَزَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ كَذَلِكَ، وَأَنَّ هَذَا انْتَقَلَ عَنْهُ إلَى الْحَسَنِ وَتَسَلْسَلَ إلَى شَيْخِهِ، فَبَيَّنْت أَنَّ هَذَا كُفْرٌ صَرِيحٌ وَجَهْلٌ قَبِيحٌ، وَأَنَّ دَعْوَى هَذَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُفْرٌ دَعْ مَا سِوَاهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ﴾[1] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[2] الْآيَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[3] الْآيَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ

---

(١) الأنعام: الآية ٥٠.
(٢) الأعراف: الآية ١٨٨.
(٣) آل عمران: الآية ١٥٤.

يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٢) وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرَنَا أَنْ نُطِيعَ رَسُولَهُ ﷺ فَقَالَ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(٣) وَأَمَرَنَا أَنْ نَتَّبِعَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٤) وَأَمَرَنَا أَنْ نُعَزِّرَهُ وَنُوَقِّرَهُ وَنَنْصُرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ الْحُقُوقِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، حَتَّى أَوْجَبَ عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ أَحَبَّ النَّاسِ إلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَهْلِينَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾(٥) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾(٦) وَقَالَ ﷺ: {وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}(٧) وَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إلَيْك مِنْ نَفْسِك. قَالَ: فَلَأَنْتَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ نَفْسِي. قَالَ: الْآنَ يَا عُمَرُ}(٨) وَقَالَ: {ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ}(٩) وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ حُقُوقَهُ الَّتِي لَا تَصْلُحُ إلَّا لَهُ، وَحُقُوقَ رُسُلِهِ وَحُقُوقَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(١٠) فَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَالْخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾(١١) فَالْإِيتَاءُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَالرَّغْبَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(١٢) لِأَنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا الحسب فَهُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾(١٣) وَلَمْ يَقُلْ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) آل عمران: الآية ١٢٧.
(٢) القصص: الآية ٥٦.
(٣) النساء: الآية ٨٠.
(٤) آل عمران: الآية ٣١.
(٥) الأحزاب: الآية ٦.
(٦) التوبة: الآية ٢٤.
(٧) رواه البخاري حديث ١٥مسلم حديث ٤٤.
(٨) البخاري حديث ٦٦٣٢.
(٩) رواه البخاري حديث ١٦، ومسلم ٤٣.
(١٠) النور: الآية ٥٨.
(١١) التوبة: الآية ٥٩.
(١٢) الحشر: الآية ٧.
(١٣) آل عمران: الآية ١٧٣.

الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أَيْ يَكْفِيك اللَّهُ وَيَكْفِي مَنْ اتَّبَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ كَلِمَةُ إبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

السماع الصوفي المبتدع والتنزّلات الشيطانية:

قال شيخ الإسلام[2]: لَا سِيَّمَا كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ هَذَا السَّمَاعَ الْمُحْدَثَ طَرِيقًا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَجْدًا وَذَوْقًا، وَرُبَّمَا قَدَّمُوهُ عَلَيْهِ اعْتِقَادًا، فَتَجِدُهُمْ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ بِقُلُوبٍ لَاهِيَةٍ وَأَلْسُنٍ لَاغِيَةٍ وَحَرَكَاتٍ مُضْطَرِبَةٍ، وَأَصْوَاتٍ لَا تُقْبِلُ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ، وَلَا تَرْتَاحُ إلَيْهِ نُفُوسُهُمْ، فَإِذَا سَمِعُوا "الْمُكَاءَ" وَ"التَّصْدِيَةَ" أَصْغَتْ الْقُلُوبُ، وَاتَّصَلَ الْمَحْبُوبُ بِالْمُحِبِّ، وَخَشَعَتْ الْأَصْوَاتُ، وَسَكَنَتْ الْحَرَكَاتُ، فَلَا سَعْلَةَ وَلَا عُطَاسَ وَلَا لَغَطَ وَلَا صِيَاحَ، وَإِنْ قَرَءُوا شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ أَوْ سَمِعُوهُ كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّكَلُّفِ وَالسُّخْرَةِ، كَمَا لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مَا لَا حَاجَةَ لَهُ بِهِ وَلَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهِ، حَتَّى إذَا مَا سَمِعُوا مِزْمَارَ الشَّيْطَانِ أَحَبُّوا ذَلِكَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَعَكَفَتْ أَرْوَاحُهُمْ عَلَيْهِ. فَهَؤُلَاءِ جُنْدُ الشَّيْطَانِ وَأَعْدَاءُ الرَّحْمَنِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ وَحَالُهُمْ أَشْبَهُ بِحَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَ اللَّهُ تَعَالَى، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَيُبْغِضُونَ مَا أَحَبَّ اللَّهُ، وَيُوَالُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَيُعَادُونَ أَوْلِيَاءَهُ؛ وَلِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تنزلات شَيْطَانِيَّةٌ بِحَسَبِ مَا فَعَلُوهُ مِنْ مَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، وَكُلَّمَا بَعُدُوا عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَطَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ قَرُبُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجُنْدِ الشَّيْطَانِ. فِيهِمْ مَنْ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ وَالشَّيْطَانُ طَائِرٌ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرَعُ الْحَاضِرِينَ وَشَيَاطِينُهُ تَصْرَعُهُمْ، وَفِيهِمْ مَنْ يُحْضِرُ طَعَامًا وَإِدَامًا، وَيَمْلَأُ الْإِبْرِيقَ مِنْ الْهَوَاءِ وَالشَّيَاطِينِ فَعَلَتْ ذَلِكَ، فَيَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَّ هَذِهِ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جِنْسِ أَحْوَالِ الْكَهَنَةِ وَالسَّحَرَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَمَنْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ والنفسانية والشيطانية لَا يُشْتَبَهُ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى "مَسْأَلَةِ السَّمَاعِ" وَذَكَرْنَا كَلَامَ الْمَشَايِخِ فِيهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَبِاَللَّهِ التَّوْفِيقُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

التقشف الصوفي والتنزلات الشيطانية:

قال شيخ الإسلام[3]: فَإِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ، فَمَنْ أَكَلَ الْخَبَائِثَ كَانَتْ أَحْوَالُهُ شَيْطَانِيَّةً، فَإِنَّ الْأَحْوَالَ نَتَائِجُ الْأَعْمَالِ، فَالْأَكْلُ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُورِثُ الْأَحْوَالَ الرَّحْمَانِيَّةَ مِنْ

---

(١) الأنفال: الآية ٦٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٥٤)

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٣٠٤)

الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَأَكْلُ الْخَبَائِثِ وَعَمَلُ الْمُنْكَرَاتِ يُورِثُ الْأَحْوَالَ الشَّيْطَانِيَّةَ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَخُفَرَاءُ التتر هُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ.

وَإِذَا اجْتَمَعُوا مَعَ مَنْ لَهُ حَالٌ رَحْمَانِيٌّ بَطَلَتْ أَحْوَالُهُمْ وَهَرَبَتْ شَيَاطِينُهُمْ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُونَ عِنْدَ الْكُفَّارِ وَالْجُهَّالِ، كَمَا يَظْهَرُ أَهْلُ الْإِشَارَاتِ عِنْدَ التتر وَالْأَعْرَابِ وَالْفَلَّاحِينَ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْجُهَّالِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَأَمَّا إذَا ظَهَرَ الْمُحَمَّدِيُّونَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَإِنَّ حَالَ هَؤُلَاءِ يَبْطُلُ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

خاتمة: كلمة جامعة في مناهج الفرق المبتدعة والرد عليهم:

وبعد هذا الذي ذكرنا من أمر الفرق والكهانة، وعرضنا احتساب شيخ الإسلام عليه، نذكر هنا كلمة جامعة لشيخ الإسلام يرد فيها على كل فرق الضلال في باب الكهانة، وباب المكاشفات والخوارق.

قال شيخ الإسلام[(١)]: وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَ كَلَامًا أَوْ حَدِيثًا مِمَّا يُقَالُ: إنَّهُ يُلْهِمُهُ صَاحِبُهُ وَيُوحَى إلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ يُنْشِئُهُ وَيُحْدِثُهُ مِمَّا يُعَارِضُ بِهِ الْقُرْآنَ، فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الظَّالِمِينَ ظُلْمًا.

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَ الَّذِينَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، حَيْثُ أَنْكَرُوا الْإِنْزَالَ عَلَى الْبَشَرِ، ذَكَرَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِهِ الْمُدَّعِينَ لِمُمَاثَلَتِهِ مِنْ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ. فَإِنَّ الْمُمَاثِلَ لَهُ:

إمَّا أَنْ يَقُولَ: إنَّ اللَّهَ أَوْحَى إلَيَّ، أَوْ يَقُولَ: أُوحِيَ إلَيَّ وَأُلْقِيَ إلَيَّ وَقِيلَ لِي، وَلَا يُسَمِّي الْقَائِلَ، أَوْ يُضِيفُ ذَلِكَ إلَى نَفْسِهِ وَيَذْكُرُ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْشِئُ لَهُ.

وَوَجْهُ الْحَصْرِ أَنَّهُ إمَّا أَنْ يَحْذِفَ الْفَاعِلَ أَوْ يَذْكُرَهُ وَإِذَا ذَكَرَهُ فَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ أَوْ مِنْ قَوْلِ نَفْسِهِ. فَإِنَّهُ إذَا جَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ الشَّيَاطِينِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَمَا جَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِيمَا يُضِيفُهُ إلَى اللَّهِ وَفِيمَا حُذِفَ فَاعِلُهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾[(٢)] وَتَدَبَّرْ كَيْفَ جَعَلَ الْأَوَّلِينَ فِي حَيِّزِ الَّذِي جَعَلَهُ وَحْيًا مِنْ اللَّهِ وَلَمْ يُسَمِّ الْمُوحِي؟ فَإِنَّهُمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ادِّعَاءِ جِنْسِ الْإِنْبَاءِ، وَجَعَلَ الْآخَرَ فِي حَيِّزِ الَّذِي ادَّعَى أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ" وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. فَالْمُفْتَرِي لِلْكَذِبِ، وَالْقَائِلُ: أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ جُمْلَةِ الِاسْمِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ قُرِنَ بِهِ الِاسْمُ الْآخَرُ، فَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْمُدَّعُونَ لِشِبْهِ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُمْ الْمُكَذِّبُ لِلنُّبُوَّةِ، فَهَذَا يَعُمُّ جَمِيعَ أُصُولِ الْكُفْرِ الَّتِي هِيَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ أَوْ مُضَاهَاتُهُمْ كمسيلمة الْكَذَّابِ وَأَمْثَالِهِ.

وَهَذِهِ هِيَ أُصُولُ الْبِدَعِ الَّتِي نَرُدُّهَا نَحْنُ فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ لِأَنَّ الْمُخَالِفَ لِلسُّنَّةِ يَرُدُّ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَوْ يُعَارِضُ قَوْلَ الرَّسُولِ بِمَا يَجْعَلُهُ نَظِيرًا لَهُ: مِنْ رَأْيٍ أَوْ كَشْفٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣٠٨)
(٢) الأنعام: الآية ٩٣.

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ يُسَمُّونَ هَؤُلَاءِ وَأَئِمَّتَهُمْ حَشْوِيَّةً هُمْ أَحَقُّ بِكُلِّ وَصْفٍ مَذْمُومٍ يَذْكُرُونَهُ، وَأَئِمَّةُ هَؤُلَاءِ أَحَقُّ بِكُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ، وَتَحْقِيقٍ وَكَشْفِ حَقَائِقَ، وَاخْتِصَاصٍ بِعُلُومٍ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهَا هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ الْمُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ الْمُكَذِّبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. فَإِنَّ نَبْزَهُمْ بِالْحَشْوِيَّةِ إنْ كَانَ لِأَنَّهُمْ يَرْوُونَ الْأَحَادِيثَ بِلَا تَمْيِيزٍ، فَالْمُخَالِفُونَ لَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ قَوْلًا لِحَشْوِ الْآرَاءِ وَالْكَلَامِ الَّذِي لَا تُعْرَفُ صِحَّتُهُ، بَلْ يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ وَإِنْ كَانَ؛ لِأَنَّ فِيهِمْ عَامَّةً لَا يُمَيِّزُونَ، فَمَا مِنْ فِرْقَةٍ مِنْ تِلْكَ الْفِرَقِ إلَّا وَمِنْ أَتْبَاعِهَا مَنْ أَجْهَلُ الْخَلْقِ وَأَكْفَرُهُمْ، وَعَوَامُّ هَؤُلَاءِ هُمْ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ بِالصَّلَوَاتِ، وَأَهْلُ الذِّكْرِ وَالدَّعَوَاتِ، وَحُجَّاجُ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَهْلُ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الْعَالَمِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ لَك أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِوُجُوهِ الذَّمِّ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ أَبْعَدُ عَنْهَا، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يَرْجِعُوا إلَيْهِمْ فِيمَا اخْتَصَّهُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إلَّا عِنْدَهُمْ. وَأَيْضًا فَيَنْبَغِي النَّظَرُ فِي الْمَوْسُومِينَ بِهَذَا الِاسْمِ وَفِي الْوَاسِمِينَ لَهُمْ بِهِ، أَيُّهُمَا أَحَقُّ؟ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ هَذَا الِاسْمَ مِمَّا اُشْتُهِرَ عَنْ النفاة مِمَّنْ هُمْ مَظِنَّةُ الزَّنْدَقَةِ كَمَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ كَأَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرِهِ، أَنَّ عَلَامَةَ الزَّنَادِقَةِ تَسْمِيَتُهُمْ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ حَشْوِيَّةً. وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي لَا نِزَاعَ فِيهَا مِثْلُ لَفْظِ "الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ" فَنَقُولُ: مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَلْقِيبِ بَعْضِ النَّاسِ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ يُقِرُّونَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ عَنْهُ أَبْعَدَ كَانَ أَعْظَمَ ذَمًّا بِذَلِكَ، كَالْقَرَامِطَةِ ثُمَّ الْفَلَاسِفَةِ ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةِ، وَهُمْ يَذُمُّونَ بِذَلِكَ الْمُتَكَلِّمَةَ الصفاتية مِنْ الكلابية والكرامية وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَالْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. فَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَ النُّصُوصَ وَأَقَرَّهَا سَمَّوْهُ بِذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ بِالصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةِ مِثْلِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ دُونَ الْخَبَرِيَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، سَمَّى مُثْبِتَةَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ حَشْوِيَّةً، كَمَا يَفْعَلُ أَبُو الْمَعَالِي الجويني وَأَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ وَنَحْوُهُمَا. وَلِطَرِيقَةِ أَبِي الْمَعَالِي كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَتْبَعُهُ فِي فِقْهِهِ وَكَلَامِهِ، لَكِنْ أَبُو مُحَمَّدٍ كَانَ أَعْلَمَ بِالْحَدِيثِ وَأَتْبَعَ لَهُ مِنْ أَبِي الْمَعَالِي وَبِمَذَاهِبِ الْفُقَهَاءِ، وَأَبُو الْمَعَالِي أَكْثَرُ اتِّبَاعًا لِلْكَلَامِ وَهُمَا فِي الْعَرَبِيَّةِ مُتَقَارِبَانِ، وَهَؤُلَاءِ يَعِيبُونَ مُنَازِعَهُمْ إمَّا لِجَمْعِهِ حَشْوَ الْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ صَحِيحِهِ وَضَعِيفِهِ، أَوْ لِكَوْنِ اتِّبَاعِ الْحَدِيثِ فِي مَسَائِلِ الْأُصُولِ مِنْ مَذْهَبِ الْحَشْوِ؛ لِأَنَّهَا مَسَائِلُ عِلْمِيَّةٌ وَالْحَدِيثُ لَا يُفِيدُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَ النُّصُوصِ مُطْلَقًا فِي الْمَبَاحِثِ الْأُصُولِيَّةِ الْكَلَامِيَّةِ حَشْوٌ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ لَا تَفِي بِذَلِكَ، فَالْأَمْرُ رَاجِعٌ إلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إمَّا رَيْبٌ فِي الْإِسْنَادِ أَوْ فِي الْمَتْنِ، إمَّا لِأَنَّهُمْ يُضِيفُونَ إلَى الرَّسُولِ مَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَالَهُ كَأَخْبَارِ الْآحَادِ، وَيَجْعَلُونَ مُقْتَضَاهَا الْعِلْمَ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَا فَهِمُوهُ مِنْ اللَّفْظِ مَعْلُومًا وَلَيْسَ هُوَ بِمَعْلُومٍ لِمَا فِي الْأَدِلَّةِ اللَّفْظِيَّةِ مِنْ الِاحْتِمَالِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا عُمْدَةُ كُلِّ زِنْدِيقٍ وَمُنَافِقٍ يَبْطُلُ الْعِلْمُ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، تَارَةً يَقُولُ: لَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ. وَتَارَةً يَقُولُ: لَا نَعْلَمُ مَا أَرَادُوا بِهَذَا الْقَوْلِ. وَمَتَى انْتَفَى الْعِلْمُ بِقَوْلِهِمْ أَوْ بِمَعْنَاهُ لَمْ يُسْتَفَدْ مِنْ جِهَتِهِمْ عِلْمٌ، فَيَتَمَكَّنُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُ مِنْ الْمَقَالَاتِ وَقَدْ أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُعَارَضَ بِآثَارِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَكَّلَ ثَغْرَهَا بِذَيْنِك الداحين الدَّافِعَيْنِ لِجُنُودِ الرَّسُولِ عَنْهُ الطَّاعِنَيْنِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهَا. وَهَذَا الْقَدْرُ بِعَيْنِهِ هُوَ عَيْنُ الطَّعْنِ فِي نَفْسِ النُّبُوَّةِ، وَإِنْ كَانَ يُقِرُّ بِتَعْظِيمِهِمْ وَكَمَالِهِمْ إقْرَارَ مَنْ لَا يَتَلَقَّى مِنْ جِهَتِهِمْ عِلْمًا، فَيَكُونُ الرَّسُولُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ خَلِيفَةٍ يُعْطِي السِّكَّةَ وَالْخُطْبَةَ

رَسْمًا وَلَفْظًا كِتَابَةً وَقَوْلًا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ مُطَاعٌ، فَلَهُ صُورَةُ الْإِمَامَةِ بِمَا جُعِلَ لَهُ مِنَ السِّكَّةِ وَالْخُطْبَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَتُهَا. وَهَذَا الْقَدْرُ وَإِنْ اسْتَجَازَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُلُوكِ لِعَجْزِ بَعْضِ الْخُلَفَاءِ عَنْ الْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِ الْإِمَارَةِ مِنْ الْجِهَادِ وَالسِّيَاسَةِ، كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ نُوَّابِ الْوُلَاةِ لِضَعْفِ مُسْتَنِيبِهِ وَعَجْزِهِ، فَيَتَرَكَّبُ مِنْ تَقَدُّمِ ذِي الْمَنْصِبِ وَالْبَيْتِ وَقُوَّةِ نَائِبِهِ صَلَاحُ الْأَمْرِ، أَوْ فِعْلُ ذَلِكَ لِهَوَى وَرَغْبَةٍ فِي الرِّئَاسَةِ وَلِطَائِفَتِهِ دُونَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، وَسَلَكَ مَسْلَكَ الْمُتَغَلِّبِينَ بِالْعُدْوَانِ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَقُولَ فِي الرِّسَالَةِ إنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنْ تَحْقِيقِ الْعِلْمِ وَبَيَانِهِ، حَتَّى يَكُونَ الْإِقْرَارُ بِهَا مَعَ تَحْقِيقِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ مِنْ غَيْرِهَا مُوجِبًا لِصَلَاحِ الدِّينِ، وَلَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَتَعَدَّى عَلَيْهَا بِالتَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيُقَدِّمُ عِلْمَهُ وَقَوْلَهُ عَلَى عِلْمِ الرَّسُولِ وَقَوْلِهِ، وَلَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهَا التَّأْوِيلَاتِ الْعَقْلِيَّةَ وَيَدَّعِيَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ الدِّينِ وَأَنَّ الدِّينَ لَا يَكُونُ كَامِلًا إلَّا بِذَلِكَ. وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ لَهُ تَأْوِيلَاتٌ وَتبْيَانٌ غَيْرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ قَوْلِهِ وَمَفْهُومُهُ، وَأَنَّهُ مَا تَرَكَ ذَلِكَ إلَّا لِأَنَّهُ مَا كَانَ يُمْكِنُهُ الْبَيَانُ بَيْنَ أُولَئِكَ الْأَعْرَابِ وَنَحْوِهِمْ، وَأَنَّهُ وَكَلَ ذَلِكَ إلَى عُقُولِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ مِنْهُمْ.

فَإِنَّ الْمُتَفَلْسِفَةَ تَقُولُ: إنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ بَيَانِ الْحَقَائِقِ لِأَنَّ إظْهَارَهَا يُفْسِدُ النَّاسَ وَلَا تَحْتَمِلُ عُقُولُهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَدْ يَقُولُونَ: إنَّهُمْ عَرَفُوهَا. وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: لَمْ يَعْرِفُوهَا. أَوْ أَنَا أَعْرَفُ بِهَا مِنْهُمْ. ثُمَّ يُبَيِّنُونَهَا هُمْ بِالطُّرُقِ الْقِيَاسِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ عِنْدَهُمْ، وَلَمْ يَعْقِلُوا أَنَّهُ إنْ كَانَ الْعِلْمُ بِهَا مُمْكِنًا فَهُوَ مُمْكِنٌ لَهُمْ كَمَا يَدَّعُونَ أَنَّهُ مُمْكِنٌ لَهُمْ، وَإِلَّا فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إلَى مَعْرِفَتِهَا بِإِقْرَارِهِمْ، وَكَذَلِكَ التَّعْبِيرُ وَبَيَانُ الْعِلْمِ بِالْخِطَابِ وَالْكِتَابِ إنْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا فَلَا يُمْكِنُكُمْ ذَلِكَ، وَأَنْتُمْ تَتَكَلَّمُونَ وَتَكْتُبُونَ عِلْمَكُمْ فِي الْكُتُبِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُمْكِنًا فَلَا يَصِحُّ قَوْلُكُمْ: لَمْ يُمْكِنْ الرُّسُلَ ذَلِكَ. وَإِنْ قُلْتُمْ: يُمْكِنُ الْخِطَابُ بِهَا مَعَ خَاصَّةِ النَّاسِ دُونَ عَامَّتِهِمْ -وَهَذَا قَوْلُهُمْ- فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ عِلْمَ الرُّسُلِ يَكُونُ عِنْدَ خَاصَّتِهِمْ كَمَا يَكُونُ عِلْمُكُمْ عِنْدَ خَاصَّتِكُمْ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ بِكَلَامِ الْمَتْبُوعِ وَأَحْوَالِهِ وَبَوَاطِنِ أُمُورِهِ وَظَوَاهِرِهَا أَعْلَمُ وَهُوَ بِذَلِكَ أَقْوَمُ -كَانَ أَحَقَّ بِالِاخْتِصَاصِ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ وَأَخَصُّهَا بِعِلْمِ الرَّسُولِ وَعِلْمِ خَاصَّتِهِ مِثْلُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَسَائِرِ الْعَشَرَةِ، وَمِثْلُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وعبادة بْنِ الصَّامِتِ وَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، وَمِثْلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وأسيد بْنِ حضير وَسَعْدِ بْنِ عبادة وَعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ كَانَ أَخَصَّ النَّاسِ بِالرَّسُولِ وَأَعْلَمَهُمْ بِبَاطِنِ أُمُورِهِ وَأَتْبَعَهُمْ لِذَلِكَ، فَعُلَمَاءُ الْحَدِيثِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَؤُلَاءِ وَبِبَوَاطِنِ أُمُورِهِمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِذَلِكَ، فَيَكُونُ عِنْدَهُمْ الْعِلْمُ: عِلْمَ خَاصَّةِ الرَّسُولِ وَبِطَانَتِهِ، كَمَا أَنَّ خَوَاصَّ الْفَلَاسِفَةِ يَعْلَمُونَ عِلْمَ أَئِمَّتِهِمْ، وَخَوَاصُّ الْمُتَكَلِّمِينَ يَعْلَمُونَ عِلْمَ أَئِمَّتِهِمْ، وَخَوَاصُّ الْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ يَعْلَمُونَ عِلْمَ أَئِمَّتِهِمْ، وَكَذَلِكَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ مِثْلُ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّ خَاصَّةَ كُلِّ إمَامٍ أَعْلَمُ بِبَاطِنِ أُمُورِهِ مِثْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، فَإِنَّ ابْنَ الْقَاسِمِ لَمَّا كَانَ أَخَصَّ النَّاسِ بِهِ وَأَعْلَمَهُمْ بِبَطْنِ أَمْرِهِ اعْتَمَدَ أَتْبَاعُهُ

عَلَى رِوَايَتِهِ، حَتَّى إنَّهُ تُؤْخَذُ عَنْهُ مَسَائِلُ السِّرِّ الَّتِي رَوَاهَا ابْنُ أَبِي الْغَمْرِ وَإِنْ طَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِيهَا، وَكَذَلِكَ أَبُو حَنِيفَةَ فَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَزُفَرُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمَا، وَقَدْ يَكْتُبُ الْعَالِمُ كِتَابًا أَوْ يَقُولُ قَوْلًا فَيَكُونُ بَعْضُ مَنْ لَمْ يُشَافِهْهُ بِهِ أَعْلَمَ بِمَقْصُودِهِ مِنْ بَعْضِ مَنْ شَافَهَهُ بِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ}[(١)] لَكِنْ بِكُلِّ حَالٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُبَلِّغُ مِنْ الْخَاصَّةِ الْعَالِمِينَ بِحَالِ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ، كَمَا يَكُونُ فِي أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ مَنْ هُوَ أَفْهَمُ لِنُصُوصِهِمْ مِنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِمْ.

إنّ مما قرره أهل العلم في الدعوة إلى الله تعالى –الدعوة إلى الله والصبر على الأذى فه ، فإنّ التوحيد الخالص هو الذى خلق الله من أجله الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(٢)] وأعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى الدعوة إلى هذا التوحيد، ومن المعلوم أنه ما شرع الجهاد في هذه الأمة إلا لتبليغ هذا التوحيد، وإذا كان ذلك كذلك فلابد أن يسعى الشيطان وأولياؤه إلى مناوشة ومناوئة دعاة التوحيد، ولا بد أن يمسهم منهم أذى، وتلك سنة الله فكم من نبي قُتل من أجلها، وكم من ولي لقى ربه شهيداً في سبيلها، وكم من رجال أُخرجوا من ديارهم إذ دعوا إليها، وليس بخافٍ ما فُعل برسول الله ﷺ وأصحابه، فعلى المحتسب لاسيما في هذا الباب الذى يقارع فيه الشيطان وأوليائه أن يستعين به تعالى وأن يسأله الثبات والعصمة، فنواصي الخلق كلهم بيده سبحانه، ومن اعتصم بالله وتوكل عليه كفاه وآواه وأيده ونصره، ألم يقل ربنا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[(٣)] ألم يقل ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[(٤)]؟

وعلى المحتسب أن يكثر من دعاء الله والانطراح بين يديه سبحانه، فما أنجحت الحاجات وقضيت بمثل هذا السبب لعظيم، ثم ينبغي على المحتسب على هؤلاء الكهّان وهم أولياء الشيطان وبه يتترسون، وهو يقاتل دونهم –أن يحافظ على أذكاره التي ثبتت عن خير الأنام ﷺ والتي هي حصن المسلم الحصين وقناته التي لا تلين، وهي سبب حفظه من شياطين الإنس والجن.

ثم إذا رأى المحتسب نصراً وعزاً وتمكيناً، وتمكناً من الباطل وأهله، وعلواً على الكهان وشياطينهم، فليكثر من حمد الله تعالى وشكره، وليعلم أنّ الفضل لله وحده، فلا عجب ولا زهو، بل التواضع لمن وفق وسدد وهدى وأنعم ودل على الطريق، وأقامه في هذا المقام المبارك الذي هو مقام أنبياء الله ورسله وخيرة عباده، وعليه أن يوقن بنصر الله تعالى، فقد وعد وعداً لا يخلف، وأقسم تعالى قسماً مبروراً: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[(٥)] وهذا أعظم المقامات التي ينصر العبد فيها ربه، إذ ينصر توحيد الله،

(١) صحيح ابن ماجه ١٩٠.
(٢) الذاريات: الآية ٥٦.
(٣) الزمر: الآية ٣٦.
(٤) الطلاق: الآية ٣.
(٥) الحج: الآية ٤٠.

ويجاهد الكهان الذين يصدّون عن سبيل الله ويأخذون الناس بعيداً عن صراطه المستقيم إلى أخبث سبل الشيطان. جعلنا الله وإياكم من دعاة التوحيد وحماته.

الفصل الثامن

كهان ذكرهم شيخ الإسلام

لقد تحدث شيخ الإسلام عن كهّان بأسمائهم في كتبه، وسنذكر هنا كلام شيخ الإسلام عن هؤلاء الكهان.

المبحث الأول

كلام شيخ الإسلام عن بعض الكهّان

ابن صياد الكاهن:

قال شيخ الإسلام: وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ أَوْ الْمُحْتَاجُ أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً لِلَّهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا لَا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ، بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ لِهَدْيِ الْخَلْقِ وَلِحَاجَتِهِمْ فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً، وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ مِثْلُ حَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ الدَّجَّالُ، وَتَوَقَّفَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَمْرِهِ حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الدَّجَّالُ، لَكِنَّهُ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: {قَدْ خَبَّأْت لَك خَبْئًا. قَالَ: الدُّخُّ الدُّخُّ. وَقَدْ كَانَ خَبَّأَ لَهُ سُورَةَ الدُّخَانِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَك}[(١)] يَعْنِي إنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ.

امتحان النبي ﷺ للكاهن ابن صياد:

قال شيخ الإسلام: وَأَمَّا إنْ كَانَ يَسْأَلُ الْمَسْئُولَ لِيَمْتَحِنَ حَالَهُ وَيَخْتَبِرَ بَاطِنَ أَمْرِهِ وَعِنْدَهُ مَا يُمَيِّزُ بِهِ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، فَهَذَا جَائِزٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ ابْنَ صَيَّادٍ فَقَالَ: {مَا يَأْتِيك؟ فَقَالَ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. قَالَ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ خَبَّأْت لَك خَبِيئًا. قَالَ: الدَّخُّ الدَّخُّ. قَالَ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَك فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ}[(٢)] وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَهُ وَيُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ الْجِنِّ، كَمَا يَسْمَعُ الْمُسْلِمُونَ مَا يَقُولُ الْكُفَّارُ وَالْفُجَّارُ؛ لِيَعْرِفُوا مَا عِنْدَهُمْ فَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَكَمَا يُسْمَعُ خَبَرُ الْفَاسِقِ وَيُتَبَيَّنُ وَيُتَثَبَّتُ فَلَا يُجْزَمُ بِصِدْقِهِ وَلَا كَذِبِهِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[(٣)] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنَا وَأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾}[(٤)] فَقَدْ جَازَ لِلْمُسْلِمِينَ سَمَاعُ مَا يَقُولُونَهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ وَلَمْ يُكَذِّبُوهُ.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) الحجرات: الآية ٦.
(٤) سبق تخريجه.

وليكن أيها المحتسب حديث النبي في احتساب ابن الصياد كاشفا لك عن قاعدة مهمة لدعاة التوحيد والسنة، ومقارعة الكهّان وإخوانهم، فأحوال سؤال الكهّان ثلاثة:

الحالة الأولى: السائل المصدق، وهذا كافر بما أنزل على مُحَمَّد ﷺ سواء أكان السؤال بطريق مباشر عبر وسائل التواصل والتلفاز والهاتف، أو بإرسال شخص يسأل الكاهن فهذا كفر بالله تعالى.

الثانية: ألا يكون مصدقاً له ولكنه يتابع من باب حب الاستطلاع كما يقال ولإضاعة وقته وغير ذلك، فهذا لا تقبل له صلاة أربعين يوماً.

ونقول: وفي هذا حفظ لعقائد المسلمين إذ أنّ الشبه خطافه وللشيطان مداخل إلى قلب العبد، ولقد كان السلف يهابون الحديث مع المبتدعة ويحذرون منه، فكيف بهذا الكفر البواح، وكم من إنسان وقف مع هذه القنوات وغيرها من قنوات الضلال فانجرف إلى هذه الضلالات.

الثالثة: من يسأل هؤلاء لمعرفة أحوالهم، وذلك يكون:

للسلطان وولاة الأمور، وكذلك المحتسب الذي ولاه ولي الأمر وأعطاه سلطة الاحتساب على هؤلاء، والقبض عليهم وإحالتهم إلى القضاء الشرعي، فهذا أيضاً لابد وأن يختبر من يقبض عليه أو يتعقبه، حتى لا يأخذ أحداً وهو غير كاهن، أو يترك كاهناً، أما غير العالم والمحتسب فلا يجوز له ذلك، على أنّ هذين كما قلنا سابقاً إنما يفعلون ذلك بقدر الحاجة.

ولم تأذن الشريعة بهذا الاطلاع إلا حماية لجناب التوحيد، فهذه من ضروريات حماية الدين والتوحيد، وإلا فما يكون لمسلم أن يؤذى سمعه وقلبه بهذه الضلالات وهذا الكفر.

وإنّ من فقه الإمام البخاري ذكره حديث ابن صياد في كتاب الجهاد، وهذا أمر ينبغي أن يكون من كل محتسب على هؤلاء أن يعلم أنّ احتسابه على هؤلاء المتعاملين مع الشياطين هو جهاد، بل هو جهاد لشر الخلق والخليقة الشيطان الرجيم، الذى يريد أن يخرج الناس من الملّة الحقيقية إلى الشرك بالله، وكذلك أعوانه المشركين الذين يريدون أن يكثروا جند إبليس إلى النار، ولا يخفى أنّ الله إنما شرع الجهاد ليكون الدين كله لله، وليعبد الله وحده لا شريك له ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[1] فقاتلوا أولياء الشياطين، إنّ فساد الكهان والسحرة والمنجمين عريض، وهم مفسدون للبيوت كاشفين أسرار العباد أشد مقتاً وجرماً من كل نمام.

وفي ذهاب النبي ﷺ بنفسه لاستطلاع خبراً من ابن صياد بيان لعظيم خطر الكهان، وكذلك في اختبار النبي ﷺ له بالدخ (الدخان) وهو صبي ناهز الحلم –بيان لخطر هؤلاء الصغير منهم والكبير.

---

(١) الأنفال: الآية ٣٩.

الأسود العنسي الكاهن:

وتكلم شيخ الإسلام عن الأسود العنسي المتنبئ الكذاب، فكان مما قاله: وَالْأَسْوَدُ العنسي الَّذِي ادَّعَى النُّبُوَّةَ كَانَ لَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ، فَلَمَّا قَاتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ الشَّيَاطِينِ أَنْ يُخْبِرُوهُ بِمَا يَقُولُونَ فِيهِ، حَتَّى أَعَانَتْهُمْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ(١) لَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا كُفْرُهُ فَقَتَلُوهُ.

ومر بنا تحذير شيخ الإسلام من الانخداع بالخوارق والعجائب، وبيّن أّن العنسي وإخوانه كانت لهم عجائب، كالذين صدّقوا مسيلمة الكذّاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذّابين. وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم.

وذكر -رحمه الله- كرامة الله لأبي مسلم الخولاني بين يدي العنسي، وكيف أنّ الله نجّى أبا مسلم من شياطين العنسي، قال رحمه الله: وتعترف الجن والإنس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن، ويقولون: أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة، وإنما تظهر عند الكفار والفجار؛ وهذا لأنّ أولئك أولياء الشياطين، ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين، ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانيّة، كدخول النّار مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاماً؛ فإنّ الخليل لما أُلقي في النّار صارت عليه برداً وسلاماً، وكذلك أبو مسلم الخولاني، لما قال له الأسود العنسي المتنبي: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أنّ محمّداً رسول الله؟ قال: نعم. فأمر بنار، فأُوقدت له، وألقي فيها، فجاءوا إليه، فوجدوه يصلي فيها، وقد صارت عليه برداً وسلاماً. فقدم المدينة بعد موت النبيّ ﷺ وأخذه عمر فأجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة مُحَمَّد من فُعل به كما فُعل بإبراهيم.

وقد بيّن —رحمه الله- أنّ معرفة العنسي وغيره من الكهّان الكذابين واضح جد الوضوح، قال رحمه الله: كذلك يعلم الفرق بين نبينا مُحَمَّد وموسى وعيسى -عليهم السلام -وبين مسيلمة والأسود العنسي وأمثالهما بأدنى تأمل.

وبين -رحمه الله- أنّ ظهور كذب العنسي وأشباهه أظهر من كذب غيرهم، قال رحمه الله: وأيضاً فالمتنبئ الكذاب كمسيلمة والعنسي ونحوهما يظهر لمخاطبه من كذبه في أثناء الأمور أعظم ما يظهر من كذب غيره.

وقال رحمه الله: وَكَانَ العنسي قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى أَرْضِ الْيَمَنِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَتَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ قَدْ طَلَبَ مِنْ أَبِي مُسْلِمٍ الخولاني أَنْ يُتَابِعَهُ فَامْتَنَعَ، فَأَلْقَاهُ فِي النَّارِ فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) لقد وصلت هذه المرأة البرة الرشيدة إلى درجة عالية من الولاء والبراء، لقد أعانت على ذلك الكاهن المتنبئ الكذاب الذي معه الدنيا والمال والأتباع والشهوات وكل المغريات، ولقد ظلت وفية لإيمانها إذ أخذها ذلك الكاهن كرهاً، وهي لم تخف من شياطينه بل توكلت على ربها، وعملت لدينها وآجل أمرها، فرضي الله عنها وجزاها عن جهادها خيراً وأحسن لها الجزاء.

بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا جَرَى لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذَلِكَ مَعَ صَلَاتِهِ وَذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ لِلَّهِ مَعَ سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ.

مسيلمة الكذاب الكاهن:

وَكَذَلِكَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ كَانَ مَعَهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُخْبِرُهُ بِالْمُغَيَّبَاتِ وَيُعِينُهُ عَلَى بَعْضِ الْأُمُورِ.

قال شيخ الإسلام: وَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَوَّى بَيْنَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّ مُسَيْلِمَةَ كَانَ لَهُ شَيْطَانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَيُوحِي إلَيْهِ.

وتكلم عن الفلاسفة والمتصوفين على مذهبهم كالسهروردي، ثم قال: والنبوة الحق هي إنباء الله لعبده، ونبي الله مَنْ كان الله هو الذي ينبئه ووحيه من الله، وهؤلاء وحيهم من الشياطين، فهم من جنس المتنبئين الكذابين؛ كمسيلمة الكذاب، وأمثاله، بل أولئك (يقصد مسيلمة وأشباهه) أحذق منهم (من الفلاسفة) فإنّهم كانت تأتيهم أرواح، فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة، وهي موجودة في الخارج لا في أنفسهم، وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا.

فَسُبْحَانَ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ نَوْعِ الْإِنْسَانِ فَجَعَلَ مِنْهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلَ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ مِنْهُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَلَكِنَّ تَشْبِيهَ هَؤُلَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ الْأَوْلِيَاءِ، كَتَشْبِيهِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بِسَيِّدِ أُولِي الْأَلْبَابِ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُ جِهَادَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ.

وقال رحمه الله: وَأَمَّا أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالْفُجُورِ فَأَحْوَالُهُمْ مِنْ جِنْسِ أَحْوَالِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَالْأَسْوَدِ العنسي الَّذِينَ ادَّعَيَا النُّبُوَّةَ فِي آخِرِ أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا شَيَاطِينُ تُخْبِرُهُ وَتُعِينُهُ.(١)

الحارث الدمشقي الكاهن:

قال شيخ الإسلام: وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرُونَ، مِثْلُ الْحَارِثِ الدِّمَشْقِيِّ الَّذِي خَرَجَ بِالشَّامِ زَمَنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُخْرِجُونَ رِجْلَيْهِ مِنْ الْقَيْدِ، وَتَمْنَعُ السِّلَاحَ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِ، وَتُسَبِّحُ الرَّخَامَةُ إذَا مَسَحَهَا بِيَدِهِ، وَكَانَ يَرَى النَّاسَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا عَلَى خَيْلٍ فِي الْهَوَاءِ، وَيَقُولُ هِيَ الْمَلَائِكَةُ وَإِنَّمَا كَانُوا جِنًّا، وَلَمَّا أَمْسَكَهُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْتُلُوهُ طَعَنَهُ الطَّاعِنُ بِالرُّمْحِ فَلَمْ يَنْفُذْ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: إنَّك لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ فَسَمَّى اللَّهَ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ. وَهَكَذَا أَهْلُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إذَا ذُكِرَ عِنْدَهُمْ مَا يَطْرُدُهَا مِثْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لَمَّا وَكَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ الْفِطْرِ، فَسَرَقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يُمْسِكُهُ، فَيَتُوبَ فَيُطْلِقَهُ.. وقد سبق ذكر الحديث.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٧٥)

وَلِهَذَا إِذَا قَرَأَهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ بِصِدْقٍ أَبْطَلَتْهَا مِثْلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالٍ شَيْطَانِيٍّ، أَوْ يَحْضُرُ سَمَاعَ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ فَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، وَتَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِهِ كَلَامًا لَا يُعْلَمُ وَرُبَّمَا لَا يُفْقَهُ، وَرُبَّمَا كَاشَفَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ بِمَا فِي قَلْبِهِ وَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِأَلْسِنَةٍ.

المختار بن أبي عبيد وشياطينه:

قال رحمه الله[1]: وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {سَيَكُونُ فِي ثَقِيفَ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ} فَكَانَ الْكَذَّابُ هُوَ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيَّ، وَكَانَ يُظْهِرُ مُوَالَاةَ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالِانْتِصَارَ لَهُمْ، وَقَتَلَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ أَمِيرَ الْعِرَاقِ الَّذِي جَهَّزَ السَّرِيَّةَ الَّتِي قَتَلَتْ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ثُمَّ إنَّهُ أَظْهَرَ الْكَذِبَ وَادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَأَنَّ جِبْرِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يَنْزِلُ عَلَيْهِ، حَتَّى قَالُوا لِابْنِ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ. قَالُوا لِأَحَدِهِمَا: إنَّ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: صَدَقَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وَقَالُوا لِلْآخَرِ: إنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إلَيْهِ فَقَالَ صَدَقَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَهُوَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ وَكَانَ مُنْحَرِفًا عَنْ عَلِيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَكَانَ هَذَا مِنْ النَّوَاصِبِ، وَالْأَوَّلُ مِنْ الرَّوَافِضِ، وَهَذَا الرافضي كَانَ أَعْظَمَ كَذِبًا وَافْتِرَاءً وَإِلْحَادًا فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ ادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَذَاكَ كَانَ أَعْظَمَ عُقُوبَةً لِمَنْ خَرَجَ عَلَى سُلْطَانِهِ وَانْتِقَامًا لِمَنْ اتَّهَمَهُ بِمَعْصِيَةِ أَمِيرِهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص١٠٨)

المبحث الثاني

فقه خوارق الدجال الأكبر وكشف تلبيس الملبسين

قال شيخ الإسلام: وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُتَّبَعْ إلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ رَأَى مِنْ رَجُلٍ مُكَاشَفَةً أَوْ تَأْثِيرًا فَاتَّبَعَهُ فِي خِلَافِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَانَ مِنْ جِنْسِ أَتْبَاعِ الدَّجَّالِ، فَإِنَّ الدَّجَّالَ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ: أَمْطِرِي فَتُمْطِرُ، وَيَقُولُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي فَتُنْبِتُ، وَيَقُولُ لِلْخَرِبَةِ: أَخْرِجِي كُنُوزَك فَيَخْرُجُ مَعَهُ كُنُوزُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَيَقْتُلُ رَجُلًا ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَقُومَ فَيَقُومُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا كَافِرٌ مَلْعُونٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مَا مِنْ نَبِيٍّ إلَّا قَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ، وَأَنَا أُنْذِرُكُمُوهُ، إنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ -ك ف ر- يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ قَارِئٌ وَغَيْرُ قَارِئٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَرَى رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ}(١) وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: {إذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ}(٢)

وقال رحمه الله: وَقَالَ ﷺ: {لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلَاثُونَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ} وَقَالَ ﷺ: {يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ}(٣) وَهَؤُلَاءِ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيَاطِينُ وَتُوحِي إلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَمِنْ أَوَّلِ مَنْ ظَهَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ .

وَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَوَّى بَيْنَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّ مُسَيْلِمَةَ كَانَ لَهُ شَيْطَانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَيُوحِي إلَيْهِ. وَمِنْ عَلَامَاتِ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْأَحْوَالَ إذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ وَقْتَ سَمَاعِ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ أَزْبَدُوا وَأَرْعَدُوا كَالْمَصْرُوعِ، وَتَكَلَّمُوا بِكَلَامِ لَا يُفْقَهُ مَعْنَاهُ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَكَلَّمُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ.

وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنْ يَعْلَمَ الرَّجُلُ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ نَعَتَهُمْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَلَا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

وَدِينُ الْإِسْلَامِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ: عَلَى أَلَّا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ، وَأَنْ نَعْبُدَهُ بِمَا شَرَعَ لَا نَعْبُدُهُ بِالْبِدَعِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١) فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَهُوَ الْمَشْرُوعُ الْمَسْنُونُ؛ وَلِهَذَا كَانَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا.

فَإِن رَأس الْإِسْلَام شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله، فَلَا بُد من إخلاص الدَّين لله حَتَّى لَا يكون فِي الْقلب تأله لغير الله، فَمَتَى كَانَ فِي الْقلب تأله لغير الله فَذَاك شرك يقْدَح فِي تَحْقِيق شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله، وَلَا بُد من الشَّهَادَة بِأَن مُحَمَّدًا رَسُول الله وَذَلِكَ يتَضَمَّن تَصْدِيقه فِي كل مَا أخبر وطاعته فِيمَا أَمر بِهِ، وَمن ذَلِك الْإِيمَان بِأَنَّهُ خَاتم النَّبِيين وَأَنه لَا نَبِي بعده، فَمَتَى جعل لغيره نَصِيبا من خَصَائِص الرسَالَة والنبوة كَانَ فِي ذَلِك نصيب من الْإِيمَان بِنَبِي بعده وَرَسُول بعده، كالمؤمنين بنبوة مُسَيْلمَة والعنسي وَغَيرهمَا من المتنبئين الْكَذَّابين، كَمَا قَالَ ﷺ: {إِن بَين يَدي السَّاعَة ثَلَاثِينَ دجالين كَذَّابين كلهم يزْعم أَنه رَسُول الله} (٢)

عصمَة الْأَئِمَّة تَعْنِي مضاهاتهم للرسول، فَمن أوجب طَاعَة أحد غير رَسُول الله ﷺ فِي كل مَا يَأْمر بِهِ، وَأوجب تَصْدِيقه فِي كل مَا يخبر بِهِ، وَأثبت عصمته أَو حفظه فِي كل مَا يَأْمر بِهِ ويخبر من الدَّين، فقد جعل فِيهِ من الْمُكَافَأَة لرَسُول الله والمضاهاة لَهُ فِي خَصَائِص الرسَالَة بِحَسب ذَلِك، سَوَاء جعل ذَلِك المضاهي لرَسُول الله ﷺ بعض الصَّحَابَة أَو بعض الْقَرَابَة أَو بعض الْأَئِمَّة والمشايخ أَو الْأُمَرَاء من الْمُلُوك وَغَيرهم، وَقد قَالَ الله فِي كِتَابه: ﴿يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا أطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَالْأولَى الْأَمر مِنْكُم فَإِن تنازعتم فِي شَيْء فَردُّوهُ إِلَى الله وَالرَّسُول إِن كُنْتُم تؤمنون بِاللَّه وَالْيَوْم الآخر ذَلِك خير وَأحسن تَأْوِيلا﴾(٣) [النِّسَاء: ٥٩] فغاية المطاع بِإِذن الله أَن يكون من أولى الْأَمر الَّذين أَمر الله بطاعتهم من الْعلمَاء والأمراء، وَمن يدْخل فِي ذَلِك من الْمَشَايِخ والملوك وكل متبوع فَإِنّ الله تَعَالَى أَمر بطاعتهم مَعَ طَاعَة رَسُوله.

وهؤلاء الجهّال لم يعرفوا ذلك، ولهذا كان من أصلهم أنّ النبوة مكتسبة، وكان السهروردي المقتول يطلب أن يكون نبياً، وكذلك ابن سبعين، وغيره.

تلبيس أتباع الشياطين:

قال رحمه الله(٤): ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْكَذَّابِ وَالْمُتَنَبِّئِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾(١) فَجَمَعَ فِي هَذَا بَيْنَ مَنْ أَضَافَ مَا

(١) الكهف: الآية ١١٠.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) النساء: الآية ٥٩.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ٧٥)
(١) الأنعام: الآية ٩٣.

يَفْتَرِيهِ إِلَى اللَّهِ وَبَيْنَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ وَلَا يُعَيِّنُ مَنْ أَوْحَاهُ، فَإِنَّ الَّذِي يَدَّعِي الْوَحْيَ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ، وَيَدْخُلُ فِي "الْقِسْمِ الثَّانِي" مَنْ يُرِي عَيْنَيْهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَا تَرَيَا، وَمَنْ يَقُولُ: أُلْقِيَ فِي قَلْبِي وَأُلْهِمْت وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَاذِبًا، وَيَدْخُلُ فِي "الْقِسْمِ الْأَوَّل" مَنْ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ لِي أَوْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَوْ وَافَقَنِي أَوْ قَالَ لِي وَنَحْوَ ذَلِكَ، بِخَيَالَاتِ أَوْ إِلْهَامَاتٍ يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بَلْ قَدْ يَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ مِثْلُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَنَحْوِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فَهَذِهِ حَالُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْبَشَرَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ كَلَامِ اللَّهِ، أَوْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ كَلَامُ الْبَشَرِ بِفَضِيلَةِ وَقُوَّةٍ مِنْ صَاحِبِهِ، فَإِذَا اجْتَهَدَ الْمَرْءُ أَمْكَنَ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ. وَهَذَا يَعُمُّ مَنْ قَالَ: إنَّهُ يُمْكِنُ مُعَارَضَةُ الْقُرْآنِ كَابْنِ أَبِي سَرْحٍ فِي حَالِ رِدَّتِهِ، وَطَائِفَةٍ مُتَفَرِّقِينَ مِنْ النَّاسِ، وَيَعُمُّ الْمُتَفَلْسِفَةَ الصَّابِئَةَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِين، مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ رِسَالَةَ الْأَنْبِيَاءِ كَلَامٌ فَاضَ عَلَيْهِمْ قَدْ يَفِيضُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِثْلُهُ، فَيَكُونُ قَدْ أَنْزَلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي دَعْوَى الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الْقَائِلَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ يَقُولُهُ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ شَيْئًا، وَقَدْ يَقُولُهُ مُعْتَقِدًا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ شَيْئًا.

الفصل التاسع

أنواع الكهانة وصورها

سنعرض هنا ما يدخل تحت الكهانة، وما تعاطاه الناس من أفرادها وأنواعها وأشكالها، وسنعرض عن تفصيلات كثيرة في ذلك مسطورة في مواضعها، وسنعرض عن ذكر كثير من كتبها المخطوطة والمطبوعة روماً للاختصار من ناحية، وعدم نشر هذه الخبائث من ناحية أخرى، ونؤكد على أمر كررناه في دراستنا هذه وهو أنّ الكهانة هي ادعاء علم الغيب، وفعل ذلك بمعونة الشياطين والتعبد لها، وكل هذه الصور تابعة لذلك، فهذه المظاهر الكثيرة هي لحقيقة واحدة، وهذه الصور المتنوعة التي سنعرض لها مؤسسة على التعريف الجامع السابق، فيدخل في ذلك هذه الصور المذكورة وما لم يذكر من الصور القديمة، كما يدخل فيها ما يستحدث من صور الإخبار بالغيب بمعونة الشياطين والتعبد لها، فالطرق لا يختلف في حقيقته عن العيافة، والخط على الرمل لا يغاير الكتابة على ألواح أبي جاد، وذلك لا يختلف في حقيقته عن قراءة الفنجان ولا النظر في أوراق اللعب الكوتشينة؛ إذ أنّ هذه أمور لا تغير في حقيقة الأمر وهو أنّ هذا كله كهانة، وهذه المظاهر تكون لها أسبابها كالبيئة أو الطبقة الاجتماعية التي يتعامل معها الكاهن، أو الشيء الذي يتقن استخدامه، وقد يستخدم الكاهن أكثر من نوع وصورة من صور الكهانة إذا رأى أن ذلك يحقق مقصوده ومقصود الشياطين التي تعينه، وتجازيه على عبادته لها وعلى تعبيد الناس لها.

قال شيخ الإسلام(١): وَأَنْوَاعُ الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ فِي الشَّرِيعَةِ مَعَ تَضَمُّنِهَا أَحْيَانًا نَوْعَ كَشْفٍ أَوْ نَوْعَ تَأْثِيرٍ. وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُقْضَى بِهَا حَوَائِجُهُمْ.

وقال: وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ يَقْصِدُونَ السُّجُودَ لَهَا، فَيُقَارِنُهَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ سُجُودِهِمْ لِيَكُونَ سُجُودُهُمْ لَهُ؛ وَلِهَذَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِصُورَةِ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا وَاسْتَغَاثَ بجرجس أَوْ غَيْرِهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ جرجس أَوْ مَنْ يَسْتَغِيثُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُنْتَسِبًا إلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَغَاثَ بِشَيْخِ يَحْسُنُ الظَّنُّ بِهِ مِنْ شُيُوخِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مُشْرِكِي الْهِنْدِ جَاءَ فِي صُورَةِ مَنْ يُعَظِّمُهُ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ، ثُمَّ إنَّ الشَّيْخَ الْمُسْتَغَاثَ بِهِ إنْ كَانَ مِمَّنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ، لَمْ يَعْرِفْهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ تَمَثَّلَ لِأَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ نَقَلَ أَقْوَالَهُمْ لَهُ، فَيَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ مِنْ الْبُعْدِ وَأَجَابَهُمْ وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوَسُّطِ الشَّيْطَانِ، وَلَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ الشُّيُوخِ الَّذِينَ كَانَ قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا بِصُورَةِ مُكَاشَفَةٍ وَمُخَاطَبَةٍ فَقَالَ:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦ / ص ٢٣٢)

يَرَوْنَنِي الْجِنُّ شَيْئًا بَرَّاقًا مِثْلَ الْمَاءِ وَالزُّجَاجِ، وَيُمَثِّلُونَ لَهُ فِيهِ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ بِهِ قَالَ: فَأَخْبِرَ النَّاس بِهِ وَيُوصِلُونَ إلَيَّ كَلَامَ مَنْ اسْتَغَاثَ بِي مِنْ أَصْحَابِي، فَأُجِيبُهُ فَيُوصِلُونَ جَوَابِي إلَيْهِ.

ونقول: هذه صورة من صور الكهانة، أنّ الجن تري وليها شيئاً براقاً مثل الماء أو الزجاج، وتوحي إليه من خلالها.

وتكلم شيخ الإسلام عن الطيرة في جوابه عن سؤال عن كراهية أعمال في أيام بعينها، وهذا نص السؤال والجواب.

وَسُئِلَ[1] عَنْ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: السَّفَرُ يُكْرَهُ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ أَوْ الْخَمِيسِ أَوْ السَّبْتِ، أَوْ يُكْرَهُ التَّفْصِيلُ أَوْ الْخِيَاطَةُ أَوْ الْغَزْلُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، أَوْ يُكْرَهُ الْجِمَاعُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ اللَّيَالِي وَيُخَافُ عَلَى الْوَلَدِ؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. هَذَا كُلُّهُ بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ، بَلْ الرَّجُلُ إذَا اسْتَخَارَ اللَّهَ تَعَالَى وَفَعَلَ شَيْئًا مُبَاحًا فَلْيَفْعَلْهُ فِي أَيِّ وَقْتٍ تَيَسَّرَ، وَلَا يُكْرَهُ التَّفْصِيلُ وَلَا الْخِيَاطَةُ وَلَا الْغَزْلُ وَلَا نَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ فِي يَوْمٍ مِنْ الْأَيَّامِ، وَلَا يُكْرَهُ الْجِمَاعُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ اللَّيَالِي وَلَا يَوْمٍ مِنْ الْأَيَّامِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَهَى عَنْ التَّطَيُّرِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السلمي قَالَ: {قُلْت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ مِنَّا قَوْمًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ؟ قَالَ: فَلَا تَأْتُوهُمْ. قُلْت: مِنَّا قَوْمٌ يَتَطَيَّرُونَ؟ قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ} فَإِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عَنْ أَنْ تَصُدَّهُ الطِّيَرَةُ عَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ فَكَيْفَ بِالْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي؟ وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ السَّفَرُ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَيَوْمَ السَّبْتِ وَيَوْمَ الِاثْنَيْنِ، مِنْ غَيْرِ نَهْيٍ عَنْ سَائِرِ الْأَيَّامِ إلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ إذَا كَانَتْ الْجُمُعَةُ تَفُوتُهُ بِالسَّفَرِ فَفِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَمَّا الصِّنَاعَاتُ وَالْجِمَاعُ فَلَا يُكْرَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَيَّامِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

حديث شيخ الإسلام عن خشبة (أ ب ج د) الكهانية:

قال شيخ الإسلام: وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ الَّتِي يَسْتَقْسِمُ بِهَا مِثْلَ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا أ ب ج د وَالضَّارِبِ بِالْحَصَى وَنَحْوِهِمْ فَمَا يُعْطَى هَؤُلَاءِ حَرَامٌ.

علم الكهانة[2] المراد منه: مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة، أي: الجن والشياطين، والاستعلام بهم عن الأحوال الجزئية الحادثة في عالم الكون والفساد المخصوصة بالمستقبل، وأكثر ما يكون في العرب وقد اشتهر فيهم كاهنان: أحدهما: شق، والآخر: سطيح. (٢/ ١٥٢٥) وقصتهما مشهورة في السير سيما في كتاب (أعلام النبوة) للماوردي لكنهم كانوا محرومين بعد بعثة نبينا ﷺ عن الاطلاع على المغيبات ومحجوبين عنها بغلبة نور النبوة، حتى ورد في بعض الروايات أنه (لا كهانة بعد النبوة) فلا يجوز الآن تصديق الكهنة والإصغاء إليهم بل هو من أمارات الكفر لقوله ﷺ: {من أتى كاهناً فصدقه بما

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص ٣١٥)
(٢) كشف الظنون (ج ٢/ ص ١٥٢٤)

يقول فقد كفر بما أنزل على مُحَّد} لكن المفهوم من كتاب (السر المكتوم) للفخر الرازي، أنّ الكهانة على قسمين:

قسم: يكون من خواص بعض النفوس فهو ليس بمكتسب.

وقسم: يكون بالعزائم ودعوة الكواكب والاشتغال بهما فبعض طرقه مذكور فيه، وإن السلوك في هذا الطريق محرّم في شريعتنا، فعلى ذلك وجب الاحتراز عن تحصيله واكتسابه.

والقسم الأول داخل في علم العرافة، فتنبه عليه في مجمله ولا تغفل.

قال توفيق فهد: يعد التصنيف الذي وضعه حاجي خليفة للكهانة في كتابة (كشف الظنون) هو الأكثر تفصيلاً، وهو يشتمل على أصناف ثلاثة كبرى مقسمة بدورها إلى فروع عدة:

- الفراسة وتفرعاتها:

١. الشامات والوحمات (علم الشامات والخيلات)
٢. قراءة الكف (علم الأسارير)
٣. النظر في لوح الكتف (علم الأكتاف)
٤. التعرف على آثار الاقدام على الارض (علم عيافة الأثر)
٥. التكهن عن طريق خطوط الشكل والسلالة (علم قيافة البشر)
٦. حس الاستهداء داخل الصحراء (علم الاهتداء في البرارى والقفاز)
٧. الكشف عن الينابيع (علم الريافة)
٨. الكشف عن المعادن (علم استنباط المعادن)
٩. معرفة الإشارات المنبئة بسقوط المطر (علم نزول الغيث)
١٠. الكهانة بمعناها الدقيق أي معرفة المستقبل انطلاقا من أحدث ماضية (علم العرافه)
١١. التكهن عن طريق الاختلاج (علم الاختلاج)

- السحر وتفرعاته:

١- الكهانة (علم الكهانة)
٢- السحر الابيض (علم النيرينجية)
٣- معرفة فضائل الأسماء الإلهية والأدعية والأعداد وأشياء أخرى خاصة (علم الخواص)
٤- التأثير الجاذبية أو التعاويذ (علم الرقي)
٥- العزائم الشيطانية أو التعزيمات (علم العزائم)
٦- استحضار الأرواح فى حالاتهم البدنية (علم الاستحضار)
٧- استحضار أرواح الكواكب (علم دعوة الكواكب)
٨- الفيلقطيرة (علم الفيلقطيرات)

٩- فن الاستخفاء أو الاختفاء المؤقت عن الأنظار (علم الخفاء)
١٠-علم الحيل والخدع (علم الحيل الساسانية)
١١-فن كشف الغش (علم الدك)
١٢-الشعوذه (علم الشعبذه)
١٣-افتتان القلب (علم تعلق القلب)
١٤-اللجوء الى خواص الادوبة (علم الاستعانه بالادوبة)

- قضاء التنجيم وتفرعاته:

١- أوقات السعد والنحس (علم الاختيارات)
٢- قراءه خطوط الرمل (علم الرمل)
٣- قراءة البشائر والنذر (علم الفال)
٤- الاقتراع (علم القرعه)
٥- زجر الطير (علم الطيره)

قال توفيق فهد: وصف المسعودي ببراعة طرائق هذا الإعلاء للطبيعة الإنسانية في الفصل الثاني والخمسين من كتابه (مروج الذهب): ببلوغ النفس حاله الصفاء الكامل، تطلع على أسرار الطبيعية وعلى ما تريد أن يكون فيها؛ لأن صور الأشياء موجودة داخل النفس الكلية، وهذا الرأي حول الكهانة منسوب إلى طائفة الحكماء اليونان والبيزنطيين. هناك صنف آخر ادعي أن الأرواح المفردة وهي الجن تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم كانت قد صفت حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة، ويعطى المسعودي مثالاً عن السيد المسيح الذي كان يعلم الغائبات من الأمور ويخبر عن الأشياء قبل كونها؛ لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب، ولو كانت تلك النفس في غيره من الأشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب، وما من أمة خلت من الكهانة: فكان لليونان فيثاغورث، وكان للصابئة هرمس واغاثوذيمون. وذهب طائفة أخرى إلى أنّ التكهن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع وقوة النفس ولطافة الحس، وذكر كثير من الناس أنّ الكهانة تكون من شيطان يكون مع الكاهن فيخبره بما غاب عنه، وأنّ الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنه الكهّان، فيؤدون إلى الناس الأخبار بحسب ما ورد إليهم. وطائفة ذهبت إلى أن وجه سبب الكهانة من الوحي الفلكي، وأن ذلك يكون في المولد عنه ثبوت عطارد على شرفه، وأما ما عداه من الكواكب المدبرات من النيرين (الشمس والقمر) والكواكب الخمسة، فحين تكون في عقد متساوية وأرباع متكافئة ومناظر متوازية، وجب لصاحب المولد التكهن بالإخبار بالكائنات قبل حدوثها؛ لإشراق هذه الأشراق الكوكبية. وذهب المسعودي مثل كثيرين غيره إلى أنّ علة ذلك علل نفسانية، وأنّ النفس إذا قويت وازدادت، قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل

سر لطيف، وخبرته بكل معنى شريف، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة فاقتنصتها وأبرزتها في الحال.

تقوم هذه النظرية على دراسة النفس البشرية التي يراها المسعودي على طبقات فمنها الصافي وهى النفس الناطقة، ومنها الكدر وهى النفس الحسية والنفس التراعية والنفس المتخيلة، فلما كانت النسبة النورية للإنسان إلى النفس كانت تهدى الإنسان إلى استخراج الغيب وعلم الآتي، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم، فإذا كانت النفس في غاية البروز ونهاية الخلوص وكانت تامة النور وكاملة الشعاع، كان تولجها في دراسة الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة، وبهذا وجد الكهان على هذا السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق، كما اتصل بنا عن شق وسطيح وسملقة وزوبعة وسديف بن هوماس وطريقة الكاهنة وعمران أخي عمرو بن مزيقيا وحادثة وجهينة كاهنة باهلة وأشباههم من الكهان.

على هذا النحو يتابع المسعودي: فإن الكهانة أصلها نفسي لأنها لطيفة باقية ومقارنة لإعجاز باهرة؛ لأنها شأن يتولد عن صفاء المزاج الطبيعي وقوه مادة روح النفس، وإذا أنت اعتبرت أوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس، وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد (الخلوات وما تحدثه من خيالات) وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم، وذلك أنّ النفس إذا هي تفردت فكرت، فإذا هي فكرت تعدت، وإذا تعدت هطل عليها سحب العلم النفسي، فنظرت بالعين النورية ولحظت بالنور الثاقب ومضت على الشريعة المستوية، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به وعليه، وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها. (وهذا تصور صوفي للكهانة جذره يوناني) الصوفية أخذوها من اليونانية.

قال ابن خلدون: يكون العرّاف مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك، وعندما يعوقها العجز عن ذلك تتشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان، فيستديم ذلك الإحساس والتخيل مستعيناً به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده، ويكون كالمشيع له، وهذه القوة التي فيهم كمبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة. ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات، ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات، فتنفذ فيها نفوذاً تاماً في نوم أو يقظة، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة، وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات؛ لأن وحيه من وحي الشيطان.

وأرفع أحوال صنف الكهان أنّ يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس (سبق أنّ ذكرنا اتصال الشعر والكهانة والرجز فيما مضى) ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص، فيهجس في قلبة عن تلك الحركة، والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذفه على لسانه، فربما صدق ووافق الحق وربما كذب؛ لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبي عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر

بالإدراك بزعمه وتمويهاً على السائلين، وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهّان؛ لأنهم أرفع سائر أصنافهم. والناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصي والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان. وتحدث ابن خلدون حديثاً مستفيضاً فراجعه.

نقول: من كتاب (مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم) تأليف: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده –المجلد الأول.

قال طاش زادة: الشعبة الثالثة في العلم الطبيعي: وهو علم باحث فيه عن أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها. وموضوعه: الجسم من حيث كونه متغيراً. ومنفعته: معرفة أحوال الأجسام البسيطة من الأفلاك والعناصر والمركبة: كالمواليد الثلاثة، وكائنات الجو، وغير ذلك من الحوادث العجيبة وغرائب المزاجات، من الأحجار والنباتات والحيوانات. قال زادة ومن الكتب النافعة فيه (كتاب أرسطوطاليس) أورد فيه ثمانية أجزاء هي الأصول، وجردها الشيخ أبو على بن سينا في مختصر ترجمة ب(المقتضيات). وسنذكر كتباً تشتمل على: المنطق، والطبيعي، والإلهي. وللعلم الطبيعي سبعة فروع، وعند البعض عشرة، وهي:

علم الطب، وعلم البيطرة والبيزرة، وعلم الفراسة، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم أحكام النجوم، وعلم السحر، وعلم الطلسمات، وعلم السيمياء.

تعليق: علم الفراسة الفرق بين الكهاني والعلم الصحيح المذكور في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(١) مختصر ابن كثير.

وهو علم يتعرف فيه أخلاق الانسان من أحواله الظاهرة من الألوان والأشكال والأعضاء، وبالجملة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن. وموضوعه وغايته ومنفعته ظاهران. ومن الكتب المؤلفة فيه: (كتاب الإمام الرازي) في هذا العلم خلاصة (كتاب أرسطوطاليس) مع زيادات مهمة. ولأقليمون (كتاب في الفراسة) يختص بالنسوان. و(كتاب السياسة) لمحمد الصوفي. مختصر ومفيد في هذا العلم.

وكفى بهذا العلم شرفاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وقول النبي ﷺ: {أتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله} سبق تخريجه، وقوله ﷺ: {كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون، وأنه لو كان في أمتي لكان عمر} قلت: المحدث: المصيب في ظنه وفراسته كأنه حديث الأمر. واعلم أنّ علم الفراسة قسمان:

أحدهما: ما يحصل بالتجربة، إذ التجربة دلّت على أنّ بعضاً من الأمور الظاهرة، يدل على الأخلاق الباطنة. وهذا الذي وجده الحكماء وما يكون من فروع الحكمة الطبيعية.

(١) الحجر: الآية ٧٥.

وثانيهما: الفراسة الشرعية الحاصلة بنور اليقين، بواسطة تزكية النفس عن الأخلاق الردية وتصفية القلب عن الصفات الذميمة حتى ينظر بنور الله، حتى يكون الله سبحانه وتعالى بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به. إنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي قال رسول الله ﷺ في حقه: {اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله}[1] وأما قوله ﷺ: {كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون}[2] إشارة إلى الفراسة الطبيعية، وهي التي خلق الله سبحانه وتعالى النفوس مفطورة عليها.

وبالجملة: الفراسة الشرعية معاينة المغيبات بالأدوار الربانية، وذلك نور قلب المؤمن الذي قال النبي ﷺ في حقه: {المؤمن ينظر بنور الله}[3]

وعن ثوبان –رضى الله عنه– عن النبي ﷺ أنه قال: {احذروا دعوة المسلم وفراسته، فإنه ينظر بنور الله وتوفيقه الله} وكذلك قال ﷺ: {اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله}[4] كما ذكرناه.

إذا عرفت هذا فاعلم أنّ من كان مراقباً أحواله وأنفاسه مجتنباً عن المعاصي صغائرها وكبائرها، ومتخلقاً بالأخلاق النبوية متحلياً بالآداب المصطفوية، ولا يرى الخير والشر والنفع والضر إلا من الله تعالى، ولا يلتفت إلى مخلوق لعرض حاجته، ولا يعتمد عليه طرفة عين، تكون فراسته كالشمس ساطعة أنوارها لامعة أضواؤها، ينطق بالصدق ويقول الحق.

"وعند جهينة الخبر اليقين" (تناقض هذا الكلام الصحيح مع فراسة الكهانة) قلت: جهينة اسم رجل وهذا مثل يضرب في صحة الخبر ومورده مشهور، وهذا العلم نافع للملوك والصعاليك، في اختيار الزوجة والصديق والمماليك، إلى غير ذلك، ولابد للإنسان من ذلك العلم لأنه مدني بالطبع محتاج إلى معرفة النافع من الضار.

فروع علم الفراسة:

- علم الشامات والخيلان:

وهو علم باحث عن أحوال العلامات المذكورة، بحسب دلالتها على الأحوال الباطنة والأخلاق الموجودة في الإنسان بحسب الفطرة. وقد صنف فيه بعض الحكماء رسائل، لكنها قليلة الوجود جداً.

- علم تعبير الرؤيا والكهانة:

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

وهو علم يتعرف منه المناسبة بين التخيلات النفسانية والأمور الغيبية، لينتقل من الأولى إلى الثانية، ليستدل بذلك على الأحوال النفسانية في الخارج أو على الأحوال الجارية في الآفاق، ومنفعته: البشرى أو الإنذار بما يرد.

- علم الأسارير:

وهو علم باحث عن الاستدلال بالخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجباه، بحسب التقاطع والتباين والطول والعرض والقصر، بحسب ما بينهما من الفرج المتسعة أو المتضائقة، من حيث دلالتها على أحوال الإنسان من طول الأعمار وقصرها، والسعادة والشقاوة والغنى والفقر. وأكثر من تمهر في هذا العلم الأعراب والهنود.

قال الأعشى:

فانظر إلى كفي وأســرارها *** هل أنت إن أوعدتني ضائري

ويوجد في هذا العلم مصنفات، وكثيراً ما يوجد ذيلاً لكتب علم الفراسة.

قال توفيق فهد: قراءة الكفّ إذا كانت الفراسة هي التعبير الشامل للجسد، فإنّ اليد هي الفعل الإنساني برمته، ووسيلته الوحيدة إلى الظهور، من هنا ولدت طرائق عدة للتكهن بواسطة اليد، مثل التكهن باللمس بالأصابع، والتكهن بالنظر إلى الأظافر خاص قراءة الكف. تتيح قراءة الكف، أو علم الأسارير التكهن بطول عمر الإنسان أو قصره، وبمستقبله السعيد أو التعيس، بغناه أو فقره... إلخ. وكل ذلك انطلاقاً من خطوط الكف أو أخمص القدم، حيث يتم النظر إلى تقارب هذه الخطوط أو تباعدها، امتدادها أو قصرها، اتساع المسافة الفاصلة بينها أو ضيقها، والرسوم التي تتشكل فيما بين هذه الخطوط. يعد مؤلف كتاب مفتاح السعادة أنّ قراءة الكف علم برع فيه العرب على نحو خاص، وقد نسب إلى فخر الدين الرازي كتيب صغير عنوانه (معرفة خطوط الكف وما فيها من الحكمة) وهناك أيضًا مجموعة كتابات فراسية تشتمل على مقطعين اثنين، يعالج الأول منهما العلامات التي تستخرج من قياسات أصابع اليدين، والعلامات التي يستدلّ بها على كثرة الأولاد أو قلتهم من النظر في باطن الإبهام.(١)

ومن العجيب أن يجعلوا هذا العلم الفاسد من فروع علم التفسير.

- علم الأكتاف:

وهو علم باحث عن الخطوط والأشكال، التي ترى في أكتاف الضأن والمعز، إذا قوبلت بشعاع الشمس، من حيث دلالتها على أحوال العالم الأكبر: من الحروب الواقعة بين الملوك، وأحوال الخصب والجدب.

---

(١) وفي كشف الظنون نفس الكلام، ونحوه في أبجد العلوم (ج ٢/ ص ٥٢)

وهؤلاء الذين يعتنون بهذا العلم قلما يستدلّون على الأحوال الجزئية لإنسان معين، وأهل هذا العلم يأخذون لوح الكتف قبل طبخ لحمه (وقد مر في حديثنا عن الكهانة عند الفلاسفة أنّ العظام التي يتكهن بها هي التي قدمت قرابين) ويلقونه على الأرض أولاً، ثم يأخذونه وينظرون فيه، ويستدلون بأحواله من الصفاء والكدر، والحمرة والخضرة، إلى الأحوال الجارية في العالم: من الغلاء والرخاء، والحروب الواقعة بين الأفراد ولمن الغلبة فيها، وينسبون كلاً من أطرافه الأربعة إلى جهة من جهات العالم، ويحكمون بذلك على كل صقع منها بأحوال متعلقة بها على ما يظهر في اللوح. وينسب علم الكتف إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه (هذه عبارة كشف الظنون، وقد نبهنا عليها من قبل، والصحيح أن نقول: ﷺ) ورأيت مقالة في هذا العلم مختصرة غاية الاختصار يجدها من يطلبها.

ونقول: من أجل ذلك يكسر الجزارون الموحدون العظام في بعض البلدان. يكسر عظم البقر والغنم حتى لا تستغل من قبل السحرة.

- علم قيافة الأثر:

ويسمّى علم القيافة وهو علم تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في الطرق القابلة للأثر، وهي التي تكون تربة حرة تشكل بشكل القدم، ونفع هذا العلم بيّن إذا القائف يجد بهذا العلم الهراب من الناس والضوال من الحيوان، بتتبع آثارها وقوامها بقوة الباصرة وقوة الخيال والحافظة، حتى سمعت بعض من اعتنى بهذا العلم أنهم يفرقون بين أثر قدم الرجل وأثر قدم المرأة، وبين أثر قدم الشيخ والشاب. والله أعلم بالصواب.

علم القيافة على قسمين: (١)

قيافة الأثر ويقال لها: العيافة وقد مرت، وقيافة البشر وهي المرادة هاهنا، وعلم القيافة: علم باحث عن كيفية الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين إلى المشاركة والاتحاد في النسب والولادة وسائر أحوالها، والاستدلال بهذا الوجه مخصوص ببني مدلج من العرب، فلا يمكن تعلمه، وحكمة الاختصاص تؤول إلى صيانة النسبة النبوية كما قال بعض الحكماء، وخص بهم لحصانة نسبهم عما يورثه خبث الحسب وشوب النسب من فساد البذر. (٢/ ١٣٦٧) وحصول هذا العلم بالحدس والتخمين لا بالاستدلال واليقين والله -سبحانه وتعالى- أعلم، وإنما سمي به أي: قيافة البشر؛ لأنّ صاحبه يتبع بشرة الإنسان وجلده وأعضاءه وأقدامه، وهذا العلم لا يحصل بالدراسة والتعليم؛ ولهذا لم يصنف فيه، وذكروا أنّ أفليمون صاحب الفراسة كان يزعم في زمانه أنه يستدل بتركيب الإنسان على أخلاقه، فأراد تلاميذ بقراط أن يمتحنوه به فصوروا صورة بقراط ثم نهضوا بها إليه، وكانت يونان تحكم الصورة بحيث تحكيها على الوجه

(١) كشف الظنون (ج ٢/ ص ١٣٦٦)

(تحاكي المصورة من جميع الوجوه) في قليل أمرها وكثيره؛ لأنهم كانوا يعظمون الصورة ويعبدونها فلذلك يحكمونها، وكل الأمم تبع لهم في ذلك؛ ولذلك يظهر التقصير من التابعين في التصوير ظهوراً بيناً، فلما حضروا عند أفليمون ووقف على الصورة وتأملها وأمعن النظر فيها قال: هذا رجل يحب الزنا وهو لا يدري من هو؟ فقالوا له: كذبت هذه صورة بقراط، فقال: لا بد لعلمي أن يصدق فاسألوه، فلما رجعوا إليه وأخبروه بما كان قال: صدق أفليمون أنا أحب الزنا، ولكن أملك نفسي. كذا في (تاريخ الحكماء)

قال في (مدينة العلوم): ومبنى هذا العلم ما يثبت في المباحث الطبية من وجود المناسبة والمشابهة بين الولد ووالديه، وقد تكون تلك المناسبة في الأمور الظاهرة بحيث يدركها كل أحد وقد يكون في أمور خفية لا يدركها إلا أرباب الكمال؛ ولهذا اختلف أحوال الناس في هذا العلم كمالاً وضعفاً إلى حيث لا يشتبه عليه شيء أصلاً؛ لسبب كماله في القوتين أي: القوة الباصرة والقوة الحافظة اللتين لا يحصل هذا العلم إلا بهما، وهذا العلم موجود في قبائل العرب، ويندر في غيرهم؛ لأنّ هذا العلم لا يحصل إلا بالتجارب والمزاولة عليه مدداً متطاولة؛ ولهذا لم يقع في هذا العلم تصنيف، وإنما هو متوارث. ولاهتمام العرب بهذا العلم اختص بهم وتوارثه خلف عن سلف: ولهذا لم يوجد في غيرهم انتهى.

أقول: وقد اعتبر القيافة الشارع أيضاً في بعض الأحكام كما ورد في الصحيح من حديث مجزز الأسلمي: أنه دخل فرأى أسامة بن زيد وزيداً وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامها فنظر إليهما مجزز الأسلمي وقال: إنّ هذه الأقدام بعضها من بعض، فسُرّ بذلك النبي ﷺ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وجه إدخال هذا الحديث في كتاب الفرائض الرد على من زعموا أنّ القائف لا يعتبر به، فإن اعتبر قوله فعمل به لزم منه حصول التوارث بين الملحق والملحق به انتهى. (٢/ ٤٣٨)

وهذا العلم والذي قبله حاصلان بالحدس والتخمين لا بالاستدلال واليقين.

- علم الاهتداء بالبراري والأقفار:

وهو علم يتعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالإمارات المحسوسة، بل يستدل بالقوة الشامة فقط. وقيل: قد يستعين صاحب هذا العلم بالأمور السماوية تارة والأرضية أخرى:

أما الأول: فبمسامات الكواكب الثابتة ومنازل القمر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(١)

وأما الثاني: فبمعرفة الخيال مثل شم التراب، إذ لكل بقعة رائحة مخصوصة فيهتدون بها، ونفع هذا العلم عظيم، وإلا لهلكت القوافل، وضلت الجيوش، وضاعت في البراري والأقفار. وقيل: قد يكون بعض ممن هو بليد في سائر العلوم ماهراً في هذا العلم، كما يمكن عكسه، وقد يحصل هذا النوع من التمييز في

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩٧.

الأبل والفرس. حكى بعض المضيفين: إني كنت في قافلة في مفازة خوارزم وضللنا الطريق، وعجز الكل عن الاهتداء، فقدموا جملاً هرماً وألقوا حبله على غاربه، فأخذ ينتقل من جانب إلى جانب ومن تل إلى تل، وتذبذب يميناً وشمالاً، وصعوداً ونزولاً، واستمر على هذا الحال مقدار فرسخين، وخفنا على أنفسنا، حتى وصل إلى الجادة المستقيمة والنهج القويم، وتعجبنا منه كل العجب.[١]

- علم الريافة: (استنباط المياه):

وهو معرفة الماء من الأرض، بواسطة الإمارات الدالة على وجود الماء، ويعرف بها أنه قريب أم بعيد: إما بشم رائحة تراب منها أو رؤية نبات بها، أو حيوان مخصوص بحركة مخصوصة، ولا بد لصاحبه من حس كامل وتخيل قوى، ونفع هذا العلم بين، إذ قلما يوجد في جميع الأراضي الأنهار الجارية المنصبة من شواهق الجبال والأماكن المرتفعة إلى بطون الأودية، وأصل هذه الصناعة معرفة خواص الأرضين وأحوال تربتها، بألوانها وخواصها: السهلي والجبلي والرملي والصخري. وهذا العلم من حيث معرفة وجود الماء من فروع علم الفراسة، ومن حيث حفرها وإخراجها إلى وجه الأرض –من فروع الهندسة، فلا تغفل.

- علم استنباط المعادن:

إذ الذهب والفضة وغيرهما لا بد لها من علامات تعرف بها عروقها في الجبال، ومبادئه وآلاته قريبة من العلم السابق.

علم[٢] استنباط المعادن والمياه وهو علم يبحث فيه عن تعيين محل المعدن والمياه، إذا المعدنيات لا بد لها من علامات يعرف بها عروقها وهو من فروع علم الفراسة.

- علم نزول الغيث:

وهو علم يتعرف به كيفية الاستدلال على المطر بأحوال البروق والسحب والرياح، وأخص الناس بهذا العلم العرب لاشتداد جانبهم إلى الغيوث، التي بها حصول معائشهم من السقي والرعي، وقد حصل لهم هذا العلم بكثرة التجارب، ودليله الدوران بين أحوال السحب والأمطار، وأحوال السحب إما بحسب مواضعها أو وقتها وكثافتها أو ألوانها، وكيفية أحوال الرياح والبروق، ويعرفون أنّ أي هذه الأمور ماطر للجود، وأيها ماطر للرذاذ أو أنّ أي البروق خلب، وأيها ذات صيب. وجاء في غريب أبى عبد الله: أنّ النبي ﷺ سأل عن سحابة مرت فقال: كيف ترون قواعدها وبواسقها؟ أجون أم غير ذلك؟ ثم سأل عن البر: أخفوا أم وميضاً، أم يشق صفاً؟ فقالوا: بل يشق، فقال النبي ﷺ جاءكم الحيا. ومن الداهية الدهياء، والفتنة الشنعاء، أنّ بعض الأتراك قد يدعون وقوع الأمطار أو اندفاعها بسبب هذا العلم، عند

(١) هذا الكلام منقول في (أبجد العلوم: ج ٢/ ص١٢٠) وهو فرع من فروع علم الفراسة.
(٢) كشف الظنون (ج ١/ ص١)

من لم يجرب هذا العلم من أهل الأمصار، فيريهم أنه يدفع الأمطار أو ينزلها، أما لأجل الرقية أو لأجل الشفاعة عند الله تعالى، فيصير ذلك خديعة ومكيدة أكيدة، وفتنة قوية عند الحشوية والعوام. والتوفيق من الملك العلام.

ومن هذا القبيل أنّ عند الأتراك في الجبال حجراً جالباً للمطر، وهم يعرفونها ويلقونها في الماء، ويعملون بعضاً من الأعمال شبيه أعمال السحر، ويتكلمون بكلمات متضمنة للكفر، هكذا سمعت من رأى هذا العمل من الأتراك، قال: فينزل المطر في الحال، حتى أنّ رأس الفرس تحت الثلج والمطر ونصفه الآخر تحت الشمس، قال: ورأينا مراراً والبهاليل غافلون عن حالها، فيتعجبون منها، فربما يحملونها على ولايتهم أو كرامتهم، إذا ادعوا من فعلوها ذلك، ولا يميزون بين الخواص والكرامة. وتعساً لقوم بلغت عقولهم هذه المرتبة من السخافة والحمق.

- علم العرافة:

وهو الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية، بمناسبة بينهما أو مشابهة خفية أو ارتباط بينهما، إما لكونهما معلولي أمر واحد، أو لكون ما في الحال علة لما في الاستقبال، بشرط أن يكون الارتباط بينهما خفياً لا يطلع عليه إلا الأفراد، إما بتجارب شاهدوها في أمثالها، أو بحالة مودعة في نفوسهم عند الفطر، بحيث يغلب على طالعهم سهم الغيب، الذي عبّر عنه النبي ﷺ بالمحدث، وهو المصيب في ظنه وفراسته، كما ذكرناه في علم الفراسة.

حكي أنّ الإسكندر لما أراد المحاربة مع ملك الفرس قال ذلك الملك: لا حاجة إلى مقاتلة العساكر، هلم نقاتلك، فأما أن تقتلني، وأما أن أقتلك. ففرح الإسكندر بهذا الكلام، حيث قدم ذلك نفسه في ذلك القتل، فكان كما قال.

ويحكى عنه أيضاً: أنه لما دخل بلاد العرب، مر على امرأة في مدينة هي تنسج ثوباً، فقالت له: أيها الملك، أعطيت ملكاً ذا طول وعرض، ثم مرّ عليها الملك الأول فقالت له: سيقطع الإسكندر ملكك، فغضب الملك، فقالت: لا تغضب، إنّ النفوس قد تشاهد أموراً قبل وقوعها بعلامات يحكم النفس بصدقها، ولما مرّ على الإسكندر، كنت أدبر طول الثوب عرضه، ولما مررت أنت فرغت عنه وأردت قطعه. وكان الأمر كما قالت.

ويحكى: أنه بعث جماعة من أصحاب ابن الرومي[١] الشاعر إليه في بعض الأيام، غلاماً مليحاً حسن الوجه حسن الاسم طيب الرائحة، فلما طرق الباب، خرج إليه ابن الرومي، فسأله الحضور إلى عند

(١) من الشخصيات التي أثيرت حولها الجدل وهو من ضلال التصوف.

أصحابه، فسمع كلامه وشم طيبه ورأى وجهه المليح، فقال: حسن في حسن مع طيب، وأجابه إلى سؤاله، فلما خرج معه رأى دكان خياط على رأس الدرب وهو يفصل ثوباً، فرجع بيته وأغلق الباب.

ويحكى عنه أيضاً: أنه توجه يوماً إلى مقصد، فرأى دكاناً وقد صلب صاحبه درابتي الباب وهو يأكل تمراً، فقال ابن الرومي: إنّ الدرايتين شكل لا والتمر تمر، فالفال يقول: لا تمر، وقال: والله لا مررت أبداً، وله في هذا الباب حكايات عجاب.

تعليق: واعلم أيها المحتسب أنّ من أعظم النعم أن اصطفاك لتكون عبداً له، وتفضّل عليك بالإسلام، وهداك وجعلك من الذين أنعم عليهم من أهل التوحيد، فهذا ابن الرومي تاريخه وضلالته معلومة، فكم أضل وأفسد، فإن المؤمّل بك أيها المحتسب أن تدعو عباد الله إلى توحيد الله على بصيرة.

أبو معشر البلخي:

وهو أبو معشر جعفر بن مُحَمَّد البلخي، وكان أولاً من أصحاب الحديث، ومنزله في الجانب الغربي بباب خراسان، وكان يضاغن الكندي ويغرى به العامة، ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة، فدسّ عليه الكندي من حسن له النظر في علوم الحساب والهندسة، فدخل في ذلك فلم يكمل له، فعدل إلى علم أحكام النجوم، وانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم؛ لأنه من جنس علوم الكندي. ويقال: إنه تعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، وكان فاضلاً حسن الإصابة، وضربه المستعين أسواطاً؛ لأنه أصاب في شيء، خبر بكونه قبل وقته، فكان يقول: أصبت فعوقبت.

(نقول وهذا من فقه الخلفاء وحراستهم لدين الأمة) ومما يشاهد بفضل المنان ما نحن قائمين فيه من محاربة الكهان والمنجمين، وقيام الدولة بهذا بأمر السلطان؛ للقيام بأمر الرحمن وحفظ التوحيد وحماية الناس من عبث الكهان، واعلم –أيها المحتسب– أنه متى صلحت عقائد الأمة بتوحيد الله المحض نزل التوفيق وحلت البركة، ومتى انتشر الكفر والبدعة حل الخراب والفقر.

وتُوفي أبو معشر وقد جاوز المائة، بواسط يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وله من الكتب كتاب (المدخل الكبير) ثمانية فصول، كتاب (المدخل الصغير) كتاب (زيج الهزارات) في نيف وسبعون باباً، كتاب (المواليد الكبير) ولم يتمه، والذى خرج منه كتاب (هيئة الفلك واختلاف طلوعه) خمسة فصول، كتاب (الهيلاج) كتاب (القرانات) كتب به إلى ابن البازيار، كتاب (الاختيارات)كتاب (الاختيارات على منازل القمر)كتاب (اقتران النحسين في برج السرطان) كتاب (تفسير المنامات من النجوم) كتاب (زيج القرانات والاحتراقات)

حول أبي معشر:

انظر أيها المحتسب وفقك الله لهذا الرجل وتحول أحواله، وتقلب قلبه إلى الضلالة بعد الهدى، وانغماسه في الظلمات بعدما كان في النور، واعلم أنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، وإذا رأيت مثل هذا

الذي كان طالباً للعلم الصحيح، وباحثاً عن ميراث النبوة مبغضاً للفلاسفة محذراً من ضلالاتهم، كيف انقلبت حالة حتى ألّف في علوم التنجيم والكهانة، بل أصبح مشهوراً بتنجيمه فسمي أبو معشر الفلكي؟ وعليك إذ ترى مثل هذا: أولاً: أن تحمد الله أن عافاك من هذا البلاء، وأن جعل النور ووميض الحق في قلبك، وتسأله الثبات حتى الممات. وثانياً: أن تدعو بالهداية بظهر الحق لكل مسلم وخاصة من ابتلي بهذا الضلال.

ومن العجيب أنّ أبا معشر عاش مع الرعيل الأول؛ إذ كان الدين في قوة والسُنّة ظاهرة منشوره، ودرج على طلب العلم، بل كان يحذر الناس من الكندي، حتى فتن والعياذ بالله، فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ونعوذ بك اللهم من الضلالة بعد الهدى ومن الحور بعد الكور.

قصة أبي معشر: وقف أبو معشر وصاحب له على واحد من هؤلاء، وكانا مارين في خلاص مسجون فسألاه، فقال: أنتما في طلب خلاص مسجون فعجبا من ذلك، فقال له أبو معشر: هل يخلص أم لا؟ فقال: تذهبان تلقيانه قد خلص، فوجدا الأمر كما قال، فاستدعاه أبو معشر وأكرمه، وتلطف له في السؤال عن كيفية علم ذلك، فقال: نحن قوم نأخذ الفال بالعين والنظر، فينظر واحدنا إلى الأرض، ثم يرفع رأسه، فأول شيء يقع عليه نظره يكون الحكم به، فلما سألتماني كان أول ما رأيت ماءاً في قربة، فقلت: هذا محبوس، ثم لما سألتماني الثانية، نظرت فإذا هو قد أفرغ من القربة، فقلت: يخلص. وارد من باب الفأل.

وبعض من هذه الطائفة يستدلون بالمكان الذي يضع السائل يده عليه من جسده وقت السؤال، فإن وضع يده على رأسه فهو رئيسه وكبيره، والرجلين قوامه، والأنف بناء مرتفع أو تل أو نحوه، والفم بئر عذبة واللحية أشجار وزروع.

حُكي عن المهدي: أنه رأى رؤيا وأنسيها فأصبح مغتماً بها، فدلّ على رجل كان يعرف الزجر والفال، وكان حاذقاً به اسمه خويلد، فلما دخل عليه، أخبره بالذي أراده له، قال له: يا أمير المؤمنين، صاحب الزجر والفال ينظر إلى الحركة وأخطار الناس، فغضب المهدي وقال: سبحان الله العظيم، أحدكم يذكر بعلم ولا يدرى ما هو، ومسح بيده على رأسه ووجهه وضربها على فخذه، فقال له: أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين، قال: هات، قال: رأيت كأنك صعدت جبلاً، فقال المهدى: لله أبوك يا سحار صدقت، قال: ما أنا بسحار يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك، فزجرت لك، وعلمت أنّ الرأس ليس فوقه شيء إلا السماء، فأولته بالجبل ، ثم نزلت بيدك إلى جبهتك، فزجرت لك نزولك إلى أرض ملساء فيها عينان مالحتان، ثم انحدرت إلى سفح الجبل، فلقيت رجلاً من فخذاك قريش، لأنّ أمير المؤمنين مسح بعد ذلك على فخذه، فعملت أنّ الرجل الذى لقيته من قرابتك، قال: صدقت، وأمر له بمال، وأمر أن يحجب عنه. وأمثال هذه الحكايات كثيرة تعرفها من تتبع المحاضرات.

▪ علم الاختلاج:[١]

قال المولى أبو الخير: هو علم باحث عن كيفية دلالة اختلاج أعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم على الأحوال التي ستقع عليه وأحواله وعلى أمواله ونفعه.

الغرض منه: ظاهر لكنه علم لا يعتمد عليه لضعف دلالته وغموض استدلاله، ورأيت في هذا العلم رسائل مختصرة لكنها لا تشفي العليل ولا تروي الغليل. انتهى.

وقال الشيخ داود الأنطاكي: اختلاج حركة العضو والبدن غير إرادية تكون عن فاعلي: هو البخار، ومادي: هو الغذاء المبخر، وصوري: هو الاجتماع، وغائي: هو الاندفاع، ويصدر عند اقتدار الطبع، وحال البدن معه كحال الأرض مع الزلزلة عموماً وخصوصاً، وهو مقدمة لما سيقع للعضو المختلج من مرض يكون عن خلط يشابه البخار المحرك في الأصح وفاقاً، وقال جالينوس: العضو المختلج أصح الأعضاء إذ لو لم يكن قوياً ما تكاثف تحته البخار، كما أنه لم يجتمع في الأرض إلا تحت تخوم الجبال. قال: وهذا من فساد النظر في العلم الطبيعي؛ لأنّ علة الاجتماع تكاثف المسام واشتدادها لا قوة الجسم وضعفه، ومن ثمة لم يقع في الأرض الرخوة مع صحة تربتها، ولأننا نشاهد انصباب المواد إلى الأعضاء الضعيفة؛ ولأنّ الاختلاج يكثر جداً في قليل الاستحمام والتدليك دون العكس، وعد أكثر الناس له علماً وقد ناطوا به أحكاماً، ونسب إلى قوم من الفرس والعراقيين والهند كطمطم وإقليدس، ونقل فيه كلام عن جعفر بن مُحَّد الصادق وعن الإسكندر، ولم يثبت على أن توجيه ما قيل عليه ممكن؛ لأنّ العضو المختلج يجوز استناد حركته إلى حركة الكوكب المناسب له، لما عرفناك من تطابق العلوي والسفلي في الأحكام وهذا ظاهر. انتهى.

▪ علم الاختيارات:[٢]

وهو من فروع علم النجوم فهو علم باحث عن أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر، وأوقات يجب الاحتراز فيها عن ابتداء الأمور وأوقات يستحب فيها مباشرة الأمور وأوقات يكون مباشرة الأمور فيها بين بين، ثم كل وقت له نسبة خاصة ببعض الأمور بالخيرية وببعضها بالشرية، وذلك بحسب كون الشمس في البروج، والقمر في المنازل، والأوضاع الواقعة بينهما: من المقابلة والتربيع والتسديس وغير ذلك، حتى يمكن بسبب ضبط هذه الأحوال اختيار وقت لكل أمر من الأمور التي تقصدها: كالسفر والبناء وقطع الثوب[٣] إلى غير ذلك من الأمور ونفع هذا العلم بين لا يخفى على أحد. انتهى ما ذكره المولى أبو الخير في (مفتاح السعادة)

---

(١) كشف الظنون (ج ١/ ص١)
(٢) كشف الظنون (ج ١/ ص١) ونحوه في مفتاح السعادة.
(٣) نقول: يتحدث أهل الكهانة وكذلك السحرة بهذا التثليث التربيع التسديس، ويتحدثون عن حركات النجوم عند أقوام يلبس عليهم بذلك، وهذا لا علاقة له بالعلم الصحيح، وإنما هي تلبيس من ناحية ومن ناحية أخرى عبادة

وفيه كتب كثيرة منها كتاب بطلميوس، ووواليس المصري، وذزوثيوس الإسكندراني، وكتاب أبي معشر البلخي، وكتاب عمر بن فرخان الطبري، وكتاب أحمد بن عبد الجليل السجزي، وكتاب مُحَمَّد بن أيوب الطبري، والاختيارات العلائية المسماة (بالأحكام العلائية في الأعلام السماوية) للرازي، وفي (كشف الظنون: ج١/ ص١٩٦) من الكتب المصنفة فيه (الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار) رسالة للشيخ محيي الدين: مُحَمَّد بن علي بن عربي الطائي المتوفى سنة سبع عشرة وستمائة أوله (الحمد لواهب العقل...الخ) كشف الظنون (ج ١/ ص٦١٩) الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم: للشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (طبقات الصوفية) المتوفى : سنة ٩٧٣ ، ثلاث وسبعين وتسعمائة (٩٧٤) أوله: الحمد لله رب العالمين... الخ، ادعى أنه ذكر فيه من علوم القرآن نحو ثلاثة آلاف علم ألفه فرقا بين علامات المحققين والمتشبهين وفرغ في جمادى الآخرة سنة ٩٣٢، اثنتين وثلاثين وتسعمائة. (١/ ٦٢٠) كشف الظنون (ج ١/ ص٨٦٧) رسالة في رجال الغيب لشمس الدين: مُحَمَّد بن حمزة الفناري (صوفي مشتغل بالحديث) المتوفى سنة ٨٣٤، شق الجيب في معرفة أهل الشهادة والغيب رسالة في رجال الغيب للشيخ سالم بن السيد أحمد بن شيخان بن علي مولى الدويلة الحسيني المتوفى سنة ٨٦٤، أربع وستين وثمانمائة، أولها: الحمد لوليه الظاهر بكماله...الخ. (٢/ ١٠٥٩) عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء، وشمس المغرب للشيخ محيي الدين مُحَمَّد بن علي المعروف بابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ ثمان وثلاثين وستمائة، أوله:

حمدت إلهي والمقام عظيم ... فأبدي سرورا والفؤاد كظيم

صنفه الشيخ في سنة ٦٣٢، اثنتين وثلاثين وستمائة، تكلم فيه على مضاهاة الإنسان بالعالم على الإطلاق، ونوى أن يجعل فيه ما أوضحه تارة ويخفيه أين يكون من هذه النسخة الإنسانية مقام المهدي؟ وأين يكون منها ختم لإنسانية الأولياء؟ فجعل هذا الكتاب لمعرفة هذين المقامين، وشرحه بعضهم بعد الإشارة إلى شرحه في رؤياه شرحا ممزوجا، أوله: الحمد لله الذي جعل المعاني أرواح الكلمات...إلخ. وهو القاسم بن أبي الفضل الشافعي المتوفى في ربيع الثاني سنة ٩٥٤ أربع وخمسين وتسعمائة.

- علم الرمل:

وهو الاستدلال بأشكاله الاثني عشر على أحوال المسألة حين السؤال، وأكثر مسائلة أمور تخمينية مبنية على تجارب غير كافية، وذلك لأنهم يقولون: إنّ البروج الاثني عشر يقتضي كل منها حرفاً معيناً وشكلاً معيناً من الأشكال المذكورة، فحين السؤال عن المطلوب يقتضي أوضاع البروج وقوى الشكل المعين من

لهذه الكواكب، ومراعاة لها للتقرب إليها بقرابين وقربات في هذه الأوقات، والأصل الأصيل لهذا كله هو التعامل مع الشياطين؛ إذ الشياطين هم الذين يقفون وراء كل كاهن ومنجم وساحر.

الرمال، فتلك الأشكال بسبب مدلولاتها من البروج تدل على أحكام مخصوصة تناسب أوضاع البروج، إلا أنها أمور تقريبية لا يقينية.

تعليق: هذا تلبيس في مواضع أنّ العلوم الكهانية ظنية تحتاج إلى حدس وخيال واسع كأنه يشير إلى أنّ الصور الأخرى يقينية، وإلى هذا يشير قول نبينا عليه الصلاة والسلام: {كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك}[1] ذكرنا التفسير الصحيح للحديث وأقوال ثقات العلماء في فصل الكهانة في كتب السنة وشروحها، وقد تكلمنا عن هذا الموضوع ورددنا تلبيس هؤلاء بهذا الحديث، والمراد بذلك النبي إدريس عليه السلام وهذا العلم كان معجزة له، والمفهوم من ظاهر الحديث، إمكان الاطلاع بالرمل على بعض الأمور لكنه ليس كذلك، إذ المعجزة لو أمكنت للبشر لم يبق فرق بين المعجزة والصنعة، ولم يتميز النبي عن غيره.

نعم يمكن للمولى ظهور خوارق للعادات، لكن الكلام ها هنا في غير الأولى بطريق الصنعة، بل المراد في الحديث بقوله: فمن وافق خطه هو التعليق بالمحال، يعنى: فمن وافق خطه فذاك هو خط ذلك النبي، لكنه لا يوافق لأنه معجزة لذلك النبي عليه السلام. ومن التصانيف فيه كتاب (تجارب العرب) و(مثلثات ابن محفوف) وكتب هذا الفن أكثر من أن تحصى يعرفها أهلها.

كشف الظنون (ج١/ ص٨٦٩) رسالة في الرمل لأبي عبد الله الزناتي، كشف الظنون (ج١/ ص٨٢٨) الذهب الإبريز المحمر في اقتفاء علم الرمل والأثر، للشيخ أحمد بن علي بن أحمد المحلي الشهير بابن زينل الرمال، أوله: الحمد لله رب العالمين... الخ.

كشف الظنون (ج ١/ ص٦٢٢) جهان رمل فارسي لعبد الله الحسيني البلياني المشهور بشاه ملا المنجم الشيرازي، ألفه: سنة ٩٨٤ أربع وثمانين وتسعمائة، ورتب على مقدمة وست جهات وخاتمة، وذكر في الأولى: المقدمات وهي فوق الرمل.

وفي الثانية: مشرق الرمل على ابدح مشتملاً على ثلاثة آفاق.

وفي الثالثة: شمال الرمل على خمسة آفاق.

وفي الرابعة: مغرب الرمل على سبعة آفاق.

وفي الخامسة: جنوب الرمل على خمسة آفاق.

وفي السادسة: تحت الرمل.

كشف الظنون (ج٢/ ص١٤٢٠) كتاب الرمل للزناتي، وطريقه أصح الطرق في هذا الفن، ولإبراهيم بن شعبان بن نافع الصالحي، أوله: الحمد لله الذي أنزل الكتاب... الخ، وهو رسالة مفيدة جدا. (١٤٢١/٢)

---

(١) سبق تخريجه وهو في مسلم.

هدية العارفين (ج١/ ص٧٩) ابن زنبل: أحمد بن علي بن أحمد المحلي الرمال الشهير بابن زنبل، كان حياً سنة ٩٨٠ ثمانين وتسعمائة، صنف الذهب الإبريز المحرر في اقتفاء علم الرمل والأثر. تاريخ سلطان سليم الأول العثماني.

هدية العارفين (ج١/ ص٣٤٩) العمري: عثمان بن علي العمري الموصلي عصام الدين أبو النور الأديب الدفتري، من أعيان أهل الموصل ولد سنة ١١٣٤، وتوفي بالقسطنطينية سنة ١١٨٤ أربع وثمانين ومائة وألف، صنّف (راحة الروح وسلوة القلب الكئيب المجروح، كتاب النقطة في علم الرمل، الكواكب الدرية في الأصول الجفرية، المنهج الأصوب في علم الرمل)

إيضاح المكنون (ج١/ ص١٨٨) بغية الطالب في علم الرمل لابي معشر جعفر بن مُحَمَّد البلخي الفلكي المتوفى سنة ٢٨٢ اثنتين وسبعين ومائتين، أوله: الحمد لله الذي خلق الإنسان... الخ.

إيضاح المكنون (ج٢/ ص٥٥٣) الممتنع السهل في علم الرمل لأبي بكر عبد الجليل ابن مُحَمَّد بن أحمد المعروف بابن عبد الهادي الدمشقي العمرى الشافعي، المتوفى سنة ١٠٨٧ سبع وثمانين وألف.

قال توفيق فهد: الاقتراع برمي الحصى الطرق بالحصى أو رمي الحصى

يشمل (الطرق) عموماً ثلاث طرائف كهانية كان لها طابع اقتراعي، تتكون من رمي الحصى على الأرض (الطرق بالحصى) ورسم خطوط على الرمل (الخط بالرمل) وخلط القطن مع الصوف، وبخصوص الطريقة الأخيرة فنحن نجهل كل شيء.

يفترض في البدء أن يكون الطرق بالحصى مكوناً من رمي حصيات مراقباً سقوطها، ويكون التكهن بهذه الطريقة، قال توفيق فهد: استخلاص جواب سؤال يطرحه الشخص الذي يستشير الحصيات المرمية بعضها فوق بعض.

وقد وصف ابن الأعرابي نوعاً من الخط بقوله: يجلس الحازي وله غلام معه، فيجعله يخط خطوطاً على الرمل أو التراب الناعم، فيخطها الغلام بخفة وعجلة حيث يتعذر عدّها، ثم يمحو بطلب من سيده خطين خطين، وهو يقول: ابني عيان أسرعا البيان، فإن بقي من الخطوط خطان فهما علامة النجاح وقضاء الحاجة، وإن بقي منها خط فهو علامة الخيبة والتعاسة.

وقال غيره: إنّ الكاهن يخط في الأرض بأصبعين ثم بأصبع، ثم يقول: أبنى عيان أسرعا البيان.

قال (س هـ بيكر): إنّ علم الرمل قد انتشر فى سائر المشرق وفي إفريقية الغربية والشرقية وفى مصر والهند، حيث إن اسمه لايزال عربياً مثلما عند اليوروبا فى نيجيريا.

وأول من وضع قوانين لعلم الرمل ابن محفوف المنجم، وأبو عبد الله الزناتي أما الأول: فقد تُوفي قبل عام (١٢٦٥م/٦٦٤هـ) وهو مؤلف كتاب (في علم الرمل) واسع الانتشار للغاية ومتعدد العناوين.

وأما الثاني: فيعد المعلم الذي لا ينازع في العلوم الخفية، والمتكهن العظيم بالرمل في الإسلام.

وألف نوح بن أبي الفتح الصوفي الشافعي المصري في شبابه العديد من الكتابات التنجيمية، والذي كان لايزال يعيش في عام (١٥٦٣//٩٤٣هـ) كتب بحثا في علم الرمل بعنوان (اجتماع الشمل في طريق علم الرمل).

ومن المؤلفين أحمد بن على بن زنبل المحلي والملقب بالرمال (توفي بعد عام ١٦٥٣م/٩٦٠هـ) مؤلف كتاب (في التاريخ) يتحدث فيه عن دخول السلطان سليم الأول مصر، وكتاباً بعنوان (المقاولات وحل المشكلات) في علم الرمل يشتمل على مدخل وثلاثين مقالة.

- علم الفال:

قال شيخ الإسلام: فَكُلُّ مَا يُحْدِثُهُ الْإِنْسَانُ بِحَرَكَةٍ مِنْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْ الْأَجْسَامِ لِيَسْتَخْرِجَ بِهِ عِلْمَ مَا يَسْتَقْبِلُهُ فَهُوَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، بِخِلَافِ الْفَأْلِ الشَّرْعِيِّ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُعْجِبُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ أَنْ يَخْرُجَ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ: {وَكَانَ يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ}(١) لِأَنَّ الْفَأْلَ تَقْوِيَةٌ لِمَا فَعَلَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالطِّيَرَةُ مُعَارِضَةٌ لِذَلِكَ؛ فَيُكْرَهُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَطَيَّرَ وَإِنَّمَا تَضُرُّ الطِّيَرَةُ مَنْ تَطَيَّرَ؛ لِأَنَّهُ أَضَرَّ نَفْسَهُ، فَأَمَّا الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ فَلَا، هذا هو الفأل الصحيح.

أما الفأل الكهاني فهو: علم يتعلم به ما يحدث من الحوادث الآتية بطريق اتفاق حدوث أمر من جنس الكلام، إما أن تسمعه من غيرك، أو أن تفتح مصحفاً، أو كلام من تعتقد فيه من الأنبياء أو الأولياء. وموضوع هذا العلم ظاهر من تعريفه، ومنفعته وفائدته كعلم الرمل، لكن الأصح الذي شهد الشرع بجوازه والتجربة بصدقه، التفاؤل بالقرآن العظيم.

ونقل هذا التفاؤل عن الصحابة وعن السلف الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، وطريق فتح الفال من المصحف كثير مشهور عند الناس، لكن الأحسن الاعتبار بالمعاني دون الألفاظ والحروف. كان النبي ﷺ يتفاءل ويعجبه الفال الحسن ولا يتطير، ولما هاجر إلى المدينة وقاربها سمع منادياً ينادى: يا سالم، فقال لأصحابه: سلمنا، فلما دخل المدينة سمع آخر يقول: يا غانم، فقال ﷺ: غنمنا، فلما نزل أتى برطب، فقال: حلالنا البلد، وأمثال ذلك كثيرة. وأما التطير: فقد نهى عنه وقال: {لا طيرة ولا هامة ولا صفر}(٢)

واعلم أنّ الإمام العلامة القاضي أبا بكر بن العربي صرح في (الأحكام) في صورة المائدة بتحريم أخذ الفال من المصحف، ونقله القرافي عن الإمام الطرطوشي...

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

قال الدميري: ومقتضى مذهبنا كراهته، وحكى الماوردي في كتاب (أدب الدين والدنيا) أنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾(١) فمزّق المصحف، وأنشأ يقول:

أتـوعـد كل جبـار عنيـد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

فلم يثبت إلا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده.(٢)

- علم الفال:

وهو علم يعرف به بعض الحوادث الآتية من جنس الكلام المسموع من الغير، أو بفتح المصحف أو كتب المشايخ (كديوان الحافظ تركي) و(المثنوي ابن الرومي) ونحوهما وقد اشتهر (ديوان الحافظ) بالتفأل حتى صنّفوا فيه كما مر.

وأما الطيرة والزجر وهو عكس الفال، فإن المطلوب في الفال طلب الإقدام، وفي الطيرة طلب الإحجام.

وأصل الزجر أن يتشاءم الإنسان من شيء تتأثر النفس من وروده على المسامع أو المناظر تأثراً لا بالطبع، فإن التنفر الطبيعي كالنفرة من صوت صرير الزجاج أو الحديد ليس من هذا القبيل.

واشتقاق التطير من الطير لأنّ أصل الزجر في العرب كان من الطير كصوت الغراب، فألحق به غيره في التعبير، وأمثاله من الطيرة في العرب كثيرة، وقد تكون في غيرهم فيتكدر به عيشهم وينفتح عليهم أبواب الوسوسة من اعتبارهم إلى المناسبات البعيدة من حيث اللفظ والمعنى. كالسفر والجلاء من السفرجل، والياس والمين من الياسمين، وسوء سنة من السوسن، والمصادفة إلى معلول حين الخروج وأمثال ذلك.

قال ابن قيم الجوزية في (مفتاح دار السعادة): اعلم أن ضرر التطير وتأثيره لمن يخاف به ويتغير منه، وأما من لم يكن له مبالاة منه فلا تأثير له أصلاً، خصوصاً إذا قال عند المشاهدة أو السماع: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك.(٣) (٢/ ١٢١٧)

- ■ علم القرعة:

علم القرعة(٤): وهو علم يعرف به الاستدلال على الأحوال الحادثة في الاستقبال بكتابة الحروف على شكل من الأشكال، ثم يستدل بوقوعه على وقوع المطلوب، وهو كالرمل فتعتبر أحواله فيه أيضاً، لكن دلالاته أضعف من دلالة الرمل.

- الطرائق الاقتراعية:

---

(١) إبراهيم: الآية ١٥.
(٢) كشف الظنون (ج ٢/ ص ١٢١٦)
(٣) سبق تخريجه.
(٤) كشف الظنون (ج ٢/ ص١٣٢٦)

توفيق فهد: إنّ التكهن عن طريق الاقتراع مثلما يشير الاسم إلى ذلك، يضم الطرائق الكهانية كافة المبنية على سحب القرعة، أما الموضوعات المستخدمة لخلق الإشارات التي يحتمل أن تقدم مادة الجواب عن سؤال محدد، بالاستناد إلى اصطلاح قائم متعارف عليه، أو إلى تقليد جرى إقراره أو إلى اعتقاد عام، فمن الممكن أن تكون إشارات من أصل إنساني وحيواني أو مادي، وتمارس مفاهيم (غير المتوقع) و(غير المألوف) في هذه الإشارات دوراً رئيساً، كما أنّ الصدفة المثارة ولكن غير القابلة للسيطرة تغلب عليها، وقد عرفت العصور القديمة اليونانية الرومانية العديد من هذه الطرائق، مثل الاقتراع برمي الكعاب، والاقتراع برمي النرد، والطرق بالحصى أو الاقتراع بالحصى والحبوب، وفحص الاصابع، والاقتراع برمي الخواتم ذات الحجارة النفسية، والاقتراع برمي حبات الفول السوداء أو البيضاء... الخ.

إنّ امتداد الطرائق الاقتراعية إلى الكهانة الحدسية، والذي حدث في حقبة موغلة في القدم قد نجم عما يدعي باليونانية: جواب الوحي، والواقع أنّ (استلهام الوحي) باليونانية (استشارة وحي النطق بوحي التنبؤ) كانت تعني في البدء: حزر العيدان أو العظام، ويقال عن نبية دلفي: إنها كانت تستلهم أوحيتها على غرار سحب القرعة. والتكهن بالحروف (الجفر، علم الحروف) وحساب الجمل والزائرجة (آلة لقراءة الفال)

- الاقتراع بالسهام:

قال توفيق فهد: إنّ الاقتراع بالسهام لدى العرب الذي لا يمكن نكران طابعه المقدس، يظهر في النصوص التقليدية بوصفه ممارسة شائعة في حياة البدوي مثلما حياة الحضري، فقد كان من الممكن إنهاء أي نزاع بفضل وحي السهام المقدسة، وكان من المفترض أن تكون هذه السهام جزءا من المتاع الشعائري الذي كان يحتوي على السهام، فلا بد أن يكون ملازماً للوثن معلقاً بحمالة إلى الصنم، أو أنه يشكل جزءا من الثوب الكهنوتي على طريقة الأوريم والتوميم لدى العبرانيين الرحل، واللذين كانا مندمجين بالأفراد في مراحل تطوره كافة.

- الكتابات حول علم القرعة:

افتراء الكهّان المنتسبين إلى الاسلام على جعفر بن أبي طالب:

قال توفيق فهد: إن أقدم المؤلفين الذين نسب اليهم كتاب القرعة هو: جعفر بن ابي طالب ابن عم الرسول، والذي استشهد ببطولة في الثالثة والثلاثين من عمره في معركة مؤتة عام (٦٢٩م/٨هـ) ضد البيزنطيين وقد نسبت إليه رعاية هذا العلم؛ ذلك لأنّ في قصة ذهابه إلى تلك المعركة ورد فال مستخرج بطريق القرعة، ليس منه هو بل من أحد رفاقه، هو عبد الله بن رواحه الذي استشعر دنو أجله لحظة انطلاقة إلى المعركة من آية قرآنية حول جهنم ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[1]

(١) مريم: الآية ٧١.

(٧١/١٩) كان قد سمع الرسول يتلوها ولم يتردد المسلمون الشيعة مروجو هذا العلم من تناقل هذه القصة، لاسيما أنّ صورة هذا الشهيد العظيم في الإسلام (جعفر بن ابي طالب) تطغي على قصص تلك المعركة.

غير أنّ هذا العلم الشيعي بامتياز، كان له وعلى نحو ظاهر التناقض -راعياً ثانياً هو الخليفة الأكثر تنورا بين خلفاء بنى العباس المأمون الذي حكم ما بين عامي (٨١٣م و٨٣٣م/١٩٨هو٢١٨هـ) وكان لديه شغف بالتنجيم، والحقيقة أن هناك مقالتين باسمه عن القرعة، ومقالة ثالثة سميت (المأمونية) منسوبة إلى الفيلسوف العظيم والمنجم جمال الدين أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (توفي بعد عام ٨٧٠م/٢٦٦هـ) الذي كان يعمل في خدمة المأمون والمعتصم، وكان قد كتب مقالات كهانية أخرى، وقد فقد علم القرعة في تلك الكتابات المتأخرة جداً بساطته الأولية، وغدا صناعة كهانية قائمة على الاقتراع بالحروف الهجائية، حيث كانت المعاني الوحيية الخاصة لهذه الحروف تجمع في مجموع واحد، ومع ذلك فقد استمر استخراج هذه المعاني من الآيات القرآنية، حيث كان التوصل إليها يتم عبر تأويل تعسفي وبأساليب في غاية التعقيد، مشتركة في الجفر وعلم الحروف والأسماء ولعب حساب الجمل، وللاقتراع بالحساب فيها دور رئيس.

- كانت هناك طرق شتي لتنظيم الحروف، ولكننا لن نستشهد سوى بالطرق التالية:

في كتاب (القرعة الجوهرية) تتكون الطريقة من تركيب أربعه صوامت لكلمة جوهر (ج ج و، ج ج هـ ،ج ج ر، ج ر هـ... الخ) وكل مقطع يحتوي على تأويل نثري للتركيب، متبوع بتأويل آخر منظوم شعراً يجرى إدخاله بعبارة قال الرجز (أي الشاعر الذي يستخدم بحر الرجز)

وفي كتاب (قرعة الحروف والمعجم) جرى تنظيم الحروف وفقا ل (ابجد هوز) في ثلاثة صفوف افقية:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص		
ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ

توضع السبابة فوق حروف من هذه الحروف ويتم الرجوع إلى المقطع الذي يكون معني هذا الحروف مفسراً فيه شعرياً. (بأن لابد وأن يكون مع هذا استعانة بالشياطين، إذ هذا الأمر وحده لا يجعل الفاعل كاهنا، كما ذكرنا ذلك مرارا)

وفي كتاب (قرعه دانيال) كانت الأعداد المصوغة في جملتين هي المستخدمة في القرعة، ونظمت بالطريقة التالية:

- قرعت أنا واحد قرعت أنت واحد.
- قرعت أنا اثنين قرعت أنت اثنين.
- قرعت أنا ثلاثة قرعت أنت ثلاثة.

- قرعت أنا اثنين قرعت أنت واحد.

ثمة شرح يحدد معنى هذه الصيغ أنا شرح مكرر شعراً يجرى إدخاله عبر الراجز أنا وكدليل على التعقيد المتزايد لهذه الطرائق تذكر عناوين كتابات حول القرعة، يقول العالم العظيم أبو الريحان البيروني (الكهانة، جغرافي كبير، باحث في أديان الهند، توفي عام ١٠٤٨م/٤٠٠هـ) أنه قد ترجمه عن الهندية:

- القرعه المصرحة بالعواقب.
- القرعة المثمنة لاستنباط الضمائر.
- شرح مزامير القرعه المثمنة.

ومن بين العديد من كتب القرعة التي تم العثور عليها ضمن المخطوطات، فإن بعضها قد تمتع ومازال يتمتع بشعبية واسعه وبوجه خاص في شمال إفريقية، ومنها على الأخص (قرعة الطيور) و(قرعة الأنبياء) و(القرعة الميمونة)

والواقع أنّ بعضهم استنكر استخدام القرآن لممارسة القرعة، باباته بحسب الدميري، ومن هؤلاء أبو بكر مُحمَّد بن العربي (توفي عام ١١٤٨م/٥٤٣هـ) في تفسيره المعنون (أحكام القرآن) وابو بكر مُحمَّد بن الوليد الطرطوشي (توفي عام ١١٢٦م/٦٤٨هـ) ووفقاً للمؤلف نفسه الذي استنكر هذه الممارسة فإن الحنبلي ابن بطة (توفي عام ٩٩٧م/٣٨٧هـ) ثبت إباحتها، ثم إنّ هذه الإباحة تم تسويغها من خلال تفسير شهاب الدين القسطلاني لصحيح البخاري.

- علم الطيرة والزجر:

وهذا عكس الفال، إذ المطلوب في الفال طلب الإقدام على الأمر، وفى الزجر طلب الهرب عن الأمر، وهو تشاؤم الإنسان بشيء يرد المناظر والمسامع، مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي، فأما نفارها هو طبيعي في الإنسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار، فلا بعد من هذا.

واشتقاق التطير من الطير، وأصله في زجر الطير، وماسواه ملحق به ثم كثر في غيره. وهذا التطير في العرب كثير، حتى إنّ بعضاً من الناس انفتحت له أبواب الوساوس من المناسبات البعيدة في اللفظ والمعنى، حتى يفسد دينه وينكد عيشه، مثلاً يتشاءم بالسفرجل إذا سمعه أو أهدى إليه، ويقول: سفر وجلا ، وإذا رأى ياسمينا أو سمع اسمه يقول: ياس ومين، وإذا رأى سوسنة أو سمعها يقول: سوء يبقى سنة. وكذا إذا خرج من داره ، فاستقبل صاحب آفة من أعور أو أشلّ أو اعمى تطير به وتشاءم بيومه. مثلاً إذا أراد العرب سفراً يطيرون طيراً، فإذا طار عن اليمين يتوجهون إلى المقصد، وإن طار عن اليسار يرجعون عن السفر، والأول يسمى السائح، والثانى البارح، وللعرب أمثال هذا كثيرة، لكن النبى ﷺ نهى عن الطيرة وهى الزج، وأمر بالفال.

قال في كتاب (مفتاح دار السعادة): اعلم أنّ الطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، وأما من لم يسأل له ولم يعانه فلا يضره البتة، لاسيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو مر بسماعه: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك. وأما من كان معتنياً بها فهى إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وقد فتحت أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة ما يفسد عليه دينه وينكد عليه معيشته. انتهى.

قال ابن عبد الحكم: خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة والقمر في الديران، فكرهت أن أصرح به، فقلت: ما أحسن استواء القمر في هذه الليلة، فنظر فقال: كأنك أردت أن تخبرنى أنّ القمر في الدبران، إنا قوم لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار.

ومن غريب ما وقع في هذا الباب أنّ جعفر البرمكي اختار وقتاً لينتقل إلى داره التى بناها، فاختاروا الليل ، فخرج في ذلك الوقت والطرق خالية، إذ سمع منشداً يقول:

يدبر بالنجوم وليس يدري *** ورب النجم يفعل ما يريد

فتطير ودعا بالرجل وقال له: ما أردت بهذا؟ قال: ما أردت به معنى من المعاني، لكنه شئ عرض لى وجاء على لساني، فأمر له بدينار ومضى لوجهه، وقد تنغص سروره وتكدر عيشه، فلم يمض إلا قليلاً حتى أوقع به الرشيد ما هو المشهور.

- علم النيرنجات:

وهو معرب نيرنك، وهو التمويه والتخييل. وهو إظهار غرائب الامتزاجات بين القوى الفاعلة والمنفعلة، وبالجملة مؤلفة بين العالم الأكبر والأصغر لصدور آثار مطلوبة من الحب والبغض، والإقبال والأعراض، وأمثال ذلك بكتابات مخصوصة مؤلفة من الروحانيات المبثوثة في العالم، وإن كانت بكتابات مجهولة الدلالات، فكأنها أرقام وحروف للأوائل، وخواصها مجهولة اللمية معروفة الآنية، وفيه كتاب (غاية الحكيم) للمجريطي الفلكي الفيلسوف، كتاب (أسرار الشمس والقمر) لابن وحشية.

- علم الخواص:

وهو علم باحث عن الخواص المترتبة على قراءة أسماء الله تعالى أو كتابه: من الزبور، والإنجيل، والقرآن، ويترتب على كل من تلك الأسماء والدعوات خواص مناسبة لها.

واعلم أنّ النفس بسبب اشتغالها بأسماء الله تعالى والدعوات الواردة في كتبه المنزلة، تتوجه إلى جناب القدس، وتتخلى عن الأمور الشاغلة لها عنه، فبواسطة ذلك التوجه والتخلى تفيض عليها آثار وأنوار، تناسب استعدادها الحاصل لها بسبب اشتغال الأمور المذكورة. ومن هذا القبيل الاستعانة بخواص الأدوية

بحيث يعتقد الرائي أنّ ذلك لفعل السحر. كما يحكى أنّ كنيسة ببلاد الروم عمل في جدرانها الأربعة وسقوفها وأرضها ستة حجارة من المغناطيس متساوية في القدر، وجعل في هوائها صليب من حديد بمقدار ما يتساوى فيه جذب تلك الحجارة الستة، بحيث أنه لا يغلب حجر منها بقيتها في الجذب، فلزم من ذلك وقوف الصليب في الهواء دائماً من غير آلة تمسكه ظاهراً، فافتتن به قوم من النصارى.

الإرشاد[1] في تفسير القرآن للشيخ الإمام أبي الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن، المعروف بابن برجان اللخمي الإشبيلي المتوفى سنة سبع وعشرين وستمائة، وهو تفسير كبير في مجلدات ذكر فيه من الأسرار والخواص ما هو مشهور فيما بين أهل هذا الشأن، وقد استنبطوا من رموزاته أموراً فأخبروا بها قبل الوقوع.

علم[2] طبقات المفسرين، علم خواص الحروف، علم الخواص الروحانية من الأوفاق، علم التصريف بالحروف والأسماء، علم الحروف النورانية والظلمانية، علم التصرف بالاسم الأعظم، علم الكسر والبسط، علم الزايرجه، علم الجفر والجامعة، علم دفع مطاعن القرآن.

تعليق: من العجيب أن يجمع بين علم الجفر والجامعة وعلم دفع مطاعن القرآن، وهما ضدان فعلم الجفر نفسه طعن في القرآن والرب –سبحانه– وأسمائه وصفاته وطعن في النبوة، ولكن من التلبيس على من لا يعرف عقيدته الصحيحة.

تلك الخواص عند الكهّان تنقسم إلى أقسام كثيرة منها:

- خواص الأسماء المذكورة الداخلة تحت قواعد علم الحروف.
- خواص الحروف المركبة عنها الأسماء.
- خواص الأدعية المستعملة في العزائم.
- خواص القرآن.

قال المولى المذكور: وغاية ما يذكر في ذلك كان (مستنده) تجارب الصالحين، وورد في ذلك بعض من الأحاديث أوردها السيوطي في (الإتقان) وقال: بعضها موقوفات عن الصحابة والتابعين، وأما ما لم يرد به أثر فقد ذكر الناس من ذلك كثيراً، والله سبحانه وتعالى أعلم بصحته. ومنها:

- خواص العدد والوفق والتكسير
- خواص الأعداد المتحابة والمتباغضة كما بيّن في (تذكرة الأحباب في بيان التحاب)
- خواص البروج والكواكب
- خواص المعدنيات
- خواص النباتات

(١) كشف الظنون (ج ١/ ص١)
(٢) كشف الظنون (ج ١/ ص ١٤)

- خواص الحيوانات
- خواص الأقاليم والبلدان
- خواص البر والبحر وغير ذلك

وصنف في هذه الخواص جماعة منهم: أحمد البوني والغزالي أحمد أخو أبي حامد (ترجمة السحر عند الصوفية) والتميمي والجلدكي في (كنز الاختصاص) وهو كتاب مفيد في تلك المقاصد، وغيرهم.

العلم المخزون في علم الخواص والكاف وهو مجلد على أجزاء مشتمل على ثلاثمائة كتاب.

علم العزائم وهو علم يتعرف منه كيفية تسخير الأرواح، واستخدامها في مقاصده، كتسخير الملك والجن، ومن هذا القبيل ما يفعله أصحاب الأوهام والنفوس القوية.

تعليق: تناقض صاحب وهم ونفسه قوية، فهما ضدان فصاحب الوهم نفسه ضعيفة، إذا تجردت وتوجهت نحو شئ أثرت فيه، وأقرب شاهد له في الشريعة الإصابة بالعين، وقد اشتبه النبي ﷺ وقال: إنه حق، وثبت عن جماعة أنهم يقتلون النفس بالهمة وجل هذا قد يسمى تجرد النفس أيضاً: إما لخير أو لشر.

حكى أنّ السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما غزا الهند، انتهى إلى قلعة منيعة عصت عليه مدة، فخرج إليه بعض أهلها، وقالوا: إذا كان وقت طلوع الشمس مر الجيش يضرب الطبول، ففعلوا فانفتحت، فسألوا عنها، فقال: إنّ أهل هذه القلعة أصحاب همم وصرفوا همتهم إلى دفعك عنها (جمع النفس) ولا يشوش عليهم شيء كالطبول المزعجة، وغلبت العساكر القلعة.

وطريق هذا التسخير أمر صعب لم نباشره، لكن سمعت كثيراً ممن أثق به أنه باشرها، وحصل مرامه وأنجح مقاصده.

وعرف علم العزائم أيضا وهو استنزال الأرواح في قوالب الأشباح، واعلم أنّ تسخير الجن أو الملك من غير تجسدها وحضورها عندك، يسمى "علم العزائم" بشرط تحصيل مقاصدك بواسطتهما. وأما حضور الجن عندك وتجسدها في حسك يسمى "علم الاستحضار" ولا يشترط تحصيل مقاصدك بها. وأما استحضار الملك فإن كان سماوياً فتجسده لا يمكن إلا في الأنبياء، وإن كان أرضياً ففيه الخلاف.

- علم الحيل الساسانية:

وهو علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال، والذى باشرها يتزيا في كل بلدة بري يناسب تلك البلدة، بأن يعتقد أهلها في أصحاب ذلك الزي، فتارة يختارون زي الفقهاء، وتارة يختارون زي الوعّاظ، وتارة يختارون زي الصوفية، وتارة يختارون زي الأشراف إلى غير ذلك، ثم هم يحتالون في خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها.

- علم كشف الدك وإيضاح الشك:

وهو علم يتعرف منه الحيل المتعلقة بالصنائع الجزئية من التجارات وصنعه السمين واللازورد واللعل والياقوت، وتغرير الناس في ذلك. ولما كان مبناه محرماً أضربنا عن تفصيله. وإن أردت الوقوف عليه فارجع إلى كتاب (المختار) المذكور الآن.

- علم الشعبذة والتخيلات:

والأخذ بالعيون المخيلة لسرعة فعل صانعها برؤية الشيء على خلاف ما هو عليه، والشعبذة وقد يقال الشعوذة بالواو مكان الباء معرب شعابذة، وهي اسم رجل ينسب إليه هذا العلم.

وهو علم مبني على خفة اليد، بأن يرى الناس الأمر المكرر واحداً لسرعة تحريكها، والواحد مكرراً ، ويرى الجماد حياً، ويخفى المحسوس عن أعين الناس بلا أخذ من عندهم باليد، إلى غير ذلك من الأحوال التي يتعارفها الناس بالآنية دون اللمية.

وهذا ليس من السحر في شيء، لكنه لشبهه به في رأي العين جعلناه من فروعه، وأما الآلات الموضوعة على ضرورة عدم الخلاء، كقدحي العدل والجور ودوران الساعات وجر الأثقال. وله أسباب يقينية من اطلع عليها قدر على مثلها، وهذا العلم من فروع الهندسة حقيقة، فلذلك أخرناه إلى هناك وإن كان لعدّه من السحر نوع سبيل.

- علم تعلق القلب:

وهذا علم ربما يظهره بعض المتنبلين لمن في عقله خفة، حتى يظنون أنه يعرف الاسم الأعظم، أو أن الجن تطيعه، وربما أداه انفعاله إلى مرض ونحوه، أو مطاوعة ذلك المتنبل فيما قصده.

- علم الجفر والجامعة: (علم دفع مطاعن القرآن) (١)

على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة، يستخرج منها ما في لوح القضاء والقدر، وهذا علم توارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم، ويأخذ منهم من المشايخ الكاملين، وكانوا يكتمونه عن غيرهم كل الكتمان.

في كشف الظنون: قال ابن طلحة: (الجفر) و(الجامعة) كتابان جليلان

أحدهما: ذكره الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وهو يخطب بالكوفة على المنبر.

والآخر: أسرّه رسول الله ﷺ وأمره بتدوينه فكتبه علي –رضي الله عنه– حروفاً متفرقة على طريقة سفر آدم في جفر يعني: في رق قد صبغ من جلد البعير، فاشتهر بين الناس به لأنه وجد فيه ما جرى فيه للأولين والآخرين، والناس مختلفون في وضعه وتكسيره، فمنهم من كسره بالتكسير الصغير وهو جعفر

---

(١) كشف الظنون (ج١/ ص٥٩١)

الصادق وجعل في خافية الباب الكبير: ا ب ت ث إلى آخرها، والباب الصغير: أبجد إلى قرشت، وبعض العلماء قد سمى الباب الكبير (بالجفر الكبير) والصغير (بالجفر الصغير) فيخرج من الكبير ألف مصدر، ومن الصغير سبعمائة، ومنهم من يضعه بالتكسير المتوسط وهو الأولى والأحسن وعليه مدار الخافية القمرية والشمسية وهو الذي يوضع به الأوفاق الحرفية، ومنهم من يضعه بالتكسير الكبير وهو الذي يخرج منه جميع اللغات والأسماء، ومنهم من يضعه بطريق التركيب الحرفي وهو مذهب أفلاطون، ومنهم من يضعه بطريق التركيب العددي وهو مذهب سائر أهل الهند، وكل موصل إلى المطلوب.

ومن الكتب المصنفة فيه:

الجفر الجامع والنور اللامع للشيخ كمال الدين أبي سالم مُحَمَّد بن طلحة النصيبيني الشافعي، المتوفى سنة ٦٥٢ اثنتين وخمسين وستمائة، مجلد صغير أوله: الحمد لله الذي اطلع من اجتباه... الخ. ذكر فيه أنّ الأئمة من أولاد جعفر يعرفون الجفر، فاختار من أسرارهم فيه.

الدر المنظم في السر الأعظم (المعظم) للشيخ كمال الدين أبي سالم مُحَمَّد بن طلحة العدوي الجفار الشافعي المتوفى سنة ٦٥٢، اثنتين وخمسين وستمائة، مختصر أوله: الحمد لله الذي أطلع من اجتباه من عباده الأبرار على خبايا الأسرار... الخ. ذكر فيه أنّ له أخاً صالحاً كشف له في خلوته عن لوح شاهده، فأخذه فوجده دائرة وحروفاً وهو لا يعرف معناها، فلما أصبح نام فرأى علي بن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– وهو يعظم هذا اللوح، ثم قال له أشياء لم يفهمها، وأشار إلى كمال الدين أنه يشرحه، فحضر ذلك الرجل عنده وعرف الواقعة وصورة الدائرة، فعلق هذه الرسالة عليها، فاشتهر بجفر بن طلحة، وقال البوني في (شمس المعارف الكبرى): إنّ هذا الرجل الصالح قد اعتكف ببيت الخطابة بجامع حلب، وكان أكثر تضرعه إلى مولاه أن يريه الاسم الأعظم، فبينما هو كذلك ذات ليلة وإذا بلوح من نور فيه أشكال مصورة، فأقبل على اللوح يتأمله وإذا هو أربعة أسطر وفي الوسط دائرة وفي الداخل دائرة أخرى.

وذكر البسطامي: أنّ ذلك الرجل الشيخ أبو عبد الله مُحَمَّد بن الحسن الأخميمي، وأنّ تلميذه ابن طلحة استنبط من إشارات رموزها على انقراض العالم، لكن على سبيل الرمز وقد كشف أستار معانيه الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الكريم بن سالم بن الخلال الحمصي سنة ٦٦٢ اثنتين وستين وستمائة، وذكر فيه أنّ المفهوم من صريح خطابه (بالصناعة الحرفية) التي عليها مدار هذه الدائرة، أنّ العدد إذا بلغ إلى تسعمائة وتسعين يكون آخر أيام العالم. انتهى.

أقول: وقد مضى ذلك الزمان ولم يكن آخر الأيام ولله الحمد، وبمثل هذه الأقوال قوي سوء الظن في أمثاله، إلا أن يقال: مراده غير هذا. (٧٣٥/١)

الفتوحات في الجفر لشكر الله الشرواني، وهو مُحَمَّد بن إبراهيم المتوفى حدود سنة ٩١٢، أولها: الحمد لله الذي أودع في قلوب أوليائه... الخ. رتبها على: مقدمة وثلاث مقالات.

المقدمة: في أوضاع علم الجفر.

المقالة الأولى: في أحوال العالم.

الثانية: في أحوال الإمام وزمان خروجه.

الثالثة: في أحوال الدولة العلية.

- علم الزايرجة:(١)

هو من القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب المنسوبة إلى العالم المعروف بأبي العباس أحمد السبتي، وهو من أعلام المتصوفة بالمغرب، كان في آخر المائة السادسة بمراكش وبعهد يعقوب بن منصور من ملوك الموحدين، وهي كثيرة الخواص يولعون باستفادة الغيب منها، بعلمها وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها –دائرة عظيمة في داخلها: دوائر متوازية للأفلاك والعناصر وللمكونات وللروحانيات... إلى غير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم، وكل دائرة منها مقسومة بانقسام فلكها إلى: البروج والعناصر وغيرهما، وخطوط كل منها مارة إلى المركز ويسمونها (الأوتار) وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها: برسوم الزمام التي هي من أشكل الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب، ومنها برسوم قلم الغبار المتعارفة، وفي داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع الأكوان، وعلى ظهور الدوائر جدول مستكثر للبيوت المتقاطعة طولاً وعرضاً، يشتمل على: خمسة وخمسين بيتا في العرض، ومائة وإحدى وثلاثين في الطول، جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد، وأخرى بالحروف، وجوانب أخرى منه خالية البيوت، ولا تعلم نسبة تلك الأعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت، وجانبي الزايرجة أبيات من عروض بحر الطويل على روي اللام المنصوبة تتضمن بصورة العمل في استخراج المطلوب منها، إلا أنها من قبيل اللغو في عدم الوضوح، وفي بعض جوانب الزايرجة بيت من الشعر منسوب إلى بعض أكابر أهل الحذاقة بالمغرب، وهو مالك بن وابيت (وهب – وهيب) الذي كان من علماء إشبيلية في الدولة اللمتونية، والبيت هذا:

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذا ... غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وفيه استخراج الجواب لما سئل عنه من المسائل على قانونه، وذلك إنما وقع من مطابقة الجواب للسؤال؛ لأنّ الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وإنما المطابقة فيها بين الجواب والسؤال من حيث الإفهام، ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال والأوتار غير مستنكر، وقد وقع اطلاع بعض الأذكياء على التناسب، فيحصل به معرفة المجهول منها بالتناسب بين الأشياء، وهو سر الحضور على

---

(١) كشف الظنون (ج ٢/ ص ٩٤٨)

المجهول من المعلوم الحاصل للنفس طريق حصوله سيما الرياضة، فإنها تفيد العقل زيادة؛ ولذلك ينسبون الزايرجة إلى أهل الرياضة في الغالب.

- علم القرانات:[1]

قال صاحب (مفتاح السعادة): اعلم أنّ القران هو اجتماع كوكبين أو أكثر الكواكب السبعة السيارة في درجة واحدة من برج واحد، ويبحث في هذا العلم عن الأحكام الجارية في هذا العالم؛ بسبب قران السبعة كلها أو بعضها في درجة واحدة من برج معين. انتهى. (٢/ ٤٣٢)

قال في (مدينة العلوم): وزعموا أنّ لقرانات الكواكب كلها أو بعضها آثارا في عالم الكون والفساد، كحدوث طوفان عظيم مثل طوفان نوح -عليه السلام- أو تبدل ملة كبعثة الأنبياء، أو تبدل دولة كغلبة الإسكندر وجنكيز خان وتيمور وأمثال ذلك، وزعموا أنّ منها ما يكون في كل عشرين سنة، ومنها ما يكون في كل مائتين وأربعين سنة، ومنها ما يكون في كل سبعمائة وستين سنة، ومنها ما يكون في ثلاثة آلاف سنة وثمانية وأربعين سنة مرة، ومنها ما يكون في كل سبعة آلاف سنة مرة، والله أعلم بحقيقة الحال، فيبحث في هذا العلم عن الأحكام الجارية في هذا العالم بسبب القرانات المذكورة، ولنصير الدين الطوسي (الرافضي الخبيث) تأليف في هذا الباب، وكذا الجاماسب الحكيم. انتهى.

أقول: وفي كتاب (حجج الكرامة في آثار القيامة) جملة كافية في ضبط حوادث القرانات الخالية، فانظر إليه يتسل قلبك. تعليق: بل يمرض قلبك والعياذ بالله.

(الأحكام[2] العلائية في الأعلام السماوية في الاختيارات النجومية) للإمام فخر الدين مُحَّد بن عمر الرازي، المتوفى بري سنة ٦٠٦ ست وستمائة، ألفه للسلطان علاء الدين مُحَّد بن خوارزم شاه؛ ولذلك اشتهر (بالاختيارات العلائية)

ورتب على مقالتين: في الكليات المثالية، في الجزئيات.

فإن قيل: لم لا يجوز أن تكون بعض الأجرام العلوية أسباب للحوادث السفلية، فيستدل النجم العاقل من كيفية حركات النجوم، واختلافات مناظرها، وانتقالاتها من برج إلى برج على بعض الحوادث قبل وقوعها؟

يقال: يمكن على طريق إجراء العادة أن يكون بعض الحوادث سببا لبعضها، لكن لا دليل فيه على كون الكواكب أسبابا للعادة وعللا للنحوسة لا حساً ولا عقلاً ولا سمعاً، أما حسا: فظاهر أنّ أكثر أحكامهم ليست بمستقيمة كما قال بعض الحكماء: جزئياتها لا تدرك وكلياتها لا تتحقق.

---

(١) كشف الظنون (ج ٢/ ص ١٣٢٣) ونحوه في مفتاح السعادة، وأبجد العلوم (ج ٢/ ص٤٣١) علم القرانات.
(٢) كشف الظنون (ج١/ ص١)

وأما عقلا: فإنّ علل الإحكاميين وأصولهم متناقضة، حيث قالوا: إنّ الأجرام العلوية ليست بمركبة من العناصر بل هي طبيعية خاصة، ثم قالوا ببرودة زحل ويبوسته وحرارة المشتري ورطوبته، فأثبتوا الطبيعة للكواكب وغير ذلك. (٢/ ٥٥٣)

وأما شرعا: فهو مذموم بل ممنوع كما قال ﷺ: {من أتي كاهناً بالنجوم أو عرّافاً أو منجماً فصدقه فقد كفر بما أنزل على مُحَّد} الحديث.

وقال علي بن أحمد النسوي: علم النجوم أربع طبقات:

- الأولى: معرفة رقم التقويم، ومعرفة الإسطرلاب حسبما هو يتركب.
- والثانية: معرفة المدخل إلى علم النجوم، ومعرفة طبائع الكواكب والبروج ومزاجاتها.
- والثالثة: معرفة حسنات أعمال النجوم وعمل الزيج والتقويم.
- والرابعة: معرفة الهيئة والبراهين الهندسية على صحة أعمال النجوم.

ومن تصور ذلك فهو المنجم التام على التحقيق، وأكثر أهل زماننا قد اقتصروا من علم التنجيم على الطبقتين الأوليين، وقليل منهم يبلغ الطبقة الثالثة، والكتب المصنفة فيه كثيرة منها: الأحكام وأبو قماش وأدوار وإرشاد والبارع ومختصر البارع وتحاويل وتنبيهات المنجمين وتفهيم الجامع الصغير ودرج الفلك والسراج والقرانات ولطائف الكلام ومجمل الأصول ومجموع ابن شرع ومسائل القصر وغير ذلك. انتهى ما في (كشف الظنون)

موضوعه[1]: النجوم من حيث يمكن أن تعرف بها أحوال العالم ومسائله، كقولهم كلما كانت الشمس على هذا الموضع المخصوص، فهي تدل على حدوث أمر كذا في هذا العالم. انتهى.

وقال ابن خلدون: هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية، فالمتقدمون منهم يرون أنّ معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة، وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار؛ ليحصل عنها العلم أو الظن.

تعليق: ثلاثة ألاف سنة مرة. كيف يستطيع أن يثبت بالتجربة ما يحصل كل ثلاثة آلاف مرة.

وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن، فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم، وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أنّ معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي، وهو رأي قائل وقد كفونا مؤنة إبطاله.

(١) كشاف اصطلاحات الفنون (٢ / ٥٥٤)

ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أنّ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أبعد الناس عن الصنائع، وأنهم لا يتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق؟ وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أنّ دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية، قال: لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات ظاهر لا يسع أحداً جحده، مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك، وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القناء وسائر أفعاله، ثم قال: ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان:

الأولى: التقليد لمن نقل ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس. (٢/ ٥٥٥)

الثانية: الحدس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة، فننظر هل يزيد ذلك الكوكب عند القران في قوته ومزاجه؟ فتعرف موافقته له في الطبيعة، أو ينقص عنها فتعرف مضادته، ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة، وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث والتربيع وغيرهما، ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى النير الأعظم، وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء، وذلك ظاهر والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات، وتتخلق به النطف والبزر، فتصير حالاً للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه، ولما يتبع النفس والبدن من الأحوال؛ لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما وينشأ منهما.

قال: وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء، وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي، يعني القدر، إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن، والقضاء الإلهي سابق على كل شيء.

هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه، وهو منصوص في كتبه الأربع وغيره، ومنه يتبين ضعف مدارك هذه الصناعة، وذلك أنّ العلم الكائن أو الظن به إنما يحصل عن العلم بجملة أسبابه: من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه.

والقوى النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط، والجزء العنصري هو القابل، ثم إنّ القوى النجومية ليست هي الفاعلة بجملتها، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي، مثل قوة التوليد للأب والنوع التي في النطفة، وقوى الخاصة التي تميز بها صنف من النوع وغير ذلك، فالقوى النجومية إذا حصل كمالها وحصل العلم فيها، إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن، ثم إنه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين، وحينئذ يحصل عنده الظن بوقوع الكائن، والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أصول الصناعة، فإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك، هذا إذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداد ولم تعترضه آفة، وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها لتتعرف به أوضاعها، ولما أنّ

اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه، ومدرك بطلميوس في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف؛ لأن قوة الشمس غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها، فقل أنّ يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها عند المقارنة كما قال، وهذه كلها قادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة، ثم إنّ تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد ألا فاعل إلا الله بطريق استدلالي، كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أنّ إسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادي الرأي من التأثير، فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف، والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً، سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك، والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله: {إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته} وفي قوله: {أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب} الحديث الصحيح.

فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد، إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقاً لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها، وليس كذلك، فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيراً في الدول من توقع القواطع، وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء والمتربصين بالدولة إلى الفتك والثورة. (٢/ ٥٥٨)

وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضاد في الدين والدول، ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم، فالخير والشر طبيعتان موجودتان في العالم لا يمكن نزعهما، وإنما يتعلق بالتكليف بأسباب حصولهم، فيتعين السعي في اكتساب الخير بأسبابه، ودفع أسباب الشر والمضار، هذا هو الواجب على من عرف مفاسد العلم ومضاره، وليعلم من ذلك أنها وإن كانت صحيحة في نفسها فلا يمكن أحداً من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها، بل إن نظر فيها ناظر وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر، فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد حظرت الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها، وصار المولع بها من الناس وهم الأقل وأقل من الأقل، إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متستراً عن الناس، وتحت ربقه الجمهور مع تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم، فكيف يحصل منها على طائل، ونحن نجد الفقه الذي علم نفعه ديناً ودنيا، وسهلت مآخذه من الكتاب والسنة، وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه، ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها، إنما يحذق

فيه الواحد في الأعصار والأجيال، فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ، محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه إلى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر، فأين التحصيل والحذق فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه.(١)

ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا إليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبة أحدا.

حكي أن نصير الدين لما أراد العمل بالرصد رأى هولاكو ما ينصرف عليه، فقال له: هذا العلم المتعلق بالنجوم ما فائدته؟ أيرفع ما قدر أن يكون؟

فقال: أنا أضرب لمنفعته مثالا: القائد يأمر من يطلع إلى أعلى هذا المكان، ويدعه يرمي من أعلاه طست نحاس كبيرا من غير أن يعلم به أحد، ففعل ذلك فلما وقع ذلك كانت له وقعة عظيمة هائلة روعت كل من هناك، وكاد بعضهم يصعق، وأما هو وهولاكو فإنهما ما تغير عليهما شيء لعلمهما بأنّ ذلك يقع، فقال له: هذا العلم النجومي له هذه الفائدة يعلم المتحدث فيه ما يحدث، فلا يحصل له من الروعة والاكتراث ما يحصل للغافل الذاهل منه، فقال: لا بأس بهذا وأمره بالشروع في قانون عام وتقسيم هذه العلوم الخبيثة.

واعلم أنّ استحداث الحوادث إن كان بمجرد التأثير النفساني فهو السحر، وإن كان على سبيل الاستعانات بالفلكيات فهو دعوة الكواكب، وإن كان على سبيل تمزيج القوى البشرية بالأرضية فهو الطلسمات، وإن كان على سبيل الاستعانة بالخواص الطبيعية: فإما بالقراءة فهو علم الخواص، والكتابة فهو علم النيرنجات، أو الأفعال غيرهما فهو الرقى، وإن كان على سبيل الاستعانة بالأرواح الساذجة فهو العزائم، وإن كان بإحضار تلك الأرواح في قالب الأشباح فهو علم الاستحضار ويسمى: علم تسخير الجن، وأما الأخبار عن الحوادث الغير الحاضرة فإما عن الماضي أو الحال أو الاستقبال فهو علم الكهانة، ثم إنّ الإنسان كما يقدر على استحضار المجردات كذلك يقدر على تغييب الحاضر عن الحس ويسمى علم الإخفاء، وكذلك على إخفاء الأمور الحاضرة عن الحاضرين ويسمى بالحيل الساسانية، وأمثال ذلك كثيرة. انتهى.(٢)

الأنطاكي(٣): عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن مُحَمَّد البسطامي زين الدين الأنطاكي الحنفي نزيل بروسه المتوفى بها سنة ٨٥٨، له من التصانيف: أدب المريض والعائد، الأدعية المنتخبة في الأدوية المجربة، ارتياض الأرواح في رياض الأفراح، أزهار الآفاق في أسرار الحروف والأوفاق، أوزان الحكمة الربانية في شرح أوقات

(١) أبجد العلوم: ج٢/ ص٥٥٨.
(٢) أبجد العلوم (ج ٢/ ص ١٥) (١/ ٩٠٧)
(٣) هدية العارفين (ج ١/ ص١٣٤)

اللمعة النورانية للبوني، بحر الوقوف في علم الأوفاق والحروف، تواريخ اللطيفة والآثار العجيبة، درة الآفاق في علم الحروف والأوفاق.

(ابن عربي)[1] الشيخ الأكبر مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد ابن عبد الله بن العربي الطائي الحاتمي محيي الدين أبو عبد الله الأندلسي، المعروف بابن عربي الشهير بالشيخ الأكبر، ولد بالأندلس سنة ٥٦٠، وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ ثمان وثلاثين وستمائة، له من التصانيف: الآباء العلويات والأمهات السفليات، اتحاد الكوني في حضرة الأشهاد العيني، الأجوبة العربية الوفية عن المسائل اليوسفية، الأجوبة على المسائل المنصورية، أحاديث العوالي، الاحتفال فيما كان عليه الرسول ﷺ من سني المتقابلة، الاستمساك في شرح الاستدراك، الأسرا إلى مقام الأسرا، الأعلام بإشارة أهل الإلهام والإفهام، إنزال الغيوب على مراتب القلوب، إنشاء الجداول والدوائر، الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار، الإيجاز الكوني والمشهد العيني بحضرة الشجرة الإنسانية والطيور الأربعة الروحانية، مخاطبات بيني وبين الكعبة المشرفة وهو سبع رسائل، تحذير ذوي التسخير الجداول والدوائر والدقائق والحقائق، الدرة الناصعة من الجفر والجامعة، رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة على الترتيب من الأسرار، رسالة رجال الغيب، سجنجل الأرواح ونقوش الألواح، السر المكشوف في المدخل إلى العمل بالحروف، السر المكتوم، سر المحبة، السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج، سلم الارتقاء قصيدة تائية، السهل الممتنع رسالة، شجون المسجون وفتون المفتون، شجرة الكون، الغايات فيما ورد من الغيب في تفسير بعض الآيات، الفتوحات المكية في معرفة أسرار الملكية، كتاب الحلي في كشف الولي، كتاب الكشف الإلهي لقلب ابن عربي.

وهذه صور فيها شيء من أدوات الكهانة ضبطتها مع الكهان إبان احتسابي والحمد لله

---

(١) هدية العارفين (ج ٢/ ص ٤)









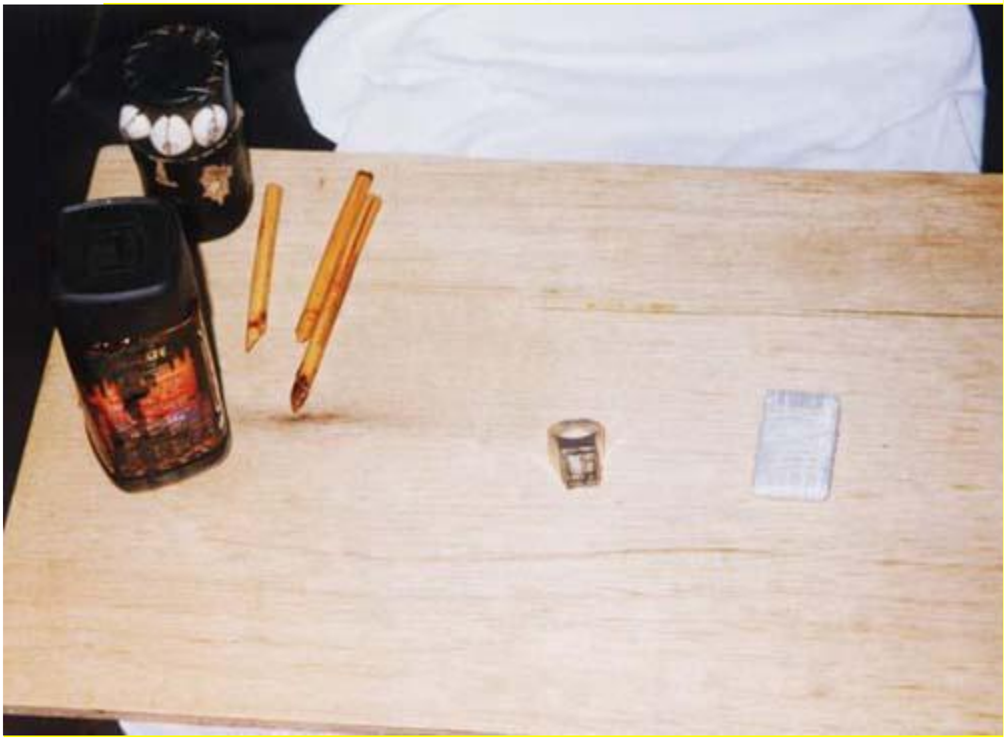














الكهان ونظرتهم لعلاقة الحيوانات بالكهانة:

في كتابه القبيح الذي شحنه بالكفر والضلال والكذب على الشرع والافتراء ذكر توفيق فهد علاقة الحيوانات بالكهانة، وذكر تكهن العرب بهذه الحيوانات، فكان مما قاله:

- النحلة:

النحلة حول غريزتها الكهانية، وحتى النبوئية. يمكن الرجوع إلى توفيق فهد: النحل في الإسلام، ظهر في دراسة بيولوجية للنحل بإشراف: ريمي شوفان، نشر ماسون باريس عام (١٩٦٨) (م) ص (٦١-٨٣).

- الحمار:

لعب الحمار دور الدليل الملهم في أسطورة بناء مدينة واسط، فبينما كان الحجاج معسكراً في المكان الذي سيتم فيه بناء المدينة، رأى راهبة تعبر دجلة على أتان، ولما وصلت إلى ذلك المكان فتحت الدابة

قائمتيها الخلفيتين وبالت. فنزلت الراهبة عنها، وكشطت البقعة التي بالت عليها الأتان، وألقت التراب المبلل في النهر، وحين رآها الحجاج استدعاها وسألها عن ذلك، فقالت: نقرأ في كتبنا أنّ معبداً سيبنى في هذا المكان، وسيعبد الله فيه ما بقي على الأرض بشر يؤمنون بوحدانيته. وحينذاك رسم الحجاج مخطط مدينة واسط وبني المسجد في المكان المشار إليه. (الطبري: ج ٢ ص ١١٢٦) أساطير بناء بغداد، ج ٢٧٦ (تعليق: توفيق هذا يعد كل ما يتصل بالإسلام أساطير، قاتله الله ولعن الله أهل الهوى).

وفي الروايات الإسلامية، فإن نهيق الحمار يشير إلى وجود شيطان، ولكن معناه في الفالات مرتبط بظروف أخرى.

- النعامة:

في الطريق إلى المدينة رأى ابن عامر، أحد القراء الدمشقيين (توفي سنة ١١٨هـ / ٧٣١ م) خمس نعامات، فقال لرفاقه ما ترون في ذلك؟ فقال بشر بن حسان: علمت أنّ رسول الله قال: لا عدوى ولا طيرة. وأنا أقول مع ذلك، خمس سنوات من الفتنة. (ابن قتيبة عيون الأخبار: ٢/١٤٩)

- الجمل والناقة:

أما الحالات التي جرى الاعتماد فيها على غريزة الناقة لتحديد مواقع الماء والمرعى والأثر فهي كثيرة جدًا. فناقة عبد المطلب فجرت الماء من تحت قوائمها منقذة من الهلاك القرشيين الذين كانوا ذاهبين معه إلى كاهنة بني سعد في النزاع الذي نشب بينهم حول زمزم، كي تحكم قافلة أنهكها العطش قادتها غريزة إحدى النوق إلى موقع للماء. غير أنّ المثل العربي القائل: أشأم من ورقاء، أعطى للناقة طابعاً مشؤوماً، ولكن هذا الاسم على الأرجح كان لناقة بعينها، بسبب لونها الأصفر أو المخضر، أو لأنها كانت سبباً في حرب بين قبيلتين. (ابن سعد ١/٤٩)

تعليق: هذا الكلام لأن توفيق في قلبه مرض وغل، ويلبس كل شيء مشروعاً كان أمر غير مشروع، في وصف الكهانة يطوع كل معلومة لذلك، وإلا فإنّ قولهم: أشأم من ورقاء ليس دليلا على التطير بالنوق جميعا، بل ورقاء هذه ولأنها كانت سبباً لهذه الحرب، وجرت بسببها أنهر من الدماء قالوا ذلك، لكن توفيق عامله الله بعدله يلوي عنق كل شيء ليربطه بالكهانة، وهل هذا المنهج العلمي والأكاديمي الذي صدعوا به الرءوس؟ وهل هذا هو التفكير المنطقي؟ حتى أنه جعل سير ناقة الرسول ﷺ لتدل على مكان المسجد من الكهانة، وبروك الناقة في الحديبية من الكهانة، ولقد أوتي الأستاذ بالجامعة الفرنسية والمسئول عن القسم الإسلامي من اعتقاده الذي صرح به مرارا في كتابه: أنّ الوحي النبوي والوحي الكهاني عنده من باب واحد، ونقول: حتى لو كان هذا اعتقاده لو كان حقاً باحثاً منصفاً في جامعة تحترم العلم وقواعده، ما كان ينبغي أن يطبق ذلك على معتقد يخالف معتقده، وكان عليه أن يعرض وجهة نظر المسلمين ومعتقداتهم من كتبهم، فإنّ ناقة النبي ﷺ كانت مأمورة فنحن لا نعتقد أنّ هذا كان كهانة، بل نعتقد أنها مأمورة من الله تعالى، كما أنها كانت منهية في الحديبية محبوسة من الله الذي حبس الفيل، ثم

إننا لا نعتقد ما يعتقده الأستاذ بقسم الدراسات الإسلامية بالجامعة الفرنسية أنّ الوحي والكهانة شيئاً واحداً، لكن نقول: قاتل الله الهوى، ونقول: إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وقال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]

- الكلب:

فنحن نجد في كتاب العين الذي استشهد به ابن قتيبة الفالات التالية: إذا نبح الكلب فجأة بعد أن سكت فجأة، فهذا يدل على أنّ اللصوص قد اجتمعوا لمهاجمة المنزل أو المنازل المجاورة. (عيون ٢/١٥٢)

- إذا عوت الذئاب في الجبال، وجاوبتها الكلاب في القرية، (٢٢) فإنّ الحرب سيشتد أوارها وسيراق الدم.
- إذا نبحت الكلاب وجاوبتها ذئاب الجبال فسيكون هناك أوبئة وجوائح مهلكة. (٢٣)
- إذا أكثرت الكلاب من النباح المتقطع فهي تنبئ بذلك عن أنّ العدو سيكتسح البلاد. (٢٤)

وحول الفالات المستخرجة من مختلف الأحوال التي يتخذها الكلب، هناك كتيب بالتركية موجود في مجموعة مكتبة كلية اللاهوت بجامعة كامبردج.

- اللقلق:

طائر فأله حسن ويسمى أبو سعد لدى عرب الأردن، وهم يجلونه ويمتنعون عن صيده لأنه ينتمي إلى الطيور التي تشن الحرب على الجراد، حين ينقض على شكل سحب مظلمة ويلتهم المزروعات، فتصل اللقالق في أسراب متراصة وتصنع مجزرة عظيمة.

- الديك:

يقول شارح مقامات الحريري: ويستخدم الديك للزجر في العيافة باريس (١٨٤٧ (٦٦٢) إنّ التكهن بواسطة الديكة الذي كان يمارسه اليونانيون (روشيه ليكليرك ١/١٤٤ — ١٤٥) لم يكن معروفاً عند العرب كما يبدو، والأمثلة الوحيدة للفالات المستخرجة من سلوك الديكة منسوبة إلى الفرس.

- إذا صاح الديك في أحد المنازل قبل وقت صياح الديكة، فسيكون ذلك للتحذير من خطب سيحل قريباً في ذلك المنزل.
- إذا صاحت دجاجة في أحد المنازل مثل صياح الديكة، فسيكون ذلك تنبيها لسكان ذلك المنزل من مصيبة على وشك أن تحلّ بهم.
- إذا ما قفز الديك عدة مرات فوق أريكة صاحب المنزل فإن هذا الأخير سينال المجد والشهرة.
- وإذا ما فعلت دجاجة ذلك فإن صيت صاحب المنزل سيصبح خاملاً.

---

(١) محمد: الآية ٢٤.

- إذا ما سلح ديك فوق سرير صاحب المنزل، فإن هذا الأخير سيكسب ثروة يطمع فيها ورزقاً كثيراً. ١٢٠٠.
- إذا فعلت دجاجة ذلك فستنال زوجته منه خيرًا كثيرًا.
- إذا أنّ ديك في منزل فإن مرضًا من أمراض الرجال سيتفشى في المنزل.
- إذا أنّت دجاجة في منزل فإن مرضًا من أمراض النساء سيتفشى في المنزل.
- إذا كان صياح الديكة شبيها بعويل شخص يبكي فإنّ الموت سيعم بين النساء.
- وإذا فعلت الدجاجات ذلك فإن الموت سينتشر بين الرجال.
- إذا نعق غراب أسود وجاوبته دجاجة بصوتها، فإنّ ذلك يشير إلى أنّ أرضًا يبابا سوف تعمر من جديد.
- إذا كررت الديكة صياحها، فسيكون ذلك بشارة وإعلانا عن انتصار أولياء الله على أعدائهم. (العرافة٢)
- إذا صفق الديك بجناحيه من دون أن يصيح فهذا يدل على أنّ خيرا مأمولاً سيحجب عمن كان ينتظره. (العرافة ٢؛ عيون ١٥٢/٢)

▫ الغراب:

هو طير المال بامتياز عند العرب، (٣٣) والمعطيات الكهانية المستخرجة من الغراب عديدة جداً، حيث إنّ بإمكاننا أن نخصص دراسة خاصة للفالات المستخرجة من هذا الطائر، والتي وردت في نص منسوب إلى الجاحظ، اقتبسه النويري في كتاب (نهاية الأرب ٣/١٣٠ – ١٣٢ أرابيكا ٨/١٩٦١ ص ٣٠-٥٨) ونحن لن نعود إلى ذلك الجدول الذي يشبه في أكثر من عنوان فيه (اللوائح الأشورو-بابلية) من النوع ذاته. ويكفينا هنا أن تكمل الفكرة التي كونها العرب عن هذا الطائر المشؤوم في الأساس (٣٥) بإيراد أكثر الشهادات شمولاً واتساعاً، فبتسميته (الأعور) لحدة بصره ولكن بقلب المعنى (٣٦) للتعبير عن اللعنة، استحق الغراب كما يبدو هذا الطابع المشؤوم من جهة بسبب لونه الأسود، (٣٧) ومن جهة أخرى بسبب نعيبه الذي ينذر بالبين والفراق ووحشة الإقامة. (٣٨)

إنّ إحدى الحركات الأكثر شؤما للغراب حين ينتف ريشه، فقد رأى أبو النسناس (وهو لص هارب من السجن) غراباً حالما على بانة ينتف ريشه وينعب، فتنبأ له عراف من لهب بالعودة إلى السجن لفترة طويلة، ثم موته على الصليب بعد ذلك ١٣٩١.

وكان الغراب نقيضاً للهدهد في قصة من كتاب (الأغاني) خاصة بعبد الله بن الفضل، وكان قد علق جارية نصرانية وهام شغفا بها، وكان يوما جالسًا ينتظرها وقد وعدته بالزيارة، إذ سقط غراب على برادة داره فنعب مرة واحدة ثم طار، فتطير عبد الله من ذلك، ولم يزل ينتظرها يومه فلم يرها، ثم عرف أنها قد انحدرت مع أبيها إلى بغداد، فتنقص عليه يوم، ومكث مدة لا يعرف لها خبرا ، فبينما هو جالس ذات

يوم مع أصحابه، إذ سقط هدهد على برادته، فصاح ثلاثة أصوات وطار، فقال عبد الله: وأي شيء أبقى الغراب للهدهد علينا، وهل ترك لنا أحدًا يؤذينا بفراقه وتطير من ذلك، (ص٣٥٠-توفيق) فما فرغ من كلامه حتى دخل رسولها يعلمه أنها قدمت منذ ثلاثة أيام، وأنها قد جاءته زائرة على إثر رسولها، وحسب الجاحظ، فإنّ عدد نعقات الغراب يؤخذ في الحسبان أيضاً.[١]

والناس يتطيرون من الغراب حين ينعق مرة واحدة، فإذا نعق مرتين تفاءلوا بذلك. ولكن المؤلف يقول في الصفحة ذاتها: فإذا نعق الغراب مرتين فذلك شؤم، فإذا نعق ثلاثا فذلك قال حسن على قدر الجزاء، وليس عدد نعقات الغراب وحده هو ما يميز الفأل الحسن من السيئ، وإنما أيضا مختلف نغماتها.

(أمثال، فريتاج ١/٦٠٨) وحسب الميداني فإن غاق صرخة عالية، تنبأ عن فأل سيئ، في حين أن غاق صرخة صغيرة، تنبأ عن فأل حسن، وهذا التمييز غير موجود في (تاج العروس: ٨/٣٧) حيث إنّ (غق) هي الكلمة الصوتية التي تحاكي النعيق الأجش والأبح للغراب، في حين أنّ (غاق) (ص ٤٠) تعني بالتالي، الفراق. وليس من الواضح أنّ الإسلام قد خفف من الأهمية الكبيرة لقال الغراب في عقول أنصاره، وحتى بين أفراد الطبقة الحاكمة والمتنورة في العصر الأموي، الذين كانوا لا يزالون عرباً أقحاحًا، والحق أنّ الاعتقاد بقالات الغراب سيظل حياً كما تشهد على ذلك القصمان التاليتان.

تعليق: أين وصلت بها حين ننقل لك هذا الهراء الذي كان يضرب بعقله المثل؟ أين وصل غاق غيق؟

في العام (٤٥ هـ/ ٦٦٥ م) عيّن معاوية زياد بن أبيه واليا على البصرة، ولكن الأخير توجه إلى الكوفة غير عالم بعد بتعيينه بالبصرة، وخاف المغيرة والي الكوفة من أن يكون زياد قد عين في مكانه، فبعث إلى زياد وائل بن حجر الحضرمي الذي لم يتمكن من الحصول على أي خبر من زياد حول سبب مجيئه إلى الكوفة، وفي طريق عودته رأى وائل غرابا ينعق، فعاد حينئذ إلى زياد وقال له: هذا الغراب سيجعلك تغادر الكوفة. ثم التحق بالمغيرة.

وقد وصل رسول من معاوية في اليوم ذاته ليطلب من زياد الذهاب إلى البصرة. (٤١) كان الشاعر الكميت يعيش متخفيا، فقد كان يلاحقه رجال الخليفة الأموي هشام (١٢٦-١٠٦ هـ / ٧٢٤-٧٤٣ م) لأنه أنشد شعراً في مدح العلويين والهاشميين، وقد ضبط مرة عند صديقه أبي الوضاح فسارع إلى الفرار، ورأى حينذاك غراباً وقف على جدار، وراح ينعق، فقال لصديقه سيقبض على رجال الخليفة وسينهار جدار بيتك، وفي صباح اليوم التالي وجد أبو الوضاح جدار بينه منهاراً.

---

(١) الحيوان: ٣/١٤٢.

الفصل العاشر

فقه ابن تيمية للكشوف والخوارق وفهم حقيقة الكهانة

أولى شيخ الإسلام قضية الكشوف عناية خاصة وجلّى فقهها، وذلك حماية لعقائد العباد وإبعادا لهم عن الكهانة وأهلها، قال[١] شيخ الإسلام: الْخَارِقُ كَشْفًا كَانَ أَوْ تَأْثِيرًا إنْ حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الدِّينِ، كَانَ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا دِينًا وَشَرْعًا: إمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مُسْتَحَبٌّ، وَإِنْ حَصَلَ بِهِ أَمْرٌ مُبَاحٌ كَانَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي شُكْرًا، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمَّنُ مَا هُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ: نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيَ تَنْزِيهٍ، كَانَ سَبَبًا لِلْعَذَابِ أَوْ الْبُغْضِ، كَقِصَّةِ الَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا (بلعام بْنُ باعوراء) لَكِنْ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا مَعْذُورًا لِاجْتِهَادِ أَوْ تَقْلِيدٍ أَوْ نَقْصِ عَقْلٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ غَلَبَةِ حَالٍ أَوْ عَجْزٍ أَوْ ضَرُورَةٍ، فَيَكُونُ مِنْ جِنْسِ (بَرْحٍ) الْعَابِدِ.

وَ"النَّهْيُ" قَدْ يَعُودُ إلَى سَبَبِ الْخَارِقِ وَقَدْ يَعُودُ إلَى مَقْصُودِهِ، فَالْأَوَّلُ: مِثْلُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ دُعَاءً مَنْهِيًّا عَنْهُ اعْتِدَاءً عَلَيْهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢] وَمِثْلُ الْأَعْمَالِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا إذَا أَوْرَثَتْ كَشْفًا أَوْ تَأْثِيرًا.

وَالثَّانِي: أَنْ يَدْعُوَ عَلَى غَيْرِهِ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّهُ، أَوْ يَدْعُوَ لِلظَّالِمِ بِالْإِعَانَةِ وَيُعِينَهُ بِهِمَّتِهِ كَخُفَرَاءِ الْعَدُوِّ وَأَعْوَانِ الظَّلَمَةِ مِنْ ذَوِي الْأَحْوَالِ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مِنْ عُقَلَاءِ الْمَجَانِينِ وَالْمَغْلُوبِينَ غَلَبَةً بِحَيْثُ يُعْذَرُونَ، وَالنَّاقِصِينَ نَقْصًا لَا يُلَامُونَ عَلَيْهِ كَانُوا برحية، وَقَدْ بَيَّنْت فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا يُعْذَرُونَ فِيهِ وَمَا لَا يُعْذَرُونَ فِيهِ، وَإِنْ كَانُوا عَالِمِينَ قَادِرِينَ كَانُوا بلعامية، فَإِنَّ مَنْ أَتَى بِخَارِقٍ عَلَى وَجْهٍ مَنْهِيٍّ عَنْهُ أَوْ لِمَقْصُودٍ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْذُورًا مَعْفُوًّا عَنْهُ كَبَرْحٍ، أَوْ يَكُونُ مُتَعَمِّدًا لِلْكَذِبِ كبلعام، فَتَلَخَّصَ أَنَّ الْخَارِقَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١- مَحْمُودٌ فِي الدِّينِ.

٢- وَمَذْمُومٌ فِي الدِّينِ.

٣- وَمُبَاحٌ لَا مَحْمُودٌ وَلَا مَذْمُومٌ فِي الدِّينِ؛ فَإِنْ كَانَ الْمُبَاحُ فِيهِ مَنْفَعَةً كَانَ نِعْمَةً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ كَانَ كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ الَّتِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا كَاللَّعِبِ وَالْعَبَثِ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجوزجاني: كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ؛ فَإِنَّ نَفْسَك منجبلة عَلَى طَلَبِ الْكَرَامَةِ وَرَبُّك يَطْلُبُ مِنْك الِاسْتِقَامَةَ.

قال الشَّيْخُ السهروردي فِي عَوَارِفِهِ: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ، وَسِرٌّ غَفَلَ عَنْ حَقِيقَتِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّلُوكِ وَالطُّلَّابِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ والمتعبدين سَمِعُوا عَنْ سَلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢)

(٢) الأعراف: الآية ٥٥.

وَمَا مُنِحُوا بِهِ مِنْ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَأَبَدًا نُفُوسُهُمْ لَا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُرْزَقُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ مُتَّهِمًا لِنَفْسِهِ فِي صِحَّةِ عَمَلِهِ حَيْثُ لَمْ يُكَاشِفْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ عَلِمُوا سِرَّ ذَلِكَ لَهَانَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرُ، فَيُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَابًا، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنْ يَزْدَادَ بِمَا يَرَى مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ تَفَنُّنًا، فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى هَذَا الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْخُرُوجِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ عِبَادِهِ يُكَاشِفُ بِصِدْقِ الْيَقِينِ وَيَرْفَعُ عَنْ قَلْبِهِ الْحِجَابَ، وَمَنْ كُوشِفَ بِصِدْقِ الْيَقِينِ أُغْنِيَ بِذَلِكَ عَنْ رُؤْيَةِ خَرْقِ الْعَادَاتِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا كَانَ حُصُولُ الْيَقِينِ وَقَدْ حَصَلَ الْيَقِينُ، فَلَوْ كُوشِفَ هَذَا الْمَرْزُوقُ صِدْقَ الْيَقِينِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَازْدَادَ يَقِينًا، فَلَا تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ كَشْفَ الْقُدْرَةِ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ لِهَذَا الْمَوْضِعِ اسْتِغْنَاءً بِهِ، وَتَقْتَضِي الْحِكْمَةُ كَشْفَ ذَلِكَ الْآخَرِ لِمَوْضِعِ حَاجَتِهِ وَكَانَ هَذَا الثَّانِي يَكُونُ أَتَمَّ اسْتِعْدَادًا وَأَهْلِيَّةً مِنْ الْأَوَّلِ، فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِالِاسْتِقَامَةِ فَهِيَ كُلُّ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ إذَا وَقَعَ فِي طَرِيقِهِ شَيْءٌ خَارِقٌ كَانَ كَأَنْ لَمْ يَقَعْ فَمَا يُبَالِي وَلَا يَنْقُصُ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَنْقُصُ بِالْإِخْلَالِ بِوَاجِبِ حَقِّ الِاسْتِقَامَة. فتعلم هذا؛ لِأَنَّهُ أَصْلٌ كَبِيرٌ لِلطَّالِبِينَ وَالْعُلَمَاءِ الزَّاهِدِينَ وَمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ.

فَصْلٌ[1]: كَلِمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ: كَلِمَاتٌ كَوْنِيَّةٌ وَكَلِمَاتٌ دِينِيَّةٌ، فَكَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ: هِيَ الَّتِي اسْتَعَاذَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: {أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ}[2]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وَالْكَوْنُ كُلُّهُ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ الْكَشْفِيَّةِ التَّأْثِيرِيَّةِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: الْكَلِمَاتُ الدِّينِيَّةُ: وَهِيَ الْقُرْآنُ وَشَرْعُ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ، وَهِيَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَخَبَرُهُ، وَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْهَا الْعِلْمُ بِهَا وَالْعَمَلُ وَالْأَمْرُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، كَمَا أَنَّ حَظَّ الْعَبْدِ عُمُومًا وَخُصُوصًا مِنْ الْأَوَّلِ الْعِلْمُ بِالْكَوْنِيَّاتِ وَالتَّأْثِيرُ فِيهَا أَيْ بِمُوجِبِهَا. فَالْأُولَى قَدَرِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ وَالثَّانِيَةُ شَرْعِيَّةٌ دِينِيَّةٌ.

ونقول: العلم بالكلمات الكونية، كيف تجري الأمور الكونية؟ وكيف أقام الله الكونيات على أسبابها الشرعية وغيرها؟ كيف يحصل التأثير في الكون والعلم بذلك؟ وكيف يجري العمل في كون الله بكلماته الكونية؟ الربط بين الأسباب ومسبباتها، والفرق بين الكهانة لا شرعية ولا كونية، توضيح أكثر من هذا العلم الكوني تجري به الأمور، وكيف أقام الله الكونيات على أسباب؟ مثال ذلك حفر الآبار وزراعة الأرض أسباب كونية، وبذلك يحصل التأثير في الكون عبارة المفهوم قدرها **بأسبابها** أما الكهانة ليست كونية.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ٤)
(٢) سبق تخريجه.

وكما مر فإنّ فقه قضية الكشوف من أهم القضايا وأعظمها خطرا؛ وذلك أنها تتصل بسلامة اعتقاد الناس كشفا وعلما وتأثيرا، ومن جهل هذا وقع في براثن الكهان والمنجمين، وقصد السحرة وغيرهم؛ ولذلك أولاها شيخ الإسلام عناية فائقة وكررها كثيرا رحمه الله، ونحن نرى في واقعنا المعاصر آثار الخلل في فهم هذه القضية الذي جعل الناس يتعلقون بكل كاهن بل بكل مخمن وكذاب مفتري، وكذلك التعلق بكل عجيبة، فهذه عجلة مباركة إذ في ضرعها لبن ولما تحمل وتضع، وهذا شيخ مبارك يخبر بالغيب وهو مريض عقلياً أو خلقته بها غرابة... وهلم جرا)

وَكَشْفُ الْأُولَى الْعِلْمُ بِالْحَوَادِثِ الْكَوْنِيَّةِ. (ونقول: إن علم المسلم بذلك يفسر له ما يرى من عجائب وغرائب، ويطلعه على سنن الله الجاريات، ويكشف له ما يكون من ذلك كهانة وألاعيب شياطين)

وَكَشْفُ الثَّانِيَةِ الْعِلْمُ بِالْمَأْمُورَاتِ الشَّرْعِيَّةِ. (ونقول: أول المأمورات التوحيد والبراءة من الشرك وأهله)

وَقُدْرَةُ الْأُولَى التَّأْثِيرُ فِي الْكَوْنِيَّاتِ، وَقُدْرَةُ الثَّانِيَةِ التَّأْثِيرُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ.

وَكَمَا أَنَّ الْأُولَى تَنْقَسِمُ إلَى:

١- تَأْثِيرٍ فِي نَفْسِهِ كَمَشْيِهِ عَلَى الْمَاءِ وَطَيَرَانِهِ فِي الْهَوَاءِ وَجُلُوسِهِ عَلَى النَّارِ.

٢- وَإِلَى تَأْثِيرٍ فِي غَيْرِهِ بِإِسْقَامٍ وَإِصْحَاحٍ وَإِهْلَاكٍ وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ.

فَكَذَلِكَ الثَّانِيَةُ تَنْقَسِمُ إلَى:

١- تَأْثِيرٍ فِي نَفْسِهِ بِطَاعَتِهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

٢- وَإِلَى تَأْثِيرٍ فِي غَيْرِهِ بِأَنْ يَأْمُرَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَيُطَاعُ فِي ذَلِكَ طَاعَةً شَرْعِيَّةً؛ بِحَيْثُ تَقْبَلُ النُّفُوسُ مَا يَأْمُرُهَا بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي الْكَلِمَاتِ الدِّينِيَّاتِ، كَمَا قَبِلَتْ مِنْ الْأَوَّلِ مَا أَرَادَ تَكْوِينَهُ فِيهَا بِالْكَلِمَاتِ الْكَوْنِيَّاتِ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ عَدَمَ الْخَوَارِقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً لَا تَضُرُّ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ، فَمَنْ لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ الْمُغَيَّبَاتِ وَلَمْ يُسَخَّرْ لَهُ شَيْءٌ مِنْ الْكَوْنِيَّاتِ لَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ فِي مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ عَدَمُ ذَلِكَ أَنْفَعَ لَهُ فِي دِينِهِ إذَا لَمْ يَكُنْ وُجُودُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مَأْمُورًا بِهِ أَمْرَ إيجَابٍ وَلَا اسْتِحْبَابٍ، وَأَمَّا عَدَمُ الدِّينِ وَالْعَمَلِ بِهِ فَيَصِيرُ الْإِنْسَانُ نَاقِصًا مَذْمُومًا: إمَّا أَنْ يَجْعَلَهُ مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَابِ، وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَهُ مَحْرُومًا مِنْ الثَّوَابِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِالدِّينِ وَتَعْلِيمَهُ وَالْأَمْرَ بِهِ يَنَالُ بِهِ الْعَبْدُ رِضْوَانَ اللَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَاتُهُ وَثَوَابُهُ، وَأَمَّا الْعِلْمُ بِالْكَوْنِ وَالتَّأْثِيرُ فِيهِ فَلَا يُنَالُ بِهِ ذَلِكَ إلَّا إذَا كَانَ دَاخِلًا فِي الدِّينِ، بَلْ قَدْ يَجِبُ عَلَيْهِ شُكْرُهُ وَقَدْ يَنَالُهُ بِهِ إثْمٌ. إذَا عُرِفَ هَذَا فَالْأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ:

١- إمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.

٢- أَوْ بِالدِّينِ فَقَطْ.

٣- أَوْ بِالْكَوْنِ فَقَطْ.

فَالْأَوَّلُ: كَمَا قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾[1] فَإِنَّ السُّلْطَانَ النَّصِيرَ يَجْمَعُ الْحُجَّةَ وَالْمَنْزِلَةَ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ كَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْكَوْنِيَّةُ عِنْدَ اللَّهِ بِكَلِمَاتِهِ الْكَوْنِيَّاتِ، وَمُعْجِزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ -عَلَيْهِمْ السَّلَامُ- تَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ؛ فَإِنَّهَا حُجَّةٌ عَلَى النُّبُوَّةِ مِنْ اللَّهِ وَهِيَ قَدَرِيَّةٌ، وَأَبْلَغَ ذَلِكَ الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَإِنَّهُ هُوَ شَرْعُ اللَّهِ وَكَلِمَاتُهُ الدِّينِيَّاتُ، وَهُوَ حُجَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَمَجِيئِهِ مِنْ الْخَوَارِقِ لِلْعَادَاتِ، فَهُوَ الدَّعْوَةُ وَهُوَ الْحُجَّةُ وَالْمُعْجِزَةُ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: فَمِثْلُ مَنْ يَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ خَبَرًا وَأَمْرًا وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَأْمُرُ بِهِ النَّاسَ، وَيَعْلَمُ بِوَقْتِ نُزُولِ الْمَطَرِ وَتَغَيُّرِ السِّعْرِ وَشِفَاءِ الْمَرِيضِ وَقُدُومِ الْغَائِبِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ وَلَهُ تَأْثِيرٌ: إمَّا فِي الْأَنَاسِيِّ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِمْ بِإِصْحَاحِ وَإِسْقَامٍ وَإِهْلَاكٍ أَوْ وِلَادَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ أَوْ عَزْلٍ. وَجِمَاعُ التَّأْثِيرِ: إمَّا جَلْبُ مَنْفَعَةٍ كَالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ، وَإِمَّا دَفْعُ مَضَرَّةٍ كَالْعَدُوِّ وَالْمَرَضِ، أَوْ لَا وَاحِدَ مِنْهُمَا مِثْلُ رُكُوبِ أَسَدٍ بِلَا فَائِدَةٍ أَوْ إطْفَاءِ نَارٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَمَنْ يَجْتَمِعُ لَهُ الْأَمْرَانِ بِأَنْ يُؤْتَى مِنْ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ الْكَوْنِيِّ مَا يُؤَيِّدُ بِهِ الْكَشْفَ وَالتَّأْثِيرَ الشَّرْعِيَّ، وَهُوَ عِلْمُ الدِّينِ وَالْعَمَلُ بِهِ وَالْأَمْرُ بِهِ، وَيُؤْتَى مِنْ عِلْمِ الدِّينِ وَالْعَمَلِ بِهِ مَا يَسْتَعْمِلُ بِهِ الْكَشْفَ وَالتَّأْثِيرَ الْكَوْنِيَّ؛ بِحَيْثُ تَقَعُ الْخَوَارِقُ الْكَوْنِيَّةُ تَابِعَةً لِلْأَوَامِرِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ أَنْ تُخْرَقَ لَهُ الْعَادَةُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ؛ بِحَيْثُ يَنَالُ مِنْ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَمِنْ الْعَمَلِ بِهَا، وَمِنْ الْأَمْرِ بِهَا وَمِنْ طَاعَةِ الْخَلْقِ فِيهَا مَا لَمْ يَنَلْهُ غَيْرُهُ فِي مُطَّرِدِ الْعَادَةِ، فَهَذِهِ أَعْظَمُ الْكَرَامَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ وَكُلِّ الْمُسْلِمِينَ.

تعليق: ونحن نعتقد أنّ من هؤلاء شيخ الإسلام الذي أوتي من العلم والفقه والبركة في التحصيل والتأليف، هذا ما وصل وفي كل حين تقذف المطابع بثمرات هذا العقل المبارك، هذا مع أنّ معظم حياته في السجن بين الشام ومصر، هذا وكتبه حوربت في حياته وبعد مماته، ثم نشر الله علمه الذي اطلع الناس على آية من آيات الله في عباده، وكان من تسخير الله من فضله أنّ سخر الملك عبد العزيز أن ينشر علم الشيخ فيما نشره من كتب أهل التوحيد والسنة، وإلى يوم الناس هذا تنشر كتبه التي بدأ بنشرها الملك المظفر ثم كان أولاده من بعده.

فَهَذَا الْقِسْمُ الثَّالِثُ هُوَ مُقْتَضَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إذْ الْأَوَّلُ هُوَ الْعِبَادَةُ، وَالثَّانِي هُوَ الِاسْتِعَانَةُ، وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْخَوَاصِّ مِنْ أُمَّتِهِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِشِرْعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فَإِنَّ كَرَامَاتِهِمْ كَمُعْجِزَاتِهِ لَمْ يُخْرِجْهَا إلَّا لِحُجَّةٍ أَوْ حَاجَةٍ. فَالْحُجَّةُ لِيَظْهَرَ بِهَا دِينُ اللَّهِ؛ لِيُؤْمِنَ الْكَافِرُ وَيَخْلُصَ الْمُنَافِقُ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَانًا، فَكَانَتْ فَائِدَتُهَا اتِّبَاعَ دِينِ اللَّهِ عِلْمًا وَعَمَلًا كَالْمَقْصُودِ بِالْجِهَادِ.

(١) الإسراء: الآية ٨٠.

وَالْحَاجَةُ كَجَلْبِ مَنْفَعَةٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا كَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ عَنْهُمْ كَكَسْرِ الْعَدُوِّ بِالْحَصَى الَّذِي رَمَاهُمْ بِهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(١) وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ يَعُودُ إِلَى مَنْفَعَةِ الدِّينِ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَقِتَالِ الْعَدُوِّ وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ الدِّينِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْمُتَعَلِّقُ بِالدِّينِ فَقَطْ فَيَكُونُ مِنْهُ مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى الثَّانِي وَلَا لَهُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ، كَحَالِ كَثِيرٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَصَالِحِي الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمْ، مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَاجَةٌ أَوْ انْتِفَاعٌ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوَارِقِ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ أَسْبَابَ الْكَوْنِيَّاتِ وَلَا عَمَلَ بِهَا، فَانْتِفَاءُ الْخَارِقِ الْكَوْنِيِّ فِي حَقِّهِ: إمَّا لِانْتِفَاءِ سَبَبِهِ، وَإِمَّا لِانْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ. وَانْتِفَاؤُهُ لِانْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ لَا يَكُونُ نَقْصًا، وَأَمَّا انْتِفَاؤُهُ لِانْتِفَاءِ سَبَبِهِ فَقَدْ يَكُونُ نَقْصًا وَقَدْ لَا يَكُونُ نَقْصًا.

فَإِنْ كَانَ لِإِخْلَالِهِ بِفِعْلٍ وَاجِبٍ وَتَرْكٍ مُحَرَّمٍ كَانَ عَدَمُ الْخَارِقِ نَقْصًا وَهُوَ سَبَبُ الضَّرَرِ، وَإِنْ كَانَ لِإِخْلَالِهِ بالمستحبات فَهُوَ نَقْصٌ عَنْ رُتْبَةِ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وَلَيْسَ هُوَ نَقْصًا عَنْ رُتْبَةِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الْمُقْتَصِدِينَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ بَلْ لِعَدَمِ اشْتِغَالِهِ بِسَبَب بِالْكَوْنِيَّاتِ الَّتِي لَا يَكُونُ عَدَمُهَا نَاقِصًا لِثَوَابٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَقْصًا، مِثْلُ مَنْ يَمْرَضُ وَلَدُهُ وَيَذْهَبُ مَالُهُ فَلَا يَدْعُو لِيُعَافَى، أَوْ يَجِيءُ مَالُهُ أَوْ يَظْلِمُهُ ظَالِمٌ فَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ لِيَنْتَصِرَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ صَاحِبُ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ الْكَوْنِيِّ فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ تَارَةً يَكُونُ زِيَادَةً فِي دِينِهِ، وَتَارَةً يَكُونُ نَقْصًا، وَتَارَةً لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ وَهَذَا غَالِبُ حَالِ أَهْلِ الِاسْتِعَانَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ غَالِبُ حَالِ أَهْلِ الْعِبَادَةِ، وَهَذَا الثَّانِي بِمَنْزِلَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ خَلِيفَةً نَبِيًّا فَيَكُونُ خَيْرَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ يَكُونُ ظَالِمًا مِنْ شَرِّ النَّاسِ، وَقَدْ يَكُونُ مَلِكًا عَادِلًا فَيَكُونُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالْكَوْنِيَّاتِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى التَّأْثِيرِ فِيهَا بِالْحَالِ وَالْقَلْبِ، كَالْعِلْمِ بِأَحْوَالِهَا وَالتَّأْثِيرِ فِيهَا بِالْمُلْكِ وَأَسْبَابِهِ، فَسُلْطَانُ الْحَالِ وَالْقَلْبِ كَسُلْطَانِ الْمُلْكِ وَالْيَدِ، إِلَّا أَنَّ أَسْبَابَ هَذَا بَاطِنَةٌ رُوحَانِيَّةٌ وَأَسْبَابَ هَذَا ظَاهِرَةٌ جُثْمَانِيَّةٌ.

وَبِهَذَا تَبَيَّنَ لَك أَنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ إذَا صَحَّ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ وَخَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الْمُؤْمِنِينَ الْعُقَلَاءِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ عِلْمَ الدِّينِ طَلَبًا وَخَبَرًا لَا يُنَالُ إلَّا مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَمَّا الْعِلْمُ بِالْكَوْنِيَّاتِ فَأَسْبَابُهُ مُتَعَدِّدَةٌ، وَمَا اخْتَصَّ بِهِ الرُّسُلُ وَوَرَثَتُهُمْ أَفْضَلُ مِمَّا شَرَكَهُمْ فِيهِ بَقِيَّةُ النَّاسِ، فَلَا يَنَالُ عِلْمَهُ إِلَّا هُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ.

الثَّانِي: أَنَّ الدِّينَ لَا يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَحْبَابُ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ إِلَّا هُمْ، وَأَمَّا التَّأْثِيرُ الْكَوْنِيُّ فَقَدْ يَقَعُ مِنْ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ وَفَاجِرٍ تَأْثِيرُهُ فِي نَفْسِهِ وَفِي

---

(١) الأنفال: الآية ١٧.

غَيْرِهِ، كَالْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْعَيْنِ وَالسِّحْرِ وَكَالْمُلُوكِ وَالْجَبَابِرَةِ الْمُسَلَّطِينَ وَالسَّلَاطِينِ الْجَبَابِرَةِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْعِلْمِ مُخْتَصًّا بِالصَّالِحِينَ أَفْضَلُ مِمَّا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْمُصْلِحُونَ وَالْمُفْسِدُونَ.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْعِلْمَ بِالدِّينِ وَالْعَمَلِ بِهِ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَضُرُّهُ، وَأَمَّا الْكَشْفُ وَالتَّأْثِيرُ فَقَدْ لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ قَدْ يَضُرُّهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١)

الرَّابِعُ: أَنَّ الْكَشْفَ وَالتَّأْثِيرَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ فَائِدَةٌ أَوْ لَا يَكُونَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ كَالِاطِّلَاعِ عَلَى سَيِّئَاتِ الْعِبَادِ، وَرُكُوبِ السِّبَاعِ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَالِاجْتِمَاعِ بِالْجِنِّ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ، وَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ مَعَ إِمْكَانِ الْعُبُورِ عَلَى الْجِسْرِ، فَهَذَا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ وَإِنَّمَا يَسْتَعْظِمُ هَذَا مَنْ لَمْ يَنَلْهُ، وَهُوَ تَحْت الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فِي الْكَوْنِ مِثْلُ مَنْ يَسْتَعْظِمُ الْمَلِكُ أَوْ طَاعَةَ الْمُلُوكِ لِشَخْصٍ، وَقِيَامِ الْحَالَةِ عِنْدَ النَّاسِ بِلَا فَائِدَةٍ، فَهُوَ يَسْتَعْظِمُهُ مِنْ جِهَةِ سَبَبِهِ لَا مِنْ جِهَةِ مَنْفَعَتِهِ كَالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ، وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ كَالْعَدُوِّ وَالْمَرَضِ، فَهَذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُنَالُ غَالِبًا بِغَيْرِ الْخَوَارِقِ أَكْثَرُ مِمَّا تُنَالُ بِالْخَوَارِقِ، وَلَا يَحْصُلُ بِالْخَوَارِقِ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ وَلَا تَدُومُ إِلَّا بِأَسْبَابٍ أُخْرَى.

وَأَمَّا الْآخَرُ أَيْضًا فَلَا يَحْصُلُ بِالْخَوَارِقِ إِلَّا مَعَ الدِّينِ، وَالدِّينُ وَحْدَهُ مُوجِبٌ لِلْآخِرَةِ بِلَا خَارِقٍ، بَلْ الْخَوَارِقُ الدِّينِيَّةُ الْكَوْنِيَّةُ أَبْلَغُ مِنْ تَحْصِيلِ الْآخِرَةِ كَحَالِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذَلِكَ الْمَالُ وَالرِّيَاسَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لِأَهْلِ الدِّينِ بِالْخَوَارِقِ، إِنَّمَا هُوَ مَعَ الدِّينِ، وَإِلَّا فَالْخَوَارِقُ وَحْدَهَا لَا تُؤَثِّرُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَثَرًا ضَعِيفًا.

فَإِنْ قِيلَ: مُجَرَّدُ الْخَوَارِقِ إِنْ لَمْ تَحْصُلْ بِنَفْسِهَا مَنْفَعَةٌ لَا فِي الدِّينِ وَلَا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ عَلَامَةُ طَاعَةِ النُّفُوسِ لَهُ فَهُوَ مُوجِبُ الرِّيَاسَةِ وَالسُّلْطَانِ، ثُمَّ يَتَوَسَّطُ ذَلِكَ فَتُجْتَلَبُ الْمَنَافِعُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ وَتُدْفَعُ الْمَضَارُّ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ. قُلْت: نَحْنُ لَمْ نَتَكَلَّمْ إِلَّا فِي مَنْفَعَةِ الدِّينِ أَوْ الْخَارِقِ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِ النَّاسِ، وَأَمَّا إِنْ تَكَلَّمْنَا فِيمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِهَا مِنْ فِعْلِ النَّاسِ، فَنَقُولُ أَوَّلًا: الدِّينُ الصَّحِيحُ أَوْجَبَ لِطَاعَةِ النُّفُوسِ وَحُصُولِ الرِّيَاسَةِ مِنَ الْخَارِقِ الْمُجَرَّدِ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ، فَإِنَّهُ لَا نِسْبَةَ لِطَاعَةِ مَنْ أُطِيعَ لِدِينِهِ إِلَى طَاعَةِ مَنْ أُطِيعَ لِتَأْثِيرِهِ؛ إِذْ طَاعَةُ الْأَوَّلِ أَعَمُّ وَأَكْثَرُ وَالْمُطِيعُ بِهَا خِيَارُ بَنِي آدَمَ عَقْلًا وَدِينًا، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَلَا تَدُومُ وَلَا تَكْثُرُ وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا إِلَّا جُهَّالُ النَّاسِ كَأَصْحَابِ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وطليحة الأسدي وَنَحْوِهِمْ، وَأَهْلِ الْبَوَادِي وَالْجِبَالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا دِينَ.

ثُمَّ نَقُولُ ثَانِيًا: لَوْ كَانَ الْخَارِقُ يَنَالُهُ مِنَ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ أَكْثَرُ مِنْ صَاحِبِ الدِّينِ لَكَانَ غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا مِنْ الْمُلُوكِ، بَلْ مُلْكُهُ إِنْ لَمْ يُقْرِنْهُ بِالدِّينِ فَهُوَ كَفِرْعَوْنَ وَكَمُقَدَّمِي الإسماعيلية وَنَحْوِهِمْ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ رِيَاسَةَ الدُّنْيَا الَّتِي يَنَالُهَا الْمُلُوكُ بِسِيَاسَتِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ وَإِعْطَائِهِمْ أَعْظَمُ مِنَ الرِّيَاسَةِ بِالْخَارِقِ الْمُجَرَّدِ، فَإِنَّ هَذِهِ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مُدَّةً قَرِيبَةً...

---

(١) القصص: الآية ٨٠.

الْخَامِسُ: أَنَّ الدِّينَ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ مَعَهُ إِلَى كَشْفٍ أَوْ تَأْثِيرٍ، وَأَمَّا الْكَشْفُ أَوْ التَّأْثِيرُ فَإِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ الدِّينُ وَإِلَّا هَلَكَ صَاحِبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلِعَدَمِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْخَوَارِقَ هِيَ مِنْ الْأُمُورِ الْخَطِرَةِ الَّتِي لَا تَنَالُهَا النُّفُوسُ إِلَّا بِمُخَاطَرَاتٍ فِي الْقَلْبِ وَالْجِسْمِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ، فَإِنَّهُ إِنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْجُوعِ وَالرِّيَاضَةِ الْمُفْرِطَةِ خَاطَرَ بِقَلْبِهِ وَمِزَاجِهِ وَدِينِهِ وَرُبَّمَا زَالَ عَقْلُهُ وَمَرِضَ جِسْمُهُ وَذَهَبَ دِينُهُ، وإن سَلَكَ طَرِيقَ الْوَلَهِ وَالِاخْتِلَاطِ بِتَرْكِ الشَّهَوَاتِ؛ لِيَتَّصِلَ بِالْأَرْوَاحِ الْجِنِّيَّةِ وَتَغِيبَ النُّفُوسُ عَنْ أَجْسَامِهَا كَمَا يَفْعَلُهُ مُوَلَّهُو الْأَحْمَدِيَّةِ، فَقَدْ أَزَالَ عَقْلَهُ وَأَذْهَبَ مَالَهُ وَمَعِيشَتَهُ وَأَشْقَى نَفْسَهُ شَقَاءً لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَعَرَّضَ نَفْسَهُ لِعَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ لِمَا تَرَكَهُ مِنْ الْوَاجِبَاتِ وَمَا فَعَلَهُ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ، وَكَذَلِكَ إنْ قَصَدَ تَسْخِيرَ الْجِنِّ بِالْأَسْمَاءِ وَالْكَلِمَاتِ مِنْ الْأَقْسَامِ وَالْعَزَائِمِ فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعُقُوبَتِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ، بَلْ لَوْ لَمْ يَكُنْ الْخَارِقُ إلَّا دَلَالَةُ صَاحِبِ الْمَالِ الْمَسْرُوقِ وَالضَّالِّ عَلَى مَالِهِ أَوْ شِفَاءِ الْمَرِيضِ أَوْ دَفْعِ الْعَدُوِّ مِنْ السُّلْطَانِ وَالْمُحَارِبِينَ، فَهَذَا الْقَدْرُ إذَا فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ مَعَ النَّاسِ وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ دِينًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ، كَانَ كَأَنَّهُ قَهْرَمَانٌ لِلنَّاسِ يَحْفَظُ أَمْوَالَهُمْ، أَوْ طَبِيبٌ أَوْ صَيْدَلِيٌّ يُعَالِجُ أَمْرَاضَهُمْ، أَوْ أَعْوَانُ سُلْطَانٍ يُقَاتِلُونَ عَنْهُ، إذْ عَمَلُهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِ أُولَئِكَ سَوَاءً. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الدِّينِيِّ فَإِنَّهُ يُحَابِي بِذَلِكَ أَقْوَامًا وَلَا يَعْدِلُ بَيْنَهُمْ، وَرُبَّمَا أَعَانَ الظَّلَمَةَ بِذَلِكَ كَفِعْلِ بلعام وَطَوَائِفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَهَذَا يُوجِبُ لَهُ عَدَاوَةَ النَّاسِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْثَرِ أَسْبَابِ مَضَرَّةِ الدُّنْيَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَحْتَمِلَ الْمَرْءُ ذَلِكَ إلَّا إذَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ لِأَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَضَرَّةٌ فَمَنْفَعَتُهُ غَالِبَةٌ عَلَى مَضَرَّتِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى.

السَّادِسُ: أَنَّ لِلدِّينِ عِلْمًا وَعَمَلًا إذَا صَحَّ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجِبَ خَرْقَ الْعَادَةِ إذَا احْتَاجَ إلَى ذَلِكَ صَاحِبُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾(٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾} رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ. (٤)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ

---

(١) الطلاق: الآية ٢,٣.
(٢) الأنفال: الآية ٢٩.
(٣) النساء: الآية ٦٧.
(٤) سبق تخريجه.

عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا؛ فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَدَّدْت فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ}[١] فَهَذَا فِيهِ مُحَارَبَةُ اللهِ لِمَنْ حَارَبَ وَلِيَّهُ، وَفِيهِ أَنَّ مَحْبُوبَهُ بِهِ يَعْلَمُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَبِهِ يَعْمَلُ بَطْشًا وَسَعْيًا، وَفِيهِ أَنَّهُ يُجِيبُهُ إلَى مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُ مِنْ الْمَنَافِعِ وَيَصْرِفُ عَنْهُ مَا يَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ الْمَضَارِّ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، وَأَمَّا الْخَوَارِقُ فَقَدْ تَكُونُ مَعَ الدِّينِ وَقَدْ تَكُونُ مَعَ عَدَمِهِ أَوْ فَسَادِهِ أَوْ نَقْصِهِ.

السَّابِعُ: أَنَّ الدِّينَ هُوَ إقَامَةُ حَقِّ الْعُبُودِيَّةِ وَهُوَ فِعْلُ مَا عَلَيْك وَمَا أُمِرْت بِهِ، وَأَمَّا الْخَوَارِقُ فَهِيَ مِنْ حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ إذَا لَمْ يُؤْمَرْ الْعَبْدُ بِهَا، وَإِنْ كَانَتْ بِسَعْيٍ مِنْ الْعَبْدِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُهَا بِمَا يَنْصِبُهُ مِنْ الْأَسْبَابِ، وَالْعَبْدُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَهْتَمَّ بِمَا عَلَيْهِ وَمَا أُمِرَ بِهِ، وَأَمَّا اهْتِمَامُهُ بِمَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ إذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالِاهْتِمَامِ بِهِ فَهُوَ إمَّا فُضُولٌ: فَتَكُونُ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ كَالْمَنَافِعِ السُّلْطَانِيَّةِ الْمَالِيَّةِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى الدِّينِ، كَتَكْثِيرِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَطَاعَةِ النَّاسِ إذَا رَأَوْهَا، وَلِمَا فِيهَا مِنْ دَفْعِ الْمَضَارِّ عَنْ الدِّينِ بِمَنْزِلَةِ الْجِهَادِ الَّذِي فِيهِ دَفْعُ الْعَدُوِّ وَغَلَبَتُهُ.

ثُمَّ هَلْ الدِّينُ مُحْتَاجٌ إلَيْهَا فِي الْأَصْلِ؟ وَلِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالنُّبُوَّةِ لَا يَتِمُّ إلَّا بِالْخَارِقِ، أَوْ لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ فِي الْخَاصَّةِ بَلْ فِي حَقِّ الْعَامَّةِ؟ هَذَا نَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ. وَأَنْفَعُ الْخَوَارِقِ الْخَارِقُ الدِّينِيُّ وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ قَالَ ﷺ: {مَا مِنْ نَبِيٍّ إلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.[٢] وَكَانَتْ آيَتُهُ هِيَ دَعْوَتُهُ وَحُجَّتُهُ بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ كَثِيرًا مِنْ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَّا إلَى العيسوية يَفِرُّونَ مِنْ الْقُرْآنِ وَالْقَالِ إلَى الْحَالِ، كَمَا أَنَّ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَّا إلَى الموسوية يَفِرُّونَ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْحَالِ إلَى الْقَالِ وَنَبِيُّنَا ﷺ صَاحِبُ الْقَالِ وَالْحَالِ وَصَاحِبُ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، ثُمَّ بَعْدَهُ الْخَارِقُ الْمُؤَيِّدُ لِلدِّينِ الْمُعِينُ لَهُ؛ لِأَنَّ الْخَارِقَ فِي مَرْتَبَةِ ﴿إيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَالدِّينَ فِي مَرْتَبَةِ ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فَأَمَا الْخَارِقُ الَّذِي لَمْ يُعِنْ الدِّينَ فَأَمَّا مَتَاعُ دُنْيَا أَوْ مُبْعِدٌ صَاحِبَهُ عَنْ اللهِ تَعَالَى.

فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّ الْخَوَارِقَ النَّافِعَةَ تَابِعَةٌ لِلدِّينِ حَادِثَةٌ لَهُ، كَمَا أَنَّ الرِّيَاسَةَ النَّافِعَةَ هِيَ التَّابِعَةُ لِلدِّينِ وَكَذَلِكَ الْمَالُ النَّافِعُ، كَمَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالْمَالُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَمَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمَقْصُودَةُ وَجَعَلَ الدِّينَ تَابِعًا لَهَا وَوَسِيلَةً إلَيْهَا لَا لِأَجْلِ الدِّينِ فِي الْأَصْلِ، فَهُوَ يُشَبَّهُ بِمَنْ يَأْكُلُ الدُّنْيَا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) وسبق تخريجه.

بِالدِّينِ وَلَيْسَتْ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ تَدَيَّنَ؛ خَوْفَ الْعَذَابِ أَوْ رَجَاءَ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَأْمُورٌ بِهِ وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَشَرِيعَةٍ صَحِيحَةٍ.

وَالْعَجَبُ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ هَمَّهُ قَدْ ارْتَفَعَ وَارْتَقَى عَنْ أَنْ يَكُونَ دِينُهُ خَوْفًا مِنْ النَّارِ أَوْ طَلَبًا لِلْجَنَّةِ، يَجْعَلُ هَمَّهُ بِدِينِهِ أَدْنَى خَارِقٍ مِنْ خَوَارِقِ الدُّنْيَا، وَلَعَلَّهُ يَجْتَهِدُ اجْتِهَادًا عَظِيمًا فِي مِثْلِهِ وَهَذَا خَطَأٌ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ قَصْدُهُ بِهَذَا تَثْبِيتَ قَلْبِهِ وَطُمَأْنِينَتَهُ وَإِيقَانَهُ بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ وَسُلُوكِهِ، فَهُوَ يَطْلُبُ الْآيَةَ عَلَامَةً وَبُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ دِينِهِ، كَمَا تَطْلُبُ الْأُمَمُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ الْآيَاتِ دَلَالَةً عَلَى صِدْقِهِمْ، فَهَذَا أعذر لَهُمْ فِي ذَلِكَ. وَلِهَذَا لِمَا كَانَ الصَّحَابَةُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ– مُسْتَغْنِينَ فِي عِلْمِهِمْ بِدِينِهِمْ وَعَمَلِهِمْ بِهِ عَنْ الْآيَاتِ بِمَا رَأَوْهُ مَنْ حَالِ الرَّسُولِ وَنَالُوهُ مِنْ عِلْمٍ، صَارَ كُلُّ مَنْ كَانَ عَنْهُمْ أَبْعَدَ مَعَ صِحَّةِ طَرِيقَتِهِ يَحْتَاجُ إلَى مَا عِنْدَهُمْ فِي عِلْمِ دِينِهِ وَعَمَلِهِ، فَيَظْهَرُ مَعَ الْأَفْرَادِ فِي أَوْقَاتِ الْفَتَرَاتِ وَأَمَاكِنِ الْفَتَرَاتِ مِنْ الْخَوَارِقِ مَا لَا يَظْهَرُ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مِنْ حَالِ ظُهُورِ النُّبُوَّةِ وَالدَّعْوَةِ.

فَصْلٌ[1]: الْعِلْمُ بِالْكَائِنَاتِ وَكَشْفُهَا لَهُ طُرُقٌ مُتَعَدِّدَةٌ: حِسِّيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ وَكَشْفِيَّةٌ وَسَمْعِيَّةٌ ضَرُورِيَّةٌ وَنَظَرِيَّةٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَيَنْقَسِمُ إلَى قَطْعِيٍّ وَظَنِّيٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَسَنَتَكَلَّمُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا يُتَّبَعُ مِنْهَا وَمَا لَا يُتَّبَعُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، أَعْنِي الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى الْعِلْمِ بِالْكَائِنَاتِ مِنْ طَرِيقِ الْكَشْفِ يَقَظَةً وَمَنَامًا كَمَا كَتَبْته فِي الْجِهَادِ. أَمَّا الْعِلْمُ بِالدِّينِ وَكَشْفُهُ فَالدِّينُ نَوْعَانِ:

- أُمُورٌ خَبَرِيَّةٌ اعْتِقَادِيَّةٌ.
- وَأُمُورٌ طَلَبِيَّةٌ عَمَلِيَّةٌ.

فَالْأَوَّلُ: كَالْعِلْمِ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ فِي الْفَضَائِلِ وَأَحْوَالِ الْمَلَائِكَةِ وَصِفَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ صِفَةُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا فِي الْأَعْمَالِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَحْوَالِ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّحَابَةِ وَفَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ يُسَمَّى هَذَا النَّوْعُ: أُصُولَ دِينٍ، وَيُسَمَّى الْعَقْدَ الْأَكْبَرَ، وَيُسَمَّى الْجِدَالَ فِيهِ بِالْعَقْلِ كَلَامًا، وَيُسَمَّى عَقَائِدَ وَاعْتِقَادَاتٍ، وَيُسَمَّى الْمَسَائِلَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْمَسَائِلَ الْخَبَرِيَّةَ، وَيُسَمَّى عِلْمَ الْمُكَاشَفَةِ.

وَالثَّانِي: الْأُمُورُ الْعَمَلِيَّةُ الطَّلَبِيَّةُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَالْقَلْبِ كَالْوَاجِبَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ والمستحبات وَالْمَكْرُوهَاتِ وَالْمُبَاحَاتِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ قَدْ يَكُونُ بِالْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ، فَهُوَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ عِلْمًا وَاعْتِقَادًا أَوْ خَبَرًا صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَمِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَأْمُورًا بِهِ أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِثْلُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَهَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهَا صَادِقَةً مُطَابِقَةً لِمُخْبِرِهَا فَهِيَ مِنْ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ وَأَنَّ صَاحِبَهَا بِهَا يَصِيرُ مُؤْمِنًا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَبِعَدَمِهَا يَصِيرُ كَافِرًا يَحِلُّ دَمُهُ وَمَالَهُ فَهِيَ مِنْ الْقِسْمِ الثَّانِي... إلى أن يقول: فَإِنَّ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢)

طُرُقَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَمَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَيْهِمَا مِنْ دَلِيلٍ أَوْ مُشَاهَدَةٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ عَامٌّ أَوْ خَاصٌّ فَقَدْ تَنَازَعَ فِيهِ بَنُو آدَمَ تَنَازُعًا كَثِيرًا، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ، قَدْ يَنْفِي حُصُولَ الْعِلْمِ لِأَحَدِ بِغَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَعْرِفُهَا حَتَّى يَنْفِيَ أَكْثَرَ الدَّلَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ عَلَى ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْأُمُورُ الْكَشْفِيَّةُ الَّتِي لِلْأَوْلِيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مَنْ يُنْكِرُهَا، وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ يَغْلُو فِيهَا، وَخِيَارُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا.

فَالطَّرِيقُ الْعَقْلِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ وَالْكَشْفِيَّةُ وَالْخَبَرِيَّةُ وَالنَّظَرِيَّةُ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ الْكَلَامِ وَأَهْلِ التَّصَوُّفِ قَدْ تَجَاذَبَهَا النَّاسُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ مِنْهَا مَا لَا يَعْرِفُهُ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَغْلُو فِيمَا يَعْرِفُهُ فَيَرْفَعُهُ فَوْقَ قَدْرِهِ وَيَنْفِي مَا سِوَاهُ.

فَالْمُتَكَلِّمَةُ والمتفلسفة تُعَظِّمُ الطُّرُقَ الْعَقْلِيَّةَ وَكَثِيرٌ مِنْهَا فَاسِدٌ مُتَنَاقِضٌ وَهُمْ أَكْثَرُ خَلْقِ اللَّهِ تَنَاقُضًا وَاخْتِلَافًا وَكُلُّ فَرِيقٍ يَرُدُّ عَلَى الْآخَرِ فِيمَا يَدَّعِيه قَطْعِيًّا.

وَطَائِفَةٌ مِمَّنْ تَدَّعِي السُّنَّةَ وَالْحَدِيثَ يَحْتَجُّونَ فِيهَا بِأَحَادِيثَ مَوْضُوعَةٍ وَحِكَايَاتٍ مَصْنُوعَةٍ يَعْلَمُ أَنَّهَا كَذِبٌ، وَقَدْ يَحْتَجُّونَ بِالضَّعِيفِ فِي مُقَابَلَةِ الْقَوِيِّ، وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْفُقَرَاءِ يَبْنِي عَلَى مَنَامَاتٍ وَأَذْوَاقٍ وَخَيَالَاتٍ يَعْتَقِدُهَا كَشْفًا، وَهِيَ خَيَالَاتٌ غَيْرُ مُطَابِقَةٍ وَأَوْهَامٌ غَيْرُ صَادِقَةٍ ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[1]

وَسُئِلَ[2] -رَحِمَهُ اللَّهُ- هَلْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَامٌ صَالِحُونَ غَيَّبَهُمْ اللَّهُ عَنْ النَّاسِ لَا يَرَاهُمْ إلَّا مَنْ أَرَادُوا؟ وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ النَّاسِ فَهُمْ مَحْجُوبُونَ بِحَالِهِمْ؟ وَهَلْ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ أَرْبَعُونَ رَجُلًا غَائِبِينَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ كُلَّمَا مَاتَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ أَخَذُوا مِنْ النَّاسِ وَاحِدًا غَيْرَهُ يَغِيبُ مَعَهُمْ كَمَا يَغِيبُونَ؟ وَكُلُّ أُولَئِكَ تُطْوَى بِهِمْ الْأَرْضُ وَيَحُجُّونَ وَيُسَافِرُونَ مَا مَسِيرَتُهُ شَهْرًا أَوْ سَنَةً فِي سَاعَةٍ، وَمِنْهُمْ قَوْمٌ يَطِيرُونَ كَالطُّيُورِ، وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ الْمَغِيبَاتِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ، وَيَأْكُلُونَ الْعِظَامَ وَالطِّينَ وَيَجِدُونَهُ طَعَامًا وَحَلَاوَةً وَغَيْرَ ذَلِكَ؟

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمَّا وُجُودُ أَقْوَامٍ يَحْتَجِبُونَ عَنْ النَّاسِ دَائِمًا فَهَذَا بَاطِلٌ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِ مِنْ الْأَنْبِيَاء وَلَا الْأَوْلِيَاءِ وَلَا السَّحَرَةِ، وَلَكِنْ قَدْ يَحْتَجِبُ الرَّجُلُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَنْ بَعْضِ النَّاسِ: إمَّا كَرَامَةً لِوَلِيٍّ وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ السِّحْرِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ: مِنْهَا مَا هُوَ حَالٌ رَحْمَانِيٌّ وَهُوَ كَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، وَمِنْهُ مَا هُوَ حَالٌ نَفْسَانِيٌّ أَوْ شَيْطَانِيٌّ كَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِ الْكُفَّارِ أَنْ يُكَاشَفَ أَحْيَانًا وَكَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِ الْكُهَّانِ أَنْ تُخْبِرَهُ الشَّيَاطِينُ بِأَشْيَاءَ. وَأَحْوَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ هِيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَحْمِلُهُ الشَّيَاطِينُ فَتَطِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْقُصُ فِي الْهَوَاءِ، وَمِنْهُمْ مِنْ يَلْبِسُهُ الشَّيْطَانُ فَلَا يُحِسُّ بِالضَّرْبِ وَلَا بِالنَّارِ إذَا أُلْقِيَ فِيهَا، لَكِنَّهَا لَا تَكُونُ عَلَيْهِ بَرْدًا

---

(١) النجم: الآية ٢٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٣٠٤)

أَوْ سَلَامًا فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا لِأَهْلِ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وَأَهْل الْإِشَارَاتِ الَّتِي هِيَ فَسَادَاتٌ مِنْ اللَّاذَنِ وَالزَّعْفَرَانِ وَمَاءِ الْوَرْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ هُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَجُمْهُورُهُمْ أَرْبَابُ حَالٍ بهتاني وَخَوَاصُّهُمْ لَهُمْ حَالٌ شَيْطَانِيٌّ، وَلَيْسَ فِيهِمْ وَلِيٌّ لِلَّهِ بَلْ هُمْ مِنْ إخْوَانِ الشَّيَاطِينِ مِنْ جِنْسِ التتر، وَلَيْسَ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ وَلَا غَيْرِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا يُقِيمُونَ هُنَاكَ، وَلَا هُنَاكَ مِنْ يَغِيبُ عَنْ أَبْصَارِ النَّاسِ دَائِمًا، وَالْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ فِي أَنَّ الْأَبْدَالَ أَرْبَعُونَ رَجُلًا حَدِيثٌ ضَعِيفٌ. فَإِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ يَزِيدُونَ وَيَنْقُصُونَ بِحَسَبِ كَثْرَةِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَبِحَسَبِ قِلَّةِ ذَلِكَ، كَانُوا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعِينَ فَلَمَّا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَّا قَطْعُ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ فَهَذَا يَكُونُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ وَيَكُونُ لِبَعْضِ إخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكَرَامَاتِ، بَلْ الَّذِي يَحُجُّ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِمَّنْ يَحُجُّ فِي الْهَوَاءِ؛ وَلِهَذَا اجْتَمَعَ الشَّيْخُ إبْرَاهِيمُ الجعبري بِبَعْضِ مَنْ كَانَ يَحُجُّ فِي الْهَوَاءِ فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَحُجَّ مَعَهُمْ فَقَالَ: هَذَا الْحَجُّ لَا يَجْزِي عَنْكُمْ حَتَّى تَحُجُّوا كَمَا يَحُجُّ الْمُسْلِمُونَ، وَكَمَا حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَوَافَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ وَقَالُوا بَعْدَ قَضَاءِ الْحَجِّ مَا حَجَجْنَا حَجَّةً أَبْرَكَ مِنْ هَذِهِ الْحَجَّةِ، ذُقْنَا فِيهَا طَعْمَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ. وَهَذَا يَكُونُ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ، لَيْسَ هَذَا لِلْإِنْسَانِ كُلَّمَا طَلَبَهُ. وَكَذَلِكَ الْمُكَاشَفَاتُ تَقَعُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَحْيَانًا مِنْ إخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْوَالُهُمْ شَيْطَانِيَّةٌ قَدْ يَأْكُلُ أَحَدُهُمْ الْمَآكِلَ الْخَبِيثَةَ حَتَّى يَأْكُلَ الْعُذْرَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ الْخَبَائِثِ بِالْحَالِ الشَّيْطَانِيِّ وَهُمْ مَذْمُومُونَ عَلَى هَذَا، فَإِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ، فَمَنْ أَكَلَ الْخَبَائِثَ كَانَتْ أَحْوَالُهُ شَيْطَانِيَّةً؛ فَإِنَّ الْأَحْوَالَ نَتَائِجُ الْأَعْمَالِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ[(١)] مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الْحَقَّ إذَا وَهَبَهُ حَالًا يَتَصَرَّفُ بِهِ وَكَشْفًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى تَصَرُّفِهِ بِهِ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ إذَا أَعْطَاهُ مُلْكًا لَمْ يُحَاسِبْهُ عَلَى تَصَرُّفِهِ فِيهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجِدِّ مِنْك الْجَدُّ}[(٢)] فَبَيَّنَ أَنَّهُ مَعَ أَنَّهُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ فَلَا يَنْفَعُ الْمَجْدُودَ جَدُّهُ إنَّمَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ ضَلَّ بِالْخَطَأِ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِكَثِيرِ مِنْ هَؤُلَاءِ إلَى أَنْ جَعَلُوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ يُقَاتِلُونَ أَنْبِيَاءَهُ وَيُعَاوِنُونَ أَعْدَاءَهُ وَأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِذَلِكَ، وَهُوَ أَمْرٌ شَيْطَانِيٌّ قَدَرِيٌّ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ: إنَّ الْكُفَّارَ لَهُمْ خُفَرَاءُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَمَا لِلْمُسْلِمِينَ خُفَرَاءُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَيَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ أَهْلَ الصُّفَّةِ قَاتَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ الْمَغَازِي فَقَالَ: يَا أَصْحَابِي تُخَلُّونِي وَتَذْهَبُونَ عَنِّي، فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ اللَّهِ مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كُنَّا مَعَهُ. وَيُجَوِّزُونَ قِتَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَقَتْلَهُمْ كَمَا قَالَ شَيْخٌ مَشْهُورٌ مِنْهُمْ كَانَ بِالشَّامِ: لَوْ قَتَلْت سَبْعِينَ نَبِيًّا مَا كُنْت مُخْطِئًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي مَشْهَدِهِمْ لِلَّهِ مَحْبُوبٌ مَرْضِيٌّ مُرَادٌ إلَّا مَا وَقَعَ، فَمَا وَقَعَ فَاَللَّهُ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَا لَمْ يَقَعْ فَاَللَّهُ لَا يُحِبُّهُ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٣٠)
(٢) رواه البخاري حديث ٧٢٩٢، ومسلم ٥٩٣.

وَلَا يَرْضَاهُ، وَالْوَاقِعُ هُوَ تَبَعُ الْقَدَرِ لِمَشِيئَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَهُمْ مَنْ غَلَبَ كَانُوا مَعَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ غَلَبَ كَانَ الْقَدَرُ مَعَهُ، وَالْمَقْدُورُ عِنْدَهُمْ هُوَ مَحْبُوبُ الْحَقِّ، فَإِذَا غَلَبَ الْكُفَّارُ كَانُوا مَعَهُمْ وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ كَانُوا مَعَهُمْ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ مَنْصُورًا كَانُوا مَعَهُ، وَإِذَا غلب أَصْحَابُهُ كَانُوا مَعَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ غَلَبُوهُمْ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ غَالِبُهُمْ لَا يَعْرِفُ وَعِيدَ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَقَرَّ بِوَعِيدِ الْآخِرَةِ وَأَنَّهُ لِلْكُفَّارِ لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَكُونَ مُعَاوِنًا لِلْكُفَّارِ مُوَالِيًا لَهُمْ عَلَى مَا يُوجِبُ وَعِيدَ الْآخِرَةِ، لَكِنْ قَدْ يَقُولُونَ بِسُقُوطِهِ مُطْلَقًا، وَقَدْ يَقُولُونَ بِسُقُوطِهِ عَمَّنْ شَهِدَ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَكَانَ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْقَدَرِيَّةِ، وَهَذَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْ شُيُوخِهِمْ كَالشَّيْخِ الْمَذْكُورِ وَغَيْرِهِ.

فَلِهَذَا يُوجَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الْقَدَرَ الْمَحْضَ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ غَيْرُهُ إِلَّا مَا هُوَ قَدَرٌ أَيْضًا مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الطَّاعَةِ، وَعُقُوبَةِ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، لَا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَا يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، بَلْ وَلَا يَدْعُونَ اللهَ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ، بَلْ إِذَا رَأَى أَحَدُهُمْ مَنْ يَدْعُوا، قَالَ الْفَقِيرُ أَوْ الْمُحَقِّقُ أَوْ الْعَارِفُ: مَا لَهُ يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيَنْصُرُ مَنْ يُرِيدُ؛ فَإِنَّ عِنْدَهُ أَنَّ الْجَمِيعَ وَاحِدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي نَصْرِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: لَا مِنْ جِهَةِ رَبِّهِ فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ عَلَى رَأْيِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بَيْنَهُمَا، وَلَا مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ فَإِنَّ حُظُوظَهُ لَا تَنْقُصُ بِاسْتِيلَاءِ الْكُفَّارِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ تَكُونُ حُظُوظُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ مَعَ اسْتِيلَاءِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالظَّالِمِينَ أَعْظَمَ، فَيَكُونُ هَوَاهُ أَعْظَمَ. وَعَامَّةُ مَنْ مَعَهُمْ مِنْ الْخُفَرَاءِ هُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، فَإِنَّ لَهُمْ حُظُوظًا يَنَالُونَهَا بِاسْتِيلَائِهِمْ لَا تَحْصُلُ لَهُمْ بِاسْتِيلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَشَيَاطِينُهُمْ تُحِبُّ تِلْكَ الْحُظُوظَ الْمَذْمُومَةَ وَتُغْرِيهِمْ بِطَلَبِهِمْ، وَتُخَاطِبُهُمْ الشَّيَاطِينُ بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَكَشْفٍ يَظُنُّونَهُ مِنْ جِهَةِ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ وَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمُكَاشَفَةِ مَا حَصَلَ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ والشيطانية؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ مَبْنِيٌّ عَلَى شُهُودِ الْفَرْقِ مِنْ جِهَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَعِنْدَهُمْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ كُلِّهَا مِنْ جِهَةِ اللهِ تَعَالَى، إِنَّمَا هُوَ مَشِيئَةٌ مَحْضَةٌ تَنَاوَلَتْ الْأَشْيَاءَ تَنَاوُلًا وَاحِدًا فَلَا يُحِبُّ شَيْئًا وَلَا يُبْغِضُ شَيْئًا.

وَلِهَذَا يَشْتَرِكُ هَؤُلَاءِ فِي جِنْسِ السَّمَاعِ الَّذِي يُثِيرُ مَا فِي النُّفُوسِ مِنْ الْحُبِّ وَالْوَجْدِ وَالذَّوْقِ؛ فَيُثِيرُ مِنْ قَلْبِ كُلِّ أَحَدٍ حُبَّهُ وَهَوَاهُ وَأَهْوَاؤُهُمْ مُتَفَرِّقَةٌ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى مَحَبَّةِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ إِذْ كَانَ مَحْبُوبَ الْحَقِّ -عَلَى أَصْلِ قَوْلِهِمْ- هُوَ مَا قَدَّرَهُ فَوَقَعَ، وَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَهْوَاؤُهُمْ فِي الْوَجْدِ اخْتَلَفَتْ أَهْوَاءُ شَيَاطِينِهِمْ، فَقَدْ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِشَيَاطِينِهِ؛ لِأَنَّهَا أَقْوَى مِنْ شَيَاطِينِ ذَاكَ، وَقَدْ يَسْلُبُهُ مَا مَعَهُ مِنْ الْحَالِ الَّذِي هُوَ التَّصَرُّفُ وَالْمُكَاشَفَةُ الْحَاصِلَةُ لَهُ بِسَبَبِ شَيَاطِينِهِمْ؛ فَتَكُونُ شَيَاطِينُهُ هَرَبَتْ مِنْ شَيَاطِينِ ذَلِكَ فَيَضْعُفُ أَمْرُهُ وَيُسْلَبُ حَالُهُ؛ كَمَنْ كَانَ مَلِكًا لَهُ أَعْوَانٌ فَأُخِذَتْ أَعْوَانُهُ؛ فَيَبْقَى ذَلِيلًا لَا مُلْكَ لَهُ. فَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ كَالْمُلُوكِ الظَّلَمَةِ الَّذِينَ يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا: إِمَّا مَقْتُولٌ، وَإِمَّا مَأْسُورٌ، وَإِمَّا مَهْزُومٌ. فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَأْسِرُ غَيْرَهُ فَيَبْقَى تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلُبُهُ غَيْرُهُ فَيَبْقَى لَا حَالَ لَهُ كَالْمَلِكِ الْمَهْزُومِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ تَفْرِيعِ أَصْلِ الجهمية الْغُلَاةِ فِي الْجَبْرِ فِي الْقَدَرِ، وَإِنَّمَا يَخْلُصُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ مَحَبَّتَهُ لِبَعْضِ الْأُمُورِ

وَبُغْضَهُ لِبَعْضِهَا، وَغَضَبًا مِنْ بَعْضِهَا وَفَرَحًا بِبَعْضِهَا وَسُخْطًا لِبَعْضِهَا، كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَنَطَقَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَشْهَدُ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ: أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَيُعْبَدُ اللَّهُ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَعِبَادَتُهُ تَجْمَعُ كَمَالَ مَحَبَّتِهِ وَكَمَالَ الذُّلِّ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾(١) فَيُنِيبُ قَلْبُهُ إِلَى اللَّهِ وَيُسْلِمُ لَهُ وَيَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾(٢) وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا نَهَى عَنْهُ فَإِنَّهُ يَبْغُضُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ وَيَمْقُتُ عَلَيْهِ وَيَسْخَطُ عَلَى فَاعِلِهِ، فَصَارَ يُشْهِدُ الْفَرْقَ مِنْ جِهَةِ الْحَقِّ تَعَالَى، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُبْغِضُ مَنْ يَجْعَلُ لَهُ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ كَمُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَدَرِيَّةَ الْجَبْرِيَّةَ الجهمية أَهْلَ الْفَنَاءِ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣)

---

(١) الزمر: الآية ٥٤.
(٢) النساء: الآية ١٢٥.
(٣) الأنعام: الآية ١٤٨.

المبحث الثاني

فقه المغيبات وعلم الله:

قال شيخ الإسلام(١): وَأَمَّا خَوَاصُّ النَّاسِ فَقَدْ يَعْلَمُونَ عَوَاقِبَ أَقْوَامٍ بِمَا كَشَفَ اللَّهُ لَهُمْ، لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِمَّنْ يَجِبُ التَّصْدِيقُ الْعَامُّ بِهِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَظُنُّ بِهِ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ هَذَا الْكَشْفُ يَكُونُ ظَانًّا فِي ذَلِكَ ظَنًّا لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا، وَأَهْلُ الْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُخَاطَبَاتِ يُصِيبُونَ تَارَةً وَيُخْطِئُونَ أُخْرَى، كَأَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ؛ وَلِهَذَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ جَمِيعُهُمْ أَنْ يَعْتَصِمُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَأَنْ يَزِنُوا مَوَاجِيدَهُمْ وَمُشَاهَدَتَهُمْ وَآرَاءَهُمْ وَمَعْقُولَاتِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلَا يَكْتَفُوا بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، فَإِنَّ سَيِّدَ الْمُحَدَّثِينَ وَالْمُخَاطَبِينَ الْمُلْهَمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؛ وَقَدْ كَانَتْ تَقَعُ لَهُ وَقَائِعُ فَيَرُدُّهَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ صَدِيقُهُ التَّابِعُ لَهُ الْآخِذُ عَنْهُ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ مِنْ الْمُحَدَّثِ الَّذِي يُحَدِّثُهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ.

وَلِهَذَا وَجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ وَطَاعَتُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِيهِ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَحْتَاجُ إلَى عَرْضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَكَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنْ الرَّسُولِ ﷺ فِي بَعْضِ دِينِهِ. وَهَذَا مِنْ أَقْوَالِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَعَ الرَّسُولِ كَالْخَضِرِ مَعَ مُوسَى، وَمَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ كَافِرٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلرَّسُولِ وَلِلنَّبِيِّ أَنْ يَنْسَخَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ وَلَمْ يَضْمَنْ ذَلِكَ لِلْمُحَدَّثِ؛ وَلِهَذَا كَانَ فِي الْحَرْفِ الْآخَرِ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مُحَدَّثٍ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، وَيُحْتَمَلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَلَّا يَكُونَ هَذَا الْحَرْفُ مَتْلُوًّا حَيْثُ لَمْ يَضْمَنْ نَسْخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ الْمُحَدَّثِ؛ فَإِنَّ نَسْخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ لَيْسَ إلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ إذْ هُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسْتَقِرَّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ إلْقَاءِ الشَّيْطَانِ، وَغَيْرِهِمْ لَا تَجِبُ عِصْمَتُهُ مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ أَلَّا يَكُونُوا مُخْطِئِينَ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ خَطَأً مَغْفُورًا لَهُمْ، بَلْ وَلَا مِنْ شَرْطِهِمْ تَرْكُ الصَّغَائِرِ مُطْلَقًا، بَلْ وَلَا مِنْ شَرْطِهِمْ تَرْكُ الْكَبَائِرِ أَوْ الْكُفْرُ الَّذِي تَعْقُبُهُ التَّوْبَةُ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢) فَقَدْ وَصَفَهُمْ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ هُمْ الْمُتَّقُونَ. وَالْمُتَّقُونَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَمَعَ هَذَا فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَان، وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ الْغَالِيَةُ مِنْ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٤٥٥)

(٢) الزمر: الآية ٣٣:٣٥.

الرَّافِضَةِ وَأَشْبَاهُ الرَّافِضَةِ مِنْ الْغَالِيَةِ فِي بَعْضِ الْمَشَايِخِ وَمَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ. فَالرَّافِضَةُ تَزْعُمُ أَنَّ "الِاثْنَيْ عَشَرَ" مَعْصُومُونَ مِنْ الْخَطَأِ وَالذَّنْبِ، وَيَرَوْنَ هَذَا مِنْ أُصُولِ دِينِهِمْ وَالْغَالِيَةُ، فِي الْمَشَايِخِ قَدْ يَقُولُونَ: إنَّ الْوَلِيَّ مَحْفُوظٌ وَالنَّبِيَّ مَعْصُومٌ. وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ إنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ فَحَالُهُ حَالُ مَنْ يَرَى أَنَّ الشَّيْخَ وَالْوَلِيَّ لَا يُخْطِئُ وَلَا يُذْنِبُ. وَقَدْ بَلَغَ الْغُلُوُّ بِالطَّائِفَتَيْنِ إلَى أَنْ يَجْعَلُوا بَعْضَ مَنْ غَلَوْا فِيهِ بِمَنْزِلَةِ النَّبِيِّ وَأَفْضَلَ مِنْهُ، وَإِنْ زَادَ الْأَمْرُ جَعَلُوا لَهُ نَوْعًا مِنْ الْإِلَهِيَّةِ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ الضَّلَالَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُضَاهِيَةِ لِلضَّلَالَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ. فَإِنَّ فِي النَّصَارَى مِنْ الْغُلُوِّ فِي الْمَسِيحِ وَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ مَا ذَمَّهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ عِبْرَةً لَنَا لِئَلَّا نَسْلُكَ سَبِيلَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ: {لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ}[1] وتكلم عن ضلال الاتحادية ورد عليهم بالشرع والعقل ثم قال: وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ مَا كَانَ يَقُولُهُ التلمساني: إنَّهُ ثَبَتَ عِنْدَنَا فِي الْكَشْفِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعَقْلِ. وَيَقُولُونَ: مَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ (يَعْنِي تَحْقِيقَهُمْ) فَلْيَتْرُكْ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ. وَقَدْ قُلْت لِمَنْ خَاطَبْته مِنْهُمْ: وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَشْفَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْظَمُ وَأَتَمُّ مِنْ كَشْفِ غَيْرِهِمْ وَخَبَرَهُمْ أَصْدَقُ مِنْ خَبَرِ غَيْرِهِمْ، وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ يُخْبِرُونَ بِمَا تَعْجِزُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، لَا بِمَا يَعْرِفُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ أَنَّهُ مُمْتَنِعٌ، فَيُخْبِرُونَ بِمَحَارَاتِ الْعُقُولِ لَا بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي إخْبَارِ الرَّسُولِ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الْعُقُولِ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَتَعَارَضَ دَلِيلَانِ قَطْعِيَّانِ: سَوَاءٌ كَانَا عَقْلِيَّيْنِ أَوْ سَمْعِيَّيْنِ، أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا عَقْلِيًّا وَالْآخَرُ سَمْعِيًّا، فَكَيْفَ بِمَنْ ادَّعَى كَشْفًا يُنَاقِضُ صَرِيحَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ؟ وَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ لَكِنْ يُخَيَّلُ لَهُمْ أَشْيَاءُ تَكُونُ فِي نُفُوسِهِمْ وَيَظُنُّونَهَا فِي الْخَارِجِ وَأَشْيَاءَ يَرَوْنَهَا تَكُونُ مَوْجُودَةً فِي الْخَارِجِ لَكِنْ يَظُنُّونَهَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ وَتَكُونُ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْوَحْدَةِ قَدْ يُقَدِّمُونَ الْأَوْلِيَاءَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَمْ تَنْقَطِعْ كَمَا يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ سَبْعِينَ وَغَيْرِهِ.

فَصْلٌ[2]: فِي الْكَوْنِ يَقْظَةً وَمَنَامًا: لَمَّا كَانَتْ الرُّؤْيَةُ بِالْعَيْنِ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: رُؤْيَةُ الْعَيْنِ الشَّيْءَ بِلَا وَاسِطَةٍ وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْمُطْلَقَةُ، مِثْلُ رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {إنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}[3] وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ هَلْ الرُّؤْيَةُ انْطِبَاعُ الْمَرْئِيِّ فِي الْعَيْنِ أَوْ لِانْعِكَاسِ شُعَاعِ الْبَصَرِ أَوْ لَا لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ.

وَالثَّانِي: رُؤْيَةُ الْمِثَالِ وَهِيَ الرُّؤْيَةُ فِي مَاءٍ وَمِرْآةٍ وَنَحْوِهِمَا. وَهِيَ رُؤْيَةٌ مُقَيَّدَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ: لَوْ حَلَفَ لَا رَأَيْت زَيْدًا فَرَأَى صُورَتَهُ فِي مَاءٍ أَوْ مِرْآةٍ لَمْ يَحْنَثْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ مُطْلَقِ الرُّؤْيَةِ، وَهَذَا فِي الرُّؤْيَةِ كَسَمَاعِ الصَّدَى فِي السَّمْعِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَى مَا يَمُرُّ وَرَاءَهُ مِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ نَظَرَ فِي

(١) صحيح البخاري ٣٤٤٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤٩١)
(٣) البخاري ٦٥٧٣، ومسلم ٢٩٦٨.

الْمِرْآةِ الَّتِي تُوَاجِهُهُ فَتَنْجَلِي لَهُ فِيهَا حَقَائِقُ مَا وَرَاءَهُ، فَمِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا قَدْ يَرَى بَيَانَ الْحَقِيقَةِ وَقَدْ تَتَمَثَّلُ لَهُ الْحَقِيقَةُ بِمِثَالٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَحْقِيقٍ، كَمَا تَمَثَّلَ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ، وَهَكَذَا الْقَلْبُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبْصِرَ فَإِنَّ بَصَرَهُ هُوَ الْبَصَرُ وَعَمَاهُ هُوَ الْعَمَى . كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] فَتَارَةً يَرَى الشَّيْءَ نَفْسَهُ إِذَا كُشِفَ لَهُ عَنْهُ، وَتَارَةً يَرَاهُ مُتَمَثِّلًا فِي قَلْبِهِ الَّذِي هُوَ مِرْآتُهُ وَالْقَلْبُ هُوَ الرَّائِي أَيْضًا. وَهَذَا يَكُونُ يَقَظَةً وَيَكُونُ مَنَامًا، كَالرَّجُلِ يَرَى الشَّيْءَ فِي الْمَنَامِ ثُمَّ يَكُونُ إِيَّاهُ فِي الْيَقَظَةِ مِنْ غَيْرِ تَغَيُّرٍ.

وَلِلْقَلْبِ حَالٌ ثَالِثَةٌ كَمَا لِلْعَيْنِ نَظَرٌ فِي الْمَنَامِ: وَهِيَ الَّتِي تَقَعُ لِغَالِبِ الْخَلْقِ. أَنْ يَرَى الرُّؤْيَا مَثَلًا مَضْرُوبًا لِلْحَقِيقَةِ لَا يَضْبُطُ رُؤْيَةَ الْحَقِيقَةِ بِنَفْسِهَا وَلَا بِوَاسِطَةِ مِرْآةِ قَلْبِهِ. وَلَكِنْ يَرَى مَا لَهُ تَعْبِيرٌ فَيَعْتَبِرُ بِهِ وَعِبَارَةُ الرُّؤْيَا هُوَ الْعُبُورُ مِنْ الشَّيْءِ إِلَى مِثَالِهِ وَنَظِيرِهِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْمُقَايَسَةِ وَالِاعْتِبَارِ؛ فَإِنَّ إِدْرَاكَ الشَّيْءِ بِالْقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ الَّذِي أَلِفَهُ الْإِنْسَانُ وَاعْتَادَهُ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِ شَيْءٍ عَلَى الْبَدِيهَةِ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ مَعْرُوفٍ. ثُمَّ الْمَرْئِيُّ فِي هَذَا الْوَجْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَفِي الْحَالِ الَّتِي قَبْلَهَا، هُوَ مَوْجُودٌ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَنَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ مَثَلًا لِلْحَقِيقَةِ وَوَاسِطَةً لَهَا. وَالْمَرْئِيُّ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: هُوَ عَيْنُ الْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ لَا مَرْئِيٌّ فِي الْقَلْبِ، وَمِنْ الْعَامَّةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ مَا يَسْمَعُهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ الْكَلَامِ وَيَرَوْنَهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ، إِنَّمَا وُجُودُهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَذَلِكَ مَبْلَغُ هَؤُلَاءِ مِنْ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ غَايَةُ مَا وَجَدُوهُ وَرَأَوْهُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ، فَظَنُّوا أَنْ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ غَايَةٌ. وَقَدْ يُعَارِضُهُمْ مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ مَا يُسْمَعُ وَيُرَى لَا يَكُونُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ بَلْ جَمِيعُهُ مِنْ الْخَارِجِ، وَكِلَاهُمَا خَطَأٌ، بَلْ مِنْهُ مَا يَكُونُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ: مِثْلُ مَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ فِي الْمَنَامِ إِمَّا مِثَالًا لَا تَعْبِيرَ لَهُ أَوْ لَهُ تَعْبِيرٌ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي الْخَارِجِ مِثْلُ رُؤْيَةِ مَرْيَمَ لِلرَّسُولِ إِذْ تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، وَرُؤْيَةِ الصَّحَابَةِ لِجِبْرِيلَ فِي صُورَةِ الْأَعْرَابِيِّ.

فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ رُؤْيَةَ الْحَقَائِقِ بِالْعَيْنِ تُطَابِقُ لِرُؤْيَاهَا بِالْقَلْبِ، كُلٌّ مِنْهُمَا ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ إِدْرَاكُ الْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ بِعَيْنِهِ، وَإِدْرَاكُهُ بِوَاسِطَةِ تَمَثُّلِهِ فِي مِرْآةٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ، وَإِدْرَاكُهُ مُتَمَثِّلًا فِي غَيْرِ صُورَتِهِ: إِمَّا بَاطِنًا فِي الْقَلْبِ وَإِمَّا ظَاهِرًا فِي الْعَيْنِ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ. فَالْقِيَاسُ فِي الْحِسِّيَّاتِ كَالْقِيَاسِ فِي الْعَقْلِيَّاتِ، وَهَذَا الَّذِي كَتَبْته فِي الْمُكَاشَفَاتِ يَجِيءُ مِثْلُهُ فِي الْمُخَاطَبَاتِ، فَإِنَّ الْبَصَرَ وَالسَّمْعَ يُظْهِرَانِ مَا يَتْلُوهُ.

---

(١) الحج: الآية ٤٦.

الفصل الحادي عشر
قواعد النجاة من الكهانة عند شيخ الإسلام

إنّ الشرك مصيدة من ينجو منها نجا من كل عظيمة، ولما كانت الكهانة من الشرك فقد ذكر شيخ الإسلام كثيراً من القواعد والأسباب والوسائل التي ينجو بها العبد بإذن ربه من هذه الشبكة المهلكة، وسنوجز ذلك فيما يلي:

١- التوحيد وإخلاص العمل لله وأن تعلم أنّ غيرك أجهل بمصالحك منك:

قال شيخ الإسلام[١]: فَهَذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْوَجْهِ وَالْعَمَلِ لَهُ، عِبَادَةً وَاسْتِعَانَة... إلى أن يقول: جِمَاعُ هَذَا أَنَّكَ أَنْتَ إذَا كُنْتَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَصْلَحَتِكَ وَلَا قَادِرٍ عَلَيْهَا وَلَا مُرِيدٍ لَهَا كَمَا يَنْبَغِي، فَغَيْرُكَ مِنْ النَّاسِ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ عَالِمًا بِمَصْلَحَتِكَ وَلَا قَادِرًا عَلَيْهَا وَلَا مُرِيدًا لَهَا، وَاَللَّهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا تَعْلَمُ، وَيَقْدِرُ وَلَا تَقْدِرُ، وَيُعْطِيكَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الِاسْتِخَارَةِ: {اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ...} [٢]

تعليق: فلا أنجح لك ولا أدرك لحاجتك من تعلقك بالله تعالى الذي يعلم كل شيء، وإذا كنت أنت وأنت أحرص الناس على نفع نفسك، وأبصر بما يصلحها، وأخبر بما أنت ماهر فيه، لا تملك لها نفعاً ولا ضراً، فالحاجة تقضي بتعليق قلبك بعلام الغيوب، أما الكاهن فهو أعجز منك وأجهل منك بمصلحتك، كما أنه ليس حريصاً عليك إلا بقدر ما يستفيد منك، ثم إنّ الشيطان الذي هو وراء الكاهن أجهل وأعجز، بل هو ساعٍ في ضرك ما استطاع وساع في هلاكك ما استطاع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٤] ثم إذا أعلمك الكاهن بخبر الشيطان ببعض الغيب النسبي فلا تقدر على جلب الخير لنفسك، ولا لدفع الضر عنها إلا بإذن الله؛ ولذا وجّه شيخ الإسلام العبد إلى دعاء الاستخارة الجامع للخير له، فقد يدل الكاهن على حصول خير ولكن هل يستطيع تيسيره؟ كلا، لكن الرب هو القدير على ذلك قال: {إن كنت تعلم أن هذا الأمر -ويسميه باسمه من زواج أو سفر أو غيرهما- خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فيسّره لي} ثم إذا دلّ الكاهن على حصول شر فهل يقدر على صرفه؟ كلا، بل غاية أمره الخبر بما يخبره به الشيطان، أما المولى الجليل

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص٣)
(٢) سبق تخريجه.
(٣) يس: الآية ٣٦.
(٤) فاطر: الآية ٣٦.

فتأمل كلام إمام الأنبياء وسيد الحنفاء ﷺ: {وإن كنت تعلم أنّ هذا الأمر شر في ديني فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به وبارك لي فيه} من يقدر على ذلك إلا الله ومن يعلم الخير بتفاصيله إلا هو، ويقدر على الإتيان به، ومن يعلم الشر بتفاصيله ويقدر على صرفه إلا هو تبارك وتعالى، وهذا مما يصرف العبد عن التعلق بذلك الكاهن الجاهل الضعيف.

٢- إياك نعبد وإياك نستعين وأثرها في النجاة من الكهانة:

قال شيخ الإسلام: وَهُوَ مِثْلُ الْمُقَدِّمَةِ لِهَذَا الَّذِي أَمَامَهُ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ إنْسَانٍ فَهُوَ هَمَّامٌ حَارِثٌ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ، بَلْ كُلُّ حَيٍّ فَهُوَ كَذَلِكَ لَهُ عِلْمٌ وَعَمَلٌ بِإِرَادَتِهِ. وَالْإِرَادَةُ هِيَ الْمَشِيئَةُ وَالِاخْتِيَارُ، وَلَا بُدَّ فِي الْعَمَلِ الْإِرَادِيِّ الِاخْتِيَارِيِّ مِنْ مُرَادٍ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَلَا يَحْصُلُ الْمُرَادُ إلَّا بِأَسْبَابٍ وَوَسَائِلَ تُحَصِّلُهُ،

فَإِنْ حَصَلَ بِفِعْلِ الْعَبْدِ فَلَا بُدَّ مِنْ قُدْرَةٍ وَقُوَّةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ خَارِجٍ فَلَا بُدَّ مِنْ فَاعِلٍ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ فَلَا بُدَّ مِنْ الْأَسْبَابِ كَالْآلَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ إرَادَةٍ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُرِيدٍ مِنْ عَوْنٍ يَحْصُلُ بِهِ مُرَادُهُ. فَصَارَ الْعَبْدُ مَجْبُولًا عَلَى أَنْ يَقْصِدَ شَيْئًا وَيُرِيدَهُ، وَيَسْتَعِينَ بِشَيْءٍ وَيَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي تَحْصِيلِ مُرَادِهِ، هَذَا أَمْرٌ حَتْمٌ لَازِمٌ ضَرُورِيٌّ فِي حَقِّ كُلِّ إنْسَانٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ. لَكِنَّ الْمُرَادَ وَالْمُسْتَعَانَ عَلَى قِسْمَيْنِ: مِنْهُ مَا يُرَادُ لِغَيْرِهِ، وَمِنْهُ مَا يُرَادُ لِنَفْسِهِ. وَالْمُسْتَعَانُ مِنْهُ مَا هُوَ الْمُسْتَعَانُ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ تَبَعٌ لِلْمُسْتَعَانِ وَآلَةٌ لَهُ، فَمِنْ الْمُرَادِ مَا يَكُونُ هُوَ الْغَايَةَ الْمَطْلُوبَ، فَهُوَ الَّذِي يَذِلُّ لَهُ الطَّالِبُ وَيُحِبُّهُ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَقْصُودُ، وَمِنْهُ مَا يُرَادُ لِغَيْرِهِ وَهُوَ بِحَيْثُ يَكُونُ الْمُرَادُ هُوَ ذَلِكَ الْغَيْرَ، فَهَذَا مُرَادٌ بِالْعَرَضِ.

وَمِنْ الْمُسْتَعَانِ مَا يَكُونُ هُوَ الْغَايَةَ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَعْتَضِدُ بِهِ، لَيْسَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ غَايَةٌ فِي الِاسْتِعَانَةِ. وَمِنْهُ مَا يَكُونُ تَبَعًا لِغَيْرِهِ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْضَاءِ مَعَ الْقَلْبِ، وَالْمَالِ مَعَ الْمَالِكِ، وَالْآلَاتِ مَعَ الصَّانِعِ.

فَإِذَا تَدَبَّرَ الْإِنْسَانُ حَالَ نَفْسِهِ وَحَالَ جَمِيعِ النَّاسِ وَجَدَهُمْ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ:

لَا بُدَّ لِلنَّفْسِ مِنْ شَيْءٍ تَطْمَئِنُّ إلَيْهِ وَتَنْتَهِي إلَيْهِ مَحَبَّتُهَا، وَهُوَ إلَهُهَا.

وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ شَيْءٍ تَثِقُ بِهِ وَتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي نَيْلِ مَطْلُوبِهَا هُوَ مُسْتَعَانُهَا، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ. وَإِذًا فَقَدْ يَكُونُ عَامًّا وَهُوَ الْكُفْرُ، كَمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ مُطْلَقًا، وَسَأَلَ غَيْرَ اللَّهِ مُطْلَقًا، مِثْلَ عُبَّادِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ الْحَاجَاتِ، وَيَفْزَعُونَ إلَيْهِمْ فِي النَّوَائِبِ. وَقَدْ يَكُونُ خَاصًّا فِي الْمُسْلِمِينَ، مِثْلَ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ الْمَالِ أَوْ حُبُّ شَخْصٍ أَوْ حُبُّ الرِّيَاسَةِ، حَتَّى صَارَ عَبْدَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ ﷺ: {تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ. تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ. تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ. تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ. تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ}[1] وَكَذَلِكَ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الثِّقَةُ بِجَاهِهِ وَمَالِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَهُ مَخْدُومُهُ مِنْ الرُّؤَسَاءِ وَنَحْوِهِمْ، أَوْ خَادِمُهُ مِنْ الْأَعْوَانِ وَالْأَجْنَادِ وَنَحْوِهِمْ، أَوْ

---

(١) رواه البخاري حديث ٢٨٨٧.

أَصْدِقَائِهِ أَوْ أَمْوَالِهِ هِيَ الَّتِي تَجْلِبُ الْمَنْفَعَةَ الْفُلَانِيَّةَ وَتَدْفَعُ الْمَضَرَّةَ الْفُلَانِيَّةَ، فَهُوَ مُعْتَمِدٌ عَلَيْهَا وَمُسْتَعِينٌ بِهَا وَالْمُسْتَعَانُ هُوَ مَدْعُوٌّ وَمَسْئُولٌ. وَمَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَلْزِمُ الْعِبَادَةُ الِاسْتِعَانَةَ، فَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ فِي رِزْقِهِ وَنَصْرِهِ وَنَفْعِهِ وَضُرِّهِ، خَضَعَ لَهُ وَذَلَّ وَانْقَادَ وَأَحَبَّهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَإِنْ لَمْ يُحِبَّهُ لِذَاتِهِ لَكِنْ قَدْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْحَالُ حَتَّى يُحِبَّهُ لِذَاتِهِ، وَيَنْسَى مَقْصُودَهُ مِنْهُ، كَمَا يُصِيبُ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحِبُّ الْمَالَ أَوْ يُحِبُّ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ الْعِزُّ وَالسُّلْطَانُ. وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّهُ الْقَلْبُ وَأَرَادَهُ وَقَصَدَهُ، فَقَدْ لَا يَسْتَعِينُهُ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ إلَّا إذَا اسْتَشْعَرَ قُدْرَتَهُ عَلَى تَحْصِيلِ مَطْلُوبِهِ، كَاسْتِشْعَارِ الْمُحِبِّ قُدْرَةَ الْمَحْبُوبِ عَلَى وَصْلِهِ، فَإِذَا اسْتَشْعَرَ قُدْرَتَهُ عَلَى تَحْصِيلِ مَطْلُوبِهِ اسْتَعَانَهُ وَإِلَّا فَلَا، فَالْأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ: فَقَدْ يَكُونُ مَحْبُوبًا غَيْرَ مُسْتَعَانٍ، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَعَانًا غَيْرَ مَحْبُوبٍ، وَقَدْ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَمْرَانِ.

فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ مِنْ مُنْتَهًى يَطْلُبُهُ هُوَ إلَهُهُ، وَمُنْتَهًى يُطْلَبُ مِنْهُ هُوَ مُسْتَعَانُهُ، وَذَلِكَ هُوَ صَمَدُهُ الَّذِي يَصْمُدُ إلَيْهِ فِي اسْتِعَانَتِهِ وَعِبَادَتِهِ -تَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كَلَامٌ جَامِعٌ مُحِيطٌ أَوَّلًا وَآخِرًا، لَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ، فَصَارَتْ الْأَقْسَامُ أَرْبَعَةً:

- إمَّا أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَسْتَعِينَهُ -وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا- فَالشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ.
- وَإِمَّا أَنْ يَعْبُدَهُ وَيَسْتَعِينَ غَيْرَهُ، مِثْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، يَقْصِدُونَ طَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَخْضَعُ قُلُوبُهُمْ لِمَنْ يَسْتَشْعِرُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ وَهِدَايَتَهُمْ، مِنْ جِهَتِهِ مِنْ الْمُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَالْمَشَايِخِ .
- وَإِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَهُ -وَإِنْ عَبَدَ غَيْرَهُ- مِثْلُ كَثِيرٍ مِنْ ذَوِي الْأَحْوَالِ وَذَوِي الْقُدْرَةِ وَذَوِي السُّلْطَانِ الْبَاطِنِ أَوْ الظَّاهِرِ، وَأَهْلِ الْكَشْفِ وَالتَّأْثِيرِ الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَهُ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ وَيَسْأَلُونَهُ وَيَلْجَئُونَ إلَيْهِ، لَكِنَّ مَقْصُودَهُمْ غَيْرُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَغَيْرُ اتِّبَاعِ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ.

وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ: الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إلَّا إيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُونَ إلَّا بِهِ، وَهَذَا الْقِسْمُ الرُّبَاعِيُّ قَدْ ذُكِرَ فِيمَا بَعْدُ أَيْضًا، لَكِنَّهُ تَارَةً يَكُونُ بِحَسَبِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِحَسَبِ الْمُسْتَعَانِ، فَهُنَا هُوَ بِحَسَبِ الْمَعْبُودِ وَالْمُسْتَعَانِ؛ لِبَيَانِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ مَعْبُودٍ مُسْتَعَانٍ، وَفِيمَا بَعْدُ بِحَسَبِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَاسْتِعَانَتِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ فِيهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ.

٣- التوكل على الله وأثره في النجاة من الكهانة:

وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ دَائِمًا إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ كَمَا هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى عِبَادَتِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْهَدَ دَائِمًا فَقْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَحَاجَتَهُ فِي أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا لَهُ وَأَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللَّهِ وَلَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ.[١]

وقال رحمه الله[٢]: فَالتَّوْحِيدُ ضِدُّ الشِّرْكِ، فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ فَعَبَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا كَانَ مُوَحِّدًا. وَمِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ: التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ لَهُ وَالْخَوْفُ مِنْهُ، فَهَذَا يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ الشِّرْكِ، وَإِعْطَاءُ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَتَرْكُ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَمِنْ الشِّرْكِ بِهِمْ، وَبِطَاعَةِ رَبِّهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ يَخْلُصُ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: {قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ}[٣]

فَالنِّصْفَانِ يَعُودُ نَفْعُهُمَا إِلَى الْعَبْدِ، وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الطبراني فِي الدُّعَاءِ: {يَا عِبَادِي، إنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ: وَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَك وَوَاحِدَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِي، فَالَّتِي لِي: تَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا. وَالَّتِي لَك: عَمَلُك أَجْزِيك بِهِ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ. وَالَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَك: فَمِنْك الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ. وَالَّتِي بَيْنَك وَبَيْنَ خَلْقِي: فَأْتِ إِلَيْهِمْ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتُوهُ إلَيْك}[٤]وَاَللَّهُ يُحِبُّ النِّصْفَيْنِ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَمَا يُعْطِيهِ اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْ الْإِعَانَةِ وَالْهِدَايَةِ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ إنَّمَا يُحِبُّهُ لِكَوْنِهِ طَرِيقًا إِلَى عِبَادَتِهِ، وَالْعَبْدُ يَطْلُبُ مَا يَحْتَاجُ أَوَّلًا، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْإِعَانَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَإِلَى الْهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَبِذَلِكَ يَصِلُ إِلَى الْعِبَادَةِ. فَهُوَ يَطْلُبُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوَّلًا لِيَتَوَسَّلَ بِهِ إِلَى مَحْبُوبِ الرَّبِّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُ. كَذَلِكَ قَوْلُهُ: {عَمَلُكَ أَجْزِيك بِهِ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ}[٥] فَإِنَّهُ يُحِبُّ الثَّوَابَ الَّذِي هُوَ جَزَاءُ الْعَمَلِ فَالْعَبْدُ إنَّمَا يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ثُمَّ إذَا طَلَبَ الْعِبَادَةَ فَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ نَافِعَةٌ لَهُ مُحَصِّلَةٌ لِسَعَادَتِهِ مُحَصِّنَةٌ لَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ، فَلَا يَطْلُبُ الْعَبْدُ قَطُّ إِلَّا مَا فِيهِ حَظٌّ لَهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّبُّ يُحِبُّ ذَلِكَ فَهُوَ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُلَائِمٌ لَهُ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا أَحَبَّهُ وَأَثَابَهُ؛ فَيَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مَا يُحِبُّهُ مِنْ النِّعَمِ تَبَعًا لِمَحْبُوبِ الرَّبِّ، وَهَذَا كَالْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي، الْبَائِعُ يُرِيدُ مِنْ الْمُشْتَرِي أَوَّلًا الثَّمَنَ وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ إرَادَةُ تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ، وَالْمُشْتَرِي يُرِيدُ السِّلْعَةَ وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ إرَادَةُ إعْطَاءِ الثَّمَنِ. فَالرَّبُّ يُحِبُّ أَنْ يُحَبَّ، وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يُحِبَّ مَنْ لَا تَحْصُلُ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِهِ، وَالْعَبْدُ يُحِبُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَنْتَفِعُ بِهِ وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ مَحَبَّتُهُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَأَحْسَنَ إِلَى النَّاسِ فَهَذَا قَائِمٌ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِ اللَّهِ فِي إخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَمَنْ طَلَبَ مِنْ الْعِبَادِ الْعِوَضَ ثَنَاءً أَوْ دُعَاءً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُحْسِنًا إلَيْهِمْ لِلَّهِ، وَمَنْ خَافَ اللَّهَ فِيهِمْ وَلَمْ يَخَفْهُمْ فِي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص٧)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص٧)
(٣) رواه مسلم حديث ٣٩٥.
(٤) أخرجه أبو يعلى ٢٧٥٧، وهو ضعيف.
(٥) رواه الطبراني في الدعاء حديث ١٢

اللهِ كَانَ مُحْسِنًا إِلَى الْخَلْقِ وَإِلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ خَوْفَ اللهِ يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ حَقَّهُمْ وَيَكُفَّ عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَمَنْ خَافَهُمْ وَلَمْ يَخَفْ اللهَ فَهَذَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَلَهُمْ حَيْثُ خَافَ غَيْرَ اللهِ وَرَجَاهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَافَهُمْ دُونَ اللهِ احْتَاجَ أَنْ يَدْفَعَ شَرَّهُمْ عَنْهُ بِكُلِّ وَجْهٍ: إِمَّا بِمُدَاهَنَتِهِمْ وَمُرَاءَاتِهِمْ، وَإِمَّا بِمُقَابَلَتِهِمْ بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ شَرِّهِمْ أَوْ مِثْلِهِ، وَإِذَا رَجَاهُمْ لَمْ يَقُمْ فِيهِمْ بِحَقِّ اللهِ، وَهُوَ إِذَا لَمْ يَخَفْ اللهَ فَهُوَ مُخْتَارٌ لِلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ الظُّلْمُ لِمَنْ لَا يَظْلِمُهَا فَكَيْفَ بِمَنْ يَظْلِمُهَا؟ فَتَجِدُ هَذَا الضَّرْبَ كَثِيرَ الْخَوْفِ مِنْ الْخَلْقِ كَثِيرَ الظُّلْمِ إِذَا قَدَرَ، مَهِينًا ذَلِيلًا إِذَا قُهِرَ، فَهُوَ يَخَافُ النَّاسَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مِمَّا يُوقِعُ الْفِتَنَ بَيْنَ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ إِذَا رَجَاهُمْ فَهُمْ لَا يُعْطُونَهُ مَا يَرْجُوهُ مِنْهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْغِضَهُمْ فَيَظْلِمَهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ خَائِفًا مِنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي النَّاسِ: تَجِدُهُمْ يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَرْجُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ يَتَظَلَّمُ مِنْ الْآخَرِ وَيَطْلُبُ ظُلْمَهُ، فَهُمْ ظَالِمُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَالِمُونَ فِي حَقِّ اللهِ؛ حَيْثُ خَافُوا غَيْرَهُ وَرَجَوْا غَيْرَهُ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي تُعَذَّبُ النَّفْسُ بِهَا وَعَلَيْهَا، وَهُوَ يَجُرُّ إِلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي الْمُخْتَصَّةِ كَالشِّرْكِ وَالزِّنَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَخَفْ مِنْ اللهِ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ طَالِبًا مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ، فَإِنَّ نَفْسَهُ تَبْقَى طَالِبَةً لِمَا تَسْتَرِيحُ بِهِ وَتَدْفَعُ بِهِ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ عَنْهَا وَلَيْسَ عِنْدَهَا مِنْ ذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ مَا تَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ وَبِهِ، فَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ: مِنْ فِعْلِ الْفَوَاحِشِ وَشُرْبِ الْمُحَرَّمَاتِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَذِكْرِ مجريات النَّفْسِ وَالْهَزْلِ وَاللَّعِبِ وَمُخَالَطَةِ قُرَنَاءِ السُّوءِ وَغَيْرِ ذَلِك، وَلَا يَسْتَغْنِي الْقَلْبُ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُحْتَاجًا إِلَى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَنَفْسُهُ مُرِيدَةٌ دَائِمًا وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ يَكُونُ غَايَةَ مَطْلُوبِهَا؛ لِتَسْكُنَ إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنَّ بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِهِ وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ وَ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(١) فَكُلُّ مَأْلُوهٍ سِوَاهُ يَحْصُلُ بِهِ الْفَسَادُ، وَلَا يَحْصُلُ صَلَاحُ الْقُلُوبِ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ الْقُلُوبُ مُخْلِصَةً لِلَّهِ الدِّينَ عَبَدَتْ غَيْرَهُ مِنْ الْآلِهَةِ الَّتِي يَعْبُدُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ مِمَّا رَضُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ، فَأَشْرَكَتْ بِاَللَّهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ؛ فَتَعْبُدُ غَيْرَهُ وَتَسْتَعِينُ بِهِ لِجَهْلِهَا بِسَعَادَتِهَا الَّتِي تَنَالُهَا بِعِبَادَةِ خَالِقِهَا وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ؛ فَبِالْعِبَادَةِ لَهُ تَسْتَغْنِي عَنْ مَعْبُودٍ آخَرَ وبالاستعانة بِهِ تَسْتَغْنِي عَنْ الِاسْتِعَانَةِ بِالْخَلْقِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْعَبْدُ كَذَلِكَ كَانَ مُذْنِبًا مُحْتَاجًا، وَإِنَّمَا غِنَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ وَهَذَا حَالُ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُذْنِبٌ خَطَّاءٌ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسْدِي مَغَافِرَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾(٢) فَبِالتَّوْحِيدِ يَقْوَى الْعَبْدُ وَيَسْتَغْنِي، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وبالاستغفار يَغْفِرُ لَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ عَذَابَهُ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٣) فَلَا يَزُولُ فَقْرُ الْعَبْدِ وَفَاقَتُهُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا

(١) الأنبياء: الآية ٢٢.
(٢) الحج: الآية ٦٢.
(٣) الأنفال: الآية ٣٣.

مُحْتَاجًا مُعَذَّبًا فِي طَلَبِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ. وَاللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[1] إِذَا حَصَلَ مَعَ التَّوْحِيدِ الِاسْتِغْفَارُ حَصَلَ لَهُ غِنَاهُ وَسَعَادَتُهُ وَزَالَ عَنْهُ مَا يُعَذِّبُهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللَّهِ.

٤- فقه مسألة عبادة المخلوقين وعلاقتها بالكهانة:

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّذْرَ لِلْمَخْلُوقِينَ يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً فَهُوَ مِنْ الضَّالِّينَ، كَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ عِبَادَةَ الْمَخْلُوقِينَ تَجْلِبُ لَهُمْ مَنْفَعَةً أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً، وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَدْ تَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَقَدْ تُخَاطِبُهُمْ بِكَلَامٍ، وَقَدْ تَحْمِلُ أَحَدَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ تُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، وَقَدْ تَأْتِيهِ بِنَفَقَةٍ أَوْ طَعَامٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا جَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِعُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَغَيْرِ هَذَا الزَّمَانِ لِلضَّالِّينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: إمَّا بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَإِمَّا بِعِبَادَةِ لَمْ يَشْرَعْهَا اللَّهُ.[2]

تعليق: فقه هذه المسألة من أعظم المنجيات من الكهانة.

وَإِذَا تَبَيَّنَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ فِي حَقِّ أَشْرَفِ الْخَلْقِ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ وَخَاتَمِ الرُّسُلِ وَالنَّبِيِّينَ، وَأَفْضَلِ الْأَوَّلِينَ والآخرين، وَأَرْفَعِ الشُّفَعَاءِ مَنْزِلَةً وَأَعْظَمِهِمْ جَاهًا عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى –تَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ دُونَهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَوْلَى بِأَنْ لَا يُشْرَكَ بِهِ، وَلَا يُتَّخَذَ قَبْرُهُ وَثَنًا يُعْبَدُ، وَلَا يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا فِي حَيَاتِهِ وَلَا فِي مَمَاتِهِ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِأَحَدِ مِنْ الْمَشَايِخِ الْغَائِبِينَ وَلَا الْمَيِّتِينَ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي فُلَانًا أَغِثْنِي وَانْصُرْنِي وَادْفَعْ عَنِّي، أَوْ أَنَا فِي حَسْبِك وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ كُلُّ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمُهُ مِمَّا يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْتَغِيثُونَ بِالْغَائِبِينَ وَالْمَيِّتِينَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَغَيْرِ قُبُورِهِم لَمَّا كَانُوا مِنْ جِنْسِ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، صَارَ الشَّيْطَانُ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ كَمَا يَضِلُّ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ وَيُغْوِيهِمْ، فَتَتَصَوَّرُ الشَّيَاطِينُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ، وَتُخَاطِبُهُمْ بِأَشْيَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَاشَفَةِ، كَمَا تُخَاطِبُ الشَّيَاطِينُ الْكُهَّانَ، وَبَعْضُ ذَلِكَ صِدْقٌ، لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَذِبٌ، بَلْ الْكَذِبُ أَغْلَبُ عَلَيْهِ مِنْ الصِّدْقِ.[3]

فَالْكَاهِنُ مُسْتَمِدٌّ مِنْ الشَّيَاطِينِ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وَكِلَاهُمَا فِي لَفْظِهِ وَزْنٌ. هَذَا سَجْعٌ وَهَذَا نَظْمٌ وَكِلَاهُمَا لَهُ مَعَانٍ مِنْ وَحْيِ الشَّيَاطِينِ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {أَعُوذُ بِاَللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ} وَقَال: {هَمْزُهُ الموتة وَنَفْثُهُ الشِّعْرُ وَنَفْخُهُ الْكِبْرُ} وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يَنْفِي الْأَمْرَيْنِ كَمَا أَنَّهُ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى قَالَ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الشُّعَرَاءِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ مُطْلَقًا، ثُمَّ ذَكَرَ عَلَامَةَ مَنْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ: بِأَنَّهُ أَفَّاكٌ أَثِيمٌ وَأَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ، فَظَاهِرُ الْقُرْآنِ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ الشُّعَرَاءَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) النساء: الآية ٤٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١٣)
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١١٣)

الشَّيَاطِينُ إلَّا إذَا كَانَ أَحَدُهُمْ كَذَّابًا أَثِيمًا، فَالْكَذَّابُ: فِي قَوْلِهِ وَخَبَرِهِ، وَالْأَثِيم: فِي فِعْلِهِ وَأَمْرِهِ. وَذَاكَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ الشِّعْرَ يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ تَارَةً، وَيَكُونُ مِنْ النَّفْسِ أُخْرَى، كَمَا أَنَّهُ إذَا كَانَ حَقًّا يَكُونُ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا دَعَا لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ: {اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}[1] وَقَالَ: {اُهْجُهُمْ وهاجهم وجبرائيل مَعَك}[2] فَلَمَّا نَفَى قِسْمَ الشَّيْطَانِ نَفَى قِسْمَ النَّفْسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وَأَلْغَى اتِّبَاعَ الشَّهَوَاتِ الَّتِي هِيَ هَوَى النُّفُوسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَيَّانٍ: مَا كَانَ مِنْ نَفْسِك فَأَحَبَّتْهُ نَفْسُك لِنَفْسِك فَهُوَ مِنْ نَفْسِك فَانْهَهَا عَنْهُ، وَمَا كَانَ مِنْ نَفْسِك فَكَرِهَتْهُ نَفْسُك لِنَفْسِك فَهُوَ مِنْ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْهُ فَهَذَا، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ سَبَبُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا التَّقْسِيمُ إلَى الْكَاهِنِ وَالشَّاعِرِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فَهُوَ -وَاَللَّهُ أَعْلَمُ- لِأَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ. وَالْكَاهِنُ يُخْبِرُ بِالْغُيُوبِ مُخَلِّطًا فِيهِ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ لَا يَأْتُونَ بِالْحَقِّ مَحْضًا، وَإِذَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ أَحَدِهِمْ شَيْئًا فِي الْقَلْبِ لَمْ يُنْسَخْ مِنْهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى وَكَمَا بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ الْكُهَّانِ لَمَّا قَالَ: {إنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِي الْكَلِمَةِ مِائَةَ كِذْبَةٍ}[3] بِخِلَافِ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ وَالْمُحَدِّثِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾[4] وَالْقِرَاءَةُ الْعَامَّةُ لَيْسَ فِيهَا الْمُحَدِّثُ؛ إذْ يَجُوزُ أَنْ يُقَرَّ عَلَى بَعْضِ الْخَطَأِ، وَيُدْخِلَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ بَعْضَ مَا يُلْقِيهِ فَلَا يُنْسَخُ، بِخِلَافِ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ نَسْخِ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، وَأَنْ يُحْكِمَ اللَّهُ آيَاتِهِ لِأَنَّهُ حَقٌّ، وَالْمُحَدِّثُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْرِضَ مَا يُحَدِّثُهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؛ وَلِهَذَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ لِعُمَرِ وَهُوَ مُحَدِّثٌ فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَقِصَّةِ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَقِصَّةِ اخْتِلَافِهِ وَحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ فَأَزَالَهُ عَنْهُ نُورُ النُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا الشَّاعِرُ فَشَأْنُهُ التَّحْرِيكُ لِلنُّفُوسِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ الْخَاصِّ الْمُرَغِّبِ؛ فَلِهَذَا قِيلَ فِيهِمْ: ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فَضَرَرُهُمْ فِي الْأَعْمَالِ لَا فِي الِاعْتِقَادَاتِ، وَأُولَئِكَ ضَرَرُهُمْ فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَيَتْبَعُهَا الْأَعْمَالُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وَمَعْنَى الْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ، الْخَارِجِينَ عَنْ الشَّرِيعَةِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِالْغُيُوبِ عَنْ كِهَانَةٍ، وَيُحَرِّكُونَ النُّفُوسَ بِالشِّعْرِ وَنَحْوِهِ، وَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْمُتَنَبِّئِينَ الْكَذَّابِينَ لَهُمْ مَادَّةٌ مِنْ الشَّيَاطِينِ، كَمَا قَدْ رَأَيْنَاهُ كَثِيرًا فِي أَنْوَاعٍ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ وَغَيْرِهَا لِمَنْ نَوَّرَ اللَّهُ صَدْرَهُ وَقَذَفَ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ.[5]

---

(١) رواه البخاري حديث ٣٢١٢، ومسلم حديث ٢٤٨٥.
(٢) انظر الحديث السابق.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الحج: الآية ٥٢.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١٢٥)

٥- لزوم السنة والنجاة من الكهانة:

وَأَمَّا "الْوِصَالُ فِي الصِّيَامِ" فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ نَهَى عَنْهُ أَصْحَابَهُ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ إلَّا فِي الْوِصَالِ إلَى السَّحَرِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ كَأَحَدِهِمْ. وَقَدْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ يُوَاصِلُونَ: مِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى شَهْرًا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى شَهْرَيْنِ وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ، وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ نَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَ وَظَهَرَ ذَلِكَ فِي بَعْضِهِمْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِطَرِيقِ اللَّهِ وَأَنْصَحُ الْخَلْقِ لِعِبَادِ اللَّهِ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَطْوَعُهُمْ لَهُ وَأَتْبَعُهُمْ لِسُنَّتِهِ. وَالْأَحْوَالُ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْ أَعْمَالٍ فِيهَا مُخَالَفَةُ السُّنَّةِ أَحْوَالٌ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا مُكَاشَفَاتٌ وَفِيهَا تَأْثِيرَاتٌ، فَمَنْ كَانَ خَبِيرًا بِهَذَا الْبَابِ عَلِمَ أَنَّ الْأَحْوَالَ الْحَاصِلَةَ عَنْ عِبَادَاتٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ: كَالْأَمْوَالِ الْمَكْسُوبَةِ بِطَرِيقِ غَيْرِ شَرْعِيٍّ، وَالْمُلْكِ الْحَاصِلِ بِطَرِيقِ غَيْرِ شَرْعِيٍّ.(١) وقد مرّ الكلام بطوله.

٦- العبادات الشرعية منجاة من الشياطين وأتباعهم من الكهّان وغيرهم:

وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ الشُّيُوخِ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَارِقِ إذَا كَذَّبَ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا وَقَالَ: إنَّكُمْ تَفْعَلُونَ هَذَا بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ: كَمَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَجَرِ الطَّلْقِ وَقُشُورِ النَّارِنْجِ وَدَهْنِ الضَّفَادِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْحِيَلِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَيَعْجَبُ هَؤُلَاءِ الْمَشَايِخُ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ وَاَللَّهِ لَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحِيَلِ، فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ الْخَبِيرُ إنَّكُمْ لَصَادِقُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ شَيْطَانِيَّةٌ، أَقَرُّوا بِذَلِكَ وَتَابَ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ وُجُوهٍ أَنَّهَا مِنْ الشَّيْطَانِ، وَرَأَوْا أَنَّهَا مِنْ الشَّيَاطِينِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا تَحْصُلُ بِمِثْلِ الْبِدَعِ الْمَذْمُومَةِ فِي الشَّرْعِ وَعِنْدَ الْمَعَاصِي لِلَّهِ، فَلَا تَحْصُلُ عِنْدَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا حِينَئِذٍ مِنْ مخارق الشَّيْطَانِ لِأَوْلِيَائِهِ، لَا مِنْ كَرَامَاتِ الرَّحْمَنِ لِأَوْلِيَائِهِ.

٧- دعوات النبي ﷺ والنجاة من الشياطين:

فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ يَدْفَعُونَ الشَّيَاطِينَ عَنْ بَنِي آدَمَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، كَمَا كَانَ الْمَسِيحُ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَكَمَا كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ. وقد مرّ الكلام.

٨- من قصد الكاهن المخالف للكتاب والسنّة فهو من أتباع الدجّال:

وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُتَّبَعْ، إلَّا أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ رَأَى مِنْ رَجُلٍ مُكَاشَفَةً أَوْ تَأْثِيرًا فَاتَّبَعَهُ فِي خِلَافِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَانَ مِنْ جِنْسِ أَتْبَاعِ الدَّجَّالِ، فَإِنَّ الدَّجَّالَ يَقُولُ لِلسَّمَاءِ: أَمْطِرِي فَتُمْطِرُ، وَيَقُولُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي فَتُنْبِتُ، وَيَقُولُ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٥/ ص١٧٣)

لِلْخَرِبَةِ: أَخْرِجِي كُنُوزَك فَيَخْرُجُ مَعَهُ كُنُوزُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَيَقْتُلُ رَجُلًا ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَقُومَ فَيَقُومُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا كَافِرٌ مَلْعُونٌ عَدُوٌّ لِلَّهِ. وقد مر الكلام بطوله.

٩- فهم عقيدة أهل السنة ومعرفة عقائد المبطلين والنجاة من الكهانة:

قال[١] متحدثا عن الغزالي: وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ عَلِمَ بِذَكَائِهِ وَصِدْقِ طَلَبِهِ مَا فِي طَرِيقِ الْمُتَكَلِّمِينَ والمتفلسفة مِنْ الِاضْطِرَابِ، وَآتَاهُ اللَّهُ إيمَانًا مُجْمَلًا -كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ- وَصَارَ يَتَشَوَّفُ إلَى تَفْصِيلِ الْجُمْلَةِ فَيَجِدُ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ وَالصُّوفِيَّةِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إلَى الْحَقِّ، وَأَوْلَى بِالتَّحْقِيقِ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ والمتكلمين، وَالْأَمْرُ كَمَا وَجَدَهُ، لَكِنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْ الْمِيرَاثِ النَّبَوِيِّ الَّذِي عِنْدَ خَاصَّةِ الْأُمَّةِ مِنْ الْعُلُومِ وَالْأَحْوَالِ، وَمَا وَصَلَ إلَيْهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ، حَتَّى نَالُوا مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْعِبَادِيَّةِ مَا لَمْ يَنَلْهُ أُولَئِكَ.

وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الجهمية الِاتِّحَادِيَّةُ فَبَنَوْا عَلَى أَصْلِهِمْ الْفَاسِدِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ الثَّابِتُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَصَارَ مَا يَقَعُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْخَوَاطِرِ -وَإِنْ كَانَتْ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ- يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَخَذُوا ذَلِكَ عَنْ اللَّهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَأَنَّهُمْ يُكَلَّمُونَ كَمَا كُلِّمَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، وَفِيهِمْ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّ حَالَهُمْ أَفْضَلُ مَنْ حَالِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ؛ لِأَنَّ مُوسَى سَمِعَ الْخِطَابَ مِنْ الشَّجَرَةِ وَهُمْ عَلَى زَعْمِهِمْ يَسْمَعُونَ الْخِطَابَ مِنْ حَيٍّ نَاطِقٍ، كَمَا يُذْكَرُ عَنْ صَاحِبِ الْفُصُوصِ أَنَّهُ قَالَ: وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا اعْتَقَدُوهُ مِنْ مَذَاهِبِ الجهمية وَأَتْبَاعِهِمْ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ تَكْلِيمَ اللَّهِ لِمُوسَى إنَّمَا كَانَ مِنْ جِنْسِ الْإِلْهَامِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ يَرَى اللَّهَ فِي الدُّنْيَا إذَا زَالَ عَنْ عَيْنِهِ الْمَانِعِ؛ إذْ لَا حِجَابَ عِنْدَهُمْ لِلرُّؤْيَةِ مُنْفَصِلٌ عَنْ الْعَبْدِ، وَإِنَّمَا الْحِجَابُ مُتَّصِلٌ بِهِ، فَإِذَا ارْتَفَعَ شَاهِدُ الْحَقِّ، وَهُمْ لَا يُشَاهِدُونَ إلَّا مَا يَتَمَثَّلُونَهُ مِنْ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ إلَّا فِي أَذْهَانِهِمْ، أَوْ مِنْ الْوُجُودِ الْمَخْلُوقِ.[٢]

١٠- الإيمان بالقدر والاحتساب على الكهانة:

لشيخ الإسلام كلام طويل ومهم في باب الإيمان بالقدر وله فتوى طبعت مفردة في الإيمان بالقدر، وسننتقي من كلامه ما نراه مفيداً في باب الاحتساب على الكهان، إذ أنّ فهم أصل الإيمان بالقدر يجعل العبد يركن إلى ربه تعالى لا سواه، ويأخذ بالأسباب الشرعية والكونية التي ينال بها حاجته، كما أنّ قلبه يكون مطمئنا على رزقه، فالرب قدر له رزقه كما قدر أجله.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص١٥٠)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص١٩٠)

قال رحمه الله[1]: وَأَمَّا أَصْحَابُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ يَكْذِبُونَ تَارَةً وَيَصْدُقُونَ أُخْرَى وَلَا بُدَّ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ مُخَالَفَةٍ لِلْأَمْرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الْآيَتَيْنِ. وَلِهَذَا يُوجَدُ الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ مُلَابِسًا الْخَبَائِثَ مِنْ النَّجَاسَاتِ وَالْأَقْذَارِ الَّتِي تُحِبُّهَا الشَّيَاطِينُ، وَمُرْتَكِبًا لِلْفَوَاحِشِ أَوْ ظَالِمًا لِلنَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَرَّمَ ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ الْآيَةَ. وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِضَاهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لَهَا بَسْطٌ طَوِيلٌ لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَكَانُ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ: الْمَشِيئَةُ مَشِيئَةُ اللَّهِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَأَقْوَامٌ يَقُولُونَ: الْمَشِيئَةُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا فِي الْمَاضِي. مَا الصَّوَابُ؟

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الْمَاضِي مَضَى بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَالْمُسْتَقْبَلُ لَا يَكُونُ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ فِي الْمَاضِي: إنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ إنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إنْ شَاءَ اللَّهُ فَقَدْ أَخْطَأَ، وَمَنْ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَشِيئَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ. وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ يَكُونُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَقَدْ أَخْطَأَ، وَمَنْ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَقَدْ أَصَابَ، وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ فَقَدْ كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ قَطْعًا؛ فَاَللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَالْإِنْسَانُ الْمَوْجُودُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَخْلُوقَ مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، فَمَا خَلَقَهُ فَقَدْ كَانَ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ غَيَّرَهُ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. [2]

وسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ[3] تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَنْ الْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ إنَّ اللَّهَ قَبَضَ قَبْضَتَيْنِ فَقَالَ: هَذِهِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَذِهِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي}[4]

فَهَلْ هَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ؟ وَاَللَّهُ قَبَضَهَا بِنَفْسِهِ أَوْ أَمَرَ أَحَدًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ بِقَبْضِهَا؟ وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ فِي: {أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ أَرَاهُ ذُرِّيَّتَهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ إلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ إلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي}[5] وَهَذَا فِي الصَّحِيحِ.

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– نَعَمْ هَذَا الْمَعْنَى مَشْهُورٌ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ مَا فِي مُوَطَّأِ مَالِكٍ وَسُنَنِ أَبِي داود والنسائي وَغَيْرِهِ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، وَفِي لَفْظٍ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢).
(٢)مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ١٩٢).
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص٢).
(٤) السلسلة الصحيحة الأحاديث من ٤٦ إلى ٥٠.
(٥) راجع السابق.

الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾(١) الْآيَةَ. فَقَالَ عُمَرُ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي لَفْظٍ: سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إنَّ اللَّهَ إذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ} وَفِي حَدِيثِ الْحَكَمِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {إنَّ اللَّهَ قَبَضَ قَبْضَةً فَقَالَ: إلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِي، وَقَبَضَ قَبْضَةً فَقَالَ: إلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي}(٢) وَهَذَا الْحَدِيثُ وَنَحْوُهُ فِيهِ فَصْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْقَدَرُ السَّابِقُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلِمَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْمَلُوا الْأَعْمَالَ وَهَذَا حَقٌّ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، بَلْ قَدْ نَصَّ الْأَئِمَّةُ: كَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد أَنَّ مَنْ جَحَدَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ، بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ كُلَّهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}(٣)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: {حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: إنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُبْعَثُ إلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ: اُكْتُبْ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ -قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَوْ قَالَ فَوَالَّذِي لَا إلَهَ غَيْرُهُ -إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ}(٤) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: {كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ فِي جِنَازَةٍ، فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ: أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾}(٥) وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّهُ {قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْلَمْ أَهْلَ

(١) الأعراف: الآية ١٧٢.
(٢) راجع ما قبله.
(٣) صحيح مسلم حديث ٢٦٥٣.
(٤) رواه البخاري حديث ٣٣٣٢، ومسلم حديث٢٦٤٣.
(٥) رواه البخاري ١٣٦٢، ومسلم ٢٦٤٧.

الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ}(١) فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَأَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ وَنَهَاهُمْ أَنْ يَتَّكِلُوا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ، وَيَدَعُوا الْعَمَلَ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُلْحِدُونَ، وَقَالَ: كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَإِنَّ أَهْلَ السَّعَادَةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَهْلُ الشَّقَاوَةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنْ الْبَيَانِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لِلْأَشْيَاءِ أَسْبَابًا تَكُونُ بِهَا، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا تَكُونُ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُولَدُ لَهُ بِأَنْ يَطَأَ امْرَأَةً فَيُحْبِلَهَا، فَلَوْ قَالَ هَذَا: إذَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ يُولَدُ لِي فَلَا حَاجَةَ إلَى الْوَطْءِ كَانَ أَحْمَقَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ بِمَا يُقَدِّرُهُ مِنْ الْوَطْءِ، وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا يُنْبِتُ لَهُ الزَّرْعَ بِمَا يَسْقِيهِ مِنْ الْمَاءِ وَيَبْذُرُهُ مِنْ الْحَبِّ، فَلَوْ قَالَ: إذَا عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ فَلَا حَاجَةَ إلَى الْبَذْرِ كَانَ جَاهِلًا ضَالًّا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا يَشْبَعُ بِالْأَكْلِ وَهَذَا يُرْوَى بِالشُّرْبِ وَهَذَا يَمُوتُ بِالْقَتْلِ، فَلَا بُدَّ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَكُونُ بِهَا، وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا يَكُونُ سَعِيدًا فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا شَقِيًّا فِي الْآخِرَةِ قُلْنَا: ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْمَلُ بِعَمَلِ الْأَشْقِيَاءِ فَاَللَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ يَشْقَى بِهَذَا الْعَمَلِ فَلَوْ قِيلَ: هُوَ شَقِيٌّ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ كَانَ بَاطِلًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُدْخِلُ النَّارَ أَحَدًا إلَّا بِذَنْبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢) فَأَقْسَمَ أَنَّهُ يَمْلَؤُهَا مِنْ إبْلِيسَ وَأَتْبَاعِهِ، وَمَنْ اتَّبَعَ إبْلِيسَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا يُعَاقِبُ اللَّهُ الْعَبْدَ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَعْمَلُهُ حَتَّى يَعْمَلَهُ...

١١- الدعاء والاستعانة والأسباب:

قال رحمه الله(٣): وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ، وَمَنْ قَالَ: أَنَا لَا أَدْعُو وَلَا أَسْأَلُ اتِّكَالًا عَلَى الْقَدَرِ كَانَ مُخْطِئًا أَيْضًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدُّعَاءَ وَالسُّؤَالَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُ بِهَا مَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَهُدَاهُ وَنَصْرَهُ وَرِزْقَهُ، وَإِذَا قَدَّرَ لِلْعَبْدِ خَيْرًا يَنَالُهُ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَحْصُلْ بِدُونِ الدُّعَاءِ، وَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَعَلِمَهُ مِنْ أَحْوَالِ الْعِبَادِ وَعَوَاقِبِهِمْ فَإِنَّمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ بِأَسْبَابِ يَسُوقُ الْمَقَادِيرَ إلَى الْمَوَاقِيتِ، فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَيْءٌ إلَّا بِسَبَبِ وَاَللَّهُ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ: الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا -نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ، وَمُجَرَّدُ الْأَسْبَابِ لَا يُوجِبُ حُصُولَ الْمُسَبَّبِ؛ فَإِنَّ الْمَطَرَ إذَا نَزَلَ وَبُذِرَ الْحَبُّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَافِيًا فِي حُصُولِ النَّبَاتِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ رِيحٍ مُرْبِيَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَا بُدَّ مِنْ صَرْفِ الِانْتِفَاءِ عَنْهُ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَمَامِ الشُّرُوطِ وَزَوَالِ الْمَوَانِعِ وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ لَا يُولَدُ بِمُجَرَّدِ إنْزَالِ الْمَاءِ فِي الْفَرْجِ، بَلْ كَمْ مَنْ أَنْزَلَ وَلَمْ يُولَدْ لَهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّ اللَّهَ شَاءَ خَلْقَهُ فَتَحْبَلُ الْمَرْأَةُ وَتُرَبِّيهِ

---

(١) انظر ما قبله.
(٢) ص: الآية ٨٥.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٦٧)

فِي الرَّحِمِ وَسَائِرُ مَا يَتِمُّ بِهِ خَلْقُهُ مِنْ الشُّرُوطِ وَزَوَالِ الْمَوَانِعِ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ لَيْسَ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ يَنَالُ الْإِنْسَانُ السَّعَادَةَ بَلْ هِيَ سَبَبٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {إنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ. قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: وَلَا أَنَا إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ}(١)... فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ نَاظِرًا إلَى الْقَدَرِ فَقَدْ ضَلَّ، وَمَنْ طَلَبَ الْقِيَامَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مُعْرِضًا عَنْ الْقَدَرِ فَقَدْ ضَلَّ، بَلْ الْمُؤْمِنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَنَعْبُدُهُ اتِّبَاعًا لِلْأَمْرِ وَنَسْتَعِينُهُ إيمَانًا بِالْقَدَرِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَك شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْت لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}(٢) فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْئَيْنِ: أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَهُوَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ وَهُوَ الْعِبَادَةُ وَهُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللَّهِ وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ أَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وقال رحمه الله: بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ ابْتَلَاهُ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ قَدْ أَهَانَهُ، بَلْ هُوَ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَالْمُؤْمِنُ يَكُونُ صَبَّارًا شَكُورًا، فَيَكُونُ هَذَا وَهَذَا خَيْرًا لَهُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدِ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ}(٣) وَالْمُنَافِقُ هَلُوعٌ جَزُوعٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إلَّا الْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٤) إلَى قَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ مُيَسَّرًا لِمَا لَا يَنْفَعُهُ بَلْ يَضُرُّهُ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالْبَطَرِ وَالطُّغْيَانِ، وَقَدْ يَقْصِدُ عِبَادَةَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ فَلَا يَتَأَتَّى لَهُ ذَلِكَ، أُمِرَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ بِأَنْ يَقُولَ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: فَهَؤُلَاءِ

---

(١) رواه البخاري حديث ٦٤٦٤، ومسلم ٢٨١٨.
(٢) رواه مسلم حديث ٢٦٦٤.
(٣) مركب من حديثين في صحيح مسلم حديث ٢٩٩٩، وأحمد حديث ١٢٩٠٦.
(٤) المعارج: الآية ٢٥.

لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ}[1] وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ عِلْمَهَا فِي الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ: التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ، وَجَمَعَ الْأَرْبَعَةَ فِي الْقُرْآنِ وَعِلْمَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ وَعِلْمَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ وَعِلْمَ الْفَاتِحَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ وَلَا يَكُونُ طَاعَةً لِلَّهِ وَعِبَادَةً وَعَمَلًا صَالِحًا فَهُوَ بَاطِلٌ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ، وَإِنْ نَالَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ رِئَاسَةً وَمَالًا فَغَايَةُ الْمُتَرَئِّسِ أَنْ يَكُونَ كَفِرْعَوْنَ وَغَايَةُ الْمُتَمَوِّلِ أَنْ يَكُونَ كقارون.

وقال رحمه الله: وَالْعَبْدُ لَهُ فِي الْمَقْدُورِ حَالَانِ: حَالٌ قَبْلَ الْقَدَرِ، وَحَالٌ بَعْدَهُ، فَعَلَيْهِ قَبْلَ الْمَقْدُورِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللَّهِ وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ، فَإِذَا قُدِّرَ الْمَقْدُورُ بِغَيْرِ فِعْلِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهِ أَوْ يَرْضَى بِهِ، وَإِنْ كَانَ بِفِعْلِهِ: وَهُوَ نِعْمَةٌ حَمِدَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ ذَنْبًا اسْتَغْفَرَ إلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَهُ فِي الْمَأْمُورِ حَالَانِ: حَالٌ قَبْلَ الْفِعْلِ وَهُوَ الْعَزْمُ عَلَى الِامْتِثَالِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، وَحَالٌ بَعْدَ الْفِعْلِ وَهُوَ الِاسْتِغْفَارُ مِنْ التَّقْصِيرِ وَشُكْرُ اللَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[2] أَمَرَهُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَصَائِبِ الْمُقَدَّرَةِ وَيَسْتَغْفِرَ مِنْ الذَّنْبِ، وَإِنْ كَانَ اسْتِغْفَارُ كُلِّ عَبْدٍ بِحَسَبِهِ فَإِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ . وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[3] وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4] فَذَكَرَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالتَّقْوَى بِتَرْكِ المعائب، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَك شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْت كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لو) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}[5] فَأَمَرَهُ إذَا أَصَابَتْهُ الْمَصَائِبُ أَنْ يَنْظُرَ إلَى الْقَدَرِ، وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى الْمَاضِي، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ. فَالنَّظَرُ إلَى الْقَدَرِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ عِنْدَ المعائب.

١٢- الأسباب التي يحصل بها الرزق:

سُئِلَ[6] شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنْ الرِّزْقِ هَلْ يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ؟ وَهَلْ هُوَ مَا أَكَلَ أَوْ مَا مَلَكَهُ الْعَبْدُ؟

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الرِّزْقُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا عَلِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يَرْزُقُهُ فَهَذَا لَا يَتَغَيَّرُ. وَالثَّانِي: مَا كَتَبَهُ وَأَعْلَمَ بِهِ الْمَلَائِكَةَ فَهَذَا يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بِحَسَبِ الْأَسْبَابِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَأْمُرُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَكْتُبَ لَهُ رِزْقًا، وَإِنْ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) غافر: الآية ٥٥.
(٣) آل عمران: الآية ١٨٦.
(٤) يوسف: الآية ٩٠.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٦٢)

وَصَلَ رَحِمَهُ زَادَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ}(١) وَكَذَلِكَ عُمْرُ داود زَادَ سِتِّينَ سَنَةً فَجَعَلَهُ اللَّهُ مِائَةً بَعْدَ أَنْ كَانَ أَرْبَعِينَ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ عُمَرَ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي شَقِيًّا فَامْحُنِي وَاكْتُبْنِي سَعِيدًا، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْله تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٢) وَشَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ.

وَالْأَسْبَابُ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الرِّزْقُ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَكَتَبَهُ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ بِأَنَّهُ يَرْزُقُ الْعَبْدَ بِسَعْيِهِ وَاكْتِسَابِهِ أَلْهَمَهُ السَّعْيَ وَالِاكْتِسَابَ، وَذَلِكَ الَّذِي قَدَّرَهُ لَهُ بِالِاكْتِسَابِ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ الِاكْتِسَابِ، وَمَا قَدَّرَهُ لَهُ بِغَيْرِ اكْتِسَابٍ كَمَوْتِ مَوْرُوثِهِ يَأْتِيهِ بِهِ بِغَيْرِ اكْتِسَابٍ، وَالسَّعْيُ سعيان: سَعْيٌ فِيمَا نُصِبَ لِلرِّزْقِ كَالصِّنَاعَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ، وَسَعْيٌ بِالدُّعَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْإِحْسَانِ إلَى الْخَلْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

١٣- التوكل والاستعانة لا الكهانة: (٣)

وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ لِلَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَهَذِهِ كُلُّهَا خَيْرٌ مَحْضٌ، وَهِيَ حَسَنَةٌ مَحْبُوبَةٌ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَمَنْ قَالَ إنَّ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ تَكُونُ لِلْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ فَقَدْ غَلِطَ فِي ذَلِكَ، إنْ أَرَادَ خُرُوجَ الْخَاصَّةِ عَنْهَا فَإِنَّ هَذِهِ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا مُؤْمِنٌ قَطُّ، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ عَنْهَا كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ بِكَلَامٍ بَيَّنَّا غَلَطَهُ فِيهِ وَأَنَّهُ تَقْصِيرٌ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ بِكَلَامٍ مَبْسُوطٍ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ. وَلَكِنَّ هَذِهِ "الْمَقَامَاتِ" يَنْقَسِمُ النَّاسُ فِيهَا إلَى خُصُوصٍ وَعُمُومٍ، فَلِلْخَاصَّةِ خَاصُّهَا وَلِلْعَامَّةِ عَامُّهَا. مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَالُوا: "إنَّ التَّوَكُّلَ مُنَاضَلَةٌ عَنْ النَّفْسِ فِي طَلَبِ الْقُوتِ، وَالْخَاصُّ لَا يُنَاضِلُ عَنْ نَفْسِهِ. وَقَالُوا: الْمُتَوَكِّلُ يَطْلُبُ بِتَوَكُّلِهِ أَمْرًا مِنْ الْأُمُورِ، وَالْعَارِفُ يَشْهَدُ الْأُمُورَ بِفُرُوعِهَا مِنْهَا فَلَا يَطْلُبُ شَيْئًا" فَيُقَالُ: أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّ التَّوَكُّلَ أَعَمُّ مِنْ التَّوَكُّلِ فِي مَصَالِحِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْمُتَوَكِّلَ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فِي صَلَاحِ قَلْبِهِ وَدِينِهِ وَحِفْظِ لِسَانِهِ وَإِرَادَتِهِ وَهَذَا أَهَمُّ الْأُمُورِ إلَيْهِ؛ وَلِهَذَا يُنَاجِي رَبَّهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ بِقَوْلِهِ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(٤) وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٥) وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾(٦) فَهُوَ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ؛ لِأَنَّ هَذَيْنِ يَجْمَعَانِ الدِّينَ كُلَّهُ...

---

(١) رواه البخاري حديث ٢٠٦٧، ومسلم ٢٥٥٧.
(٢) نوح: الآية ٣,٤.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٤٧)
(٤) هود: الآية ١٢٣.
(٥) هود: الآية ٨٨.
(٦) الرعد: الآية ٣٠.

وقال رحمه الله: فَالَّذِي ظَنَّ أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ الْمَقَامَاتِ الْعَامَّةِ ظَنَّ أَنَّ التَّوَكُّلَ لَا يُطْلَبُ بِهِ إلَّا حُظُوظُ الدُّنْيَا وَهُوَ غَلَطٌ، بَلْ التَّوَكُّلُ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ أَعْظَمُ، وَأَيْضًا التَّوَكُّلُ مِنْ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَا تَتِمُّ الْوَاجِبَاتُ والمستحبات إلَّا بِهَا، وَالزَّاهِدُ فِيهَا زَاهِدٌ فِيمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَيَرْضَاهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ تَرْتَفِعُ دَرَجَاتُهُمْ بِخَرْقِ الْعَادَةِ إذَا اسْتَعْمَلُوهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَقَوْمٌ يَتَعَرَّضُونَ بِهَا لِعَذَابِ اللَّهِ إذَا اسْتَعْمَلُوهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كبلعام وَغَيْرِهِ، وَقَوْمٌ تَكُونُ فِي حَقِّهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاحَاتِ.

وَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا الْمُتَّبِعُونَ لِنَبِيِّهِمْ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، الَّذِي إنَّمَا كَانَتْ خَوَارِقُهُ لِحُجَّةِ يُقِيمُ بِهَا دِينَ اللَّهِ، أَوْ لِحَاجَةِ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَلِكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِي هَذَا الْأَصْلِ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الِاسْتِرْسَالِ مَعَ الْقَدَرِ بِدُونِ الْحِرْصِ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ الَّذِي يَنْفَعُ الْعَبْدَ، فَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُك وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَك شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْت كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}[1]

وقال رحمه الله: وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ، قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ، فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ، فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنْهُ، كَمَا قِيلَ: اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْت تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَاحْتَجْ إلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَسِيرَهُ. فَكَذَلِكَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ، وَإِعْرَاضَ قَلْبِهِ عَنْ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وَالرَّجَاءِ لَهُ، يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ، بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا: إمَّا عَلَى رِئَاسَتِهِ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَمَالِيكِهِ، وَإِمَّا عَلَى أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَإِمَّا عَلَى أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ، وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ كَمَالِكِهِ وَمَلِكِهِ وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[2] وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ، وَصَارَ فِيهِ مِنْ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمِيرًا لَهُمْ مُدَبِّرًا لَهُمْ مُتَصَرِّفًا بِهِمْ، فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إلَى الْحَقَائِقِ لَا إلَى الظَّوَاهِرِ.

١٤- فهم حقيقة التوحيد وفقه النفع والضر:

وَأَمَّا الْقِسْمُ الرَّابِعُ فَهُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَلَمْ يَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وَلَمْ يَتَوَكَّلُوا إلَّا عَلَيْهِ. وَقَوْلُ الْمَكْرُوبِ: ﴿لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ﴾[3] قَدْ يَسْتَحْضِرُ فِي ذَلِكَ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ دُونَ الْآخَرِ، فَمَنْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ النِّعْمَةَ اسْتَحْضَرَ التَّوْحِيدَ فِي النَّوْعَيْنِ، فَإِنَّ الْمَكْرُوبَ هِمَّتُهُ مُنْصَرِفَةٌ إلَى دَفْعِ ضُرِّهِ وَجَلْبِ نَفْعِهِ، فَقَدْ

(١) سبق تخريجه.
(٢) الفرقان: الآية ٥٨.
(٣) الأنبياء: الآية ٨٧.

يَقُولُ: "لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ" مُسْتَشْعِرًا أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ غَيْرُكَ وَلَا يَأْتِي بِالنِّعْمَةِ إلَّا أَنْتَ، فَهَذَا مُسْتَحْضِرٌ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَمُسْتَحْضِرٌ تَوْحِيدَ السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، مُعْرِضٌ عَنْ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَهُوَ أَلَّا يَعْبُدَ إلَّا إيَّاهُ وَلَا يَعْبُدُهُ إلَّا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَمَنْ اسْتَشْعَرَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ﴾ كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ وَكَانَ مُمْتَثِلًا قَوْلَهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[1]

وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ[2]: فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إلَى اللَّهِ وَيَدْعُوَهُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ: {كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْته فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ}[3] وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إذَا انْقَطَعَ فَإِنَّهُ إنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ}[4] وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[5] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾[6] وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمْعَةِ فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ؛ وَلِهَذَا -وَاَللَّهُ أَعْلَم- أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: {اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك، وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك} وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾[7] وَهَذَا أَمْرٌ وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ، فَالِاسْتِعَانَةُ بِاَللَّهِ وَاللَّجَأُ إلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ. ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافِ وَهَلَعٍ، بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ، وَالسَّعْيُ فِيهِ إذَا سَعَى كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: {مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلَّا مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ} وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْتَ مُحْتَاجٌ إلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ إلَى نَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبِك مِنْ الْآخِرَةِ مَرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنْ الدُّنْيَا فَانْتَظَمَهُ انْتِظَامًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

---

(١) المزمل: الآية ٧٣.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٤٢٨)
(٣) رواه مسلم حديث ٢٥٧٧.
(٤) رواه الترمذي حديث ٣٦٠٤، وأورده الألباني مرة في الضعيفة برقم ١٣٦١، وحسنه أخرى في مشكاة المصابيح برقم ٢٢٥١.
(٥) النساء: الآية ٣٢.
(٦) الجمعة: الآية ١٠.
(٧) العنكبوت: الآية ١٧.

الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

الفصل الثاني عشر
قواعد احتسابية على الكهان من علم وعمل
شيخ الإسلام ابن تيمية

نختم هذا الكتاب بذكر قواعد مهمة للمحتسبين على الكهانة والكهّان وأتباع الشياطين، أخذناها من علم وعمل شيخ الإسلام ابن تيمية، وإن كانت هذه القواعد وردت مبثوثة مفرقة داخل هذه الدراسة، أردنا هنا إفرادها؛ لتمثل القواعد والأسس التي يضبط بها العمل الاحتسابي على الكهانة وأهلها وعلى الشياطين والمتعاملين بها على حسب اجتهادنا، كما يمثل هذه الفصل خلاصة دراستنا وبحثنا حول احتساب شيخ الإسلام على الكهانة والكهان، وهذه القواعد هي:

١- غيرك أجهل بمصالحك منك:

أنت خبير بنفسك ولا أحد أخبر بها منك، وأنت عاجز عن اختيار ما يصلحها، فكيف تذهب إلى الكاهن الذي هو أجهل؟ وهو إنما يخدمك بما تعطيه وبما يناله منك، فلا هو عالم بمصالح نفسه ولا بمصالحك.

قال شيخ الإسلام[1]: فَهَذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْوَجْهِ وَالْعَمَلِ لَهُ، عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً... إلى أن يقول: جِمَاعُ هَذَا أَنَّكَ أَنْتَ إذَا كُنْتَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَصْلَحَتِكَ وَلَا قَادِرٍ عَلَيْهَا وَلَا مُرِيدٍ لَهَا كَمَا يَنْبَغِي، فَغَيْرُكَ مِنْ النَّاسِ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ عَالِمًا بِمَصْلَحَتِكَ وَلَا قَادِرًا عَلَيْهَا وَلَا مُرِيدًا لَهَا، وَاَللَّهُ –سُبْحَانَهُ– هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا تَعْلَمُ، وَيَقْدِرُ وَلَا تَقْدِرُ، وَيُعْطِيكَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الِاسْتِخَارَةِ.

ونقول: العلم بمصالحك وبمستقبلك هو خاص بالله العليم الخبير، فإذا أردت سعادة فكن مع الله، أما الكاهن فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عن أن يملك لك، وأنت نفسك لا تملك لنفسك شيئاً، فعلام الجري وراء الكهان؟ وبماذا ينفعك الشيطان وهو عدوك المبين؟

٢- عدم الخوف من الشياطين وأوليائهم من الكهان وغيرهم:

قال رحمه الله[2]: وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: يَا رَبِّ إنِّي أَخَافُك وَأَخَافُ مَنْ لَا يَخَافُك، فَهَذَا كَلَامٌ سَاقِطٌ لَا يَجُوزُ، بَلْ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَخَافَ أَحَدًا، فَإِنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ أَذَلُّ مِنْ أَنْ يُخَافَ، فَإِنَّهُ ظَالِمٌ وَهُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، فَالْخَوْفُ مِنْهُ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَإِذَا قِيلَ: قَدْ يُؤْذِينِي. قِيلَ: إنَّمَا يُؤْذِيك بِتَسْلِيطِ اللَّهِ لَهُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ دَفْعَ شَرِّهِ عَنْك دَفَعَهُ فَالْأَمْرُ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَى الْعَبْدِ بِذُنُوبِهِ، وَأَنْتَ إذَا خِفْتَ اللَّهَ فَاتَّقَيْتَهُ وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْهِ كَفَاكَ شَرَّ كُلِّ شَرٍّ وَلَمْ يُسَلِّطْهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣)

(٢) فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص٨)

فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وَتَسْلِيطُهُ يَكُونُ بِسَبَبِ ذُنُوبِك وَخَوْفِك مِنْهُ .فَإِذَا خِفْتَ اللَّهَ وَتُبْتَ مِنْ ذُنُوبِك وَاسْتَغْفَرْتَهُ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْكَ كَمَا قَالَ:﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.(1)

وهذه أيضا من أهم القواعد الاحتسابية على الكهان، فإنّ من خاف شيئاً من أصحاب العقيدة الباطلة، لجأ إلى الكهان ليطلعوه على حقيقة ما يخاف كيما يستكثر من الخير وما يمسه السوء، ومنهم من يذهب إلى الكاهن حينما يرى بؤساً في حياته يلتمس أن يدله على سبب ذلك، ويخشى أن يكون ذلك من تسلط الشياطين عليه، فيطلعنا شيخ الإسلام على ما يذهب المخاوف، ويبيّن لنا سبب تسلط الشياطين على العباد، وهو:

- عدم توكل العباد على الله وعدم تقواهم وطاعتهم له.

خوفهم من الشياطين الذي يجعلهم يعبدونهم ويتقربون إليهم بما يتقرب به إلى الملك الجليل سبحانه.

وهذه قاعدة مهمة للمحتسبين خاصة الذين يواجهون شياطين الإنس والجن، وهي كذلك للمسلمين عامة كيما ينجيهم الله مما يخافون.

٣- ضرورة فقه التوحيد والإخلاص وفهم الأسباب والمسببات لمصالح الدين والدنيا:

إنّ فقه التوحيد علماً وعملاً ومعرفة الإخلاص والعمل به، وفقه قضية الأسباب التي نصبها الله لحصول الخير الأخروي والدنيوي لا تدخل فيه الكهانة، فهي ليست من الأسباب لحصول الخير لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومن ثم فلا يجوز للمسلم أن يتعلق بها للبحث عن كشف ينال بها غرضا دنيويا، فالله لم يجعل الكهانة من جملة أسباب تحقيق الخير، وإنما هي من أسباب ذهاب الدين والدنيا.

قال شيخ الإسلام(2): كُلّ إنْسَانٍ فَهُوَ هَمَّامٌ حَارِثٌ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ، بَلْ كُلُّ حَيٍّ فَهُوَ كَذَلِكَ لَهُ عِلْمٌ وَعَمَلٌ بِإِرَادَتِهِ. وَالْإِرَادَةُ هِيَ الْمَشِيئَةُ وَالِاخْتِيَارُ، وَلَا بُدَّ فِي الْعَمَلِ الْإِرَادِيِّ الِاخْتِيَارِيِّ مِنْ مُرَادٍ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَلَا يَحْصُلُ الْمُرَادُ إلَّا بِأَسْبَابِ وَوَسَائِلَ تُحَصِّلُهُ.

ونقول: إنّ الكهانة ليست من وسائل حصول العلم شرعا أو عقلا أو عادة.

يتابع شيخ الإسلام فيقول: فَإِنْ حَصَلَ بِفِعْلِ الْعَبْدِ فَلَا بُدَّ مِنْ قُدْرَةٍ وَقُوَّةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ خَارِجٍ فَلَا بُدَّ مِنْ فَاعِلٍ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ وَمِنْ الْخَارِجِ فَلَا بُدَّ مِنْ الْأَسْبَابِ كَالْآلَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ إرَادَةٍ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُرِيدٍ مِنْ عَوْنٍ يَحْصُلُ بِهِ مُرَادُهُ. فَصَارَ الْعَبْدُ مَجْبُولًا عَلَى أَنْ يَقْصِدَ شَيْئًا وَيُرِيدَهُ، وَيَسْتَعِينَ بِشَيْءٍ وَيَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي تَحْصِيلِ مُرَادِهِ، هَذَا أَمْرٌ حَتْمٌ لَازِمٌ ضَرُورِيٌّ فِي حَقِّ كُلِّ إنْسَانٍ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ... وقد علم أنه لَا بُدَّ لِلنَّفْسِ مِنْ شَيْءٍ تَطْمَئِنُّ إلَيْهِ وَتَنْتَهِي إلَيْهِ مَحَبَّتُهَا، وَهُوَ إلَهُهَا. وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية: ج ١ / ص ٨، خرج أحاديثه أحمد محمد شعبان، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى،١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
(2) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣)

شَيْءٍ تَثِقُ بِهِ وَتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي نَيْلِ مَطْلُوبِهَا هُوَ مُسْتَعَانُهَا، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ، وَإِذًا فَقَدْ يَكُونُ عَامًّا وَهُوَ الْكُفْرُ، كَمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ مُطْلَقًا، وَسَأَلَ غَيْرَ اللَّهِ مُطْلَقًا، مِثْلَ عُبَّادِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ الْحَاجَاتِ، وَيَفْزَعُونَ إلَيْهِمْ فِي النَّوَائِبِ. وَقَدْ يَكُونُ خَاصًّا فِي الْمُسْلِمِينَ، مِثْلَ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ الْمَالِ أَوْ حُبُّ شَخْصٍ أَوْ حَبُّ الرِّيَاسَةِ، حَتَّى صَارَ عَبْدَ ذَلِكَ.

وقال رحمه الله: فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا بُدَّ لَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ مِنْ مُنْتَهًى يَطْلُبُهُ هُوَ إلَهُهُ، وَمُنْتَهًى يُطْلَبُ مِنْهُ هُوَ مُسْتَعَانُهُ، وَذَلِكَ هُوَ صَمَدُهُ الَّذِي يَصْمُدُ إلَيْهِ فِي اسْتِعَانَتِهِ وَعِبَادَتِهِ –تَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كَلَامٌ جَامِعٌ مُحِيطٌ أَوَّلًا وَآخِرًا لَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ.

٤- حصول الخير يكون بالتوحيد والتوكل والاستعانة لا بالكهانة:

قال شيخ الإسلام(١): وَالْعَبْدُ مُفْتَقِرٌ دَائِمًا إلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ كَمَا هُوَ مُفْتَقِرٌ إلَى عِبَادَتِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَشْهَدَ دَائِمًا فَقْرَهُ إلَى اللَّهِ وَحَاجَتَهُ فِي أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا لَهُ وَأَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَلَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ.

وأضاف رحمه الله: فَالتَّوْحِيدُ ضِدُّ الشِّرْكِ، فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ فَعَبَدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا كَانَ مُوَحِّدًا. وَمِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ: التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ لَهُ وَالْخَوْفُ مِنْهُ فَهَذَا يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ الشِّرْكِ، وَإِعْطَاءُ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَتَرْكُ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ يَخْلُصُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَمِنْ الشِّرْكِ بِهِمْ، وَبِطَاعَةِ رَبِّهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ يَخْلُصُ الْعَبْدُ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ...

وَمَا يُعْطِيهِ اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْ الْإِعَانَةِ وَالْهِدَايَةِ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ إلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ إنَّمَا يُحِبُّهُ لِكَوْنِهِ طَرِيقًا إلَى عِبَادَتِهِ، وَالْعَبْدُ يَطْلُبُ مَا يَحْتَاجُ أَوَّلًا، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى الْإِعَانَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَإِلَى الْهِدَايَةِ إلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَبِذَلِكَ يَصِلُ إلَى الْعِبَادَةِ. فَهُوَ يَطْلُبُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ أَوَّلًا لِيَتَوَسَّلَ بِهِ إلَى مَحْبُوبِ الرَّبِّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُ...

ثُمَّ إذَا طَلَبَ الْعِبَادَةَ فَإِنَّمَا يَطْلُبُهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ نَافِعَةٌ لَهُ مُحَصِّلَةٌ لِسَعَادَتِهِ مُحَصِّنَةٌ لَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ، فَلَا يَطْلُبُ الْعَبْدُ قَطُّ إلَّا مَا فِيهِ حَظٌّ لَهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّبُّ يُحِبُّ ذَلِكَ فَهُوَ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُلَائِمٌ لَهُ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا أَحَبَّهُ وَأَثَابَهُ؛ فَيَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مَا يُحِبُّهُ مِنْ النِّعَمِ تَبَعًا لِمَحْبُوبِ الرَّبِّ...

فَبِالْعِبَادَةِ لَهُ تَسْتَغْنِي عَنْ مَعْبُودٍ آخَرَ وبالاستعانة بِهِ تَسْتَغْنِي عَنْ الِاسْتِعَانَةِ بِالْخَلْقِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ الْعَبْدُ كَذَلِكَ كَانَ مُذْنِبًا مُحْتَاجًا، وَإِنَّمَا غِنَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ وَهَذَا حَالُ الْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُذْنِبٌ خَطَّاءٌ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي يُسْدِي مَغَافِرَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فَبِالتَّوْحِيدِ يَقْوَى الْعَبْدُ وَيَسْتَغْنِي، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وبالاستغفار يَغْفِرُ لَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ عَذَابَهُ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص٧)

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فَلَا يَزُولُ فَقْرُ الْعَبْدِ وَفَاقَتُهُ إلَّا بِالتَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ لَمْ يَزَلْ فَقِيرًا مُحْتَاجًا مُعَذَّبًا فِي طَلَبِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لَهُ. وَاَللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ إذَا حَصَلَ مَعَ التَّوْحِيدِ الِاسْتِغْفَارُ حَصَلَ لَهُ غِنَاهُ وَسَعَادَتُهُ وَزَالَ عَنْهُ مَا يُعَذِّبُهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ.

٥- التعبد للمخلوقين تحصل به أمور شيطانية:

وهذه قاعدة مهمة كاشفة للكهان والسحرة ولكل مبطل، فالذي يتعبد لغير الله من خلقه ضال هالك لا ينبغي الوثوق به ولا قصده، وإن قام بأمور عجيبة وخارقة، فالشياطين تعين أوليائها ببعض الأمور، وهي قاعدة تنفر معتقدها من الكهّان الضالين المتعبدين للشياطين والمعبدين عباد الله لها.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّذْرَ لِلْمَخْلُوقِينَ يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً فَهُوَ مِنْ الضَّالِّينَ، كَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ عِبَادَةَ الْمَخْلُوقِينَ تَجْلِبُ لَهُمْ مَنْفَعَةً أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً، وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَدْ تَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَقَدْ تُخَاطِبُهُمْ بِكَلَامِ، وَقَدْ تَحْمِلُ أَحَدَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ تُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، وَقَدْ تَأْتِيهِ بِنَفَقَةِ أَوْ طَعَامٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا جَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِعُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ، وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَغَيْرِ هَذَا الزَّمَانِ لِلضَّالِّينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: إمَّا بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَإِمَّا بِعِبَادَةِ لَمْ يَشْرَعْهَا اللَّهُ.(١)

فالشيطان يُضل عباده وعباد العباد بالكهانة والإخبار بالكشوف، وهذه قاعدة أفاض في بيانها شيخ الإسلام حتى لا يقع المسلم في شراك الشرك ويخدعه الشيطان بالخوارق.

وَإِذَا تَبَيَّنَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ فِي حَقِّ أَشْرَفِ الْخَلْقِ وَأَكْرَمِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ وَخَاتَمِ الرُّسُلِ وَالنَّبِيِّينَ، وَأَفْضَلِ الْأَوَّلِينَ والآخرين، وَأَرْفَعِ الشُّفَعَاءِ مَنْزِلَةً وَأَعْظَمِهِمْ جَاهًا عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -تَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ دُونَهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَوْلَى بِأَنْ لَا يُشْرَكَ بِهِ، وَلَا يُتَّخَذَ قَبْرُهُ وَثَنًا يُعْبَدُ، وَلَا يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا فِي حَيَاتِهِ وَلَا فِي مَمَاتِهِ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِأَحَدِ مِنْ الْمَشَايِخِ الْغَائِبِينَ وَلَا الْمَيِّتِينَ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدِي فُلَانًا أَغِثْنِي وَانْصُرْنِي وَادْفَعْ عَنِّي، أَوْ أَنَا فِي حَسْبِك وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ كُلُّ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمُهُ مِمَّا يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْتَغِيثُونَ بِالْغَائِبِينَ وَالْمَيِّتِينَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ وَغَيْرِ قُبُورِهِم لَمَّا كَانُوا مِنْ جِنْسِ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، صَارَ الشَّيْطَانُ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ كَمَا يَضِلُّ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ وَيُغْوِيهِمْ، فَتَتَصَوَّرُ الشَّيَاطِينُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ، وَتُخَاطِبُهُمْ بِأَشْيَاءَ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَاشَفَةِ، كَمَا تُخَاطِبُ الشَّيَاطِينُ الْكُهَّانَ، وَبَعْضُ ذَلِكَ صِدْقٌ، لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَذِبٌ، بَلْ الْكَذِبُ أَغْلَبُ عَلَيْهِ مِنْ الصِّدْقِ.(٢)

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١٣)
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١١٣)

من أهم القواعد فهم قضية العلم الإلهي، والفرق بين ذلك وبين أخبار الشياطين، وهي قاعدة عاصمة بإذن الله تعالى، وقد ساق فيها فتوى مفصلة نقتصر منها على ما يلي:

قال شيخ الإسلام رحمه الله[1]:

قَاعِدَةٌ أَوَّلِيَّةٌ: أَنَّ أَصْلَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَمَبْدَأَهُ وَدَلِيلَهُ الْأَوَّلَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا هُوَ الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ هُوَ وَحْيُ اللهِ إلَيْهِ كَمَا قَالَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ: {أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ : عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا}[2] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إلَيَّ رَبِّي﴾ وَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[3]

٦- الشيطان يمد الكاهن بالأخبار: [4]

فَالْكَاهِنُ مُسْتَمِدٌّ مِنْ الشَّيَاطِينِ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وَكِلَاهُمَا فِي لَفْظِهِ وَزْنٌ. هَذَا سَجْعٌ وَهَذَا نَظْمٌ وَكِلَاهُمَا لَهُ مَعَانٍ مِنْ وَحْيِ الشَّيَاطِينِ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {أَعُوذُ بِاَللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ}[5] وَقَال: {هَمْزُهُ الموتة وَنَفْثُهُ الشِّعْرُ وَنَفْخُهُ الْكِبْرُ}[6] وقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يَنْفِي الْأَمْرَيْنِ كَمَا أَنَّهُ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى قَالَ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الشُّعَرَاءِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ مُطْلَقًا، ثُمَّ ذَكَرَ عَلَامَةَ مَنْ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ: بِأَنَّهُ أَفَّاكٌ أَثِيمٌ وَأَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ... وَالْكَاهِنُ يُخْبِرُ بِالْغُيُوبِ مُخَلِّطًا فِيهِ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ لَا يَأْتُونَ بِالْحَقِّ مَحْضًا، وَإِذَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ أَحَدِهِمْ شَيْئًا فِي الْقَلْبِ لَمْ يُنْسَخْ مِنْهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى وَكَمَا بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ الْكُهَّانِ لَمَّا قَالَ: {إنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِي الْكَلِمَةِ مِائَةَ كِذْبَةٍ} بِخِلَافِ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ وَالْمُحدِّثِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾... وَمَعْنَى الْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ، الْخَارِجِينَ عَنْ الشَّرِيعَةِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِالْغُيُوبِ عَنْ كِهَانَةٍ، وَيُحَرِّكُونَ النُّفُوسَ بِالشِّعْرِ وَنَحْوِهِ، وَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْمُتَنَبِّئِينَ الْكَذَّابِينَ لَهُمْ مَادَّةٌ مِنْ الشَّيَاطِينِ، كَمَا قَدْ رَأَيْنَاهُ كَثِيرًا فِي أَنْوَاعٍ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ وَغَيْرِهَا لِمَنْ نَوَّرَ اللَّهُ صَدْرَهُ وَقَذَفَ فِي قَلْبِهِ مِنْ نُورِهِ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص ١٢٢)
(٢) سبق تخريجه.
(٣) الشورى: الآية ٥٢.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج١/ ص١٢٥)
(٥) رواه الترمذي حديث١٢١٧، وصححه الألباني.
(٦) صحيح ابن ماجه حديث ٦٥٨.

٧- المكاشفات تكون للظالم والمقتصد والسابق بالخيرات:

فليس كل من أخبر بغيوب ومكاشفة يكون محبوبا لله، فالعجائب تكون للجميع.

قال شيخ الإسلام(١): فَأَمَّا مَنْ خَلَطَ الشَّرْعَ الْمُنَزَّلَ بِالْمُبَدَّلِ وَالْمُؤَوَّلِ، وَخَلَطَ الْقَصْدَ الْحَسَنَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، فَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مخلطون فِي عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، وَتَخْلِيطُ هَؤُلَاءِ فِي الْعِلْمِ سِوَى تَخْلِيطِهِمْ وَتَخْلِيطِ غَيْرِهِمْ فِي الْقَصْدِ، وَتَخْلِيطُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَصْدِ سِوَى تَخْلِيطِهِمْ وَتَخْلِيطِ غَيْرِهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. وَ"حُسْنُ الْقَصْد" مِنْ أَعْوَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَى نَيْلِ الْعِلْمِ وَدَرْكِهِ. وَ"الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ" مِنْ أَعْوَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَى حُسْنِ الْقَصْدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ قَائِدٌ وَالْعَمَلَ سَائِقٌ... إلى أن يقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(٢) فَلَا يَخْرُجُ الْوَاحِدُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَحَدِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ: إمَّا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَإِمَّا مُقْتَصِدٌ وَإِمَّا سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ. وَخَوَارِقُ الْعَادَاتِ: إمَّا مُكَاشَفَةٌ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ الْخَارِقِ، وَإِمَّا تَصَرُّفٌ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْقُدْرَةِ الْخَارِقَةِ، وَأَصْحَابُهَا لَا يَخْرُجُونَ عَنْ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ.

٨- آية الكرسي تبطل كيد الكهان:

وهذه من القواعد المهمة أنّ هذه الآية المباركة تعجز الكهّان عن الكهانة؛ إذ أنها تدحر الشياطين الذين يمدون الكهان بمعلوماتهم ومادتهم الكهانية، فتعجز الشياطين ومن ثم الكهان عن الاطلاع على الغيب مع قراءة هذه السورة الكريمة.

قال شيخ الإسلام(٣): وَمَعَ هَذَا فَقَدَ جَرَّبَ الْمُجَرِّبُونَ الَّذِينَ لَا يُحْصُونَ كَثْرَةً أَنَّ لَهَا مِنْ التَّأْثِيرِ فِي دَفْعِ الشَّيَاطِينِ وَإِبْطَالِ أَحْوَالِهِمْ مَا لَا يَنْضَبِطُ مِنْ كَثْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي دَفْعِ الشَّيْطَانِ عَنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَعَنْ الْمَصْرُوعِ وَعَنْ مَنْ تُعِينُهُ الشَّيَاطِينُ، مِثْلَ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالْغَضَبِ وَأَهْلِ الشَّهْوَةِ وَالطَّرَبِ وَأَرْبَابِ السَّمَاعِ الْمُكَاءِ وَالتَّصْدِيَةِ؛ إذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ بِصِدْقٍ دَفَعَتْ الشَّيَاطِينَ وَبَطَلَتْ الْأُمُورُ الَّتِي يُخَيِّلُهَا الشَّيْطَانُ، وَيَبْطُلُ مَا عِنْدَ إخْوَانِ الشَّيَاطِينِ مِنْ مُكَاشَفَةٍ شَيْطَانِيَّةٍ وَتَصَرُّفٍ شَيْطَانِيٍّ؛ إذْ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ يُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ بِأُمُورٍ يَظُنُّهَا الْجُهَّالُ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ تَلْبِيسَاتِ الشَّيَاطِينِ عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٤١١)
(٢) فاطر: الآية ٣٢.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص١٨٦)

٩- وجوب معرفة المحتسب بطريقة دفع صائل الجن، وطرق دحره ووجوب وعظه وجهاده:

وهذه القاعدة ميزان عدل بينه شيخ الإسلام، وبيان لإنصاف الشيخ حتى مع الجن والشياطين، وأنهم إذا كانوا ظالمين أو كافرين وجب معاملتهم بالشرع المطهر، وهذا من دقة فهم هذا الرجل ومن عدله مع كل أحد حتى مع الشياطين، وهي من عجائب ونوادر هذا العقل الكبير المؤمن الذي أوتي فقهاً عميقاً لنصوص الكتاب والسنة، وإدراكا لمقاصد الشريعة ومراميها، ومعرفته الدقيقة بفقه الجهاد وفهمه لمراميه.

قال شيخ الإسلام: وَالصَّائِلُ الْمُعْتَدِي يَسْتَحِقُّ دَفْعُهُ سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ}(١) فَإِذَا كَانَ الْمَظْلُومُ لَهُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ مَالِ الْمَظْلُومِ وَلَوْ بِقَتْلِ الصَّائِلِ الْعَادِي، فَكَيْفَ لَا يَدْفَعُ عَنْ عَقْلِهِ وَبَدَنِهِ وَحُرْمَتِهِ؟ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُفْسِدُ عَقْلَهُ وَيُعَاقِبُهُ فِي بَدَنِهِ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَعَهُ فَاحِشَةَ إنْسِيٍّ بِإِنْسِيٍّ وَإِنْ لَمْ يَنْدَفِعْ إلَّا بِالْقَتْلِ جَازَ قَتْلُهُ. وَأَمَّا إسْلَامُ صَاحِبِهِ وَالتَّخَلِّي عَنْهُ فَهُوَ مِثْلُ إسْلَامِ أَمْثَالِهِ مِنْ الْمَظْلُومِينَ، وَهَذَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يُسْلِمُهُ وَلَا يَظْلِمُهُ}(٢) فَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ أَوْ هُوَ مَشْغُولٌ بِمَا هُوَ أَوْجَبُ مِنْهُ أَوْ قَامَ بِهِ غَيْرُهُ لَمْ يَجِبْ، وَإِنْ كَانَ قَادِرًا وَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ وَلَا يَشْغَلُهُ عَمَّا هُوَ أَوْجَبُ مِنْهُ وَجَبَ عَلَيْهِ. وَأَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ: هَلْ هَذَا مَشْرُوعٌ؟ فَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ يَدْفَعُونَ الشَّيَاطِينَ عَنْ بَنِي آدَمَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، كَمَا كَانَ الْمَسِيحُ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَكَمَا كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ يَفْعَلُ... وَلِهَذَا قَدْ يَحْتَاجُ فِي إبْرَاءِ الْمَصْرُوعِ وَدَفْعِ الْجِنِّ عَنْهُ إلَى الضَّرْبِ فَيُضْرَبُ ضَرْبًا كَثِيرًا جِدًّا، وَالضَّرْبُ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى الْجِنِّيِّ وَلَا يَحُسُّ بِهِ الْمَصْرُوعُ حَتَّى يَفِيقَ الْمَصْرُوعُ وَيُخْبِرَ أَنَّهُ لَمْ يَحُسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِي بَدَنِهِ وَيَكُونُ قَدْ ضُرِبَ بِعَصَا قَوِيَّةٍ عَلَى رِجْلَيْهِ نَحْوَ ثَلَاثِمِائَةٍ أَوْ أَرْبَعِمِائَةِ ضَرْبَةً وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ بِحَيْثُ لَوْ كَانَ عَلَى الْإِنْسِيِّ لَقَتَلَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى الْجِنِّيِّ وَالْجِنِّيُّ يَصِيحُ وَيَصْرُخُ وَيُحَدِّثُ الْحَاضِرِينَ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَمَا قَدْ فَعَلْنَا نَحْنُ هَذَا وَجَرَّبْنَاهُ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً يَطُولُ وَصْفُهَا بِحَضْرَةِ خَلْقٍ كَثِيرِينَ.

١٠- وجوب التفريق بين من يسأل الكهان ممتحناً وبين غيره:

وَأَمَّا إنْ كَانَ يَسْأَلُ الْمَسْئُولَ لِيَمْتَحِنَ حَالَهُ وَيَخْتَبِرَ بَاطِنَ أَمْرِهِ وَعِنْدَهُ مَا يُمَيِّزُ بِهِ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، فَهَذَا جَائِزٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ ابْنَ صَيَّادٍ فَقَالَ: {مَا يَأْتِيك؟ فَقَالَ: يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. قَالَ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ خَبَّأْت لَك خَبِيئًا. قَالَ: الدَّخُّ الدَّخُّ. قَالَ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَك فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ إخْوَانِ الْكُهَّانِ}(٣) وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَهُ

(١) صحيح النسائي حديث ٤١٠٥.
(٢) رواه البخاري حديث ٢٤٤٢، ومسلم ٢٥٨٠.
(٣) سبق تخريجه.

وَيُخْبِرُونَ بِهِ عَنْ الْجِنِّ، كَمَا يَسْمَعُ الْمُسْلِمُونَ مَا يَقُولُ الْكُفَّارُ وَالْفُجَّارُ؛ لِيَعْرِفُوا مَا عِنْدَهُمْ فَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَكَمَا يُسْمَعُ خَبَرُ الْفَاسِقِ وَيُتَبَيَّنُ وَيُتَثَبَّتُ فَلَا يُجْزَمُ بِصِدْقِهِ وَلَا كَذِبِهِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {إذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنَا وَأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾}[(١)] فَقَدْ جَازَ لِلْمُسْلِمِينَ سَمَاعُ مَا يَقُولُونَهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ وَلَمْ يُكَذِّبُوهُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ خَبَرُ عُمَرَ وَكَانَ هُنَاكَ امْرَأَةٌ لَهَا قَرِينٌ مِنْ الْجِنِّ فَسَأَلَهُ عَنْهُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَرَكَ عُمَرَ يَسِمُ إبِلَ الصَّدَقَةِ. وَفِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّ عُمَرَ أَرْسَلَ جَيْشًا فَقَدِمَ شَخْصٌ إلَى الْمَدِينَةِ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ انْتَصَرُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ وَشَاعَ الْخَبَرُ، فَسَأَلَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ فَذَكَرَ لَهُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُو الْهَيْثَمِ بَرِيدُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْجِنِّ، وَسَيَأْتِي بَرِيدُ الْإِنْسِ بَعْدَ ذَلِكَ فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ بِعِدَّةِ أَيَّامٍ.

بحث مهم فيه تخريج أثر أبي موسى -رضي الله عنه- الذي ذكره شيخ الإسلام بصيغة التمريض:

«أبطأ خبر عمر على أبي موسى فأتى امرأة في بطنها شيطان فسألها عنه فقالت: حتى يجيء إلي الشيطان فجاء فسألته عنه فقال: تركته مؤتزرا بكساء يهنأ إبل الصدقة، وذاك لا يراه شيطان إلا خر لمنخره، الملك بين يديه وروح القدس ينطق بلسانه»

القصة رواها ابن أبي الدنيا في كتاب هواتف الجان (ص/١٠٥رقم١٦٥) ورواها عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على فضائل الصحابة (١/٢٤٦): حدثنا شجاع بن مخلد إملاء كلاهما عن يحي بن اليمان عن سفيان عن عمر بن مُحَمَّد عن سالم بن عبد الله، قال: «أبطأ خبر عمر على أبي موسى فأتى امرأة في بطنها شيطان فسألها عنه فقالت: حتى يجيء إلي الشيطان فجاء فسألته عنه فقال: تركته مؤتزرا بكساء يهنأ إبل الصدقة، وذاك لا يراه شيطان إلا خر لمنخره. الملك بين يديه، وروح القدس ينطق بلسانه» هذا لفظ ابن أبي الدنيا.

ولفظ عبد الله بن الإمام أحمد: عن أبي موسى الأشعري قال: «أبطأ عليه خبر عمر، فكلم امرأة في بطنها شيطان، فقالت: حتى يجيء شيطاني فأسأله، قال: رأيت عمر متزرا بكساء يهنأ إبل الصدقة، وقال: لا يراه الشيطان إلا خر لمنخريه، للملك بين عينيه وروح القدس ينطق على لسانه»

(١) سبق تخريجه.

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا به شجاع مرتين: مرة قال: عن أبي موسى، ومرة قال: أبطأ على أبي موسى خبر عم.

الحكم على القصة: هذه القصة واهية بالسقط في الإسناد والطعن في الراوي. وفيها آفتان:

- الآفة الأولى:

يحيى بن يمان، فإنه يأتي بعجائب عن سفيان الثوري، ويخلط في روايته، ويروي أحاديث كثيرة غير محفوظة حتى قال ابن عدي: «ولابن يمان عن الثوري غير ما ذكرت وعامة ما يرويه غير محفوظ، وابن يمان في نفسه لا يتعمد الكذب إلا أنه يخطئ ويشتبه عليه» قال ابن معين: أرجو أن يكون صدوقاً، ومرة قال: لا بأس به، ومرةً قال: ليس بثبت، لم يكن يبالي أي شيء حدث، كان يتوهّم الحديث. قال: وقال وكيع: هذه الأحاديث التي يحدث بها يحيى بن يمان ليست من أحاديث سفيان.

وقال الإمام أحمد: ليس بحجة، وقال: حدث عن الثوري بعجائب لا أدرى لم يزل هكذا أو تغير حين لقيناه أو لم يزل الخطأ في كتبه، وروى من التفسير عن الثوري عجائب، وقال علي بن المديني: صدوق وكان قد فلج فتغير حفظه، وقال أبو داود: يخطئ في الأحاديث ويقلبها. قال يعقوب بن شيبة أيضا: يحيى بن يمان ثقة، أحد أصحاب سفيان، وهو يخطئ كثيرا في حديثه. وقال ابن أبي شيبة: كان سريع الحفظ سريع النسيان. اهـ. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال أيضاً: لَا يُحْتَجُّ بِحَدِيثِهِ لِسُوءِ حِفْظِهِ وَكَثْرَةِ خَطَئِهِ. وقال العجلى: كان من كبار أصحاب الثوري، وكان ثقة جائز الحديث متعبدا معروفا بالحديث صدوقا، إلا أنه فلج بآخره فتغير حفظه، وكان فقيرا صبورا. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما أخطأ، وكان متقشفا. وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق عابد يخطئ كثيراً وقد تغير.

وأورده الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٢٦٧/١١) ونقل فيه أقوال الأئمة:

قال زكريا الساجي: ضعفه أحمد، وقال: حدث عن الثوري بعجائب. وقال حنبل بن إسحاق عن أحمد: ليس بحجة. وقال إبراهيم بن الجنيد عن ابن معين: ليس بثبت لم يكن يبالي أي شيء حدث، كان يتوهم الحديث، قال وكيع: هذه الأحاديث التي يحدث بها يحيى بن يمان ليست من أحاديث الثوري. لذلك لم يرو الإمام مسلم ليحيى بن يمان العجلي من طريق سفيان الثوري. كذا في «تهذيب الكمال» للمزي (٧٥٤٧/٢٦٧/٢٠) وكحدث عن الثوري بعجائب وليست من أحاديث الثوري، وقال الآجري عن أبي داود: يخطئ في الأحاديث ويقلبها، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال يعقوب بن شيبة: يحيى بن يمان أحد أصحاب سفيان وهو يخطئ كثيرًا في حديثه.

وأورده الإمام الذهبي في «الميزان» (٩٦٦١/٤١٦/٤) ونقل أقوال الأئمة فيه: قال مُحَمَّد بن عبد الله بن نُمير: كان سريع الحفظ، سريع النسيان. ذكره أبو بكر بن عياش فقال: ذاك ذاهب الحديث. وقال ابن معين والنسائي: ليس بالقوي.

وأورده الإمام ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٢٣٥/٧) (٢١٣٧/٨٤).

وأخرج عدة أحاديث من منكرات وعجائب يحيى بن اليمان عن سفيان الثوري، ثم قال في آخر ترجمته: «ولابن يمان عن الثوري غير ما ذكرت وعامة ما يرويه غير محفوظ وابن يمان في نفسه لا يتعمد الكذب إلا أنه يخطئ ويشتبه عليه» اهـ.

وأورده الإمام العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢٠٦٥/٤٣٣/٤) وقال: «لا يتابع على حديثه» اهـ.

- الآفة الثانية:

الانقطاع، فرواية سالم بن عبد الله بن عمر عن عمر وأبي موسى -رضي الله عنهما- منقطعة. وسفيان هو الثوري، وعمر بن مُحَمَّد هو ابن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي العمري، أبو حفص المدني: ثقة. وشجاع بن مخلد: ثقة، وعبد الله بن أبي بدر الدوري روى عنه عباس الدوري وأكثر عنه ابن أبي الدنيا، وذكره الخطيب في تاريخ بغداد ولم يحك فيه جرحاً ولا تعديلاً، ولم يجرحه أحد من العلماء فيما أعلم. قال الإمام ابن أبي حاتم في كتابه «المراسيل» (٢٩١/١٢٧): سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب-رضي الله عنهم- قال أبو زرعة: سالم بن عبد الله بن عمر عن جده عمر بن الخطاب، مرسل. اهـ.

وذكر المزي أنه: لا توجد رواية لسالم بن عبد الله بن عمر عن أبي موسى الأشعري. «تهذيب الكمال» للمزي (٢١٣١/١٥/٧). اهـ.

وذكر الشبلي في آكام المرجان (ص/١٦٨) رواية ابن أبي الدنيا، ورواية عبد الله بن الإمام أحمد، ثم قال: «وفي خبر آخر: أنّ عمر أرسل جيشاً فقدم شخص إلى المدينة فأخبر أنهم انتصروا على عدوهم وشاع الخبر فسأل عمر عن ذلك فذكر له، فقال: هذا أبو الهيثم بريد المسلمين من الجن، وسيأتي بريد الإنس فجاء بعد ذلك بعدة أيام»

ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤٥١/٧) كلام الشبلي. وفي الإصابة للحافظ ابن حجر(٤٦٤/٤): «عثيم الجني له ذكر في الفتوح، قال: بينما رجل باليمامة في الليلة الثالثة من نهاوند مر به راكب فقال: من أين؟ قال: من نهاوند وقد فتح الله على النعمان واستشهد، فأتى عمر فأخبره فقال: صدق وصدقت هذا عثيم بريد الجن رأى بريد الإنس، ثم ورد الخبر بذلك بعد أيام وسمي فتح نهاوند فتح الفتوح»

ذكر الشبلي القصة بغير إسناد فلا يصح. وكذا ما ذكره الحافظ في ترجمة عثيم فإنه من رواية الواقدي وسيف بن عمر -وهما متروكان.

والخبر عند ابن جرير الطبري في تاريخه (٥٢٨/٢-٥٢٩) وعنه ابن كثير في البداية والنهاية (١١١/٧) وهو من طريق سيف بن عمر والواقدي وأضرابهما هكذا معضلاً.

١١- حقائق الأمور الغيبية والكشفية الرحمانية:

هذه الحقائق أولى بها أهل الحديث أهل الميراث النبوي، فما لم يكن من طريقهم التي نقلوها عن نبيهم ﷺ كان وحيا شيطانيا.

قال شيخ الإسلام(١): وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ أَخَصُّ بِالرَّسُولِ وَأَتْبَاعِهِ، فَلَهُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَتَخْصِيصِهِ إيَّاهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَتَضْعِيفِ الْأَجْرِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: " أَهْلُ السُّنَّةِ فِي الْإِسْلَامِ كَأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْمِلَلِ" فَهَذَا الْكَلَامُ تَنْبِيهٌ عَلَى مَا يَظُنُّهُ أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ مِنْ نَقْصِ الصَّحَابَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْبَيَانِ أَوْ الْيَدِ وَالسِّنَانِ. وَبَسْطُ هَذَا لَا يَتَحَمَّلُهُ هَذَا الْمَقَامُ.

وَالْمَقْصُودُ: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ زَعَمَ بِلِسَانِ حَالِهِ أَوْ مَقَالِهِ أَنَّ طَائِفَةً غَيْرَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، أَدْرَكُوا مِنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ الْغَيْبِيَّةِ فِي أَمْرِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَأَمْرِ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعَرُّفِ وَاجِبِ الْوُجُودِ وَالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَالْعُلُومِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تَزْكُو بِهَا النُّفُوسُ، وَتَصْلُحُ وَتَكْمُلُ دُونَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، فَهُوَ إنْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِالرُّسُلِ -فَهُوَ جَاهِلٌ فِيهِ شُعْبَةٌ قَوِيَّةٌ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ، وَإِلَّا فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ مِنْ الَّذِينَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢) وَقَدْ يَكُونُ مِنْ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾(٣) وَمِنْ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(٤) وَقَدْ يَبِينُ ذَلِكَ بِالْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ ظَاهِرًا بِالْفِطْرَةِ لِكُلِّ سَلِيمِ الْفِطْرَةِ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ الرَّسُولُ أَكْمَلَ الْخَلْقِ وَأَعْلَمَهُمْ بِالْحَقَائِقِ وَأَقْوَمَهُمْ قَوْلًا وَحَالًا، لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ أَعْظَمُهُمْ مُوَافَقَةً لَهُ وَاقْتِدَاءً بِهِ أَفْضَلَ الْخَلْقِ.

وَلَا يُقَالُ: هَذِهِ الْفِطْرَةُ يُغَيِّرُهَا مَا يُوجَدُ فِي الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِنْ تَفْرِيطٍ وَعُدْوَانٍ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: إنَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ أَكْثَرُ وَالْوَاجِبُ مُقَابَلَةُ الْجُمْلَةِ بِالْجُمْلَةِ فِي الْمَحْمُودِ وَالْمَذْمُومِ، هَذِهِ هِيَ الْمُقَابَلَةُ الْعَادِلَةُ، وَإِنَّمَا غَيْرُ الْفِطْرَةِ قِلَّةُ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّبَاعِ ذَلِكَ، مَعَ مَا يُوجَدُ فِي الْمُخَالِفِينَ لَهَا مِنْ نَوْعِ تَحْقِيقٍ لِبَعْضِ الْعِلْمِ وَإِحْسَانٍ لِبَعْضِ الْعَمَلِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ شُبْهَةً فِي قَبُولِ غَيْرِهِ وَتَرْجِيحِ صَاحِبِهِ، وَلَا غَرَضَ لَنَا فِي ذِكْرِ الْأَشْخَاصِ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ قُتَيْبَةَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ "مُخْتَلِفِ الْحَدِيثِ" وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا لَا يُحْصَى مِنْ الْأُمُورِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ. وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: ذِكْرُ نَفْسِ الطَّرِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ وَتُوَصِّلُ إلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ الْإِرَادِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ، فَمَتَى

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص ٣٢٠)

(٢) البقرة: الآية ١٣.

(٣) غافر: الآية ٥٦.

(٤) الشورى: الآية ١٦.

كَانَ غَيْرُ الرَّسُولِ قَادِرًا عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ أَوْ بَيَانٍ لَهُ أَوْ مَحَبَّةٍ لِإِفَادَةِ ذَلِكَ؟ فَالرَّسُولُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ وَأَحْرَصُ عَلَى الْهُدَى وَأَقْدَرُ عَلَى بَيَانِهِ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَهَذِهِ صِفَاتُ الْكَمَالِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي دُعَاءِ الِاسْتِخَارَةِ: {اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك وَأَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك الْعَظِيمِ. فَإِنَّك تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} فَعَلَّمَنَا ﷺ أَنْ نَسْتَخِيرَ اللَّهَ بِعِلْمِهِ فَيُعَلِّمَنَا مَنْ عِلْمِهِ مَا نَعْلَمُ بِهِ الْخَيْرَ، وَنَسْتَقْدِرَهُ بِقُدْرَتِهِ فَيَجْعَلَنَا قَادِرِينَ؛ إذْ الِاسْتِفْعَالُ هُوَ طَلَبُ الْفِعْلِ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْته فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْته فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ} فَاسْتِهْدَاءُ اللَّهِ طَلَبُ أَنْ يَهْدِيَنَا وَاسْتِطْعَامُهُ طَلَبُ أَنْ يُطْعِمَنَا، هَذَا قُوتُ الْقُلُوبِ وَهَذَا قُوتُ الْأَجْسَامِ وَكَذَلِكَ اسْتِخَارَتُهُ بِعِلْمِهِ وَاسْتِقْدَارُهُ بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: {وَأَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك الْعَظِيمِ} فَهَذَا السُّؤَالُ مِنْ جُودِهِ وَمَنِّهِ وَعَطَائِهِ وَإِحْسَانِهِ الَّذِي يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحَنَانِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَإِنَّك تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ} وَلَمْ يَقُلْ: إنِّي لَا أَرْحَمُ نَفْسِي؛ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ الِاسْتِخَارَةِ يُرِيدُ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ وَيَطْلُبُ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إنْ لَمْ يُعْلِمْهُ اللَّهُ إيَّاهُ وَيُقَدِّرْهُ عَلَيْهِ.

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِالْحَقَائِقِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ، وَأَحَبَّ الْخَلْقِ لِلتَّعْلِيمِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِفَادَةِ، وَأَقْدَرَ الْخَلْقِ عَلَى الْبَيَانِ وَالْعِبَارَةِ -امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ مَنْ هُوَ دُونَهُ أَفَادَ خَوَاصَّهُ مَعْرِفَةَ الْحَقَائِقِ أَعْظَمَ مِمَّا أَفَادَهَا الرَّسُولُ لِخَوَاصِّهِ، فَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ الطَّوَائِفِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ مَا لَيْسَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِالْحَقَائِقِ وَأَبْيَنُ لَهَا مِنْهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا يُذَمُّونَ بِهِ مِنْ جَهْلِ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي طَائِفَةِ الْمُخَالِفِ الذَّامِّ لَهُمْ أَكْثَرُ، فَيَكُونُ الذَّامُّ لَهُمْ جَاهِلًا ظَالِمًا فِيهِ شُعْبَةُ نِفَاقٍ، إذَا كَانَ مُؤْمِنًا، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ. ثُمَّ إنَّ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مَشْهُودٌ بِالْقَلْبِ أَعْلَمُ ذَلِكَ فِي كُلِّ أَحَدٍ مِمَّنْ أَعْرِفُ مُفَصَّلًا. وَهَذِهِ جُمْلَةٌ يُمْكِنُ تَفْصِيلُهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.

١٢- أنّ من يتكهن بميعاد قيام الساعة كاذب:

وقد كذب قوم واعتمدوا في كذبهم على حساب المعجم والجمل في حساب عمر الأمة.

وَسُئِلَ(١) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ هَلْ يَعْلَمُ وَقْتَ السَّاعَةِ؟

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: أَمَّا الْحَدِيثُ الْمَسْئُولُ عَنْهُ كَوْنُهُ ﷺ يَعْلَمُ وَقْتَ السَّاعَةِ فَلَا أَصْلَ لَهُ، لَيْسَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَحْدِيدِ وَقْتِ السَّاعَةِ نَصٌّ أَصْلًا، بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢) أَيْ خَفِيَ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١/ ص٣٧٠)
(٢) النحل: الآية ٣٦.

وَالْأَرْضِ وَقَالَ تَعَالَى لِمُوسَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي فَكَيْفَ أَطَّلِعُ عَلَيْهَا؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ فِي مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ {أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قِيلَ لَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ}[(١)] فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِأَعْلَمَ بِهَا مِنْ السَّائِلِ، وَكَانَ السَّائِلُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ جِبْرِيلُ إلَّا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ، وَحِينَ أَجَابَهُ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّهُ إلَّا أَعْرَابِيًّا، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: إنَّهُ لَيْسَ بِأَعْلَمَ بِالسَّاعَةِ مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَكَيْفَ يَجُوزُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَدَّعِيَ عِلْمَ مِيقَاتِهَا؟ وَإِنَّمَا أَخْبَرَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بِأَشْرَاطِهَا وَهِيَ عَلَامَاتُهَا وَهِيَ كَثِيرَةٌ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا وَبَعْضُهَا لَمْ يَأْتِ بَعْدُ. وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي وَقْتِهَا الْمُعَيَّنِ مِثْلُ الَّذِي صَنَّفَ كِتَابًا سَمَّاهُ "الدُّرَّ الْمُنَظَّمَ فِي مَعْرِفَةِ الْأَعْظَمِ" وَذَكَرَ فِيهِ عَشْرَ دَلَالَاتٍ بَيَّنَ فِيهَا وَقْتَهَا، وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ "حُرُوفِ الْمُعْجَمِ" وَالَّذِي تَكَلَّمَ فِي "عَنْقَاءَ مُغْرِبٍ" وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ صُورَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ أَتْبَاعِهِمْ فَغَالِبُهُمْ كَاذِبُونَ مُفْتَرُونَ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَدَيْهِمْ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ ادَّعَوْا فِي ذَلِكَ الْكَشْفَ وَمَعْرِفَةَ الْأَسْرَارِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(٢)]

١٣- فهم ركن القدر الإيماني وفقه قضية الأسباب من أعظم أسباب النجاة:

سُئِلَ[(٣)] -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنْ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ: الْمَشِيئَةُ مَشِيئَةُ اللَّهِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَأَقْوَامٌ يَقُولُونَ: الْمَشِيئَةُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا فِي الْمَاضِي. مَا الصَّوَابُ؟

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الْمَاضِي مَضَى بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَالْمُسْتَقْبَلُ لَا يَكُونُ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ فِي الْمَاضِي: إنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ إنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إنْ شَاءَ اللَّهُ فَقَدْ أَخْطَأَ، وَمَنْ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَشِيئَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ. وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ يَكُونُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ بِدُونِ مَشِيئَةِ اللَّهِ فَقَدْ أَخْطَأَ، وَمَنْ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَقَدْ أَصَابَ، وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ فَقَدْ كَانَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ قَطْعًا؛ فَاَللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَأَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَالْإِنْسَانُ الْمَوْجُودُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَخْلُوقَ مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، فَمَا خَلَقَهُ فَقَدْ كَانَ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ غَيَّرَهُ بِمَشِيئَتِهِ قَطْعًا. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

ضرورة فهم قضية الاستعانة بالله، والعناية بالدعاء وعلاقة ذلك بالقدر من أسباب النجاة من الكهانة.

وسُئِلَ[(١)] شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَنْ الْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ إنَّ اللَّهَ قَبَضَ قَبْضَتَيْنِ فَقَالَ: هَذِهِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَذِهِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي} فَهَلْ هَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ؟ وَاَللَّهُ قَبَضَهَا بِنَفْسِهِ أَوْ أَمَرَ أَحَدًا مِنْ

---

(١) رواه مسلم حديث ٨.
(٢) الأعراف: الآية ٣٣.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ١٩٠)

الْمَلَائِكَةِ بِقَبْضِهَا؟ وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ فِي: {أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ أَرَاهُ ذُرِّيَّتَهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ إلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ إلَى الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي}(٢) وَهَذَا فِي الصَّحِيحِ.

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- نَعَمْ هَذَا الْمَعْنَى مَشْهُورٌ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلُ مَا فِي مُوَطَّأِ مَالِكٍ وَسُنَنِ أَبِي داود والنسائي وَغَيْرِهِ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، وَفِي لَفْظٍ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾(٣) الْآيَةَ. فَقَالَ عُمَرُ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي لَفْظٍ: سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْت هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إنَّ اللَّهَ إذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ}(٤)...

وَهَذَا الْحَدِيثُ وَنَحْوُهُ فِيهِ فَصْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: الْقَدَرُ السَّابِقُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلِمَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْمَلُوا الْأَعْمَالَ وَهَذَا حَقٌّ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، بَلْ قَدْ نَصَّ الْأَئِمَّةُ: كَمَالِكِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمد أَنَّ مَنْ جحدَ هَذَا فَقَدَ كَفَرَ، بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ كُلَّهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}(٥)...

إلى أن يقول: كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَإِنَّ أَهْلَ السَّعَادَةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَهْلُ الشَّقَاوَةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنْ الْبَيَانِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لِلْأَشْيَاءِ أَسْبَابًا تَكُونُ بِهَا، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا تَكُونُ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُولَدُ لَهُ بِأَنْ يَطَأَ امْرَأَةً فَيُحْبِلَهَا، فَلَوْ قَالَ هَذَا: إذَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ يُولَدُ لِي فَلَا حَاجَةَ إلَى الْوَطْءِ كَانَ أَحْمَقَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ بِمَا يُقَدِّرُهُ مِنْ الْوَطْءِ، وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا يُنْبِتُ لَهُ الزَّرْعَ بِمَا يَسْقِيهِ مِنْ الْمَاءِ وَيَبْذُرُهُ مِنْ الْحَبِّ، فَلَوْ قَالَ: إذَا عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ فَلَا حَاجَةَ إلَى الْبَذْرِ كَانَ جَاهِلًا ضَالًّا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا يَشْبَعُ بِالْأَكْلِ وَهَذَا يُرْوَى بِالشُّرْبِ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ١٩٢)
(٢) سبق تخريجه.
(٣) الأعراف: الآية ١٧٢.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

وَهَذَا يَمُوتُ بِالْقَتْلِ، فَلَا بُدَّ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَكُونُ بِهَا، وَكَذَلِكَ إذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا يَكُونُ سَعِيدًا فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا شَقِيًّا فِي الْآخِرَةِ قُلْنَا: ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْمَلُ بِعَمَلِ الْأَشْقِيَاءِ فَاَللَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ يَشْقَى بِهَذَا الْعَمَلِ فَلَوْ قِيلَ: هُوَ شَقِيٌّ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ كَانَ بَاطِلًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُدْخِلُ النَّارَ أَحَدًا إلَّا بِذَنْبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] فَأَقْسَمَ أَنَّهُ يَمْلَؤُهَا مِنْ إبْلِيسَ وَأَتْبَاعِهِ، وَمَنْ اتَّبَعَ إبْلِيسَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا يُعَاقِبُ اللَّهُ الْعَبْدَ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَعْمَلُهُ حَتَّى يَعْمَلَهُ...

وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاَللَّهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ، وَمَنْ قَالَ: أَنَا لَا أَدْعُو وَلَا أَسْأَلُ اتِّكَالًا عَلَى الْقَدَرِ كَانَ مُخْطِئًا أَيْضًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدُّعَاءَ وَالسُّؤَالَ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُ بِهَا مَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَهُدَاهُ وَنَصْرَهُ وَرِزْقَهُ، وَإِذَا قَدَّرَ لِلْعَبْدِ خَيْرًا يَنَالُهُ بِالدُّعَاءِ لَمْ يَحْصُلْ بِدُونِ الدُّعَاءِ، وَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَعَلِمَهُ مِنْ أَحْوَالِ الْعِبَادِ وَعَوَاقِبِهِمْ فَإِنَّمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ بِأَسْبَابِ يَسُوقُ الْمَقَادِيرَ إلَى الْمَوَاقِيتِ، فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَيْءٌ إلَّا بِسَبَبِ وَاَللَّهُ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ: الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا -نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ.

وقال رحمه الله: فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ نَاظِرًا إلَى الْقَدَرِ فَقَدْ ضَلَّ، وَمَنْ طَلَبَ الْقِيَامَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مُعْرِضًا عَنْ الْقَدَرِ فَقَدْ ضَلَّ، بَلْ الْمُؤْمِنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَنَعْبُدُهُ اتِّبَاعًا لِلْأَمْرِ وَنَسْتَعِينُهُ إيمَانًا بِالْقَدَرِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْت لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}[(٢)] فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْئَيْنِ: أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَهُوَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ وَهُوَ الْعِبَادَةُ وَهُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللَّهِ وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ أَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

سُئِلَ[(٣)] الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَنْ قَوْلِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ: نَازَعْت أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ.

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، جَمِيعُ الْحَوَادِثِ كَائِنَةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نُزِيلَ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، وَنُزِيلَ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ وَالْبِدْعَةَ بِالسُّنَّةِ وَالْمَعْصِيَةَ بِالطَّاعَةِ مِنْ أَنْفُسِنَا وَمِنْ عِنْدِنَا، فَكُلُّ مَنْ كَفَرَ أَوْ فَسَقَ أَوْ عَصَى فَعَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللَّهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُ عَنْ الْمُنْكَرِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مَا يَعْمَلُهُ مِنْ الْمُنْكَرِ وَالْكُفْرِ

(١) ص: الآية ٨٥.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٦٦)

وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ بِقَدَرِ اللَّهِ، لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدَعَ السَّعْيَ فِيمَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ مُتَّكِلًا عَلَى الْقَدَرِ، بَلْ يَفْعَلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}[1] فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَالَّذِي يَنْفَعُهُ يَحْتَاجُ إلَى مُنَازَعَةِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَدَفْعِ مَا قُدِّرَ مِنْ الشَّرِّ بِمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنْ الْخَيْرِ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللَّهِ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِهِ وَأَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ خَالِصًا لِلَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَالَّذِي قَبْلَهُ حَقِيقَةُ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، وَأَنْ يَكُونَ مُسْتَعِينًا بِاَللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، وَفِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ إزَالَةُ مَا قَدَّرَ مِنْ الشَّرِّ بِمَا قَدَّرَ مِنْ الْخَيْرِ، وَدَفْعُ مَا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ وَيَسْعَى فِيهِ مِنْ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ بِمَا يَدْفَعُهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[2] كَمَا يَدْفَعُ شَرَّ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ الَّذِي فِي نُفُوسِهِمْ وَالَّذِي سَعَوْا فِيهِ بِالْحَقِّ، كَإِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ، وَكَالدُّعَاءِ وَالصَّدَقَةِ الذين يَدْفَعَانِ الْبَلَاءَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: {إنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[3] فَالشَّرُّ تَارَةً يَكُونُ قَدْ انْعَقَدَ سَبَبُهُ وَخِيفَ فَيَدْفَعُ وُصُولَهُ فَيَدْفَعُ الْكُفَّارَ إذَا قَصَدُوا بِلَادَ الْإِسْلَامِ، وَتَارَةً يَكُونُ قَدْ وُجِدَ فَيُزَالُ وَتُبَدَّلُ السَّيِّئَاتُ بِالْحَسَنَاتِ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ بَابِ دَفْعِ مَا قُدِّرَ مِنْ الشَّرِّ بِمَا قُدِّرَ مِنْ الْخَيْرِ، وَهَذَا وَاجِبٌ تَارَةً وَمُسْتَحَبٌّ تَارَةً. فَالَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ السُّلُوكِ وَالْإِرَادَةِ يَشْهَدُونَ رُبُوبِيَّةَ الرَّبِّ وَمَا قَدَّرَهُ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْهَى عَنْهَا، فَيَقِفُونَ عِنْدَ شُهُودِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالتَّسْلِيمِ، وَهَذَا جَهْلٌ وَضَلَالٌ قَدْ يُؤَدِّي إلَى الْكُفْرِ وَالِانْسِلَاخِ مِنْ الدِّينِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَرْضَى بِمَا يَقَعُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، بَلْ أَمَرَنَا أَنْ نَكْرَهَ ذَلِكَ وَنَدْفَعَهُ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ{مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ}[4] وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[5] وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[6] فَكَيْفَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا مَا لَا يَرْضَاهُ لَنَا؟ وَهُوَ جَعَلَ مَا يَكُونُ مِنْ الشَّرِّ مِحْنَةً لَنَا وَابْتِلَاءً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[7] وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ بِالْقِتَالِ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

(١) سبق تخريجه.
(٢) البقرة: الآية ٢٥١.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) الزمر: الآية ٧.
(٦) البقرة: الآية ٢٠٥.
(٧) الفرقان: الآية ٢٠.

لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(١) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدِ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ}(٢) فَالْمُؤْمِنُ إذَا كَانَ صَبُورًا شَكُورًا يَكُونُ مَا يُقْضَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَصَائِبِ خَيْرًا لَهُ، وَإِذَا كَانَ آمِرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنْ الْمُنْكَرِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِهِ كَانَ مَا قُدِّرَ لَهُ مِنْ كُفْرِ الْكُفَّارِ سَبَبًا لِلْخَيْرِ فِي حَقِّهِ وَكَذَلِكَ إذَا دَعَاهُ الشَّيْطَانُ وَالْهَوَى كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ، فَيَكُونُ مَا يُقَدَّرُ مِنْ الشَّرِّ إذَا نَازَعَهُ وَدَافَعَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ سَبَبًا لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَحُصُولِ الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ وَارْتِفَاعِ الدَّرَجَاتِ، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ. وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وَسُئِلَ(٣) عَنْ قَوْلِ الْخَطِيبِ بْنِ نباتة: أَبْرَأُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَّا إلَيْهِ، فَأَنْكَرَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَقَالَ: مَا يَصِحُّ ذَلِكَ إلَّا بِحَذْفِ الِاسْتِثْنَاءِ بِأَنْ تَقُولَ: أَبْرَأُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَيْهِ، فَاسْتَدَلَّ مَنْ نَصَرَ قَوْلَ الْخَطِيبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(٤) فَهَلْ أَصَابَ الْمُنْكِرُ أَمْ لَا؟

الْجَوَابُ

فَأَجَابَ: مَا ذَكَرَ الْخَطِيبُ صَحِيحٌ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَهُ، وَمَا ذَكَرَهُ الْآخَرُ مِنْ حَذْفِ الِاسْتِثْنَاءِ لَهُ مَعْنًى آخَرُ صَحِيحٌ؛ فَإِنَّهُ إذَا قَالَ بَرِئْتُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَيْهِ كَانَ الْمَعْنَى بَرِئْتُ إلَيْهِ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي: أَيْ مِنْ دَعْوَى حَوْلِي وَقُوَّتِي، كَمَا يُقَالُ: بَرِئْتُ إلَى فُلَانٍ مِنْ الدَّيْنِ. ذَكَرَهُ ثَعْلَبٌ فِي فَصِيحِهِ، وَالْمَعْنَى بَرِئْتُ إلَيْهِ مِنْ هَذَا وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إلَيْكَ مَا كَانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾(٥) وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: {اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ}(٦) وَقَوْلُ الْأَنْصَارِيِّ يَوْمَ أُحُدٍ: اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ. وَهَذَا الصَّنِيعُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الدَّيْنِ: الْمَعْنَى أَوْصَلْتُهُ إلَيْهِ وَفِي غَيْرِهِ اعْتَذَرْتُ إلَيْهِ أَوْ أَلْقَيْتُ إلَيْهِ وَضُمِّنَ مَعْنَى أَلْقَيْتُ إلَيْهِ الْبَرَاءَةَ كَمَا يُقَالُ: أَلْقَى إلَيْهِ الْقَوْلَ ﴿فَأَلْقَوْا إلَيْهِمُ الْقَوْلَ إنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾(٧) وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ﴾(٨) فَالتَّبَرِّي قَوْلٌ يُلْقَى إلَى الْمُخَاطَبِ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقًا بِالْبَرَاءَةِ، وَالْخَطِيبُ لَمْ يُرِدْ هَذَا الْمَعْنَى بَلْ أَرَادَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ أَنْ يُلْجِئَ ظَهْرَهُ إلَّا إلَى اللَّهِ وَيُفَوِّضَ أَمْرَهُ إلَّا إلَى اللَّهِ وَيَتَوَجَّهَ فِي أَمْرِهِ إلَّا إلَى اللَّهِ وَيَرْغَبَ

---

(١) محمد: الآية ٤.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٦٧)
(٤) الزخرف: الآية ٢٧.
(٥) القصص: الآية ٦٢.
(٦) رواه البخاري حديث ٦١٨٩.
(٧) النحل: الآية ٨٧.
(٨) النساء: الآية ١٧١.

فِي أَمْرِهِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: {إِذَا أَوَيْتَ إِلَى مَضْجَعِكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفَسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ}[1] فَمَعْنَى قَوْلِهِ: وَأَبْرَأُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا إِلَيْهِ. أَبْرَأُ مِنْ أَنْ أُثْبِتَ لِغَيْرِهِ حَوْلًا وَقُوَّةً أَلْتَجِئُ إِلَيْهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا أَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْهِ.

وَهُنَا مَعْنًى ثَالِثٌ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: أَبْرَأُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ أَيْ أَبْرَأُ مِنْ أَنْ أَتَبَرَّأَ وَأَعْتَقِدَ وَأَدَّعِيَ حَوْلًا أَوْ قُوَّةً إِلَّا بِهِ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ لَكِنَّ الْخَطِيبَ قَصَدَ الْمَعْنَى الْأَوْسَطَ الَّذِي يَدُلُّ لَفْظُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ لَهُ حَوْلٌ وَقُوَّةٌ يُلْجَأُ إِلَيْهِ وَيُسْتَنَدُ إِلَيْهِ فَضُمِّنَ مَعْنَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ مَعْنَى الِالْتِجَاءِ، فَصَارَ التَّقْدِيرُ أَبْرَأُ مِنْ الِالْتِجَاءِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا الْحَالِ فَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِمَعْنَى الِالْتِجَاءِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ لَا مَعْنَى أَبْرَأُ، وَلَمَّا ظَنَّ الْمُنْكِرُ عَلَى الْخَطِيبِ أَنَّ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ مُتَعَلِّقٌ بِلَفْظِ أَبْرَأُ أَنْكَرَ الِاسْتِثْنَاءَ، وَلَوْ أَرَادَ الْخَطِيبُ هَذَا لَكَانَ حَذْفُ حَرْفِ الِاسْتِثْنَاءِ هُوَ الْوَاجِبَ، لَكِنْ لَمْ يُرِدْهُ بَلْ أَرَادَ مَا لَا يَصِحُّ إِلَّا مَعَ الِاسْتِثْنَاءِ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مُفَرَّغٌ فُرِّغَ مَا قَبْلَ الِاسْتِثْنَاءِ لِمَا بَعْدَهُ، وَالْمُفَرَّغُ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ الْمُوجَبِ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى. وَلَفْظُ "الْبَرَاءَةِ" وَإِنْ كَانَ مُثْبَتًا فَفِيهِ مَعْنَى السَّلْبِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[2] فَالْحِفْظُ لَفْظٌ مُثْبَتٌ لَكِنْ تَضَمَّنَ مَعْنَى مَا سِوَى الْمَذْكُورِ، فَالتَّقْدِيرُ لَا يَكْشِفُونَهَا إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ، وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْبَرَاءَةِ وَقَوْلُ الْخَلِيلِ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ اسْتِثْنَاءٌ تَامٌّ ذُكِرَ فِيهِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، لَكِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ شَيْءٍ لَا مِنْ لَا شَيْءٍ، وَالْمُطَابِقُ لَهُ أَنْ يُقَالَ بَرِئْتُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَيْهِ. لَكِنَّ الْمُسْتَدِلَّ بِالْآيَةِ أَخَذَ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَهُوَ التَّبَرِّي مِمَّا سِوَى اللَّهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَهُ الْمُسْتَدِلُّ بِالْآيَةِ مَعْنًى صَحِيحٌ بِاعْتِبَارِ دَلَالَتِهِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَهُوَ الْبَرَاءَةُ مِمَّا سِوَى اللَّهِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[3] وَهَذَا يُنَاسِبُ مَقْصُودَ الْخَطِيبِ، فَإِنَّ مَقْصُودَهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِمَّا سِوَى اللَّهِ لَيْسَ مَقْصُودُهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ إِلَيْهِ، لَكِنَّ الْخَطِيبَ قَصَدَ الْبَرَاءَةَ مِنْ الِالْتِجَاءِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَالِالْتِجَاءُ إِلَيْهِ دَاخِلٌ فِي عِبَادَتِهِ فَهُوَ بَعْضُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يَتَبَرَّءُوا مِنْ أَنْ يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ أَوْ يَتَوَكَّلُوا إِلَّا عَلَيْهِ، وَهَذَا تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ بِهِ الْكُتُبَ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مَقْصُودُهُ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ فِي مَسْأَلَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَهُ الْخَطِيبُ وَهُوَ مَعْنًى صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ

---

(١) رواه البخاري حديث ٢٤٧، ومسلم ٢٧١٠.
(٢) المؤمنون: الآية ٥,٦.
(٣) الممتحنة: الآية ٤.

لَفْظُهُ بِحَقَائِقِ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ وَالْمُنْكِرُ قَصَدَ مَعْنًى صَحِيحًا، وَالْمُسْتَدِلُّ قَصَدَ مَعْنًى صَحِيحًا، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْوِي كَثِيرًا مِنْ نَفْيِ مَا لَا يَعْلَمُ إلَّا مِنْ إثْبَاتِ مَا يَعْلَمُ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

١٤- مخالفة الكتاب والسنة في ركن القدر وصفات الله -يفتح باب الكهانة:[١]

الفهم السقيم المنحرف المخالف للكتاب والسنّة في ركن القدر وصفات الله يفتح باب الكهانة والسحر، ويخدع الشيطان أولئك المنحرفين عن جادة الكتاب والسنّة في ذلك.

وَالْمَقْصُودُ الْكَلَامُ عَلَى مَنْ نَفَى الْحُكْمَ وَالْأَسْبَابَ وَالْعَدْلَ فِي الْقَدَرِ مُوَافَقَةً لِجَهْمِ، وَهِيَ بِدْعَتُهُ الثَّانِيَةُ بِخِلَافِ الْإِرْجَاءِ فَإِنَّهُ مَنْسُوبٌ إلَى طَوَائِفَ غَيْرِهِ، فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إنَّ الرَّبَّ يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا تَجِدُ مَنْ اتَّبَعَهُمْ غَيْرَ مُعَظِّمٍ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، بَلْ يَنْحَلُّ عَنْهُ أَوْ عَنْ بَعْضِهِ، وَيَتَكَلَّفُ لِمَا يَعْتَقِدُهُ، فَإِنَّهُمْ إذَا وَافَقُوا جَهْمًا وَالْأَشْعَرِيَّ فِي أَنَّ الْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ كَوْنُهُ مَأْمُورًا أَوْ مَحْظُورًا، وَذَلِكَ فَرْقٌ يَعُودُ إلَى حَظِّ الْعَبْدِ، وَهُمْ يَدَّعُونَ الْفَنَاءَ عَنْ الْحُظُوظِ، فَتَارَةً يَقُولُونَ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ: إنَّهُ مِنْ مَقَامِ التَّلْبِيسِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: يَفْعَلُ هَذَا لِأَجْلِ أَهْلِ الْمَارَسْتَانِ أَيْ الْعَامَّةِ، كَمَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ الْمَغْرِبِيُّ إلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ. وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ إذَا عَظُمَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ غَايَتَهُ أَنْ يَقُولَ كَمَا نُقِلَ عَنْ الشاذلي: يَكُونُ الْجَمْعُ فِي قَلْبِكَ مَشْهُودًا، وَالْفَرْقُ عَلَى لِسَانِكَ مَوْجُودًا، كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِهِ وَكَلَامِ غَيْرِهِ أَقْوَالٌ وَأَدْعِيَةٌ وَأَحْزَابٌ تَسْتَلْزِمُ تَعْطِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، مِثْلَ دَعْوَى أَنَّ اللَّهَ يُعْطِيهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ أَعْظَمَ مِمَّا يُعْطِيهِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا يُوجِبُ أَنَّهُ يَجُوزُ عِنْدَهُ أَنْ يَجْعَلَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَوْ أَفْضَلَ، وَيَدْعُونَ بِأَدْعِيَةٍ فِيهَا اعْتِدَاءٌ كَمَا يُوجَدُ فِي حِزْبِ الشاذلي. وَآخَرُونَ مِنْ عَوَامِّهِمْ يُجَوِّزُونَ أَنْ يُكَرِّمَ اللَّهُ بِكَرَامَاتِ أَكْبَرِ الْأَوْلِيَاءِ مَنْ يَكُونُ فَاجِرًا بَلْ كَافِرًا، وَيَقُولُونَ : هَذِهِ مَوْهِبَةٌ وَعَطِيَّةٌ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ تِلْكَ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَتَكُونُ مِنْ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ مِثْلُهَا لِلسَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢] وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٠٨)
(٢) البقرة: الآية ١٠١:١٠٣.

حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ}[1] الْحَدِيثَ. وَالْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ جَاءَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ الْقُرْآنُ، عَدَلَ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَيْهِمْ إلَى أَنْ نَبَذَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَاتَّبَعَ مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ فَلَا يُعَظِّمُ مَنْ أَمَرَ الْقُرْآنُ بِمُوَالَاتِهِ، وَلَا يُعَادِي مَنْ أَمَرَ الْقُرْآنُ بِمُعَادَاتِهِ، بَلْ يُعَظِّمُ مَنْ رَآهُ يَأْتِي بِبَعْضِ الْخَوَارِقِ الَّتِي تَأْتِي بِمِثْلِهَا السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ بِإِعَانَةِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، وَهِيَ تَحْصُلُ بِمَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ. ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَلَكِنْ يُعَظِّمُهُ لِهَوَاهُ وَيُفَضِّلُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ، وَهَؤُلَاءِ كُفَّارٌ، كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ وَهَؤُلَاءِ ضَاهَوْا الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنْ الشَّيَاطِينِ، وَقَدْ يَقَعُ فِي هَذَا طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَأَهْلِ الْعِبَادَةِ وَالتَّصَوُّفِ، حَتَّى جَوَّزُوا عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ لِمَا رَأَوْهُ فِيهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي تُعِينُهُمْ عَلَيْهَا الشَّيَاطِينُ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهَا بَعْضُ أَغْرَاضِهِمْ مِنْ الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ، فَلَمْ يُبَالُوا بِشِرْكِهِمْ بِاَللَّهِ وَبِكُفْرِهِمْ بِهِ وَبِكِتَابِهِ إذَا نَالُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْلِيمِ ذَلِكَ لِلنَّاسِ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُ لِرِئَاسَةِ أَوْ مَالٍ يَنَالُونَهُ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ عَلِمُوا الْكُفْرَ وَالشِّرْكَ وَدَعَوْا إلَيْهِ، بَلْ حَصَلَ عِنْدَهُمْ رَيْبٌ وَشَكٌّ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ خَاطَبَ الْجُمْهُورَ بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ لِلْمَصْلَحَةِ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَدَخَلَ فِي رَأْيِ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، وَهَذَا مِمَّا ضَاهَوْا بِهِ فَارِسَ وَالرُّومَ، فَإِنَّ فَارِسَ كَانَتْ تُعَظِّمُ الْأَنْوَارَ وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ وَلِلنَّارِ، وَالرُّومَ كَانُوا قَبْلَ النَّصْرَانِيَّةِ مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ، فَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ الَّذِينَ أَشْبَهُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ ضَاهَوْا أَهْلَ الْكِتَابِ فِيمَا بُدِّلَ أَوْ نُسِخَ، وَهَؤُلَاءِ ضَاهَوْا مَنْ لَا كِتَابَ لَهُ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالنُّفُوسُ مَفْطُورَةٌ عَلَى عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ مَوْجُودٍ فِيهَا بِالْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا خَلَقَ النَّاسُ، كَمَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾[2] وَقَالَ: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3]

١٥- وجوب معرفة الأسباب الشرعية التي يحصل بها الرزق، والأسباب الصحيحة التي يعرف بها موارد الخير، وكيفية الاستعلام عنه:

سُئِلَ[4] شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنْ الرِّزْقِ هَلْ يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ؟ وَهَلْ هُوَ مَا أَكَلَ أَوْ مَا مَلَكَهُ الْعَبْدُ؟

---

(١) رواه البخاري حديث ٣٤٥٦، ومسلم ٢٦٦٩.
(٢) الشعراء: الآية ٢٤.
(٣) طه: الآية ٥٠,٤٩.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٢٦٢)

الْجَوَابُ:

فَأَجَابَ: الرِّزْقُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: مَا عَلِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يَرْزُقُهُ فَهَذَا لَا يَتَغَيَّرُ. وَالثَّانِي: مَا كَتَبَهُ وَأَعْلَمَ بِهِ الْمَلَائِكَةَ فَهَذَا يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بِحَسَبِ الْأَسْبَابِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَأْمُرُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَكْتُبَ لَهُ رِزْقًا، وَإِنْ وَصَلَ رَحِمَهُ زَادَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ}[1] وَكَذَلِكَ عُمْرُ داود زَادَ سِتِّينَ سَنَةً فَجَعَلَهُ اللَّهُ مِائَةً بَعْدَ أَنْ كَانَ أَرْبَعِينَ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ عُمَرَ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي شَقِيًّا فَامْحُنِي وَاكْتُبْنِي سَعِيدًا، فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْله تَعَالَى عَنْ نُوحٍ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2] وَشَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ.

وَالْأَسْبَابُ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الرِّزْقُ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَكَتَبَهُ، فَإِنْ كَانَ قَدْ تَقَدَّمَ بِأَنَّهُ يَرْزُقُ الْعَبْدَ بِسَعْيِهِ وَاكْتِسَابِهِ أَلْهَمَهُ السَّعْيَ وَالِاكْتِسَابَ، وَذَلِكَ الَّذِي قَدَّرَهُ لَهُ بِالِاكْتِسَابِ لَا يَحْصُلُ بِدُونِ الِاكْتِسَابِ، وَمَا قَدَّرَهُ لَهُ بِغَيْرِ اكْتِسَابٍ كَمَوْتِ مَوْرُوثِهِ يَأْتِيهِ بِهِ بِغَيْرِ اكْتِسَابٍ، وَالسَّعْيُ سعيان: سَعْيٌ فِيمَا نُصِبَ لِلرِّزْقِ كَالصِّنَاعَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ، وَسَعْيٌ بِالدُّعَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْإِحْسَانِ إلَى الْخَلْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

قَالَ[3] الْخَلِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4] فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِزْقٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى ذَلِكَ، فَإِذَا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنْ اللَّهِ صَارَ عَبْدًا لِلَّهِ فَقِيرًا إلَيْهِ، وَإِنْ طَلَبَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ صَارَ عَبْدًا لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ فَقِيرًا إلَيْهِ. وَلِهَذَا كَانَتْ "مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ" مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ، وَفِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ كَقَوْلِهِ ﷺ: {لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِزْعَةُ لَحْمٍ}[5] وَقَوْلِهِ: {مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ خُمُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ}[6] وَقَوْلِهِ: {لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ إلَّا لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ}[7] هَذَا الْمَعْنَى فِي الصَّحِيحِ، وَفِيهِ أَيْضًا: {لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَذْهَبَ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ} وَقَالَ: {مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ}[8] فَكَرِهَ أَخْذَهُ مِنْ سُؤَالِ اللِّسَانِ وَاسْتِشْرَافِ الْقَلْبِ وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: {مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) نوح: الآية ٣,٤.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٦٢)
(٤) العنكبوت: الآية ١٧.
(٥) رواه البخاري حديث ١٤٧٤، ومسلم١٠٤٠.
(٦) رواه أبو داود حديث ١٦٢٦، وهو في الصحيحة برقم ٤٩٩.
(٧) ضعيف الجامع رقم ١٧٨٠.
(٨) رواه البخاري حديث ٧١٦٣.

يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ}[1] وَأَوْصَى خَوَاصَّ أَصْحَابِهِ أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، وَفِي الْمُسْنَدِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدِ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ، وَيَقُولُ: إِنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ {أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَايَعَهُ فِي طَائِفَةٍ وَأَسَرَّ إِلَيْهِمْ كَلِمَةً خَفِيَّةً: أَنْ لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا فَكَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ، وَلَا يَقُولُ لِأَحَدِ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ}[2] وَقَدْ دَلَّتْ النُّصُوصُ عَلَى الْأَمْرِ بِمَسْأَلَةِ الْخَالِقِ وَالنَّهْيِ عَنْ مَسْأَلَةِ الْمَخْلُوقِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[3] وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: {إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ}[4] وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَلِيلِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَالْإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حُصُولِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ الرِّزْقِ وَنَحْوِهِ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ لِلَّهِ، فَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ وَإِلَيْهِ يَشْتَكِي... وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ، فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ، وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ، وَصَارَ فِيهِ مِنْ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[5] فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا دَفْعٌ لِلْمَكْرُوهِ وَهُوَ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ، وَفِيهَا تَحْصِيلُ الْمَحْبُوبِ وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ وَحُصُولُ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَكْبَرُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عِبَادَةٌ لِلَّهِ وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ لِلَّهِ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ، وَالْقَلْبُ خُلِقَ يُحِبُّ الْحَقَّ وَيُرِيدُهُ وَيَطْلُبُهُ، فَلَمَّا عَرَضَتْ لَهُ إِرَادَةُ الشَّرِّ طَلَبَ دَفْعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُفْسِدُ الْقَلْبَ كَمَا يَفْسُدُ الزَّرْعُ بِمَا يَنْبُتُ فِيهِ مِنْ الدَّغَلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[6] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[7] وَقَالَ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾[8] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[9] فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ غَضَّ الْبَصَرِ وَحِفْظَ الْفَرْجِ هُوَ أَزْكَى لِلنَّفْسِ،

---

(١) رواه البخاري حديث١٤٦٩.
(٢) رواه مسلم حديث ١٠٤٣.
(٣) الشرح: الآية ٧,٨.
(٤) صحيح الترمذي حديث ٢٥١٦.
(٥) العنكبوت: الآية ٤٥.
(٦) الشمس: الآية ٩,١٠.
(٧) الأعلى: الآية ١٤,١٥.
(٨) النور: الآية ٣٠.
(٩) النور: الآية ٢١.

وَبَيَّنَ أَنَّ تَرْكَ الْفَوَاحِشِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ وَزَكَاةُ النُّفُوسِ تَتَضَمَّنُ زَوَالَ جَمِيعِ الشُّرُورِ مِنْ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مُقَدَّمَهُمْ وَالْمُطَاعَ فِيهِمْ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يَرْجُوهُمْ وَيَخَافُهُمْ، فَيَبْذُلُ لَهُمْ الْأَمْوَالَ وَالْوِلَايَاتِ وَيَعْفُو عَنْهُمْ لِيُطِيعُوهُ وَيُعِينُوهُ، فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ رَئِيسٌ مُطَاعٌ وَفِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ لَهُمْ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَاهُمَا فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِلْآخَرِ وَكِلَاهُمَا تَارِكٌ لِحَقِيقَةِ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ تَعَاوُنُهُمَا عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ كَانَا بِمَنْزِلَةِ الْمُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى الْفَاحِشَةِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الشَّخْصَيْنِ لِهَوَاهُ الَّذِي اسْتَعْبَدَهُ وَاسْتَرَقَّهُ يَسْتَعْبِدُهُ الْآخَرُ.

كما قال رحمه الله(١): وَاَللَّهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ وَيُرْزَقُ وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ وَيَعِزُّ وَيُذِلُّ، وَهُوَ – سُبْحَانَهُ– مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَالْأَسْبَابُ الَّتِي تَفْعَلُهَا الْعِبَادُ مِنْهَا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَبَاحَهُ، فَهَذَا يُسْلَكُ وَمِنْهَا مَا نَهَى عَنْهُ نَهْيًا خَالِصًا أَوْ كَانَ مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِهَا، فَهَذَا لَا يُسْلَكُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(٢) بَيَّنَ سُبْحَانَهُ ضَلَالَ الَّذِينَ يَدَعُونَ الْمَخْلُوقَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْمَخْلُوقِينَ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا شَرِكَةَ لَهُمْ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا عَوْنَ لَهُ وَلَا ظَهِيرَ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ يُشَبِّهُونَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ إذَا كَانَتْ لَك حَاجَةٌ: اسْتَوْحِ الشَّيْخَ فُلَانًا فَإِنَّك تَجِدُهُ أَوْ تَوَجَّهْ إلَى ضَرِيحِهِ خُطُوَاتٍ وَنَادِ: يَا شَيْخَ، تُقْضَى حَاجَتُك. وَهَذَا غَلَطٌ لَا يَحِلُّ فِعْلُهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الدَّاعِينَ لِغَيْرِ اللَّهِ مَنْ يَرَى صُورَةَ الْمَدْعُوِّ أَحْيَانًا، فَذَلِكَ شَيْطَانٌ يُمَثِّلُ لَهُ كَمَا وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِعَدَدٍ كَثِيرٍ، وَنَظِيرٌ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْجُهَّالِ مِنْ أَتْبَاعِ الشَّيْخِ عَدِيٍّ وَغَيْرِهِ: كُلُّ رِزْقٍ لَا يَجِيءُ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ لَا أُرِيدُهُ.

وَالْعَجَبُ مِنْ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ يَسْتَوْحِي مَنْ هُوَ مَيِّتٌ وَيَسْتَغِيثُ بِهِ وَلَا يَسْتَغِيثُ بِالْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: إذَا كَانَتْ لَك حَاجَةٌ إلَى مَلِكٍ تَوَسَّلْت إلَيْهِ بِأَعْوَانِهِ فَهَكَذَا يَتَوَسَّلُ إلَيْهِ بِالشُّيُوخِ، وَهَذَا كَلَامُ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ لَا يَعْلَمُ حَوَائِجَ رَعِيَّتِهِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهَا وَحْدَهُ وَلَا يُرِيدُ ذَلِكَ إلَّا لِغَرَضٍ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَالْأَسْبَابُ مِنْهُ وَإِلَيْهِ، وَمَا مِنْ سَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ إلَّا دَائِرٌ مَوْقُوفٌ عَلَى أَسْبَابٍ أُخْرَى وَلَهُ مُعَارَضَاتٌ، فَالنَّارُ لَا تُحْرِقُ إلَّا إذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا فَلَا تُحْرِقُ السمندل، وَإِذَا شَاءَ اللَّهُ مَنَعَ أَثَرَهَا كَمَا فَعَلَ بِإِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَأَمَّا مَشِيئَةُ الرَّبِّ فَلَا تَحْتَاجُ إلَى غَيْرِهِ وَلَا مَانِعَ لَهَا، بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص ١٢٣)
(٢) سبأ: الآية ٢٢,٢٣.

لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ مِنْ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا يُحْسِنُ إلَيْهِمْ وَيَرْحَمُهُمْ وَيَكْشِفُ ضُرَّهُمْ مَعَ غِنَاهُ عَنْهُمْ وَافْتِقَارِهِمْ إلَيْهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١) فَنَفَى الرَّبَّ هَذَا كُلَّهُ فَلَمْ يُبْقِ إلَّا الشَّفَاعَةَ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(٢) وَقَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٣) فَهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُهَا فَالْجَمِيعُ مِنْهُ وَحْدَهُ.

١٦- التوكل والاستعانة بالله يرجى بهما النفع ويحصل بهما الخير والرزق:

لا يحصل ذلك بالكهانة، فالكهانة معونات شيطانية إذا حصل بها خير عاجل قليل أعقبته الحسرات دنيا وآخرة، أما التوكل والاستعانة فبهما الخير الهنيء المريء، رزقنا الله وإياك.

وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةٌ بِاَللَّهِ مُدَبَّرَةٌ بِأَمْرِهِ وَيَشْهَدُ كَثْرَتَهَا مَعْدُومَةً بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَصْنُوعَاتِ وَإِلَهُهَا وَخَالِقُهَا وَمَالِكُهَا، فَيَكُونُ مَعَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ عَلَى اللَّهِ إخْلَاصًا لَهُ وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً وَاسْتِعَانَةً وَتَوَكُّلًا عَلَى اللَّهِ وَمُوَالَاةً فِيهِ وَمُعَادَاةً فِيهِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ -نَاظِرًا إلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مُمَيِّزًا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، يَشْهَدُ تَفَرُّقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَكَثْرَتَهَا مَعَ شَهَادَتِهِ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ، وَهَذَا هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ الْمُسْتَقِيمُ وَذَلِكَ وَاجِبٌ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ، وَشَهَادَتِهِ وَذِكْرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ فِي حَالِ الْقَلْبِ وَعِبَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمُوَالَاتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَذَلِكَ تَحْقِيقُ شَهَادَةِ "أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ" فَإِنَّهُ يَنْفِي عَنْ قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ مَا سِوَى الْحَقِّ وَيُثْبِتُ فِي قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ الْحَقِّ، فَيَكُونُ نَافِيًا لِأُلُوهِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ مُثْبِتًا لِأُلُوهِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ اجْتِمَاعَ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى مُفَارَقَةِ مَا سِوَاهُ، فَيَكُونُ مُفَرِّقًا فِي عِلْمِهِ وَقَصْدِهِ، فِي شَهَادَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ -بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، بِحَيْثُ يَكُونُ عَالِمًا بِاَللَّهِ تَعَالَى ذَاكِرًا لَهُ عَارِفًا بِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ عَالِمٌ بِمُبَايَنَتِهِ لِخَلْقِهِ وَانْفِرَادِهِ عَنْهُمْ وَتَوَحُّدِهِ دُونَهُمْ، وَيَكُونُ مُحِبًّا لِلَّهِ مُعَظِّمًا لَهُ عَابِدًا لَهُ رَاجِيًا لَهُ خَائِفًا مِنْهُ مُوَالِيًا فِيهِ مُعَادِيًا فِيهِ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مُمْتَنِعًا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَالْخَوْفُ مِنْهُ وَالرَّجَاءُ لَهُ وَالْمُوَالَاةُ فِيهِ وَالْمُعَادَاةُ فِيهِ وَالطَّاعَةُ لِأَمْرِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ إلَهِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِقْرَارُهُ بِأُلُوهِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مَا سِوَاهُ يَتَضَمَّنُ إقْرَارَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَحِّدًا لِلَّهِ.(٤)

وَشَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَنْ لَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ وَلَا اسْتِعَانَتُهُ بِاَللَّهِ بَلْ يَعْبُدُ غَيْرَهُ وَيَسْتَعِينُ غَيْرَهُ، وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ الْوَجْهَيْنِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ شِرْكُهُ بِالشَّيَاطِينِ كَأَصْحَابِ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَيَفْعَلُونَ مَا تُحِبُّهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ، وَيَدْعُونَهُ بِأَدْعِيَةٍ تُحِبُّهَا الشَّيَاطِينُ، وَيُعَزِّمُونَ بِالْعَزَائِمِ الَّتِي تُطِيعُهَا

---

(١) الشورى: الآية ١١.
(٢) سبأ: الآية ٢٣.
(٣) البقرة: الآية ٢٥٥.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص ٣٦٧)

الشَّيَاطِينُ مِمَّا فِيهَا إشْرَاكٌ بِاَللَّهِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ. وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الْخَوَارِقِ مِمَّا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَحْوَالِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الرَّابِعُ فَهُمْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَلَمْ يَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ وَلَمْ يَتَوَكَّلُوا إلَّا عَلَيْهِ. وَقَوْلُ الْمَكْرُوبِ: ﴿لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ﴾ قَدْ يَسْتَحْضِرُ فِي ذَلِكَ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ دُونَ الْآخَرِ، فَمَنْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ النِّعْمَةَ اسْتَحْضَرَ التَّوْحِيدَ فِي النَّوْعَيْنِ، فَإِنَّ الْمَكْرُوبَ هِمَّتُهُ مُنْصَرِفَةٌ إلَى دَفْعِ ضُرِّهِ وَجَلْبِ نَفْعِهِ، فَقَدْ يَقُولُ: "لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ" مُسْتَشْعِرًا أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ غَيْرُكَ وَلَا يَأْتِي بِالنِّعْمَةِ إلَّا أَنْتَ، فَهَذَا مُسْتَحْضِرٌ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَمُسْتَحْضِرٌ تَوْحِيدَ السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، مُعْرِضٌ عَنْ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَأْمُرُ بِهِ، وَهُوَ أَلَّا يَعْبُدَ إلَّا إيَّاهُ وَلَا يَعْبُدُهُ إلَّا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَمَنْ اسْتَشْعَرَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ﴾ كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ وَكَانَ مُمْتَثِلًا قَوْلَهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

ثُمَّ إنْ كَانَ مَطْلُوبُهُ مُحَرَّمًا أَثِمَ وَإِنْ قُضِيَتْ حَاجَتُهُ، وَإِنْ كَانَ طَالِبًا مُبَاحًا لِغَيْرِ قَصْدِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ لَمْ يَكُنْ آثِمًا وَلَا مُثَابًا، وَإِنْ كَانَ طَالِبًا مَا يُعِينُهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ لِقَصْدِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مُثَابًا مَأْجُورًا، وَهَذَا مِمَّا يُفَرَّقُ بِهِ بَيْنَ الْعَبْدِ الرَّسُولِ وَخُلَفَائِهِ وَبَيْنَ النَّبِيِّ الْمَلِكِ، فَإِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي لَا يَفْعَلُ إلَّا مَا أُمِرَ بِهِ فَفِعْلُهُ كُلُّهُ عِبَادَةٌ لِلَّهِ، فَهُوَ عَبْدٌ مَحْضٌ مُنَفِّذٌ أَمْرَ مُرْسِلِهِ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: {إنِّي وَاَللَّهِ لَا أُعْطِي أَحَدًا وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ}(١) وَهُوَ لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ: {لَا أُعْطِي أَحَدًا وَلَا أَمْنَعُ} إفْرَادَ اللَّهِ بِذَلِكَ قَدَرًا وَكَوْنًا فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقِينَ يُشَارِكُونَهُ فِي هَذَا فَلَا يُعْطِي أَحَدًا وَلَا يَمْنَعُ إلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ إفْرَادَ اللَّهِ بِذَلِكَ شَرْعًا وَدِينًا، أَيْ لَا أُعْطِي إلَّا مَنْ أُمِرْتُ بِإِعْطَائِهِ وَلَا أَمْنَعُ إلَّا مَنْ أُمِرْتُ بِمَنْعِهِ، فَأَنَا مُطِيعٌ لِلَّهِ فِي إعْطَائِي وَمَنْعِي فَهُوَ يُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ وَالْفَيْءَ وَالْغَنَائِمَ كَمَا يُقَسِّمُ الْمَوَارِيثَ بَيْنَ أَهْلِهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِهَذِهِ الْقِسْمَةِ.(٢)

وَأَيْضًا فَإِنَّ التَّوَكُّلَ هُوَ مَحْبُوبٌ لِلَّهِ مُرْضٍ لَهُ مَأْمُورٌ بِهِ دَائِمًا، وَمَا كَانَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ مُرْضِيًا لَهُ مَأْمُورًا بِهِ دَائِمًا لَا يَكُونُ مِنْ فِعْلِ الْمُقْتَصِدِينَ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَجْوِبَةٍ عَنْ قَوْلِهِمْ: الْمُتَوَكِّلُ يَطْلُبُ حُظُوظَهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إنَّ الْأُمُورَ قَدْ فُرِغَ مِنْهَا فَهَذَا نَظِيرُ مَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ فِي الدُّعَاءِ أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ إنْ

---

(١) رواه البخاري حديث ٣١١٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٧٢)

كَانَ مُقَدَّرًا فَلَا حَاجَةَ إلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُقَدَّرًا لَمْ يَنْفَعْ الدُّعَاءُ، وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْوَالِ شَرْعًا وَعَقْلًا.[١]

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: التَّوَكُّلُ وَالدُّعَاءُ لَا يُجْلَبُ بِهِ مَنْفَعَةٌ وَلَا يُدْفَعُ بِهِ مَضَرَّةٌ وَإِنَّمَا هُوَ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ، وَإِنَّ حَقِيقَةَ التَّوَكُّلِ بِمَنْزِلَةِ حَقِيقَةِ التَّفْوِيضِ الْمَحْضِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمَشَايِخِ فَهُوَ غَلَطٌ أَيْضًا. وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إنَّ الدُّعَاءَ إنَّمَا هُوَ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ. فَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَمَا أَشْبَهَهَا يَجْمَعُهَا أَصْلٌ وَاحِدٌ: وَهُوَ أَنَّ هَؤُلَاءِ ظَنُّوا أَنَّ كَوْنَ الْأُمُورِ مُقَدَّرَةً مَقْضِيَّةً يَمْنَعُ أَنْ تَتَوَقَّفَ عَلَى أَسْبَابٍ مُقَدَّرَةٍ، أَيْضًا تَكُونُ مِنْ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُقَدِّرُ الْأُمُورَ وَيَقْضِيهَا بِالْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا مُعَلَّقَةً بِهَا مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِ أَفْعَالِهِمْ؛ وَلِهَذَا كَانَ طَرْدُ قَوْلِهِمْ يُوجِبُ تَعْطِيلَ الْأَعْمَالِ بِالْكُلِّيَّةِ. وَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ مَرَّاتٍ فَأَجَابَ عَنْهُ كَمَا أَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: {قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعُلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ}[٢] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: {كُنَّا فِي جِنَازَةٍ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِالْمِخْصَرَةِ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنْ النَّارِ أَوْ الْجَنَّةِ إلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً. قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ لَيَكُونَنَّ إلَى السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ لَيَكُونَنَّ إلَى الشَّقَاوَةِ. قَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فييسرون لِلسَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فييسرون لِلشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾}[٣] أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ فَقِيلَ: {يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْت أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا وَرُقًى نسترقي بِهَا وَتُقًى نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا؟ فَقَالَ: هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ}[٤] وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ تَقَدُّمَ الْعِلْمِ وَالْكِتَابِ بِالسَّعِيدِ وَالشَّقِيِّ لَا يُنَافِي أَنْ تَكُونَ سَعَادَةُ هَذَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَشَقَاوَةُ هَذَا بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَكَذَلِكَ يَكْتُبُهَا، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ السَّعِيدَ يَسْعَدُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالشَّقِيَّ يَشْقَى بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، فَمَنْ كَانَ سَعِيدًا يُيَسَّرُ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَقْتَضِي السَّعَادَةَ، وَمَنْ كَانَ شَقِيًّا يُيَسَّرُ لِلْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَقْتَضِي الشَّقَاوَةَ، وَكِلَاهُمَا مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ وَهُوَ مَا يَصِيرُ إلَيْهِ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ الْعَامَّةِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٤٨)
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

خَلَقَهُمْ﴾[١] وَأَمَّا مَا خُلِقُوا لَهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرِضَاهُ وَهُوَ إرَادَتُهُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي أُمِرُوا بِمُوجِبِهَا فَذَلِكَ مَذْكُورٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]

وَالْمَقْصُودُ هُنَا[٣]: أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْحَسَنَةُ مِنْ إحْسَانِهِ تَعَالَى وَالْمَصَائِبُ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَتْ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَجَبَ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَشْكُرَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَأَنْ يَسْتَغْفِرَهُ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَأَلَّا يَتَوَكَّلَ إلَّا عَلَيْهِ وَحْدَهُ، فَلَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إلَّا هُوَ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ: تَوْحِيدَهُ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ وَالشُّكْرَ لَهُ وَحْدَهُ وَالِاسْتِغْفَارَ مِنْ الذُّنُوبِ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُهَا فِي الصَّلَاةِ، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ يَقُولُ: {رَبَّنَا وَلَك الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْت مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ -أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ- أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَك عَبْدٌ}[٤] فَهَذَا حَمْدٌ وَهُوَ شُكْرٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَبَيَانٌ أَنَّ حَمْدَهُ أَحَقُّ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: {اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْت وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك الْجَدُّ} وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِوَحْدَانِيَّتِهِ: لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: خَلْقًا وَقَدَرًا وَبِدَايَةً وَهِدَايَةً. هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ. لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَلِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ: شَرْعًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا. وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ مُلْكًا وَعَظَمَةً وَبَخْتًا وَرِيَاسَةً فِي الظَّاهِرِ أَوْ فِي الْبَاطِنِ كَأَصْحَابِ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ {فَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك الْجَدُّ} أَيْ لَا يُنْجِيهِ وَلَا يُخَلِّصُهُ مِنْ سُؤَالِك وَحِسَابِك حَظُّهُ وَعَظَمَتُهُ وَغِنَاهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {لَا يَنْفَعُهُ مِنْك} وَلَمْ يَقُلْ "لَا يَنْفَعُهُ عِنْدَك" فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ ذَلِكَ أَوْهَمَ أَنَّهُ لَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَيْك لَكِنْ قَدْ لَا يَضُرُّهُ، فَيَقُولُ صَاحِبُ الْجَدِّ: إذَا سَلِمْت مِنْ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ فَمَا أُبَالِي، كَالَّذِينَ أُوتُوا النُّبُوَّةَ وَالْمُلْكَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مِنْ السُّعَدَاءِ، فَقَدْ يَظُنُّ ذُو الْجَدِّ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ -أَنَّهُ كَذَلِكَ، فَقَالَ: {وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك} ضَمَّنَ "يَنْفَعُ" مَعْنَى "يُنْجِي وَيُخَلِّصُ" فَبَيَّنَ أَنْ جَدَّهُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ الْعَذَابِ، بَلْ يَسْتَحِقُّ بِذُنُوبِهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ أَمْثَالُهُ وَلَا يَنْفَعُهُ جَدُّهُ مِنْك فَلَا يُنَجِّيهِ وَلَا يُخَلِّصُهُ، فَتَضَمَّنَ هَذَا الْكَلَامَ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقَ قَوْلِهِ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... فَقَوْلُهُ: {لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْت} تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي يَقْتَضِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يُسْأَلُ وَيُدْعَى وَيُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَدَلِيلٌ عَلَيْه، كَمَا يُحْتَجُّ بِهِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ.

---

(١) هود: الآية ١١٩.
(٢) الذاريات: الآية ٥٦.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج٣/ ص٢٨٨)
(٤) رواه مسلم حديث ٤٧٧.

١٧- نصب المحتسبين الكمائنَ للكهّان واختبارهم:

وقد أخذنا ذلك من قول شيخ الإسلام(١): فَصْلٌ: وَالْمُؤْمِنُ مُحْتَاجٌ إلَى امْتِحَانِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصَاحِبَهُ وَيُقَارِنَهُ بِنِكَاحِ وَغَيْرِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾(٢) الْآيَةُ. وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي زَنَى بِهَا الرَّجُلُ فَإِنَّهُ لَا يَتَزَوَّجُ بِهَا إلَّا بَعْدَ التَّوْبَةِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْآثَارُ، لَكِنْ إذَا أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَهَا هَلْ هِيَ صَحِيحَةُ التَّوْبَةِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ الْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَد: أَنَّهُ يُرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَإِنْ أَجَابَتْهُ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهَا وَإِنْ لَمْ تُجِبْهُ فَقَدْ تَابَتْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هَذَا الِامْتِحَانُ فِيهِ طَلَبُ الْفَاحِشَةِ مِنْهَا وَقَدْ تَنْقُضُ التَّوْبَةَ وَقَدْ تَأْمُرُهُ نَفْسُهُ بِتَحْقِيقِ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَيُزَيِّنُ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ذَلِكَ، وَلَا سِيَّمَا إنْ كَانَ يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَهُ مَعَهَا فِعْلُ الْفَاحِشَةِ مَرَّاتٍ وَذَاقَتْهُ وَذَاقَهَا، فَقَدْ تَنْقُضُ التَّوْبَةَ وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا أَرَادَهُ مِنْهَا. وَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ قَالَ: الْأَمْرُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ امْتِحَانُهَا لَا يُقْصَدُ بِهِ نَفْسُ الْفِعْلِ، فَلَا يَكُونُ أَمْرًا بِمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَيُمْكِنُهُ أَنْ لَا يَطْلُبَ الْفَاحِشَةَ، بَلْ يُعَرِّضُ بِهَا وَيَنْوِي شَيْئًا آخَرَ، وَالتَّعْرِيضُ لِلْحَاجَةِ جَائِزٌ بَلْ وَاجِبٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ. وَأَمَّا نَقْضُهَا تَوْبَتَهَا فَإِذَا جَازَ أَنْ تَنْقُضَ التَّوْبَةَ مَعَهُ جَازَ أَنْ تَنْقُضَهَا مَعَ غَيْرِهِ، وَالْمَقْصُودُ أَنْ تَكُونَ مُمْتَنِعَةً مِمَّنْ يُرَاوِدُهَا فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مُمْتَنِعَةً مِنْهُ لَمْ تَكُنْ مُمْتَنِعَةً مِنْ غَيْرِهِ، وَأَمَّا تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُ الْفِعْلَ فَهَذَا دَاخِلٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ الْخَيْرِ يَجِدُ فِيهِ مَحَبَّتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُصَاحِبَ الْمُؤْمِنَ أَوْ أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يُصَاحِبَ أَحَدًا، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْهُ الْفُجُورُ وَقِيلَ: إنَّهُ تَابَ مِنْهُ أَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقُولًا عَنْهُ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا، فَإِنَّهُ يَمْتَحِنُهُ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ بِرُّهُ أَوْ فُجُورُهُ وَصِدْقُهُ أَوْ كَذِبُهُ، وَكَذَلِكَ إذَا أَرَادَ أَنْ يُوَلِّيَ أَحَدًا وِلَايَةً امْتَحَنَهُ، كَمَا أَمَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ غُلَامَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ ابْنَ أَبِي مُوسَى لَمَّا أَعْجَبَهُ سَمْتُهُ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَلِمْت مَكَانِي عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَكَمْ تُعْطِينِي إذَا أَشَرْت عَلَيْهِ بِوِلَايَتِك؟ فَبَذَلَ لَهُ مَالًا عَظِيمًا فَعَلِمَ عُمَرُ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَصْلُحُ لِلْوِلَايَةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَكَذَلِكَ الصِّبْيَانُ وَالْمَمَالِيكُ الَّذِينَ عُرِفُوا أَوْ قِيلَ عَنْهُمْ الْفُجُورُ وَأَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَشْتَرِيَهُ بِأَنَّهُ يَمْتَحِنُهُ، فَإِنَّ الْمُخَنَّثَ كَالْبَغِيِّ وَتَوْبَتُهُ كَتَوْبَتِهَا. وَمَعْرِفَةُ أَحْوَالِ النَّاسِ تَارَةً تَكُونُ بِشَهَادَاتِ النَّاسِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ.

١٨- يقين المحتسب بكفاية الله له ودفعه عنه:

فَالْمُسْلِمُ الْمُتَّبِعُ لِلرَّسُولِ، اللَّهُ تَعَالَى حَسْبُهُ وَكَافِيهِ وَهُوَ وَلِيُّهُ حَيْثُ كَانَ وَمَتَى كَانَ.(٣)

١٩- التنجيم باطل عقلاً محرم شرعاً:(٤)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٣/ ص ٣٦٦)
(٢) الممتحنة: الآية ١٠.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٤/ ص ١١٨)
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٦/ ص٧٤)

فَالْقَوْلُ بِالْأَحْكَامِ النُّجُومِيَّةُ بَاطِلٌ عَقْلًا مُحَرَّمٌ شَرْعًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ حَرَكَةَ الْفَلَكِ وَإِنْ كَانَ لَهَا أَثَرٌ لَيْسَتْ مُسْتَقِلَّةً بَلْ تَأْثِيرُ الْأَرْوَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ أَشَدُّ مِنْ تَأْثِيرِهِ، وَكَذَلِكَ تَأْثِيرُ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ تَأْثِيرُ قُلُوبِ الْآدَمِيِّينَ بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمُؤَثِّرَاتِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَالصَّابِئَةِ الْمُشْتَغِلِينَ بِأَحْكَامِ النُّجُومِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، فَهُوَ فِي الْأَمْرِ الْعَامِّ جُزْءُ السَّبَبِ وَإِنْ فَرَضْنَا أَنَّهُ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ أَوْ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِتَمَامِ السَّبَبِ، فَالْعِلْمُ بِهِ غَيْرُ مُمْكِنٍ لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِ وَإِنْ فُرِضَ الْعِلْمُ بِهِ فَمَحَلُّ تَأْثِيرِهِ لَا يَنْضَبِطُ؛ إذْ لَيْسَ تَأْثِيرُ خُسُوفِ الشَّمْسِ فِي الْإِقْلِيمِ الْفُلَانِيِّ بِأَوْلَى مِنْ الْإِقْلِيمِ الْآخَرِ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّهُ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ قَدْ حُصِّلَ بِشُرُوطِهِ وَعُلِمَ بِهِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا يَصْعُرُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ يُعَارِضُ مُقْتَضَى ذَلِكَ السَّبَبِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْعِتْقِ وَالصَّدَقَةِ عِنْدَ الْخُسُوفِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ يَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَالْمُنَجِّمُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ حَتَّى قَالَ كَبِيرُهُمْ "بَطْلَيْمُوسُ": ضَجِيجُ الْأَصْوَاتِ فِي هَيَاكِلِ الْعِبَادَاتِ بِفُنُونِ الدَّعَوَاتِ مِنْ جَمِيعِ اللُّغَاتِ يُحَلِّلُ مَا عَقَدْته الْأَفْلَاكُ الدَّائِرَاتُ، فَصَارَ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ إنْ حَدَثَ سَبَبُ خَيْرٍ كَانَ ذَلِكَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ يُقَوِّيهِ وَيُؤَيِّدُهُ، وَإِنْ حَدَثَ سَبَب شَرٍّ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ يَدْفَعُهُ، ًكَذَلِكَ اسْتِخَارَةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ إذَا هَمَّ بِأَمْرٍ، كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: {إذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ} الْحَدِيث.[1] فَهَذِهِ الِاسْتِخَارَةُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ خَالِقِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ الطَّالِعَ فِيمَا يُرِيدُ فِعْلَهُ، فَإِنَّ الِاخْتِيَارَ غَايَتُهُ تَحْصِيلُ سَبَبٍ وَاحِدٍ مِنْ أَسْبَابِ النُّجْحِ إنْ صَحَّ، وَالِاسْتِخَارَةُ أَخْذٌ لِلنُّجْحِ مِنْ جَمِيعِ طُرُقِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْخِيَرَةَ: فَإِمَّا أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَ الْإِنْسَانِ وَيُيَسِّرَ الْأَسْبَابَ، أَوْ يُعَسِّرَهَا وَيَصْرِفَهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: {مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ} الْحَدِيثَ[2] رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْعَرَّافُ يَعُمُّ الْمُنَجِّمَ وَغَيْرَهُ إمَّا لَفْظًا وَإِمَّا مَعْنًى، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَاد مَا زَادَ}[3] رَوَاهُ أَبُو داود وَابْنُ ماجه. فَقَدْ تَبَيَّنَ تَحْرِيمُ الْأَخْذِ بِأَحْكَامِ النُّجُومِ عِلْمًا أَوْ عَمَلًا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ أَنَّ ذَلِكَ أَيْضًا مُتَعَذِّرٌ فِي الْغَالِبِ؛ لِأَنَّ أَسْبَابَ الْحَوَادِثِ وَشُرُوطَهَا وَمَوَانِعَهَا لَا تُضْبَطُ بِضَبْطِ حَرَكَةِ بَعْضِ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا يَتَّفِقُ الْإِصَابَةُ فِي ذَلِكَ إذَا كَانَ بَقِيَّةُ الْأَسْبَابِ مَوْجُودَةً وَالْمَوَانِعُ مُرْتَفِعَةً، لَا أَنَّ ذَلِكَ عَنْ دَلِيلٍ مُطَّرِدٍ لَازِمًا أَوْ غَالِبًا. وَحُذَّاقُ الْمُنَجِّمِينَ يُوَافِقُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَعْرِفُونَ أَنَّ طَالِعَ الْبِلَادِ لَا يَسْتَقِيمُ الْحُكْمُ بِهِ غَالِبًا لِمُعَارَضَةِ طَالِعِ لِوَقْتِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْمَوَانِعِ، وَيَقُولُونَ: إنَّ الْأَحْكَامَ مَبْنَاهَا عَلَى الْحَدْسِ وَالْوَهْمِ. فَنُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ قَوْلَهُمْ فِي رُؤْيَةِ الْهِلَالِ وَفِي الْأَحْكَامِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ يُعْلَمُ بِأَدِلَّةِ الْعُقُولِ امْتِنَاعُ ضَبْطِ ذَلِكَ، وَيُعْلَمُ بِأَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ تَحْرِيمُ ذَلِكَ وَالِاسْتِغْنَاءُ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

عَمَّا نَظُنُّ مِنْ مَنْفَعَتِهِ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ: إنَّ كَلَامَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ عُلُومٍ صَادِقَةٍ لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا، وَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مَنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَبَيْنَ ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ لَا ثِقَةَ بِهَا وَأَنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ. وَلَقَدْ صَدَقَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْحَاسِبَ إذَا قَتَلَ نَفْسَهُ فِي حِسَابِ الدَّقَائِقِ وَالثَّوَانِي كَانَ غَايَتُهُ مَا لَا يُفِيدُ، وَإِنَّمَا تَعِبُوا عَلَيْهِ لِأَجْلِ الْأَحْكَامِ وَهِيَ ظُنُونٌ كَاذِبَةٌ. أَمَّا الْكَلَامُ فِي الشَّرْعِيَّاتِ فَإِنْ كَانَ عِلْمًا كَانَ فِيهِ مَنْفَعَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ ظَنًّا مِثْلَ الْحُكْمِ بِشَهَادَةِ الشَّاهِدَيْنِ أَوْ الْعَمَلِ بِالدَّلِيلِ الظَّنِّيِّ الرَّاجِحِ فَهُوَ عَمَلٌ بِعِلْمِ، وَهُوَ ظَنٌّ يُثَابُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ. آخَرُ مَا وُجِدَ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

٢٠- وجوب إدراك الفرق بين النبي والكاهن:

قد مر فصل خاص بهذا فراجعه.

٢١- الفرق بين أخبار الأنبياء وأخبار الكهّان:

وما تخبر به الأنبياء من الغيب، لا يقدر عليه إنس ولا جنّ، ولا كذب فيه. وأخبار الكهان وغيرهم كذبها أكثر من صدقها، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب، فأخبار الجن لا بد أن تكذب، فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيّب كان من جنس الكهان، وكذبوه في بعض ما يخبرون به وإن كانوا صادقين في البعض.

٢٢- خوارق الشياطين سببها الشرك والظلم:

وليس شيءٌ من ذلك من معجزات الأنبياء ولا كرامات الصالحين؛ فإن ذلك إنما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة. وهو لو كان مباحاً لم يجز أن يفعل بهذا السبب، فكيف إذا كان في نفسه ظلماً محرماً، لكونه من الظلم والفواحش، ونحو ذلك؟

وقد يُخبرون بأمور غائبة ممّا رأوه وسمعوه، ويدخلون في جوف الإنسان؛ قال النبي ﷺ: {إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم}(١) لكن إنّما سلطانهم كما قال الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(٢)

٢٣- الكهانة إنما تظهر في المواضع التي يخفى فيها التوحيد الحق:

والكهانة كانت ظاهرة كثيرةً بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلّت. ثمّ إنها تظهر في المواضع التي يخفى فيها أثر التوحيد.

(١) رواه مسلم حديث ٢١٧٤.
(٢) النحل: الآية ٩٩.

٢٤- فقه إخبار المسيح بالغيب وحماية العقيدة:

والمسيح –عليه السلام– كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون ممّا ذُكر اسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به؛ ولهذا من تكون أخباره عن شياطين تُخبره، لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد وأهل القلوب المنورة بنور الله، بل يهرب منهم، ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم. وهذه الأحوال الشيطانية تبطل أو تضعف، إذا ذُكر الله وتوحيده، وقرئت قوارع القرآن، لا سيما آية الكرسي؛ فإنها تُبطل عامّة هذه الخوارق الشيطانية، وأمّا آيات الأنبياء والأولياء فتقوى بذكر الله وتوحيده.

٢٥- حكمة الله تمنع ظهور المعجزات على يد الكذاب:

٢٦- وجوب معرفة مراتب الخوارق كشفا وغيره:

قال شيخ الإسلام: مراتب الخوارق ثلاثة: آيات الأنبياء، ثمّ كرامات الصالحين، ثمّ خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلاّل من المسلمين.

٢٧- الكذب يناقض النبوة:

والكذب يُناقض النبوة، فلا يجوز أن يُوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها، فإنّ الكفر والسحر والكهانة، كلّ هذا يناقض النبوّة لا يجتمع هو والنبوة.

٢٨- غيوب الكهّان معروفة وله نظائر:

والمقصود أنّ ما يُخبر به غير النبي من الغيب معتادٌ معروفٌ نظيره من الجن والإنس، فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾

٢٩- خوارق الكهان وأخبارهم آيات على الكفر:

وما يأتي به السحرة والكهّان يمتنع أن يكون آيةً لنبيّ، بل هو آية على الكفر، فكيف يكون آيةً للنبوّة وهو مقدور للشياطين؟ وكذلك النبوّة لها آثار مستلزمة لها بدون إخبار النبيّ بأنّه نبيّ، وكذب المتنبي الذي يُزيّن له الشيطان أن يقول: إنّه نبيّ، له آثار تستلزم انتفاء النبوة وأنّه كاذبٌ: إمّا عمداً، وإمّا أنّ الشيطان قد لبّس عليه.

٣٠- التعريف بأولياء الله حقاً:

قال شيخ الإسلام: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْته مِنْ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ الِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَعْصُومٌ يَسُوغُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ اتِّبَاعُ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّة، هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا فَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِمْ، بَلْ إمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرِطًا فِي الْجَهْلِ. وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْمَشَايِخِ كَقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي سُلَيْمَانَ الداراني: إنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ الْقَوْمِ فَلَا أَقْبَلُهَا إلَّا بِشَاهِدَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَالَ أَبُو

عَمْرِو بْنِ نجيد: كُلُّ وَجْدٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى:

أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ.

وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ.

وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَأَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، فَكَيْفَ إذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؟ وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ عُمْدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مُكَاشَفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ.

٣١- الكرامة الحقيقية هي لزوم الاستقامة:

وَإِنَّمَا غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ، فَلَمْ يُكْرِمْ اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَيَزِيدُهُ مِمَّا يُقَرِّبُهُ إلَيْهِ وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَتَهُ.

٣٢- بيان سبب خدمة الجني للإنسي:

فَإِنَّهُ لَا يَخْدِمُ الْإِنْسِيَّ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ إلَّا لِمَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ مِنْ الْإِنْسِيِّ بِأَنْ يُطِيعَهُ الْإِنْسِيُّ فِي بَعْضِ مَا يُرِيدُهُ: إمَّا فِي شِرْكٍ وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ وَإِمَّا فِي أَكْلِ حَرَامٍ وَإِمَّا فِي قَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ. فَالشَّيَاطِينُ لَهُمْ غَرَضٌ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَهُمْ لَذَّةٌ فِي الشَّرِّ وَالْفِتَنِ، يُحِبُّونَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُمْ، وَهُمْ يَأْمُرُونَ السَّارِقَ أَنْ يَسْرِقَ وَيَذْهَبُونَ إلَى أَهْلِ الْمَالِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ سَرَقَ مَتَاعَكُمْ.

وَأَمَّا مَنْ سَلَكَ فِي دَفْعِ عَدَاوَتِهِمْ مَسْلَكَ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ بَلْ هُوَ مُطِيعٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ: فِي نَصْرِ الْمَظْلُومِ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسِ عَنْ الْمَكْرُوبِ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شِرْكٌ بِالْخَالِقِ وَلَا ظُلْمٌ لِلْمَخْلُوقِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا تُؤْذِيهِ الْجِنُّ إمَّا لِمَعْرِفَتِهِمْ بِأَنَّهُ عَادِلٌ، وَإِمَّا لِعَجْزِهِمْ عَنْهُ.

وَإِنْ كَانَ الْجِنُّ مِنْ الْعَفَارِيتِ وَهُوَ ضَعِيفٌ فَقَدْ تُؤْذِيهِ، فَيَنْبَغِي لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَحْتَرِزَ بِقِرَاءَةِ الْعَوْذِ مِثْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَالْمُعَوِّذَاتِ وَالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا يُقَوِّي الْإِيمَانَ وَيُجَنِّبُ الذُّنُوبَ الَّتِي بِهَا يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يَنْصُرَ الْعَدُوَّ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فَوْقَ قُدْرَتِهِ فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا، فَلَا يَتَعَرَّضُ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ.

٣٣- في العلم النبوي الخير كله وبه كشف كل ما يحتاج إليه:

فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعَقْلَ وَالدِّينَ يَقْتَضِيَانِ أَنَّ جَانِبَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ أَحَقُّ بِكُلِّ تَحْقِيقٍ وَعِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَإِحَاطَةٍ بِأَسْرَارِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا.

٣٤- وجوب معرفة خطورة الخلوات البدعية وأنها سبب لتنزلات شيطانية كهانية:

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَحُدُّ لِلْخَلْوَةِ مَكَانًا وَلَا زَمَانًا بَلْ يَأْمُرُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَخْلُوَ فِي الْجُمْلَةِ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ مَقْصُودُنَا إلَّا جَمْعَ النَّفْسِ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ، حَتَّى يَقُولَ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِك: يَا حَيُّ وَقَوْلِك يَا جَحْشُ. وَهَذَا مِمَّا قَالَهُ لِي شَخْصٌ مِنْهُمْ وَأَنْكَرْت ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ أَنْ تَجْتَمِعَ النَّفْسُ حَتَّى يَتَنَزَّلَ عَلَيْهَا الشَّيْطَانُ.(١)

الَّذِي قَدْ عُلِمَ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ أَنَّهُ إذَا فَرَّغَ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَّتْ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، ثُمَّ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ كَمَا كَانَتْ تَتَنَزَّلُ عَلَى الْكُهَّانِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إنَّمَا يَمْنَعُهُ مِنْ الدُّخُولِ إلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ مَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، فَإِذَا خَلَا مِنْ ذَلِكَ تَوَلَّاهُ الشَّيْطَانُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾

هذا آخر ما تيسر انتقاؤه من هذه القواعد المهمة التي هي ركائز المحتسب على الكهانة والكهان وعلى الشياطين وأوليائهم، انتقيناها من كلام شيخ الإسلام، ومنها قواعد رأينا أنّ كلام شيخ الإسلام فيها يأتي على الكهانة من أساسها، وأمور رأينا أنّ حصول الخير والنفع والكشف والهداية في مستقبل الأيام يكون بها، والله نسأل الهداية والسداد والتوفيق للصواب والرشاد.

وكتب الراجيان عفو مولاهما وبره وإحسانه

أبو فاطمة عادل بن طاهر المقبل — أبو جويرية محمد نورالدين

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ٢/ ص٣٨٣)

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فقد أعان المولى الجليل وتفضل علينا بإتمام هذا الكتاب الذي نسأله أن يتقبله بقبول حسن، وأن يرزقنا فيه الهدى والسداد، سعينا فيه إلى إبراز الجهود الاحتسابية لشيخ الإسلام على الكهانة والكهان وعلى الشياطين وأعوانهم، بينّا فيه خطر الكهانة وأنها شرك بالله تعالى، وتعبد للشياطين وتعليق القلوب بهم، ودعاؤهم ورجاؤهم من دون الله، وهي ادعاء لما تفرد الله به من علم الغيب، وقد ضممنا إلى احتساب شيخ الإسلام ما يخدم الأمر ويجليه، لقد ذكرنا فيه بحول الله قواصما من قواصم الكهانة، ورصدنا فيه تاريخ الكهانة الموغل في القدم والمنتشر في أرض الله بين العباد، إلا من رحم الله على اختلاف تفكيرهم ومستواهم العلمي والاجتماعي، كما عرضنا موقف الفرق منها واشتغال الفرق بالكهانة، والموضوع شاسع متعدد الجوانب يحتاج كل فصل بل كل مبحث إلى دراسة مستقلة، فالحمد الله الذي وفق وأعان، ونسأله أن يجبر خاطرنا بقبوله وجعله في موازيننا خالصا لوجهه، حجابا من النار ومعراجا إلى مرافقة نبيه ﷺ في أعلى جنان الخلد، وأن يكتب لنا فيه أجر المجاهدين بالكتاب الكريم والسنة الغراء، المرابطين على ثغور هذا الدين، الحماة لاعتقاد السلف أصحاب الحديث، وأن يجعله وسيلة لصلاح أنفسنا وذرياتنا وأزواجنا وأهلنا وأحبابنا.

المؤلفان

أبو فاطمة، أبو جويرية

وكان الفراغ منه في يوم السبت آخر يوم من رمضان المبارك لعام ١٤٤٦ من هجرة المصطفى الهادي، ختم الله لنا ولكم بالصالحات.

المراجع

١- إرواء الغليل

٢- أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: نخبة من العلماء، الطبعة: الأولى، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢١هـ.

٣- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة: حافظ بن أحمد الحكيمي، تحقيق: حازم القاضي الطبعة: الثانية، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢٢هـ.

٤- أعلام النبوة: الماوردي، ضبط الشيخ: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس —بيروت.

٥- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية: الحافظ عمر بن علي البزار، تحقيق: العلامة زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

٦- الأغاني: الأصفهاني.

٧- الأكملية لشيخ الإسلام

٨- التسعينية لشيخ الإسلام.

٩- أنواع العرافة وطرقها عند شيشرون، قراءة في الكتاب الأول من محاورة عن العرافة، د. عبد العزيز إمام محمود أحمد -كلية الآداب -جامعة المنصورة.

١٠- البحر المحيط لأبي حيان.

١١- البداية والنهاية: لابن كثير

١٢- تاريخ الإسلام: للذهبي

١٣- تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون.

١٤- تحذير الساجد للألباني.

١٥- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

١٦- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء بن كثير، تحقيق: سامي بن مُحَمَّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٧- تفسير الألوسي.

١٨- التمهيد لشرح كتاب التوحيد، الشيخ: صالح بن عبد العزيز بن مُحَمَّد بن إبراهيم آل الشيخ، الطبعة الأولى، دار التوحيد، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

١٩- التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام: د. توفيق الطويل، دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م.
٢٠- التوسل أنواعه وأحكامه: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي — بيروت، الطبعة: الثالثة، آلف بينها ونسقها: مُحَمَّد عيد العباسي.
٢١- الحيوان: للجاحظ.
٢٢- جامع البيان في تأويل القرآن: مُحَمَّد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر وأخيه محمود، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠ م.
٢٣- الجمعيات السرية: علي أدهم، دار المعارف، الطبعة الثالثة، سلسلة اقرأ.
٢٤- الدر المنثور
٢٥- ذيل مرآة الزمان
٢٦- ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب
٢٧- رسالة التوحيد: الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، الطبعة الأولى، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: ١٤١٧هـ.
٢٨- روضة الطالبين وعمدة المفتين: للنووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
٢٩- سحر الكهانة والإلهام والموسيقى في الشعر القديم.
٣٠- سنن أبي داود
٣١- سنن البيهقي
٣٢- سنن الترمذي
٣٣- سير أعلام النبلاء
٣٤- شذرات الذهب: لابن العماد
٣٥- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية: ابن أبي العز، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة دار التراث.
٣٦- صحيح الجامع.
٣٧- صحيح مسلم.
٣٨- صحيح النسائي.
٣٩- الصواعق المرسلة.
٤٠- طبقات المفسرين: للداودي
٤١- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: لابن عبد الهادي، تحقيق: طلعت بن فؤاد، الفروق الحديثة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٤٢- علم المكاشفة في إحياء علوم الدين دراسة نقدية: أ.د عبد الله بن دجين السهلي، دار كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.
٤٣- فوات الوفيات: للكتبي
٤٤- القواعد المثلى للعثيمين.
٤٥- القول السديد شرح كتاب التوحيد: للسعدي، الطبعة الثانية، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ.
٤٦- كتاب التوحيد: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الطبعة الرابعة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ.
٤٧- الكهانة: توفيق فهد التوزيع في العالم : شركة قدمس للنشر والتوزيع (ش م م)
٤٨- الكهان الجاهليون وبشائرهم بالنبي ﷺ: دراسة أدبية تاريخية: حسين أسود —ياسين جمول، بدون بيانات.
٤٩- مجموع فتاوى ابن تيمية، خرج أحاديثه: أحمد مُحَمَّد شعبان، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٥٠- المذاهب الحديثة المنحرفة: أ. حلمي القمص يعقوب.
٥١- مسند أحمد
٥٢- مشكاة المصابيح: مُحَمَّد بن عبد الله الخطيب التبريزي، الناشر: المكتب الإسلامي —بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٥—١٩٨٥، تحقيق: مُحَمَّد ناصر الدين الألباني.
٥٣- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، دار العلم للملايين -بيروت.
٥٤- موقف الإسلام من السحر الدكتوره حياة باأخضر.
٥٥- موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من آراء الفلاسفة ومنهجه: صالح بن غرم الله الغامدي.
٥٦- موقف شيشرون من الكهانة «دراسة تحليلية نقدية» أ. مصطفى رمضان مصطفى محمود. معيد بقسم الفلسفة -فلسفة يونانية -كلية الآداب -جامعة الزقازيق. مجلة الجمعية الفلسفية المصرية السنة الحادية والثلاثون -العدد الحادي والثلاثين.
٥٧- نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع: تأليف المستشرق الفرنسي/ هنري لا ووست، الكتاب الأول نشأة النظريات، ترجمة: مُحَمَّد عبد العظيم على، تقديم وتعليق: الدكتور مصطفى حلمي، دار الأنصار، الطبعة الأولى، رمضان ١٣٩٦ هـ-سبتمبر١٩٩٧م.

الفهرس


احتساب
شيخ الإسلام ابن تيمية